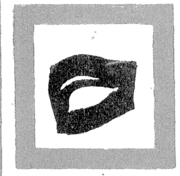








العـدد ٥٦   اكتوبر ١٩٦٩



مجلة

الفكر المعاصر

رئيس التحرير :

د . فؤاد زكريا

مستشارو التحرير :

د . أسامة الخولى
أنيس منصور
د . عبد الغفار مكاوى
د . فوزى منصور

سكرتير التحرير :

جلال العشرى

المشرف الفنى :

صفوت عباس

تصدر شهريا عن :
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر
٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة
ت: ٩٠١١٩٧/٩٠١٢٩٩/٩٠١٦٤٨

العدد
السادس والخمسون
أكتوبر ١٩٦٩

صفحة

تيارات فلسفية :

فكر اشتراكى :

كتب جديدة :

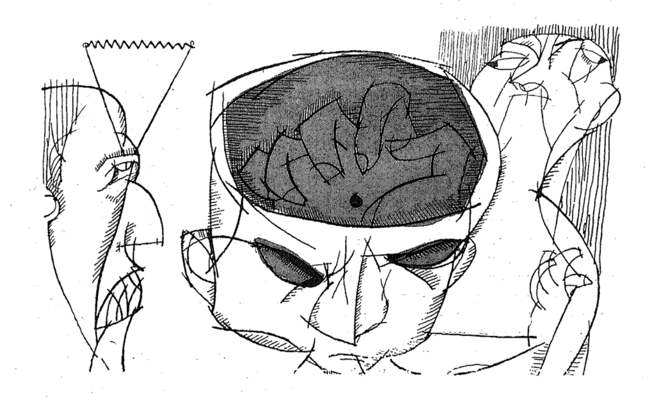
اتجاهات النقد الجديد :

ندوة الفكر :

تيارات فلسفية

الاشتراكية.. والقيم الروحية

د. فؤاد زكريا



فى أذهان كثير من المثقفين تصور للعلاقة بين الاشتراكية والقيم الروحية أود أن أعلن ، منذ بداية هذا المقال ، أننى أرفضه من أساسه ، بل اننى ماكتبت هذا المقال الا لكى أفنده وأثبت أن الاعتقــاد النظرى به ينطوى على اســـتحالات ومتناقضات عقلية ، على حين أن التطبيق العملى له يجر وراءه من التشتت فى السلوك ، والتردد والتعثر فى العزم والقصد ، مالا تملك أمة تسعى الى الأخذ بأسباب النهوض أن تترك نفســها فريسة له .

هذا التصور الذى أعترض عليه يمكن التعبير عنه ، فى صيغة موجزة ، بقولنا : ان الاشتراكية والقيم الروحية تسيران جنبا الى جنب حتى مرحلة معينة ، ثم تفترقان بعد ذلك . وبعبارة أخرى ، فالاشتراكية تظل غير متعارضة مع القيم الروحية مادامت معتدلة ، أما اذا تطرفت ، فانها ترفض هذه القيم الروحية ، ويفترق طريقاهما الى الأبد .

وتجد هذه الدعوى تأييدا قويا من ذلك الميل الطبيعى فى نفوسنا الى قبول شكل من أشكال « نظرية الوسط » التى وضعــها أرســطو فى

الاخلاق ، والتي تعبر عن نفسها في أمثال شعبية مثل ((**خير الأمور الوسط**)) . هذه النظرية تذهب الى أن الفضيلة وسط بين رذيلتين : كالشجاعة التي هي وسط بين الجبن والتهور . أي أن هناك خطا ممتدا ، يتميز بالاشتداد والتكثيف التدريجي لصفة ما ، وهذا الخط يبدأ من رذيلة وينتهي الى رذيلة ، بينما تقع الفضيلة في موقع ما عند الوسط أو بالقرب منه . وعلى ذلك فان الافراط في الفضيلة ، شأنه شأن التفريط فيها ، ينقلب الى رذيلة . وبهذا المعنى يكون الافراط في الاشتراكية ـ تبعا لهذا الرأي الشائع ـ رذيلة تؤدي الى ضياع القيم الروحية والتنكر لها .

ولعل أول ما ينبغي أن نشير اليه ، ونحن في معرض مناقشة هذه الدعوى ، أن مبدأ « خير الأمور الوسط » ليس مبدأ مطلق الصحة في كل الأحوال . ففي حالة فضائل معينة ، لا تكون الحالة المثلى على الاطلاق هي أن يكون لدينا من هذه الفضيلة قدر معقول فحسب . فهل الأفضل ، مثلا ، أن يكون المرء معتدلا في نزاهته أم مفرطا فيها ؟ وهل المجتمع الأمثل هو ذلك الذي يسوده قدر معقول من العدالة ، أم عدالة كاملة بلغت أقصى حدود « التطرف » ؟ وهل يعد الغش صفة يستحسن أن يكون لدى الانسان « قدر » منها ، مهما كان بسيطا ، أم أن التفريط الكامل في هذه الصفة أمر مستحب ؟ من الواضح أن « نظرية الوسط » لا تسري آليا على كل الفضائل ، وأن هناك صفات معينة يكون المرء أكمل من غيره لو أنه تحلى بأكبر قدر ، أو بأقل قدر منها .

وعلى الرغم من أن هذه المناقشة لا تتصل اتصالا كاملا بالموضوع الذي نعرض له في هذا المقال ، فان بلوغها بنا الى هذه النتيجة يمكن أن يكون مقدمة مفيدة غاية الفائدة ، تساعد على تحقيق الهدف الذي نرمي اليه . ذلك لأن الكثيرين منا يعتقدون أن مبدأ « خير الأمور الوسط » هو مبدأ يصدق بصفة آلية على كل شيء ، ولا يتصورون ان هناك « أمورا » معينة ينبغي على الانسان الا يكتفي فيها بالوسط . أوهم ، بتعبير آخر ، لا يدركون ان اتخاذ الموقف الوسط ، أو التزام جانب الاعتدال ، في امور معينة ، يعني مهادنة الشر والرذيلة ، والتخلي عن قدر كبير من الفضيلة ، هو ذلك القدر الذي نتركه جانبا بحجة أنه يمثل حد « التطرف » .

ولو نظرنا الى الاشتراكية بمعنى أنها «العدالة الاجتماعية» تظهر بوضوح أنها واحدة من تلك الامور التي لا يكفي فيها اتخاذ الموقف الوسط، اذ أننا جميعا ، دون شك ، نود أن يتحقق من العدالة الاجتماعية أعظم قدر يمكن تحقيقه ، ونحس بقصور سلوكنا لو أننا اكتفينا منها بحد « الاعتدال » وتعمدنا الا نحققها كاملة حتى لا نصل الى حد ((التطرف)) . فكيف اذن يقال ان هذا التحقيق الكامل لمطلب أساسي عزيز على الانسان ، يتعارض مع القيم الروحية ؟ وكيف شاع ـ بين كثير من مفكرينا العرب على وجه الخصوص ـ ذلك الاعتقاد الذي تصبح فيه الاشتراكية أشبه ما تكون بالخمر ، قليل منها يصلح « معدة » المجتمع ، وكثير منها يفسد المجتمع ويصيبه بعلل أولها فقدان الاحساس بأهمية القيم الروحية التي هي أسمى غاية يتطلع اليها البشر ؟

ان المرء لا يحتاج الى تفكير طويل لكي يدرك أن **هناك فئة من القائلين بالتعارض بين الاشتراكية ـ اذا تطرفت ـ وبين القيم الروحية ، لا تؤكد هذه الفكرة الا لأنها كارهة ، أصلا ، للاشتراكية .** هذه الفئة لا تستطيع أن تجهر بالعداء لمبدأ الاشتراكية حين يصبح هذا المبدأ سياسة رسمية للدولة ، فيكون الحل الذكي الذي تلجأ اليه هو أن تحد من نطاق الاشتراكية ما استطاعت الى ذلك سبيلا . وأبسط وسائل هذا الحد هو أن تؤكد اصرار « التطرف » ، وتقيم تعارضا مزيفا بينه وبين القيم التي يعتز بها المجتمع ، **وبذلك تضمن أن المبدأ الذي هي في صميمها كارهة له كراهية شديدة ، وان كانت غير معلنة ، قد ظل حبيس اطار محدود لا يخرج عنه** ، وتضمن في

الوقت ذاته أنها ، بدعوتها هذه الى تقييد المبدأ الذى تبغضه ، قد اتخذت مظهر المدافع المخلص الغيور عن أسمى ما يملكه الانسان من قيم .

ولكنى لا أود أن أتريث طويلا لمناقشة موقف أمثال هؤلاء المفكرين . ذلك لأن المعارضة الصريحة للاشتراكيه اشرف ، فى رأيى ، من ذلك الالتفاف من حولها بغيه طعنها من الخلف . والمعارض الصريح ، وان كان يرتكب خطأ عمليا أفدح ، يتسم على الاقل بمستوى اخلاقى أرفع من مستوى هؤلاء الاعداء المتنكرين فى ثياب الاصدقاء ، فضلا عن انه قابل للاقتناع اذا كان أمينا ، واذا لم تكن لعدائه اسباب خفيه مرتبطة بالمصالح الشخصية . ومن هنا فانى أود ان اتوجه بحديثى الى المعارضين الأمناء ، لا المنافقين ، وان اناقش معهم ذلك المبدا الذى يأخذونه قضية مسلما بصحتها ، مبدأ التعارض بين القيم الروحية وبين الاشتراكية ، اذا سارت حتى آخر مدى يمكن تصوره لها .

ما هى ((الروحانية)) ؟

ان قدرا كبيرا من سوء الفهم يرجع الى الافتقار الى الدقة فى تحديد معنى «الروحانية» . فالكثيرون يتصورون ان الروحانيه هى الاعتراف النظرى بعقيدة معينة ، واداء شعائرها وطقوسها . مثل هذا المعنى شكلى بحت ، وهو لا يمثل الا السطح الظاهرى مما تدل عليه الروحانية الصحيحة . وقد يظن من يعترف نظريا بمثل هذه العقيدة ، ويؤدى شعائرها ، أنه قد حقق بذلك القيم الروحية فى نفسه . ولكن هل من الصحيح أن مثل هذا المسلك يوفى القيم الروحية حقها ؟

ان أبسط تفكير يقنعنا بأن الروحانية هى ، قبل كل شىء ، جهاد وكفاح ومغالبة . وذلك الذى يقتصر على الاعتناق الشكلى للعقائد لم يكافح ولم يغالب شيئا . ولو وضعت مصالحه الحقيقية فى كفة ، وجوهر عقيدته فى كفة أخرى ، لسعى بكل قواه الى ترجيح الأولى . **على أن جانب الخطورة لا يتمثل فى الوجه الفردى لهذه الظاهرة ، بل يكمن فى وجهها الاجتماعى . ذلك لان المجتمع بدوره يقر مثل هذا السلوك ويعده أمرا طبيعيا لا غبار عليه .** خذ مثلا ذلك التاجر الذى يؤدى فروض الدين كلها كأحسن ما يكون الأداء ، ثم يعلم أن بضاعة مختزنة لديه قد شحت فى الأسواق ، فلا يتردد لحظة واحدة فى رفع سعرها ، مثل هذا السلوك الفردى ينطوى على تجاهل تام للروحانية الحقيقية ، **ولكن الأهم من ذلك أن المجتمع لا يجد فى هذا المسلك مأخذا .** فسلوك هذا التاجر ، فى نظر المجتمع ، مشروع ما لم يكن الأمر متعلقا بسلعة محددة السعر ، وهو فى نظر معارفه دليل على الفطنة وبعد النظر ، ولا تعارض بينه على الاطلاق وبين المظهر « الروحى » الخارجى الذى عرف به صاحبه بين الناس .

على أن هذا الفهم الباطل للروحانية قد اتخذ فى عالمنا المعاصر مظهرا أخطر بكثير ، هو **المظهر الأيديولوجى** ، الذى اصبحت فيه الروحانية وسيلة لمقاومة الاشتراكية فى صورتها المكتملة . وهذا المظهر الأيديولوجى هو الذى ينبغى التنبه اليه وتحليل أسبابه وتحديد مدى البطلان فيه .

ذلك لأن من أعجب المفارقات فى عالمنا المعاصر أن الدفاع عن القيم الروحية أصبح هو الشعار الذى تنادى به أشد النظم الاجتماعية اغراقا فى الماديات ، وأبعدها عن كل ما تسمى به الروح وتزهو به الفضيلة والاخلاق . ففى عالمنا هذا تتكرر ، مرة أخرى ، قصة التاجر الذى يسرق عملاءه ، ويظهر أمامهم برغم ذلك ، بمظهر الغيور على التقوى والايمان . فكيف وصل فكرنا الى الوقوع راضيا فى مثل هذا التناقض ؟

اننا نعلم جميعا أن أشد الدول الرأسمالية اغراقا فى استغلال الانسان ، داخل بلادها وخارجها ، وفى العدوان على كل القيم التى تعتز بها البشرية ، تتباكى من الوجهة الأيديولوجية على القيم الروحية التى تقضى عليها الاشتراكية

المتطرفة ، وتعلن على البسطاء والسذج ان هذه القيم لا حياة لها الا فى ظل نظامها الاجتماعى والاقتصادى الخاص . **وفى كل يوم يتفاخر الدعاة الايديولوجيون لنظام الرأسمالى بتميزهم عن ((الماديين)) من الاشتراكيين ، ويتباهون بأن ((الروحانية)) لا حياة لها الا بين ظهرانيهم ،** وربما عقدوا محالفات صريحة أو ضمنيه مع هيئات دينية ــ كالكنيسة الكاثوليكية مثلا ــ يضفون بها على هذه المزاعم بركة « سماوية »٠ وانك لتجد الجندى الامريكى يقتل النساء والاطفال فى فيتنام ، ويلقى القنبلة الذرية فى هيروشيما ، وينقض على ثورات التحرر فى أمريكا اللاتينية ، ثم يذهب الى الكنيسة يوم الأحد راضيا ، دون أن يشعر بوجود أى تناقض بين هذا المسلك وذاك ٠ وقد يكون هذا نفاقا تمليه المصالح الخاصة لشعب أو لنظام اجتماعى معين، ولكن العجيب حقا هو أن تبادر هيئات دينية واسعة النفوذ الى الاعتراف بأن القيم الروحية لا تجد من يحميها الا بين انصار النظام الاجتماعى الذى يرتكب كل هذه الشرور ، **والأعجب من هذا وذاك أن يصدق هذه المزاعم قطاع لا بأس به من الرأى العام فى العالم ، بل وفى عالمنا العربى بدوره ، فيسلم بالتعارض بين القيم الروحية وبين الاشتراكية المكتملة التحقق .**

ولكى تكتمل لدينا صورة الزيف الفكرى الذى يسيطر على اذهان كثير من الناس فى عالمنا المعاصر، ينبغى أن نتأمل نماذج من سلوك أولئك الاشتراكيين «المتطرفين» ، الذين يشيع وصفهم بأنهم أعداء للقيم الروحية ، وبأنهم لا يبنون سلوكهم الا على أساس من المادية اللا انسانية .

خذ مثلا سلوك شعب فيتنام . **أيشك أحد فى أن البطولات الأسطورية التى يسجلها هذا الشعب الصغير ضد أعتى جهاز عسكرى وحربى عرفه الانسان طوال تاريخه ، هى انتصار قاطع وحاسم للروح على المادة ؟** ان السلاح الحديث، الوفير ، الذى تدعمه أعظم البحوث العلمية ، والأموال التى تصل الى أرقام فلكية ، والثراء ، وكثرة العدد ، وضخامة الاجسام ، وحسن التغذية ، والعقول الالكترونية ، كل هذه تقف عاجزة خائرة أمام شعب فقير ، ضئيل العدد ، قليل العدة ، يحيا حياة ريفية بسيطة ، ولا يعتمد فى تدبير أموره الا على موارد شحيحة لا تكفى سكان بلدة متواضعة فى أشد ولايات أمريكا تأخرا .

فما هى القوة التى تحرك الجسد النحيل الهزيل لتجعله يصرع أضخم جبابرة الارض ؟ أيستطيع أحد أن يزعم لحظة واحدة أن قوة المادة هى التى تمنح الفيتنامى القدرة على الصمود والانتصار على أشد أجهزة القتل والدمار كمالا ، وتعطى عقله البسيط المباشر مقدرة التفوق على أدهى ما تتفتق عنه أذهان محترفى العسكرية ، مقترنة بأعقد خطط العقول الالكترونية ؟ **ان الفيتنامى الفرد ، فى هزاله وضآلة جسمه وفقره وبساطة حياته ، ما هو الا كتلة متحركة من القيم الروحية** ــ بأرفع ما تنطوى عليه هذه الكلمة من معان ــ تقف باصرار واباء أمام جبروت المادة وتقهرها دون عناء ، **لأن الروح المتفانية أقوى ، فى نهاية الأمر ، من كل مادة فجة غاشمة .**

وقل مثل هذا عن أفراد كثيرين عاشوا فى عالمنا هذا مثالا للتفانى فى سبيل اسمى ما تعتز به البشرية من القيم : **هوشى منه ،** الذى يأبى الا ان يكون عظيما حتى بعد لحظة مماته ، فيطلب فى وصيته ألا يقام له الا جنازة بسيطة قصيرة، « حتى لا يكون فى ذلك مضيعة الجهد والمال »!


ش . جيفارا

وجيفارا ، الذى يأخذ على عاتقه تحقيق رسالة الثورة ضد الظلم في كل مكان ، ويترك جاه الحكم ونفوذه ونعمه جانبا ليعود مرة أخرى مناضلا بسيطا يحارب فى اقسى الظروف التى يمكن أن يتصورها انسان .

ومع ذلك فان هؤلاء المناضلين جميعا ، الأفراد منهم والجماعات ، يمكن أن يحسبوا ، فى نظر البعض ضمن « خصوم » القيم الروحية ، لانهم يؤمنون بنوع من الاشتراكية « المتطرفة » التى يعدها الكثيرون متعارضة مع تلك القيم . **فهل هناك دليل أبلغ من ذلك على ضيق نظرة هؤلاء الى القيم الروحية وقصور فهمهم لمعناها ان من** هؤلاء من هم مخلصون ، بلا شك ، لمعنى الروحانية ، حريصون على توطيد أركانه ، ولكن ما أجدر هذا الفريق بأن يراجع تفكيره فى هذا الأمر مراجعة شاملة ، وأنا على ثقة من أنه لو فعل فسوف يتبين له أنه ضيق من نظرته الى الروح والى قيمها أكثر مما ينبغى ، وأنه أخرج من مجالها أنواعا من السلوك لا يستطيع أحدا أن يشك فى صدورها عن دوافع روحية خالصة .

بين الخبز والروح :

ان شعار « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » هو الكلمة السحرية التى يرددها أنصار ((القيم الروحية)) بمعناها الضيق ، ويزعمون أنهم يفحمون بها خصومهم ، ويثبتون حرصهم على انسانية الانسان . وردا على هذا الشعار ، أكد الكثيرون أنك لا تستطيع أن تقنع به الفقير الجائع الذى تدور معدته فى خواء . فهل يعنى ردهم هذا أنهم ينكرون أن فى الحياة الانسانية ما هو أسمى من الخبز ؟

الحق أن مشكلة العلاقة بين الاشتراكية والقيم الروحية انما يكمن حلها فى الرد على هذا السؤال البسيط . ذلك لان الانسان لا يحيا حقا بالخبز وحده ، ولكنه لا يستطيع أن يطبق هذا المبدأ الا حين يتوافر لديه الخبز . **وهذا هو لب الموضوع .** فحين يعز الخبز على الانسان ، يصبح هو الغاية القصوى ، بل الوحيدة ، لكل سلوك يقوم به . وتلك بلا ريب حالة من الضعة أشبه ما تكون بحالة الحيوان الأعجم . ومن عجيب أمور الفكر البشرى ان ذلك الذى يدعو الى توفير الخبز للجميع انما يهدف الى أن يرتفع

بالانسان فوق مستوى التفكير الدائم فى الخبز والانشغال الذى لا ينقطع به ، حتى يستطيع ان يتفرغ لما هو ارفع منه ، على حين ان ذلك الذى يؤكد — فى ترفع وتسام — ان الانسان يحيا بما هو اسمى من الخبز ، قد تؤدى دعوته هذه الى ان يتجاهل الناس مشكلة الخبز ، فتكون النتيجة ان يظلوا أسرى لها الى الابد ، ويعجزون بالتالى عن بلوغ مستوى الخبز ومستوى ما فوق الخبز معا .

ولو شئنا أن نترجم هذا الكلام الى اللغة الفلسفية ، لقلنا **ان الدفاع عن المادة كثيرا ما يكون ، فى حقيقته ، دفاعا عن الروح بمعناها الحق ، على حين أن الدفاع عن المثل الروحية كثيرا ما يحمل ، بين طياته ، اشد النزعات المادية عنفا وقسوة . ومن المؤكد أن لفظى ((المادية)) و « المثالية » مسئولان عن قدر كبير من المغالطات التى يعيش الانسان المعاصر ضحية لها .**

ذلك لأن لكل من هذين اللفظين معنى عقليا خالصا ، أو نظريا فلسفيا ، ومعنى آخر عمليا أو أخلاقيا . **وفى تفكير معظم الناس خلط دائم بين هذا المعنى وذاك .** فحين يتحدث أحد عن المادية ، بالمعنى النظرى الفلسفى وحده ، ينصرف الذهن تلقائيا الى المادية بمعناها الأخلاقى ، وهى شىء قبيح ينفر منه كل انسان لديه ذرة من حب الخير والجمال . وحين يتحدث آخر عن المثالية، بمعناها العقلى البحت ، ينصرف الذهن أيضا الى المثالية بمعناها الأخلاقى ، وهى شىء رائع يسعى اليه كل من يقدر القيم الرفيعة .

ومع ذلك فان تاريخ الفكر البشرى حافل بأمثلة الفلسفات التى جمعت ، دون أى تناقض، بين المادية النظرية والمثالية العملية أو الأخلاقية، والفلسفات التى ارتبطت فيها مثالية الفكر النظرى بأقبح مظاهر المادية فى السلوك العملى . وتكاد هذه أن تكون قاعدة مطردة ، أو قانونا يحكم العقل البشرى ، ومع ذلك فما أسهل المغالطة حين يكون الأمر متعلقا بالجمع بين معان بلغت كل هذا الحد من التضاد !

على أنه ، اذا كان هذا هو الأصل الفلسفى للفهم الباطل لمعنى الروحانية (التى هى وثيقة الارتباط بالمثالية) ، فاننا لا نجد أنفسنا بحاجة الى الخوض فى أعماق بحر الفلسفة كيما ندرك أن **((الدفاع عن الروح)) قد أسىء فهمه ، وأسىء استخدامه ، فى عالمنا هذا الى حد يؤدى الى الحاق أفدح الأضرار بقضية الروح ذاتها .**
ولا أشك لحظة فى أن الأمثلة الملموسة التى قدمتها فى موضع سابق من هذا المقال ، كفيلة — اذا ما تعمقنا فهم دلالتها — بتنبيه هذه الأذهان الى خطورة الالتباس الذى وقعت فيه .

ان فهمنا لطبيعة القيم الروحيةومجالها يحتاج الى مراجعة جذرية ، تؤدى بنا الى ألا نقتصر على المعنى الشكلى لهذه القيم ، بل نضم اليه أهم المعانى جميعا ، وهو المعنى الجوهرى للروح. والحق أننا لو شئنا أنموذجا صارخا ، فى هذا العالم الذى نعيش فيه ، للفهم الشكلى للروحانيات، لكان هذا الانموذجهو **الايديولوجية الصهيونية** . فهذه الايديولوجية ترتكز على الاستمساك المريض بحرفية عقيدة تعتقد انها هى وحدها العقيدة الروحية المقدسة ، وكل ماتقدمه هذه الأيديولوجية لتصرفاتها من تبريرات يرتكز على دعائم من هذه العقيدة الروحية . ومع ذلك ، **فما أعظم التباين بين ادعاء الدفاع عن عقيدة روحانية ، وبين المسلك الاجرامى الذى تحبذه هذه الأيديولوجية وتدفع أنصارها الى القيام به دون وازع من مبدأ أو**



هوشى . منه

ضمير . ومنذ ان كانت لليهود حياة متميزة محددة المعالم ، كان هذا الازدواج العجيب بين التمسك بالعقيدة وبين الجرى اللاهث وراء الماديات ، هو السمة المميزة لحياتهم . **وما هذه ، فى رأيى ، سوى النتيجة القصوى للتمسك الشكلى البحت بالروحانية ، دون اكتراث بجوهرها ومعناها العميق .**

ان القيم الروحية ، اذن ، ليست شكلا فارغا أو اطارا من الشعار والأقوال التى تتردد آليا على الألسن ، بل هى قبل كل شىء سلوك عملى فى الحياة . والحريص حقا على القيم الروحية ليس ذلك الذى يردد ألفاظا أو يؤدى طقوسا ، بل هو ذلك الذى يثبت بسلوكه فى الحياة انه يتخذ لنفسه هدفا رفيعا ، ويضحى من أجل تحقيقه بكل ما يملك .

أمام ثانى الأخطاء التى ينبغى أن تؤدى بنا التفكير الجاد فى هذه المشكلة الى التخلص منها، **فهو الاعتقاد بأن القيم الروحية لا تعدو أن تكون تراثا قديما يتعين علينا أن نحتفظ به سليما . ذلك لأن القيم الروحية** ، وان تضمنت هذا العنصر من غير شك ، تتجاوز هذا النطاق بكثير: فهى فى أساسها خلق متجدد في ميدان العمل . وهى مرشد يهدينا فى محاولتنا بناء مستقبل أفضل ، **وليست مجرد أثر من آثار الماضى يتعين علينا أن نكرس حياتنا لحمايته من عوادى الزمان . ان القيم الروحية تختنق لو اصبحت مجموعة من المبادىء الموروثة ، وتحيا وتزدهر اذا استحالت الى قوة دافعة توجه المرء فى حاضره ومستقبله** . وان يخدم القيم الروحية فى شىء ذلك الذى يقتصر على اختزان مبدىء التراث فى صندوق مقفل خشبية أن تمتد اليها يد لتختطف منها شيئا ، بل ان خادمها الحقيقى هو ذلك الذى يجددها ، ويخلق منها المزيد فى كفاحه من أجل حياة أفضل للناس جميعا .

لو قمنا بهذه المراجعة ، بصدق واخلاص ، لما عاد هناك تعارض بين الاشتراكية ، أيا كان المدى الذى تبلغه ، وبين القيم الروحية ، ولاختفى نهائيا ذلك الوهم الذى صور لبعض الناس أن هذه القيم تمسك بيد الاشتراكية حتى منتصف الطريق ـ وربما ربع الطريق أو عشره ـ ثم تفترق عنها الى غير رجعة .

فؤاد زكريا

بين ياسبرز ونيتشه

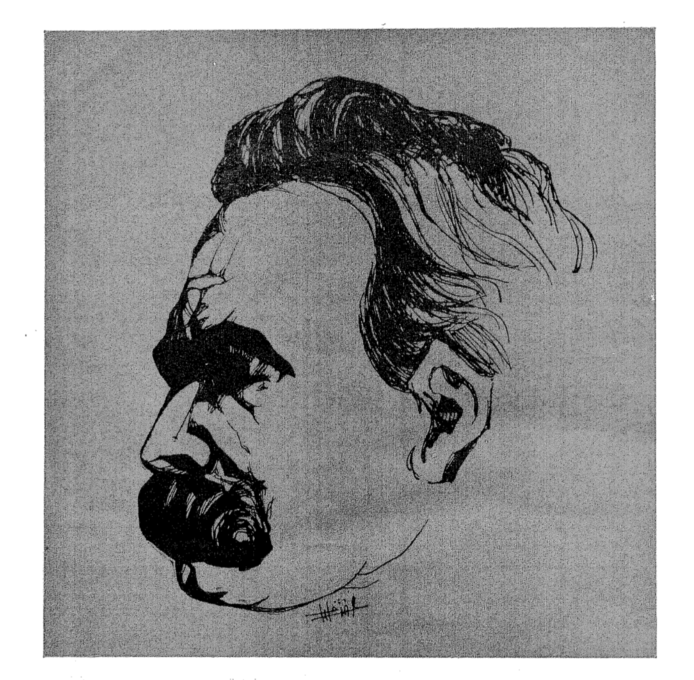
د. حسن حنفي

● لم يكن غرض ياسبرز من تفسير نيتشه تفسيرا مسيحيا دفاعا عنه وارجاعا له الى حظيرة المسيحية ، بل دفاعا عن المسيحيةالتاريخية ضد هجمات نيتشه عليها مع أن نيتشه لم يبغ الا تصفية الايمان مرة واحدة والى الأبد .

يحق لنا أن نتساءل : لم خصص ياسبرز جزءا كبيرا من جهده على فترات متباعدة من حياته لدراسة نيتشة أكثر من مرة ؟ بل ولا يخلو مؤلف من مؤلفاته من اشارة اليه بالتأييد أو على الاقل تدل على تقدير ياسبرز له ومعرفته لمكانته فى الفكر المعاصر . هل يؤمن ياسبرز بالفعل وهل يقدر رسالته ودعوته أم أنه يتسلق عليه **ليحتويه وليقضى على جدته وليميع مواقفه** وبذلك يصبح ألد أعداء المسيحية اشد أصدقائها ، ويتحول أكبر داعية للالحاد الى أكبر نصير للايمان ، ويصير فيلسوف القوة وارادة الحياة والانسان المتفوق فيلسوف الخضوع والاستسلام والتبرير ؟

مؤلفات ياسبرز عن نيتشة :

كتب ياسبرز عن نيتشة كتابين : الأول « **نيتشة** » سنة ١٩٣٦ وهو كتاب ضخم يتسم بالموضوعية والتأريخ الدقيق لحياته وفلسفته مما يثير فى القارىء الملل والسأم ، يحاول فيه **احتواء نيتشة وتفريغه من مضمونه الثورى** فى تصوره للحياة وللعقيدة ، والثانى « **نيتشة والمسيحية** » سنة ١٩٤٦ وهو كتاب صغير يكشف فيه ياسبرز عن نيته صراحة من هذا الحوار المستمر مع نيتشة وهو **اعادة تفسير نيتشة تفسيرا مسيحيا واعتبار فلسفته نتيجة لدوافع مسيحية أصيلة** : غرض ياسيبرز من دراستيه اذن هو انقاذالمسيحية من ألد أعدائها ثم تحويله الى أشد أنصارها وبذلك يقلب الحق باطلا والباطل حقا . ويقوم بهذه المهمة أشد أنصار



المسيحية فى التفكير المعاصر ، ويتم له ذلك عن طريق تمييع فلسفة نيتشة **فى مذهب متسق مع نفسه** وعرض تحليلاته للانسان ونظراته فى الحقيقة وآرائه فى العصر الحاضر والسياسة وتفسير العالم فى صورة أفكار ونظريات متسقة حتى يتحول الثائر من عاصفة على العصر الى فيلسوف يؤلف مذهبا أكثر مما هو « **شوكة فى البدن** » على مايقول كيركجارد . ولكن يبدو أن ياسبرز قد فشل فى محاولته لأنه **قام بدراسة** **نيتشة بمنهج الطبيب النفسى القديم** الذى اتبعه فى « **علم النفس المرضى العام** » سنة ١٩١٣ مع أنه قد مارس العمل الفلسفى بعده فى « **علم تصورات العالم** » سنة ١٩١٩ (وكان ما زال مشوبا بعلم النفس) وفى **الفلسفة** بأجزائها الثلاثة الكبار سنة ١٩٣١ . اعتبر ياسبرز نيتشة **حالة مرضية تقريبا** (وقد لاحظ ذلك أيضا حين قال فى تقديمه للترجمة الفرنسية للكتاب) وخصص لحياته ومرضه حوالى

ربع الكتاب حتى يقضى على عقلانية مذهبه وحتى يوحى بأن دعوة نيتشة هى مجرد صدى لأزماته النفسية وأمراضه العصبية والبدنية ولجنونه الأخير لا تحليلا لواقع العصر والثورة عليه . وقد فشل الكتاب أيضا من حيث منهجه فى التأليف اذ أنه يضم مجموعة هائلة من النصوص ربط ياسبرز بينها بعبارة أو بعبارتين كما يفعل طلابنا فى أوائل سنوات دراستهم الجامعية عندما يظنون أن مادة البحث هى البحث نفسه ولا يفرقون بين مادة البحث واخراج مدلولاتها. جمع ياسبرز أكبر عدد ممكن من «الفيشات» حول الموضوعات الرئيسية في فلسفة نيتشة وربط بينها حتى أصبح من الصعب قراءة الكتاب أو تتبعه ، ويعترف ياسبرز فى سيرته الذاتية بأن كتابه كان دراسة تاريخية محضة مع أن مايهمه كان الفلسفة لا التاريخ (١٨٦) . ولكن ما أن طغى هذا الخضم الكثيف من النصوص والوثائق على الهدف المزدوج المتناقض من تعامل ياسبرز مع نيتشة وهو تفسير نيتشة كحالة مرضية وفى نفس الوقت اثبات لأن نيتشة فيلسوف صاحب مذهب وتبرير نظرياته فى صور متوازنة ومتعادلة حتى كشف ياسبرز عن غرضه الحقيقى من هذا الحوار فى كتابه الصغير عن « نيتشة والمسيحية » والذى يثبت فيه ببساطة تامة — مع الالتجاء الى بعض النصوص المتفرقة — أن نيتشة فى فلسفته كان يتبع دوافع مسيحية أصيلة وبالتالى فما يظنه الناس ألد أعداء المسيحية هو فى الحقيقة أحد أبنائها المخلصين !

ويكشف منهج ياسبرز فى كتابه الكبير « نيتشه » عن قصده وذلك باعلانه أن فهم الفيلسوف يتطلب رؤيته من خلال وجهات من النظر أكثر اتساعا وشمولا بحيث يمكن أن تضم وجهات نظر الفيلسوف الجزئية ، أى أن ياسبرز يريد أن يلم شتات نيتشة المبعثر حتى يعطينا تفسيره النهائى من وجهة نظر أشمل وهو نيتشة المؤمن بالرغم مما يصف به نيتشة نفسه من الحاد واعلان لموت الله . ويعتمد منهج ياسبرز هذا على مايسميه « التفسير الموضوعى من خلال الشخصية التى تفهم » الذى يقوم على التسليم بدرجات متفاوتة فى الفهم أو بدرجات مختلفة فى العمق كما هو الحال فى تأويلات الصوفية والباطنية . فالحقيقة لها درجات : ان كان الظاهر هو الحاد نيتشة فقد يكون الباطن هو ايمانه ، وان كان الظاهر هو رفض نيتشة للعلو فقد يكون الباطن هو رغبته الكامنة فى اثبات هذا العلو ، أى أن الحقيقة بها التباس أو اشتباه أو غموض ، فهى جمالة أوجه ، وبهذا المنهج يستطيع ياسبرز أن يقلب الحق باطلا والباطل حقا بدعوى تفسيرات على درجات متفاوتة من العمق ، وعلى هذا النحو يحق لياسبرز أن يحول السلب الى ايجاب والايجاب الى سلب ، فكل حكم سلبى يقوم على حكم موجب . فمثلا « ان الله قد مات » قد تعنى « ان الله حى » لأن نفى الله معناه خلقه من جديد بصورة أخرى . ويجد ياسبرز نصا لنيتشة يؤيده فى منهجه هذا اذ يقول نيتشة « يسمون ذلك (موت الله) تحلل الله من نفسه ، ولكنه عندما يحرك ... سترونه فوق الخير والشر (نيتشة ص ١٢٤) ومن ثم يجعل ياسبرز السلب هو الايجاب ، والتحلل هو الخلق ، والاعدام هو الانتاج .

يرفض ياسبرز التفسيرات الفلسفية والتاريخية والرمزية والنفسية لنيتشة ويطالب بتفسير يبنى النشأة génétique أى بتفسير يبدأ بنواة ينسج حولها حتى يتم اعادة بناء فكر الفيلسوف ، ولا يفترق هذا الفسير كثيرا عن التفسير النفسى الذى يجعل للأشياء ظاهرا وباطنا أو الذى يجعل لكل فكرة أساسا نفسيا . يؤدى التفسير النفسى الى تأكيد أن نيتشة لم يكن له أتباع وأن تابع نيتشة هو من يتبع نفسه : « كن انت لنفسك » فقد سمى نيتشة نفسه « عبقرى القلب » لانبيا لدين أو داعيا لطائفة أو مؤسسا لفرقة ، وبالتالى لن يفهمه الا عباقرة القلب مثله. يجعل ياسبرز نيتشة فريدا ، وحيد عصره ليس كمثله أحد استثناء ، حتى يجعل فلسفته هى شخصه وتتحول الفلسفة الى صناعة للتماثيل ! ولا يتحدث ياسبرز كثيرا عن نظريات نيتشة فى فقه اللغة والتى جعلت من نيتشة أستاذا لفقه اللغة وهو فى الرابعة والعشرين ولكنه يطيل الحديث عن عزلته وشذوذه ومرضه وجنونه حتى يضعف الثقة فى آرائه أو على الأقل يجعل أعماله تعبيرا عن أزماته النفسية وأمراضه البدنية (مرض عضوى فى المخ أدى به الى الشلل) ويجعل محور فلسفته « ان الله قد مات » تعبيرا عن احدى نوبات الجنون ! مع أن هذه القضية هى الحدس المسيطر على أعمال نيتشة الأخيرة اذ يقول « اما ان يميتنا هذا الدين أو نميت نحن هذا الدين » وانى أومن بهذه العبارة التى قالها قدماء الجرمانيين : « يجب أن تموت جميع الآلهة » . (نيتشة ص ٢٤٧ ، كما يقول أيضا « أين هو الله ؟ ساقول لكم ، لقد قتلناه أنا وأنتم ! » يجعل ياسبرز الحاد نيتشة الحادا ذاتيا وجوديا نتيجة لازمة نفسية لا الحادا موضوعيا نتيجة لتدليل الطبيعة كما هو الحال فى عصر التنوير فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ، بل ان ياسبرز يجعل الحاد نيتشة ايمانا مقنعا لانه بحث عن اله العصر والقوة والحياة والانسان المتفوق .

ويدافع ياسبرز عن نيتشة ضد منتقديه واتهامهم له بالتناقض وبمعاداته للعلم نتيجة لنقص فى ثقافته العلمية وبفرديته والحاده . ويخصص ياسبرز الفصل الأخير من كتابه الكبير للدفاع عن تهمة الالحاد واعادة تأويل عبارات نيتشة الصريحة مثل : « الايمان بالله سب للعالم » أو « ان الله مجرد افتراض » أو « الله أكبر خطرا » أو « الله يجب أن يموت » بأن ذلك يعنى رغبة الانسان فى البحث عن موجود أسمى وغاية أعظم ! كما يحاول تفسير رفض نيتشة للعلو على أنه ايمان بنوع من العلو المكبوت فى النفس ! وبالتالى يخفف ياسبرز من حدة نيتشة وجذريته ، ويقضى على انفعاله ، ويمتص غضبه ، ويجعله لا فرق بينه وبين كيركجارد

وأوغسطين وبسكال ، وبذلك يتحول فيلسوف العدم الى فيلسوف الوجود أو على الأقل **ينتهي** ياسبرز الى التعادل فى القضية ويعلن « لا يوجد أى برهان على وجود الله كما لا يوجد أى برهان على الالحاد » (نيتشة ص ٤٣٨) . وكفاه نصرا أن يثبت أن نيتشة ليس كما يظنه الناس ملحدا وأن كل فكره يدور حول موضوع واحد وهو «دين الوحى» ، وهو فكر لا يقود الى الله ولكنه لا يبعد عنه (ص ٤٤٠) الى آخر هذه العبارات التى لا تقول شيئا لان نصفها الثانى يلغى نصفها الأول والتى تدل على براعة فائقة فى التعمية . ومادام نيتشة يتفلسف أمام الالحاد فانه لا يكون ملحدا خالصا (ص ٤٤١) »، **وأن كان نيتشة ملحدا فان الالحاد يرفض أن يكون نيتشويا !**

ومع أن نيتشة لم يقرأ سطرا واحدا من كيركجارد (لأن مؤلفاته لم تكن قد ترجمت بعد الى الألمانية) وعلى ما يعترف ياسبرز بنفسه فان ياسبرز **كلما ذكر نيتشة ذكر معه كيركجارد** ويعطى لكليهما نفس الدور فى الايقاظ حتى يوحى بأنه يتحدث عن أهم مفكرين وجوديين فى المسيحية على السواء لا فرق لديه بين كيركجارد ونيتشة ، أى بين مؤمن وملحد على ماهو متعارف عليه ، أى أنه **يستعمل كيركجارد للتعمية** ولا يقصد من ذكره الا تمييع مواقف نيتشة وتحويل الهجوم على المسيحية الى دفاع عنها . **واذا كان ياسبر يحاول أن يثبت أن الحاد نيتشة هو ايمان مقنع فالحقيقة أن ايمان كيركجارد هو الحاد مقنع** لأنه يرفض كل العقائد المسيحية الرسمية التى يطلق عليها اسم « **التمسح** » فى مقابل المسيحية الباطنية . ولكن ياسبرز يجعل كليهما تابعا للمسيحية ، فكلاهما تأثر بشوبنهور ، نيتشة فى أول حياته وكيركجارد فى آخر حياته ، وكلاهما فكر فى سقراط فاعتبره كيركجارد معلمه واعتبره نيتشة عدوه ، وكلاهما عارض المعرفة العقلية وآثر تحليل الوجود الانسانى ، كلاهما عدو لهيجل الذى فتح عالما جديدا فى الفلسفة ووضع لغة جديدة فى الفكر الأوربى . كلاهما شاعر ، عبقرى الفن ، نبى ، قديس . وهكذا يجعل ياسبرز من نصير المسيحية عدوا لها ومن عدو المسيحية صديقا لها ، ويجعل من قال « **ان الله قد مات** » كمن قال « **ان الله أمامى أراه** » ، كلاهما يرفض المعرفة الموضوعية ، يضع كيركجارد محلها الايمان ، ونيتشة ارادة القوة ، كلاهما فيلسوف الامكانية ، كلاهما فيلسوف الزمان يجعله كيركجارد فى اللحظة ، ونيتشة فى العود الأبدى ، الانسان عند كيركجارد تلميذ للمسيح ومعاصر له وعند نيتشة هو الانسان المتفوق . ينادى نيتشة بالاستجابة للحياة وينادى كيركجارد بتكرار اللحظة . كلاهما فيلسوف الحلول وكلاهما يرفض العلو الدينى . كلاهما فيلسوف انفعالى ذاتى يرى الحياة صراعا من أجل الموت . بل ان ياسبرز يجعل نيتشة أكثر مسيحية من كير كجارد لأن كير كجارد تعلم المسيحية من أبيه وتخصص فى اللاهوت

أما نيتشة فقد شعر بالمسيحية بقلبه وانتهى الى أعماق اللاهوت بنفسه ، أى أنه قطع شوطا أطول مما قطعه كيركجارد . على أية حال يجعل ياسبرز كلا من كيركجارد ونيتشة كوكبين لامعين يتساوى فى أضوائهما فلاسفة القرنين التاسع عشر والعشرين منذ هيجل (كيركجارد ص ١٨٤) فقد ظهرا فجأة واستحوذا على اهتمام العصر وان لم يكونا قد كشفا لنا الطريق . يثيران فينا العناصر الأساسية فى الموروث القديم دون أن يقدما فلسفة متخصصة كما فعل فلاسفة القرن الماضى (ص١٨٧) . لقد ظلا فى ميدان الاشتباه والالتباس والغموض يثيران الطريق ويضلان فى نفس الوقت ، يثيران الجد والهزل ، يكشفان الحقيقة ويعميانها ، **يدعوان الى تأكيد** الذات والى العدمية (ص ١٨٣) . ان ما يميز العصر الحاضر هو اكتشاف كيركجارد ونيتشة بعد أن لم يلتفت اليهما أحد، وبدء الفلاسفة التابعة لهيجل فى التوارى عن الأنظار (نيتشة ص ١٠) . لقد ظهر كيركجارد ونيتشة فى فترة كانت الانسانية فيها تُطل على مفترق الطريق على ما يقول ياسبرز فى كتابه **((عن الحقيقة))** ، كلاهما استثناء ، كلاهما نبى العصر (الروح الأوربية ص ٢٥) ، كلاهما أعلن افلاس المسيحية: فقد أعلن كيركجارد ((**لم تعد المسيحية الا مظهرا**)) وأعلن نيتشة « **ان الله قد مات وبدات العدمية** » . ان كيركجارد ونيتشة هما بالفعل المنبعان الذى استقى منهما المفكرون المعاصرون مثل هيدجر وجابريل مارسل وسارتر نظراتهم . فانارة الوجود عند ياسبرزهى تصور نيتشة للحقيقةعلىأنها استكشاف للوجود أو تفسيرات له أو فك لرموزه وتحليل كيركجارد للوجود الانسانى أو وصف هيدجر للعدم والقلق والوجود من أجل الموت ، وقد سئل هيدجر مرة عن أهم حدثين فلسفيين فى هذا القرن فأجاب : ظهور الطبعة الكاملة الألمانية لمؤلفات كيركجارد سنة ١٩١٤ وظهور كتاب « **الوجود والزمان** » سنة ١٩٢٧ !

ولا يوجد عمل واحد لياسبرز الا ويشير فيه الى نيتشة بصرف النظر عن ذكر كيركجارد معه أم لا ، ويجعله من أعمدة الحضارة الأوربية (شروط وامكانيات انسانية جديدة ص ٧٩ . ويتحدث فى احدى سيره الذاتية عن نيتشة قائلا : « لم تظهر لى أهمية نيتشة بالنسبة لى الا متأخرا ، عندما كشف لى كشفا عظيما وهو العدمية ووجوب تجاوزها ، وقد كنت أتجنب نيتشة فى شبابى وأنفر منه لما فيه من تطرف «السكر والبرقشة» (حول فلسفتى ص ١٤٠)فيجعله من بين ممثلى المثالية الألمانية مثل نيشتة وهيجل وشلنج (الايمان الفلسفى ص ٣٢) . كما لا ينسى الاستشهاد بأقواله فى المرض وطرق العلاج (العلاج النفسى ص ٢٥) ويستشهد بفقرة طويلة منه ثناء على الطبيب (المعالج النفسى) بعد **فشل القادة الروحانيين** ، فالمعالج النفسى هو الأقدر على مخاطبة القلوب ، ويستشهد ياسبرز بثورة نيتشة فى شبابه على تصور القرن التاسع عشر لعلم الانسان وحال



الفلسفة الاكاديمية وتبنيها مناهج العلوم الطبيعية وبعدها عن الحياة ويأخذها حجة لمهاجمة المطلب العلمى ذاته وكما يبدو عند فرويد وماركس (العقل والخبل فى عصرنا ص٧٦). ويقارن ياسبرز نيتشة بجوته ويجعل كليهما نموذج الانسان الحديث : الانسان المتعدد الجوانب ، انسان فترة ما بعد الخلق لا ما قبلها ! (انسانية جوته ص ٢٥٤) ، يؤرخ ياسبرز العصور بظهور نيتشة (المدخل الى الفلسفة ص١٧٠، ص ١٩١) ولكنه يفعل ذلك ليبين أنه لا يوجد فيلسوف أوربى فى الغرب بما فيهم نيتشة قد كون فلسفته غافلا عن التوراة ! (الايمان الفلسفى ص ١٤٨) أى أن الغرض من اشارة ياسبرز الدائمة الى نيتشة هو اثبات أن نيتشة هو أحد منابع التفكير المعاصر فى تأويله لحسابه الخاص حتى يجعل منه فيلسوفامسيحيا أوعلىالاقل ليس عدواللمسيحية بالمعنى الشائع اذ أن حب الانسان وكرهه لشىء واحد هو نفس الشىء . وقد سئل برجسون مرة عن سبب معاداته المستمرة لعلم النفس فأجاب : لأنى أحبه ؟

منهج ياسبرز فى عرض موقف نيتشة من المسيحية :

يتلخص هذا المنهج الذى وضح فى كتابه الصغير « نيتشة والمسيحية » فى جمع أكبر عدد ممكن من النصوص وتفسيرها لبيان المسيحية الكامنة فى النص بالرغم من المعنى الظاهر له الذى يدل على عداء نيتشة لها . يلجأ ياسبرز الى التأويل واعتبار رفض المسيحية هو المعنى الظاهر للنص والدافع المسيحى هو المعنى الباطن له . ويكثر ياسبرز من ذكر النصوص حتى يوحى بأنه لايخشى من نيتشة شيئا وبأنه يعرض أفكاره بنصوصه بكل هدوء واطمئنان لا يحاول أن يخفى منها شيئا . يبدأ ياسبرز بعرض أهم النصوص المعادية للمسيحية عند نيتشة عرضا موضوعيا فى أول كتابه الصغير حتى يصدم القارىء ثم ينتهى فى النهاية الى أنه بالرغم من هذا العداء الظاهر المدعم بالنصوص فان نيتشة قد أخذ هذا الموقف بدافع مسيحى أصيل !

يقول نيتشة مثلا : « **لو علمت أن لأحد اليوم اتجاها مائعا بالنسبة للمسيحية فانى لن أعطيه مثقال ذرة من ثقتى اذ أن الاتجاه الوحيد الصحيح فى هذا الموضوع هو الرفض المطلق** . ولكن ياسبرز يجعل من هذا النص كشفا للمسيحيه وازاحة للنقاب عنها وبالتالى يكون كشفا عن الحقيقة . والمسيحية فى جوهرها كشف عن الحقيقة ان لم تكن هى الحقيقة نفسها ، ومن ثم لايبعد نيتشة فى هذا النص كثيرا عن المسيحية بل يتبع احدالدوافع المسيحيةالاصيلة ألا وهو البحث عن الحقيقة ! ويقضى على ما يقصده نيتشة بالفعل من المعنى الواضح للنص الذى يراه ياسبرز تكرارا لأفكار قديمة معروفة لفلاسفة سابقين مشهورين بعدائهم للمسيحية ، فالمعنى الظاهر ليس بالجديد والمعنى الباطنى فيه نصرة للمسيحية ! بل انه يذكر نصا آخر من احدى رسائله يتحدث فيها نيتشة عن ايمانه بالمسيحية عندما كان طفلا ويأخذه

ياسبرز دليلا على تأييد نيتشة للمسيحية كما يذكر نصا آخر على أثر المسيحية فى تربية الشعوب الأوربية ويجعله دليلا على أن نيتشة من أنصار التربية الدينية :

وفى نفس الوقت الذى يعتبر فيه نيتشة القسس **أقزاما شريرة)) ، ((من جنس الطفيليات)) ، ((من حلت عليهم لعنة العالم)) ، ((عناكب سامة)) ، ((أمهر المنافقين نفاقا »** ، (نيتشة والمسيحية ص ٩) يذكر ياسبرز صفات أخرى لهم ذكرها نيتشة فى سياق آخر حتى يخفف من حدة النصوص الأولى ويعارض بعضها بالبعض الآخر حتى **يميع موقف نيتشه** ، فيذكر أن نيتشة يحتفى بعظمة نفوس القسيسين ويمدح هذه الارواح النبيلة الطاهرة اللطيفة البسيطة الجادة ، ويذكر أن نيتشة يعتبر نفسه من سلالة أكرم عنصر بشرى لان جديه كانا راعيين بروتستنتيين ، كما يذكر فضل المسيحية فى تهذيب الأخلاق وتقويم الشخصية، يجمع ياسبرز كل هذه النصوص التى يذكرها نيتشة فى هذا المعنى والتى **ذكرها نيتشة على محمل السخرية والتهكم ويخرجها عن سياقها** .

فاذا تحدث نيتشة عن الكنيسة واعتبرها العدو المميت بكل ماهو كريم على الارض والداعية لاخلاق العبيد والرافضة لكل عظمة انسانية وأنها لا تتعدى أن تكون **مؤسسة من المرضى تقوم بتهريب العملات الزائفة** (نيتشة والمسيحية ص ١٠) فان ياسبرز يذكر حديث نيتشة عنها أيضا بأنها وسيلة للسيطرة ترفع الناس الى أعلى درجات من الروحية تؤمن بقدرة الروح وتمنع الالتجاء الى العنف وبالتالى فهى مثل الدولة مؤسسة كريمة . وبعد أن يعارض ياسبرز نصوص نيتشة بعضها بالبعض الآخر يحاول تفسير هذا التعارض المقصود بالالتجاء الى تاريخ حياة نيتشة وتربيته الدينية **حتى يفرغ النصوص من معناها ويجعلها صدى لأزماته النفسية فى الطفولة المبكرة** ، وبالتالى فهى لا تدل على فكر صائب يهدف الى تغيير شىء بقدر ماتدل على عقدة نفسية يجب حلها ، أى أنه **يرجع النصوص الى الوراء** ويجعلها صادرة عن تاريخ نيتشة النفسى **بدل أن يضعها الى الأمام** ويجعلها حلا لكثير من مشاكل العصر التى عبر عنها نيتشة فى مواقفه الفكرية والعقائدية .

وبالاضافة الى معارضة النصوص بعضها بالبعض الآخر يلجأ ياسبرز **الى منهج التحليل النفسى** ويتعامل مع نيتشة كمحلل نفسى يرى أن عداءه للمسيحية نشأ منذ الصغر عندما وجد أن المسيحيين ليسوا مسيحيين كاملين وأن هناك تعارضا شديدا بين ماتتطلبه المسيحية من حياة فاضلة وبين مايراه من واقع مرير ، بين المثل الأعلى كما تتصوره المسيحية وبين حياة الأوربيين ، وان شتنا بين الروحانية والمسيحية والمادية الأوربية ، بين السلام المسيحى والنزعة الحربية الغربية ، بين المحبة المسيحية والعداء الاوربى ، بين الايثار المسيحى والأثرة الغربية ، لما نشأ الفيلسوف فى طفولته على التسليم بالعقائد انتهى الى الشك والرفض واللا أدرية . والحقيقة **أن عداء نيتشة للمسيحية لم يكن ارتباطا منه بها أو استجابة لمتطلباتها كما يقول ياسبرز بل رد فعل عليها. لم يكن موقف نيتشة منها موقف المتجاوز لها على مايقول ياسبرز بل موقف الرافض لها** .

ويفسر ياسبرز قول نيتشة « **لم نعد مسيحيين** » بأن نيتشة أصدر هذا الحكم لأننا نريد أن نكون أكثر مسيحية مما نحن عليه الآن ، ولأننا أكثر تطلبا للتقوى وأقوى نزوعا نحو الخير مما نراه الآن . ويفسر رفض القيم الخلقية المتوارثة فيما وراء الخير والشر بأنه طلب لقيم خلقية أقوى مستشهدا بقول نيتشة « **نريد أن نكون ورثة الأخلاق بعد أن تقضى على الأخلاق** » ، أى أن ياسبرز يستعمل الحجة المنطقية النفسية المشهورة بان الرافض للشىء مؤمن به لأنه يتحدث عنه ويفكر فيه ، فالرافض لله الذى يصوره الناس مؤمن بالله الذى ليس كمثله شىء ، وبذلك يكون **الملحدون هم المشتاقون حقا لله** على حد قول أحد كبار الصوفية (أنظر مقالنا أونامونو والمسيحية المعاصرة » الفكر المعاصر ، العدد ٤٧ ، يناير سنة ١٩٦٩) ولكن الذى يتبع هذا المنهج لابد أن ينتهى الى أن **الالحاد هو الايمان الحقيقى** لانه هو الايمان الخالص من كل مظاهر الوثنية التى تشوب ايمان العوام . أما ياسبرز فلا ينتهى الى هذه النتيجة ويجعل من ارادة القوة دينا مسيحيا !

ان عداء نيتشة للمسيحية ومعركته ضدها قد ولد **توترا روحيا** على مايقول ياسبرز ولكن **هذا القلق ليس مسيحيا كفعل بل كرد فعل،** وبهذا المعنى تظل المسيحية **((شوكة فى الجسد))** على ما يقول كيركجارد تؤرق الفكر الأوربى وتدفعه لمناهضتها ورفضها والعمل ضدها . وبهذا المنهج يمكن اعادة تاريخ الفكر الأوربى كله : **بدء الفلسفة الحديثة ونشأة العلم وخروج موجات الالحاد على أنه رد فعل على المسيحية لا على أنه فعل له وآثر من آثاره على مايقول ياسبرز .**

يحاول ياسبرز تفسير نيتشة تفسيرا مسيحيا على مراحل ثلاثة أضعها فى صيغة تساؤلات ثلاثة :

أولا : هل قضى تفسير نيتشة لتاريخ المسيحية على المسيحية كاتجاه نفسى ؟

يعرض ياسبرز لتاريخ المسيحية كما يفسره نيتشة **بطريقة تراجعية** أى أنه يحلل أزمة العصر الحالى ثم يرد هذه الأزمة الى المسيحية ثم يحاول وضع تاريخ عام للمسيحية مبينا نشأتها وتطورها .

تتلخص **أزمة العصر الحاضر** عند نيتشة ـ كما يتصورها ياسبرز ـ فى انهيار الحضارة والمدنية اذ لم يبق منهما الا مجرد الحبر السطحى الذى لا جذور له ، وفقدان الفن لجوهره وتعويض ذلك فى التصنع والتعمية وتحول الحياة الى

« كان » أى فقدان الشىء نفسه والالتجاء الى المثل وضياع اليقين والوقوع فى الشك ، كما يبدو انهيار العصر فى الملل والهروب منه فى السكر والغربة والضجيج والكذب الروحى والجدب النفسى . كل انسان يتحدث ولا أحد يسمع ، الكل يبعثر كلماته ، خيانة لكل شىء ، روح تبحث عن الفائدة ، ينخر فيها العدم وتظهر آثاره فى الآلية ، فى آلية العمل وسيادة الدهماء . « **ان الله قد مات** » هذا هو الجديد الذى أتى به نيتشة والذى لم يفهمه الأوربيون حتى الآن ، لم يقل نيتشة « لا يوجد اله » أو « لا أعتقد فى وجود الله » لأنها قضية تتعلق بالوجود لا مجرد حكم نفسى . لقد مات الله عند نيتشة بسبب المسيحية التى قضت فى الانسان على أهم مكاسبه الأولى : **تراجيديا الحياة** التى عرفها الطبيعيون الأوائل السابقون على سقراط والتى وضعت المسيحية بدلها الأوهام : الله ، نظام العالم الخلقى ، الخلود ، الخطيئة ، الفضل الالهى ، الفداء ... الخ . حتى تأتى لحظة تتحول فيها النية الصادقة التى تتطلبها المسيحية الى اشمئزاز من كذب وبطلان كل تفسير مسيحى للعالم ، عندئذ ينخر العدم فى عالم المسيحية الوهمى ، فالعدمية هى النتيجة المنطقية لكل القيم والمثل .

يعرض ياسبرز نيتشة وموقفه من المسيحية على هذا النحو عرضا موضوعيا ولكنه لا يقصد به كيف ينخر العدم فى الوجود بسبب التصور الدينى للعالم بل يقصد منه كيف تستحيل الحياة الى جحيم بسبب انكار وجود الله . **يجعل نيتشة وجود المسيحية علة العدمية بينما يجعل ياسبرز غياب المسيحية علة العدمية !**

١ — **ان تاريخ المسيحية فى ألفى عام هو اذن تاريخ مأساة طويلة تدل على انحراف المسيحية عن سيرتها الأولى** ، وتاريخ المسيحية هو تاريخ مأساة الانحراف . **والمسيح نفسه ليس مسئولا عن هذا الانحراف** ولا شأن له بما حدث باسمه فى التاريخ ، **المسيح مجرد نموذج من البشر** له تفسيره من الناحية النفسية فقد قدم المسيح طريقة جديدة فى الحياة ولم يعط معرفة جديدة أى أنه دعا الى تحول ذاتى لا الى عقيدة جديدة ، تتلخص هذه الحياة الجديدة فى البحث عن السعادة التى تكون فى استقلال العالم الداخلى للانسان عن أى ضغط خارجى . وكل ما قاله المسيح فى ذلك كان مجرد رموز ، فالسعادة هى الواقعة الأولى تند عن الصياغة ولاتكون الا حياة معاشة أقرب الى الغريزة منها الى الصياغة العقلية كل مايقوله السعيد يكون رمزا وكل مايفعله يجانب به العالم لأنه لايقاوم ولا يرفض بل يسلم بكل شىء ، وهذا هو ما أطلق عليه المسيح لفظ « **الحب** » . وما أن يفقد العالم واقعيته حتى يفقد الموت واقعيته أيضا ، ويصبح مجرد قنطرة الى عالم آخر بل يمحى وجوده على الاطلاق لأن الحياة الزمنية لا وجود لها عندما يعيش الانسان فى الخلود . وقد أكد المسيح ذلك بموته وبموقفه من القضاة وبموقفه أمام الصليب . لم يقاوم ولم يدافع عن نفسه بل صلى وتألم وأحب من ناصبوه العداء . ويسمى نيتشة هذا الموقف « **الموقف الفزيولوجى** » لأن مناصبة العداء بالعداء فيه قضاء على الذات أما اتخاذ موقف الحب من العداء ففيه محافظة على الذات وابقاء عليها ، وهو الموقف الذى يختلط فيه الجليل والمميت والصبيانى ، وهو موقف بعيد كل البعد عن البطولة أو العبقرية كما يدعى البعض بل هو أقرب الى موقف « **الأبله** » فى رواية دستويفسكى ..

يرى نيتشة أن موقف الانهيار هذا موقف صادق بلا نفاق أو مداراة يصدر من غريزة تدفع نحو العدم ولكنه موقف نفسى لا تاريخى لانه يستحيل معرفة **مسيح التاريخ** كما قال النقاد من قبل (روبنسون مثلا) ولا يمكننا الا معرفة **مسيح الدعوة.** يرى نيتشة أن **صورة المسيح فى الأناجيل صورة مضطربة متناقضة فهو** يعظ على الجبل وعلى البحيرات وفى المرعى ، ويشبه تجليه ماحدث لبوذا ، وهو فى نفس الوقت مناهض متعصب ، عدو لدود للاهوتين والقسس . فالصورة الأولى المسيح الطيب أقرب الى المسيح الحقيقى ، أما الصورة الثانية فهى اضافة من التاريخ ومن الجماعة المسيحية الأولى ، فالمخلص لا يكون متعصبا أبدا ، **لا يمكننا اذن أن نأخذ الأناجيل كوثائق تاريخية صحيحة نأخذ منها صورة للمسيح التاريخى** كما أننا لا نستطيع أن نعتبر الأساطير التى ينسجها الشعب حول الأولياء والقديسين مصادر تاريخية عنهم ، لا تعطى الأناجيل الا مسيح الدعوة ، أى المسيح كما فهمته الجماعة المسيحية الأولى أى مسيحا نفسيا يضع مسيحية لا تصح الا فى الحياة الخاصة وتفترض مجتمعا مغلقا منعزلا لا شأن له بالسياسة ولا تليق الا بالأديرة .

لم يحاول ياسبرز تطوير هذه الملاحظات التى أبداها نيتشة ومقارنتها **بنتائج علم النقد الحديث** وبالدراسات المقارنة عن نشأة المسيحية ، خاصة وأنه على دراية بالموضوع كما وضح فى رده على بولتمان بشأن منهجه فى **القضاء على الأساطير** فى تفسير الكتب المقدسة ، بل ينتهى الى هذه النتيجة اجابة على السؤال الأول المطروح وهى ان **قضاء نيتشة على مسيح التاريخ لم يقض على المسيح كنموذج للحياة** وبالتالى تظل المسيحية ممكنة كعقيدة وتصور ، ويكون كبار الصوفية مثل فرنسوا الأسيسى وكبار المؤمنين من أمثال بسكال ، يكون هؤلاء على حق عندما يتحدثون عن الايمان المسيحى وعن الطريق المسيحى الى الله . وبالرغم من قضاء نيتشة على العقائد واعتبارها انحرافا عن المسيحية الأولى تظل المسيحية — فى رأى ياسبرز — ممكنة باعتبارها **دافعا روحيا قلبيا خالصا** وهو ما قاله كانط من قبل (أنظر مقالنا عن « الدين فى حدود العقل وحده لكانط » تراث الانسانية ، المجلد السابع ، العدد الثانى ، أغسطس سنة ١٩٦٩) .

٢ — يرى نيتشة أن المسيحية قد انحرفت عن المسيح ، **ولم يكن فى التاريخ مسيحى الا شخص واحد وهو المسيح وقد مات على الصليب !** وكل ما ألصق به بعد ذلك كان نتيجة

للمصادفة التاريخية المحضة أو لدوافع ومآرب شخصية ، المسيح هو المسيحى الوحيد أما الجماعة المسيحية الأولى فهى عدوة للمسيح ، ونيتشة نفسه عدو للمسيحية وعدو للمسيح بالرغم من اخلاصه وصدقه ، وعدو للجماعة المسيحية الأولى ابتداء من الحواريين حتى آباء الكنيسة ، ليس المسيح اذن مصدرا للمسيحية بل نواة لها استغلتها المسيحية لنسج مجموعة من العقائد التاريخية الصرفة حتمتها الظروف والحوادث. لقد انهارت المسيحية بعد المسيح وانهار الغرب بعد تغلغل المسيحية فيه . ويبدو الانحراف عند نيتشة فى تحويل المسيحية من قاعدة للحياة الى **اعتقاد** ، مع أن المسيح مثل بوذا رجل عمل لا رجل عقيدة ، ثم تحويل الاعتقاد الى **عقيدة** أى واقعة مغلقة يختلط فيها الهوى والظن والحوادث التاريخية فى ثوب رمزى مثل **أسطورة الفداء** التى نسجت حول بعض الألفاظ مثل « الآن والى الأبد » أو « هنا وفى كل مكان » ، ومثل **اثبات المعجزات** حول بعض الرموز النفسية كشفاء المرضى، وأسطورة الخلود حول تأكيد المسيح لفناء كل ماهى شخصى وفردى ، أو **اقامة كنيسة** تدعو لله وتبشر بملكوته وجناته أو بابن له يكون الشخص الثانى فى التثليث ، كل ذلك مجموعة من **الرموز الفاضحة** حولت المسيحية الى نقيضها ، فعبد الناس الشيطان بدل الاله . **لقد انحرفت المسيحية عندما تحولت من مجرد ايمان قلبى فردى الى عقائد تاريخية هى فى** الحقيقه رموز تدل على هذه الحقائق الروحية البسيطة ، فالايمان يعنى الشعور، والله الانسان يعنى أن التفسير الوحيد لله محو الانسان وبالتالى الاعتراف بالانسان كواقعة مكتفية بذاتها أو كحقيقة أولى ، وبالتالى يكون الالتصاق بالرموز انحرافا للبشرية : « ألم تضل الانسانية طريقها ألفى عام بهذا الوهم ؟ » .

كان يمكن لياسبرز ابتداء من هذا التحليل التاريخى للمسيحية الذى قام به نيتشة تتبع تاريخ المسيحية وكيف أنها أصبحت رومانية مقنعة ، فأصبح القيصر هو البابا ، والمعبد هو الكنيسة ، والطقوس قداسا كما فعل **هارناك** فى « **جوهر المسيحية** » وهو ما أثبته لوثر قبل ذلك بخمس قرون وأصبح من الحقائق التى تعترف بها جميع الطوائف المسيحية وجميع الاتجاهات اللاهوتية محافظة كانت أم متحررة ، ولكن ياسبرز يصور نظريات نيتشة فى نشأة المسيحية وتطورها وانحرافها على أنها **اسقاط من أزمة نفسية لديه على التاريخ** ، وبالتالى **يقضى على** صدقها وموضوعيتها ويجعلها مجردهوى أو جنون مع أن نظريات نيتشة ، وان كانت قائمة على الحدس السريع **ونفاذ البصيرة** ، لا تفترق كثيرا عن نظريات دارسى تاريخ المسيحية خاصة فى القرن التاسع عشر الذين تتبعوا نشأة المسيحية وتطورها فى خط مواز لنشأة العقيدة وتطورها وكلاهما فى خط مواز ثالث لنشأة النص الدينى نفسه وتطوره مع اثبات انحراف المسيحية التاريخية عن المسيحية الأولى واختلاف العقائد الكنسية المتأخرة عن الدعوات الخلقية الاولى وعدم احتواء النصوص الدينية لكل ماقاله المسيح واحتوائها لاشياء أخرى غيرها حدثت من بعد فى الجماعة المسيحية الأولى منذ نشأتها وفى تطورها حتى القرن الرابع حين بدأ ظهور الأناجيل الأربعة فى مجموعات متسقة مرتبة عن ((**أقوال المسيح وأعماله**)) كما يذكر مؤرخو المسيحية الأوائل من أمثال بابياس والقديس ارينيه واوزب السيزارى .

٣ ـ وينشأ الانحراف التاريخى ـ على مايقول **نيتشة ـ من الشعور بالحقد** الذى يتولد عند الفاشلين والمضطهدين وهو الشعور الذى درسه **ماكس شيلر** بعد ذلك بالتفصيل . ويعنى به نيتشة الحقد الناشىء عن العجز عن ارادة القوة ، وقد يكون خالقا للقيم والمثل . فالعاطفة الخلقية تدل على رغبة فى الاستعلاء ، والعدالة تدل على رغبة مكبوتة للانتقام ، والمثل العليا قد تشير الى معركة كامنة ضد من يحتلون المناصب العالية ، فهذه الدوافع التى تظهر فى مظهر روحى عال تحتوى على انحرافات شديدة ، وقد يدل هادىء الطبع على ثورة وقسوة ، كما كان كبار السفاحين يخافون مناظر الدماء ، وكثيرا ما كان يتم ذبح الخصوم باسم الله والحق والعدل ، وقد يكون المؤمن قاسى الطبع لأنه يطمئن الى شرعية أفعاله ، وهذا يفسر لنا **كيف أصبح الايمان المسيحى فيما بعدايمانا أبيقوريا وكيفتحولت المسيحية عدوة الوثنية الى وثنية صديقة للمسيحية** . وكما ولدت الوثنية اليونانية من قبل اتجاهات معادية لها عند سقراط وأفلاطون كانت المسيحية وليدا طبيعيا لظروف العصر القديم ، وأخذت لحسابها كل الأسرار القديمة والرغبات فى الخلاص وأفكار التضحية واتجاهات الزهد وفلسفات العالم الآخر ، كما احتوت على عبادة مترا mithra . **وكانت المسيحية رد فعل على اليهودية** فهى ظاهرة يهودية . **آثر اليهود اختيار الوجود على العدم وانقلبت الآية فى المسيحية التى تحتم فيها أخذ العدم وترك الوجود كرد فعلعلى الاختيار الأول** ، وكان الثمن تزييفكل شىء من قيم ومثل وأخلاق . وبالتالى خلقت غريزة الحقد عالما جديدا تصبح الاستجابة فيه للحياة شرا . ويفسر نيتشة اليهودية كما يفسر المسيحية بغريزة الحقد ، فيرى أن اليهودية قد أدانت القوة والسيطرة والنجاح فى الأمور الدنيوية ولذة الحياة مما اضطر اليهود الى انكار الوقائع والتنصل من تاريخهم الماضى الملىء بالحروب والمغامرات .

ذلك تسرب حب الحياة الى اليهود من ممرات سرية داخلية ، وبهذا المعنى تصبح المسيحية هى اليهودية فى أبعد حدودها . لقد أصبحت اليهودية مسيحية وقضت على آخر صورة لها وهى الشعب المختار . **ومع هذا الانحراف التاريخى ينشأ التعويض الخلقى عن العجز وتنشأ الأخلاق المثالية لتغطية هذا العجز فنجد** فى تصور المسيح ميلادا وصلبا رغبة فى الانتقام !

ومع أن **تفسير نيتشة يصدق على المسيحية أكثر من صدقه على اليهودية** لان اليهودية تختلف عن المسيحية فى جوهرها ، فلم تكن ديانة روحية أبدا ، **ولم تدع التوراة الى الروح المجردة الطاهرة كما هو الحال فى المسيحية بل كانت دعوة الى القوة والارتباط بالأرض** وهو ما اتضح فى تاريخ بنى اسرائيل القديم ـ مع أن تفسير نيتشة قد يصدق على المسيحية الآن

ياسبرز لا يرفضه ككل لأنه يسمح بارجاع كل مظهر من مظاهر الحياة الأوربية الى مسيحية مقلوبة أى الى أحد أوجه المسيحية وهو مايريد اثباته .

٤ ــ وقد استمرت المسيحية فى تطورها تغزو النفوس المتوسطة التى انحرفت منذ اللحظة الأولى : تقتنعها وتظل فى صراع معها حتى تنشأ **التشكلات الكاذبة** للمثل المسيحية تؤثر فى الشعور الأوربى بالرغم من رفضه لها ، ويعتبر نيتشة **فرقة الجزويت** أيضا من هذه التشكلات الكاذبة فالدخول فى العالم وهو ما يميز الجزويت رد فعل على الخروج عنه وهو ما تتطلبه المسيحية .

ويتضح هذا التشكل الكاذب أيضا فى **وسائل نشر المسيحية** . فتخلت عن الحقيقة وفضلت الأثر والفاعلية ، فاذا كانت الأمانة العقلية تنقصها كما هو واضح فى العقائد فانها تلجأ الى عدم الصدق للتأثير على الناس ولاثارة انفعالاتهم حتى أصبحت الوسائل المتبعة وسائل غواية أكثر منها وسائل لنشر الدعوة ، اذ أنها ترفض كل ما يمكن أن يثير المقاومة مثل العقل والفلسفة والحكمة والشك وتصر اصرارا عنيدا على أن العقيدة من عند الله وأنه لا مجال اذن للنقد والفحص بل للتسليم والاعتقاد ، وتبث روح التعصب والغرور لدى الفقراء وتصفهم بأنهم « حس الأرض وملحها » على مايقول الانجيل ، وتتعامل مع المتناقضات وكل مايثير الغربة والدهشة وتمجد الاضطهاد وخدمة الآخرين .

والعجب أن الأقوياء قد تمثلوا أيضا هذه القيم لأنها تصلح لكل مظاهر الجبن ولكل مظاهر الغرور على السواء ، يجد فيها الضعيف التعويض والسكينة ويجد فيها القوى الغلبة والسلطان ، يصارعها الضعيف ان أرادت الابقاء على حالته ويصارعها القوى ان أرادت الحد من قوته .

وفضلا عن الجزويت ظهرت التشكيلات الكاذبة فى بعض الاتجاهات المعاصرة مثل **الليبرالية والاشتراكية والديموقراطية** كرد فعل على المسيحية وللقضاء عليها فى نفس الوقت ، فهى صور للمسيحية المنهارة بعد أن خارت قواها وفرزت أشكالا أخرى تعيش من خلالها بطريقة الالتواء والمداراة ، وكذلك الفلسفة والأخلاق وكل مثل العصر الحديث فى المساواة ــ كل ذلك **قيم مسيحية مقنعة** : مساعدة الضعيف من حيث هو موجود بيولوجى بصرف النظر عن غبائه أو ذكائه ، رفض استعمال العنف ، كل ذلك **انحرافات أصلية من اليهودية والمسيحية فى عصورها القديمة** ، تظل هذه المثل دليلا على النفاق وبعيدة عن الواقع فاذا انهدمت انكشفت العدمية كأساس لكل شىء . فالعدمية نتيجة للمسيحية التى انحرفت منذ نشأتها لا لمسيحية المسيح .

ومن مظاهر التشكل الكاذب أيضا عقيدة **الموت السعيد** Euthanasie التى تعتنقها البرجوازية التى تود أن تموت فى سعادة وهناء ورضا وسكينة بعد أن تدفع الزكاة على ماكنزته وجعلت فى كل عقار مصلى فى الدور الأرضى وهى تعتقد أنها فى السماء ستنال خلودا فرديا متميزا كما كانت متميزة على الارض .

لذلك يجب رفض كل الأشكال الكاذبة من أخلاق وفلسفات مثالية باعتبارها معادية للحياة وعلى أساس هذا الرفض يقوم التصور الجديد للحياة .

وأخيرا ، تساعدنا المسيحية على **فهم تناقضات العصر** : القوة والعجز ، الانهيار والصعود ، السيد والعبد ، القسيس والعلمانى ، الوجود والعدم ، وهى التناقضات الموجودة أيضا فى فترات أخرى من التاريخ فى الاسلام أو فى المانوية . ولكن **التناقضات فى المسيحية هدامة لا بناءة** فقد قضت على الامبراطورية الرومانية ، وحدت من انتشار الاسلام وجاء لوثر فأضاع مكاسب عصر النهضة وهو العصر الذى نهض فيه الانسان الحقيقى . لقد أرادت المسيحية كغيرها من ظواهر التاريخ خلق الانسان المتفوق فهى اذن حلقة فى تاريخ الانسانية العام . ولما كان **العصر الحاضر** هو عصر العدمية تستطيع المسيحية أن تكون له بمثابة الخطر أو العون .

ويوافق ياسبرز على هذا العرض الذى يقوم به نيتشة لتاريخ المسيحية ولكنه يؤوله لحسابه ويقول ان هذا العرض ولو أنه يقضى على تاريخ المسيحية الا أنه لا يقضى على المسيحية ذاتها التى تظل **مهمازا حضاريا للغرب وسببا من أسباب توتره النفسى** وكفاها بذلك فعلا !

ثانيا : هل هناك دوافع مسيحية فى تصورات نيتشة للتاريخ وللانسان وللعلم ؟

على الرغم من قضاء نيتشة على العقائد بصراحة ووضوح فان ياسبرز يحاول اثبات أن نيتشة قد اتبع فى ذلك دوافع مسيحية أصيلة ويرى وضوح هذه الدوافع فى **نظرة نيتشة للتاريخ العام وفكرته عن الانسان كموجود ناقص وتصوره للعلم باعتباره ارادة لا حدود لها للمعرفة** وهو التصور الذى كان أحد أسباب عدائه للمسيحية .

١ ــ يرى ياسبرز أن **تصور نيتشة للعود الأبدى هو نفسه النظرية المسيحية المشهورة عن الخطيئة والفداء** ، وأن هذه النظرة الشاملة للتاريخ صارت ممكنة بفضل النظرة الشاملة المقابلة التى تعطيها المسيحية . يرى نيتشة أن التاريخ يعيد نفسه وأن مايحدث فى عصر يحدث فى كل العصور وان هناك عودا مستمرا للاشياء حيث يوجد علاقة ثابتة بين الخلود والزمان وكأن الاشياء كانت على حالتها هذه منذ الازل وستكون كذلك الى الابد ، وهذا مايفسر لنا تكرار الظواهر والمواقف. وهذا التصور لا يعنى بالضرورة التصور المسيحى للخطيئة والفداء فقد كان هو **التصور السائد لدى القدماء فى فلسفاتهم للتاريخ** كما هو الحال عند اليونان والرومان فى **التصور الدائرى لحركة التاريخ** ، فهو تصور موجود قبل المسيحية ثم تسرب الى المسيحية فى تصورها للكون بحركتيه ، **حركة الهبوط وحركة**

الصعود ، الهبوط الذى تمثله الخطيئة والصعود الذى يمثله الفداء ، وهو التصور الأفلوطينى للكون ، بحركتى **الذهاب والاياب** Aller Retour على مايقول برجسون شارحا أفلوطين ، وهو التصور الذى خلده أوغسطين فى مدينة الله وصراع مدنية الارض التى تمثل الهبوط والطرد والخطيئة مع مدنية السماء التى تمثل الرفع والخلاص والفداء عن طريق الأنبياء حيث يتم بالفعل على يد المسيح . هذا التصور ليس مسيحيا بالضرورة بل هو التصور القديم للتاريخ قبل المسيحية وبعدها ، وهو التصور الذى ساد الحضارة الاسلامية والذى خلده **ابن خلدون** أيضا فى تصوره لدورات التاريخ من البداوة للحضارة ثم للبداوة من جديد . **لم ينشأ تصور التاريخ كسهم يرمز للتقدم الا فى العصور الحديثة ابتداء من فلسفات التاريخ فى القرن الثامن عشر عند كوندرسيه وفيكو وتورجو وفى القرن التاسع عشر عند هيجل وكورنو** . كان التصور القديم للحضارة **هو الكهف** على مايقول **شبنجلر** وهو التصور الذى ساد قبل المسيحية وبعدها وقد تبنى نيتشه هذا التصور نظرا لعدميته لا لأنه يتبع دوافع مسيحية أصيلة على مايقول ياسبرز الذى يعتبر أيضا فلسفة التاريخ فى العصور الحديثة عند **هردر وكانط وفشته وهيجل وماركس** تصورات مسيحية تصدر عن دوافع مسيحية أصيلة مع أن التصور المسيحى للتاريخ يتلخص فى حركتى **اللعنة والغفران** أى فى حركتى الصدور والرجوع لا فى تصور السهم الذى يرمز للتقدم والذى يعتبر مكسبا أصيلا من مكاسب العصور الحديثة .

ومع أن **التصور التراجيدى للحياة** ليس تصورا مسيحيا صرفا فقد عرفه **الشعراء اليونانيين** من قبل كما عرفته الأساطير اليونانية وبعض الفلسفات مثل فلسفة أفلاطون وعرفه **الرومانسيون** فى عواطفهم وانفعالاتهم والمعاصرون فى احساسهم بالقلق والتوتر (أونامونو مثلا) خاصة نيتشة بعد قلبه للقيم وانتهائه الى العدمية – فان ياسبرز يرى ان هذا التصور التراجيدى للحياة تصور مسيحى محض يتبع دوافع مسيحية كامنة .. مع أن نيتشه نفسه يعتبر التصور التراجيدى للحياة سابقا على المسيحية وموجودا فى العصر التراجيدى فى الفلسفة اليونانية قبل سقراط ثم انهارت الفلسفة اليونانية بعد ذلك، وقد ساعدت المسيحية على هذا الانهيار .

ولا يترك ياسبرز نيتشة حتى يجعله مسيحيا لا فرق بينه وبين أوغسطين أوبسكال. فسواء كان نيتشه من أنصار النظرة الشاملة للتاريخ فهو مسيحى لأن المسيحية تعطينا أيضا هذه النظرة ، وان كان من أنصار النظرة الفردية للتاريخ فهو مسيحى كذلك لان المسيحية تعترف أيضا بالزمان الفردى وبالحياة الزمنية المحددة بالميلاد والوفاة . فاذا لم يكتف نيتشة بالنظرة الكلية الشاملة للتاريخ وأراد أن يوجهه أيضا واكتفت المسيحية بانقاذ الفرد وحده واعتبار التاريخ أحد المعطيات الموجودة سلفا والتى لايمكن توجيهها فان نيتشة يكون أيضا مسيحيا – فى نظر ياسبرز – **مع أن نيتشة قد استبدل بالله الخالق الانسان الخالق وجعل الانسان دون الله خالقا للتاريخ ومسيرا لمجراه** .

وعندما يشعر ياسبرز بتعارض تصور نيتشة والمسيحية للتاريخ فانه يدافع عن التصور المسيحى باعتباره الأصل الذى خرج منه تصور نيتشة حتى وان كان معارضا له ، فاذا كان لنيتشة نظرة شاملة الى التاريخ العام فان ياسبرز يرى ان هذه النظرة مستحيلة لأن المسيحية تضعنا فى « الكل Tout » دون أن نعرفه وكل معرفة للكل تكون مجرد افتراض ، فاذا كان تصور نيتشة للتاريخ مسيحيا من حيث رد الفعل فان تصور ياسبرز له مسيحى من حيث الفعل لأن « الشامل » L'Englobant من حيث هو اتصال الذات بالموضوع أقرب الى الواقع والتجربة وبالتالى فهو تصور مسيحى لأنه لا يغلف الحياة فى النظرة الشاملة للتاريخ كما يفعل نيتشة . واذا كان نيتشة من أنصار توجيه السلوك للتاريخ العام فان ياسبرز يرى أنه من المستحيل السلوك طبقا لخطط شاملة تضم التاريخ الانسانى كله لأنه يقتضى المعرفة به وهذا مستحيل اذ لا يتم السلوك الا فى زمان ومكان معينين أى فى موقف محدد كما لا تتم المعرفة الا من باطن النفس لا من التاريخ .

٢ – يرى ياسبرز أن تصور نيتشة للانسان على أنه موجود ناقص ، مهشم ، ساقط ، هو نفس **التصور المسيحى للخطيئة الأولى** ولكن هذا التصور موجود أيضا عند الفلاسفة الوجوديين المعاصرين الذين يرفضون المسيحية ، فالانسان عند **هيدجر** وجود للموت ينخر فيه العدم من خلال الثرثرة وحب الاستطلاع والاشتباه والسقوط والهذيان ، والانسان عند **سارتر** دودة فى ثمرة كما هو عند نيتشه «مرضي الارضى» هش ، يتسرب اليه العدم من خلال النفى وسوء النية والشك والتساؤل ، صحيح أن الخطيئة الاولى عند **كيركجارد** هى مصدر لافكاره عن القلق ولكنها عند نيتشة وسارتر وهيدجر شعور بالعدم وهو **شعور ناشىء من روح العصر لا من تراث الماضى** . يفسر ياسبرز هذا الانسان الناقص الذى لايريد أن يعلو على ذاته بأنه العلو الدينى المعروف المسجون فيه ، **وفرق بين العلو الدينى والتعالى الفلسفى** (ويدل لفظ Transcendence عليهما معا) **فالعلو الدينى** هو اثبات موجود مفارق للعالم خارج عنه ، وهو وقوع فى التصور الأفلاطونى لله ، وكان رفضه أساسا رد فعل على هذا التصور الأفلاطونى الدينى وايمانا بالحلول وبالطبيعة . **أما التعالى الفلسفى** وهو ما يقصده الفلاسفة المعاصرون فيعنى أن تتعالى الذات على نفسها وبالتالى تتعالى على الموضوع لأن الذات ليست موضوعا ، وهو رد فعل على الموضوعية فى العلوم الانسانية خاصة فى علم النفس وعلم الاجتماع. هذه الموضوعية التى أرادت تحويل الذات العارفة الى موضوع للمعرفة ، ولكن **ياسبرز يفسر التعالى الفلسفى على أنه العلو الدينى** ولا يرى من **اللفظ الا وظيفته الدينية ، وهكذا يضع ياسبرز الله وراء نيتشة فى تفسيره للتاريخ ، وفى داخله فى تفسيره لفلسفته ، ومن فوقه فى تصوره للانسان سواء أراد ذلك نيتشة أم لم يرد** ، وبالتالى يصبح الانسان المتفوق عند نيتشة

– على حد قول ياسبرز – انسانا يتطلع نحو الكمال ، والله هو الكامل الحق !

٣ – يرى ياسبرز أن **رغبة نيتشة فى العلم** وفى الحقيقة مطلب مسيحى أصيل مع أن نيتشة يرى أن المسيحية عدو للعلم اذ أنها لا ترتكز على الواقع الذى يصدر العلم عنه ، ويرى أن الايمان المسيحى معارض للعالم خاصة **لعلمى التفسير والطب** اللذين يمكن بواسطتهما القضاء على كل الخرافات فى النصوص الدينية : **التفسير** لانه يبين نشأة النص وتطوره وانه يعبر عن معتقدات الجماعة المسيحية الأولى ولا يحتوى على أى كلام للمسيح ، **والطب** لأنه يبين أسباب الشفاء التى ظنها المسيحيون معجزات . ومع ذلك يصر ياسبرز على أن رغبة نيتشة العارمة نحو العلم واقع مسيحى أصيل لأن المسيحية بحث عن الحقيقة والعلم كذلك !

يريد نيتشة الحقيقة نفسها دون أغلفة من الرواة أو من التاريخ ويستعمل لذلك **مناهج النقد الحديث** ولكن ياسبرز يرى أن هذه الارادة نابعة من الاخلاق المسيحية التى نمت على العلم والمعرفة ، لذلك ظهر العلم الحديث بشموله ووحدته فى الغرب وحده ، فى وطن المسيحية ، أما العلم اليونانى – فى رأى ياسبرز – فكان علما خاصا ينقصه التفكير المنهجى لاقامة علم شامل كما هو واضح فى طب **أبو قراط** أو نظرات عامة كما هو واضح فى العلوم الرياضية عند **اقليدس وارشميدس** وذلك لأن اليونان تنقصهم الدوافع الروحية والبواعث الخلقية ! ظل **العالم** لديهم مغلقا وظل هذا التصور عند **أرسطو وديموقريطس وتوما الاكوينى وديكارت** ، ولكن التصور الحديث للعلم – أيضا فى رأى ياسبرز – يرى فى العالم مجموعة كبيرة من الخبرات نتيجة لتصور المسيحية لخلق العالم حتى استطاعت عقلانيته أن تواجه كل ماهو لا عقلانى وأصبح أساس العلم هو خالقه ! ولما كان الله خالقا للعالم ومسئولا عنه **نشأت نظريات العدل الالهى** تحث على البحث وتثير العواطف وترفض السكينة والطمأنينة ودعاة صبر **أيوب** . .

وهكذا يفسر ياسبرز العلم الحديث على أنه بحث عن الله وعن تدبر فى العالم المخلوق ! مع أن **العلم الحديث لم ينشأ الا بعد أن انفصل عن اللاهوت وأعطى العالم استقلاله وللطبيعة كفايتها الذاتية** . ينتهز ياسبرز فرصة هجوم نيتشة على العلم اليونانى النظرى وتفضيله التراجيديا فيهاجم العلم اليونانى أيضا المنفصل عن الله ويفضل العلم الحديث **ويفسره تفسيرا الهيا** . كما أن تصور نيتشة لارادة الحياة باعتبارها باعثا على العلم ليس تصورا للعلم الحديث كما يظن ياسبرز بل تصور فلسفى محض يقوم على أساس حيوى وبيولوجى ولا شأن له بتصور العلم . كما أن **وظيفة نظريات الجدل الالهى هى تبرير الشر فى العالم** كما هو الحال عند **ليبنتز واثبات طيبة الله** المطلقة وليس الحث على البحث واثارة العواطف **والا لما ثار سارتر على برنشفيج** آخر ممثلى المثالية والتفاؤل الألمانى فى فرنسا فى هذا القرن .

يتصور ياسبرز العلم الحديث قائما على ثلاثة أفكار : **فكرة الخلق ، صورة الألوهية ، مطلب الحقيقة !** وتظهر هذه الأفكار كدوافع باطنية تحرك العلم حتى ولو اهتز بالايمان التقليدى كما حدث ابان عصر النهضة . لقد استطاع اليونان تأسيس العلم بقدر ماسمحت لهم الحرية الطبيعية ولكن الغرب استطاع تأسيس العلم – فى رأى ياسبرز – بدافع لا نهائى وهو البحث عن الحقيقة كدافع مسيحى أصيل وهو العلم الذى يأخذ « الشامل » موضوعا له يغوص فيه الموضوع والذات معا . **تصور ياسبرز للعلم هو التصور اللاهوتى الذى يجعل العلم وسيلة لكشف الذات الباطنة حتى يجد الله قابعا فيها أى أنه علم الاخلاق لا علم الطبيعة** أو علوم التصوف التى تؤدى الى الله لا علم الاصول الذى يشرع للواقع كما هو الحال عند المسلمين . **يريد ياسبرز القضاء على أهم مكاسب عصر النهضة والعصور الحديثة وهو تصور العلم الطبيعى وتأسيسه على العقل والتجربة** . يمكن القول ان العلم الغربى هو بحث عن العقلانية والتنظير بعد أن أضاعهما اللاهوت وهو كشف للواقع بعد أن غلفه اللاهوت برموزه وعقائده وأن الفلسفة الغربية كشف للعقل النظرى وقدرته على الادراك **واتخاذ نظرة حلولية للطبيعة ورفض كل علو وتجاوز ، ولكن العلم الحديث يرفض تسمية مكاسبه بالمسميات الدينية القديمة والا وقعنا فى التصور اللاهوتى للعالم** Théologisme ، ويرفض اعتبار تروته دافعا دينيا كافيا ولا يرضى الا بمفاهيمه الجديدة العقلانية الشاملة المفتوحة . يريد ياسبرز بدل أن **يفتح العالم** عينيه على الطبيعة أن يقيم علما وجوديا يدرس أعماق الذات وبدل أن يكتشف قوانين الطبيعة يضع قواعدا للسلوك فى الحياة . يتهم ياسبرز العلم بأنه قد ألغى الله من حسابه حتى يظل العالم بلا خالق ولا يكون أمام الانسانية حينئذ الا احتمالات ثلاثة : الولاء للبحث العلمى وللعالم المكتفى بذاته دون أن يكون له أى أساس خارجى ، أو عدم احتمال هذا العالم والرغبة فى البحث عن الحقيقة دون الحصول عليها والانتهاء الى العدمية أو عدم احتمال هذا العالم والرغبة فى البحث عن الحقيقة والحصول على سند يقينى ، وهذا الاحتمال الثالث هو الذى يعمل ياسبرز على تحقيقه ويراه فى التصور المسيحى العام !

ثالثا : هل فلسفة نيتشة فلسفة مسيحية ؟

عرض ياسبرز فلسفة نيتشة بطريقتين : **طريقة النفى** التى يرفض فيها نيتشة كل اخلاق وكل حقيقة ، فنقد الاخلاق مستوى رفيع من الأخلاقية ، وانتحار الأخلاق مطلب خلقى أسمى ، والشك فى كل حقيقة فعل صادق . **وطريقة الاثبات** وهو فى رأى ياسبرز طريق نيتشة الصحيح يضع فيه تصورا جديدا للعالم لا يبعد كثيرا عن التصور المسيحى ، يحاول ياسبرز عرض هذا التصور فى عدة نقاط موضوعية ومنهجية يفسرها تفسيرا مسيحيا خالصا وينتهى الى أن نيتشة ، بالرغم من عدائه الظاهر للمسيحية ، فانه يتبع فى الحقيقة فى كل مايقوله دوافع مسيحية أصيلة ، استعمل هذه الدوافع للصراع مع المسيحية ثم رفض كل العناصر الايجابية التى توصل اليها لمعارضة المسيحية ، وأهم هذه **النقاط** هى :

١ – يرى ياسبرز أن **المسيح هو نيتشة وأن نيتشة هو المسيح** ولما كان نيتشة هو ديونيزوس يصبح **المسيح هو ديونيزوس ، وديونيزوس هو المسيح** ، كان المسيح مخلصا لقواعد السلوك في الحياة وكذلك كان نيتشة . كلاهما لم يرد أن يكون بطلا، كلاهما قضى على الأخلاق وجعل الله فيما وراء الخير والشر ، كلاهما بحث عن السعادة ، وجدها نيتشة في العود الأبدي أي في انكار الغائية التي يؤمن بها المسيح . ومع مايبدو من عدواة ديونيزوس للمسيح ونيتشة معا فان نيتشة في نهاية حياته في احدى نوبات جنونه كان يسمى نفسه « **ديونيزوس المصلوب**». والحقيقة أن التعارض بين نيتشة والمسيح، وبين ديونيزوس والمسيح أكبر من أن يستطيع ياسبرز الغاؤه ، فموت المسيح على الصليب يرمز لنهاية الحياة ويكون اتهاما لها أما تقطيع ديونيزوس اربا فانه يرمز الى الحياة المتجددة بلا انقطاع ويشير الى عنصر الدراما في الحياة الانسانية . وبمنهج ياسبرز هذا يستطيع كل فرد أن يكون هو المسيح سواء كان معه أو ضد .

٢ – يرى ياسبرز أن **نيتشة ينتهي من صراعه مع المسيح الى الاتحاد به** وهو خصمه بالرغم من صيحة نيتشة « امحقوا هذا الوضيع ! » ومن ثم لا يبقى خصما له ويصير نيتشة وخصمه شخصا واحدا ! وبهذا المعنى تكون الماء نارا والملاك شيطانا .

٣ – بعد أن يعرض نيتشة مجموعة الأشياء المتعارضة ينتهي برفضها أو التوفيق بينها **وجمع المتناقضات في شيء واحد** وهو مايتصف به المسيح مثل : الله والانسان ، الادانة والبراءة ، الموت والبعث ، قيصر والمسيح ! يرى ياسبرز أن هذا الاتحاد يتم لحساب الله والادانة والبعث والمسيح ويرى العصر الحاضر أن هذا الاتحاد يتم لحساب الانسان والبراءة والموت وقيصر .

٤ – يرى ياسبرز أن **نيتشة في نفس الوقت فيلسوف التطرف وفيلسوف الوسط المناسب** . هو من أنصار التطرف لأن التعارض يؤدى الى التطرف يحتاج اليه الضعفاء ولذلك كان الله «فرضا متطرفا للغاية يلجأ اليه الضعفاء» (نيتشة والمسيحية ص ١٠٥). أما أنصار الوسط فهم لا يحتاجون الى شيء من عقائد الايمان ولايحتاج رافضة الاخلاق الى أي كذب او تمسح بالاخلاق والدين ، وهكذا يقضى ياسبرز على دعوة نيتشة ويجعله من أنصار أنصاف الحلول والسلام والسكينة وبالتالي يمكن تقبل المسيحية باعتبارها حلا وسطا تضع الله والانسان معا في حسابها .

٥ – بعد أن جعل ياسبرز نيتشة من أنصار الاعتدال **نسب اليه مذهبا شاملا يجمع كل شيء ولا يفضل المسيحية على العدمية أو العدمية على المسيحية** ، ويحتج لذلك بأن عمله لم يتم نظرا لمرضه وموته المبكر . وفكر نيتشة هو الحركة نفسها أي الفكر الذي لا ينتهي الى نتيجة ما ، يتجول في كل مطلق . يفسر ياسبرز نيتشة على هذا النحو ليبرر عدم وضع نيتشة لقيم ومثل جديدة وليخفف من قلبه القيم والانتهاء الى العدمية .

٦ – يفرق ياسبرز بين **فلسفة نيتشة الظاهرة** التي هي أقرب الى التحليل النفسي الذي يهدف الى ازاحة الأقنعة وبين **فلسفته الباطنة** التي يمكن التعرف عليها بعد جمع **العبارات** المتناثرة حول موضوع واحد حتى ولو كانت متعارضة **للتعرف** على طريقة التفكير ووضع المشاكل . ومن ثم يتضح أن عداء نيتشة للمسيحية ليس كعداء غيره بل يقوم على دوافع فلسفية قوية . لذلك لا يجب الوقوف على نظريات نيتشة الواحدة بعد الأخرى بل يجب التعرف على مسار فكره . يطالب ياسبرز بعدم الالتفات الى نقد نيتشة للمسيحية ويكفينا لذلك مسار فكره العام وعلى هذا النحو يكون نيتشة أقرب الى الدفاع عن المسيحية من الهجوم عليها !

٧ – تعترض الدراسة على هذا النحو صعوبتان : **الاولى العبارات المتناثرة** التي قد تحتوى احداهما على بيان ايمان نيتشة بالمسيحية، **والثانية أعماله الفلسفية التي تعبر عن مرضه** وعن انفعالاته الحادة ومن ثم يمكن الشك في جديتها واصالتها النظرية وبذلك يصعب الخروج منها برأي واحد لنيتشة من هذا الخضم المتناثر . ولكن كيركجارد وبسكال وأوغسطين فلاسفة من نفس الطابع وأمكن الوصول الى نظريات متسقة لهم وليس نيتشة بدعا بينهم .

٨ – لا يعتبر ياسبرز نيتشة نموذجا للفلاسفة بل **استثناء** وبالتالي فكل ما يقوله يكون فريدا شاذا عجيبا غريبا لا يتفق عليه الجميع ولا يصدر عن عاقل ! وهؤلاء الفرادى يجرون العالم معهم الى كارثة على مايقول ياسبرز ! فنيتشه لديه مغامر يعرض نفسه للأخطار دون حماية كافية ، دوامة لا تهدأ مثل فاجنر ، لا يريد الا التوتر مثل دستويفسكى ولوثر . فبعد أن جعل ياسبرز نيتشه شاذا على القاعدة يذكر له نظراء ليخفى غرضه وهو التشكيك في شخصه كفيلسوف وفي أعماله ككاتب وفي آرائه كمفكر وفي آثاره كنبي للعصر .

٩ – يذكر ياسبرز أنه **مثل نيتشه** وله مثل تجاربه ولكنه ليس من أتباعه أي أنه يريد أن يقاسم نيتشه في الثناء عليه من أنصاره ثم يتجنب الهجوم عليه من أعدائه .

١٠ – كل من يعكف على نيتشه لابد أن تكون لديه الثقة الكافية بنفسه وأن تكون له الحرية التي يستطيع بها مقاومة اغرائه لان نيتشه يوقع في الغواية وتصيب اللعنة من يقرؤه: « لا أريد أن أكون نورا لأناس اليوم ، ولا أريد منهم أن يسموني نورا بل أريد أن افقأ أعينهم ، ببريق حكمتي يفقؤها» وهكذا يحذر ياسبرز القراء من نيتشه الذي جعله مسيحيا رغما عن أنفه حتى لا يقعوا في غوايته وحتى يحافظوا على ايمانهم بالتراث القديم بكل مافيه من عقائد وقيم متوارثة. **لم يكن غرض ياسبرز من تفسير نيتشه مسيحيا دفاعا عنه وارجاعا له الى حظيرة المسيحية بل ودفاعا عن المسيحية التاريخية ضد هجمات نيتشه عليها مع أن نيتشه لم يبغ الا تصفية الايمان مرة واحدة والى الأبد بعد أن حاولت الفلسفة الحديثة اصلاحه مع الابقاء عليه .**

ولايسعنا اخيرا الا أن نقول ان الفرق بين موقف نيتشه وياسبرز من المسيحية **هو الفرق بين الصراحة والنفاق .**

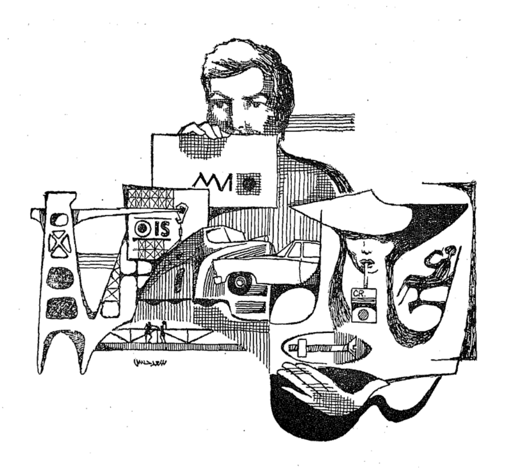
حسن حنفي

دور الإعلان فى مجتمعنا الاشتراكى

د. سمير حسين

شهدت السنوات الأخيرة التى أعقبت التحول الاشتراكى فى مصر عام ١٩٦١ خلافا فكريا بين خبراء الاقتصاد والاعلان فيما يتعلق بالدور الذى يمكن أن يقوم به الاعلان فى المجتمعات الناميه التى تتبع الأسلوب الاشتراكى مثل جمهوريتنا ، بل بالنسبة لضرورة وجود الاعلان أو عدم ضرورته ، وانقسم هؤلاء الخبراء الى فريقين متعارضين يذهب الفريق الأول منهما الى ان الاعلان ليس ضروريا فى الدول الاشتراكية النامية لأنها تعتمد على التخطيط وتتوازى أو تقل فيها كمية الانتاج عن الاستهلاك ، كما أن ظروف الدول الاشتراكية النامية ــ خصوصا فى المراحل الأولى من عملية التنمية ــ تحتم زيادة فى العمالة، يستتبعها زيادة فى الاجور . وبالتالى زيادة فى الاستهلاك ، مما يخلق فى هذه المجتمعات موقفا يكون فيه العرض أقل من الطلب ، وتصبح المشكلة مشكلة ندرة ويصل هذا الفريق من الخبراء الى نتيجة مؤداها أن الاعلان فى مثل هذه الظروف ينتفى دوره ، ويعتبر ــ فى حالة اتباعه ــ تبديدا للموارد فى وظيفة ليس لها هدف ثابت أو مؤكد فى هذه المرحلة من النمو .

ويذهب الفريق الثانى من هؤلاء الخبراء الى أن الاعلان فى المجتمعات الاشتراكية النامية ضرورة من ضرورات تحقيق التنمية الاقتصادية، وان الاعلان جزء من وظيفة التسويق التى تقوم بها الدولة الاشتراكية النامية لتصريف منتجاتها فى الداخل والخارج بطريقة تؤدى الى احداث التوازن بين الانتاج السريع والمتزايد فى ظل ظروف التنمية السريعة ، وبين امكانية تسويق وتصريف هذه المنتجات فى الأسواق الداخلية والخارجية ، ومحاولة التحكم فى المتغيرات العديدة التى تطرأ على هذه الاسواق وتتحكم فيها ، والرغبة الدائمة فى توسيع رقعة هذه



الأسواق لتفادى أزمات تراكم المخزون التى تهدد عملية التنمية الاقتصادية التى تقوم بها الدولة .

ويذهب هؤلاء الخبراء الى أن معظم الدول النامية تتجه الى تركيز جهودها فى زيادة الانتاج القومى ، ويصاحب هذا التركيز عادة قلة الاهتمام باجراء دراسات للأسواق الداخلية والخارجية التى يتوقع تصريف الزيادة فى الانتاج فيها ، ومن هنا ينبع المنطق القائل بأن مشكلة الدول النامية هى مشكلة انتاج وليست مشكلة تسويق أو دراسات تسويقية ، وهو نوع المنطق الساذج المتضارب ، اذ أن من أولى مقتضيات زيادة الانتاج القومى وضروراته تحديد نمط الزيادة المرغوبة فى الانتاج ووضع او تخطيط التوقيت الزمنى لأحداث هذه الزيادة على أساس دراسة الأسواق الداخلية والخارجية ، وتقدير احتياجاتها ، وقياس مدى قدرة الجهاز الانتاجى الحالى والمستقبل على استيفاء هذه الاحتياجات .

ومن هنا تبدو أيضا ضرورة الاهتمام بوظيفة التسويق ومعالجة مشاكلها بنفس الأهمية التى نعالج بها مشاكل الانتاج حتى نضمن توجيه الموارد حسب الطلب الحالى والمستقبل ، لكى لا يزيد العرض على الطلب زيادة كبيرة ومتراكمة فينشأ عنه تعطيل الطاقة الانتاجية وضياع الجهد والتكاليف التى تؤدى الى خسارة

المشروعات أيضا من جراء فقدان الارباح التى كان يمكن تحقيقها اذا وصل الانتاج الى حجم الطلب .

وينتهى هؤلاء الخبراء الى ضرورة وضع تخطيط تسويقى فى مجتمعنا يهدف الى ضمان اشباع حاجات ورغبات الافراد الموجوده والمستقبلة من الطاقات الانتاجية الموجودة والمستقبلة ايضا باعتبار أن ربط الخطة التسويقية بالخطة الانتاجية أمر أساسى وجوهرى ييسر على المستهلكين استيعاب الانتاج المتزايد ، فيسهم بطريق مباشر فى دفع عجلات الانتاج .

والواقع أن الصراع بين هذين الرأيين يجعلنا نتساءل عن حقيقة الدور الذى يلعبه الاعلان فى المجتمع الاشتراكى ، ومدى فعالية هذا الدور ، والشكل والمضمون اللذين يجب أن يتخذهما الاعلان لتحقيق الأهداف التى تسعى الدولة الاشتراكية ومنشئات الانتاج والخدمات والتوزيع بها الى تحقيقها .

وفى تقديرنا أن النظرة السلبية الى الاعلان من بعض الخبراء ناتجة من الخلط بين النظر اليه باعتباره غاية في حد ذاته أو باعتباره وسيلة، ذلك أن الاعلان فى حقيقة الأمر ليس غاية ولكنه وسيلة لتحقيق عدد من الغايات والأهداف وعلى هذا الأساس فلا يعتبر الاعلان أداة رأسمالية أو أداة اشتراكية ، وانما يعتبر — فى حقيقة الأمر — أداة محايدة يمكن استخدامها استخدامات تحقق الأهداف التى يسعى اليها المجتمع ككل والمنشئات المعلنة فيه وفق الظروف والسياسات العامة .

وبالتأمل فى سجل التطبيق فى عديد من الدول ذات النظام الاشتراكى يمكن أن نحدد ثلاثة اتجاهات متعاقبة حكمت نظرة هذه الدول الى الاعلان وامكانية استخدامه فى النظم الاشتراكية

ويرتبط الاتجاه الأول ببداية مرحلة التطبيق الاشتراكى فى الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الشرقية بوجه عام حيث كانت النظرة السائدة الى الاعلان فى المرحلة الاولى نظرة سلبية للدور الذى يمكن أن يقوم به ، باعتبار أن الاعلان يقترن بالرأسمالية وبالتالى فان نظرة السياسة الحكومية له لا تعدو واعتباره ظاهرة أو وسيلة رأسمالية لا محل لها فى المجتمع الاشتراكى .

أما الاتجاه الثانى فيرتبط بالمراحل المتوسطة فى عملية التطبيق الاشتراكى حيث تدل سجلات هذا التطبيق فى الدول الاشتراكية على أنه فى الوقت الذى عارضت فيه السياسة الحكوميه مبدأ الاعلان التجارى عموما واجهت تجربة التطبيق الاشتراكى عددا من المشكلات كالاختناقات ، والاختلال فى التوازن فى بعض الاسواق ، والصعوبة فى الوصول الى أهداف معينه ، وميول بعض الجماعات العاملة فى اتجاهات لا تحابى خطة التنمية الاشتراكيه ، ولم يكن من سبيل لمواجهة هذه المشكلات الا بالاستعانة بالاعلان وبأسلوب الحملات الاعلانية المركزية التى تقوم بها الدولة ، وعلى هذا يمكن القول بأن راسمى السياسة الاشتراكية فى هذه الدول — على مستوى الايديولوجيه — أعترضوا فى بادىء الامر على الاعلان كأداة ، ثم اكتشفوا بعد دخولهم فى غمار التطبيق الاشتراكى ومواجهتهم لمشاكل التنفيذ حاجتهم الى الاعلان فى شكل سلسلة متلاحقة من الحملات لمواجهه هذه المشكلات ، وذلك بغرض القضاء على الاسراف مثلا ، أو لضغط استخدامات معينة من المواد الخام النادرة ، أو للتأثير على سلوك المستهلكين أو العاملين فى اتجاهات معينة ، أو لتشجيع أنواع معينة من الاستهلاك لمواجهة مشكلات معينة تتمثل فى تراكم أنواع معينة الواضح لمبدأ الاعلان التجارى ، واستبدث من المخزونات .

أما الاتجاه الثالث — وهو الاتجاه الحديث في النظرة الى الاعلان — فيرتبط بحركة الاصلاح الادارى فى هذه الدول ، ويبدو فيه القبول الواضح لمبدأ الاعلان التجارى ، واستخدام الاعلان كأداة أساسية من أدوات التخطيط الاشتراكى ، مع تحديد الاستخدامات الجديدة للاعلان كأداة من هذه الأدوات .

دور الاعلان فى مجتمعنا الاشتراكى :

وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن ظروفنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تتطلب ضرورة تغيير الدور الذى كان الاعلان يقوم به فى مجتمعنا قبل عام ١٩٦١ واستخدامه — كوسيلة — استخداما رشيدا فى خدمة أهداف خطة التنمية مع الايمان بأهميته باعتبار أننا قد بدأنا التطبيق العربى للاشتراكية فى وقت متأخر نسبيا عن التجارب الاشتراكية الأخرى فى العالم ، مما يتيح لنا فرصة الميزة النسبية لمن يتخلف فى الاستفادة من أخطاء الآخرين

وبالتالى في النظر الى الاعلان النظرة الصحيحة ـ التى أخطأتها التجارب الاشتراكية الأخرى فى بداية التطبيق ـ منذ البداية وتوجيهه الى الاستخدامات التى تتفق واحتياجات مرحلة التنمية التى يمر بها مجتمعنا ، ويتطلب هذا بالضرورة رسم حدود معينة للدور الذى يمكن أن يقوم به الاعلان فى مجتمعنا بما يتمشى مع الأهداف القومية التى رسمتها الدولة فى تخطيطها القومى اقتصاديا واجتماعيا ، وسياسات التنمية الاقتصادية والاجتماعية المتبعة ويمكن أن نبلور حدود الدور الذى يمكن أن يقوم به الاعلان في مجتمعنا فى الوظائف التالية :

١ ـ الاعلان يؤدى الى تطوير الأنماط الاستهلاكية وترشيد الاستهلاك :

يقصد بالأنماط الاستهلاكية الطريقة التى تنفق بها كمية من النقود على أنواع السلع والخدمات ، ويقصد بتطوير الانماط الاستهلاكية تغيير تركيب الانفاق الاستهلاكى الكلى بمعنى زيادة الانفاق أو نقصانه على مجموعة من مجموعات السلع والخدمات بشكل يساعد على زيادة معدل التقدم الاقتصادى ، ويؤدى تطوير الانماط الاستهلاكية أو ترشيد الاستهلاك الى تحقيق عدة أهداف اولها توجيه الانماط الاستهلاكية ـ خاصة القوة الشرائية الجديدة ـ الى انواع أخرى من السلع والخدمات التى لا تقبل عليها ، بغرض أحداث التوازن بين مجموعات السلع والخدمات التى تقدمها الدولة، وبما يؤدى الى تقليل حدة الانفجار الاستهلاكى بالنسبة لمجموعة معينة من السلع أو الخدمات كالسلع الغذائية مثلا ، وثانيها توسيع الآفاق الاستهلاكية بمعنى تعريف مجموعات السكان التى تعيش تحت ظروف معينة كظروف الأمية وتغلغل العادات والتقاليد كما هى الحال فى الريف المصرى بالأنواع الجديدة من السلع والخدمات بما يتيح لهم أمكانية استخدامها ، وادراك قيمتها ، والمنفعة المترتبة على استعمالها . وثالثها توجيه الاستهلاك الى المنتجات العربية التى تحل محل الواردات الأجنبية ، مع العمل على تدعيم الثقة بهذه المنتجات ، خاصة بعد قفل باب الاستيراد بالنسبة لمعظم مجموعات السلع والمنتجات الأجنبية ، بما يؤدى الى تدعيم حركة التصنيع المحلى ، ورابعها حل بعض مشكلات تراكم المخزون بالنسبة لأنواع معينة من السلع والمنتجات عن طريق زيادة الاعلان عنها بما يؤدى الى توجيه المستهلكين الى الاقبال عليها واستخدامها وبالتالى تحقيق التوازن بين السلع المنتجة وتسهيل توزيع هذه السلع .

٢ ـ الاعلان يعمل على زيادة التصدير :

تهدف الدولة الى زيادة صادراتها الى الخارج ، وتوسيع رقعه الأسواق الخارجية التى تتعامل معها ، وارتياد أسواق خارجية جديدة الى جانب الأسواق التقليدية التى تتعامل معها .

ويلعب الاعلان دورا هاما فى الدعاية لمنتجاتنا فى الخارج ، وتقديمها للمنشآت المشتغلة بالاستيراد فى الدول الاجنبية ، وتقوية مركز منتجاتنا العربية فى الأسواق الخارجية سواء التقليدية منها أو الجديدة أمام السلع الأجنبية المنافسة لنا ـ عن طريق الحملات الاعلامية المنظمة ـ ومحاولة فتح اسواق جديدة أمام صادراتنا .

ولا شك أن هذا الدور يزداد أهمية أمام عدد من المتغيرات من أهمها اختلاف ظروف السوق الخارجية عن ظروف السوق الداخلية بالنسبة **لانواع المنتجات المطلوبة ، وخصائص المستهلكين** ومستويات التسعير وطرقه ، واشكال ودرجات المنافسة وطرق الترويج المستخدمه وظهور التكتلات الاقتصادية كالسوق الأوروبية المشتركه وغيرها قبل أن تسنح لمنتجاتنا فرصة توطيد اقدامها فى البلاد المنتميه الى هذه الأسواق ، وفضلا عن ذلك فان مركزنا بالنسبة لأسواق البلاد المستقلة حديثا ـ ومعظمها من البلاد المتخلفة اقتصاديا ـ لا يتمتع بنفس القدرة التنافسية التى تملكها البلاد الصناعيه المتقدمة ، مع الأخذ فى الاعتبار بالجهود التى تبذلها اسرائيل في النشاط التجارى والتغلغل الاقتصادى فى أسواق افريقيا وبعض دول آسيا بغرض عرقلة النشاط التجارى العربى وفرض سيطرتها على معظم هذه الأسواق .

وقد أوصى مؤتمر الانتاج بعدة توصيات بشأن تنمية الصادرات من أهمها ضرورة اضافة سلع جديدة الى السلع التى يتم تصديرها حاليا ، وضرورة تخصيص حصة من انتاج كل شركة ـ كلما أمكن ـ للتصدير وعلى أن يوجه جانب منها الى اسواق العملات الحرة ، وهذا ليس فقط بغرض زيادة حصيلة صادراتنا وانما أيضا لتطوير المنتجات المحلية وجعلها فى مستوى الانتاج العالمى من حيث الجودة والسعر .

ومن هنا يبرز الدور الهام الذى يمكن أن يؤديه الاعلان فى زيادة صادراتنا وفتح الأسواق الخارجية أمامها .

٣ ـ الاعلان يحقق عوائد اقتصادية :

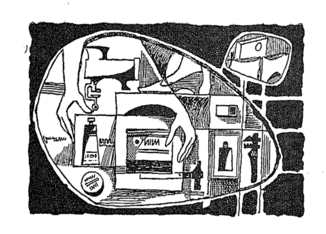
تتمثل أهم العوائد الاقتصادية التى يمكن أن يحققها الاعلان فى عائدين أولهما سرعة وسهولة تصريف المنتجات مما يؤدى الى عدم احداث فجوة زمنية بين الانتاج والتوزيع بحيث يقلل من فترة التخزين ومصاريفه ، كما يقلل من نسبة الاضرار الناتجه عن تراكم المخزون ، اما العائد الثانى فيتمثل فى زياده توزيع المنتجات وزيادة رقم المبيعات مما يؤدى الى تخفيض ثمن الوحدة المباعه نتيجة لتوزيع التكاليف الثابتة على عدد اكبر من الوحدات ، ويؤدى التخفيض فى تكاليف الانتاج الى تخفيض سعر السلعة للمستهلك ، وبالتالى الى زيادة الاستهلاك بالنسبة للسلع عامة، وللسلع التى يمكن تصديرها بصفة خاصه الى درجة تسمح بجعل الانتاج المحلى اقتصاديا لدرجة تمكن من التصدير وتضعه فى مركز ممتاز بالنسبة للسلع الأجنبية المنافسة .

٤ ـ الاعلان يساعد القطاع الخاص على تأدية دوره فى خطة التنمية : ـ

نص الميثاق الوطنى على أن الأهمية الكبرى المعلقة على دور القطاع العام لا يمكن أن تلغى وجود القطاع الخاص ، ان القطاع الخاص له دوره الفعال فى خطة التنمية من أجل التقدم ولا بد له من الحماية التى تكفل له أداء دوره ، والقطاع الخاص الآن مطالب بأن يجدد نفسه، وبان يشق بعمله طريقا من الجهد الخلاق لايعتمد ـ كما كان فى الماضى ـ على الاستغلال الطفيلى .

وقد رسم الميثاق دور القطاع الخاص فى الانشطة الاقتصادية على أساس أن يسهم فى الصناعات الخفيفة وأن يتحمل عبء ربع الصادرات ، أما بالنسبة للتجارة الداخليه فيتحمل عبء ثلاثة أرباعها ليكون المجال فسيحا فى ميدان التجارة الداخلية للنشاط الخاص والتعاونى .

والواقع أن قيام القطاع الخاص الى جانب القطاع العام أمر ضرورى لخلق جو من المنافسة البناءة بين القطاعين تستهدف زيادة الانتاج وتحسينه وتنويعه وخفض التكاليف والأسعار، وهكذا نجد أن الاعلان يلعب دورا كبيرا فى امكان



قيام القطاع الخاص بالمنافسة المطلوبة ،وبالتطوير اللازم ، خاصة وان مجال التصدير ـ الذى يسهم فيه بنسبة الربع ـ يستدعى ضرورة القيام بالحملات الاعلانية المستمرة للدعاية لمنتجاتنا فى الخارج ، وتثبيت أقدامها أمام المنافسة الأجنبية، وفتح الأسواق الجديدة أمامها .

ولما كان القطاع الخاص يضطلع بثلاثة رأباع التجارة الداخلية ، والتى تمثل سلع الاستهلاك اليومية والشائعه الاستعمال والسلع المعمرة فان الاعلان يعتبر ـ بالنسبة له ـ من ألزم الضروريات لتسهيل تصريف هذه السلع وتسويقها ، ومد الخدمة التسويقية فى مجال التجارة الداخلية الى معظم أنحاء الجمهورية .

٥ ـ الاعلان يؤدى الى زيادة المدخرات :

يمثل نقص المدخرات القومية مشكلة من أهم المشكلات التى تعانى منها الاقتصاديات المتخلفة ـ ومنها الاقتصاد المصرى ـ كما يعتبر توفير المدخرات اللازمة شرطا أساسيا للقيام بعملية التنمية الاقتصادية حتى يمكن القول أن عملية

التنمية تعتبر — بصفة أساسية — عملية تراكم المدخرات ، وأن نظرية النمو لا تعدو أن تكون بصفة أساسية نظرية لتراكم رأس المال .

وان احدى الشعب الحيوية التى تشكل المعادلة الصعبة هى كيف يمكن أن نزيد المدخرات من أجل الاستثمارات الجديدة ، والاعلان — الى جانب الوسائل والاجراءات الأخرى التى تقوم بها الدولة — يمكن أن يؤدى دورا تعليميا كبيرا فى هذا المجال عن طريق توعية الجماهير على الادخار ، وبيان الفائدة التى يمكن أن تعود على على الفرد والمجتمع نتيجة زيادة المدخرات ، وتدل البيانات التى خلصنا اليها من أحد البحوث الميدانية لنا عن تحليل الانفاق على الاعلان فى الصحف على ازدياد نسبة الانفاق الاعلانى على الادخار سواء فى قطاع التأمين أو البنوك ، أو صندوق توفير البريد ، مما استتبع زيادة المدخرات بنسبة كبيرة ، مما يؤكد أهمية الاعلان وفعاليته فى امكان زيادة المدخرات .

٦ — الاعلان فى المجتمع الاشتراكى يؤدى وظيفة اعلامية :

لا يقتصر الدور الذى يقوم به الاعلان فى مجتمعنا على الاعلان عن السلع والمنتجات والخدمات فقط ، وانما ينبغى أن يتعدى ذلك الى اعلام مختلف فئات الشعب بالمشروعات الجديدة التى تنشأ ، والمصانع الجديدة التى تفتتح ، والتطوير المستمر للمشروعات القائمة ، ومدى ماتسهم به هذه المشروعات فى تقدم المجتمع ونموه ورفاهيته ، وهكذا يسهم الاعلان الاعلامى فى توصيل فلسفة العمل الوطنى التى ينص الميثاق على أنها يجب أن تصل الى جميع العاملين فى الوطن فى كافة المجالات ، بل يجب أن تصل اليهم بالطريقة الأكثر ملاءمة لكل منهم ، والاعلان — بوسائله المختلفة من صحف ومجلات ودوريات وكتيبات ونشرات وسينما وراديو وتليفزيون وملصقات وبريد مباشر — يؤدى الى توصيل هذه الفلسفة بالطريقة الملائمة لجميع المواطنين فى مختلف أنحاء جمهوريتنا .

أخطاء سياسة الاعلان الحالية :

هذه بصفة عامة هى الوظائف الأساسية للاعلان فى المجتمعات الاشتراكية النامية ، وهى نوع الوظائف التى تقابل احتياجات أو مشكلات معينة مثل تلك التى يتعرض لها مجتمعنا فى فترة تحوله الاشتراكى .

على أن هناك الى جانب ذلك مجموعة أخرى من الاعتبارات الأساسية التى تتمثل فى كون القطاع العام فى مصر هو المعلن الأول فى وسائل النشر المختلفة . وان استخدامه للاعلان يتزايد باستمرار نظرا لقيامه بالعبء الاكبر فى الانشطة الاقتصادية المختلفة ، وأن الدولة — باصدارها قانون تنظيم الصحافة — قد نقلت ملكية الصحف الكبرى من الملكية الفردية الى الملكية العامة بفرض تحرير الصحافة من سيطرة رأس المال واعطائها الحرية الكافية لممارسة نظرية المسئولية الاجتماعية مع غيرها من وسائل الاعلام الأخرى، فضلا عما دلت عليه التجارب السابقة فى النظم الاشتراكية من أن الدولة هى التى تتولى الاعلان وفق سياسات مركزية تتمشى مع أهداف خطة التنمية بعكس الاعلان فى المجتمع الرأسمالى الذى يتولاه الافراد وأصحاب رءوس الأموال وفق سياسات المشروع الرأسمالى وأفراده .

فاذا نظرنا الى الحقائق السابقة مجتمعة سنجد ان الدولة هى التى تضع خطة التنمية على المستوى المركزى وتشرف فى الوقت نفسه على ادارة القطاع العام بغرض تنفيذ هذه الخطة عن طريق التنظيمات الخاصة به ، فضلا عن اشرافها على الصحف وتوجيهها لها وفق ما تقتضيه المصلحة العامة فى اطار من نظرية المسئولية الاجتماعية التى تنتهجها الصحافة .

ولما كان الاعلان وسيلة من وسائل الاسراع فى تنفيذ خطة التنمية ومعالجة بعض العيوب التى تعترض تطبيقها ، فضلا عن الاستخدامات الهامة له ، فلقد وجب أن تقوم الدولة بنفسها بالاشراف على الاعلان وتوجيهه الوجهة الصحيحة التى تتيح الاستفادة من الاستخدامات الجديدة له وفق سياسات مركزية ، ولكن الملاحظ انه حتى الآن لم تبادر الدولة الى تنظيم الاعلان وتوجيه استخدامه — كما تفعل فى سائر الأنشطة الأخرى كالصناعة والزراعة والتجارة والمال وغيرها — مما يدل على قصور السلطة المركزية لدينا عن ادراك أهمية الاعلان ودوره فى هذه المرحلة التى يمر بها مجتمعنا . ونحن بهذا لا نطالب بالحد من الاعلان أو تقييده ، بل على العكس نطالب بتغيير مفاهيمه وبعض وظائفه ، واستخدامه بطريقة ملائمة ومركزة ومتوازنة للاسهام بدوره كوسيلة هامة وفعالة . فقد لاحظنا أن الاعلان يتعارض — فى بعض الحالات — مع أهداف خطة التنمية ومع قيم مجتمعنا كأن يدعو الى اغراء المواطن بمزيد من الاستهلاك

بالنسبة لبعض السلع والمنتجات فى الوقت الذى تدعو فيه الدولة الى الحد من الاستهلاك منهـا وتوجيه الاستهلاك نحو سلع بديلة أخرى، بالاضافة الى تزايد اعلانات المكاسبات ذات الصبغة الشخصية على حساب الاعلانات التجارية مما يتنافى مع مبادىء الاعلان وأهدافه ويؤدى الى انفاق المال العام فى غير المصلحة التجارية للمشروع، هذا فضلا عن اتخاذ الاعلانات الاعلامية نمطا فى التحرير يختلف عما يجب أن تهدف اليه من نشر الحقائق عن المشروع المعلن عنه، واصطباغها فى عدد كبير من الحالات بالصبغة الشخصية دون الموضوعية مما يقلل من فعالية الاعلان الى حد كبير، ويؤدى الى فقد ثقة القراء فى مثل هذه المشروعات وهو عكس ما يستهدفه الاعلان الاعلامى .

وعلى هذا فان واجب الدولة اذن أن تتدخل فى رسم سياسة الاعلان وتوجيهها مثلما تتدخل فى رسم سياسة التخطيط والتنمية وتوجيهها بحيث ترتبط السياسة الاعلانية بسياسة التخطيط الاقتصادى والاجتماعى للدولة — سواء التخطيط طويل الأجل أو قصير الأجل — بالأهداف التى ترمى الدولة الى تحقيقها من ورائه والتى تسهم فى الاسراع فى تنفيذ الخطة ومعالجة بعض العيوب والانحرافات التى تصادفها أثناء التطبيق .

ويتطلب نجاح هذه الخطة المركزية ضرورة تضافر جهود المؤسسات العامة والشركات وأجهزة الاعلان فى هذا المضمار، بحيث تقوم المؤسسات العامة بالاعلانات الجماعية والتى تستهدف تنشيط الطلب الاولى على مجموعة السلع والخدمات التى تقوم الشركات التابعة لها بانتاجها وتقديمها بدلا من اقتصارها على القيام باعلانات المناسبات أو الاعلانات الاعلامية أو الرسمية، بالاضافة الى دورها فى رسم خطة جزئية للاعلان بالنسبة لكل شركة من شركاتها بحيث تتكامل — فى النهاية — الخطط التفصيلية للاعلان فى مختلف الشركات التابعة للمؤسسة فى خطة واحدة ترتبط أيضا بالأهداف المرسومة للمؤسسة لكى تتولى تحقيقها ضمن اطار الخطة القومية الشاملة، هذا فضلا عن الدور الرقابى الذى يجب أن تقوم به المؤسسة على اعلانات شركاتها من حيث نوعية الاعلان ومدى ملاءمة الوسيلة الاعلانية المستخدمة وكثافة الحملة الاعلانية، ولا يعنى ذلك تدخل المؤسسة فى تفاصيل الاعلان فى شركاتها، وانما يستهدف تقييم الجهود الاعلانية التى قامت بها ومدى تحقيقها للنتائج المتوقعة أو قصورها وانحرافها عن الدور المرسوم للخطة الاعلانية .

أما دور الشركة فيتمثل فى تنشيط الطلب الثانوى أو الاختيارى على مجموعة السلع أو الخدمات التى تقدمها وذلك بابراز المزايا والفوائد الخاصة بالماركات المعينة التى تنتجها او بنوع الخدمة التى تقدمها وذلك فى اطار الأهداف العامة للخطة العامة والخطط التفصيلية دون جنوح بالاعلان الى استخدامات تتنافى مع هذه الخطط أو تزيد الاستهلاك بدرجة أكبر من الانتاج المتاح، مع التزام الاعلان بأخلاقيات معينة تستهدف عدم التغرير بالمستهلكين وعرض المزايا الحقيقية للسلعة أو الخدمة دون التهويل فى هذا المجال مما قد يخلق أثرا عكسيا لدى المستهلكين .

أما وسائل الاعلان — وأهمها الصحافة — فانها تحتل الجانب الأقوى فى العلاقة مع المعلنين، وبهذا تستطيع أن تفرض عليهم بعض المبادىء او الأخلاقيات التى يجب أن تتوافر فى الاعلانات المنشورة أو المذاعة، فتستطيع وسائل الاعلان — على سبيل المثال — أن تتفق فيما بينها على الاعراض عن نشر اعلانات المناسبات — الا فى بعض الحالات النادرة — والاعراض عن نشر بعض الاعلانات الاعلامية المبالغ فيها والاعلانات التى تتخذ الطابع الرأسمالى فى تحريرها، فضلا عن اعراضها جميعا عن نشر الاعلانات الخاصة بالمعلن الذى يحاول ان يفرض آراءه على أية صحيفة أو وسيلة اعلانية منها أو أن يتحكم فى سياستها التحريرية بشكل أو آخر .

كما نضيف الى ذلك ضرورة وجود قسم بكل وسيلة اعلانية للرقابة على الاعلان والتأكد من صحة ما جاء به من بيانات أو معلومات قبل نشره حتى لا يصبح الاعلان وسيلة للخداع أو الاحتيال أو ابتزاز الأموال، فكما تتأكد الصحيفة من صحة الاخبار السياسية والاجتماعيه قبل أن تنشرها، عليها أن تتأكد أيضا من صدق الاعلانات التى تنشرها باعتبار ان الاعلان هو أخبار التجارة والمال والاقتصاد فى الصحيفة .

وعلى هذا الأساس يمكن أن يتكامل الجهد التخطيطى والتنفيذى والرقابى على الاعلان بين الحكومة والمؤسسات والشركات ووسائل الاعلان كل فى مجاله فى حدود الاطار العام لدور الاعلان فى مجتمعنا الاشتراكى، وفي ظل نظرية المسئولية الاجتماعية التى يجب أن تعمل وسائل الاعلان والاعلام فى اطارها .

سمير حسين

في اللحظة التي وطأت قدم « أرمسترونج » أول انسان أمريكي يهبط فوق القمر سطحه ، ترك العلم الحديث والتكنولوجيا بصماتهما عليه ، وأخرج الرائد لوحة عليها عبارة مختصرة لتكون دليلا على سلامة نية القادمين الى الكوكب ،وتصير قولا مأثورا يبقى مع آثار الامكانيات العلمية المتروكة ، وهي « لقد أتينا في سلام من أجل

ماذا جرى للحلم الأمريكي ؟

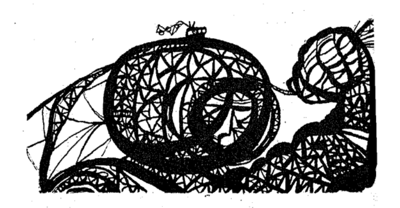
محمد علي بركات

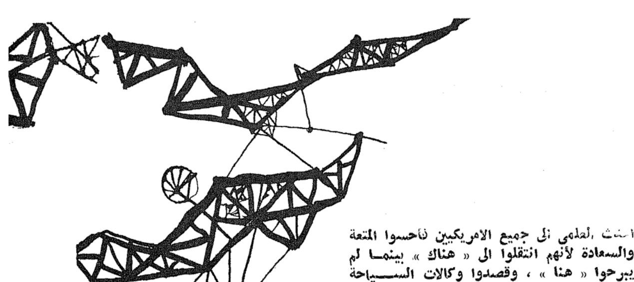
البشرية جمعاء » ، وذلك جريا مع العرف الامريكي الذى اعتاد خلق الأقوال الموجزة الملخصة لتجربة كبيرة فى ألفاظ قليلة تبسيطا للأمور ، ومن ثمة قال وهو يهم بالهبوط « انها خطوة قصيرة للانسان ووثبة عملاقة بالنسبة للبشرية » ، وبذلك رمزوا لتجاور العلم والحكمة •

وكان ما حدث في حقيقته تحقيقا لأحد جوانب الحلم الأمريكي ، وكشفا عن طبيعة عصر التكنولوجيا الذى يحيا فى ظله ، ويخضع لسلطانه المواطن الامريكي •

ان حلم الأمريكي في الوصول الى القمر صادق، وهو أحد التوقعات التى كان يتطلع اليها عبر المستقبل ، والتى نسجت خيوط الحلم المعبر عن آمال لا حدود لها •

لقد أمكن رواد الفضاء أن يقوموا « بمغامرة » دون « مخاطرة » ، وحينما هبط رائدا الفضاء فوق الكوكب ، كانت معهم وسائل التكييف والتأقلم والاجهزة التى نشروها وسرعان ما صار المكان « متأمركا » ، ونقلت شاشات التليفزيون





السبق العلمى الى جميع الامريكيين فأحسوا المتعة والسعادة لأنهم انتقلوا الى « هناك » بينما لم يبرحوا « هنا » ، وقصدوا وكالات السياحة ليحجزوا أماكنهم لزيارة القمر بعد أن حلت « السياحة » محل « الرحلة » و « التفرج » بدلا من « الاستكشاف » ، حيث يذهبون الى هناك ويشاهدون ما توقعوا أن يشاهدونه ، وكأنهم على معرفة مسبقة بما سيرون. وخرجت الصحف تحمل أنباء الحدث فى انفعال ، بعد أن ران على العالم سكون ورتابة وخلو من الشيق المثير ، وطول الف لأخطار الأرض ومنازعاتها ، فتكفلت التكنولوجيا الامريكية بخلق الحدث المحرك للفضول والمثير للانتباه ، والمفجر للحماس ، وخرجت « النيويورك تايمز » بأكبر حروف لعناوينها منذ صدورها قبل ١١٨ عاما لتحمل نبأ هبوط الانسان على القمر . وحل « أرمسترونج » فى ذيوع الاسم وانتشاره محل آخرين ، وبذا صنع لفترة أخرى مشهورا من المشاهير ليحل فى المجتمع الامريكى محل البطل العظيم بالمعنى التقليدى ، وعمت الفرحة الجميع لأنهم عاشوا هذا الحدث ، ودخلوا « الصورة » فصار لهم حق المباهاة والتفاخر بأنهم عاصروا هذه اللحظات .

لكن ماذا وراء التكنولوجيا التى تحمل الانسان على اقتحام الفضاء والهبوط فوق القمر ؟ ما رد فعل الامكانيات الحديثة الوفيرة على عقل المواطن الامريكى ووجدانه ؟ هل تحققت آماله ؟ أشبعت تطلعاته ؟ هل « الصورة » التى يحلم بها اكتملت ؟ هل تحقق الحلم الامريكى أم ماذا جرى للحلم الأمريكى ؟ .

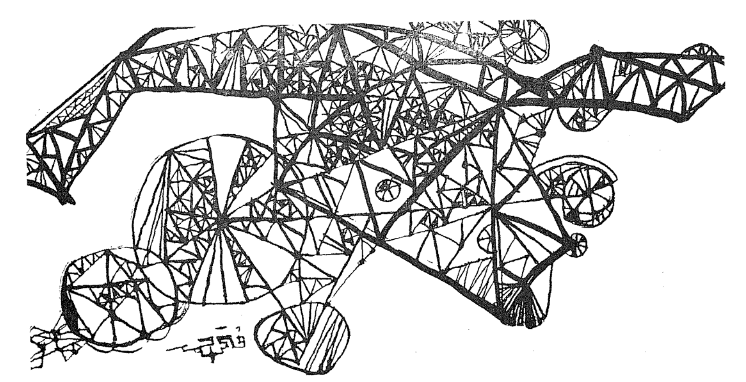
هذا التساؤل طرحه يوما « ادوارد البى » الذى اتخذ منصة يضع فوقها أمراض المجتمع الامريكى ويسلط عليها قلمه ليظهر التفسخ والتهافت ، ففى مسرحيته « الحلم الامريكى » يتناول بعض جوانب الحلم الامريكى الخادع ليبين الانفصام الفكرى ، والانشطار الوجدانى ، ويسخر من المثل العاطفية الكاذبة فى الأسرة الامريكية ، ويجسد الحلم الامريكى فى صورة شاب قوى العضلات ممشوق القوام جذاب الطلعة الخارجية ، خاو وسطحى الأعماق ، يلهث وراء المال ، يرمز للمثل الزائفة المنهارة التى طغت على القيم النبيلة الصادقة وقامت محلها .

فاذا كان هذا تفسير « الحلم الامريكى » عند « ادوارد البى » ، فان باحثا أمريكيا يقدم كتابا يتضمن دراسة فاحصة يغوص فيها أغوار المجتمع الامريكى ، ليستخرج أسباب الخداع والزيف الذى يسوده ، وعنوان كتابه « الصورة أو ماذا جرى للحلم الأمريكى ؟! » .

والمؤلف يواجه بصراحة عيوب مجتمعه ، ويجهر بمثالبه ، فتحس فى عرضه أنه « دراسة اعترافية » يعبر فيها عن حقيقة حال شعب فى جرأة ونزاهة ودون مواربة أو طمس لحقيقة . ويمحص خداع الذات الامريكى ، وكيف يخلق رجال الصحافة أخبارا لا وجود لها ، وتقدم السينما أبطالا « مفبركين » ، وتعد وكالات السياحة مغامرات دون مخاطرة ، وتضخم الاعلانات « اللا شىء » لتجعل منه « أى شىء » ويتحول المنكرات الى أعلام ومشاهير .

والكتاب تحليل من الداخل لعقلية المجتمع الامريكى التكنولوجية ، حيث يبذل المواطن طاقته لتوفير الوسائل التى يخدع بها ذاته ، ويشارك فى خلق « الصور » التى تكونها الصحف ، والتليفزيون ، والسينما ، والاعلانات ، والكتب المختصرة ، والمجلات الملخصة وغيرها .

ومؤلف الكتاب دانيل .ج. بورستين ، أستاذ



التاريخ الامريكي في جامعة شيكاغو ، وشغل عامي ١٩٦١ و١٩٦٢ منصب أستاذ كرسي مادة التاريخ الامريكي بالسوربون • وعمل محررا في المعارف البريطانية ، ويشرف على نشره « تاريخ الحضارة الامريكية » ، وحصل على جائزة «بانكروفت» لمؤلفه «أمريكا وتجربة الاستعمار» ، وله مصنفات هامة مثل «قانون العلم الغامض» ، و « عالم توماس جيفرسون المفقود » ، وغيرها ، وكلها أثارت الجدل عند صدورها • وهيأت له زياراته لمختلف الدول أن يصطبغ فكره بالعالمية ورأيه بالموضوعية التي مكنته أن يقف من أمريكا موقفا غير متحيز •

والمؤلف يبحث عن جذور الاباطيل التي تعم المجتمع ، ويحلل أنواع الزيف والخدع التي تقدم للمواطن الامريكي ملبية رغباته ، ومشبعة تطلعاته ويحدد موضوع كتابه ومقصده ، انه « خداع الذات ، وكيف نواري الحقيقة عن أنفسنا ، انني لست في حاجة لأن أكون طبيبا لأعرف أن شخصا ما مريض ، ولكنني أعرف حالة الوهم عندعرضها أمامي ، وأميز الصورة الزائفة حينما أراها » •

فالكتاب محاولة لكشف الخداع والغش ، وتحليل أخلاق المواطن الامريكي الذي يرى العالم من خلال انعكاسات مرايا الأجهزة الاعلامية التي تخلق « الصورة » وتمسخ « الحقيقة » •

ان عملية افساد مفعول السحر ليست مهمة الكاتب ، ولكنها واجب القارىء ، واذا لم يستطع أن يزيل بعض الضباب ، فانه ربما استطاع مساعدة القارىء على كشف طريقه بنفسه ورؤية المنظر ليشق طريقه الذي يختاره •

آمال جشعة

ان المجتمع الذي يترك أطماعه تمتد دون حدود ويتطلع الى المستحيلات ، يفضي به الامر الى تضخيم آماله ، واستفحال تطلعاته ، ومن ثمة يندفع في تهور سعيا وراء اشباع المطامع، ويسوده الخداع والوهم الذي يتواطأ الجميع على اغماض الطرف عنه ، والمؤلف يعترف بذلك حينما يقول « انني أصف عالما من صنعنا ، وكيف استفدنا من ثروتنا ، ورخائنا ، وتكنولوجيتنا ، وتقدمنا ، في خلق الاباطيل التي ساقتنا الى خداع أنفسنا بشتى الوسائل ، التي تساعد على نمو أوهامنا النابعة من آمالنا الجشعة والمسرفة التي تتجاوز حدود العقل والاعتدال • اننا نتوقع أن نجد أشياء كثيرة في العالم ، نريد أن نتزود بالأخبار لحظة بلحظة ، من الجرائد في الصباح ، والراديو في سياراتنا ومكاتبنا ، وان يكون بيتنا مأوى للدفء والراحة والاستمتاع بالموسيقى والهوايات • نريد أن يكون المكان الذي نرحل اليه بعيدا عن وطننا « متأمركا » ، ونرى أبطالا كل موسم ، وتحفة أدبية كل شهر ، وعرضا دراميا كل أسبوع ، ونأمل أن نكون أثرياء وأقوياء ورحماء ومتناحرين ، ونأكل بشراهة ، ونحافظ

على رشاقتنا ، وننعم بالعزلة بين جيراننا • ان آمالنا تجمع بين التناقضات والمستحيلات ، وتسوقنا الى طلب الوهم الذى يؤدى الى خداع أنفسنا ، وندفع للآخرين كى يخدعوننا• وأصبحت صناعة الأوهام «مهنة» أمريكية من أعظم الأعمال احتراما • أنا نعيش أوهامنا التى ألفناها وأصبحت هى الحقيقة ، انها عالمنا الذى صنعناه ، انه عالم من « الصور » التى حلت محل « الحقيقة » •

أحداث مزيفة

فى عرض المؤلف لأنواع الاوهام التى يعيشها المجتمع الامريكى ، والتى تشكل « الصور » التى تخلق الحلم الامريكى ، يتناول الحوادث المزيفة التى ترتبت على الانتقال من انتقال الأخبار وجمعها الى صناعتها • فقد انقضى الزمن الذى كان فيه قارىء الصحيفة يعبر عن سخطه وضيقه اذا لم يجد فيها جديدا بقوله « كم هو عالم سخيف وممل اليوم ! » ، وأصبح يقول : « يا لها من صحيفة سخيفة ومملة ! » • وبعد أن كان المسئول عن وجود الاخبار القدر أو الشيطان ، أصبح المسئول عن اضفاء الاثارة والتسلية على العالم هو الصحفى فاذا لم تكن هناك أخبار بالفعل ، كان على الصحفى أن يضعها • وصناعة الحوادث المزيفة تشغل مكانة هامة فى تغذية الأوهام ، حتى يصير العالم أكثر ملاءمة ، وعلى الصحفى ألا ينتظر الظروف المواتية ولكن واجبه خلقها •

وصناعة الحوادث المزيفة تدخلت فى أكثر الامور اعتمادا على التلقائية كنقل الاستقبالات الشعبية للقادة والزعماء بالتليفزيون ، اذ يصاحب الكاميرا أخصائيون فى اثارة انفعالات الجماهير ، وتتفرق الكاميرات فى أماكن متعددة ، حتى تنقل اللقطات « الدراماتيكية » المشحونة بالحماس والحركة والصياح ، وهى تكون غالبا تعبيرات صادرة من جمهور يركز اهتمامه على الكاميرا ذاتها حتى يظهروا على شاشة التليفزيون ، وسرعان ما يعودون مهرولين الى بيوتهم حتى يشاهدوا أنفسهم ، وهكذا يشترك المواطن نفسه فى صناعة الحوادث المزيفة التى تمتعه أكثر من مشاهدة الواقع الذى يتعارض مع مايتوقعه فالمواطن لم يعد فى حاجة الى أن يكون ممثلا محترفا كى يرى نفسه فى مشهد غوغائى ، أنها ليست عفوية ، بل يخطط لها وتعد لتتحول الى مادة صحفية ، ويقاس نجاحها بمدى اهتمام الصحافة والناس بها ، وهى غامضة لا تعطى تفسيرا كاملا لكل شىء • ومع ظهور الثورة فى الفنون فيما يطلق عليها المؤلف ، والتى شملت الرسم والنحت والتصوير والطباعة والنشر ، وظهور مخترعات هامة مثل التليفون (١٨٧٦) والفونوغراف (١٨٧٧) وبكرة الفيلم (١٨٨٤) وكاميرا كوداك (١٨٨٨) والراديو (١٩٠٠) ، وازدياد أهمية التليفزيون تجاريا عام ١٩٤١ ، فرضت الحوادث المزيفة أهميتها ، وتحول التقاط وجمع الاخبار الى صناعتها ، حتى يمكن أن تستمر هذه الأجهزة مع تطورها فى عمل مستمر •

واذا كان « ابراهام لنكولن » قال : « يمكنك أن تخدع كل الناس بعض الوقت ، وتخدع بعض الناس كل الوقت ، الا أنك لن تستطيع أن تخدع كل الناس كل الوقت » ، فان المواطن الامريكى يعيش فى عالم الخيال فيه أكثر من الحقيقة ، والصور أكثر من الواقع ، بحيث أصبح من المتعذر عليه التمييز بين الحقيقة والزيف الذى يعيش فيه كل المواطنين كل الوقت •

من الأبطال الى المشاهير

ونتيجة للبهتان والتضليل الذى يسعى اليه المواطن الامريكى امتدت صناعة الزيف والخداع الى عالم البطولة والشهرة • واذا كان « شكسبير » قسم عظماء الرجال الى ثلاث أنواع الذين ولدوا عظماء ، والذين يكتشفون العظمة ، والذين تهبط عليهم العظمة ، فانه لم يذكر الذين يستأجرون خبراء العلاقات العامة ، والسكرتيرين الصحفيين ليظهروهم فى مظهر العظماء • وهذا يرجع الى القدرة على احاطة الانسان بهالة الشهرة ، بعد أن مضى الوقت الذى كانت فيه الشهرة تعنى العظمة ، ولم يكن الرجل يصير مشهورا الا اذا تحلى ببعض الصفات البطولية من شجاعة ونبل وقدرة على اتقان الاعمال العظيمة ، وكانت الشهرة تتحقق ببطء ، ولكن فى أمريكا اليوم يمكن الفرد أن يصير مشهورا بين يوم وليلة ، عن طريق « فبركة » الشهرة التى يساعد على نشرها التليفزيون ، والسينما ، والاذاعة والصحافة • واذا كان فى الامكان اضفاء الشهرة على أى رجل أو امرأة ، الا انه لايمكن عدهم من العظماء ، اذ يمكن صناعة الشهرة ، ولا يمكن صناعة الابطال لأنهم يصنعون أنفسهم •

والانسان الذى يبلغ الشهرة يجد هوى فى نفس المواطن الأمريكى لأنه يرغب فى القراءة عنه ، ومشاهدته فى التليفزيون ، والاستماع الى صوته• وهكذا بعد أن كان البطل يتميز بانجازاته،

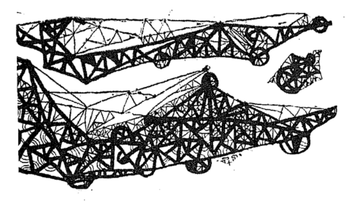
صار المشهور يتميز بصوته أو علامته التجارية • فالبطل انسان عظيم ، والمشهور اسم كبير ، والمشهور اليوم يولد فوق الصحف ، وهي التى تقتله وتقضى عليه ، بينما موت البطل يحقق له الخلود ، ويصير أكثر حياة فوق صفحات الزمن، والمشهور يمكن أن يتحول فى حياته الى شىء من الماضى ويخمد اسمه بسرعة ليظهر محله عدد كبير من المشاهير •

من الرحلة الى السياحة

ثم ينتقل المؤلف الى تحليل أثر التطورات التكنولوجية على مفهوم «المغامرة» و « الرحلة » ، فيقول : لقد حسبنا أن التكنولوجيا ستنقذنا من الملل والرتابة ، وتصورنا أنه بفضل الآلات الحديثة سيمكننا أن نطوف العالم فى رحلات • ولكن كلمة « مغامرة » التى كانت مقترنة برغبة الانسان فى رؤيته للأشياء لأول مرة ، واكتشافها ومشاهدة ما هو غير مألوف ، وحرية اختيار الاماكن ، أصبحت فارغة من مدلولها الأصلى ، فالمغامرة تتم وفق خطة تخلو من المصادفات والمفاجآت • ان كثيرا من الامريكين يرحلون خارج أوطانهم ، ولكن رحلاتهم أكثر التصاقا بوطنهم ، ذلك أن كل ما تقدمه اليهم وكالات السياحة يقوم على الحوادث المزيفة التى تهىء للمواطن الأمريكى مشاهدة أشياء غريبة ، ومألوفة في وقت واحد ، ويعيش مخاطرات دون أخطار حقيقية وفعلية ، ويجد الراحة التى يلقاها فى بيته تنتظره فى أدغال أفريقيا •

ان المواطن الامريكى يطلب رؤية عالم قد أعد على مسرحه مجموعة من الحوادث المزيفة • لقد كان الرحالة فيما مضى ايجابيا بتعرضه لأخطار حقيقية ، ومواجهته المصاعب ، وصراعه اليقظ للتغلب عليها ، واليوم أصبح سلبيا وتحول الى مجرد مشاهد ، وابتعد عن الأخطار والمصادفات التى تعكر صفوه وتقتضيه بذل الجهد ، وتحمل القليل من المشقة ، وانهار عصر « الرحلة » ليبدأ عصر « السياحة » • والسائح يقوم برحلته للمتعة ، والرحالة يشغله شىء ما يتكبد فى سبيله المتاعب • واليوم تقدم كافة التيسيرات للقيام بالسياحات منذ أن قام « توماس كوك » (١٨٠٨ ـ ١٨٩٢) فى الأربعينات من القرن التاسع عشر بتنظيم أول سياحة جماعية • وفى الغالب يشاهد السائح أماكن لا تعنيه ، لمجرد أن وكالات السياحة ضمنتها برامجها لشهرتها ، وانعدمت الأخطار فى الرحلات • وكان الرحالة يلتقى بالمواطنين ، فأصبحت مهمة الوكيل السياحى أن يحول دون ذلك • ولم يعد السائح الامريكى يواجه أية متاعب ، أو يلقى مشاقا ، فحيثما يحل يجد نفسه فى فندق سياحى يتوفر فيه كل الوسائل المرفهة ، ولذا فانه مهما تعددت الفنادق التى ينزل بها فكلها على الطراز الامريكى الحديث سواء أكان فى الكاريبى هيلتون أو استنبول هيلتون ، فكلها لا يمكن التمييز بينها من حيث التصميم الداخلى ، كأنك فى شركة خطوط جوية أمريكية ، ما عدا المناظر التى تراها من النوافذ، والتى لولاها لما عرفت أين أنت •

وتقوم الشركات السياحية « بفبركة » الأخطار ، وتصميمها ، وتخطيطها ، وجعلها شيئا حيا يعاش ، ويقبل التصديق ، وبذلك تلعب الحوادث المزيفة دورها فى طرد التلقائية، والعفوية وتوفير الاخطار فى سلام ، والمتاعب فى أمان ، ثم تلتقط الصور التى تعبر عما توقع السائح الامريكى مشاهدته ، ولذا فكأنه ينظر فى المرآة ، ويرى نفسه ، وصارت السياحة تحصيل حاصل



ذوبان الأشكال الأدبية

ان المجتمع الامريكى يسوده احساس بالقدرة على سيادة عالم مرن طيع ، يسهل تشكيله وفق الارادة ، وحسب مشيئته ، ويمكن صبه فى القالب المحقق للآمال الجشعة ، والتطلعات النهمة•

والمؤلف يكشف عن التغيرات التي ترتبت على هذا الوهم • فيرى أن الجهود اتجهت فى أول الامر الى جعل الفن والأدب فى متناول ادراك العامة ، حتى يمكن لمن لا يعرف اللغات القديمة أن يعثر على المؤلفات المبسطة التى تعينه على القراءة ، فظهرت قصص ه ن شكسبير عام ١٨٠٧ من اعداد تشارلس لامب ومارى لامب ، وقدم توماس بودلر عام ١٨١٨ ، عشر مجلدات لأعمال شكسبير لتقرأ فى وسط العائلة بصوت مرتفع ، ثم «انحلال

وسقوط الامبراطورية الرومانيـــة « جيبون فى صورة مبسطة .

واشتقت من اسم Bowdler كلمة Bowdlerize بمعنى التهذيب فى النصوص ، وحذف الصعب ، واستبعاد ما لا يليق .

وامتد الاتجاه نحو نشر الأعمال الأدبية وجعلها شعبية الى الأعمال الفنية .

وأدى التنافس بين المجلات مع تطور الطبـاعة الى نشر المسلسلات الروائية بها ، ثم صـــدرت فى ملاحق خاصة، وصار فى الامكان بدولارات قليلة شراء اللوحات الفنية ، واقتناء نماذج معـدنية ، وبلاستيكية لقطع مصرية أثرية ورومانية ..ومكنت الثورة فى الفنون من الانتاج بالجملة للأعمال المقلدة والفرق بين التقليد والأصل فى السعر ، ولا يمكن تبينه الا لعين الخبير ، وقيمة العمل فى مـــدى انتشاره والاقبال عليه ، وتيسير اقتنائه .

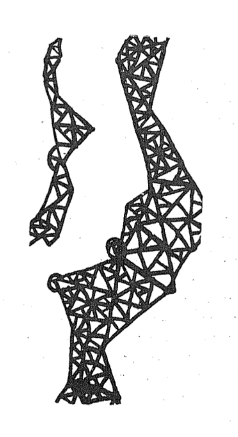
ولم تكن الرواية الانجليزية حتى القرن الثامن عشر ذات شعبية ، أو واسعة الانتشار ، ولم يكن من المتيسر الحصول عليها الا بأسعار غالية ،ولطبقة معينة ، ونقل أحداث الروايات بمشاهدهــــا ومعاركها على المسرح أو السينما كان متعذرا .

ولكن كاميرا السينماحطمت العقبات التى فرضت على الاعمال الروائية أن تظل حبيســـة الورق ، ملتصقة بالحروف ، وصار للسينما مكانتها فى نقل المشاهد الضخمة الفخمة منذ أن قدم « جرافيث » الفيلم السينمائى « ميلاد أمة » (١٩١٥) الذى جذب الملايين ، وعقب الرئيس « ويلسون » عـلى الفيلم بعد مشاهدته عرضه فى البيت الابيـــض بقوله : « انه مثل كتابة للتاريخ بالأضواء » .

ومنذ ذلك الحين أمكن نقل كثير من الروايات ذات القيمة الادبية الى السينما ، كما يسر المسرح والتليفزيون مشاهدة روائع الاعمال الادبيـــة ، وانتشارها .

وأدى « الايجاز » و « التلخيص» الذى كان يعتبر يوما ما شكلا أدبيا رفيعـــا الى رواج المختصرات والملخصات الشعبية لأعمال كبار الكتاب والأدباء.

وشعر المواطن الامريكى مع كثرة عدد المجلات وازدياد عدد الكتب التى تنشر ، بحاجتـــه الى تلخيص ثقافة العالم وأفكاره وأحداثه ، وتدفقت المختـــصرات والملخصـــــات مـع تأســـيس « الريدرزديجست » عام ١٩٢٢ وأصبحت أوسع المجلات انتشارا لاعتمادها على الملخصـــات التى هى صور الاصول . ولم تخـــل المختصرات من



اصطناع حوادث الزيف، اذ كانت الريدرزديجست تطلب من بعض الكتاب نشر مقالات معينـــة فى المجـلات ، ثم تقوم بتلخيصها كمـادة سـبق نشرها ، ومن ثمة انتفت العفوية فى الموضـوعات التى تكتب ، وتوارت التلقائية فى اختيار المادة ، وأصبح الامر يعتمد على المقالات المزيفة .

والمختصرات تقدم للقارىء ــ فى الغـالب ــ الأفكار الأساسية دون الاهتمام بالقـــالب أو الشكل ، وبالتالى تعرض الاعمال الادبية بطريقة غير أدبية وأفضى ما يعرض فى مجلات المختصرات والملخصات الى نوع من التلاشى والذوبان للأشكال والقوالب الأدبية التى تصاغ فيها الأفكار ، كما افتقدت المهـارة الأدبية فى أعمال العلمـاء كما عهدناها فى أعمال دارون ووليم جيمس وفرويد. ثم أصبح التلخيص مشكلة نظرا لزيادة عـــدد الموضوعات المطلوب تلخيصها ، وتضخم عدد الكتب التى تصدر ، ولذا اخترع هـ . بيتر . لوهن جهازا حاسبا « للتلخيص الذاتى » ، يقـــوم بتحليل احصائى للمعانى التى يحتويها المقال أو الكتاب، ويحذف الكلمات الزائدة « اذا » و « ولكن » ، وبعد ذلك يقوم بجمع الجمل ذات المعانى المركزة وبالتالى يتم التلخيص الذاتى . ولما كانت الترجمة لها أهميتها ، وكثير من الاعمال تكتب بلغـــات مختلفة ولها قيمتها ، فقد الحق بجهاز التلخيص

الذاتى جهاز آخر هو « جهاز الترجمة الذاتية »، ومهمته أن ينقل من اللغات المتعددة الى الانجليزية وان كانت انجليزية رديئة تذهب ببلاغة اللغات الاخرى ، الا أنها تعبر عن المعنى وتؤديه ٠وأصبح لا يهم القارىء أيضا قــراءة الروايات مطبوعــة ما دامت تعرضها السينما ، وهذه الروايات تشد المتفرج لأنها تستمد نجاحها من نجوم الافلام ، وشهرتهم التى تقوم على ذيوع الاسم وشعبيته٠ وليس على المهارة فى التمثيل ، والمنتجون ينفقون بسخاء على « صورة » النجم لتظل محتفظة بجاذبيتها وهذا يدفعهم الى استغلال نجومهم الى أبعد مدى، وأصبح التركيز على شهرة الممثل لا على قيمــة عمله أو اجادته ، وشمل ذلك التقييم عالم الكتب فالقارىء يبحث عن الكتاب المشهور الذى تتضمنه قائمة الكتاب الطائر أو أحسن الكتب رواجــــا « بست سيلر » ، وهذا الكتاب ينشر فى هذه القائمة لا لقيمته الجمالية أو الأخلاقية٠ وهنا يظهر دور الحوادث المزيفة، اذ يلجأ الناشر الى تخفيض سعر الكتاب عند صدوره فى طبعته الأولى ، ويبيعه بخسارة ، حتى يكتب له الرواج والانتشـــار ، وبالتالى الشهرة ، فاذا تحققت أقبل عليه القــراء ليتباهوا بأنهم حصلوا على هذا الكتاب ٠

ولم تسلم الموسيقى من التزييف الذى ســاد الفنون ، فبعــد أن كان المســـتمع يجد لذة فى الاستماع الى الموسيقى من فرقة موسيقية يقودها الموسيقار العظيم ، صارت أجهزة التسجيل تؤدى المهمة ، وأمكن تسجيل القطعة الواحدة على فتــرات واختيار المناسب من التسجيلات ثم توصل ببعض كمونتاج السينما ، وأصبح عدد الذين يشــترون المسجلات الموسيقية أضعاف الذين يشـــــترون الكراسات الموسيقية المطبوعة ٠

من المثل الى الصور

وبعد أن يستعرض المؤلف وهم المجتمع الامريكى وخداعه فى قدرته على « فبركة » الخبرات والاخبار والمشاهير ، والمغامرات ، والاشكال الفنية والادبية يقول « أن القيم التى هى أخلاق المجتمع خلت من المضمون ، فالمثل التى مصدرها التقاليد ، والعقل والله ، حلت محلها «الصور» كما حلت «المختصرات» محل « الأصول » ٠ تلك الصور المركبة ، والتى يخطط لها لتخدم غرضا معينا ، صارت مصدقــة لدى كل شخص ، وحقيقية لأنها عامة ، وترضى من يحاول أن ينسجم معها ٠ و « الصورة » فى مصدرها اللاتينى مشتقة من « التقليد » و «المثل» من « الفكر » ، وهى تصور شيئا فى أكمل حالاته والفرق بين التفكير فى المثال ، والتفكير فى الصورة هو فرق بين تفكيرنا قبل وبعد الثورة فى الفنون والمثل تتعارض مع الصور ، ويصعب تصديقها ، أما الصور فتقد على قدنا لتكون وسائل لنا فيها مآرب ٠

وخلال القرن العشرين ظهرت الصور واضمحلت المثل ، تلك الصور التى كونتها الصحافة ،والاذاعة والتليفزيون ، والسينما ، والملخصات ، وساعد على انتشارهــــا وفرة الاعـــلانات فى الطرقات والميادين الواسعة حيث تخطف الأبصار وتصب فى وعى الانسان ٠

اننا لا نجرؤ على الاعتراف بأننا نخدع أنفسنا ولذا نبحث عمن نتهمه بخداعنا وغشنا ٠

والاعلانات فى تاريخ أمريكا نوع من الحوادث المزيفة ، فبعد أن كان الاعلان يعتمد على التلقائية صار يعتمد على صناعة الأخبار ، وتميزت الاعلانات الناجحة بأنها ذات صبغة اخبارية ٠

اننا نسعى الى صناعة أشياء كاذبة لتبـــــدو حقيقية ٠ انه فن اخفاء الحقيقة واختراع الزيف ، وابتكار وسائل جديدة للخداع ٠ والجهود تبــذل لجعل الحلم الامريكى وهما وليس حقيقة ٠ ورجال الاعلانات المهرة يصنعون وهمنا ، ثم يجعلونــــه يأخذ صورة الحقيقة ٠

فالثورة فى الفنون ساوت بين الاعلانات ،وخلق الأخبار ، وصناعة المشاهير ، ووكالات السياحة ، وأفلام السينما ٠

ونؤمن بأن ما يقدمه المعلن هو الحقيقة ، وهـو يجيد تكنيك النبوءة التى تحقق المطامع الذاتية ، ونقرأ الاعلان لتزيد رغبتنا ونكتشف مـا نريده وكنا لا نعرفه على وجه التحديد ٠

ومع الســـعى نحو تلبية الرغبات والاحتياجات زادت الصور ، ودفعت الى الاهتمام بالرأى العام واتجاهاته ٠

ويؤرخ لكلمة الرأى العام بنهاية القرن التاسع عشر عندما استخدمها « جيفرسون » ولكنها ينشر على أنه رأى عام فى الواقع لا يعبر عن رأى كل فرد ، ولكنه بعض السمات ، التى يؤخذ بهــا لتدل على الحقيقة ٠

وفى كتاب «الـرأى العــــام » (١٩٢٢) « لوالتر ليبمان » تعريف للرأى العــام يوضح الأمر عندما يقول : « ان الصور داخل عقـــول الناس ، صور أنفسهم ، وصور الآخرين ، وصور احتياجاتهم ، وأهدافهم ، وعلاقاتهم ، كل هــذه تشكل الرأى العام ٠ هذه الصور تفرض سيطرتها جماعة من الناس ، أو فرد يمثل الجماعة » ٠

والصحافة تروج لخلق الصور التى تقول عنها فيما بعد انها الرأى العام • وبالتالى صار الرأى العام نوعا من الحوادث « المفبركة » يدفع بها الى الوجود ، حتى تكتب عنها التقارير •

واذا لم يكن هناك رأى تلقائى ، فان المسئولين يصنعون الآراء ، حتى يكتب عنهـا المتتبعون لاتجاهات الرأى العام ، فالرأى العام أصبح المادة التى تعد سلفا لتسرى بين الناس ، وبذلك نكون كمن ينظرون الى أنفسهم فى المرايا •

من الحلم الى الوهم

ثم يتساءل المؤلف ، أمكتوب علينا أن نحول أحلامنا الى أوهام ؟ • وفى اجابته يقرر أن الحلم رؤيا أو الهام يمكن مقارنته بالواقع •

والاحلام التى تكون عادة مشرقة ، ونضرة ، تنبهنا الى أن الواقع مغاير للأحلام •

وكانت أمريكا أرضا « للاحلام ، حيث رحل اليها كل حالم بالثروة ، والملكية والارستقراطية وحرية الرأى ، ثم حاولوا أن يحولوا الحلم الى حقيقة •

ولكننا فوجئنا باننا مهددون بخطر احلال الوهم الامريكى محل الحلم الامريكى ، والصور محل المثل • ونحن أكثر الشعوب وهما فى العالم ، ولا نجرؤ على العيش دون أوهام ، لأنها بيئتنا الذى نعيش فيه ، وهى أخبارنا ، وأبطالنا ، ومشاهيرنا وأشكالنا الفنية ، وخبراتنا •

اننا نعيش بالصور ، بينما تعيش الشعوب بالمعتقدات ، ومع ذلك نريد أن نسقط صورنا على العالم •

لقد أصبحنا مشغولين بخلق « الصور »المحبوبة والمرغوبة والمقبولة ، لأمريكا ، ونحاول نشرها خارج أمتنا ، بثرائنا ، وتكنولوجيتنا ،وكفائتنا والأفلام الجذابة• ورغم مايبذل لنشرالصور المشرقة فان النتيجة تأتى عكسية ، ولذا يجب علينا أن نشاطر الآخرين البحث عن أمريكا •

ومن أهم العقبات التى تحول دون ذلك ، ايماننا المسرف بنفوذنا ، وسلطاتنا ، وسطوتنا ، وهيبتنا التى نبذل الجهد للمحافظة عليها ، ونأمل من العالم أن تجذبه صورتنا ، وأن « تزغلل » عيون أبناء الشعوب الأخرى •

وتجاوزت كلمة « الهيبة » حدود معناها ، وفى أصلها اللاتينى تعنى الوهم والخداع ، والشخص ذو الهيبة عادة لديه نوع من الافتتان بذاته ؛ ويكون فى حالة عماء ، و « زغللة » بصورته •

وحديثنا عن هيبتنا فى الخارج ، حديث عن أنفسنا ، وجاذبية صورتنا • واختلطت الصورة بالحقيقة • اننا نحاول اصلاح الصورة بدلا من أنفسنا ، لأننا اعتدنا أن نعيش فى عالم من الحوادث المزيفة •

اننا نعيش فى عالم من صنعنا ، ونريد أن يعيش الآخرون فى عالمنا اننا نعيش فى عالم تحـد حدوده حوائط من المرايا التى تعكس صورتنا •

اننا نبحث عن المشاهير بين الرجال والنساء ، وكذلك بين الكتب والمسرحيات والافلام ، وكل خبراتنا مصدرها القراءات المختصرة ، حيث نقرأ فقط مانريد أن نقرؤه نحن ، وليس مايريد أى شخص أن يكتبه •

اننا نعانى من « النرجسية الاجتماعية » التى أوقعتنا فى حب « صور » ذواتنـا ، وهى من صنعنا ، وصار عالمنا مجرد مرايا عاكسة والصور أصبحت انعكاسات ظلال مرايا ، وكلها تشكلها الروايات ، والتليفزيون ، والاذاعة ، والكتب الفكهة ، والطريقة التى نتصور بها أنفسنا عبارة عن استجابات لانعكاسات المرايا •

وفى ختام الكتاب يحـاول المؤلف أن يكشف الطريق الذى يخلص المجتمع الأمريكى من أوهامه وأباطيله ، ويقرر أن الحلول الوهمية لن تستطيع أن تشفى وتعالج أوهامنا •

ولكن على كل منا أن يؤاخذ نفسه ، ويطلق سراحها من قيود الاوهام ، لأننا نشارك الآخرين فى صناعة الوهم الذى نخدع به أنفسنا • ومن الخطأ علاج الأوهام باخفائهـا ، وعلاج أمراض الاعلانات بابتكار مزيد منها ، ويجب أن يتيقظ المواطن الأمريكى، ويعد نفسه لاستقبال رأى العالم فينا ، اذ أن هناك عالما خارج عالمنا ، كما يجب ألا يستغرقنا الانشغال بتصدير الصور الامريكية، واغراء الآخرين لمشاركتنا أوهامنا التى من بينها وهمنا بالايمان فى العلاج بينما لا يوجد علاج ، بل فرص للشفاء ، وعلينا أن نستيقظ قبل أن نسير فى الاتجاه الخاطىء ، ونكشف أوهامنا قبل أن نستيقن من أننا كنا نسير نياما • والأهم أن نؤمن بقدرة كل منا على أن يخترق غابة الصور الكثيفة التى نمارس فيها حياتنا اليومية • ومن ثمة يمكننا أن نكتشف أين تنتهى الاحلام ، وأين تبدأ الاوهام •

ترى هل يمكن أن يخرج المجتمع الأمريكى من الكهف الذى حفره لنفسه ، وأصبح لا يرى فيه من معالم العالم الخارجى الا الظلال ، ومن نفسه الا الصور ، هل يمكن أن يحطم الاصنام التى صنعها بيديه ، ثم آمن بها ، فعبدها ، واتبعها لأنها تهب القوة اللامتناهية الموهومة ؟

محمد على بركات



محيى الدين خطاب

فى مثل هذا العام منذ خمسين عاما ، أى فى سنة ١٩١٩ ، لقيت روزا لوكسمبورج مصرعها فى طرقات برلين برصاصات غادرة من بعض الضباط الالمان الرجعيين . ويقول المؤرخ الاشتراكى الكبير ج.هـ.كول فى تعقيبه على هذا الحدث : « كان لقتلها وقع مؤلم فى جميع أنحاء أوربا ، وتحدث الناس عنه باعتباره عملا فظيعا » .. وقبل ذلك مباشرة يقول : « كانت روزا لوكسمبورج مخلصة باستمرار « للثورة » وعاشت من أجلها ، وفى ألمانيا كانت هى القوة الفكرية الكبرى الوحيدة فى الجانب الثورى ، وكذلك كانت الشخصية الدولية الكبيرة الوحيدة فى الجيل الشاب من الاشتراكيين ، والى جانب تفوقها السياسى والاقتصادى كانت أيضا امرأة لها اهتمامات ثقافية واسعة وعميقة » .. وهو بعد هذا يقيمها بوجه عام فيقول : « ان روزا لوكسمبورج من بين جميع الاشتراكيين الثوريين هى وحدها التى يمكن مقارنتها بلينين » (تاريخ الحركة الاشتراكية ، مجلد ٣ . جـ ٥ ص ١٦٧) .

كذلك فان لينين ، الذى وقع فى خلاف حاد معها فى وقت من الأوقات ، قد وصف حادث اغتيالها ، فى خطابه أمام المؤتمر الأول للدولية الشيوعية فى مارس ١٩١٩ ، بأنه « حدث تاريخى عالمى الأهمية » ووصفها ، هى والاشتراكى الألمانى الشهير كارل ليبنخت الذى اغتيل معها ، بأنهما « زعيما الدولية الشيوعية البروليتارية بحق ، وخير ممثليها » (مختارات لينين مجلد ٣ . جـ ١ . ص ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

وبالرغم من أن روزا لوكسمبورج قد قامت بدورها الثورى الحاسم ، وجولاتها الفكرية الكبرى ، فى ألمانيا ، ولقيت مصرعها فى هذه البلاد ، الا أنها لم تكن ألمانية الأصل ، فقد كانت بولندا هى موطنها الأصلى ، وهى التى شهدت باكورة نشاطها الاشتراكى ، كما ظلت تستقبله باستمرار بعد نزوحها عنها ؛ ومن ثم فعلينا أن ندخل الى تاريخها من خلال بولندا ، أو بالأصح، من خلال الحركة الاشتراكية البولندية .

كانت بولندا حتى الحرب العالمية الأولى مقسمة الى ثلاثة أجزاء خاضعة لثلاث دول كبرى: مملكة بولندا وتخضع للحكم الروسى ، واقليم بوزان ويخضع للحكم الألمانى ، واقليم غاليسيا ويتبع الامبراطورية النمساوية المجرية ، الا أن مملكة بولندا كانت كبرى الأجزاء وأدلها على الوطن البولندى - وسنذكرها فى هذا الحديث باسم بولندا مجردا ، مع ذكر الاقليمين الآخرين بأسمائهما السالفة ، كما كان المتبع فى ذلك الوقت .

ولم يكن للاشتراكية ، كحركة منظمة ، وجود داخل بولندا حتى السبعينات من القرن الماضى ، فقبل ذلك كان الاشتراكيون فيها قلة مبعثرة فرادى أو جماعات صغيرة وليس لها من النشاط أو الأثر ، سواء فى ميدان الحياة العامة أو فى مجال العمل الثورى، مما يستوقف النظر، كما لم يكن للأفكار الاشتراكية من النفوذ فى الأوساط الفكرية البولندية سوى الشىء القليل الصادر عن المفكرين الاشتراكيين اليوتوبيين ، خاصة الفرنسى شارل فورييه (١٧٧٢-١٨٣٧) ، الذىتأثر به كثيرا يواكيم لويل (١٧٨٦-١٨٦١)، أبرز دعاة الاشتراكية فى بولندا فيما قبل السبعينات ، والذى نفر من بولندا سنة ١٨٣١ ، وأنفق عمره دون أن يتمكن من تأسيس حركة اشتراكية بها ، رغم نشاطه الوافر فى منفاه ببلجيكا وتأثيره الكبير على الفكر الاشتراكى هناك .

وانما بدأت الاشتراكية تظهر كحركة شعبية لها وزنها فى بولندا فى سنة ١٨٧٨ ، عندما قامت الطبقة العاملة فى هذه البلاد بتنظيم صفوفها وتحديد أهدافها فى ضوء المبادىء الاشتراكية .. وكان معظم الفضل فى ذلك يرجع الى لودفيج وارينسكى (١٨٥٦-١٨٨٩) ، الذى تشرب المذهب الاشتراكى فى روسيا أثناء دراسته فى جامعة بطرسبرج ، ولما عاد الى وطنه بولندا سعى بكل ما استطاع من وسائل الى بث الوعى الثورى فى طبقتها العاملة وانشاء تنظيم اشتراكى يمثلها ويقود كفاحها ، ولكنه اضطر الى الفرار الى الخارج لمحاولة السلطات القاء القبض عليه ، ثم عاد الى وارسو ، سنة ١٨٨١ ، ليؤسس هناك منظمة اشتراكية تحت اسم « بروليتاريا » ، مقيما أسلوبها فى الكفاح ضد النظام الاجتماعى القائم على دفع العمال باستمرار الى القيام بالاضرابات ، واثارة القلاقل من كل نوع فى مختلف مؤسسات هذا النظام ، مما يؤدى الى خلخلته وانهياره فى النهاية .. وكان فى ذلك مخالفا أسلوب المنظمة الروسية الثورية المشهورة « نارودنايا فوليا - ارادة الشعب » ، التى كان على صلة وثيقة بها ، وهو أسلوب الاغتيال والارهاب . ولكنه لم يلبث حتى قبض عليه ، سنة ١٨٨٣ ، ثم مات فى السجن بعد ست سنوات من هذا التاريخ .

وقد تمكنت السلطات الروسية ، فى سنة ١٨٨٥ ، من تسديد ضربه قاصمة الى هذه المنظمة ، لم تفق منها الا بعد ثلاث سنوات ، حين عادت من جديد تزاول نشاطها فى اثارة العمال والتحريض على الشغب والاضرابات ، على أن المنظمة قد شهدت فى سنى محنتها هذه ، وبالتحديد فى سنة ١٨٨٦ ، حدثا كبيرا ، وان لم تشعر به فى ساعتها ، وذلك هو انضمام فتاة فى سن السادسة عشرة الى صفوفها ، كان اسمها روزا لوكسمبورج ..

***

كانت فتاة جمة النشاط ، مشتعلة الحماس للقضية الاشتراكية ، فباشرت عملها على الفور كعضو عامل فى المنظمة ، وقامت بدور كبير فى احياء نشاطها ، الى حد أن صدرت أوامر السلطات بالقبض عليها ، ففرت الى سويسرا ، سنة ١٨٨٩، واستقرت فى مدينة زيورخ للدراسة فى جامعتها. وهناك تعرفت الى عدد من الزعماء الاشتراكيين الروس ، من بينهم جورجى بليخانوف (١٨٥٦ - ١٩١٨) ، الذى أخذت على يديه المذهب الماركسى وصارت من أشد المؤمنين به، كما التقت أيضا برفيقى كفاحها المستقبل الاشتراكيين البولنديين ليويوجيشس وأدولف وارسكى .

وعندما تم ببولندا ، سنة ١٨٩٢ ، اندماج القوى الاشتراكية ، بما فيها منظمة بروليتاريا ، فى تنظيم واحد تحت اسم « الحزب الاشتراكى البولندى » بزعامة يوجيشس ووارسكى ، فوض

الحـزب الجـديد روزا لوكسمبورج أن تمثله فى « المؤتمر الاشتراكى الدولى » الذى عقد فى زيورخ سنة ١٨٩٣ ضمن وفد أرسله لهذا الغرض ، وبالرغم من أن الاشتراكيين البولنديين المنفيين ، الذين ألفوا لأنفسهم تنظيما خاصا هو « اتحاد الاشتراكيين البولنديين فى الخارج » ، أنكروا حق هـذا الوفد فى حضـور المؤتمر ، ونجحوا بالفعل فى ابعـاد معظم أعضائه عنـه ، الا أن المؤتمر سمح لروزا لوكسمبورج بصفة خاصـة بحضـوره ، وكلفها بتقـديم تقـرير عن الموقف الداخلى فى بولنـدا اليه ، وانتهزت روزا هـذه الفرصة لتبسط أمام المؤتمر آراءها الخاصة بصدد الحركة الاشتراكية فى بولندا : فدعت الى تكوين حزب ثورى منظم على أساس ديموقراطى ، يعمل على بث روح الثورة فى نفوس العمال ، وخلق حركة نضالية جماعية بينهم ، على أن يحتـوى الحـزب هـذه الحـركة بتبنيه لمطالب العمـال الاقتصادية وتنظيمه لاضراباتهم ، ودعت الى أن يشارك الحـزب فى الوقت نفسـه فى الكفـاح السياسى من أجل تحقيق الحريات الديموقراطية، حتى تتهيأ له حرية العمـل على أوسع نطاق ، ولكن على ألا يكون ذلك سببا لأى تحـالف أو تهـادن بينه وبين الأحـزاب البرجوازية ، التى كانت تكافح هى الأخرى من أجل هذا الهدف ٠

وكانت روزا لوكسـمبورج تهـدف بهـذا التشديد على الانفصال عن الاحزاب البرجوازية الى ابعاد الحركة العمالية البولنديه عن الاتصال بالحركة القومية ، التى تطالب باستقلال بولندا عن روسيا ، وتتبناها هذه الاحزاب ٠٠ فقد كان رأيها أن النضـال الاشـتراكى عموما ينبغى أن يكون بمنأى عن النزعات والأحقاد القومية ، وأن نضال الاشتراكيين البولنديين ينبغى ان يسير موحدا مع نضال العمال الروس وسائر القـوى العمـالية الاشـتراكية فى مختلف أرجاء الدولة الروسـية للقضاء على النظـام الرجعى القيصرى بثورة دولية الطابع والشعارات لا أثر فيها لنزعة أو عصبية قومية من أى نوع ٠

وبهـذا الرأى وقفت روزا لوكسـمبورج ، ومعها يوجيشس ووارسكى ــ اللذان كانا يتفقان واياها تماما فيما ذهبت اليه ــ موقفـا سافر العداء والتناقض من موقف « اتحاد الاشتراكيين البولنديين فى الخارج » الذى كان يؤيد بكل قواه الحركة القومية البولندية ، كما أحدث هذا الموقف انقساما داخل الحزب الاشتراكى نفسه ، انتهى بانفصال مؤيديه عن هذا الحزب وتأليفهم حزبا جديدا ، باسم « الحزب الاشتراكى الديموقراطى للملكة البولنـدية » ، تحت زعـامة يوجيشس (١٨٦٧ ــ ١٩١٩) ٠

وبلغ هذا النزاع بين الاشتراكيين البولنديين ذروة موسعه فى المؤتمر الاشتراكى الدولى الذى عقد بلندن ، سنه ١٨٦١ ، حينما اتهم مندوبو الحزب الاشتراكى البولندى روزا لوكسمبورج ووارسكى بانهما عميلان للسلطه القيصريه أوكلت اليهما مهمه تخريب الحركه الاشتراكيه البولنديه من الداخل ، ولكنهما برئا من هذه التهمه ، واشتركت روزا لوكسمبورج فى المؤتمر كممثلة لبولنـديى بوزان ٠ الا ان حزبهمـا ، الحـزب الاشتراكى الديموقراطى ، قد تعرض لاضطهاد شديد فى ذلك الوقت داخل بولندا ، وزج بعدد كبير من اعضـائه فى السجون ، مما تسبب فى انهيار نشاطه وتوارى نفوذه لسنوات امتدت حتى سنه ١٨٩٦ ٠

***

وكانت روزا لوكسـمبورج لا تزال خارج بولندا منذ أن فرت منها ٠ وقد أصبحت تقيم فى فرنسا بصفة رئيسية منذ سنة ١٨٩٦ ٠ وفى سنة ١٨٩٨ أخرجت أول مؤلفاتها الهامة وهـو رسالة للدكتوراه عن نمو الصناعة فى بولندا ٠ وفى نفس العـام تزوجت برجل ألمانى ، يدعى جوستاف لوبيك ، حتى تكتسب الجنسية الألمانية وتسـتطيع اطلاق نشاطها داخل ألمانيـا ، مركز القوة والكفاح الاشتراكيين وقتئذ ٠

وهاجرت فور زواجها الى ألمانيا ، وانضمت الى الحـزب الاشـتراكى الديموقراطى الألمانى ، وعملت بهمة كبيرة فى نشاطه ، وظهرت مقالاتها فى التـو فى عديد من الصحف الاشـتراكية الالمانية ، وسرعان ما أصبحت الكاتبة الرئيسية لصحيفة الاشتراكيين فى ساكسونيا ٠

وقد دارت مقالاتها فى هذه الفترة ، بصـفة رئيسية ، حول أهمية جذب النقابات العمالية الى الطريق الكفاحى وصهرها فى الحركة الاشتراكية ٠٠ وذهبت فى ذلك الى نبذ التفرقة الشائعة بين النقابة العمالية والحزب الاشتراكى ، التى أقيمت على اعتبار أن النقابة لاتمثل سوى فئة معينة من العمال تعبر عن مصالحها الخاصة دون أن تهتم بما عداها من مصالح سائر الفئات العمالية أو قضايا العمال العامة بينما الحزب يحمل الرسالة

التاريخية للبروليتاريا ويكافح من أجل الطبقة العاملة ككل دون ما ارتباط بمصلحة فئة معينة من هذه الطبقة ٠٠ ومع أن هذه التفرقة قد وردت في البيان الشيوعي ـ الذي كتبه ماركس وانجلز، الا أنها رفضت بشدة أن تكون أساسا للسياسة الاشتراكية : فالحركة البروليتارية في اعتبارها لن تكتمل وتكتسب الفاعلية الا بالتوحيد بين هذين الطرفين ، أى الحزب الاشتراكى والنقابة العمالية ، وذلك يتم عن طريق تبنى الحزب لأهداف النقابات ، كتقليل ساعات العمل ورفع الأجور ، من جانب ، واشراك النقابات فى الكفاح الاشتراكى وجعلها القاعدة العريضة للحزب من جانب آخر ؛ فهذا التوحيد ، كما كانت تجزم ، شرط لازم كي تتمكن الدعوة الاشتراكية من نفوس العمال وتجذب جماهيرهم فى طريقها الثورى ، وكي تتعمق جذور الأحزاب الاشتراكية ويتأكد صوتها البروليتارى ، وكذلك كي تتمكن هذه الأحزاب من السيطرة على الاضرابات العمالية وتوجيهها بما يتفق وقضية الثورة التى تعمل من أجلها ٠ واجمالا ، كانت روزا لوكسمبورج ترى الاندماج الكامل بين الحركة الاشتراكية والحركة النقابية العمالية ٠٠ وكان هذا الرأى أساسا جوهريا من بين الأسس التى أقامت عليها فكرها الثورى كله ، كما كان من أبرز اسهاماتها فى حقل الفكر الاشتراكى ٠

ولم تدم اقامتها فى ساكسونيا طويلا ، فقد أدى موقفها المعادى من العناصر اليمينية فى الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى الى الخلاف بينها وبين رئيس تحرير الصحيفة التى تعمل بها ، وكان يمينى الميول ، فاستقالت من منصبها فى الصحيفة ، ورحلت الى برلين ٠

وفى برلين تعرفت الى كارل كاوتسكى (١٨٥٤ ـ ١٩٣٨) فيلسوف الحزب ، والمنظر الأول للدولية الثانية ، وجعلت تكتب بانتظام فى صحيفة الحزب المذهبية الرئيسية « دى نوى زايت ـ الأزمنة الحديثة » التى يرأس كاوتسكى تحريرها ، كما كانت تكتب أيضا فى غيرها من الصحف الألمانية الاشتراكية ، وتراسل بمقالاتها الصحف الاشتراكية فى بولندا ٠ أما الهدف الرئيسى لكتاباتها وقتئذ فكان اليمينيين من أعضاء الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى ، الذين كانت آراؤهم تثير فى ذلك الوقت أزمة حادة داخل الحزب، وداخل الحركة الاشتراكية جمعاء ، فتصدت لهم هى بحملة عنيفة الى أقصى حدود العنف ٠

وكان هؤلاء اليمينيون يطالبون بأن تقلع الاشتراكية عن فكرة الثورة فى الانتقال من النظام الرأسمالى الى النظام الاشتراكى وأن تستبدل بذلك أسلوب التحول السلمى التدريجى من هذا النظام الى ذاك ٠٠ وكانوا فئتين : الاصلاحيين ، والمنفحين ٠٠ أما الاصلاحيون ، ورائد حركتهم هو جورج فولمار (١٨٥٠ ـ ١٩٢٢) ، فكان اهتمامهم يدور أساسا حول السياسة العملية للحزب ، فكانوا يطالبون بأن يتعاون مع الاحزاب البرجوازية الليبرالية ، وأن يتعامل مع الدولة القائمة بحثها على اصدار التشريعات التى تحسن من أحوال العمال وتصلح من الاوضاع الاجتماعية السائدة ٠٠ وأما المنفحون ، وأحيانا يدعون بالمراجعين أو التحريفيين ـ وهم الأشد خطورة ـ فكانت حركتهم تستهدف هدم عدد من المبادىء الأساسية للمذهب الماركسى، منها حتمية انهيار الرأسمالية، وحتمية تركز رأس المال ، والدكتاتورية الطبقية للبروليتاريا ، وكان مثير هذه الحركة ادوارد برنشتاين (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢) ، الذى زاد على ماذهب اليه اتهامه لماركس بالدوجماطيقية وبأن همه كان منصبا على تكييف الوقائع العملية مع القالب النظرى الذى ارتضاه بداءة أمره وليس تجرى هذه الوقائع على ماهي كائنة عليه واخضاع هذا القالب النظرى لحكمها ٠

من هؤلاء وقفت روزا لوكسمبورج موقفا معارضا متشددا الى أبعد الحدود ، ذاهبة الى أن الثورة هى الوسيلة الوحيدة للقضاء على المجتمع الرأسمالى ، وأن التحول التدريجى الى الاشتراكية مستحيل لاعتبارات كثيرة أبسطها أنه سيجرى فى ظل الدولة القائمة ، وهى دولة برجوازية : فهذه الدولة لا تعرف الا مصالحها ، وهى ان أقدمت على بعض الاصلاحات أو التنازلات ، فما ذلك الا لتخدير الطبقة المستغلة واطفاء مشاعرها الثورية ضدها ، أى لتعزيز مركزها هى وحماية سيطرتها ، واذا ما حدث

وسارت الأمور حقا فى غير صالحها ، فلديها سلطتها ، من جيش ورجال أمن ، فتبطش بمهدديها وتعيد كل شىء الى نصابه الأول ٠٠ فمن المحال أن تتنازل هذه الدولة عن سيادتها ومصالحها طواعية ؛ ومن ثم فليس للاشتراكى أن يتحدث الا عن قلبها عنوة ، ودفعة واحدة ، أى بطريق الثورة ، واقامة دولة البروليتاريا على أنقاضها ٠٠ فهذا هو فقط ، فى نظرها ، الأسلوب الوحيد الممكن للتحول الى النظام الاشتراكى ٠

وكانت فى هذا الاصرار على مبدأ الثورة ، ومحاربة آراء الاصلاحيين والمنفحين الذاهبة الى الاستعاضة بمبدأ التحول التدريجى ، ما تقفه موقفا موحدا مع كل من أوجست بابيل (١٨٤٠ ـ ١٩١٣ ـ زعيم الحزب ـ وكارك كاوتسكى ٠

وقد اشتركت معهما أيضا فى مهاجمه رأى الاصلاحيين فى التعاون مع الأحزاب البرجوازيه الليبراليه، على أساس أن تعاون الحزب الاشتراكى مع احزاب غير اشتراكية من شانه أن يضعف معنويته ، ويفقده طابعه الطبقى وأصالته الكفاحية ؛ وكذلك فى مهاجمة رأيهم الداعى الى تشجيع الاشتراكيين للدولة القائمة على اصدار تشريعات اصلاحيه ، على اعتبار أن هذا العمل من شانه أن يغير من الملامح الرجعية لهذه الدوله ازاء الجماهير الخاضعة لها ، كما يوسع من وظائفها وسلطاتها فتزداد بذلك قوة ورسوخا ، الأمر الذى يؤخر من انهيارها ويزيد من صعوبة العمل الاشتراكى ضدها ٠

وكذلك نزلت مع بابيل وكاوتسكى ساحة المعركة ضد برنشتاين ، ممثل حركة «التنقيح» ، واشتركت واياهما فى تفنيد حججه ، ونعته بالانتهازية وخيانة المذهب الماركسى٠٠وأصدرت، سنة ١٨٩٩ فى الرد عليه كتابها « الاشتراكية اصلاح أم ثورة » ، وتناولت فيه ، ضمن ما تناولت ، موضوع انهيار الرأسمالية ، الذى أنكره برنشتاين ، فأصرت على حتمية حلوله ، ولكنها ذهبت فى ذلك مذهبا مجددا خرجت فيه عن الأسلوب الماركسى التقليدى بهذا الصدد ، اذ ذهبت الى أن هذا الانهيار سيكون منبعثا عن التنافس الامبريالى بين الدول الرأسمالية أكثر مما سيكون متولدا عن متناقضات الرأسمالية الداخلية ٠

وقد هزم الاصلاحيون مرات عديدة فى مؤتمرات الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى، كما منى برنشتاين بهزيمة ساحقة فى مؤتمر الحزب بهانوفر ، سنة ١٨٩٩ ، ووجه اليه اللوم المطريقة التى عبر بها عن آرائه ، الا أن روزا لوكسمبورج لم تقتنع بهذا ، وأصرت على أن يتخذ الحزب ضد هؤلاء ، خاصة برنشتاين ومشايعيه ، اجراء حاسما هو طردهم من صفوفه؛ فكان ذلك سببا لاصطدامها ببابيل ، الذى خشى أن يؤدى هذا الاجراء الى تفتيت جبهة الاشتراكيين، وأخذ الحزب برأيه ، فأبقى على برنشتاين وسائر اليمينيين فى عضويته ، رافضا طلب روزا لوكسمبورج ٠ ومع ذلك ، فقد أصبحت روزا لوكسمبورج منذ ذلك الوقت احدى القوى الكبرى داخل الحزب الألمانى ، وأصبحت زعيمة الجناح اليسارى فيه والمتحدث الأول بلسانه ٠

وما لبثت روزا لوكسمبورج بعد ذلك حتى دخلت فى صدام جديد كان طرفه المضاد هذه المرة كارل كاوتسكى ، وذلك حول مسألة على غاية من الأهمية هى « كيفية قيام الثورة الاشتراكية » ٠٠ فقد ذهب كاوتسكى الى امكان أن تكون هذه الثورة «ثورة سلمية» تتم بالوسائل القانونية ، ودعا على أساس ذلك الاشتراكيين أن يلتزموا فى نشاطهم بالطريق الدستورى ٠ ويؤجلوا ثورتهم المزمعة الى ما بعد حصول الحزب الذى يمثلهم على الأغلبية البرلمانية ، فتتم الثورة حينئذ بهدوء ، فلا تكلفه أكثر من التفاوض مع النظام القديم على الاستسلام ٠٠ أما روزا لوكسمبورج فكان للثورة الاشتراكية عندها كيفية واحدة هى « العنف » ، وقد ردت على كاوتسكى بأن الأقرب احتمالا من الاستسلام السلمى الذى يتوقعه للنظام البرجوازى أن ينقض هذا النظام على الاشتراكيين حالما يلوح له أنهم سيظفرون بتلك الأغلبية ، فيضربهم بوسائله البوليسية ، أو بقوانين تحظر نشاطهم ، أو يعدل نظام الانتخاب بما يكفل الحيلولة دون ظفرهم بتلك الأغلبية ٠٠ وكل هذه الاحتمالات لها سوابق عملية ترجحها بل وتجزم بها ، وعليه فالواجب الأول والأخير للاشتراكيين فى رأيها أن يركزوا عملهم فى الاعداد للثورة الحقيقية ، الثورة العنيفة ، آخذين بالسبل غير القانونية التى يتطلبها هذا الاعداد ، وأن يقوموا بها بلا توان حالما تواتيهم الفرصة على ذلك ٠

على أن ذلك لا يعنى أن روزا لوكسمبورج قد أصبحت تقصر اهتمامها بالحركة الاشتراكية على ألمانيا وحدها ، فقد كانت تتابع مجريات هذه الحركة فى كل مكان توجد فيه ، وقد هاجمت بعنف زعماء الاضراب البلجيكى العام ، سنة

١٩٠٢ ، وعلى رأسهم اميل فاندر فيلد (١٨٦٦ ـ ١٩٣٨) زعيم حزب العمال البلجيكي، وحملتهم جريرة فشله لعدم طبعهم اياه بطابع ثوري وانحرافهم الى التفاهم مع الليبراليين ؛ وعضدت لينين بقوة في الحملة التي شنها ، فيما بين سنتي ١٨٩٩ و ١٩٠٢ ، ضد « الاقتصاديين » ، وهم جماعة منشقة من الاشتراكيين الديموقراطيين الروس ذهبوا الى حصر المهمة النضالية للطبقة العاملة في المجال الاقتصادي وحده واعتبار أن النضال السياسي من شأن الأحزاب البرجوازية الليبرالية •

***

وخلال هذه المجادلات الحامية ، التي دامت حتى سنة ١٩٠٤ ، حضرت روزا لوكسمبورج المؤتمر الاشتراكي الدولي الذي عقد بباريس ، سنة ١٩٠٠ ، كممثلة عن اشتراكيي بولندا ، وقد شاركت خلال انعقاده ، بحمية كبيرة ، في الحملة العنيفة على الاشتراكي الفرنسي ألكسندر ميليران (١٨٥٩ ـ ١٩٤٣) لاشتراكه ، دون تصريح من حزبه ، في حكومة والدك روسو البرجوازية •• وكانت في ذلك لا تعارض فقط اشتراك الاشتراكيين في الحكومات الرجعية ، بل كانت تعارض ، بصفة مطلقة ، دخول الاشتراكيين في أية ائتلافات وزارية ، سواء مع رجعيين أو تقدميين ، حيث أن قبول الاشتراكيين لمبدأ الائتلاف الوزاري انما يعني مباشرة قبولهم لمبدأ أنصاف الحلول ، وتخليهم عن مفهوم الثورة الاشتراكية الذي يتضمن تركز السلطة في أيدي ممثلي البروليتاريا وحدهم •

والى جانب هذا طرحت روزا على المؤتمر موضوع النزعة العسكرية ، التي كانت ريحها تهب على أوربا في ذلك الوقت ، وأثارت مناقشة كبرى بين أعضائه حول الواجبات التي ينبغي على الاشتراكيين القيام بها في مواجهة هذه النزعة ، كما تحدثت باستفاضة عن التناقس الامبريالي بين الدول الكبرى ، وما سيؤدي اليه حتما من اندلاع الحرب فيما بينها ، وضرورة تعبئة جهود العمال وتوجيه كفاحهم في مواجهة هذه الظروف •• وقد ترك هذا كله انطباعا عميقا في أذهان أعضاء المؤتمر ، وكان أثره مباشرا في القرارات التي أصدرها هذا المؤتمر •

***

ودخلت روزا لوكسمبورج السجن في ألمانيا، سنة ١٩٠٤ ، بتهمة اهانة الامبراطور ، ثم أطلق سراحها في أوائل العام التالي • فانضمت الى هيئة تحرير صحيفة « فورفارتس ـ الى الامام » لسان حال الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، التي تصدر في برلين • وبينما هي في برلين ، اندلعت ثورة سنة ١٩٠٥ الروسية • فالتهبت حماسا لها ، ولكن المرض أقعدها عن الاشتراك فيها ، فوجدت بعض السلوى في كتابة نشرتين، صدرتا مع نشرة ثالثة فيما بعد تحت عنوان : « الثورة دقت : ماذا بعد ذلك ؟ » ، لاجلاء معالم هذه الثورة وتعريف الشعب الألماني • وما أن وآتاها شيء من القوة ، في ديسمبر من ذلك العام، حتى عبرت الى بولندا للاشتراك في الثورة التي نشبت هناك ، صدى للثورة الروسية ، ولكنها ما ان بلغت وارسو حتى وجدت الثوار هزموا والثورة أخمدت •

والحقيقة أنها لم تفاجأ بهذه النتيجة ؛ فقد كان حكمها مسبقا بالفشل على الأسلوب الثوري الذي كان ينتهجه الحزب الاشتراكي البولندي ـ مثير هذه الثورة ، وهو أسلوب التمرد المسلح ، أي قيام جماعات مقاتلة بأعمال ضد الدولة شبيهة بأعمال حرب العصابات : فعندها أن الجماهير هي وحدها الأساس الحقيقي للحركات الثورية ، ومن ارادتها الثورية الجماعية فقط ينطلق العمل الثوري الذي يقدر له النجاح •

والواقع أن روزا لوكسمبورج كانت تعول على الحركة الذاتية للجماهير العاملة في قيام الثورة الى أقصى الحدود ، مما عرضها للاتهام من جانب بعض زملائها الاشتراكيين بأنها تجنح نحو مذهب المفكر الفوضوي ميشال باكونين (١٨١٤ ـ ١٨٧٦) في « تلقائية » الثورة الجماهيرية ، وقد اتهمها زينوفيف (١٨٨٣ ـ ١٩٣٦) بقسوة بأنها تنكر أهمية الدور الثوري للحزب ـ الاشتراكي طبعا ـ وحاجة الجماهير الى زعامة

حزبية تقود كفاحها وتوجهه . لكن هذه الاتهامات في الحقيقة لم تكن صحيحة ، فهى كانت تؤمن بضرورة وجود حزب منظم قوى يعمل كرأس حربة للحركة الجماهيرية ويرسم لها خططها الثورية ، لكن بشرط أن يكون هذا الحزب حزبا ديموقراطيا مسئولا مسئولية مباشرة أمام أعضائه جميعا ، وبوساطتهم ، أمام جمهرة الطبقة العاملة ؛ كما كانت تعتنق فكرة دكتاتورية الحزب فى الدولة البروليتارية ، ولكن على ألا يكون الحكم فى هذه الحالة حكما للحزب على الجماهير وانما حكما للجماهير ممثلة فى الحزب الذى لا تتجاوز مهامه تنفيذ رغباتها .

وكانت تعتقد أن الجماهير تنطلق الى الثورة بوحى من مشاعرها الغاضبة واحساسها بالاضطهاد لا عن طريق أوامر مفروضة عليها سواء كان مصدرها حزبا أو زعماء ؛ وفى اعتبارها أن السلاح الثورى الحاسم الذى تمتلكه هذه الجماهير إنما هو الاضراب الشامل ، ذلك الذى يثير القلقلة والفوضى فى جميع مرافق الدولة ومؤسساتها الصناعية والحيوية .. فبانتفاضة الجماهير على هذا النحو تبدأ حقا الثورة ؛ أما دور الحزب فى الثورة فيأتى كخطوة تالية ، أو مصاحبة ، لهذه الانتفاضة ، فعليه أن ينتهز ، بلا توان ، جو الاضطراب الناجم عنها ، وفق مخطط مرسوم سلفا ، فى الاستيلاء على السلطة السياسية باسم هذه الجماهير .. ونلخص هذه النظرية الثورية فى عبارة صغيرة هى : الجماهير أولا والحزب ثانيا ـ وهى تعد من مآثر روزا لوكسمبورج الكبرى فى الفكر الاشتراكى .

أما بالنسبة للثورة فى بولندا ، فقد كان لروزا لوكسمبورج مفهوم خاص عنها تختلف فيه أساسا مع مفهوم الحزب الاشتراكى البولندى : اذا كان هذا الحزب يعتبر أن هذه الثورة ثورة قومية مهمتها فى المقام الأول الظفر باستقلال بولندا ؛ ومن ثم فهى موجهة قبل كل شىء ضد السيطرة الروسية على بولندا ، دون أن يغير من طبيعتها هذه أن يكون فى روسيا حكم رجعى أو حكم اشتراكى : فالشىء المطلوب على جميع الأحوال واحد ، وهو انفصال بولندا عن روسيا .

أما روزا فكانت تنظر الى الثورة البولندية من خلال الثورة البروليتارية العالمية ، فكانت تعدها عملا طبقيا تقوم به الجماهير الكادحة المستغلة ضد مستغليها وضد الدولة البوليسية التى تحمى هؤلاء المستغلين ، وأنها بذلك ليست ثورة ضد روسيا ، وانما ثورة ضد الحكم الرجعى القائم فيها ، والذى يرسف فى أغلاله كلا الشعبين البولندى والروسى ، ومعهما سائر الشعوب التى تدخل فى اطار هذه الدولة ؛ ومن ثم فليست القضية هى انفصال هذا الشعب أو ذاك عن هذه الدولة ، وانما اشتراك هذه الشعوب جميعا ، أو بعبارة أدق طبقاتها المستغلة ، فى كفاح ثورى موحد للقضاء على النظام القيصرى الرجعى القائم بها وإبداله بنظام اشتراكى تتولى فيه البروليتاريا زمام الحكم لمصلحة الجماهير العاملة .

ولم يكن اعتراف روزا لوكسمبورج بالقومية البولندية فى الواقع الا نتيجة لانكارها وازدرائها فكرة القومية من أساسها : فقد كانت « العالمية » موضع ايمانها الوحيد ، وكان المجتمع العالمى الذى ينعم فيه البشر جميعا بالمساواة والاخاء منشدها وهدفها الذى لم تحد عنه قط طيلة حياتها .

وكانت تدعو بشدة الى مقاومة الحركات القومية ، على اعتبار أنها تحول دون وحدة الطبقة العاملة فى العالم ، بل وتبذر بذور الشقاق والصراع بين صفوفها ؛ وكان مبدؤها ، النابع من مذهبها الماركسى ، أن القومية من أخطر عوائق التضامن الطبقى ، وأن تحطيمها امر جوهرى لا غناء عنه لانتصار البروليتاريا فى كفاحها ضد البرجوازية وفى تكوين مجتمع عالمى تسوده الاشتراكية .

ومن هذه النقطة الأخيرة نقفز الى موقف روزا لوكسمبورج من « مبدأ حق الأمم فى تقرير مصيرها » .. هذا الموقف الذى أوقعها فى خلاف حاد ، بلغ حد العراك العلنى ، مع لينين ، فقد رفضت رفضا باتا الفكرة التى يحملها هذا المبدأ ، مقيمة رأيها فى هذا الشأن على أن الانقسامات الطبقية هى العامل الجوهرى فى تصنيف الناس وليس تلك الناجمة عن الاختلاف فى الجنس أو اللغة ، وأن التطلع الكفاحى ينبغى أن يتجه رأسا نحو بناء سلطة عمالية دولية تذوب تحتها الحدود القومية وتختفى المشاعر الوطنية .

أما عن هذا المبدأ ، فقد تضمنته الفقرة التاسعة من برنامج حزب العمال الاشتراكى الديموقراطى الروسى (الشيوعى فيما بعد) ، الذى كان للينين اليد الطولى فى صياغته .. وقد أنكرته روزا لوكسمبورج منذ أن كان مشروعا فى هذا البرنامج ، وطالب أنصارها من الاشتراكيين الديموقراطيين البولنديين الذين شهدوا المؤتمر

الثاني للحزب الروسي ، سنة ١٩٠٣ ـ ولم تكن روزا قد حضرته ـ باستبعاد الفقرة التي تحتوى هذا المبدأ ، ولكن المؤتمر لم يستجب لهم وأقر البرنامج كله بما فيه هذه الفقرة ، فحاولوا بعد ذلك أن يحملوه على تعديلها على نحو يبعد ذلك المبدأ عن المفهوم السياسي للقومية ، ولكنه لم يستجب أيضا .

وقد عادت روزا لوكسمبورج في سنة ١٩٠٨ ـ وكانت حينئذ منتمية الى حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي ـ الى التنديد بالمبدأ المذكور ، وكتبت في ذلك مقالا مطولا نشرته في بولندا تحت عنوان : « مسألة القوميات والحكم الذاتي » ، عبرت فيه بحدة عن وجهة نظرها ازاء هذا المبدأ ، وقدمت الحجج على رجعيته ومنافاته لروح الماركسية ، وفي ثنايا ذلك قذفت بهذا الاتهام الخطير : « الاعتراف بحق تقرير المصير انما يعنى تأييد التعصب القومي البرجوازي » .. وهنا انبرى لينين لها بعنف ، وأصدر كتابه « حق الأمم في تقرير مصيرها » في تفنيد ومهاجمة حججها بصدد هذا الأمر .. وكان لينين قاسيا بحق في رده عليها ، وقد دار قلمه بنعوت شتى في مهاجمتها ، ولكن الشيء الذي لم يحاوله ، ولو بمجرد ايماءة ، هو التشكيك في إخلاصها أو صدق كفاحها للقضية الاشتراكية ، بل انه ، وفي نفس المؤلف ، هاجم الحزب الاشتراكي البولندي « لسخف المحاولات التي يلجأ اليها أحيانا لاستغلال خلافاتنا مع روزا لوكسمبورج في مناهضة الاشتراكية الديموقراطية البولندية » .. وقد ظل لينين ، رغم هذه الواقعة ، محتفظا بتعاونه مع روزا لوكسمبورج واكباره لها كمكافحة ومفكرة ، وقد استشهد بأقوالها كثيرا في معركته الحامية الوطيس مع كاوتسكي بعد قيام الثورة البلشفية ، وكان كثير التنويه بموقفها الصلب ضد اليمينيين والوسطيين من أعضاء الحزب الاشتراكي الديموقراطي الألماني ، كما كان لا يكف عن وصفها بأنها من أعظم وأبرز قادة الحركة الاشتراكية العالمية .

والحق ، بعد هذا ، أن لينين كان يزدرى النزعة القومية كما تزدريها روزا لوكسمبورج ، وهو لم يرفع شعار تقرير المصير القومي الا لأسباب تكنيكية بحتة ، هي الظفر بتأييد القوميات المختلفة الخاضعة للدولة الروسية وجذبها الى كفاح مشترك معه لاسقاط الحكم القيصري في هذه الدولة .

***

ونعود الى بولندا حيث تركنا روزا لوكسمبورج . فقد ظهر فشل أسلوب التمرد المسلح ، الذى كان يحبذه الحزب الاشتراكي البولندي للكفاح الثوري ، بانحسار الموجة الثورية في الدولة الروسية عقب قمع ثورة ١٩٠٥ ونتيجة لهذا حدث ، سنة ١٩٠٦ انقسام داخل هذا الحزب ، فذهب فريق منه الى الايمان بضرورة توحيد العمل مع الثوريين الروس وانضم الى صفوف الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذى قرر في العام نفسه الاندماج في حزب العمال الاشتراكي الديموقراطي الروسي ، أما الفريق الآخر من الحزب الاشتراكي البولندي فقد ظل مشايعا جوزيف بلسودسكي (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥) ـ الذى كانت زعامة الحزب قد آلت اليه ـ في التزامه بالنزعة القومية والأسلوب التمردي في الكفاح ، متخذا لنفسه اسم : « الحزب الاشتراكي الثوري البولندي » .

وكان الحزب الاشتراكي الديموقراطي البولندي حتى عام ١٩٠٥ ضعيف الشعبية الى حد كبير بالقياس الى الحزب الاشتراكي ، ولكن تأييده للاضراب العام الذى وقع في وارسو يوم ٥ نوفمبر سنة ١٩٠٥ ، وهو الذى عارضه الحزب الاشتراكي أكسبه عددا ضخما من الأنصار ، خاصة بين عمال المصانع ، ثم ازداد قوة في العام التالي بانضمام جانب من الحزب الاشتراكي اليه على نحو ما ذكرنا .

وقد حدا ذلك بروزا لوكسمبورج الى المكوث في بولندا ـ تحت اسم مستعار . وراحت تسعى بكل قواها الى تأليب الفلاحين على الاقطاعيين وجذبهم الى الحركة الثورية ، الى جانب حث العمال على القيام بالاضرابات ، فألقى القبض عليها ، هي وزميلها يوجيشس ، في مارس ١٩٠٦ . وكتبت في سجنها عدة نشرات ثورية هربتها الى الخارج غير أن انهيار صحتها ، الى جانب جنسيتها الألمانية أدى بالسلطات الروسية الى اخلاء سبيلها بعد بضعة أشهر من القبض عليها ، بينما أرسل

زميلها الى سيبيريا حيث تمكن من الفرار بعد فترة وجيزة • ثم سمح لها بمغادرة بولندا ، فذهبت الى فنلندا ،حيث كتبت رسالة هامة عن «الاضراب الجماهيرى ، والحزب ، والنقابات » تناولت فيها بالشرح نظريتها ـ التى سبقت الاشارة اليها ـ عن الثورة الجماهيرية وصلة الحزب بها •

***

وقد اشتركت روزا لوكسبورج فى المؤتمر الاشتراكى الدولى الذى عقد فى مدينة شتوتجارت سنة ١٩٠٧ ، كعضو فى الوفد الروسى ـ الذى كان لينين أيضا من أعضائه ، وقامت بدور رئيسى فى المناقشات التى دارت فى هذا المؤتمر حول واجب الاشتراكيين والحركة الاشتراكية فى البلدان الأوربية فى حالة قرب اندلاع الحرب فيما بينها أو اندلاعها بالفعل ، وعينها المؤتمر عضوا فى لجنة ألفها للاستقرار على قرار موحد له بهذا الصدد بعد أن تضاربت مشروعات قرارات الوفود فى هذا الأمر ، واذ استقر رأى اللجنة على مشروع قرار بابيل ـ المندوب الالمانى فى المؤتمر ـ تقدمت هى ولينين ومارتوف باسم الاشتراكيين الديموقراطيين الروس بتعديلات واضافات عليه، كانت تدور فى جوهرها حول ابراز دور التنافس على التسلح فى قيام الحروب ، والتأكيد على النواحى التربوية فى نشاط الاشتراكيين لطبع النشىء بالمبادىء والأفكار الاشتراكية ، وواجب البروليتاريا عند نشوب الحرب فى استغلال الازمات الاقتصادية والسياسية التى تنجم عن هذه الحرب فى اثارة طبقات الشعب الدنيا ضد الحكم البرجوازى القائم والعمل سريعا على اسقاطه •• وقد صادفت هذه الملاحظات قبولا لدى وفود الاحزاب الاشتراكية المجتمعة ، فأقرها المؤتمر وأصدر بها قراره النهائى •

***

وفى سنة ١٩٠٨ عادت روزا لوكسمبورج الى المانيا لتحاضر فى الاقتصاد السياسى فى مدرسة أنشأها الحزب الاشتراكى الديموقراطى الالمانى لتنمية وعى وثقافة العمال المنتمين اليه ، والى جوار ذلك ظلت تمارس دورها بنشاط كبير داخل الحزب الالمانى ، ولكن من موقع اليسار المتطرف، الذى كاد عمله وقتئذ ينحصر فى معارضة سياسة الحزب التى كان يوجهها المعتدلون ممثلو الوسط •

والواقع أن الاحوال قد تغيرت كثيرا داخل هذا الحزب ببروز روزا لوكسمبورج فى محيط زعامته • فقد كان هذا الحزب لايعرف منذ سنة ١٨٩٠ غير جناحى اليسار واليمين، يتزعم الأول بابيل وكاوتسكى والثانى فولمار وبرنشتاين • ولكن آراء وشخصية روزا لوكسمبورج لعبتا دورا جوهريا فى خلق جناح أكثر تطرفا ، أخذ ينمو ويشتد ويجتذب الانصار من أعاظم الرجال والنساء حتى احتل ، حوالى سنة ١٩٠٥ ، المركز اليسارى فى الحزب وأنزل اليسار القديم الى مركز الوسط ، فأصبح الحزب بذلك منقسما الى يسار ثورى ويمين اصلاحى ووسط معتدل •

وكان الوسط هو المسيطر على الحزب ، الا أنه أخذ ينزلق يوما بعد يوم فى اتجاه اليمين ، فأخذت بالتالى شقة الخلاف تتسع بينه وبين اليسار ، وأدى تطور الأمور على هذا النحو الى أن أصبح اليسار يقف فى جانب والحزب كله فى جانب آخر ، ومع ذلك فلم يفكر الحزب فى التخلص من يسارييه هؤلاء •• اذ كان عليه أن يحسب حساب فقدان أعلام مثل كارل ليبنخت وكلارا زتكين وجورج ليديبور وفرانز ميهرنج ـ بالاضافة طبعا الى روزا لوكسمبورج ، وقبل هذا ما سيتهدد قوته وشعبيته عندما يعمد هؤلاء اليساريون الى تكوين حزب اشتراكى جديد أكثر منه ثورية وأشد تعصبا للمبادىء الماركسية •

وقد جاءت أزمة الحقوق الانتخابية فى بروسيا، سنة ١٩١٠ ، لتكشف الى أى مدى أضحى التناقض بين تفكير روزا لوكسمبورج المتطرف وبين سياسة الحزب المعتدلة : اذ دعت روزا لوكسمبورج الى تنظيم اضراب عام للطبقة العاملة لارغام الحكومة البروسية على تطبيق حق الانتخاب المتساوى لجميع أفراد الشعب ، فرفض الحزب طلبها خشية أن يؤدى به الى صدام بالدولة يدفعها الى اعادة القوانين التى سبق أن استنها بسمارك لحظر النشاط الاشتراكى فى ألمانيا ؛ ثم لم تلبث ، فى نفس العام ، أن دعت الحزب الى أن يجهر بمعارضة النظام الملكى القائم ويرفع شعار « الجمهورية الديموقراطية » ، ولكنه رفض ذلك أيضا للسبب السالف •

وتوالت المصادمات على هذا النحو بين روزا لوكسمبورج وبين الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى • وتوترت العلاقة بينها وبين كاوتسكى، زعيم الوسط ، بصفة خاصة ، الى درجة أنه رفض أن ينشر أحد مقالاتها فى جريدة « نوى زايت » ، فانفصلت عنها ، وأسست بالاشتراك مع فرانز ميهرنج (١٨٤٦ ـ ١٩١٩) جريدة

جديدة خاصة باليسار ، ظهر العدد الأول منها فى سنة ١٩١٣ ٠ وفى تلك السنة أيضا ظهر مؤلفها الأشهر « تراكم رأس المال » ، الذى أثار جدلا كبيرا بين الماركسيين لما عدوه منه مراجعة لنظرية ماركس عن « أزمات الرأسمالية » ٠

والحق أن نظرية أزمات الرأسمالية هذه ، وهى الذاهبة الى أن الإزدياد المستمر فى الانتاج الرأسمالى يقابله بالضرورة ضيق مستمر فى سوق الاستهلاك مما يوقع الاقتصاد الرأسمالى فى أزمات دورية تزداد عنفا على مر الأيام الى أن تودى بالنظام الرأسمالى بأسره فى النهاية ، هذه النظرية قد أثارت الكثير من الجدل بعد وفاة ماركس ، ليس فقط من جانب المفكرين البرجوازيين ، الذين كانوا يؤكدون عكسها ، وانما أيضا من جانب العديد من المفكرين الاشتراكيين : ذلك أن الأحداث اللاحقة قد سارت فى طريق معاكس لما ذهبت اليه هذه النظرية ، اذ أخذت هذه الأزمات تتباعد وتقل حدة بدلا من أن تتفاقم ويستفحل خطرها كما تقرر هذه النظرية ٠

بل ، والى جانب ذلك ، كانت ثمة مشاهدات تتعلق بجوانب أخرى فى المذهب الماركسى حار فى أمرها الماركسيون قبل غيرهم : فلماذا جنحت أجور العمال الى الارتفاع بدلا من أن تسير الى الانخفاض كما جزم بذلك ماركس ؟ ٠٠ ولماذا أخذت أحوال العمال عموما فى التحسن ، فقلت ساعات عملهم وبدأوا يحصلون على الرعاية الاجتماعية والقانونية ، بدلا من أن تسوء هذه الأحوال كما كان منتظرا ؟ ٠٠ ولماذا ينتعش البرجوازيون الصغار بدلا من أن ينحدروا الى مستوى الطبقات الدنيا ؟ ٠٠ ولماذا زاد عدد أصحاب رؤوس الأموال، وكثر أصحاب المشروعات الصغيرة كثرة هائلة ، وان كان ذلك بصورة جديدة هى صورة « حملة الأسهم » ، وذلك بدلا من أن يحدث العكس ؟ ٠٠ ولماذا يرتفع المستوى العام للمعيشة بدلا من أن يتدهور ويلوح شبح « الافقار التام » ٠٠ وعليه : أين الانهيار الرأسمالى المرتقب ؟ ، أين مجرد بوادره ؟ ، بل كيف حدث العكس فازدادت الرأسمالية قوة وازدهارا ؟

ذلك كله كان صدمة لأولئك الذين كانوا موقنين بالتحقق الآلى للنظريات الماركسية ، هذا اليقين الذى جعل مؤتمر الدولية الاشتراكية فى سنة ١٨٩٦ يصدر نداءه المشهور الى عمال العالم بأن يدربوا أنفسهم على أساليب ممارسة السلطة السياسية لقرب وقوع الرأسمالية فى الأزمة الحاسمة التى تطيح بها ٠ كما كان دافعا لماركس مثل برنشتاين الى تقليب النظر من جديد فى المذهب الماركسى كله ، وانكار حتمية انهيار الرأسمالية ، بالصورة التى قدمها ماركس ٠

وبالرغم من أن روزا لوكسمبورج لم تتخل قط عن ايمانها بحتمية انهيار الرأسمالية بفعل تناقضاتها الداخلية كما بين ذلك ماركس ، وبالرغم من موقفها الصارم ــ الذى سبق أن أوضحناه ــ ضد برنشتاين وحركته التنقيحية ، الا أنها ذهبت الى أن ماركس قد وقع فى خطأ كبير حينما لم يأخذ بالاعتبار الكافى امكانيات الرأسمالية وقدراتها التوسعية ، الأمر الذى جعله يخطىء التقدير فى تبين مستقبلها والتعرف على مدى صلابتها وقدرتها على مقاومة أزماتها ٠ وقد ذهبت فى كتابها « تراكم رأس المال » فى تفسير خروج الرأسمالية ظافرة من هذه الأزمات، الى أن الرأسمالية تستطيع باستمرار أن تتوسع وتستحدث وسائل للتنفس كلما أوشكت على الاختناق ، وذلك عن طريق غزو المناطق المتخلفة، واستبدال الأساليب الأكثر بدائية فى الانتاج، كأساليب الحرفيين والفلاحين ، فتنشىء بذلك استثمارات جديدة ، وتخلق أسواقا جديدة تصرف فيها انتاجها المتزايد الذى لا تستوعبه السوق المحلية ، كما أن التقدم الفنى الرهيب فى وسائل الانتاج سيمكن الرأسماليين من جنى أرباح طائلة تمكنهم بدورها فى المستقبل من فتح آفاق جديدة لرؤوس أموالهم ، كلما ازدادت تراكما ، ولانتاجهم ، كلما ضاقت عن استيعابه الأسواق القائمة ٠ ولكنه بالرغم من أن هذه المتنفسات المستجدة للرأسمالية ستتيح لها التغلب على أزماتها الى وقت طويل ، فانها ستعمل من جانب آخر على زيادة حدة وخطورة هذه الأزمات : ذلك أن الرأسمالية ستحمل معها متناقضاتها فى كل مجال تطرقه أو مكان تحل فيه ، وتبعا لتوسعها وتضخمها ستتسع هذه المتناقضات وتتضخم ، وينعكس أمرها هذا فى

الأزمات ، التى هى وليدة هذه المتناقضات ٠٠ وفى النهاية ، عندما تكون الرأسمالية قد بلغت آخر مراحل توسعها ، واستنفدت كافة وسائل تنفسها ، وتكون متناقضاتها بالتالى قد بلغت غايتها من العمق والاستفحال ، تنفجر الأزمة الأخيرة ، رهيبة مروعة ، على نطاق عالمى شامل، فتنسف النظام الرأسمالى ، بجميع صوره الاقتصادية والاجتماعية ، من العالم برمته ٠ لكن روزا تكرر دائما أن هذه النهاية ، أى نهاية الرأسمالية بفعل تناقضاتها ، مازالت جد بعيدة، وأنه ينبغى النظر اليها دائما بهذا الاعتبار ، وأن ماركس قد جانبه الصواب فى تصوره للعجلة التى ستحل بها ٠

ولكن هل معنى ذلك أن الرأسمالية ستعمر حتى توافيها هذه النهاية ، أو هذه الميتة الطبيعية ؟ ٠٠ هنا تخرج روزا لوكسمبورج بنظرية جديدة فى الانهيار الرأسمالى ، مؤداها أن هذا الانهيار سيقع ، رغم ما تقدم ، عاجلا ، ولكن ليس نتيجة لأزمات اقتصادية كما ذهب ماركس ، وانما نتيجة لعامل آخر هو المنافسة الاستعمارية والتجارية بين الدول الرأسمالية : فتنافس هذه الدول على غزو المناطق المتخلفة واحتكار أسواقها ومواردها سيفضى الى نتيجة لازمة هى : الحرب فيما بين هذه الدول ؛ وستكون حربا هائلة مدمرة تتصارع فيها الأطماع الرأسمالية قد صرعت نفسها بنفسها ، ولن تفعل الثورة العمالية ، التى ينبغى أن تنطلق وقتئذ ، أكثر من مواراتها التراب واحلال النظام الاشتراكى محلها ٠٠٠ ونعيد التعبير عن هذه النظرية فى كلمات قليلة هى أن انهيار الرأسمالية لن يتم عن طريق موتها وانما عن طريق انتحارها٠

ولقد صحت هذه النظرية بصورة مدهشة فى الحربين العالميتين السابقتين : فالاثنتان قد نشأتا بين الدول الرأسمالية بسبب منافساتها الاستعمارية والتوسعية ، وأحدثت كل منهما آثارا مدمرة على اقتصاد وقوة هذه الدول — باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية التى دخلتها متأخرة وكانت أرضها بمعزل عن ساحاتهما — وكان من جراء ذلك أن ترنحت النظم الرأسمالية فى معظم أرجاء العالم ، فنشطت الحركات الاشتراكية ، واندلعت ثوراتها ، وحققت انتصاراتها الحاسمة ، هذه الانتصارات التى جعلت للاشتراكية الآن معسكرا عالميا راسخا يضم ٣٥٪ من سكان العالم أى أكثر من ألف مليون نسمة ؛ ومن الحقائق الثابتة أنه لولا وجود الولايات المتحدة على المسرحين السياسى والاقتصادى عقب الحرب العالمية الثانية لابتلعت الاشتراكية أوربا بأكملها وفى اثرها العالم بلا استثناء ٠

وهذا الكتاب ، تراكم رأس المال ، رغم أهميته القصوى فى تجديد الفكر الماركسى ، كان سيىء الحظ الى حد كبير عند ظهوره ٠ فقد ظهر والحرب العالمية الأولى على الأبواب ، والانتباه كله ، بما فى ذلك انتباه الاشتراكيين ، متجه نحوها ، فلم يأخذ حظه من الانتشار أو الدراسة الدقيقة ٠٠ ومن بين الذين قرأوه من المنظرين الماركسيين حينئذ رحب به نفر قليل بينما عدته الكثرة الغالبة مراجعة غير مقبولة للنظريات الماركسية٠ الا أنه عاد ففرض الاهتمام به بعد نحو خمسة عشر عاما ، حينما تعرضت الرأسمالية لأزمتها الكبرى فيما بين سنتى ١٩٢٩ و١٩٣٣ ، وتغلبت عليها ، الأمر الذى دعا المفكرين الاشتراكيين الى اعادة النظر جديا فى نظرية ماركس الخاصة بأزمات الرأسمالية والرجوع فى ذلك ، بصفة أساسية ، الى كتاب روزا لوكسمبورج المذكور ٠

***

وقامت الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ ٠ ولكم ألم روزا لوكسمبورج وقتئذ تراجع الاشتراكيين الأوربيين — باستثناء قلة — عن سابق موقفهم حيالها ، فاذا بهم بدلا من أن يقاوموها أو يستغلوها فى اسقاط النظم الرجعية بدولهم كما وطدوا العزم من قبل ، يسارعون الى مساندة حكوماتهم فيها ، ويوافقون على الاعتمادات المطلوبة لها ٠٠ وذلك بدعوى « حماية الوطن » ٠

لقد عدت روزا لوكسمبورج هذا الموقف من جانب الاشتراكيين — وهو الموقف الذى حمل فى الواقع نهاية عصر الاشتراكيات الديموقراطية وأعلن وفاة الدولة الثانية — خيانة للمبادىء الاشتراكية وجريمة لا تغتفر فى حق الانسانية، ووقفت ، بالاشتراك مع كارل ليبنخت ، داخل الحزب الاشتراكى الديموقراطى الألمانى ، الذى أيد هو الآخر سياسة حكومة دولته فى دخول الحرب، على رأس اليساريين المتطرفين الذين كانوا يمثلون ، الى جانب كاوتسكى وبرنشتاين ومشايعيهما ، الأقلية المناهضة للحرب داخل الحزب ، ووضعت لهم خطة عمل بعنوان : « مهمات الاشتراكية الديموقراطية الدولية » أكدت فيها الأهداف اللاقومية للاشتراكية وركزت على ضرورة استغلال البروليتاريا فرصة الحرب الدائرة فى تسديد الضربة القاضية الى النظم الرجعية والاستيلاء على مقاليد الحكم ٠

وقد ألقت روزا في الأيام الأولى لتلك الحرب خطبة ملتهبة فضحت فيها الأطماع الاستعمارية للسياسةالألمانية وحرضت الجنود جهرا على التمرد وعصيان الأوامر الصادرة اليهم بالقتال ، فحكم عليها بالسجن لمدة عام ، ولكنها واصلت خطبها على هذا النحو ، وأخذت تشتد يوما بعد يوم في مهاجمة الحرب واستنهاض العمال والجنود للثورة، فأودعتها السلطات الألمانية السجن أخيرا في فبراير سنة ١٩١٥ .

ولبثت في سجنها حتى أطلقت سراحها الثورة الألمانية ، التي أطاحت بالامبراطور وأقامت الجمهورية ، وذلك في أوائل نوفمبر من سنة ١٩١٨ . وعلى الفور من ذلك أسست مع كارل ليبنخت جريدة « دى روته فاهنه — الراية الحمراء » لتنطق باسم « عصبة اسبارتاكوس » — وهو الاسم الذي أطلقه اليساريون المتطرفون الألمان على أنفسهم في ابريل سنة ١٩١٧ عندما انفصلوا عن الحزب الاشتراكي الديموقراطي — وفيها عبرت عن ترحيبها الشديد ، وفرحة عصبتها ، بانتصار الثورة البلشفية في روسيا .

ولكن روزا لوكسمبورج ، رغم ترحيبها هذا ، كانت تساورها الشكوك في سلامة بعض جوانب السياسة التي انتهجتها الثورة الروسية، وقد أوردتها كتابها « الثورة الروسية » الذي نشر في سنة ١٩٢٢ ، اذ كانت تخشى أن تؤدي دكتاتورية الحزب الى اقصاء الجماهير العاملة عن الاضطلاع بمسئولياتها وطمس المعنى الحقيقي لدكتاتورية البروليتاريا ، وكانت تتخوف تخوفا جديا من أن يؤدي التركز المستمر للسلطة داخل الحزب الى قيام بيروقراطية محترفة تخضع الجماهير لحكمها ومصالحها باسم « الثورة » .

الا أنها قد ساهمت بصورة ايجابية مجدية، رغم قصر المدة التي أتيحت لها فيها هذه المساهمة ، في شئون هذه الثورة ، وكان من أبرز ذلك معارضتها انشاء « سوفييتات الفلاحين » ومطالبتها بأن ينشأ بدلا منها « سوفييتات الأجراء الزراعيين وفقراء الفلاحين » .. وكان لينين متجاوبا معها في ذلك . واستشهد بمقالها في هذا الموضوع ، الذي نشر في العدد الثالث من جريدة « روته فاهنه » ، في خطابه أمام المؤتمر الأول للدولية الشيوعية ، وأيد باصرار ذلك الذي ذهبت اليه .

وفي ديسمبر من سنة ١٩١٨ قررت روزا لوكسمبورج وزملاؤها في عصبة اسبارتاكوس تحويل العصبة الى «الحزب الشيوعي الألماني» . وأخذوا يعدون عدتهم للقيام بثورة بروليتارية في ألمانيا على غرار الثورة الروسية .

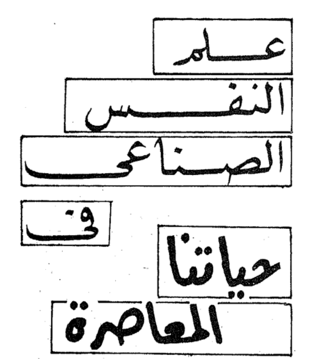
وفي ٦ يناير من سنة ١٩١٩ بدأوا الثورة ، بالاشتراك مع سائر الجماعات اليسارية ، فنظموا اضرابا عاما في برلين ، استجابت له الطوائف العمالية ، وكونوا لجنة ثورية عسكرية لقيادة العمليات المسلحة ، واحتل ثوارهم مركز الشرطة في برلين ، ومكاتب الجريدة الناطقة باسم الحكومة، وعددا آخر من مباني المرافق الهامة في الدولة . وقاومت الحكومة الثورة بعنف شديد ، بوساطة « الفرق الحرة » ، التي كونتها من الضباط والجنود السابقين ، فدار القتال في شوارع المدينة ، واستطاعت هذه الفرق أن تقتحم مراكز الثوار ، وتدمر المباني التي استولوا عليها .. وما وافي يوم ١٣ يناير حتى انتهى القتال وتم اخماد الثورة .

وفر الكثير من زعماء الثورة من برلين ، وانزوى في المخابىء من آثروا البقاء ، وكان من هؤلاء الأخيرين روزا لوكسمبورج .. وفي يوم ١٥ يناير ، ألقت سرية من الفرق الحرة القبض على روزا لوكسمبورج وكارل ليبنخت ، ولم يرق لضباطها أن يدعوا أمرهما للقضاء في المحاكم ، فأطلقوا عليهما الرصاص أثناء اقتيادهما الى السجن ، فقتل ليبنخت على الفور ، ولفظت روزا أنفاسها بعده بساعات قلائل ، ثم ألقيت جثتها في احدى الترع ، ولم تنتشل منها الا بعد أيام عديدة .

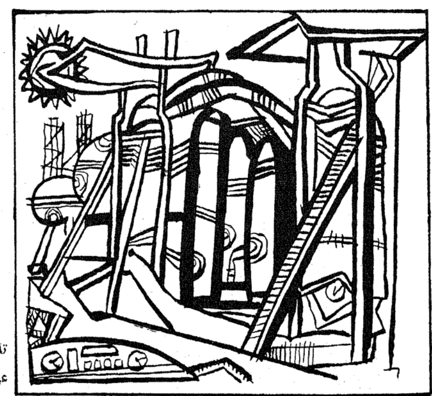
وبهذه الصورة البشعة كانت خاتمة حياة هذه الشخصية الفذة .. التي مهما اختلفت المواقف من آرائها ، فانها تتحد في التسليم بأنها كانت مفكرة أصيلة ، ثاقبة النظر ، تركت آثارها جلية بارزة في تاريخ الفكر الاشتراكي ، وبأنها كانت مكافحة عظيمة تفانت في الكفاح من أجل مبادئها بصورة لا يكاد أن يوجد شبيه لها في التاريخ الانساني بأسره .

محيي الدين خطاب

كتب جديدة



حرص المؤلف الدكتور السيد محمد خيرى فى مقدمة كتـــابه أن يوضح للقارىء أن مادة كتابه ليست مجرد جمع للحقائق والدراسات والبحوث التى تزخر بها الكتب والمراجع الاجنبية ، وانما تحوى بالاضـافة الى ذلك الجهود المحلية فى كل مجال من مجالات علم النفس الصناعى . ولقد أفاد من الخبرات والجهود التى ساهم بها فى عمليات الاختيار والتدريب فى كل من المجـــال الوظيفى (الادارى) والصناعى حيث عمل عضوا فى الهيئة الفنية لمراقبة الاختبار والتمرين بديوان الموظفين منـــذ نشأته فى أوائل الخمسينات ، كمـــا عمل مستشارا لمراقبة الاختبارات السيكلوجية بمصلحة الكفاية الانتـــاجية منذ نشأتهـــا كمركز للكفاية



تاليف : د . السيد محمد خيرى

عرض : د . سيد محمد غنيم

الانتاجية حتى اليوم ، كما أنشأ قسم الاختبارات السيكلوجية والاشراف الاجتماعى الذى يضم عددا من الاخصـــائيين السـيكلوجيين والاخصائيين الاجتماعيين والذى قام باعداد وتقنين عـدد من بطاريات الاخبارات للحرف المهنية المختلفة • ومن هنـــا جاءت مادة الكتاب مزودة بالدراســات والبحوث والخبرات المحليةبالاضافة الى الدراسات والبحوث والخبرات الاجنبية •

والكتاب الذى نقدمه يقع فى ٥٣٣ صفحة من القطع الكبير نشرته دار النهضة العربية ويحتوى على عشرة فصول يعالج كل فصل منها موضوعا من موضوعات علم النفس الصناعى •

***

والفصل الاول يضم نبذة عن نشأة علم النفس الصناعى من حيث هو أحد المجالات التطبيقية لعلم النفس • فمنـذ بحوث كربلين فى أواخر القرن الماضى عن التعب والتدريب ومدى تأثيرهما على الانتاج فى مراحل زمنية مختلفة ، قامت سلاسل من الدراسات تبـحث العمـل فى جميع مظاهره بهدف الوصول الى حقائق عامة ونظريات تتعلق بالعمل بوجه عام وتفسير دوافعه ومراحله وتطوره مهـما اختلفت ظروفه واختلف القائمون به • فشملت الدراسات المتعلقة بفترات الراحة وأثر عددها أو تنوع النشـاط الذهنى والبدنى الذى تستغل فيه هذه الفترات ، وكذلك أثر تغير طول ساعات العمل اليـــومى على الانتاج وتغير كمية الانتاج ونوعه بالتقدم الزمنى أثناء العمل وكذلك منحنيات العمل أو منحنيات التعلم التى توصلت اليها هذه الدراسات ، الى غير ذلك من الموضوعات المتصلة بطبيعة الاعمـال الروتينية والابتـكارية وتجارب التعب وقياسه وانتقـال أثر التدريب والتعب الذاتى وتذبذب الانتباه الخ •

وقد أشار أيضا الى الجهود التى قام بها كثير من علماء النفس الصناعى فى هذا الصدد• فأشار الى دراســات تايلر والاسس العلمية التى أقام عليها هذه الدراسات والتى تتلخص فى الدراسة العلمية لكل عنصر من عنـاصر العمل الذى يقوم به الانسان واختيار أنسب العمال لكل عنصر من عناصر العمل وتنظيم برنامج تدريبى للعمال بناء على دراسة العمــل ثم اشـاعة جو من التعاون المخلص بين الادارة والعمال أثناء قيامهم بالاعمال التى يكلفون بها مما يعطى فرصة كافية لعمل كل من الطرفين لصالح الطرف الآخر ثم تقسيم الاعمال تقسيما متعـادلا بين الادارة والعمال حيث يقوم كل قسم بالاعمال التى تناسبه تمـاما بدلا من القاء عبء العمل والقدر الاكبر من المسئولية على العمال •

كما أشار أيضا الى جهود جلبرت ، تلك الجهود التى تعتبر حلقة هامة فى سلسلة الاهتمام بالعامل الانسانى فى الصناعة • وقد اهتم جلبرت أساسا بالبـحث عن « الطريقة المثـلى للاداء » بمعنى الوصول الى الطريقة التى تحقق لكل من صاحب العمل والعامل أكثر ما يمكن تحقيقه من فائدة وراحة • كما اهتم أيضا بتطبيق أسس الادارة السيكلوجية ودراسة الحركة خلال الحرب العالمية الاولى فى تدريب المجندين وتأهيل مشوهى الحرب واختيار أنسب الاعمال لكل منهم •

وقد تضمن هـــذا الفصل الاول بالاضافة الى ما تقدم تحديد ميادين هذا الفرع من فروع علم النفس وقد حددها بالمجالات الآتية :

١ ــ دراســة حاجات المهن واعــداد تطبيق الاختبـــارات المناسبة لتحقيق الاختيــار العلمى للعمال ثم التوجيه الصحيح للأفراد ومعاونتهم على اختيار مهنة الحياة اختيارا صحيحا •

٢ ــ دراسة خير الطرق لاســتخدام الطـاقة البشرية فيما يتعلق بالتخلص من الحركات غـير اللازمة والتـــوزيع المنتج لفترات الراحة وتقليل الرقابة المملة فى العمــل تحقيقا لزيادة الاهتمام والميل •

٣ ــ الوصــول الى الشروط المتعلقـة بالاضاءة والتهوية والضوضاء وغيرها ممـا يؤدى الى أكبر قدر من الصحة والراحة وصالح العمل بوجه عام ثم المتعلقة بطرق رفع الاجور وتمثيل العمال••الخ التى تؤدى الى أفضـل العــلاقات بين العـــمال والادارة •

٤ ــ تدريب العـــمال تدريبـا فنيا ويتضمن تطبيق الاسس السيكلوجية فى عمليـــات التعلم وتكوين العـادات الصـالحة بين المبتدئين وتدريب المشرفين •

٥ ــ دراسة العوامل المؤثرة على بيـع المنتجات كالإعلان والدعاية والتخطيط الخ •

وقد أوضح المؤلف أهمية علم النفس الصناعى فى الدول المتقدمة التى استفادت منه أكبر فائدة فى العمل والانتـــاج والجهود التى كرست لهذا الفرع والمؤلفات والمجلات العلمية لنشر أبحـــاثه ودراساته وخاصة فى الولايات المتحدة الامريكية

وانجلترا وألمانيا والاتحاد السوفيتى • كما أشار أيضا الى الجهـــود التى تبذل فى الدول النامية للافادة من هذا الفرع وخص الجمهورية العربية المتحدة بالذكر • وقد ركز على مجالين فقط من عديد من المجالات التى استخدمت فيها الاساليب السيكلوجية على نطاق واسع وهما جهود ديوان الموظفين ومصلحة الـكفاية الانتـاجية بوزارة الصناعة • فديوان الموظفين منذ نشأته عام ١٩٥٢ قـد ركز على هذا الجانب الهام وضمن اقسامه ادارة عامة للاختبـار والتمرين هدفهـا الاختيار السليم للموظفين بنـاء على أسس علمية سليمة متبعة أحـدث الاختبـارات التى اقتبست والتى أعدت لتحقيق هذا الهدف • أما مصلحة الكفاية الانتاجية فقد اتسعت اهتماماتها لتشمل ميدانين هامين من ميادين علم النفس الصناعى هما :

١ ـ التدريب المهنى ويشمل مراقبة الاختبارات السيكلوجية والاشراف الاجتماعى ومراقبة مراكز التدريب ومراقبة الاشراف والتتبع •

٢ ـ ميدان الكفاية الانتـاجية وتشمل مراقبة الادارة العـامة ومراقبة المشروعات النمـوذجية ومراقبـة الامن الصـناعى ومراقبة التـكاليف الصناعية ومراقبة الاستعلامات الفنية والعـلاقات الصناعية •

واذا كان علم النفس الصـناعى يهتم بالعمل والانتــاج ، فمن الطبيعى أن يركز أسـاسا على دراسة الانسان العامل • واول ما يلفت النظر فى هذه الدراسة مسألة الفروق الفردية الموجودة بين العاملين فى أدائهم لما يطلب اليهم القيـام به من أعمال من حيث السرعة والدقة والانقـان • ولذا اختص الفصل الثانى من الكتاب بدراسة الفروق الفردية وطبيعتها ومداها • فلـكل منا شخصية فريدة لا يعادله فيهـا أحد • وهـذه الشخصية تنعـكس فى سلوكه وتفـاعله مع غـيره ، فى استعداداته الذهنية وميوله وغير ذلك من المميزات العضوية والنفسـية التى تؤثر تأثيرا مباشرا أو غير مباشر فى انتاجه • وكان من الطبيعى أن يقوم علم النفس الصـناعى فى أغلب بحوثه وحقائقه التى يصل اليها على الاعتراف بهذا المبدأ أساسا • وقد أشـار المؤلف الى حقيقة هذه الفروق الفردية ونشأتها وتطورها وكيف ان أهمية الاعتراف بها فى ميدان الصناعة والعمل لا يمكن اغفالهـا فى عمليات الاختيار والتوجيه والتدريب • وقد عالج بعض المشـكلات المتصلة بطبيعة هـذه الفروق الفردية وهل هى فروق كميـة أم نوعية ، وهل تنتظم القدرات فى توزيعها بين مختلف الاشخاص فى اطار عام أم انها تتوزع حسبما اتفق دون أن تجتمع تحت نسق عـام ، ثم ما مدى التفـاوت الموجود بين مختلف الشخصيات فى أية سمة أو قـدرة معينة • كما أوضح أيضا ان هذه الفروق ليست قاصرة على الفروق بين الأفراد بل وتتضح أيضـا داخل الفرد الواحد • ذلك ان امكانيات الفرد الذهنية والانفعالية ليست كلها فى مستوى واحد • فلكل منا جوانب يتميز فيهـا على باقى الجـوانب الاخرى • ومن الثـابت ان الجوانب المختلفة فى شـخصية الفرد ليست فى مستوى نسـبى واحد • وهذا لا يتعـارض مـع وحدة الشخصية وتمايزها عن غيرها • وهذا الاختلاف فى المسـتوى النسبى لمختلف جوانب الشخصية هو الذى يجعـل لكل فـرد أسلوبه المتميز فى سلوكه وأسلوب تفاعله مع غيره ، وهو الذى يحدد درجة نجاح الفرد فى مختلف الاعمال ويضفى على أسلوب سـلوكه انتظاما واستقرارا ، وهـذا ما يساعد على ايجاد وحدة الشخصية وتمايزها •

وهذا الاختلاف فى الجوانب المختلفة من حيث المستوى النسبى للفرد الواحد قد أوحى للباحثين تخطيطا واحدا لكل شـخصية توضـح هـذه الفروق بحيث تسـهل المقـارنة بين المستويات المختلفـة فى الشخصية الواحدة ممـا أدى الى اسـتخدام ما يسمى باسم الصفحة النفسية أو البروفيل النفسى الذى هو تخطيط يوضح الوضع النسبى للفرد (بالنسبة للعينة الممثلة لمجتمعه) فى مختلف جوانب الشخصية بحيث يسـتطيع الاخصائى من نظرة مباشرة فاحصة لهذا التخطيط الوقوف على نواحى القوة والضعف وبهذا يتسنى له اجراء عملية الاختيـار والتـوجيه على هـذا الاساس •

وقـد تطلب الأمر معـالجة بعض المفـاهيم الاحصائية التى تتصل بهـذه النواحى كالدرجات الخام والدرجات النسبية وجداول المعايير، وكيف ان المعيار الذى تنسب اليه أية درجة من الدرجات الخام يتوقف على طبيعة الاختبـار وطبيعة عينة التقنين ، وكيف ان تقييم الفروق الفردية عن طريق الاختبارات والمقاييس السيكلوجية انما هو تقييم نسبى وليس مطلقـا وهو فى هـذا يختلف عن المقاييس المادية المستخدمة فى أى فرع من فروع المعرفة الاخرى كالطبيعة والكيمياء •

وقد تضمن هذا الفصل الثانى أيضـا اشارة الى أهم أنـواع الاخطاء التى تتعرض لهـا تقديرات

الفروق الفردية فأشار الى الخطأ الثابت الذي يعبر عن ميل الاخصائى نحو اعطاء تقديراته لمختلف الاشخاص فى اتجاه معين كالميل الى التشدد أو التساهل فى اعطاء التقديرات ثم الى خطأ الهالة الذى يتضح فى انتقال الانطباع العام الذى يحدثه الشخص لدى الاخصائى الى تقديره فى سمات نوعية محددة • فالشخص اللبق الذى يحسن التعبير عن نفسه كثيرا ما يستطيع التأثير على تقديرات الاخصائيين له فى جوانب محددة من جوانب الشخصية كالذكاء والقدرة على التعاون والامانة مثلا •

وقد احتوى هذا الفصل أيضا تعريفا بأهم أنواع طرق التقدير حيث ميز أربعة أنواع منها هى :

١ ـ طريقة الترتيب وتشير الى عدد الافراد الذين يتفوق عليهم أو يتخلف عنهم وان كانت هذه الطريقة لا تشير بوضوح الى درجة التفوق أو التخلف •

٢ ـ طريقة قياس التقدير حيث يطلب من الاخصائى وضع المختبر فى فئة معينة من عدد ـ الفئات التى تعطى له وقد تكون هذه الفئات عددية على مقياس متدرج أو نوعية منفصلة •

٣ ـ طريقة قائمة الصفات حيث يوضع أمام المقدر عدد من الصفات أو السمات ويطلب اليه أن يضع علامة أمام الصفات التى يرى انها تنطبق على الشخص الذى يقوم بتقييمه ويراعى أن تتضمن العبارات مختلف الجوانب التى يتخذها أساسا للتقييم وعلى درجات مختلفة من القبول والرفض بالنسبة لهدف التقدير •

٤ ـ طريقة الاختيار التعسفى حيث تقدم للاخصائى مجموعات من العبارات كل مجموعة تتكون من عدد محدد من العبارات قد تكون عبارتين أو ثلاثة أو أربعة وعلى المختبر أن يضع علامة أمام العبارات التى تنطبق على المختبر بدرجة أكبر •

واذا كانت عملية الاختيار تتضمن تحليل الشخص الى مواصفات أساسية للكشف عن مدى ملاءمته لكل عمل ، فمن الضرورى أيضا أن نحلل العمل نفسه الذى يتقدم له الشخص بحيث نقف على أقل قدر من العوامل المتطلبة التى تعطى صورة كاملة وكافية عن كل ما يحدد متطلباته وظروف العمل فيه • وهذا ما اشتمل عليه الفصل الثالث من الكتاب حيث نجد دراسة مستفيضة لتحليل العمل • ومن الطبيعى أن يحدد المؤلف أهداف تحليل العمل حيث لخصها فى الاهداف الآتية :

ايجاد مقاييس لكفاءة العامل فى عمله ـ تنظيم الاعمال ـ تقييم الاعمال ـ اختيار العمال الجدد ـ تحسين أساليب العمل ـ تحسين الادوات والاجهزة ـ اعداد برامج التدريب ـ تهيئة جو للعمل يؤدى الى توفر الامن الصناعى •

ومن الطبيعى أن يشير المؤلف الى أهم المصادر التى يستقى منها محلل العمل بياناته فأشار الى بعضها وهى ملاحظة العمال أثناء أداء أعمالهم وهذا هو المصدر الاول والطبيعى للحصول على بيانات تحليل العمل ثم المقابلات الشخصية التى تتم مع العامل ثم المقابلات مع المشرفين ثم الاستبيانات ثم النشرات والكتيبات والمطبوعات المتعلقة بالعمل •

وقد أوضح المؤلف أيضا أهم الوسائل التى تتبع فى تحليل العمل فأوضح ان الاسلوب المستخدم فى تحليل العمل والكيفية التى يؤدى بها تتوقف الى حد كبير على نوع العمل الذى يحلله وطبيعته • فالاعمال اليدوية تختلف اختلافا واسعا فى طبيعتها ودرجة سهولتها وتعقيدها • كما ان نقطة التركيز فى أية عملية من عمليات التحليل تختلف تبعا لذلك • وقد أشار المؤلف الى أهم الوسائل المستخدمة فى تحليل العمل فى النواحى الآتية :

١ ـ تحليل الحركات وهذه ليست بالمهمة السهلة لان تتابع الحركات فى أى عمل يكون عادة أسرع من قدرة المحلل على متابعة التحليل والتسجيل وخاصة فى الاعمال المعقدة المنظمة وهنا أشار المؤلف فى هذا الصدد الى دراسات جلبرت •

٢ ـ تحليل الواجبات والمواقف وأساليب العمل •

٣ ـ تحليل العامل نفسه بقصد (أ) تحليل الحد الادنى للامكانيات اللازمة للنجاح فى العمل (ب) تحديد مدى الاهمية النسبية لمختلف الاستعدادات والسمات والمهارات وغير ذلك من خصائص الفرد • وهنا يشير المؤلف أيضا الى أولى المحاولات التى بذلت فى تحليل قدرات العامل وهى التى قدمها فيتليس •

***

فى أوائل العقد الثانى من هذا القرن والذى ظلت طريقته فى هذا التحليل متبعة بعد ذلك حتى اليوم • ومن النواحى الهامة التى أشار اليها المؤلف فى هذا الفصل استمارة تحليل العمل وقد

قدم نموذجا لهذه الاستمارة المستخدمة في القسم السيكلوجي بمصلحة الكفاية الانتاجية والتي تتضمن جوانب أهمها نشاط العامل والخبرة السابقة والتدريب وعلاقة العمل بغيره وقدرته على تحمل المسئولية وتفهم العامل للعمل وقدرته على التصرف العقلي وما لديه من مهارة ودقة في العمل ثم وصف الاجهزة والادوات ثم تعريف بالمصطلحات والمتطلبات البدنية للعمل ثم تعليقات عامة ·

كما قدم نموذجا آخر محليا أيضا، هو استمارة تحليل العمل التي استخدمت في ديوان الموظفين والتي تتضمن نواحي عامة مثل وصف لعمل الوظيفة ووصف تحليل لخطوات العمل والمميزات الخاصة بالوظيفة والادوات التي تستخدم في الوظيفة ونوع التعليمات التي تصدر في العمل من الموظف واليه ومدى الدقة المطلوبة في أداء العمل ومدى حرية الموظف في التصرف ومدى الاشراف على أعمال الوظيفة ورقابة الموظف على أعمال الغير والوظائف التي لها صلة مباشرة بتلك الوظيفة ·

وقد أشار المؤلف أيضا الى نواحي احصائية هامة نظرا لما يعترض عملية تحليل العمل من أثر ذاتي اذ يلزم حساب درجة ثبات التقديرات قبل الأعتماد على عملية التحليل في العمليات السيكلوجية التالية ومعرفة مدى الانفاق أو التباين بين تقدير الاخصائيين المختلفين لدرجة أهمية السمة للنجاح في العمل ·

***

أما الفصل الرابع فقد تضمن دراسات الزمن والحركة وهي دراسات تحتل جانبا هاما في علم النفس الصناعي · وتهدف هذه الدراسات الى تتبع أداء الاعمال بأساليبه المختلفة للوصول الى الاداء الفعال بأقل قدر من الحركات وأقل قدر من الزمن وذلك لتوفير القدر الاعظم من الكفاية الانتاجية · ويرجع الفضل في هذا النوع من الدراسات الى تلك البحوث التي قام بها جلبرت وتايلر · وقد استخدمت الوسائل الحديثة في هذه الدراسات ، فامكن استخدام الادوات الحديثة في تسجيل الحركات الدقيقة كما استخدمت الكاميرات المجسمة للحصول على تسجيل ثلاثي للبعد والحركة ·

وقد عرض المؤلف لبعض النقط الهامة كدراسة خاصية ثبات السلوك أو تغيره ثم المحكات اللازمة لصلاحية العمل وأوضح ان المحك الاساسي الذي تضعه دراسات الزمن والحركة في اعتبارها عنه



تقرير الطريقة المثلى هو سرعة الانتاج كما أشار الى أسس الاقتصاد فى الزمن والحركة • كما أشار الى تقسيم بارنز للأسس المتعلقة باستخدام جسم القائم بالعمل ثم الاسس المتعلقة بتنظيم مكان العمل ثم الاسس المتعلقة بتصميم الآلة والادوات المستخدمة •

وقد أمكن للمؤلف فى ضوء الدراسات التجريبية المتعلقة بالزمن والحركة الوصول الى أسس عملية تساعد فى أداء أى عمل لخصها فى النقط الآتية :

١ ـ أن نحدد منذ البداية المنطقة من الجسم وما يحيط به والتى يستطيع الشخص أداء العمل فيها دون ارهاق • ويمكن استخدام هذه القاعدة فى جميع أنواع الاعمال سواء كانت صناعية أو مكتبية •

٢ ـ ترتيب الادوات ووضعها فى الوضع المناسب قبل القيام بالاداء •

٣ ـ الاستفادة قدر الامكان من حركة اليدين معا وما تؤديانه من انتاج •

٤ ـ ادخال التوقيت فى الحركات

٥ ـ اسقاط الانتاج المنتهى عند التسليم يساعد كثيرا على استغلال مساحة مكان العمل فى الاعمال المنتجة •

٦ ـ اعادة تصميم الآلات والمعدات المستخدمة كلما مر وقت على استخدامها بصورة ثابتة •

٧ ـ وضع خريطة مرسومة للأداء توضح تسلسل العمليات اللازمة للاداء خطوة خطوة •

ولم يغفل المؤلف فى هذا الفصل أيضا البحوث المحلية فى دراسات الزمن والحركة فقدم أمثلة لها بالبحوث التى أجراها المتخصصون فى مصلحة الكفاية الانتاجية لتقليل الحركات اللازمة والزمن المستغرق فى بعض العمليات كصناعة الجوالات وكذلك البحوث التى أجريت فى شركة ايسترن للدخان ثم ما قام به مهندسو قسم دراسة العمل باحدى شركات الغزل والنسيج الكبرى فيما يتصل بدراسة قسم طباعة الاقمشة بغرض زيادة نسبة الانتفاع من ماكينات القسم وقد شملت هذه الدراسة ناحيتين الاولى عمل دراسة لنسبة الاعطال للماكينات للوصول الى نسب الانتفاع من الماكينات وسبب العطل والاخرى دراسة طرق تخطيط ومراقبة الانتاج بالقسم ومحاولة تحسينها ثم أخيرا الدراسات التى أجريت فى قسم تنظيف المسبوكات باحدى شركات الغزل الكبرى •

ويضم الفصل الخامس من هذا الكتاب مشكلة من أهم المشكلات التى تقابلنا فى ميدان علم النفس الصناعى ونعنى بها مشكلة الاختيار المهنى • وفى هذه المشكلة حل لكثير من المشكلات التى تواجهنا فى مجال الانتاج والعمل • فوضع العامل المناسب فى المكان المناسب الذى يتفق وقدراته واستعداداته يعتبر مطلبا هاما من مطالب الانتاج والعمل وما يترتب على ذلك من نتائج مثل الزيادة فى الانتاج والزيادة فى الدخل القومى الى غير ذلك من المشكلات التى تعانى منها الدول النامية •

وليس من شك ان الاختيار السليم يؤدى الى حسن توافق العامل فى عمله واحساسه بالكفاية والصحة النفسية • فوضع الفرد فى العمل الذى يناسبه جسميا ونفسيا أهم ما يسبب له التوافق النفسى وأهم ما يجعله مستعدا لأقصى ما تؤهله طبيعته وامكانياته من انتاج • ولذا فسوء الاختيار يؤدى بالتالى الى سوء المواءمة وسرعة فقدان التوازن النفسى وسرعة الاستثارة والشعور بالارهاق واضطراب العلاقات النفسية والاجتماعية بين



العامل والمحيطين به، وما قد يبدو عليه من أعراض نفسية وسيكوباتية ومظاهر سلوكية مضطربة ، وما قد يصحب ذلك من نتائج أخرى تتضح فى نقص الكسب المادى نتيجة التغيب والتمارض والاصابة فى العمل وكثرة التنقل من عمل الى آخر ومن مؤسسة الى أخرى، وما يصحب هذا التنقل من شعور بالخيبة واليأس وضعف الثقة بالنفس وبقدرات الفرد ٠

ولعل أهم مايقنع صاحب العمل بأهمية الاختيار المهنى هو الانتاج فهو النتيجة المادية الملموسة التى توضح القيمة العلمية لاتباع الاساليب السيكلوجية فى عمليات الاختيار ٠ والحقيقة انه عندما يقتنع صاحب العمل ان ما ينفق من مال ووقت وجهد فى عمليات الاختيار يعوضه ما يعود عليه أو على المؤسسة من جراء زيادة الانتاج وتحسينه ، فان هذه تكون أولى المبررات التى تجعله يرحب باتباع هذه الاساليب ، ومن هنا رحبت الكثير من المؤسسات والمصانع باجراء البحوث العلمية فى هذا الصدد ٠ وقد أجريت الاختبارات السيكلوجية والمهنية العديدة التى كان من أهم أهدافها حسن اختيار العامل ووضعه فى المكان المناسب وكان من أهم نتائجها زيادة انتاج المصنع أو المؤسسة ٠ وقد أشار المؤلف الى الاسس العلمية التى يقوم عليها الاختيار المهنى والتى تهدف الى احلال كل فرد فى الحرفة التى يستطيع أداءها والحرفة التى يستطيع أن يتوافق معها توافقا انفعاليا والحرفة التى تجعله يشعر بمركز اجتماعى مناسب ٠ وضرب لنا أمثلة بخطة الاختيار فى مصلحة الكفاية الانتاجية وأساليب الاختيار المتبعة فيها ٠ وليس من شك أن عملية الاختيار تعترضها الكثير من المشكلات التى أهمها العدد المتقدم والعدد المطلوب وفرص الترقى وتقدم المختارين فى سلم الترقى ثم الترقى بين الخبرة السابقة والقدرة على أداء العمل الجديد ونقل القائم بالعمل الى عمل آخر ثم صدق أسلوب الاختيار وانتقاء المحك المناسب ٠

وبالاضافة الى عمليات الاختيار والتوجيه عالج المؤلف عملية أخرى هى عملية التأهيل المهنى ويقصد بها توجيه الشخص لعمل جديد يتفق وحالته الجديدة التى تغيرت عن حالته السابقة بدرجة جعلته غير صالح للقيام بعمله السابق كتأهيل المرضى والمعوقين والمسنين ٠ وبذلك يهدف

التأهيل المهنى الى تحويل هؤلاء الاشخاص العاجزين أو الذين يشعرون بعجزهم وتخلفهم عن ركب الانتاج الى فئة صالحة للعمل قادرة على الانتاج والكسب والاعتماد على أنفسهم ·

أما الفصل السادس والسابع والثامن فقد خصصت لدراسة الوسائل المختلفة التى تستخدم فى عملية الاختيار والتوجيه والتأهيل المهنى · فدرس فى الفصل السادس استمارة الالتحاق أو الصحيفة الشخصية وكيفية تحليل استمارة التقديم وعملية تقدير الاستجابات وتقييم استمارة التقديم · كما اختص الفصل السابع بدراسة الاختبارات السيكلوجية وقد قام المؤلف بدراسة واسعة لهذه الاختبارات من حيث خصائصها ومن حيث هى وسيلة للتنبؤ ، كما أشار الى عمليات تقنين الاختبار وعمليات الثبات والصدق والاساليب التجريبية لحساب معامل الصدق ومعامل صدق بطارية مكونة من عدد من الاختبارات ثم تحليل الوحدات واختيار الوحدات وصعوبتها · وقدم نماذج من الاختبارات المهنية المستخدمة فى الجمهورية العربية المتحدة · كما عرض نماذج أخرى من اختبارات الذكاء والاختبارات العملية التى تستخدم فى المجال الصناعى وكذلك اختبارات السمات الانفعالية فى الشخصية والاختبارات الاسقاطية الخ · أما الفصل الثامن فقد قصره على دراسة المقابلة الشخصية وهى احدى الوسائل الهامة التى تستخدم على نطاق واسع فى مجال الصناعة وفى غيرها من المجالات ، وهى من الوسائل التى يرضى عنها الاخصائى السيكلوجى ورجل الاعمال الذى ليست لديه خبرة سيكلوجية تعينه على استخدام غيرها من الاساليب الاخرى للاختبار · وقد أشار أيضا الى ضرورة اخضاع المقابلة للأساليب العلمية من مقاييس للدقة والصدق والثبات كما ينبغى أن تكون مبنية على تخطيط علمى سليم يقيها من أخطاء الملاحظة العابرة وأخطاء الاستنتاج المتسرع · ولذا ينبغى أن يقوم بالمقابلة خبير سيكلوجى مدرب على الملاحظة العلمية والاستنتاج السيكلوجى والتقدير العلمى لمختلف السمات بناء على هذه الملاحظة وتلك الاستنتاجات ·

***

أما الفصل التاسع فقد عالج فيه مشكلة من أهم المشكلات التى تواجه الادارة فى أية مؤسسة صناعية وهى مشكلة احتفاظ العاملين بها بأعلى مستوى من الكفاءة فيما يكلفون به من أعمال وخاصه وان أعمال التصنيع فى تجدد مستمر · ولذا عالج فى الفصل التاسع مشكلة التدريب المهنى · وقد أوضح المؤلف اهداف التدريب والتى تتلخص فى :

١ ـ الارتفاع بمستوى مهارة العامل فى أدائه لمستوى عمله حتى يرتفع بذلك انتاجه كما ونوعا وبذلك يهدف التدريب الى زيادة سرعة الاداء أو دقته ·

٢ ـ اكساب الفرد قدرا اضافيا من المعلومات الجديدة اما عن المؤسسة أو الشركة التى يعمل بها كما يحدث عادة فى حالات العمال الجدد أو عندما يحدث تغيير جوهرى فى نظام المؤسسة أو أهدافها ·

٣ ـ تعديل العادات المتبعة فى أداء العمل ويرتبط هذا الهدف بالهدف الاول ارتباطا وثيقا لان تعديل العادات المتبعة أثناء الاداء يهدف عادة الى أهداف تتعلق بالانتاج وبالعامل نفسه ·

٤ ـ وأخيرا تعديل الاتجاهات ويتعلق هذا الهدف بالعلاقات الانسانية والعلاقات العامة مما يؤدى الى رفع الروح المعنوية وتحسين العلاقات المتبادلة داخل المؤسسة الصناعية ·

وقد أوضح المؤلف الاسس السيكلوجية لعملية التدريب وأسلوب التدريب ثم مشكلة الدوافع والحوافز فى عملية التدريب كما رسم الخطوات العملية للتدريب من تحديد أهداف البرنامج ووضع برنامج التدريب واختيار المدربين واعداد الظروف المادية المناسبة لتنفيذ برنامج التدريب من حيث الميزانية والفترة الزمنية للتدريب ومكان التدريب ثم اختيار المدربين وما ينبغى أن يتوافر فيهم من حيث الخبرات التى يجب أن ينقلها الى المدربين ثم قدراتهم على نقل الخبرة ثم أخيرا تقييم التدريب ومتابعته والاساليب التى يمكن أن تتبع فى هذه الحالة ـ استبيانات لاستطلاع رأى المدربين أو استطلاع رأى المشرفين والمديرين أو مقارنة الاداء الفعلى للدارسين قبل التدريب وبعده ·

ولقد اختتم المؤلف حديثه عن التدريب المهنى بالتطبيقات المحلية · فأشار الى عينة من الجهود التى تبذلها الدولة فى مجال التدريب المهنى وتناول ميدانين أساسيين من ميادين العمل فى الدولة هما الميدان الوظيفى الادارى ثم ميدان

الصناعة • ففى الميدان الاول نجد الجهود التى يقوم بها حاليا الجهاز المركزى للتنظيم والادارة والذى كان الهدف من انشائه « تطوير مستوى الخدمة المهنية ورفع الكفاية الانتاجيه وتحقيق العدالة فى معالجة العاملين والتأكد من مدى تحقيق الاجهزة التنفيذية لمسئولياتها فى ميدان الانتاج والخدمات » • كما أشار الى ما يقوم به معهد الادارة العليا من جهود والذى كان الهدف من انشائه أيضا « اعداد الموظفين العموميين اعدادا علميا وعمليا على نحو يكفل الارتفاع بمستوى الادارة » • كما أشار أيضا الى الجهود التى يقوم بها المعهد القومى للادارة العليا الذى كان الهدف من انشائه « القيام بالبرامج العلمية والتدريبية وغيرها من أوجه النشاط التى تخدم هدف تنمية الادارة وتأهيل المديرين على مختلف المستويات وفى مختلف التخصصات ورفع مستوى الكفاية الادارية فى كل من القطاعين العام والخاص فى الجمهورية العربية المتحدة والقيام بالبحوث فى ميادين ادارة الاعمال بما يؤدى الى زيادة المعرفة بامكانيات استخدام الطريقة العلمية فى الادارة والتنظيم وتقديم خدمات الاستشارات والخبرة بما يساهم فى حل المشاكل الادارية الفعلية فى مختلف الميادين الوظيفية وتقديم الخدمات والمعونات الفنية فى هذه المجالات للدول التى تشارك الجمهورية العربية المتحدة فى علاقات تتصل بأغراض المعهد » •

أما التدريب فى مجال الصناعة فقد أشار المؤلف الى قسمين رئيسيين فيه هما التدريب المهنى ويتضمن انشاء مراكز للتدريب المهنى تتبع نظام التلمذة الصناعية لتدريب التلاميذ الذين أتموا المرحلة الاعدادية والقيام بعمليات تدريب سريع لاعداد عمال نصف مهرة متخصصين فى نوع معين من الاعمال • أما النوع الثانى فيشمل تدريب المشرفين واعداد برامج خاصة بهم فى العلاقات الانسانية وتوجيه التعليمات وتبسيط العمل وسلامته •

***

ويختتم المؤلف كتابه بفصل فى غاية الاهمية بالنسبة للصناعة ونعنى به « سيكلوجية الامن الصناعى» • وهو موضوع من موضوعات الصناعة له أثره البالغ على الانتاج كما ونوعا ، كما له أثره البالغ على نفسية العاملين فى المؤسسات وشعورهم بالاستقرار الانفعالى والامن فالعامل حين يعمل على آلات معقدة ويتداول آلات حادة ودقيقة وحين يستخدم فى هذا كله مواد تحتاج الى حرص زائد وحذر فى استخدامها كالمواد الحارقه او الكاويه وحين يتعرض أثناء عمله لضغوط فيزيقية غير طبيعيه بجعل بيئة العمل عليه شاقه كالضوضاء والروائح الكريهه وغير ذلك مما تضعه ظروف العمل فى مواقف تعرضه أكثر من غيره للاصابات والحوادث ولا يمكننا ان نعتبر ان حدوث الاصابات فى المجال الصناعى انما هو محض صدفه • فلكل اصابة بطبيعه الحال عوامل وأسباب يمكن التحكم فيها والسيطرة عليها والكشف عن هذه الاسباب ومدى اسهامها فى حدوث الاصابة أو الحادثة كل هذا أمر يحتاج الى دراسة علمية من متخصصين فنيين وهذه هى وظيفة سيكلوجية الأمن الصناعى • ولقد كشف المؤلف بالارقام حجم المشكلة فى الجمهورية العربية المتحدة وكيف ان حوادث العمل تتزايد بشكل واضح فى السنوات الاخيرة كما يزداد معدل الاصابات الناشئة تكرارا وشدة• وقد قدم المؤلف فى هذا الفصل دراسة واسعة للحوادث والاصابات وتصنيفا للاصابات تبعا لشدة الاصابة ومكان الاصابة وعرض كذلك للاسباب الذاتية والبيئية للاصابة واختتم حديثه بدراسة تلك الظاهرة التى نلمسها لدى بعض العاملين والتى تعرف باسم الاستهداف للاصابة : فهناك أشخاص أكثر استهدافا للاصابات عن غيرهم من الاشخاص وعرض فى هذا الصدد لبعض الدراسات المحلية التى أجريت عن حوادث سائقى أتوبيسات النقل العام •

ولعلنا نكون قد قدمنا للقارىء صورة عن هذا الكتاب الذى استحق مؤلفه عليه جائزة الدولة التشجيعية • ولا يغنى التلخيص عن قراءة الكتاب لمن أراد الاستزادة فى هذا المجال الحيوى مجال العمل والانتاج • فالدراسات التى يضمها الكتاب والبحوث المحلية والاجنبية التى عرض لها تخدم مجالا هاما من مجالات الحياة وترسى الاسس العلمية والسيكلوجية التى يجب أن تتم فى مجال الصناعة • ان التقدم التكنولوجى يعتمد أساسا على الدراسات العلمية والبحوث السيكلوجية لكل من العامل والعمل والعلاقة التى تربط كل من هذين المتغيرين أحدهما بالآخر •

سيد محمد غنيم

التخطيط التربوى فى البلاد النامية

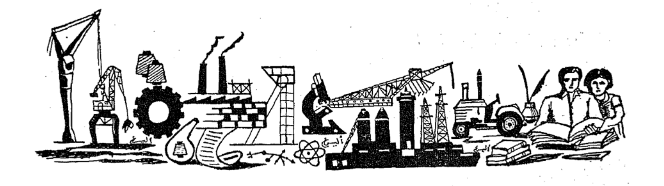
د. سعيد إسماعيل

من الطبيعى أن يكون لكل فرد منا قيم وأهداف وتطلعات ، وأن تكون له موارد يستغلها ويستثمرها ، وأن تكون له مشاكل تعترض طريق حياته . والتخطيط فى أبسط صورة له هو التنسيق بين ما يرغب الفرد أن يحققه لنفسه أو لأسرته أو للجماعة التى ينتمى اليها ، وبين امكانياته وما يقع تحت يده من قدرات مادية وبشرية ، بالاضافة الى الظروف البيئية والزمنية التى يمكن أن تتحكم فيه ـ وذلك فى حدود فترة زمنية معينة يهيىء خلالها لنفسه نفعا أومصلحة أو يحقق له ولغيره حياة أفضل أو مركزا أرقى أو غنما من نوع معين . فالتخطيط هنا هو محاولة من الفرد لاستثمار موارده الى أقصى حد ، بغرض تحقيق أهداف معينة فى فترة زمنية معلومة مع السعى المتواصل لتنمية قدراته وموارده لتحقيق مزيد من الأهداف .

والتخطيط فى صورته الأكثر تعقيدا رسم لصورة المجتمع فى حياته المستقبلة ، وتقدير لحاله فى المراحل التى يجتازها خلال سعيه لتحقيق أمانيه . أو هو عملية مناقشة عوامل الانتاج فى المجتمع بشتى صورها وألوانها بقصد تقرير الصالح منها وتدعيمه وتوجيهه لتحقيق أهداف معينة ، وبغرض النهوض بمستوى المعيشة ، فهو على هذا الأساس وسيلة الى غاية . وهو يتكون من مجموعة من الأفكار والتدابير والخطوط والأساليب التى تدور حول بضعة مثل وآمال ، تسيطر على ذهن الفرد أو تسيطر على عقول الجماعة وتأخذ بها الدولة أو الهيئة المسئولة ، أو الفرد صاحب العلاقة أو الفرد صاحب المصلحة لكى تصاغ ـ ان كانت ذات نفع وفائدة ـ فى قوالب هى المشروعات التى تحال ثانية الى خطوات تنفيذية حتى تصبح حقيقة واقعة .

وفكرة التخطيط الشامل أو التخطيط للدولة ظهرت بعد الحرب العالمية الأولى ، وظهرت بوضوح أكثر بعد الحرب العالمية الثانية . ومن أولى الدول التى وضعت لنفسها مخططا كانت روسيا ،

> ان التطور التقني السريع يخلق حاجات جديدة ، ويزيد الحاجة إلى العلماء والفنيين والإداريين ، كما يؤدي إلى تغيير واضح في توزيع الطاقة العاملة على مجالات النشاط الاقتصادي المختلفة .



ولعل هذا هو أحد الأسباب السيكلوجية القوية التى خلقت نوعا من المقاومة اللاشعورية عند الكثيرين فى بداية الامر ضد التخطيط قبل أن تأخذ الاتجاهات الاشتراكيه مكانها فى البلاد النامية · ولكن التخطيط لا يخرج عن كونه أسلوبا علميا سليما للبحث والتفكير والعمل الهادف ·

فى الوقت نفسه نلاحظ مع الحركة الهائلة فى ركب التحرير من الاستعمار ، وهى الحركة التى بدأت فى الثلث الاول من هذا القرن ، ثم اتسعت أولا فى آسيا ثم فى افريقيا ، نلاحظ مع نيل الاستقلال اتجاهنا نحو النمو الاقتصادى والاجتماعى وهذا النمو الاقتصادى والاجتماعي لا بد أن يكون سريعا ، لأن الدول الحديثة الاستقلال دول متخلفة ولأن الدول المتقدمة تسير فى التقدم بسرعة هائلة والسرعة المطلوبة فى النمو مع التعدد الهائل فى العوامل وتنوعها وتشابكها ومرونتها هى التى تجعل التخطيط أمرا لا بد منه · ولكن ما معنى التخلف ؟ هل هو هبوط مستوى الحياة ؟ هل هو عدم النمو فى نواحي التصنيع ؟ هل هو صغر متوسط دخل الفرد ؟ لقد كان متوسط دخل الفرد في الكويت ـ مثلا ـ يزيد منذ ست سنوات بمقدار ٤٠٠ دولار سنويا عن متوسط دخل الفرد فى الولايات المتحدة ـ فما هو المقياس للدلالة على أى البلدين أكثر تقدما من الآخر ؟

ان التربية والتعليم من أهم معايير التقدم الاجتماعى ، ومن أنجح الوسائل المؤدية الى النهوض الاقتصادى · فرفع مستوى الحياة من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية متوقف أولا وقبل كل شيء على التعليم · أى على تعهد الثروة الطبيعية الكامنة فى البشر بالكشف والاستنباط والتجميع والتهذيب والتدريب والتوجيه الى الوجهة الايجابية البناءة التى تبنى لصالح المجتمع وتبنى فى نفس الوقت لصالح الفرد ·

واذا كان هذا يعد مبررا كافيا يبين اهمية التخطيط التربوى وضرورته فى أى بلد وفى أى

عصر ، فان نظرة الى ما أحرزه المجتمع من ثغرات واسعة هائلة نحو الأخذ بأسباب العلم مما ادى الى تقدم اجتماعى واقتصادى مذهل ، يقدم لنا سندا آخر يبرز ضرورة مثل هذا التخطيط ويوجبه . ومن هنا كان اهماله مؤديا الى مشاكل وشرور لاحد لها . وفى هذا المجال يقول الفيلسوف الانجليزى الكبير «برتراند رسل» « ان العلم يتقدم بخطى العمالقة ، وهو فى كل يوم يصوغ مصير الانسان أكثر فأكثر . انه يغير أنماط حياته ويصيبه حتى فى استجاباته العميقة على غير علم منه . ومع ذلك ما نزال نفكر ونعمل كأن شيئا لم يكن ولم يحدث منذ نصف قرن » . ومما قاله السير « دافيد اكليس » وزير التربية البريطانى فى مارس سنة ١٩٦١ معبرا عن نتائج اهمال التربية فى بريطانيا لحاجات التقدم العلمى السريع فى عصرنا وعن آثار ذلك على التنمية الاقتصادية « ليس نقص المال هو الذى يحد من النمو الاقتصادى لبريطانيا ان ما نشكو منه اليوم هو التربية الناقصة التى كان يتلقاها ٩٠٪ من أطفالنا قبل الحرب العالمية الاخيرة . ان اهمالنا الشامل للعلم جعلنا نهمل التكوين التقنى .. ينبغى أن يداخل

الصناعة والتجارة ايمان عميق بالتربية وارادة عنيدة من أجل تحسين التكوين المهنى . وليس لنا أمل غير هذا اذا أردنا أن نحتفظ بمكاننا فى العالم » .

ان التطور العلمى والتقنى السريع يخلق حاجات جديدة ويزيد الحاجة الى العلماء والفنيين والاداريين كما يؤدى الى تغير واضح فى توزع الطاقة العاملة على مجالات النشاط الاقتصادى المختلفة ، الأمر الذى يتطلب تغييرا واضحا فى طراز اعدادنا التربوى للطاقة العاملة ، بحيث نستطيع عن طريق هذا الاعداد أن نلبى حاجة مجتمعنا المتزايدة الى العلماء والفنيين والاداريين وبحيث نستطيع أن نتكيف مع ظاهرة انتقال الطاقة العاملة وتوزعها توزعا جديدا . ومثل هذا التغير فى طراز الاعداد التربوى كما وكيفا يتطلب تخطيطا تربويا يقيم وزنا لهذه الحاجات المستجدة .

وقد بدأ التخطيط التربوى يأخذ مكانه بالفعل منذ سنوات فى البلدان النامية . ونستطيع أن نعتبر عام ١٩٦٠ نقطة تحول فى هذا المجال ، فمعظم الخطط التربوية فى البلاد العربية تبدأ فى ذلك العام أو قبله بقليل أو بعده بقليل :

- فالخطة التونسية العشرية تبدأ عام ١٩٥٩/ ١٩٦٠ وتنتهى عام ١٩٦٨/١٩٦٩

- والخطة التربوية الأولى للجمهورية العربية المتحدة تبدأ عام ١٩٦٠ وتنتهى عام ١٩٦٥

- والخطة التربوية الاولى فى الجمهورية العربية السورية تبدأ أيضا عام ١٩٦٠ وتنتهى عام ١٩٦٥ .

- والخطة التربوية للجمهورية السودانية (وهى الخطة الواردة ضمن الخطة العشرية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية) تبدأ عام ١٩٦١ / ١٩٦٢ وتنتهى عام ١٩٧٠/١٩٧١ .

- والخطة التربوية الاولى للمملكة الاردنية الهاشمية (وهى أيضا واردة ضمن برنامج السنوات الخمس للتنمية الاقتصادية فى الأردن) تبدأ عام ١٩٦٢ وتنتهى عام ١٩٦٧ (وقد استبدلت بها منذ عام ١٩٦٤ خطة سبعية جديدة) .

- ومشروع السنوات الخمس للتعليم فى المملكة العربية السعودية (وهو لا يأخذ تماما شكل الخطة) يبدأ عام ١٩٦٠ وينتهى عام ١٩٦٤ .

كذلك نرى الاهتمام بالتخطيط التربوى متمثلا فى انعقاد مؤتمرات عدة تتعلق بالبلاد النامية . فبالنسبة للدور البارز الذى تلعبه التربية بالنسبة للتنمية الاقتصادية والتقدم الاجتماعى دعت منظمة اليونسكو ، بالاشتراك مع اللجنة الاقتصادية لافريقيا الى مؤتمر عقد فى أديس أبابا فيما بين ١٥ - ٢٥ مايو سنة ١٩٦١ لدراسة حاجيات التربية والتعليم فى افريقيا ولوضع برنامج لسد هذه الحاجيات فى السنين التالية . هذا وقد اشترك فى هذا المؤتمر ممثلون عن ٣٥

دولة افريقية ، كما حضره مراقبون من بعض الدول الأوروبية ٠

● المؤتمر الدولى للتخطيط التربوى ٠ باريس من ٦ ـ ١٤ أغسطس سنة ١٩٦٨ ٠

● حلقة اقليمية للمساعدة الفنية حول الاستثمارات فى حقل التربية فى البلاد العربية فى بيروت ، سبتمبر سنة ١٩٦٨ ٠ وكان موضوع هذه الحلقة واسعا ، اذ شمل الجوانب الآتية : دراسة النفقات التعليمية ـ تحليل التكلفة فى التعليم ـ مشكلات تمويل التعليم ٠٠ الى غير ذلك من مؤتمرات وحلقات واجتماعات ٠

ويهمنا أن نركز الحديث على كتاب ظهر فى لندن ١٩٦٢ عن التخطيط التربوى فى البلاد النامية وهو الكتاب الذى اقتبسنا منه عنوان هذا المقال وهو من تأليف هـ ٠ ل ٠ جريفث ، ويقع الأصل فى ١١٨ صفحة من القطع الصغير ٠ ومضمون الكتاب أضيق من أن يفى بعنوانه فهو محاولة موجزة للحد يثعن بعض المشكلات التى تواجه التخطيط التربوى لا سيما فى بلدان افريقيا ، وليس فيه اشارات وافية عن مناهج التخطيط التربوى ووسائله ٠ كما أنه لا يشير الى أى خطة موضوعة بالذات ٠ والكتاب فى جماته كما يقول مؤلفه فى تصديره موجه الى عامة الناس لا الى الاخصائيين فى التربية ومن هنا كان اختيارنا له كموضوع لهذا المقال ٠ ومع ذلك ففيه تنبيهات واشارات تفيد الأساتذة والمربين ٠

وقد اضطلع بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية الأستاذ محمد نبيل نوفل الذى يعد الآن رسالته للدكتوراه فى التخطيط التربوى من الاتحاد السوفييتى ، وراجعه الدكتور عبدالفتاح جلال المدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس ٠

***

يرى المؤلف انه لما كانت الخطة التربوية الناجحة هى التى لا تبقى على الورق ، بل تأخذ طريقها الى التنفيذ بسرعة وكفاءة ، فانه من الضرورى لكى يتم هذا :

١ ـ أن تكون نتيجة الأهداف مفهومة فهما واضحا ٠

٢ ـ أن تنال هذه تأييدا قويا ليس فقط من الزعماء القوميين ٠ بل أيضا من معظم الآباء والمدرسين ٠

٣ ـ أن تكون نتيجة للكثير من التفكير المضنى الشاق ، اذ أن طرق ووسائل تنفيذها تحتاج الى التفكير العميق ٠

لذلك قسم المؤلف فصول الكتاب بحيث تغطى هذه الجوانب ، وقدم له بفصل يشرح فيه الخطة التى سينهجها فى كتابه ٠

أما الفصل الثانى ، فقد خصصه لمعالجة الأفكار الرئيسية التى سترد فى فصول الكتاب حتى يكون القارىء على بينة بالمعانى المقصودة للمصطلحات المختلفة ٠ وتحديد المصطلحات أمر له أهميته القصوى، بل هو شرط أساس لابد من توافره فى مجال العلوم الانسانية حتى نأمن من الزلل واضطراب الفهم والتفكير ٠ فالتربية من الموضوعات التى يجد كل واحد نفسه مستعدا للجدل فيها ٠ وليست أوجه الخلاف التى تنشأ نتيجة لخلافات حقيقية ، بل قد ترجع الى استخدام كلمات فى معان مختلفة ، فقد يستخدم أحد الناس مصطلح «التعليم الثانوى» قاصدا به « التعليم الثانوى العام » بينما يستخدمه آخر قاصدا به أى نوع من التعليم يتلقاه الأطفال بعد الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة ٠٠ الخ ٠

ثم قسم المؤلف باقى الكتاب الى بابين : الباب الأول تناول فيه قضية « الأهداف » أما الباب الثانى فقد عالج فيه قضية « الوسائل » ٠

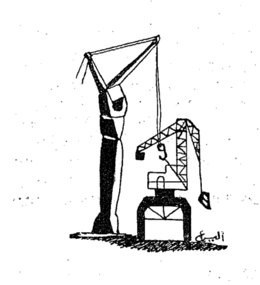
فبالنسبة للأهداف نجد أن الدول النامية تعلق الأمل على التعليم فى تحقيق مطلبين رئيسيين أولهما يتعلق بالوظائف (أو اعداد القوى البشرية المدربة) ونعنى بهذا المطلب أن على المدارس أن تخرج الاولاد والبنات الصالحين ليس فحسب لممارسة الانواع الكثيرة من الوظائف والأعمال الموجودة اليوم ، بل ولممارسة ما يجد من أنواع ومهارات اذا استخدموا ما دربوا عليه بذكاء ٠ ولن تتمكن المدرسة من تخريج هذا النوع الا اذا كان ما تقدمه من تدريب من النوع الواسع الافق ، وفى نفس الوقت يعتمد على قاعدة متينة من التعليم العام ٠

أما المطلب الثانى ، فيتعلق بالوحدة والتماسك القومى ، ونعنى به أن على المدارس أن تخرج أولادا وبنات يفهمون الحاجات لبلدهم ويتعاونون على

تحقيقها . وفي هذا الجانب تحتاج المدرسة الى أن تقدم لتلاميذها المشاعر الصحيحة والمعلومات الصحيحة .

ومن هنا فقد خصص المؤلف الفصلين الثالث والرابع لمعالجة هذين المطلبين .

وأول خطوة لا بد من القيام بها لتحقيق المطلب الأول هي « تقدير القوى البشرية المطلوبة » والحق أنه كان من الصعب على البلاد الحديثة النمو في الماضي أن تقدر حاجاتها من القوى البشرية لسببين :



١ ـ أنها كانت تعتمد عادة بشكل تام على محصول أو اثنين يخضعان لارتفاع وانخفاض الأسعار في الأسواق العالمية . ولذلك لاتستطيع الدولة أن تتنبأ بقدرتها على توفير المال لمشروعات التنمية في السنوات القليلة المستقبلة . وقد تحسن الوضع الآن نتيجة للمساعدات الدولية، ونتيجة لتنويع المحاصيل وانشاء الصناعات الجديدة .

٢ ـ ان هذه البلاد كانت تنقصها المعلومات الدقيقة عن العمالة والتنمية الاقتصادية التي يجب أن تقوم عليها تقديرات البشرية . وهذا أيضا يتحسن الآن . وعلى ذلك فمن الممكن بالنسبة لمعظم البلاد وعمل تقديرات تقريبية لحاجاتها المستقبلة من القوى البشرية .

الخطوة الثانية بعد تقدير القوى البشرية المطلوبة هي تقسيم الاحتياجات من القوى البشرية الى مستويين ، قيادي ومتوسط . ولاعداد الأفراد اللازمين لهذين المستويين من الضروري ملاحظة أن التعليم الفني والعلمي يكلف أكثر من تعليم المواد غير العملية . ويؤكد الأستاذ « هاربيسون» هذه الحقيقة بما هو الحال في مصر ، ففيها يبلغ نصيب الدراسات الجامعية من هيئات التدريس والنفقات في ميادين العلوم والطب والهندسة والزراعة والطب البيطري ما يزيد عن ثلثي المجموع الكلي ، بينما لا يزيد عدد الطلاب في هذه الفروع كلها على ثلث المجموع الكلي لأعداد الطلاب في الجامعات . كذلك ينبغي ملاحظة أن الدراسة النظرية فقط لا تكفي في الاعداد لمعظم الوظائف ، بل لابد أن يمر المبتدىء بخبرة عملية تحت اشراف خبير .

أما بالنسبة للمطلب الثاني ، فاننا نجد أن الخدمة التي تؤديها التربية للأمة بتعليم وتدريب القوى البشرية اللازمة لشغل الوظائف والقيام بالأعمال المختلفة واضحة الاهمية . أما الامر الشديد الصعوبة فهو أن تعرف كيف تستطيع التربية تدعيم الوحدة القومية . وترجع هذه الصعوبة الى عاملين :

ـ أن الوحدة القومية لا تأتي نتيجة للمعرفة وحدها ، وانما تأتي كذلك نتيجة للمشاعر التي تفوق أهميتها المعرفة في هذا المضمار . والتأثير في مشاعر الناس أكثر صعوبة من تزويدهم بالمعرفة .

ـ أن الوحدة القومية لا تكفي وحدها لايجاد بلد قوي ، وانما لا بد أن يوجد في اطارها قدر كاف من الحرية يشعر الناس معه بأنهم أحرار في التعبير عن آرائهم وبأنهم قادرون على مقاومة الفساد والظلم والمدرسة هي المكان الذي ينبغي أن يعمل على تعليم التلاميذ التفكير والعمل دون خوف اطلاقا قبل تعليم أي شيء آخر . وتكمن الصعوبة هنا في معرفة القدر من الحرية الذي يمكن التنازل عنه في سبيل الوحدة القومية والصالح العام .

ورغم هذه الصعوبات ، فقد استغلت بعض البلاد المدارس بشكل قوي لتدعيم الوحدة القومية ويعترف المؤلف بأنه من الصعب أن نجيب على السؤال التالي : « كيف تستخدم المدارس

لتدعيم الوحدة القومية في هذا البلد أو غيره ؟ ، فهذا أمر لا يستطيع أن يقرره أهل البلد أنفسهم ، وغاية ما يمكن أن تقوم به هو توضيح أربعة سبل ربما تؤدى الى تقوية الوحدة القومية وهى :

١ ـ مدارس حكومية للجميع ·

٢ ـ مدرسة واحدة للمتفوق والضعيف ·

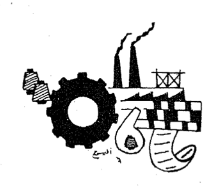
٣ ـ المعرفة للجميع ·

٤ ـ الاشراف على التعليم ·

ويؤكد المؤلف أن التأييد الشعبى للخطة التعليمية أمر جوهرى لنجاحها لأن عدم توافر هذا التأييد قد يؤدى الى فشل بعض أنواع التدريب المهنى ـ كالزراعى مثلا ـ كما قد يؤدى الى التأثير فى عمل المدرس · فاذا علم المدرس مثلا أن الآباء يظنون أن بعض أجزاء المنهج ليست الا مضيعة للوقت ، فلربما أدى هذا الى عدم تحمسه فى تدريسها · وقد يعرف الزعماء السياسيون جيدا أنواع التعليم والتدريب المهنى التى تحتاج اليها البلد بشدة ، ولكنهم بالرغم من ذلك قد يضطرون الى تغيير خططهم رغبة فى الاحتفاظ بتأييد الجماهير لهم · واذن فهناك أسباب كثيرة تحتم بذل كل جهد لضمان فهم الجماهير لتخطيط السياسة التعليمية وتعاونها فى تنفيذها ·

وأول ما ينبغى عمله لضمان التأييد الشعبى للخطط التربوية هو معرفة وجهات نظر الجماهير ورغباتها ، ولهذا فقد تناول المؤلف فى الفصل الخامس وجهات نظر طائفتين هامتين من أفراد الشعب والتى يمكن أن تختلف عن وجهة نظر المخططين · هاتان الطائفتان هما : آباء التلاميذ ثم المدرسون الذين يعلمونهم ·

أما الفصل السادس فقد ركز المؤلف فيه الدراسة على بعض الاقتراحات التى تؤدى الى تعاون الآباء والمدرسين · وهنا يذكر المؤلف أن المشكلة اذن من ناحية فى كيفية نشر المعلومات اللازمة عن حاجات البلد من القوى البشرية ، وعما يستطيع التعليم أن يفعله أو لا يستطيع لمواجهة هذه الحاجات · من ناحية أخرى فى كيفية التغلب على تعصب بعض الناس ومساعدتهم على تكوين وجهات نظر حكيمة · ولا يعنى هذا كله أن كل الجهل كل التعصب عند الجماهير فقط ، ولكن بالطبع يمكن أن يوجد جهل وتعصب لدى المخططين كذلك، ولذا ينبغى أن تكون لديهم معلومات وافية كما ينبغى أن يتخلوا عن أى تعصب · ثم اذا وجد اتصال قوى بين المخططين والجماهير ، فسوف يستفيد المخططون كما سيفيدون · ومع أن الكتاب ليس كتابا فى العلاقات العامة ، فان الموضوع من الأهمية بحيث فرض عليه أن يوضح بعض النقاط الأساسية لنجاح أى خطة تعليمية ·



أهم هذه النقاط نشر المعلومات التى تتعلق بموضوع الخطة مبكرا ، واتاحة الفرصة لمناقشتها على نطاق واسع واجراء المشاورات مع الخبراء والمعنيين · وبدون المعلومات والمناقشات يصبح الاختلاف أكثر رجحانا ، كما أن التعصب قد يجلب الفشل للخطة ·

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى محاولة للوصول الى اتفاق حول مشكلتين بصفة خاصة ، هاتان المشكلتان · تتعلقان بالوظائف وبالتمويل · وقد تبين ان تعاون الآباء فيهما متعذر أحيانا ·

وبنهاية الفصل السادس ينتهى الباب الأول ليبدأ الباب الثانى الخاص بالوسائل وقد خصص المؤلف الفصل الأول من هذا الباب وهو الفصل السابع من الكتاب لمناقشة مسألة الأولويات · ذلك أنه لايمكن مناقشة وسائل تنفيذ الخطة دون مناقشة موضوع الأولويات ، أى ينبغى أن ننظر فيما نضعه فى المحل الأول، وما نضعه فى المحل الثانى

وهكذا • فالمال الكافى للتعليم لا يوجد أبدا ، ولا يملك أى بلد من بلاد العالم المال الذى يريده لخططه التعليميـة ، ولذلك يضطر كل بلد الى أن يتنازل عن شيء مما يريد تحقيقه •

واذا نظرنا فيما ينبغى أن يأخذ أولوية التنفيذ فى ميدان التربية لوجدنا أن الأمر صعب لايسهل الوصول فيه الى اتفاق عام ، ومن هنا تتضـح أهمية وضع مبادىء عامة تساعد على عملية الاختيار مثل : الحاجات العاجلة للبلد ــ الحاجات العـامة طويلة الأجل ــ العجز المالى ــ الاقتصاد القـوى والاقتصاد الضعيف •

فى الفصول الأربعة التالية نجد أنها تعـالج النقائط الآتية :

ــ المال اللازم للتعليم •

ــ المدرسون المطلوبون •

ــ الوسائل اللازمة لمزيد من التطور •

ــ اجراءات الطوارىء •

فبالنسبة لعملية التمويل التى خصص لهـا الفصل الثامن ، نجد أن التعليم يجد لزاما عليه أن ينافس الحاجات الاخرى الهامة لكى يحصـل على نصيبه من المال ، فاذا كانت المستشفيـات والأطباء والمشرفون الزراعيون والشرطة والمؤلفون والاداريون ومئات من الهيئات والناس الآخرين لهم مطالبهم من الأموال التى ينبغى أن توفرها الحكومة فأين يقع التعليم فى هذه القائمة ؟ والى أى حد هو مهم ؟

هناك طريقتان مختلفتان للنظر الى التعليـم ، فبعض الناس ينظرون اليه على أنه خدمة اجتماعية بينما ينظر الآخرون اليه على أنه نوع من الاستثمار والزاوية التى ننظر منها الى التعليم تؤثر تأثـيرا كبيرا على حصة المال التى يجب أن نخصصها له •

والمصادر التى نحصل بهـا على المال اللازم للتعليم يحصرها المؤلف فى : زيادة الضرائب + المصروفات المدرسية + التبرعات + مسـاعدة التلاميذ لأنفسهم + المساعدات الدولية •

وبالنسبة للنقطة الثانية التى خصص لهـا الفصل التاسع تحت عنوان « المدرسون » نجد انه اذا كان الكثير من النـاس يوافقون على أنه ليس من المعقول أن نصمم خطة تعليمية دون أن تكون لدينا فكرة ما عن مصـادر تمويلها ، فان العنصر الجوهرى الآخر لنجـاح أى خطة تعليمية هو هيئة التدريس المناسبة •

وفى معالجة المؤلف لهذا الجانب تناول النقـاط الخاصة بهيئات التدريس التى لا بد من بحثهـا تحت عنوانين :

١ ــ مؤهلات المدرسين ، حيث حاول الاجابة على السؤالين الآتيين :

ــ الى أى حد ينبغى أن يصل علم المدرس ؟

ــ وهل اتقان معرفة الموضوع الذى يقـوم بتدريسه هو كل ما يحتاج اليه المدرس ؟

٢ ــ ظروف العمل ، حيث حاول أن يجيب عن السؤال الآتى :

ــ كم من التلاميذ يستطيع المدرس أن يعلمهم فى وقت واحد ؟ (أو بعبارة أخرى : ما هـو الحد الأقصى الذى ينبغى أن يراعى لعدد التلاميذ فى الفصل ؟) هذا بالاضافة الى بعض الاسئلة الأخرى التى تتعلق بالادارة والكتب والمقررات •

أما الوسائل اللازمة للتطوير التى تحتل الفصل الحادى عشر تحت عنوان « عاجل جدا » سـنجد مدى دلالة هذا العنوان الطريف • فالتعليم ــ والحق يقال ــ بالنسبة للبلاد حديثة الاستقلال أمر عاجل جدا ، ومن هنا نجد البلاد الافريقية تبذل جهـدا ضخما لتطوير نظمهـا التعليمية بحيث تصبح حديثة • ويشكل هذا عبئا ضخما عليها حيث أنه « عاجل جدا » ، بالاضافة الى عدم وجود المـال الكافى لمواجهة مطالبه مما يشعرنا بالحاجة الى سعة الافق أثناء التفكير فى حلول المشكلات ، والحاجة الى عدم التقيد بالطرق القـديمة فى تنفيـذ الامور •

ويناقش المؤلف فى هذا الفصل كذلك ثلاثـا من المشكلات الرئيسية التى تنشأ من جـراء العملية فى أمور التعليم :

• أين نركز جهود التطوير فى المحل الأول ؟

• من أين نحصل على المدرسين ؟

• ما الذى نفعله فيما يتعلق بالمسـتويات التعليمية ؟

وقد ألحق المؤلف بالكتاب ملحقا يتضمن خطة

تربوية مع بعض الاسئلة عليها ، وبهذه الخطة ، ينتهى الكتاب ٠

والقارىء للكتاب سيلمس من غير شك مابذل من جهد كبير فى ترجمته ، ولكن هذا لا يمنع من أن نبدى الملاحظات الآتية :

١ ـ اذا كنا فى حاجة شديدة الى ترجمة ونقل الكتب الأجنبية الهامة وعيون التراث العالمى ووجهات نظر الثقافات العالمية الى ثقافتنا ، فهل يمكن أن نكتفى بأن تكون ترجماتنا مجرد صور فوتوغرافية لأصولها الاجنبية أم أنه من الضرورى أن يتم مع الترجمة نقد وتعليق وتبصير بما قد يعد افتئاتا على الحقائق الخاصة بنا ، أو بعقد المقارنات التى يمكن أن تلقى مزيدا من الضوء على واقعنا ومشكلاتنا ٠

ان ذلك اذا كان ضروريا بصفة عامة ، فانه ـ فيما أعتقد ـ أشد ضرورة بالنسبة لنا كبلد نام حتى لا نقع تحت تأثير ما ننقل ونترجم ، ويتم اقتباسنا ونقلنا منه بوعى وبصر ٠ بيد اننا ينبغى أن نلفت النظر هنا الى أن هذا مما نحتاج اليه بالنسبة للكتابات التى تعالج المواد الانسانية وتمس الجوانب القومية ٠

وقد قام مراجع كتابنا بالفعل بشىء من هذا كما نرى فى ص ٢٠ و ص ٢٤ وص ٦٩ فهنا ـ مثلا ـ يزعم المؤلف أن ادارات المستعمرات البريطانية قد تعودت أن تستشير الزعماء عنطريق موظفيها ، وأن هذا الامر قد أصبح يتم بعد ذلك عن طريق المجالس التشريعية ، ومن ثم كان لفت المراجع لنظر القارىء الى مغالاة المؤلف فى هذا القول، وتاريخ الاستعمار البريطانى فى بلادنا حافل بالامثلة التى تكذب قول المؤلف ، فعندما تقدم بعض النواب فى مجلس شورى القوانين الذى أقامه الاستعمار « كصورة » للحياة النيابية يطلبون أخذ رأيهم فى القوانين واللوائح الخاصة بالتعليم ، فكان رد وزارة المعارف « لا حاجة لعرض البروجرام على المجلس لأن نظارة المعارف لا تألو جهدا فى جعله كافلا لغرض الأمة وافيا بحاجة البلاد » (انظر جريدة اللواء فى ٢٦/٣/١٩٠٢ العدد / ٧٥٠) ، كذلك أصدرت الجمعية بجلستها العمومية فى ١٦/٣/١٩٠٢ قرارا بمطالبة الحكومة بعرض مناهج التعليم بالمدارس الاميرية على مجلس شورى القوانين ، وكان هذا هو أول قرار أصدرته الجمعية العمومية فى هذا الشأن ٠ وقد أجابتها الحكومة بتاريخ ١١/١٦ من نفس السنة « أن بروجرامات التعليم الابتدائى والثانوى وقوانين المدارس العالية والخصوصية والتعديلات التى ترى النظارة لزوم ادخالها عليها جاء التصديق عليها من اللجنة العلمية الادارية ومجلس المعارف الأعلى ومجلس النظار ، ولذا فلا محل لعرضها على مجلس شورى القوانين الذى تخفى عليه تماما تلك المسائل نظرا لهيئة تشكيله ولاختصاصاته القانونية» (محاضر جلسات الجمعية العمومية جلسة ١ ـ ٤ ـ ١٩٠٨) ٠ ومعروف أن المجالس المشار اليها كانت خاضعة تماما لرأى المسئولين عن الاحتلال ٠

ومع ذلك فهناك كثير من النقاط التى كانت تحتاج الى تعليق ولم يشر اليها ، فالمؤلف يذكر فى ص/٣٢ أن نيجريا هى « أولى الدول الافريقية» التى قامت بعمل تقديرات تقريبية لحاجاتها المستقلة من القوى البشرية ٠ فاذا كان ذلك قد بدأت دراسته فى عام ١٩٥٩ كما يذكر المؤلف (ص ٣٣) فان الجمهورية العربية المتحدة كانت قد بدأت فى ذلك العام أيضا القيام بشىء من هذا اعدادا للخطة التى بدأ تنفيذها سنة ١٩٦٠ ٠ وعلى ذلك لا نستطيع القول بأن نيجيريا هى أول الدول الافريقية فى ذلك ٠

ورغم أن الكتاب عن « التخطيط التربوى فى البلاد النامية » ، فان المؤلف فى معرض دراسته لكيفية تدعيم التربية والتعليم للوحدة القومية ، وان أحد السبل الى ذلك هو « الاشراف على التعليم » كما أشرنا ، فهو لا يضرب أمثلة من واقع البلاد النامية وانما يشير الى فرنسا وروسيا والولايات المتحدة ٠ فها هنا أيضا فرصة كان ينبغى اغتنامها لسد هذا النقص والاشارة الى الطريقة التى هيمنت بها الدولة هنا فى بلادنا على التعليم تحقيقا لمبدأ « ما دام الشعب هو الذى يمول المدارس فيبدو من المعقول أن يقرر الشعب ما يدرس فيها » ٠٠ الخ ٠

وبعد ٠٠ فان الكتاب بما يحويه من المعلومات التى تتعلق بموضوع هام مثل « التخطيط التربوى » وبما بذل فيه من جهد لنقله الى اللغة العربية يعد مغنما غنمته المكتبة العربية واذا كانت قد شابته بعض العيوب فهى بالقياس الى ما يحمله من فوائد ومزايا يمكن ألا تذكر لتبقى بعد ذلك فكرة التخطيط التربوى وأهميتها وضرورتها بالنسبة للبلدان النامية ٠

سعيد اسماعيل

الزمن التراجيدى عند



سعد عبد العزيز

ليس من قبيل المكابرة اذا تصورنا أن العمل النقدى انما هو عمل شاق يستنزف جهدا جهيدا .. بل لا نغالى اذا قلنا أن هذا العمل انما تفوق صعوبته صعوبة الخلق الفنى .. ذلك لأن الفنان يبدع فنه بايعاز من احساسه الخاص ، وهو يزاول نشاطه الخيالى بطريقة تلقائية تجعله لا يعى تماما تلك الحركة التى تسرى فى سياقه الفنى ، دافعة بعناصر هذا السياق الى التفاعل ، والتجانس ،والاتساق .. فكل ما يستوحيه هنا انما يأتى عفو الخاطر ، وكل ما يبدعه انما هو قبس من نفسه وبعض من تجاربه،فهى تستجيب له طواعيه وفى يسر .. صحيح أن الفنان قد يلقى



ـ حين يمـــارس ابداعه ـ شيئا من المعــاناة والمجاهدة ، لكن ذلك سرعان ما يستحيل عنده الى نوع من التفريج ، والتطهير ، واحساس باللذة ، والارتياح ٠٠ أما موقف الناقد فيختلف عن ذلك تماما ، فهو يتناول العمــل الفنى تناولا ذهنيــا موضوعيا ، فنراه ينتقل من مجال الذات الى مجال الحقيقة الواقعة ٠٠ وهو يتجاوز انفعاله بهـــذا العمل ، لكى يركز اهتمامه على طبيعة بنائه ، وتشكيله ، وبالتالى لــكى يبرز ما يمتاز به من ملامح خاصة ، ومقومات جمالية ، وانسانية ٠

ومن ثم فممارسة النقد على هذا النحو ، انما يحتاج الى قدرة على المعاناة الذهنية التى تكمن فى عمليـــات التحليـــل ، والتجريد ، والتأمل ، والاستبطان ، الأمر الذى يتحتم معه بذل مزيد من الجهد ، والعناء ، والمثابرة ٠

ذلك الزمن التراجيدى

تلك هى الحقيقة التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا حين نتصدى لكاتب شــهير مثل **جيمس جويس** ٠٠ ولعلنا نعى هـــذه الحقيقة تماما ، ونحس بوقعها الحاد علينـــا حين يرتكز اهتمامنا فى هــذا الصدد على مفهــوم الزمن ٠٠ فنتخذه محورا لتفكيرنا ، وبحثنا ، ودرسنا ٠

وواضـــح أن الزمن عند جيمس جويس ليس زمنا ميكانيكيا ، وانما هو تلك الحالة الشعورية التى تعبر عن طبيعة حياتنا الداخلية ، والتى يمكن أن تتقنع بذلك الشكل الذى يفصح عن مادة ذكرياتنا وأحلامنا ، وتخيلاتنا ٠٠ فلا غرابة أن يومىء الزمن عند كاتبنا ، بالغموض ، والميوعة ، والسيولة ، والنسبية ٠٠ الامر الذى يجعله يفلت

من سيطرتنا وادراكنا ، فلا نستطيع أن نفرض عليه تعريفا أو تحديدا ٠٠ ومع هذا فمما لا شك فيه ، أننا كائنات توجد فى الزمن ٠٠ فنحن نولد فيه ، ونحيا فى جوفه ونظل فى قبضته سجناء ، فلا يطلق سراحنا الا حين نكون حطاما ٠ وبذلك يكشف الزمن عن وجهـــه المأساوى ٠٠ فهـــو بالنسبة الينا يمثل قوة مدمرة ، تنشب أظفارها فينا ، وتطبع آثارها علينا ، وتدمغنا بالتغير ، والتحول ، والزوال ٠٠ وهو أيضا يفصح عن سر ضعفنا ، وحدودنا ، وتناهينا ٠

واذا كانت حياتنا انما هى رحلة قصيرة عبر الزمن ، رحلة لا نـكاد نحقق فيـــها امكانياتنا ووجودنا ، فلا غرابة أن نصبح فى صراع مستمر ضد الزمن،فنسعى جاهدين من أجل ايقاف تياره المتدفق ، ونبذل كل ما فى وسعنا من أجل تكثيف لحظاته ، واسترجاع هـذه اللحظات فى شـكل طاقات فنية معبرة ٠

ومن أجل هذا ، صار الزمن بالنسبة للفنان المعاصر ، مددا حيا ينحت من خلاله أحاسيسه ، **وأفـكاره ، وينسج فى ضـوئه خيوط صوره ، وأشكاله** ٠٠ فقد استطاع هذا الفنان أن يستعيد ما فقده من صور وأفكار ، وخواطر ، وأن يسترجع ما أضاعه فى ثنايا الماضى من خبرات وتجارب اذ أدرك أن الزمن لا يعدو أن يكون حركة شعورية تدفع تيـار الذكريات الى أن ينثال بالصـــور المختزنة ، والخبرات المتراكمة ٠٠ فالماضى يمتد بتمامه فى الحاضر ، ويظل فيه حاضرا ، ومؤثرا ، وهو يضغط تلقائيا على الحاضر،ويدعو الى انبثاق صور جديدة ٠٠ صور بصرية،وحسية ، وسمعية تزيد من خصـــوبة الحيـــاة ، وثرائهـــا ٠ **الرؤية الباطنية للأشياء ٠**

ذلك هو الاتجاه الفنى الذى يســود الرواية المعاصرة والذى يلتزم فيه الكاتب بالرؤية الباطنية للأشياء فقد تحـول اهتمامه هنا من الخارج الى الداخل ٠٠ فصار لا يرينا ما هو منظور ، وانما يجعل ما لا نراه منظورا ٠٠ وصار يتخذ من الحياة الداخلية ، بديلا لمعنى البطولة الذى يسود رواية القرن التاسع عشرة التقليدية ٠٠ وهو يستعيض عن الأحداث الخارجية بما يتواتر اليه من صور الـــوعى أو اللاوعى حيث يؤلف من خـــلالها تشكيلاته ، وانماطه فى عالم الرواية ٠ وعلى هذا ، يصبح الكون الاكبر الذى نعيش فيه انما هو عقلنا ، ووجودنا الداخلى ، وبالتالى يصبح الزمن شيئا ذاتيا محضا ٠٠ فهو يمثل الشخصية الرئيسية التى تعد ركيزة العمل الروائى ، والتى

لا تخضع فى مسارها لقانون عضوى أو ميكانيكى فالعـود الى الماضى ، وتجـــاهل العالم الخارجى **وتحطيم الحبكة ، وانعدام النظام المنطقى ، هـذا** كله انما يعتبرمن السمات البارزة التى يتميز بها البناء المعمارى لرواية القرن العشرين ٠

وفى ضـوء ما سبق يتضـــح لنا أن الرواية التحليلية الزمنية تبدو وكأنها مقطوعة الصـــلة بروايات هـ ٠ ج ٠ ويلز ، وديكنز ، وبلزاك ، **وجوركى** ، التى تنطق بطبيعة الحياة فى القرن التاسع عشر ، وما يجول فيها من تصـــورات ، وتجارب ، ومشـــكلات ٠٠ ولقد جاء فى أعقــاب هؤلاء كل من **مارسيل بروست ، وجيمس جويس، وفرانس كافكا ، وفرجينيا وولف ، ووليم فوكنر،** فكانت كتاباتهم أصدق مثال عن عالمهم الداخلى ، وما يعج به من أحساسيس ، وأفكار ، وأصوات، وألوان ٠



ج . جويس

ويعد « **جيمس جويس** » كاتبا طليعيا ، ورائدا من وراء حركة التجديد فى الرواية ٠٠ فهو ينأى فى أساليبه عن الوصف ، والسرد ، والتسجيل ، ويستخدم وسائل مبتكرة فى تجسيم عالمه اللاشعورى الذى يمثل عنده القوة الحقيقة التى تشكل حياتنا ، وما تنطوى عليه من تهويم ، وأحلام ، وذكريات ٠٠ وبمعنى آخر نجد كاتبنا **ينسج خيوطه من خلال تلك المادة التى تعبر عن صدى الأشياء فى أعماقنا ٠**

ومعروف عن « جيمس جويس » أنه أيرلندى الأصل ، فقد ولد فى مدينة دبلن عام ١٨٨٢ ، وتلقى تعليمه فى مدارس الآباء اليسوعيين ثم التحق بجامعة ايرلندا الكاثوليكية ، وما ان تخرج عام ١٩٠٢ حتى رحل الى باريس لدراسة الطب ، لكنه لم يوفق فى ذلك ، الأمر الذى جعله يقطع دراسته ليتجه الى الأدب ٠٠ فراح ينهل من معينه، وينهمك فى دراسته ، عاكفا على اتقان عدد من اللغات الأجنبية التى مهدت له الطريق لاتساع معرفته ، وزيادة اطلاعه ٠

وجدير بالذكر أن كاتبنا لم ير « دبلن » فى حياته الا مرة واحدة ، وذلك حين جاءته برقية تنبئه بوفاة والدته ٠٠ فهرع الى مسقط رأسه فى زيارة قصيرة ٠٠ وهناك تعرف على الفتاة « نورا » التى تزوج منها فيما بعد ٠٠ وغادر « جيمس جويس » دبلن عام ١٩١٢ ، ولم يعد اليها فظل منفيا عن وطنه طوال حياته ، متنقلا بين ايطاليا ، وسويسرا ، وفرنسا ٠٠ وكان أول عمل يبدعه هو ذلك الديوان الذى يضم نخبة من أشعاره ، والذى نشره فى لندن فى عام ١٩٠٧ تحت عنوان (موسيقى الحجرة) ، ولقد أعقبه بنشر كتاب آخر فى عام ١٩١٤ باسم « ناس من دبلن » ضمنه مجموعة من القصص القصيرة ٠

ولقد استطاع « جيمس جويس » بفضـــل تمكنه من لغات عديدة ــ أن يفتح أمامه مجالات مختلفة من الثقافة ، والأدب ، والفن ٠٠ فتكاد رؤيته هنا تتسع لجميع التصورات ، والمؤثرات التى تدور فى هذا الصدد ٠٠ ولقد كان يعى تماما ما يجرى فى عصره من تيارات فلسفية ، وأدبية، وفنية .٠٠ ومن ثم فهو يتعاطف وأفكار «برجسون» ويجعل منه مثله الاعلى ٠٠**ومعروف أن برجسون قد أوحى اليه بفكرة الزمن الحى** ، التى استطاع كاتبنا ــ فيما بعــد ــ ان يطوعهــا ، ويصـــبغها بالصبغة التراجيدية فى مجال تعبيره الادبى ٠٠ على أنه لا يفوتنا أن نركز الضوء على مصدر آخر من المصادر التى كان لهــا أبلغ الاثر فى توجيه كتابات « جويس » وتشكيلها على النحو الذى يتميز به ٠٠ فقد صادفته حين كان فى العشرين من عمره ــ رواية فرنسية كانت مثالا صادقــا للحركة الرمزية التى بلغت أوج نضجها آنذاك ٠٠ وهى رواية « **أشجار الغار المقطوعة** » للكاتب « **ادوار دى جاردان** » وهى تحكى عن شاب يعانى من حبه لفتاة تعمل بالتمثيل ، فقد ظل يبسطلها يده كل البسط ، فيغدق عليها العطاء ، ويغرقها بالهدايا ، ويرتاد معها المطاعم ، ودور اللهو ، لكن ذلك كله كان دون جدوى ، فلم ينل منهــا سوى الدهان المصطنع ، والوعود الكاذبة ٠٠ ولقد استطاع الكاتب هنا بمهارته الفنية أن ينقلنا من حيز الواقع الخارجى الى ما يجول فى نفس البطل من أحاسيس ، وصراعات ، وأوهام ، فقد أطلعنا على تلك الحركة الداخلية التى يتجسم من خلالها الزمن ، والتى يمكن أن نتمثلها فى ضوء نوعين متناقضين من الاحســاس : **الاحساس بالســار** الذى يستولى على البطل كلما توهم أنه يكاد يقترب مما يصبو اليه من ناحية ، **والاحســاس بالمكدر** الذى يداهمه حين يفيق من خدره على اثر اكتشافه للحقيقة من ناحية أخرى ٠٠ ومن خلال الصدام بين الوهم والحقيقة ٠٠ وبالتالى من خلال الصدام بين ما يصوره البطل ممكنا من جهة ، وما يتصوره فى نفس الوقت مستحيلا من جهة أخرى ، يتولد احساسنا الدرامى بالزمن ٠٠ ذلك الاحســاس الذى يفصح عن شكل ومضمون التجربة الفنية ٠

تجربة أوليس

ولم يكن أحد يتنبأ أن هــذه الرواية التى لم تنل حظا من النجاح ، يبلغ تأثيرها على «**جويس**» ما يجعله يستوحى منها عملا ابداعيا فذا مثــل « أوليس » ٠٠ فواضح أن «جويس» قد استطاع أن يمعن النظر فى تجربة «دى جاردان»ويستنبط منها تجربته الفريدة ، مستعينا فى ذلك بخبرته الفنية الواسعة ، ومهارته اللغــوية الفائقة ٠٠ وواضح أن كاتبنا قد ســجل روايته فى مليون كلمه ، وقضى فى تأليفها أربع سنوات ، فــلان ينشرها تباعا فى مجله « **المجله الصغيرة** » وكان جويس يعانى ضيقا شديدا فى ذلك الوقت فلم يجد بدا من أن يولى وجهه عام ١٩١٥ الى سويسرا حيث مكث حتى عام ١٩١٩ ٠٠ ومن الضرورى أن نذكر أن «أوليس» لم تلق ــ فى بادىء الامر ــ الترحيب اللائق بها ، فقد حجبت عن النشر فى كل من انجلترا ، وأمريكا لكن أصـــدقاء الكاتب فى باريس سرعان ما أولوها اهتماما بالغا ، فعملوا على ترجمتها الى الفرنسية ، واســتعانوا باحدى دور النشر على نشرها ٠٠ ولقد أحدث ظهـــور « أوليس » رد فعل عنيفا لدى القراء ، والباحثين، والدارسين ٠٠ حتى أن بعض النقــاد ينظر الى قيمتها فى مجال النشر على أنها تستوى «والارض الخراب » لاليوت فى مجال الشعر ٠٠ بل يذهب هؤلاء الى القول بأن ت ٠ س اليوت قد تأثر الى حد بعيد بتكنيك هــذا العمل الرائع حين أبدع « الأرض الخراب » ٠

وتبدو ٠٠ أوليس ، لأول وهلة ، وكأنها خلو من النظام ، والشكل المحدد ٠٠ والحق أن هذا يجانب الصواب ، فلو عرفنا أن صياغه « أوليس» انما هى أقرب الى الصياغة الشعرية الحــرة ، ولو عرفنا انمعطيات هذا العمل لاتحصع بالضرورة للادراك المباشر ، فهى تنطق بالرموز ، والاشارات والايمــاءات التى لا تخبرنا عن مجرى الواقع ، بقدر ما توحى الينا بصدى هذا الواقع ، وردود فعله ، لادركنا تماما طبيعه الشكل الذى تنتمى اليه هذه الروايه ٠٠ فالكلمات هنا انما تتفجر فى شكل هاله من الضوء تشع بالاشكال ، والالوان، والانغام ٠٠ وبالتالى فهى تمنحنا رؤيه مركزة لهذا العالم الصغير الذى يمكن أن نتمثله فى مدينة دبلن ٠٠ والكلمات تنسج شخوص تلك المدينة فى ضوء الزمن الذى لا يتعدى امتداده الثمانى عشرة ساعه ٠٠ **فالزمن هنا يأخذ حالته الآنية فلا يتوقف تدفقه نحو الماضى أبدا** ٠٠ وهو يستحيل الى ماض بمجرد أن يفض حمــولته من صـــور ومرئيات وأحــداث داخــل وعينا ، وادراكنا ٠ وبهذا المعنى استطاع « جويس » أن يشق طريقا الى الزمن ، وأن يســـيطر على حركته ، ويحكم الاغلاق عليه داخل اطار من الكلمات ٠٠**وبالتالى استطاع أن ينقل الزمن من مجاله المتنــاهى الى مجال لا ينتهى أبدا** ٠٠ فقد صارت الثمانى عشرة

ساعة بمثابة زمن خالد فى تاريخ الزمن٠٠وفى كل العصور ٠

ومن المؤكد أن تجربة « أوليس » انما تفوق فى قيمتها الفنية جميع التجارب الأولى للروايه التحليلية الزمنية ٠٠ فاذا كان «مارسيل بروست» قد أمكنه أن ينقل الينا من خلال (البحث عن الزمن الضائع) صورة حيه لما يتواتر فى ذهن فرد بعينه من أفكار ، وخواطر ، وأوهام ، فان « جيمس جويس » فى « أوليس » كان قادرا على أن يستوعب عددا من الشخوص من خلال ذلك المشهد الذى يضمها جميعا ٠٠ فنجده فى هذا المشهد ، يقوم بالتركيز على الجزئى لكى يستخلص منه المعطيات الدرامية التى ترتبط بالنسيج الكلى لهذا المشهد ٠٠ فقد أمكنه أن يغوص فى عوالم هؤلاء الذين تجمعوا فى مكان واحد كى يشاهدوا موكب الملك أثناء عبوره أحد شوارع المدينة ٠ ورغم أن كل شخص يبدو فى هذا الموقف وكأنه ذرة مغلقة ، منفصله ، الا أن « جويس » استطاع أن يجمع هذه الذرات داخل تلك البؤرة التى تمثل وعينا ، وأن يفجر ما تحمله من شحنات شعوريه، وتوترية دفعة واحدة ٠

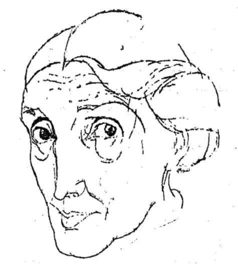
ديناميكية التعبير

وعلى هذا ، يمكن القول بأن ديناميكية التعبير عند «جويس» انمـا تأبى الا أن تدفع المتلقى الى أن يجرى ، ويلهث باستمرار ٠٠ **فهو يدور مع الكاتب فى كل مكان حتى يصيبه الدوار** ٠٠ وهو يتحرك بين المرئيات بسرعة مذهلة ٠٠ ويخترق وعى عدد من الشخصيات ، وكأنه يخترق عباب دوامة هائجة تموج بالأحاسيس المصطرعة ، والاصوات الصارخة ، والألوان الحادة ٠٠ ومن هذه الشخصيات : الأب « **كونى** » الذى صار صديقا **لستيفن ديدالوس** ، والآنسة «**دن**» التى تعمل على الآلة الكاتبة ، والتى تتراسل مع « **ليوبولد بلوم** » رغم أنهما لم يلتقيا أبدا ، و «**باتريك الويسيوس ديجنام**» الذى دفن والده فى صباح ذلك اليوم ، «**وليوبولدبلوم**» الذى تطارده صورة زوجته أينما ذهب ، و «**ستيفن ديدالوس**» الذى يهيم على وجهه فى الطرقات باحثا عن هدف يحققه٠٠ و «**ماريون بلوم**» وهى زوجة ليوبولدبلوم التى يتملكها احساس بالشبق لا تجد منه مخلصا ٠٠ فكل هذه الشخصيات تتواتر الينا ، وتتحرك فى ضوء ذلك المسار الذى يعبر عن ايقاع الحياة فى مدينة بأسرها ٠

غير أن «أوليس» انما تقوم أساسا على ثلاث شخصيات هى: ستيفن ديدالوس، وليوبولدبلوم،


م ٠ بروست


ف ٠ كافكا


ف ٠ وولف

وماريون بلوم ٠٠ ويبدو «ستيفن» وكأنه تجسيم **للعقل ، والفكر ، والخيال** ٠٠ وهو يتناقض فى ذلك مع « ماريون » التى تمثل الجسد ، والغريزة ٠٠ أما « بلوم » فهو يمثل بطبيعته المعتدلة الحد الاوسط بينهما ، فيلتقى فيه العقل ، والغريزة ٠

وستيفن هو ذلك الشاعر المتمرد المتحذلق الذى ينطوى على نزعات عدوانية كثيرا مايستغلها حين ينال من خصومه ٠٠ فيبدو عدوانيا فى طريقه اقحامه لهم بحجابه المنطقى الصارم ، وفى أسلوبه اللاذع الذى يخلط فيه بين الجد والهزل، والذى لا يخلو من هجاء ، وسفسطة ٠

ويبدو «ستيفن» وكأن لا وطن له ٠٠ فهو ينفى نفسه عن وطنه ، وأهله ، وأصدقائه ، وهو لا يتحرك طوال الثمانى عشرة ساعة الا فى ضوء عالمه الداخلى ، فنجده ، طول الوقت ، رهين هذا العالم الذى يمثل ماضيه ، وحاضره ، ومستقبله٠ فهذه الاشياء التى تترى عليه أثناء تجواله فى شوارع «دبلن» انما تتحول الى منبهات، ومثيرات، تدفع كوامن شعوره ، ولا شعوره ، الى أن تطفو فوق السطح٠٠ فلا غرابة اذا رأيناه دائم الارتداد الى الماضى الذى يشتد وقعه عليه حين تتداعى صورة أمه فى خياله ، فيمزقه الشعور بالذنب ، ذلك لأنه رفض أن يصلى من أجلها حين كانت تحتضر ٠

الزمن المتوتر

لقد ظلت هذه الصورة تتسلط على ذهن « ستيفن » طوال رحلته ، فهى تصحبه فىحركاته وسكناته ، وهى تطارده حين يهيم على وجهه فى شوارع دبلن ، وحين يرتاد الحانات ، والمكتبات ، ودور الدعارة وتوعز الينا حركة ستيفن الدائبة التى أنهكت قواه بما كان يعانيه من صراع ضد الزمن ٠٠ فهو هنا لا يقوى على تحطيم ذلك الحصار الذى يفرضه عليه الماضى ٠٠ فلا الشعر ، ولا الجدل ، ولا الخمر ، ولا التسكع ٠٠ لاشىء منهذا كله استطاع أن يخلصه من الشعور بالاثم ، وبالتالى من الشعور بتوتر الزمن الذى يتجسم فى صورة أمه المحتضرة ٠٠٠

ومع هذا ، فقد استطاع ستيفن « أن يجد عزاءه فى النهاية فى « ليوبولد بلوم » فما ان التقى به حتى نظر اليه وكأنه يمثل ذلك الاب الذى يفتقده ويريد أن ينتمى اليه ٠٠ ولم يسع « بلوم » بدوره الا أن يرحب بهذا اللقاء ؛ فقد أحس أن « ستيفن » ليس غريبا عليه ذلك لأنه أثار فى نفسه ذكرى عزيزة عليه ٠٠ فهو يشبه ابنه « رودى » الذى مات حين كان طفلا ٠٠ الأمر الذى دفعه الى أن يحنو عليه ، ويرعاه ، فقد اصطحبه الى منزله لكى يفيقه من حالة السكر التى جعلته غائبا عن وعيه ٠٠٠٠ وواضح أن شخصية « بلوم » ليست بالشخصية البسيطة ، الساذجة ، كما أنه لم يكن على جانب كبير من الثقافة ، والفهم ٠٠ فهو يتميز بذهن يشبه تلك العلبة المكدسة بالخبرات ، والتجارب التى لا يتفاعل بها ، ولا يستجيب لمؤثراتها ٠٠٠ ويقضى « بلوم » يومه خارج بيته ، فهو يبرحهعند الصباح ولا يعود اليه حين ينتصف الليل ٠وفى ذلك الوقت نراه يدور فى شوارع « دبلن » متنقلا بين أحيائها٠ فهو يزور المكتبة ، والمستشفى والجبانة والحانة حيث يطلق لذهنه العنان فتنثال خواطره ، وذكرياته ، وأحلامه حتى تنتهى رحلته ٠

وتعتبر «ماريون بلوم» محور الصراع فى عالم «ليوبولدبلوم» فهى هنا مثار قلقه ، وتمزقه ، وضياعه كما أنها مصدر خوفه ، وبلبلته ، وتوجسه ٠٠ وبالتالى فهى لا تعدو أن تكون تجسيما حيا لمأساته ٠ فرغم علمه بخيانتها ، ورغم أن هذا يسبب له احساسا بالاهانة ، والمرارة ، فقد ظل فى قبضتها أسيرا لايقوى على الفرار ٠٠ بل ظل ينظر اليها على أنها تمثل بالنسبة اليه بيته ووطنه ، ومصيره ٠

وتبدو « ماريون » فى ثنايا الرواية امرأة سيطرت عليها أحلام اليقظة ٠٠ فهى تسلم نفسها دائما للسرحان ، والشرود ، والتهويم ٠٠ وهى امرأة شبقية بالدرجة الاولى ٠٠ فهذا القطار الذى تتردد صورته فى مخيلتها ، بين حين وآخر ، وهو يمرق أمامها مخترقا أذنيها بصوته الهادر انما يوعز بذلك الاحساس الشبقى الذى يسيطر عليها تماما ٠

وقد يلاحظ البعض أن « جيمس جويس » انما يقف من كل شخصية فى روايته موقف المحلل النفسى من المريض ٠٠ فكل الشخوص فى « أوليس » انما تطلق خواطرها ٠ وأفكارها بطريقة عفوية دون أن يعترضها أى مؤثر خارجى يحول دون حريتها ، وتلقائيتها ٠٠ وبذلك تبدو هذه الشخوص وكأنها حالاتمجسمة من الاستغراق الذاتى ، والاستبطان العميق ٠٠ لكن ذلك غير صحيح ٠٠ فواضح أن « جويس »

لا يتخذ من «**التحليل**» وسيلة للكشف عن مواطن الداء في شخوصه ، كما يفعل المحلل النفسي ، وانمـــا نراه يستغل عملية التحليـــل في توليد عناصره الانفعالية ، والخيالية ، والصورية التي يؤلف من خلالها مركبا جماليا نابضا بالحياة ٠٠ صحيح أنه في الامكان أن نتصور شخوص الكاتب وكأنها ترجمـــة صادقة لعملية اطـــلاق التيار اللاشعوري الى أقصى مدى ٠٠ **لكن «جويس» يعي تماما أن العمل الروائي لا ينبغي أن يكون قاصرا على التداعي الحر ، أو النزعة التلقائية فحسب ، والا اســـتحال الى ضرب من الفوضى لا يخضع للتشكيل أو الاتساق ٠**

الشكل السيمفوني

ومن ثم نلاحظ أن شـــخوص « أوليس » انما تخضع في مسارها اللاشعوري لسيطرة الكاتب٠ فهو يمسك بزمامها ، ويعمل على كبح جماحها ، لكنه في الوقت نفسه ، لا يدخر وسعا من أجل اطلاق حريتها ، وتلقائيتها في حدود عالمها الخاص الذي تعيش فيه ٠٠ وبذلك استطاع «جويس» أن يقـــدم «أوليس» في شكل محكم ، متماسك ، مكتمل ٠٠ بل لا نغالي اذا قلنا ان هـــذا الشكل انمـــا يقترب في جودته ، واتقانه ، من **الشكل السيمفوني في عالم الموسيقى** ٠٠ ولعـــل ذلك ينبئنا بمدى ما يمتاز به جيمس جويس من خبرة، ودراية في مجـــال الموسيقى ٠٠ فقد استطاع أن يصوغ هذه الرواية في ضوء ايقاع من النغم الأدبي المركب ٠٠ فهـــو يجرد الكلمات من صلابتها ، وخشونتها حتى تبدو لينة ، طيعة ، بل تكاد تســـيل أمامنا ، تمـــاما كما يسيل اللون في يد الرسام، وهي تستحيل الى أصوات صافية توحي بالانسجام ٠٠ **فقد استطاع جويس أن يمزج بين المسموع ، والمنظور ، وبالتالي استطاع أن يعبر عن الاشياء المسموعة بآذان قد تبلغ في رهافتها، وحساسيتها أروع ما عرفه الادب الانجليزي من آيات الابداع بعد شكسبير ، وملتون** ٠٠ ويكفي أن نشير في هذا الصدد الى «ستيفن ديدالوس» حين تترامى الى أذنيه تلك الصيحـــة التي تنبعث من الطريق فتســـتوي عنده ، وصيحة الله في الكون ٠٠ وعلى هـــذا ، تصبح الـــكلمة هنا هي الشيء ، أو الصوت ، أو اللون ، أو الرائحة ٠

فكرة المكان

واذا كان «جويس» قد قام بالتركيز على الزمن، وجعل منه المادة التي ينحت منها تجربته الفنية ، فانه لا يفوته أن يبرز تأثير المكان ودوره في تنظيم عمله الفني ٠٠ ومعروف أن « دبلن » هي المكان الذي يضم عالم جويس ، وهي التي يمـــكن أن ندركها ادراكا كيفيـــا ٠٠ فكل ما تحتـــويه من شخوص ، وأشياء ، وأحداث ، وصراعات ، انما يستحيل عند «ستيفن» ، «وبلوم» ، «وماريون» الى صور ، وأشباح ، وأصوات ، وألوان، وروائح٠

وبذلك يصـــبح «المكان» في تصورنا ، وسطا ديناميكيا تتجسم من خلاله تلك الشخوص التي تأخذ في مسارها خطا مزدوجا متناقضا ٠٠ فهي، حينا ، تبدو في حال من التداخل ، والتشابك ، وحينا آخر ، تتنافر ، وتتباعد ، فتبدو في شكل وحدات درامية منفصلة ، توحي بمـــدى ما تتميز به كل شخصية من استقلال، واكتفاء ٠٠ وبالتالي فهي رهينة عالمها الخاص ، وتجربتها الانسانية الفريدة ٠ وبعد فان «أوليس» تعتبر تكثيفا لعالم زاخر بالحياة ٠٠ الحيـــاة بما فيها من جمال ، وقبـــح ، وخير ، وشر ، وأمل ، ويأس ٠٠ ولقد حاول « جيمس جويس » أن يبرز هـــذه الحقيقة بوجهيها المتناقضين ٠٠ فهو لايدعونا الى الاعراض عن الحياة ، أو الاقبال عليها ٠٠ وهو لا يدفعنا الى الحكم بادانتها ، أو تبرئتها ٠٠ وانما كان كل همه هنا أن يتركنا أحرارا في تصورنا، وادراكنا، واختيارنا ٠

سعد عبد العزيز

التكنولوجيا وتوازن البيئة الإنسانية

عبد الواحد الإمبابي

● مادمنا مقتنعين بضرورة استمرار التقدم التكنولوجى ، وحريصين فى نفس الوقت على حماية حركة التطور البشرى ، فان واجبنا يتركز فى خلق توازن دقيق بين المكاسب قصيرة الامد والمغامرات بعيدة الامد .



سجل التفوق التكنولوجى الذى حققه الانسان بوصوله الى القمر ميلاد مرحلة تطور جديدة فى تاريخ الجنس البشرى . ولقد أثار هذا الانجاز العلمى الخطير كثيرا من التساؤلات لدى الناس، البعض يرى فى هذا الانتصار مقدمة حاسمة لظهور عهد سيطرة الانسان على مصادر الكون وقدرته الكاملة على استغلالها وتوجيهها على النحو الذى يريد ، والبعض الآخر ينظر اليها على انها تجربة فذة ورائعة ولكن نتاجها من حيث ما ستحققه لانسان الارض من خير لا تتعادل مع ما بذل فيها من جهد ومال ، وفريق ثالث ومعظمهم من المشتغلين بقضايا الفكر والفلسفة يكاد يجمع على أن هذا الحدث العلمى الجديد سيعرض من غير شك تأثيرات جذرية فى مجال العلاقات الاجتماعية يترتب عليها بالضرورة تغيير واضح فى تقدير الناس لبعض القيم التقليدية التى ظلت فترة طويلة موضع الاعتراف والثبات فى مجتمع

ما قبل العصر القمرى الجديد .

اما الفريق الرابع فيبدو متشائما فى موقفه، اعتمادا على تجارب تكنولوجية أخرى سابقة جعلت لتشاؤمه اكثر من مبرر ، والى جانب هذه المواقف أيضـــا برزت وجهات نظر آخرى عديدة ومتنوعة كان لا بد ان نتوقع وجودها : لأن الحدث فى حد ذاته خطوة مذهلة فى ميدان صراع الانسان مع الطبيعة تستحق أن تتعدد وتتنوع تفسيرات الناس لها . غير أن هناك فريقا آخر دفعه هذا الحدث التكنولوجى الفريد الى القيام بعمل تقييم شامل لكل المنجزات الانسانية فى مجال العلوم التكنولوجية والكشف عما أحدثته من تأثيرات ايجابية أو سلبية على حركة التطور الانسانى ، وكانت هذه القضية هى مركز الحوار بين عدد من رجال الفكر واساتذة العلوم فى كل من اوربا وأمريكا خلال الاسابيع القليلة الماضية

مستقبل التقدم التكنولوجى

كان أول من أثار الجدل حول هذه القضية وبادر بالدعوه الى مناقشتها — فيما نعرف — عالم بريطانى مشهور هو الدكتور ((**بيتر لورى**)) Peter Laurie الذى يشتغل الآن محررا للشئون العلمية بصحيفه الصاندى تايمز الانجليزية . لقد طرح هذا العالم السؤال المحدد التالى : **((ما هى — بالقطع — الأرض الحقيقية التى وفرها التقدم التكنولوجى للانسان لكى يحرز مزيدا من الانتصارات فى مسيرته نحو مستقبل أفضل اذا كانت ثمة فرص على الاطلاق؟**

وأصر هذا العالم الصحفى وهو يطرح هذا السؤال على أن تأتى الاجابة عنه من واقع التأثيرات التى اكتشفها الانسان وهو يحاول الاستفادة من نتائج الأبحاث التكنولوجية فى خدمة قضية تطوره .

وكم كان مذهلا ان يتبلور من خلال المناقشة التى اشترك فيها عدد كبير من رجال الفكر والعلم رأى موحد يقرر مبدأ غريبا بل قد يبدو شاذا فى نظر أبناء عصر اصبحت للتكنولوجيا فيه الكلمة الفاصلة فى حياتهم ، ولكنه — على أى حال — مبدأ اعتمد اصحابه فى تبريره على الواقع نفسه وكلهم أهل ثقة فيما تصدوا له من موضوعات .

وجانب الشذوذ فى هذا الرأى يأتى من اصراره على ادانة التكنولوجيا واتهامها بتعطيل حركة التطور البشرى :

يقول دكتور لورى **ان واقع التجارب يؤكد أن معظم المحاولات التى قام بها الانسان لاستغلال الطبيعة جلبت له معها الكثير من المتاعب والشرور** ، ويمكن القول بصفة عامة بأن الامكانيات العلميه التى توفرت للانسان قبل القرن الثامن عشر لم تتجاوز فى تأثيراتها نطاق البيئة المحلية ، وفى نفس الوقت كانت معظم الاختراعات من طاحونة وشراع ودولاب ماء تحاول استغلال الطبيعة فى رفق ودون ازعاج لها .

وبظهور الثورة البخارية والصناعية بدأت عمليات السلب والعدوان على البيئة ثم ازداد عنفا وحدة خلال القرنين الاخيرين بعد ان تزايد النمو السريع للسكان وارتفعت الأصوات تطالب بضرورة الاستفادة من التقدم التكنولوجى لحل مشاكل الجماهير الأساسية . وغاب عن الكثيرين ان أى تقدم تكنولوجى يأتى دائما على حساب حياة الانسان وبيئته ؛ فقد نستمتع بل ونستفيد من بناء السدود واقامة محطات القوى الضخمة وصناعة الطائرات التى تجوب الفضاء أسرع من الصواريخ ، ولكننا ننسى أن كل شىء فى الكون يجب أن يعمل فى تناسق مع البيئة بانسانها وحيواناتها ونباتاتها وهوائها ومائها الخ لأن البيئة شديدة التعقيد وعناصرها متداخلة على نحو يؤدى أى اضطراب فى أى عنصر منها الى احداث **سلسلة من التغيرات تشمل ماعداه.**

وقد ثبت أن فشل التكنولوجيا فى تحقيق هدفها فى مشروع من المشروعات يكون راجعا الى اغفال هذه الحقيقة سواء عن جهل بها فى بعض الأحيان أو عدم اكتراث لها فى أحيان أخرى ، فسد الكاديبا الذى اقيم على نهر ازمبيزى فى أفريقيا عمل رائع مافى ذلك من شك ، وقد تم بناؤه تحت ظروف صعبة للغاية ، ويقوم الان باداء وظيفته المحددة له فى حجز المياه داخل بحيرة تعد من اعظم ما صنع الانسان من بحيرات فى العالم ، غير أن هذه البحيرة بعد ان امتلأت بالماء أغرقت أعدادا كبيرة من الحيوانات ، وكان هذا متوقعا ، ولم يكن امرا ذا بال على المدى البعيد ، كما انها غطت مساحات واسعة من الاراضى الزراعيـــة ، وكان مقررا أن يتحول مزارعوها الى صيادين . ولكن الكثيرين منهم رفض ممارسة هذه المهنة وربما كان هذا أيضا متوقعا ، لكن الشىء الذى لم يكن متوقعا هو أن تفشل كل المحاولات التى بذلت لتخزين البحيرة بالاسماك وأن تغطى الحشائش مساحات واسعة من سطحها المائى فتصبح غير صالحة لعمليات الصيد أو مرور القوارب أو الاستفادة منها فى

اى غرض آخر . يضاف الى هذا عدم وجود صناعه ضخمة تستخدم كل امكانيات القوى الهيدروكهربية المتولدة من السد ، وحيث لا توجد مثل هذه الصناعة تمتلىء البحيرة بالرواسب الطينية فيصبح السد عديم الجدوى، وقد حدث هذا ايضا فى اماكن اخرى غير افريقيا ففى عام ١٩٢٠ تم بناء سد جبل طارق على النهر الواقع خلف مدينة كاليفورنيا ، وسرعان ما اتضح ان البحيرة قد امتلأت بالرواسب فاضطر المسئولون الى اقامة سدين آخرين عند اعلى المجرى لمنع البقايا المتهدمة ، غير انه لم يمض الا عامان فقط حتى امتلأ هذان السدان كذلك بالرواسب ، ويمكن القول بان هذا المصير قد واجهه أكثر من ٢٫٠٠٠ من السدود الموجوده فى الولايات المتحدة الامريكية وحدها .

وتعتبر مشاريع الرى الكبرى التى نفذت فى البنجاب احدى عجائب الهندسة المدنية ولكنها اصابت الباكستان بكارثة حين فصلت الاملاح عن الارض وركزتها على السطح فعملت منهامنطقة غير صالحة للزراعة .

مثل آخر من امريكا ، كانت بحيرة كلير Clear التى تعتبر اخصب منتجع فى كاليفورنيا وأروع موقع من مواقع الجمال فيها مليئه باسراب هائله من البعوض المعروف بلسعاته القارصه ، فتقرر التخلص منه باستخدام مادة الد.د.د ، وهى من عائلة الد.د.ت ولكنها اقل خطرا من حيث سمومها على الاسماك وغير ضارة بالنسبة للطيور ، وفعلا اختفى البعوض لمدة سنتين ، وتقرر رش البحيرة مرة ثانية وتكررت هذه العملية مرة ثالثة ، وبعد هذه السنوات الست التى استخدم فيها رش البحيرة ثلاث مرات فوجىء أهالى المنطقة بموت كل الطيور التى كانت تعيش بين قصب الغاب .

وهذا المثال والامثلة السابقة ايضا نموذج لمنطق التكنولوجيين : ((**لم نكن نعرف**)) **وهو** منطق يفقد التقدم التكنولوجى أهميته فيصبح عامل تعطيل لعملية التطور بدلا من دفعها الى الامام ، والسبب فى هذا الفشل واضح ، وهو أن رجال التكنولوجيا لم يدركوا أهمية التناسق الذى يجب أن يتوفر بين عناصر البيئة ، وأن أى اختراع يجب الا يحطم هذا التناسق .

ادانة التكنولوجيا

ومن المتناقضات العجيبة فى مجتمعنا المعاصر أن بعض الحكومات تفرض رقابة صارمة على المواد الحديثة المبيدة للحشرات بحجة انها تحتوى على نسبة عاليه من السموم فى الوقت الذى لا تفرض فيه مثل هذه الرقابة على مواد كيماويه أخرى ليست أقل خطوره من هذه **المبيدات** . فالمخصبات الزراعية تسبب تدميرا للبيئة أكثر مما تسببه مبيدات الحشرات ، اذ يستخدم الفلاحون ملايين الاطنان من النترات والفوسفات تجرفها مياه الامطار حين تهطل لتلقى بها الى الانهار والى البحيرات فتقتل الاسماك بسمومها وتساعد على نمو الطحالب نموا أكثر من الطبيعى فتعوق السباحة ومرور القوارب ، وهذه الطحالب تسرف مادة الاوكسجين من الماء فضلا عن انها تصبح هى الأخرى حاملة للسموم ، وقد ثبت ان نمو الطحالب على هذا النحو فى بحيرة العاصفة بولاية أيوا قد قتل أكثر من ٨٫٠٠٠ طائر برى .

وفى عالم تكنولوجيا الطب برزت نتائج خطيرة أدت الى الاضرار بصحة الناس بدلا من تحسينها وعلاجها ، وفى هذا المجال ينبغى أن نشير الى ثلاث مشاكل أساسية :



أولا : العقاقير نفسها — وهى مادة العلاج — غالبا ما تكون سامة ، فالبنسلين مثلا يمكن أن يقتل الانسان الذى تصبح لديه حساسية منه، وقد اثبتت بعض الاحصائيات التى أجريت عام ١٩٦٨ أمريكا أن ٥٪ من المرضى الذين كانوا يعالجون بالبنسلين لقواحتفهم نتيجة السم الذى أصابهم من كثرة استعماله .

ثانيا : العقاقير التى يستعملها المريض للقضاء على مرض معين قد تساعده على الشفاء من هذا المرض ولكنها — وهذا ما يحدث كثيرا — تطرد من الجسم بعض المواد التى تحميه ضد أمراض أخرى ، فالعلاج بالمضادات الحيوية يؤدى الى تزايد العدوى بفطريات الفم وظهور التهابات حادة فى الجلد وأجهزة التناسل وذلك بسبب القضاء على مواد الحماية والدفاع ضدها فى الجسم .

ثالثا : استعمال بعض العقاقير لفترة طويلة يؤدي حتما الى خلق نوع من المقاومة ضد هذه العقاقير ، وعلى الرغم من ان علماء الصيدلة يحاولون التغلب على هذه الحالات الا أن المقاومة تعود لتظهر من جديد حتى بات هناك سباق لا يتوقف بين وجود مقاومة من جانب المريض واختراع عقاقير جديدة مضادة لهذه المقاومة .

وقد وجد لدينا الآن بهذا الصدد ما يمكن أن نسميه بعملية الانتحار الغبى . فمنذ عدة سنوات وشركات العقاقير تعمل على اقناع المزارعين بمزج غذاء الحيوانات الصغيرة بمواد تحتوى على مضادات حيوية حتى تزرع فيها جراثيم المقاومة لما في جسم الانسان من أسلحة. ومما يثير الدهشة أن عقار الكلورمفنيكول الذى كان الى عهد قريب العقار الوحيد الفعال ضد التيفود أصبح اليوم عديم التأثير وذلك بسبب اعطائه للدجاج المصاب بالحمى ، وكثيرا ما نرى اطفالا يموتون من التهابات معوية لم يعد من الممكن للتغلب عليهـا بأى عقـار حتى ولا الكلورمفنيكول .

- قد تكون هذه الأخطار قد حدثت لأن علماء التكنولوجيا لم يكونوا يتوقعون حدوثها وعندما حدثت كان لها من غير شـك تأثير ضار على مصلحة التطور البشرى ، **فهل يمكن لهؤلاء العلماء ان يتجنبوا ظهور مثيـل لهـا فى مشروعاتهم المستقبلة ؟**

صراع الانسان والتكنولوجيا

لقد توفر على دراسة بحيرة الفولتا فى غانا فريق من خبراء الصيد والبحيرات لعدة سنوات، على أمل تجنب الاخطاء التى حدثت فى الكاريبا ، **ولكن أخطاء أخرى ستجعل من هذا العمل الفنى العظيم مشروعا قليل الاهمية لو غاب عن ذهن المنفذين فكرة المحـافظة على مبدأ التناسـق الضرورى بين عناصر البيئة دون أدنى اخلال باحداها .**

ولقد حاولت التكنولوجيا توفير بعض وسائل الراحة للانسان بانتاج أجهزة التدفئة والغلايات والسيارات وفاتها أن هذه الاجهزة تحدث نوعا من الغازات تحتوى على حامض الكربون الذى يتحلل فى رطـوبة الجو ليتحـول الى حامض الكبريت الذى يعتبر مسئولا عن تآكل المبانى والسيارات واحداث كثير من الخسـائر تقـدر سنويا بمائة مليون جنيه استرلينى فى بريطانيا وحدها وعلى الرغم من أن الأبحاث التى أجريت فى شتاء عـام ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ أوضحت مدى الصـلة الوثيقة بين وفاة كثير من الاشـخاص ووجود ثانى اوكسيد الكبريت فى الهواء ــ الأمر الذى دفع الحكومة البريطانية الى اصدار قوانين صارمة بتنقية الجو من هذه المادة ــ فان هواء لندن لايزال مشبعا منه بكميات أكبر كثيرا مما كان موجودا منذ عشر سنوات . وهذا راجع بالطبع الى أن اساتذة التكنولوجيا لم يحاولوا الارتفاع بقضية سلامة البشر فوق الاعتبارات الفنية ، لأنهم يتحركون فى كثير من الأحيان فى ظل منطق ((**لا يهمنا**))

وليس صحيحا ان التكنولوجيا مفيدة دائما حتى ولو وضعت فى اعتبارها سلامة البشر لان البيئة ــ كما سبق ان قلنا ــ ليست مملكة الانسان وحده . **بل هى مركز الحياة بالنسبة لكائنات كثيرة أخرى ،** فهى مستقر الوجـود للحيـوانات والنبـاتات والطيور والمعـادن الخ واستخدام التكنولوجيا استخداما عنيدا ومطلقا بعيدا عن كل قيد سيخلق حتما عـديدا من المشـاكل الجديدة التى لا عهد لنا بها من قبل ، فسيؤدى استغلال المعادن والوقود الحجرى على هذا المسـتوى الضـخم الى ندرة وجود هاتين المادتين من العالم ، لأن تزايد الطلب عليهما من مراكز التكنولوجيا يبـدو وكأن كوكبنا الأرضى لا يحتوى على معادن أخرى غيرهما ، وتقول كل الاحصائيات التى أجريت فى السنوات الاخيرة الماضية ان استغلال البترول والفحم لو ظل



على معدله الحالى فمعنى هذا ان كل الكميات الموجودة منهما فى الارض سيتم امتصـاصهما تماما خلال المائتى عام القادمة . وليس هذا بالأمر الغريب ، فقد واجهت معـادن أخرى كالصفيح والزئبق نهايتها الاخيرة تحت ضغط والحاح الاحتياجات التكنولوجية . وليس هناك أمل فى البديل الا فى القوة النووية الجديدة التى يدعى التكنولوجيين أنها سـتعوضنا الكثير عن مصـادر القـوى التقليدية ولا ندرى حتى الآن ما اذا كان هؤلاء التكنولوجيون قد وضعوا فى

اعتبارهم وهو يتحدثون عن هذه القوى النووية مدى خطورة ما سيحدث نتيجة استخدام هذا المصدر الساحر ، فبعض الدراسات الاخيرة تؤكد ان التراب الذى يحتمل أن يرتفع الى طبقات الجو العليا نتيجة انفجار ٢٠٠٠ر٢ طن من القوى النووية سيكون كافيا لخلق عصر جليدى آخر على الارض .

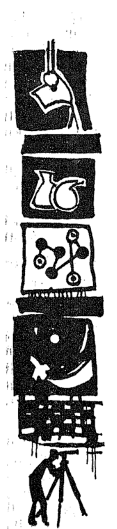
ومن القصور أن نتصور ان مشكلة استغلال الفحم والبترول محصوره فقط فى نطاق الخوف من نفاد مخزونهما فهناك اخطاء اخرى تحدثها هذه المشكله وتعد من حيث تأثيرها المدمر على حياة البشر اكثر خطرا من مجرد نفاذ مادة او مادتين من ثروات الارض ، فقد ضاعف استهلاك الفحم والبترول فى القرن الماضى من وجود ثانى أوكسيد الكربون فى الجو بمعدل يقدر بـ ١/٧ ما كان موجودا منه بالفعل ، فاذا استمرت هذه الزيادة لمدة ٤٠٠ سنه أو كما يقدرها الآخرون لـ ٤٠٠٠ سنة فان معنى هذا أن كمية ثانى أوكسيد الكربون التى ستوجد ستكون كافية لانقاص كمية من حرارة الشمس تساوى ما هو موجود من أشعاعها الآن فى الفضاء ، وسيتبع هذا ارتفاع فى درجة حرارة الأرض الى حد تذوب معه قمم الثلوج فتنهمر مياهها وتغرق الكثير من مدن العالم الكبرى .

ويمكن ان تحدث نفس هذه التأثيرات أو قريب منها نتيجة استخدام الطائرات النفاثة لأن هذه الطائرات تفرغ اطنانا من المياه التى سرعان ما تتبخر فى طبقات الجو العليا ثم لا تلبث أن تتجمد فى شكل بللورات ثلجية محدثة شحنات لبنية (Milky) ، ولهذا يعتقد بعض علماء الجو أن من المحتمل ان تختفى الفروق المناخية بين فصل الصيف وفصول السنة الأخرى لأن السماء ستصبح فى يوم من الايام موشاة بسحب كثيفة من هذه البللورات وتكون النتيجة ازديادا هائلا فى درجة حرارة الارض .

أن الذى يحمينا من الاشعاع الشمسى فوق البنفسجى وهو اشعاع قتال ومدمر أربعون طنا فقط من الأوزون Ozone (نوع من الأوكسجين) منتشرة حول الكرة الارضية كلها، فلو امتزجت كميات مناسبة من الوقود الصاروخى فى تفاعل مع هذا الأوزون لا نطلقت الاشعة فوق البنفسجية فى هجوم عنيف تتحدى به وجود الانسان على الارض .. **وهذا الاحتمال ربما يكون بعيد الحدوث ولكنه يعكس مدى ما يمكن أن يسببه النجاح فى بعض العلوم من أخطار على حياة الارض بما فيها ومن عليها .**

ان علينا ان نتواضع فى تقدير اهمية التكنولوجيا ، ومن الخطأ أن نصورها فى شكل صديق عملاق يكون دائما رهن اشارتنا حين نطلب اليه ان يطير الى ما وراء الحدود ليعود ومعه العقار الساحر لحل كل مشاكلنا وعلاج أمراضنا ، ان النظرة العاقلة لدور العلم هى نظرتنا الى صديق يسافر يشاركنا ظهر سفينة فضاء راضية ، علينا أن ندرس ونمحص بروح النقد والتحليل نتائج ما يؤديه من عمل ..

ومن أعظم خيرات التاريخ ان رجال العصر الفيكتورى لم يكتشفوا سر انشطار الذرة ، لانهم لو اكتشفوه لحولوا العالم بحكم مفاهيمهم الاجتماعية الى مجرد صحراء مليئة ببقايا الدمار والخرائب .



أخطاء الجهل الشريف :

هناك أيضا أخطاء يخلقها مانسميه بالجهل الشريف ، فحين اخترعت — مثلا — أشعة إكس في نهاية القرن الماضي هلل الناس في كل مكان لانهم أحسوا ببعض نتائجها الطيبة ، ولكنهم كانوا ينظرون اليها كما ينظرون الى جسد امرأة جميلة من خلال ثقوب ثوبها الشفاف . فان أحدا لم يكن يدرك أو حتى يتصور ان استخدام هذه الاشعة سيتسبب في وجود اضرار بالغة تصيب العظام والجينيات . **ومن المؤسف أن مثل هذه الأخطاء لا تزال تحدث مما يهدد أمن البشرية ومستقبلها** ، ويبدو انه من المستحيل ان يأتي الوقت الذي نعرف ما يجب ان نبحث عنه ، ففي عام ١٩٣٧ حاولت مجموعة من العلماء الأمريكيين الذين يعملون في لجنة الموارد القومية التنبؤ بما ستكون عليه مواردهم خلال السنوات الثلاثين القادمة فبنوا دراستهم على أساس الامكانيات التكنولوجية التي كانت متوفرة لديهم يومذاك ، وضاعت أهمية هذه الدراسة بالطبع فيما بعد لانهم لم يضعوا في اعتبارهم اختراع العقل الالكتروني والانشطار الذرى والرادار والترانزستور والصواريخ والطائرات النفاثة ، لقد كانوا يعتقدون أن الطائرات مثلا ستكون حجما وأكثر راحة وأمنا ولكنها لن تصبح أكثر سرعة ..

والحقيقة الاخلاقية التي يجب أن نعترف بها هنا هو أن العلم قد جعل مستقبل الجنس البشري شديد الغموض والتعقيد .

ومادمنا مقتنعين بضرورة استمرار التقدم التكنولوجي وحريصين في نفس الوقت على حماية حركة التطور البشري فان واجبنا يتركز في خلق توازن دقيق بين المكاسب قصيرة الامد والمغارات بعيدة الامد . وعلينا ان نجمع بين مصالح الطرفين المستفيدين من كل من هذين الاتجاهين، مصالح الجماهير ومصالح التكنولوجين ويمكن أن يتحقق هذا التوازن لو تمت الانجازات التكنولوجية داخل اطار واسع من التعاون المتكامل بين كل الأطراف المعنية بشئون التطور، اذ ثبت أن كل الاخطار التي تحدث من أي مشروع تكنولوجي تكون بسبب انفراد جماعة متخصصة بتنفيذ المشروع دون الاستعانة بغيرهم من المتخصصين في المجالات الأخرى ، ولتوضيح هذا المعنى نتصور مثلا أن مهندسا من مهندسي الري ذهب الى منطقة يشكو أهلها من قلة المياه اللازمة لري أراضيهم ، ثم عثر فجأة على مكان صالح لاقامة سد يوفر لهم كميات المياه المطلوبة، وبعد أن وضع التصميم وحدد المال اللازم لمشروعه وجد ترحيبا من هؤلاء الاهالي نظرا لما يجدونه فيه من مصلحة عاجلة تعود عليهم بالفائدة ، فالمتوقع في هذه الحالة بالطبع ان يبادر هذا المهندس بالعمل لانجاز المشروع . ولو أشار عليه احد أن يستعين قبل تنفيذ مشروعه بعلماء الايكولوجيا (علم تأثير البيئة على الحيوان والنبات) وعلماء الحيوان وعلماء السلالات تسخر من هذه النصيحة لأنه يتصور ان مشروعه لا يحتاج الى مساهمة احد من هؤلاء المتخصصين ، **اذ ينظر اليهم على أنهم أصحاب مجالات أخرى لا تمت الى عمله الفني بصلة ، وهنا لا يتحقق التوازن بين الفوائد العاجلة والاخطار الآجلة .**

الأعباء الاجتماعية والانتاج التكنولوجي

هناك ايضا عامل آخر خطير يلعب دورا هاما في اضطراب عملية التوازن المطلوبة ويتخذ من سرية التكنولوجيا وسيلة للنجاح الخاص . هذا العامل يتمثل في السعي الجشع وراء الربح الهائل ، فبعض الشركات الصناعية الكبرى تحتفظ لنفسها بأسرار اختراعاتها حتى لا تترك فرصة للمنافسة أمام الشركات الأخرى وتخشى ايضا أن تبوح بهذه الأسرار حتى لا تتعرض لهجوم من جانب أحد من العلماء الذين قد يكتشفون ما في انتشار هذه المخترعات من أخطار . وكثيرا ما ارتفعت شكوى بعض المحافظين في أمريكا من المعارضة العنيفة التي تقف الشركات الصناعية الكبرى من ورائها اثناء احتجاجهم على استخدام مبيدات الحشرات الحديثة .

ان معظم هذه المخترعات حين تغزونا لا نستطيع كجماهير ان نكتشف ما فيها من خطر علينا الا بعد فترة طويلة من الزمن فلو احسسنا فجأة باخطارها مرة واحدة لتجنبناها على الفور وهذا هو جانب الخطورة في الموقف، وكما يقول الاستاذ اهيرلنج

((لو أن ضباب الدخان وصل فجأة الى سماء اوس انجيلوس لهرع الناس توا الى داخل التلال ولكنه يأتي تدريجيا فيتعلم الناس كيف يتعايشون منه))

وقد ظل خبير الطيران السويدي **بولاندبيرج** Bolandberg يحذر الناس من اخطار الكونكورد ولكن احدا لم يعبأ بتحذيراته حتى اكتشفنا ذلك بأنفسنا .

وعند هذه المرحلة من الدراسة نكون قد وصلنا الى مواجهة قضية لا بد من الوقوف عندها ، **قضية الاهتمام بالأعباء الاجتماعية وتأثيرها على مستوى انتشار الانتاج التكنولوجي** وفى هذا الصدد نروى المثال الذى اورده البروفيسور ((**أدوارد ميشان**)) Mishan في كتابه « **تكاليف النمو الاقتصادى**)) فهو يتخيل مدينة يعيش معظم أهلها على مشارفها بينما يكون مقر عملهم فى وسطها ، ففى المرحلة (أ) تتوفر فى المدينة خدمة كافية بالنسبة للمواصلات . اذ يوجد عدد من الأوتوبيسات يكفى لربط أجزاء المدينة بعضها مع بعض . ومستر البيرت الذى يعتبر نموذجا نمطيا لكل سكان المدينة يستخدم الأوتوبيس يوميا فى الذهاب الى عمله والعودة منه ولايستغرق ذلك أكثر من عشر دقائق . وفى المرحلة (ب) يشترى مستر البيرت سيارة طاحنه يذهب بها الى عمله فى خمس دقائق فقط ولا يمضى أكثر من عامين حتى يفعل كثيرون مثله . وفى المرحلة (ح) وبسبب تزايد عدد السيارات تزايدا كبيرا تصبح حركة المواصلات صعبة للغاية حتى لا يستطيع البيرت وزملاؤه أن يصلوا الى عملهم بسياراتهم الخاصة قبل ربع ساعة ، فيبدأ البيرت يشعر بأنه فى المرحلة الأولى كان أحسن كثيرا ، ولكن الاوتوبيس أصبح يقطع المسافة الآن فى ٢٥ دقيقة وقد تضاعفت تعريفة النقل نظرا لقلة عدد الذين يستخدمونه . وفى المرحلة (د) يصبح لكل شخص سيارة خاصة ويضطر المسئولون الى الغاء الاوتوبيس نهائيا لعدم وجود ركاب ، ولان الأعباء الاجتماعية أى الأعباء المالية التى تتحملها الدولة لتوفير الخدمات الاجتماعية تتطلب ضرورة فرض ضرائب على المواطنين فان المسئولين يجدون أنفسهم مضطرين الى مضاعفة هذه الضرائب على مايعد كماليا بالنسبة لأساسيات الحياة الضرورية الأخرى ، **وليس من شك فى أن السيارات الخاصة اذا قيست بالخدمة الطيبة تكون شيئا كماليا ، فتفرض الضرائب على أصحابها** ، فهل سيحد فرض الضرائب التى يجب تحصيلها للانفاق فيها على الأعباء الاجتماعية من توسع انتشار واستخدام السيارات الخاصة التى هى تتاح للتقدم التكنولوجى ؟

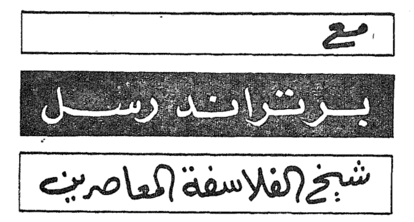
نعتقد أن الرد سيكون حتى بالايجاب :

بقيت مسألة تأثير التكنولوجيا على مواردنا الاقتصادية وخطورتها على ضياع جزء كبير من الدخل القومى ، فقد ثبت أن بعض المشروعات الفنية التى تكلفت قدرا كبيرا من النفقات ، مت الفشل فى النهاية بسبب ما احدثته من اضرار برزت اثناء استخدامها ، كما أن هناك مشروعات تكنولوجية اخرى تسببت فى احداث خسائر اقتصادية تفوق اضعاف ما حققته من مكاسب، وقد سبق ان ذكرنا بعض الامثلة لتاكيد هذه الحقيقة . اما فى مجال القيم والعلاقات الاجتماعية فان احدا لا يستطيع أن يتجاهل الأثر السيء الذى تركه التقدم التكنولوجى فيه، ولناخذ مثلا دور التكنولوجيا فى ميدان انتاج الأسلحة الرهيبة . فقد أصبح السباق فيه اليوم على أشده بين الدول الكبرى ونكاد نشهد ونسمع حركة تطوير واسعة كل يوم بل كل ساعة تهدف هذه الدول من ورائها الى جعل هذه الأسلحة أكثر فتكا وأبعد دمارا ، ان هذا السباق يؤدى حتما الى زيادة حدة التوتر بين شعوب العالم وخلق حالة من التربص الدائم لديها ، وربما أفلت الزمام فى لحظة اثارة وغضب أو فى لحظة غرور قومى من يد القيادة المسئولة، **ان النتيجة الحتمية فى هذه الحالة وقوع الكارثة الشاملة التى ستدمر كل تراث الانسان على الارض وتغلق باب المستقبل الى الأبد .**

الجانب الايجابى للتكنولوجيا

والآن قد يتصور البعض ان تقيم دور التكنولوجيا فى ضوء جانبها السلبى فقط انما يعكس مفهوما خاطئا ومتخلفا ينتهى بصاحبه الى معاداة كل تقدم يتحقق وتجميد جهود العقل البشرى عند نقطه ثابتة لا تتحرك ، وليس هذا صحيحا على الاطلاق ، **فان يوجد من يعارض التقدم التكنولوجى الا معتوه ابله لا ينتمى الى عالمنا المعاصر** ، اننا ندعو فى حماس عارم لا يهدأ الى استمرار حركة العلم بشرط أن تكون دائما فى خدمة قضية التطور البشرى ، لا أن تكون عقبة فى طريقها ، ولا يتحقق هذا الهدف الا اذا وضعت التكنولوجيا فى اعتبارها دائما مبدأ التناسق مع البيئة بكل عناصرها وأى تقدم تكنولوجى ينسى أو يتناسى هذا المبدأ الأساسى لا يعد تقدما بأى معنى من المعانى ، بل هو فى تحليله الاخير معول يدمر معالم الطريق أمام حركة التطور الانسانى .

عبد الواحد الامبابى



ترجمة سليم الأسيوطى

عقدت هيئة الاذاعة البريطانية ندوة دعت اليها نخبة ممتازة من رجال الفكر البارزين ، ناقشت حياة « لورد برتراندراسل » فقامت بعمل تقويم لحياته وأهميته بوصفه مفكرا عظيما وفيلسوفا كبيرا تمكن من تبسيط الفلسفة وتقريبها من اذهان الجماهير . كما تعرضت أيضا لمواقفه من القضايا الهامة مثل تحرير المرأة ونصرته للحركة النسائية عامة ، وكراهيته للانتخابات والسياسة والدعاية للحصول على أصوات الناخبين ، ودوره في الحياة الثقافية والفكرية .

ثم تناولت المناقشة تأثيره على الحياة العامة : هل شارك فيها بقسط وافر ؟ وهل كان ناجحا فى هذه المشاركة ؟ ولم يفت الندوة ذكر جهوده فى ميدان السياسة والحديث عن مقدرته الفائقة فى الاتصال بالجماهير والشباب بصفة خاصة . كما خصت الندوة «سيرته الذاتية» بقدر ملحوظ من الحديث لما تلقيه من ضوء على جوانب حياته العامة والخاصة .

وقد اشترك فى هذه الندوة :

ستيوارت هامبشاير S. Hampshire ، أستاذ الفلسفة في جامعة برنستون . وهو مؤلف «الفكر والعمل» و «حرية الفرد» ... الخ

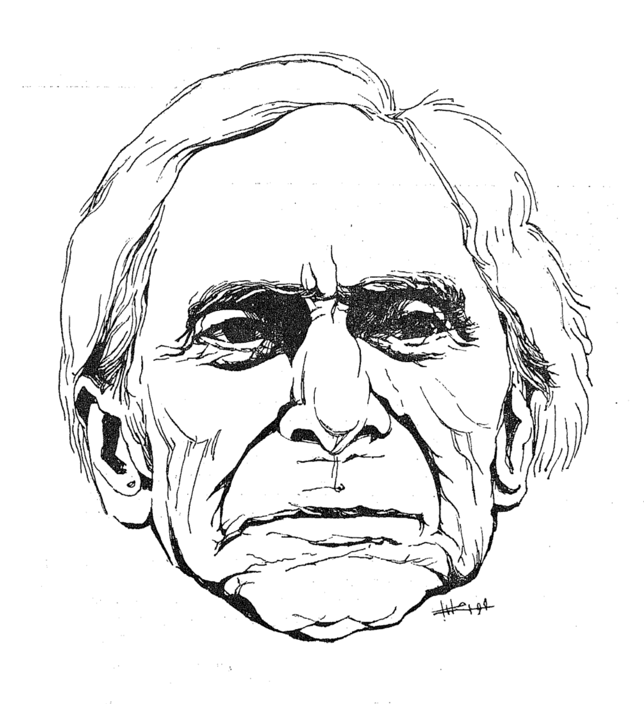
نورمان سانت جون ـ ستيفاس N. St. John Stevas

عضو مجلس العموم البريطانى ومحرر سابق في مجلة «الايكونومست» The Economist ، وتتضمن مؤلفاته المنشورة :

«الحياة والموت والقانون» و «القانون والاخلاق» .

البارونة ستوكس B. Stocks التى عملت فى عدة لجان حكومية . وهى المستشار المساعد لجامعة ليفربول ومن مؤلفاتها المنشورة : «الدولة الصناعية» و «تاريخ جمعية العمال التعليمية» .

روبرت كى R. Kee ، الذى تولى ادارة الندوة ، وهو مؤلف «الجمهور ليس صحبة» و «علامة الازمان» .



روبرت كى : أرجو أن نعمل نوعا ما من التقويم لأهمية حياة برتراند راسل المذهلة ، وأظن أنه بالحديث عن الرجل الذى أصر دائما بصورة تدعو الى الاعجاب على الصراحة بين الناس ليس ثمة حاجة الى الخوف من الحديث فى صراحة ، **فكيف كان برتراند راسل هاما بوصفه فيلسوفا ، يا ستيورت هامبشاير ؟**

ستيورت هامبشاير : أظن أنه مما لا يقبل الشك أنه واحد من أعظم ثلاثة فلاسفة أو أربعة يكتبون باللغة الانجليزية فى هذا القرن ؛ وهو يقف ضمن تراث المذهب التجريبى البريطانى الذى يعود الى « **لوك** » و « **باركلى** » و « **هيوم** » و « **ميل** » .

ولبرتراند راسل ، من حيث هو فيلسوف

عظيم ، جانبان متميزان : فهو من جانب قد ابتكر ونشر بداية المنطق الرياضى بمعنى حديث وفى نطاق حديث • صحيح أنه لم يكن وحيدا فى هذا الميدان ، ولكنه كان الشخصية المركزية الرئيسية • وثانيا ، فيما يتعلق بنظرية المعرفة والمشاكل التقليدية للفلسفة فقد وضع القضايا التى ناقشها الفلاسفة الآخرون الذين نعتقد أنهم **أنداد له من مثل « مور » و « فيتجنشتاين »** وقد حددوا موقفهم بالنسبة له ، وانى أعتقد أن هذا يصدق على جميع العالم الناطق باللغة الانجليزية • **انه الفيلسوف العظيم الذى أسهم بابتكارات فنية نوعية محددة فى داخل الفلسفة، هى مكاسب دائمة للمعرفة • وأخيرا ، فانه قد ضرب المثل وقدم المادة التى يعمل عليها الآخرون ، وانى لا أظن أن من المستطاع أن ينازع أحد فى أنه مفكر عظيم •**

نورمان سانت ـ جون ستيفاس : انى أفضل لو أضيف أنه ـ فضلا عن كونه مفكرا عظيما وفيلسوفا متخصصا عظيما ـ عظيم أيضا فى ترويجه الفلسفة للجماهير وتقريبها من أذهانهم • وانى لأظن أن أحد الاعمال الفلسفيه التى تقرأ على اوسع نطاق فى انجلترا هو كتابه « **تاريخ الفلسفة الغربية** » • وانى لاعتقد أنه ، بالاضافة الى ما يتمتع به من الذكاء الفنى والفكر الأصيل ، لديه قدرة نادرة على توصيل ما يقول الى العقول ، **فله موهبة نشطة ليقدم الى الجمهور غير المتخصص أفكارا فلسفية عامة •**

كى : اننا نتقدم نحو الموضوع المشوق ، ألا وهو : **ما اذا كان تأثيره بوصفه شخصية شعبية يتناسب مع تأثيره الأكاديمى أم لا يتناسب ؟**

ليدى ستوكس : أظن أن له ذلك التأثير ، من جهة لأنه ، كما ذكر مستر سانت جون ـ ستيفاس ، فيلسوف يروج للفلسفة بين الجماهير ويقربها من أذهانهم • وأنا لست فيلسوفة ، ولكنى حينما قرأت مقاله عن « **عبادة الانسان الحر** » شعرت أن به شيئا أستطيع أن أفهمه ، هذا الشىء الذى يوضح اتجاهه كله فى الحياة • وانى لا أستطيع أن أتصور لماذا وصفه الناس بالالحاد • ان موقفه يبدو لى موقفا دينيا ـ موقف الذى يعتقد بعدم كفاية العقل البشرى لفهم الوحى الالهى ، ولكنه بالتأكيد ليس ملحدا •

كى : ولكن هل ترك أثره حقا ، فى الأسلوب الذى تقدم به المجتمع ونما ؟

سانت جون ستيفاس : لا أظن أنه قد ترك أثرا عميقا خاصا على الحياة العامة ، فى زماننا هذا • انه شخصية تخلب لب الناس ، كما تخلب لبهم أمانته وصدقه • ولكن آراءه تبدو لبعض الناس كأنها مجنونة جنونا طفيفا • وأظن أن المكان الذى سيحتله فى التاريخ ، وبعد أن نترك جانبا ما أسهم به من نشاط فلسفى ، هو فى معرض عظماء شواذ الانجليز •

« ضرر العزلة »

هامبشاير : أعتقد أن ما وهبه الله من قدرة الاتصال بجمهور كبير ، وهى القدرة التى تظهر واضحه فيما يكتب وفيما يذيع ، تنبع من سمة عميقة من سماته الخلقية ، تلك السمة التى قد أشار اليها فى سيرته الذاتية : **أعنى ما يسميه هو ضرر الوحدة والعزلة •** فقد كانت الفلسفة عنده دائما مسألة متعلقة بالاهتداء الى معنى الحياة ، والتغلب على هذا الاحساس بالعزلة التى شعر بها فى طفولته • وهذا عند السواد الاعظم من الناس الاصل السيكولوجى للاهتمام بالموضوعات الفلسفية ، وهو شعور يدفعهم الى التساؤل : **هل أستطيع الاهتداء الى معنى الحياة، أو الغرض من وجودنا هنا فى هذه الدنيا ؟** لقد ذكرت ليدى ستوكس الآن أنه (برتراند راسل) رجل متدين بمعنى خاص ، فاذا ما كان هذا يعنى الشخص الذى يثير هذا النمط من الاسئلة ، فانه من الواضح اذن أنه متدين ، حتى ولو كان ينكر وجود الله ، ولكنى أفضل أن أسمى هذا مزاجا فلسفيا أصيلا وهو يضرب لاصحاب الفكر الصريح الحر مثلا يجدونه مشجعا لهم ، حتى فى المواضع التى يصل فيها الى نتائج غير مقنعة • **وعلى هذا فانى أظن أنه قد أثر على هذا النحو تأثيرا عظيما •**

كى : وما قولك فى القضايا العظيمة والحملات التى وقف بكل كيانه مساندا لها ، مثل تحرير المرأة ، والاصلاح الجذرى فى المواقف والاتجاهات الجنسية ؟ **هل حدثت هذه ، فى الواقع ، بسببه، أم أنها كانت معاصرة لافكاره فحسب ؟**

ليدى ستوكس : ان الذكرى الاولى التى أحملها له كانت بوصفه نصيرا للحركة النسائية، يعمل بالاشتراك مع زوجه الاولى ، ومع حركة تحرير المرأة كلها • وأظن أن هذا كان جزءا من

ميراثه الذى استمده من مذهب حزب الاحرار فى عصر الملكة فكتوريا ٠واذا ما قرأت خطابات أمبرلى amberly فسيتكشف لك أنه لا يعرف أبويه **فلم تتح له الفرصة ليعرفهما ، ولكن قدرا عظيما** من والديه موجود فيه ، من كلا والديه : **أبيـه وأمه :** هو الاتجاه المتشكك ، وايمانهما العظيم بالمساواة ، فقد كانا فى الاصل ، ديموقراطيين ، وورث هو عنهما ذلك وأظن أنه قد أضفى لونا من الاحترام الاكاديمى على حركة تحرير المرأة ،ولقد ضحى بالكثير من أجل هذه الحركة ، كان يكره الانتخابات الفرعية ، والسياسـية ، والدعاية للحصول على أصوات الناخبين ، وما شاكل ذلك٠ ولكنه بهذا العمل كان يناضل من أجل قضـية عادلة ٠

« دور الانبياء فى الحياة العامة »

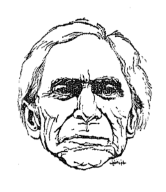
سانت جون ـ ستيفاس : ان دوره فى الحياة العامة ، كما يبـدو لى ، كان دور النبى ٠ فان الطبيعة لم تهبه ما يسميه « **ولتر باجوت** » ـ الملكات التى يتحسس بها طرقه نحو أهدافه ، وهى ضرورية وأساسية اذا ما كنت تنشد التأثير السياسى على الناس ، اذ يجب عليك أن تقـوم بسلسلة من الترضيات والتسويات للقـاء عند نقطة أو نقاط تحسم المنازعات ٠ أما هو فلم يكن راغبا فى القيام بهذه التنازلات مطلقـا ، وهذا يعطيه قوة عظيمة ، اذ يتيح له التمسك بمبادئه دائما ، وهذا هو الشىء الذى لا يسـتطيع أى سياسى أن يفعله حقا ، **اذ أنك حين تكون سياسيا لا تسـتطيع أن تكون نفسك الا الى حد محدود فحسب ٠**

كى : لقد كان ، على كل حـال ، يطالب بأن يأخذ الناس ما يقوله مأخذ الجد فى الشئون العامة فقد قال فى مكان ما من «**سيرته الذاتية**» أنه بعد **أن كتب « مبادىء الرياضيات » هجر الرياضة والفلسفة الى الشئون الدولية ٠ وكأن ذلك سيكون عمله الجاد ٠ وانه ليبدو عجيبا أن يكون رجـل له مثل هذا العقل الجبار ، عديم التأثير الى هذا الحد فى مجال الشئون العامة ٠**

سانت جون ستيفاس : انى لأجد غرابة فى ذلك مطلقا فان الانسان يتوقع من شخص قد جعل من الفلسفة كل شأنه أن يكون غير مؤثر فى الشئون العامة ٠ ولا يتوقع منه ، فى الحقيقة ، حتى مجرد أن يريد الاسهام فى الشئون العامة ٠ وأن المهـم فى لورد راسل أنه يريد ارادة مؤكدة واضحـة ـ أن يشارك فى الشئون العامة ، وأن هذه العاطفة القوية هى التى كانت تدفعـه قدما دائمـا :

ولكنى لا أظن أن الشعب الانجليزى يأخذ أقواله مأخذ الجد فى الشئون العامة والسياسة الانجليزية فلا أظن أن أعضاء مجلس العموم البريطانى ، مثلا يسألون أنفسـهم **هذا السـؤال : « ماذا قال برتراند راسل ؟ »** نعم قد يكون له تأثيره من حيث هو مظهر للضمير فى ذاته ٠ وقد يكون له أيضا ، تأثيره فى صورة سلبية اذ يستخدمه آخرون لخدمة أغراضهم الشخصية ، ولكنى لاأظن أنه ربما كان بمقدوره الدفاع عن زعم بأن له تأثيرا سياسيا عميقا فى زمننا ٠

هامبشاير : ولكن هل ينبغى لنا أن نفترض أن مكان الفلاسفةالصحيح ليس فى الشئون العامة؟ اننى أعنى بذلك أن الفلاسفة أفلاطون ، وأرسطو ،



واسبينوزا ، وهيوم ، ولوك ، وغالبية الفلاسفة العظام من أمثال ميل ، قد اختصوا أنفسـهم جميعا ، بقضايا أساسية متعلقة بالمسائل الاخلاقية والشئون العامة ٠ انه لمن الصـعوبة بمكان أن نتصور كيف يمكن أن ينفصل هذان الشيئان ٠

سانت جون ستيفاس: ان الفلاسفة لم يحرزوا نجاحا كبيرا جدا فى مشاركتهم فى الشئون العامة٠ ولأضرب لذلك مثلا بالفيلسوف « ميل » فأظن أنه ارتكب خطأ فاحشا بدخوله البرلمان ، فلم يكن له تأثير فى البرلمان فى الشئون العـامة ، وكل ما جناه من حياته البرلمانية هو أنها صرفته عـن

القيام بالاعمال التى كان يحسنها ، والتى كانت ترقى بفلسفته وتفكيره .

ليدى ستوكس . ولكنه ألف حقا كتابا : « **عن الحرية** » وحينما أعيد قراءة ذلك الكتاب فانى أعتقد أن هذه القراءة الثانية ، بصورة ما ، هى الكلمة الأخيرة حقا عن مفهوم الحرية السياسية والاجتماعية . وأنا أعنى بذلك أن هذا الكتاب قد أصبح اليوم مرجعا أساسيا فى هذا الموضوع .

سانت جون : حسن ، هل يمكنك أن تشيرى الى كتاب مشابه ، ألفه برتراند راسل ، تضعينه فى تلك المرتبـــــة مع كتاب « **عن الحرية** » لجون ستيورت ميل ؟

ليدى ستوكس : لا ، لا أستطيع .

سانت جون : وهل تستطيع أنت، يا هامبشاير « **زيادة تبسيط المشاكل السياسية** »

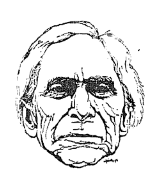
هامبشاير : لا ، فلا أظن أن برتراند راسل قد حقق تماما هـــذا النمط من الصـــلة الوثيقـــة بالسياسة ، وانى اوافق على ان له نمط العمل الذى يسرف اسرافا عظيما فى تبسيط المشاكل السياسية . فحينما يتجه الى معالجة موضـــوعات محددة فهو يفترض أنك تستطيع أن تكون موقنا مثلما توقن بالمسائل الرياضية أو القضايا المنطقية فمثلا ، برنامج « وجها لوجه » ، حينما (١) يلمح جون فريمان John Freeman .

(كان هذا التلميح فى أربعينات القرن العشرين المتأخرة ، وهو أن الولايات المتحدة يجب أن تهدد الروسيا بهجوم نووى لتمنعها من صنع قنبلتهـــا الذرية) الى أن هناك شيئا غريبا فى وجهة نظره عن القنبلة الذرية ، رد راسل بقوله : « **حسن ، انها مطابقة لوجهات نظرى الاخرى** » وطرح هذه الفكرة المنطقية المتعلقة باتساق وجهات النظـــر بعضها مع البعض يبدو لى هنا مفتقرا الى التفكير السياسى الواقعى الى حد ما .

كى : وربما كان هذا فعلا ما جعله عديم الفاعلية فى الشئون العامة ، فربما كنت لا تستطيع أن تعمل عملا نافذ المفعول فى ذلك الميدان بدقة تعدل التحليل الجراحى الدقيق فى كل شأن من الشئون على حدة ، كما تفعل فى الفلسفة .

هامبشاير : لقد كان أول كتـــاب ألفه ، عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها فى مدرسة لندن للعـــلوم الاقتصادية ، ويسمى « **الديموقراطية الاشتراكية الألمانية** » واشتمل على أحسن مناقشة للنظرية الماركسية بالغة الانجليزية .

أما الكتاب الثانى فكان عن « أسس الهندسة» والحق أن المرء ليخطىء كل الخطأ لو اعتقد أنه كان فيلسوفا عظيما انصرف الى السياسة : فقد كان للاثنين دائما عمق متساو فى طبيعته . فلم يكن راسل أكاديميا قط ، اذ لم يدخل جامعة ، فيما خلا فترات قصيرة جدا ، وهذا يحرره من التمسك بالنظم والشرائع القائمة فى المجتمع ، ويمكنـــه **من أن يتحدث كانسان الى حشد عظيم من الناس، ربما لا يكونون متفقين معه ، ولكنهم يشعرون أن هذه ظاهرة مشرفة تعطيهم الأمل** .



ليدى ستوكس : ان شيئا واحدا ، على حسب ظنى ، يحبب فيه المفكر الشاب العادى ، وهو أن بوسعه أن يتحمس حماسا عارما لقضية من القضايا ويقول ما يبدو لكثيرين منا أشياء فيهـــا شىء من الحماقة .

« أستاذ الاتصال بالجماهير »

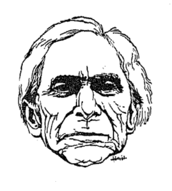
سانت جون ستيفاس : وهو ، بالطبع ، أستاذ عملية الاتصال بالجمـــاهير وعلى الرغم من أنه ذو شعور قوى واحساس فياض وعاطفة قوية ، فان ذلك الشعور يعبر عنه من خلال أشكال أدبيـــة تخضع لسيطرة دقيقة جدا ، والذى يصغى اليه فى حديث اذاعى يتأثر بجمال اللغة ورقتها الى أبعد حـــد .

كى : لقد وجد د . هـ . لورانس فى دعوته (برتراند راسل) للسلام والقضاء على الحـــرب مثارا للشك سيكولوجيا ، فكتب الى راسل يقول:

« أنت ممتلىء بالرغبات المكبوتة التى بلغت حد الضراوة وأصبحت مضادة لكل ما هو اجتماعى وتظهر فى صورة الحملان تدعو للســــلام » • هل تظنين أن فى هذا القول معنى ما ؟

ليدى ستوكس : لا ، فأنى فى الحقيقة والواقع لا أقيم وزنا لأى شىء قاله د•هـ• لورانس عن أى شخص • لقد كان شخصا فضوليا ، معذبا عليلا • فلم يكن له قط نمط الصلات العقليـة التى يتمتع بها راسل • ولم يكن يعرف ما اذا كانت هذه الصلات •

سانت جون ستيفاس : أظن أنه قطعة من الهجاء على مذهب فرويد ، فحسب •



هامبشاير : انى أود أن أقول شـــيئا ما فى صالح لورانس : انى أعتقد أنه ها هنا على شىء من الصواب • ذلك لأن راسل يصف نفسه فى « **سيرته الذاتية** » وفي مواضع أخرى أحيانا ، مؤكدا ، بأنه قد هبط الى أرض البشر الفـانين العاديين كغيره ، ولكن فى حال أو وضع آلهى الى حـد ما • فهناك وصف له يصوره وهو يقيم فى فندق ، وهو يعلق علي بقية النزلاء فى هـذا الوصف الذى جاء ضمن رسالة كتبها الىشخص ما كأنه قد هبط حقا بين ناس من بنى البشر العاديين وهاهنا نوع من المفارقة ، لأنه بارع فى مخاطبه عامة الناس • والعامة ممن هم على شاكلة النزلاء يحبون أن يكون بينهم أشخاص يشبهون الآلهة•

سانت جون ستيفاس : أليس هو الذى يقول انه لا يمـكن أن يعتبر نفســـه والذين يؤيدون القضايا التى يؤمن بها شخصا واحدا ؟ انى لأظن للمرة الثانية أن ذلك تعبير عن هـــذه الفردية الشديدة التى تجعله بمعزل عن الآخرين ، واذن فلا تصنع فيه الزعيم والقائد السـياسى الحقيقى المستعد للخدمة والعمل •

ليدى ستوكس : أظن أن ذلك ، بصـورة أو بأخرى ، كان أمانة عقلية من جانبه : فكثير من الناس يشعرون هذا الشعور حينمـــا يدخلون معمعان القضـــايا الشعبية مع أناس أوفى منهم شهرة وأقل امتيازا ، عقليا •

سانت جون ستيفاس : أظن أن اهميته تظهر فى فصل « **العقيدة** » وهو الجزء الثالث من مقدمة « **سيرته الذاتية** » ، حيث يتحدث عن حنانه وعطفه ولكن هذا الحديث ضرب من المشاعر التى يمكن اخراجها عن دائرة السياسة المألوفة ، والحقيقة التى لا مراء فيها هى أنه يؤكد شعوره القوى بهذه القضايا ـ انه يشعر بالعطف الشديد على شعب فيتنام الذى يعانى ويلات الحرب ـ وشعوره هذا مشاركة نافعة واسهام مجد الى درجة كبيرة ، يذكر النـــاس فى كل مكان بأن مأساة هـــذه الصراعات السياسية هى مافيها من آلام للرجال العاديين والنساء العاديات •

ليدى ستوكس : أظن أن ذلك أعظم ما كتب ، وهو يظهر واضحا جدا فى المجلد الاول من « **سيرته الذاتية** » • وانى أذكر بصفة خاصة سلســـلة من الخطابات كتبها الى صديقة أمريكية له • كانت قد فقدت أعز أصدقائها وألصقهم بها كما كان لها صاحب وزميـــل عمل • كانت تلك الخطابات تجيش بالفهم وتحفل بالحنـــان • فهو حقا يحمل

الشعور نفسه الذى تحمله هى . **وأرى أن فى هذه المقدرة يكمن تأثيره العظيم اليوم على الشباب فربما كان بعضهم لا يوافق على الجلوس خارج السفارةالامريكية وعلى الكثير ممايقوله عن سياسة الرؤساء الامريكيين ، ولكنهم يشعرون بالتأكيد ان هنا رجلا عجوزا يقترب نهاية حياته . يعنى عناية فائقة جدا بهم وبالعالم الذى سوف يعيشون فيه ، هذا العالم الذى لن يعمر حتى يراه .**

سانتجونستيفاس: أظن أن ذلكصواب. وأنا يستهوينى هذا التفاؤل الذى لا تخمد جذوته أبدا وهذا ما يراه الشباب أنفسهم . وأيضا اذا ما جاز لى أن أضيف تفسيرا آخر الى ما قد ذكرته ليدى ستوكس الآن ، فانى أظن أن برتراند راسل يستهوى الشباب ويجذبهم نحوه ، لانه مثل محطم الأصنام وفاضح الأباطيل . والشبان يشبهون من يقذف المعبودات بالأحجار ، وخاصة اذا ما كان قاذفا قديرا يستطيع أن يضفى قدرا من الاحترام على قذفه الاحجار .

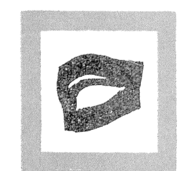
هامبشاير : نعم ، ولكن قذف الاحجار وتحطيم المعبودات يخفى وراءه تشاؤما معينا أيضا، وليس تفاؤلا فحسب ، يعطيه عمقا وأصالة يتجاوب معها الناس . ففى اذاعاته تستطيع أن تسمع ان تحطيمه للمعبودات ليس هو نمط التحطيم الذى يقوم به رجل ذكي ذو آراء نيرة وأفكار متعمقة عن الاحداث الجارية . بل ان الامر على خلاف ذلك : فهناك احساس بأن من الصعب تماما الاحتفاظ بأى شكل من الحياة الانسانية الطيبة المعتدلة وأظن أنه كان دائما يحس بهذا احساسا قويا .

سانت جون ستيفاس : ان العالم سيخسر خسارة فادحة فى المستقبل لو لم ينجب شخصا آخر من طراز راسل . انه راديكالى لحما ودما وهو واحد من أعظم مبررات الراديكالية .

هامبشاير : أظن أن عظمته تكمن فى مقدرته على اظهار مايمكن أن يفعله الانسان : ان نشاطه المدهش الرائع وقوته الفكرية الابتكارية قل أن يوجد لها نظير .

ترجمة : سليم الاسيوطى

الفكر المعاصر



العـدد ٥٧ نوفمبر ١٩٦٩



مجلة

الفكر المعاصر

رئيس التحرير :

د . فؤاد زكريا

مستشارو التحرير :

د . أسامة الخولى
أنيس منصور
د . عبد الغفار مكاوى
د . فوزى منصور

سكرتير التحرير :

جلال العشرى

المشرف الفنى :

صفوت عباس

تصدر شهريا عن :
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والنشر
٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة
ت: ٩٠١١٩٧/٩٠١٢٩٩/٩٠١٦٤٨

العدد
السابع والخمسون
نوفمبر ١٩٦٩

ص

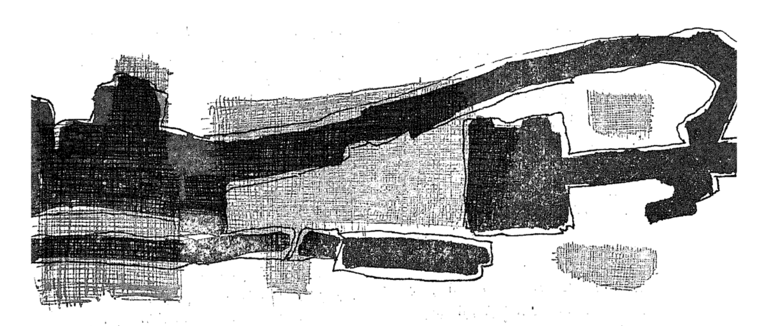
كتب جديدة :

حول فكرة الاتصال في تاريخ الفلسفة

د. فؤاد زكريا

في مقال سابق بعنوان ((تاريخ الفلسفة وتاريخ العلم)) (الفكر المعاصر ، العدد ٤٧ ، يناير ١٩٦٩) حاولنا تحديد بعض السمات المميزة لتطور الفكر الفلسفي ، بالقياس الى تطور العلم ، وانتهينا الى بعض النتائج التي أعتقد أن من المفيد اعادة عرضها بايجاز قبل استكمال بحث هذا الموضوع:

١ ــ أولى هذه النتائج ان تاريخ العلم لا يؤلف جزءا أساسيا من العلم ذاته ، بل هو دراسة هامشية تنتمي الى مجال التاريخ عامة ، لا الى



مجال العلم . **أما تاريخ الفلسفة فينتمى الى صميم الفلسفة ، بحيث أن حركة الجدل التى يمثلها الحوار بين المذاهب الفلسفية فى مختلف عصور التاريخ هى جـزء لا يتجزأ من عمليـة التفلسف ذاتها .**

٢ ــ ويترتب على ذلك أن الاتصال والانتظام فى تاريخ العلم امر واضح لا تخطئه العين ، على حين أن **تاريخ الفلسفة يبدو سلسلة من المحاولات المنفصلة التى لا تتراكم خلالها مجموعة ثابتة من الحقائق** . بل ان هذه السـمة تعد هى الطابع المميز للفلسفة ، وليست على الاطلاق مظهرا من مظاهر القصور والنقص فيها ، كما عاب عليها « كانت » .

٣ ــ أن هناك نوعا من « النقيضة » فى دراسة تاريخ الفلسفة ، وربما فى كل تاريخ بوجه عام . فالظواهر التى يكون لها تاريخ حقيقى ، اى التى تمر بتطور يؤدى القديم فيه الى الجديد ويمهد له ، يمكن الاستغناء عن دراسة تاريخها دون أى انتقاص من درجة معرفتنا بها ، أما الظواهر التى لا يكون لها تاريخ بالمعنى الصحيح ، اى لا تتميز بتعاقب منتظم أو بترتيب منطقى حتمى ، فهى التى تؤلف دراسة تاريخها جزءا لا يتجزأ منها . وبعبارة أخرى **فدراسة التاريخ لا تكون لها قيمة حين يكون للظواهر التى تدرسها تاريخ حقيقى، بينما تصبح دراسة التاريخ أساسية فى حالة كل ظاهرة ليس لها تاريخ بالمعنى الصحيح .**

على أن الأسـاس الذى قامت عليه هذه « النقيضة » هو الاعتراف بأن تاريخ الفلسفة يتخذ طابع المحاولات الفردية التى لا يربط بينها خيط منتظم . وبالفعل يسود رأى واسع الانتشار ، يذهب الى أن صفة الانفصال هى المميزة لحركة الفكر الفلسفى ، وان المذهب الفلسفى انبثاق فجائى ظهر فى ذهن عبقرى

بفضل قدراته العقلية الخاصة ، وكان من الممكن أن يظهر — دون أى تغيير كبير — لو أن هذا الذهن قد قدر له أن يحيا قبل الفترة التى عاشها فعلا أو بعدها بزمان طويل .

تلك النظرة الفردية الى الفلسفة جزء من منظور فردى أوسع وأعم بكثير . فهى فى واقع الأمر مظهر من مظاهر نظرة الى الحياة تجعل الظاهرة الفردية — فى تميزها واختلافها وطابعها الفريد — أساسا لتفسير كل شىء . وفى مثل هذه النظرة الى الحياة يكون التاريخ بأسره ، لا تاريخ الفلسفة وحدها ، مجموعة من الحوادث المتلاحقة التى يقوم بها « أفراد » ممتازون ، ويسود الانفصال المطلق كل ظواهر الحياة الانسانية ، ويكون الزمان الذى تجرى خلاله وقائع التاريخ زمانا آليا بحتا ، أى سلسلة متعاقبة من اللحظات ، وليس على الاطلاق خطا متصلا يمهد أوله لأخره ، ولا يفهم اللاحق فيه الا على أساس السابق .

وجدير بنا أن نشير الى صفة مميزة للتاريخ الفلسفى ، تجعل ادراك عناصر الانتظام والاتصال فيه مهمة شاقة الى أبعد حد . فمن المعترف به — كما قلنا فى مقالنا السابق — أن العلوم الانسانية بأسرها تعانى من هذه الصعوبة ، نظرا الى تعقد موضوعها وخفائه وصعوبة التزام الموضوعية الكاملة فيه . **ولكن هذه المشكلة تزداد تعقيدا فى حالة الفلسفة لأن العرض التاريخى لها هو ، الى حد بعيد ، ((اعادة خلق)) . فالمشكلات القديمة لا تزال حية لم تندثر ، ولا توجد فى الفلسفة منذ ظهورها أيام اليونان حتى اليوم مشكلة يمكن أن توصف بأنها ذات أهمية ((تاريخية))** فحسب ، بل ان أبعد المشكلات عن طريقة تفكيرنا الراهنة لا تخلو من عناصر تثير تفكيرنا وتدفعه الى أخذها مأخذ الجد . ومن هنا لم يكن مؤرخ الفلسفة مجرد راوية يسرد أحداثا لم تعد لها صلة به ، بل هو — بمعنى معين — أقرب الى الشاعر الذى يتمثل مشاهداته ومعلوماته ويعيد خلقها من جديد . وحين تكون اعادة الخلق هذه ضرورة لازمة ، لا يعود هناك مفر من أن تتعدد نظراتنا الى تاريخ الفلسفة وتصوراتنا له . وبعبارة أخرى ، **فحتى لو لم يكن تاريخ الفلسفة سلسلة من الانبثاقات الفكرية والمنفصلة فى اذهان صانعيه ، فانه يغدو على هذا النحو فى أذهان رواته وكتابه وشارحيه وحتى لو كانت طريقة صنع تاريخ الفلسفة متميزة بالاتصال والانتظام ، فان طريقة عرض هذا التاريخ لا يمكن أن تخلو من عنصر الانفصال والعشوائية .**

ولنضف الى العوامل السابقة عاملا آخر ربما كان هو أهم أسباب انتشار النظرة الفردية العشوائية الى تاريخ الفلسفة : ذلك لأن الكثيرين يتصورون أنهم يحطون من قدر الفلسفة والفلاسفة اذا تصوروا تاريخها على أنه خط متصل يتسم بأى نوع من الانتظام . **ان الفلاسفة هم عباقرة العقل الانسانى ، والعبقرى لا بد أن يكون متفردا ، لا يخضع لقانون حتمى ، يتحكم فى الأحداث ولا يدعها تتحكم فيه . وأى نوع من « المنطق » المنتظم فى مسار التاريخ الفلسفى** معناه أننا أخضعنا هذه الظاهرة العبقرية لقاعدة خارجة عنها ، وأننا بالتالى قد انتقصنا من قدرها . وربما كان أصحاب هذا الرأى على استعداد لأن ينكروا أهمية دور العبقرى الفرد فى التاريخ العام ، أما تاريخ الفلسفة فانهم لا يتصورونه الا تاريخ عقول فذة جبارة يصنع كل منها لتفكيره منطقه الخاص ، ولكنه يتحدى كل منطق خارجى يفرض على تفكيره مسارا معينا ويحصره فى اطار لا يفهم الا من خلاله .

على أن مثل هذا الفهم ينطوى على قدر غير قليل من السذاجة : اذ يفترض أن عبقرية الفيلسوف لا تتجلى على حقيقتها الا حين يكون تفكيره ظاهرة فريدة منعزلة عما يسبقها وما يليها . وحسبنا أن نجرى مقارنة بسيطة مع ميدان آخر غير الفلسفة لندرك مدى خطأ هذا التصور : فمن المسلم به أن بيتهوفن كان أعظم عباقرة الفن الموسيقى ، وأنه فى هذا المجال يعد

أصدق ممثل للظاهرة الفردية التي يستحيل أن تتكرر . ومع ذلك فمن المسلم به ــ بنفس القدار ــ أن بيتهوفن يمثل فى تاريخ الموسيقى مرحلة محددة لا تفهم الا فى ضوء ما سبقها وماتلاها . ولا يمكن أن ينقص من عبقريته على الاطلاق ادراكنا لموقعه التاريخى ، وفهمنا لفنه على انه مرحلة فى تاريخ متصل يتسم مجراه بنوع من الانتظام .

ولا بد أن تؤدى النظرة الموضوعية ، التى تعلو على الرومانتيكية الساذجة عند أصحاب نظرية « العبقرية الفردية » ، الى الاعتراف بنوع مماثل من الانتظام والاتصال في تاريخ الفلسفة ، وان كان من المستحيل ــ كما ذكرنا في مقالنا السابق ــ أن نتصور مثل هذا الانتظام على أنه يسير فى خط واحد مستقيم متصاعد تدريجيا ، كما هو الحال فى تطور العلم .

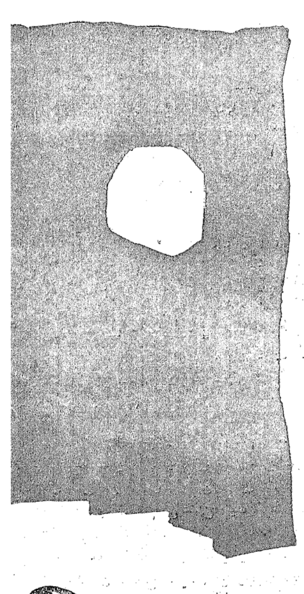
فما هو اذن مصدر هذا الانتظام ، الذى نعترف بأنه شديد التعقيد الى حد قد يختفى معه فى كثير من الأحيان عن الأعين تماما ؟ **ان مصدره هو الانتظام فى تدرج حياة الانسان نفسها ، واستحالة فصل التاريخ الفلسفى عن التاريخ الانسانى العام .** وهكذا يتعين علينا فى هذه المرحلة ان نصحح ما يقال عن وجود تقابل شديد قاطع بين طريقة تطور الفلسفة وطريقة تطور العلوم الدقيقة . فهناك بالفعل اختلاف كبير بين الطريقتين ، ولكن هذا الاختلاف لا يصل الى حد الانفصال أو التضاد التام . ولو اعترفنا بهذاالانفصال لكان فى ذلك تفتيت لوحدة العقل البشرى ، الذى يستحيل أن يسير تبعا لمنهج دقيق فى بعض ميادينه ، ويسير دون أى منهج على الاطلاق فى بعضها الآخر . فلابد من الاعتراف بوحدة في الظواهر البشرية ، ولابد من تأكيد التأثير المتبادل بين هذه الظواهر . ولو كان العلم هو وحده الذى يسير بانتظام ، والفلسفة لاتتبع أى نظام ، لكان معنى ذلك اننا لا نعترف بوجود أى تأثير للعلم فى الفلسفة ، أو للفلسفة فى العلم ، وهذا خطأ يمكن اكتشافه بسهولة اذا تتبع المرء تاريخ العلاقة بين هذين الميدانين . وعلى ذلك فأصل الاشكال هو الاعتقاد بامكان قيام نوع من الفلسفة يظهر تلقائيا من العقل البشرى دون أى تأثر بظروف عصره ، وبامكان انفصال الفلسفة عن سائر ميادين نشاط هذا العقل ــ وهو اعتقاد باطل كل البطلان ، لأن الذهن البشرى وحدة لا تنفصم . وعلى أية حال فان كشف التطور الفلسفى ، اذا كان امرا شاقا داخل نطاق الفلسفة ذاتها ، فانه يغدو أيسر كثيرا اذا تأملناه من خلال التطور العام للتاريخ البشرى فى مختلف مظاهره الحضارية والثقافية ، وعندئذ يختفى التضاد الشديد بين طريقة تطورها وطريقة تطور العلوم ، ويكون من الواجب اتباع منهج مشابه فى الحالتين ، مع اعترافنا بأن كشف مسار هذا التطور فى حالة الفلسفة أصعب كثيرا منه فى الحالات الأخرى .

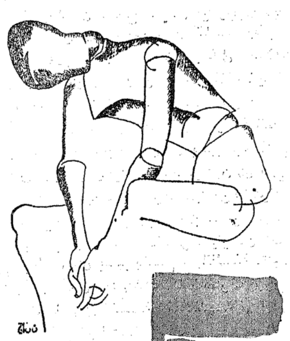
الآراء المختلفة فى طبيعة التطور الفلسفى :

نستطيع ، فى ضوء التحليل السابق ، أن نستخلص رأيين أساسيين فى طبيعة التطور الفلسفى ، يمكن تلخيصهما بوجه عام بأنهما رأى يقول بأن هذا التطور يفتقر الى كل النظام ، ورأى آخر يقول انه تطور منتظم . وسوف نعرض أمثلة لكل من هذين الرأيين ، وتعد هذه الأمثلة بالفعل تطبيقا عمليا للمناقشة العامة السابقة .

نظريات الانفصال :

الرأى القائل بعدم انتظام التاريخ الفلسفى يمكن أن يكون راجعا الى أسباب مختلفة ، من أهمها وأوضحها بطبيعة الحال عدم وجود معلومات كافية عن التطورات الفلسفية السابقة. وهكذا كانت الحال عند بداية الفترة الحديثة فى كتابة التاريخ الفلسفى فى عصر النهضة الاوروبية. فلم تكن هناك من المواد ، أو من الدراسات النقدية ، مايسمح بتكوين نظرة جامعة الى التاريخ السابق ، أو بادراك الخطوط الكبيرة التى يسير فيها التطور الفلسفى . وهكذا كانت دراسة الفلسفة في ذلك الحين هى دراسة لشيع أو





طوائف منفصلة ، وكانت طريقة عرض الفلسفات السابقة هى طريقة السرد أو الرواية . ومن الواضح أن هناك تشابها بين هذه الطريقة وبين الطريقة القديمة فى كتاب التاريخ بمعناه العام : اذ كان المؤرخون القدماء ، كما هو معروف ، يسردون الوقائع فى تتابعها الزمنى دون أية محاولة لاستخلاص تيارات عامة فيها ، ودون كشف للعلل المتحكمة فى مسار هذه التيارات ، أما الطريقة الحديثة فى بحث التاريخ ، فتحتاج الى مقدار من التعمق ، وكذلك الى قدر من المعلومات والوقائع ، لا يتوافران لدى المؤرخين القدماء .

ومن الواضح أن هذه النظرة التجزيئية الى تاريخ الفلسفة تؤدى الى الحط من مكانه الفلسفات السابقة : اذ أنه كلما تعددت المذاهب وتناقضت ردودها واجاباتها ، كان ذلك مؤديا الى المزيد من الشك فى قيمتها ، ما دامت كل منها تعد منفصلة تماما عن الأخريات . **وهكذا كان الكثير من مؤرخى الفلسفة فى هذه الفترة ، بل من الفلاسفة أنفسهم ، ينتهون الى اتخاذ موقف الشك فى قيمة الفلسفة بوجه عام (مونتنى ، بيكن) .**

على أن هذا القول بعدم انتظام مسار التاريخ الفلسفى لم يكن راجعا فقط الى العجز عن تكوين نظرة عامة بسبب قلة المواد المعطاة أو نقص المعلومات المتوافرة ، وانما يمكن أن يكون له سبب مضاد : فاذا توافرت المواد اكثر مما ينبغى ، واذا ازداد التخصص بحيث يركز الباحث جهوده كلها على فترات محدودة قصيرة الأمد ، أو على مشكلات خاصة ضيقة النطاق ، **فعندئذ ينصرف بطبيعة الحال عن اصدار الاحكام العامة الشاملة على فترات تاريخية كبيرة ، ويرى فى هذه الاحكام خروجا عن روح البحث العلمى الدقيق ، بالمعنى الذى يفهمه لهذه الكلمة .** ولهذا الاتجاه أهمية كبيرة فى الفترة الحالية من تاريخ الأبحاث الفلسفية ، حيث يزداد التخصص بين الباحثين ويمد فى كثير من

الأحيان شرطا اساسيا للبحث السليم . وكلما اراد المرء التعمق فى أبحاثه ، وجد نفسه مضطرا الى تضييق نطاق هذه الأبحاث ، بينما ينظر الى الأبحاث الواسعة النطاق على أنها سطحية . وحتى لو أتيح له التعمق في عدة مذاهب تنتمى الى فترات مختلفة ، فان هذا التعمق ذاته كفيل بأن يكشف له عن اختلافات أساسية بينها يستحيل ردها الى عنصر مشترك ، ويجعله يخشى اصدار الاحكام العامة التى قد يكون فيها تزييف للتاريخ وضياع للدقة التى اعتادها فى بحثه .

وهناك أخيرا سبب ثالث لامتناع الباحثين عن القول بوجود انتظام فى التاريخ الفلسفى . ذلك السبب هو **النزعة الثورية** . ففى الفترات التى تشتد فيها الثورة على القديم ، يقلل المفكرون من شأن الماضى ويؤكدون أن من الواجب تركه جانبا ، وتكون أبغض الافكار الى أذهانهم هى الفكرة القائلة بوجود ارتباط سببى بين الماضى والحاضر ، لأنهم يريدون ان تظهر أفكارهم فى صورة خلق جديد تماما ، يثور على الماضى ولا يكمله . وهذه هى الصفة التى كانت تتميز بها نظرة الفلاسفة فى أوائل العصر الحديث ، مثل ديكارت وبيكن ، الى التاريخ الماضى للفلسفة .

ومثل هذا يقال أيضا على كل اتجاه فردى حديث ، يدعو الى الثورة على القوالب الجامدة فى الفلسفة، والتخلى عن الروح التعميمية المفرطة ففى مثل هذه الاتجاهات ، **تكون الفلسفة الحقيقية وثيقة الصلة بالشخصية الفردية ، وتعد مظهرا من مظاهر النشاط الباطنى للنفس، بحيث أن أية محاولة لكشف اتصال واستمرار فى تاريخها تكون محاولة متعلقة بالسطح الظاهرى للفلسفة ، لا بكيانها الباطنى الاصيل** . ومن أوضح الامثلة لهذه النظرة الى طبيعة التطور الفلسفى، رأى فيلسوف وجودى مثل ياسبرز . فعنده أن كل فلسفة لها اصالتها المطلقة ، ولها طابعها الفردى التام . وهى لا تتكرر ، ولا يطرأ عليها زيادة أو نقصان ، ولا يمكن ان تعدل أو تقوم ، بمضى الزمان ، وانما تظل لها على الدوام قدرتها على الايحاء .. فكل فلسفة كاملة فى نطاقها الخاص ، لأنها نتاج أصيل لوجود حر تلقائى . وفى هذه الحالة لا يكون للفلسفة من قيمة الا من حيث تعبير ذاتى ، له فى حدوده الخاصة قيمته المطلقة ، التى لا تستمد من أية علاقة له بغيره من التعبيرات ، أى أن كل فلسفة تبعا لهذا الرأى ، مقفلة على نفسها ، ولا تقبل ان تكون أى مركب مع غيرها من الفلسفات .

نظريات الاتصال

هناك مجموعة أخرى من النظريات تذهب الى عكس النظريات السابقة تماما ، فتؤكد أن فى تاريخ الفلسفة نوعا من الانتظام الذى قد يكون من الصعب ادراكه لأول وهلة ، ولكنه موجود على أية حال ، وكل ما علينا هو أن نبذل الجهد الكافى لكى نهتدى اليه .

وكان من الطبيعى ان يتحمس لفكرة التطور الفلسفى المنتظم والمتصل دعاة التقدم من الفلاسفة عند نهاية القرن الثامن عشر . فهم يرون أن الفلسفة ، شأنها شأن كل نشاط عقلى أو مادى آخر للانسان ، قد سارت فى طريق التقدم التدريجى ، ابتداء من الفلسفة اليونانية التى بلغت قمتها عند سقراط وأفلاطون وارسطو ، حتى العصر الحديث الذى بلغ أعلى نقطة في تطوره عند ديكارت ، مارة بالعصور الوسطى التى كانت تمثل نكسة للفلسفة .

وظهرت فى القرن التاسع عشر عوامل متعددة تؤدى الى تقوية هذا الاتجاه ، اهمها دون شك **النزعة التاريخية** التى كانت تميل الى تفسير كل الظواهر من خلال تاريخها ، لا على أن لها طابعا مطلقا يفهم بذاته . وهكذا ظهرت فى ذلك القرن محاولات متعددة لاظهار الانتظام فى مجرى التاريخ الفلسفى ، من أهمها محاولتا **كونت وهيجل** .

ففى فلسفة **أوجست كونت** اتجاه الى ربط الفلسفة بالمجرى العام للتاريخ الانسانى . وهو يؤكد استحالة فصل المراحل العقلية الحالية

عن المراحل الماضية ، بل انها كلها ترتبط سويا فى خط واحد ، تكون كلها فيه خطوات نحو تحقيق التقدم البشرى العام . وهكذا تنكر هذه الفلسفة حدوث تحولات أساسية فى الفكر البشرى من اتجاه الى اتجاه مضاد ، وانما تسير المذاهب الفكرية كلها فى طريق متصل ، تؤدى فيه كل مرحلة الى المرحلة التالية بالضرورة ، ولا يمكن أن يرجع الى الوراء ، **وبلغ الأمر بكونت الى حد تأكيد أن فلسفة العصور الوسطى أعمق وأكمل من الفلسفة اليونانية القديمة ، وهو رأى يخالف دون شك ما اتفق عليه معظم مؤرخى الفلسفة .**



على أن أشهر هذه المحاولات لاثبات وجود انتظام فى مجرى التاريخ الفلسفى هى دون شك محاولة **هيجل** . فهيجل لا يرى فى كثرة المذاهب الفلسفية مظهرا من مظاهر ضعف الفلسفة ، أو دليلا على تهافت هذه المذاهب ، وانما لا يوجد فى نظره تعارض بين هذه الكثرة فى المذاهب وبين وحدة الروح البشرية . **فتاريخ الفلسفة يكشف فى رأيه عن فلسفة واحدة ، تمثل المذاهب المختلفة مراحل متباينة لنموها** . وهكذا تكون كل فلسفة متأخرة ، فى رأيه ، نتيجة لجميع الفلسفات التى سبقتها ، وتتضمن فى ذاتها كل ما تنطوى عليه تلك الفلسفات من مبادىء . وعلى حين أن القول بفلسفات كثيرة منفصلة يؤدى حتما الى انكار قيمة هذه الفلسفات أو الشك فيها ، فان **القول بفلسفة واحدة لها مراحل متباينة فى نموها ، يؤدى الى الاعتقاد بضرورة كل مرحلة من هذه المراحل ، وبحتمية هذا التاريخ السابق الذى يستحيل فهم احدى حلقاته دون الأخريات** وبذلك تصبح للمذاهب كلها ضرورتها وقيمتها فى التطور الفلسفى العام . ويعبر هيجل عن رأيه هذا من خلال مصطلحاته الخاصة ، فيقول **ان تاريخ الفلسفة انما هو نمو روح حية واحدة ، تدرك ذاتها بالتدريج ، وهى يكشف خلال الزمان عما تكشفه الفلسفة ذاتها بطريقة أزلية خالصة.**
أى أن من وراء التطور الزمنى للتاريخ الفلسفى توجد روح تكشف عن نفسها بالتدريج ، وتوجه مراحل هذا التاريخ بانتظام . وهكذا يتعين على المرء أن يكون فيلسوفا لكى يستطيع البحث فى التاريخ الفلسفى ، اذ أن كشف الروح الكامنة من وراء هذا التاريخ لا يتسنى الا للفيلسوف . وكما أن هناك عقلا واحدا ، لا عقول كثيرة ، فكذلك لا توجد الا فلسفة واحدة ، لا فلسفات كثيرة ، وهذه الفلسفة الواحدة لا تتكشف الا للفيلسوف نفسه فى مراحلها المتعاقبة ، وفى غايتها الواحدة .

ونستطيع أن نعلق على فكرة هيجل هذه بقولنا انه اذا كان يقصد بذلك أن من واجب الباحث فى التاريخ الفلسفى أن يكون لديه حس فلسفى سليم ، فان رأيه هذا يكون معترفا به من الجميع . أما اذا كان يقصد بذلك أنه لا بد للمرء من أن يكون لنفسه فلسفة كاملة قبل أن يستطيع البحث فى تاريخ الفلسفة ، فان هذا بالطبع أمر لا تؤيده التجربة ذاتها ، لأن المرء يستطيع فهم تاريخ الفلسفة بالحس الفلسفى وحده ، وليس تكوين فلسفة كاملة بالشرط الضرورى لهذا الفهم .

ومن الواضح أن هيجل قد أكد الاستقلال الذاتى للفلسفة ، وانفصالها عن سائر مظاهر النشاط الروحى أو العقلى ، بحيث أن تطورها يكتسب معنى ودلالة مستمدة من منطقها الداخلى ذاته . ولكن محاولته تخفق لهذا السبب ذاته : اذ أنها تفترض مقدما ايمان المرء بفلسفة هيجل نفسها ، وتفسيره للتاريخ الفلسفى كله على أساس أنه يتجه الى تحقيقها . أما بالنسبة الى أى مفكر آخر لا يؤمن بالفلسفة الهيجلية فلابد أن يكون انتظام التطور الفلسفى راجعا الى سبب آخر .

لذلك كان من الواجب ، كما أشرنا من قبل ، أن يحرص المرء دائما على الربط بين الفلسفة وبين مجموع المظاهر الأخرى للنشاط العقلى ، وعندئذ لن يعود من الصعب كشف الانتظام فى تطورها . فالفلسفة كانت دائما تستهدف ايجاد نظرة عامة الى مجموع المعارف العلمية للانسان، بل كانت أحيانا تزعم أنها علم شامل للكون بأسره. وهناك ارتباط وثيق بين الفلسفة وبين جميع مظاهر الحياة الروحيه ، من علم وفن وسياسة واجتماع . **وفى الفلسفة تتلخص القيم الروحية لأى عصر من العصور** . صحيح أن الفلسفة ترتبط أحيانا بوجه معين من الحياة الروحية أكثر مما ترتبط بوجه آخر : فتهتم أحيانا بالعلم ، أو بالسياسة ، أو بالأخلاق ، وتتأثر بجانب من الحياة الروحية أكثر مما تتأثر بجانب آخر ، ولكنها على الدوام متصلة بالمجموع العام للحياة الروحية في عصر معين .

وأخيرا ، فان **للماركسية** رأيا معروفا فى الربط بين الفلسفة وبين المرحلة التى يمر بها المجتمع فى علاقاته الانتاجية . **ومن الطبيعى أن تؤكد الماركسية اتصال التاريخ الفلسفى الذى يعد فى رأيها ، انعكاسا لعلاقات الانتاج على صفحة الوعى الانسانى ، والذى يعود بدوره فيؤثر فى هذه العلاقات تأثيرا تبادليا** . فالمسار الجدلى الذى يمر به تطور العلاقات العينية بين طبقات المجتمع، هو نفسه المسار الذى تعبر به الفلسفة ــ نظريا ــ عن هذه العلاقات . ومع ذلك فان الرأى الماركسى ، وان كان يؤكد من الناحية النظرية أن لكل فلسفة موقعا معينا داخل التطور العام للعلاقات البشرية ، فانه يقتضى معرفة كاملة بجوانب هذه العلاقات من أجل اصدار الحكم الصحيح على كل فلسفة بعينها ، وتحديد موقعها بدقة داخل المسار الديالكتيكى للتاريخ البشرى. **ومثل هذه المعرفة الكاملة تكاد تكون مستحيلة فى معظم الاحيان** ، ومن هنا كان التضارب فى تفسير المذهب الفلسفى الواحد ظاهرة لا يمكن أن توصف بأنها غير مألوفة بين الشراح الماركسيين . فكثيرا ما يحدث أن يؤدى استخدام نفس المنهج ، بالنسبة الى نفس المذهب الفلسفى ، الى تفسيرين متناقضين عند اثنين يصف هذا المذهب بأنه تقدمى ، والآخر يصفه يصف هذا المذهب بأنه تقدمى ، والآخر يصفه بأنه رجعى ، أو خليط من هذا وذاك . وربما لم يكن ذلك راجعا الى قصور فى منهج التفسير نفسه ، بقدر ما يرجع الى أن **هذا المنهج يفترض ــ قبل الشروع فى تطبيقه ــ معرفة وافية بكل جوانب الاطار الاقتصادى والاجتماعى الذى يظهر المذهب فى داخله ، وهى معرفة كثيرا ما يكون الوصول اليها أمرا عسيرا** ، فيكتفى الشارح بجزء غير واف منها ، ويقدم بذلك المذهب الفلسفى تفسيرا لا يدعمه أساس كاف من المعلومات .

وعلى أية حال ، فان الرأى الماركسى القائل بوجود نوع من الاتصال فى التاريخ الفلسفى ، يقدم الينا الجانب الآخر من العملة ، الذى كان يفتقر اليه الرأى الهيجلى ، وأعنى به **الربط بين الفلسفة وبين سائر أوجه الحياة العينية للانسانية** . فكما أن هيجل أكد ضرورة الربط بين الفلسفة وبين جوانب الحياة الروحية فى كل العصور ، فان الماركسيين ينبهون ، من زاويتهم الخاصة ، الى أن الفلسفة لا تفهم الا داخل الاطار الشامل لحياة الانسان المادية العينية . .

وسوء أكان القارىء ممن يفضلون هذا الرأى أو ذاك ، فالأمر المؤكد هو أن الاتجاه الحديث يميل على وجه العموم الى رفض النظرة القائلة أن الفلسفة تتطور بقواها الذاتية الخاصة .

فهى لا يمكن أن تكون ظاهرة منعزلة ، وانما هى تعكس ، وتلخص ، المجرى العام لحياة الناس وتفكيرهم في أى عصر من العصور ، وبذلك ينبغى أن تسرى عليها القوانين العامة التى تتحكم فى تطور هذه الحياة ، وان تكن علاقتها بالمظاهر الأخرى للحضارة تبلغ من التعقيد حدا لا يكون من السهل معه ، فى كثير من الأحيان ، ادراك ارتباطها بهذه المظاهر على نحو مباشر ، **برغم علمنا بأن هذا الارتباط موجود على الدوام** .

فؤاد زكريا

البرت لوتولى ..

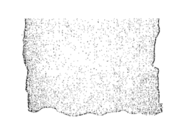
بعد عامين على مصرعه



احمد فؤاد بلبع

فى ٢١ يوليه ١٩٦٧ كان الرئيس ألبرت لوتولى يسير فوق جسر للسكك الحديدية عبر نهر أومفونى بالقرب من منزله ، حيث كانت اقامته محددة ، بأمر من حكومة جنوب أفريقيا ، بمعزله القبلى فى جروتفيل • وبينما كان على بعد أمتار من نهاية الجسر صدمه أحد القطارات من الخلف • ونقل لوتولى الى مستشفى ستانجر القريب من مكان الحادث ، حيث توفى هناك • وقالت الأنباء ان وفاته

كانت قضاء وقدرا ، وقد يكون الأمر كذلك ، بيد أن مسئولية ذلك الحادث المروع ، الذى راح ضحيته أعظم زعيم فى جنوب أفريقيا ، انما تقع مسئوليته ولا شك على عاتق السلطات العنصرية القابضة على زمام الأمور هناك • فقد ضعف سمع لوتولى وبصره فى الفترة الأخيرة من حياته ، ولم تكن العناية الطبية متوافرة فى معزله القبلى ، كما أن السلطات تلكأت طويلا قبل أن تسمح بنقله



لاجراء عملية جراحية فى دربان على بعد أربعين كيلو مترا من مكان الحادث ، بحيث كان الوقت قد تأخر كثيرا ٠

شىء عن نشأته

ولد الرئيس ألبرت جـون لوتولى (١٨٩٨ ـ ١٩٦٧) بمعزل جروتفيل باقليم ناتال بجمهورية جنوب أفريقيا ٠ وكان أبوه يعمل مترجمـا لدى احدى بعثات التبشـــير ، كما كان عمه الرئيس المنتخب لاحدى قبائل الزولو ٠ وقد تلقى تعليمه



لدى بعثة تبشير محلية ، ثم فى كلية آدم ، وهى مدرسة ثانوية تابعة لبعثة تبشير أمريكية ، حيث تخصص فى التدريس ٠ وظل فى كلية آدم يدرس تاريخ الزولو وآدابهم ٠



١ . لوتولى

وعند وفاة عمه التمس منه رجال القبيلة الأكبر سنا أن يشغل منصب الرئاسة الشاغر ، وتردد فى القبول لمدة عامين ، عزوفا منه عن العودة الى العالم القبلى الضيق . ومع ذلك ففى نهاية الأمر اغراه دينه ، والولاء الذى كان يحس انه يدين لشعبه ، على قبول هذا المنصب .

رئاسته لمعزل جروتفيل

وظل لوتولى لمدة سبعة عشر عامـا يحكم فى جروتفيل : يترأس المجالس ، ويعيد النظام الى حقول القصب ، ويزيد المحصول ، ويسـوى المنازعات ، ويحصل الغرامات ، وينفذ القوانين . وبينما كان يغيث فى صبر وأناة روح قبيلته المضعضعة ، كان يقوى صلته بالمسيحية المنظمة .

وفى عام ١٩٣٨ سافر الى الهند منـدوبا عن المجلس المسيحى الى المجلس التبشيرى الدولى . وبعد ذلك بعشر سنوات سافر الى الولايات المتحدة لحضور المؤتمر التبشيرى لأمريكا الشمالية ، وفى جنوب أفريقيا عمل رئيسا للكنائس الملية التابعة للمكتب الأمريكى ، ورئيسا لمؤتمر التبشير بناتال ، وعضوا تنفيذيا بالمجلس المسيحى لجنوب أفريقيا .

بيد أن حركة المقـاومة السياسية للشـعب الأفريقى كان من شأنها أن تغمر حتى عالمه القبلى وبعد سنوات قليلة من الخدمة فى مختلف لجـان العلاقات العنصرية ، انضم لوتولى فى عام ١٩٤٦ الى « مجلس ممثلى الوطنيين » ، كما انضم فى العام نفسـه من الناحية الرمزية الى المؤتمر الوطنى الأفريقى لجنوب أفريقيا ، قلعة النضال الرئيسية ضد الحكم العنصرى فى جنوب أفريقيا . وسرعان

ما وصل لوتولى الى رئاسة فرع ناتال الاقليمى التابع للمؤتمر ٠

وفى عام ١٩٥٢ شن المؤتمر الوطنى الأفريقى بالتعاون مع المؤتمر الهندى لجنوب أفريقيا حملة للعصيان ، كما نظم خرق ستة قوانين عنصرية مختارة احتجاجا على سياسة التفرقة العنصرية ٠ وعلى الرغم من أن لوتولى قدم تأييدا علنيا للحملة ، وشجع شعبه على الاشتراك فيها ، الا أن الحكومة لم تلق به فى السجن كما فعلت مع غيره من الزعماء ٠

زعامته للمؤتمر الوطنى الأفريقى

قامت السلطات الحاكمة فى جنوب أفريقيا باستدعاء الرئيس لوتولى الى بريتوريا فى أكتوبر ١٩٥٢ ، وطلبت اليه الاستقالة اما من المؤتمر أو من رئاسة معزل جروتفيل ، ورفض لوتولى أن يفعل هذا أو ذاك ، فاقدمت الحكومة على عزله من رئاسة المعزل فى الشهر التالى ٠ وفى ديسمبر من العام نفسه انتخب لوتولى ليخلف دكتور موروكا فى منصب الرئيس العام للمؤتمر الوطنى الأفريقى ٠ وفى الوقت نفسه حددت الحكومة اقامته فى معزله لمدة سنتين ٠

وعندما انتهت مدة تحديد اقامته طار الى جوهانسبرج للاحتجاج على « مخطط ازالة المناطق الغربية » بالمدينة ، وهو المخطط الذى فقد الأفريقيون بمقتضاه ما تبقى لهم من حقوق تملك الأرض فى جوهانسبرج ، فطلبت اليه السلطات أن يترك ضاحية صوفيا تاون ، ليستوطن من جديد فى الموقع الحكومى الجديد فى ميدولاند ومع ذلك منع من الخطابة ، وحددت اقامته لمدة عامين آخرين

وقد كان لوتولى ضمن من قبض عليهم بتهمة الخيانة العظمى فى ديسمبر ١٩٥٦ ، ولكن أفرج عنه بعد عام واحد ٠ وفى مايو ١٩٥٩ قام برحلة خطابية فى اقليم الكاب الغربى ، حيث خاطب اجتماعات جماهيرية غفيرة شهدتها جموع بيضاء كبيرة العدد بصورة غير متوقعة ، فقامت السلطات بنفيه الى قريته ، ومنعته من حضور جميع الاجتماعات لمدة خمس سنوات بمقتضى قانون مكافحة الشيوعية ٠

وفى ٢٦ مارس ١٩٦٠ ، بينما كان يدلى بأقواله فى جوهانسبرج فيما يتعلق بقضية الخيانة ، أحرق تصريح المرور الخاص به علانية ، ودعا الى اعلان ٢٨ مارس يوما للحداد الوطنى على ضحايا شاربيفيل الذين سقطوا صرعى رصاص الشرطة يوم ٢١ مارس ١٩٦٠ خلال اجتماع للاحتجاج السلمى على حمل تصاريح المرور ٠ واحتجزته السلطات بمقتضى حالة الطوارىء التى أعلنت يوم ٣٠ مارس ٠

المقاومة السلبية عند لوتولى

كان لوتولى ، على غرار غاندى ، الذى كان يعكس تأثيره على شعبه من وجوه كثيرة ، يؤمن بالمقاومة السلبية لا كتكتيك للمعارضة السياسية فقط ، وانما أيضا كقوة روحية فى حد ذاتها ٠ وهو كمؤمن متحمس بالمقاومة السلبية غير العنيفة ، كان يشعر بأن المسيحيين لا ينبغى أن يطيعوا القوانين التى تنتهك كرامتهم وآدميتهم ، وأنه من الأفضل أن يذهبوا الى السجن عن أن يواجهوا العنف بالعنف ٠ والحقيقة أن مكانة لوتولى ونفوذه كانا الى حد كبير ، خلال فترة ما ، قيدا على تحول الاحتجاجات الجماهيرية الافريقية ، فى ظل الحكم العنصرى الى انفجار منسق للعنف ٠ فخلال عام ١٩٥٩ ، عندما اندلعت مظاهرات الأفريقيين ضد الحكومة فى ناتال ، كانت نداءات لوتولى المتكررة بالعودة الى سياسة عدم العنف حائلا لا ريب فيه دون انتشار الحرائق العمد الى ما هو أبعد من مجرد أعمال عنف تلقائية ٠

وبسبب ممارسة لوتولى لهذا التقييد كان يتعرض لنقد متزايد من جانب بعض الراديكاليين الشبان داخل المؤتمر نفسه ، بيد أن الهيبة التى كان يتحلى بها ، والاحترام الذى كان يحظى به ـ من جانب الأفريقيين الريفيين والحضريين على حد سواء ـ قد صانا مكانته الشخصية من التعرض لهجوم صريح ٠ فهو كشخصية على قدر كبير من المهابة والجلال ، وذات قدرة بلاغية كبيرة ، ويتمع بأعظم قدر من ضبط النفس ، كان من نواح كثيرة زعيما روحيا للأفريقيين فى جنوب أفريقيا ،وكذلك رئيسا لحركتهم السياسية الرئيسية ٠

ومع ذلك لم تكن سياسة عدم العنف التى يدعو اليها لوتولى ، وبخاصة فى الفترة الأخيرة من

حياته ، مبدأ جامدا أو عقبة في سبيل تطور الحركة الوطنية • فعلى ضوء المتغيرات التي عمت القـارة الافريقية فيما بعد الحرب العالمية الثانية ،وبخاصة في الخمسينات ، ومع اكتساح موجة الاستقلال لمعظم أجزاء القارة ، توصلت قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي ، تحت زعامته ، بالاجماع الى أن الوقت قد حان لأن ينضاف الكفاح المسلح الى الأساليب التي كانت مستخدمة من قبل • وكان البدء في تكوين جيش التحرير أحد المنجزات العظيمة لعصر لوتولى •

وقد حاولت الدعايات المغرضة أن تنتقص من مكانة لوتولى ، مدعية أن سياسته « السلمية المعتدلة » تتناقض مع نضالية زملائه • فالحقيقة أن لوتولى كان على يقين تام بأن كل وسيلة ممكنة ينبغي استخدامها على النضال ضد التفرقة العنصرية سواء أكانت سلمية أم عنيفة •

ولننقل بضع فقرات من محـاضرة لوتولى في جامعة أوسلو في ديسمبر ١٩٦١ ، بمناسبة منحه جائزة نوبل للسلام :

« ان قارتنا في حالة ثورة ضد القهر •والسلام والثورة وجهان لعملة واحدة • فلا يمكن أن يكون هناك سلام حتى يطاح بقوى القهر والطغيان •••

« ان هذا الهدف تسعى اليه الملايين من أبناء شعبنا بحمية ثورية ، عن طريق الكتب والمطبوعات والهيئات التمثيلية والمظاهرات ، وفي بعض الأماكن تحمل القوة المسلحة التي استثارتها قسوة الحكم الأبيض الأمل الوحيد للسلام في أفريقيا • ومهما كانت الوسائل التي استخدمت فقد كانت كل الجهود موجهة لانهاء الحكم الغريب والقهر العنصرى » •

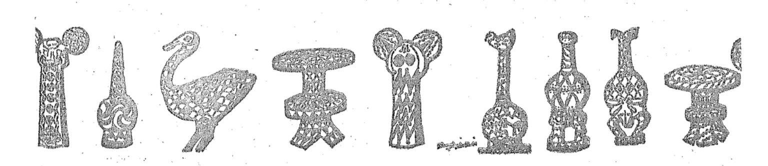
اهتماماته الأخرى

كان لوتولى الى جانب تزعمه لنضال شعبه ضد التفرقة العنصرية يعمل في مجالات أخرى كثيرة ، فقام بتوحيد كل زارعي قصب السكر في ناتال • وكانت له اهتماماته في سلسلة غير عادية من أوجه النشاط • فقد كان من عشاق كرة القدم ، ولعب دورا بارزا في نشاط « الرابطة الأفريقية لكرة القدم بناتال » • وربما يرجع الى ذلك التنظيم سر احتفاظ لوتولى بقدر كبير من الحيوية وبطاقة ضخمة على العمل والنشاط ليل نهار •

كذلك لعب الرئيس لوتولى دورا هاما في «الرابطة الأفريقية للمعلمين بناتال » ، وفي عدد كبير آخر من التنظيمات المسيحية والثقافية والتنظيمات المتعلقة بالنشاط القبلي •

بعض منجزات عصر لوتولى

تحت زعـامة الرئيس لوتولى حققت الحركة الوطنية الديمقراطية في جنوب أفريقيا ، وحركة المقاومة ضد التفرقة العنصرية ومن أجل جنوب أفريقيا حرة ، انتصارات ضخمة كان من أبرزها مولد « ميثاق الحرية » في عام ١٩٥٥ • ففي يونية من ذلك العام عقد المؤتمر الوطني الافريقي ، تحت رعاية زعيمه لوتولى ، مؤتمرا في مدينة كليبتون ، حضره أكثر من ثلاثة آلاف مندوب يمثلون الى



جانب المؤتمر الوطنى الأفريقى الأحزاب الثلاثة التالية : المؤتمر الهندى جنوب أفريقيا ، مؤتمر الشعوب الملونة جنوب أفريقيا ، مؤتمر الشعوب الملونة بجنوب أفريقيا ، مؤتمر الديمقراطيين . وكذلك الاتحاد الرئيسى لنقابات العمال الأفريقية بجنوب أفريقيا المعروف بمؤتمر نقابات العمال جنوب أفريقيا • كما كان هؤلاء المندوبون يمثلون أيضا عددا من الهيئات والتنظيمات الثقافية والتعليمية والرياضية والمهنية والدينية •

وقد شهد هذا المؤتمر مولد « ميثاق الحرية » ، الذى كان يعد تعبيرا واضحا عن الأفكار والمشكلات التى تشغل شعب جنوب أفريقيا ، كما وضع أسس الديمقراطية الوطنية التى تهيىء الفرصة للشعب كى يحيا حياة كريمة • ويعتبر « ميثاق الحرية » أهم وثيقة سياسية فى تاريخ جنوب أفريقيا • وقد أقر هذا الميثاق فى المؤتمر السنوى لحزب « المؤتمر الوطنى الأفريقى » ، الذى عقد فى أورلاندو فى ديسمبر ١٩٥٧ • ويبدأ الميثاق بالعبارة التالية :

« نحن شعب جنوب أفريقيا نعلن لبلادنا بأسرها وللعالم أجمع أن جنوب أفريقيا ملك لكل من يعيشون على أرضها ، سود وبيض ، وأنه لا توجد حكومة يمكنها أن تزعم لنفسها السلطة عن حق ما لم تكن مستندة الى رغبة كل الشعب » •

كذلك يقرر الميثاق ما يلى :

« ان تقييد ملكية الأرض على أساس عنصرى سينتهى ، وكل الأرض سيعاد توزيعها على من يفلحونها ، وذلك من أجل القضاء على المجاعة واشتهاء الأرض ،

« ان الثروة القومية لبلادنا ، تركة كل أبناء جنوب أفريقيا ، ستعاد الى الشعب ،

« ان الثروة المعدنية الموجودة فى باطن الأرض ، والبنوك ، والصناعة الاحتكارية ، ستتحول الى ملكية الشعب فى مجموعه » •

وفى أعقاب النجاح الذى حققه « مؤتمر الشعب » والترحيب الحار الذى قوبل به « ميثاق الحرية » وما ترتب على ذلك من تشكيل تلك الجبهة العريضة الموجهة ضد التفرقة العنصرية التى عرفت باسم « تحالف المؤتمر » ، لفقت السلطات فى ديسمبر ١٩٥٦ تهمة « الخيانة العظمى » ضد ١٥٦ من القادة السياسيين فى البلاد ، والقت القبض عليهم • وكان معظم المقبوض عليهم من زعماء « المؤتمر الوطنى الأفريقى » ، ومن بينهم الرئيس لوتولى نفسه • وكان كل البيض الذين قبض عليهم بهذه التهمة من أعضاء « مؤتمر الديمقراطيين لجنوب أفريقيا » •

وبعد أن اشتدت الحملة ضد الأحزاب الوطنية ، وحل هذه الأحزاب بمقتضى قانون الطوارىء ، تكونت فى الخارج جبهة متحدة من « المؤتمر الوطنى الأفريقى » ، «ومؤتمر الجامعة الأفريقية» و «المؤتمر الهندى » ، « والاتحاد الوطنى لأفريقيا الجنوبية الغربية » (سوانو) ، وذلك لمواصلة النضال ضد التفرقة العنصرية •

وقد كان التوصل الى انتهاج سياسة الكفاح المسلح أعظم منجزات عصر لوتولى كما ذكرنا من قبل • وكان من نتيجة هذه السياسة ، فى الفترة التى أعقبت وفاة لوتولى ، تكوين الجبهة المتحدة من المؤتمر الوطنى الأفريقى ، « والاتحاد الأفريقى لشعب زيمبابوى » بروديسيا الجنوبية فى مقابل الحلف غير المقدس ، حلف فورستر – سميث – جيتانو • وتقود هذه الجبهة الآن الكفاح المسلح فى روديسيا الجنوبية •

لوتولى والشيوعيون

على الرغم مما كان بين لوتولى والشيوعيين (ممثلين فى الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا الذى تأسس فى عام ١٩٢٢) من خلافات فى الرأى والعقيدة ، كان شديد الصلابة فى الدفاع عن حقهم فى أن يخدموا بلادهم داخل الجبهة المتحدة التى تضم كل المحبين للحرية ، وهى « تحالف المؤتمر » الذى انبثق عن « مؤتمر الشعب » فى عام ١٩٥٥ وكان لوتولى يتمسك بموقفه هذا بأشد حزم ممكن على الرغم من الضغوط الهائلة سواء من جانب أعدائه ، أو من داخل تنظيمه • وقد صمد مع بقية أعضاء المؤتمر فى وجه الضغوط التى مارستها الدولة على المتهمين فى قضايا « الخيانة العظمى » لحملهم على تلطيخ وجه الشيوعية •

وكان لوتولى يقر دائما بالمساهمات الفريدة التى قدمها الشيوعيون لمختلف أجهزة « المؤتمر

الوطنى الأفريقى » وللحركة الوطنية كلها فى جنوب أفريقيا • كتب لوتولى فى الجريدة الهندية انديان أوبنيون ، التى تصدر فى ناتال ، يقول:

« يبدو أن الناس ينزعجون من وجود ما يسمى جناح يمينى ، وآخر وسط ، وثالث يسارى ، داخل المؤتمر • ان ذلك بالنسبة لى علامة صحية »

لذا أحس الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا بالخسارة الفادحة التى لحقت بالحركة الوطنية فى جنوب أفريقيا بموته • وقد جاء فى رسالة التعزية التى بعث بها الحزب ، عقب مصرعه ، الى المؤتمر الوطنى الأفريقى :

« انها لمأساة لشعبنا أن لوتولى لم يعش حتى يشغل المكان ، الذى كان مؤهلا له فى سمو وجلال كأول رئيس لدولة جنوب أفريقيا الحرة » •

جائزة نوبل للسلام

فى بداية فبراير ١٩٦١ اقترح الأعضاء الاشتراكيون الديمقراطيون بالبرلمان السويدى منح ألبرت جون لوتولى ، زعيم الحركة الوطنية بجنوب أفريقيا ، جائزة نوبل للسلام • وفى ٢٣ أكتوبر ١٩٦١ أعلنت «لجنة نوبل للسلام» موافقتها على منحه الجائزة عن عام ١٩٦١ وبذا كان أول أفريقى يحصل على مثل هذه الجائزة • وقد تحدد يوم ١٠ ديسمبر ١٩٦١ لتقديم الجائزة • له فى السويد • وأرغمت السلطات فى جنوب أفريقيا على السماح له بالسفر الى أوسلو بتسليم الجائزة•

وقد جاء فى محاضرة لوتولى فى قاعة جامعة أوسلو ، فى ديسمبر ١٩٦١ ، بمناسبة منحه الجائزة :

« نحن أبناء جنوب أفريقيا ندرك جيدا أن الحرية لا يمكن أن تقدم لنا هدية من الخارج • وقد كرس كل المحبين الشرفاء للحرية من شعبنا حياتهم لتحقيق هذه المهمة • وان ما نحتاج اليه هو الشجاعة التى تتصاعد مع الخطر •

« ومهما يكن مستقبل جهودنا من أجل الحرية ، فان قضيتنا هى قضية تحرير الشعب الذى أنكرت عليه الحرية •• ان نداء الساعة ، بالنسبة لنا جميعا ، هو افتداء اسم وشرف أمنا أفريقيا » •

وقد علقت جريدة داى ترنسفالر ، الناطقة بلسان « الحزب الوطنى » (العنصرى) فى الترنسفال ، على منح الجائزة للوتولى قائلة انها « ظاهرة مرضية لا يمكن تفسيرها » ، على حين اعتبرته داى برجر ، جريدة الحزب بمقاطعة الكاب، « عملا فجا بصورة ملحوظة ، نظر اليه ، بصمو بائسة ، كما يعد قرارا غير غربى من الناحية الجوهرية » • ويوضح موقف هاتين الجريدتين العنصريتين مدى الانزعاج الذى أحست به السلطات الحاكمة فى جنوب أفريقيا من ذلك الحدث الهام •

لقد كان ألبرت جون لوتولى زعيما من طراز فريد • وكان شديد الارتباط بشعبه ، يحب العيش وسط الناس ، ويتنزه عن الترفع والتعالى • ولم يكن يحب العمل بمفرده ، أو ينفرد باتخاذ القرارات ، بل كان شديد الايمان بالديمقراطية الجماعية • والحكمة الجماعية •

وكان لوفاة لوتولى صدى حزن عميق بين أبناء شعبه ، وعلى نطاق العالم أجمع ، فنكست الأعلام فى تنزانيا ، ووقف أعضاء الجمعية الوطنية فى كينيا دقيقتين حدادا على وفاته • كما أقيم قداس حداد بقاعة أرنوتوجلو فى دار السلام تحت اشراف أسقف الماساى • وقد شهد هذا القداس زعماء الحكومة والحزب الحاكم فى تنزانيا ، وكذلك أعضاء الهيئات الدبلوماسية وممثلات الوطنيين • وأعقب القداس اجتماع تحدث فيه أ • ماشا عن التانو (الاتحاد الأفريقى الوطنى لتنجانيقا) ، ودكتور ادواردو موندلانى زعيم فريليمو (جبهة تحرير موزمبيق الذى اغتيل فى تنزانيا فى مطلع هذا العام بتدبير من مؤامرات ألمانيا الغربية ، ومؤسس كوتانى أمين صندوق المؤتمر الوطنى الأفريقى وعضو الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا •

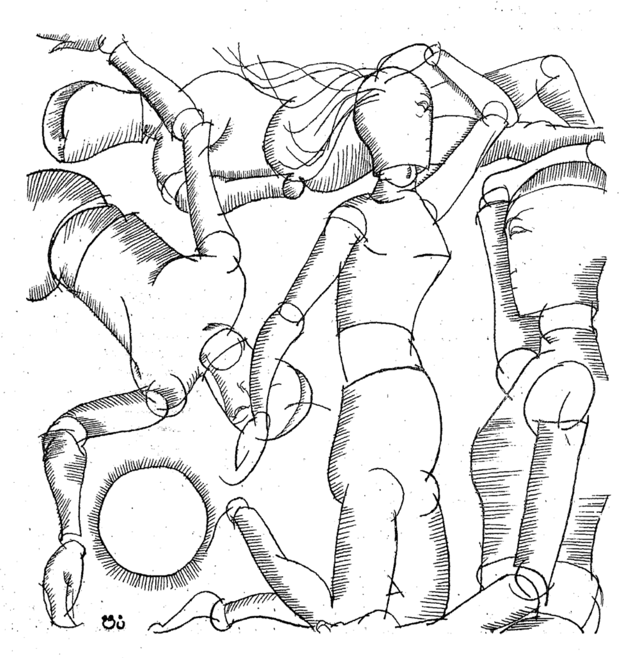
كذلك أقيم قداس لتأبينه فى لندن بكاتدرائية سانت بول • وأقامت عدة هيئات سياسية فى لندن حفلات لتأبينه • ونعاه ادريس كوكس أحد زعماء الحزب الشيوعى الانجليزى •

وقد تقاطرت على مكاتب المؤتمر الوطنى الأفريقى برقيات التعزية من مئات الزعماء ورؤساء الدول فى العالم •

أحمد فؤاد بلبع

من تاريخ الحرب النفسية

د. خليل صابات



الواقع أنه منذ ماكيافللى وهوبز انتقل التهديد بالحرب الشاملة من المرحلة النظرية الى المرحلة العمليـة . لقد أتاح تقدم العلوم للانسـان أن يستخدم الحرب النفسية ، هذه الحرب التى استفحل أمرها منذ نهاية الحرب العالمية الأخيرة أو قبل نهايتها بقليل .

من هو مبتكر الحرب النفسية ؟

يقول المؤرخون ان الخدع الحـربية كانت موجودة منذ المجتمعات البشرية الاولى . وسواء تسلح الانسـان بالكراهية أو بالخديعة ، فان الحرب النفسية فى المرحلة الطفلية من تطويرها تبـدو وكأنها بديل العنف المرتبط بالظاهـرة التاريخية للحرب المحدودة التى ظلت قائمة حتى بداية القرن العشرين .

ومع ذلك ، وحتى فى هذه المرحلة الاولى ، فان الحرب كواقع اجتماعى يجب ألا نفصـلها تماما عن الحرب كارادة ، فهى أيضـا **الحجة الأخيرة** وسـلاح السيـاسى . وما أن يقوم « السياسى » بتوجيه « العسكرى » حتى تصبح الحرب نفسية ، بمعنى أن تقدم الجيوش ليس الا وسيلة للمفاوضة أو الردع . وما الحرب الخاطفة التى شنتها اسرائيل في ٥ يونيه ١٩٦٧ على الدول العربيـة الثلاث ألا وسـيلة الغرض منها فرض حل نهائى لمشكلة احتلال شـعب أجنبى لفلسـطين البلد العربى .. وطرد أهله الاصيلين . وحين قررت مصر قبل ذلك بأيام اغلاق مضيق تيران فى وجه السفن الاسرائيلية المتجهة الى ايلات والقادمة منهـا ، كان الغرض من هذا الاجراء الشرعى اجبار اسرائيل على نقل حشودها العسكرية من على الحدود السورية بتصعيد الحـرب النفسية القائمة بيننا وبين العدو الاسرائيلى .

وحتى الحروب التى شنتها الأسرات الحاكمة بعضها على بعض كانت قائمة على الرأى العام ، بل فى الاستطاعة أن يقال انها كانت تسير وفق القواعد السيكولوجية . ومن باب أولى حين تسير الشعوب خلف ملوكها أو زعمائها أو حين تحل الأمة محل هؤلاء الملوك أو الزعماء ، فان العامل الارادى يصبح أسياسيا وروح الكفاح حتى الموت تعبىء معنويات المواطنين سواء كانوا عسكريين أم مدنيين ، وتفت فى عضد العدو . وهنا تبرز الدعاية كوسيلة من وسائل الاستراتيجية وتطوير الحرب النفسية لمضاعفة الطاقات الوطنيـة .



تتبع المصطلحات الحربية تطور تصنيف العلوم الحديثة ، فنحن نقول اليوم : الحرب الكيماوية والحرب البكتريولوجية والحرب النووية والحرب النفسية . وقد راج هذا المصطلح الأخير فى نهاية الحرب العالمية الثانية .

ويعتبر البعض الحرب النفسـية وسيلة متممة للعمل الحربى ، فى حين يعتبرها البعض الآخر نوعا من السـياسة . ويطلق عليها جـانب من المؤلفين الذين يعنون بدراستها : علم الحرب الشاملة ... والحقيقة أن الحرب النفسية لم يبتدعها أى عالم أو صاحب نظرية أو مفكر . انها ابنة التاريخ ، تاريخ البشرية وصراعاتها التى لا تنتهى . وهى تنشـأ أيضـا عن الثورات الايديولوجيـة ، وعن تحـولات المجتمعـات السياسية . وهى ثمرة من ثمرات التقدم الذى حققه علم النفس الاجتماعى فى شتى ميادين نشاطه .

فالمشكلات التى تثيرها الحرب النفسية ليست اذن من طبيعة مخالفة للمشكلات النوعية للحرب بمعناها الواسع . ويتساءل المرء : هل الحرب النفسية سلاح تابع أو انها سلاح أساسى للحرب الشاملة ، مثلها فى ذلك مثل القنبلة الذرية ؟ وهل الحرب النفسية شرعية والى أى مدى ؟

ولقد تطورت الحرب النفسية بهذا الشكل وعلى هذا الأساس البسيط خلال القرن التاسع عشر ووصلت الى ذروتها فى الحرب العالمية الاولى .

ولكن منذ ذلك العهد ، وعلى الرغم من أن قيام الحرب العالمية الثانية قد أدى الى حجب تصاعد الحرب النفسية أو تأخيرها ، فقد حدثت ثورة فيما كان يعرف بالتوازن الدولى أو العالمى. يضاف الى ذلك أن تصارع الطبقات وثورة شعوب العالم الثالث وتقدم العلوم النفسية وظهور الأسلحة النووية ، كل هذه العوامل قد أتاحت حالة مستمرة وعامة من تصارع العقول أو بتعبير علمى أدق ، من الحرب النفسية .

وتتميز الحرب النفسية بثلاث ميزات ان صح هذا التعبير . فهى أولا تضعف الفرق الواضح بين السلم والحرب ، وهى تستعين ثانيا بالطابور الخامس بدلا من الحث مباشرة على التخاذل والتسليم ، كما تقوم ثالثا بتوعية المغلوب وقد ثبت عليه خطؤه أو ذنبه . وهكذا ينهار المبدأ الذى ينص صراحة على عدم انتهاك الشخصية المعنوية لأسرى الحرب وعلى حمايتهم الدولية ، وحسب منطوق هذا التطور ، فان الحرب النفسية ينبغى أن تعتبر تنظيما للعنف .

الحرب النفسية كبديل للعنف :

يمكن اعتبار منطقة شرق البحر المتوسط مهدا للحرب النفسية . ففى التوراة والياذة هوميروس أكثر من قصة تثبت الى أى حد كانت شعوب المشرق تستخدم الحرب النفسية . ويكفى أن نذكر القارىء بأسوار أريحا التى سقطت بفعل أبواق جيش يشوع بن نون . أما حصان طروادة الشهير فهو السلف الأسطورى للطابور الخامس الذى أحسن الفاطميون استخدامه تمهيدا لدخول جيوشهم مصر ، وكانوا فى ذلك أسبق من الأسبان بتسعة قرون . (خليل صابات : الاعلام والدعاية فى مصر الفاطمية ، جريدة الاهرام ، ديسمبر ١٩٦٢) وهكذا يمكن للمرء أن يدرك منذ البداية علة وجود ما سوف يسمى بالحرب النفسية ، هذه التبنية التى تبث روح الشقاق وتحطم المعنويات وتحل الاعتداء السيكولوجى محل الاعتداء المسلح وتتخذ الدعاية أداة لها تعبر بها عن ارادة القوة . انها، كما سبق أن قلنا، الطابع السياسى للحرب واعلاء للعنف أو على الاقل احلال الخداع محله .

ويرى رجال الاعلام أن الدعاية الحديثة ينبغى أن تتجه أولا وفى نفس الوقت للفرد والجماهير ، اذ لا يمكنها ان تفصل العنصرين احدهما عن الآخر : أن الدعاية لا تتجه بأى حال الى الفرد وحيدا ومنفصلا عن الجماعة فالفرد لا يشكل أى فائدة فى نظر رجل الدعاية ، ذلك لأن اقناع الفرد منفصلا أمر غاية فى الصعوبة . كما ينبغى أن تكون الدعاية شاملة ولابد لها أن تستخدم مجموعة الوسائل التقنية من صحافة واذاعة وتليفزيون وسينما وملصقات واجتماعات ومقابلات شخصية . ان على الدعاية الحديثة أن تستخدم كل هذه الوسائل وغيرها مجتمعة ، اذ لا توجد دعاية طالما يلجأ تارة الى مقالة تنشر فى صحيفة وتارة ثانية الى ملصق وتارة ثالثة الى الاذاعة وهكذا .. ان عقد بعض الاجتماعات والقاء بعض الخطب ولصق بعض الملصقات على الجدار أو تشويه الجدران بهذه الملصقات لا يعتبر دعاية . وتحاول الدعاية أن تحاصر الانسان بكل الطرق الممكنة سواء بالعواطف والافكار والتأثير على الارادة أو على الحاجات ، بالشعور واللاشعور ، بحضارة فى حياته الخاصة وفى حياته العامة .

وينبغى أن تكون الدعاية الى جانب ذلك دائمة ومستمرة وأن تملأ يوم المواطن بطوله بل أيامه جميعا . ان الدعاية تهدف لأن تجعل الفرد يعيش فى عالم خاص ، فيجب ألا يمكن ، خلال لحظة تأمل ، من تحديد موقعه بالنسبة لهذه الدعاية . وهذا ما يحدث حين تكون الدعاية متقطعة . ان الفرد يفلت فى هذه اللحظة من قبضة الدعاية التى تعتبر أداة الحرب النفسية الأولى .

هتلر والحرب النفسية :

يمكن القول بأن الحرب النفسية المعاصرة بدأت بهتلر ، أى فى الثلث الثانى من القرن العشرين . فنحن نقرأ فى كتابه « كفاحى » هذه العبارة : «ان الدعاية سوف تكون سلاحا رهيبا فى يد الانسان الذى سوف يعرف كيف يستخدمها . » لقد اعتبر هتلر الشعب الالمانى ضحية « لخيانة سنة ١٩١٨ » . وكان هدفه البحث عن تكامل مناسب للقوى اللازمة لانتصار العنصر الالمانى . وان تمجيد الانسان الالمانى والاشادة به لا يعدلها الا الكراهية للاجناس المنحطة التى يمثلها كل من لا يكون من عنصر

جرمانى . وهكذا نجد ان مبدأ هتلر أو بالأحرى فلسفته تقوم اساسا على علم النفس وان جدلية كفاحه هى جدلية الحرب النفسية ، القائمة على الاشادة والهدم والكفاح الدائم فى الجبهة الداخلية والخارجية وقيادة الأمة الالمانية المضطهدة والمحاصرة الى الثورة المظفرة ضد قوى الشر وصاحب رأس المال الجشع ، وعلى الاخص اليهودى الذى يتحد ذاتيا آخر الامر مع كل الدول التى تعادى توسع الرايخ الثالث ، تلك هى بالاختصار عقيدة هتلر .

وكانت آلة الحرب النفسية الالمانية حائرة بين السلطتين المدنية والعسكرية ، وهو حائل هام امام كل تنظيم لحرب نفسية . وان دكتاتورية هتلر بما لها من حول وطول لم تستطع أن تذلل هذه العقبة على وجه مرض . وكانت الدعاية كما نعرف ، تابعة للدكتور جوبلز ووزارته . ولكن كان الى جانب هذه الوزارة شبكات سيكولوجية طوال الحرب ، يمسك بأطرافها كل من فون ريبنترون فى وزارة الخارجية والبوليس الالمانى والجستابو والاقسام المخصوصة للاميرال كناريس والاقسام الاقتصادية لجورنج . وفضلا عن ذلك ، فان كانت أراضى الرايخ والاقاليم التى ضمت اليه تتبع من حيث المبدأ وزارة الدعاية، فان الدعاية الموجهة الى العدو وللاراضى المحتلة كانت من اختصاص الجيش الألمانى نفسه .

وكانت وزارة الدعاية مقسمة الى ادارات للصحافة والاذاعة والسينما والدعاية الايجابية والتموين والمهمات . وكان مجهود هذه الادارات منصبا اساسا على رفع معنويات الشعب فى الداخل . وكانت فوق كل ذلك تعليمات جوبلز نفسه وتوجيهاته . فهو الذى رفع الشعار الذى يصم الانجلوسكونين بالخبث . وكان غرض الدعاية فى الداخل اذابة آلام الأمة وتضحيات المحاربين فى بوتقة واحدة . وكانت الجبهة النفسية فى الميدان أكثر الجبهات صمودا .

وهكذا استمرت الروح المعنوية للشعب الالمانى حتى النهاية . ولكن ما يؤخذ على قادة الحرب النفسية الداخلية أنهم خلطوا بين وسائل هذه الحرب (النفسية) وغاية الحرب كلها . وهو خطأ لم يقع فيه البريطانيون ولا السوفييت .

أما عن الحرب النفسية على الجبهة الشرقية، فقد قامت أساسا على مبدأ محاربة الشيوعية والاشادة بالدور التحررى الذى تقوم به الجيوش النازية . وكان جوبلز يعتقد أن لا رجاء فى نجاح الحرب في الجبهة الشرقية الا بالتلويح للقوميات داخل الاتحاد السوفيتى بأمل الاستقلال ، وهى سياسة « اليد الممدودة » . بيد أن هذا السلاح ما لبث أن تحول ضد مبتدعيه ، ذلك أن وعود الدعاية كانت شيئا والواقع السياسى كان شيئا آخر . وهو خطأ آخر فى المفهوم الالمانى للحرب النفسية وقع فيه جوبلز وأعوانه .

وعندما أشرفت الحرب العالمية الثانية على النهاية وجدت الحرب النفسية الالمانية كلاما جديدا تقوله للشعب . فالعدو اذا تمكن من وضع أقدامه على أرض الوطن أذاق الشعب الأمرين . وحتى آخر لحظة من هذه الحرب كان نداء الدعاية الالمانية الموجه للأعداء الغربيين مركز على أن هزيمة ألمانيا سوف تؤدى بأوروبا كلها الى البلشفة . وانهارت ألمانيا النازية وانهارت معها دعايتها . ويتساءل المرء ، وقد مضى على نهاية هذه الحرب قرابة ربع قرن ، لماذا قاتل الجنود الألمان حتى آخر دقيقة بهذا العناد الغريب؟ ويجيب علماءالاتصال بالجماهير بأن شعور التفانى نحو هتلر حتى نهاية الحرب واندماج المحارب التام فى شخص الزعيم كانا العاملين الأساسيين لهذا الصمود الذى أثار دهشة كل من علماء الاجتماع وعلماء النفس .

الحلفاء يخوضون الحرب النفسية :

كيف حاول الحلفاء مواجهة حرب هتلر النفسية أو حرب الأعصاب كما كانوا يسمونها فى ذلك الوقت ؟ لقد ظهر بعد اعلان الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩ أن شعوب فرنسا وبريطانيا وسائر الدول الغربية لم تكن مهيأة نفسيا لهذا الصراع الدامى . لقد اكتفت فرنسا مثلا باعلان هذا الشعار : **سوف ننتصر لأننا الأقوى** . وقد أوحى هذا الشعار للفرنسيين بالتواكل والتكاسل بدلا من أن يوحى اليهم بالقوة ، ذلك أن الحكومة

الفرنسية ، لم تكن فى قرارة نفسها مقتنعة بأن البلاد تخوض حربا فعلية ، وآية ذلك ان الصحافة نفسها أسمتها « الحرب العجيبة ! » يضاف الى ذلك أن تخبط الرقابة أدى الى ترويج الاشاعات الكاذبة عن الحرب . وما أن هل شهر مايو من سنه ١٦٤٠ حتى كانت الروح المعنويه للمواطن الفرنسى ، العسكرى والمدنى ، فى الحضيض . وهكذا لم يصعب على البانزر ديفزيون الالمانيه ولا على طائرات شتوكا المنقضة ان تبثى الرعب فى نفوس العسكريين والمدنيين وتقضى على البقية الباقية من روحهم المعنوية . وسقطت باريس ووقع المارشال بيتان الهدنة مع المانيا النازيه . وفى اليوم التالى لهذه الهزيمه الساحقة انتقل مسرح الحرب النفسية من القارة الى لندن .

وكان على بريطانيا ، بعد أن أصبحت وحيدة فى الميدان ولا حول لها ولا قوة حربية تستطيع بها مواجهة العدو الالمانى الذى دانت له القارة الأوروبية عقب الحرب الخاطفة التى شنها ، كان عليها أن تعتصم بحرب دفاعية ، نفسية . وقد امتازت هذه الحرب بأنها سارت جنبا الى جنب مع سياسة انجلترا الداخلية والخارجية، وهكذا استطاعت أن تحقق أفضل النتائج ، فقد تمكنت بريطانيا بفضل وزارة استعلاماتها من اقامة علاقات مع الشعب البريطانى والشعوب الحليفة والمحايده . أما الدعاية الموجهة الى بلاد العدو والاراضى التى احتلتها فقد تولت أمرها ادارة مستقلة ذات طابع سرى تابعة لوزارة الخارجية . وكان هدف الحرب النفسية البريطانية اضعاف روح العدو المعنوية ورفع أو دعم الروح المعنوية عند أعداء هذا العدو أو ضحاياه . ويقول بروس لوكهارت **ان الحرب النفسية هى تطبيق الدعاية على احتياجات الحرب الشاملة . وتحاول الحرب النفسية بوساطة أخبار خاصة أن تتفادى وان تسبق نوايا العدو وأن توجهه نحو أهداف حربية تهم جمهور هذا العدو الذى لا تستطيع قواته أن تصل اليها ، وأن تعكر روح الجماهير المعنوية ببرامج اذاعية تبثها محطات سرية يزعم أن رعايا الأعداء غير الراضين فى داخل أراضى العدو هم الذين يعدونها ، كما تقوم بدورها فى تثبيط العزائم بمختلف الوسائل . أن هدفها الرئيسى هو تعبيد الطريق لتسهيل مهمة القوات المسلحة.**

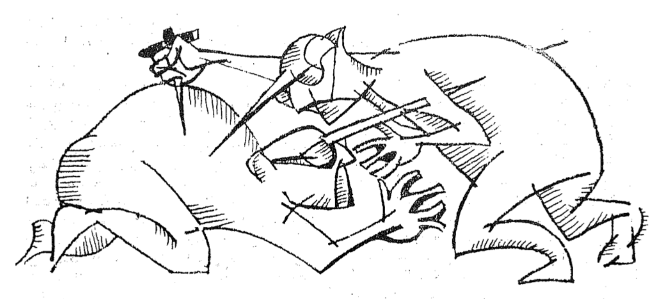
ويمكن أن يقال ان الحرب النفسية بهذا المعنى أو هذا المفهوم ، كانت موجودة ولا تزال فى كل زمان ومكان . الا أن الوقت والعلم قد اعطيا للعالم أدوات وتقنينات جديدة للدعاية . فلولا الاذاعة والمنشورات التى كانت طائرات الحلفاء تلقيها من الجو لانقطعت الصلة بين البلاد المحتلة والحلفاء . وخير ما وصل اليه العلم الحديث هو بلا شك التمكن من استنتاج نوايا العدو من دعاية هذا العدو .

ان الحرب النفسية ليست علما من العلوم الدقيقة ولا فنا مستقلا ، واكثر ما تستطيعه هو المساعدة على تخفيف حدة القتل أو الهزيمه والابقاء على شعله الأمل فى البلاد التى يحتلها العدو . وتجد هذه الحرب امكانية عملها الحقيقى عندما تظهر بشائر مقاومة ناجحة .

ان الجهاز الذى يتولى توجيه الحرب النفسية سوف يظل دائما فى خدمة السياسة الرسمية والاستراتيجية العسكرية . وينبغى فى نفس الوقت أن يكون مرنا وان تكون لديه القدرة على سرعة ادراك الأمور . كما ينبغى عليه أن يتلقى أوامره من مجلس الوزراء ورؤساء أركان الحرب، أن عليه فى أغلب الأحيان ان يعمل بسرعة وان يجازف وان يسبق أحيانا قرار مجلس الوزراء .

وقد ينتج عن الحرب النفسية ضرر أكثر مما ينتج عنها نفع اذا لم يتم تنسيق دقيق بينها وبين اوجه النشاط الدبلوماسى والحربى . فالعامل فى جهاز الحرب النفسية يجب أن يعتبر نفسه عضوا فى التنظيم العسكرى ، وكل ما يقوم به يجب أن يكون موضوع دراسة دقيقة داخل اطار الاستراتيجية العامة للحرب . فالحرب النفسية ليست سلاحا مستقلا ، وليست قادرة وحدها على صنع المعجزات . فقد يمكن ان تسفر عنها نتائج طيبة ان تم القيام بها على أساس انها مقدمة لسياسة محددة بوضوح تام وان كانت أوجه نشاطها مرتبطة بالعمليات الجارية الصادرة عن مجلس الوزراء أو رؤساء أركان الحرب .

.. لقد وجد البريطانيون انفسهم غداة هزيمة فرنسا أمام مهمة غاية فى الضخامة وميئوس



منها فى وقت معا . ولم يجد المسئولون عن الحرب النفسية فى بريطانيا امامهم الا أن يقولوا للعالم وللعدو انهم مصممون تصميما لا يتزعزع على الا يعترفوا بهزيمتهم . لقد فهم الانجليز أيضا منذ اليوم الاول ان لا فائدة يمكن ان يجنوها من اخفاء الحقيقة أو تزويرها وأن لاشك فى انهم سوف يزعزعون الروح المعنويه للشعوب المحتلة التى وضعت فيهم آمامها أن هم استخدموا معها نظام الدعاية الكاذبة التى لا تنطلى الا على السذج والتى تؤدى الى عكس النتيجة ، اذا ما عرفت الحقيقة ، وغالبا ما تعرف .

وتعتبر الفترة الواقعة بين ١٩٤١ و ١٩٤٢ فترة الحرب النفسية القائمة على العاطفة وكان يوجهها على موجات هيئة الاذاعة البريطانية اللاجئون الذين فروا من بلادهم قبل الغزو النازى او اثناءه او بعده . اما الانجليز انفسهم فقد نحوا العاطفة جانبا وحاولوا منذ اللحظة الأولى تسقط أخطاء العدو . ففى ٨ أكتوبر ١٩٤١ ظهرت صحيفة الفولكيشر بوبختر الألمانية تحمل هذا العنوان الرئيسى بالبنط الكبير : « دقت الساعة العظيمة .. القوات الروسية محاصرة .. انتهت الحرب في الشرق » . وقد استغل الانجليز هذا الخطأ الذى وقع فيه النازيون باذاعتهم خبرا لم يكن قد حدث فعلا ولو أنه ــ على حد اعتقادهم ــ كان وشيك الحدوث . وقد حرص الانجليز وأجهزة دعايتهم على الاحتفال سنويا بهذا التسرع الأرعن طوال سنى الحرب .

الا ان قوة الحرب النفسية البريطانية تنبع أساسا من أنها ــ باعتبارها مساعدا يوميا ودقيقا للسلطه ــ لم تصطدم بجدار السريه الذى تقيمه المصالح الحكوميه الدائمه فى وجه أجهزة الاعلام والدعايه عاده ، بل أنهـا عرفت كيف تستفيد من الاولويات التى خصتها بهـا الدولة ، لا سيما فى مجال الاخبار .

ويرى البريطانيون أن الدعاية البيضاء ، وهى الدعايه المعروفة المصدر ، كانت أكثر فعالية من الدعاية السوداء ، وهى التى لا تعلن عن مصدرها الحقيقى ، وأنها الوحيدة القادرة على اسماع ارادتها أو تسديد الضربة القاضية . أما الدعايه السوداء فانها لا تستطيع الا زعزعة الثقة دون الوصول الى نتيجة نهائية ولجأ الانجليز أيضا الى الدعاية الرمادية ، (وهى الدعاية المعروفة المصدر ولكنها لاتستخدم وسائل مباشرة فى تحطيم الروح المعنوية لدى العدو) ضد الألمان ، فقد أصدروا جريدة يومية خاصة هى النافريختنى فور تروين كانوا يسقطونها بانتظام من الجو على الأراضى الألمانية . وكانت هذه الصحيفة أية فى الاخراج التحرير الصحفى . وعلى أمواج الأثير حاول الألمان على لسان « اللورد هاو هاو » أن يقاوموا اذاعة « اينز جوستاف سيجفريد » البريطانية ؛ ولكن الكلمة الأخيرة ظلت للانجليز الذين عرفوا كيف يستخدمون العنف البارد ويختارون الكلمات بعد وزنها بميزانهم الدقيق .

ويمكن اعتبار الفترة الواقعة بين ١٩٤٢ و ١٩٤٤ المرحلة الثانية للحرب النفسية التى شنها الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية : فبعد انقضاء بضعة أسابيع على نزول الحلفاء فى

شمال أفريقيا اجتمع روزفلت بتشرتشل فى الدار البيضاء ، وكان هذا الاجتماع أو هذا المؤتمر ضربة معلم وجهتها الدعاية الانجلو أمريكيه ، الى العدو النازى . فقد صدر تصريح مشترك أعلن فيه العالم الانجلوسكسونى انه لن يضع سلاحه قبل ان يستحق عدوه .
وكان على المسئولين عن الحرب النفسية فى بريطانيا ان يحاولوا بشتى الطرق تجنب نتائج هذه الصيغه الصلبة والدوران حولها . وقد استغلت دعاية جوبلز هذا الاعلان لمصلحتها حين قالت لشعوب اوروبا المحتلة « فى وسعكم الا تحبونا نحن النازيين ، ولكن صلوا الى الله أن يعينكم اذا ما هزمنا واضطررتم للخضوع لشروط السلام التى ينوى الحلفاء أن يفرضوها عليكم . »

وهكذا ابتداء من مؤتمر الدار البيضاء حدث تناسق بين كل من أجهزة الحرب النفسية الانجليزية والامريكيه على الرغم من اختلاف مزاج الشعبين . ويمكن أن يقال ان هذا التناسق لم يتم على وجه مرض بين الحليفتين حتى نهاية الحرب .

وكان للهيئة العليا لأركان حرب قوات الحلفاء فى أوروبا قسم للحرب النفسية تحت قيادة الجنرال ماك كلور . وكان على هذا القسم أن يفرق العدو بنوايا الحلفاء وأهدافهم الحقيقية وان يحث الشعب الالمانى أو جانبا منه على العمل ضد حكومته . وكان على هذا الجهاز أيضا أن يهيىء الشعوب الصديقة فى أوروبا المحتلة لاحتمال نزول قوات الحلفاء فى أوروبا ثم لقرب هذا النزول مع ابقاء الشك فى ذهن العدو حول المكان أو الأمكنة التى سوف يتم فيها هذا النزول .

ولا يمكن للباحث ، وهو يقوم بدراسة تطور الحرب النفسية خلال الحرب العالمية الثانية أن يقصر بحثه على بريطانيا . فقد كان لكل من الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتى جهاز للحرب النفسية .

كان للامريكيين ادارة أسموها (مكتب استعلام الحرب) ، وهو مقسم بدوره الى شعبتين ، الشعبة القومية والخدمة الخارجية . وتنقسم هذه الخدمة بدورها الى قسمين أحدهما فى سان فرانسيسكو ، للمحيط الهادى وآسيا والثانى فى نيويورك لأوروبا وملحقاتها . وكانت مهمه هذا المكتب التعريف بوجه أمريكا المحاربه واهدافها ، ولما كان هناك ايضا عدو وارض يحتلها هذا العدو ، فقد أقامت الولايات المتحده فى حماس شديد خدمات خاصة بالاعمل الحربية أطلقت عليها (مكتب الخدمات الاستراتيجية) .
وكانت هيئة أركان حربها تضم النخبه المنتقاه من رجال الجامعة وعالم التجارة والمال ، غير انها أطلقت العنان للألوف من العملاء المرتجلين الذين فلما كانوا يحترمون مبدا تقسيم المهام . وقد نتج عن هذه الثنائية أو هذه الفوضى سياسات نفسية متنافسة . وكان هذان المكتبان يتبعان الرئيس الامريكى مباشرة . ولكن هيئة مستشارى الرئاسة كانت تعتقد بأنها تستطيع كل شىء . وهكذا وضع رجال الدعاية والاعلام فى المقام الثانى .

ويمكن القول بأن الحرب العالمية الثانية كانت فى الحقيقه ميدانا صالحا لاختبار استخدام السلام النفسى فى الحرب وتقنينه . وقد طبقت الخبرات الجديدة على مدى واسع بعد وضع اللمسات الاخيرة خلال الحرب الكورية التى بدأت كمسرح ممتاز لعمليات الحرب النفسيه بصرف النظر عن مدى نجاحها .

واذا كانت الحرب النفسية التى خاضها الامريكيون فى أوروبا قد نجحت لسبب أو لآخر . فان التوفيق لم يحالفهم عندما شنوها على الشعب اليابانى . والدليل على ذلك أنهم اضطروا آخر الأمر الى القاء قنبلتيهم الذريتين على هيروشيما ونجازاكى ..

فى الاتحاد السوفيتى :

واذا تركنا الولايات المتحدة وبريطانيا جانبا وانتقلنا الى الاتحاد السوفيتى ، وجدنا ان كل نظام العمل السوفيتى ، سواء فى الحرب أو فى السلام ، قائم على الكفاح النفسى . ولما كانت الجدلية الماركسية اللينينية هى حركة التاريخ نفسه ، فان ادخال رسالتها فى جهاز الحزب وفى بناء الدولة يكون اجراء تكامليا . ان كل شىء فى هذه الدولة قائم على التوعية فى الداخل ويسير نحو تحرير الشعوب فى الخارج . فالنظام السوفيتى كله يشكل نسيجا كاملا . ففى القمة نجد اللجنة المركزية للحزب وتشمل القسم

الادارى للدعاية الذى تحقق التركيز المطلق للتعبئة الدائمة للرأى العام لمصلحة الأهداف التى تحددها ادارة الحزب . وعلى هذا الضوء يمكننا أن نحلل ونفسر الميزات النفسية والمعنوية التى تجعل من الصحافة والاذاعة والسينما — على حد تعبير ستالين — سيورا لنقل الحركة بين الجماهير والحزب .

وفى بلد يقوم نظامه على هذا الأساس ، فان قسم الدعاية والادارة السياسية للقوات المسلحة لا يعرفان عبوديات الحرب النفسية على النمط الغربى . والسبب الأول أن ليس عليهما أن يهتما بمرحلة الانتقال من حالة السلم الى تنظيم الحرب . والسبب الثانى هو انهما غير مكلفين بتوجيه عمليات الحرب النفسية مادامت رسالتهما تقوم أولا على صيانة الوضع الثقافى والمعنوى للمواطن السوفيتى مدنيا كان أم عسكريا . فليس للجيش الأحمر رسالة تبشيرية مباشرة . ولا يوجد فى الاتحاد السوفيتى سوى هيئات تابعة للكادرات العليا للحزب .

ومع كل ذلك فان المفاهيم العملية للحرب النفسية ليست غريبة عن القادة السوفييت ، غير أن تفكيرهم المنهجى يستوحى اهتمامين يقومان على العقل الرشيد . فالاهتمام الأول ينصب على تكليف هيئات خاصة ذات طابع سرى بتوجيه الحرب النفسية . والاهتمام الثانى ألا يكون ثمة انفصال بين العمل النفسى وبين العمل الاستراتيجى أو التكنيكى العام وألا يبدأ بهذه الحرب الا حين يكون جهاز القوةالسوفيتية على أهبة الاستعداد أو على قدم وساق كما نقول . وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية ارتكزت سياسة الحرب النفسية على الشرطة داخل وزارة الداخلية . وان كان اختصاص الأعمال الداخلية والخارجية قد تحدد اداريا منذ الحرب ، فان ربط الحرب النفسية بالاقسام الخاصة واتباعها اداريا بالبوليت بورو لايغيران من طبيعتها شيئا .

وبالنسبة للنقطة الثانية فانه مما يثير العجب انه خلال الشهور المؤلمة لسنتى ١٩٤١ — ١٩٤٢ ركز ستالين كل طاقته على هدفه الوحيد ألا وهو : الحرب . ويرى عدد من ساسة الغرب أن حل الكومنترن لم يكن الا تمويلا **مجانيا** ؟ الا أن قرار الحل هذا قد خدم فى نفس الوقت المصالح التكتيكية للكرملين الذى اضطر أن يقصر مجهوداته على الضرورات العاجلة للموقف العسكرى . وفيما يتعلق بالدفاع النفسى (السيكولوجى) فقد نجح ستالين ببراعته الفائقة الحد فى ابقاء سيطرته على المقاومة التى استطاعت ، بعد الاضطراب الذى اجتاح الشعب السوفيتى فى الأسابيع الأولى من الهجوم الالمانى ، أن تقف بلا رحمه أو شفقة ضد الارهاب النازى . وان رجال المقاومة السوفييت لم ينسوا لحظة واحدة أنهم أعضاء فى الحزب ، خاضعون لنظامه ومكلفون على الخصوص بالنيل من معنويات العدو .

لقد كانت مهمه الاتحاد السوفيتى الاساسية اضعاف روح الالمان المعنوية . وقد وصلت هذه المهمة الى الدروة حين تحولت العمليات الحربية عند ستالنجراد لصالح الشعب السوفيتى البطل . ولكن ان كان هجوم يونيه ١٩٤١ قد فاجأ السوفييت الى حد ما ، فان وجودهم السابق فى جمهوريات البحر البلطى وأسلاكهم الهوائية فى البلاد الاسكندينافية فى الشمال ودخولهم بولندا وسلوفاكيا وعلاقاتهم اليوغسلافية فى الجنوب ، كل ذلك قد أعطاهم امكانيات العمل خلف الخطوط الالمانية . وعندما انحسر مد الجيوش النازيه سقط بين ايديهم أعداد هائلة من الاسرى القابلين فى معظمهم للتوعية . ينبغى اذن أن نميز بين ثلاثة أنماط من الحرب النفسية السوفيتية الا وهى : تأثير الاقسام الخاصة خلف خطوط العدو والتأثير التكتيكى للجيوش والتأثير السياسى على أسرى الحرب . ويبدو ان الشيوعيين الالمان الذين فروا الى الاتحاد السوفيتى هربا من هتلر وزبانيته قد لعبوا دورا هاما فى الحرب النفسية التى شنت على الالمان من الشرق . وقد كون هؤلاء المهاجرون « اللجنة القومية لالمانيا الحرة » .

بيد أن أهداف الحرب لم يكن لها المعنى نفسه عند الانجليز والأمريكان من ناحية وعند السوفييت من ناحية أخرى . لقد نجح الثلاثة الكبار : ستالين وتشرتشل وروزفلت فى المحافظة

على تفاهمهم فيما يختص بالمهم أو الأساس ، اى الانتصار على المانيا انتصارا كاملا ، ولكن خارج هذا الهدف المؤقت ، فان كل ما تبقى أصبح مصدرا لحرب نفسية أو حرب باردة بين الغرب والنظام السوفيتي .

الحرب الباردة :

انفجرت الحرب الباردة غداة الانتصار المشترك على المانيا النازية واليابان . ولكن بعض الباحثين يعتبرون أن مؤتمر يالتا الذى عقد فى ٥ يناير ١٩٤٥ كان بداية هده الحرب . ومنذ ذلك اليوم كان على الاتحاد السوفيتي ان يحارب فى ميدانين : الميدان العسكرى ضد المانيا واليابان والميدان السياسى ، ضد الولايات المتحدة وبريطانيا . ولما تحقق النصر كشف كل من المعسكرين عن نواياه وحاول كل منهما أن يجلب اليه الجانب الاكبر من الراى العام العالمى .

دخل الاتحاد السوفيتي أتون الحرب الباردة مستخدما تأثيره الخاص وتأثير الجمهوريات الشعبية والاحزاب الشيوعية والمثقفين الموالين للنظام الشيوعى . وهو ينادى بالسلام ويدعو الجماهير الى الكفاح من أجله والى الاستقلال عن الرأسمالية الاجنبيه . وهكذا صدر نداء ستوكهولم بتحريم الاسلحة الذرية . وبعد وفاة ستالين قام الاتحاد السوفيتي بالمناداة بالتعايش السلمى . وتقول أجهزة اعلامه معلقة على ذلك، ان الاتحاد السوفيتي يمارس التعايش السلمى لأنه مقتنع بالنصر النهائى المحتوم للاشتراكية، وكل دوله رأسمالية ترفض مبدأ التعايش السلمى انما تكشف النقاب عن طبيعتها الحقيقية وتقر صراحة بأنها صانعة حروب ومحرضة عليها .

وقد استغل الاتحاد السوفيتي تقدمه العلمى والتكنولوجى ليقول للعالم ان هذا التقدم هو ثمرة النظام الاشتراكى الذى يسير عليه والذى يهدف الى تقدم البشرية وتحقيق اكبر قدر من الرخاء للانسان . ولم تتوان هذه الدولة الاشتراكية عن مد يد المساعدة الاقتصادية والتقنية لشعوب العالم الثالث لتشهدها على حسن نيتها وسلامة نواياها .

وكان على الولايات المتحدة الامريكية أن تبحث عن حجج تواجه بها هذا الأسلوب الجديد من الحرب النفسية السوفيتية أو على الأقل ، عن وسائل جديدة تكفل لها النصر . وقد هداها تفكيرها الى انتهاج سياسة المساعدة، الاقتصادية للبلاد التى « تهددها الشيوعية » وكذلك المساعدة العسكرية ضد « خطر الغزو السوفيتى » وهكذا وضع ترومان اليونان وتركيا تحت الحماية المسلحة للولايات المتحدة وقدم فى نفس الوقت الى الدول الاوروبية ، بصرف النظر عن نظم الحكم فيها ، المساعدات الاقتصادية . والخطأ الذى وقع فيه الامريكيون فى حربهم النفسية أو الباردة ضد الاتحاد السوفيتى هو اعتقادهم بأن هناك خطرا شيوعيا يتهدد العالم وأنه لابد من ايقاف هذا الخطر بايه طريقة . وكان التهديد بالحرب فى مقدمة هده الطرق . ولما كانت الشعوب لم تنس بعد أهوال الحرب العالمية الثانيه وما جرت على الانسانية من خراب ودمار ، فقد نفرت من هذه الوسيلة ومن الداعين اليها ، هذا بالاضافة الى أن السياسة الامريكية قامت منذ الحرب العالمية الثانية على التفاهم مع أشخاص لا يتمتعون فى العادة بأية شعبية . وهكذا ذهبت جهود الدعاية الامريكية أو معظمها ادراج الرياح لأنها عجزت عن التحدث بأسلوب الجماهير أو بلغة الشعوب المغلوبة على أمرها .

وأخيرا هل الحرب النفسية مشروعة ؟

ان الحرب النفسية بوصفها تعبيرا عن الحركة الأبدية للمجتمعات السياسية وظاهرة سلمية لارادة التنافس بين هذه المجتمعات ، لا يمكن تخفيف حدتها . انها من طبيعة الانسان نفسه ولا شك فى أنها مفيدة لانطلاقته التاريخية . وباعتبار أنها أداة للحرب الشاملة ، فانها لا تخالف قوانين الحرب الا ابتداء من اللحظة التى تتحول فيها الى اعتداء على الانسان المجرد من السلاح ، فتلعب به على حساب انسانيته ، بل تجرده من هذه الانسانية حين تجرده من عقله وارادته .

خليل صابات

نحو الدراسات الاجتماعية للظواهر الأدبية

السيد ياسين

• إن أي تاريخ للأدب لابد أن يكون اجتماعيا، وفي نفس الوقت لا يمكن تصور علم اجتماع غير تاريخي، ذلك أن كل واقعة اجتماعية واقعة تاريخية والعكس صحيح.
• إن تغير الأشكال الأدبية مثله مثل تغير الأذواق لابد من ربطه بروح العصر والتغير الذي يلحق بجهاز القيم في المجتمع.

من الميسور للمتتبع للدراسات النقدية في الفترة الاخيرة، أن يلحظ اتجاها أخذ في التبلور، يدعو لتحديد الاسس المنهجية لدراسة الادب المصري المعاصر. **وتبدو أصالة هذا الاتجاه في ربطه للأدب بالمجتمع ربطا عضويا وثيقا.** فالادب — ولا شك — ظاهرة اجتماعية، وهو بهذا الوصف يشتبك مع عديد من الظواهر الاجتماعية الاخرى، بحيث يصح القول أنه لا يمكن فهم الادب في حقبة تاريخية محددة بغير تحليل دقيق للظروف السياسية والاقتصادية السائدة في نفس الحقبة.

ومن هنا يثور النقـــاش حول أسلم المنـاهج لدراسة التاريخ الادبى ٠

والحقيقة أن هذه المشـــكلة الخاصة جزء من مشكلة أعم هى دراسة التاريخ بوجهعام ٠ ولسنا فى حاجة الى أن نعرض فى هـــذا المقـــام لكل الاتجاهات التى حاولت أن تحدد أسس الدراسة التاريخية ، ولكن يكفينا هنا أننشير الى أن الرأى الذى كاد يسود اليـوم بين علماء التاريخ وعلماء الاجتماع ، **أن أى تاريخ لا بد أن يكون اجتماعيا، وفى نفس الوقت لا يمكن تصور علم اجتماع غير تاريخى** ٠ ذلك أن كل واقعة اجتماعية ــ كما يقرر الفيلسـوف الفرنسى **لوسيان جولدمان** ــ واقعة تاريخية والعكس صحيح ٠ وكلمن التاريخ وعلم الاجتماع يدرس نفس الظواهر ، غير أن أيا منهما لا يستطيع أن يقدم سوى صورة جزئية ومجردة، ولذلك لا بد لكل منهما أن يستعين بالآخر حتى تكمل الصورة ٠

اذا صدقت كل هذه المقدمات ، **فمعنى ذلك أن التـــاريخ الادبى لا بد أن يكون تاريخـــا أدبيا اجتـــماعيا ، ما دام يبـــحث الادب فى مظاهره المختلفة ، والادب كما قلنا ظاهرة اجتماعية ٠**



ك ٠ ماركس

التغير الاجتماعى والتغيرات الادبية :

والحقيقة أننا اذا درسنا التحولات الكبرى فى الآداب العالمية ، لأدركنا أنهـــا لا يمكن تحليلها وفهمها وتفسيرها بمعزل عن التحليـــل الاجتماعى للعوامل الاجتـــماعية والسـياسية والاقتصادية والعلمية ٠ وبغير أن نغـوص فى ضرب عديد من الأمثلة للتدليل على صدق ذلك ، نكتفى بأننشير الى الملاحظات الذكية التى أبداها الكاتبالانجليزى **فورستر** فى مقـــدمته التى كتبها لدراسة هامة نشرت باللغـــة الفرنسية فى الاربعينيات بعنوان «**جوانب الادب الانجليزى من ١٩١٨ حتى ١٩٤٠**» (نشرت فى عدد خاص من مجـلة فونتين ، عدد ٣٧ ــ ٤٠ ، ١٩٤٤) ٠ يذكر فورستر أن أدب هذه الحقبة لا يمكن فهمه الا برده الى جو الحرب الذى خيم على أوربا فى هذه الفترة ، واذا كانت فترة ما بين الحربين يمكن اعتبارها ــ كما كان يطلق عليهـا ــ « **اجازة طويلة** » سمحت للكتاب والادباء أن يرتدوا بأبصارهم الى الماضى ، أو أن يحاولوا استشراف المستقبل ، الا أن الكتب التى قد يبدو لأول وهلة أنها لا تلمس موضوع الحرب مثـــل كتب **ليتون** ســـتراشى **وجيمس جويس وفيرجينيا وولف** ، لا يمـــكن للعـين أن تخطىء ما تزخر به من ضروب الفزع والقلق ، وهىلذلك تعد مثل الكتب الاخرى فى نفس الحقبة ، نتاج حضارة واعية بشعور عدم الامن الذى يحيط بها٠ ومعنى ذلك كله أن جو الحرب قد سيطر على كل الكتب والاعمـــال الادبيـــة التى ظهرت فى هذه الحقبة ٠ غير أن هناك بالاضافة الى الحرب كعامل اجتماعى أثر فى نوعية الانتاج الادبى والفكرى ، ثلاثة عوامل حاسمة لا يمكن فهم هذا الانتاج الا على ضوء تحـديدها وتعيين آثارها ٠ **وأول هذه العوامل هو الحركة الاقتصادية التى قادت العالم من الزراعة الى الصناعة** ٠ ولا شـــك أن حركة التصنيع وما صحبها من زيادة الاعتماد على العلم والتكنولوجيا قد أثرت فى بناء المجتمع وانساقه المعنوية تأثيرات بالغة الشدة ٠ فقد أصبحت الحياة العـــادية هى الحياة التى تمارس داخل الورش والمصـــانع والمكاتب ٠ وقد أدى ذلك الى تغيير جوهرى فى الموضوعات التى يتناولها الادباء وفى اتجاهاتهم ذاتها ازاء هذه الظواهر الجديدة ٠

والعـــامل الثـــانى الحـــاسم هو الحركة السـيكلوجية ، وبوجه خاص الاكتشافات التى وضع فرويد يده عليها فى اطار التحليل النفسى٠ فبفضل نظريات فرويد بدأ الانسان يعرف نفسه أفضل مما سبق ، وشرع فى استطلاع تناقضاته نفسها ٠ وكم أثرت هذه المعرفة فى الفن والخيال والادب ٠ فالعـــالم الخصب للاشعور الكامن فى أعماق كل واحد منا ، وحالات ازدواج الشخصية، وتفسير الاحلام ، وغيرها من الموضـوعات الهامة كانتمجالا فسيحا للروائيين الذين أطلقوا أقلامهم لاستكشاف هذه الآفاق الجديدة ٠ وقد استطاع الادباء المبـــدعون الذين تمثلوا هـــذه الكشوف النفسية العميقة أن يبدعوا أعمالا خالدة ، مثـــل **بروست وجرترودشتين و د ٠ هـ ٠ لورنس** ،

وفيرجينيا وولف ، وجيمس جويس ، و ت٠س٠ اليوت وغيرهم ٠

ونجد أخيرا العامل الثالث ، متمثلا فى حركة علم الطبيعة الحــديث ، التى يمـكن ان تكون نظريات أينشتين مثلا بارزا عليها ٠ ولا شك أن الأدباء لم تكن عنــدهم القـدرة على أن يفهموا نظريات أينشتين العلمية فهـما عميقا ، كما كان حالهم تماما بالنســبة لنظريات فرويد ، غير أنه مما لا شـــك فيه أن فكرة النسبية سيطرت ــ مثلها مثل فكرة اللاشعور ــ على المناخ الفكرى ، وأدت الى نشوء اتجاهات جديدة وخاصة فىمجال الادب الروائى ٠ فالخير المطلق والشر المطلق الذى نجـــده فى روايات **ديكنز** لم يعـد له وجود ٠ فالشـخصية تكون خيرة أو شريرة وفق علاقاتها مع شخصية أخرى ، أو فى تفـاعلها مـع موقف معين ٠ وأنت بذلك لا تستطيع أن تتخذ اتجاهات ثابتة ازاء الناس ما دام الاطار المرجعى نفسه غير ثابت ، بل هو يتسم بالتغير الدائم ٠ ولعل خير مثال على تطبيق فكرة النسبية فى الادب نجـده لدى **بروست** ٠ فغـــالبية شخصياته وان كانت كريهة وتثير المقت ، الا أننا لا نستطيع أن نلعنها جملة ، نظرا لأن بروست قد رسمها تحت تأثير فكرة النسبية فخرجت متعددة الابعاد ٠

ويؤيد الشـــاعر المعروف **ستيفان سبندر** فى ملاحظاته عن الشــعر الانجليزى فى نفس الفترة كل الملاحظات التى سجلها فورستر ، ويقرر أن الأدباء فى هـــذه الحقبة انتهجوا نهجا سياسيا واجتماعيا أساسيا يمثل نقدا جوهريا للحضارة الغربية بعد عام ١٩٢٠ ، مثل النقد الذى وجهه لها اليوت فى قصيدته الشهيرة «**الارض الخراب**»٠ ويضـــــيف أن الأدباء تأثروا أساسا بنظريتين ، احداهما تحلل المجتمع وهى الماركسية ، والثانية تحدد العلاقات المتشــابكة بين الفرد والمجتمع ، وهى التحليل النفسى ٠

ان هذا المثال الذى ضربناه عن أهمية التحليل الاجتماعى لفهم اتجـــاهات الادب الانجليزى فى فترة ما بين الحربين وهى من أحـــــرج فترات الحضـــارة الغربية ، ليس فريدا فى ذاته ، بل اننا نستطيع أن نجد أمثلة أخرى عديدة مشابهة لو حاولنا دراسة أى أدب من الآداب القومية ٠

وقد التفت عدد من النقاد المشـــاهير لكل هذه الاعتبارات المنهجية ، وان اختلفت آراؤهم بصدد المنهج الواجب الاتباع لتحقيق هذا الغرض ٠ وقد عرض لهذه المشـــكلة النـــاقد الفرنسى الشهير **جوستاف لانسون** فى دراسة ممتـــازة له بعنوان « **منهج التاريخ الادبى** » ، **حيث يقرر أن التاريخ الأدبى جزء من تاريخ الحضارة** ٠ **وهو ككل تاريخ يسعى لكى يضع يده على الظواهر العامة ، ويعزل منها الوقائع الممثلة ذات الدلالة ، لكى يربط ربطا سليما بين الجزئيات المتعددة، سعيا وراء الوصول الى فهم كامل للظواهر الادبية** ٠ ومعنى ذلك أن الباحث فى هـــذا المجـال لا بد له من اصطناع المنهج التاريخى ، وان كانت هناك فروق لا ينبغى اغفالها فى الموضوع الذى يهتم به المؤرخ العام ، وذلك الذى يهتم به المؤرخ الادبى ٠

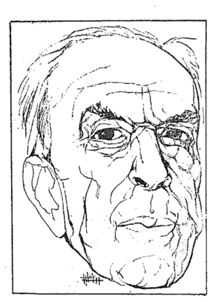
فموضـــــوع المؤرخ العام هو المـاضى ، ولكنه ماض لم يبـــق منه سوى آثار يمكن بشىء من الجهد الاستعانه بها لاعادة تكوين ما ســبق ان كان ٠ غير أن المـــاضى الذى هو موضوع المؤرخ الادبى ماض من نـــــوع خاص ، لانه ماض باق متمثل فى الآثار الادبيه التى تنتمى للمـــاضى ، ولكنها أيضا تنتمى للحاضر ٠ فهذه الآثار ليست مجرد أوراق باردة ، أو مســتندات ميتة محفوظة فى ملف أو أرشيف ، ولكنها آثار حية ما زالت قادرة على أن تبعث فى الانسانية المشاعر الجمالية والمعنويه التى ســـبق لها أن أثارتها فى نفوس أجيال من المتذوقين ٠

وخلاصة ما نريد أن نركز عليــه أن دراســة الادب لا يمكن أن تكون كاملة بغير الاســـتعانة بالعلوم الانســانية الاخرى وأهمها **علم الاجتماع وعلم النفس** ٠

دراسات فى الادب المصرى فى ضوء منهج التحليل الاجتماعى :

هل يمكن أن ندرس الادب المصرى المعاصر وما يحفل به من ظواهر متعددة فى مجالات الشـــعر والقصة القصيرة والرواية والنقد الأدبى ، بغير أن نستعين بالتحليل الاجتماعى ؟

نستطيع أن نقرر ــ نظريا وعلى ضوء ماعرضناه ــ أن ذلك مســـتحيل ٠ غير أنه من وجهة النظر التطبيقية تكفل عدد من الدارسين المصريين الرواد باثبات صدق هذا الاتجاه الذى ندعو اليه ٠ ومن أبرز هؤلاء : ثلاثةهم:**الدكتور عبد المحسن طه بدر** الذى كتب رسالة دكتوراه فى موضوع : « **تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر** (١٨٧٠ ــ ١٩٣٨)» (القاهرة : دار المعارف ، طبعة ثانية ، ١٩٦٨) ،



أ . توينبى

والأستاذ سيد حامد النســـاج الذى كتب رسالة للماجستير فى موضوع تطور فن القصة القصيرة فى مصر (١٩١٠ ـ ١٩٣٣) (القاهرة : دار الكاتب العربى للطبـاعة والنشر ، ١٩٦٨) ، **والدكتور عبد الحميد ابراهيم** الذى كتب رسالة دكتوراه فى موضوع : «القصة المصرية وصورة المجتمع الحديث من أول القرن العشرين الى الحرب العالمية الثانية» • (ولم نطلع عليها ، وان اطلعنـا على عرض وجيز لمحتواها للدكتور أحمد الحوفى المشرف عليهــا ، راجع (المجلة) ، العدد ١٥٣ ، سـبتمبر ١٩٦٩ ص ١٠٥ ـ ١٠٦) •

والدكتور عبـد المحسن طه بدر ـ تقديرا منه لضرورة التحليل الاجتماعى للدراســـة الأدبية ـ بدأ رســـالته بعرض الملامح الأســاسية للظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى الفترة التى يتعرض لها بالدراسة (أنظر تمهيد دراسـته من ص ١١ ـ ٤٨ ، بالاضـافة الى المواضـع المتعددة الأخرى فى الرسالة) • وكذلك فعل الأستاذ سيد حامد النســاج ، الذى عنى فى الفصـل الأول من رســـالته بتقديم تحليل اجتمـاعى للفترة التى درسها • ولم يقنع بذلك بل كان يربط دائما بين مراحل الانتقـال فى القصة القصيرة وبين الخلفية الســـياسية والاجتماعية التى أثرت فيهـــا وفى اتجاهاتها (راجع الفقرة الأولى من الفصل الثانى : الثـــورة القـــومية وأثرها فى الحيـــاة الثقافية والاجتماعية ، والفقرة الأولى من الفصل الثالث : « أفكار ثورية ومفاهيم جديدة ») •

أما الرسالة الثالثة فهى تلك التى أعدها الدكتور عبد الحميد ابراهيم ، وهى تكاد أن تكون تحليلا اجتماعيا خالصـــا للقصـــة المصرية • فاذا كانت الرسالتان «السابقتان» تبدآن بالرواية أو بالقصة، وان تعرضتا للظروف الاجتماعية والسياسية كخلفية لا بد من الالمام بها حتى تستوى الدراســـة على أسس سليمة، فان الرسالة الأخيرة تبدأ من الاتجاه المضاد ، فتنطلق من تحليل المجتمع نفسه • ففى البـاب الأول الذى عنوانه : « **موضوع القصـــة وملامح المجتمع** » ، صور الباحث جوانب المجتمع العامة فى أربع فصـول تناولت دراســة البيئات الأجنبية، والتناقض الطبى ، والشخصية المصرية، والشخصية القومية • هذا مجرد مثال يدل على المنهج الاجتماعى الخالص الذى اتبعه الباحث •

والحقيقة أن دراستى الدكتور بدر والأســـتاذ النســـاج ـ وهما ما اطلعنا عليه ـ تمثلان معالم بارزة فى طريق الدراسة المنهجية للأدب المصرى المعاصر • فما بذل فيهما من جهد ، وما تحصل من نتائج ليفتحان الطريق نحو دراسات أخرى تحاول أن تستكشف كل معالم الرحلة التى قطعها الادب المصرى المعـــاصر على ضـــوء منهج التحليـــل الاجتماعى •

والواقع أن منهج التحليل الاجتماعى يمكن عن طريق تطبيقه تطبيقا واعيا فهم نشـــأة الظواهر الأدبيـــة المختلفة وتطورها وزوالها • فالأجنـــاس الأدبية مثـلا والتطورات التى تلحق بها ، سـواء كانت تطورات جزئية أو شاملة ، لا يمكن فهمها على أساس أنه يحكمها منطق التطور الداخلى لها فقط • بل لا بد من رد هذه التطورات الى التغيرات الاجتماعية والثقافية التى لحقت المجتمع فى فترة تاريخية محددة • وبغير هذا المنهج لا يمكن للباحثين أن يصلوا الى نتائج سليمة فى بحثهم للمشكلات المختلفة التى تعرض لهم • وقد يكون من المناسب أن نشير تدليلا على رأينا الى مشكلة التجديد فى الأشكال الأدبية لنرى كيف يمكن لمنهج التحليل الاجتماعى أن يدرسها •

التجديد فى الأشـكال الأدبية من وجهـــة النظر الاجتماعية :

كثيرا ما تثور بعض الأسئلة الهامة حول بداية نشأة شكل جديد من الأشكال الأدبية • غير أن الخطورة أن يكون السؤال الذى هو أصل المشكلة قد وضـع بطريقة خاطئة منـذ البداية ، وبذلك

لا يستطيع الباحث – بعد بذل الجهد – أن يصل لاجابة صحيحة .

اذا تساءل باحث مثلا : من هو الرائد الأول للشعر الحر فى البلاد العربية ؟

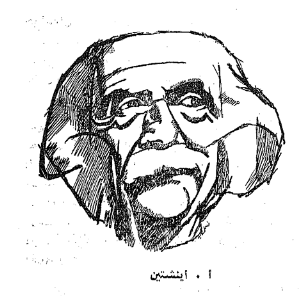
أو اذا تساءل باحث آخر : من هو الرائد الأول للقصة القصيرة فى مصر ؟

فعلينا أن نتساءل بدورنا : هل وضع المشكلة على هذا النحو صحيح أم لا ؟

والحقيقة أن حركات التجديد فى الأدب – فى رأينا – مثلها مثل الحركات الاجتماعية لا يمكن بأى حال من الأحوال نسبتها الى فرد واحد معين . فالتجديد في الأشكال الأدبية لا يأتى عادة بضربة واحدة خلاقة من أديب عبقرى ، بقدر ما يكون محصلة عشرات من التراكمات الجزئية التى تخلخل الأبنية القديمة وتفتح الطريق بذلك الى ابتداع أبنية وأشكال جديدة . ولا يمكن أن يقينا من وضع مشكلات مزيفة من قبيل الأسئلة التى أشرنا اليها سوى تبنينا لمنظور اجتماعى فى الدراسة . **ومن المعروف أن التحليل الاجتماعى يهتم بالجماعات الاجتماعية أساسا ولا يهتم بالأفراد الا فى علاقتهم بأبنية أشمل وأعم اقتصادية كانت أو اجتماعية أو جمالية أو غيرها .**

ان تغير الأشكال الأدبية ، مثله مثل تغير الأذواق ، لا بد من ربطه بروح العصر ، والتغير الذى يلحق بجهاز القيم فى المجتمع .

ومن هنا نستطيع أن نقرر أنه نتيجة للتغير الاجتماعى والثقافى فى المجتمع تظهر الحاجة الى ابتداع أشكال أدبية جديدة ، للتعبير عن الوجدان الجماعى . وهذا التجديد فى الأشكال الأدبية لايتم عادة بطريقة فردية ، وانما يتم « فى معية » ان صح التعبير . بعبارة أخرى حين تكون حتمية التغيير ظرفا موضوعيا يحدث أن تتلاقى معه « **ذوات** » متعددة فى نفس الوقت حتى بغير اتفاق سابق . ولذلك تقدم جماعة من الادباء على ابتداع الأشكال الجديدة ، بحيث لا يمكن تحديد واحد منهم بعينه على أساس أنه أول من ابتدع الشكل الجديد . فاذا لم نركن الى تاريخ نشر المؤلفات الأدبية وهو معيار زائف للتأريخ لبداية التغير فى الأشكال الأدبية ، واستطعنا الحصول على مخطوطات أدباء متعددين فى نفس الحقبة ، لاستطعنا أن نرى كيف أنهم بدرجة كبيرة أو صغيرة مارسوا التجريب سعيا وراء أشكال أكثر جدة .



أ . أينشتين

وأيا ما كان الأمر ، فهذا موضوع يستحق أن نفرد له دراسة مستقلة تحاول أن تستكشف كل أبعاده الجمالية والفكرية والاجتماعية . وكل ما أردنا أن نلفت النظر اليه هو ضرورة الدراسة الاجتماعية للأدب .

واذا كان الناقد المعروف «رينيه ويليك» يذهب الى أن هناك منهجين لدراسة الأدب ، أحدهما داخلى يدرس الأعمال الأدبية من الداخل ، ويعنى دراسة جمالية خالصة والثانى خارجى يدرس الأعمال الأدبية فى علاقتها مع مختلف الظروف الخارجية المحيطة بها ، فقط آن لنا بعد اهمال طويل لهذا المنهج الخارجى فى دراسة الأدب أن نطبقه فى دراساتنا وبحوثنا فى الادب المصرى .

وحين نعى أهمية منهج التحليل الاجتماعى ونتقن تطبيقه ، فلن يكون هناك مجال بعد ذلك لاثارة أسئلة ساذجة عن الرائد الأول للشعر الحر ، أو الرائد الأول للقصة القصيرة !!

ان التاريخ الادبى ، مثله فى ذلك التاريخ العام ، لا يمكن أن يبنى على انجازات أفراد منعزلين . وليس معنى ذلك انكار دور الفرد فى التاريخ ، أو الاقلال من أهمية العبقرى فى الأدب . ولكن الفهم العلمى الصحيح لكل الحركات الفكرية والسياسية والأدبية لابد من أن يستند الى تحديد العلاقة بين الأفراد والجماعات الاجتماعية التى ينتمون اليها ، وأثر الخلفية التاريخية والاجتماعية على نشأة وتطور المشاريع الابداعية الفردية . حتى أن بعض كبار الباحثين المحدثين مثل **لوسيان**

جولدمان يذهب الى حد القول ان العمل الأدبي لا يعبر عن مؤلف فرد ، وانما عن الجماعة التي ينتمي اليها الأديب ، ويعبر عن رؤيتها للعالم سواء بطريقة شعورية أو لا شعورية ٠

وخلاصة ما نريد أن نؤكد عليه ، **أنه بغير اتباع منهج التحليل الاجتماعي لن يتــاح لنا أن نفهم مختلف الظــواهر الأدبية التي يحفل بها تاريخ الأدب المصري المعاصر** ٠ ونستطيع بهذا الصدد أن نعتمد على الاطار المثلث الجوانب الذي يرى عدد من الباحثين صلاحيته كاطار مرجعي للدراســـة الاجتماعية للأدب وهو مكون من ثلاثة مجالات : دراسة **المؤلف، ودراسة الأعمال الأدبية ، ودراسة الجمهور** ٠

وعلى ذلك نقترح برنامجا للدراسة الاجتماعية للأدب المصري المعاصر على النحو التالي :

أولا : الدراسة الاجتماعية للأدباء :

ويدرس هنا بالنســـبة للشعراء والروائيين والقصـــاصين والنقاد أوضاعهم الطبقية والمهنية والاقتصادية وأثرها على انتاجهم الأدبي ٠ كمـــا يدرس في هذا المجال الأدباء ، لا باعتبارهم أفرادا، ولكن باعتبارهم أعضاء في أجيال أدبية ٠

وتثير فكرة الجيل الأدبي مناقشات متعددة ليس هنا مجال الافاضة فيها ٠

ثانيا : الدراسة الاجتماعية للأعمال الأدبية :

ويدرس في هذا المجال عدة موضوعات أساسية أهمها :

الدراسة الاجتماعية للأجناس والأشكال الأدبية، الدراسة الاجتماعية للموضوعات ، والدراســـة الاجتماعية للطباع والشخصيات ، وأخيرا الدراسة الأدبية للأساليب ٠

ثالثا : الدراسة الاجتماعية للجمهور :

ويرى بعض البـاحثين أنه من الأفضـــل أن نتحدث هنا عن الجمـــاهير ، لأن مكونات الجمهور تختلف اختلافات جسيمة من وجهة النظر الاجتماعية وعبر الزمن ، حتى أنه ليحق الحديث عن جماهير متعددة لا عن جمهور واحد ٠

وتحديد هذه الجماهير وابراز سماتها الاجتماعية والنفسية مسألة بالغة الأهمية لفهم أسباب نجاح وفشل الأعمال الأدبية ٠ وهذا من شأنه أن يلقي الضوء على نوعية الاتصال بين الأديب والجمهور ٠ وأخيرا فان مشـــكلة نجاح العمـــل الأدبي تثـــير تساؤلات عن العـــوامل الاجتماعية المختلفة التي تؤثر عليها ٠

هذا عرض موجز للنقاط الأساسية في برنامج مقترح لدراسة الأدب المصري المعاصر ٠ ويمكن بغير شك لو لقي هـــذا البرنامج موافقة عدد من النقاد والباحثين اعداد دراسات تفصيلية عن كل جانب من جوانبه حتى يتحدد الموضـــوع بطريقة واضحة ٠

ولعـــله مما يبعث على الغبطة أن نـــرى الوعي بأهمية التأصيل المنهجي للدراســـات الأدبية في مصر يتبلور يوما بعد يوم ٠ ويكفي بهذا الصدد أن نشير الى المقال الذي كتبه الأستاذ سيد حامد النساج عن « مشكلات في دراسة القصة القصيرة » (راجع الملحق الأدبي للأخبار ، العدد الثاني عشر، ١٤ سبتمبر ١٩٦٩ ، ص ٦) ٠ وترد أهمية هذا المقال الى أنه حصيلة خبرة واقعية لباحث جاد سبق له أن قدم للمكتبة العربية دراسة أكاديمية أصيلة عن القصة القصيرة في مصر ٠

ولعـــل أهم ما في هذا المقال ـ بالاضـــافة الى تشخيصه لمشكلات البحث في هذا الميدان ـ دعوته لتشكيل فرق بحث من الدارسين ، ليس في مجال الأدب فقط، ولكن في مجال العلوم الانسانية بوجه عام ٠

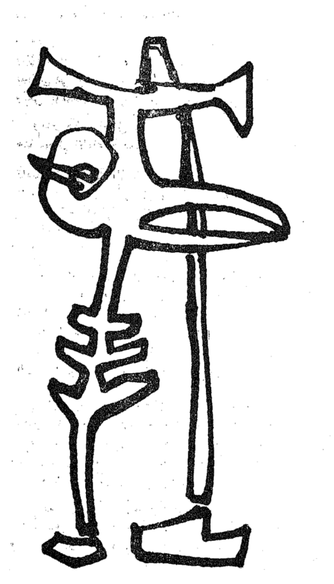
والحقيقة أن هذا الوعي بأهميته دراسة الأدب المصري دراسة متكاملة ، يتفق مع ما انتهينـــا اليه من دراساتنا التي سبق فيها أن عالجنا المشكلات المنهجيـــة والتطبيقية لعلم الاجتمـــــاع الأدبي ٠ (راجع مجلة الكاتب ، اعداد عام ١٩٦٨) ٠ فقد دعونا في خاتمتها الى تشكيل فرق بحث من نقاد الأدب ومن المتخصصين في العلوم الاجتماعية حتى يمـــكن دراســـة الأدب المصري بطريقة منهجية سليمة ٠

غير أن كل هذا لن يتاح له التنفيذ ما لم نؤمن أن البحث العلمي الواسع المجـــال لم يعد اليوم عمل فرد من الأفراد ، بقدر ما هو مهمة شـــاقة وصعبة لا يمكن أن ينهض بها الا فرق متعددة من الباحثين ٠

فهل آن الأوان لكي نتخلى عن عاداتنـــا الفردية في البحث ، لكي نتبنى الجماعية كشعار وكتطبيق؟ ان حدث ذلك، فانه سيكون علامة أكيدة على سعينا في مضمار التقدم ٠

السيد ياسين

ليس العلم هو
الذى ولد الفن ، ولكنه الفن
ولد علما خاصًا ، هو علم الجمال ،
فالفن على هذا النحو حق وجمال ،
عندما يظل مخلصًا لنفسه لا للعلم ،
وإذا ما أخلص للعلم ، فإنه يخلص
لذلك العلم الذى خلقه بنفسه



حيرة الفن بين فلاسفة الفن

جمال بدران

ان آفاق الفن قد ظلت رحابتها ـ منذ أزمنة سحيقة ـ مجال اغراء للغوص والتفكر ، بل وللثرثرة أحيانا عند بعض المتحدثين ·· فى محاولات لتعريفه وتقنينه·· تارة بغامض القول، وأخرى بالتنظير له ، وثالثة بتصنيفه لوضعه تحت عنوان أو داخل اطار لا فكاك له منه ·

لكنه هذه الرحابة ان كانت مثارا لاختلاف الآراء وتعارضها ، فانها كانت أيضا ـ ولا تزال ـ نبعا لكل ابداع وتجديد يدور حولهما الحوار من جديد ·

ومهما اختلفت الآراء وتباعدت ·· ففى الامكان ارجاعها الى نقطة البدء أو المنطلق الذى خرجت منه ·· فمنذ أن قدم لنا **أرسطو** نظريته فى الوجود ، وأقام فلسفته على مبدأ الصورة والهيولى ·· شرع يضمن مفهومها مقولاته فى الفن ·· التى نشرها على أبواب الطبيعيات والسياسة والخطابة ·· فوجدناه يفترض أن الشىء الفنى هو كالموجود تماما تتحقق صورته فى هيولاه ، مع استدراك للفارق الدقيق بين الاثنين· ألا وهو وفود الصورة للشىء الفنى من خارج على عكس الموجود الذى تنبع صورته من داخل · لذلك فهو ينص على أن الفن هو « **اظهار لشىء داخلى فى معرض خارجى** » ·· هذا على الرغم مما شاع من قوله أن الفن محاكاة ·· فمع ما فى هذا الاقتضاب من غموض ، فقد كان أيضا طمسا لمفهوم المحاكاة لدى أرسطو ·· فهو تقليد لأفعال الطبيعة ولما يمكن أن تنتجه ·· «**ايجاد ما لم تستطع الطبيعة ايجاده، على النحو الذى يمكن أن توجده الطبيعة عليه لو أنها أنتجته** » ·

ولكى نزيد الأمر وضوحا ·· نجد أن أرسطو فى تناوله للفعل الفنى أو ما نسميه بالابداع يفترض توافر عنصرين ·· عنصر التفكير النظرى فى الشىء الفنى ، وعنصر الممارسة الفعلية أو الصنعة الفنية لهذا الشىء ·· فهو ـ أى الفن ـ « **ايجاد ، بعد تفكير ، لشىء ملائم** » ·

فاذا ماضممنا هذه التعريفات المتناثرة لأرسطو عن الفن الى بعضها ·· لوجدنا أن لكل عمل فنى جانبين ·· أحدهما ظاهر وهو الهيولى وليكن لوحة تشكيلية أو مقطوعة موسيقية أو قصيدة أو رواية الخ، والآخر داخلى أو باطن وهو الصورة أو المضمون بتعبيرنا العصرى أو المحتوى أو الأثر الفنى :

وفى تغليب أرسطو لقيمة الصورة على الهيولى فى الشىء الفنى اتساق طبيعى مع فلسفته آنذاك·

لكن انقسمت آراء الفلاسفة والنقاد من وقتها بين مؤيد ومعارض ، وبين مفتت لكل من الهيولى أو الشكل الى مقاييس وأنماط ، وبين مؤول لمعنى الصورة ومعدد لما صدقات المفهوم والمضمون ·· فتباعدت المذاهب وتعارضت ، وظهرت أجيال من الموفقين بينها ·· بالحذف تارة وبالاضافة أخرى· فتنبت مدارس جديدة ونظريات ·

لكن الفن كان خلال كل ذلك أعظم من أن يخضع قيادة لفيلسوف أو ناقد ، وأخلد من أن ينتهى عند تفسير مدرسة أو تنظير قانون ·

فالأمر أبسط من أن يختلف عليه اثنان ·· ذلك لأن الوجود بما احتواه من طبيعة جامدة وطبيعة متحركة لا بد أن يتناوله الفن بالطبيعتين معا ، ولا بد أن يحاكيهما الفن فى الواقع وفى الممكن وقوعه على السواء ، ولا بد أن يعبر عنهما ويتأثر بهما فى كل آن وفى كل مكان ، ثم لابد ـ وهذا هو الأهم ـ أن تكون مهمة الخيال الفنى هى ـ كما يقول **كافكا** ـ «**تكثيف للواقع وتحويله الى خلاصة مركزة** » ·

فمن هو ذلك الكائن الذى يأخذ على عاتقه هذه المهمة ؟ ·· انه الانسان لا ريب ، الانسان ولا أقول الفنان ·· لأنه هو المنبع الذى ينبثق عنه ذلك الفنان ·· هو الطبيعة المتحركة فى الوجود بعقلها ومشاعرها وحواسها ، هو القوة التى تخلق الجموع وتختار التنازل عن ذاتيتها أو الاحتفاظ بها داخل الجموع ·· هو ـ كما يؤكد **نيتشه** ـ « **الطبيعة التى تفكر والتى تستحيل بهذا التفكير الى وعى** » ·

فاذا ما عرفنا أن الانسان الفنان هو مكمن الصورة ، الذى يمكنه أن يعبر عنها بصنعته الفنية.. وذلك بأن يصبها فى الشكل أو الهيولى التى يجيد التأثير بها .. أصبح واجبا علينا ألا نرجح قيمة أحد العنصرين على الآخر ، أو نفصل بينهما عند تقييم شىء فنى .. وصار أوجب علينا أن نقيم وزنا للاعتبارات الحضارية التى تشترطها أذواق الجموع فى كل حقبة .. من حيث نوعية القيم فى المضمون ، ومن حيث مقاييس الاجادة فى التأثير من ناحية الشكل .

اعتراضات :

هنا يثور اعتراض خلود الاعمال الفنية الكبيرة، وتذوق الأجيال لها فى مختلف مجتمعاتها .. وفى الحق أن لا محل لهذا الاعتراض اذا ما تذكرنا أن درجة اجادة التطابق بين القيمة المتضمنة وبين الشكل الذى اتخذه لهـا فى توصيله للناس .. هى التى تكسبه ميزة الاستمرار بين الأجيال .. خصوصا اذا ما كان مثل هذا الشىء الفنى مشتملا على ديناميكية تسمو على مجرد المتعة أو التلذذ ، وتلامس شرارة الأبدية فى نفس الانسان .. أى انسانيته .

لكن اعتراضا آخر يثور على اعتراض خلود هذه الاعمال الفنية .. فاننا ونحن فى عصر العلم وازدهاره .. تلح حاجة قياس سرعة التغير التاريخى التى طرأت على شىء فنى ما.. لنعرف مدى العمر الزمنى لصموده أمام تطور الاجيال وتقدمها ، وما هى الأعمال الفنية الأكثر خلودا تبعا لسرعة تغير المجتمعات التى أنتجت فيها .. ولما كان قياس هذه السرعة من الاستحالة بمكان حتى الآن .. فان عنصر الخلود فى الشىء الفنى يظل متأرجحا بين حتمية التغير التاريخى ، وبين العجز عن قياس سرعة هذا التغير .. فلو قلنا ان أبا الهول أخلد من الأكروبول مثلا .. لاقتضانا الأمر لتدعيم هذا القول أن نضع بجانب الفترة الزمنية لكل منهما حركات التغير الاجتماعى التى مرت بهما ، وسرعة كل منهما مع صمود كل من أبى الهول والأكروبول بجلاليهما الفنى أمامها.. لاقناع كل حركة تغير بهذا الجلال . لكن دقائق هذه السرعات لا يمكن رصدها فى الماضى .. ومن ثم نطلق صفة الخلود على مثل هذه الاشياء تجاوزا .

ان هذا الاعتراض يبرز واضحا فى المخلفات الفنية للجماعات البدائية التى يصعب على الباحثين تتبع تطوراتها .. بمعنى أن تلك المبتكرات القديمة لا تشكل حوادث منعزلة ، بل سلسلة من الأوضاع المتصلة التى يمكننا أن نتتبع فيها نقاط الاتصال بين وضع وآخر .. لكن مراحل تنفيذ مثل تلك المبتكرات كانت تتعرض فى ترتيبها لبعض التحريف أو حتى التشويه ، وقد يتوقف سير المتتابعة بفعل عوامل خارجية لم يستدل عليها بعد .. وهنا يصعب رصد الاستمرار الزمنى لها .. سواء فى العمل الأصلى أم فى النسخ المكررة له بين الاجيال التالية .

لكن يمكن الرد على ذلك بأن فى تسجيل تراجم الفنانين وتحليل اتجاههم وتحديد ملامح هذا الانتاج ابرازا لنقطة البدء فى كل ابتكار .. فمن تطور حياة الفنان وايقاعها نستطيع أن نعرف الكثير عن الوضع التاريخى الذى وجد فيه .. نعرف مثلا أن فنانا مثل سيزان هو كغيره من الرسامين الفرنسيين الذين اهتموا على وجه الخصوص بالنظام التركيبى للأشياء ، ولو تتبعنا لوحاته لوجدناها ذوات امتدادات الى القرن السابع عشر ، بل الى أنماط من الرسوم أبعد من ذلك بألف سنة تقريبا .. موجودة على جدران فى Herculaneum و Boscoreale غير معروف لهـا صاحب .. ونستطيع أن نخرج من أمثال هذا النوع من الدراسة الى رصد العمر الزمنى لمثل هذه الاعمال بالتقريب .

ومع ذلك لا يمكن الاعتماد على دراسة هذه التراجم وحدها .. لأنها فضلا عن كونها تربطنا بالمعروفين من الفنانين دون غيرهم ، فانها تشدنا الى الفترة الأحدث دون الأقدم بسبب سهولة الحصول على معلومات عن الفنانين المحدثين .

ثم ان هذا الرد يتجاهل تماما الأعمال الفنية الثائرة التى تتسم بالخروج على القديم ، والبحث عن أساليب جديدة ومضامين عصرية مبدعة .. نعم ان سلسلة التطور الفنى لهذه الأعمال لايمكن عزلها عن سابقاتها أو قطعها عنهـا ، لكن هناك علامات على طريق هذا التطور تكون من البروز بدرجة لا يمكن التغاضى عنها .. مثل الاعمال الرائدة لمايكل انجلو قديما والاعمال المتحدية لشرعية التقاليد عند بيكاسو حديثا . وهنا يحق لنا أن نقول ان مقياس الخلود فى مثل هذه الاعمال الثائرة يرتبط باستمرار مدارسها الفنية التى سارت على نهجها ، واستطاعت أن تمتص كل اتجاه ثائر نبت فى مجتمعات أخرى .. فاستتبع ذلك وجود فنانين مكررين له ، حتى لو

أحدثوا فيه تعديلات أو تطويرات فتظل في حدود الاطار العام لهذا الاتجاه الثائر بشكله ومضمونه على السواء .

ولنا في الثورة الفرنسية ومافجرته من طاقات فنية في مجتمعات أوروبا كلها لأعظم الأمثلة على ذلك .. نجـد أن موتسارت مثلا قد اتخذ من رواية بومارشيه ـ وهو أحـد زعمـاء الثورة الروحيين ـ المعروفة باسم « زواج فيجارو » نصا لأوبرا من أوبراته . كـذلك وجـدنا بيتهوفن الألمـاني يتأثر بأوبرا الموسيقى الايطالي لويجي كيروبين الذى عاصر نابليون وعاش في فرنسا.. تأثر في أوبراه «فيديليو» بأوبرا «اليومان» ، اذ نشـعر بسورات فرح غريبة تربط بين الاثنتين كنتيجة للتحرر من الخوف ، بل وجدنا أن صفاء هـذه الموسيقى الأخاذ ينطبع على لوحات فنان تشـكيلي فرنسى آخر هو آنجر فتسودهما هذه النغمة نفسها .

وهكذا تتـكرر الاعمال مؤكدة صمود العمل الفنى الخلاق أمام التغيرات الاجتماعية التى تطرأ عليه .. حتى ولو تغيرت أنماطه .. ذلك لان كل فن يستخدم مادة وسيطة قد تم تشكيلها وفهمها بالفعل بوصفها لغة .. فتنزع هذه اللغات الفنية الى تكوين وحدة قـد لا تترك مجالا للتجديد أو التفرد ، وها نحن نكاد نسمع كاندنيسكى وهو يروى ذكرياته عن الاثر العميق لرمبراندت عليه بقـوله «**للوحاته ديمومة ينبغى النفاذ فيهـا واكتشافها اكتشـافا دقيقا ، ولهذا فهى تضـم عنصرا يبدو متعارضـا مع الرسم ـ الا وهو الزمن ـ فهو يستخدم الضـوء القاتم ويقـدم أسطحا ثانوية مع طريقة خاصة فى رص الالوان .. لذلك فقد سيطرت على دائما مشكلة جعـل المشاهدين يتمشون داخل اللوحات** » .

قيم المضامين :

لندع هذه التفـاصيل التقنية والاسـاليب المتعـددة .. لأنهـا قد تنحرف بنا الى دهاليز الشكل التى لا آخر لها ، فنقبع فيهـا مقتصرين عليها ، وننسى الشق الآخر من العمل الفنى .. ألا وهو القيم التى يتضمنها .. ولمـا كانت هذه القيم هى التى تنبع من الانسـان وتنتهى اليه أيضا .. أى أنه هو مبدعها لتخدمه فى كل نمط من أنماط حياته .. **فان فلاسفة الفن الذين عنوا بهذا الاتجاه الحق هم قبلتنا فى تعرف شروحهم، وتحسس دقائق الخلاف والاتفاق بينهم .. فهل نتوصل الى وحدة لغـة لفلسفة الفن نابعة منهم مثلما تتناغم لغات الفنون فى موادها الوسـيطة لتشكل وحدة مؤثرة فى حقبة من الحقبات ؟..**

هل نتخذ من الجمال كفـكرة أو حقيقة كلية عنـد هيجل أساسا لهذه الوحدة اللغـوية فى فلسفة الفن ؟ أم نضم اليهـا المطلق ذاته المتأمل فى ذاته ـ على حد قوله ـ للوصول الى الحق ، ومن ثم نجعل لقيمة الفن مفهـوما أخلاقيا يمكن من نمـو المجتمع فى الروح الـكلية ، ويصبح الانسـان أخلاقيا بالاذعان الارادى للمطالب التى تراها الجماعة ضرورية لايجاد طراز أعلى فى حياة الروح ؟

لكن الغـاية للفن هى تقديم الحياة فى صورة حقائق لا المعاونة فى تفسيرها بوصفها حقائق أو فى توجيهها بوصفها قيمة .. **فهى غاية عظيمة** الأهمية وفقـا لمقتضياتها لأنهـا تكشف جانبا حقيقيا وضروريا فى الحيـاة .. لا نركن به الى عزلة المطلق أو المثال عن الحياة التى لا يرضاها منطق الحياة أو يقبلها الأحياء .. فضلا عن رفض الادراك العلمى للأشـياء لمثل هذه المطلقات أو المثل .

قد يرى آخرون أن اللجوء الى الادراك العلمى فى فلسفة الفن تسعنا.. باعتبار أن الواقع الذى يبحثه العلم هو ذرات وقوى لها خصائص مكانية وزمانية قـد قامت بتحديدها تصورات طبيعية رياضية ، ومن ثم ليس هـذا هو الواقع الذى يتضمنه الفن ، لكن واقـع العلم ليس هـكذا دائمـا .. انه موضوعات لها صفات كثيرة من حيث الكيف ، ومحـددة تحديدا كاملا ، وتبلغ أهمية عظيمة نصادفها فى التجربة العادية .. ألا وهى الاحداث المـكونة للنظام الأوحد والشامل للواقع .. الذى يرجع اليه كل من الفن والعلم على السواء .. ومن ثم نسميها أحداثا أو وقائع تمهد للحقائق والقيم التى تتلاءم معها وتكملها .

ويدفعنا التـحدث عن الفن والعلم الى كلمات بيلينسكى فى تعريفه لفن الشعر خاصة والفن بوجه عام فيقول « **ان القانون الاول فى الابداع يقـوم على أن هذا الابداع مطابق لغائية بدون غاية ، وأنه واع بدون وعى طارحا جميع النظريات والمذاهب ، ما عدا تلك التى يحتويها فى داخله، والتى استنتجتها قوانين الفكر الانسانى وتجارب العصور على الآثار الفنية ، وبالتـالى ليس العلم هو الذى ولد الفن ، ولكن الفن والد علما خاصا هو علم الجمال . فالفن على هـذا النحو ، حق وجمال عندما يظل مخلصا لنفسه لا للعلم ، واذا**

ما أخلص للعلم ، فانه يخلص لذلك العلم الذى خلقه بنفسه • وانه لحقيقى أن العلم حاول دوما أن يخضع الفن • ترى ماذا كانت النتيجة ؟ موت الفن ، كما يشهد على ذلك الادب الفرنسى الكلاسيكى » •

لكن بيلينسكى وهو يخلص الفن من ربقة العلم الطبيعى والرياضى ، ويمنحه حرية هى أقرب الى وجهة النظر الرومانسية •• يفترض ـ فى الوقت نفسه ـ نظاما على الفن أن يلتزمه •• هو شعاره الشهير « **لا واع مع الوعى** » •• والوعى هنا هو ادراك الفنان للعالم الذى فرضه عليه عصره •• بمعنى أن الفن المعاصر لا يمكن أن يرفض بصورة واعية خدمة المجتمع والانسان ، والفنان هنا لا يستوحى موضوعه من شىء مملى عليه ، وانما من وظيفته الاجتماعية التى اختارها لنفسه •

بل ان بيلينسكى تمادى فى تحديد هذا النظام فصاغه فى خمسة قوانين هى :

١ ـ الفن حقيقة فى قالب تأمل ، ومنتجاته افكار مجسدة أصبحت قابلة لأن تلمس ، فالفن والفلسفة لهما بالتالى مضمون واحد هو الحقيقة المطلقة •

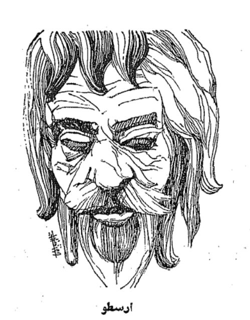
٢ ـ ليس الجمال سوى شرط ضرورى لكل تعبير مادى للفكرة •• والبساطة هى جمال الحقيقة •

٣ ـ الأثر الفنى هو التعبير العفوى عن فكرة مشخصة فى شكل مشخص •

٤ ـ الأثر الفنى هو الانتقال مما هو مضمر الى ما هو واقع •

٥ ـ لا فن بدون وحدة فى الفكرة ووحدة فى الشكل ووحدة بين هاتين الوحدتين •

ويبدو تأثير هيجل واضحا ـ وعلى وجه الخصوص ـ فى القانونين الأول والثانى • لكن الحرية التى نشدها بيلينسكى للفن ما لبث أن وضع لها هذه القوانين التى كبلتها •• لدرجة أن مفكرا ملتزما مثل بليخانوف لا يرضى للفن أن يضع لنفسه مجرد غاية حتى لا تفرض عبودية عليه •• لذلك فهو فى تحليله لأفكار بيلينسكى يدين عبودية الفن ، ولا يرتاح الى رؤية فن موجه خاضع للتأثير السياسى • نعم يعترف بليخانوف بالطابع الطبقى للفن ، ولكنه كماركسى •• يقصد طبقة البروليتاريا ، ويعتبر أن الفن فى هذا


ارسطو

الوضع الطبقى يجب أن يكون لا واعيا ، باعتبار أن دوره هو التعبير الموضوعى عن الحياة •

لكن أية حياة ؟! انها البيئة المحيطة بالفنان ، وهى خاصته النفسية التى تعكس العصر ولا تفسره •• ذلك لأن تفسير المادية لنفسية مجتمع ما أو طبقة من الطبقات يستند الى البنيان الاجتماعى الذى يخلقه التوسع الاقتصادى •• ومعنى هذا فى نظر بليخانوف أن التأثير الاقتصادى على الفنان لا يتم بصورة مباشرة •• بل يحدث على مراحل مرتبة •


ف • هيجل

أولها .. حالة القوى المنتجة .

ثانيها .. العلاقة الاقتصادية المقيدة بهذه القوى .

ثالثها .. النظام الاجتماعي والسياسي القائم على قاعدة اقتصادية معينة .

رابعها .. الحياة النفسية للانسان الاجتماعي التي يتحكم فيها الاقتصاد مباشرة من جانب ، والنظام الاجتماعي والسياسي القائم على الاقتصاد من جانب آخر .

خامسها .. مجموعة العقائد المختلفة التي تعكس هذه الحياة النفسية .

لكن هل تشبع هذه المراحل ظاهرة الابداع الفني وتغطيها من جوانبها كافة ؟!

اننا نطرح جانبا فكرة التحليل النفسي وتفسير الفن تفسيرا نفسيا .. ذلك لأن **فرويد** جعله الاساس الأوحد للتفنن ، وبهذا المبدأ أيضا لا نستطيع أن نقبل اقامة هذا التفسير على أساس التأثير الاقتصادي وحده .. لأننا كما سلمنا منذ البدء بأن آفاق الفن أرحب من أن تتقوقع في أقبية النفس أو أن تصير سلعة في سوق الاقتصاد .. فاننا نسلم أيضا بأن السمة الغالبة على مجتمع من المجتمعات ليست بثابتة وتخضع لتطوراته عبر القرون .. لذا قد تكون سمة الدين هي الغالبة كما قد تكون التقاليد أو الروح العسكرية أو الاقتصاد والعلوم غالبة في مرحلة تاريخية أخرى .

معنى هذا أن عوامل اجتماعية متداخلة تتفاعل معا في تشكيل هذه المجتمعات ، وتشكل قوالب التفكير والابداع خلال الحركة الدائبة لهذه المجتمعات نحو التقدم .. حيث تبرز واحدة من الظواهر المكونة للمجتمع لتكسب قوالب تفكيره وابداعه طابعها .

ومن ثم فاننا ان قبلنا تفسير بليخانوف للفن، نقبله على أساس مرحلي يتحتم على مجتمع ما المرور به .. ذلك لأن عملية الابداع وحيوية المجتمعات أقوى من أن تقف أو تجمد عند مرحلة من المراحل .. بل نستطيع القول بأن الفن هو المعبر عن هذه الحيوية لمجتمعاتنا ، وهو بالتالي الرابط بين مراحل تطوره .. هو كما يقول هربرت ريد وسيلة للاتصال .. اتصال القيم الاجتماعية بين الانسان ومجتمعه ، وبين المجتمع ومجتمعات أخرى، ومن ثم يصبح هو المقياس لحركة التاريخ.

لكن حيوية المجتمعات لا يجب أن توحي لنا بحيوية جمالية مثل تلك التي قال بها سيناي وبرجسون ، وجعلاها متوفرة في العمل الفني لا لشيء الا لاسترضاء النزعة العاطفية . فالمقصود بالحيوية هنا الظروف الجماعية للحياة .. لأنها هي كما يعرفها لالو « **التي تحدد من بين الملكات والتفضيلات أو الاستعدادات الفردية ، تلك التي ستكون جمالية ، وتلك التي لن تكون كذلك ، وتطبع في الاشخاص المختلفين أشد الاختلاف اتجاها مشتركا يسود في الواقع اختلافات أمزجتهم ، وتقرر ما اذا كان يمكن الافادة منها في هذا الميدان أو ذاك ، وما اذا كان سيكون لها هذه القيمة أو تلك** » .

ومن هنا نلمس أن الظروف الجماعية تخلق الاحساس بالرضا الجماعي المزود بالجزاء ، والاحساس بالتطور التاريخي أو الاجتماعي من خلال العمل الفني .

ومع ذلك لا يجب أن نتمادى مع لالو في نظرته التطرفية لتمجيد الحيوية الجماعية ، فلا نعترف معه بالنزعة العقلية أو الحسية أو العاطفية ، أملا في علم جمال تجريبي .. ذلك لأن الجماعية ليس معناها اللاانسانية ، بل هي الانسان في تجمعه وفي تذوقه للجمال بكل وسائل ادراكه .

اننا قد نجد في تناول **هاوزر** الهادىء لفلسفة تاريخ الفن اعتدالا يتيح لنا فرصة الأناة العلمية للتأمل في الزام المجتمع لشتى بنياته، وفي التزام الفن بمعايير مجتمعه ، الأمر الذي يمنح مبحثه قدرا أكثر من التميز على من عداه من فلاسفة الفن .. فها هو يقرر .. « **محال علينا أن ننبذ وجهة النظر الاجتماعيةفي الفن الا حين تزعم بأنها وجهة النظر المشروعة الوحيدة أو نخلط بين المغزى الاجتماعي للأثر الفني وقيمته الجمالية** » .

فمنهج النظرة الاجتماعية ـ كأي منهج علمي ـ عماده التحليل والتبسيط ، وذلك على عكس الفن الذي يتطلب النظر الى موضوعه ككل في تمامه.. فهو تركيبي لايقبل التجزئة ، ولو حاول الانسان تفتيت موسيقى أو لوحة تشكيلية لدراسة ابداعها الفني .. لفقدت كل منهما تناغمها واتساق دقائقها ، ولتحول كل منهما الى مسخ مثير للسخط لا للدهشة أو الانبهار .. فضلا عما يستتبع اختلاف طبيعة كل من المبحثين من اختلاف اللغة التي يستخدمها كل منهما، واختلاف مفاهيم نظرية الصدق بينهما . الأمر الذي يعود بنا الى التباعد بين حقيقة معنى الفن وطبيعة الاجتماع .



ف . كافكا

فما الحل اذن ؟

هل نلقى بالفن بين تهويمات الفلسفة أم بين موضوعيات العلم ؟ أم ترى يتملكنا اليأس منهما فنخلصه من كل ما علق به أقـوال .. فنرفض تعريفاته الفردية والاجتماعية على السواء ؟

ليس الفن تطهيرا أو لعبا ، وليس بعدا نفسيا أو استسلاما ذاتيا وسلبية ، وليس معرفة بغير ارادة أو تأملا أو تمثـلا ، وليس لذة أو عاطفة هادئة ، كمـا أنه ليس أخلاقيا ولا اجتماعيا ولا أثرا اقتصاديا .. ليس الفن هذا كله أو بعضه.. فما هو اذن ؟ لا نريد أن يدفعنا اليأس الى تأييد **شوبنهاور** .. فنعتبر أن الموسيقى هى المثـال الذى يجب أن تحتذيه سـائر أنواع الفنون .. باعتبـارها بلغت حدا من التجريد جعلها تعبيرا موحدا لدى سـائر الأفـراد .. وبذلك وصل الفنان الموسيقى الى مسـتوى التوحد بينه وبين غيره .

صحيح أن الموســيقى بلغت قدرا من التعبير المجرد يقربها من الرياضيات .. وهى فى ترتيب العلوم قمتها ، لكن نشدان هـذا التجرد الكامل لا يمكن تحقيقه كاملا فى الموسيقى .. فهى عمل فنى قبل كل شىء .. الأمر الذى يضطر فنانها الى **اختيار** وسيلة تعبيره الملائمة فى حدود أصوات لحنية متناسقة تطرق الأسماع ، أى أن الموسيقى تتخذ لها شكلا مناسبا يسـبب للانسان ارتياحا أو اقتناعا من نوع خاص .. وهنا تخضع كعمل فنى مجسم لتذوق الانسان .. قد يقبلها كما قد يرفضـها ، ويبدو هذا واضحا فى لوحات الفن ذات الاتجاه التجريدى .. انها قد تتضمن أملا فى عالم جديد لم يمكن تحقيقه ولا ما بعد الآن.. ولكن الألوان التى تقع العين عليها مفروض فيها أنها تخاطب مشاعر كامنة فى المشاهد قد عبر عنها الفنان بفرشاته .. الأمر الذى يكفى لشجب مفهوم التجرد .. لأن لحظات تذوقنا تبدو مرتبطة ارتباطا مباشرا بشئون الحياة ومهامها ، وتسوقنا الى قلب هذه الشـئون .. سـواء أكان تذوقنا لشىء مجرد أو على الأقل مظنون فيه التجرد أم لا ، وسواء أكان متضمنا لقيمة جمالية أم لا .

من كل هـذا نلمس مدى حيرتنا مع الفن بين التجريد والوعى والاختيار ، وبين وحـدة التعبير وتعدد المشاعر ، وبين وبين .. مع أن رحاب الفن أوضح وأبسط من كل هذه التفسيرات !! انها رحاب يتلقى فيها الجميع راحة واطمئنانا لا حيرة واضطرابا فى المفاهيم .

فكل عمـل فنى يتضـمن ثلاثة أنـواع من القيم .. **قيم وظيفية وأخـرى صـورية وثالثة تصورية .**

وظيفية .. بمعنى الاحاطة بالطابع الفعلى لأى شىء متميز مع العنـاية الشديدة بالصلات التى تربط هـذا الشىء بغيره من الاشـياء وبأنفسنا أيضا .

صورية .. بمعنى صدورها عن المادة الوسيطة فى العمل الفنى مثل الكلمات أو الاحداث أو الحجر أو اللون ، وعن صفات هذه المادة من قوام وثبات وتأثير حسى عنيف تجعـل الفنان ينصاع لهـا مضحيا باستبصاراته هو .

وتصويرية .. بمعنى قدرة الفنان على ادراك ما فى العـالم من شىء متميز وابرازه من خلال تجربته الفنية كما لو كان اكتشافا جديدا يقدمه للجماهير ، ومن ثم تتفاوت القدرة بين الفنانين من حيث التشبيه والتعبير فى ابراز هذا النوع من القيم .

لذلك فان الصور المتنوعة فى عالم الفن تتزايد بفعل حقيقة امتزاج القيم الفنية فى نسب متنوعة تنوعا لا نهائيا ، ومن زاوية أخرى فان عالم الفن تتفاوت صـوره من حيث وضوح الاستبصارات التى تقدمها ودرجة تجردها من الواقع أو تمسكها به لاعادتنا الى الأشـياء المألوفة ، كذلك تتفاوت الصور الفنية من حيث درجة الخصائص الحسية والقوام الصورى التى يحتـويها مظهرها المجسمة فيه استبصاراتها .. فتثير فينـا مشاعر السرور والارتيـاح .. كل هذه غايات يستهدفها الفن الصادق ، فهل نقضى بالتزام تحقيقها على هـذه الحيرة الفلسفية المعمرة ؟ لعل ..

جمال بدران

سقوط الفلسفة التشاؤمية

سمير كرم

• « إننا الآن فى الساعة الخامسة والعشرين ، هى ليست الساعة الأخيرة ، ولكنها الساعة الواحدة بعد الأخيرة ، والحضارة الغربية الآن صارت فى هذه اللحظة ، وهذه هى لحظتها » .



ينطلق تاريخ الانسان الآن بسرعة مذهلة . فلقد استغرق الانسان عشرات من القرون لا تحصى لكى ينتقل من العصر الحجرى الى عصر استخدام الفأس الحديدية . ثم استغرق قرونا عديدة أخرى قبل أن يصنع أول آلة يدوية . ولكن مائتى عام فقط أو أقل تفصل بين ثورة الانسان الصناعية الاولى وثورته الحالية ، الثورة العلمية التكنولوجية .

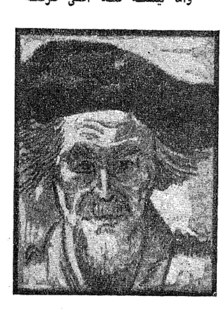
وفى هذا العصر المنفتح على آفاق لا أرحب منها من التقدم العلمى والثورة الاجتماعية والتطور السياسى الشامل للانسان تبزغ ظاهرة غريبة كنغمة نشاز ولكنها عالية الرنين تدق أسماع الانسان بأصوات كئيبة كأنها أصوات أشباح مخيفة لا تعرف من قاموس اللغة ومن معانى الفكر الا اللعنات والموت والضياع والعدم ..

لقد ساد الوجدان المتشائم اركان النظام الرأسمالى فى الجهات التى لا يزال يعيش فيها رغم قوته المادية وجبروته الآلى وآلاته الحربية الرهيبة .. ويسود الوجدان المتشائم أيديولوجية هذا النظام بكل ابعادها ومظاهرها فى الآداب والفنون والفلسفة والأخلاق والسياسة » وفى مسار هذه الايديولوجية السوداوية المتشائمة تنتشر على أوسع نطاق فى عالم الغرب افكار عن لا معقولية الحياة وعبث الوجود ، وأصبح المفكرون المتشائمون يشنون هجمات هستيرية على كل فكر يؤمن بالتطور الانسانى والتقدم الاجتماعى بصفة خاصة .

ولذلك صار فلاسفة راحلون مثل شوبنهاور هارتمان ونيتشه مناهل فكرية للمثقفين المنهارين فى الغرب لمجرد أن هؤلاء الفلاسفة كانوا « شرارة فلسفة التشاؤم التى تبغض الانسانية » . فشوبنهاور فى كتابه « العالم ارادة وفكر » ـ كما فى كتبه الأخرى ـ قد رفض جميع أشكال المذهب العقلى والتفاؤل ، وأعلن أن كل الآمال فى تحقيق أشياء أفضل آمال خادعة ونادى بفكرة أن « الحق والضرورة تدمير ارادة الحياة » !

ويلتقط هارتمان الخيط من حيث انتهى شوبنهاور ويعترض على مايسميه بالخرافات الثلاث : مكان تحقيق السعادة على الأرض ، التقدم الاجتماعى ، السعادة فى الحياة الأخرى . ويقول أن تطور اللا وعى فى أساس العالم سوف يبلغ ذروته بدمار العالم ، وأن الهدف النهائى لتطور العالم هو الخلاص من الألم الذى يرتبط ارتباطا ضروريا بالوجود .

وأما نيتشه فقد أعطى لنزعته



ن . برديائيف

التشاؤمية أقصى حد من العدوانية والبغض للبشرية ، فكانت فلسفته دفاعا عن القمع الوحشى للقوى الثورية وعن استخدام العنف ضد الجماهير ..

سباق نحو الموت

وفى الوقت الحاضر ـ وربما أكثر من أى وقت مضى ـ تنهمر على العالم مئات بل آلاف من المؤلفات والكتب والمقالات كلها تصور « سباق العالم الانسانى نحو الموت » وتصور العالم على أنه « يسير فى جنازة الانسان » . فنجد « عالم » اجتماع أمريكى يقول : « اننا الآن فى الساعة الخامسة والعشرين .. هى ليست الساعة الأخيرة ، ولكنها الساعة الواحدة بعد الأخيرة . والحضارة الغربية الآن صارت فى هذه اللحظة . وهذه هى لحظتها .

(جورجيو ، فيرجيل : الساعة الخامسة والعشرين ـ نيويورك ١٩٥٠ ـ ص ٤٩ .)

وهكذا يسود المفهوم التشاؤمى للعالم والحياة والتاريخ ـ باعتبارها كلها سلسلة من الأحداث التراجيدية المؤلفات الفلسفية والاجتماعية فى الغرب . والمؤكد أن جذور الفلسفة التشاؤمية متغلغلة حتى فى اقدم الفلسفات التى تقلل الى أدنى مستوى قيمة الوجود الدنيوى (الحسى) وتصفه بأنه هباء وتصف الموت بأنه الخلاص من عذابات الأرض ، وتبحث عن الحقيقة فى حياة أخرى مفارقة متعالية فوق الحس وفوق الطبيعة .

فلسفة النظام المتساقط

وتكشف المعالجة الموضوعية لهذا الجانب من النظر الفلسفى عن أن التشاؤم وتمجيد الموت مفهوم يسود ـ كقاعدة عامة ـ فى الأوقات التى يكون النظام الاقتصادى والاجتماعى فى مرحلة الاندحار أمام نظام اجتماعى

آخر أكثر تنظيما وأكثر تقدما من الناحية التاريخية . فان النظام المنهار ينظر الى انهياره على أنه انهيار للمجتمع كله وللحضارة كلها .

فسقوط النظام العبودي القديم أدى الى ظهور نزعة تشاؤمية بالغة العمق في أيديولوجية المجتمع العبودي . فاعتقد مفكرو العصر أن العالم قد فقد بريقه ومعناه العقلي ، وفقد حتى حق الوجود . وهذا ما يعبر عنه الفيلسوف الرواقي الامبراطور ماركوس اوريليوس في قوله « البشرية كلها دخان . البشرية كلها لا شيء » .

ويتكرر نفس الشيء للايديولوجية الاقطاعية في مرحلة انهيار النظام الاقطاعي . فمع اقتراب الاقطاع من نهايته التاريخية نجد مفكريه يطلقون التنبؤات المتشائمة عن مستقبل الانسان . ويصفون الأرض بأنها مسكن مؤقت على الطريق نحو عالم آخر مبارك ، « ويحذرون من الحساب الأخير » . ومع ذلك فان ايمانهم بهذا المصير وبالحساب الأخير أيضا لم يكن يمنع الطبقة الاقطاعية الحاكمة من التمتع الى أقصى درجة بهذه الحياة والانغماس في أحط الملذات ، وكان الشعار الذي ساد وقتئذ « نحن .. وبعدنا الطوفان » ، تردده طبقة الملكية الفرنسية داخل البلاط قبل وقت قصير من انفجار الثورة الفرنسية !

لقد كان الاقطاع وقتئذ يفسر كل خطر يتعرض له بانه خطر قاتل يهدد الحضارة كلها . ولذلك سادت في تلك الحقبة « فلسفة الحشر » وأفكارها . فنجد فلاسفة الملكية الفرنسية - أمثال جوزيف ماري دي ميستر ولويس جابريل أمبرواز دي بونال - يصفون الانتقال من العلاقات الاجتماعية الاقطاعية الى العلاقات الاجتماعية البورجوازية بأنه خطر مميت على الحضارة وعلى استمرار وجود الجنس البشري !

وفي الوقت نفسه كان المفكرون المعبرون عن النظام الجديد يدعون لافكار متناقضة لهذا تماما عن «التقدم» وعن « الرخاء الأبدي » مع صعود النظام الراسمالي . فنجد المفكر الفرنسي جان أنطوان كوندروسيه يكتب مقالا ليثبت أنه لا حدود لعبقرية الانسان الخلاقة يقول فيه « ان ملكة التحسين لدى الانسان لا حدود لها حقا . ومن ثم فان تقدم هذه الملكة مستقل تماما عن أية قوة قد ترغب في وقفها .

الوجوديون .. أخلص المتشائمين

وفي العصر الحاضر فان الوجودية هي اخلص من « طور »الفلسفة التشاؤمية وبلغ بها أقصى آمادها، لافرق في هذا بين الوجوديين الايمانيين والالحاديين.. حيث لا سبيل الى القول بأن فكرة « الخطيئة » المسيحية هي وحدها مصدر النزعة التشاؤمية لدى الوجوديين ..

كارل ياسبرز يقول بأن الانسان يواجه أربعة « مواقف أساسية » في العالم لا يستطيع أن يغيرها أو أن يتجاوزها : « الموت » - « الألم » - « الصراع » - « الاثم » . الموت عنده هو الذي يسم كل مانعلمه بطابع النسبية ، ومن ثم فانه لابد لنا من أن نتقبله باعتباره الغاية القصوى لكل وجود تجريبي ، أو باعتبار أن حياتنا الزمانية لايمكن أن تدوم الى ما لانهاية. ان ادراكي لحقيقة وجودي قد يكون الكفيل باظهاري على أن حياتي مزيج من السعادة والشقاء وأنه لابد من أن نتارجح بين هذين القطبين . « فانا أحيانا دائما في شبه توتر بين الارادة التي بمقتضاها أميل الى تقبل الألم ، وذلك الضعف الذي بمقتضاه لا أقوى على تقبله باخلاص تام » .

جابريل مارسيل الوجودي المسيحي يقول : « انني مقتنع باننا نقترب من نهاية التاريخ . فمن المحتمل تماما أن كثيرين منا سوف يشهدون النهاية التي أتى الوحي بها »
(مارسيل : الناس ضد الانسانية . ص ١٦١) .

ويقول أيضا « ان كون حياتي يمكن أن تظهر حياة بلا معنى هو جزء لا يتجزأ من بنيانها ... في عالم فقد الوجود الانساني فيه وزنه الأنطولوجي» (مارسيل: العالم المكسور - ص ١٤٤).

مارتن هايدجر الفيلسوف الالحادي الوجودي ، لا يختلف الأمر عنده ، فهو يضعها صريحة قاطعة « تاريخ الوجود يبدأ بسقوط الوجود » . ان وجودنا في صميمه متناه ، وهذا التناهي نفسه قد يكون اقرب الينا من صميم ذواتنا ، وليس للتناهي من معنى سوى الفناء أو « قابلية الموت » . الانسان هو الموجود الوحيد الذي يدخل الموت في صميم وجوده باعتباره أعلى ما لديه من امكانيات . فهذا الحد الأليم - حد الموت أو الفناء أو التناهي - هو الذي يحدد الوجود الانساني ويميزه ، بحيث قد يكون من الممكن أن نقول أن الوجود البشري بطبيعته وجود للموت أو وجود « من أجل الموت » . فنحن مجعولون للموت .. هذه واقعة جوهرية .. وربما كانت الحكمة أن يتقبل الانسان الواقع كما هو ، فياخذ على عاتقه حياته الفانية ، ويمتثل للموت باعتباره أعلى امكانية في امكانيات وجوده الانساني . ان الوجود لا يبرز الا من قرارة العدم، كما أنه لابد أن يهوى الى هوة العدم. (انظر : الدكتور زكريا ابراهيم - المرجع السابق - ص ٩٥ - ١٠٤)

نيكولاي بردياييف الفيلسوف الوجودي الروسي المهاجر ، ينقلنا الى بعد آخر في فلسفة التشاؤم.ان الموت والفناء عنده ليس قدرا ميتافيزيقيا كما هو عند ياسبرز وهايدجر مثلا ، ولكنه موت وفناء « تصنعه التكنولوجيا » !
« ان اعظم خطر هو أن التكنولوجيا تهدد الانسان نفسه . ان قلب الانسان يقشعر ازاء برودة المعادن. لقد صالح الانسان مجتمعا منظما وهو يستخدم الآلات على نطاق واسع لتحقيق سيطرة كاملة على الطبيعة ، ولكن نظرا لمجموعة رهيبة من الظروف يصبح الانسان عبدا أكثر وأكثر لما قام هو نفسه بخلقه .. ان رؤى مخيفة تراودني : فسياتي وقت ستكون الآلات فيه من الكمال الى حد

أنها ستعمل دون تدخل الانسان تماما وتكتسب فى النهاية ملكية العالم . سوف تنتصر السيارات والطائرات على السرعة ، وستملأ أجهزة الراديو العالم بأصوات ميتة ، اما آخر الناس فسيصبحون كثيرين وعاجزين عن التنفس والعيش فى هذه البيئة التكنولوجية ويموتون تاركين وراءهم عالما جديدا من خلق عقولهم وأيديهم » .

(عن كتاب : ج . فولكوت : عصر الانسان أو الانسان الآلى ؟ موسكو - ١٩٦٧) .

اضعف منها الى حد انه قد يسقط عبدا لمخترعاته .

ويدرك بعض فلاسفة الغرب ومفكريه - حتى التشاؤميين منهم - أن مصدر التشاؤمية يكمن فى أعماق النظام الرأسمالى نفسه. ويمكن أن نجد مثلا لهذا الادراك عند المؤرخ البريطانى ارنولد توينبى . « ان مستقبل الطبقة الوسطى الغربية موضع تساؤل الآن فى جميع البلاد الغربية . ولكن النتيجة ليست مجرد القلق على قسم ضئيل من الجنس البشرى يتأثر تأثرا مباشرا ، لأن هذه الطبقة الوسطى الغربية - هذه

م . هيدجر

والسمة المشتركة بين فلسفات التشاؤم هى تجاهل الأبعاد الموضوعية « لشرور العالم » التى تتحدث هى نفسها عنها وتضفى عليها طابع الأشياء المطلقة ، فالشر القائم فى العالم « موجود فى الانسان » ولكنه فى رأى هذه الفلسفات - ليس من صنع الانسان . لقد تعلم انسان القرن العشرين كثيرا فى مجالات العلم والتكنولوجيا ولكن هذه المعرفة الواسعة، فى رأى الفلسفات التشاؤمية ، تخلق فى وجهه مصاعب جديدة لا يستطيع أن يحلها . وفى زعمها أن الانسان قد سلح نفسه بقوى خارقة فصار هو

الأقلية الضئيلة - هى الخميرة التى اختمر بها الكل فى الأزمنة الحديثة والتى خلقت بذلك العالم الحديث . فهل يستطيع المخلوق أن يعيش بعد خالقه ؟ واذا تحطمت الطبقة الوسطى الغربية ، فهل ينهار معها بنيان الانسانية وهى تسقط ؟ مهما كانت الاجابة على هذا السؤال المصيرى فمن الواضح أن ماهو ازمة لهذه الأقلية الرئيسية هو - بالحتم - أزمة أيضا لباقى العالم » .

(توينبى : الحضارة فى الميزان . ص ٣٠) .

نهاية الطبقة .. أو نهاية الحضارة

يعترف توينبى هنا بأن الامراض القاتلة للنظام البورجوازى هى مصدر النزعة التشاؤمية ومصدر الرعب الذى يعانيه المدافعون عن العالم القديم . ولكن من الواضح أنه يرى أن نهاية الطبقة الوسطى الغربية تحمل فى طياتها نهاية الحضارة كلها .. لايختلف فى نظرته هذه عن نظرة الفيلسوف التشاؤمى الرومانى فى نهاية العصر العبودى ، أو الفيلسوف التشاؤمى الفرنسى قبل الثورة الفرنسية ضد الاقطاع .

وقد وجد الفلاسفة وأصحاب النظريات الاجتماعية التشاؤمية حجة أساسية لهم فى القول بحتمية وقوع الحرب الذرية . فالكتب تملأ العالم الغربى بالتنبؤات والاوصاف عن «الجنون الذى أصاب البشرية» والذى سينتهى بها الى حرب كلية شاملة تدمر كل شىء . ويركز هؤلاء كل جهدهم على القاء اللوم - فى التشاؤم المسيطر عليهم - على «الطبيعة البشرية» أو مايسمونه أحيانا بالدافع الداخلى لدى

الانسان لافناء ذاته الناشىء عن نزوعه الطبيعى للحرب ، وعن «الاختلاف التراجيدى بين مستوى تطوره العقلى ومستوى تطوره الاخلاقى» . وهم يعتبرون هذه المفارقة «أصل البلايا» ومصدر المتناقضات المتطاحنة فى حياة الانسان . ويمضون فى محاولة اضفاء الصبغة العلمية على نزعتهم التشاؤمية الى حد وضع تفسير بيولوجى صارخ فى تعسفه لهذا التشاؤم . فيقولون أن هناك حدا مقدرا لقدرة الجسم البشرى على التكيف مع التغيرات الحادة التى تحدث فى الوسط الخارجى الذى يعيش فيه ! وهم يقصدون بذلك اشتداد سرعة ايقاع الحياة والظروف التكنولوجية القاسية والجهد العصبى والتلوث الذرى للاجواء والبحار وحتى أنواع الطعام والعادات القلقة فى تناوله . ولاشك أن كل هذه الانماط السلوكية والعوامل الاجتماعية موجودة ومؤثرة فى حياة الملايين من البشر

وصحتهم ، وهى فى النهاية تنال من آمالهم فى الحياة . وهى تضع أيدينا على حقيقة هامة هى أن الحقائق التى من شأنها أن تحقق الانسان والحياة البشرية بالخوف وانعـــدام الثقة بالمستقبل عديدة . وهناك من يرجعها جميعا الى ((الآلة)) ويعتقد أن الآلةقد انقلبت على صـــانعها ـ الانسان ـ واصبحت وحشا مدمرا يحـاول أن يقضى على عقل الانسان وقلبه ويحيله الى أداة طيعة . ولهذا تنتشر عناوين للكتب والمقالات والروايات مثل ((عصر الانسان الآلى)) ـ ((الانسان تحت حكم الانسان الآلى)) ـ ((تمـرد الانســان الميكانيكى)) ! ولهـــذا يعبر الـكتاب الاجتماعيون واللاهوتيون الغربيـونعن الرعب من عصر الآلة . ويقول اميـل برونر ـ وهو لاهوتىسويسرى معروفـ فى وصف عصر الآلة .

((ان ملايين لاحصر لها من النـــاس تتجمع فى مدن ضخمة خالية منالروح بروليتاريا بلا صلة بالطبيعة ، بدون جذور وطنية أو جيرة ، انهـــا تعنى حضارة الاسفلت والقوالب والمقاييس الموحدة . انها تعنى الرجـال الذين خلصتهم الآلة من التفكير والارادة ، وتحولوا هم أنفسهم الى خدمة الآلة بايقاع محدد من قبل وبطريقة نمطية واحدة . انها تعنى الضجيج والاندفاع غير المحتمل ، البطالة وانعدام الامنفى الحياة ، وتركيز القـوة الانتاجيـة والثروة والجـــاه فى أيد قليلة أو احتكارها بواسطة بيروقراطية الدولة. (برونر : المســيحية والحضـــارة ـ بنويورك ـ المجلد ٢ ـ ص١٠ .)

انكار التقدم الاجتماعى

على أن المصدر المباشر الذى ينبثق منه المفهوم التشاؤمى فى التاريخ هـو انكار التقدم الاجتماعى . فان اتخاذ وجهـة نظر تشاؤمية ازاء حـــاضر الانسانية ومستقبلها هو انكار لصعود المجتمع من الادنى الى الاعلى والادعاء بان المجتمع ينزلق مع الزمن نحـــو الانقراض . على انه ينبغى التنبه الى أن انكار مقولة التقدم لم يكن جزءا من الفكر البورجوازى الغربى عندما كانت البورجوازية فى اتجاه الصعود كنظام اجتماعى اقتصادى . وهـــذا مايعنيه المفكر الماركسى الفرنسىلافارج حين يقول : ((ان فكرةالتقدم والتطور كانت شائعة فى أوائل القرن التاسـع عشر عندما كانت البورجوازية لاتزال فى سكرة انتصارها الســياسى ونمو ثروتها الاقتصادية الى درجة مدهشة. فكان الفلاسفة والمؤرخون والاخلاقيون والسياسيون والروائيون والشـــعراء يطعمون كتاباتهم وخطبهم بزخـارف التطـور المطـرد .. ولكن فى منتصف القرن التـــاسع عشر اضطروا الى الاعتدال فى حماسهم غير المحدود .فان ظهور الطبقة العـــاملة على المسرح السياسي فى بريطانيا قد أثار الشكوك بين البورجوازية حول خلود سيطرتها الاجتماعية . لقد فقد التقدم بالنسبة لهـــا فتنتـــه (لافارج : الحتميـة الاقتصادية عند كارلماركس .. باريس ص ص ١٦ ، ١٧ .)

واليوم تشن البورجوازية هجـوما عنيفا على مفهوم التقـدم ويهـــاجم الفلاسفة الغربيون فكرةالتطورالصاعد ويهاجمون منطق التاريخ وامكانالمعرفة التاريخية من أساسها ، ولعلهمكانوا يتمنون أن يستريحوا تماما من مفهوم التقدم بمرسوم كالذى أصدره قيصر روسيا نيقولا الاول بتحريم استخدام كلمة ((التقدم)) !

جنزبرج: ((لم تكتشف بعد أيةقوانين جنزبرج : ((لم تكتشف بعد أية قوانين للتطور الاجتماعى ، وبالتالى للتقدم)) وهو يؤكد أن مفهوم التقدم ينبغى أن يستعاض عنهبمفهوم ((التغير))الاجتماعى فالتغير قـد يكون للاعلى أو للادنى ، ولايعبر عن الاتجاه النوعى ولايستلزم تقديرا صريحا ولا معيارا موضـــوعيا (جينزبرج : اعادة تقييم لفكرة التقدم لندن . ص ٤٨) .

ويعلن فلاسفة التشاؤم أن التقدم ليس مفهـوما علميـا وانما هو تقييم أخلاقى فحسب للوقائع يتميز بالذاتية التى تتميز بهـــا كل التقييمـــات الاخلاقية . وحجتهم فى ذلك أنه فى المجالات الاجتماعية ليس هناك معيار واحد للتقدم وأن ما يعد من زاوية ما تقدما يعد من زاوية أخرى ارتدادا . ويقول عالم الاجتماع الفرنسي المعاصر ريمـون آرون ((ان نظـم الحـكم السـياسية المختلفة يمكن اعتبـارها حلولا مختلفة لمشكلة واحدة. والانتقال من حكم لآخر ليس انتقالا من شر الى خير أو من أدنى الى أعلى ، وانمـا هو انتقال من حل لحل آخر ، كل منهما له مزاياه ومثالبه)) (آرون : ١٨ درسـا فى المجتمع الصـناعى . باريس ـ ١٩٦٢ ـ ص ٨٦) .

وهـــذا التدليـل انما يقـوم على فردية ذاتية نسبية يمكن بها تبرير كل شىء كما يمكن بها اســتنكار كل شىء . لقد اخترع آرون معيارا خاصا به للتقدم فهو يقول انه ((انتشار)) هو فكرة يمكن التعبير عنهـا كميا . وهو لهذا لا ينكر التقدم فى العلم وفى مجال القوى الانتاجية وينكره فقط فى المجال الاقتصادى . ولهذا أيضا يقول أن أكثر الاقتصــاديات تقـدما ليس بالضرورة أســلمها ، ويقـول بالتحديد انه لم يثبت أن ظروف عمل الانســان تتحسن خطوة بخطوة مع تحسن الانتـاج بالنسبة لكل فرد من الســكان . كما لم يثبت أن توزيع الخيرات المتـاحة بين الناس يصبح أسـلم بالضرورة مع ازدياد الثـروة الاجتماعية .

وتمتد هذه التفرقة بين التقدم فى المجـال العلمى والتقـدم فى المجـال الاجتماعى لتكتسب معنى أبعد عنـد ياسـبرز الذى يشـير الى التقـدم التكنيكى بقوله انه فى هـذا المجـال بالذات يمكن أن نعتبر أن التاريخ فى صعود فعلا ((أما بالنسـبة للبشرية مـن حيث هى بشـرية ومـن حيث أخلاقيات الانسان ومن حيث عطفـه وفطنته، فانها لاتتقدم. ويمد ياسبرز هـذا المفهـوم التشـاذلى ليشـمل

الحضارة كلها فيدلل على عدم امكان تأكيد التقدم بالقول بأن حضارات أعلى كثيرا ما هزمتها حضارات أدنى، بل ان « كل شيء عظيم يسقط ، وكل شيء صغير يدوم » ويؤكد ياسبرز أن « الصدام والاخفاق هما السمتان السائدتان في التاريخ » .

ولكن الحقيقة العلمية هي ان مفهوم الدينامية ليس مفهوما لمجرد الحركة والتغير . ان العالم يعتريه أكثر من مجرد التغير . فالتغير يتم فيه على مستوى أعلى والى جانب هذا فهو تغير موجه . ذلك أن مصالح الانسان واهتماماته الحيوية تدفعه الى تجاوز الانظمة الاجتماعية القديمة . ومن المسلم به في الفلسفة الجدلية أنه في مراحل معينة من التطور الاجتماعي – اذا أخذت ككل – قد تكون هناك ظواهر نقوص . وأنه على طول تاريخ المجتمعات الاستغلالية يكون هناك مقابل كل تقدم نكوص أو ارتداد نسبي . ويؤكد ماركس وانجلز هذا المعنى في قولهما «ان رخاء وتطور مجموعة ما يتم على حساب بؤس وكبت المجموعة الأخرى » .

ولكن الظواهر اللولبية والارتداد الجزئي في التطور التاريخي لاتستبعد التقدم الاجتماعي كاتجاه عام للتاريخ . «ان كل الانظمة التاريخية المتعاقبة ليست سوى مراحل انتقالية في المسار اللانهائي لتطور المجتمع الانساني من الادنى الى الاعلى (ماركس وانجلز : المؤلفات المختارة – المجلد (٢) – ص ٣٦٢) .

نظرية الدورة التاريخية

وتعبر الفلسفة التشاؤمية في التاريخ عن نفسها بصورة أخرى غير صورة الرفض الصريح لمفهوم التقدم، فان نظرية « الدور التاريخي » هي تعبير آخر عن هذه الفلسفة الرافضة للتقدم سواء بعدم الاعتراف بامكانه أو بعدم الاعتراف بوجوده أو بعدم الاعتراف باستمراره . وتذهب فكرة تكرار « الدورات التاريخية » الى أن الانسانية تعود الى نقطة البداية بعد أن تمر ببعض المراحل حتى تكرر ما مرت به فعلا . وتنبع هذه الفكرة من تفكير يخضع لاحكام ميثولوجية مبتسرة رغم احتواء نظرية الدور التاريخي في أساسها الى بعض أفكار معقولة كانت تناسب بداية ظهورها .

وعلى سبيل المثال فان فلسفة التاريخ عند فيكو – في النصف الاخير من القرن السابع عشر والنصف الاول من القرن الثامن عشر – كانت تربط بين الفكرة غير العلمية عن تكرار الدورات التاريخية والفرض العلمي بان القوانين التي تحكم التاريخ قوانين موضوعية . ولكن الدعوة في القرن العشرين لمثل هذه النظريات أمر يختلف تماما . لان التطور العلمي الهائل والتجربة التاريخية للانسان يفندان تماما فكرة تكرار الدورات . والفرض من هذه النظرية هو تكرار المراحل الاجتماعية وحرمان الانسان من الاعتقاد بامكان مستقبل افضل . ويعتبر شبنجلر – وهو من المهدين للايديولوجية النازية – من أبرز انصار نظرية الدور التاريخي وأكثرهم حماسا لها . وهو يؤمن بأن الحضارات الانسانية المختلفة لا تكاد تكون بينها اشياء مشتركة وانها تتطور مستقلة عن بعضها وانه ليست هناك حضارة تثرى حضارة أخرى وأن دروب الحضارات لا تتلاقى أبدا . ويلتقي شبنجلر في كل هذا مع توينبي رغم اختلاف تفسيراتهما السياسية والاجتماعية للمشكلات التاريخية . ويرى شبنجلر انه لا تقوم أية حضارة بدون الشرط التاريخي لحضارة أخرى ، وهو بذلك ينكر مفهوم التطور الصاعد للتاريخ الانساني . وهو يقول بالتحديد « أنني بدلا من الصورة الرتيبة لتاريخ كخط مستقيم أرى مرآة من الحضارات القوية ... كل من هذه الحضارات له فكرته الخاصة وأهواؤه الخاصة وحياته الخاصة ، وارادته وشعوره وموته الخاص ... فكل حضارة لها مسئوليتها الخاصة وتعبيرها الذى ينشأ وينضج ويذوى ولا يتكرر مرة اخرى أبدا .. انى أرى في تاريخ العالم صورة بدء وتغير أبديين ، نشوء اعجازى ومرت للاشكال العضوية بينما المؤرخ المتاصل ينظر اليه على انه دودة شريطية تضيف – بلا كلل – فترة الى فترة » (انهيار الغرب : صص . ٢٧ و ٢٨) .

وانكار العلاقة المتبادلة والاثراء المتبادل بين الحضارات والثقافات المختلفة لايتفق مع الحقائق الموضوعية فان الفلسفات والفنون والديانات القديمة الصينية والهندية – مثلا – تعد من المصادر الايديولوجية للحضارة الاغريقية القديمة . كما أن حضارة الرومان بكل ملامحها المميزة قد ورثت كثيرا من القيم الروحية التي خلقها اليونانيون . وعلاقة الديانة المسيحية نفسها تربطها روابط تكوينية بالعالم الاغريقي الروماني والديانة اليهودية والميثولوجيا الفارسية والحضارة المصرية القديمة . ومن الامور الثابتة تاريخيا أنه «حيثما جرى اتصال بين شعوب من سلالات مختلفة فانها لاتتبادل السلع فحسب ، بل تتبادل الافكار أيضا . كما أننا نعرف من تطور التاريخ أيضا أن اقامة نوع ما من أساليب الانتاج في أوروبا وأمريكا وآسيا وأفريقيا كان يولد نفس الافكار والمؤسسات السياسية والاجتماعية ، ويولد ظواهر متماثلة في مجالات الاخلاق والفن والآداب ، وفي بنيان الحياة الاجتماعية ككل في جميع القارات ويمكن أن نلاحظ من مواقع التاريخ المعاصر أن انتصار النظام الرأسمالي في اليابان قد ولد ظواهر مادية وروحية تماثل تلك التي ولدها انتصار هذا النظام من قبل في أوروبا . الحقيقة اذن «أن التاريخ لا يضيع ، ولا شيء من الخبرة العقلية للجنس البشرى يمكن أن يذهب مع الريح » .

النظرية القدرية والتشاؤم

وهناك وجه آخر للفلسفةالتشاؤمية في التاريخ ومصير الانسان .. ذلك هو الوجه الذى تمثله النظرية القدرية . ولعلها من أقدم النظريات الفلسفية وطبيعة ارتباطها الوثيق بالميثولوجيا القديمة ـ اليونانية بصفة خاصة ـ ففى الاسطورة اليونانية أن «موراى» آلهة القدر نسجت خيط الحياة الانسانية وألقت به فى متاهة اللابرنث ثم قطعته ! ولايكاد يختلف التفكير الفلسفى القائم على أساس النظرة القدرية عن هذه الاسطورة اختلافا كثيرا .فهو يذهب الىأن كل الاحداث التاريخية ـ الحروب والثورات والكوارث وأقدار الناس ـ أمورا مقدرة من قبل بفعل قوة ما خارجية . فالتاريخ عملية أولية لا وجه لها تدفعها قوانين قدرية لاترحم . ويعبر عن هذه النظرة عالم الاجتماعالفرنسى جوستاف لوبون . ان كل جهدالانسان هباء . انه محكوم بقوى خارجية مثل قانون الحتمية والبيئة وتأثير الماضى، وهى ماكان يسميه الاقدمون بالقدر . وقد نستطيع أن نلعن القدر ولكننا لانستطيع أن نفلت منه .

وتعتقد النظرية القدرية فى التاريخ أنه لا الشخصية التاريخية ولا الجماهير المندفعة تستطيع أن تؤثر فى المسار المقدور للتاريخ . فالافكار الانسانية والمؤسسات الانسانية بالمثل لاتستطيع أن تفعل شيئا أكثر من أن تكيف نفسها معالعملية القدريةللتاريخ لانها عاجزة عن التاثير فيها . وكل مامضى من التاريخ كان لابد أن يكون على النحو الذى كان به ، وكل ما هو آت فى الحياة الاجتماعية لابد أنه على النحو المقدر له .

وهدف الفلسفة القدرية اجبار الانسان على التوافق مع الشر القائم فى العالم طالما أنه جزء لايتجزأ منماهية الانسان وحياته ، وطالما أن كل علل الانسان أمور طبيعية لافرار منها .

والغريب أن الفلسفة الاجتماعية الذاتية التى ترفض الاعتراف بأى «انتظام» فى التطور الاجتماعى وتعرف الوعى الانسانى أو الارادة الانسانية بأنها كيان حر فىخلق العمليةالتاريخية تلتقى مع نقيضها الفلسفة القدرية التى تلغى كل حرية فى الفعلالانسانى وكل عرض لنشاط الانسان ..الاثنان يتفقان فى رفضعقلانية التاريخوالتقدم الاجتماعى ويلتقيان فى معارضةالمفاهيم الموضوعية والثورية للتاريخ .



ج . مارسيل

وعلى النقيض من النظرية القدرية ، ومن النظرة العفوية ، تؤمن الفلسفة العلمية بأن معرفة الضرورة التاريخية أمر جوهرى لتوسيع حدود الحرية الانسانية ، ودفع عملية دور الافكار المتقدمة ونشاط الانسان الفرضى فى اعادة بناء الحياة الانسانية والعلاقات الاجتماعية فيها . ان الفلسفة العلمية فى التاريخ لاتنكر ولاتقلل من قيمةدور الوعى والارادة البشرية فى التطور الاجتماعى . بل تجعل مهمتها معرفة العلاقات الحقيقية بين العوامل الموضوعية والذاتية فى المجتمعوالتاريخ وتجعل هدفها على المستوى العملى «تعلم فن تحديد الشروط التىيتحقق فيها النجاح للنشاط الواعى والهادف للناس وللطبقات والتنظيمات» .

والفلسفة العلمية لاتدع مجالا على الاطلاق للتشاؤم فى جهود التنبؤ العلمى التى تبذلها .. وهى تؤمن علىالمستوى الاجتماعى بأن التقدم العلمى وعصر استخدام الذرة وعصر «الكومبيوت» والانسانالالى يهدد النظام الراسمالى ولا يهدد البشرية . يهدد القوى الاجتماعية المنهارة ولا يهدد القوى الاجتماعية الصاعدة ولايهدد مستقبل الانسان .

سمير كرم

محاولات جديدة لتفسير تراث ابن رشد

د. محمد عاطف العراقي

في ليلة الخميس التاسعة من صفر عام خمس وتسعين وخمسمائة التى توافق العاشر من ديسمبر عام ١١٩٨ م سكت صوت فيلسوف من أشهر فلاسفة الاسلام ، سكت صوت فيلسوفنا ابن رشد ، لقد حاول هذا الفيلسوف ما وسعه من الجهد رفع لواء العقل ، وبخاصة بعد تلك الطعنة القوية التى وجهها الغزالى الى الفلسفة والفلاسفة ، جاعلا القلب المصدر والطريق الوحيد الى المعرفة الحقة ، وداعيا بذلك الى الطريق الذى يسلكه أصحاب التصوف .

فالغزالى قد أعلن هجومه على المذهب العقلى حين رأى أنه ليس ثمة علاقة بين الأسباب والمسببات ، أما ابن رشد فانه فى تقريره لمبدأ السببية قد عبر أوضح تعبير عن نظرية الفلاسفة العقليين فى السببية . فالسببية عنده قائمة فى حكم العقل ، وليست مجرد اقتران فى الحدوث بين العلة والمعلول ، بل أن هذا الاقتران نفسه يدل على أن وراءه رباطا عقليا . وهذا الرباط العقلى هو جوهر السببية وصميمها وبذلك تكون حوادث العالم عند ابن رشد ترتبط كلها ارتباط علة بمعلول على وجه ضرورى لا يترك مجالا للصدفة أو الخوارق أو نحوها .

واذا كنا فى هذه الأيام نعيش فى ذكرى وفاة فيلسوفنا العظيم ، فان أفضل ما نقدمه الى روح فيلسوفنا فى هـذه المناسبة ـ بعد أن اشتغلنا بتراث ابن رشد سنوات طويلة ـ أن نحاول تعريف القارىء بأسماء المؤلفات والشروح التى تركها ابن رشد ، والتى ما زالت موجودة بين أيدينا ، مع الاشارة ، اشارة موجزة، الى أهمية كل واحد منها وطبعاته المختلفة اذا كان مطبوعا ، ورقم مخطوطاته اذا كان لم يزل بعـد حبيسا فى عالم المخطـوطات . بالاضـافة الى بياننا للدراسات المعاصرة لهذا التراث الرشدى مقدمين من جانبنا محاولة جديدة لتفسيره .

فعلى الرغم من تزايد الاهتمام فى عصرنا الحاضر بالبحث فى تراث فلاسفة الاسلام ، وذلك عن طريق تكوين اللجان التى يعهد اليها بتحقيق ما خلفه لنا هؤلاء الفلاسفة ، أو دراسـة الآثار التى تنسب اليهم ، **فان الدراسـة المركزة الهادفة لمؤلفات وشروح آخر فلاسفة الاسلام ابو الوليـد ابن رشد ، لم تتم بعد على الصورة التى يرتضيها ضمير المشفق على هذا التراث الرشدى ، والمدرك لأهمية ما خلفه فيلسوف قرطبة .**

صحيح أننا لو رجعنا الى القوائم التى اهتمت ببيان مؤلفات وشروح فيلسوفنا ابن رشد أو الى بعض الكتب التى تبحث فى الفلسفة الرشدية ، وجدنا بيانا بأسماء الكتب التى تنسب لفيلسوفنا . ولكن يجب أن نأخذ فى الاعتبار أن كل هذه القوائم سواء منها القديمة أو الحديثة لم تكن تهتم فى الغالب الا باثبات أسماء هذه الكتب كما هى مدونة فى سجلات المكتبات الكبرى الموجودة فى أنحاء العالم شرقا وغربا كمكتبة الاسكوريال بأسبانيا والمكتبة الأهلية بباريس، ودار الكتب بالقاهرة .

وهذا فى الواقع يخالف الى حد كبير ما ينبغى ان تكون عليه دراسة هذه المؤلفات التى عصفت بها حوادث الأيام ، والنكبات التى حدثت لفيلسوفنا ولغيره . اذ يجب فحص هذه المؤلفات واحدا واحدا حتى نستطيع القطع بأن هذا المؤلف هو فعلا لابن رشد ، وذاك المؤلف منحول على فيلسوفنا . فكم أطلعتنا الدراسات النقدية الحديثة على أن هناك كتبا منحولة حشرت حشرا فى قوائم هذه المؤلفات التى تنسب لهذا الفيلسوف أو ذاك من فلاسفة العصر الوسيط على وجه الخصوص .

وهذا ان أدى الى شىء ، فانما يؤدى فيما نعتقد الى صعوبة البحث فى الفلسفة الرشدية . فالباحث فى هذه الفلسفة عندما يبدأ بحثه بمحاولة الحصول على مؤلفاته وشروحه ، يجد أنه من العسير عليه الحصول عليها كلها ، أو حتى مجرد معرفة أسماء كل هذه المؤلفات والشروح . فهى مبعثرة فى بقاع شتى سواء المطبوعة منها والمخطوطة ، ومنها ماهو موجود باللغـة العربية ، وكثير منها لا يوجـد الا فى ترجمـــاته العبرية واللاتينية وهى الترجمات التى قام حولها نزاع طويل ، وذهب البعض الى أنها لا تعبر عن فلسفة ابن رشد ، ولا تتسق فى أفكارها مع مؤلفاته الأخرى الموجودة باللغة العربية . بينما استند اليهـا بعض البـاحثين كنصـوص أصيلة ، وحاول استخراج فلسفة لابن رشد منها ، وكان هذا فى بعض الأحيان سببا فيما ذاع فى أوربا من نظريات دخيلة على ابن رشد ، ولا تتمشى مع تلك النظريات المبسـوطة فى سائر مؤلفـاته الأخرى .

وقبل أن نتناول بالتعريف والدراسة الموجزة ما ينسب لفيلسوفنا من مؤلفات وشروح هى موجودة فعلا بين أيدينا ، نذكر بعض هذه القوائم وأهمها ، علها تكون عونا للباحثين فى الفلسفة الرشدية ، وحتى يستطيعون المقابلة بين هـذه القائمة أو تلك سواء كانت هذه القوائم قديمة أو حديثة أو معاصرة .

1 — E. Renan : Averroes et l'Averroisme.

٢ ـ بالنثيا فى كتابه : « تاريخ الفكر الأندلسى » وقد قام بترجمته الدكتور حسين مؤنس .



٣ ـ قائمة دائرة المعارف للبستانى ـ الطبعة الجديدة ـ مجلة ٣ ـ مادة ابن رشد التى كتبها الدكتور ماجد فخرى ص ٩٣ ـ ١٠٣ .

٤ ـ قائمة ابن أبى أصيبعة فى كتابه : عيون الأنباء فى طبقات الأطبـاء . مجلة ٣ ص ٢٨٨ ـ ٣٤٣ من طبعـة بيروت .

٥ ـ قائمة الذهبى الموجودة بملحق كتاب (رينـان) السالف الذكر ص ٣٤٥ ـ ٣٤٧ .

٦ ـ العراقى (د. محمد عاطف) : قائمة ملحقة بكتاب النزعة العقلية فى فلسفة ابن رشد لكاتب هذه المقالة من ص ٣٢٥ الى ص ٣٣٢ .

7 — Carl Brockelmann : Geschichte der Arabischen litteratur, Teil. I, p. 833-835.

8 — E. Gilson : History of Christian philosophy in the middle ages, p. 642-643.

9 — S. Munk : Mélanges de la philosophie juive et arabe, p. 435-438.

10 — L. Gauthier : Averroes, p. 12-15.

11 — Quadri : La philosophie arabe dans l'Europe médievale; des Origines à Averroès, p. 201-203.

بعد بيان أسماء أهم القوائم التى تضمنت بيان ماينسب لفيلسوفنا من كتب ، نشرع فى بيان أهمية كل كتاب من الكتب المتداولة والتى تأكدنا من وجودها سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة :

أولا ـ شروح وتلخيصات :

١ ـ تفسير مابعد الطبيعة :

هذا التفسير من نوع الشرح الأكبر ، وهو الذى يعد خاصا بابن رشد دون غيره من الفلاسفة الذين ظهروا قبله ، والذين لم يستعملوا من التفسير غير مانسميه بالتلخيص « أى صهر النص بحيث لا يستطاع التمييز بين المتن والشرح » .

ولكى ازيد القارىء ايضاحا ، أقول ان ابن رشد قد شرح أرسطو ثلاثة أنواع من الشروح : شرح أكبر وشرح وسيط وشرح موجز أو تلخيص . والنوع الأول وهو الذى نجده فى كتاب « **تفسير مابعد الطبيعة** » سنتحدث عنه بعد قليل . أما النوع الثانى فان ابن رشد يورد نص كل فقرة بكلماتها الأولى فقط ، ثم يأخذ فى شرح بقية النص دون التمييز بين ما هو خاص به وما هو خاص بأستاذه أرسطو . وفى النوع الثالث وهو الشرح الموجز أو التلخيص يتكلم ابن رشد باسمه الخاص دائما دون أن يعرض مذهب أرسطو بنصه ، بل حاذفا تارة ومضيفا تارة أخرى وباحثا عما يكمل فكرته ويوضحها من خلال كتبه الأخرى .

هذا عن النوع الثانى والثالث . فما هو الحال فى النوع الأول الذى نجده فى تفسير مابعد الطبيعة ؟ ان ابن رشد فى هذا الشرح الأكبر أو التفسير يأخذ فقرة فقرة من كتابات أرسطو ويوردها بنصها ثم يأخذ فى توضيحها جزءا بعد جزء مميزا النص الأصلى بكلمة « قال » وهو يعنى بذلك أرسطو . وقد يكون ابن رشد كما يرجح رينان ـ قد اقتبس هذه الطريقة من مفسرى القرآن الذين يفرقون بدقة بين النص الأصلى وبين ماهو خاص بالشارح الذى يأخذ فى تفسير النص وتوضيحه ثم التعليق عليه .

قلنا ان هذا الكتاب يعد تفسيرا أو شرحا أكبر لكتاب أرسطو « **ما بعد الطبيعة** » أو الميتافيزيقا والواقع ان هذا التفسير لا يحتوى الا على أحد عشر حرفا من الأربعة عشر حرفا والتى يتكون منها كتاب الميتافيزيقا لأرسطو . فابن رشد لم يفسر حروف الميم والنون والكاف ، وبذلك تكون الحروف أو المقالات التى فسرها هى الألف الصغرى والألف الكبرى والباء والجيم والدال والهاء والزاى والحاء والطاء والباء واللام .

وهذا الكتاب الخالد الذى يعد أهم ماتركه لنا ابن رشد على وجه الاطلاق ، قام بتحقيقه ونشره الأب **موريس بويج** تحقيقا ممتازا آية فى الدقة ، فى ثلاث مجلدات ، مع مجلد رابع يعد ملحقا للمجلد الأول وهو خاص بالتعليق على نشرته هذه وقد صدر هذا الملحق الممتاز عام ١٩٥٢ بعد وفاة بويج فى ٢٢ فبراير عام ١٩٥١ .

وقد صدر المجلد الأول عام ١٩٣٨ ويتضمن تفسير الألف الصغرى والألف الكبرى والباء والجيم ، وصدر المجلد الثانى عام ١٩٤٢ ويتضمن تفسير مقالات الدال والهاء والزاى والحاء والطاء . أما المجلد الثالث فقد صدر عام ١٩٤٨ ويحتوى تفسير مقالتى الياء واللام . وتزيد صفحات هذه المجلدات الثلاثة فى نشرة الأب لويج على الفين من الصفحات من القطع الكبير .

وجدير بالذكر أن ابن رشد اذا كان قد حصر جهده الى حد كبير فى أرسطو وبذل أقصى عناية فى تفسير وتلخيص كتب أستاذه ، فان هذا الكتاب يمكن اعتباره من أهم وأنفس الآثار الفلسفية التى بقيت لنا من تراث ابن رشد الضخم . اذ لا يتضمن تفسيره هذا ، مجرد شرح كتاب الميتافيزيقا لأرسطو أو ايراد الترجمة العربية القديمة لهذا الكتاب ، بل يتضمن آراء أكثر شراح أرسطو كثامسطيوس والاسكندر الافروديسى ، وآراء الأشاعرة ، وآراء ابن سينا الذى طالما تعرض له فيلسوفنا بالنقد .

ومن الخطأ ـ فيما يبدو لنا ـ اهمال هذا الكتاب وغيره من تلاخيص أو تفاسير حين دراسة مذهب ابن رشد استنادا الى أن التفاسير والتلاخيص شىء ، والكتب الخاصة أى المؤلفات شىء آخر . اذ أن الدارس لهذا السفر الضخم سيجد كثيرا من النظريات الخاصة بفيلسوفنا بين تضاعيف شرحه هذا ، فهو يناقش ويحلل ويفند آراء بدت عنده خاطئة ، كما يدخل فى تفسيره جانبا ايجابيا من مذهبه كما قلنا .

وقد تأكد لنا أن شروحه وتلاخيصه تعد جزءا لاينفصل عن كتبه المؤلفة ، بحيث يكون من العبث دراسة نظرية من نظرياته الا اذا استخلصنا فهما لها وتأويلا من خلال تلاخيصه وشروحه،وقد آن الوقت لكى يعيد المشتغلون بالتراث الفلسفى العربى ، النظر فى مدى أهمية هذه الشروح والتلخيصات عند ابن رشد ، والى أى حد عبر فيها عن فلسفته ، وذلك حتى لا تبتر فلسفته بترا يسىء اليها ويقدمها فى صورة لا نتردد فى أن نقول من جانبنا انها صورة خاطئة مهوشة .

٢ ـ تلخيص مابعد الطبيعة :

يحتوى هذا الكتاب على أربعة مقالات لا خمسة كما يقول ابن رشد ، تبحث المقالة الأولى فى المصطلحات التى تستعمل فى علم مابعد الطبيعة كالموجود والهوية والجوهر والهيولى والصورة والقوة والفعل والمبدأ والاسطقس ... الخ .

أما المقالة الثانية فتبحث فى مطالب ما بعد الطبيعة ، فتدرس أنواع الوجود ومبادىء الأجسام المحسوسة والكليات والصورة المفارقة .

والمقالة الثالثة عنوانها « **فى اللواحق العامة لعلم مابعد الطبيعة** » وتدرس موضوع القوة والفعل وأيهما يتقدم الآخر

سواء بالزمان أو السببية ، كما يبحث فى الواحد والكثير والأضداد والعدم .

والمقالة الرابعة والأخيرة تعد أهم مقالات هذا الكتاب ، وموضوعها أشرف موضوعات الميتافيزيقا ، اذ تبحث فى المحرك الأول ، وحركات الجرم السماوى ، وهل للأجرام السماوية عقول ، وكذلك تدرس مسألة العناية الالهية وصلتها بالخير والشر الموجود فى عالمنا الأرضى .

ولهذا الكتاب بعض النسخ الخطية منها نسخة موجودة بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا ونسخة أخرى موجودة بالمكتبة التيمورية ونسخة أخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة مع مجموعة تحت اسم « الجوامع » كما نجد له نسخة مصورة بطريقة الفوتوستات عن النسخة السابقة .

وقد نشر هذا الكتاب كارلوس كويروس رودرديغش بمدريد عام ١٩١٩ مع ترجمة أسبانية . كما أن له ترجمة لاتينية موجودة بالبندقية . وله ترجمة ألمانية قام بها فان دنبرج نشرها بليدن عام ١٩٢٤ بعنوان

Die Epitome der metaphysik des averroes.

كما نشر هذا الكتاب بحيدر آباد الدكن مع مجموعة كتب أخرى لابن رشد تحمل عنوان « رسائل ابن رشد » سنة ١٩٤٧ م . وقام بنشره فى مصر مصطفى القبانى (بدون تاريخ) ثم قام بتحقيقه الدكتور عثمان أمين بالقاهرة سنة ١٩٤٨ م (الطبعة الأولى) ، سنة ١٩٥٨ (الطبعة الثانية) .

٣ ـ تلخيص كتاب الشعر :

يمكن اعتبار هذا الكتاب من نوع الشرح الوسيط اذ لو رجعنا الى ماسبق أن ذكرناه منذ قليل عما يميز الشرح الأكبر عن الشرح الوسيط عن التلخيص ، استطعنا اعتباره من الشرح الوسيط رغم أن ابن رشد يقول فى مفتتحه : الغرض فى هذا القول تلخيص ما فى كتاب أرسطو طاليس فى الشعر فى القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم ، أو للأكثر ، اذ كثير مما فيه هى قوانين خاصة بأشعارهم .

وقد طبع هذا الكتاب وحققه فوسطو لزينيو فى مدينة بيزا عام ١٨٧٣ م فى جزءين ، يشمل أولهما النص الغربى ويحتوى الثانى على الترجمة العبرية لهذا الشرح . ثم قام الدكتور عبد الرحمن بدوى بتحقيقه عام ١٩٥٣ م اعتمادا على نسخة فوسطو لزينيو السالف ذكرها (مكتبة النهضة المصرية) مع مجموعة كتب أخرى تشمل ترجمة فى الشعر لأرسطو وشرح الفارابى وابن سينا عليه . ويقع شرح ابن رشد فى نشرة الدكتور بدوى فى ص ٢٠١ الى ص ٢٥٠ .

٤ ـ تلخيص كتاب البرهان :

لهذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة نسخت عام ١١٧٧ هـ . وهذا الكتاب يحتل جانبا كبيرا من الأهمية . وقد استطاع ابن رشد بحق الاستفادة من المبادىء الموجودة فى برهان أرسطو وتطبيقها على نظرياته فى السببية واتفاق العقل والشرع ، وتفضيله للمبادىء البرهانية على غيرها من أنواع الأقيسة الأخرى الخطابية والجدلية . بحيث أنه يمكننا القول بأن مفتاح فلسفة ابن رشد يكمن فى رفعه البرهان عما عداه . فهو يؤمن بالمبادىء اليقينية البرهانية وينادى بتطبيقها على الفلسفة واعتبارها محكا للنظر السليم . فهو يقول : ان الحكمة هى النظر فى الأشياء بحسب ماتقتضيه طبيعة البرهان . وتطبيق ذلك عند ابن رشد ، ذهابه الى أن أى رأى من الآراء لا يرتفع الى مستوى البرهان ، يعد رأيا غير صحيح فى المجال الفلسفى ، بل ينبغى أن يستبعد من هذا المجال .

وهذا الكتاب لم يحقق بعد تحقيقا علميا دقيقا رغم أهميته ، اذ ما زال حبيسا فى قاعات المخطوطات المظلمة . **وقد شرعت فى تحقيق هذا الكتاب عن النسخة الخطية بدار الكتب المصرية وأرجو أن تظهر هذه النشرة قريبا .**

٥ ـ تلخيص كتاب الحس والمحسوس :

يرجح جوتييه أن ابن رشد قد وضع التلخيص بعد عام ٥٦٥ هـ استنادا الى أن ابن رشد لم يبدأ فى عمل التفاسير والتلاخيص الا بعد مقابلة ابن رشد للسلطان أبى يعقوب يوسف سنة ٥٦٥ هـ .

وقد حقق الدكتور عبد الرحمن بدوى هذا الكتاب عن



مخطوطة ينى جامع باستانبول التى تحمل رقم ١١٧٩ . وقد طبع هذا التحقيق ضمن مجموعة كتب بعنوان : « فى النفس لأرسطو » ـ مكتبة النهضة المصرية ـ عام ١٩٥٤ م .

وينقسم هذا الكتاب الى ثلاثة مقالات : **المقالة الأولى فى الحس والمحسوس ، والمقالة الثانية فى الذكر والتذكر وفى النوم واليقظة ، والمقالة الثالثة فى أسباب طول العمر وقصره .**

٦ ـ تلخيص كتاب الخطابة :

لهذا الكتاب أكثر من نسخة خطية منها نسخة ليدن ونسخة فلورنسة ، وله عدة نسخ مصورة منها نسخة مصورة بالفوتوستات بدار الكتب المصرية عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة فلورنسة . وطبع هذا الكتاب بمطبعة

كردستان العلمية عام ١٩١١ . ثم قام بتحقيقه الدكتور عبد الرحمن بدوى عام ١٩٦٠ م - القاهرة - مكتبة النهضة المصرية (مجموعة دراسات اسلامية رقم ٢٤) .

٧ - تلخيص كتاب النفس :

لهذا الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم « ٥ حكمة وفلسفة » ضمن مجموعة تشمل السماع الطبيعي وكتاب السماء والعالم وكتاب الكون والفساد وكتاب الآثار العلوية وكتاب تلخيص مابعد الطبيعة . كما أن له نسخة مصورة بالفوتوستات عن هذه النسخة نفسها المحفوظة بدار الكتب المصرية ، كما أن له نسخة مصورة موجودة بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٣٣٤ . ونسخة أخرى موجودة بأسبانيا (نسخة مدريد) .

أما عن نشر هذا الكتاب ، فنجد أن نشرة حيدر آباد الدكن قد تمت عام ١٩٤٧ مع مجموعة رسائل تحت عنوان « رسائل ابن رشد » ولكنها نشرة غير دقيقة وبها الكثير من الأخطاء ولا تثبت الفروق بين مخطوطات هذا الكتاب . ثم قام الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى بالقاهرة بتحقيق هذا الكتاب تحقيقا علميا عام ١٩٥٠ (مكتبة النهضة المصرية) وقدم له بمقدمة طويلة . وقد اعتمد فى هذا التحقيق على نسختى القاهرة ومدريد .

وجدير بالذكر ان هذا الكتاب يحتل مكانة كبيرة فى التراث الفلسفى العربى . اذ ان ابن رشد لم يقتصر على تلخيص كتاب أرسطو « النفس » ، بل نجد هذا التلخيص قد تضمن عرضا ونقدا لآراء من سبقوه كابن سينا وابن باجه وكذلك شراح أرسطو من اليونان كثامسطيوس والاسكندر الأفروديسى .

بالاضافة الى أن ابن رشد يبدى لنا رأيه فى مشكلة لعبت دورا هاما فى تاريخ الفكر الفلسفى العربى وهى مشكلة الاتصال . ويكاد يكون ابن رشد هو الفيلسوف الوحيد الذى نفى مانقول عنه « اتصال صوفى » مبتعدا عن تلك الشطحات التى يزعمها المتصوفة لأنفسهم .

٨ - تلخيص كتاب السماع الطبيعى :

لهذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة سبق أن أشرت اليها . كما أن له نسخة مصورة بالفوتوستات عن النسخة السابقة بدار الكتب . ونشر هذا التلخيص بحيدر آباد الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ . ويقول رينان ان لهذا الكتاب ترجمة عبرية تمت عام ١٥٦٠ م .

وهذا التلخيص يحتل بدوره أهمية كبيرة بين التراث الفلسفى الذى خلفه لنا ابن رشد ، فكثيرا مانجد فيه نقدا دقيقا لأسلافه فى الفلاسفة كابن سينا ، والشراح كثامسطيوس .

هذا بالاضافة الى آرائه فى قدم العالم واضافته دليلا أرسطيا يأخذ به للبرهنة على وجود الله . **وأكاد أقطع بأن الاقتصار على كتبه المؤلفة يقدم لنا صورة ناقصة للفكر الرشدى .** أوضح ذلك بالقول بأن ابن رشد اذا كان فى معرض رده على الغزالى فى تهافت التهافت يقرر قضية القدم مفضلا اياها على قضية الحدوث ، فانه فى تلخيص السماع الطبيعى وفى تفسيره الكبير لما بعد الطبيعة يضيف براهين جديدة تعضد من رأيه مستمدا كثيرا منها من أستاذه أرسطو وبذلك يعطينا تأليفه مع شروحه صورة متكاملة .

وفى مناهج الأدلة ، وهو فى كتبه المؤلفة ، نرى فيلسوفنا يأخذ بدليلين للبرهنة على وجود الله ، وهما دليل العناية الالهية والأسباب الغائية ودليل الاختراع . أما فى هذا الكتاب الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وهو تلخيص السماع الطبيعى ، وهو كما قلت فى الكتب التى يشرح فيها أقوال أرسطو ، نراه يأخذ بدليل آخر يضيفه الى الدليلين السابقين وهو دليل الحركة . وبذلك يكون من الخطأ الفصل بين دليلين أخذ بهما فى كتبه المؤلفة ودليل ثالث اتجه الى القول به فى كتبه الشارحة .

وقد سبق أن قلنا فى موضع آخر ، أنه ليس من الصواب الفصل فصلا تاما بين دليلى العناية والاختراع من جهة ودليل الحركة من جهة أخرى ، والقول بأن الدليلين الأولين هما دليلا الشرع ، والدليل الأخير هو دليل أرسطو أو دليل الفلسفة ، اذ لا يخفى تأييد ابن رشد لدليل الحركة تأييدا تاما . ويبدو ذلك فى ربطه بين دليل الحركة والادلة على قدم العالم . وكذلك حين نقده لدليل ابن سينا وتعديله له . اذ أن هذا النقد والتعديل يقوم على ضرورة الوصول من الحركة الى محرك أول ، أى أنه حور مشكلة الواجب والممكن الى مشكلة المحرك الأول وحركة العالم .

٩ - تلخيص كتاب السماء والعالم :

له نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة ، ونسخة أخرى مصورة بطريقة الفوتوستات . وقد نشر هذا الكتاب بحيدر آباد الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ م .

وابن رشد يتابع أستاذه أرسطو فى هذا الكتاب بالنسبة للموضوعات التى يبحثها . وكثيرا ما يتعرض لآراء أفلاطون وثامسطيوس وابن سيناء بالنقد . كما أنه يتلمس أدلة أخرى للتأكيد على قضية أزلية العالم وأبديته، والتى سبق أن أثبتها فى كتاب السماع الطبيعى .

أما عن الموضوعات التى يبحثها ابن رشد فى هذا الكتاب متابعا أرسطو ، فقد حددها فى مفتتح كتابه قائلا : غرضه - أى أرسطو - فى هذا الكتاب المترجم بكتاب السماء والعالم التكلم فى الأجسام البسيطة الأولى التى هى اجزاء العالم أولا واليها ينقسم . وفى اللواحق والإعراض التى توجد لها وللعالم بأسره مثل أنه واحد أو كثير ومكون

أو غير مكون . وذلك أنه لما تكلم فى الكتاب الذى قبل هذا - يقصد السماع الطبيعى - فى الأمور العامة للموجودات الطبيعية على مايقتضيه التعليم المنتظم ، ابتداء بالتكلم فى الأمور الجزئية ، وابتداء من هذه بأبسطها ، وهى أجزاء العالم وما يلحق ذلك .

١٠ - تلخيص كتاب الآثار العلوية :

هـذا الكتاب كما هو واضـح فى عنوانه من نوع التلخيص لا الشرح الوسيط أو الشرح الكبير . وله نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة . كما أن له نسخة مصورة بالفوتوستات عن النسخة السالفة . ونشر بحيدر آباد الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ م . وتتضمن مجموعة حيدر آباد هـذه ، بالاضافة الى هـذا الكتاب ، تلخيص السماع الطبيعى وتلخيص السماء والعالم وتلخيص الكون وتلخيص كتاب مابعد الطبيعة .

واذا كان ابن رشـد فى هذا التلخيص يحاذى النظام الذى أتبعه أرسطو ، ويؤيد الـكثير فى أقواله ، الا أن الجديد حقاعند فيلسوفنا هواستناده الى كثير من مشاهداته ومعارفه الشخصية . فطالما نجد فى هذا التلخيص مناقشة وتحليلا لآراء أرسطو وتأييدا لها بالاستناد الى معـارفه هو



نفسه . نوضح ذلك بمثال واحد . فاذا كان ارسطو حين تحدث عن سبب الزلازل فى كتابه «الآثار العلوية» قال انه عرض فى البلاد أن ربوة فى تلك الجزر لم تزل تعلو حتى تصدعت وخرج منها ريح شديدة أخرجت معها رمادا كثيرا وذلك أنه عرض لتلك البلاد أنها احترقت ، فان فيلسوفنا ابن رشد يذهب الى أن هذا صحيح . « اذ أن من شاهد الزلزلة الحادثة بقرطبة وجهاتها عام ستة وستين وخمسمائة للهجرة وقع له اليقين بذلك لكثرة ما عـرض هنالك من الأصوات والدوى . ولم أكن حاضرا بقرطبة ، ولكنى وصلت اليها بعد فسمعت أصواتا تتقدم حدوث الزلزلة » .

١١ - تلخيص كتاب الكون والفساد :

لهـذا الكتاب نسخة خطيـة بدار الكتب المصرية مع مجموعة . وله نسـخة مصورة بالفوتوستات عن النسـخة السالف ذكرها . ونشر هذا التلخيص بحيدر آباد الدكن مع مجموعة عام ١٩٤٧ م .

ولعل أخطر ما فى هذا التلخيص على وجه الاطلاق ، نص يتعلق برأى ابن رشد فى خلود النفس وكيف أن الأشياء تعود بأنواعها لا بأعيانها وأشخاصها . فأرسطو فى كتاب الكون والفساد يتساءل عما اذا كانت كل الأشياء تعود أيضا الى أعيانها أو لا تعود . وعما اذا كان من الحق عودة بعضها بالعـدد وبالشخص فى حين أن البعض الآخر لا يعود الا بالنوع . ويرى أنه بالنسبة للأشياء التى يظل جوهرها غير قابل للفساد فى الحركة التى يلقاها يجب القول بأنها تبقى دائما عدديا متماثلة مادامت الحركة تطـابق حينئذ المتحرك . أما الأشياء التى على الضد من ذلك ، أى أن جوهرها قابل للفساد ، فانه يجب القول بضرورة أن تتم هذه الرجعى لا عدديا بل بالنوع فحسب . وعلى هذا النحو يأتى الماء فى الهواء ويأتى الهواء فى الماء ، ويأتى هو فى نوعه لكن لا هو ذاته عدديا . واذا كانت فى الأشياء مايرجع عدديا أيضا بأعيانها ، فليست البتة هى التى جوهرها هو بحيث أنه يمكن ألا يكون .

هذا مايراه أرسطو ، فلننقل الآن نصا لابن رشد لنرى كيف يستفيد من هذه الفكرة الأرسطية حتى يدلل على ماسبق أن ارتآه فى كتب أخرى له خاصا بمشكلة البعث والخلود .

يقول ابن رشد فى تلخيصه لكتاب الكون والفساد : « ان مثل هذا الكون الدائر ، أما دورانه بالنوع فضرورى ، وأما دورانه بالشخص فغير ممكن . وذلك لأنه لا يمكن أن يوجد زيد بعينه بعد أن وجد حتى يكون يعود دورا ولا يمكن عن وجود هذا الغيم وجوده مرة ثانية دورا . وذلك أن الواحد يلزم أن يكون الموضوع له واحدا . واذا فسد الموضوع ثم كان فهو ضرورة ثانيا بالعدد . وسـواء على ما يدعيه أصحاب الدورات فان هؤلاء يقولون أنه اذا عادت النصبة التى كانت لجميع أجزاء الفلك حين وجد زيد عاد زيد بعينه وهذا محال مما بيناه . والاسكندر يرى فى النصب والهيئات التى توجد للفلك فى وقت ما أنها لاتعود بالشخص أبدا . ويقول انا لو فرضنا الكواكب كلها فى نقطة واحدة من فلك البروج كانك قلت فى الحمل ثم ابتدأت كلها بتحرك السريع منها والبطىء لم يلزم ضرورة أن تعود كلها الى تلك النقطة التى منها ابتدأت تتحرك ، الا أن تكون أدوارا بعضها يقدر أدوار بعض حتى يكون مثلا متى تمت الشمس دورة واحدة ثم القمر اثنا عشر دورة ، وكذلك يلزم أن تكون نسبة دورات الشمس من واحد واحد من الكواكب . وحينئذ كان يمكن أن تعود كلها لموضع واحد ، ولأى وضع فرضته . وقد نجد الأمر بخلاف ذلك ، فان الشمس تقطع دائرتها فى ثلاث مائة وخمسة وستين يوما وربع يوم . والقمر يقطع دائرته فى سبعة وعشرين يوما ونصف ، وتسعة وعشرين يوما ونصف اذا ضوعفت ، لا تفى ثلاث مائة وخمسة وستين يوما وربع . واذا كان هذا هكذا ، وكان

الفاعل لايعود واحدا بالعدد ولا الهيولى يمكن فيها ذلك ، فقد **تبين امتناع عودة الشخص من كل جهة** ، وذلك ماأردنا أن نبين ... وكيفما كان الأمر فليس يمكن أن يعود الشخص .

١٢ ـ تلخيص كتاب المقولات :

لهذا الكتاب نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع مجموعة وقد نسخت عام ١١٧٧ هـ مع كتب أخرى هي : العبارة والقياس والبرهان لابن رشد . وقد قام بتحقيق هذا الكتاب تحقيقا علميا ممتازا الأب موريس بويج عام ١٩٣١م ـ المكتبة الكاثوليكية ببيروت .

١٣ ـ تلخيص كتاب العبارة :

لهذا التلخيص نسخة خطية مودعة بدار الكتب المصرية مع المجموعة التى سبق لنا الاشارة اليها منذ قليل .

١٤ ـ تلخيص كتاب القياس :

له نسخة خطية بدار الكتب المصرية مع نفس المجموعة السابقة . وابن رشد فى تلخيصه لكتاب القياس لأرسطو يحاذي أستاذه محاذاة تامة ، ولا نجد آراء ذات شأن تضيف جديدا الى فكر أرسطو .

١٥ ـ شرح أرجوزة ابن سينا فى الطب :

لهذا الشرح نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية . كما يوجد بنصه العربى فى مكتبات اكسفورد وباريس وليدن والاسكوريال . ولم يصل الى علمنا ان هذا الشرح قد حقق بعد ، رغم أن صفحات مخطوطة القاهرة آخذة فى التآكل والانقراض بفعل الزمن .

وابن رشد فى شرحه لهذه الأرجوزة ، لا يقتصر على مجرد عرض رأى ابن سينا ، بل يضيف بعض الآراء الجديدة الخاصة به ، شأنه فى ذلك ، شأن ما يفعله فى أكثر شروحه وتلاخيصه على أرسطو أو غيره ، كما أنه ينقد سلفه ابن سينا فى بعض المواضع فى هذا الشرح .

وقد تناول ابن رشد ـ فى معرض شرحه لهذه الأرجوزة ـ دراسة العلاقة بين الطب والعلم الطبيعي وكذلك العلاقة بين العلوم والتجربة . فذهب ـ كما أكد ذلك فى كتاب الكليات أيضا ـ الى أن الطب صناعة تؤخذ مبادؤها فى العلم الطبيعي ، ولكن العلم الطبيعي يعد علما نظريا والطب علما عمليا . واذا تكلمنا فى شيىء مشترك للعلمين فذلك يكون فى جهتين . مثال ذلك أن صاحب العلم الطبيعي اذا كان ينظر فى الصحة والمرض من حيث هما من أجناس الموجودات الطبيعية ، فان الطب ينظر اليهما من حيث أنه يحفظ أحدهما ويبطل الآخر ، أي يبقي على الصحة ويزيل المرض .

وبذلك يمكن القول بأن صناعة الطب تتكون من مبادىء العلم الطبيعي ومن مبادىء صناعة الطب التجريبية . كما أنه لابد من العلم مع التجربة ، لأنه ليس يكتفى فى هذه الصناعة بالعلم دون التجربة ، ولا بالتجربة دون العلم ، ولذلك كان من شرط الطبيب أن يكون مع قيامه على علم الطب مزاولا لأعماله .

ثانيا ـ مؤلفات :

١٦ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد فى الفقه :

لهذا الكتاب القيم عدة طبعات منها طبعة استانبول ١٩١٥ م وطبعة القاهرة عام ١٩٥٠ م (مصطفى الحلبى) فى جزءين .

ويعد هذا الكتاب من المصادر الهامة فى الفقه المالكى . اذ كثيرا ما نجد فى كتب الفقه وكتب التراجم ثناء كبيرا على هذا الكتاب . بل ان من المؤرخين من ذهب الى أن شهرة ابن رشد ترجع أساسا الى الفقه أكثر من رجوعها الى طبه وفلسفته وشروحه على أرسطو . يقول ابن فرجون فى كتابه الديباج المذهب فى معرفة أعل المذهب : لابن رشد تآليف جليلة الفائدة منها كتاب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد فى الفقه » ، ذكر فيه أسباب الخلاف وعلل ووجه فأفاد وأمتع به ، ولا يعلم فى وقته أنفع منه ولا أحسن سياقا .

ويقول ابن رشد فى آخر كتابه هذا ، الذى جاء ثمرة لدراساته العميقة فى الفقه على يد أبيه وغيره من الفقهاء ، موضحا أقسام الأحكام الشرعية وملخصا أبوابه : **ينبغى أن تعلم أن السنن المشروعة العملية، المقصود منها هو الفضائل النفسانية ، فمنها مايرجع الى تعظيم من يجب تعظيمه وشكر من يجب شكره ، وفى هذا الجنس تدخل العبادات ، وهذه هى السنن الكرامية ومنها ما يرجع الى الفضيلة التى تسمى عفة ، وهذه صنفان : السنن الواردة فى المطعم والمشرب والسنن الواردة فى المناكح . ومنها ما يرجع الى طلب العدل والكف عن الجور . فهذه هى أجناس السنن التى تقتضى العدل فى الأموال ، والتى تقتضى العدل فى الأبدان ، وفى هذا الجنس يدخل القصاص والحروب والعقوبات ، لأن هذه كلها انما يطلب بها العدل . ومنها السنن الواردة فى الأعراض . ومنها السنن الواردة فى جمع الأموال وتقويمها، وهى التى يقصد بها طلب الفضيلة التى تسمى السخاء ، وتجنب الرذيلة التى تسمى البخل . والزكاة تدخل فى هذا الباب من وجه ، وتدخل أيضا فى باب الاشتراك فى الأموال، وكذلك الأمر فى الصدقات . ومنها سنن واردة فى الاجتماع الذى هوشرط حياة الانسانوحفظ فضائله العملية والعلمية، وهى المعبر عنها بالرياسة ، ولذلك لزم أيضا أن تكون سنن الأئمة والقوام بالدين . ومن السنن المهمة فى حين الاجتماع، والسنن الواردة فى المحبة والبغضة والتعاون على اقامة هذه السنن . هو الذى يسمى النهى عن المنكر والأمر بالمعروف، وهى المحبة والبغضة : أى الدينية التى تكون اما من قبل الاخلال بهذه السنن ، واما من قبل سوء المعتقد فى الشريعة .**

١٧ ـ هل يتصل بالعقل الهيولاني العقل الفعال وهو متلبس بالجسم ؟

نشر هذه المقالة الأب موراتا عام ١٩٢٣ م ثم نشرها الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى مع تلخيص كتاب النفس لابن رشد عام ١٩٥٠ م (القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية) .

وهذه المقالة على جانب كبير من الأهمية وقد طال الجدال حولها وتشعب ، اذ أنها تعد محاولة من جانب فيلسوفنا للاجابة عن التساؤل الذى وضعه أرسطو فى آخر كتاب النفس تاركا اياه بدون حل . يقول ابن رشد موضحا ذلك فى مفتتح هذه المقالة : الغرض من هذا القول أن نبين جميع الطرق الواضحة والبراهين الوثيقة التى توقف على المطلب الكبير والسعادة العظمى ، وهو هل يتصل بالعقل الهيولانى ، الفعال ، وهو متلبس بالجسم ، حتى يكون فى هذه الحال فصل الانسان هو جوهره من كل جهة ، على شأن المفارقة أن تكون عليه ؟ **وهذا المطلب هو الذى كان وعد به الحكيم فى كتاب النفس ولم يصل الينا قوله فى ذلك .**

ونكاد نقطع من جانبنا بأن ابن رشد لم يتجه الى القول بنوع من الاتصال ينحو منحى صوفيا . بل انه يكاد لايعترف بما يفهم عادة من لفظة الاتصال ، بحيث يحورها ويجعل القصد منها التزود بالعلم والحكمة النظرية أساسا . دليل هذا قول فيلسوفنا فى خاتمة هذه المقالة : لما كان الانسان هو الذى حفى به الكمال ، كان هو أشرف الموجودات التى ها هنا . اذ كان هو الرباط والنظام الذى بين الموجودات المحسوسة الناقصة ، أغنى التى تشوب فعلها أبدا القوة ، وبين الموجودات الشريفة التى لاتشوب فعلها قوة أصلا ، وهى العقول المفارقة . ووجب أن يكون كل مافى هذا العالم انما هو من أجل الانسان وخادم له ، اذ كان الكمال الأول الذى كان بالقوة فى الهيولى الأولى انما ظهر فيه . فما أظلم من يحول بين الانسان وبين العلم الذى هو طريق الى حصول هذا الكمال ،

ويبدو أن هذه الرسالة هى بعينها ما أدرجه ابن أبى أصيبعة فى قائمة مؤلفات ابن رشد بعنوان : كتاب فى الفحص ، هل يمكن العقل الذى فينا ، وهو المسمى بالهيولانى ، أن يعقل الصور المفارقة بآخرة أو لا يمكن ذلك ، وهو المطلوب الذى كان أرسطو وعدنا بالفحص عنه فى كتاب النفس .

ويقول رينان ان لهذا الكتاب ترجمة عبرية بعنوان : كتاب فى العقل الهيولانى أو فى امكان الاتصال . كما أن له ترجمة لاتينية .

١٨ ـ كتاب الكليات فى الطب :

لهذا الكتاب نسخة منقولة بالتصوير الشمسى عام ١٩٣٩ وهى فى منشورات معهد فرانكو (لجنة الأبحاث المغربية الأسبانية) . ولم يحقق هذا الكتاب حتى الآن .

وللكتاب ترجمة لاتينية مطبوعة بعنوان **colliget** وهى التى يرجع اليها المستشرقون عادة .

وقد اتفق أغلب المؤلفين على أن ابن رشد قام بتأليف هذا الكتاب قبل قيامه بشروحه على أرسطو وتأليفه لكتبه الفلسفية . بمعنى أن اشتغال ابن رشد بالطب انما كان قبل اشتغاله بالفلسفة فمثلا نجد **Quadri** فى كتابه :

La philosophie arabe dans l'Europe médievale, p. 199.

يقول أن ابن رشد قد ألف هذا الكتاب وهو فى السابعة والثلاثين . كما أن جوتيية فى كتابه (ابن رشد) يضع كتاب الكليات على أنه من الكتب المؤلفة بين عام ١١٦٢ م وعام ١١٦٩ م ، ويضع بقية كتبه بعد هذا التاريخ . وأيضا يقول رينان فى كتابه « ابن رشد والرشدية » ص ٦٤ : ان ابن رشد ألف كتاب الكليات بعد عام ١١٦٢م ، وباقى كتبه بعد هذا التاريخ . ويذكر (مونك) فى كتابه : **Mélanges de la philosophie juive.** نفس التاريخ السالف ذكره بالنسبة لكتاب الكليات . ويضيف قائلا : ان مما يدل على ذلك أن ابن زهر وهو الذى توفى فى هذه السنة ـ سنة ١١٦٢ ـ قد ذكره ابن رشد فى آخر كتابه على أنه مازال حيا معاصرا له .

فاذا رجعنا الى موضوع هذا الكتاب الذى ينقسم الى سبعة أجزاء قلنا أن ابن رشد لم يدرس فيه الطب الا كشيىء كلى ، وهذا واضح من عنوان كتابه . أى أنه درس جميع انواع الأمراض دراسة عامة دون أن يتطرق الى التفاصيل الفرعية . فبقى اذن وصف عرض من الأعراض على وجه خاص . ولهذا نجده يوصى صديقه أبا مروان عبد الملك بن زهر وهو من كبار أطباء عصره ، ان يضع كتابا فى الأمور الجزئية لتكون جملة كتابيهما كتابا شاملا فى صناعة الطب . يقول ابن رشد : فمن وقع له هذا الكتاب « الكليات » دون هذا الجزء ، واجب عليه أن ينظر بعد ذلك فى « الكنانيش » . وأوفق الكنانيش له ، الكتاب الملقب « بالتيسير » والذى ألفه فى زماننا هذا أبو مروان بن زهر . وهذا الكتاب سألته أنا اياه وانتسخته ، فكان سبيلا الى خروجه . وهو كما قلنا كتاب الأقاويل الجزئية التى قيلت فيه ، شديدة المطابقة للأقاويل الكلية . الا أنه شرح هنالك مع العلاج العلامات ، وأعطى الأسباب على عادة أصحاب الكنانيش . ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا الى ذلك ، بل يكفيه ذلك مجرد العلاج . وبالجملة من تحصل له ما كتبناه فى الأقاويل الكلية يمكنه أن يقف على الصواب والخطأ من مداواة أصحاب الكنانيش فى تفسير العلاج والتركيب .

ومن الجدير بالذكر أن الدارس لكتاب الكليات ، يجد ابن رشد لا يتردد فى تأييد أرسطو ، ونقد آراء جالينوس . فاذا كان الأول وهو يفسر مصدر حركة الجسم ، يرى أن ينبوع ذلك فى القلب ، وكان الثانى يرى مصدر هذه الحركة فى الدماغ لا فى القلب ، فان ابن رشد ينحاز الى الرأى الأرسطى الأول . فهو يقول : انه يظهر أن الماشى فى حين مشيته وتنتشر فى بدنه حرارة لم تكن قبل . والعضو الذى من شأنه أن تنتشر منه الحرارة فى جميع البدن هو القلب لا شك فيه .

ولذلك متى طرأ على الانسان شيء يفزعه وانقبضت الحرارة الغريزية الى القلب ، ارتعشت ساقاه ، حتى أنه سقط ولم يقدر أن يتحرك .

١٩ ـ ضميمة لمسالة العلم القديم :

نشر يوسف مولر هذه الرسالة فى ميونيخ بالمانيا عام ١٨٥٩ م مع كتابي : فصل المقال ومناهج الأدلة تحت عنوان « فلسفة ابن رشد » . ثم نشرت فى القاهرة بدار احياء الكتب العربية .

ويتناول فيلسوفنا فى هذا الكتاب بحث مشكلة العلم الالهى ، وهل هو على نحو كلى فحسب ، أم أنه ادراك لكل الجزئيات جزئية جزئية . ولا يخفى علينا ما لعبته هـذه المشـكلة من دور هـام فى تاريخ الدراسـات الكلامية والفلسفية .

٢٠ ـ فصل المقـال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصـال :

نشر يوسف مولر هذا الكتاب فى ميونيخ بألمانيا عام ١٨٥٩ م وهو ذلك العام الذى بدأ فيه نشر أول نص عربى لابن رشد . وقد نشره مولر مع مناهج الأدلة وضميمة لمسالة العلم القديم وذلك اعتمادا على مخطوط وحيد وجد بمكتبة الاسكوريال . ثم نشر بالقاهرة بدار احياء الكتب العربية .

ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية قام بها جورج حورانى فى لندن عام ١٩٦١ م . وصدر لها بمقدمة ممتازة حلل فيها أهم عناصر الكتاب . كما أن له ترجمة عبرية موجودة فى باريس .

ويعد هذا الكتاب المصدر الأساسى فى نظريته عن اتفاق العقل والشرع . يقول ابن رشد فى مفتتح هذا الكتاب : ان الغرض من هذا القول أن نفحص على جهة النظر الشرعى هل النظر فى الفلسفة وعلوم المنطق مباح بالشرع أم محظور أم مأمور به اما على جهة الندب واما على جهة الوجوب .... واذا تقرر أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات واعتبارها ، وكأن الاعتبار ليس شيئا من استنباط المجهول من المعلوم واستخراجه منه ، وهذا هو القياس أو بالقياس، فواجب أن نجعل نظرنا فى الموجودات بالقياس العقلى . وبين أن هذا النحو من النظر الذى دعا اليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس المسمى برهانا .

٢١ ـ الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة :

لهـذا الكتاب ترجمة عبرية موجودة فى المكتبة الامبراطورية وفى ليدن أيضا . وقـد نشر نصه العربى يوسف مولر فى ميونيخ بألمانيا عام ١٨٥٩ مع الكتابين السالف ذكرهما . ونشر فى القاهرة عام ١٩٠١ ثم نشره الدكتور محمود قاسم عام ١٩٥٥ نشرة علمية دقيقة (مكتبة الانجلو المصرية) .

ويعرض علينا ابن رشد فى هذا الكتاب آراء المتكلمين اولا ثم ينقدهم ليعلن عن مذهبه . ونجد فيه معظم المشكلات الكلامية والفلسفية التى تعرض لها علماء الكلام والفلاسفة وهو يعد الى حد كبير تطبيقا للمنهج الذى أعلن عنه ابن رشد فى فصل المقال .

وينقسم هذا الكتاب الى خمسة فصول . يبحث الفصل الأول فى البرهنة على وجود الله . ويتناول الفصل الثانى بالدراسة مسالة الوحدانية . ويتعرض الفصل الثالث لبحث موضوع الصفات . ويركز الفصل الرابع بحثه فى موضوع التنزيه . وأخيرا يفيض الفصل الخامس فى دراسة مشكلات حدوث العالم وبعث الرسل والقضاء والقدر والجور والعدل والمعاد .

اما عن زمان تأليف ابن رشد لهذا الكتاب ، فيرجع كثير من الباحثين ومنهم رينان أن ذلك كان عام ١١٧٩م .

٢٢ ـ تهافت التهافت :

طبع هذا الكتاب بالقاهرة عام ١٨٨٥ بالمطبعة الاعلامية مع تهافت الفلاسفة للغزالى والتهـافت لخوجه زادة عن مخطوطة الاستانة التى تعد أقـدم مخطوطة للكتاب . ثم طبع بالقاهرة عـام ١٩٠١ ثم عـام ١٩٠٣ . ثم نشره الأب موريس بويج عام ١٩٣٠ م ببيروت (المطبعة الكاثوليكية).

وتعد هذه النشرة من أدق وأهم النشرات لهذا الكتاب الهام على وجه الاطلاق ، شأنها فى ذلك شأن كل ماقام به هذا العالم الممتاز فى ميـدان التحقيق والنشر . ثم نشره بالقاهرةأخيرا سليمان دنيا نشره سقيمة ، اذ لم يعتمد فى نشرته على مخطوطات جديدة . كما تعد هذه النشرة أقل أهمية من نشرة بويج ، بل هى فى الواقع لاتعدو عملية نقل عن نسخ وطبعات سابقة على هذه الطبعة ، أو النشرة اذا تجاوزنا القول . والأجدر بالمشتغلين بالتراث الفلسفى العربى توجيه جهدهم الى المخطوطات التى لم تنشر بعد ، بدلا من نشر كتب سبق نشرها نشرا آية فى الدقة كتهافت التهافت هذا .

ولهذا الكتاب ترجمة انجليزية قام بها فان دنبرج عام ١٩٥٤ فى مجلدين . ويشمل المجلد الأول الترجمة ، أما المجلد الثانى فيشمل الحواشى والتعليقـات المفيدة التى لا يستغنى عنها الباحث فى الفلسفة الرشدية . كما أن له ترجمة ألمانية صدرت فى بون عام ١٩١٣ قام بها ماكس هورتن . كما أن له ترجمة عبرية وترجمة لاتينية . وهذه الترجمة الأخيرة جانبت الصواب فى بعض المواضع .

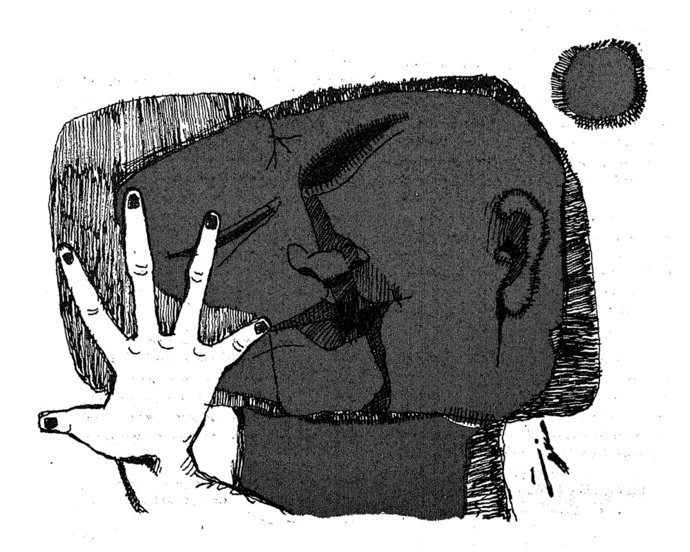
وهذا الكتاب فى غنى عن التعريف ويكفى أن نقول ان فيلسـوفنا حاول فيه نقض آراء الغـزالى ، مرسيا دعائم الفلسفة من جديد . وكثيرا ما نراه يكشف عن آرائه بين تضاعيف رده على الغزالى ودفاعه عن الفلسفة بعد تلك الحملة الظالمة المهوشة التى وجهها الغزالى الى الفلسفة والفلاسفة ، والذى كان يحلو له توجيه الاتهامات والقائها دون سـند صحيح .

محمد عاطف العراقى

الفلسفة ...

أو هذا الجنون المعقول

مجاهد عبد المنعم مجاهد



عندما يتناول الدكتور عبد الغفار مكاوى هيرقليطس لا يلتقط منه سوى خيط واحد هو أن الطبيعة تحب ان تتخفى ، ومن ثم يكون فعل التفلسف هو مساعدة الطبيعة على ان تزيح حجابها ومن ثم يصبح فعل « تحرر » من التحجب حتى تسطع شمس الحقيقة .. وعندما يتناول أفلاطون يتركه جميعه ولا يأخذ منه سوى معنى التربية التى ليست هى مجرد تلقين معلومات ، « فليست التربية أن نملأ النفس بالمعارف التى لم تتهيأ لها كما لو كنا نصبها فى وعاء فارغ . بل التربية الاصيلة هى التى تغير النفس وتحولها ، فتضع الانسان فى مكانه الحق وتعوده على الحياة فيه » (ص ٢٧) .. ومن ثم فان التربية عند أفلاطون هى فعل « تحرر » من التبات والتقولب والجمود حتى يصبح الانسان انسان التغير والتطور والتفتح .. واذا ألقى نظرة على فكر افلوطين ترك كل ما تحويه « تاسوعاته » ، ولم يجد الا الرحلة الى الباطن والأعماق .. رحلة الصعود الى أسفل .. وهذا الصعود عنده « فى نفس الوقت (رجوع) وعودة الى الاصل أو هو ما سميناه ... (بالاتجاه الى الباطن) وهو سر أصالة افلوطين وتفرده فى تاريخ الفكر الغربى كله » (ص ٥٤) ومن ثم تصبح الرحلة الى الاعماق فعل « تحرر » من السطوح والتفاهات والمظهر حتى يصبح الانسان انسان الداخل والعمق والمخبر ... وهو عندما يطل فى فكر باسكال لا تسترعى انتباهه سوى : «تعلموا أن الانسان يعلو على الانسان علوا غير متناه » ويدرك ان «مشكلة المتعالى هى مشكلة المشكلات . ليست فى الحقيقة مشكلة من مشكلات عديدة ، بل هى (المشكلة) على وجه الاطلاق » (ص ٦٥) .. وهو علو الى ما يعلو على الوجود والعدم ، علو الى الكل وهو ما لانستطيع الحديث عنه ، وهذا ينقلنا « الى آخر حدود اللغة حيث يكون العجز عن الكلام أصدق من كل كلام » (ص٧٣) .. والى ماذا ينقلنا هذا العلو ؟ « فاذا عدنا الى سؤالنا الرئيسى : الى أين يؤدى بنا العلو فوق كل شىء على الاطلاق ؟ استطعنا أن نجيب بقولنا: الى الانفتاح » (ص ٧٦) ومن ثم تصبح عملية العلو عملية « تحرر » من الانغلاق والتقوقع والتزمت لكى ننطلق الى الرحابة والتفتح والاتساع ... وعندما يلقى الضوء على الدهشة وأنها أصل التفلسف يكون هذا من أجل أن تفقد الاشياء طابعها المألوف ويبدأ حس التساؤل لدينا : « نريد أن نتلمس عن الدهشة فى قلوبنا ونعلمها لنعرف أن ما نزال قادرين على معاشها وان كان فى استطاعة الانسان اليوم ان يسأل ويتساءل بالمعنى الحقيقى لهاتين الكلمتين» (ص ٦٤) .. ومن ثم تكون دراسة الدهشة عاملا لكى « نتحرر » من قيد العالم المألوف ، نهز معناه القديم لنكسبه معنى جديدا .. ومن ثم يكون الاندهاش فعل تحرر و « الذى هو اصل التربية » (ص ٩٧) .

وعندما يواصل الدكتور عبد الغفار مكاوى رحلة تفلسفه حول المشكلات الفلسفية وحول بعض آراء الفلاسفة يظل خيط « التحرر » هو الذى ينتظم كتابه جميعه .. فعندما يتفلسف حول معنى كلمة « لا » لا يرى فيها القدرة على الرفض والاحتجاج فحسب ، بل القدرة أيضا على المطالبة بالوحدة والكمال .. «وما اسهل ان يقول الانسان (لا) ولكن ما أصعبها ان لم تحاول ان تثبت وراءها حقيقة أو تؤكد قيمة أو تدافع عن (نعم) » (ص ١٠٥) .. ومن هنا تكون الـ « لا » فعل « تحرر » مما يحط من شأن الانسان وكرامته ، من أجل رفع الكرامة الانسانية الى الذروة .. ومن ثم فبالرفض والقبول يمكن امكانية التفاهم والتلاقى مع الآخرين .. «وصعوبة اقامة الحوار حتى لا يقطع الانحصار فى الرفض قول لا هى صعوبة أن تقول لعدم الوجود لا » (ص ١٢٦) .. ان الـ «لا» موجهة ضد الموت والاخفاق والتهشم وتعجيز الانسان .. انها فعل « تحرر » من أجل اقامة مملكة الانسان الكامل القادر على الارتفاع فوق الرفض والقبول ..

والدكتور عبد الغفار مكاوى عندما يتحدث عن العقل يريد أن يعقله فلا يشتط فى قدراته وذلك لان « العقل هو مبدأ الاعتدال »(ص ١٣٨) وليس هذا الاعتدال قيدا على العلم والبحث والتفلسف « نحن لا نستطيع بالطبع أن نصف جهود العقل فى الكشف عن أسرار الطبيعة بالتطرف أو طموح العلم الى حل ألغاز الكون بالخروج عن الحد . فروح الفلسفة والعلم فى السؤال ، ولا يمكن أن يكون هناك حد لهذا السؤال ومع ذلك فكثيرا ما يفلت منا (الكل) حين نقصر البحث على (الأجزاء) وكثيرا ما يكون سوء استغلال النظرة العلمية المدققة الى الظواهر سببا فى ضياع (روحها) و (معناها) وفقدان الصلة الحميمة التى كانت تربط الانسان القديم بها

(*) هذا عرض نقدى لكتاب « مدرسة الحكمة للدكتور عبد الغفار مكاوى » الصادر عام ١٩٦٩ عن دار الكاتب العربى .

وما زالت تقرب الطفل والشاعر منها » (ص ١٤٦) ان التفلسف حول حدود العقل اذن فعل من أفعال « التحرر » من ربقة الجزئى والتفتيت الى الكل والشمولية ..

واذا كان الدكتور عبد الغفار مكاوى مهتما غاية الاهتمام بموضوع ((التحرر)) فانه بطبيعة الحال لن يهمل النظر في المسائل الاخلاقية لأن هذه المسائل هى مبتغاه فى نهاية الأمر .. ومن هنا فانه يفرد فصلا لموضوع الشجاعة ، ولا يتتبع معناها تاريخيا بشكل أكاديمى أجوف ، بل يبرز أن هناك تيارين سادا فى دراستها : تيار اعتبار الشجاعة قيمة أخلاقية ، وتيار اعتبارها قيمة وجودية بها تحقق الذات وجودها فى مواجهة الاخطار ، وتعمق هذا الوجود . ((الشجاعة اذن هى تأكيد الذات الانسانية بالرغم من ... ونسأل الآن بالرغم من أى شىء ؟ لا بد أن يكون الجواب: بالرغم من شىء يهدد تأكيد الذات أو يحاول أن



أفلاطون

يلغيه . أى أن الشجاعة التى وصفناها بشجاعة الوجود لا بد أن تواجه كل (عدم وجود) يحاول تهديدها سواء على الصعيد الانطولوجى أو الاخلاقى أو الاجتماعى)) (ص ١٦١ — ١٦٢) ومن هنا فليست الشجاعة مجرد فعل جسور ، بل هى ((التحرر)) من تقبل القيد والاخفاق والعدم ، تحرر من أجل الحرية والنجاح والوجود .. « ولذلك فان الشجاعة تقاس عادة بمدى الاستعداد للعمل والتحمل ، بمدى القدرة على ملاقاة الموت . ولذلك أيضا كان الاستشهاد هو غاية الشجاعة وكانت شهادة الدم هى تاج الشجاعة يستوى بعد ذلك أن تكون هذه الشجاعة فى سبيل العقيدة أو المبدأ او الوطن أو تحقيق رسالة الحياة)) (ص ١٦٩) .

ويوجه الدكتور مكاوى اهتماما خاصا بنيتشة فيفرد له فصلين ، غير انه لا يهتم به أيضا الا من خلال منظوره الذى يخيم على افق كتابه « مدرسة الحكمة » الا وهو منظور « التحرر » .. فيلتقط أولا من نيتشه قوله ان الفكر هو قدر المفكرين ، وهو قدر ضرورى ومطلوب ، ومن ثم فان « تحرر » المفكر قائم فى الا يتحرر من القدر ، بل ان يجعله مصيره بكامل حريته ، وفى هذا . كان نيتشة انموذجا فريدا للمفكر الذى يجعل من الفكر قدره ولا يهرب منه « حاول نيتشة ان يشرح للناس لماذا هو قدر ولقد عاش كالقدر واحب كل ما ساقه اليه القدر ووجد سعادته الاخيرة فى الرضا بالضرورة والقدر ودفع الثمن الذى لا بد أن يدفعه كل من يجد في الفكر الشجاع الجاد مصيره ومسئوليته وقدره فمرض وتعذب وجن واحترق ولم يكن له مفر من ذلك لأن قدر المفكرين حزين » (ص ١٩٥) .. ثم ان الدكتور مكاوى يلتقط من نيتشة ثانيا فكرة العود الابدى فيبرز انها كانت لب كتاب نتيشة « هكذا تكلم زرادشت » والهدف من كتابته وليست فكرة الارادة والقوة هى الاساس، بل الاساس فكرة العود الأبدى و « عودة الشبيه الأبدية هى اذن مذهب نتيشة فى العالم ككل أو رأيه فى كلية الوجود . وحديثه عن الأبدية التى تتجاوز كل ما يجرى فى الزمان من أحداث وكل ما يشتمل عليه من معطيات تجاوزا لا نهاية له هو فى حقيقته حديث عن العالم ، تردد كلماته معانى الاتساع والرحابة والشمول » (٢٠٨ — ٢٠٩) لكن أليس الحديث عن العود الأبدى الغاء للحرية ؟ هذا هو الظاهر ، أما الباطن فانها فكرة « تحرر » بدورها .. يقول الدكتور مكاوى :

« ويمضى زرادشت فى حديثه الى نفسه ، ويبين لها أن فكرة العود الأبدى لا تلغى الحرية ، بل تحررها من القيد الذى رسفت فيه حتى الآن ، ألا وهو الاعتقاد بثبات الماضى وحتميته . ولكن عندما يكون الماضى كله هو فى نفس الوقت المستقبل كله ، فان النفس تكون لها الحرية التى تسود بها على (ما خلق وما لم يخلق) ويتفتح الطريق أمام الانسان الخالق المبدع كما لم ينفتح أمامه من قبل وتتوثق الصلة بينه وبين العالم الخالق المبدع الذى يوجد كل ما هو

موجود فى عود أبدى لا ينتهى ... (ان) كل من يعرف حقيقة العود الابدى يعرف أيضا كيف يتخلص من الأغلال التى تقيده بالموجودات وتجعله عبدا لها وكيف يرتفع بنفسه فوق كل ما يدخل فى نطاق العالم من أشياء وموجودات — غير انه لا يرتفع فوقها الا ليعود اليها عودة أصيلة ولا يتجاوزها الى العالم الرحب الشامل الا لكى يجدها من جديد » (ص ٢١٠) .

واذا ما انتقل الى تناول فكر ((بوايتيوس)) ولخص كتابه ((عزاء الفلسفة)) ركز على أن المفروض أن يكون هدف الانسان الاقصى هى السعادة القصوى أو الخير الاقصى الماثل فى الله ، ومن ثم يجب أن يكون سعى الانسان نحو الالوهية .. ومن ثم فلا يجب ان يحزن لشر وقع له كان نتيجته تعرضه للسجن ظلما ((فمادمت تؤمن فان حكمة الله لا الصدفة العشواء هى التى تدبر الكون فلا شك أن شفاءك غير مستحيل)) (ص ٢٢٤).. اذن فان الشر لا يدوم ((ما من شىء مخلوق له صفة الدوام)) (ص ٢٢٦) وعلى هذا فاذا أصاب الانسان ظلم عليه ان يتماسك ، عليه أن ((يتحرر)) من الضياع المطلق ، ((لو امتلكت السيطرة على هذه النفس فسوف تمتلك شيئا لا يضيع منك ولا يستطيع القدر ان يسلبك اياه)) (ص ٢٢٦) .. وبالسيطرة على النفس ، أى بالتحرر من امكانية الضياع يمكن للانسان لا ان يركز على طلب الجزء ، بل طلب الكل ، السعادة الكلية ، الخير الاقصى .. ((لا بد من التسليم فى آخر الأمر بأن السعادة الكاملة هى والالوهية الكاملة شىء واحد . ولنستمع الآن بنوع من الاستدلال الذى يلجأ اليه الرياضيون .. فلما كان الناس يصبحون سعداء حين يبلغون السعادة وكانت السعادة هى الالوهية فمن الواضح أنهم يصلون الى السعادة حين يصلون الى الالوهية)) (ص ٢٣٣) .. ان « الخير هو السعادة ، والسعداء الحقيقيون هم (الالهيون) فبقدر ما يكف الانسان عن فعل الخير ، بقدر مايكف عن الوجود نفسه وبقدر ما يشارك فى الخير تزداد مشاركته فى الكمال الالهى)) (ص ٢٣٦) .. ومن هنا فان العزاء الذى تقول به الفلسفة هو أن ((تتحرر)) من فعل الشر لأن فى هذا تقويضا لنا، لنبلنا ، لجدارتنا ، نتحرر من أجل الخير الذى تكمن فيه كل هذه الأشياء .

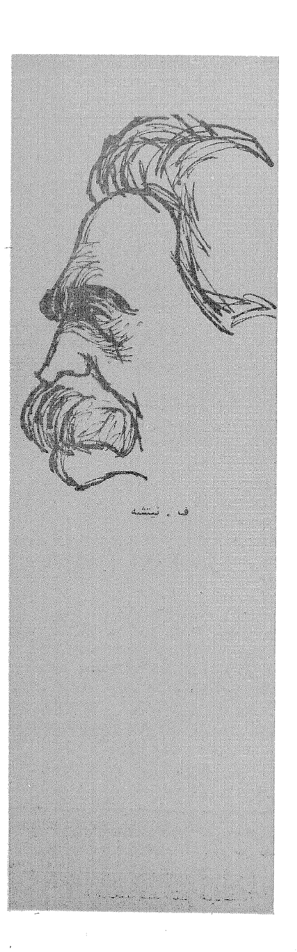
والدكتور ملكاوى فى استقرائه للوحة رفائيل عن مدرسة الحكمة يوضح ان التفلسف «تحرر» من العصبية لجنس من الاجناس أو عصر من العصور أو طبقة من الطبقات « فالفلسفة لا تعرف الغنى ولا الفقير ، ولا تميز بين السلطان والشحاذ . ان عينها النافذة لا ترى الرداء الخارجى بل تتجه الى الانسان أينما كان . كذلك لا تفرق الفلسفة بين الشعوب والاجناس، ففى اللوحه نرى اليونانى والمصرى ، والمغولى والعبرى » (ص ٢٥٧) .. بل انه وهو يعرض للخلاف الذى نشب بين سارتر وكامو حول كتاب الاخير « المتمرد » يمجد « التحرر » من التعصب للرأى الواحد لأن الرأى الواحد لا يملك الحقيقة كلها ، فنحن « لا نملك الا الاعجاب بهذا الخلاف الذى دار فى صميمه حول الانسان وعذابه ومصيره فى عصرنا الحديث . وطبيعى أن الفرد الواحد لا يمكنه أن يملك الحقيقة كلها ، كما لا يمكن أيضا أن يكون كل ما يقول أو يفكر فيه خطأ كله . ولقد اظهرت هذه المناقشة ... أن الخلاف هو الشرط الاساسى للقاء ، والحوار بين الاشخاص والافكار هو الدليل الاول على حرية الفكر والضمير » (ص ٢٧٦) .. فالحوار عنده تحرر من الانغلاق وتتطلع الى الانفتاح ..

ثم يخصص المؤلف معظم الفصلين الاخيرين لهيدجر بحديثه عن الشىء وعن الفن .. ويبرز فكرة هيدجر من أن الشىء هو الذى تتجمع فيه العناصر الاربعة : الارض والسماء والفنانين والخالدين لأن الشىء هو الذى يبرز الوجود من خلاله .. و ((ليس وجود الانسان مجرد وجود على الارض وتحت السماء وأمام الخالدين ولكنه كذلك وجود (مع) الاشياء . وفى الاشياء يتجمع الرباعى الفريد كما قلنا ، وعلى الانسان ان يشعر بهذه الوحدة الاصيلة للعناصر الاربعة وأن يبقى عليها فى الاشياء وذلك هو معنى وجوده وسكنه على الارض)) (ص ٢٩٣) .. وعلى هذا يجب أن ((يتحرر)) الانسان من النظر الى عنصر واحد فى الشىء حتى لا يفقد الوجود بكارته وأصالته ورعشة خلقه الاولى ، عليه أن يعانقها فيه جميعا توصلا للجوهرى ، أى ((تحررا)) من العرضى .. والفن عند هيدجر هو ما من شأنه أن يجعل الوجود يظهر ويزيح تحجبه ، وفى هذا يقوم معنى الكلمة اليونانية ((التخنى)) techn é « فالتخنى بهذا الفهم اليونانى اظهار للموجود من الغموض والخفاء بالمظهر الذى تراه العين منه و (التخنيس) ليس هو الصانع اليدوى بل ذلك الذى يجعل الموجود يظهر على الحقيقة أو يجعل حقيقته تظهر فيه)) وعلى هذا

فان الفن ((يحررنا)) من التحجب وينقلنا الى ((اللا تحجب)) .. يحررنا من ظلام الجهل الى نور المعرفة .. يحررنا من ظلام العدم الى شمس الوجود .. وعند هذه الشمس الساطعة ينتهى الكتاب بالطريقة عينها التى بدا بها وهو يتحدث عن الشمس الساطعة شمس الوجود عند هيرقليطس .

وهكذا يعزف الدكتور عبد الغفار مكاوى لحنا واحدا .. ومن خلف التنوع الشديد نجد نغمة واحدة هى نغمة ((التحرر)) تسرى فى جميع المقالات خلف الكلمات كما تسرى الكهرباء خفية .. وكانت هذه النغمة وحدها كافيـة لتعطى وحـدة لموضوعات الكتـاب المتفرقة بدل تلك المحاولة ـ البارعة ـ وغير الضروريه ـ التى لجأ اليها المؤلف ليقيم وحدة من المقالات التى سبق له نشرها متفرقة وذلك باعطائه عناوين جديده لكل مجموعة من المقالات كمحاولة تأليف وحدة بينها عندما يقول ان الفكر تطور وعلو وتحرر ودهشة واحتجاج وشجاعة وتواضع .. الخ .

وهذه النغمة الواحدة هى التى تعطى للكتاب نكهه حلوة بالنسبه للتاليف الفلسفى ، ليست المسألة أن نكتب عن رسـل أو فتجنشتين أو أبى الحسن الشاذلى أو الحسن بن الهيثم .. بل المساله هى كيف نجعل من هذه الشخصيات اشكالا بالنسبة لنا ، كيف نحولها الى مشكلات تمس وضعنا الراهن وصميم وجودنا الحالى حتى لا يكون البحث الفلسفى مجرد ((أرابسك)) أكاديمى جميل حقا لكنه خال من الانفعـال ، وبالتالى خال من المتعة الجماليه الحقة .. ان الدكتور عبد الغفار مكاوى ـ كمـا يتبدى من الكتاب ـ مهموم بروح العصر ، مهموم بالقيود التى يحيا فيها الانسـان المعاصر : قيود الجور والعـدم والألم والموت والتزمت والسـطحية وتشييىء الانسان .. ومن هنا كان حديثه عن العلو ورحلة الاعماق والرفض الايجابى والوصول الى الواحد الذى هو من العالم لكنه يعلو على العالم لانه يريد أن يجد الانسان الذى لا تزال لديه رغبة فى تغيير العالم ((هل بقى فى زمن أصبح يعادى المتعالى ويعانده بكل قوته ـ ربما لانه يخافه ويهرب منه ـ من لا تزال لديه المقدرة أو الرغبة فى العلو اليه ؟ وهل نجد بيننا من يتحمل مشقة العلو على العالم والمجتمع والعصر لا لأنه يتعالى عليه أو يفر منه ، بل لأنه يريد أن يجرب الحياة كأنما ولد فيه (العالم) من جديد


ف . نيتشه

ويبذل جهده لكى يحبه ويفهمه ويغوص بحق فى جذوره وأعماقه » (ص ٨٥) .. وفى هذا يكمن جهد المؤلف الفلسفى وتحديده لمعنى الفلسفة ، فليست الفلسفة مذهبا ، حكمه ، مجموعة من الاقوال أو الشعارات ، بل الفلسفة عنده تفلسف . « الفلسفة هى التفلسف ، كما يصبح التفلسف ضرورة باطنة ورسالة دائمة لا يستطيع الانسان أن يتخلى عن حمل أماناتها ومسئولياتها الا اذا أراد التخلى عن حقيقته كانسان » (ص ١٢) .. ومن ثم قصر المؤلف جهده فى كتابه على « تمهيد الأرض الصالحة لفعل التفلسف نفسه وتطهيرها من كل ما يعوقه من عقبات تنجم عن التزمت أو الكسل أو الاغراق فى التفاصيل والجزئيات » (ص ١٦) .

لكن .. أليس التوحيد بين الفلسفة والتفلسف مسألة تحتاج الى اعادة نظر ؟ أليس هذا خلطا بين التفلسف من حيث هو فعل من افعال التفكير والسلوك والفلسفة من حيث هى علم التعبير عن هذا الفعل ؟ أليس الخلط أو التوحيد بين الفلسفة والتفلسف خلطا و توحيدا بين الشكل والمحتوى؟ يقول آخر ، لكى يمكننا التعبير عن فعل التفلسف يلزمنا شكل نصب فيه هذا التفلسف .. والا عشنا التفلسف ولم يعرف غيرنا ما اذا كنا قد عشنا هذا التفلسف ام لا .. ومن ثم تسقط القضية التى أوردها المؤلف عابرا من ان سقراط لم يكتب كتابة فلسفية بل عاش الفلسفة ، لقد عاش التفلسف ، لكننا قد عرفنا أنه قد عاش التفلسف عن طريق « الشكل » الذى أبرز به افلاطون وأكزينوفان « تعبيره » عن هذا التفلسف .. أن الدكتور مكاوى يوحد بين الاثنين .. هذا من جهة ، ثم من جهة أخرى هو يعد التعبير الفلسفى أقرب الى الشعر باللجوء الى الصور منه الى الفلسفة باللجوء الى المفاهيم . ويبدو أن الدافع فى هذا هو الخشية من جمود المذهبية ، لكن هناك فرقا بين التزمت والجمود فى داخل المذهب ، والتعبير عن الفكر غير المتزمت فى نسق وبناء متناسق عن طريق المفاهيم والتصورات .. ولكن قد يقال « ربما يكون الامر مسألة تجديد فى التعبير الفلسفى .. ألم يسبق نيتشة وكيركجور بالتعبير عن الفلسفة على شكل يوميات ومذكرات وفقرات قصيرة متفرقة ممزوجة بالصور الشعرية والخيال والتجنيح ؟ لكننا قد نفهم ما حدث هنا من خلط بين «التكنيك» و «الشكل الفلسفى» بشكل أفضل اذا أخذنا أنموذج الشعر الحر .. فالشعر الحر فى حقيقته خروج على « التكنيك » لكنه ليس خروجا عن جوهر الشعر الذى هو الايقاع ، ومن ثم لا يستطيع اى شاعر من شعراء الشعر الحر ان يتخلى عن التفعيله ، وهذا جوهرى للتعبير شعريا . وهنا لا حرية للشاعر ، الحرية المتبقية لديه هى ماذا يمكنه ان يفعله بالتفعيله بنائيا انطلاقا من تكنيكه هو الخاص فى الصياغه .. الشاعر حر فى التكنيك ، لكنه ليس حرا فى النوع الادبى الذى يكتب تحت ظلاله .. والامر كذلك فى الفلسفه .. ليكن التعبير مصطبغا بالصبغه الشعرية مليئا بالحرارة والتدفق والاحاسيس الباطنية ذات التجنيح الخيالى ، لكن الذى سيظل قائما هو «النسق» المتآزر .. الذى سيبقى هو الفكرة وهى تتنامى بالمفاهيم .. وربما كان هذا هو المسئول عن التقليل من عظمة فكر كيركجور ونتيشة وبعض كتابات جبريل مارسل .. وربما كان هذا هو المسئول لدى الدكتور عبد الغفار مكاوى عن « فضفاضية » الكتاب الذى كان يمكن أن يختزل الى حجم أقل ..

وهذا يجرنا أيضا الى قضية متعلقة بالشكل الفلسفى الا وهى : هل يمكن التعبير عن الفلسفة بدون مصطلح فلسفى ؟ ليس معنى هذا أن الكتاب خال من المصطلحات الفلسفية ولكنها مستخدمة فى أضيق نطاق ، وربما كان هذا مسئولا عن عدم بروز فكرة هيدجر عن الشىء نظرا لغرام هيدجر بالتلاعب بالمصطلحات وهو غرام ليس له نصيب لدى المؤلف المصرى .

بل ربما كان اهتمامه بايصال الفكرة بأبسط عبارة للقارىء هو المسئول عن عدم تبين حدود المؤلف من حدود المؤلفين الذين اعتمد عليهم .. حقا لقد كان أمينا فى ذكر المصدر الأساسى الذى اعتمد عليه فى كل مقال ، لكن داخل العرض نفسه ، لعدم وجود اقواس ، ساحت عبارات المؤلف مع العبارات الواردة فى المراجع التى أعتمد عليها .

وبرغم هذا تظل الحكمة فى «مدرسة الحكمة» للدكتور عبد الغفار مكاوى متألقة لا كنور نسير على هديه بل كمصباح يدعونا الى أن نصنع بأنفسنا مصابيح أخرى قد تكون أقل عتمة أو أكثر تألقا ، لكنها ستكون مصابيحنا نحن ، وهذا هو هدف الكتاب الذى يظل حكمة دون مدرسة، والا وقع الكتاب فيما أراد المؤلف أن ينفيه طوال صفحاته .

« مجاهد عبد المنعم مجاهد »

رأي جديد في الشعر واللغة

ابراهيم الصيرفي



هل تظل الأشياء كما هي حين تغدو شعرا ؟ والكلمات ‥ الى أى وجود تستحيل فى دنيا الشعر ؟ أتظل فى أضابيرها المعجمية ، أم تنتفض وقد بعث فيها الشعر روحا من عنده ، وأخرجها من متعارفاتها الأليفة الوثيقة : هذا ما يحاول الدكتور لطفى عبد البديع أن يجيب عليه عمليا بتحليله لعدة قصائد تمتد فى الزمن آلاف السنين ‥ من الحادر طرفة الجاهليين حتى شوقى وناجى وعلى محمود طه فى القرن العشرين ٠

والدكتور لطفى عبد البديع ، ومعه نفر من نقادنا الجدد ، يطمح الى رؤية فى الشعر العربى غير تلك التى استقامت بها ذوقياتنا فى التلقى والاساغة ٠ فهو يطالبنا بالمخالفة عن المألوف والمستقر من مفاهيم ارساها النقاد الاقدمون ٠ هو ، ومن ينهجون نفس السبيل ، يطالبنا بالمزيد من الجهد والتأمل والعناء وادمان القراءة حتى تفتح لنا القصيدة بعض أبواب مدينتها ٠ ولما لم تكن لدينا العدة الى ذلك ، كان من أقرب الطرق لكى نريح أنفسنا من تلك الجماعة ،ومنهم الدكتور لطفى عبد البديع ، ومن عنائهمومعاناتهم أن نرفضهم ، حتى لا نلغى أنفسنا ٠ وذلك ، كما يبدو للوهلة الأولى ، لون من الوان الدفاع عن النفس ٠ ولكنه فى الحقيقة الدفاع عن موتها ، لا عن حياتها ٠ انه الدفاع عن جمودها وتبلدها لا عن انفساح الطريق لانتفاضتها وتجددها وانارة مساربها وتفتيق قدراتها ٠

وأغلب ظنى أننا اذا ما غامرنا بالاصغاء المخلص المضنى الى هذا النفر من نقادنا المخلصين لخلصنا الى عالم يبهرنا ‥ ويأخذنا الى وجوده الأرحب والأعمق ٠ فأنت حين تدرب نفسك على القراءة وفق ذلك الاتجاه ، أيا كانت قدرتك وأدواتك ، وثق انك بالمران صاقلهما ومنميهما ، ستبلغ ما يدخل الى نفسك تلك المتعة العظيمة ، متعة التعرف والكشف والخلق ٠ والا فحسبك هؤلاء يقرأون لك ‥ ما دمت لا تستطيع أن تقرأ ‥ ولا تؤاخذنى ، فتلك حقيقة تنطبق على الناس جميعا بدرجات مختلفة ووفق مجالات مختلفة ٠

الكتاب الذى أتشرف بمحاولة عرضه هو كتاب « الشعر واللغة » للدكتور لطفى عبد البديع ٠ والكتاب مؤلف من مقدمة وجيزة جدا ، خطيرة جدا وقراءة تحليلية فنيةلسبع عشرة قصيدة كما ذكرت والمقدمة تعالج فى ايجاز شديد ما بين اللغة والشعر من انفصام ، وما يورده الكاتب لهذا من علاج ٠ وهى من أجل ذلك ترفض كثيرا مما استقر فى أذهان النقاد القدامى ومن لف لفهم من دارسى الأدب المحدثين: من مبادىء وقضايا كان الظن الشائع انها السبل الى ادراك الشعر ٠ وترفض المقدمة ما ذهب اليه « تين » فى ثالوثه المركب من الجنس والبيئة والعصر ٠ وتتحدثالمقدمة عن التاريخ والشعر ، أو عما فى الشعر من تاريخ مشيرة الى أن ‥ تاريخه يغاير طريقة المؤرخين بما فيه من وجود استطيقى يرده الى كيانه حيث ينبغى أن يكون من وعى كل جيل على مدى العصور » ٠

ثم تعرض المقدمة بعد ذلك لوجهة نظرالفيلسوف الالمانى « مارتن هيدجر » فى رسالة عن هلدرلن وماهية الشعر ، لتخلص بنا الى قول هذا الفيلسوف عن علاقة الشعر باللغة : « فالشعر لا يتلقى اللغة قط مادة يتصرف فيها كأنها معطاة ، من قبل ٠ بل الشعر هو الذى يبدأ بجعل اللغة ممكنة ، الشعر هو اللغة البدائية للشعوب والأقوام ، واذن ، فيجب خلافا لما قد يتوهم ٠ أن نفهم ماهية اللغة من خلال ماهية الشعر » ٠ وتؤكد المقدمة هذا الاتجاه بما ذهب اليه كاسرر فى كتابه « الأسطورة واللغة » وما ذهب اليه كل من كروتشة وفيكو من قبل ٠ واستتبع ذلك من الباحث ان يدخل بنا الى التفرقة بين الدلالة الشعرية والدلالة الاشارية عند كارل نوساند ريتشاردز ٠

وتنتهى بنا المقدمة بعد تلك الملامح السريعة الى هدف الباحث الدكتور لطفى عبد البديع من كتابه ، الى قوله : « ونحن اذ نبحث عن اللغة فى القصائد التى نعرض لها فى هذه الفصول لا نبحث عما فيها من لفظ مستعار أو وجه من وجوه الشبه ، بل همنا الوقوف على الوجود الشعرى الذى يتحقق فى اللغة باعتبارها فكرا للشعر لا يلبث الشاعر معه أن يجد نفسه — على ما يقول مارلوبونتى — وقد أحاطت به الكلمات من كل جانب » ٠

« وفى هذه الكلمات يخلق الشاعر عالما جديدا يقيمه على أنقاض الغناء فى المعركة الرهيبة بين الانسان والطبيعة أو بين الانسان والانسان والى هذا العالم تذهب المعانى لتتعانق مع غيرها وتدل على الوجود الشعرى وتحققه ٠ وفيه تتلاقى شتى الصور والتراكيب وقد تظاهرت جميعا لابراز الدلالة الكلية » ٠

فلندخل معا الى عالم من تلك العوالم الشعرية، يرودنا اليه الدكتور لطفى عبد البديع . وليكن العالم عالم الحادرة فى قصيدته « بكرت سمية » والدكتور لطفى عبد البديع ، شأن بعض نقادنا المحدثين ، يمسك بالشعر يتأمله ، بمعزل عن كل شيء الا انه شعر . ينظر فى تجاور الكلمات ، فيما تبثه من وجود وما تفجره من خلق حين تصبح شعرا . لا يقف منها موقف النحوى أو البلاغى القديم . للأسماء والأفعال والصفات والحروف حين تصبح شعرا دلالاتها الخارجة على مألوفها المعجمى، الاشارى ، لها فعالياتها الشعرية الخاصة .

ولكنه قبل أن يدخل بنا الى تلك القصيدة ، يشاغبنا قليلا ، لا حبا فى الشغب والمشاغبة ، انما هو يبتغى من وراء ذلك ان يخلصنا من بعض ما قد يكون مستقرا بداخلنا من أمور لا يجب لنا أن ندخل بها على الشعر . فهو يقول لنا ان الحادرة شاعر مقل ، فان كنت تظن ان الاقلال علامة ضعف ، فالحادرة فحل ، وقصيدته أصمعية مفضلية ، وهو يقول لنا خلصوا أنفسكم قبل أن ندخل الى ذلك العالم مما استقر فيها مما يسمى باغراض الشعر ، والا فانكم لن تروا فى القصيدة ، شان من يلهجون بالأغراض الشعرية ، سوى طرف من مذهب العرب فى الفخر مهد له الشاعر بالنسيب ، ثم تأوى منه بعد ذلك الى الخمر ومجلسها والناقة وصفتها ، هو اذن يشاغبنا ، أو يحذرنا ان نفقد ما وراء ذلك من غريض السارية (أى الماء المنهمر من سحابة سارية ليلا) والنطاف (أى المياه الواحدة نطفة) والجنازة التى لم ترفع والحياة التى تروى وتسمع وغير ذلك من المعانى المتقابلة والكائنات المتباينة . ذلك كله كما يقول الدكتور لطفى عبد البديع من الامور التى لامسوغ لها عند من يذهبون هذا المذهب سوى انها من قبيل الاستطراد والوثب بين المعانى ان هذا ومثله مسوغ .

يحذرنا اذن أن نأخذ بما ذهب اليه القدامى من انقسام القصيدة الى أغراض ، حتى لا يفوتنا جوهر القصيدة ونخرج منها كما دخلناها . ثم يعود فيلح فى تحذيرنا ان نأخذ بما يقول به بعض المحدثين من نقادنا من ان القصيدة انما تفتقر الى وحدة الموضوع (ما دامت شتى أغراض) . فالوحدة التى يقول بها هؤلاء صادى وحدة نفسية .. يخلعها دعاتها على قصائد بعينها ثم يعجزون بعد ذلك عن اجرائها على سائر الشعر ، فهى قلما



تصدق عليه أو تستوعبه ، وانما الشأن فيها كالشأن في أوجه النظر النسبية التي لا تصدق الا على قدر محدود من الحقائق • ثم كيف يتأتى لمعيار واحد ان يفتح مغاليق الشعر على تباين منازعه الاستطيقية واختلاف منابعه الروحية ؟ أليس من التصور التوقف عند ذلك والاستغناء به عما تستوجبه طبيعة الشعر من ثراء ؟ » •

ويحذرنا ، كما جاء في المقدمة من قبل وحتى لا ننسى ، أن ناخذ اللغه الشعرية ماخذ اللغة الاشارية ، فالأسماء والأفعال والحروف والصفات

نظر الدكتور لطفى عبد البديع فى تجاور الكلمات ، الاسم والفعل والحرف ، ليرينا كيف تفعل نار الشعر المقدسة بذلك كله •• ووقف بنا بعد ذلك عند أداة النفى •• « لم » فى «لم يربع» لينتقل بنا الى أختها فى البيت التالى :

وتزودت عيني غداة لقيتها
بلوى البنينة نظرة لم تقلع

(اللوى منعرج الرمل، والبنينة موضع ،لم تقلع، لم تكف) ليقول لنا ان النفى احدى سمات هذا



تصبح ، حين تصير شعرا ، شيئا آخر •• فسميته « ليست سمية الوجود الحقيقي الواقعي انما هى سمية الوجود الشعرى •• فكيف تأتى هذا الوجود ؟

يقول الشاعر :

بكرت سمية بكرة فتمتع
وغدت غدو مفارق لم يربع

اذا ما قرأنا هذا البيت ، مفتتح قصيدتنا ، قراءة الدكتور لطفى عبد البديع له ، أدركنا معه ان سمية لا تظهر في المصراع الأول الا لتختفى فى المصراع الثانى • واذا ما نظرنا الى تجاور المصراعين وتحاورهما ، وجدنا ان هذا الاختفاء تعفى عليه اضافة (غدو) الى (مفارق) يفرق فى الابهام الذى يجلبه التنكير ، ويوغل فى التذكير وكان حقه التأنيث ، ثم لا يبقى لفعل الأمر (فتمتع) الذى صادفناه فى المصراع الأول من البيت الا ذلك الرنين الحزين الذى يلاحقه النفى فى قوله • «لم يربع» (من قولهم ربع بالمكان اذا أقام) •

العالم الشعرى وهو ليس بالنفى المطلق الذى يقترن بالاستسلام بل هو نفى مقترف بعزيمة المغالبة • ذلك ان قول الشاعر « لم تقلع » يشبه أن يكون معناه « لم أظفر منها بشيء سوى نظرة لم أبلغ معها ما أريد » ولكنه ساق الفعل مساق الاثبات اثارة للتوتر الذى يحدثه التضارب بين التأميل فى الشيء وافتقاده •

وكذلك يفعل بالنفى فى « لم يربع » • ويخالف الشراح فى قول الشاعر :

وتصدفت حتى استبتك بواضح
صلت كمنتصب الغزال الأتلع

ليقول لنا ان « تصدفت » تذهب فيه سمية كما ذهبت من قبل فى غدت وكما فصلت فى مفارق ، ثم نؤول بعده الى حركة شعرية محضة يتلاقى فيها العنق الناصع وصيد الغزال ومقلتا الحوراء • وهكذا ينفى عن الصورة مجرد الوصف والتشبيه ، ليدخل تلك العناصر فى وحدة حية شعرية • فليس الشأن فى « واضح صلت » ان الشاعر أقام الصفة مقام الموصوف بل ان الشاعر اسبغ على الصفة اسمية اقتنص فيها اشعاع العنق

وخلوصه واشراقه ، أما العنق ذاته فقد أخفاه دما اخفى جيد الغزال فى (لمنتصب الغزال) •

وتجعلني حوراء تحسب طرفها
وسنان حرة مستهل الأدمع
وهنا ينبع السحابة
بفريض سارية أدرته الصبا
من ماء اسجر طيب المستنقع
ظلم البطاح له انهلال حريصة
فصفا النطاف بعيد المقلع
لعب السيول به فأصبح ماؤه
غللا تقطع في أصول الخروع

ويكشف لنا الدكتور لطفى عبد البديع عن العلاقة بين تلك العناصر بعضها ببعض ، وعن علاقتها جميعا بالوجود الانسانى مولدا ورضاعة وفناء • ثم ينتقل بنا الى ما يسمى بالفخر •• ليقول لنا ، بعد كلمات شارحة موضحة معمقة لمفهوم القصيدة ، ان الشاعر يستروح فى ضمير الجمع الذى يسند اليه أفعال الخير (انا نعف •• ونفى بآمن مالنا احسان) نحوا فى الذات التى تكبر بتلاقيها مع غيرها • ثم ينتقل بنا ، مع الشاعر ، الى مشهد الفتية الذين يشربون الخمر صباحا بمرأى من الحياة ومسمع ليقول لنا ان الشاعر لم يبعد حين اتبع معانى الخير ، فيما يسمى بالفخر فى القصيدة ، بمعانى اللذة هذه التى يخالطها ما يشبه الموت فان هذه بسبيل من تلك فهؤلاء الفتية كأنما يقفون عند حدود الموت والحياة حيث تنشق لذة الشراب عن طريقين : طريق يحملهم الى حيث تراهم الحياة وتسمعهم وآخر يلقى بهم فى عالم الجمود والموت •

كل عناصر القصيدة تتراوح أصداؤهاوتتجاوب وتنصهر صورها وتتدامج كما قلت من قبل فى بوتقة نار الشعر المقدسة • قسمية والغزال والسحابة وما يسمى بالفخر ومشهد الفتية ، وأنا أحرضكم أن تروه بالتفصيل كما يرينا اياه الدكتور لطفى عبد البديع ، وتلك النوق السواهم ، فى آخر القصيدة ، نوق ذهب السفار بلحومها وشحومها ، هذه النوق التى لا تروى من ظمأ ، هى ومن عليها كائنات مجنونة لا تخطو الا فوق القبور • بيد أن تلك الأرواح المفدية التى تطالعك بها نهاية القصيدة باب من أبواب الطهارة التى ترمز لها سمية وسحابة هاربة من الأرض الى السماء لتتدفق على البسيطة عزما وارادة يستند اليها المرء لأنها جوهره ويتنفس فيها لأنها روحه ، ولا يعرف الفرح من يجهل الترح ، ولا يعانق الحياة من لا يخوض غرات الموت •

على انني برغم تلك الاطالة البادية معترف انى قد قصرت كثيرا حين قمت بتلك العملية السيئة ، عملية التلخيص •• فقد انسربت من بين يدى لمحات غنية ، بحيث لا ينفع ما نقلت اليكم الا كما تنقل الصورة الفوتوغرافية عن الأصل ، مع شيء من المبالغة فى هذا التشبيه الجانبى ، لذلك أرجو مخلصا أن تعود الى ما كتبه الدكتور لطفى عبد البديع نفسه ، عساك أن تنتفع به وتسعد وتجد نوعا من المتعة لا عهد لك به مع قراءة شعرنا العربى القديم •• العظيم ، رد اليه هؤلاء النفر من نقادنا عظمته اذ عرفوا كيف يدخلون اليه من أبوابه •

ولكننى فى النهاية أرى أن ما قدمه لنا الدكتور لطفى عبد البديع من قراءات لتلك القصائد من الشعر التى امتدت عبر الزمن بما يربو على خمسة عشر قرنا •• ليست القراءات الأخيرة ، أو الوحيدة ، وأنا أزعم انه لا يرفض ذلك وانما يستبشر به ويهش له ، فهناك قراءات أخرى لتلك القصيدة وغيرها من القصائد التى قدم لنا الكتاب قراءات لها ، حية ومتوقدة • وأرجو أن أكون قد أثرت فيك شوقا الى التعرف على عالم هذا الناقد الجليل • وشكرا له على ذلك الاسهام الذى قام به فى حياتنا الشعرية •

ولكننا بعد ذلك العرض السريع لمقدمة الكتاب وقراءة الدكتور لطفى عبد البديع لقصيدة الحادرة ، وقد ظننا وكلنا أمل أن يكون ظننا خيرا ، اننا بذلك مقدمون للقارئ صورة عن ذلك الكتاب القيم الذى نعرض له فى تلك الكلمة ، نجد لزاما علينا أن نقوم بمحاولة مبدئية لاعتصار لغة النقد، على يد الدكتور لطفى عبد البديع ، فى مواجهة الشعر •• وبذلك نكون قد قدمنا للقارئ قطاعين قطاعا رأسيا وآخر أفقيا بهذا الكتاب •

الدكتور لطفى عبد البديع ، كما ألحت على ذلك كثيرا ، يمسك بالكلمات يتأملها ، حين تصبح شعرا ، أو حين تغدو كما تقول المقدمة وقد عادت الى بكارتها الأولى ، الى صوت الضمير الانسانى ، والوجود • يمسك بها فى حالاتها المختلفة من اسمية ووصفية وفعلية وحرفية ••

الخ ويمسك بها من حيث علاقاتها بالزمان والمكان ثم يقوم بتحليلها من خلال وجودها الشعرى ومن خلال تجاورها وفعالياتها المختلفة تأثرا وتأثيرا .

فالشاعر قد يأتى بضمير الجمع ، فى صيغ مما يسمى لدى التقليديين فخرا ، ولكن الناقد يواجه ذلك الاستخدام على ان الشاعر انما « يستروح فى ضمير الجمع الذى يسند اليه أفعال الخير نموا فى الذات التى تكبر بتلاقيها مع غيرها والشاعر قد يستخدم أداة النفى على غير ما تعارف عليه اللغويون حتى ليأتى بنفى متنازع فيه، مكرور عليه بعزيمة المغالبة لابطاله . ويعاود الدكتور لطفى الكرة مع حروف النفى فى قصيدة أخرى ليرينا اياها وقد أطلق الشاعر من خلالها زفرات تنطلق لاهثات ، ونلتقى به مرة أخرى فى موقف من مواقف النفى ينهض دليلا على الاثبات وينبىء عن المغالبة التى يقوم عليها الوجود الشعرى فى شتى كائناته . كذلك نلتقى بالنفى ، فى قصيدة أخرى ، وهو يحمل الانتصار على النقيصة فوق أجنحته الى البطولة الخالدة التى لا تتأتى الا بالمنازعة والمغالبة . وعنده ان « لا » النافية ، فى موطن آخر ، بايغالها فى النفى أقدر على اثبات الحقيقة الشعرية من سواها ، لأن النفى عند الشاعر بمثابة أبطال الواقع الذى يصدع فؤاده . والصفات قد يسبغ عليها الشعر اسمية تخلص بها من الوصوف الى عالم خاص أثيرى .

وللافعال بين حالاتها الزمنية المختلفة ، وفى مسافاتها الشعرية المتفردة ما يستحق أن يتأمله الباحث عند الدكتور لطفى عبد البديع .. فالفعل المضارع فى سياق شعرى ما ، يجرى مجرى السجن الذى يحاصر الشاعر ، ولاطراد الأفعال فى سياق آخر وكثرتها ما يمثل لحظات الشك والآلام التى تنتزى بالشاعر ، ولاطرادها وجه آخر يدل على طبيعة العالم الشعرى . وبطغيان الفعل تفقد الأسماء ثباتها ، وتتجاوز حدودها الأرضية الضيقة الى العالم العلوى الذى لا يعرف الحدود . وأفعال الامر قد تضيق الخناق على صاحبها ، وقد تفضى أفعال المضارعة به الى السعة، ومن هنا ندرك أن أفعال المضارعة قد تكون مرة سجنا وقد تكون مرة أخرى سعة ، وذلك بحسب وجودها الشعرى . وقد تغلب الادوات والحروف على ما عداها فى قصيدة ما ، فنصيبها عند شاعر رد الأشياء الى اصولها أو الرجوع بها الى كمالها . (أنظر قراءته لقصيدة ذى الرمة) .

انت مع اللغة بازاء معركة لا تهدأ بين ايجابية الوجود وسلبية العدم ، على ان ارادة الشاعر ، محققة بلغته الشعرية ، هى السمة الغالبة على قراءات قصائد الكتاب ، (ويمكنه تتبع هذه الارادة فى عدة قصائد) .

والناقة من أخطر الرموز والدلالات الشعرية حين تلتقى بها فى الكتاب فهى « روح عاتية وقوة من قوى الكون ، والنوق ومن عليها ، فى قصيدة الحادرة ، كائنات مجنونة لا تخطوالا فوق القبور . وناقة طرفة ناقة عكف الشاعر على أعضائها يتقصاها كما يعكف عابد الصنم على الصنم يمسح بأطرافه ، وكما يعكف العاشق على معشوقه يقبله ويناجيه ، وهى عند المخبل السعدى فى قصيدته « ذكر الرباب » ارادة تنبعث من أغوار البحر وجوف الصحراء ويتقى بها الظنون والأوهام .

ومن أبرز المصطلحات التى تعينك على فض مغاليق قصيدة من الشعر ، فى الغالب ، ذلك المصطلح الذى يقدمه لنا الدكتور لطفى عبد البديع عند قراءته لنونية ذى الاصبع العدوانى ، وهو يحاول من خلاله أن يتعرف على عالم تلك القصيدة وهذا المصطلح هو ما أسماه .. اثنينية الاطراف » التى تتألف منها الحقائق الشعرية ، وليست اثنينية الاطراف هذه كما يقول الاستاذ المؤلف « ضربا معينا من التركيب ، كمراعاة النظير أو المزاوجة أو الجمع مع التفريق ورد العجز على الصدر ، بل هى أعم من ذلك واشمل وتدخل فيها هذه الانواع جميعا » .

ويستمر الدكتور لطفى عبد البديع موضحا لاثنينية الأطراف هذه فيقول : « واثنينية الأطراف والمشاكلة بينهما قد تكون حرفية كالتكرير ، وقد تكون تركيبية وفكرية ، وبينهما درجات شتى من التباين يؤثر الشاعر منها ما يشاء مما تتسق به المادة الشعرية » .

ثم يخبرنا انها ظاهرة عامة فى سائر الآداب وعند شتى الأمم منذ أقدم الآثار الشعرية عند البابليين وفى مزامير داود .. ومن قال ان الحياة صراع فقد قال انها ازدواج واثنينية .

ابراهيم الصيرفى

فايز صايغ

بين الدبلوماسية والإعلام

عباده كحيله



فى الفترة من ٢٤ الى ٣١ أغسطس الماضى ، وبدعوة من السيد/ محمد فائق وزير الارشاد القومى زار القاهرة **الدكتور فايز صايغ** مستشار وفد الكويت فى الامم المتحدة •• والدكتور صايغ فلسطينى الأصل ، تخرج فى جامعة بيروت العربية ، وحصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة جورج تاون الامريكية ، واشتغل فترة أستاذا ومحاضرا بهذه الجامعة وجامعات أمريكية أخرى ، ثم التحق بجهاز الاعلام بجامعة الدول العربية •• وأصبح أخيرا مستشار وفد الكويت لدى المنظمة الدولية •

واذا كنا قد عرفنا الدكتور صايغ من خلال المقابلة التليفزيونية المشهورةمع المعلق الصهيونى سسكايند D. Susskind ، واعجبنا برده المتزن الهادىء المقنع فى الوقت نفسه ، ازاء الاستفزازات التى وجهت اليه ، فان هذه لم تكن

المرة الاولى التى يواجه فيها الدكتور صايغ دعاوى الصهيونية ويفند هذه الدعاوى ، فان له عشرات البرامج الاذاعية والتليفزيونية خلال عشرين عاما، اسهم بهـــا اسهاما مخلصـــا وجادا فى الدعاية للقضية الفلسطينية •

وللدكتور صايغ ستة كتب صدرت عن مركز الابحاث لمنظمة التحرير الفلسطينية فى بيروت، هى :

- **الامم المتحدة والقضية الفلسطينية**
- **حفنة من ضـــــباب : بحث فى مفـــاهيم البورقيبية وشعاراتها**
- **جرائم في التربية ضد العرب داخل اسرائيل**
- **هل تعلم : عشرون حقيقـة أساسـية حول القضية الفلسطينية**
- **الاستعمار الصهيونى فى فلسطين**
- **الدبلوماسية الصهيونية**

جميع هذه الكتب صدرت منها طبعات بالعربية والانجليزية والفرنسية والاسبانية •

يقرر الدكتور صايغ ان القاعدة العــامة التى تحكم العمل الصهيونى على المستويين السياسى والدبلوماسى هى المرحلية •• يقول **«ان المرحلية مبدأ نهجى وليس مبـدأ غائيا ، المرحلية ليست تمرينا تقوم به الصـــــهيونية من أجل المتعة أو حبابه لنفسه ، وانما هى نهج فرضته عليها طبيعة عملهـــا من جراء البون الشاسع بين هدفها وبين واقعهـــا ، وما دام الأمر كذلك ، فالمرحلية تظل سبيلا تسلـــكه الحركة الصهيونية الى أن تبلغ نهـــاية سعيها فى أحضان هدفها الاخير •• ان وجودها فى حد ذاته نزوع ، وليس وجودا قاعدا، ولا يوقفها عن الامتداد طوق أو سياج ، حتى ولئن هى تظاهرت بالقبول به مدة من الزمن •• فقط بالقضاء على القاعدة الصهيونية قضاء تاما تتعطل طاقات التحرك منها والامتداد المرحلى ، لأن الحركية المرحلية الصهيونية لا تهدأ الا فى احدى حالتين: حالة الاكتفـــاء التـام الناشىء عن الشبع وبلوغ الهـدف الاخير ، أو حالة الشلل الكامل الناشىء عن تحطيم قاعدتها» •**

والنمط المرحلى هذا تحدده عدة ضوابط هى ، الواقعية أى التطابق مع الظروف الموضوعية فى مرحلة ما ، والمرونة من حيث اختيار الأساليب للوصـــــول ، ثم اللاتراجع وهو الحد الادنى من المطـــالب فى كل ظرف ، وأخـيرا التصـاعد أى الانتقال الى مطالب جديدة مرحلية •

فى ضوء هذا من الممكن أن نفسر ما يقال من أن هنــاك معتدلين ومتطرفين فى اسرائيل إبتداء بهرتزل وانتهاء بديان ، هؤلاء جميعـــا متفقون والخلاف فى الظاهر فقط ، وهو خلاف فى التوقيت أولا وأخيرا ، ما يريد أن يحققه المتطرفون اليوم، هو ما يريد أن يحققه المعتدلون غدا ••

الصهيونية اذن تنتقل من تحقيق غرض تقرره اتفاقات الى تحقيق غرض لا تقرره اتفـــاقات ، وعلى الدبلوماسية أن تبرر هذا الانتقال، وسائلها هنا تزييف المعنى الأصلى للاتفــاقات السابقة ، والتراوح بين التفســير بالحرف وبين التفســير بالنيات ، ثم الذبذبة بين اسناد صـــفة الالزام الى بعــض الاتفاقات وانكار هـذه الصفة عن اتفاقات أخرى ، وتحوير معانى بعض الألفاظ ، واختلاق اتفاقات لم تعقد أصلا •• أخيرا قطع التعهدات الرسمية مع نية النكث بها ••• هـذه المعانى الستة يجمعها جميعا عنـوان واحد هــو التضليل •

واذا جازلنـا البـحث عن جـدار فلســــفى للدبلوماسية الصهيونية لقلنـا ان نظرية العمل الدبلوماسى الصهيونى تتألف من ثلاثة مبـادىء فلسفية هى **الشخصانية** ، باعتبار تأثير الافراد فى اقدار شعوبهم ، وخاصة اذا كان هؤلاء الافراد فى موقع سلطة ، وهذا يقتضى بالضرورة الاعتماد على الاتصالات الجانبية والسرية أساسا ، المبدأ الثانى **اللاعقلانية** ، من حيث ان الانســان ليس مكونا من عقل فقط ، وانما هناك أهواء وانفعالات وغرائز تحكمه ، ومن ثم يجب مخاطبة كل بلغة خاصــــة ، ثالثـــا اللاأخلاقيــــة ، أى أن تعمل الدبلوماسية فى خدمة السياسة من أى طريق ، ولو أدى هذا الى التضحية بالأخلاق •

صدر هذا الكتاب قبل حرب يونيو بأيام ••

ولكن اذا كان هذا هو حديث الدبلوماسية•• فأين اذن حديث الاعلام ؟

أجرى الدكتور صايغ فى القاهرة أربع لقاءات حضرها عدد كبير من المثقفين وغير المثقفين ، وهذه ظاهرة صحية ، وعلامة على مرحلة جديدة وجادة فى الطريق الى فلسطين ، الى جانب انهـا تقدير واجب ازاء انسان عرفناه وأحببناه •

تمت هذه اللقاءات فى معهد الارشاد ، حوار مفتـــوح ، الاتحــاد الاشتراكى العربى ، المعهد الدبلوماسى •

يقدم الدكتور صايغ صورة سلبية للرأى العام فى الغرب وبخاصة فى الولايات المتحدة ، فكثير من الامريكيين يعتقدون أن فلسطين منذ التوراة هى وطن اسرائيل ، ويتساءلون باستغراب : ما الفرق بين أن ينصب العربى خيمته شرق نهر الاردن وبين أن ينصبها غرب النهر ؟ وهو يفسر هذا بعدم توافر المعلومات عند الانسان الامريكى العادى الى حد أن أقل من ١٪ من الأمريكيين كانوا يعتقدون ابان حرب يونيو ان العرب على بعض الحق ٠

من الواجب اذن تغيير هذه الصورة خشية أن يتحول العداء الامريكى لنا من عداء عن جهل الى عداء عن علم ٠٠ والفرصة متاحة أمامنا اليوم أكثر من أى وقت مضى لأن صورة اسرائيل فى ذهن الانسان الأمريكى كبلد ضعيف صغير مسالم اهتزت بعد حرب يونيو ٠٠ لقد حدث تقريبا نفس الشيء سنة ١٩٥٦، لكننا لم نحسن استغلال ما حدث ٠

ان تحولا حدث فعلا فى الرأى العام العالمى والرأى العام الأمريكى ، لكن هذا التحول كان نتيجة مباشرة لاخطاء اسرائيل (حادثة مطار بيروت مثلا) والمقاومة الفلسطينية التى كثيرا ما توصف بأنها حرب تحرير لا ارهاب ٠٠ أى أن هذا التحول لم يكن نتيجة جهد اعلامى عربى مباشر ٠

ما الحل اذن ؟

يجب بأن الدعاية للقضية العربية يجب أن تتكيف حسب ظروف كل دولة ، بل كل مدينه وكل جماعة أو طائفة ، لأن الناس تختلف أهواؤهم ومشاربهم والانظمة الاجتماعية التى تحيط بهم ٠٠ شيء غريب حقا أن يكون نص نشرة عربية واحدة فى دولة معينه هو نفس النص فى دولة أخرى، بصرف النظر عن الظروف التى تعيشها هذه الدولة ٠

تأتى بعد ذلك ضرورة انشاء معهد لتربية الدعاة ، يتضمن برنامجا نظريا عندما تم فترة تدريبية فى الخارج ، من أجل التعرف على المناخ العام للقطر الذى سوف يكون مجالا للدعايه العربية ٠

والدكتور صايغ بعد ذلك يهتم بالدعاية غير المباشرة ، أى الدعاية التى تقوم بها جهات عربيه غير رسمية ، وأهم عناصرها المنظمات الطلابية العربية فى الخارج ، تضم هذه المنظمات فى الولايات المتحدة وحدها سبعة آلاف طالب لاتنقصهم الحماسة ، وانما الذى ينقصهم التنظيم والتزويد بالمعلومات ، وفعلا حققت هذه المنظمات مكاسب عظيمة فى الاوساط الجامعية ، ثم هناك أيضا المغتربون العرب ، وهؤلاء من الممكن أن يلعبوا بالنسبة للقضية العربية دورا يماثل الدور الذى يلعبه اليهود بالنسبة لاسرائيل ، ويجب استقدامهم وتثقيفهم عربيا وفلسطينيا ٠

والدكتور صايغ لا يستنكف أن نستعين بغير العرب من أجل خدمة قضيتنا ، صحيح أن الحافز أقل لكن التأثير أكبر ، خاصة اذا عرفنا ظروف الاعلام العربى وتخلفه الواضح ، وليس عيبا أن نستعين بالاجانب ، لأن القضية الفلسطينية ذات أبعاد انسانية عامة الى جانب أبعادها القومية الخاصة ، وأبرز ما فى هذه الابعاد الانسانية مشكلة اللاجئين ، وليس غريبا ان تعمد اسرائيل نفسها الى اثارة هذه المشكلة ، من أجل أن تمتصها ، فتزعم ان الفلسطينيين تركوا أراضيهم بإرادتهم، وان الدول العربية تستخدمهم كالعوبة سياسية ، **ثم هى تقارن بين أحوال اللاجئين الفلسطينيين الى البلاد العربية واللاجئين اليهود من البلاد العربية !!٠**

ان علينا واجب استقطاب المعلقين الامريكيين فى الراديو والتليفزيون والصحف ، وهؤلاء هم الذين يشكلون ـ حقيقة ـ الرأى العام الأمريكى٠

ولكن الى أى مدى من الممكن أن يؤثر الاعلام ـ وفى أمريكا بالذات ـ فى معركتنا المصيرية العسكرية فى النهاية ؟

ان الدكتور صايغ يؤكد انه ليس ممكنا التفوق على الدعاية الصهيونية ، ولكن من الممكن كسر احتكارها أو الحد من مفعولها ، بحيث يؤثر هذا على الموقف الشعبى (التبرعات) والموقف الرسمى (التأييد) ٠٠ وهذا كله سوف يؤثر بالتبعية والضرورة على حجم القوة المادية للعدو ، فلا يجوز أن نستعدى من يمكن تحييده ، وإذا وجد هذا العداء ، فانه يجب السعى الى تهذيبه ٠

بعد مقابلة ساسكايند وصلت الى الدكتور صايغ عدة مئات من الرسائل كان ٩٧٪ من هذه الرسائل تؤيد وجهة النظر العربية و ٣٪ تعارضها ٠

بعد ذلك يقول الدكتور صايغ :

« لا أتوقع أن يتبدل موقف أمريكا تماما ، ولا أتمنى هذا ، حتى لا تقول أجيال سوف تأتى بعد : انت خسرت معركة ، ثم جاءت أمريكا تساعدك فكسبتها » ٠

عبادة كحيلة

أدرك هيوم تمام الإدراك أننا بلغنا نهاية مرحلة فكرية معينة سادت لمدة أربعة قرون ، ومن خلال هذا الإدراك ، مضافاً إليه تنبؤه بمقدم فلسفة فى الحياة أشد نزوعاً إلى المطلق ، شكل أفكار جيل جديد.



الاتجاه الكلاسيكى الجديد عند هيوم

ماهر شفيق فريد

على الرغـــم من ان الشـــاعر ، والنـــاقد ، والفيلسوف الانجليزى توماس ارنست هيوملِيس بالاسم المشهور حتى بين طائفة المثقفين ، **فانه كان قـوة من أهم القوى الثقافية التى شكلت أذهان الادباء والمفكرين فى مطلع هذا القرن** • وكان له فضــل الريادة فى نقد رومانتيكية القرن التاسع عشر ، والدعوة الى ضرب من الكلاسيكية جديد ، تتحقق فيه أهمية القيم الشكلية، وتتوارى الميوعة العاطفية والانفعالية السهلة • فقد كان هيوم فى حيـــاته وفكره على السواء نموذج المفكر العقلانى النافر من الابهام والتجريد والساعى وراء الدقة والوضوح • وقد تأثر بأفكاره جيل كامل حوى فيمن حوى **ازرا** باوند ، **وت•س• اليوت** اللذين كتبا عنه وأقرا بفضله عليهما • وكان هيوم هو مؤسس جماعة « التصويرية » التى ظهرت حوالى عـــام ١٩١٣ وأكدت أهمية الصـــورة الشعرية والقصد فى التعبير ، مما نرى صداه فى قصائد باوند واليوت وريتشارد الدنجتون وهيلدادوليتل وايمى لويل ود • هـ • لورانس •

ولم ينشر هيوم أى كتب مؤلفة أثناء حياته • وانما ظهر له بعد موته كتابا «**خواطر : مقالات عن النزعة الانسانية وفلسفة الفن**» (١٩٢٤) و «**ملاحظات عن اللغة والاسلوب**» (١٩٢٥) وكلاهما من تحرير هربرت ريد • وكذلك ظهر له فى عام ١٩٥٥ كتاب « **مزيد من التأملات** » تحرير سام هاينز • وأعماله الشعرية لا تجاوز خمس قصائد قصيرة • كذلك ترجم عن الفرنسية «**مدخل الى الميتافيزيقا** » لبرجسون (١٩١٣) و «**تأملات عن العنف**» لجورج سوريل (١٩١٦) •

حياة عاصفة

ولا شك فى ان الفضل الاكبر فى استنقاذ هذه الاعمال من غمرة النسيان انما يرجع الى السير **هربرت ريد** الذى تولى أوراق هيوم ، بعد وفاته، بالتنسيق والترتيب • ويحدثنـــا ريد عن حياة هيوم فيقول :

« ولد توماس ارنست هيوم فى السادس عشر من سبتمبر ١٨٨٣ فى جراتون هول ، اندون ، بتورت ستافورد شاير • وتلقى دراســـته فى المدرسة العليا ، نيوكاسلى اندرلايم ، وفى كلية القديس يوحنا بجامعة كامبردج • وفى مارس ١٩٠٤ طرد من تلك الجامعة ، مع بعض زملائه ، لاشتراكهم فى مشاجرة • وقضى العامين التاليين فى لندن ، يدرس على النحو الذى يهواه • وفى يوليو ١٩٠٦ ســـافر الى كندا حيث قضى ثلاثة أشهر • وعاد الى انجلترا بضع أسابيع ثم مضى الى بروكسل فى مطلع عام ١٩٠٧ حيث اشتغل لمدة سبعة شهور بتدريس الانجليزية وتعلم الفرنسية والألمانية • وعنـدما عـاد الى لنـدن بدأ يدرس الموضـوعات التى انصرف اليهـا باهتمامه طوال حياته • وفى ابريل ١٩١١ حضر المؤتمر الفلسفى الذى عقد ببولونا وبقى يجوب أنحاء ايطاليا حوالى ثلاثة أشهر • وفى مطلع عام ١٩١٢ ســـعى الى العودة الى كامبردج ، وسمح له بذلك عن طريق وساطة الفيلسوف برجسون ، الذى زوده بكتاب توصية يومىء الى التأثير الذى كان هيوم يحدثه فى عارفيه :

« يسرنى أن أشهد بأنى أعتبر المستر • أ • هيوم مفكرا ذا قيمة كبرى • فهو يحمل الى دراسة المسـائل الفلســـفية صـفات نادرة من الرهافة والنشــاط والمضــاء • واذا لم أكن مخطئا خطأ فاحشا فانه لمن المقدر له أن ينتج أعمالا شائقة وهامة فى مجال الفلســـفة عامة وربما على وجه الخصوص فى مجال فلسفة الفن » •

لم يكن مزاج هيــوم بالذى يقبــل الانصياع بسهولة للقالب الأكاديمى ، وهكذا لم يتم دراسته الجامعية ، وانما غادر كامبردج بعد فترة قصيرة من عودته اليها وسافر الى برلين حيث قضى تسعة أشهر اكتسب فيها معرفة واسعة بالفلسفة وعلم النفس الألمانيين ، ثم استقر فى لندن بعض الوقت **حيث بدأت شـــخصيته القوية وأحاديثه الذكية تجتذب مجموعة من الشـــبان وتؤثر فى جيل كامل** • ثم جاءت الحرب العـالمية الأولى فانضـم هيوم الى فرقة المدفعية الشرقية ثم مضى الى فرنسا بعد عيد الميلاد وعام ١٩١٤ بفترة قصيرة • وجرح فى ربيــع ١٩١٥ حيث قتــل قرب نيــوبــورت



ت . س . اليوت

بالفلاندرز فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١٩١٧ .

دفاع عن ايديولوجية الحرب

كان هيوم محاربا بطبيعته ، وقد أطاع هذه الطبيعة بحماس نادر المثال . وتشهد مذكراته الكثيرة عن المشاكل الفنيه لاستخدام المدفعية واستراتيجية الحرب عموما باهتمامه الجاد بهذه الامور . وفى ملاحظاته الحربية التى نشرها فى مجلتى « **ذانيوايج** » (العصر الجديد) و« **كامبردج ريفيو** » (مجلة كامبردج) تحت اسم مستعار ، اثناء عامى ١٩١٥ ، ١٩١٦ ، **دافع عقلانيا عن ايديولوجيه الحرب مما أثار دهشة العسكريين الذين لاح لهم هذا الدفاع غريبا بقدر ما هو غير ضرورى ، ودهشة دعاة السلم الذين كانوا يظنون أن كل المثقفين يؤيدونهم .**

ولم يتوقف هيوم ، فى هذه الأثناء ، عن متابعة نشاطه الثقافى . فقد نشر الكثير من المقالات فى الدوريات والمجلات . وعندما مات خلف وراءه مجموعة كبيرة من المذكرات والمخطوطات التى يتكون منها كتاب (**خواطر**) . ومن شذرته المسماة (**مذكرة عن المذكرات**) وقد وجدت بين أوراقه ما يمكننا من أن نعيد تركيب أهدافه وطرائفه فى العمل . لقد كان هدفه أن يحتفظ بما يلى :

(أ) مفكرة يومية كان يحملها معه دائما ، ويدرج فيها كل فكرة وملاحظة تعن له .

(ب) مجموعة من الكتابات يدرج فيها ما يلوح له جديرا بالبقاء من تلك المفكرة عند اعادة النظر فيها وفهرستها .

(ج) وعندما تبدأ فكرة عامة فى الانبثاق من قلب هذه المذكرات المتراكمة يفتح مفكرة أو أرشيفا جديدا ، يدرج فيه كل الأفكار التى يمكن أن تنضوى تحت لواء تلك الفكرة العامة .

(د) وفى هذه المفكرة الجديدة يؤلف الكتاب المراد تأليفه .

وهذه « **المذكرة عن المذكرات** » لسوء الحظ تبدو بين آخر ما كتبه هيوم ومن ثم لم يكن ممكنا له أن يتابع فيها هذا النظام متابعة كامله . لقد ترك وراءه مئات من المذكرات يتفاوت حجمها ما بين قطع من الورق لا تزيد عن حجم طابع البريد ، وصحائف كاملة من المذكرات عن موضوع معين . كان قد استخدم الكثير من هذه المواد فى مقالاته المنشورة بمجلة « **ذانيوايج** » أو فى محاضراته . ولكن أغلبها مجرد ايماءات الى فكره : كلمات وعبارات مفتاحية . ومع ذلك فقد كانت فى ذهنه بضع أفكار عامة ، وكان ثمة ستة كتب على الأقل تتشكل فى ذهنه . وهذه الكتب هى :

١ ـ كتاب عن النظريات الحديثة فى الفن .

٢ ـ مدخل عام الى فلسفة برجسون .

٣ ـ كتاب عن جيكوب ابشتاين وعلم جمال النحت .

٤ ـ كتابعن التعبير والأسلوب أوسيكولوجية الأدب .

٥ ـ سلسلة من الكتيبات لمناهضة النزعة الانسانية والرومانيتكية ، ومعالجة فلسفة ما قبل عصر النهضة .

٦ ـ مذهب فلسفى خاص صيغ على نحو رمزى .

أفكار جيل جديد

وفيما يتعلق بالكتاب الأول كتب هيوم بعض الملاحظات عن علم الجمال الحديثوفصلا عن نظرية برجسون فى الفن . أما الكتاب الثانى فقد كان يقوم على أربع محاضرات عن برجسون القاها فى

لندن عام ١٩١٣ ٠ والكتاب الثالث عن جيكوب ابشتاين كان قد قطع فيه مرحلة طيبة ولكنه اختفى بعد موته • وأعماله الأوفر حظا من الاصالة كتابه عن التعبير والأسلوب لا تعدو أن تكون ملاحظات تمهيـــدية تومىء للمؤلف الى سلاسل الأفكار التى تبتعثها فيه أى صور أو انطباعات • وسلسلة كتيباته قد ظلت فى حيز التخطيط أكثر مما خرجت الى حيـز الوجـود . ولا ريب فى أن مقالاته المنشورة عن النزعة الانسانية ، والموقف الدينى من الوجود ، والرومانتيكية والكلاسيكية، قد كانت خليقة بان تظهر فى تلك السلسلة التى كان يريد بها أن تكون بمثابة فحص نقدى كامل لايديولوجيات عصر النهضة ، ورد اعتبار لفلسفة ما قبل عصر النهضة •

وثمة ايماءات الى اتجاه فكره فى هذا الموضوع فى مقدمته التى كتبها لكتاب سوريل (**تأملات عن العنف**) • وأخيرا فهناك العمل الذى كرس له هيوم القسم الأكبر من فكره ، والذى ظل يضعه دائما نصب عينيه ، الا وهو انشاء مذهب فلسفى خاص صيغ على نحـو رمزى ، كمذهب نيتشـه المبسـوط فى كتـــابه (**هكذا تكلم زرادشت**) وهدفه النهائى هو القضـاء على فكرة أن العـالم وحـدة أو أن أى شىء يمـكن وصـفه عن طريق الكلمات • وتغطى المذكرات الخاصة بهذا الكتاب رقعة واسعة من الزمن ـ ربما شملت عشر سنوات أو خمسـة عشر سـنة ـ وكثيرا ما أعاد صاحبها كتابتها وتنقيحها • غير انه لم يمنحها أى شكل نهائى •• واذا استثنينا اســم أفرا الذى أعطاه للشخصية الرئيسية فى هـذا الكتاب ، فسـنجد انه ليس من الممكن تبين تركيبه الرمزى • وقـد اطلق هيوم على هذه الشذرات اسم «جمرات» •

ظل هيوم طوال حياته عدوا لدودا لمن يريدون حجب نور المعرفة ونشر الظلام وتتمثل أهميته فى أنه أدرك تمام الادراك اننا بلغنا نهــاية مرحلة فكرية معينة سادت لمدة أربعة قرون •• ومن خلال هذا الادراك مضافا اليه تنبؤه بمقدم فلسفة فى الحياة أشد نزوعا الى المطلق ، **شكل أفكار جيل جديد** •

هـذا ما يقوله هربرت ريد عن هيـوم • وثمة ناقدا آخر هو والتر جاكسـون بيت يلخص فى كتابه المسمى **مداخل الى النقد** (١٩٥٩) ما انجزه هيوم فيقول :

« **أثر هيوم تأثيرا واســع النطاق فى النقد الحديث ، وذلك بتقريره ـ على نحو يتسم بالايجاز والحيوية ـ عددا من الآراء ثبت أنها تلائم المزاج الحديث • ولم تكن قد عبر عنها نظريا من قبل ، أو صيغت نقديا على الفن • ان كتاباته النقدية هى فى الحقيقة أقرب الى ان تكون منشورا وجيزا او اعلانا لاصول منها الى أن تكون تحليلا أو تطويرا لموقف معين • ومن ثم فانه لم يعد يقرأ الآن عندما كان يقـرأ فى أواخــر العشرينيات وأوائــل الثلاثينيات ، حتى من جانب النقاد والقراء الذين يكررون الآن نفس آرائه باصطلاحات كان هـو اول من روج لها** » •

النزعة الشكلية التجريدية الحديثة

فنحن نجد ـ بادىء ذى بدء ـ أن هيوم قد أمد النقاد الانجليز والأمريكيين بعقيدة عـامه **للنزعة الشكلية التجريدية الحديثة** • لقد دعم هيوم رد الفعل الذى كان قد بدأ فى الظهور ضد قرن التاســع عشر ، ضــد الغموض الرومانتيكى واستخدام الرومانتيكيين للعاطفة بغايه فى حد ذاتها ـ وعبر عن رد الفعل هذا وعلى نحو اشد صرامه ونفاذ • وفى مقالتـه المســماة « **الفن الحديث** » قسم الفن تقسيما مفاجئا ـ الى نوعين : « **هندسى** » و « **حيوى** » • وكلا النوعين يعبر عن طريقة جذرية فى النـظر الى الحيــاة • فالفن « الحيوى » يسـعى الى ان يكشــف عن عمليات الطبيعه الحيه والعضويه ، وان كان هيوم يذهب الى انه لا « يكشف » عنها بقدر ما يخترع الصفات التى يجعلها ثم يسقطها عليها • وهذا الضرب من الفن ـ الذى يجنـح الى الاداء « الطبيــعى » او « الواقعى » لموضوعه ـ ينشأ عندما يشعر الانسان بان ثمه صله عضوية بينه وبين العالم الخارجى • انه يتمثل فى فن الاقدمين ويعاود الظهور فى عصر النهضــه باعتبـاره الشـــكل الفنى الغالب • والرومانتيكيه هى آخر مرحلة لهذا الفن • وقد انتهت ـ عند نهايه القرن التاسع عشر ـ بعاطفية مغرقه فضفاضه لا معنى لهـا ـ أو كمـا يقول هيوم : « **انها حالة التميع التى كتب علينا لسوء حظنا أن نعيش فيها** » • ومن ناحيه أخرى فان الفن « **الهندسى** » او التجريدى ـ على النحو الذى نجـده فى الفن المصرى والبيزنطى القـديمين ، وبعض ضروب الفن الشرقى ـ ينشأ عندما يشعر الانسان بانفصاله عن العالم الخارجى وعن سائر البشر • وهنا يسـاور الانسـان الشـعور ب « التهيب ازاء الفضــاء » فيفرض شـــكلا صارما تجريديا لا حياة به على موضوعه ، محاولا بهذا أن ينظم خبرته على نحو يمكنه من التحكم فيها • **ويعتقد هيوم أن القرن العشرين يتحرك فى هذا الاتجاه** • وقد دعم حجته بان ربط بين هذا الاتجاه

وانتعاش النظرة الدينية التي تؤكد انفصال الانسان ، وتقوم على عقيدة « **الخطيئة الأصلية** » •

ومن الممكن أن نتقبل تقسيم هيوم للفن الى هذين النمطين باعتباره فرضا موحيا • غير انه لا يكاد يكون مقنعا على النحو الذى تركه عليه • وهو يترك الكثير من المشاكل الرئيسية لنظرية انتقد بلا اجابة • وأهم هذه المشاكل ما هو متضمن فى الاعتقاد الكلاسيكى بان الشكل ، بأى نوع من أنواعه ، ليس سوى الواقعية الموضوعية للشىء ، وحالته اذ يعمل فى الطبيعة ذاتها ، وان الفن يكون ذا قيمة على قدر ما يكشف عن هذا الشكل ، مؤديا اياه أو معيدا توزيعه من خلال وسيطه الخاص الذى هو الكلمة أو الصوت أو اللون • واعتقاد هيوم الضمنى بان الشكل فى الفن « الحيوى » وهم وابتداع ذاتى من تلفيق ذهن المتفنن هو بطبيعة الحال ، تفسير ممكن لهذا الضرب من الفن • ولكن الفن (الهندسى) الذى دافع عنه هيوم ووضعه على الطرف المقابل يمكن أن يكون ذاتيا هو الآخر • فهو مفروض مباشرة على الطبيعة ، بل أن قيمته الكبرى ـ كما أكد هيوم ـ هى انه مضاد للطبيعة • كذلك لم يشرح هيوم مفهوم « التهيب أمام الفضاء » الكامن من وراء الفن الهندسى شرحا كافيا • وانما افترض ببساطة أن وجوده أمر محتوم وكان يدافع عنه ، على نحو رومانتيكى ، لأنه « أعظم حدة » • ان كلا الاتجاهين مهتم بوسيط الفن على حساب موضوعه ، وكلاهما يصور تفكك التراث الكلاسيكى عن طريق الانسحاب من الحياة الواقعية • فالرومانتيكى ينسحب من الواقع الى فن يعتمد على الاستجابات العاطفية المحفوظة • والتجريدى يواصل هذا الانسحاب رغم انه يحتج على عاطفة الرومانتيكى ويسعى الى أن يستبدل بها طريقة أكثر تفننا فى تحقيق استجابة المتلقى •

احياء كلاسيكى جديد

وثمة عرض أقل تطرفا لنظرية هيوم فى الفن نجده فى مقالته القوية التأثير « **الرومانتيكية والكلاسيكية** » • ففى هذه المقالة يكرر اعتراضه على الرومانتيكى دون أن يوهن حججه بالربط بين ما ينفر منه وبين التراث الغربى بأكمله • والحق أن ما وصفه هنا على الطرف المقابل نظريا للفن الرومانتيكى انما هو مفهوم للكلاسيكية واسع بما يكفى لان يجعله يتضمن لآثار الكلاسيكيين الاقدمين وحدهم ، وانما أيضا آثار شكسبير وأغلب كتاب العصر الاليزابيثى والتراث الكلاسيكى الجديد للقرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر • وفى مقابل ذلك نجد أن ما يهاجمه هيوم باعتباره رومانتيكيا انما يقتصر على فن القرن التاسع عشر • وهو ـ مثل ارفنج بابيت ـ يصب هجومه على افتقار ذلك الفن الى التمدين ، ويربطه بتمجيد النزعة الانسانية والعواطف الرطبة والرثاء للذات وارتخاء قبضة الدين المنظم ، أو كما يقول : « **انك لا تؤمن بالجنة ولهذا تبدأ فى الاعتقاد بجنة على الارض • وبمعنى آخر فانك تحصل على الرومانتيكية : وان خير تعريف أستطيع أن أقدمه لها هو انها دين مراق** » • وقد غدا الكثير من ملاحظات هيوم بمثابة عبارات محفوظة بعد الحرب العالمية الاولى • ويصدق هذا بصفة خاصة على ملاحظاته الموجزة عن الاسلوب ، فان نغمته فى هذا الصدد توحى بمثل أعلى يتوصل اليه عن طريق «**التوهم**» أكثر مما يتوصل اليه عن طريق «**التخيل**» بالمعنى الذى أعطاه كولردج لهاتين الكلمتين ويتسم بجفاف الاسلوب وصلابته •

يرى هيوم فى مقالته « الرومانتيكية والكلاسيكية » انه بعد مائة عام من الرومانتيكية فاننا مقبلون على احياء كلاسيكى •

ويروى انه منذ حوالى عام مضى ألقى رجل اسمه فوشوا فى مسرح الاوديون بباريس محاضرة عن **راسين** أدلى أثناءها ببعض الملاحظات الانتقامية عن بلادته وافتقاره الى الابتكار وما الى ذلك • وتسبب هذا فى شغب فورى فقد نشبت المعارك فى كل الدار واعتقل اناس كثيرون وسجنوا وما لبثت بقية سلسلة المحاضرات ان القيت ومئات من الشرطة والمجندين منتشرون فى المكان • لقد ثار هؤلاء الناس لان المثل الاعلى الكلاسيكى شىء حى بالنسبة لهم وراسين هو الكلاسيكى العظيم • وهذا هو ما يدعوه هيوم اهتماما حيويا حقيقيا بالادب • فهم يعتبرون الرومانتيكية مرضا مخيفا شفيت منه فرنسا لتوها •

والامر يتعاقد فى حالتهم من جراء الحقيقة الماثلة فى ان الرومانتيكية كانت هى التى أحدثت الثورة الفرنسية • لقد كان هؤلاء الناس يكرهون الثورة ولهذا يكرهون الرومانتيكية •

ولا يعتذر هيوم عن زجه بالسياسة هنا • فالرومانتيكية فى انجلترا وفرنسا على السواء ترتبط بآراء سياسية معينة • وهى فى فرنسا قد ارتبطت بالثورة وبآراء **روسو** الذى علم الناس ان الانسان بطبيعته خير وان القوانين والعادات الرديئة وحدها هى التى قمعته ـ فلنتخلص من كل هذا وستتاح الفرصة لامكانيات الانسان

اللانهائية • وهذا هو ما جعلهم يعتقدون ان شيئا ايجابيا يمكن أن يخرج من الفوضى ويخلق حماسا اشـبه بالحمـاس الدينى ! **ها هنا جذر كل رومانسية : ان الانسان الفرد مستودع لا نهائى للامكانيات واذا أمكنك أن تعيـد تنظيم المجتمع بالقضاء على النظام المتعسف فان هذه الامكانيات ستتاح لها الفرصة وستحصل على التقدم •**

ويستطيع المرء أن يعرف الكلاسيكى على نحو لا لبس فيه بأنه النقيض تماما لهذا ، فالانسان حيوان ثابت ومحدود على نحو غير عادى ، طبيعته باقية بصـورة مطلقـة • وبالتقاليد والتنظيم وحدهما يمكن أن يسـتخرج منه أى شيء يتسم باللياقة •

وقد اهتز هذا الرأى قليلا فى عصر **داروين** • وانت تذكر فرضه القائل بأن الانواع الجـديدة تأتى الى الوجـود عن طريق التـأثير التراكمى لتنويعات صغيرة ـ ويلوح انهذا يسمح بامكانيه التقدم فى المستقبل ـ غير انه فى انوقت الحاضر يشق فرض مضاد طريقه على شكل نظرية الطفرة عند ديفريس •

فكل نـوع جـديد يخرج الى حيز الوجـود لا تدريجيا عن طريق تراكم خطوات صغيرة وانما فجأة بقفزة وكنـوع من اللهو وما أن يخرج الى حيز الوجود حتى يظل ثابتا بصـورة مطلقة • وهـذا يدعم وجهة النظر الكلاسيكية بسند من التأييد العلمى •

واذا وضعنا الامر بصـورة موجزة فسنجد ان هذين هما الرأيان الموجودان ، أحدهما انالانسان فى باطنه خير تفسده الظروف • والآخر انه فى باطنه محدود ولكنه ينظم بالنظام والتقاليد ليصبح شـيئا معقولا على نحو لا بأس به ، وعند أحد الجـانبين ان طبيعة الانسـان أشبه ببئر وعند الجـانب الآخر انها أشبه بدلو • **فالرأى الذى يعتبر الانسـان بئرا ومستودعا مليئا بالامكانيات هو الرومانتيـكى والرأى الذى يعتبره مخـلوقا متناهيا وثابتا جدا هو الكلاسيكى •**

وللمرء أن يلاحظ هنا ان الكنيسة قد اعتنقت دائمـا الرأى الكلاسـيكى منذ هزيمة الهرطقة البيلاجية واعتناق العقيدة الكلاسـيكية القـائلة بالخطيئة الاصلية •

ومن الخطأ أن نطـابق بين وجهـة النـظر الكلاسيكية ووجهة النظر المادية • وعلى النقيض من ذلك فانها تتطابق ـ على نحو مطلق ـ مـع الاتجاه الدينى الطبيعى • ويضع هيوم الامر على هذا النـحو : **ان ذلك الجزء من الطبيعة الثابتة للانسان هو الايمان بالله** • وينبغى أن يكونهذا ثابتا وحقا بالنسبة لكل انسان كالايمان بوجود المـادة والعالم الموضوعى • انه يوازى الشهية والغريزة الجنسية وكل الصفات الاخرى الثابتة• والآن فانه فى أوقات معينة وعن طريق استخدام القوة أو البلاغة قد كبتتهذه الغرائز فىفلورنسا تحت **سافونا رولا** وفى جنيـف تحت **كلفن** وفى انجلترا تحت حكم الطائفة الدينية المعروف باسم ذوى الرءوس المستديرة • والنتيجة المحتومة لمثل هـذه العملية هى ان الغريزة المكبوتة تنفجر فى اتجاه غير سوى • وهكذا الشأن مع الدين • فعن طريق البلاغة الملتوية للعقـلانية تكبت غرائزك الطبيعية وتتحول الى واحد من اللاادريين • وكما هو الشأن مع سـائر الغرائز فان الطبيعة تنتقم لنفسـها • ان الغرائز التى لا تجد لها مخرجا سلبيا وملائما فى الدين لا بد وأن تخرج بطريقة أخرى • انك لا تؤمن بالله ولهذا تبدأ فى الاعتقاد بان الانسـان اله • وانت لا تؤمن بالجنة ولهذا تبدأ فى الاعتقاد بجنة على الارض •

وبمعنى آخر فانك تحصل على الرومانتيكية • ان المفاهيم التى هى صحيحة وملائمة فى ميدانها الخـاص تنتشر وهـكذا تختلط وتزيف وتغيم الخـطوط الواضـحة للتجربة الانسـانية • فالرومانتيكية والكلاسيكية صدى لهذين الموقفين من الكون ومن الانسـان • ان الرومانتيكى لانه يظن الانسان لا متناهيا لابد أن يتحدث دائما عن اللامتناهى • ولما كان هناك دائما التقابل المرير بين ما تظن انك ينبـغى أن تكون قادرا على أن تفعله وما يستطيعه الانسـان فعلا فان الشاعر الرومانتيكى يجنح دائمـا فى مراحله التالية على الاقـل الى أن يكون مكتئبا • ومن أمثلة الكتاب الكلاسيكيين **هوراس** وأغلب الاليزابيثيين وكتاب العصر الاوغسطى ، ومن أمثـلة الرومانتيكيين **لامارتين وهوجو وكيتس وكولردج وبايرونوشيلى وسوينبرن •**

ويقـول هيوم انه عندما يفـكر الناس فى الكلاسيكى والرومانتيكى فى الشعر فان التضاد يقوم على الفور فى أذهانهم بين **راسين وشكسبير** مثلا • ولكنه يرى أن كليهما كلاسيكى• انالناس يظنون ان الفرق بين الكلاسـيكى والرومانتيكى مجرد فرق بين الكبح والوفرة • وهيوم يرى مع نيتشه ان هناك نوعين من الكلاسيكية : السكونى والحركى • وشـكسبير هو المثـل الكلاسيكى للحركة •

وعلى ذلك فان ما يعنيه هيوم بالكلاسيكى فى الشـــعر هو هذا : انه حتى فى أكثر السبحات خيـــاليه يوجد دائما كبح وتحفظ · والشـــاعر الكلاسيكى لا ينسى قط هذا التناهى وهذا الحد للانسان · وهو يتذكر دائما انه ممتزج بالارض · انه قد يقفز ولكنه يعود دائما · وهو لا يطير قط فى الاثير المحيط بالارض ·

وتك أن تقـول ، ان أردت ، ان كل الاتجـاه الرومانتيكى يلوح متبلورا فى الشعر حول صور التحليق · ان **فيكتور هوجو** يحلق دائمـا فوق المهاوى ويطير فى الاثير وكلمة « **لا متناه** » توجد بين كل سطر وسطر من كتاباته ·

أما فى الاتجـاه الكلاسيكى فانك لا تلوح قط متأرجحا نحو اللامتناهى ·

واذا قلت شيئا مسرفا يجـــاوز الحدود التى تعلم ان الانسان مقيد داخلها ، فانك تنقل ، على نحو ما ، فى النهاية انطباعا بأنك تقف خارجه ولا تؤمن به تماما او أنت تقـدم ما قلته ، عن وعى ، على انه اغراب فى الخيال · وانت لا تذهب قط دون تبصر الى مسـتوى أبعد من الحقيقة ، جو أشد تخلخـــلا من أن يتنفس فيه الانسان طويلا · انك تكون دائما مخلصـــا لمفهوم الحد · انهـــا مســألة تأكيد : ففى الشعر الرومانتيكى تتحرك علىدرجة معينة من البلاغة تعلم والانسان على ما هو عليه ـ انها تتسم بالمبالغة · وهذا هو نوع الشىء الذى تجده عند هوجو أو سوينبرن ·

نهاية الحركة الرومانتيكية

ويتحدث هيوم عن الاسباب التى تجعله يظن اننا نقترب من نهايه الحركه الرومانتيكية فيقول انها تكمن فى طبيعة أى مواضعات أو تراث فى الفن · ان المواضعات الفنيه توازى ظواهر الحياه العضوية · فهى تهرم وتضمحل ولها فتره مقررة من الحياة لا بد لها بعدها من ان تموت · وكل النغمات الممكنة تعزف عليهـا ثم تستنفد : خد حالة الازدهار غير العـــادى للشـــعر فى العصر الإليزابيثى · ان كل أنواع الاســـباب قد قدمت لذلك ـ انتشاف العالم الجـديد وما الى ذلك · وهناك ماهو أبسط بكثير · فقد منح الاليزابيثيون وسيطا جديدا ليتلاعبوا به : **هو على وجه التحديد الشعر المرسل** · لقد كان جديدا ومن ثـم فقد كان من اليسير أن يعزفوا نغمات جديدة عليه ·

وهذا القانون نفسه ينطبق على سائر الفنون · فكل أساتذة الرسم يولدون فى العالم فى الوقت الذى يكون فيه التراث المعين الذى ينطلقون منه ناقصـا · لقد كان التراث الفلورنسى على وشك النضج التام عندما جاء **رفاييل** الى فلورنسا وكان التراث الفنى ما يزال شابا عندما ولد **تيتيان** فى البندقية · وكانت المناظر الطبيعية ما تزال لهوا أو خلفيـة لرسم الاشخـــاص عندما هب **تيرنر ووكونستابل** للكشف عنقوتها المستقلة · وعندما انتهى تيرنر وكونستابلمن المناظر الطبيعية فانهم لم يتركوا الا القليل أو لم يتركوا شيئا لخلفائهم كى ينجزوه عبر هذه الخطوط نفسها · **ان كل ميدان للنشاط الفنى يستنفده أول فنان عظيم يجمع منه محصولا كاملا** ·

ويرى هيوم ان هـذه الفترة من النضوب قد بلغناها فى الرومانتيكية فنحن لن نحصل على أى ازدهار جديد للشـعر الى أن نحصل على تكنيك جديد ومواضـعات جديدة نطلق لانفسنا العنان داخلها ·

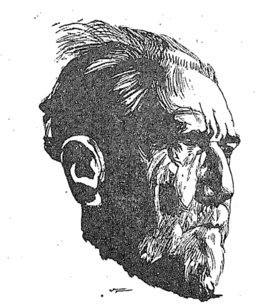
وعندما يقول هيوم انه لا يحب الرومانتيكيين فانه يفرق بين شـيئين : **ذلك الجزء منهم الذى يشـتركون فيه مع كل الشعراء العظماء ، وذلك الجزء الذين يختلفـون فيه والذى يضفى عليهم طابعهم كرومانتيكيين** · وهذا العنصر الاقل مرتبه هو الذى يكون النغمة الخاصة للقرن التاسععشر والذى يضـــايقنا · ويشعر هيوم بأن ثمة تغيرا مقبلا وبأن هناك نسبة متزايدة من الناس الذين لا يمكنهم ، ببســـاطة ، أن يحتملوا رومانتيكيا كسوينبرن ·

ان هيـــوم يعتـــرض حتى على أفضــــل الرومانتيكيين · يعترض ، أكثر من ذلك ، على الطبع الاستقبالى السالب · يعترض على العاطفيه المغرقة التى لا تعتبر ان القصيدة قصيدة الا اذا كانت تئن أو تنوح على هذا الشىء أو ذاك ، ويذكر فى هذا الصدد آخر بيت من قصيدة **لجون وبستر** تنتهى بطلب يوافق عليه بكل قلبه :

كف عن أنينك واخرج

وقد بلغ الأمر الآن مرحلة من السوء أصبحنا نجـد معها ان قصـيدة جافة وصلبة ، قصيدة كلاسيكية ، بالمعنى الصحيح ، **لم تعد تعتبر شعرا على الاطلاق** · فكم من النـــاس الآن يمكنهم أن يضـــعوا أيديهم على قلوبهم ويقولوا بصدق انهم يحبون هوراس آوبوب ؟ انهم يشعرون بنوع من التجمد عندما يقرءونهما ·

ان الصلابة الجافة التىتجدها فى الكلاسيكيات منفرة لهم بصـورة مطلقة · فالشعر الذى ليس رطبا ليس بشعر على الاطلاق · وهم لايستطيعون



أ . باوند

أن يتبينوا أن الوصف الدقيـــق هدف مشروع للشعر . والشعر عندهم يعنى دائما ادخال بعض العواطف التى تتجمع حول كلمة « **لا متناه** » .

من النظرية الى التطبيق

وقد سعى هيوم الى تطبيق هذه المبـادىء على شعره الخاص . فتكنيكه الشعرىيقوم على التزام الدقة ، وتجنب السرف ، والابتعاد عن مبالغـات الرومانتيكيين . انظر الى قصـــيدته المســـماة « **الخريف** » :

لمسة من البرد فى الليلة الخريفية
سرت فى الخارج
ورأيت القمر الاحمر يتكىء على سور
كمزارع أحمر الوجه .
لم أتوقف لكى أتحـــدث اليه ، وانما أومأت برأسى ،
وحوالى كانت النجوم التواقة
ذات أوجه بيض كأوجه أطفال المدينة .

أو الى قصيدته المسماة «**فوق حوض السفن**»:

فوق حوض السفن الساكن فى منتصف الليل
يتدلى القمر ، مشـــتبكا فى ارتفاع الصارى الطويل ذى الاحبال .
ان مما كان يلوح بعيدا كل هذا البعد
ليس الا بالونة أطفال ، نسيت بعد اللعب .

أو الى قصيدته المسماة «**الطوار**» :

ذات مرة فى براعة القيثارات وجدت النشوة
فى لمعة كعبين ذهبيين على الطوار الصلب .
والآن ارى
ان الدفء هو عين مادة الشعر
اى الهى ، فلتصغر
من ملاءة السماء القديمة التى أكلتها النجوم
حتى يتسنى لى أن أطويها حولى ، وفى راحة ارقد .

تجد ان ما يجمع بين هذه القصائد الثلاث انما هو نزوع ــ يكاد أن يكون متعمــدا ــ الى قلب الاوضاع الرومانتيكية رأسا على عقب . فالقصيدة **الاولى** موضوعها الخريف ، وهو موضـــوع كان الرومانتيكى خليقا بأن يجعل منه مناسبة خصبة لبث اوجاعه والتـــوحيد بين حالاته النفســـية والطبيعة . ولكن هيوم يتناوله بحياد ، بل وببرود ، باعتباره مستقلا تماما عن الوعى الذى يصفه . وفى القصـــيدة **الثانية** يجرد القمر من ســـحره الرومانتيكى ليعده مجرد « بالونة أطفال ، نسيت بعد اللعب » . وفى **الثالثة** لايترك لنفسه العنان فى تصوير جيشان صدره الذى اهتز ، ذات مرة ، لمرأى «كعبين ذهبيين على الطوار الصلب» ، وانما يســـارع الى تأملات مجردة عن طبيعة الشعر ، وعن رغبته فى ترك كل هذه الانفعالات .

ونستطيع أن نقول مع بيتر وستلاند فى كتابه «**الادب المعاصر : ١٨٨٠ ــ ١٩٥٠**» ان منطلق هيوم فى كل هذا هو ايمانه بأنه من بين نواحى نقص الانســـان المحتومة ، سوء الحظ الماثل فى اننا لا نعى الا ما تدركه حواسنا . والى هـــذا القول أضاف نتيجة مؤداها اننا يجب أن نحصر كتاباتنا التخيلية فى هذه الحـدود نفسها . وهذا يمكن تحقيقه باستخدام ايقاعات وقوالب الكلمات التى تســـتطيع أن توضح المعنى للحواس منفصلة عن الرســالة الموجهة الى الذهن . وفى أحضان هذه النظرية ولد قسم كبير من الشعر الحر فى أوربا وأمريكا . وأدى ذلك الى تشـــجيع الاهتـــمام بالكلمات التى ينبغى استخدامها على نحـــو من الدقة يمكنها من أن تحوى داخلها ــ ان جاز لنا أن نقول ذلك ــ الصورة المراد توصيلها . لقد كان على الكلمات أن تكون مثـل جواهر منحوتة حتى توحى للحواس أساسا بالفكر الذى تتضمنه .

آتت تعاليم هيوم هذه ثمرتها . فقد حدث فور وفاته رد فعل واسع النطاق ضد الرومانتيكية ، تزعمه باوند واليوت وجويس ووندام لويس ، ممن أعادوا اقرار المعايير الكلاسيكية ، وأخلوا السعى وراء الكمال الفنى ، والضبط والتحكم ، والقصد فى التعبير ، محـــل الاغراق فى التعبير الذاتى والانفعال .

ماهر شفيق فريد



د. هـ. لورنس
ترجمة :
محمود عبد العزيز

من المؤسف أن كلمة ((جنس)) كلمـة قبيحة وغالبـا غير مفهومة تماما . فما هو الجنس ؟ ان معرفتنا به تنقص كلما زاد تفكيرنا فيه .

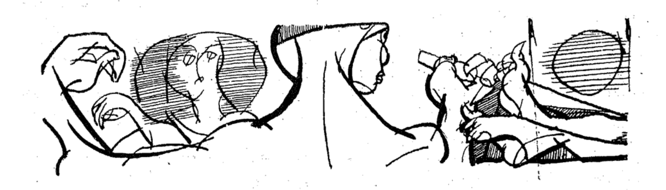
يقول العلم ان الجنس غريزة . لكن ماهى الغريزة ؟ من الواضح أن الغريزة عادة قديمة وفطرية . ومع ذلك فان أيـة عادة ، مهما كانت موغلة فى القدم ، لابد وأن تكون لها بداية . لكن لاتوجد بداية حقيقية للجنس . ويوجد الجنس حيثما وجدت الحياة ، وعليه ، فان الجنس ليس عادة تم تشـكيلها وتكوينها .

ويتكلم العلماء مرة أخرى عن الجنس باعتباره شهوة مثل شهوة الانسان الطعام . فاذا كان الجنس شهوة ، فلأى شىء اذن ؟ هل هو شهوة للتناسل ؟ ان هـــذا التفكير عبث وغير معقول . ويقولون كذلك ان الطاووس ينفش ريشه الجميل كيما يبهر أنثاه لتدعه يشبع شهوته للتناسل . فاذا كان الامر كذلك ، لماذا اذن لاتنفش أنثى الطاووس ريشها الجميل لتبهر ذكرها فيدعها تشبع رغبتها فى التناسل ؟ ان لانثى الطـاووس نفس رغبة الذكر الشديدة فى البيض والتكاثر . وبناء على ذلك لايمكننا الاعتقاد بأن الدافع الجنسى عند الانثى ضعيفالى الحد الذى تجد نفسها عنده فى حاجة الى اظهار روعة ريشها الازرق كى تستثار . ليس الامر هكذا على الاطلاق .

وبالنســـبة لى ، لم ار أبدا أنثى طاووس وهى تتـأمل القطعة البرونزية والزرقاء لسيدها الذكر ، ولا اظن أنها تراه أو أنها تدرك الفرق بين البرونزى والازرق أو البنى والاخضر.

ولو كنت قد رايت أنثى طاووس تمعن النظر فى هيام ووله الى ســيدها فى زهوه لاعتقـــدت انه قد نفش ريشـــه لمجرد جذب اهتمامها . ومع ذلك فهى لاتنظر اليه أبدا . ويبدوفقط انها تتجرأ قليلا حينما ينفض ريشه مثل شجرة داهمتها الانواء. وفى هذه الحال تلاحظ الانثى وجود الذكر بمحض الصدفة .

وتبعث كل نظريات الجنس هذه على العجب ، فالطاووس يظهر عظمته لمجرد أن هناك أنثى جميلة العينين لا تنظر اليه . ان العالم الذى قال بذلك كان على درجة من السذاجة جعلته





د . هـ . لورنس

ينظر الى انثى الطاووس ويخلع عليهـا صـفة التـذوق الفنى البـديع للون الطاووس وشـكله . آه .. يا لعظمـة القيم الجمالية التى تتميز بها الأنثى !

ويشدو البلبل لكى يجذب انثاه التى تتميز بفصول شديدة فتراه يصدح باعذب الحانه بينما يوشـك شـهر العسـل أن ينقضى . وحينذاك لا تعبأ به انثاه اطلاقا لانها تبدأ فى الاهتمام بصغارها . فاذا كان البلبل لا يشـدو ليجذب اهتمام انثـاه فانما يشدو ليشتت انتباهها عن صغارها ويؤنسها فى مجلسها.

كم هى مسلية وساذجة هذه النظريات ! لكن هناك رغبة خبيثة وراء كل هـذه النظريات . هنـاك شىء خبىء لا يمكن اماطة اللثام عنه ، ويكمن وراء كل هذه النظريات ، الا وهو الرغبة فى نفى ومحو غموض الجمال .

وكل هـذا لان الجمـال أمر غامض . لايمكنك ان تجعـل الجمـال طعـاما تزدرده او لباسا تسـتتر به . ويمضى العلم ليقول بان الجمال حيلة من قبل الذكر لاحتواء الانثى وترغيبها فى التكاثر . وهو كلام ان دل على شىء فانما يدل على سذاجة . وكان الانثى فى حاجة الى الترغيب ! انهـا تـكاثر حتى تحت جنح الليل ــ هل الجمال اذن حيلة ؟

اننا نجد ان العلم يتميز بكراهيـة غامضـة للجمال لان موضوع الجمال لا يمكن تطبيق مبدأ السببية عليه . اما المجتمع فيتميز بكراهية غامضـة للجنس لان الجنس يتدخل دائما فى



المشروعات التى يقوم بها الانسان الاجتماعى لتدر عليه الرزق . وتمتزج الكراهيتان - كراهية العلم للجمال وكراهية المجتمع للجنس - ويظهر الجمال والجنس على أنهما مجرد شيئين للتكاثر .

لكن الجنس والجمال شىء واحد مثل اللهب والنار . فاذا كنت تبغض الجنس فأنت تبغض الجمال أيضا . واذا عشقت الجمال « الحى » فان عندك قبولا للجنس . ويمكنك طبعا أن تحب الجمال القديم الميت وتكره الجنس . لكن اذا عشقت الجمال الحى فلابد أن تكون متميزا بقبول للجنس .

ويستحيل الفصل بين الجنس والجمال لانهما مثل الحياة والشعود . والذكاء الذى يتمشى مع الجنس والجمال وينبع منهما هو الحدس . وربما كانت أكبر مصيبة حلت بحضارتنا هى ذلك الشعور المرضى بالكراهية تجاه الجنس . وعلى سبيل المثال : هل يوجد شيء أكبر كراهية للجنس وتسمما من التحليل النفسى الفرويدى ؟ انه علم يحوى فى طياته خوفا مرضيا من الجمال ـ الجمال الحى ـ وهذا الخوف هو الذى يسبب لنا فساد ملكتنا الحدسية وذاتنا الحدسية .

ليس المرض النفسى العميق الذى أصاب رجال ونساء العصر الحديث غير حالة من الفساد والوهن منيت بها الملكات الحدسية . ان هناك عالما متكاملا من الحياة يمكننا ادراكه والاستمتاع به عن طريق الحدس ، والحدس وحده ، وهو عالم حرمنا منه لأننا رفضنا الجنس والجمال اللذين هما منبع الحياة الحدسية .. انه العالم الذى يبدو رائعا فى حياة الحيوانات الطليقة والنباتات .

والجنس جذع أوراقه الحدس وزهرته الجمال . لماذا تكون المرأة رائعة فى عشريناتها ؟ يرجع ذلك الى ان عشرينات المرأة هى الوقت الذى يبزغ فيه الجنس بنعومة الى محياها كما تبزغ الزهرة على رأس خميلة أو طرف غصن .

أما الجاذبية فهى جاذبية للجمال . ونحن نرفضها كلما أمكننا ذلك ، ونحاول أن نجعل من الجمال شيئا فارغا وأجوف بقدر الامكان . ومع ذلك تبقى الرغبة دائما رغبة فى الجمال .

والجمال موضوع نجهله كثيرا ولا نستطيع الكلام فيه الا بالكاد . ولهذا نحاول ادعاء أن الجمال تنظيم أو تشكيل ثابت . انف مستقيم وعيون واسعة .. الخ .. ونعتقد أن المرأة الجميلة يجب ان تشبه (ليليان جيش) وأن الرجل الجميل يجب أن يشبه (رودلف فالنتينو) .. أو هكذا ((نعتقد)) .

ورغما من ذلك ، نتصرف فى الحياة الواقعية بطريقة مخالفة تماما فنقول : ((انها امرأة جميلة ، لكنى لا أعبأ بها)). وهذا قول يعنى اننا نستخدم كلمة ((جميلة)) استخداما خاطئا تماما . وما ينبغى قوله هو : ((ان لديها خصائص الجمال المعروفة ـ لكنها ليست جميلة فى نظرى .))

ان الجمال ((تجربة)) لا غير ، وليس نموذجا ثابتا أو تنظيما معينا من الاشكال . الجمال شيء نشعر به : بريق أو شعود متواصل بالملاءمة . وما يضايقنا هو أن احساسنا الجمالى ناقص ومشوه حتى اننا نفقد الشعور بالجمال العظيم .

واذا سرنا على قواعد السينما ، فان هناك جمالا عظيما واساسيا فى وجه تشارلى تشابلن الكريه ، وهو جمال أعظم من جمال فالنتينو . ان جمال حاجبى تشابلن وعينيه جمال حقيقى .. هناك بريق لشيء ما .. شيء نقى وصاف .

غير ان احساسنا بالجمال احساس مبهم وعشوائى ، فنحن لانراه ، واذا رأيناه لاندركه . يمكننا رؤيته فى شكله الواضح الفج كالجمال المدعى لرودلف فالنتينو ، وهو الجمال الذى يمتعنا لانه يشبع بعض رغبات الوسامة الحاضرة .

ويمكن لأبسط انسان أن يبدو جميلا ، بل وأن يكون جميلا . ولا يحتاج المرء فى هذه الحال الا لنار الجنس أن ترتفع فى نعومة ورقة لتغير محياه القبيح وتحوله الى وجه محبب الى النفس . وهذه هى حقا الرغبة الجنسية : الشعور المتواصل بالجمال .

ونجد من ناحية أخرى أن احدا لايكون منفرا مثل امرأة جميلة حقا . فما دام الجمال مسالة خبرة وليس شكلا ماديا ، لا يمكن لأحد أن يكون على نفس درجة القبح الفج التى تكون عليها امرأة جميلة حقا . كم تبدو المرأة بشعة حينما تفقد وهج الجنس وتسير فى برود تنفر منه الأنفس وتضيع هيبة جمالها الخارجى .

ونحن لانعرف ما هو الجنس ، لكن لابد أن يكون نوعا من النار لانه يعمل دائما على توصيل شعور بالدفء ، بالوهج. وعندما يصبر الوهج اشراقا صافيا ، نشعر بالجمال .

وتوصيل الدفء ، الذى هو وهج الجنس ، ليس غير جاذبية جنسية حقيقية . ونار الجنس تشتعل فى داخلنا جميعا وتندلع السنتها . وتظل موجودة فى داخلنا حتى لو ناهز عمرنا التسعين . فاذا ما خبت السنة نار الجنس ، صرنا جثثا حية شاحبة اللون ، وهذا النوع ، للأسف الشديد يتزايد جدا فى العالم .

وليس من شيء أشد بعثا على النفور من كائن حى انطفات بداخله نار الجنس . يود كل انسان أن يتجنب هذا المخلوق الكريه .

تظل نار الجنس مشتعلة فى داخلنا ما دمنا على قيد الحياة . وهى تندلع وتشرق فى فترة الشباب ثم تتوهج فى الكبر بطريقة أكثر نعومة وثباتا .. ومع ذلك تظل موجودة وتظل لدينا بعض القدرة على التحكم فيها . غير أن مثل هذا التحكم تحكم جزئى وليس كليا ، وهذا هو السبب الذى من أجله يكره المجتمع الجنس .

وما دامت نار الجنس ـ التى هى مصدر الجمال والغضب ـ حية فهى مندلعة فى داخلنا بطريقة ابعد من أن تطاولها قدرات فهمنا . وهى ـ أى نار الجنس ـ مثل النار الحقيقية ـ ما دامت مندلعة تحرق أصابعنا اذا مسسناها دون تبصر وعناية ، ولهذا فان الانسان الاجتماعى ـ الذى يبغى أن يبقى ((آمنا)) ـ يكره نار الجنس .

ومن حسن الحظ أن قليلين من الرجال هم الذين نجحوا فى أن يكونوا مجرد رجال اجتماعيين . ان نار أبينا آدم

تندلع . ومن خصائص النار أنها تجذب أية نار أخرى اليها . تتشابك نار الجنس هنا مع نار الجنس هناك . وربما ينتهى بها الأمر من ألسنة مندلعة الى وهج رقيق . وقد تجذب اليها لسانا كبيرا من النيران أو تحدث لهبا يميل على لهب آخر ويأخذ حريق كبير فى الاندلاع .

وتثير نار الجنس حيثما توهجت رد فعل فى مكان أو آخر وقد لاتثير غير الاحساس بالدفء والتفاؤل . وعندئذ تقول: «انى أحب تلك الفتاة . انها معدن طيب حقيقى» . وقد تحدث نار الجنس بريقا يجعل العالم يبدو امامك أكثر تدفقابالحيوية وتبدو لك الحياة أفضل مما هى عليه ، وعندئذ تقول : «انها امرأة جذابة . انى أحبها» . وقد تشعل نار الجنس لهبايضيء وجهها أولا وقبل أن يضيء الكون . وعندئذ تقول : «انها امرأة فاتنة ، وتبدو لى ممتعة» .

ووجود المرأة التى تثير احساسا حقيقيا بالفتنة والجمال امر نادر . ولاتزال المرأة جميلة ، وانما نقول بذلك هربا من فهمنا الفقير الفج وغير السليم الجمال . ان آلافا مؤلفة من النساء اللواتى يظهرن بهيات الطلعة — مثل (ديان بواتييه) و (مدام لانجترى أو أية امرأة من الشهيرات بالحسن والجمال — قد خلقن . وآلاف وآلاف من النسوة توجدن اليوم حسناوات المظهر . لكن عدد النساء الفاتنات قليل جدا !

لماذا ؟ يرجع السبب فى ذلك الى أن جاذبيتهن الجنسية قد خانتهن . فالمرأة جميلة المنظر تصير فاتنة حينما تندلع منها نار الجنس رائقة رقيقة وتلتهب فى وجهها ثم تلامس النار المشتعلة فى اعماقى .

وهنا تصبح امرأة فاتنة محببة الى نفسى ثم تصير فاتنة دما ولحما ولاتعد مجرد صورة فوتوغرافية . فالمرأة الفاتنة ممتعة للغاية ، لكن وجودها نادر ندرة الماء فى بيداء . كم أن ندرة وجودها أمر قاسر فى عالم يغص بفتيات ونساء بهيات الطلعة بدرجة فائقة !

ويوجد اليوم كثيرات ممن هن وسيمات حسناوات المنظر لكن لسن فاتنات ، لسن جميلات . والمرأة الوسيمة البهية الطلعة هى التى تتميز بتقاطيع مهندمة وشعر منسدل . لكن المرأة الفاتنة .. تجربة وخبرة . انها مسالة نار يتم توصيلها .. انها قضية الجاذبية الجنسية فى كتاباتنا الحديثة الخربة الفقيرة التى تكتظ بالحكم والمواعظ الباردة المتكلفة . وانه لضرب من الافتراء والقذف فى حق الجاذبية الجنسية أن يحاول المرء تطبيقها على (ديان دى بواتييه) أو حتى — فى أبهج أوقاتنا وأطيبها — على زوجته . وبالرغم من ذلك فاننا نتكلم اليوم عن الجاذبية الجنسية بدلا من نار الفتنة . وهما فى تصورى شيء واحد لكنهما تختلفان على مستويات متعددة .

لاتزال السكرتيرة الحسناء المخلصة هامة بالدرجة الاولى عند رجل الاعمال نظرا لجاذبيتها الجنسية . وهذا يعنى بالضرورة وجود علاقات لاأخلاقية ولو فى أدنى مستوياتها وأبسط صورها .

وحتى فى يومنا هذا فان الفتاة التى تتمتع بمسحة من الكرم تود أن تشعر بأنها تساعد رجلا لو تقبل الرجل مساعدتها وهذه الرغبة فى أن يتقبل الرجل مساعدتها هى جاذبيتها الجنسية ، انها النار الاصيلة الخالصة حتى ولو كانتحرارتها عادية جدا .

ومع هذا فانها تساعد على أن يظل عالم العمل حيا . وربما كان رجل الاعمال قد اندثر الآن وانحدرت حاله لو لم تدخر المرأة كسكرتيرة فى مكتبه . ذلك أنها تستدعى النار المقدسة فى داخلها وتقوم بتوصيلها الى رئيسها فيشعر بانطلاق زائد فى طاقته وازدياد فى تفاؤله ومن ثم يزدهر العمل .

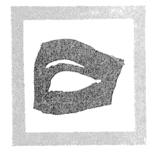
وهناك طبعا الوجه الآخر للجاذبية الجنسية ويمكن أن يكون تحطيم (الآخر) الموجه اليه الجاذبية . وعندما تبدأ المرأة فى استخدام جاذبيتها الجنسية لتحقيق مآربها فلابد أن تكون هناك لحظة سيئة فى انتظار رجل مامسكين . وفى الآونة الاخيرة، أفرطت النساء فى الالتجاء الى هذا الجانب حتى صار منالممكن القول بأنه لم يعد خطيرا بنفس الدرجة التى كان عليها من ذى قبل .

والمحظيات ذوات الجاذبية الجنسية واللواتى حطمن عددا غفيرا من الرجال لم يعد الطريق أمامهن سهلا خاليا منالاشواك لان الرجال باتوا بعيدى النظر حاذقين حذرين . وهم يحاربون لكن فى حياء حتى من المرأة العاطفية التى تستغل فتنتها فى أغوائهم . ويميل الرجال اليوم الى الاعتقاد بان باستطاعتهم التكهن بالخطر فى الخطة التى يحسون فيها بلمسة جاذبية جنسية أنثوية .

وهذا أمر يبعث على الاشفاق لان اسم «جاذبية جنسية» ليس سوى اسم قذر لبصيص من لهيب الحياة . فلايوجد ثم رجل يؤدى عمله بطريقة منقنة وبنجاح مثل ذلك الذى أضرمت امرأة فى عروقه بعض النار . ولاتقوم امرأة بأداء عملها المنزلى بمتعة حقيقية مالم تعشق وقد تظل المرأة ماضية فى عشقها طيلة نصف قرن دون أن تدرك هذه الحقيقة ادراكا تاما .

ولو كانت حضارتنا قد علمتنا — على الاقل — كيف ندع الجاذبية تنساب فى الاتجاه السليم وكيف نبقى على نارالجنس صافية وحية تندلع ألسنتها أو تتوهج أو تضرم حريقا بكل درجاتها المتباينة فى القوة والقدرة على التواصل ، فلربماعشنا جميعا فى حب ، الامر الذى يعنى أنه يجب علينا أن نصبح مفعمين بالحيوية ملأى بالحماس فى شتى المجالات ولكل الامور.

نقول هذا رغم جود كمية الرماد الميت الهائلة فى الحياة الآن .



العدد ٥٨ ديسمبر ١٩٦٩



مجلة

الفكر المعاصر

رئيس التحرير:

د. فؤاد زكريا

مستشارو التحرير:

د. أسامة الخولى

أنيس منصور

د. عبد الغفار مكاوى

د. فوزى منصور

سكرتير التحرير:

جلال العشرى

المشرف الفنى:

صفوت عباس

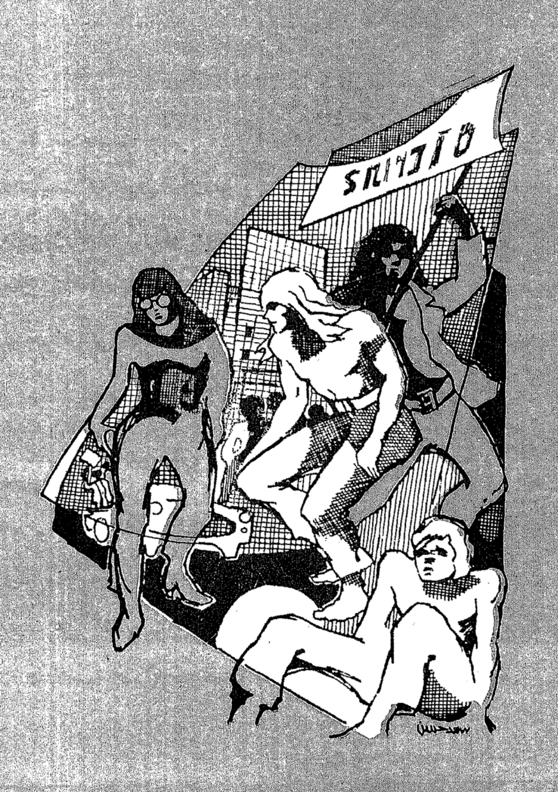
تصدر شهريا عن:

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت: ٩٠١١٩٧/٩٠١٢٩٩/٩٠١٦٤٨

العدد
الثامن والخمسون
ديسمبر ١٩٦٩



شباب أمريكا و فلسفة التمرد

د. فؤاد زكريا



تتمثل فى أمريكا اليوم مجموعة من المتناقضات لايستطيع المفكر أن يتجاهلها ، بل يتعين عليه أن يستخلص مالها من دلالة عميقة بالنسبة الىمستقبل المجتمع الامريكى ، ومستقبل البشرية بوجه عام فهذا البلد الذى أحرز أعظم انتصار علمى وتكنولوجى عرفته البشرية فى القرن العشرين ، وأعنى به صعود الانسان الى القمر ، يشهد — فى نفس الوقت الذى أكد فيه انتصاره هذا — أقوى مظاهرات الاحتجاج على الحرب الظالمة التى يشنها حكامه فى فيتنام ، ويثور فيه الشباب بقوة وعنف معلنين رفضهم لنفس الاسس التى يقوم عليها مجتمعهم . وهذا البلد الذى يمتهن القيم الانسانية فى محاولة وحشية لافناء شعب صغير ضئيل الموارد، هو ذاته الذى ترتفع فيه أقوى الاصوات مدافعة عن القيم الانسانية وعن السلام وعن كل المعانى الرفيعة التى كافحت من أجلها البشرية .

هذه التناقضات هى فى واقع الامر قدر الانسان الحديث على وجه الاطلاق ، لا قدر الانسان الامريكى وحده . ومن هنا كان مايقع هذه الايام على الارض الامريكية أمر لاتقتصر أهميته على سكان تلك البلاد وحدهم ، بل ان له أهميته القصوى بالنسبة الى الفكر الانسانى بوجه عام ، لانه سيسهم فى تحديد مركز الانسان ازاء التقدم التكنولوجى السريع المتلاحق وسيقرر ان كانت تلك القوة الكبرى ستواصل السير فى الطريق الانتحارى الذى يودى بالبشرية كلها الى الدمار ، أم ستتحول الى مجتمع انسانى يقود العالم فى طريق السلام .

ان الانسان الامريكى يخوض اليوم معركة يعمل فيها جاهدا من أجل اثبات جدارة البشرية فى أن تحيا حياة أفضل . وفى هذه المعركة أثبتت فئات معينة من الشعب الامريكى وعيا ونضجا رائعين ، وأعنى بهذه الفئات ، الشباب الامريكى ، والمثقفين ، والشعراء ، والكتاب . وفى هذا القسم ، الذى تصدره «الفكر المعاصر» تضامنا منها مع الانسان الامريكى فى كفاحه من أجل حياة أفضل لبلاده وللعالم ، ننشر خمس مقالات .

وقد لاتكون هذه سوى أمثلة قليلة للصراع الخصب الذى يدور داخل المجتمع الامريكى فى أيامنا هذه بين «السلطة المسيطرة» وبين «الانسان» ، ولكنها فى رأينا أمثلة بالغة الدلالة ، تكفى لالقاء ضوء ساطع على طبيعة هذه الظاهرة الفذة التى تمر بها أمريكا فى هذه الايام الحاسمة .

● يؤمن الشباب بأن الحل الوحيد لكل المشكلات الثقافية أو الحضارية التي يعاني منها المجتمع الامريكي وهو التغيير الجذري لتلك المسلمات الفكرية والنفسية التي يقوم عليها النظام الراهن .

● ان المجتمع الراهن مجتمع يحكمه الكبار، ومهما حاول الكبار أن يكونوا منصفين وموضوعيين فانهم على أية حال يفكرون بنفس العقلية التي يثور عليها الشباب ، ويتحدثون نفس اللغة التي يرفضها .

شيء رائع ، عظيم المغزى والدلالة ، ذلك الذي يحدث في أمريكا هذه الأيام • انه ، في رأيي ، المقابل الانساني للانتصار التكنولوجي الهائل الذي يمثله النزول على القمر • ففي الوقت الذي تبين فيه على نحو قاطع أن الامكانات التكنولوجية الضخمة التي ينطوي عليها هذا الانتصار لم تستغل لأغراض انسانية ، بل كان أبرز تطبيق لها هو زيادة قدرة الجهاز العسكري الامريكي على ابادة شعب مسالم كشعب فيتنام ، ثارت جموع الساخطين من جميع فئات الشعب الأمريكي تطالب برد اعتبار الانسان ، **وكانت ثورتها هذه ، في واقع الأمر ، محاولة للتذكير بالقيم الانسانية التي ينبغي أن تكون هدف كل تقدم علمي وتكنولوجي والتي نسيت في غمرة الفرح بالنصر العظيم •**

على أن لمسيرة الجموع الهائلة من أبناء الشعب الامريكي ضد حرب فيتنام أبعادا أخرى لها في رأيي أهمية عظمى بالنسبة الى مستقبل الكيان الانساني في عالم العقول الالكترونية وأدوات الدمار الشامل • **وأهم هذه الأبعاد هو سيطرة عنصر الشباب على حركات السخط هذه ، اذ أن هذه السيطرة تلقى مزيدا من الضوء على الدور القيادي الذي يقوم به شباب الأمة الآمريكية في صبغ حركة الشباب العالمية بطابع انساني ، وتحديد الأبعاد الثقافية والفكرية لهذه الحركة تحديدا واضحا •**

***

ان الألوف المتزايدة العدد ، التي تسير في مظاهرات السخط على حرب فيتنام ، لا تعلن اعتراضها على حرب ظالمة فحسب ، **بل تعلن في الوقت ذاته ثورة العقل الانساني على المحاولات الجبارة التي تبذل لخداعه ووضعه في قوالب يحددها مقدما أصحاب السلطان •** وهي لا تدعو فقط الى محاربة الجهاز العسكري الضخم الذي يتمسك بتصعيد الحرب الفيتنامية حفاظا على مصالحه الخاصة ، بل تدعو أيضا الى محاربة كل محاولة لتشكيل أذهان الناس على النحو الذي تريده القوى المسيطرة • **وان ضخامة هذه المظاهرات ، وتزايد عدد مؤيديها يوما بعد يوم ، لهو في ذاته دليل قاطع على الاخفاق الذريع الذي لحق باعظم محاولة عرفتها البشرية للتحكم في عقول الناس ووضعها في قوالب نمطية لا تخرج عنها •**

ذلك لأن حياة الأمريكي العادي ، بالرغم من أنها تتخذ على سطحها الخارجي شكلا ديمقراطيا كاملا ، وتوحي بالحرية التامة في كل شيء ، فانها في حقيقتها وفي باطنها خاضعة لأقسى ضروب التكييف الذهني المدروس ، والسعي المرسوم الى تشكيل عقول الناس والتحكم في أساليب تفكيرهم وعاداتهم اليومية • وأقول ان هذه المحاولة تمثل أقسى ضروب التكييف الذهني ، لأن هذا التكييف يزداد قسوة كلما اتخذ طابعا غير مباشر وكلما حرص على أن يترك لدى الناس انطباعا بأنهم أكثر البشر تمتعا بحريتهم • فحينئذ يدخل العقل الانساني في القوالب المحددة له مقدما « بملء حريته » ، ويشارك في عملية التشكيل الذهني وهو يتصور أنه يمارس لعبة حرة حدد هو ذاته شروطها مقدما •

ولا جدال في أن التكنولوجيا الامريكية المتقدمة قد بذلت قدرا كبيرا من جهودها في سبيل تحقيق السيطرة غير الظاهرة على العقل البشري ، أو ممارسة « الحض الخفي » (على حد تعبير « فانس باكارد » ، وهو من أبرز نقاد نمط الحياة الامريكي المعاصر) • وبدا في وقت من الاوقات أنها استطاعت ، بطرقها الخفية التي تستخدم أبرع أساليب الدعاية والاعلان ، وأكثر طرق التحكم السيكولوجي خفاء ، أن تسيطر بالفعل على عقول الناس ، وكان من مظاهر هذه السيطرة اتفاق الأغلبية الساحقة من الامريكيين في نظرتهم العامة الى العالم ، وايمانهم بأن القيمة العليا في الحياة هي الثروة المكتسبة بفضل « الجهد الشخصي » ، وبأن العالم الاشتراكي يمثل قوى الشر بينما العالم الرأسمالي هو ذاته الخير المجسم ، وانقيادهم للعادات الاستهلاكية التي يبثها في نفوسهم سيل

لا ينقطع من الاعلانات الشديدة . **والأهم من ذلك كله ، اعتقادهم الراسخ بأنهم أعظم شعوب العالم حرية ، وبأن كل حكم يصدرونه على المسائل الخارجية والداخلية انما صدر عن تفكيرهم الحر الذى لا يخضع لأى مؤثر خارجى ،** حتى أصبحت عبارة « **هذه بلاد الحرية** » من أكثر العبارات تداولا حتى على مستوى النقاش اليومى العادى بين الناس .

ثم جاءت حركة السخط على حرب فيتنام ، فاذا بها برهان ساطع على أن كل هذه الجهود الجبارة قد أخفقت . **وكان من الطبيعى أن تكون الفئة التى ظهر فيها هذا الاخفاق على أوضح صورة هى فئة** الشباب المثقف ، وهم أكثر العقول قدرة على مقاومة الاتجاه الجارف الى صب العقول فى قوالب جامدة وفى الوقت ذاته أقلها تلوثا بالمصالح النفعية وأكثرها تعلقا بالمثل العليا الانسانية .

وكانت هذه الظاهرة الفريدة محيرة بحق لواضعى السياسات وراسمى الخطط ، وذلك لأكثر من سبب : فهى قد حدثت فى « مجتمع الرخاء » ، حيث تعيش نسبة كبيرة من السكان فى أعلى مستوى عرفه الانسان على مر التاريخ ، والمفروض ، فى « مجتمع الرخاء » ، الا يكون المرء كثير التساؤل شديد الالحاح ، لأن كل شىء متوافر وميسور ، فعلام السخط اذن ؟ وكيف يتحدى الناس قيم المجتمع الذى وفر لهم كل مطالبهم المادية ، وهيأ لهم من الترف ما تحسدهم عليه معظم شعوب الأرض؟ ومن جهة أخرى ، فان حرب فيتنام قد نشبت — أصلا — لخدمة أغراض خارجية فى مناطق بعيدة كل البعد عن الاراضى الامريكية ذاتها ، فكيف تغير الوضع الى الحد الذى أصبحت فيه لهذه الحرب تأثيرات فى داخل البلاد لا تقل قوة عن أصدائها فى خارجها ؟ وكيف تحولت المغامرة العسكرية ذات الأهداف التوسعية الخارجية الى حركة سخط شامل على أسلوب الحياة فى الداخل ؟

* * *

ان السر الكبير وراء هذه التحولات المفاجئة التى حيرت أصحاب الخطط وواضعى السياسات وجاءت مخالفة لجميع حسابات العقول البشرية والالكترونية على السواء ، يكمن فى تلك القوة الرائعة التى أحدثت فى المجتمع الامريكى أول تحول حقيقى عميق يطرأ عليه منذ عشرات طويلة من السنين ، وأعنى بها قوة الشباب .

فلأول مرة يخوض الشباب الامريكى ، فى هذه الأعوام الأخيرة ، وفى الفترة الراهنة بوجه خاص صراعا « ثقافيا » — بأوسع معانى هذه الكلمة — ضد طريقة تفكير كاملة ، وضد « **أسلوب الحياة الأمريكى** » الذى كان دائما مبعث فخر واعتزاز شديد للأمريكيين ، ولأول مرة تكتسب الحركة أبعادا لا يمكن معها أن تتهم بأنها تعبر عن مصالح حزب معين أو جماعة معينة ، بل لا يكون هناك مفر من الاعتراف بأنها **اتجاه عام يرمى الى مراجعة قيم ظل هذا المجتمع يأخذها قضية مسلما بها طوال الجزء الاكبر من تاريخه ،** وبأنها دعوة الى ادخال أهداف الحب والسلام فى نمط الحياة الامريكية، واعطائها المكانة التى كان يحتلها البحث عن الثروة والنجاح العملى والتنافس المرير فى سبيل الصعود على حساب الاخرين .

وليس ادل على هذه الأبعاد المتسعة التى تتخذها حركة الشباب الامريكى الراهنة ، من ان القائمين بها يربطون على الدوام ربطا وثيقا بين حرب فيتنام وبين مشكلة التمييز العنصرى ومشكلة الفقر . فهم يدركون ، بوعى عميق ، ان نفس القوى، ونفس العقلية التى تبعث بزهرة شباب الأمريكيين لتمارس القتل أو تقتل بلا سبب فى فيتنام ، هى ذاتها التى تحرم الملونين من أبسط حقوقهم الانسانية ، وهى ذاتها التى تترك أقلية غير قليلة تعانى من الفقر وتحيا فى ظروف معيشة غير انسانية ، وسط مجتمع ينفق على دعم نظم الحكم الفاسدة (ولا أقول على التسلح) أضعاف ما يلزم لضمان حياة كريمة لكل فرد فى هذه الاقلية التعيسة . ومن جهة أخرى فان الأسلوب الذى تحاول السلطات المسيطرة أن تقنع به خصوم حرب فيتنام هو ذاته الأسلوب الذى يتبع فى محاولة اقناع الساخطين على التمييز العنصرى والفقر ، اذ يقول لهم : **ان المسألة أعقد من أن تحل على الفور ، فهناك عوامل كثيرة متشابكة متداخل فيها ، ولا بد من التزام الصبر لأن مضى الوقت كفيل أن يصلح كل شىء .**

والواقع أن شمول نظرة الشباب الى المشكلات التى يواجهها المجتمع الأمريكى ، وقدرتهم على الربط بين أمور تبدو فى ظاهرها منعدمة الصلة فيما بينها ، هى التى تميزهم عن كثير من الكتاب الكبار الذين لم يستطيعوا تقدير العوامل التى تدفع الشباب الى التمرد ، على الرغم من أنهم يقفون موقفا يتسم بالتقدمية فى كل مشكلة من هذه المشكلات على حدة . **هؤلاء الكتاب لا يعترفون بأن سبب**

المشكلات كلها واحد ، وحلها واحد ، بل يفضلون الحلول الجزئية المنفصلة لكل ظاهـــرة على حدة ، وبذلك يشتركون ، دون أن يشعروا ، فى نفس طريقة التفكير التى تولدت عنها كل هذه الشرور . هؤلاء هم الذين يرون فى حركات الشباب تمردا أهوج ، ويدعون الى « التعقل والحكمة » وهى فى رأيهم صفات لا ينبغى أن يعد من يتميز بها محافظا أو رجعيا بالضرورة .

أما الشـــــباب فيؤمنون بأن الحل الوحيد لكل المشكلات الثقافية أو الحضارية التى يعانى منهـــا المجتمع الامريكى هو التغيير الجذرى لتلك المسلمات الفكرية والنفسية التى يقوم عليها النظام الراهن انهم بدورهم يدعون الى نوع من « الثورة الثقافية » بمعنى خاص بهم ، وهم ليسوا أقل رغبة فى تغيير أسلوب الحياة فى مجتمعهم من الشباب الثائر فى أى بلد آخر . ومن هنا كانوا ينظرون الى أى حل جزئى على أنه ، فى حقيقته ، دعم للنظام القائم ، وعامل على زيادة فعاليته ، مهما بدا فى الظاهـــر مرتكزا على أسس نقدية .

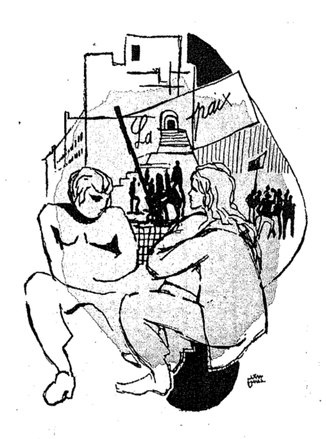
أما الدعوة الى « التعقل والحكمة » ، فقد تكون فى ذاتها شيئا مرغوبا فيه ، **ولكن ما معنى التعقل فى مجتمع أصبحت كل تصرفاته بعيدة عن العقل وظهر بوضوح ان المشكلات التى يعانيها مرتبطة بنفس الأسس التى يقوم عليهـــا « النظام » لا بتصرفات هوجاء يقوم بها مجموعة من الزعمـــاء الأغبياء ، أو من الأفراد الأشرار ؟**

وهكذا استطاع الشباب الامريكى المتمرد أن يثبت حقيقة ما زال الكثيرون يترددون فى الاعتراف بها : وهى أن الشباب قد يكون أحيانا أعظم خبرة من الكبار ، وقد يكتسب قـــدرة على الربط بين الظواهر التى تبدو متباعدة ، وعلى النظر الى الأمور نظرة « كلية » ، يعجز عن بلوغها أصحاب الخبرة والتجربة ، الذين تظل نظرتهم محدودة باطـــــار النظام القائم ، ومن ثم لا يستطيعون تأمل الامور الا فى جزئياتها . وقد لا يكون من العسير تعليل هذه الحقيقة التى تبدو غريبـــة لأول وهـــلة : **ذلك لأن الشباب لم يندمجوا بعد اندماجا كاملا فى المجتمع الذى يتخذون منه موقف الرفض ، ولذلك كانوا أقدر على تكوين نظرة كلية ازاءه من أولئك الذى تشابكت مصالحهم مع النظام القائم ،وأصبحوا يكونون جزءا لا يتجزأ منه . وفضلا عن ذلك فان الشباب ، الذين يعلمون أن حياة طويلة ما زالت تنتظرهم ، لا بد أن يكونوا أكثر اهتماما بالمستقبل وبمصيرهم فيه من أولئك الذين قطعوا من العمـر شوطا أطول .**

* * *

ان الشباب الأمريكى ، على أية حال ، يقـــود فى الوقت الراهن حركة رائدة تستهدف الثورة على حماقات الكبار التى يسمونها سياسة حكيمة ولا ترمى فى نهاية الأمر الى أقل من اعادة النظر فى نظام الحياة الذى يتبعــــه المجتمع الامريكى بأسره . ومن الطبيعى أن تتخذ السلطات موقفـــا معاديا لهذا التمرد ، وان كان اتساع نطاق الحركة يمنعها من ان تعبر عن هذا العداء بعنف سافر . ولكن ما يعنينا ليس موقف السلطات من حـــركة الشباب ، وانما هو موقف المجتمع بوجه عـــام ازاءها . فما الذى يستطيع المجتمع أن يقوم بـــه نحو الشباب ، وما الذى يمكن أن ينتظره الشباب من المجتمع ؟ .

ان المجتمع الراهن مجتمع يحكمه الكبار .ومهما حاول الكبار أن يكونوا منصفين وموضوعيين ،فانهم على أية حال يفكرون بنفس العقلية التى يثـــور عليها الشباب ، ويتحدثون نفس اللغة التى يرفضها



وهكذا يبدو أن كل محاولة يبذلها الكبار لفهم مشاكل الشباب ـ ولا أقول لحلها ـ تواجه صعوبات أساسية ، بل ربما كانت مستحيلة من حيث المبدأ • فلا بد للكبار ، اذا شاءوا أن يفهموا الشباب ، من أن يخرجوا عن اطارهم الفكرى المألوف ، ويلجأوا الى الخيال الذى يتيح لهم ان يضعوا أنفسهم موضع الشباب ، ولكنهم حتى فى هذه الحالة يتعرضون للرفض من جانب الشباب الذين يصرون على أن عقلية الكبار ستظل الى الابد حبيسة اطارها الخاص •

بل ان الشباب يتمردون على المعانى التى يحملها لفظ « الشباب » ذاته فى اذهان الكبار • فهذا اللفظ يتضمن معنى عدم الاستعداد لخوض معترك الحياة ، والافتقار الى القدرة على تحمل المسئوليه • وعندما يتحدث الكبار عن الشباب ، فان ذهنهم يتجه الى معنى الوصايه والحماية التى يحتاجون اليها ، والعجز وقلة الخبرة • ولكن من المسئول ، فى نهاية الأمر ، عن تحديد المرحله التى تبدأ عندها المسئولية الحقيقية فى المجتمع ؟ ان مصالح الكبار هى التى أملت الوضع الحالى الذى لا يصبح فيه المرء مشاركا فى المسئولية الا بعد سن معينة بينما يعد كل من هو أدنى من هذه السن انسانا « غير ناضج » • مثل هذا التقسيم للأدوار التى تقوم بها فئات العمر فى المجتمع ليس أزليا ، ويمكن أن يتغير تبعا للثقافة السائدة فى كل عصر **ولكن الطابع المميز لعصرنا هو أن هذا التغير لم يعد يفرض من المسيطرين على تقاليد الأمور • بل أصبحت تطالب به جماعة متحررة من الشبان • تريد أن تؤخذ مأخذ الجد ، وأن تعد عنصرا أساسيا فى المجتمع ، وتأبى أن يكون كل فرد فيها مجرد « مشروع انسان » ، لا تكتمل مقومات انسانيته الا حين يدخل عالم الكبار •**

ولكنا نعود لنتساءل مرة أخرى : ما موقف الكبار من أمثال هذه المحاولات ؟ هل هم على استعداد لمراجعة أساليب تفكيرهم من أساسها ، والاعتراف بأن كل ما يأخذونه على أنه « بديهى » ليس فى الواقع بديهيا ؟ **وهل تبلغ بهم موضوعية التفكير حدا يسمح لهم بأن يتصوروا أنهم قد يكونون هم الشواذ والمنحرفون ، لا الشباب ؟ هل يستطيعون ، فى حدود اطارهم الفكرى الخاص ، أن يصلوا الى هذه القدرة فى التجرد والتنزه والنقد الذاتى ؟** أم أن هذا المطلب مستحيل بحكم طبيعة الأشياء ومن ثم يتحتم أن يظل الصراع قائما ؟ أغلب الظن أن نتيجة هذا التساؤل ستظل سلبية •

وفى وسعنا أن نصل الى هذه النتيجة السلبية ذاتها اذا تأملنا الأمر من وجهة نظر الشباب أنفسهم • فلنفرض أن شباب اليوم قد حققوا أهدافهم ، وأصبحت لهم كلمة مسموعه فى تسيير أمورهم العامة والخاصة ، وفى توجيه دفه المجتمع عندئذ سيصبحون ، عاجلا أو آجلا ، جزءا من « المؤسسة » ، ومن النظام القائم ، ولا بد أن يثور عليهم الجيل الجديد ، حتى لو كان النظام قد تحول على أيدى الجيل السابق الى ما هو أفضل ذلك لأن مجرد وجود هذا الجيل فى موقع السلطة يجعله موضوعا للشك والريبة فى نظر ابناء الجيل اللاحق • **وهكذا يبدو أنه لا مفر من استمرار حالة الثورة والسخط بين الأجيال ، بحيث تبدو ثورة الشباب الحالية مجرد بادرة أولى لحالة ستظل البشرية تعيش عليها أمدا طويلا •**

أما تعليل استمرار هذه الظاهرة فأمره ميسور: **ذلك لأن معدل التغير فى العالم المعاصر يزداد سرعة بالتدريج ، ويترتب على ازدياد معدل التغير على هذا النحو ، مزيد من الاتساع فيما يسمى « بالفجوة بين الأجيال »** • فبين جيل الأب وابنه تحدث الآن تغيرات لم يكن العالم يشهد نظيرا لها الا بين أجيال متباعدة تفصل بينها فترات زمنية كبيرة • ولما كان معدل التغير هذا سيزداد سرعة فى المستقبل ، ففى وسعنا أن نتنبأ ، دون عناء، بأن عدم التفاهم بين الكبار والصغار سيظل قائما بل سيزداد حدة فى المستقبل •

واذن ، فتمرد الشباب وسخطهم ، فى أيامنا هذه ، ليس الا البوادر الأولى لظاهرة ستظل نعايشها طويلا ـ الا اذا استطاعت البشرية أن تهتدى الى الصيغة التى تستطيع بها أن تطور نفسها ، فى جيل معين ، على نحو يعمل حسابا لمطالب الجيل التالى بطريقة طبيعية لا تحتاج الى تنبيه صارخ من أفراد الجيل الجديد ، ولا الى مقاومة عنيدة من أفراد الجيل القديم • ومثل هذه الصيغة تحتاج ، دون شك ، الى طريقة فى فهم الأمور ، وفى تدبير شئون المجتمعات البشرية ، تختلف عن كل ما اعتدناه حتى اليوم •

* * *

على أننا اذا كنا نرى فى تمرد الشباب ظاهرة لا مفر منها ما دام العالم يسير على الوتيرة الحالية فى علاقاته الدولية وفى نظرته الى العلاقة بين

الأجيال المختلفة فى المجتمع الواحد ، فمن واجبنا أن ننبه الى أن **هذا التمرد يتفاوت شدة بين المجتمعات المختلفة ، ويبلغ أقصى مداه فى تلك المجتمعات التى يضطر فيها الشباب الى أن ينبهوا الكبار ، على طريقتهم الخاصة ، الى الحماقات التى لا يكفون عن ارتكابها فى الميدان الداخلى والخارجى .**

ومن هنا كان التمرد بين الشباب الامريكى ، على وجه الخصوص ، ظاهرة لا مفر منها ، لأن استهانة الكبار فى هذا البلد بالمسئولية الخطيرة الملقاة على عاتقهم نتيجة لتوليهم أمور اغنى دول العالم وأقواها ، يثير فى نفوس الشباب سخطا عارما ، ويزيد من احساسهم بفداحة الخطر الذى يتعرض له العالم بأسره ، لا بلاؤهم وحدها ، من جراء ضيق أفق أصحاب السلطة ، وفساد النظام الذى يجهدون أنفسهم من أجل المحافظة عليه . **ان الشباب الامريكى ، فى أيامنا هذه ، لا يهدف الى أقل من انقاذ العالم بأكمله ، لا انقاذ أمته أو نفسه فحسب ، من الدمار الذى لا بد أن يتعرض له لو استمرت السياسة الامريكية ، فى الداخل والخارج ، تسير فى اتجاهها الحالى .**

وفى اعتقادى أن أفضل سبيل الى عرض وجهة نظر هذا الشباب الامريكى المتمرد الى القارىء العربى هى أن أقدم اليه ، مباشرة ، شهادة واحد من ابناء هذا الجيل المتمرد ، يعبر فيها عن عمق الهوة بين تفكير الشباب وتفكير الكبار فى هذا البلد ، ويكشف عن ذلك الاحساس الطاغى بفداحة المسئولية ، الذى يشعر به فتية توهم كل تصرفاتهم الظاهرة بافتقارهم الى الشعور بالمسئولية ولقد وجدت فى شهادة أحدهم ، وهو « **جيمس كونن** » ، من الاخلاص من صدق التعبير ما رأيته جديرا بأن ينقل الى القارىء ، فى ختام هذا المقال ، فى ترجمة شبه حرفية (*) .

« .. ان الاكابر جماعة صغيرة من الناس ، لا يعرف عنها ـ عدا ذلك ـ الا القليل . وهم على الأرجح من كبار السن . وهم يمتلكون ثروة فوق حدود الخيال . وليست لديهم حاجات أو رغبات حقيقية ، بل انهم ينمون فى انفسهم المعنى كما لو كان نوعا من الهواية المتسلطة على عقولهم . وهم يجلسون فى حجرات يملؤها الدخان ومن ثم يمكننا افتراض انهم يدخنون السيجار . وفى مجالس الأكابر يستطيع المرء أن يستمع الى قرارات ما كان يخطر بباله ان احدا يمكنه اصدارها . اشتر أوراجواى ! بع بوليفيا ! امسك بالهند ! لوث نيويورك ! ان قراراتهم تتنوع الى حد يستحيل تصورها ، لكن بينها جميعا عنصرا مشتركا هو أنها تنفذ على الفور ، وأنها فى كل الاحوال موجهة ضد الانسان العادى البسيط .

ان الأكابر يكذبون .. فهم يكذبون فى الأمور الصغيرة ، كالاعلانات ، وفى الامور الكبيرة ، مثل فيتنام ، والتفرقة العنصريه ، والديمقراطية وكل هذه الأمور تسير على وتيرة واحدة ـ فلا وجود للصدق فى أى شىء .

والكبار يسيطرون . فقد قرأت موضوعا فى التاريخ كان يكتبه تلميذ فى المرحلة الاعدادية عن الحرب الأسبانية الامريكية ، وفيه يقول ان أمريكا دخلت حرب عام ١٨٩٨ لكى تحرر الكوبيين المساكين من الطغيان . وأضاف أن أمريكا ، بحكم تقاليدها ، تقف ، عندما تحارب ، فى جانب الدفاع عن حق العدالة والحرية ، ولذلك فهى دائما تنتصر ، « كما هى الحال فى فيتنام اليوم » . لقد وضع الأكابر هذا الصبى حيث يريدونه أن يكون وهم قد استولوا على عقله ، وعندما يبلغ الثامنة عشرة سيستولون على جسمه .

أنظر حولك ، سترى الاكابر فى كل مكان . أنظر على الرصيف المجاور لبيتك ترى سياراتهم التى يبنونها بحيث تتفكك بعد ثلاث سنوات ، ويجعلون الجميع يشترونها ، وهم داخلون فى صناعة البترول وتجارته أيضا ، حتى لا تقلق على الأميال التى تقطعها سيارتك . وليس فى وسع أحد أن يجعل هذه السيارات تتغير . فاذا نظمتم أنفسكم وطالبتموهم بأن يتفضلوا بصنع كل حواجز الاصطدام الخلفية والأمامية فى السيارات بحيث تكون على ارتفاع موحد لكى يصبح عدد من يقتلون منا فى حوادث السيارات فى العام المقبل أقل قليلا من خمسين ألفا ، فانهم يرفضون .وهم يرفضون لأن ذلك سيكلفهم هذا بالاضافة الى أن حواجز الاصطدام لو أصبح لها ارتفاع واحد ، لما عاد هناك مجال للاختيار ، الذى هو لب

(*) أنظر مقال جيمس كونن بعنوان « لماذا تقف ضد الاكابر » (مجلة اتلانتيك الشهرية، عدد أكتوبر١٩٦٨) وانظر أيضا مقالا بنفس العدد من تأليف « ريتشارد بواريه » بعنوان « الحرب على الصغار » ، استخلصنا منه أجزاء متفرقة من المادة التى بنى عليها مقالنا هذا .

(*) أما لفظ «الاكابر» الوارد فى كونن ، فهو ترجمة لفظ Biggers الذى يستخدمه كاتب المقال بطريقة ساخرة للتعبير عن « الكبار المسيطرين » .

الديمقراطية • فان لم تكن تعرف أن هذا هو لب الديمقراطية ، فهناك اعلانات كثيرة تذكرك بذلك مثال ذلك أن يبدو أن البلاد الاشتراكية لا تعرف الا ثلاثة ألوان من طلاء الشفاه ، على حين أن الرأسمالية تقدم لك أربعين لونا •

وبهذه الألوان الأربعين من طلاء الشفاه يحول الأكابر نساءنا الى عرائس من الحلوى ، تجلس بجاذبيتها الجنسية المصنوعة في المعامل وهي ترسم صورا رخيصة في الهواء بدخان سجاير لم يكن في نيتها أبدا أن تبدأ في تدخينها • وربما استمعت خلال الثرثرة التي تدور بينهن حول ما ينبغي عمله بعد ذلك ، الى احداهن وهي تقول « هذا بلد الحرية » •

ولكن هذا ليس بلد الحرية • فأنت لا تستطيع ترك الدراسة لأنك لو فعلت فستجند ، وعليك أن تدرس أشياء بعينها لتحصل على شهادة ،وعليك أن تحصل على شهادة لكي تنجح عمليا ، وعليك أن تنجح عمليا لتحصل على ما تريد ، لأن هذه كلها أمور رسمت خطتها في ذهنك من قبل • انك تستطيع أن تقول ما تشاء ، ولكن أحدا لن يسمعك لأن وسائط الاعلام تسيطر على الكلام • أما اذا استطعت بطريقة ما أن تسمع الناس صوتك فانهم لن يقبلوا ما تقول ، لأن الأكابر علموهم ما ينبغي لهم أن يقبلوه • فاذا لم يقبلوا كلامك فقد يصل بهم الأمر الى حد قتلك لأن الحكومة تؤيد مبدأ القتل على سبيل العبرة الموعظة •

••• ان الكبار يقتلون الناس في فيتنام ويضعون السود في القاع داخل البلاد ، لأنه لا بد لهم أن يضعوا بعض الناس في القاع حتى يسير نظامهم بنجاح ، أو هكذا كانوا يظنون • ولكنهم اليوم يجدون أن المحبوسين في القاع يستطيعون بحق أن يلحقوا بهم ضررا بالغا ، ولذلك لم يعد لديهم مانع من أن يرفعوهم الى أعلى قليلا ، ولكن هذا لا بد أن يكلفهم مالا ، ولذلك فانهم سيحاولون مؤقتا • أن يبقوهم في القاع بأن يعطوهم وعودا بمكافآت اذا أحسنوا السلوك •

••• اننا لا نحب التجنيد على الاطلاق ، لأن أمامنا حياة طويلة نعيشها ، وقد صممنا على ذلك • فالقتل والموت ليسا من شأننا •

••• لقد قررنا ، بعد أن رأينا ذلك كله ، أن نغيره • وبطبيعة الحال فانك تستطيع أن تعتزل أو تتنحى اذا كان هناك شيء لا تحبه ، ولكنك لو تنحيت فسوف يواجهك شيء آخر لا تحبه ،ولا يمكنك أن تظل تتنحى وتنسحب الى الأبد لأنك لن تجد في النهاية مكانا تذهب اليه • لذلك قررنا ان نغير الاوضاع • فقدمنا الطلبات ، ونظمنا المظاهرات ، وكتبنا الخطابات ، ولكن لا حياة لمن تنادى ، والذى حدث هو أننا لم نقابل بالرفض، بل قوبلنا بالتجاهل • وهكذا قمنا في أحد الايام باحتلال المباني ، وبعد بضعة أيام طردنا منها واعتقلنا وكان الضرب من نصيب الكثيرين منا •• وأعرب المسئولون عن الأسف لأن البوليس جرح مائة وخمسين شخصا ، وبالفعل كانوا آسفين ، لأن المعاملة الوحشية كشفت للجميع عن المدى الذى يمكن أن يمضي اليه الأقوياء ليحافظوا على قوتهم ، وعن المدى الذى هم على استعداد للسير فيه ، كل ذلك لكي يتجنبوا الاجابة عن أى سؤال ، بل لكي يتجنبوا الاعتراف بأن توجيه الأسئلة ممكن •

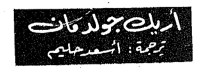


وفي الوقت الذى اكتب فيه هذا ، وتقرءونه ، يموت أناس كثيرون • وهكذا ترون أن المسألة ليست موضوعا لأحاديث المثقفين أو لمقالات في المجلات • انها مسألة لا بد من مواجهتها •ولذلك فان ما نقوم به في جامعاتنا ليس ثورة ، بل هو هجوم مضاد • اننا نحارب لكي ننقذ معاهدنا من الروح التجارية ومن الحرب ، ولكي نعيد توجيهها نحو المعرفة ونحو الحياة •• هناك خمسة ملايين طالب جامعي أمريكي واقفون في الانتظار ، منهم عدد ضخم نفد صبره نهائيا من الأكابر » •

فؤاد زكريا

أمريكا والإنسان

المثقفون والسياسة في الولايات المتحدة



ماذا يفعل المواطن اذا وجد بلاده باتت تحكمها عصابات القتلة ؟ وماذا يفعل الاديب حامل الكلمة ـ اذا رأى قادته يتجاهلون صوت الشعب ، ويفرضون ارادتهم الغاشمة التى تناقض ارادة الغالبية الساحقة من الناس ؟

ان مفكرى اوروبا قد اعتبروا كل المانى سكت عن الاحتجاج على النظام النازى مسئولا عن ذلك النظام . وكتب سارتر : «اذا حدث أن قام فى بلادنا أو فى بلاد أخرى ـ شكل من أشكال الاضطهاد الاقتصادى او العنصرى ، فاننا نلقى مسئوليته على كل من لايرفع صوته بالاحتجاج عليه . واذا وقع ظلم في أى ركن من أركان العالم فاننا نحمل نحن أيضا مسئوليتنا عنه» .

واذا كان ساسة أمريكا يحملون اليوم لواء الشر فى العالم ، فان مثقفى أمريكا هم وجهها المشرق . وفوق أرض الولايات المتحدة . التى تجمع اعمق التناقضات ـ يقف المثقف وراعى البقر وجها لوجه . واذا كان عشرات الالوف من أبناء أمريكا ينظمون «مسيرة الموت» لاعلان سخطهم على سياسة بلادهم ، فقد وقف عدد من المثقفين الامريكيين وقفات بطولية ضد النظام الدموى الذى يحكمهم .

وفى أحد الايام فى سنة ١٩٦٥ ، حاول ليندون جونسون أيام رئاسته للولايات المتحدة أن يجمع المثقفين حوله ، وأن يضمهم الى حاشيته . ولكن ضمائرهم لم تطاوعهم ، ووقفت «الثقافة» حاميا لهم مما يدبر ضدهم .

وكان الرجل الذى قام بتنفيذ المحاولة يومها هو اريك جولدمان ، استاذ التاريخ بجامعة برنستون ، وقد عمل مستشارا خاصا للرئيس جونسون بين عامى ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، وهو مؤلف الكتاب الشهير «موعد مع القدر» ، كما خرج من تجربة العمل فى البيت الابيض الى جانب جونسون بكتاب آخر جعل عنوانه «مأساة ليندون جونسون» وقد صدر الكتاب عن دار الفريد نوب فى شهر فبراير الماضى .

والمقال التالى هو تلخيص لاحد فصول هذا الكتاب ، نقلا عن الصفحات التى نشرتها مجلة «هاربرز» الامريكية فى عددها الصادر فى ينساير ١٩٦٩ .

أ٠ح

●●●

فى فبراير ١٩٦٥ ، حضرت الى مكتبى السيدة « **بس آبل** » ، السكرتيرة المختصة بالنشاط الاجتماعى فى البيت الأبيض ، وقالت انها بصدد دراسة جدول نشاط الرئيس الامريكى فى الموسم القادم . ولاحظت أن الربيع يقترب ، وتساءلت عن رأيى فى القيام بعمل « **ثقافى** » يناسب الموسم ؟ **وقالت اننا لا ننسى ان الرئيس** كنيدى استفاد كثيرا من حفل العشاء الذى أقامه **للأدباء والعلماء الذين حصلوا على جائزة نوبل** . ونحن لا نريد طبعا أن نقلد خطى كنيدى ، ولكن هل فى وسعى أن أفكر فى شىء فى نفس الاتجاه ؟

وانتهى بى التفكير الى مشروع محدد : هو **اقامة مهرجان للفنون تحت رعاية البيت الأبيض . ورايت أن مثل هذا المشروع يمكن أن يكون** مناسبة طيبة لتوجيه التحية الى أبناء أمريكا الذين يعملون فى صمت لاقامة المسارح وبناء قاعات الموسيقى فى الريف ، والى الرجال الذين ينظمون جماعات القراءة والمناقشة ، والذين يدعون الى حفلات موسيقية هدفها تنمية التذوق الفنى بين الناس . واستقر رأيى على تجاهل جميع العناصر التى تتزاحم على كل فرصة لتسليط مزيد من الأضواء عليها . **وقدرت أن المهرجان يمكن أن يضم ممثلين لمختلف ألوان الفنون** . وبدأت أتخيل ردهات البيت الابيض وقد غطيت حوائطها بالرسوم من انتاج الفنانين الامريكيين المعاصرين وأتخيل الحديقة الجنوبية حافلة بأعمال النحت ، والقاعات العريقة الانيقة تردد أصداء المقطوعات الموسيقية الجديدة ، والادباء الكبار يقرأون صفحات من انتاجهم تحت لوحات **جون آدامز وابراهام لنكولن** .

ورحبت السيدة بس آبل « بالفرقعة » التى

يمكن أن يحدثها المهرجان ، ولكنها بدأت تتراجع عندما شرعنا فى مناقشة التفاصيل • وقالت «**ان الكتاب والفنانين يمكن دائما أن يخلقوا المتاعب**» وعند ذلك غيرت موضوع الحديث وناقشت معها أمورا اخرى •

وكان شعار العمل فى البيت الابيض أيام جونسون هو ماكنا نصفه بالاستقلال الذاتى • وكنا نقول : ان كل عصى العجلة تتجه الى مركزها • واذا أراد أحدنا أن ينجز عملا فما عليه الا أن يتحرك على امتداد عصاه ، ويتجنب الالتحام بالعصى الاخرى التى قد تفسد مشروعه • **وهكذا بادرت بارسال مذكرة الى الرئيس أحبذ فيها اقتراح اقامة مهرجان للفنون تحت رعاية البيت الأبيض •**

قدم الاقتراح فى ٢٥ فبراير • وكانت الفكرة فى البداية أن يقام الاحتفال يوم ١٢ ابريل أى بعد نحو ستة أسابيع ، وهى فترة كافية للاستعداد اذا أدخلنا فى الاعتبار الامكانيات الخاصة للبيت الابيض • **ولم يكن الهدف دعوة المثقفين والفنانين أنفسهم ، بل ان يكون المدعوون الرئيسيون أولئك الذين يشجعون الفنون فى مختلف الولايات والمحافظات •• رؤساء اللجان الفنية •• رؤساء لجان رعاية الموسيقى فى كل اقليم ، المشرفون على الجمعيات الفنية ، والمتاحف وأمثالها** » • ولم يكن فى المذكرة ما يوحى بأنه **على ليندون جونسون** أن يتظاهر بأنه من المهتمين بالفنون الرفيعة • وتضمنت المذكرة — حسب قواعد العمل فى البيت الابيض أيام جونسون — نوعا من « **السيناريو المقترح** » (وكانت كلمة سيناريو هى الكلمة المستخدمة) يحدد توقيت التحركات المختلفة ، ويرسم دور الرئيس والسيدة الاولى •

وعادت الى المذكرة وعليها تأشيرة الرئيس والسيدة جونسون بالموافقة • ولا أدرى ماذا حدث بعد ذلك ، غير أنى لم أتلق الموافقة الرسمية على المشروع الا يوم ٢٣ مايو • وعندما اجتمعت بالسكرتير الشخصى « **جاك فالنتى** » لتحديد موعد جديد للمهرجان وجدت أن أبعد موعد يمكن أن يلائم جدول أعمال الرئيس هو ١٤ يونيو •

ترى ماذا كان الدافع الذى حفز الرئيس جونسون للموافقة على اقامة المهرجان ؟ لست أدرى على وجه التحديد • ولكن لا شك فى أنه وجد فيه وسيلة تقربه من الفئات المهتمة بالفنون ، **غير أن هناك دافعا آخر • فبين التاريخ الذى أقر فيه جونسون الفكرة مبدئيا ، والتاريخ الذى أعلن فيه موافقته الرسمية ، جرت عدة أحداث هامة ، كان من بينها اصدار أوامره بالاستمرار فى ضرب فيتنام الشمالية بالقنابل ، والقيام بالتدخل فى جمهورية الدمنيكان** • وادى هذان الموقفان الى ازدياد موجة النقد لسياسة الحكومة فى دوائر المثقفين والفنانين • وربما خطر له عندئذ أن المهرجان يمكن أن يكون أداة لخفض صوت المعارضين للحرب • بيد أنى لا أعتقد أن كان لهذا الاعتبار ذاته أهمية كبيرة ، **فالرئيس لم ينظر الى المهرجان نظرة جدية فى أى وقت • وكان لا يرى فيه أكثر من مناسبة لطيفة ، ونشاط اجتماعى خفيف يقوم به رئيس الجمهورية استجابة للاهتمام العام فى الامة بالفنون ، ثم هو فى آخر الامر نشاط يثير اهتمام السيدات بصفة خاصة • وذلك كاف •**

فى ٢٣ مايو تمت الموافقة ، وفى ١٤ يونيو يقام الاحتفال • وليس بينهما غير ٢٢ يوما • وقمت مع المشتغلين معى بتقسيم المهرجان الى سبعة أقسام رئيسية : **التصوير ، النحت ، الأدب ، الموسيقى (الجادة والجاز) ، الرقص ، السينما التصوير الفتوغرافى** • اللوحات والتماثيل والصور تعلق بطبيعة الحال ، والافلام تعرض والموسيقى تعزف ، والتمثيليات والرقص تجرى على المسرح ، أما الادب فيقوم فى صورة قراءة الأدباء لبعض انتاجهم • ولم نبذل أى جهد لاختيار « **الأفضل** » فى أى ميدان ، فتلك فى تقديرى محاولة سخيفة ، بالاضافة الى أنها محاولة لا تلائم البيت الأبيض •

وبدأنا سلسلة واسعة من الاتصالات الشخصية والتليفونية بالخبراء والنقاد فى كل الولايات من أجل اختيار الفنانين أصحاب أبرز الأعمال فى جميع المجالات ، حتى نضمن أن كل الاجناس الأدبية والفنية ممثلة ، وحتى نختار العمل المميز الذى يكون أكثر دلالة على صاحبه •

وفى ميدان الكتابة ، وهو الميدان الذى أعرفه أكثر من سواه ، قمت مباشرة باختيار أسماء الكتاب الذين يتفق الجميع على مهارتهم الحرفية فى مختلف الميادين • ورأيت من المفيد فى هذا المجال أن أترك لكل مؤلف حرية اختيار الصفحات التى يؤثر قراءتها من انتاجه فى المهرجان •

ودعوت « مارك فان دورن » الى رئاسة الحفــل الادبى . ولقراءة الشعر وقع اختيارى على **روبرت لوفيل** ، وللشعــر الخفيف على **فيليبس ماك جينى** أما فى الرواية فقد اخترت طرفين متقابلين همــا **صول بيللو وجون هيرسى** . ولتمثيل الاتجاهــات الجديدة غير الروائية اخترت **كاترين درينكر بوين و ا . ب . وايت وادموند ويلسون** .

ورحب جميع الكتاب بالاشتراك فى المؤتمــر ، باستثناء ويلسون ووايت . رفض ويلسون الدعوة بعنف لم آلفه من قبل أو من بعد ازاء دعـــوة تقدم باسم الرئيس والسيدة الاولى . أما وايت فقد رفضها بكل رقة وأناقة عمود « **حديث المدنية**» زاعما أن شكله يبدو مضحكا كلما حاول أن يقرأ شيئا من كتاباته بين جمع من الناس .

وأيا كان الميدان الذى تناولناه ، فاننا لم نوجه أى اهتمام الى الآراء السياسية أو الايديولوجيــة أو العادات الشخصية لمن رأينا دعوتهم . **وكنت أعرف على سبيل اليقين أن أحد المدعـــوين بقى عضوا فى الحزب الشيوعى حتى بعد اعلان ميثـاق عدم الاعتداء بين النازى والســـوفيت** . وكانت الصورة التى اخترناها للمصور **ادوارد ستيشــن** هى بورتريه لبول روبصون . وكان أحد المدعوين معروفا بالميل الى الشراب الى حد أنى طلبت من أحد رجال الشرطة بالبيت الابيض أن يراقبه بلطف بعد المرات الاولى من تردده على المشرب . لم نستبعد أحدا من هؤلاء ما دام قد قدم انتاجا فكريا أو فنيا بارزا ، ورأينا أن أى محاولة لاستبعادهم لا تليق بالبيت الابيض . وتضمنت اللوحات التى اخترناها لوحة «الغليون المصنوع من الفخار» وهى من أعمال البوب آرت من انتاج **روبرت انديانا** ، ولوحة « تربيع الدائرة » وهى من أعمال الأدب آرت من انتاج **رتشارد أنوشكفيتش** . كما اخترنا ١١ عملا من الأعمال الضخمة فى النحت لوضعهــا فى الحديقة الجنوبية كان بينها عمل تبلغ مقاييســه سبعة أقدام فى أربعـــة ، مؤلف من قطع الكروم المأخوذة من هياكل السيارات ، وهو من انتـــاج **جيسون سيلى** وقد أطلق عليه اسم « **الاحســاس بالرجولة** » .

وكنت على يقين من أننا لن نصل بسهولة الى اتفاق بين الخبراء الذين طلبنا رأيهم ، وخاصـــة فى ميدان التصوير والنحت . وحدث ماتوقعته فقد ثار بعضهم ، وهدد ، وناور ، بل وعرض رشاو صغيرة أو كبيرة ، من أجل اشراك بعـــض الفنانين .. وربما تم ذلك لأسباب تجارية ، أو لأسباب شخصية . ولكن ذلك لم يكن هــو الطابع الغالب . **ووجدنا فى كل ولاية نقادا أدركوا على الفور غرض المهرجان وأهميته ، وقدموا مشورتهم بغض النظر عن اهتماماتهم أو أذواقهم الشخصية**.

الدعوة .. والرفض !

واشتد التزاحم على بطاقات الدعوة . رؤســاء مجالس ادارة كثير من الجمعيـــات يريدون أن يحضروا . كثير من الحلقات والندوات ترى أن من حقها ارسال مندوب يتحدث باسمها. أحد الفنانين دفع ممثل دائرته فى الكونجرس الى التوســـط له للحصول على بطاقة دعـــوة . لكن المكان فى البيت الأبيض لا يتسع لجلوس أكثر من ٤٥٠ شخصا . والعدد الباقى لا بد له من الوقوف فى الحديقة الجنوبية . وأرسل الى رئيس هيئـــة محترمة يذكرنى بأنه دفع آلاف الدولارات فى الحملة الانتخابية للحزب الديمقراطى عام ١٩٤٦ ! وانتشرت موجة من الاحساس بأن من لا يدعى الى المهرجان لن يعد مثقفا .

وفى وسط دوامة الاستعداد للمهرجان ،وعند وضع الترتيبات الاخيرة ، تلقيت رســالة من روبرت لوفيل يطلب فيها ابلاغ رسالة مرفقة الى الرئيس جونسون . وكان نصها كما يلى :

السيد الرئيس جونسون

عندما تلقيت دعوة تليفونية فى الاســـبوع الماضى لحضور مهرجان الفنون الذى يقيمه البيت الأبيض يوم ١٤ يونيو وقراءة بعض شعرى فيه ، يبدو أننى تعجلت الموافقة بسرعة ولهفة ، اذ لم أر فى هذه المناسبة غير مهرجان فنى خالص ، رغم أن كل فنان جاد يعرف أنه لا يمكن أن يلقى تقديرا عاما دون أن تصحبه من جانبه التزامات عامة أيضا وبعد أسبوع من التردد وجدت ان ضميرى يفرض على الاعتذار عن قبول دعوتكم الكريمة . وانى أفعل ذلك الآن فى رسالة علنية نظرا لأن نبــأ قبول الدعوة نشر فى الصحف ، ونظرا للتصرفات الغريبة التى أقدمت عليها الحكومة فى الفتـــرة الأخيرة .

وانى مع تأييدى الكـــامل لأكثر تشريعاتكم ومشروعاتكم الداخليـــة ، لا أملك الا أن أتابع سياستنا الخارجية الراهنة بكل استياء وقلق .



ويبدو أن واجبنا كدولة ذات سيادة فى مواجهة الدول الاخرى ذات السيادة معلق الآن فى كفة القدر ، وأنه يتأرجح بين أفضل الاحتمالات وأتعسها • ونحن نواجه خطر التحول بالتدريج الى دولة عدوانية متعصبة ، بل ونحو الانزلاق الى طريق الدمار النووى النهائى • وانى لأعرف أن اتخاذ خطوة عملية ليس بالامر السهل بالنسبة للرجل المسئول ، بيد أن التجرؤ على النقد أيضا ليس بالأمر السهل بالنسبة للرجل المنزوى الذى لا يحزم أمره • وانى لأشعر فى هذه اللحظة الملتهبة الدقيقة والتى قد تكون حاسمة بأنى أخدم سيادتكم وأخدم وطنى بصورة أفضل بعدم الاشتراك فى مهرجان الفنون بالبيت الأبيض •

وأرجو أن تتقبلوا احترامى •

روبرت لوفيل

وكان أول ما أثارته فى الرسالة هو الغضب• وحدثت نفسى بأن هذا سعى متعمد لاحداث الشغب وجرى رخيص وراء الشهرة : بقبول دعوة البيت الأبيض ، ثم رفضها ، واقحام قضايا كبرى لا محل لها ، واستخدام عبارات رنانة •• وكل ذلك مما يلائم الصحف • ولكنى بعد ذلك درست محتويات الرسالة بشىء من الهدوء وفكرت فيها على ضوء ما أعرفه عن لوفيل (وأنا لم ألقه من قبل) **وانتهيت الى أن رد الفعل الأول لدى لم يكن قائما على أساس ، وان الرسالة انما أملاها الاخلاص والقلق الحقيقى • وكنت أشعر بأن لوفيل مخطىء فى رأيه ، ولكنه يبنيه على أسس لا مفر من احترامها •**

وانفردت فى مكتبى محاولا أن أجمع أفكارى •

ثم اتصلت بلوفيل بالتليفون • ولم ألح عليه فى الحضور ، فاذا كان غير مطمئن لحضور الحفل وقراءة شىء من شعره فيه فذلك شأنه ولا ريب • ولكنى ألححت عليه فى سحب الخطاب ، وان يكتفى بالقول بأنه لن يتمكن من الحضور لأسباب شخصية • فأسماء المدعوين لم تذع بعد على نطاق واسع ، وبهذا يمكنه أن ينسحب دون أن يثير ضجة •

وقلت له انه من الافضل أن يسحب رسالته لأنها تبدو خاطئة فى المفهوم الاساسى الذى قامت عليه • فمن المعروف أن الرئيس يؤدى دورين متباينين • **أحدهما** دوره كرئيس للسلطة التنفيذية ، والقائد الأعلى للقوات المسلحة ، وزعيم حزبه السياسى ، والداعية الى سياسات معينة فى الداخل والخارج • **والثانى** دور غير سياسى بالمرة ، هو دوره كرئيس للأمة بأسرها ومن واجبه بمقتضى هذا الدور ، أن يشجع كل ما لدى الأمة من قيم طيبة ونشاط مشمرة • وأن من الواضح ان الرئيس جونسون انما يدعو الى مهرجان الفنون بهذه الصفة الثانية ، وأنه بهذه الصفة ذاتها دعا لوفيل الى الحضور ، وانه لم يجر تمييز بين المدعوين على أساس سياسى أو ايديولوجى وانهم بالتالى لا يجوز أن ينظروا الى مضيفهم بمثل ذلك المنظار ، وان قبول الدعوة لا يعنى الموافقة على سياسة الحكومة أو رفضها •

وقلت للوفيل انى لا أدرى ما هى فكرته عن شخصية الرئيس جونسون وأسلوب تفكيره • وانى أعتقد ان الرسالة سوف تغضبه الى غير حد وأنه سيعدها اهانة لشخصه ولرئاسة الجمهورية

ذاتها ، وان اثرها سيكون مروعا بسبب المكانة الخاصة التى يشغلها لوفيل • وان هذا الحادث سيدفع الرئيس جونسون الى الشعور بأن المثقفين والفنانين هم أعداؤه الألداء ، وسوف تقلل أى رغبة لديه للمساعدة فى نشر الفنون ورعايتها، أو التعرف على المفكرين والاتصال بهم أو الاستماع الى آرائهم فى السياسة •

وأجابنى لوفيل بأنه فكر فى الأمر مليا قبل أن يبعث برسالته ، وانه ناقش الأمر مع بعض أصدقائه ، وان بعضهم قدم نفس الحجج التى قدمتها وبعضهم الآخر وافقه على الانسحاب ، ولم يحرص لوفيل على مناقشة النقط التى أثرتها واكتفى بأن قال **انه لا يستطيع التغلب على الشعور بأن وجوده سيكون تعبيرا بشكل أو بآخر عن تأييده لسياسة جونسون فى التدخل فى فيتنام والدومنيكان • وأنه يستنكر هذه السياسة الى حد يجعله عاجزا عن الحضور •**

واعتذر عن تصرفه فى القبول دون تفكير ثم العودة الى الرفض، وأبدى أسفه لما سببه من حرج للرئيس ولشخصى • ولكنه وصل الى قراره ، ولا يستطيع أن يسلك سبيلا آخر بضمير مرتاح •

وأشرت خلال الحديث الى مسألة احتمال وصول الرسالة الى الصحف فأبلغنى لوفيل أنها أبلغت بالفعل الى « **النيويورك تايمز** » • ولم أشأ أن أجادل بأنه من غير المألوف أن يذاع مضمون رسالة قبل أن تصل الى المرسل اليه ، وخاصة اذاكانت مرسلة الى رئيس الولايات المتحدة • بدا لى غير ملائم أن أناقش مسائل البروتوكول مع رجل تحركه دوافع داخلية كبرى ولكنى عرضت عليه أن أتولى بنفسى الاتصال بالجريدة ، وأكدت أن سحب الرسالة سيتم بطريقة لا تدع أى شك فى أن القصة لن تذاع •

لكن لوفيل رفض وصمم على أن يسير كل شىء فى مجراه •

ولم يكن مفر •• فبعثت بالرسالة الى الرئيس جونسون ، ومعها مذكرة مختصرة بما جرى ، واقترحت ارسال رد بتوقيع الرئيس يقول فيه :

عزيزى مستر لوفيل

تلقيت رسالتك التى تعلن فيها انسحابك من مهرجان الفنون بالبيت الأبيض ، وانى آسف لهذا القرار الذى سيحرم المهرجان من حضوركم ومواهبكم كما آسف للأسباب التى بنى عليها قراركم • فنحن قد وجدنا فى هذا المهرجان وسيلة لتكريم وتشجيع الفنون فى أمريكا دون نظر الى الانتماءات السياسية أو القضايا العامة أو الخلافات المؤقتة حول المسائل الخارجية أو الداخلية • وانى اذ أبدى احترامى الكامل لآرائكم المخالفة لآراء الحكومة حول بعض جوانب السياسة الخارجية ، آسف لاقحامكم هذه الخلافات فى مجال لا علاقة له بها •

المخلص : ليندون جونسون

وارتفع صياح الرئيس فى مكتبه البيضاوى الشكل حتى بات مسموعا فى كل الجناح الشرقى للبيت الابيض • وصدرت الى التعليمات بأن أرسل ردا على الرسالة باسمى لا باسم الرئيس ، وألا يتضمن الرد شيئا أكثر من « **الاخطار بالاستلام** » وقررت أن « الأخطار بالاستلام » يمكن أن يكتب بالصورة التالية :

عزيزى المستر لوفيل

أبلغت رسالتكم الى الرئيس جونسون بناء على طلبكم • ولست فى حاجة الى القول بأنى آسف أشد الأسف لحرمان مهرجان الفنون فى البيت الأبيض من وجودكم ومواهبكم •

المخلص : اريك جولدمان

وفى الصباح التالى نشرت « **النيويورك تايمز** » الحكاية كلها فى صفحتها الاولى • ولم يدهشنى ابرازها للقصة لما لها من طابع اخبارى • ولكن علمت فيما بعد أن الرئيس جونسون رأى فى ابرازها دليلا جديدا على الموقف العدائى الذى تتخذه منه « النيويورك تايمز » •

الأوغاد !

ان بعض الاحداث ، فى ظروف خاصة وفى ارتباطها بشخصيات محددة ، تتخذ على الفور طابعا رمزيا • وكان من هذه الاحداث رفض أحد قادة أمريكا الثقافيين حضور حفل ثقافى يقيمه الرئيس الامريكى تحت رعايته • وكان موقف لوفيل تعبيرا عن مشاعر عدد كبير من الكتاب والفنانين وأساتذة الجامعات ازاء ليندون جونسون الذى أمر بالتدخل فى الدومنيكان والذى أمر بتصعيد الحرب فى فيتنام •

وكتب **روبرت سيلفرز** ، المشرف على تحرير

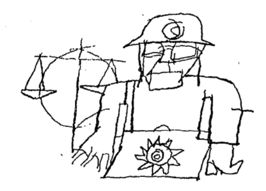
مجلة « **نيــويورك ريفيو** » يقول ان جونسون « **أعد هذا الاحتفال حتى يقدم الى العالم واجهة زائفة يزعم بها ان الكتاب والفنانين يؤيدون حرب فيتنام** » وانه حاول استغلال لوفيل لتحقيق غرضه وان من واجب الأدباء مهاجمة الاحتفـــال ، وأن « **للموقف جانبه السياسى الواضح** » ، وانهم يجب أن يبذلوا كل جهدهم حتى يصبح موقف لوفيــل « **جارحا الى أبعد مدى لليندون جونسون الذى خان المثقفين والفنانين الذين أعطوه أصـــواتهم فى ١٩٦٤** » .

وفى اليوم التالى ، وجه سيلفرز بالاشتراك مع الشاعر **ستانلى كونتز** برقية الى جونسون يعلنان فيها تأييدهما للوفيل « **فى قراره بعدم الاشتراك فى مهرجان الفنون بالبيت الابيض .. ونـود أن نبلغكم أن كثيرين بيننا يشـاركونه الاسـتياء من السياسة الخارجية الامريكية الراهنة. ونرجو ألا يتصور الشعب فى بلدنا أو فى البلاد الاخرى أن اقامة مهرجان الفنون بالبيت الابيض تعنى موافقة الفنانين على السياسة التى تتبعها الحكومة** »

ووضع **سيلفرز وكونتز** قائمة بالكتاب والفنانين وقسموا بينهما مهمه الاتصال بهم لجمع توقيعاتهم لكنهما كانا فى عجلة من أمرهما ، حريصين عـلى نشر برقيتهما فى الصحف فى أقرب وقت بعـد نشر رسالة لوفيل ، ولذا أرسلا البرقية الى البيت الأبيض تحمل عشرين توقيعا . غير أن هـــذه التوقيعات العشرين كان لها وزن خاص ، فهى تضم **أسماء : حنة أرنت ، جون بريمان ، ألان دوجان ، جول فيفر ، فيليب جاستون ، ليليان هلمان ، الفرد كازان ، ستانلى كونتز ، دوايت مكدونلد ، برنارد مالامود ، مارى ماكارثى ، لارى ريفـرز ، فيليب روث ، مارك رونكو ، لويس سمبسون ، و . د . سنودجراس ، وليام ستيرون ، بيتر تايلور ، ادجار فاريز ، روبرت بين وارن** .

ويجرى العمل فى البيت الأبيض على قاعـــدة ارسال البريد الوارد والخاص بمشروع معـين الى الشخص المختص لدراسته قبل عرضه على الرئيس وعندما وصلت هذه البرقية الى مكتبى توقفت عيناى عند أسماء **دوايت مكدونلد ولارى ريفرز ومارك روتكو** . فهؤلاء الثلاثة بين المدعوين الى الحفل : ريفرز وروتكو باعتبارهمـــا من الفنـــانين الذين اختيرت لوحاتهم للعرض فى ابهاء البيت الأبيض أثناء الاحتفال ، ومكدونلد بحكم عمله فى جريدة « **نيويوركر** » والمقـــالات التى يكتبهـــا فى « **نيويورك ريفيو** » ثم باعتباره الناقد السينمائى لمجلة « **سكواير** » .

عندما وصلتنى البرقية كانت بطاقة الدعـوة الموجهة الى مكدونلد قد أرسلت بالفعل . أمـــا بطاقتا ريفرز وروتكو فلم تكونا قد أرسلتا بعد ، لكننا كنا أرسلنا برقيتين الى متحفين من متاحف الفنون نطلب اعارتنا لوحتين لهما . وكان فى تقديرى أن موضوع مكدونلد بسيط ، فقد وجهت اليه الدعوة ومن حقه أن يقبلها أو يرفضها . وكذلك كان الأمر واضحا بالنسبة لدعوة ريفرز وروتكو ، فأى مضيف ــ حتى لو كان رئيس الولايات المتحدة ــ من حقه ألا يدعو الى بيته ضيفا أذاع علنا أنـه لا يريد الحضور . لكن عرض لوحاتهمـــا فى الاحتفال كان أمرا آخر ، خاصة وانه يتعلق بذلك



الطراز الخاص من الكـــائن البشرى : **ليندون جونسون** .

فاذا كانت رسالة لوفيل بالاعتذار قد أغضبت الرئيس الامريكى ، فان برقية سيلفرز ــ كونتز أحالت غضبه الى لهب . ومع ازدياد غضبـه ، اتخذ له هدفا أكبر . **واذا كان المثقفون والفنانون لم يكونوا فى يوم من الأيام مقربين ــ كأفراد ــ الى ليندون جونسون ، فقد أصبح الآن يضعهم فى حقيبة واحدة ويتمنى أن يقذف بهم الى الجحيم** . ولم يكن يميز بين من ينتقدون سياسته الخارجيـة على أساس منطقى وبين من ينقدونها نقدا طائشا ، بل لم يعـــد يميز بين المؤيدين لحرب فيتنـام ومعارضيها . لقد انطلق غضبه ضد «**هؤلاء الناس**» الذين أهانوه وأهانوا رئاسة الولايات المتحدة . بل تطور الموقف الى أبعد من ذلك ، فهو يرى أن هؤلاء الذين حطوا من مكانة الرئيس الأمريكى ، وأذاعوا موقفهم علنا ، انما أضروا بوطنهم فى وقت الشدة . انهم ليسوا مجرد « أبناء كلاب » (استخدم

هذه العبارة بنصها) وانما هم أوغاد ، ويوشكون أن يصبحوا خونة ٠

وأعلن جونسون أكثر من مـــرة انه « **احتمل هؤلاء الناس بما فيه الكفاية** » ، وانه ســـيلغى الاحتفال (وكنا نعرف انه لن يفعل ذلك) ، أو أنه سيكتفى بعدم حضوره (وهو أمر كان يمكن جدا أن يفعله) ٠

وكنت أتـــابع الموقف عن كثب ، وأدرك أن التصرفات التى ستقرر خلال الايام القادمة ستحدد موقف جونسون من « **هؤلاء الناس** »الذين يضمون عددا من أخصب عقول أمريكا وأكثرها اخلاصا ، وان التوتر السائد يمكن أن يدفعه الى ارتكاب تصرفـات تسىء الى شـــخصه والى الولايـات المتحدة فى عالم على أتم استعداد للاقتناع بأن كل أمريكى هو فى أعماقه من أبناء تكساس ، وأن كل أبناء تكساس أجلاف ٠

وكان من الواضح أن موقفى العام هو السعى الى تهدئة الموقف قدر الامكان ، مع الحرص عـلى انجاح الاحتفال والاحتفاظ له بمستواه ٠ ولكن كانت هناك مسائل عاجلة ومحددة تتطلب التصرف السريع ٠ من بينها مسألة **لوحتى ريفرز وروتكو** وسارعت بالاتصال بالرئيس قبل أن يقرر الغـاء عرضهما ٠ وكنت أعرف انه عندما يغضب فمن الأفضل الكتابة اليه بدل المناقشة معه ٠ وأرسلت اليه مذكرة عاجلة ٠ ركزت فيها على الجانب العملى للمسألة : اذا الغى الطلب فسوف يتسرب الأمر الى الصحف ، ويقف البيت الأبيض فى موقف حرج ٠ ولكنى أشرت أيضا الى الموقف العام الذى نتخذه فى هذا الاحتفال : انه ليست له صـــلة بالسياسة الداخلية أو الخارجية ، وان اللوحتين اختيرتا بنـــاء على مشـــورة الخبراء على أساس قيمتهما الفنية ٠ وما دام اختيارهما قد تم على هذا الأساس فلا ينبغى أن يتأثر عرضهما برأى الفنانين فى حرب فيتنام أو بحضورهما الاحتفال وان تصرف البيت الابيض على وجه آخر ســـوف يفهم على أنه تأكيدللمعنى الذى تركه تصرف لوفيل وموقعى البرقية : **وهو اقحام قضايا خارجيـــة على حفل فنى بحت ٠**

وتنفست الصعداء عندما اتصل بى **جاك فالنتى** ليبلغنى تعليمات جونسون باستمرار عرض اللوحتين وقلت لفالنتى :

ــ انى سعيد يا جاك ٠ ولا أشك فى أن هذا هو القرار السليم ٠ ولكنى أود أن أعرف ماذا قال الرئيس عموما ، فقد يســـاعدنى ذلك فى تصرفاتى ٠

وأطلق فالنتى ضحكة قصيرة وقال : لا أظن أنه يسعدك أن تعرف ما قال ٠

العلاقة بين الحكومة والفنون

وحدد عدد كبير من المثقفين والفنانين موقفهم سواء فى السر أو فى العلن ، من المسألة المثـارة ألا وهى : ما العلاقة الصحية بين الحكومة والفنون؟ وهل اذا قبل أحد المثقفين أو الفنانين الدعوة الى حفل البيت الابيض يكون معنى ذلك بالضرورة التزامه بتأييد السياسة التى تتبعها الحكومة ؟ لم يكن هناك اجماع ، وكانت هناك مختلف الآراء فمن بين ١٠٢ من الكتاب والفنانين والنقاد الذين وجهت اليهم الدعوة لحضور الاحتفال ، لم يمتنع عن الحضور بالاضافة الى لوفيل وعلى نفس الاسس التى أبداها غير أربعة أشـــخاص (هم الناقـــد المسرحى روبرت بروشتين الذى أصبح فيما بعد يعرف باسم عميد مدرسة ييل المسرحية والنحات الكسندر كالدر والرسام جـــاك ليفين والمصور الفوتوغرافى بول سترأند) وامتنع ١٤ آخرون ــ وهم رقم كبير بالنسبة لحفلة تقـــام فى البيض الأبيض ــ دون ابداء سبب جوهرى ، والأرجح أنهم كانوا يتحرجون من ابداء نفس الاسباب التى أبداها لوفيل ٠ أما الذين أجابوا بالقبول فكان بينهـــم على الأقل ١٥ لم يحددوا رأيهم نهائيا وقد أدلى كل من الروائيين الذين قبـــلا تقـــديم قراءات من انتاجهما بتصريح الى الصحف يعبر عن موقفه ٠ أكد صول بيللو للصحفيين أنه يعتبر التدخل فى جمهورية الدومنيكان أمرا « ســـيئا وضـــارا » وأنه يعارض حرب فيتنام ، غير أنه قال أنه لا يرى فى الاحتفال « **مناسبة سياســـية** » ، وأن رئيس الجمهورية يعد « **مؤسسة قومية** » بالاضـــافة الى دوره كرجل سياســـة ، وأن الرئيس جونسون يسعى « **بوسيلته الخاصة** لتشـــجيع الفنـــانين الاميريكيين ٠ وانى أقبل الدعـــوة اعرابا عن احترامى لنواياه وتقديرا لمركزه ٠ ولا أشك فى أنه لا يتوقع منى أن أؤيد كل مواقف حكومته أو كل سياسة يرسمها »

أما جون هرسى فقد تحدث بلهجة أخرى ، فأكد أن قرار قبوله الدعوة قائم « حتى الآن » ، وأنه فى الظروف التى أحاطت بالاحتفال لايعتزم قراءة شىء من رواياته ، وقال : **وانى كالكثـــيرين من أمثالى أشعر بقلق شديد نتيجة للاتجاه الى الاعتماد على الحلول العسكرية فى سياستنا الخارجية ٠٠**

وكان فى نيتى حضور الاحتفال اذ رأيت أنى بهذا الحضور استطيع أن أدافع عن وجهة نظرى أكثر مما أدافع عنها بالامتناع او التخلف ، وآمل أن أقف فى البيت الابيض — وربما فى حضور رئيس الجمهورية — واقرأ بضع صفحات من كتاب لى بعنوان هيروشيما .

وفى الوقت نفسه حـــدد **دوايت ماكدونالد** موقفه . ودون أن توجه اليه الدعوة وقع برقية يعلن فيها أنه لا يوافق على الحضور . ولكن عندمـــا وجهت اليه الدعوة بالفعل فانه أخذ يفكر فى الامر مرة أخرى ، وشرع فى مناقشته مع أصـــدقائه ، وكان يردد انها فرصة لارغام جونسون على التخلى عن الحرب التى أعلنها . واقترح عليـــه **روبرت سيلفرز** أن يحضر الاحتفال ويكتب عنه مقـــالا فى « **النيويورك ريفيو** » .

ولم أعرف بهذه الوقائع الا فيما بعد — أمـــا فى ذلك الحين فقد تلقيت برقيـــة من ماكدونالد يعلن فيها قبول الدعوة ، ويذكر أنه وقع برقية سيلفرز — كونتز ، ثم يقول : **وأعتقد أنه لا مانع لديكم من أن أكتب شيئا فيما بعد عن انطباعاتى عن الاحتفال اذا ما شعرت بالرغبة فى ذلك .**

واتصلت به تليفونيا . وكان الانطباع الذى تأكد لدى خلال المحادثة أن ماكدونالد يتمنى أن أسحب دعوته بسبب توقيعه برقية سيلفرز — كونتز ، وبسبب ما ألمح اليه من أنه يعتزم كتابة مقال غير ودى . فاذا لم أسحب الدعـــوة فانى سأبقيها قائمة مع التأكيد عليـــه بأنه ليس من الملائم أن يحضر الحفل مدعوا ثم يهاجمه فى مقالاته

ورغم الاخطاء التى قد أكون قد وقعت فيها ،فلم أكف على استعداد لايجاد وضع يسمح لصحفى واضح العداء بأن يزعم أن احتفال البيت الابيض بالفنون لا يضم غير مجموعة الفنـــانين المؤيدين لسياسة الرئيس جونسون الخارجية والمستعدين للثناء على الحكـــومة . ولذا أكدت لماكدونالد أن دعوته ما زالت قائمة وأنها وجهت اليه رغم العلم الكامل بعدائه لحرب فيتنام . وأنه حـــر فى أن يكتب ما يشاء .

مأساة هيروشيما

أما فى مكتب الرئيس فكان موضوع الاحتفال ما زال موضع دراسة تجرى بأعصاب متوترة . فعندما أعلن جون هرسى أنه سيقرأ صفحات من كتابه « هيروشيما » كان يظن أنه بذلك يرد على التساؤل عما يدعو رجلا يعارض حرب فيتنام الى قبول دعوة البيت الابيض ، غير أن تصريح هيرسى أثار الرئيس جونسون ، ولم ير فيه غير محاولة للتشهير به والاضرار بالمجهود الحربى . رأى فيه اهانة أخرى من جانب « هؤلاء الناس » . وقال وهو على بعد خطوة واحدة من رجال الصـــحافة « **ان بعض هؤلاء الناس يهيننى بالامتنـــاع عن الحضور ، وبعضهم الآخر يهيننى بالحضور** » . ثم أضاف بصوت منخفض « **ألا يعلمون انى الرئيس الوحيد لديهم ، وأن الحرب قائمة ؟** »

واستمرت الاستعدادات للاحتفال .

وكان من الواضح ان أهم المتاعب الباقيـــة هى اختيار الفقرات التى سيلقيها الادباء . ومن بين الادباء الخمسة الذين وجهت اليهم الدعـــوة ليقرأوا بعض انتاجهم ، كان واحد قد انسحب ، وثلاثة أعلنوا موقفهم المعادى لحرب فيتنام ، وأعلن واحد منهم — هو « **جون هيرسى** » أنه اختار للقراءة مقطعا من كتابة « هيروشيما » .

وتلقيت مكالمة من السيدة جونسون تسألنى فيها اذا كنت أعرف على وجه الدقة ما يعتزم هيرسى قراءته . وأرسلت اليها القطع الثلاث التى وقع عليها اختياره . وكانت اثنتان منها تدوران حـــول الآنسة **توشيكو سازاكى** ، وهى فتاة يابانية تعمل فى أحد مصانع هيروشيما ، وتصف القطعتـــــان اختلاط أجزاء جسدها عند انطلاق القنبلة ، كما تصف عذابها طوال الشهر التالى وهى تنتقل من مستشفى الى آخر ، ثم وهى ترى حطام مدينتها لأول مرة بعد الكارثة . أما القطعة الثالثة فتـــورد مجموعة من الاحصاءات عن الطاقة التدميرية للأسلحة النووية الموجودة والتى يجرى تجريبها .

وفى اليوم التالى دعتنى السيدة جونسون الى تناول الغداء معها ومع عدد من المحيطين بها من أجل « اجراء الترتيبات النهائية » للاحتفـــال . وأقيمت المأدبة فى « قاعة الملكة » بالجناح الخاص وبدأت السيدة الاولى مناقشة الموضوع بأســـلوب ناعم ، ولكننى لم ألبث أن شعرت بالقلق ، اذ ظهر على الفور ان هدف المأدبة ليس اجـــراء الترتيبات الاخيرة بقدر ما هو استبعاد جون هيرسى . وزاد قلقى عندما أوضحت السيدة جونسون بجلاء انهـــا تتحدث أيضا باسم زوجها . وكنت أعتقد أنه فى أمر بمثل هذه الحساسية ينبغى أن يعبر الرئيس عن رأيه بنفسه .

وقرأت السيدة جونسون فقرة من البيـــانات الاحصائية التى يتضمنها كتاب هيرسى يقول فيها : **عندما أعلن الرئيس ترومـــان ضرب هيروشـــيما بالقنابل ، أعلن للعالم ان قوة الانفجار الذرى فى**

ذلك اليوم بلغت ما يساوى ٢٠ ألف طن من مادة ت • ن • ت » ووضعت السيدة الاولى الورقة جانبا وقالت وقد قطبت ما بين حاجبيها «ان الرئيس يميل جدا الى الرئيس السابق ترومان • ولا يمكن أن يقبل أن يأتى أناس الى البيت الابيض ليتحدثوا ويقولوا أن الرئيس ترومان كان يقعقع بالقنابل الذرية » •

وأدركت أن السيدة جونسون تحاول أن تذكر شيئا بطريق غير مباشر ، وقلت لها انى لا أفهم ماذا تريدان تقول ؟ • وتحولت السيدة جونسون من الكلام غير المباشر الى الكلام المباشر وقالت :

– ان هناك من يتهم الرئيس بأنه داعية حرب وسفاك دماء • ولا يمكن أن يقبل ان يأتى الى هنا كتاب يشهرون به ، فى داخل بيته ، ويصفونه بأنه يريد ان يستخدم القنابل الذرية •

وحرصت على توضيح المواقف ، وقلت للسيدة جونسون : هل أستطيع أن أطلع على هذه الفقرة ؟
ومدت الى يدهابها ، وقرأت بصوت مسموع الصفحة كاملة ثم قلت :

– ليس فيما قرأت أى اشارة صريحة أو ضمنية تدل على ان الرئيس ترومان أو الرئيس جونسون لا يبغضان استخدام القنابل الذرية •ونحن نعرف ان جميع المواطنين الشرفاء يرفضون فكرة اشعال نيران الجحيم النووى • وما يقوله هيرسى يختلف تماما عما ألمح اليه • وقد طلبنا اليه أن يقرأ بعض كتاباته فاختار أن يتحدث عن واحدة من أكبر المشاكل الادبية والاخلاقية فى هذا العصر، وهى مشكلة الحرب النووية • وقد أورد رأيه خلال قطعة تبين ان حرب فيتنام يمكن أن تتطور – على عكس رغبة الرئيس جونسون تماما – وتصبح حربا نووية ، تماما كما وجد الحديث الرئيس ترومان نفسه مضطرا ، من أجل ما اعتقد انه الصالح العام ، الى اصدار أمره بالقاء القنبلة الذرية •

وتدخلت السيدة آبل فى الحديث وقالت :

– ان هذا يثير القرف • فبأى حق يسمح كاتب لنفسه أن يطلب من الرئيس ان يجلس ويستمع اليه وهو يلقى قطعة يمكن أن تجعل منها الصحف عناوين ضخمة تعارض السياسية الخارجية لحكومتنا ؟

وعدت أناقش واجادل • غير ان وجه السيدة جونسون تصلب وقالت :

– ان الرئيس وأنا لا نريد ان يأتى هذا الرجل الى هنا ويقرأ هذا الكلام •

وصممت على ألا أعتبر هذه الملاحظة أمرا ، وأن أخاطب السيدة جونسون من الناحية العملية فقلت :

– اذا أنا اتصلت الآن بهيرسى وطلبت منه الا يقرأ من كتاب هيروشيما فأنى أرجح بنسبة ٩٩ : ١ انه سوف ينسحب على الفور من الاحتفال •

وقالت السيدة آبل : سيكون هذا أفضل ! فلست أفهم كل هذه الضجة حول كاتب سخيف وتكهرب الموقف • وتدخلت السيدة أليزابيت كربنتر فى الحديث وقالت :

– اليس صحيحا انهيرسى معروف فى المقام الاول ككاتب روائى ؟ ألا تستطيع أن تبلغه أننا نريد أن نكرم أعماله الروائية ، وانه من الأفضل أن يختار قطعة من احدى رواياته ؟

كان ذلك حلا وسطا ، لكنى لم أستطع قبوله ، اذ كان أسلوبا مهذبا لمنع هيرسى من قراءة المقاطع التى اختارها من كتاب هيروشيما • ولا شك فى أن هذا سيؤدى الى انسحابه من الاحتفال والى اثارة ضجة تصور الرئيس جونسون فى ضوء غير مناسب •

وأبديت رأيى مرة أخرى • لكن السيدة جونسون تكلمت بشدة ، وقالت وهى تضغط على الكلمات :

– ان الرئيس وأنا لا نريد أن يحضر هذا الرجل الى هنا ويقرأ هذا الكلام • والمسألة التى أمامنا هى كيف نعالج الموقف بأحسن أسلوب •

ثم نظرت الى وقالت : – ألا تعرف صديقا مشتركا يمكن أن يتولى الامر بلباقة ؟

وكنت أعرف هذا الصديق المشترك ، ولكن كنت واثقا انه سيرفض هذه المهمة •

وانفض الاجتماع ولم نصل الى شىء • وقررت أن أمضى فى طريقى ، وعلى مسئوليتى ، ما دمت لم أتلق أمرا من الرئيس شخصيا •

المباحث تعترض

وحل يوم الثلاثاء ، قبل موعد الاحتفال بستة أيام ، وعلمنا ان الرئيس سيسافر الى تكساس فى عطلة نهاية الأسبوع ، وقد يبقى هناك الى منتصف الأسبوع القادم • وسافر الرئيس بالفعل • ومن هناك صدرت التعليمات ، **ان يوضع الاحتفال فى الظل** لا مراسلون صحفيون ، لا مصورون لا اذاعة ولا تليفزيون • وكانت احدى محطات

الاذاعة قد استعدت لارسال ســـاعة كاملة عن الاحتفال فأوقفت استعداداتها ٠

ومضى جونسون الى أبعد من ذلك ٠ **كانت** هناك مجموعة من الدعوات الاخيرة لم ترســـل بعد ، فأمر بأن تتولى ادارة المبـــاحث المركزية مراجعة الاسماء مراجعة دقيقـــة ، ليست تلك المراجعة التقليدية التى تهدف الى ضمان سلامة شخص الرئيس وأسرته ، بل هى مراجعة لعقائد كل شخص وارتباطاته ٠ وكلف **مارفين وطســون** باجراء التحريات ٠ وقد تمت على وجه السرعة ، واتصل بى واطسن طالبا ابعاد سته أسماء ٠

وكنت قد ســـئمت الصراع ٠ فتوجهت الى وطسون لا لأناقش المبادىء بل لأناقش الجوانب العملية ٠ فأربعة من هؤلاء الاشخاص الســـتة فنانون لهم أعمال معروضة فى الاحتفال ، فكيف نرفض دعوتهم ؟ وقد اعترف واطسون بأن ذلك سيبدو غريبا ، لكنه سألنى : هل أريد أعمـــالا هدامة فى البيت الابيض ؟ وقلت انه اذا كان لأحد منهم اتصـــال باحدى الجماعات فى وقت ما ، فلم يكن ذلك من أجل الهدم بل كان على أســـاس انســـانى محـــض ٠ ورد على وطســـون : وما موقفهم الآن من قضية فيتنام ؟ وقلت : اننا لن نعيد الحديث فى هذا مرة أخرى ٠ فسيكون البيت الابيض مليئا بأناس يعارضون الحرب ٠ واجابنى : انت تعرف اننى اذا عرضت هـــذه التقارير على الرئيس فسوف يحذف عددا أكبر من الأسماء وأجبته : لا أشك فى ذلك وهو فى حالته الراهنة ولكن واجبنا أن نحميه من هذه الحالة ٠

وصمت واطسون لحظة ثم قال :

ــ ما رأيك لو وجهنا اليهم الدعوات بشرط ان تصلهم قبل الموعد بيومين اثنين ؟

وضحكت وقلت :

أراهن أنهم سيحضرون رغم ذلك ٠

وقال : نعم ، لسوء الحظ !

(وقد حضر فعلا أربعة من الستة)

توقيعات داخل البيت الأبيض

وحل يوم الاثنين الموعود ، يوم الاحتفال : ١٤ يونيو ٠ وكان يوما صيفيا لطيفا من أيام واشنطن، لا سحب ولا رياح ٠ وبدت السيدة جونســـون فى احسن حالاتها ، وافتتحت الحفل بعبـــارات ودية ٠

وألقى مارك فان دورين كلمته ، واستقبلت كما تستقبل كلمة رئيس الجلسة عادة بالصمت ٠وألقى صول بللو مقاطع من كتـــابه هيرتزوج قوبلت بالتصـــفيق ٠ واختارت **كاترين دريتكر بوين** فقرات من كتابها « يانكى من جبل الاولمب » ٠ وقد ألقتها بحماسة وحيوية انتزعت تصفيقا طويلا

وارتقى جول هيرسى المنصة شاحبـــا متجهـــم الوجه ٠ وقرأ الفقرات التى اختارها من كتـــاب « هيروشيما » متمهلا ، مؤكدا على الكلمات ،وهو من حين لآخر يرفع عينيه لينظر مباشرة فى عينى السيدة جونسون التى كانت تجلس فى الصف الاول ٠ وعندما انتهى من القائه ساد القاعـــة صمت لبضع ثوان ، ثم انفجر تصفيق حاد ٠ بينما بقيت السيدة الاولى ــ التى صفقت لكل من سبقوه ــ فى مكانها بلا حراك ٠

ومضى الاحتفال وفق البرنامج المرســـوم ٠ وعند تناول الغداء ألقى **جورج كينان** خطابا أعده عن « الفنـــان والمجتمع الامريكى » ٠ وعـــزفت الموسيقى فى أكثر من قاعة ٠ وأخرجت مقـــاطع من مسرحيات متعددة كان بينها مشـــهد من مسرحية « موت بائع جوال » **لآرثر ميلر** ٠ وانتهت الفقرة الأولى من الاحتفال بقراءة المعالجة التى أعدها **شارلتون هستون** ــ الذى كان قد عاد لتوه من الاشتراك فى المظاهرات المطالبة بالحقوق المدنيـــة للمواطنين ٠ لاخراج فيلم جديد تقوم فكرته على دمج مقاطع من خمسة أفلام من أهم الافلام التى أخرجتها أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية ٠

وكان الضيوف معظم الوقت يستمتعون بالحفل ويقضون وقتا لطيفا ٠ ولكن لا شك أن الكثيرين منهم ــ وربما الاغلبية ــ كانوا يشعرون طـــوال الوقت أن الشخصية الرئيسية فى هذا الاحتفال الذى أقامه البيت الابيض لتكريم الفنون هى الشخصية التى لم تحضره ٠ ان أكثرهـــم لم يكونوا يوافقون **روبرت لوفيل** على آرائه ــ فقـــد حضروا على أى حال ــ لكن رسالته لم تفقـــد أثرها ، وأثارت بينهم مختلف المشاعر والآراء ٠ وكنا نشعر بأن البيت الابيض يعـــانى نوعـــا من الشيزوفرينيا ٠ كان بين الحاضرين مثلا صـــول مألوف ــ محرر الشئون الثقافية فى مجـــلة نيوزويك ــ وقد حضر الاحتفال وهو يعتقـــد أنه مؤامرة حربيـــة ٠ وقد قابل مألوف زميله بللو بعد انتهاء فترة القراءة فى الصـــباح وبادره الهجوم ٠

- كيف تستطيع أن تقف هناك وتقرأ بعد كل ما فعله هذا الرجل فى فيتنام ؟

وأحرج بللو ، لكنه أجاب بما سبق أن أعلنه من أنه يعتبر الحفل مناسبة فنية وثقافية ، وانه سيعلن رأيه فى السياسة الخارجية لامريكا فى مكان آخر .

غير أن مالوف لم يكف عن الهجوم . وتحدث عن الادباء الذين يبيعون أنفسهم . وقال :

- نحن صنعناك . ونحن قادرون على تحطيمك

وانسحب بللو من أمامه .

وكان بين الحاضرين دوايت مكدونالد . وهو رجل ممتلىء الجسد ، سريع الحركة ، له لحية مدببة ووجه لطيف ولسان حاد . وهو يستطيع أن يكون رقيقا جدا . لكنه لم يكن رقيقا أثناء الاحتفال على الاطلاق . كان قد ناقش بعض أصدقائه فى اليوم السابق وانتهوا الى اقتراح جرىء : لماذا لا توزع « عريضة » مؤيدة للوفيل أثناء الاحتفال ذاته ؟ وأعجب مكدونالد بالفكرة وأعد العريضة بالفعل . وجاء فيها :

« اننا نريد أن نوضح أننا عندما تقبلنا الدعوة الكريمة التى وجهها الينا السيد الرئيس لحضور مهرجان الفنون بالبيت الابيض ، لم نقصد على الاطلاق التخلى عن الموقف الشجاع الذى وقفه روبرت لوفيل ، كما أنه لا يعنى موافقتنا على السياسة الخارجية للحكومة .. فنحن نؤيد احتجاج روبرت لوفيل على التصرفات الاخيرة لبلادنا فى فيتنام وفى جمهورية الدومنيكان » .

وعرض مكدونالد فكرته على توماس هيس - رئيس تحرير مجلة أخبار الفن (آرتس نيوز) الذى تحمس لها ، وأخذ يسعى مع مكدونالد ، أثناء الاحتفال ، لجمع التوقيعات على العريضة . وقد جمعا بالاضافة الى توقيعهما ، ستة توقيعات تضم أسماء ثلاثة نحاتين هم هربرت فربر وايزامو نجوشى وبيتر فولكوس ، وواحدا من الرسامين هو وليام دى كوننج . ثم سام هانتر وهو مدير أحد المتاحف الفنية ، وريد ويتمور الاستاذ بجامعة كارلتون .

ورفض الكثيرون توقيع العريضة ولكن الرفض لم يزد مكدونالد الا حماسة . واستمر يدعو الى توقيع العريضة من الصباح حتى وقت متأخر فى المساء . واقترب مكدونالد ، أثناء حفلة الكوكتيل ، من الممثل شارلتون هستون ودعاه الى التوقيع ، وعندما رفض وصفه ماكدونالد بأنه من أذناب هوليوود . ورد هستون غاضبا بأنه اشترك فى مظاهرات المطالبة بالحقوق المدنية ، معرضا عمله فى السينما للخطر ، وسأل ماكدونالد أين كان هو فى تلك المناسبات ؟ واستمرت المواجهة بين الرجلين ثلاث أو أربع دقائق ، ارتفع خلالها صوت ماكدونالد الى حد الصياح . وفى النهاية تمالك هستن أعصابه ومضى .

وفى المساء كان مالوف قد عاد الى نيويورك ، أما ماكدونلد فبقى وأعرب عن سخطه بكل وسيلة ممكنة . وأثناء العشاء ، أبدى ملاحظات ساخرة على الأعمال الفنية المعروضة ، ثم هاجم جونسون شخصيا بصوت مرتفع وصل الى عدد كبير من المدعوين وأثار قلقهم .

وقبل أن ينزل جونسون للمشاركة فى الاحتفال ، أبلغت اليه فى مكتبه تفاصيل كل ما حدث . وعندما حلت الساعة المحددة لنزوله وجدناه واقفا بين صف المستقبلين ، بوجه جامد كالحجر . وبعد مصافحة عدد قليل من المدعوين غادر مكانه ، وترك للسيدة الأولى مهمة اتمام الاستقبال . ولم يشترك فى العشاء . وعندما ألقى كلمته المعدة من قبل ، لم يضف اليها شيئا من مداعباته المألوفة . بل أضاف اليها عبارة لا أعتقد انها من قبيل المداعبات . قال :

« لقد دعيتم الى هذا الحفل لا لأنكم أعظم فنانى بلادنا ، وان كان الذين أعدوا الاحتفال قد قدروا ذلك . »

وبعد انتهاء الكلمة لم يختلط بالمدعوين كما جرت العادة . بل توجه بسرعة الى مكتبه

وكان المهرجان يقترب من نهايته .

وساءلت نفسى بعد الجهد الكبير الذى بذلته : هل نجح المهرجان ؟ نعم لقد نجح ، وحضره عدد كبير من الفنانين والمفكرين من مختلف الاتجاهات وأثبت أن البيت الابيض ليس فى عزلة عما يجرى داخل الوطن من الافكار . لكن المهرجان لم ينجح فى ايجاد جسر بين المثقفين والجالس فى البيت الأبيض . على العكس . كان كل ما جرى بعد رسالة لوفيل وموقف الرئيس جونسون منها يضيف حجرا آخر الى الحائط الذى يعزل جونسون عن المثقفين . ولحسن الحظ أن كثيرا من التفاصيل لم يعرف . ولكن ما عرف منها كان كافيا لجعل الحائط سميكا يصعب اجتيازه ، كأنه ذلك الحائط من الأسمنت المسلح والأسلاك الشائكة الذى يفصل بين شرق برلين وغربها .

أمريكا والإنسان

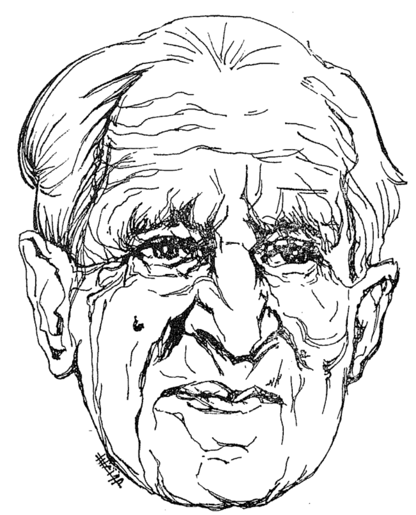
هربرت ماركيوز ...

والإنسان ذو البعد الواحد

أحمد السعدني

هربرت ماركيوز هو فيلسوف الشباب ، مع انه ليس شابا .. فهو فيلسوف تجاوز العقد السابع من العمر .. أى انه رجل متقدم فى السن ، وينتمى الى جيل يخالف فكره اختلافا جذريا عن فكر الجيل الراهن من الشباب .. كما انه لم يكتب عن الشباب بوجه خاص كقوة معينة ، لها تأثيرها الخاص على الفكر الانسانى ، أو الحضارة الانسانية . هذا بالرغم من أن فكره له علاقة وثيقة بحركات التمرد الطلابية الاخيرة فى أوروبا بوجه عام ، وفي فرنسا فى مايو عام ١٩٦٨ بوجه خاص .. وهذه العلاقة الوثيقة ، علاقة غير مباشرة في جوهرها ، وجعلت الصحافة تطلق على ماركيوز لقب الزعيم الروحى للشباب فى أوروبا . لكن هذه الالقاب التى اطلقت على هربرت ماركيوز ليست دقيقة الى حد كبير . فهؤلاء الشباب قد تأثروا بماركيوز . ولم يتأثر هو بهم .. انما تأثر بما تعانى منه الانسانية بوجه عام .. فماركيوز يؤمن بالانسانية ايمانا عميقا وشاملا ، يتجاوز مجرد الاهتمامات المحدودة القاصرة بفئات معينة من الناس ، دون غيرها .

وكما أن هؤلاء الشباب كانوا يبحثون عن ملجأ فكرى يهرعون اليه طلبا للخلاص من الازمة الفكرية التى تعانى منها الحضارة المعاصرة ، والانسانية بوجه عام .. كانوا يبحثون عن الانسانية فى الاعمال الفكرية ، وكانت اعمال ماركيوز وماوتسى تونج وتروتسكى وارنستو جيفارا ، هى الملاذ الوحيد الذى لجأ اليه هؤلاء الشباب بحثا عن الامل والخلاص لهم وللانسانية أى أنه يمكن القول بان هؤلاء الشباب « اكتشفوا » ماركيوز ، فيلسوفا يعبر عن آمالهم وعن واقعهم الممزق المهترىء ، ووجدوا فى سطور فلسفته قالبا فكريا يعبر عما يشعرون به من ضيق وسخط وتمرد . فبالرغم من أن ماركيوز ليس شابا ، بل رجلا متقدما فى السن ، ففى فكره حيوية وتدفق وشباب .. لقى استجابة تلقائية من جانب فئات من شباب أوروبا تريد الحياة، فلا تجد سوى زيف الحياة ، وتبحث عن الأمل ، فلا تصطدم الا بيأس عميق يظهر فى سطور الصحف وصفحاتها وهى تتحدث عن الموت والدمار . هؤلاء الشباب يبحثون عن الحقيقة ، ولا يجدون الا تزييفا لها .. واذا بهم يجدون شيئا من الحقيقة فى كتب هربرت ماركيوز ، فيؤمنون بها ويلوحون بها فى اجتماعاتهم ومظاهراتهم .. تماما كما يرفع شباب الحرس



ه . ماركيوز

الاحمر فى الصين نسخا حمراء من كتاب ((مقتطفات من أعمال ماوتسى تونج)) .

ليس فكرا متفائلا

وفكر هربرت ماركيوز ليس فكرا متفائلا .. وليس هذا لأن ماركيوز تشاؤمى النزعة بالطبيعة، ولكن الاحتمالات التى ((يتيحها واقع الفكر والحياة الانسانية ، لا تدعو الى كثير من التفاؤل . ان الأمس لم يكن احسن حالا من اليوم ... فالماضى كانت كله حروب ، وشهد مختلف مظاهر ظلم الانسان لأخيه الانسان . واليوم أصبحت الحياة الانسانية أسوأ مما كانت عليه بالامس ، والغد لا يعدنا الا بمزيد من هذا السوء . ومن المؤلم فى كل هذه الأمور أن الانسان هو الذى يخلق هذه الظروف لنفسه ، لكى يعانى منها هو ، وغيره من البشر . فمنجزات الانسانية فى القرن العشرين ليست هى مجرد توفير حياة أفضل بالات حديثة ورائعة ، مثل السيارة والطائرة والعقول الالكترونية ، بل تتمثل هذه المنجزات فيما خلقه الانسان من واقع حافل بالمآسى والظلم الانسانى . وبالطبع فان الغد لن يكون افضل من اليوم . فمن أين سيكون الخير فى عصر لا يخلق الا الشر : يؤمن به ويعتنقه وبهذا الاحساس ، وبهذه الرؤية يقدم لنا هربرت ماركيوز تحليلا لواقع الحياة فى المجتمع الصناعى .. وفى الولايات المتحدة بوجه خاص ، حيث تتحكم التكنولوجيا فى كل شىء .. فتتوفر للانسان حياة سهلة وملونة وجميلة . لكن ماركيوز يكشف لنا مأساة هذا الواقع فى كتابه ((**الانسان ذو البعد الواحد**)) One dimensional man — (**فى بيروت ترجمة لهذا الكتاب قدمها الكاتب اللبنانى جورج طرابيشى . وقد كتب مقدمة لهذا الكتاب تحدث فيها عن فكر هربرت ماركيوز وفلسفته . وصدر الكتاب عن دار الآدب ببيروت**) — تتحكم فى هذا الواقع سيطرة التكنولوجيا على المجتمع الصناعى ، بشكل جعل

الانســان هو العبد والتكنولوجيا هى الســيد القوى المتحكم . لدرجة ان التكنولوجيا جردت الانسان من انسانيته ، وجعلته لا يزيد عن كونه شيئا .. وأداة . وهنا تكمن مأساة الانسانية فى هذا العصر . ولن تختفى هذه المأساة الا بحدوث تغير اجتماعى على نطاق شامل . وان كان ماركيوز يرى ان احتمالات هذا التغير الاجتماعى ليست قائمة فى الوقت الراهن ، الا انه يؤمن بأن هناك أمل في حدوث هذا التغير . ولهذا يكتب هربرت ماركيوز نفس العبارة التى كتبها والتر بنجامين فى مستهل العصر الفاشى ((**ان الأمل لم يكتب لنا الا بسبب أولئك الذين هم بلا أمل**)) .

الانسان ذو البعد الواحد

الانسان هو النتاج الذى يفرزه المجتمع .. فاذا سيطرت التكنولوجيا على المجتمع ، فانها تسيطر بالتالى على كل افراده . واذا فرضت التكنولوجيــا فكرا ذا بعــد واحــد ، خاضعا لسيطرتها ولارادتها ، ومحققا لأهدافها وتطلعاتها ، فلن يملى الانسان أرادته ولن يحقق ما يصبو اليه من امال وأحلام . ومايحدث فى المجتمع الصناعى المتقدم والذى تسيطر عليه التكنولوجيا هو انه تبذل محاولة لاقناع الانسان بأن ماتفعله التكنولوجيا ، هو تحقيق لما يصبو اليه هو نفسه. فيرتبط الانسان بفكره وواقعه بما زيفته له هذه الاجهزة من زيف وأكاذيب . يرتبط الانسان بهذا الواقع ، ويعتقد أنه هو الذى خلقه ويجب عليه العمل على المحافظة عليه ، فى حين انه لا يحافظ الا على دوام ســيطرة التكنولوجيا عليــه وعلى حياته . بهذا يحافظ الانسان العامل على هذا الواقع وهو الذى يمثل أحد القوى الرئيسية التى تعلق عليها النظرية الماركســية الآمال فى القضاء على ظلم الانسان لأخيه الانســان .. وتحقيق التغير الاجتماعى والفكرى المنشود . ومن هنا أصبح من العسير تحقيق الثورة العالمية، وهذه الاستحالة ليست تعبيرا عن آراء هربرت ماركيوز ، بقدر ما هى تصوير واقعى وحقيقى لما يحدث الآن فعلا فى المجتمع الصناعى المتقدم . فماركيوز مفكر يسارى تقدمى ، يؤمن بالرفض كقيمة انسانية ســامية يجب ان تحقق للبشر حياة أفضل . وهذا التصوير عبارة عن محاولة منه للتعبير عن الحقيقة كما يراها هو من صميم حياته فى أوروبا وأمريكا . فقد ولد فى ألمانيا فى عام ١٨٩٨ حيث درس الفلسفة فى مدينتى برلين وفرايبورج ، ثم رحل من ألمانيا فى عام ١٩٣٣ للعمل فى معهد البحوث الاجتماعية في جنيف . وبعد ذلك هاجر الى الولايات المتحدة الامريكية حيث عمل استاذا للفلسفة فى جامعات كولومبيا وهارفارد وبرانديز وكاليفورنيا . وما زال يعيش فى الولايات المتحدة الامريكية حتى الآن . لهذا فان تصويره للحياة فى المجتمع الصناعى فى فترة ما بعد التكنولوجيا ، تصوير واقعى .. ومن ميدان المعركة ، اذا صح التعبير . كما أنه يرى ان كل المجتمعات الصناعية وخاصة فى البلدان الاوروبية فى طريقها الى ان تصبح مثل ((**مثلها الأعلى**)) الولايات المتحدة الامريكية . وبالتالى لن تنتج هذه المجتمعــات الا أفرادا على نمط ((**الانسان ذى البعد الواحد**)) الذى خلقه المجتمع ذو البعد الواحد . وهؤلاء لن يحاولوا تحقيق ما تصبو اليه النظرية الماركسنــية من تغيير اجتماعى ، ومن ثورة عالمية شاملة ، اذ هل من المعقول فى شيىء المطالبة بتغيير مجتمع صناعى يثبت يوميا قدرته على تنمية الانتاجية وتوفير الحياة الرغدة والرفاهية لاعضائه ؟

حقيقة المجتمع الصناعى

ومن هنا ينطلق هربرت ماركيوز الى الحديث عن حقيقة الأمــر .. أو بالاحــرى اكتشــاف الحقيقة . من هــذا المظهر الســطحى والزائف لحقيقة المجتمع الصناعى ، نكتشف زيف مايصوره هذا المجتمع من حقائق لا أساس لها ، وما يخلقه من رفاهية لا تكتسب الا على حساب الانسان. ويظهر هذا فى وصف ماركيوز للمجتمع الصناعى بأنه هو برمته مجتمع لا عقلانى لان تطور انتاجيته لا يؤدى الى تطور الحاجات والمواهب الانسانية تطورا حرا ، بل على العكس من ذلك تماما . فانتاجيته لا يمكن أن تســتمر فى التطور على الوتيرة الراهنة ، الا اذا قمعت تطور الحاجات والمواهب الانسانية وانطلاقها الحر ، شانها فى ذلك شأن الســـلم الذى يعيش فيه المجتمع المعاصر ، اذ ان هذا السلم غير متحقق الا بفضل شبح الحرب الشاملة ، التى تهدد بالاندلاع بصفة دائمة . ومن ناحية أخــرى فانه من الصعب التفرقة بين الظاهر والواقع وخاصة في المجتمع الصناعى المتقدم .. فهو مجتمع يتجه فيه جهاز الانتاج الذى خلقته التكنولوجيا الى ان يكون شموليا Totalitarian **، أى انه يتجاوز الاقتصار على أداء مهمة الانتاج وحدها ، بل ويقوم بمهام أخرى على مختلف مستويات الحياة المادية والفكرية ، وتحــديد أنشــطة الافــراد**

وتطلعاتهم فى المجتمع . وبعبارة اخرى فان هذا المجتمع يعمل على تحقيق التلاحم الاجتماعى الداخلى ، وبهذا فانه يعمل دائما على أن يحيل الانسان بصفة مستمرة الى ذاته .. حتى يرتبط بهذه الذات : يلبى رغباتها ويسير فى داخل نطاق سيطرتها .

هذا الأسلوب فى الحياة

وفى ظل هذا الواقع القائم فى الولايات المتحدة بشكل خاص يصبح الحديث عن الديمقراطية خرافة ، لا يقبلها عاقل .. حيث تصبح مجرد نظام مخادع ، ضحيته الشعب الذى يتعرض لمختلف انواع المظالم والسيطرة .. ولا يحدد هربرت ماركيوز من هو الذى يسيطر بشكل محدد انما يشير بوجه عام الى النظام التكنولوجى الكلى السائد فى المجتمع الصناعى المتقدم .. وعلى أية حال فان ماركيوز يؤكد ان السيطرة هى السمة المميزة لهذا المجتمع والمجتمعات التى تسير فى ركابه . ومن أبرز المعارفات ان الانسان يعتقد ان هذه النظم الديمقراطية ، التى تستعبده هى التى تحقق له حريته .. ومن ثم فانه يتشبث بها ويؤمن بمبادئها .. وهى نفس المبادىء التى تعمل دائما على السيطرة عليه . وحدث هذا لأن « الرفاهية » الكاذبة التى يتيحها المجتمع للفرد ، أصابت فكر الفرد بالفساد والعفن . وليس هناك دليل أوضح من تحقيق الانسان لذاته فى السلع التى يستهلكها .. ورؤية المرء لذاته فى سيارته، وفى جهاز التليفزيون الذى يشاهده .. وبهذه الطريقة فان انتشار المنتجات المادية فى المجتمع الصناعى الى عدد اكبر من الافراد ، يعنى أن الصيغة الايديولوجية التى تعبر عنها هذه المنتجات لا تصبح مجرد دعاية .. وانما **((أسلوبا فى الحياة))** واعتقد ان عبارة **((الاسلوب الامريكى فى الحياة))** كثيرا ما تتردد بشكل متكرر فى معظم افلام السينما التى تنتجها هوليوود . وهذه العبارة تدين المجتمع الامريكى أكثر مما تبرئه من اللاعقلانية المتهم بها .. ومن أنه مجتمع ذو بعد واحد . ويعترف هربرت ماركيوز بأن **((هذا الأسلوب فى الحياة))** أفضل من الأسلوب الذى الذى كان سائدا قبل ظهور الثورة الصناعية . ولكن ماركيوز يرفض فى نفس الوقت كلا الاسلوبين .. فكل أسلوب منهما لا يتيح الفرصة لتحقيق الرغبة فى الثورة .. وكل منهما يرفض **((التغيير** النوعى فى المجتمع **))** . وهذا الاسلوب ، أو الطريقة فى الحياة لا تجعل الانسان يزيد عن مجرد كونه عبدا لا أكثر ولا اقل . ويقول ماركيوز عن هذا النوع الجديد من العبودية : « ان عبيد الحضارة الصناعية المتقدمة هم عبيد راقون .. ولكنهم مازالوا عبيدا ، لأن العبودية لا تتحدد بمجرد الطاعة ، ولا تتحدد بالعمل الشاق الذى يقوم به الانسان ، انما تتحدد بوضع كون المرء مجرد اداة .. والحط من قدر الانسان حتى يصبح شيئا !! » .

حرية الانسان الجديد

واذا كانت الحرية هى امل الانسان للانطلاق والتقدم .. فان الحرية فى المجتمع الذى تسيطر عليه التكنولوجيا هى أداة مثالية للاستعباد ، وهى حرية مفروضة ، وتتحكم فيها قوى هذا المجتمع ورقاباته .. واذا كانت الحرية تعنى اتاحة الفرصة للانسان للاختيار ، فانه يختار ما يريد بالفعل . لكنه يختار أشياء محددة مفروضة عليه ، وليس بوسعه أن يختار غيرها .. والانتقاء الحر فيما بين السادة ، لن يلغى السادة والعبيد .. والاختيار الحر من بين مجموعة كبيرة من أنواع السلع والخدمات لا يعنى وجود الحرية ، اذا كانت تلك السلع والخدمات تحقق للمجتمع سيطرته على الافراد . وهذه الحرية التى يتشدق بها المجتمع الامريكى ما هى الا حرية زائفة ، لأنها لا تحقق سيادة الفرد ، بل تحقق استعباده . ومنطق المساواة فى هذا الاختيار منطق لا عقلانى ولا يمكن قبوله بأى حال من الاحوال .. ((فاذا كان العامل ورئيسه فى العمل يشاهدان نفس برامج التليفزيون ، ويترددان على نفس الاماكن، واذا استعملت السكرتيرة نفس أدوات الزينة التى تستخدمها ابنة صاحب العمل ، واذا كان الزنجى يمتلك سيارة من طراز ((كاديلاك)) واذا كانوا جميعا يقرءون نفس الصحيفة ، فان هذا التماثل اذن لا يشير الى تلاشى الطبقات ، ولكنه يشير على العكس الى مدى مساهمة الطبقات السائدة فى تحديد الحاجات والتنبيهات التى تضمن أستمرار السيادة لها . ((ان العقلانية التكنولوجية تكشف النقاب عن طابعها السياسى فى الوقت نفسه الذى تغدو فيه أعظم ناقل لأكمل سيطرة ، بخلقها عالما كلما استبداديا بكل ما فى الكلمة من معنى ، عالما يكون فيه المجتمع والطبيعة، الروح والجسد فى حالة استعداد وتعبئة دائمة للذود عن ذلك العالم نفسه .

وبهذا أصبح العالم السياسى منغلقا ..

وأصبح الموقف الثورى للطبقة العاملة فى ((المجتمع الوفرة والرفاهية)) ضعيفا ومتراخيا .. ولم تعد الطبقة العاملة تمثل ذلك النقض الحى للمجتمع القائم .. ومما يزيد الامور تعقيدا وجود تنظيم تكنولوجى للانتاج فى الجانب الآخر من الحاجز : جانب التنظيم والادارة ، فالسيطرة تلبس مظهرا اداريا . واصحاب راس المال يتركون وظائفهم كوكلاء مسئولين ويأخذون وجه البيروقراطى فى الجهاز الرأسمالى الكبير .. ونجد أمامنا تسلسلا هرميا كبيرا ، يختفى وراءه المستلفون الحقيقيون ، بدعوى التظاهر بالموضوعية العقلانية . وهكذا يسمى الضياع والحرمان بلا هدف يتوجهان اليه ، ويحجب القناع التكنولوجى كل مظاهر العبودية واللامساواة . وفى الواقع فان الانسان بالرغم من التقدم التكنولوجى خاضع لجهازه الانتاجى .. وخضوعه هذا يزداد مع ازدياد الحريات والرفاهية .



تزييف الفكر الانسانى

كان الفكر الحديث ضحية لنجاح هذا المجتمع ونظامه التكنولوجى .. فلم تعد المثل العليا التى كانت سائدة فى الماضى ، وكذلك عبادة الشخصية والاستقلال الذاتى ، والمذاهب الانسانية والحب الماساوى والرومانسى الا المثل الأعلى لعصر بائد . وأصبح التناحر والصراع بين الواقع الثقافى والواقع الاجتماعى آخذا فى التراخى .. ولا تتم تصفية الثقافة ((الثنائية البعد)) الا عن طريق دمجها بالنظام القائم ، وعن طريق اعادة انتاجها وتوزيعها على نطاق واسع .

وبالرغم من أدراك الناس وشعورهم بأن اعلانات الدعاية والبرامج السياسية ليست بالضرورة صحيحة أو صادقة ، الا أنهم عاكفون مع ذلك على الاستماع اليها وعلى قراءتها .. بل منقادون لها ولا يماءاتها .. كذلك فانهم يقبلون بالقيم التقليدية ويعتبرونها جزءا من عدتهم الفكرية . وفى الوقت الذى تخلط فيه وسائل الاتصال الجماهيرى بطريقة منسقة ومموهة فى غالب الاحيان ، بين الفن والسياسة والدين والفلسفة والتجارة ، فانها تعمد فى نفس الوقت الى أرجاع هذه المجالات الثقافية الى قاسم مشترك · الشكل السلعى للاشياء · ومثال ذلك أن موسيقى الروح هى أيضا موسيقى تجارية . ويبين هذا التشابه بين المثل الأعلى والواقع ،

المدى الذى تم فيه تجاوز المثل الأعلى . وهذا المثل لأعلى المنفصل عن المجال السامى للروح أو الفكر ، يتم التعبير عنه بألفاظ ومعادلات وظيفية functional وإذا كانت هذه الثقافه قد شوهت فهذا لأن المجتمع الصناعى المتقدم يملك الآن امكانية تجسيد مثلها الأعلى . وهكذا تصبح الثقافة الرفيعة جزءا لا يتجزأ من الثقافة المادية .. وتفقد بالتالى ، وبحكم تحولها الكثير من حقيقتها .

وهذا التزييف المتعمد للفكر ناشىء من أدراك هذا المجتمع لقيمة الفن والفكر ... فاى عمل فكرى ينطوى بالضرورة على العداء والمعارضة الشديدة للقمع والسيطرة .. لأن الفكر يمثل قوة العقل النقدية ، الثورية التى تتحرك دائما واتجاه ما يجب ان يكون ، لا فى اتجاه ما هو قائم فعلا . وهذه القوة هى بالضرورة قوة ايديولوجية .. الا أن حقيقة الأمر أن المجتمع ذا البعد الواحد قد احاط الايديولوجيا بالاحتقار والازدراء باسم عقلانية المجتمع التكنولوجى . لدرجة أنه حاول ان يمتصها ويوقف مالها من فعالية . واليوم فان تقدم المجتمع التكنولوجى فى سبيله الى الغاء هذه المسافة الجوهرية بين الفكر والفن ، وبين الواقع القائم فعلا . وهنا يقول هربرت ماركيوز : ان ((الرفض الاكبر قد اصبح مرفوضا)) .. وبهذا اندمجت الآثار والاعمال الفنية والأدبية التى توحى بوجود هذه المسافة ، وأصبحت تتداول فيه باعتبارها أجزاء من العدة التى تزخرف عالم الاعمال المسيطر ، وتحاله نفسيا . اصبح الفن أشبه بسلعة تجارية تباع بقروش وتشترى ملايين البشر فى كل مكان . ويدافع البعض عن هذا الاتجاه على أســـاس تشجيع الثقافةالجماهيرية .. بالرغم من أن أقرب تسمية الى هذا الاتجاه هى ((تزييف الفكر الانسانى)) .. واعتقد ان استخدام مقطوعات باخ وبيتهوفن كموسـيقى مريحـة للاعصاب فى المطبخ ، وبيع مؤلفات افلاطون وهيجل وبودلير وماركس وفرويد فى المحلات العامة ، من شأنه أن يحط من قدر أعمال هؤلاء الخالدين ، أكثر مما سيعمل على انتشار تداولها بين الناس . وبالرغم من هذا قد يحقق هذا الاتجاه مساواة ثقافية ، الا أنه يحمى فى المقام الأول الاتجاه نحو تحقيق سيطرة المجتمع على الانسان .

ويرى ماركيوز ان ما يسمى بالحرية الجنسية في المجتمع الصناعى المتقدم ، ما هو الا خدعة تخدم اغراض هذا المجتمع .. فهذه الحـرية أســوأ بكثير من المعتقدات الجامدة التى كانت سائدة فى الماضى عن الجنس .. لأن مثل هذه الحـرية المزعومة تؤدى الى الحد من الاشـــباع الغريزى أكثر من تطويره .. وبذا فهذه الحرية تحقق أهداف ((**الوضع القائم**)) فى السيطرة والتحكم فى البشر .. وبعبارة أخرى أصبح الحب آليا كواقع الحياة نفسها ، حتى تجرد الجنس من أهم سماته الجمالية والانسانية .. وأدى بالمرء الى فقدانه لا تم عناصره : وهى الراحة النفسية ، تلك الراحة التى يشعر بها الانسان وهو يمارس الحب فى احضان الطبيعة وعلى الاعشاب ووسط الجمال والحياة . ولن يشعر الانسان بشيء من هذا وهو يمارس الحب فى سيارة ، لاحساس المرء الدائم بالواقع الآلى أكثر من قدرته على الاحساس بسمو المشاعر الانسانية . فيصبح الجنس بهذا يمارس لذاته .. ولا يعود لمضمونه الانسانى والجمالى القدرة على تجاوز الجنسية الموضعية ، التى تصبح أكثر حدة عما كانت عليه . ومهما قيل من كلام كثير عن الحرية الجنسية فى المجتمع الصناعى المتقدم، فان هذا المجتمع لا يحقق هذه الحرية الا بقدر ما تصبح هذه الحرية قيمة تجارية تعود على المجتمع بمزيد من الربح والمال . ففى عـالم العمل يباح للجسم أن يعرض صفاته الجنسية، بدون أن يكف فى نفس الوقت عن كونه أداة عمل . وقد فرضت صناعة الدعاية والاعلان مقتضياتها .. فموظفـــات المكاتب الفاتنـــات والبائعات الحسناوات هن بضائع لها قيمة تجارية كبيرة .. تسهل الكثير من الاعمال ، وتزيل كثيرا من العقبات .

واذا ما قارنا دور الجنس فى الأدب الكلاسيكى القديم ، ودوره فى الأدب المعاصر لوجدنا أنه فى الحالة الأولى يتخذ شكلا مصعدا ومتساميا الى أبعد الحدود .. فيضيف بهذا الكثير على ما فى هذه الاعمال الأدبية من قيم انسانية . ونرى هذا في رواية «أنا كارنينا» لتولستوى و «فيدرا» لراسين « وأزهار الشر » لبودلير .. ونرى عكس ذلك في الأدب المعاصر من صور مثل شخصيات المدمنين فى مسرحيـــات يوجين أونيل ، وأبطال فوكنر الساخطين ، وشخصيات مسرحية تنيسى وليلمز « عربة اسمها اللذة » و « قطة فوق سطح صفيح ســاخن » ، ورواية فلاديمير نابوكوف الشهيرة « لوليتا » . ففى الأدب المعاصر يعلن الجنس عن نفسه بصورة أكثر واقعية ، وأعظم جراة واقل كبتا .. الا أن الجنس يبدو كعنصر

اساسى فى المجتمع الصناعى الذى يظهر فيه ، وليس نفيا له أو احتجاجا عليه .

الضمير السعيد .. وعالم الخداع

قال الكاتب الانجليزى موريس كرانستون فى مقال له عن هربرت ماركيوز فى مجلة انكاونتر البريطانية عدد مارس ١٩٦٩ ان ماركيوز لا يجد تعبيرا أفضل من عبارة هيجل الشهيرة ((**الضمير السعيد**)) للتعبير عن المرض الذى الذى يعانى منه أفراد الطبقة العاملة والبورجوازية فى محاولتهما للحفاظ على الأوضاع والمؤسسات القائمة . وهذا الضمير السعيد ليس سوى أحد أشكال خداع النفس محافظة منهم على مصالحهم الانانية القاصرة . ان الضمير السعيد — الذى يعتقد بأن الواقع عقلانى وبأن النظام التكنولوجى يلبى الحاجات — هو خير مثال على الامتثاليه الجديدة . وليست الامتثالية الجديدة الا السلوك الاجتماعى المتاثر بالعقلانيه التكنولوجيه . وهى جديدة لانها عقلانيه بدرجه لم يسبق لها مثيل . وهى دعامه مجتمع حد من عقلانية العصور السابقة البدائيه نسبيا ، مجتمع يطيل الحياه ويحسنها على نحو أكثر انتظاما عما كان عليه الحال فى الماضى .. وهذا فى وقت لم تنشب فيه الحرب الذرية بعد ، والرفاهية تسود المجتمع المتقدم فى الوقت الذى لم تعد فيه معسكرات الابادة النازية موجودة . والتعذيب أصبح مسالة عادية ،ولكن هذا فى الحرب الاستعمارية وعلى هامش العالم المتمدين . بيد ان هناك ايضا من يعيش بضمير سعيد : فالحرب هى الحرب . ولكنها حرب على الهامش هى الأخرى ، فهى لا تخرب غير البلدان ((**المتخلفة**)) . والضمير السعيد يحجب عن نفسه الصلة التى يمكن ان تكون قائمة بين هاتين الواقعتين : الحرب والازدهار . ان تعبير ((**الضمير السعيد**)) يقدم صورة واضحة لرؤية ماركيوز للتواطؤ القائم ما بين الانسان والقوى المسيطرة عليه والمتحكمة فيه . فالانسان يغفر لهذا المجتمع سيطرته عليه، واشتراكه معه فى هذا التواطؤ بسبب فعالية هذا المجتمع وانتاجيته .

ومن يقرأ مسرحيات بيكيت ويونسكو يشعر بعدم وجود اتصال انسانى حقيقى بين مختلف الشخصيات .. وهذا لأن كتاب مسرح العبث يعتقدون بأن اللغة لم تعد صالحة لتحقيق الاتصال الانسانى المنشود ، حيث أن عباراتها أصبحت خاوية من المعنى ، واذا عبرت عن شىء فانها لا تعبر الا عن واقع زائف .. بعيد عن الحقيقة . ويتفق هربرت ماركيوز مع هذا الرأى الى حد كبير ، حيث يرى أن وسائل الاتصال الجماهيرى فى المجتمع الصناعى المتقدم ، هى وسائل لتحقيق الاتصال بين الجهاز التكنولوجى فى المجتمع وأفراد هذا المجتمع .. لاقناعه باتجاهاته وأهدافه .. وهذه الوسائل فى نفس الوقت عبارة عن أدوات لفصل الانسان عن انسانيته وعن الحقيقة كقيمة مجردة . فنجد أن وكلاء الاعلان يصنعون عالم الخداع وعالم الاتصال الذى يترجم فيه السلوك ذو البعد الواحد .. وتصبح اللغة اليومية التى يستعملها الافراد العاديون لغة توحد أو توحيد ، تهدف معانيها الى أن تكون ذات دلالات وظيفية — دلالات لها اصداء سياسية تكون فى مجموعها البناء السياسى للمجتمع الصناعى المتقدم . ومن العبارات التى تستخدم : ((المشروع الحر)) و ((المبادرة الحرة)) .. و ((الانتخابات الحرة)) و ((الفرد الحر)) . وهكذا فان الواقعة التى لاحظناها من أن نمط الحرية السائد هو العبودية، ومن أن نمط المساواة السائد : هو اللا مساواة المفروضة فرضا ، لا يمكن التعبير عنها باللغة العادية بوجه عام . وانما يتم التعبير عنها باحداث تقليص فى اللغة حتى لا تعبر عن شىء سوى المعانى التى يفرضها هذا المجتمع ذو البعد الواحد . وما هو جديد نسبيا فى هذه العملية هو ان الرأى العام والخاص بات يقبل بصورة عامة بهذه شهادة على انفصال المجتمع على التناقضات التى الأكاذيب .. وان سيادة هذه اللغة وفاعليتها ينطوى عليها .. وعلى ان هذه التناقضات تتجدد تلقائيا بدون أن تفجر النظام الاجتماعى القائم .

فهذا الزيف نشهده فى سطور مجلة مثل مجلة ((تايم)) الامريكية الواسعة الانتشار .. فهذه السطور اذا قارناها بأعمال الفلاسفة الاغريق مثلا لتبين لنا ، على سبيل المثال ، أن هؤلاء الفلاسفة كانوا يعرفون المواطن بأنه رجل حر .. وكانوا يعنون بذلك انه يجب ان يكون حرا ، ولكن عندما تصف مجلة ((تايم)) المجتمع الامريكى بأنه مجتمع ديمقراطى فانها بهذا تعنى انه ديمقراطى فعلا ، ولا تعنى انه يجب أن يكون ديمقراطيا .. واذا كان المنطق اليونانى قد اتهم بأنه شكلى وعقيم ، فان منطق وسائل الاتصال الجماهيرية فى المجتمع الصناعى المتقدم منطق خادع .. يهدف الى خلق حقيقة زائفة ، والى

خلق اتصال بين العقول : بين عقل المجتمع وعقل الفرد · وهذا الفرد الامتثالى Homo conforms ليس غبيا .. فهو لا تخدعه محاولات الآخرين، وانما هو يخدع نفسه . ومن هنا يتبين لنا حجم مأساته .

الفكر ذو البعد الواحد

ما تزال سيطرة الانسان على أخيه الانسان تمثل فى الواقع الاجتماعى ، وبالرغم من كل تغير، استمرارا تاريخيا ، وما تزال هناك رابطة بين العقل قبل التكنولوجى والعقل التكنولوجى . بيد أن المجتمع الذى يضع الخطط ويعمل بالفعل على تحويل الطبيعة عن طريق التكنولوجيا يغير المبادىء الأساسية للسيطرة . فالتبعية الشخصية (تبعية العبد للسيد .. والخادم لصاحب القصر ، والوالى للملك) يحل محلها شيئا فشيئا نوع آخر من التبعية : التبعية التى تخضع المرء لـ « نظام الاشياء الموضوعى » (القوانين الاقتصادية .. السوق) . وبالرغم من أن نظام الأشياء الموضوعى من صنع السيطرة ونتائجها هو الآخر ، فان السيطرة تعتمد الآن على درجة أكبر من العقلانية .. عقلانية مجتمع يدافع عن بنائه الهرمى ،ويستغل فى نفس الوقت الموارد الطبيعية والفكرية ويوزع على نطاق كبير وباستمرار أرباح هذا الاستغلال .

وفى ظل هذا الواقع يتوجه المجتمع دائما نحو خلق فكر ذى بعد واحد ، ولغة ذات بعد واحد وتطلعات ذات بعد واحد ، تؤدى فى النهاية الى تحقيق خلق انسان ذى بعد واحد . ويستند كل البناء الفكرى والفلسفى للمجتمع ذى البعد الواحد على أسطورة : أسطورة حياد التكنولوجيا . وقد اتسم ما يسمى بالحياد التكنولوجى بسمة العصر كله ، وفكر العصر كله . وهذه السمة هى منطق السيطرة والرقابة ، الا انها سيطرة مفروضة من الداخل . والتكنولوجيا هى بالتعريف علم تحويل الأشياء (اشياء الطبيعة) الى أدوات يمكن التحكم فيها ، والسيطرة عليها من أجل استغلالها لتحقيق أهداف اجتماعية وحضارية .. ومن هنا يمكننا القول بأن التكنولوجيا تلعب دورا تقدميا يخدم الانسانية . ولكن عندما أصبحت التكنولوجيا وسيلة مجتمع صناعى متقدم للسيطرة على الانسان ، فانها اصبحت عقبة فى سبيل تحقيق حرية الفرد .. فليس هناك انسان يطمح بأن يعيش فى رفاهية مقابل التضحية بحريته .. وذلك بأن يتحول من انسان الى أداة .. أو شيء .

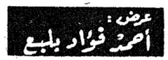
الأمل فى تحقيق التغيير

ولا يستبعد ماركيوز من هذه الصورة القاتمة الاحساس بالأمل .. فمن يشعر بمعاناة الانسانية وأهدافها وتطلعاتها ، يشعر بالأمل دائما مهما كان خافتا وضعيفا . هذا بالرغم من تأكيد ماركيوز بأن النضال الذى يهدف الى تحقيق التغيير أصبح أصعب مما كان عليه من قبل . فلا يمكن استخدام الوسائل التقليدية للرفض والاحتجاج للنجاح فى تحقيق هذا التغيير . ان الشعب الذى يجب ان يحقق ما يصبو اليه المجتمع من تغيير أصبح الآن أداة وخميرة التلاحم الاجتماعى . فالانسان « ذو البعد الواحد » هو الذى يحافظ على الوضع القائم وان يعمل على تغييره .. اذ ان تغييره يتعارض مع مصلحته الخاصة . لكن ماركيوز يعلق الآمال فى هدم هذا النظام المتحجر المتعفن ، الذى يشبه الاخطبوط ، على أيدى القوى التى عجز هذا المجتمع حتى الآن عن دمجها به : وهى قوى المنبوذين على مختلف أنواعهم واللامنتمين والعاطلين عن العمل والطبقات المستغلة ، والملونين ممن يتعرضون لمختلف أنواع المظالم والاضطهاد . هذه القوى سوف توجه الضربات الى هذا المجتمع الصناعى من الخارج .. ومن هنا كان عجزه عن دمجها به .. انها قوة بدائية تخرق قوانين اللعبة .. مظهرة بالتالى أنها لعبة زائفة · واصرارها على عدم لعب اللعبة بعد الآن هو اليوم حقيقة واقعة تشير على الارجح الى نهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى .

ويتفق هربرت ماركيوز فى رؤياه هذه مع سارتر والمفكرين اليساريين الآخرين الذين يعلقون الآمال على ظهور طبقة جديدة من « البروليتاريا الجديدة» من من بين الاجناس الملونة ، من ضحايا الاستعمار الجديد ، حتى يقوموا بالمهمة التاريخية التى عجزت الطبقات العاملة فى الغرب عن القيام بها . وقد شهد هربرت ماركيوز جزءا من رؤياه وهى تتحقق بظهور جماعات كبيرة من الطلاب تؤمن بمبادئه فى جميع أنحاء أوروبا . منذ مايو عام ١٩٦٨ . هذه المجموعات ليست من البروليتاريا ، ولكن يمكن ان يطلق عليها اسم « الصفوة élite » .. فهل سيتحقق أمل ماركيوز فى التغيير ؟ ان أمل هربرت ماركيوز فى تحقيق التغيير أمل ضعيف .. ولكن من الصعب الاجابة على مثل هذه التساؤلات فى عالمنا الذى نعيش فيه الآن .. وسوف نرى .

احمد السعدنى

هربرت ماركيوز .... ونظرية نقد المجتمع



لقد أصبح الناقد الاجتماعى شخصية شعبية تماما فى الغرب ، منذ الحرب العالمية الثانية • ويمكننا بسهولة تفسير هذا التهافت المتزايد على النظريات النقــدية للمجتمــع حيثما اتخـذت تناقضات التطور الاجتماعى طابعـا ظاهريا حادا يدركه الرأى العام •

وتعد مثل هذه النظريات اليوم نوعا من المعالم (أو المقـاييس التى تسجل التغيرات فى الرأى العــام) يسجل القدرة على النقــد الذاتى التى يكشف عنهــا التفـكير الاجتماعى داخل الاطار الاجتماعى لرأسمالية اليــوم • ان مستوى النقد الذاتى ، الذى يمكن أن يرتفــع اليه التفـكير الاجتماعى، يعد مؤشرا لوجود أو غياب الامكانيات الداخلية لتطوره • ومع ذلك ففى أى تحليل علمى للنقــد الذاتى النظرى ، لا يكون أهم الامور هو المستوى النقدى الذاتى ، ولاأفكار ونوايا واضعى مختلف النظريات ، بل ما اذا كانت مفــاهيمهم نقــدية فى محتــواها الموضــوعى وفى دلالتها الاجتماعية الموضوعية •

وتلك الأجابة ذات أهمية كبــيرة للمفـــاهيم الاجتماعية النقدية المتعددة الذائعة الانتشار فى الولايات المتــحدة وأوربا الغربية ، والمتغــايرة الخواص على أعلى درجة • فهى تختلف فى جوانبها السـياسية والايديولوجية والميثودولوجية ، وتتطلب موقفا وتقويما متمــايزين بحزم • وتعد مفاهيم هربرت ماركيوز، وهو فيلسوف اجتماعى اكتسب مؤخرا شعبية واســعة النطاق ، نمطا نوعيا من النظرية الاجتماعية ــ النقدية •

واستنادا الى هــذه المفــاهيم ، تتميز نظرية ماركيوز فيما يتعلق بالبــلاد المتقدمة صناعيا ، وعلى رأسها الولايات المتحدة ، (اعترف ماركيوز

نفسه بأن نظريته قد انبثقت من مشاهداته لتطور ذلك البلد) ، باتجاه الى ظهور ظرف اجتماعى خاص ، أسماه ظرف « الأحادية البعد » الاجتماعية .

ويلعب النموذج النظرى « للمجتمع الأحادى البعد » دورا هائلا فى مفهوم ماركيوز ، فهو يرى فى «الأحادية البعد» الاساس الرئيسى للاتجاه النقدى للتنظيم الاجتماعى . وفى مجال الانتاج يرى ماركيوز «أحادية بعد» فى اندماج الوحدات والحلقات الصناعية المختلفة فى **كائن مفرد** ، تخضع كل أجزائه خضوعا حازما لبعضها البعض . ونتيجة لذلك ففى رأيه أن «الكلية» عامل حاسم بالنسبة للمناخ الاجتماعى بأسره . وهو يعنى بالكلية اقامة نظام شامل ومتكامل ، ومضبوط بصورة رشيدة ، للمؤسسات الصناعية والادارية والتعليمية التى يؤثر كل منها فى الآخر ، أى نظام للتفاعل الوظيفى الشامل لكل عناصر الحياة الاجتماعية . ان الوحدة الكلية التكنولوجية الاقتصادية الادارية ، كما يصفها ماركيوز ، تستمر فى « أحادية بعد » الواقع الاجتماعى ــ السياسى . ففى السياسة تخفى التمايزات الخارجية بين الأجزاء الاساسية وحدة داخلية ، تتعارض مع التحول الى قوة قادرة على المحافظة على التوازن وتكرار الانتاج الذاتى للنظام القائم . ومع تتبع منطق الجدل هذا ينكر ماركيوز كل التطلعات الثورية والامكانيات الثورية للطبقة العاملة بالبلاد الرأسمالية المتقدمة . وهو من ناحية الجوهر يحول دور الطبقة العاملة وتنظيماتها الى أداء وظائف « مجموعة ضاغطة » يزعم أنها لا تشجع سوى تهدئة التناقضات الاجتماعية الداخلية ، واستعادة التوازن فى نظام بيروقراطية احتكار الدولة .

ويرى ماركيوز أن المقدرة على مقاومة القوى والتغيرات الاجتماعية المخربة ، وعلى المحافظة على الاستمرار والاستقرار ، أى المقدرة على احتواء التغيير الاجتماعى ، هى القسمة الرئيسية «للمجتمع الأحادى البعد» . وفى رأيه أن مجتمع اليوم يتمتع باندماج لم يسبق له مثيل بين الفرد والوجود الاجتماعى والسياسى بأسره . ولم يعد ذلك «تكيفا» بسيطا وبراجماتيا للوسط الاجتماعى باعتباره واقعا خارجا عن الفرد ، وانما هو تطابق فعلى بين المجتمع والفرد ، و « غرس » للمعايير والمؤسسات الاجتماعية فيه بطريقة غير واعية ، وتحولها الى بعد داخلى لشخصيته . ويرى ماركيوز فى ذلك واحدا من أقوى الاتجاهات التى تعمل تلقائيا بصورة مطلقة ، وتصوغ الرجل « الأحادى البعد » فى تطابق حازم مع المجتمع « الأحادى البعد » .

ويقتنع ماركيوز بأن الخطر الرئيسى على البشرية يشكله التفكير « الأحادى البعد » فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية ، الذى كثيرا ما يتصور هذا الظرف متمتعا بمزايا واضحة بالنسبة للظروف الاجتماعية السابقة له تاريخيا ، بل ويرى فيه أحيانا تجسيدا للمثل التى طورتها البشرية فى مسيرة كثير من البلاد . وهو يحاول عندما يشرح هذه الحقيقة أن يسجل كل «مزايا» المستوى الراهن للحياة الاجتماعية كما تحققت من خلال التطور السريع للعلم والتكنولوجيا . ويرى أن من المحاسن التى تعزى الى المجتمع الذى ينقده أنه زاد من ثروة المجتمع ككل زيادة هائلة ، وأنه وسع وعمق سيطرته على الطبيعة ، ووفر له تنظيما رشيدا للانتاج والادارة ، كما وفر نتيجة لذلك مستوى ماديا لرفاهية جماهير الشعب ، واستهلاكا أعلى بكثير مما كان فى الماضى . ويسفر

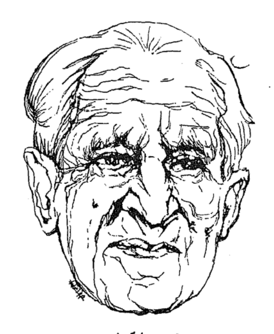
كل ذلك عن انسان ذى نظرة استهلاكية «سعيدة»، ويرى ماركيوز أن تلك النظرة (الاعتقاد بأن هدف النظام القائم هو انتاج وتوفير القيم المادية) تعبر عن المسايرة الاجتماعية وتؤدى الى نشوئها . ويقول ان من الأمثلة النموذجية على ذلك الوعى الشكل النوعى لتبرير الموقف المساير . وبطبيعة الحال فان النظام الصارم لتحديد الحياة وسلوك الفرد يمكن أن يحرم الانسان من الحرية ومن امكانية تقرير المصير ، بيد أنه يجادل بصفة عامة على النحو التالى : « ليس هناك من سبب للاصرار على تقرير المصير اذا كانت الحياة الموجهة حياة مريحة ، بل وحياة طيبة . وهذا هو الأساس الرشيد والمادى من أجل توحيد المتناقضات ، ومن أجل سلوك سياسى أحادى البعد . » (**الانسان الأحادى البعد** One-Dimensional Man ص ٤٩) .

وطبقا لمفهوم ماركيوز فان الرأى السائد فى المجتمع « الأحادى البعد » يتمسك بأن المصلحة المشتركة لكل أعضاء المجتمع الراهن تنحصر فى الدفاع عن **الوضع الراهن** ، وتدعيم النظام الاجتماعى الراهن ، والوصول الى حد الكمال ، والنضال ضد الحلول البديلة التى تهدد ذلك النظام ، كما تنحصر فى المحافظة والوضعية . ومن الأفكار السائدة أيضا أن القوى المرشدة للتنظيم والادارة هى وحدها التى تعمل فى ذلك المجتمع ، وأن العلاقات بين الطبقات ، والمجموعات، والأفراد ، تقوم على أسس معقولة ووطيدة ، أى أن مجتمع « الانسان الأحادى الجانب » فى مجموعه يبدأ فى الظهور على أنه « تجسيد للعقل » .

ويقول ماركيوز انه فى وعى « سعيد » ومساير نجد خاصية داخلية جديدة للحياة الاجتماعية ، **مع واقع اجتماعى جديد يبدو تلقائيا وآليا .** ومع ذلك يؤكد أنه لا ينبغى أن يغيب عن الذهن أن مثل هذا الواقع هو فى حد ذاته نتاج للادارة والتنظيم **المتعمدين** ، ونتيجة لا « للنظام الموضوعى للأشياء » فقط ، وانما لممارسة تخطط بعناية وتتحقق على نطاق واسع للمعالجة الايديولوجية لوعى الناس ومشاعرهم ، وكذلك لممارسة تحولهم الى الجماعية ، وتربيتهم بروح الأنماط والقيم « المعيارية » و « المقبولة على النطاق العام .» وعلى خلاف كتاب من أمثال د . بل ، س . ليبست ، ممن يرون أن المجتمع الأمريكى الراهن يقوم دليلا على « نهاية الايديولوجية » ، يدرك ماركيوز أن الايديولوجية توجد لا فى صورة المفاهيم الموجهة نحو اعادة بناء اجتماعى رئيسى ، وانما أيضا فى قدرة نظام معقد للمبادىء الايديولوجية ، والنماذج النمطية ، والرموز ، والقيم الروحية المصممة لمواءمة أعضاء المجتمع مع العلاقات الاجتماعية القائمة والنظام القائم للأشياء . وهو يولى اهتماما خاصا للحقيقة الواضحة ، وهى أنه فى الولايات المتحدة اليوم يحظى ذلك النوع من الممارسة **الايديولوجية** ، التى تجد تعبيرا عنها فى أنشطة وسائل الاعلام الجماهيرية القوية ، والمؤسسات التربوية ، وما شابه ، بقبول على نطاق واسع .

ويعتقد ماركيوز أن التناقض الأساسى لعصرنا ينحصر فيما يلى : فمن ناحية يتطور المجتمع فى ادارة الأشياء والناس « بمعقولية » داخلية كامنة فيه ولا يمكن القضاء عليها ، وهى معقولية تجد أبرز تجسيد لها فى « أحادية البعد » . وعلى خلاف محبذى المجتمع الصناعى ، يرى ماركيوز أن « أحادية البعد » العقلانية سمة مميزة سلبية للمجتمع الراهن . ومع ذلك يمضى من الناحية الأخرى قائلا ان الأمر الأكثر أهمية هو أن « هذا المجتمع لا عقلى فى مجموعه . ان انتاجيته مدمرة للتطور الحر للاحتياجات والقدرات البشرية ، ويصان سلمه بالتهديد المستمر باشعال الحرب ، ويتوقف نموه على قهر الامكانيات الحقيقية لتهدئة الصراع من أجل البقاء ــ فرديا ، وقوميا ، ودوليا . » ويتساءل ماركيوز قائلا ما الذى يترتب على الاشراف المباشر للتصريح القهرى الذى يفسح الطريق أمام السيطرة الادارية والايديولوجية والسيكلوجية ، وعلى طابع العمل المتغير ، وعلى ارتفاع معين يصبح ملموسا فى مستويات المعيشة ؟ ان مجتمع اليوم تسوده قوى لا يمارس الفرد أى اشراف عليها . فما الذى يترتب على عجز أغلبية الناس فى ذلك المجتمع « الأحادى البعد » عن ادراك تلك التبعية ؟ « ان رقيق المدنية الصناعية المتطورة رقيق يحظى بالتمجيد ، بيد أنه رقيق . » (المرجع نفسه ، ص ٣٢)

ويمضى ماركيوز قائلا انه فى المجتمع الراهن المتقدم صناعيا بالولايات المتحدة وأوربا الغربية يسير نمو « النظام العقلانى » جنبا الى جنب مع « الاسترقاق التقدمى للانسان بوساطة الجهاز الانتاجى .. » (المرجع نفسه ، ص ١٤٤) ، مما يسفر عن تدمير حياة أولئك الناس الذين يخلقون وسائل الانتاج ويستعملونها . وهكذا فان المجتمع الرأسمالى الراهن ، الذى يسلم ماركس بضخامة منجزاته ، يظفر فى مفهومه



هـ . ماركيوز

بتقدير سلبي **معبرا عنه بصورة متميزة** ، ومرجع ذلك أساسا الى أن تطور ذلك المجتمع يشوه ارادة الفرد وقدراته ، ويحكم عليه بالتحول الى رقيق لا ريب فيه ، وان كان مغلفا ومموها ومقنعا .

وبسبب كل ذلك فان التوازن بين «الزوائد» و «النواقص» ، فى مجتمع يميزه ماركيوز نفسه بأنه مجتمع « أحادى البعد » ، يبدو له توازنا **سلبيا** ، وهو يصل علاوة على ذلك الى نتيجة مفادها أن **مثل هذا المجتمع ينبغي تدميره بطريقة ثورية** ، واحلاله بمجتمع جديد من حيث المبدأ . ومع ذلك فهل مفهوم ماركيوز حقيقة مفهوم راديكالى ونقدى بهذا القدر ، من حيث مضمونه، ومن حيث محتوياته الموضوعية ؟ سنحاول فى هذا المقال تقديم اجابة على هذا السؤال ، وعلى هذا السؤال وحده .

وهدف هذا المقال هو المساعدة على تبديد الأوهام الموجودة اليوم فى عقول كثير من المثقفين الغربيين الذين يتوقون الى الاسهام فى الأنشطة الثورية ، ويقبلون ما يبدو فى راديكالية ماركيوز ونظرياته من طابع ثورى على علاته . وينبغي أن يوضع فى الاعتبار أن ما تنصب عليه مزاعم ماركيوز ليس مجرد دور خبير فى الشئون العامة يعبر عن مزاج تلقائي لاحتجاج راديكالى ، وانما **دور المنظم الذى يقال انه يخلق نظاما لنظرة عالمية أصيلة وثورية ، دور الفيلسوف الذى يقال انه اكتشف وصاغ المبادىء الميثودولوجية لتفكير نقدى ثورى متسق** . وعند القيام بمثل هذا الدور ، يحاول أن يمارس ، وهو يمارس حقيقة، تأثيرا معينا على وعى قسم معين من الشباب الطلبة والانتلجنسيا فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية . وهذا هو السبب فى أن الاجابة على سؤال ما اذا كانت نظرية ماركيوز « نظرية نقدية » ، هى أنها فى الحقيقة نظرية متسقة تتطلب تحليلا للبنيان المنطقى الداخلى لمفهومه النظرى ، وللمبادىء الفلسفية والميثودولوجية لتفكيره ، ولميكانيزم الرؤيا الاجتماعية التى تكمن خلف المخططات والأساليب الايديولوجية للحجج التى يستخدمها .

•

ومنذ أن أعلن ماركيوز أن رسالته هى أن يثير فى عقول الشباب نزعة الى التفكير الثورى والنقدى ، اعتبر الوعى « الأحادى الجانب » ، والتبريرى بصورة صريحة مباشرة ، خصمه الرئيسى . وجدير بالذكر أن الحياة الروحية « الأحادية البعد » للبلاد الرأسمالية المتقدمة ، التى دقق ماركيوز فى وصفها ، ونقدها بعنف ، تعد اتجاها واقعيا يتصل بتطوير وتدعيم الدور الذى تلعبه بيروقراطية احتكار الدولة . وقد

أوضح ماركيوز أن الثقافة الراهنة في الولايات المتحدة في أيدى البيروقراطية ، وأنها أداة « للمسايرة الاجتماعية » وللتأثير في الشعب ، وأنها أصبحت ذائبة في الدعاية الجماهيرية ، وتحولت الى أحد مجالات الاعمال التى تخضع لمنطق حسابات دوائر الاعمال ، أو للمهام العملية « للادارة الكلية » • وبسبب ذلك يضل الناس السبيل ، وينسون ما هم عليه من حرمان من الحرية ، كما يظهر ما يسمى وعى المستهلك « السعيد » • وفى هذه الحالة ، كما يقول ماركيوز ، تصبح الثقافة «أحادية البعد» أيضا ، بمعنى « أنها تكف عن أن تكون بعدا نقديا بالمقارنة بالواقع القائم » • وحتى تلك الاعمال الادبية والفنية التى يبدو أنها تدعو الى فكرة السلوك المتسم ببعض الخروج على النظام القائم (مثل أفلام قطاع الطرق أو الادب الوجودى) ، فانها تعد فى نهاية الامر « تأكيدا ، لا نفيا ، للنظام القائم » • (المرجع نفسه ، ص ٥٩) •

ومجال المعرفة الاجتماعية عند ماركيوز يصبح على نحو متزايد أداة للمسايرة والبيروقراطية • وتصبح هذه المعرفة فى أساسها معرفة بوقائع مثل وقائع الوظائف الفردية والوضع الفردى ، وليس معرفة بالاساليب التى تضعها البورجوازية، ولا بأهداف التقدم الاجتماعى ، وهى معرفة ستاتيكية وغير تاريخية • أى تتسم بكل أعراض التفكير الأحادى البعد » • ومثل هذه المعرفة لا تناسب سوى الترشيد الوظيفى للعمليات المختلفة فى الجهاز البيروقراطى ، وهى تخفى اللامعقولية العاملة « الجوهرية » للحياة الاجتماعية •ولذايدعو ماركيوز الوضعية والاجرائية والوظيفية « الأحادية الجانب » الشكل النظرى العقلانى لنظام لا عقلى » • كما أن العلم اجتماعى الموجود الآن فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية يعد أيضا غير مقبول فى رأى ماركيوز ، « بسبب طابعه التطبيقى التبريرى والتوفيقى والبرجماتى » (المرجع نفسه ، ص ٨ ، ٩ ، ١٧ ، ٧٩ ، ١٠٧ ، ومواضع أخرى) •

وكما نرى فان النقد الذى وجهه ماركيوز الى الاشكال الراهنة للمعرفة الاجتماعية الملموسة فى البلاد الرأسمالية يعد نقدا شديد البراعة • ومع ذلك يشوبه عيب كبير ، هو التقدير والفهم «الأحاديا البعد» للعمليات الشديدة التناقض التى تحدث فى مجال العلوم الاجتماعية •

فهل صحيح أن علم الاقتصاد، وعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعى ، التى تستخدم أساليب الاستقصاء التجريبى ، كثيرا ما تخدم فى هذه الظروف التاريخية الملموسة (نظام البيروقراطية الاحتكارية) الأهداف الفردية والعملية ، والنفعية بصورة براجماتية ، للتنظيم الاجتماعى السائد ؟ نعم ، هذا صحيح • وهل صحيح أنه قد ظهرت فى هذه الظروف نفسها فجوة خطرة واغتراب متبادل للتفكير النقدى الاجتماعى ــ الفلسفى الموجه نحو تقاليد لا انسانية ونحو الأبحاث الاجتماعية الملموسة ؟ نعم ، هذا صحيح • ولكن هل بوسع المرء أن يطابق بين المنطق الداخلى والمتناقض الملازم لتطور الدراسات الاجتماعية ، وبين تلك الوظيفة الواقعية والتاريخية والايديولوجية التى تكتسبها مثل هذه الدراسات فى التركيب الاجتماعى المعطى ، أى فى ظروف تدعيم بيروقراطية احتكار الدولة ، فى ظل تأثير هدف اجتماعى طبقى محدد ؟ وهل بامكان المرء ببساطة أن يلغى المخططات والمناهج العلمية فى انتقاء المادة الحقيقية التمثيلية فيما يتعلق بأوضاع وميكانيزمات وظواهر ملموسة معينة فى وعى الشعب ، وذلك لمجرد أن مثل هذه المخططات والمناهج يستخدمها «مفتشو المصانع» والرسميون و « المهندسون الاجتماعيون » للأغراض التى صاغتها البيروقراطية ؟ كلا ان ذلك غير ممكن •

ان ماركس ولينين ، اللذين قدما أمثلة كلاسيكية للنظرية النقدية الثورية ، قد دمجا ووحدا بين التفسير الفلسفى وتطور تقاليد التفكير الانسانى ، والبحث العلمى والتاريخى ، فى العمليات والظواهر الواقعية المتناقضة الأكثر تنوعا، التى تؤثر فى طرح وحل مشكلة الانسان• وقد اكتسبت التقاليد الثقافية لمذهبيهما دلالة خاصة اليوم ، فى عصر التعقيد البالغ لنظام العلاقات الاجتماعية ، وزيادة سرعة العملية الاجتماعية ، والحركات الاجتماعية الجماهيرية ، حيث تزداد حاجة البشرية الى اتخاذ قرارات مسئولة تقوم على أساس علمى ، والى التدعيم العلمى لنظام للتوجيه الاجتماعى للمجتمع وللشخصية ، تندمج فيه البرامج الطويلة الأمد للتجديد النوعى لنظام العلاقات الاجتماعية بأسره مع المعرفة التفصيلية والأكثر تدقيقا للميكانيزمات المتنوعة التى تعمل اليوم بالفعل ، ومع معرفة الامكانيات الموضوعية والاطار الموضوعى للممارسة الاجتماعية فى مكان معطى وفترة زمنية محددة •

ان تشويه علم الاجتماع باعتباره نمطا من أنماط المعرفة العلمية ، فى أعين تلك الاقسام من المجتمع التى برزت تدافع عن مثل الانسانية

والديمقراطية ، تعد احدى النتائج الايديولوجية للتطور النوعى الأحادى الجانب للدراسات العلمية الاجتماعية فى الغرب • وفى هذا الوضع تكتسب النظريات الاجتماعية ـ النقدية شعبية كبيرة ، وهى نظريات فى جوهرها نوع من رد الفعل «الأحادى البعد» لزيادة نشاط الاشكال المغتربة للبحث الاجتماعى • ويؤدى الموقف الأحادى الجانب ، والسلبى تماما ، من ازاء مناهج العلم الاجتماعى الراهن وتطبيقاته العملية الى نتائج خطيرة للغاية • ويعد مفهوم ماركيوز مثلا معبرا عن هذه الحقيقة • ومن المعروف أن النظريات الاجتماعية النقدية تقوم على وصف المجتمع الذى هو هدف ذلك النقد ، وصف علاقات وميكانيزمات السلوك الانسانى ، وهيكل دور الفرد ، ودوافعه وخبراته وما شابه ، وكلها نموذج لذلك المجتمع • فاذا رفض المنظر من حيث المبدأ ، عند وصفه للمجتمع، مناهج وأساليب البحث العلمى والاجتماعى ، فغالبا ما يضطر الى الارتكاز على أفكاره الذاتية ، أو على الافكار التى توجد فى الوعى اليومى وتقدم نفسها له كحقائق واضحة معينة •

وقد رفض ماركيوز استخدام الادوات التى يسرها البحث العلمى ، والتى باستطاعتها الى حد ما مساعدته على تنويع مثل هذه الافكار وتقديمها بصورة موضوعية • وقد يحدث أن الافكار التى يراها الناقد كسمة مميزة ملائمة للوضع الراهن فى المجتمع الراهن ، تكون فى الواقع مشبعة بأوهام فتشية (تقديسية) ، وتعد أشكالا مقلوبة للوعى ، وتحمل طابع تأثير وجهات النظر الايديولوجية ، والنماذج النمطية ، وأطر العقل ، والأوهام ، تعد نموذجا للتفكير المساير الذى يرفضه النقد الاجتماعى •

ولنصور هذا الفكر بالتراكيب النظرية التى وضعها ماركيوز • كان ماركيوز مشغولا بطابع التأثير الذى يمارسه الانتاج الصناعى الراهن والتكنولوجيا الراهنة على الانسان والمجتمع ، وهو التأثير الذى يعتبره المصدر الرئيسى «لأحادية البعد» المسايرة للوعى وللأشكال البيروقراطية غير الانسانية للتنظيم الاجتماعى • وهنا يقبل ماركيوز المسلمة الأولية للتفكير « العلمى » التبريرى الذى يوجد فى مخططات روستو وغيره من المدافعين عن نظرية «المجتمع الصناعى» ، التى تعبر كما هو معروف بشكل عام (لماركيوز أيضا) عن مصالح بيروقراطية احتكار الدولة • وعند نقد ماركيوز لهذه النظرية باعتبارها مظهرا نموذجيا للتفكير «الأحادى البعد» و « الوظيفى التقنى » ، فانه فى الحقيقة يستعير من و•روستو ، وغيره من الرسميين والخبراء المماثلين الذين يضعون أنفسهم فى خدمة الجهاز البيروقراطى •

ومع ذلك فان التبرير الواعى أو غير الواعى للبيروقراطية كثيرا ما يصدر اليوم عن المخططات المنطقية للحتمية التكنولوجية : فهى تعتبر النزعة البيروقراطية نتيجة وشرطا ضروريين للتطور الفعال والرشيد للانتاج الصناعى الراهن والاقتصاد فى مجموعه • فبيروقراطية احتكار الدولة ، كما هو معروف، تدرك وتعكس أنشطتها الخاصة وتنظيمها الخاص أولا وقبل كل شىء فى مفاهيم ومصطلحات الكفاية الاقتصادية التقنية• وهى تفرض تلك النظرة التقويمية الداخلية على الدراسات الاجتماعية باعتبارها اطارا مقيدا ومرشدا لتطوراتها •

والتفكير الذى يوائم بين نفسه وبين التنظيم البيروقراطى للمجتمع هو فى رأى رجل العلم والرجل «الأحادى البعد» على حد سواء مجرد رمز للرفاهية المادية والكفاية الاقتصادية • بيد أن ماركيوز نفسه لا يخالف ذلك ، فهو يعرب بوضوح عن ازدرائه للتفكير الأحادى البعد • وهو ينظر الى الروابط والصلات بين رفاهية الانسان المادية والاشكال البيروقراطية وغير الانسانية للتنظيم الاجتماعى والتكنولوجيا الحديثة باعتبارها سلسلة من العوامل المعتمدة على بعضها البعض•

وقد درس ماركس هذه الروابط فى المجلد الثالث من «**رأس المال**» ، وأوضح الازدواج الداخلى الذى يميز أشكال ادارة الانتاج الذى يسير جماعيا ، ولكنه يتم فى ظروف الرأسمالية• كما أوضح أن تنظيم الادارة فى هذه الظروف لا يخضع للمطالب الموضوعية للسلوك اللازم للانتاج الصناعى الحديث وحدها ، بل يخضع أيضا للمصالح الطبقية للفئات الاجتماعية السائدة اقتصاديا ، أى أن هذا التنظيم يفرض سيطرته على الأشياء وعلى الناس معا • ان اختيار البدائل فى عملية التحكم ، اختيار معايير الكفاية الادارية، يتوقف على نظام القيم السائدة التى تعكس فى نهاية الامر الهيكل الاجتماعى ـ الطبقى الموضوعى والنمط المشروط تاريخيا لحضارة مجتمع معطى •

ويقبل ماركيوز عن ايمان ، بل ويحول الى احدى المسلمات الاساسية للتفكير « النقدى » ، فكرة تعد سمة مميزة لنظرية «المجتمع الصناعى المفرد» ، المصاغة من حيث الجوهر فى اطار تلك النظرية • وتعالج تلك الفكرة عدم أية فروق جوهرية بين رأسمالية اليوم والاشتراكية (انظر حديث ماركيوز الصحفى مع مراسل جريدة **لوموند** الفرنسية فى ١١ مايو ١٩٦٨) ، ولها وظيفة

محددة فى الصراع الايديولوجي الراهن ، تهبط فى وعى الرجل العادى بمكانة طبيعة الملكية الخاصة للعلاقات الرأسمالية ، وتشوه المحتوى الأصيل للاشتراكية العلمية لماركس ولينين • وليس من قبيل المصادفة ، فى مفهوم ماركيوز ، أن فكرة « المجتمع الراهن » كثيرا ما تتم المطابقة بينها وبين فكرة « المجتمع الصناعى المتقدم » وهو ما استعاره أيضا بصورة غير نقدية من نظريات و•روستو ورايموند آرون وغيرهما) ، على حين لا يكون الموقف من وسائل الانتاج ومن الملكية متضمنا فى السمات الأساسية للمجتمع • وعندما يعطى ماركيوز سمة مميزة معممة للتنظيم الاقتصادى للمجتمع الراهن، فانهعلى غرار المدافعين عن نظرية « المجتمع الصناعى » ينظر الى الأنشطة الصناعية والادارية داخل المشروع الصناعى الحالى على أنه نموذج أولى للتنظيم الذى ينجز فيه تحول الوظائف ، والحلقات المختلفة الى الجماعية داخل نظام مفرد ، مضبوط بصورة عقلانية ، لتقسيم العمل وتبادل الأنشطة • وبذا تكون الأسس السياسية الاقتصادية والسمات المميزة لذلك التنظيم مغفلة تماما ، وهو ما يعد أيضا صورة نموذجية للتفكير البورجوازى التبريرى •

ان البحث الاجتماعى الموجه بيروقراطيا قد ركز اهتمامه على مشكلات الناس « وسيرهم جماعيا » على ضوء الاحتياجات الوظيفية لتلك الادارة ، وعلى دراسة المعالم والخواص المحددة للفرد التى يتعلق بها سير ميكانيزمات المسايرة • ان كل الخواص والميكانيزمات التى تتناقض مع هذه الأهداف ، أو التى لا تتمشى معها، اما أنها لمتصبح موضوعا لبحث فنى ، أو أصبحت تعد مظاهر قصور وأعراضا «للسلوك غير المساير » • وقد انصب التركيز على التحكم فى الوعى واخضاعه للسيطرة• وكان لهذا التركيز دلالة **ايديولوجية** بصورة متميزة ، كما كان مؤشرا يرمز الى نظام محدد لدراسة وتفسير وتقويم الانسان وصفاته وخصائصه الاجتماعية • وكان هذا النظام هو الذى نظر اليه ماركيوز ، ومعه كل الحق فى ذلك ، على أنه «أحادى البعد» ، ينتقص كثيرا من التناقضات الفعلية ومن الازدواج فىطبيعة المجتمع الرأسمالى •

وفى الوقت نفسه يقبل ماركس عن ايمان الصورة « الأحادية البعد » للمجتمع الراهن ولوضع الانسان فيه ؛ وهو يتفق مع الفكرة الواسعة الانتشار القائلة بأنه لا يكون سائدا فى هذا المجتمع سوى اتجاه واحد نحو المسايرة تام القدرة والشمول ، وبأن الوعى يصبح بصورة متزايدة خارج نطاق السيطرة • وجدير بالذكر أن الدراسات الاجتماعية فى الغرب ، المتصلة تاريخيا بالاعلان التجارى على النطاق الجماهيرى ، قد ركزت اهتمامها الرئيسى على شخصية الانسان كمستهلك وبائع ، وعلى دراسة الميكانيزمات التى تشجع **الشراء والاستهلاك** ، وعلى امكانية التحكم فى الدافع البشرى نحو الاستهلاك ، وفى تنشيط هذا الدافع ، وايجاد أثر نفسى محدد نتيجة لاشباعه •

وهذه الأشكال البراجماتية ـ النفعية النوعية للنظرة الى مشكلات الاستهلاك من جانب الهيئات التى تخصص الأموال للبحث ، ثم من جانب الباحثين ، كانت تبرر ايديولوجيا بالاشارة الى نمو سلع الاستهلاك التى تنتج على نطاق كبير ، والى الضرورة الاقتصادية للمحافظة على معدلات نمو صناعى عاليه ، وما شابه • وقد كان الاهتمام الأحادى بالتوقعات والعادات الاستهلاكية للفرد يتصل داخليا بنوع خاص من الموقف الايديولوجى من انسان اليوم ، وبأشكال « أحادية البعد » ايديولوجيا لرؤية وتفسير جوهر ذلك الانسان •

ان ماركيوز ، الذى تشكل حقائق تطور سيكلوجية المستهلك وموقف المستهلك تجاه الحياة شاغلا كبيرا له ، قد أدرك فى الوقت نفسه ، بروح نقدية ، هذه الأنواع « الأحادية البعد » من وجهات النظر • وقد قبل بصورة جدية للغاية الايديولوجية « المتفائلة » المرضية ذاتيا للاعلان التجارى على النطاق الجماهيرى • وأسفر ذلك عن سيادة نظريته بفكرة « أحادية البعد » وللمجتمع الصناعى المتقدم الذى يوجد اليوم ، باعتباره يتحول الى مجتمع «استهلاكى»• وهناك ظهرت صورة ناقصة الجوانب أحادية البعد أحادية الجانب للفرد باعتباره نموذجا لذلك المجتمع ـ أعنى الانسان الاستهلاكى ، الذى يتمتع أيضا بوعى راهن ، أو حتى بوعى « سعيد » •

ومن الناحية الجوهرية ظلت مشكلة مصادر الفقر ، والتباينات الاجتماعية الحادة فى مستويات المعيشة ، فى بلاد الرأسمالية المتطورة ، خارج نطاق رؤيا « التفكير النقدى » عند ماركيوز ، وكذلك الحال بالنسبة لديالكتيك المتطلبات المتصلة بالتطور الروحى للفرد • وكذلك تفسر بطريقة أحادية البعد الحقائق الجلية فى سخط الناس على مستوى الاستهلاك الذى لا يدل دائما على موقف استهلاكى ضيق ازاء العالم ، وكثيرا



ما تتحكم فى هـذه الحقائق المطـالب الضرورية والعادلة للجماهير العـاملة ، وهى المطالب التى لابد من الاهتمـام بهـا ، من النـاحيتين العملية والنظرية ، فى أى برنامج للنزعات الانسانية ٠

ان نظريـة التحليل البنيانى الوظيفى ، التى ظهرت فى الولايات المتحدة ، وكذلك ممارسـة البحث على أساس تلك النظرية ، تستخدم كنموذج عملى ، نموذج « قيمة ـ معيـارى » للمجتمع ، يكون المجتمع طبقا له **نظاما للقيم والمعايير الأكثر قبولا وبروزا** ٠ وقد صمم هذا النموذج من دراسة المجتمع ككيان متكامل ، الا أنه كيـان من نـوع خاص ، كيان ينظر اليه قبـل كل شىء من خلال منشور الضوء المتمثل فى الميكانيزمات التى تعمل من أجل الابقاء على استقراره الداخلى والنسبى ٠

وقد وضع هذا النموذج فى الحقيقة فى «بعد» **واحـد محـدد** ، وكان عـاجزا عن أن يحيـط

بالديالكتيك الداخلي للكائن والوعي الاجتماعيين، أو أن يفسر الأساس الدنيوي الممزق من داخله للمجتمع كسمة مميزة لتطوره تظهر بوضوح شديد في المجتمع ذي المصالح المتعارضة • ان التركيز الأحادي الجانب على ميكانيزمات التكامل الايديولوجي ، والذي كان لا بد لتسجيله من استخدام نموذج وظيفي معياري ، قد ازداد قوة نتيجة للأشكال السائدة للرؤيا الاجتماعية عن طريق تنظيم وظيفي رشيد للاجهزة الادارية ، وعن طريق استخدام العواطف والرغبات البشرية •

ويدين ماركيوز هذا « المجموع الكلي الأحادي البعد » الذي يعد مناقضا للتطور الحر للشخصية البشرية ، وللطاقات والمبادرات الفردية • وهو يسمي ذلك شكلا مقنعا للعبودية • ومع ذلك لم يكن في ادراكه للمجتمع المحيط به قادرا على التغلب على «أحادية البعد » الايديولوجية التي تعد أيضا سمة مميزة للتفكير الوظيفي التبريري الأحادي الجانب • بيد أن ماركيوز ، على خلاف التبريريين المباشرين ، يضع علامة سالبة في مواجهة تلك السمة الأحادية الجانب • وعلى الرغم من أنه قد أعلن نفسه نتاجا للفسلفة الكلاسيكية الألمانية ، وأنه قد برز داعيا الى الانتقال من أسلوب في التفكير وضعي تماما الى تفكير ديالكتيكي ، لا يفهم جوهر الديالكتيك بوصفه أساسا للنقد الثوري • ويمكن للمرء أن يطبق عليه السمة المميزة الملائمة التي أعطاها ماركس لبرودون : عند تفسيره لهيجل لم يذهب الى أبعد من النفي البسيط •

والنقد في مفهوم ماركيوز تقويمي من الزاوية الانفعالية ، وهو منبت الصلة بالواقع المتناقض المتعدد الأبعاد ؛ وهو يغفل التطور الداخلي للعلم الاجتماعي وللبحث السسيولوجي والتاريخي والاقتصادي ــ السيكلوجي المنتظم في العمليات والروابط الاجتماعية المتنوعة لعصرنا • وهو عاجز عن التكامل في نظرية ، وعن أن يفهم من وجهة نظر الديالكتيك العلاقة الفعلية للاتجاهات المختلفة والمتناقضة في مجال الانتاج المادي الراهن ، وفي مجال تنظيمه الاجتماعي ، وفي الهيكل الاجتماعي والطبقي ، ووعي الناس وسلوكهم ؛ انه عاجز عن أن يكشف وأن يقوم بدقة فعالة الاتجاهات الفعلية التي تعد اليوم (أو يمكن أن تصبح في الغد) أساسا ووسيطا مغذيا للحركات السياسية العملية التي تحقق بدائل فعلية ، لا أوهاما ، في التاريخ المعاصر •

وتعد مفاهيم ماركيوز تصويرا للقسمات النموذجية في وعي هو نقدي في تطلعاته الذاتية ، يفشل في اعادة تقويم المقدسات الزائفة التي تميز الوعي الايديولوجي السائد في المجتمع الذي يرفضه • ويتقبل ماركيوز نموذجاخاليا من التناقضات الديالكتيكية الموضوعية ، ويتصور أنه صورة للحقيقة ، ثم لا يلبث أن يهاجم هذا النموذج هجوما عنيفا ، ويصفه بأنه نموذج مثالي للمجتمع ثم **تبسيطه** عن طريق الوعي الأحادي البعد • ان النظرة الأحادية البعد الى واقع اليوم ، والى اتجاه تطوره، تجعل ماركيوز عاجزا عن رؤية الانتقال من الفعلي الى المرغوب فيه • **ويعني هذا أن المرغوب فيه لا يعتبر سوى نفي ميكانيكي وكامل للفعلي •**

ويعتبر ماركيوز نفسه اشتراكيا ، بيد أن القارىء يعجز عن أن يجد في كتاباته أي عرض منتظم ، أو عرض يقوم عليه دليل منطقي، لبرنامج للتحولات الاشتراكية • ان السمات المميزة للمثل الاشتراكي في كتاباته سمات غامضة وغير محددة ، وهي تقدم بصفة عامة على أنها **مستوى أنثروبولوجي مجرد** • ان الاقتصاد السياسي ، أو التنظيم البنياني لمشكلات الاشتراكية ، يعد من حيث الجوهر اما غير مطروح على الاطلاق ، أو يدفع به الى الخلفية • ويقال الكثير عن « التغير الاساسي في اتجاه النقد التقني » ، «واعادة البناء الكامل للجهاز التقني » ، والقضاء على المعقولية التقنية ، وما شابه • ولا ينكر ماركيوز أن الاشتراكية تتطلب مستويا عاليا من التطور التكنولوجي ولكنه لا يعرف فيما يختلف ذلك التطور عن العملية التي تحدث اليوم ، التي يرمز لها عادة بفكرة «الثورة العلمية والتكنولوجية» • وهو يسلم أيضا بعجزه عن الاجابة عما اذا كانت الامكانيات والاتجاهات الداخلية للانتاج المعاصر الضروري تمهد الطريق للانتقال الى الاشتراكية•

ويدرك ماركيوز ، ولهذا الأمر أهميته ، ان المفاهيم العامة المتعلقة بالتغييرات الاجتماعية الاساسية لا بد أن تقوم على أساس من التحليل العلمي لاتجاهات التطور الاجتماعي الموجودة الآن بالفعل ، والتي تنشأ في اطار عصرنا الحاضر ، والتي تمهد الطريق لتلك التغيرات • وهو على حق تماما في قوله : « ان المعايير ينبغي أن تشير الى الحالة التي يدرك فيها مشروع تاريخي امكانيات معطاة ــ لا امكانيات شكلية ، وانما تلك التي تتضمن أساليب الوجود البشري » • (المرجع نفسه ، ص ٢١٩) ومع ذلك فان هذه الفكرة الصحيحة لا تلقى منه الا اعترافا لفظيا ،

وهى تكتب باستمرار بوساطة عادات التفكير «الاحادى البعد»، والميتافيزيقى انطوباوى تاريخيا. ومن ناحية الجوهر لا يستطيع ماركيوز سوى أن يلجأ الى مثل هذه المفاهيم التقويمية مثل «الحرية» و « الجمال » و « السعادة » وما شابه . وهو يدرك فى الوقت نفسه بصورة جزئية الطابع الطوباوى للتجريد المصاحب لهذه التعبيرات العامة وانفصالها عن التحليل الاجتماعى العلمى والجدلى حقا . وهو يعترف دون أى أسف بأن الاشتراكية هى مرة أخرى فكرة مجردة .

ويحلم ماركيوز بالثورة الاجتماعية والاشتراكية ، ولكنه فى الوقت نفسه يعترف (ويقدم اعترافه هذا فى اشكال مختلفة . فى كل كتاباته الرئيسية الاخيرة) بأنه لا يرى فى عالم اليوم قوى اشتراكية استطاعت أن تكون أدوات لتحول جذرى ، واشتراكى بصورة أصيلة، للمجتمع . كتب فى عام ١٩٦٦ يقول : « ان النظرية الاشتراكية ، مهما كانت صحتها ، لا تستطيع أن تقرر الادوات المقبلة للتحول التاريخى ، ولا أن تتنبأ بهذه الادوات » . (**الانسانية الاشتراكية** ، نيويورك ، ص ١١٧) .

والحقيقة أن ماركيوز يعتبر أن القوى الاساسية اليوم ، التى كانت تعارض بوضوح شديد رأسمالية اليوم التضامنية ، هى من ناحية تلك القوى التى تعرف «بانتلجنسيا الطبقة الوسطى»، وبخاصة الطلبة ، ومن ناحية أخرى الاقليات المقهورة من السكان : المجموعات الاجتماعية والأقليات العرقية التى تشكل الاعماق الدنيا من المجتمع البورجوازى . وبينما يحيى ماركيوز العصيان الاجتماعى لهذه المجموعات ، يعترف (وذلك أمر ينبغى التأكيد عليه) أولا بأنها أقلية من السكان ، وبأنه ليست بينها مجموعة يمكن أن توفر «الاساس البشرى» للعملية الاجتماعية فى الانتاج الحالى . ومن ثم يستخلص أن قوى المعارضة هذه ، فى حد ذاتها ، لا يمكن أن تعتبر أدوات تاريخية للتغيير الاجتماعى . (انظر نص رسالته الى ندوة اليونسكو فى مايو ١٩٦٨) . وفى رأى ماركيوز أن حركة الطلبة ، واضطرابات الأقليات المضطهدة ، يمكن فى أفضل الاحوال أن تسفر عن تحلل المجتمع القائم .

وعلى الرغم من أن ماركيوز، فى حديثه الصحفى مع مراسل جريدة **لوموند** فى ١١ مايو ١٩٦٨ ، قد أنكر بشدة أن يكون «انهزاميا» ، فان نظريته الاجتماعية ـ النقدية ، **لا يمكن بأية طريقة ، اذا تكلمنا موضوعيا ، أن تثير الثقة والأمل فى النصر فى قلوب وعقول الناس الذين يعملون بنشاط من أجل اقامة مجتمع انسانى بطريقة ثورية ، ومن أجل تحقيق مثل الديمقراطية الانسانية والانسانية الاشتراكية** . ولا توفر هذه النظرية جوهريا الاطار لتجسيد علمى لافاق التحولات الاجتماعية الراديكالية ، وهو الاطار الذى يترتب عليه أن تتحول هذه الآفاق الى خيال . وليس من قبيل الصدفة أن يختم ماركيوز كتابه الرئيسى بالكلمات التالية : «ان النظرية النقدية للمجتمع، لا تملك أية مفاهيم يمكن أن تصل الفجوة بين الحاضر ومستقبله ، فهى لا تحمل أية وعود ولا تظهر أى نجاح ، انها تظل سلبية . وهكذا فهى تريد أن تبقى مخلصة لأولئك الذين وهبوا ، دون أمل ، ومازالوا يهبون ، حياتهم للرفض العظيم». (**الانسان الأحادى البعد** ، ص ٢٥٧) .

وهو اذ يفضل نفسه عن الاساليب المباشرة للدفاع عن النظام الرأسمالى ، وفى الوقت نفسه يردد صراحة عدم ايمانه بانتصار القوى التقدمية فى الصراع ضد ذلك النظام ، يثبط من عزيمة أولئك المشتركين فيه حقيقة . انهربرت ماركيوز يقود نظريته موضوعيا الى نتيجتها المنطقية تماما. فالتفكير الذى يزعم أنه قوة نقدية ثورية لا يسفر سوى عن مجرد أسلوب رومانسى بصورة ساذجة، أو عن تعبير تأملى عن الخواطر لا جدوى منه .

ولا يوجد للرفض النظرى للمجتمع الرأسمالى المعاصر ، فى نظرية ماركيوز ، أى سند نظرى فلسفى ـ ميثودولوجى أو أساس علمى . ومن الناحية الجوهرية لا تتحقق أعلى درجات النقد الا فى تسجيل الاحاسيس والمشاعر المريضة للوعى العام غير المتطور لمجموعة الناس المعارضين لبيروقراطية احتكار الدولة . وقد أعطى ماركيوز طابعا نظريا لهذه العملية التلقائية التى هى فى مجالات كثيرة عملية فوضوية فردية . فاذا أغفل المرء الادانة « التقويمية » للرأسمالية فى مذهب ماركيوز ، فما يتبقى هو تصوير للمجتمع الرأسمالى يردد نماذج نمطية متكررة للتبرير الايديولوجى الراهن ، ويعد « وضعية مصاغة فى صورة نقدية » ، « وضعية فى الاتجاه المضاد » . وفى مفهوم ماركيوز **يحارب التفكير الأحادى البعد نفسه بنفسه** ، كما يتم انكار الرأسمالية على أساس الوعى التقديسى البورجوازى الراهن .

عن مقال بقلم ى. زيموشكين ، ن.متروشيلوفا، فى مجلة « العلوم الاجتماعية اليوم » ، التى تصدرها أكاديمية العلوم السوفييتية .

جينزبرج ... أمريكى له قلب بوذى

عبد الحميد فرحات

● قلت للطبيب : اريد أن اتحرر من كل شىء .. من ملابس ورباط عنقى .. واريد أن افعل ما اشاء .. !!

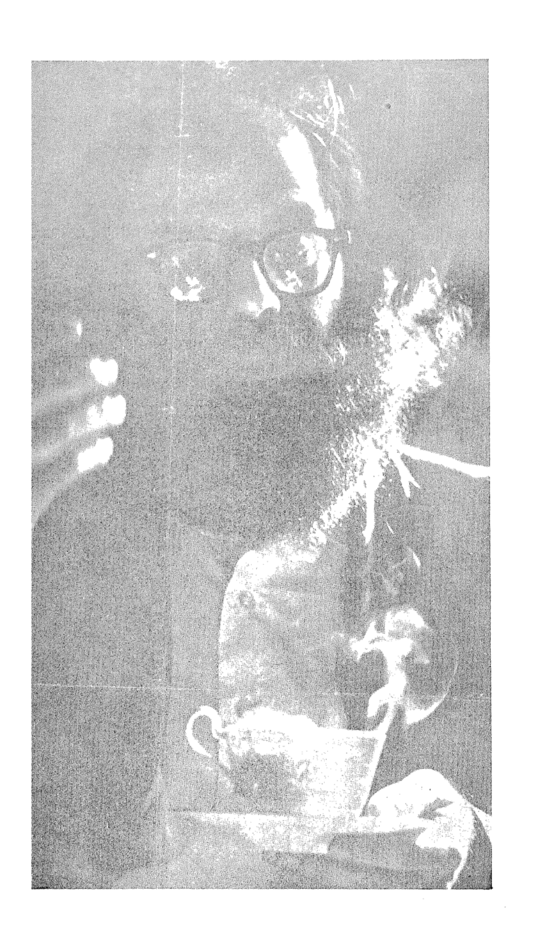
● الحنان هو الغذاء وهو الكساء .. وبدونه نصبح عرايا النفوس والابدان .. !!

● القتلى يا اماه .. أصحاب الأجساد الصفراء النحيلة .. ماذا نقول لهم يا اماه .. حين يسألنا الرب عنهم .. !!

● فى قطار يتحرك من كيوتو الى طوكيو تكشفت لى حقيقة طيبة .. فانا أعيش فى جسد لابد أن يموت .. !!

قد يبدو الشاعر الأمريكى المعروف « اللن جينزبرج من خلال نظرة سريعة عابرة ظاهرة شاذة ومتناقضة وسط حضارة أمريكا التى تسحق بقوة المادة والعلم كل ما يقف فى طريقها ، غير أنه يبدو فى الوقت نفسه من خلال نظرة فاحصة انسانا معقولا ومتسقا مع ظروف حياته الخاصة ، ومع المبادىء الانسانية التى يدين بها ، ومع الرسالة العظيمة التى وهب نفسه لها ، فلكى نعرف حقيقة جينزبرج الانسان والشاعر يجب الكشف عما فى حياته من أحداث فريدة تركت بصماتها الواضحة على فكر جينزبرج وسلوكه .

وحياة جينزبرج فى جملتها تشبه الى حد بعيد ذلك العالم السرى المثير الذى تعيش فيه شخصيات شكسبير .. عالم الرؤى المسحورة والأشباح التى تلهم الانسان حلولا للمشاكل التى تعذبه . وهى تشبه أيضا حياة فيلسوف الدانمرك الحزين دائما المعذب دائما « سيرن كيركجور » .. الحياة المثقلة بالألم والندم والخطيئة والسعى الدائم الى التكفير .



كان مولده فى أسرة عرف كل أفرادها بغرابة التصرفات والسلوك ، وعرفوا أيضا بميولهم الالحادية رغم يهوديتهم الرسمية • وكان والده مدرسا فوضويا يحسن قول الشعر ، أما أمه فهى امرأة موفورة الجمال شديدة الشذوذ • وكان الشىء الوحيد الذى يجمع بل أجيال عائلة جينزبرج هو اصابتهم جميعا فى سن الشباب بالامراض النفسية ، ولقد شاهد الفتى بنفسه أمه الجميلة تتعذب بالشيزوفرانيا، وبكى طويلا عندما أخذوها الى احدى المصحات العقلية حيث عاشت آخر عمرها . ويبدو أن جينزبرج قد أخذ عن أمه حساسيتها الشديدة خاصة بالنسبة لآلام وعذابات الفقراء •

ومن المؤكد أن جزءا كبيرا من تصرفات جينزبرج الغريبة يمكن ان تفسر فى اطار البيت الذى ولد فيه •• البيت الذى لا يعرف التزامات دينية أو اجتماعيه •• والذى يجمع بين كل أفراده حساسية شديدة تصل فى معظم الحالات الى مستويات مرضية •

ومن ثم ، كان طبيعيا جدا أن يبدو الطالب الملسن جينزبرج الملتحق حديثا بجامعة كولومبيا سنة ١٩٤٣ عريب الطباع والأطوار بالنسبة لزملائه •• وكان جينزبرج فى هذا الوقت شديد الاحساس بنفسه ، وفى نفس الوقت شديد الاحساس بمشاكل زملائه الطلاب• غير أن سلوك الطالب الشاب قد حير ادارة الجامعة ، فقد تخطى من ناحيته مرحلة الاحساس الى مرحلة العمل • ولذا ، أخذ الفتى يقيم الندوات الشعرية يطالب بحقوق التلاميذ ويطالب بمزيد من المعونات المادية التى تقدمها الحكومة لهم • ولقد أطلق عليه زملاؤه فى هذه الفترة اسم « النبى الشاعر » ، وكان نبى جامعة كولومبيا يخرج فى كل يوم بعد انتهاء الدراسة ليبحث عن عمل يتكسب منه •• ولقد عمل هذا الانسان الحساس فى أعمال كثيرة مرهقة ومتواضعة •• من ذلك العمل كبواب ليلى للمتاجر الصغيرة •• وشيال بمحطات الأوتوبيس •• وجرسونا يغسل الصحون فى مطاعم الفقراء• ومن المؤكد أن ممارسة مثل هذه الأعمال البسيطة قد أكسبت شاعرنا معرفة وثيقة بالطبقات الفقيرة الممارسة لهذه الحرف ، وأنها كانت لديه طاقة أطل من خلالها على الواقع المثير للحياة الأمريكية الصاخبة •

وعلى الرغم من هذا كله ، كان من الممكن أن يكون جينزبرج انسانا عاديا جدا ، بل أن يكون نموذجا للأمريكى الرأسمالى الذى يبدأ من الصفر الى المليون ، بل أن يكون أكثر من هذا وريثا شرعيا لكل مافى التراث الأمريكى النفسى والخلقى من رذائل • ومن ثم يرى التفاوت الطبقى الشديد أمرا طبيعيا ، ويرى العدوان على فيتنام أمرا مطلوبا ، ويرى فى قوة المال كل شىء • كان من الممكن أن يكون جينزبرج هذا كله لولا أن عاملين هامين قد غيرا مجرى حياته : العامل الأول — هو هذه الحساسية النادرة تجاه كل ماهو انسانى ، والتى زادت بدون شك بسبب أمراضه النفسية، ومعاناته الفقر الشديد • والعامل الثانى — هو رحلته الى بلاد الشرق وخاصة الى الهند واليابان، واطلاعه خلال هذه الرحلة على فلسفات الشرق الروحية ، ومقارنتها بما فى وطنه من فلسفات •

فبفضل العامل الأول أدرك جينزبرج الحساس جوهر المجتمع الامريكى ، وأدرك الفرق المذهل بين باطن أمريكا وبين مظهرها • فلا شك أن المجتمع الامريكى يعانى تناقضا مثيرا بين الأصل والصورة ، بين الخارج والداخل ، بين الجوهر والعرض • بل ان أمريكا هى البلد الوحيد فى العالم التى تصيب من يزورها لأول مرة بالدوار العقلى ، فالاطار الخارجى للحياة الأمريكية شىء لا يصدقه عقل • فامريكا من الخارج ضخمة للغاية ، أضخم من كل تصور ، والى درجه يشعر من يراها للمرة الأولى بالضآلة الشديدة • غير أن شاعرنا الشاب بما زودته به حساسيته من مقدرة على « الغوص » حتى قاع الحضارة الأمريكية استطاع أن يرى الحقيقة •• أن يرى حضارة مادية قامت على حساب حضارة انسانية •• وقوة عدوان هائلة قامت على حساب امكانية سلام ضخمة •• وجملة من المتناقضات المثيرة يجمعها الى بعضها اطار براق وشفاف • وعندما عرف جينزبرج الحقيقة تعذب كثيرا ، ولم يجد لديه غير الكلمات الصادقة دواء لعلة النفس والوطن • فاذا كانت كل فلسفة كيركجور تكفيرا عن خطيئة أبيه حين عارض السماء ذات يوم فى سهول جتلقد ، فان كل أشعار جينزبرج وتأملاته تكفير عن خطايا وطنه أمريكا •• خطايا ارتكبتها وترتكبها فى كل لحظة وفى كل شبر فوق الأرض •

وأمريكا عند جينزبرج هى بلد العقلاء جدا العاقل بالمجنون والمجنون بالعاقل حتى يتعذر على وبلد المجانين جدا ، أو هى البلد التى يختلط فيها العاقل بالمجنون والمجنون بالعاقل حتى يتعذر على المرء أن يفرق بينهما • ومن ثم فالحياة الأمريكية فى نظره «معرضا شاملا للجنون غير الرسمى» ،

ولابد لمن يعيش فى أمريكا أن يعيش داخل هـذا المعرض ويتجول فيه • وأمام هذه الحقيقة خطر لشاعرنا القيام بتجربة غامضة ومثيرة تشبه كل مافى وطنه من غموض واثارة ، فقد سأل نفسه : ماذا يفعل العاقل حين يجد نفسه فى مجتمع كل أفراده من المجانين ؟ • وأجاب نفسه : كى ينقذ مثل هذا الرجل نفسه لابد من التظاهر بالجنون • ثم ترجم جينزبرج هذه الاجابة عمليا بان طلب ادخاله الى احدى المصحات العقلية كى يعالج من ســوداويه أليمه تمسك به دائما •• لقـد كان جينزبرج هنا مثل « علماء الطبيعة » فى مسرحية دورينمات المعروفه •• يحتمى بالجنون من سخافات العقل وأخطائه • وعاش جينزبرج فى المصـحة بضع شهور يلاحظ نزلاءها ويتتلمذ على أيديهم • ومن خلال هذه الاقامه عرف الشاعر جمله من الحقائق المثيرة ، عرف أن البراءة الخالصة توجد فقط لدى المجـانين ، فالبراءة توأم الجنـــون ، والخطيئه توأم العقل • واكتشف جينزبرج أن المجنون هو الانسان الوحيد الذى يصرح بكل ما فى أعماقه بغير تحفظات تفرضها شروط العقل، وهنا زاد وضوح الطريق أمام الشاعر • • فلا بد أن يرتفـع صوته أراد الآخرون أم لا •• ولابد أن يخرج مافى جوفه تقبله الاخرون أم لا• وقلت للطبيب : « أريد أن أتحرر من كل قيد •• من مـلابسى ورباط عنقى •• وأريد أن أفعـل ما أشاء » • وترك جينزبرج المصحة الى الحيـاة الصـاخبة ، الى المعرض الشامل للجنـون غـير الرسمى ، وقرر على الفور أن يقوم بجولة لحساب كلمة الحق فى كل أنحاء أمريكا •

وما أن يظهـر جينزبرج فى مكان ما حتى يعرفه الجميع من مظهره الغامض المثير •• بملابسه القديمة غير المهندمة •• بجسده النحيل الضعيف •• بصوته العميق المقنع •• بشعر رأسه الآشعث ولحيتـه المرسلة • وما أن يظهر حتى تتغير كل ملامح المكان ، ففى لحظات قليلة يندفع النـاس حـوله خاصة الشباب ، وتتوقف الحيـاة تماما ويتحول الجميع الى آذان صاغية •• وكالسـحر تتسلل كلمـــاته الى أعماقهم •• كلمـات حلوة مثقلة بالانسانية •• وكلمـــات قوية تدافع عن الحق •• وكلمات سلام تستنكر العدوان • ومن الطبيعى أن لا تطول اقامة جينزبرج فى مكان ما، اذ سرعان ما تطارده « السلطة الأمريكية » ويزرع البوليس العيون من حوله • وقبل أن يأخذوه – أو يعيدون – الى السجن يكون الرجل قد اختفى وقد ترك خلفه فى كل النفوس أشياء جديدة ••

وترك الجميع يختلفون حوله • بعضهم يقول هذا مجنون مخبول العقل •• والبعض الآخر يقول بل هذا عبقرى ونبى يبشر بالمحبة والآخاء •• !

ثم حدث التحول الكبير فى حياة الشـــاعر عندما قام بزيارة الشرق فى عام ١٩٦١ • واخذته هذه الرحله الى بلاد الهند ، وفى مدينـة كالكتا أعطته الحكومة الهندية–بعكس الحكومه الامريكية– تصريحا بقول الشعر فى كل مكان، ومع التصريح رجاء حار بأن يفعل ما فى وسعه حتى لا يسبب للهند أزمات سياسية مع حكومة بلاده • ولفت نظر الشاعر فى الهند ذلك الثراء الروحى الكبير المميز لهذا الشعب الفقير جدا ، وفتنه بصـــفة خاصة الجمعيات الروحيه التى تمارس ما يعرف فى الهند بـ « شعائر الجورا » ، وهى ضرب من الرياضيات الروحية جوهرها مقاومة الشـهوات ومجاهدة الماديات– وأعتبر الزائر الامريكى نفسه عضوا منتسبا فى اندية الجورا •• وآخذ يمارس طقوسها باخلاص مثير •• فيسير الســـاعات الطويلة حافى القدمين فى جبال الهملايا الوعرة ويقوم بزيارات متكررة لبـــلاد التبت المسحورة وللجبال المقدسة التى تحيط بها ، وأخذ جينزبرج يمارس رياضة اليوجا العظيمة • وصرح الشاعر برغبته فى قبوله عضوا بجمعية « مانجا » البوذية للنشاطات الروحية ، وفى احتفـال دينى بهيج احتفل بقبول عضويته وعشق جينزبرج الترانيم والابتهالات الدينية البوذية ووهب نفسه منـذ هذه اللحظة للسماء •

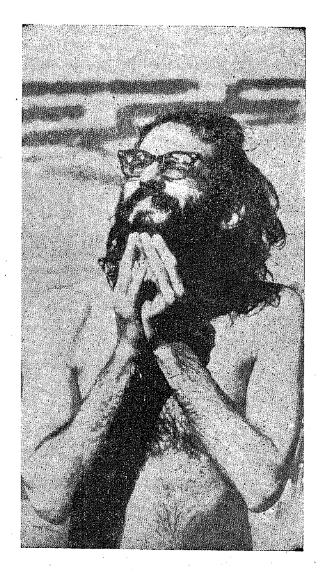
وكان المفروض بعد هـذا أن يعـود جينزبرج الى بلاده ، غير أن هاتفا فى أعماقه دفعــــه الى الذهاب الى اليابان فى ربيع ١٩٦٣ ليتزود من روحانيات الشرق – وفى اليابان أصبح شـاعرنا تلميذا مخلصا لأساتذة جمعية « زف » للبحوث الروحية وفى مقدمتهم « شيقا » و « فيشفو » ومما يروى عن زيارته هذه لليابان أنه قد أصيب بحمى شديدة وهو فى القطار ما بين مدينة كيوتو ومدينة طوكيو ، وأثناء الحمى العنيفـــة تملكت



الشاعر حالة من حالات الشفافية الكاملة وتكشفت له حقيقة بسيطة كثيرا ما تغيب عنا ونحن فى زحمة حياتنا اليومية ·· فالانسان يعيش فى جسم لابد من فنائه ·· بل ان كل ما يحيط بالانسان أشياء زائلة ·· فكل ما فى الوجود مرتبط بالموت ·· والموت هو الحقيقة الوحيدة التى تجمع بين كل مفردات الوجود - وخلال هذه الحمى كتب جينزبرج قصيدته « التغير » ليقول :

« فى قطار يتحرك من كيوتو الى طوكيو تكشفت لى حقيقة طيبة ·· فأنا أعيش فى جسد لابد أن يموت » ·

على هذا النحو قدر لوليد الحضارة المادية الملحد المعذب ، أن يتلقى على يد الشرق أرقى الدروس الروحانية ، وأن يتحول بفضل هذه الدروس الى عابد كبير لكل ما فى الوجود من حق وخير وجمال · وعاد الرجل الى وطنه وفى وجدانه تعاليم الشرق وفى صدره قلب حكيم من حكماء البوذيين - ومنذ أن عاد وهو يطوف بكل شبر فى الولايات المتحدة بل ويتعداها الى غيرها من الدول الاوربية ، ليبشر بالانسان وسط حضارة تذبح فى كل لحظة وجود الانسان · ومن الطبيعى أن تسبب له مثل هذه الجولات الانسانية الكثير من المشاكل والمواقف الحرجة ·



فذات يوم فى صيف ١٩٦٥ وقف يلقى أشعاره فى جامعة « بتراسكا » وأمامه خمسة آلاف طالب ، وتحول المكان كله الى كتلة من الصمت لا يدب فيها غير صوته يقول : « لنقل للصغار على مائدة الافطار ·· هيا كونوا انفسكم ·· واخرجوا من خلف سدود القلق » · وينصت الجميع وهم يستمعون الى فلسفة قادمة اليهم من أقصى الشرق : «الحنان هو الغذاء وهو الكساء ·· وبدونه نصبح عرايا النفوس والأبدان » · ويشتعل المكان بالتصفيق ويسرع البوليس الى فض الندوة قبل أن « يعرج » الشاعر كعادته على مناقشة الحكومة الامريكية سياستها فى الداخل والخارج ·· وهو الموضوع المفضل لديه ·

وقد تعرض جينزبرج خلال جولاته لمواقف حرجة أليمة ·· فخلال زيارته لمدينة لندن عقد ندوة شعرية كبرى فى « البرت هول » أمام جمهور بلغ أفراده سبعة آلاف · وقبل أن يفتح الشاعر فمه ارتفع الصغير من كل أركان القاعة، وتعالت الصيحات تسخر من مظهره الفوضوى

المثير ومن شعره الاشعث المترب دائما ، وفى لحظات حزينة قذفه البعض بالزهور الذابلة والزجاجات الفارغة • وأمام هذا العداء ظل جينزبرج صامتا يتحمل كل شيء ثم فتح فمه وقال : أنتم اخوتى •• البيض والسود اخوتى •• الحمر والصفر اخوتى •• برغم الحدود •• برغم السدود •• الكل اخوتى » •• وطوال ساعات ثلاث كاملة اخذ يتحدث عن اهمية الحرية بالنسبة للجنس البشرى كله • وفى لحظات مثيرة تملك الجميع الذهول والندم •• وفى نفس اليوم خرج محمولا على الاعناق فى مظاهرة رائعة طافت بالشوارع الرئيسية فى لندن •• وبالاضافة الى هذا كتب مدير « البرت هول » فى اليوم التالى اعتذارا رسميا نشرته الصحف اللندنية وأذاعته اذاعتها •

ولم تأت متاعب جينزبرج من ناحية الجماهير فقط بل كانت أيضا من ناحية الحكومات • فخلال زيارته لكوبا ولتشيكوسلوفاكيا أخذ يتحدث عن متاعب وآلام الانسان فى ظل النظام الشيوعى بنفس الحماس الذى يتحدث به عن تدمير الرأسمالية الفاسدة لروح الانسان • ولم تجد الحكومة الكوبية أو الحكومة التشيكوسلوفاكية من حل سوى طرد هذا الرحالة الامريكى الذى يتحدث بروح الشرق وقلب الشرق •• والذى لا يعجبه العجب •• !!

والشيء الذى يعذب ضمير جينزبرج هذه الايام هو ما تفعله حكومته فى فيتنام •• وهو لا يمل الحديث عن العار الامريكى فى آسيا •• ولا يكف عن استثارة الضمير الامريكى لايقاف حد لهذه المجزرة الاليمة • ومن أشهر ما قاله جينزبرج فى هذا الموضوع قصيدته المطولة التى القاها فى جامعة كانساس والتى بدأها بعبارة صارخة : « من هنا أعلن نهاية الحرب» ، ويستمر قائلا :

القتلى يا أماه ••

قتلى الحرب وقتلى الجوع ••

قتلى البيت الابيض المجنون ••

قتلى عذاب الأرواح ••

قتلى قضبان السجون ••

القتلى يا أماه •• أصحاب الأجساد الصفراء النحيلة ••

ماذا نقول لهم يا أماه •• حين يسألنا الرب عنهم •• !!

ولا يقف جينزبرج عند حدود القاء القصائد بل يتعداه الى التحدى الصريح لكل مسئول عن العدوان ، ولقد وجه ذات يوم خطابا الى «روبرت ماكنمارا » قائلا : « عزيزى السيد ماكنمارا ، قبل كل شيء أرجو أن تحتفظ بهدوئك وبرودك فليس هناك يا سيدى أى خطر رئيسى يمكن أن يهدد وجود أى انسان بصفة نهائية •• ولا حتى أنت •• فأنت أيضا فى مأمن وسلام •• بنفس الدرجة التى نفترض فيها كون أعدائنا فى مأمن وسلام ••

ويظل جينزبرج يتحرك ويتحرك •• ويكفى أن يظهر فى مكان ما حتى تتغير كل ملامح المكان •• يندفع الناس حوله •• وتتسلل كلماته الى أعماقهم •• كلمات حلوة مثقلة بالانسانية •• وكلمات سلام تدافع عن الحق •• وكلمات حرة تستنكر • ويختفى الرجل بسرعة قبل اعتقاله وبعد أن يترك فوق الالسن عبارات متناقضة « هذا مجنون مجنون » لا بل هذا نبى يبشر بالمحبة والسلام •

« **عبد الحميد فرحات** »

العدد القادم من الفكر المعاصر

عدد خاص عن قضايا العلوم الانسانية

يشترك فى تحريره الصفوة المثقفة من

أساتذة الجامعات والنقاد والمثقفين •

عناصر الحرب النفسية

د. أحمد فايق

يتساءل الدكتور مصطفى زيور فى مقاليه عن « التفسير النفسى للسلوك الاسرائيلى » (الأهرام ٩ ــ ١٠ أغسطس ١٩٦٩) : كيف أمكن أن ينقلب الرعديد الجبان (اليهودى) سفاحا ، ثم جنديا مقاتلا بين عشية وضحاها ؟ . يقوم هذا التساؤل على ملاحظة عميقة الأثر فى تكوين فكرة فخطة للحرب النفسية مع اسرائيل . من الواضح أن انقلابا خطيرا قد حدث للشخصية اليهودية فى الفترة الأخيرة تحول فيها الشباب منهم الى مقاتلين شرسين بعد أن كان يعرف عنهم فى العالم أجمع الوداعة والخنوع ــ ونزع الشيوخ منهم أقنعة الاهتمامات المادية البسيطة والشخصية المحدودة ليكشفوا عن وجوه جهمة فيها من الصلافة ما فيها .

وأهمية التساؤل تتركز فى أنها تثير قضية الحرب النفسية من جذورها : هل من الممكن أن يتحول وينقلب البناء النفسى لأمة من الأمم انقلابا



جذريا يجعل الخانع منها عصيا والخائف مخيفا والذليل مذلا ؟ لقد فاجأتنا حرب يونيو ١٩٦٧ بأن أمرا من هذا القبيل قد حدث لتلك الاشتات الانسانية المبعثرة فى العالم أجمع فتجمعوا على البعد وتهجموا بعنف ـ عنف لا يفسره تأييد الولايات المتحدة وحدها ـ ويفسره تغير قد حدث فى هذه الفئات • فكان الأمر لنا أشبه بصحوة بعد طول نوام ، فاتجهت أبصارنا الى عريق مجد كنا فيه ونظن أننا ما حرمنا منه رغم السنين ،وجالت العقول فى النفوس تبحث فاذا ببعضها يلمح تغيرا قد حدث لنا ولكن فى الاتجاه المعاكس • لقد كنا فأصبحنا •• وقد كانوا فأصبحوا •

نعود الى التفسير الذى قدمه الدكتور زيور لما حدث من انقلاب فى الشخصية اليهودية • لقد رجع الدكتور زيور هذا الانقلاب الى خبرات اليهود خلال فترة الاضطهاد النازى لهم وفتكه بهم وتهديده بافناء جنسهم • فتلك الخبرة ـ على حد قول الدكتور زيور ـ خبرة فريدة فى تاريخهم الحديث حركت لديهم عملية نفسية لا شعورية هى التوحد والتعين الذاتى بالمعتدى فالجيل القديم الذى أنقذ من معسكرات الاعتقال النازى ، تمثل مثل هؤلاء السافحين تمثلا قهريا وامتص ـ تحت وطأة الخوف ـ عقلية القتل والفتك والصلافة العنصرية التى كانت لجلاديه • وبتلك العملية اللاشعورية أنقذ هؤلاء الشيوخ أنفسهم من « الجنون » الذى يهدد من يتفاداه الموت وهو به محيق لقد • كان فرار جيل المعسكرات من الموت خبرة نفسية مريرة مرارة الموت نفسه ، تغلبوا عليها بتقمص لا ارادى ولا

شعورى لشخصية النازى السفاح فصاروا مثله بعد أن كانوا تحت رحمته • وتركز فى عدد من هؤلاء الناجين كل مشاعر الخوف وكل عوامل النجاة النفسية من آلام الخبرة ، فغدوا أشبه بمولد عالى الشحنة ـ يشحن الجيل الجديد من اليهود بشحنات الخوف من الفناء (على يد العرب) وشحنات القسوة والشراسة التى كانت لجلاديهم الحقيقيين •

على هذا النحو استبدل اليهودى الجبان شخصية بشخصية ، وعدل من قوام الجديد فى نفسه فاستبدل « بالعنصرية الآرية » عنصريته السامية وبالتفوق الالمانى التفوق اليهودى• لقد تغلب جيل ـ واجه الفناء الذى كثيرا ما حدث نفسه به ـ على خوفه بأن أصبح مخيفا شرسا ، وأمكنه أن يجعل الجيل الحديث يتوحد به فغدا اليهودى الشاب على ما هو عليه حاليا من غرور وعنت وصلافة تذكرنا بشبيبة النازى وما كانوا يفعلونه فى شوارع ميونخ وفيينا قبل استيلاء هتلر على أوروبا •

من الممكن اذن أن يحدث انقلاب فى الشخصية القومية تحت ظروف معينة •• انقلاب أعمق بكثير من مجرد التأثير السطحى الذى تحدثه الحملات الاعلامية والأساليب التقليدية لرفع الروح المعنوية• هذه الظاهرة •• ظاهرة الانقلاب الشامل للانية هى الحرب النفسية • فالحرب النفسية ليست ـ كما تدل العبارة ـ هجوما يأتى من خارج بل هى أنجح ما تكون عندما يشنها الشعب على نفسه ليعدل منها • ان الحرب النفسية هى التعامل الجاد مع المكونات الأساسية للشخصية : **طاقاتها** تعيد توزيعها على أهداف جديدة ملائمة ، **نظامها** فتعيد تكوينه ليتلاءم مع مسئوليات مستجدة، **استجاباتها** فتخلق منها أنماطا أكثر نضجا وتناسبا مع ما يحوطها من ظروف • بعبارة أخرى الحرب النفسية هى اقامة أبنية جديدة مبنية على تعيينات ذاتية أكثر رقيا • وعلى خلاف ذلك تكون الحرب المعنوية ، تعاملا مع قشرة الشخصية ولفترة مؤقتة وبأسلوب غير فعال : تعامل مع مثل وقيم هى ذاتها لا تعد أسبابا بل نتائج ، اتجاهات وميول تدل ولا يدل ، ومعتقدات وتعصبات مصيرها محتوم ببعد الواقع عن المجتمع •

سؤال محير :

اذا كانت الحرب النفسية التى شنها اليهود على أنفسهم دفاعا عن سلامتهم العقلية نتيجة للظروف التى تعرضوا لها أثناء الحرب ، فهل يعنى ذلك أن ثورة النفس من صنع التخطيط العلمي والقصد الاجتماعى ، أم هى حتم تاريخى ؟

ان المؤمن بقوانين الحتمية التاريخية والمادية التاريخية يقف أمام السؤال السابق حائرا : هل جاءت الثورة والانقلاب النفسى للشخصية اليهودية كحتم تاريخى أم نتيجة تخطيط مسبق ؟ ولهذا السؤال وجهه الآخر الاكثر أهمية : هل سوف يحدث لنا أن ننقلب على أنفسنا ونبلغ ما نريده لها كحتم تاريخى لا يحتاج الى أكثر من انتظاره ، أم يجب علينا أن نسعى ونعمل من أجل هذا الانقلاب ؟

هناك ميل واضح لدى الكثيرين من مؤرخى الحرب العالمية الثانية الى التأكيد على دور الرأسمالية اليهودية فى تدعيم النازية ودفع المانيا الى الحرب بل والى اشعال نار الاضطهاد العنصرى ضد الساميين • ورغم أن هذا التأكيد يعوزه التأكد فى كثير من جوانبه ، وبالرغم من أن تصور الأمور على النحو السابق يجعل تدبير الصهيونية أمرا يفوق قدرتها الحقيقية الا أن قدرا ما من الحقيقة يظل واضحا من خلال معايب ومثالب هذا الرأى • فليس هناك شك فى أن الصهيونية لم تفرط فى استغلال أبسط الأمور وأقل الأحداث أهمية لمصلحتها وليس هناك شك كذلك فى أن الصهيونية لم تخطىء خطأ واحدا ملحوظا فى تحويل ظروف الحرب العالمية الثانية لمصلحتها • حتى أن انتصار الجيش الأحمر نفسه على ألمانيا ـ وهو ما لا يتمشى مع مصالح الصهيونية ـ استغلته لزيادة الريبة فى السوفييت لدى الدول الرأسمالية حتى لايحدث تقارب بين المعسكرين ، ان كان ذلك ممكنا ، فتضيع المكاسب التى حققوها • وكان أسلوب الصهيونية فى استغلال تلك الظروف ذا شقين : **الأول** : اثارة عطف شديد عليهم بما كان يحدث لهم والمبالغة فى هذا الاتجاه الى حد نقل الاهتمام من الجانب الاقتصادى للحرب الى الجانب الانسانى ـ بوصفهم أول الضحايا • **ثانيا** : تفجير طاقات العدوان الكامنة لدى اليهود أنفسهم والتى اختفت لأجيال منهم وأجيال وراء ستر العزلة والفزع المبالغ فيهما • ونجحوا من تحويل هذه العدوانية (السادية) الى هدف واحد هو اقامة دولة ومملكة (اسرائيل) •

على هذا الأساس يمكننا أن نجيب عن تساؤلنا الخاص بحتمية التاريخ والتدبير البشرى فى خلق انقلاب فى الانية • من الممكن أن تتدخل

أمة من الامم فى تاريخها المحدود وذلك باستغلال ظروفها استغلالا جيدا ، وباستبصارها ووعيها ـ مع قيادتها ـ بمستقبل الأحداث ٠ وبتفاعل الامم الاخرى معها يمكنها أن تستفيد من ظروفها وظروف غيرها الفائدة التى تسمح للتاريخ العام لها أن يكون ذا معنى ٠ بعبارة أخرى ان الأمم الجادة هى التى تتدخل فى مجرى تاريخها العام باستغلال جيد لتاريخها المحدود وأحداثه الطارئة ٠ فالتاريخ العام ـ ولامتداده الزمنى العريض العميق ـ لا يسمح للجماعات البشرية المحدودة العمر بالتدخل الحاسم فيه ٠ ولكن التاريخ المحدود ـ أى الاحداث ذات القيمة القصوى لفئات بشرية معينة ـ يسمح للأمم بأن تأخذ منه موقفا ايجابيا ، وذلك بتأمل فى جزئيات تراكمات الماضى ودراسة الأحداث الطارئة وتصور مصير تفاعل الماضى مع الحاضر ، فتضع الخطط الفعالة للمستقبل ٠

هذه القضية فى الواقع تحل لنا قضية فرعية أخرى ترتبط بها وتحظى حاليا باهتمام أكبر من اللازم : هى قضية النوعية البشرية للشعب المصرى وغيره من الشعوب ٠ ان ما يميز أمة عن أخرى ليس تاريخها العام ٠ فالتاريخ العام يخلق الظروف والاحداث بأسلوب معقد لتدخل الأمم الأخرى فيه لذلك يكون تعديله والتدخل فيه أمرا ليس بالميسور والسهل ٠ ولكن التاريخ العام فى نفس الوقت يتخلق ـ فى جانب منه ـ من التدخل البشرى الجزئى والمحدود الى حد ما ٠ لذلك يكون الفرق بين الأمم فى قدرتها وذكائها واصرارها على استغلال تاريخها المحدود أحسن استغلال بحيث يمكنها أن تكون ومن يتلوها من أجيال أكثر ايجابية بصدد التاريخ العام ٠ ان الحرب النفسية فى الوقع جزء هام من صراع الشعوب من أجل تاريخ عام مثمر ٠

ان ما يخصنا من هذه الأفكار يتعلق فى الواقع بالصراع الفكرى الذى يدور فينا حاليا ٠ ماذا نفعل ٠٠ هل نغير أنفسنا أم أنها سوف تتغير بفعل التاريخ ؟ أننا الآن أمام قضية غير فكرية ولا بد أن نأخذ منها موقفا غير فكرى ٠ فالموقف الذى نمر به حاليا مشابه لمواقف سابقة عشناها أفدنا من بعضها فأصبنا تقدما وفرطنا فى بعضها فأقعدنا أنفسنا عن التقدم ٠ والظروف التى خلقها لنا الصهاينة وغيرهم من الأعداء والأنصار ، فضلا عن الظروف التى صنعناها عبر تاريخنا العام تواجهنا باستشكال حاسم : نحن فى موقف يسمح لنا ـ بل ويلزمنا ـ بأن نستغله استغلالا جيدا وعلى أسس علمية دقيقة فنحدث فى أنفسنا وانيتنا انقلابا يناسب الحرج الذى نحن فيه ٠ ان الظرف الحالى موات ـ لا للانتصار العاجل فحسب ـ بل لخلق أمة على غرار جديد وعلى نمط يلائم عصرا فريدا بدأ ٠٠ موقف اذا فرطنا فيه ونظرنا اليه بوصفه كارثة لا بد من ازالة آثارها نكون قد فرطنا فى هدية تاريخية غير متوقعة ، واذا أحسنا استغلاله أزلنا الكارثة بانتصار كبير وأقمنا انية جديدة لمصر تلائم ما ينتظرها فى المستقبل وبعد ازالة العدوان ٠

وقفة قبل الانطلاق :

قد يغرينا صوغ قضية الحرب النفسية على النحو السابق الى الاندفاع السريع نحو وضع خطة لشن حرب نفسية ٠ ولكن يجب أن ننتبه الى بعض الحقائق قبل أن نشرع فى ذلك ٠

١ ـ لا يمكن لأى جهد مهما كان أن يخلق فى أمة ما ليس فيها وأن يكون فى شخصيتها ظاهرة جديدة كل الجدة ٠ فمن الصعب ـ ان لم يكن من المستحيل ـ أن يحدث أى جهد انقلابا فى انية أمة فيخلق فيها الشراسة خلقا أو يقيمها على الدعة قسرا ٠ من الممكن أن يظهر شىء خبىء ، ولكن لا يمكن أن يظهر ما ليس موجودا أصلا ٠ وقاعدة هذه الحقيقة هى أن كل خاصية فى شخصية ما ـ ولتكن الشخصية القومية ـ تخفى نقيضها فى حالة كمون قابل للتجلى والظهور فى ظروف معينة وتحت شروط خاصة ٠ لذلك ليست الحرب النفسية سحرا يخلق بل عملا يظهر ويكشف ٠

٢ ـ ان الخصائص البارزة فى انية أمة من الأمم تخفى نقيضا لها مماثلا لها فى القوة ٠ فاذا تبين أن أمة من الأمم تبدو أو تبدى سمة ما وبشدة معينة نستطيع أن نتنبأ أن نقيض هذه السمة وبنفس قوتها موجود ويمكن استفزازه ٠ فالخنوع الشديد ليهود ما قبل الحرب العالمية الثانية كان يخفى ما تكشف حاليا من خصائص لها قوة مماثلة لذلك تكون الحرب النفسية دقيقة وواضحة : دقيقة لأنها عملية تفجير للمسمات النقيضة دون الاخلال بتماسك الشخصية ، وواضحة لأنها تقوم بعمل معلوم هو ابراز سمة معروف مسبقا كنهها وشدتها ٠

٣ ـ الحرب النفسية هي استغلال مناسب لظروف مواتية تسمح بتفجير السمة الخبيئة والتى تكون أساس الانتصار فى المعارك التى تخوضها الامم ، وليس الحرب النفسية ابتكارا واصطناعا لمواقف وظروف من هذا القبيل · لقد عاش اليهود قرونا طويلة فى هلع من وهم سيطر عليهم هو كراهية العالم لهم وترقبه لفنائهم · وخدمهم هذا الوهم فى الانزواء بعيدا عن أخطار بعضها واقعى وبعضها كان لهم بمثابة الواقع · ثم جاء الظرف المواتى الذى قلبهم الى النقيض ·

ثلاث حروب نفسية خضناها :

ان ما قدمناه هو الجانب العام من الحرب النفسية ولكن للحرب النفسية جوانبها الخاصة التى تسمح بالتطبيق المباشر ·· لذلك سوف نتعرض لثلاثة مواقف كانت بمثابة حروب نفسية خضناها ومنها يمكن أن نضع عناصر الحرب النفسية وأسس تطبيقها عمليا · ولن نعرض هذه الحروب الثلاثة فى تفاصيلها التاريخية أو العلمية حتى لا نبعد عن هدفنا ·

أ ـ الثورة العرابية : ان الدارس لثورة عرابى سوف يلحظ أمرين هامين فيها : **أولا :** تجمع شعبى ضخم حول زعيم جديد يبشر بانية مصرية حديثة ، ايجابية ·· انية تبزغ فى ظروف تاريخية دقيقة · **ثانيا :** انهيار سريع لهذا التجمع الشعبى دون مبررات تتناسب مع حجمه وقوة مده الاولى لذلك تعد الثورة العرابية نموذجا طيبا لدراسة حرب نفسية دفاعية فاشلة وأخرى هجومية ناجحة كانت الانية النفسية المصرية التى تمثلت فى وقفة عرابى بميدان عابدين عام ١٨٨١ محاولة جادة لتحطيم انية قديمة خاضعة لنفوذ تركى منحل وغزو رأسمالى أوروبى حديث · ولكن عرابى كزعيم وطنى وقائد لهذه الثورة النفسية ، لم يدرك ادراكا سياسيا واعيا الظروف المواتية لتحقيق هذه الانية المصرية الجديدة · كانت الامبراطورية العثمانية فى انهيار يسمح للخديوى توفيق بالاعتماد على أوروبا فى دعم سلطانه · وكانت الرأسمالية الزراعية المصرية فى بداية ممارستها لفاعليتها السياسية وتطلعها لاصلاحات تضمن لها حقوقها · وكان الصراع بين انجلترا وفرنسا على التركة العثمانية صراعا غير خفى · كل ذلك كانت عوامل ايجابية لدعم الثورة المصرية · الا أن عرابى حول الموقف من حرب نفسية الى معركة عسكرية فوضع الشعب المصرى فى أزمة يصعب حلها · لقد كان تحويل الثورة الى معركة عسكرية هو الفرصة المواتية للاستعمار فى شن حربه النفسية الهجومية بعبارة ثانية ، لو كان قد أمكن لعرابى أن يتفهم الظروف السياسية للثورة لاستطاع أن يشن حربا دفاعية عن الانية المصرية الحديثة ، ولم يكن مصير هذه الانية الواد المبكر ، ورغم زيادة فرصة الهزيمة العسكرية أمام الاستعمار · ان الخطأ الذى ارتكبه عرابى وقوعه فى الفخ السياسى الذى نصبه الاستعمار للثورة وهو تحويلها الى معركة عسكرية

أما الاستعمار فقد استغل نقطة ضعف وحيدة استغلالا جيدا هى عدم وضوح الوجهة القومية للانية المصرية · وجه الاستعمار حربه النفسية الهجومية من هذه الزاوية حيث أشاع أن الثورة موجهة ضد خليفة المسلمين ـ وبذلك طعن الثورة طعنة عكسية · فبدلا من أن يستغل عرابى ورفاقه عنصر الدين والقومية لمصلحتهما تركوهما سلاحا فى يد عدوهم ·

اذن ، يعد أول درس نأخذه من الثورة العرابية هو أهم عناصر الحرب النفسية : استغلال مناسب لظروف مواتية · ففى هذه الثورة ساء استغلال عرابى لظروف مواتية وجاء سوء استغلاله فى شكل قلب الثورة الى معركة عسكرية فسمح للاستعمار بحسن استغلال ظروفه لأن هدف الاستعمار كان تحويل الثورة الى معركة حربية تمكنه من سحق الانية المصرية عسكريا ·

ب ـ ثورة ١٩١٩ : ان ثورة ١٩١٩ تعد نموذجا لحرب نفسية ثانية أمكن لنا فيها أن ننتصر دفاعيا وان ينهزم العدو فيها هجوميا · استطاع سعد زغلول أن يستفيد من نتائج الحرب العالمية الأولى وما طرحته معاهدة فرساى من شعارات عديدة · واستطاع كذلك أن يستغل الخضوع السافر من السراى للمندوب السامى البريطانى بأن طرح الشعارات الدستورية وتقييد السلطة الملكية · فضلا عن كل هذا أمسك سعد بأطراف التطور الرأسمالى الزراعى وبزوغ الرأسمالية الصناعية (أو أفكارها الوليدة) وبأطراف الانية الوطنية بقيادة البرجوازية المصرية ومزج بين هذه الأطراف مزجا لا بأس به وبادارة هذه الظروف جميعا تحت شعار الاستقلال أمكن لسعد زغلول أن يشن حربا نفسية دفاعية ناجحة حمت الانية المصرية الوطنية من ضغط الاستعمار عليها ومحاربته لها فى شكل تأييد

للسراى والملك ٠ لم يترك سعد زغلول فرصة مناسبة للاستعمار لى يطعن الثورة النفسية لدى الشعب باثارة اليأس من الكفاح ـ كما حدث أيام عرابى ، ولم يسمح بفرصة للرجعية كى تخون بسفور آمال الشعب عن طريق اثارة قضية ملك البلاد ، لقد أمكن لسعد ورفاقه أن يحولوا الثورة النفسية لدى الشعب تطلعا الى انية جديدة ، أن يحولوها الى مظاهرات هى بدورها كانت مجالا لنضج هذه الانية ٠

ويواجهنا تأمل تفاصيل ثورة ١٩١٩ بأمرين : لقد استطاع سعد زغلول أن يصبح زعيما يتوحد الشعب ـ فى أغلبية ساحقة به ـ ولمدة طويلة ، بل وأهم من ذلك أن يتوحد الشعب به حتى بعد وفاته ٠ فحتى عام ١٩٤٢ كان التأييد الشعبى للوفد مجرد امتداد لتأييد سعد الذى أقام الوفد بمعنى آخر ، كان التوحد بسعد رمزا لحاجة الانية المصرية الى نواة تنضج حولها ٠ فسعد كان الوفد والتوحد به هو أساس تأييد الوفد ٠ وظل التأييد للوفد اصرارا على التوحد بسعد ٠ ولم ينفض الشعب عن الوفد الا بعد أن أثبتت قيادته التالية على سعد عدم قدرتها على جعل الشعب يتوحد بها ٠ ولكن أهم من ذلك ، كانت حاجة الانية النفسية الى نواة لها تمثلتها فى سعد زغلول ، كانت هذه الحاجة عاملا هاما فى تغاضى الشعب عن أخطاء جسيمة ارتكبها سعد البرجوازى المنبت وتحمل الشعب مثالب عديدة ارتكبها الوفد بعد سعد أوصلته الى حد خيانة الاهداف التى نال بها تأييد الامة ٠ ان الثورة النفسية تحتاج الى زعيم يمكن الشعب ـ أو أكثر فئاته أهمية ـ من التوحد به ـ وفى سبيل هذه الحاجة قد تتغاضى الانية الجديدة عن كثير من الامور ٠

والأمر الثانى يتعلق بطبيعة الحرب النفسية الدفاعية ٠ لقد كان لنجاح سعد زغلول فى شن حرب نفسية دفاعية عن الانية المصرية نتائج كثيرة ، أبرزها أن نجاح الدفاع النفسى يعطى للشعب مناعة ضد الانهيار النفسى تستمر مدة طويلة حتى بعد انتهاء الزعامة نفسها واختفاء قائد هذه الحرب ٠ فبعد حياة سعد لم يتوقف الشعب عن تدعيم انيته فى انتفاضات متتالية الى عام ١٩٤٢ ٠ ولكن هذه المناعة تضعف ما لم تجد زعامات تالية تدعمها ٠ فعندما تبين للشعب عام ١٩٤٢ أن قيادة حزب الوفد لم تعد على عدائها الصريح للقصر وللاستعمار بدأت الدفاعات النفسية المستمدة من التوحد بحزب الوفد تنهار ٠ وبلغ ضعف الانية القديمة حده الأقصى عام ١٩٤٨ وبدأت الانية الجديدة تظهر لتقوم ثورة ١٩٥٢ ومن بعدها ثورة القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١

أما ثورة ١٩٥٢ فلها طابع آخر ٠ ان الانية الجديدة والمتولدة من حرب ١٩٤٨ قد ولدت ثورة ١٩٥٢ ٠ ولكن هذه الثورة ذاتها استطاعت فى عدة مواقف هامة أن تقفز بالانية قفزات غير متوقعة ففى عام ١٩٥٦ حدث تطور هام فى الانية المصرية هو الانتباه الى الامكانيات الذاتية ممثلة فى الدفاع الحربى عن الاستقلال ٠ وفى عام ١٩٥٨ انضاف الى الانية المصرية عنصر جديد هو التفتح على مبدأ مهاجمة الاستعمار فى قواعده المحيطة بنا ٠ وفى عام ١٩٦١ ظهرت المبادىء الاشتراكية كنواة أساسية فى الانية المصرية ٠ لذلك يحسن تناول ثورة ١٩٥٢ تناولا خاصا من حيث هى حرب نفسية دفاعية وهجومية ٠

وقبل أن ننتقل الى عناصر الحرب النفسية يمكن أن نوجز ما خرجنا به من تأمل هذه الحروب النفسية الثلاثة ٠ ان نجاح الحرب النفسية الدفاعية يعنى قوة تستمر ولكنها تحتاج الى تدعيم متجدد من زعامات متطورة ، فان لم تجدها ماتت كذلك يتوقف نجاح الحرب النفسية الدفاعية على مقدرة قائدها على فهم متطور للأحداث وعلى صلابة خاصة أمام عناصر الضعف فى معاونيه وهى العناصر التى قد تطرأ عليهم أثناء الصراعات التى توجبها الحرب النفسية ٠٠ فيستبدلها فى جرأة بعناصر فى صلابته ٠ وقد كان سعد زغلول مغاليا فى هذا الجانب كما كان عرابى متهاونا فيه تهاونا كبيرا ٠ والجانب الثالث الذى نخرج به من دراستنا هو دينامية العلاقة بين القائد والشعب المتجدد الانية ان الحرب النفسية تبدأ فى ظاهرها نتيجة قيادة وزعامة ماهرة تفجرها ، ثم ينتهى الأمر بأن تحتضن الموجة الشعبية زعامتها فتكشف عن أصلها وهو أنها هى التى تخلق زعامتها بنفسها ٠

اذن ، فبدون زعامة يتوحد الشعب بها لا يمكن أن تنجح حرب نفسية دفاعية ٠ كذلك لا يمكن لحرب نفسية هجومية أن تنجح ما لم تضرب ما بين الزعامة والشعب لتحطم الانية النامية فى نواتها وهى اسقاط أفكارها على شخص الزعيم ٠

عناصر الحرب النفسية :

يمكننا أن نبرز عناصر الحرب النفسية بسهولة من مقارنة أحداث عدوان ١٩٥٦ وعدوان ١٩٦٧. فبعد انهيار قيادة حزب الوفد للشعب ، أخذت تتكون عدة قيادات سرية بقصد قيادة الشعب فى ارساء قواعد انيته الحديثة . وتمكنت أكثر القيادات قدرة وأقربها فهما لطبيعة الظروف العالمية والمحلية من القيام بثورة ١٩٥٢ . وبذلك انتهت انية تكونت خلال ثورة ١٩١٩ وظهرت انية جديدة قضت على النظام الملكى وطردت جيش الاحتلال . ولكن لم تنقض أربعة أعوام على الثورة حتى تعرضت هذه الانية الى هجوم جديد عليها ـ ومن نفس القوى القديمة التى ثارت ضدها . وكان هذا هو العدوان الأول .

فى عام ١٩٥٦ كانت الظروف الداخلية تغرى الغرب بشن حرب نفسية علينا لتحطيم انية جديدة بدأنا بممارستها . فآثار الصراع السياسى مع الرجعية المصرية والرأسمالية الزراعية لم تمكن الثورة من الاستقرار الهادىء بعد . فأحداث عام ١٩٥٤ كانت لا تزال فى الأذهان كما كان الملاك الزراعيون يمارسون ضغطا شديدا فى الريف وبقايا رجال السياسية القدامى يأملون بعد فى العودة الى الحكم . ولم تكن القوى العاملة تجد أمامها تنظيما سياسيا مقنعا يضمها ويقف بها أمام هذه القوى . أما الظروف الخارجية فكانت تبدو مواتية هى الاخرى . فأوروبا فى ثوزة من تأميم القناة ، وأمريكا فى صراع مكشوف معنا حول خطط التنمية وعلى رأسها تمويل السد العالى ، ولم يكن المعسكر الاشتراكى قد حدد موقفه من قضايانا تحديدا تاما ولا يمكن الاطمئنان بعد الى تأييده .

وقد ركز الاستعمار حربه النفسية علينا عام ١٩٥٦ فى هدف واحد هو تحطيم الجيش أولا لتفقد الانية المصرية الجديدة دعامتها النفسية . ولا شك أن تحطيم الجيش فى تلك المرحلة كان كفيلا بتمزيق الانية المصرية لأن الشعب كان يضع آماله فى تحقيق أهدافه على قوة الجيش التى أصبحت لأول مرة ـ بعد عرابى ـ ملكا له . ولكن يبدو أنه كانت هناك نقاط هامة غابت عن الاستعمار فى تحليله لظروف عدوانه على مصر ، ولعل مرد غياب هذه النقاط يرجع الى غرابة التحالف الذى قام ضدنا: حزب محافظ (بريطانيا) وآخر اشتراكى (فرنسا) وتنظيم فاشى (اسرائيل) .

استطاعت القيادة السياسية فى مصر وبالرغم من الظروف غير المواتية أن تشن حربا نفسية دفاعية ناجحة نجاحا تاما . فقد كان حدس عبد الناصر الحقيقى فى سحب الجيش من سيناء ، حدسا سياسيا قبل أن يكون عسكريا . أمكن لعبد الناصر أن يستغل العنصر الأساسى فى الحرب النفسية وهو عدم تناقض الشعب مع قيادته ، فسحب الجيش من سيناء لينقذ دعامة الانية المصرية الجديدة ، وليهزم العدوان فى تفويت الفرصة عليه فى بلوغ هدفه النفسى . وسحب الجيش بأقل الاضرار وتركيز الدفاع عن القناة كرمز لانجاز هام للانية المصرية الجديدة ، أصبح الانتصار النفسى على مصر مستحيلا مهما كانت النتائج العسكرية . لقد كانت القيادة الثورية وزعيمها نماذج واضحة يسهل على الشعب أن يتوحد بها ليحافظ على انيته الجديدة وقوامها التلقائية والمبادأة ، البديلة عن انية قديمة قوامها الشك والتردد فى امكانية الانطلاق الحر دون مساعدة خارجية خبيرة . كانت هذه القيادة تعطى نماذج متتالية من التلقائية (تسليح الجيش بسلاح سوفيتى دون التسليم بالمبدأ الماركسى) وبالمبادأة (تأميم القناة لبناء السد العالى) ، وكانت تظهر نفسها يوما بعد يوم من عناصر تفقد رباطه جأشها وتميل الى النكوص نحو الانية القديمة اذا ما تخيلت صعوبة أو مشقة

اتجه عبد الناصر الى الجامع الأزهر ليبدأ حربه النفسية الدفاعية عن الانية المصرية الجديدة .وكان محور خطابه من الجانب النفسى هو : هل ندخل المعركة العسكرية مع الاستعمار بوصفها مجرد معركة عسكرية ، أم ندخلها كمعركة نفسية فنقع فى الفخ المنصوب لنا ؟ والأسئلة عادة تحدد مضمون الاجابة : اذا دخلنا المعركة على أنها عسكرية خالصة فلن يضيرنا الانسحاب وفقدان جولتها

الاولى – أما اذا دخلناها على أنها معركة نفسية ذات شكل عسكرى وجب علينا أن نصمد ونجازف فننتصر أو ننهزم فلا تقوم لنا قائمة • وأجاب الشعب اجابته المعروفه : نضحى بمعركة لنكسب اخرى أكثر أهمية هى المعركة النفسية • كان سؤال عبد الناصر هو صياغة لفكرة شعورية اجتاحت نفوس الشعب وهو يعيش عدوانا عليه يثير فيه الرغبة فى الانتقام ، كانت الفكرة الشعورية نقاتل ونموت أبطالا ولو فى غباء العنيد • ولكن صياغة الفكرة الشعورية هى السبيل الى انطلاق الفكرة اللاشعورية وهى : ننسحب ونعيش لكفاح يتسم بذكاء المصر اللبق •

اول عنصر اذن فى الحرب النفسيه هو حسن استغلال الزعامه للظروف المتاحه لها فتدافع او تهاجم • **وسادة** هذا العنصر هو قدرة الزعامه على صياغه مضمون الشعور الشعبى صياغه سليمه وفى ضوء الظروف المحيطه به وطرحها على الشعب فينطلق نقيض الشعور – اى اللاشعور – فتحدث الثورة النفسيه او تتحرك العمليات النفسيه الدفاعيه حركه قويه • اما **اسلوب** نشاط هذا العنصر فهو تحويل المعركة النفسيه الى معركة عسكريه او اقتصادية ، وعدم السماح لتلك المعارك أن تتسلل بنتائجها الى الشعب فتصيب انيته • والدليل على ذلك أن بريطانيا فى حربها الأخيرة مع المانيا كانت تحصر النتائج العسكرية فى اطارها العسكرى ، بينما كانت المانيا تحول انتصاراتها العسكرية الى صيغ نفسية داخليا وخارجيا •

ويتضح لنا العنصر الثانى من الحرب النفسيه من تحليل عدوان ١٩٦٧ • كانت الظروف ما بين ١٩٥٦ – ١٩٦٧ ظروفا مختلفه • فالتحول الاشتراكى ومشاكل التطبيق والادارة حالت دون بقاء القيادات السياسية لثورة ١٩٥٢ على صلاتها الوشيجة بالشعب ، كما كان الحال فى بداية الثورة ونتيجة لذلك انشغلت القيادات الثورية عن الشعب بالاهتمام باقامة الدولة الجديدة وحلت محلها عناصر أقل منها كفاءة تولت مهمة الاتصال المباشر بالجماهير • وليس هناك ما يضير من أن نكرر تحليل الرئيس عبد الناصر لبعض مثالب هذه الفترة وأهمها انحرافات شديدة اقترفها بعض المسئولين فى جهاز الدولة – مما أثار قلقا لدى الجماهير من النكوص الى انية ما قبل عام ١٩٥٢ وأصبحت العناصر الثورية الشريفة محاصرة بين مراكز قوى يؤدى هدمها الى تفجير صراعات داخلية عنيفة وبين ضرورة رفع هذه الاثقال عن أقدام الشعب لينطلق الى آفاق أبعد • وكانت الظروف الخارجية كذلك غير مواتية تماما •• الولايات المتحدة فى حاجة الى تعويض هزائمها فى فيتنام بعمل جديد ، والمعسكر الاشتراكى يعانى من اثار خلاف الصين مع الاتحاد السوفيتى ، والمد الثورى فى العالم العربى فى أحد دورات جزره الشديدة بذلك تهيأت الفرصه أمام الاستعمار لعدوان جديد وللمرة الثانية يخفى على الاستعمار جانب هام فى المعركة النفسية مع مصر •

لم يكن الجيش فى عام ١٩٦٧ نواة الانية المصرية كما كان الحال عام ١٩٥٦ • لقد كانت الاشتراكية هى نواة هذه الانية • وهزيمة الجيش عام ١٩٦٧ لم تكن لتؤثر على الدولة الا تأثيرا وقتيا ومحدودا • لذلك لم يدرك الاستعمار أن انحراف بعض العناصر فى مصر وانعزال البعض الآخر يثير مجرد الضيق فى نفوس الناس ولكنه لا يثير فيهم الانزعاج الشامل • بل لقد وجد الشعب فرصة مواتية للتخلص من هذه العناصر بعد أن جمع شتات نفسه بعد النكسة • وفضلا عن كل هذا ، بقيت بعض العناصر الثورية بعيدة كل البعد عن غضب الشعب – وبغض النظر عن النتائج – وعلى رأس هذه العناصر الرئيس عبد الناصر • لذلك فعندما أعلن عبد الناصر رغبته فى التنحى متحملا مسئولية الأحداث ، فهو انما كان يصوغ فكرة شعورية كادت أن تغزو نفوس الجماهير وهى فى حيرة من أمرها ، فتفجر للمرة الثانية اللاشعور الجمعى معلنا عكس هذه الفكرة فأصر على بقاء رئيسه ، واعترض فى عنف على التنحى • وتحول الهجوم علينا الى فشل ونجح الدفاع النفسى مرة أخرى •

العنصر الثانى فى الحرب النفسية هو زعامة

شعبية صلبة يمكن للشعب التوحد بها في أحلك ظروفها وظروفه • فقد شاع ان القيادة في مصر تعيش على الانتصارات ، ولكن ٩ ، ١٠ يونيو اثبتت انها تستطيع ان تعيش كذلك في ظروف الهزيمة القاسية • فالتوحد بالزعامة امر يحصنع لدوافع نفسية عميقة اهمها — وهو مضمونها كذلك — ارتباط مصير الشعب بمصير الزعامة • لهذا تعد اكثر الزعامات ضمانا للسلامة النفسية للشعب ما تلك التي تقوم على المذهبية لا الشخصية حيث يمكن للمذهب ان يبقى — لمدد أطول من الافراد — نواة للانية القومية • أما اسلوب هذا العنصر الهام في الحرب النفسية فهو الحركة المتمشية مع العدو لاثارة الحركة العكسية لدى الشعب • فهدف الاستعمار كان تنحي عبد الناصر ،متمشيا مع الرغبة الخفية للعدو ، فأثار بذلك الحركة العكسية لدى الشعب ، أي رفض التنحي رغم التقبل الشعوري للمأساة •

اما العنصر الثالث في الحرب النفسية فيأتينا ايضاحه من مقارنة سريعة للموقفين السابقين • ان نجاح ذات القيادة في شن حرب دفاعية عن الانية النفسية بأسلوبين متناقضين انما يدل على قدرة على فهم وتقدير الظروف بمرونة ضرورية • فمن النادر في التاريخ ان نجد زعامة واحدة تستطيع أن تنجح مرتين في عملية حماية الانية القومية • وندرة هذا الامر تعود الى أن أي زعامة انما تقوم على فهم محدد للأمور ومكانتها لدى الشعب لذلك يصعب عليها تغيير أسلوبها • ولكن القيادة في مصر أمكنها ان تتطور ذاتيا بحيث كانت في ١٩٦٧ — ورغم كل الصعاب — زعامة متجددة مختلفة تماما عن زعامة ١٩٥٦ • فلا شك أن انتصارا نفسيا يأتي شعبا من الشعوب لا يكون وليد مجرد حدس زعيم أو ضربة حظ ، بل هو دائما تفاعل مناسب بين ظروف داخلية وأخرى خارجية يخلق مجالا مناسبا للحفاظ على نواة الانية القومية واستغلال القيادة للظروف ، أو سهولة التوحد بالقيادة لا يكفيان وحدهما للانتصار في الحرب النفسية • ان عنصر تفاعل التوحد بالقيادة واستغلال القيادة للظروف هو ضمان الانتصار النفسي • ويمكن أن نعبر عن عنصر التفاعل — ثالث عناصر الحرب النفسية — بقولنا أنه قدرة القيادة على ملاءمة نفسها للظروف وتطوير عقليتها لمواجهة كل جديد فليس من الممكن لأية قيادة أو زعامة مهما بلغت مهارتها أن تجعل الظروف تلائمها ، بل لا بد وأن تتلاءم هي مع الظروف •

ونوجز عناصر الحرب النفسية الثلاثة فيما يلي :

١ — ظروف مواتية تخلقها تجمعات بشرية معينة (دول) لتجمع بشرى بذاته (دولة) ، بحيث تخلق هذه الظروف معنى خاصا لظروف داخلية خلقها تاريخ هذه الدولة •• فيحدث فيها انقلاب نفسي شامل في شكل ظهور انية جديدة •

٢ — استغلال مناسب للموقف التاريخي الناتج عن تفاعل الظروف الداخلية والخارجية بحيث يمكن احداث هذا الانقلاب النفسي العميق (لأكثر فئات الشعب أهمية) لمصلحة التقدم والتطور بدلا من الاتجاه النكوصي والردة الى انية قديمة •

٣ — قيادة سياسية واضحة المعالم تخطط للمستقبل وتعي الحاضر وتفهم الماضي وتكون قادرة على التطور الملائم للظروف المستجدة بحيث يسهل على الشعب التوحد بها وتمثل قدراتها في انيته

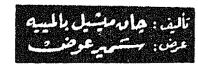
فبدون العنصر الأول لا يحدث الانقلاب النفسي ولا تنجح الحرب النفسية • ومثالنا على ذلك نجاح شي جيفارا في كوبا وفي الصعيد الطلابي وعدم نجاحه في أمريكا اللاتينية • ولا يمكن للحرب النفسية أن تنتهي الى انتصار بدون العنصر الثاني — ونأخذ الثورة العرابية نموذجا لذلك • ولايمكن للحرب النفسية أن تبلغ من آثارها قدرا من الثبات والاستمرار بدون العنصر الثالث • ومثالنا على ذلك سرعة انهيار الزعامة البرجوازية المتمثلة في الوفد بعد موت سعد زغلول ببضع سنوات •

بمعنى آخر ، ان لم تتحقق العناصر الثلاثة معا فان الحرب النفسية تنتهي الى هزيمة وسوف تنهار دعامتاها : سوف ينهار الموقف التاريخي بدون زعامة ، وسوف تنهار الزعامة بدون موقف تاريخي

ويمكن أن ننظر الى الحرب النفسية — في ضوء هذه العناصر الثلاثة — نظرتنا الى أي حرب بالمعنى التقليدي ، أي يمكننا أن نجد حروبا نفسية هجومية وأخرى دفاعية • ولكن ذلك يحتاج الى تعرض مسهب لتفاصيل هذه العناصر الثلاثة في ضوء معرفة أعمق وأشمل بسيكولوجية الجماهير•

أحمد فايق

كتابات مارتن هيدجر السياسية



مارتن هيدجر هو أكبر فيلسوف ألمانى معاصر ومن أعظم فلاسفة القرن العشرين . ولد عام ١٨٨٩ ودرس الفلسفة بجامعة فريبورج بألمانيا وتتلمذ على الفيلسوف هوسيرل صاحب فلسفة الظواهر وحصل على الدكتوراه برسالة عنوانها «مذهب المقولات ودلالتها عند دبنيس سكوت» اشتغل بتدريس الفلسفة بجامعة فريبورج حتى عام ١٩٤٩ . وانتخب مديرا لنفس الجامعة فى مايو ١٩٣٣ وأعلن تأييده التام للحركة الوطنية الاشتراكية وتقديره الكامل لهتلر على نحو ما جاء فى خطبه ومقالاته السياسية العديدة .



م . هيدجر

أهم مؤلفاته : الوجود والزمان ، كنت ومشكلة الميتافيزيقا ، ما هى الميتافيزيقا ؟ . ماهية الحقيقة ، متاهات ، هيلدران وماهية الشعر ، عن مسألة الوجود ، مقالات ومحاضرات ، رسالة كنت عن الوجود .

عرف هيدجر كأعظم مفكرى الوجودية المعاصرة وأعمقهم فكرا ، فلسفته أنطولوجية بمعنى أنها تدرس مقومات الوجود الانسانى لا مجرد صفات الوجود الفردى. **وهو اول من أثار مسألة العدم من الناحية الوجودية . والعدم عنده يكنشف من خلال حالة القلق . فالقلق يؤدى الى العدم ومن العدم يتفجر كل شىء فى الوجود .** كيف يحدث ذلك ؟

ثمة قلق أصيل يباغتنا فى لحظات نشعر فيها وكأن الوجود قد فنى ، والسبب فى هذا الاحساس أن الامكانيات لا تتحقق دفعة واحدة ، لان تحقق امكانية معناه سلب امكانيات أخرى كان فى الوسع أن تتحقق ، لكنها انتزعت من الوجود بتحقيق امكانية أخرى . هذا السلب هو العدم وبدونه لن يتم التحقيق ، لان التحقيق يقتضى اختيار امكانية دون أخرى .

العدم اذن فى فلسفة هيدجر يدخل فى تكوين الوجود وهو شرط لتحقيقه . ويقول هيدجر عنه : **أن هذا العدم الذى يختلف عن كل الاشياء المعينة لا يمكن أن يكون شيئا آخر غير الوجود نفسه .** ومعنى هذا أن الوجود والعدم مترابطان استنادا الى الشعور بالقلق الذى يؤدى الى العدم . لهذا لا يعى الانسان نفسه كموجود الا بخوض تجارب معينة كتجربة القلق التى تضعنا أمام العدم .. والعدم ايجابى لانه علة هذا العالم الذى يتفجر منه .

وتحتل مكانة الموت مكانة رئيسية فى فلسفة هيدجر. فوجود الانسان وجود متناه لان الموت يضع حدا له .

ويصف هيدجر الوجود الانسانى بأنه وجود نحو الموت . والوجود كله هو وجود الى الفناء . هذا التناهى والأجل المحدود هو الذى يضفى على القلق وجهه الفاجع . لكن الموت يحرر الانسان من كل ألوان الهم ، لهذا بالشعور بالموت ينطوى على شعور بالحرية والتحرر من كل شيء .

كتابات هيدجر السياسية

ويعد كتاب **((كتابات هيدجر السياسية))** الذى نقدمه فى هذا العرض أوفى واحدث دراسة عن أفكار هيدجر السياسية ، وهو من تأليف باحث فرنسى شاب يدعى **جان - ميشيل بالمييه** ، وله دراسة منشورة عن هيجل **((رسالة عن صياغة مذهبية هيجل))** وغيرها عن **هربرت ماركيوز ولاكان** . ويتناول بالمييه فى كتابه الافكارالسياسية للفيلسوف هيدجر كما جاءت فى خطبه ومقالاته ومحاضراته عام ١٩٣٣ ومابعده ، والتى تحدث فيها عن الحركة الاشتراكية الوطنية والفوهرر ومفهوم العمل والتكنيك العالمى وكتاب العمل الذى كان قد ألفه أرنست يونجر الكاتب النازى صديق هيدجر .

يقرر المؤلف فى البداية أن هذه الدراسة لكتابات هيدجر السياسية ليست اتهاما موجها لهيدجر ، ولا هى بالرافعة التى تدفع عنه تهمة النازية ، لهذا فالسؤال **القائل : هل كان هيدجر نازيا ؟** لن يلق جوابا فى هذه الدراسة ، ولن يكون له أى مدلول . لقد ارتكب هيدجر خطأ تاريخيا فادحا شاركه فيه الكثير بتأييده المطلق لزعامة هتلر وايمانه الكامل بدوره العظيم ، بل انه أعلن ذلك مرارا فى محاضراته وخطبه السياسية ظنا منه بأن الاشتراكية الوطنية . تستطيع أن تنقذ ألمانيا من محنتها وأن تقضى على البطالة والفقر ، ومن ثم كان يرى فى هتلر أملا لحياة أفضل وأرغد .

فى أبريل ١٩٣٣ أنتخب هيدجر مديرا لجامعة فريبورج بالاجماع تقريبا (باستثناء صوت واحد) تقديرا لمكانته الفكرية كأكبر فيلسوف فى ألمانيا . وكان حتى ذلك الوقت بعيدا عن مجالات السياسة ، اذ لم يكن يمارس أى نشاط سياسى ، ولا كان عاطفا على أى حركة سياسية أو حزبية بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الاولى ، كما كان مستقلا عن دوائر القوميين الذين أحاطوا بارنست يونجر وارنست نيكيش فى شمال ألمانيا . وبعد انتخابه انضم الى الحزب الوطنى الاشتراكى بناء على طلب وزير التعليم الذى لفت نظر هيدجر الى ماسوف يتعرض له من حرج كمسئول فى الدولة اذا لم ينضم للحزب .

ولكى نفهم هنا معنى رئاسة هيدجر للجامعة لابد أن يؤخذ فى الاعتبار الموقف الدرامى للجامعة الالمانية . بمجيء النازى الى الحكم كانت الجامعات تدخل مرحلة يائسة ، وكانت رئاسة هيدجر قصة محاولة وسقوط تام للتغلب على أزمة كانت تحتدم آنذاك . فهو قد ظن أنه قادر على اصلاح الجامعة داخل هذا الموقف السياسى والتمرد على الانظمة الجامعية . وفى مايو ١٩٢٣ ألقى هيدجر خطابا عن استقلال الجامعة حيث نطالع بوضوح تبريرا نظريا لانضمامه للحزب النازى . وفى الاشهر العشرة التالية التى أمضاها فى منصبه ، ترددت فى خطبه عبارات تؤكد تأييده الايجابى لهتلر ، بل انه منح تأييده المطلق للحركة القومية وسمح باستغلال اسمه فى أغراض دعائية .

وقد اهتم هيدجر فى خطاب العمادة بتحديد ماهية الجامعة الالمانية ، والدور الذى يحددها لها التاريخ فى هذه المرحلة من تاريخ الشعب الالمانى : ((**ماذا يعنى استقلال الجامعة ؟ ان تأكيد شخصية الجامعة هو ارادة جوهرها الاصيل . ومع ذلك لا يعنى هذا الاستقلال عدم الاتفاق بحال مع الامة ومصيرها ، فالجامعة تضرب جذورها فى قلب الشعب والجماعة التى تتألف منها ، والجامعة الالمانية بالنسبة لنا هى المدرسة العليا التى تعد موجهين وقادة لمصير الشعب الالمانى**)) . ثم طالب هيدجر تلاميذه بأن يكفوا عن هذه الحياة السهلة وهذه الحرية السطحية المزيفة لكى يحققوا المعنى الاساسى لمهمة الجامعة ورسالتها المصيرية .

ويعلق المؤلف على هذه الفقرة من خطاب العمادة بقوله ان سوء الفهم والظن قد تحالفا ليصدر البعض قرارا بادانة هيدجر لمصادرته أى مظهر للحرية الجامعية لكى تحقق الجامعة أهداف الدولة . وبعبارة أخرى ، حين تصبح الجامعة جزءا من الدولة الشمولية استنادا الى عبارة هيدجر ((**ان الحرية الجامعية التى طالما تغنى بها الناس لم يعد لها مكان فى الجامعة**)) . وبذلك لا يقتنع المدير الجديد للجامعة بتوكيد تعاطفه مع النازية والثورة الالمانية ، بل يبتهج بسيطرة الحزب على الجامعة وبمصادرة حرياتها . لكن المؤلف يتصدى للدفاع عن هيدجر - وهو دفاع يتردد على صفحات الكتاب بقوله : **ان الحرية التى كان هيدجر يندد بها ليست حرية التعليم أو التعبير وانما هى الحرية المرادفة للاهمال واللامبالاة !**

ثمة مظهر آخر من مظاهر انخراط هيدجر فى صف الحركة الاشتراكية الوطنية ، هو تلك النداءات التى وجهها الى الجامعة أساتذة وطلابا يومى ٣ و ١٠ نوفمبر ١٩٣٣ ، وهى بلاشك شهادة مؤسسة على تواطئه الكامل وتأييد للنظام النازى . اذ أعلن هيدجر فى خطابه : ((**فى ١٢ نوفمبر يحدد الشعب الالمانى باسره مستقبله . والشعب لايمكن أن يختار هذا المستقبل ويصوت بنعم استنادا الى اعتبارات مزعومة دون أن يتضمن موافقته على الفوهرر والثورة التى يقودها - ليست هناك سياسة خارجية وسياسة داخلية ، بل ارادة واحدة هى أن يمنح الشعب وجوده للدولة . هذه الارادة التى بعثها وأمسك بزمامها الفوهرر فى الشعب كله وهو فى كامل يقظته . ليس طموح الفوهرر هو الذى دفعه الى الخروج من عصبة الامم ولاعشق المجد ولا العناد الاعمى ولا الرغبة فى العنف بل فقط الارادة**

الواضحة في أن يكون مسئولا مسئولية بلا حدود ليتحمل مصير شعبنا ويحكمه . »

ومن هذه العبارات وغيرها يظهر بجلاء اندفاع هيدجر الاعمى لمناصرة النازية ، الذى جعله يتوهم أن هتلر هو حقا الزعيم المتطلع الى اجراء اصلاحات اجتماعية وخلق نهضة شاملة . لكن المؤلف يلتمس لهيدجر الاعذار ويصف حماسه للنازية بأنه سقطة غير قاتلة صادرة عن نية حسنة، وانها ارتكبت دون وعى أو علم بمقاصد الحركة الاشتراكية وجاء فى تبرير بالمييه (ص ٨٢) : خدع هيدجر فى دلالة الثورة الالمانية كما صورها الاشتراكيون الوطنيون . كل شيء كان يمضي كما لو كان هيدجر لايبصر الاهداف الحقيقية للوطنيين ، والنوايا الطيبة التى نعتهم بها تشهد بسوء تقديره .

كان لابد من مرور عام حتى يكتشف هيدجر ماهية الفكر النازى ويدرك مظاهر الجنون الاجرامى الذى اندفعت اليه سياسة المانيا . ففى الوقت الذى القى فيه هيدجر خطاب العمادة كان يظن أن الهزة التى أحدثتها الاشتراكية الوطنية سوف تفتح عصرا جديدا لالمانيا وتقيمها من حطامها . لكن سرعان مااستقال من منصبه فى ابريل ١٩٣٤ عندما طلب اليه عزل الاستاذين فولف وميليدروف نظرا لعدم تعاطفهما مع النازى . ويقول المؤلف أن هيدجر منذ ذلك التاريخ تعرض لهجوم مفكرى الحزب النازى الذين أثاروا الشبهات حول ولائه للنظام الرسمى وعابوا عليه نزعته الارستقراطية .

غير أن انضمام هيدجر الى الحركة الوطنية ــ فضلا عن أنه نتيجة منطقية لفكر هيدجر الفلسفى ــ كانت له أسوأ الآثار ، اذ أنه سمح أثناء عمادته لجامعة فريبورج باستغلال اسمه لاهداف دعائية ــ بتأييده الايجابى للحزب بالخطب والمقالات ــ مما دعا أساتذة وطلابا كثيرين ممن كانوا يؤمنون بزعامته الفكرية للانخراط فى عجلة الحركة الاشتراكية الوطنية ، وبذلك أصبحت مسئوليته التاريخية **جسيمة حتى لو ادركنا ماقد يجعل هذا الانضمام ممكنا .**

لكن المؤلف يحاول أن يقلل من شأن انضمام هيدجر للحزب بحجة أنه ماكان ليقدم على هذه الخطوة بدافع من ولائه واقتناعه الشديد ، بل من المحتمل أنه ماكان سينضم الى الحزب مالم يكن مديرا لجامعة فريبورج .

كل انسان كما قال هيجل ابن لزمنه ، وهيدجر وان كان مفكرا عظيما الا أنه معرض كأى مفكر آخر لهذا الخطر . فهو قد أخطأ كما أخطأ المجوز **افلاطون** وكما أخطأ **هيجل** الذى وحد بين الروح المطلقة ونابليون . وخطأ هيدجر أنه كان ينتظر **انطلاق الحياة ممن كان يحمل فى ذاته نسمة الموت .** ومن خلال خطئه هذا شهد بارتباطه الوثيق بمصير الامة الالمانية ، لهذا فقبل اصدار حكم على هيدجر ينبغى أن يوضع فى السياق التاريخى لاعماله السياسية .

الفيلسوف فى سياقه التاريخى

عندما تنحى هيدجر عن عمادة الجامعة وضع تحت مراقبة محكمة، في محاضراته عن اللوجوس هاجم بيولوجية المفكر النازى **روزنبرج** والنظريات العنصرية . ومحاضراته عن **نيتشه** تضمنت نقدا حادا للفلسفة النازية وممثلها الرسمى **الفريد باوملر** . ولم يكن فى مقدور هيدجر التصدى لموضوعات الايديولوجية النازية مباشرة ، بل كان يكفيه أن يعرض فكره الخاص لكى يبرز تناقضه مع النازية .. وتعرض هيدجر لهجوم مفكرى الحزب ، منهم **ارنست كريك** مدير جامعة هيدلبرج الذى أصدر حكلما بالموت على الفلسفة الغربية والميتافيزيقيا لانها لم تعد بذات جدوى بعد ظهور النازية . وكريك هو مؤسس مذهب التربية الاشتراكية الوطنية ومؤلف **«انثروبولوجيا شعبية »** ، وكتاباته ذات صبغة جرمانية متطرفة ويتلخص هجومه على هيدجر فى الآتى :

هيدجر وريث اليهود وهوسيرل وأعداء الشعب الالمانى ، ان مضمونه الفكرى غامض . فمن يجرؤ على القول بأن هذه العبارة **«ان العدم هو الذى يعدم»** عبارة المانية ؟ ان **«الوجود والزمان»** كتاب لاينتسب الى الميثولوجيا الالمانية . وهيدجر استلهم مصادر اغريقية ويهودية ، وهو غريب عن الاشتراكية الوطنية ، ولايستطيع بحال أن يعتبر نفسه فيلسوفا ألمانيا ، انه تلميذ **ارسطو** وتوما **الاكوينى** وبالتالى **كيركجورد** واليهودى **هوسيرل** وهم فلاسفة لاشأن لهم بالجرمانية .

ان مضمون هذه الفلسفة الحاد صريح وعدمية ميتافيزيقية ، وهى خميرة للانحلال والدمار موجهة للشعب الالمانى . فى كتاب **«الوجود والزمان»** بحث عن الوجود اليومى لكننا لانجد شيئا عن الجنس وجميع قيم تصورنا لعالم الاشتراكية الوطنية .

يبلغ عدد نصوص هيدجر السياسية الهامة فى حوالى الثلاثين ، وهى تشهد بلا شك بخطأ تراجيدى عندما كان ينتظر اصلاحا جذريا لالمانيا على يد الثورة الاشتراكية القومية ، ويتضمن بعض اشارات جوهرية لماهية العلم والعمل والتكنيك العالمى ، وهى لم تترجم جميعا الى الفرنسية والانجليزية . انما تؤلف لحظة أساسية فى اتجاهه الفكرى ولا يعنى المؤلف بالمييه بتقديم تفسير كامل لهذه النصوص بل يشير فقط الى الآفاق التى تكتسب فيها معناها ، وهو تحقيق الميتافيزيقا فى ماهية التكنيك الكوكبى . وبعض النصوص معروف خارج المانيا وكثيرا مايرد ذكرها كشاهد على ماضى هيدجر النازى .

يلتقى هيدجر مع الايديولوجية النازية فى **مفاهيمها** الأساسية التى تراه يتبناها فى خطبه ونصوصه . فى مايو ١٩٣٣ نشر هيدجر بمجلة الجامعة مقالا عن مرفق العمل والجامعة وتحدث فى الموضوعات التى تناولها عن النداءات القادمة : **« لن تظل المدرسة والجامعة مصادر وحيدة للتربية ، فثمة قوة جديدة تشق طريقها ، هى ضريبة العمل التى تأخذ مكانتها الى جانب الجامعة والمنزل وبيوت الشباب »** . ويشيد هيدجر فى هذا النص بالعمل .. لا يوجد سوى قطاع واحد من الحياة

الألمانية هو العمل المتأصل فى أعماق شعبنا ويخضع لارادة الدولة ، ان طابع العمل مرسوم في حركة الحزب الاشتراكى الوطنى للعمال » .

ويشير هذا النص بوضوح الى التزام هيدجر بالثورة الاشتراكية الوطنية وتأييده لها .

ذلك لأن تمجيد العمل اليدوى كان موضوع دعاية نازية يتردد دائما فى خطب هتلر نظرا لما كان ينطوى عليه من دلالات هى :

- **انقاذ ألمانيا من ضائقتها الاقتصادية بتوجيه نداء لجميع العمال دون تفرقة .**
- **اخفاء المتناقضات والمنازعات الاجتماعية بالسعى لخلق مجتمع مصطنع عن طريق اسطورة العمل الشامل والاخلاص المطلق للمجتمع الشعبى .**
- **مكافحة الشيوعية ونظرية صراع الطبقات .**

الى أى مدى انساق هيدجر فى تيار التزييف الايديولوجى ؟ لنقرأ مثلا فقرة مما جاء فى خطابه الذى ألقاه فى ٣٠ أكتوبر ١٩٣٣ :

« ان المعرفة والحصول عليها بالمعنى الذى تفهمه الاشتراكية الوطنية لا تقسم الأفراد والوطن والولايات الى طبقات بل على العكس توحد وتضم الجميع فى الارادة الواحدة العظمى للدولة. وهكذا فان كلمات المعرفة والعلم والعامل والعمل قد اصبح لها معنى آخر وصوت جديد . كلمة العامل مثلا ليست كما تريدها الماركسية الموضوع الوحيد للاستغلال ، ان دولة العامل ليست طبقة المعدمين الذين يشعلون صراع الطبقات » .

الا أن هيدجر يتخذ من ماركس موقفا مغايرا تماما لما جاء فى كتاباته قبل ثلاثين عاما ، فقد نشرت له دراسة عام ١٩٦٣ بعنوان « **رسالة كنت عن الوجود** » حيث تحدث عن « **الايديولوجية الألمانية** » و « **رسائل عن فويرباخ** » لكن الشىء الذى لم يتغير هو يقينه بأنه لا يستطيع أن يتصور أى تغير للعالم خارج الميتافيزيقا التى تعد أساسا له .

المضامين السياسية لفلسفة هيدجر

هل تنطوى فلسفة هيدجر على مضامين سياسية ؟

هذه المضامين هل هى اشتراكية وطنية ؟

وهل هى تكفى لتفسير تأييده للنازية والتقائه مع أرنست يونجر الاديب الالمانى الذى كان متحمسا لاستيلاء الاشتراكيين الوطنيين على الحكم ؟

حول هذه الأسئلة ظهرت ثلاثة دراسات كتبها **كارل ليفيت** تلميذ هيدجر **والكسندر شفان وبول هرفيلد** .

حاول **ليفيت** أن يستخلص فى دراسته عن هيدجر المحتوى السياسى لفكر هيدجر فى الوجود كما جاء فى كتابه الرئيسى « **الوجود والزمان** » . لقد أطلق ليفيت على أستاذه هيدجر العدمى . والنصوص الأساسية التى ناقشها ليفيت هى : نداءات هيدجر لعام ١٩٣٣ . والوثائق التى أوردها ليفيت ليزعزع الثقة فى صورة هيدجر عبارة عن رسائل شخصية كان قد تلقاها من هيدجر .

وفى مقال له عن مضمون فكرة الوجود عند هيدجر يفسر ليفيت فلسفته كلها ابتداء من عبارة مأثورة للشاعر الألمانى **دينيه ماريا رلكه** ، ويعتقد أنها تشرح بايجاز عدمية هيدجر :

« **بقوة الاعتقاد فى التقدم والانسانية نسى العالم البرجوازى اللحظات الأخيرة للحياة البشرية وهو يعلم بأن الموت والله قد تجاوزاه الى الأبد** » .

وأشار ليفيت الى أن « **الوجود والزمان** » يجد صداه فى التعبيرية الألمانية . ويرسم لهيدجر فى مقاله صورة متشائمة فى مقابل عدمية النازى وخطرها التراجيدى المتصاعد. كما يرى ليفيت أن انضمام هيدجر للحزب الاشتراكى الوطنى يبدو نتيجة حتمية لمنطق لا بديل له هو : كيف لا ينبهر هيدجر العدمى بعدمية النازى ؟ ان مفتاح تفسير التقائه مع النازى يكمن فى التفسير الذى قدمه للوجود فى كتاب « **الوجود والزمان** » ، وهو أن الدور المهيىء لهم والقلق وتعريف الانسان كموجود نحو الموت تبدو كعناصر صادفت استجابة سريعة فى الأسطورة الهتلرية .

ويقودنا ليفيت عبر الطريق الموصل من **لوثر الى هتلر** مارا بهيدجر الذى سار فى نفس الاتجاه الذى انتهى بهتلر . والا فمن أين جاء هذا التصور الهيدجرى للوجود ان لم يكن تفكيره مشبعا باللاهوت . بالاضافة الى أن لوثر وكلفن مذكوران صراحة فى كتاب « **الوجود والزمان** » .

ان ليفيت يفكر مثل انجلز فى أشكال الدولة ، فألمانيا ظهر فيها الفلاسفة الذين تستحقهم واستحقت فى مصيرها المأساوى هيدجر الذى يعتبر أعظم مفكرى عصر الضيق والانحلال . فى قصيدة « **خبز ونبيذ** » يتساءل **هيلدرلن** : لماذا يظهر شعراء فى زمن الضيق ؟ ويتساءل ليفيت . لماذا يظهر فلاسفة فى زمن الضيق ؟ ألا يمثل هيدجر - مثل **ريتشارد فاجنر** - القيم العليا للانحلال ؟

ويواصل ليفيت نقده قائلا : باسم جو القلق والتشاؤم واليأس الذى يخيم على كتابات هيدجر كان يعتبر شخصية مرموقة فى الاشتراكية الوطنية وأحد الذين مهدوا لها بحماس .

أما **الكسندر شفان** فقد أجاب فى رسالته « **الفلسفة السياسية فى فكر هيدجر** » عما يتطلبه كل تفسير حقيقى لكتابات هيدجر عام ١٩٣٣ . ويستفسر شفان عن **المعنى الدقيق** لعبارة « **فلسفة سياسية** » وهل تنهض على أساس واضح ؟ ويبرر شفان مشروعه ابتداء من أسانيد عديدة هى :

- هناك اشارات متفرقة فى نصوص هيدجر الى أحداث وموضوعات أساسية فى التاريخ : حكم التكنيك العالمى ، العصر الذرى ، التأمرك ، أوروبا بين فكى كماشة ، الدولة الشمولية ، **الاشتراكية الوطنية** .
- طائفة من محاضرات هيدجر التى حاول فيها **تحديد** ماهية السياسة .
- تأييد هيدجر للاشتراكية الوطنية وخطبه ومقالاته التى لا تدع سبيلا للشك فى ولائه التام للفوهرر وتعاطفه معه .

كما أشار شفان الى أن هيدجر اتخذ موقفا من التاريخ

العالمى ، لكن هل يكفى هذا كله للحصول على فلسفة سياسة عند هيدجر ؟ يجيب شفان بأن هيدجر في خطبه وكتاباته السياسية قد حدد فلسفة سياسية للموقف الروحى لهذا العصر . وحتى لو ظلت تلك الاشارات أحاديث بسيطة غير ناضجة ومبعثرة فى سباق مباحث أخرى ، ينبغى أن تؤخذ مأخذ الجد وأن تكون حاسمة فى الحكم الذى يمكن للمؤرخ أن يصدره على فلسفته كلها .

لكن الى أى مدى تنطبق هذه الآراء على ماهية فلسفة هيدجر ومشكلاته الأنطولوجية ؟ حاول شفان أن يبرهن على أن النشاط السياسى لهيدجر هو أسلوب للكشف عن الحقيقة . وتحديد ماهية السياسة عنده هو أن توضح الحقيقة موضع العمل . ويجب أن يحدد مجال السياسة كتعبير أيضا عن ماهية الحقيقة . فالسياسة فى جوهرها هى الحقيقة فى موضع العمل . والسؤال المطروح دائما يتعلق بالتركيب السياسى بمعناه الأصلى حتى يأتى التحديد مطابقا لمصير الكشف عن الحقيقة . ومن خلال التساؤل عن ماهية الحقيقة يناقش شفان مسألة انضمام هيدجر الى الحركة الوطنية الاشتراكية . وتمر جولة شفان بمراحل عدة :

- **النشاط السياسى لهيدجر ينبغى أن يدرس ابتداء من ماهية الحقيقة حيث تظهر السياسة فى ماهيتها : ماهية الحقيقة فى الممارسة .**
- **يرجع تحديد ماهية السياسة الى المحاضرات التى ألقاها هيدجر عام ١٩٣٦ حول ماهية العمل الفنى ودروس مدخل الميتافيزيقا .**
- **دراسة الحقيقة فى الممارسة التى تعرف بوصفها كشف عن ماهيتها يؤدى الى تفسير فلسفة سياسية تتفق مع الممارسة .**
- **الفلسفة السياسية التى تتفق مع التطبيق لا تنفصل بحال عن الحركة الشمولية (الديكتاتورية) التى اتخذ منها هيدجر موقف التأييد التام .**
- **اعتناق هذا المبدأ يفسر انضمام هيدجر الى الحركة الاشتراكية الوطنية ، وتأكيده لنظرية دولة الفوهرر كما أشارت اليها خطبه ونصوصه المنشورة أثناء عمادته للجامعة .**

ويفرد المؤلف فى كتابه فصلا عن كتاب « **العامل** » **لارنست يونجر** الكاتب الألمانى صديق هيدجر الحميم ، وهما اللذان التقت أفكارهما ونظراتهما بشأن صورة العامل والتكنيك العالمى ، مما دعا هيدجر الى أن يخصص بعض نصوصه السياسية للتعليق على كتاب « **العامل** » . لهذا يعد هيدجر الذى انبهر بمضمون هذا الكتاب أكبر مفسر ليونجر . وليس « العامل » سوى امتداد وتنويع للمسائل التى طرحها هيدجر عن التكنيك **الكوكبى** للانسان الغربى الذى يعمل ويصمم .

ينتسب يونجر الى فريق الساسة والمفكرين الذين لعبوا دورا غير محدد فى اطلاق حركة الاشتراكية الوطنية ، لكن المؤلف ينكر خطورة هذا الدور ويقول : **اذا كان يونجر يعد داعية للنازية فهل ثمة حاجة بنا للعناية بكتابه ؟ كلا ، فأولئك الذين ينظرون الى يونجر كأحد الايديولوجيين النازيين انما يغفلون معنى كتاباته .**

فى عام ١٩٣١ نشر يونجر الجزء الأول من كتاب «العامل» بعنوان «**التعبئة الشاملة**» الذى حاول فيه أن يبرز حقيقة جديدة هى بزوغ فجر السيطرة العالمية للتكنيك . هذه الرسالة تؤكد السيطرة المتزايدة للتكنيك على العالم . وفى هذه السيطرة تحقق ارادة القوة غاية انجازاتها ، من أجل هذا يقول هيدجر فى مقاله « **عن مسألة الوجود** » ان يونجر يفكر فى الموجود ككل فى ضوء وظلال ميتافيزيقيا ارادة القوه .

كتاب العامل هذا اعتبره البعض خلاصة ايديولوجية للبولشفية ، بينما اعتبره **جورج لوكاتش** دفاعا عن النازية وتمهيدا لها . وقد أبدى هيدجر اهتماما بالغا بهذا الكتاب حتى ان روايات غير مؤكدة تجزم بأنه جعل قراءة « العمل » شرطا لحضور ندواته .

ما المعنى الذى استخلصه هيدجر من كتاب «العامل» ؟

حاول يونجر كشاهد على انحلال العالم وهزاته الأخيرة أن يفكر فى أساسه ، وأدرك ماهية العصر كحكم غير شرطى للتكنيك . وهيدجر فى حواره مع يونجر يريد أن يبين أن حكم التكنيك العالمى ليس الا خاتمة الميتافيزيقا اليونانية

هيدجر هو المفسر الأول لكتاب « **العامل** » . ومن ثم يجب أن يفهم مغزى كتابات يونجر فى اطار المشكلة الهيدجرية . هذه الكتابات عبارة عن تأمل للعدم وعلى الاخص الصورة التى تتخذها العدمية فى سيطرة التكنيك . ومن العبث أن يجد المرء مؤلفا يعرض متناقضات العالم الحديث والقوى العظمى مثلما جاء به كتاب « **العامل** » .

لكن من المؤكد أن المرء لن يعثر عند يونجر على العمق الميتافيزيقى الذى تتصف به معالجة هيدجر لمشكلاته . ان تحليلات يونجر ــ وهو أديب فى المقام الأول ــ هى توكيدات براقة لتحليلات هيدجرية ، الا أنها لا تتجاوز نطاق الملاحظة الدقيقة الحادة الواضحة لانسان ليست لديه أشياء غريبة . والكتاب حافل بتأملات للأحداث العالمية . واذا اعتبرنا العلم الحديث علم التكنيك فقد اتخذ يونجر من التكنيك موضوعا رئيسيا لتأمله .

وترجع أهمية هذا اللقاء وهذا الحوار بين هيدجر ويونجر بشأن كتاب « العامل » الى اعتبارات عدة هى :

- **ان أى تساؤل عن ماهية التكنيك العالمى موضوع يتكرر دائما فى كتابات هيدجر الأخيرة ولا ينفصل بحال عن تأمل هيدجر لكتاب « العامل » .**
- **ان وصف اكتمال الميتافيزيقا الغربية وتحققها فى ماهية التكنيك مأخوذ عن كتاب يونجر ، و «العامل» فضلا عن ذلك مذكور فى نص هيدجر مقالات ومحاضرات الذى تناول فيه موضوع تجاوز الميتافيزيقا .**
- **يونجر هو الذى قدم وصفا هاما للعدمية الايجابية فى انجازاتها الأخيرة ولمجىء التكنيك الكوكبى .**

● **يمثل يونجر حلقة أساسية فى سلسلة تضم هيدجر ونيتشة .**

● **بالاشارة الى اشكالية « العامل » ليونجر يتضح لنا المعنى التاريخى الذى أقره هيدجر للحركة الاشتراكية الوطنية العمالية الألمانية كلقاء بين التكنيك العالمى المنظم والانسان الحديث .**

ويتفق يونجر وهيدجر على ارتباط ماهية التكنيك العالمى بالانسان الحديث . وكتاب « العامل » **لا يفهم دون العودة** دائما الى **السياق التاريخى الذى دون فيه** . كان **نيتشة** يؤكد أن الشجرة **كلما ارتفعت أغصانها فى السماء امتدت جذورها** فى الأرض . هذه العبارة يمكن أن **تعد مدخلا لتفسير كتاب** يونجر اذا فهمت بمعناها الصحيح .

ويعود بالمييه مؤلف « **كتابات هيدجر السياسية** » أن يبرىء كتاب « العامل » من أى تورط فى الايديولوجية النازية وهو التفسير الذى طالما ردده المفكرون الماركسيون **ادورنو ولوكاتش ونيكيش** ، الذين يعتبرون الدوائر القومية التى ظهرت فى شمال ألمانيا مهد النازية وفلسفتها ولا سيما أن يونجر كان أحد دعائمها . ثم يقول بالمييه ان مثل هذا الفهم الخاطىء لكتاب يونجر **لايدع مجالا لتكوين فكرة صحيحة عنه** ، بل ان بعض موضوعاته تناولها النازيون وحرفوها ، **وهو رأى** لم يتأكد صدقه . وهيدجر فى مقال له يرى أن « **العامل** » **يجب أن يفهم** ابتداء من الماهية الهيجلية **للعمل ومن تحديد** كينونة الموجود بوصفها ارادة القوة التى تجد عنـد نيتشة أساسها الأخير فى صورة مذهب القيم .

لكن ما الذى تكشفه صيغة العـامل عنـد يونجر ؟ ماذا يعنى فجر التكنيك الكوكبى ومجيئه ؟ ان صـورة العمل كمصير انسانى لم تكن واضحة . **كل يختبر العمل لذاته** . فى مقدمة العامل يذكر يونجر بعض الايضاحات التى يحدد بها صيغة العامل :

« **ترمى خطة الكتاب الى ايضاح صيغة العامل باعتبارها قوة فعالة تترك آثارا عميقة فى التاريخ ، وهى تحدد صـورة عالم متغير . ولا يقصد بها نظام أو فكر جديد بل حقيقة جديدة ظاهرة للجميع** » ويرفض يونجر تبعا لذلك تناول هذا الكتاب كبرنامج سياسى أو أيديولوجى بسيط . ان حقيقة العـامل تعرف اذن كصيغة ، **انها قوة مؤثرة ينبغى الاعتراف بها** تعلو كافة **التقسيمات التى جاءت بها الأحزاب والأحكام القبلية** ، هذه الصيغة لم تكتشف الا منذ وقت قريب .

هذه الخلاصة السريعة للمقدمة تستوقف الانتباه، ان كتاب «العامل» يثير الشكوك : اذ كيف يمكن أن يتحدث يونجر عن العامل كصيغة ، كصورة ، ككل ؟ أليس ذلك نذيرا بمقدم الأسطورة الهتلرية التى جعلت من العـامل والصانع عمالا فى خدمة أهداف دولة شمولية ؟ كيف يسمح يونجر ومثله هيدجر أن يجرد العامل من موقفه التـاريخى ؟ ألم يقرأ ماركس ؟ هل فاته معرفة أن المجتمع منقسـم الى طبقات متصارعة ؟ أليس العمال هم الفئة الكادحة فوق الأرض؟

من هـذه الوجهـة تعرض كتاب « العـامل » لهجوم ونقد الماركسيين .

انسان ارادة القوة

جورج لوكاتش فى نقده لكتاب « العامل » يؤكد أن يونجر فى تحديده لعلاقة العامل بالتاريخ انما كان يبشر بأفكار هتلر وروزنبرج ، لكن بالمييه يتسـاءل : هل أدرك لوكاتش حقا ما كان يعنيه يونجر ؟

ان صورة العامل عند يونجر باعتبار انها تشير الى تحقيق السيطرة المطلقة للانسان على الأرض انما تنتمى الى التحديدات الأساسية لارادة القوة عند نيتشة . **فصيغة العامل هى القوة الميتافيزيقية التى تنقش تاريخنا** على صورته ، **لكن ماذا تعنى كل من هذه الصيغة وحكمها** ؟ يؤمن هيدجر بسيطرة صيغة العامل على العالم ، وهى سيطرة تتحقق فى **التعبئة الشاملة** ، المرحلة الأخيرة لميتافيزيقا القوة .

ان صيغة العامل هى القوة أو العظمة التى **ينبغى أن** تضفى معنى على العدمية الفعالة . **وفى عالم حزين** يصير العامل القوة الوحيدة التى تدرك المصير الحقيقى للانسان . **والعامل عنده أيضا هو صورة انسان ارادة القوة .**

ويونجر لم يكن يفكر **فى** ماهية ارادة القوة **بالعمق الذى** كان يفكر به نيتشة فيها عندما **تحدث عن علاقة الفن بارادة** القوة . ولكن **تفسير هيدجر لكتابات نيتشة تنحصر فى** اظهار كيف أن ارادة القوة **بوصفها ماهية الحياة والوجود تخفى** داخليا هذين المظهرين . كذلك اذا كنا نريد أن نفكر فى ماهية ارادة القوة كتحديد تاريخى **لوجود الكائن ينبغى أن ندرك كيف أن** الانسان الأعلى عند نيتشة والعامل عند يونجر ينتسبان كلاهما الى ماهية ارادة القوة وغايتها . وهذا ماعبر عنه هيدجر بقوله: **ان ماهية صيغة العامل تنتمى وتضرب جذورها فى ماهية صورة زارادشت داخل ميتافيزيقا ارادة القوة** . وعن طريق تحديد الموجود كقوة عاملة فان نشاط الواقع الذى تحدث عنه هيجل يعود الى الظهور . وأخيرا ان علاقة ماهية العمل بالألم تنتمى الى التحديد الهيجلى للعمل كعملية سلب للبناء .

معنى ذلك أن ارادة القوة باعتبارها نشاطا لما هو كائن تحديد لكينونة الموجود . **ويؤكد** هيدجر أنه فى نهاية هـذه العملية التى تشمل الكينونة . بوصفها نشاطا **ينبغى أن يظهر** بالضرورة فى صورة العمل . كذلك تتحد الكينونة بالعمل عند يونجر فى نهاية الأمر .

ثم يطرح المؤلف عدة أسئلة للمناقشة هى :

● **فيم ينتمى تحـديد ماهية العمل عنـد يونجر الى ميتافيزيقا هيجل ؟**

● **ما دلالة تحـديد ماهية العمـل فى اشكالية ارادة القوة ؟**

● **ماذا يعنى اندماج كينونة الكائن بالعمل بالنسبة لماهيته العصرية ؟**

ويحتل التكنيك العالمى مكانة فريدة فى كتابات هيدجر السياسية . والفيلسوف لايتساءل عن التكنيك كظاهرة بين ظواهر أخرى ، بل باعتبار أن الميتافيزيقا تتحقق فى النهاية

من ماهية التكنيك وتندمج معها . ولم يتضمن خطاب العمادة أية اشارة الى التكنيك فى حديثه عن العلم وماهية العمل وكان قد تناوله بايجاز فى كتاب « **الوجود والزمان** » من خلال « الشيء والأداة » .

ظاهرة التكنيك

ويظهر اهتمام هيدجر بالتكنيك لأول مرة فى محاضرة (**مقدمة للميتافيزيقا**) (١٩٣٥) والمنشورة ١٩٥٣ . ومعظم النصوص التالية تحوى اشارات أو اضافات حول التكنيك العالمى وماهيته . فى « زمن التصورات العالمى » (١٩٣٨) يتساءل عن ماهية الأزمنة الحديثة ويسوق آراءه حول ظهور التكنيك الحديث وعلاقته بماهية الميتافيزيقا . وفى « **تجاوز الميتافيزيقا** » يتحدث عن العامل عند يونجر . ويتساءل هيدجر فى مقاله « **لماذا ثمة شعراء** » ؟ (١٩٤٦) عن علاقة التكنيك بماهية العصرية من خلال شعر رينيه ماريا رلكه .

ويمكن تحديد اتجاهات هيدجر ويونجر فى التكنيك على النحو الآتى :

- **يتميز العالم الحديث بمجيء التكنيك العالمى وحكمه .**
- **يقصد بفجر عصر جديد ، تعبئة شاملة للبشرية فى صيغة العامل .**
- **هذه التعبئة الشاملة تتفق مع المرحلة الأخيرة من ميتافيزيقا ارادة القوة .**
- **يسيطر التكنيك على الانسان أكثر مما يسيطر الانسان عليه .**

ويعتبر هيدجر التكنيك الحديث خطرا لا يفوقه خطر آخر . ففى محاضرته عن رلكه « **لماذا ثمة شعراء ؟** » يبين كيف أن التكنيك قد خطط المنظر الطبيعى الذى يحيط بالانسان بل وخطط وجودنا بأسره . ومن هنا تندمج ماهية العصرية مع حكم التكنيك . والتكنيك بقدر مايسود كل كائن فانه يسدل على وجوده قناعا يعترض انفتاحه ، ويخفى حقيقة ماهيته . والفن الحديث لا يتسنى فهمه أيضا الا بالاستعانة بالتكنيك وماهيته .

ويفترق هيدجر عن **رلكه** فى حكمه على التكنيك فماهية التكنيك عند الأول لا حد له ، وهى خلاص كذلك .

عند **نيتشة** نجد المصدر الأول والرئيسى لفكر يونجر الذى يعترف فى تحليلاته بصورة العدمية التى أعلن نيتشة عن مجيئها . وليست العدمية قدر أوروبا أو الغرب فقط بل أصبحت قدر العالم . لم تعد العدمية أشد مايفزع له البشر ، بل صارت حالة عادية لا تثير القلق ، وفى مجال العدمية **الكوكبية** يتأمل هيدجر كتابات يونجر ويعلق : « ان مجيء العدمية **الكوكبية** وسيادتها تتسم بخصائص العصرية . هذه العصرية تميز العدمية باعتبارها تحقيقا لخراب الأرض . لكن هل كان مبدأ الخراب معروفا عند نيتشة ؟ ماذا قال نيتشة عن الوجود ؟ يجيب هيدجر فى «المدخل الى الميتافيزيقا» **بأن الوجود عند نيتشة لا يقبل الوجود كالعدم ، فهو** كالعدم يعرف بوصفة كلمة فارغة . ان دلالة هذا الوجود ليس سوى بخار وهمى ، كذلك يسمى نيتشة الوجود الدخان الاخير لحقيقة متبددة .

ماهية الميتافيزيقا تبلغ منتهى تحققها فى ماهية التكنيك ، والموضوع الرئيسى لكتاب العامل وهو : « **لقاء الانسان الحديث والتكنيك الكوكبى** » يستمد أساسه ومبرراته من كتابات نيتشة . ويونجر قد أعلن عن الموضوعات الرئيسية التى سيتناولها فيما بعد فى رسالة التعبئة الشاملة (١٩٣١) حيث نطالع اتجاهاته حول ماهية الحرب الحديثة وعلاقتها بالتكنيك وهى التى تظهر من خلال العمل كأسلوب فى الوجود . وفى « **التعبئة الشاملة** » يتحدث يونجر عن تحقيق المرحلة الأخيرة لارادة القوة عند نيتشة وهى تنذر بالمثل بنهاية الميتافيزيقا الغربية .

على هذا الطريق يلتقى نيتشة وهيدجر ويونجر . انهم يشهدون بدرجات متفاوتة على قدوم هذه المرحلة . ان صيغة العامل عند يونجر ، التى تعبىء البشر عن طريق التكنيك ، يجب أن تفهم باعتبارها شكلا تاريخيا للتحقيق الميتافيزيقى . انها الكلمة الاخيرة لارادة القوة . فليس «العامل» ضيفا منعزلة بل ينبغى أن تفهم باعتبار أنها تحدد وجود الانسان فى نطاق ميتافيزيقا متحققة .

المعنى التاريخى للحركة الاشتراكية الوطنية .

ان لقاء الانسان الحديث والتكنيك **الكوكبى** موضوع كتاب « العامل » هو المعنى التاريخى الذى أقره هيدجر للحركة الوطنية الاشتراكية الألمانية .

لكى نفهم هذا المعنى نتأمل قليلا العبارة التى جاءت فى « **مدخل الى الميتافيزيقا** » : « فى عام ١٩٢٨ ظهر الجزء الأول من بيبلوجرافيا عامة عن تصور القيمة ذكر ناشرها أسماء ٦٦١ مؤلفا عن « القيمة » ، من المحتمل أن يبلغ الرقم الآن ألفا . ذلك هو ما يطلق عليه لفظ فلسفة ، وعلى الأخص فان ما يطرح فى الأسواق اليوم باعتباره فلسفة الاشتراكية الوطنية والذى لا تربطه أى علاقة بالحقيقة الصادقة لهذه الحركة وعظمتها انما يلقى شباكه فى بحر مضطرب ، بحر هذه القيم والكليات » .

ان ذكر الاشتراكية الوطنية والاعتراف بعظمتها وحقيقتها الصادقة عام ١٩٣٥ ثم عام ١٩٥٣ عندما نشرت المحاضرة المذكورة ، كانت موضع انتقاد حاد من المثقفين والنقاد ، ذلك أن هيدجر لم يكن قد طرح عنه يوما ما ماضيه الملوث وأن المدير السابق لجامعة فريبورج كان لايزال حتى عام ١٩٥٣ منبهرا بما أسماه عظمة الاشتراكية الوطنية .

ويعلق **هوهينزفلد** على هذه الحادثة فى كتابه عن هيدجر (١٩٦١) :

« **ان انضمام هيدجر للحزب النازى وتأييده للحركة الوطنية الاشتراكية ليس حدثا مؤسفا فى حياة هيدجر ، بل ان معنى فلسفته كلها يتحدد ابتداء من هذا الاتجاه .. ان هيدجر الذى كان نازيا بالقوة فى كتابه « الوجود والزمان » أصبح نازيا بالفعل بعد عام ١٩٣٣ ، وليس تحوله عنها دون نقد ذاتى الا محاولة للتكيف لاتجاهات مابعد الحرب** » .

هيدجر والخطأ التراجيدى

اعترف بالميبه بالخطأ التراجيدى الذى ارتكبه هيدجر عندما تورط فى تأييده السياسى الكامل للفوهرر والنازية ، لكن هذا لم يصدر فى تصوره كنتيجة منطقية لفلسفة هيدجر كما جاءت فى كتابه الرئيسى « **الوجود والزمان** » . بل ان هذا التأييد انما أعلنه هيدجر فى لحظة انبهار بما يمكن أن تقدمه الاشتراكية الوطنية من اصلاحات جذرية لمشكلات المجتمع الألمانى ، لكنه لم يلبث أن تراجع عن موقفه واستقال من منصب العمادة وترك الحزب النازى وهاجم النازية فى محاضراته الجامعية ، كما تعرض لهجوم المفكرين النازيين . ثم ساق المؤلف الدليل تلو الدليل لتبرئة هيدجر من تهمة التشيع للنازية ولتوكيد استقلاله التام عن الفكر الرسمى للدولة بعد أن تخلى عن منصب مدير جامعة فريبورج .

لكن اذا كانت كل خطيئة هيدجر كما زعم المؤلف هو أنه خدع فى دعاوى النازية ، **فالنازية لم تكن حركة ايديولوجية سياسية ظهرت بغتة الى الحياة الألمانية** . فمن المعروف أن خطوطها العريضة مرسومة فى كتاب هتلر « **كفاحى** » (١٩٢٤) . وكل من اطلع على هذا الكتاب وتابع نشاط الحزب النازى حتى عام ١٩٣٣ يستطيع أن يتعرف بسهولة على ماهية الحكم فى ظل حكومة نازية : **دولة تقوم على العنصرية ومصادرة كافة الحريات والتسليم المطلق بزعامة قائد يقبض بيد من حديد على كافة مقاليد الامور وهووحده مصدر السلطات** . أمة ينهض بناؤها الاقتصادى على التعبئة الشاملة لجميع الامكانيات البشرية والمادية لخدمة أهداف عدوانية توسعية تمجد القيم العسكرية .

ان من أخص خصائص الفكر الفلسفى البحث عن الحقيقة، النظرة التنبؤية والنفوذ الى أغوار الواقع منقبا ومتسائلا وناقدا . فكيف فات هيدجر وهو مفكر من الطراز الاول أن يستشف حقيقة نوايا هتلر الاجرامية المدمرة ، وأن يدرك جوهر النازية بكل ما تنطوى عليه من عنصرية ممقوتة وعنف بالغ واهدار للكرامة الانسانية ؟

ان فيلسوفا كهيدجر كان ينبغى أن يكون أول من يعى ويتنبأ بالطريق الوعر المظلم الذى ستنزلق اليه الأمة الألمانية فى ظل حكم نازى . وفى الوقت الذى زعم فيه مؤلف « **كتابات هيدجر السياسية** » أن هيدجر قد خدعته الاصلاحات المادية العديدة التى شرع يجريها النظام الجديد ، نجد أن أعدادا هائلة من المفكرين والكتاب والفنانين الألمان كانوا يعذبون ويعدمون فى معسكرات الابادة بينما فر آخرون الى الخارج أمثال **بريخت و توماس مان** ، وهكذا لم يبرر مفكر أو كاتب حر للاشادة بالاشتراكية الوطنية ومفاهيمها على نحو ما فعل هيدجر ومن هم على شاكلته ممن هللوا لسيطرة النازى .

ويونجر صديق هيدجر يعرف فى رسالة «**التعبئة الشاملة**» الدولة الشمولية بأنها « **الدولة التى تصل الى تأكيد سيطرتها بالتكنيك وصوره المنتظمة على الحياة كلها** » وهيدجر يرى أن هذه التعبئة الشاملة تؤذن ببدء مرحلة أخيرة لميتافيزيقا ارادة القوة والدولة الشمولية التى تعتمد على التعبئة الشاملة اعتمادا كاملا انما تنتمى فى صيغتها وحكمها الى هذه المرحلة ، وهو ما أشار اليه هيدجر بوضوح فى كتابه « **متاهات** » .

ماذا تعنى التعبئة الشاملة ؟ تعبئة العمال والصناع وجميع الطاقات وأصحاب الكفايات العلمية لخدمة أهداف دولة شمولية تحقق ميتافيزيقا ارادة القوة عند نيتشة . ومن ثم تصبح التعبئة الشاملة معسكرات عمل الزامية دائمة لطبقة الرقيق كما كان يدعوها نيتشة ، لايمكن أن تقوم حضارة الا حيث توجد فى المجتمع طبقتان متمايزتان ، طبقة العاملين وطبقة المترفين الذين يمكنهم أن يعيشوا دون عمل ، أو بتعبير اقوى، طبقة العمل الالزامى وطبقة العمل الحر » . وبذلك استحالت فكرة التعبئة الشاملة التى طالما تحدث عنها كل من يونجر وهيدجر الى فكرة أساسية فى الايديولوجية النازى .

وفكرة العمل التى تناولها هيدجر فى كتاباته السياسية كدعامة لسيطرة التكنيك **الكوكبى** لم يلبث أن أشاد بها حتى عندما تحولت الى ضرب من الرق والسخرة فى ظل حكم فاشى ، وتشهد بذلك عباراته فى العمل التى جاءت مطابقة لأحداث الفوهرر عنه .

وبالميبه مهما ساق من الحجج لتبرئة كتاب العامل من أن يكون ارهاصا لنظرية النازى فى العمل فسوف تخذله عبارات يونجر نفسه التى وردت فى حديث له نشر بصحيفة الفرنسية (يناير ١٩٦٩) والذى عبر فيه عما كان يكنه من اعجاب وانبهار بالاشتراكية الوطنية حتى عام ١٩٤٢ ! بل انه لم يكتم تقديره السابق لهتلر : « **ان رجلا كان يخاطبنا مثل هتلر كان يستطيع أن ينتزع اعجابنا بسهولة** » . وفى الحديث أيضا عبر يونجر عما كان يجيش فى صدره من ارتياح وغبطة ازاء الغزو البربرى النازى للاتحاد السوفييتى عام ١٩٤١ اذ قال بالحرف الواحد. « **أعتقد أنه عند دخول الجيوش الألمانية الأراضى الروسية رأيت بأى ترحاب كنا نستقبل** » .

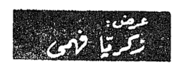
القلق عند هيدجر يؤدى الى العدم والعدم نشعر به من خلال القلق ومن العدم يتفجر كل شىء موجود وفيه يتهدد الزوال كل شىء فى أية لحظة . أليس هناك اتفاق بين أشكالية هيدجر كما جاءت فى كتاب « **الوجود والزمان** » وبين أفكاره السياسية ؟

ألا تعد كتابات هيدجر السياسية تعبيرا صادقا عن فلسفته فى الوجود وتطبيقا عمليا لها ؟ وآراؤه السياسية أليست هى تحقيقا لامكانية ما دون سائر الامكانيات ، بل دعى اطلاق لأفضل الممكنات فى حيز الممارسة والتحقيق ؟ وبذلك صار هيدجر داعية للنازية وبوقها المدوى بين الجامعيين والمثقفين الألمان . ولا تصبح النازية فى اعتقاده ـ بمقاصدها الوحشية المدمرة ـ سوى ممارسة لفلسفة انسان يجد نفسه أمام لاشىء ، أمام العدم ، تحكمه فكرة جوهرية هى أن العلاقة الأساسية بين الانسان والعالم تتجاوب مع هذا الموقف الذى ينزلق فيه الوجود بأسره فى هاوية الفناء .

الم يتحقق اذن للامة الألمانية فى مسارها التاريخى ما كان يؤمله هيدجر من فلسفته ؟

سمير عوض

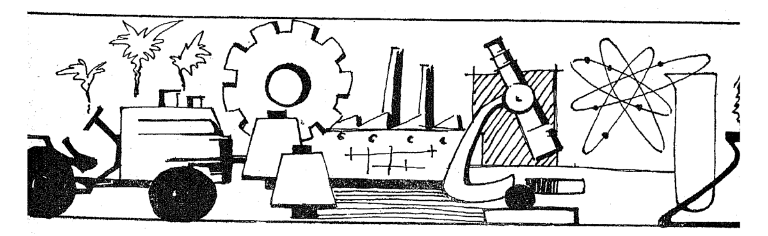
مكان العلم في المجتمع المعاصر



أود أن أتناول بالبحث في هذا المقال أربعة جوانب لمشكلة تفسير العلم وانتشاره • وسوف أتحدث أولا عن سبب أهمية العلم ، وان كان ذلك سوف يتضمن تكرار بعض الحقائق الواضحة الى حد ما • ثم أشرح لماذا كان تفسير العلم لعامة الناس على درجة كبيرة من الصعوبة • وبعد ذلك سوف أبين لماذا كان هذا التفسير ضروريا بصفة خاصة في الوقت الحاضر • وأخيرا ، أود أن أعرض بعض الأسباب العامة التي ينبغي من أجلها أن يسير تبسيط العلم للجماهير قدما باستمرار ، بتشويق ولكن ليس بتفاهة على الاطلاق ، بدقة ولكن بوضوح ، بتواضع ولكن بحماس ، بحرارة ولكن بصبر وأناة •

وعلى الرغم من أن أهمية العلم تبدو أمرا واضحا فان هناك أساسا حقيقيا للسؤال عن سبب هذه الأهمية • ذلك لأن العلم يحظى من العامة في كثير من الاحيان باحترام لا يستحقه ، ولا يحظى منهم بقدر كبير من الاعجاب الذي يستحق بالفعل قدرا عظيما منه •

ومن المفيد أن نبحث أهمية العلم عند مستويات مختلفة • ان الكلمة الرئيسية التي تعبر عن أهمية العلم عند مستوى التجربة الاكثر شيوعا ومحسوسية لدى الشخص العادي هي « اليسر » وهذه الكلمة تجعل من الواضح أن هذا المظهر الأول لأهمية العلم ليس على درجة كبيرة من الجدية أو العمق • **فالعلم يسهم عن طريق التكنولوجيا ، حليفته العملية ، في كل ساعة من كل يوم في يسر الحياة وسهولتها** • والمواطن في المجتمع المتقدم

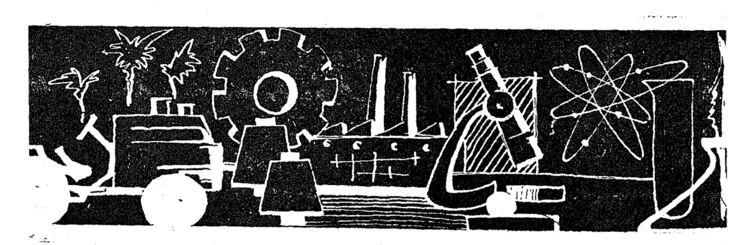


إن الحياة فى العالم الحديث ، دون قدر مناسب من معرفة العلم إنما تعنى قصورًا خطيرًا فى أية محاولة تبذل لفهم كثير من القوى الرئيسية التى تشكل مجتمعنا الحاضر

علميا تتاح له باستمرار مجموعة كاملة من الأجهزة والأدوات • ولقد أصبحنا ، فى كثير من أجزاء العالم ، معتادين على هذه الأجهزة الى درجة نسينا معها أن الكشوف العلمية الأساسية هى التى أتاحت هذه الأجهزة وجعلتها ممكنة • ومن سوء الحظ أن اسم « العلم » يرتبط فى معظم الأحيان ، وعلى نحو رخيص ، بكل هذه الأدوات الثانوية المميزة للحياة العصرية • ذلك لأن العلم ليس ذا طابع أداتى على الرغم من أنه يجعل هذه الأدوات النافعة ممكنة •

ولكن عددا كبيرا من هذه الأدوات والاجهزة قد يستخدم فى كثير من الأحيان فى خدمة الناس على أنحاء أكثر جدية وأهمية الى حد كبير • فالمكالمة التليفونية قد تنقذ حياة ، والسيارة قد تكون مركبة اسعاف أو سيارة شرطة ، وجهاز تكييف الهواء قد يستخدم فى غرفة الجراحة فى مستشفى والرسالة اللاسلكية قد تكون من رئيس دولة كبرى • فالعلم ، اذن ، عند مستوى أعلى من الأهمية ، خادم هام بحق لكل انسان • ويكفينا للتدليل على هذه الانحاء الأكثر أهمية التى يخدم بها العلم الانسان أن نذكر الطب ، الذى يخفف الألم ، ويشفى المرض ، ويطيل الحياة ، والزراعة الحديثة ، التى تحمل فى طياتها أملا على أعظم جانب من الأهمية ، وأعنى به أمل الطعام الأوفر والأفضل

بعد ذلك تأتى عند مستوى أوسع من التأثير ، وان لم يكن دائما عند مستوى أعمق أو أهم ،



الأنحاء العديدة التى أصبح بها العلم الآن يتداخل على نحو معقد فى كل الجوانب الاقتصادية والسياسية للحياة الحديثة • فكل صناعة نشيطة وايجابية يتعين عليها اليوم أن تجرى بحوثا أساسية، والا استحال عليها أن تتقدم بمنتجات جديدة ، واختراعات جديدة ، ومنافذ جديدة لزيادة رأس المال ، وفرص جديدة للتشغيل والعمالة • هذه العلاقة النفعية المتبادلة بين العلوم البحتة ، والتكنولوجيا ، والسلامة الاقتصادية للأمة أصبح معترفا بها الآن بصفة عامة • ويمكن الحصول على دليل قاطع على هذه العلاقة من أقرب المصادر الى الطابع العملى وأبعدها عن الطابع الأكاديمى ـ وأعنى بها صفحات الجرائد والمجلات التى تشهد تقديرا واضحا وناشطا للدور الذى تلعبه البحوث الأساسية ، وتعلن عن وظائف تطلبها الشركات الكبرى لعلماء رياضيين ، وفيزيائيين ، وكيمائيين •

والواقع أن اسهام الحكومات فى العلم ظاهرة من أكبر الظواهر الاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية فى عصرنا الحاضر • فالولايات المتحدة مثلا ، تخصص « للبحوث والتنمية » فى الوقت الحاضر مبلغا سنويا يزيد عما كانت عليه الميزانية الفيدرالية كلها قبل « **بيرل هاربر** » •

ان السلطات الفيدرالية فى الولايات المتحدة تقوم فى الوقت الحاضر بدراسة مشكلة أفضل المواقع الجغرافية فى البلاد لانشاء معمل للجسيمات ذى طاقة هائلة • فمن الذى يبحث هذه المشكلة ؟ هل هم علماء الفيزياء النووية فقط ؟ وهل هذه مشكلة علمية وفكرية فقط ؟ كلا ،مطلقا• ولأقتبس ما قالته فى هذا الصدد احدى المجلات العلمية الواسعة الانتشار : « **لقد أدى هذا البحث الى قيام كثير من المجتمعات المحلية بعملية فحص دقيقة لنوعية برامجها الجامعية ، ومرافقها التعليمية العامة ، وحياتها الثقافية ، وخدماتها العامة • كما أدى الى تضافر أساتذة الجامعات ، ورجال الأعمال والسياسيين** » • كل هذا يعكس الاعتراف المتزايد بأن العلم مرتبط ارتباطا مباشرا بازدهار الصناعة وكذلك بالحياة الثقافية العامة للمجتمعات المحلية المعنية •

اننا حين تحدثنا أولا عن الأنحاء التى ييسر بها العلم حياة الأفراد ، ثم عن الاتجاه التى يتعامل بها العلم مع الضرورات الهامة لمجموعات الأفراد ثم عن الانحاء التى يدمج بها العلم على نطاق واسع فى البناء الكلى لحياتنا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الحاضرة ، انما كنا فى الواقع ننتقل من مستويات للأهمية تزداد ارتفاعا باطراد • ولكن تبقى بعد ذلك خطوة أخرى الى أعلى ، وهى خطوة على جانب كبير من الاهمية •

ذلك لأن كل الكشوف والابتكارات العلمية التى تمر بمرحلة تكنولوجية ثم تمس معظم العلماء مسا ثابتا وملموسا هى ، فى رأى معظم العلماء على الأقل ، على مستوى من الأهمية أقل من تلك الانتصارات العلمية التى لا تنتج عن ضغط الحاجة أو طلبات السوق ، أو الرغبة فى الكسب أو التيسير أو الأمان ، بل تنتج عندما تحاول العقول الباحثة المنظمة أن تجد حلا لأسرار الطبيعة المعقدة، وتنشد فهمها •

أعنى أن الأهمية الحقيقية للعلم لا ترتكز على منجزاته العملية ، سواء أكانت هذه المنجزات تافهة أم عظيمة القيمة ، بل على أن العقل العلمى اذ يحاول كشف غموض الطبيعة الشديد التعقيد انما ينجز عملا من أعمال الابداع الفنى ،وذلك عندما يقوم ، وسط كل التعقيد الظاهر ، بادراك واظهار ، وتفسير علاقات تتصف بالبساطة لم تكن موضع شك حتى ذلك الوقت • تلك هى اللحظة التى يؤكد فيها الانسان دوره بوصفه ذروة الطبيعة كلها ، ويبرر جدارته بالجهاز المخى الذى استغرق التطور فترة طويلة لتزويده به •

ان الجنس البشرى لا يكاد يستطيع أن يفخر كثيرا بالطريقة التى عالج بها عددا كبيرا من تحديات الوجود ـ **كالخير** ، أو **السلام** ، مثلا • ولكن عندما قام العلم بالاستكشاف داخل نواة الذرة ، وداخل جينة الخلية ، ووصل فى اسكشافه الى سطح المريخ وتعداه الى مسافات تبعد ملايين السنين الضوئية ، فان الانسان يمكنه ، بحق ، أن يعتبر أنه يتصدى ، بشجاعة واقتدار لتحدى غوامض الطبيعة وأسرارها •

✻ ✻ ✻

نعم ، ان العلم على جانب كبير من الأهمية • فهو منتشر على نطاق واسع فى أجزاء كبيرة من كوكبنا ، ويقوم بغزو الأجزاء الباقية بسرعة هائلة

وهو يحدد قدراتنا الطبيعية الى حد كبير • كما أنه يؤثر فى حياتنا بعمق ، ابتداء من المستوى السطحى الخاص بأدوات المطبخ الآلية ، حتى المستوى العميق الخاص بالاهتمام الخلقى فيما يتعلق بدورنا فى الطبيعة ومصيرنا النهائى •

من الواضح ، اذن ، أن العلم قوة حاسمة كبرى فى مجتمعنا الحديث ، ينبغى على كل شخص أن يسعى الى فهمها • لقد قال اللورد « تود » الانجليزية ، وهو أحد علماء الكيمياء العضوية العظام بحق فى عصرنا ومستشار علمى رئيسى لحكومته : « **لقد أحدثت السنوات المائة الماضية ، بلا ريب ، تغييرا فى الجوانب المادية للحضارة أكبر مما حدث فى تاريخ البشرية السابق برمته •• وكل التغيرات التى حدثت يمكن أن تعزى الى العلم والى الشكل الحديث للتكنولوجيا التى هى تطبيق المنهج العلمى ونتائج البحوث العلمية على مشكلات الصناعة ، والزراعة ، والطب ، والدفاع ، والادارة • ونتيجة لهذا ، فان العلم والتكنولوجيا يتطرقان الآن الى كل جانب تقريبا من جوانب الحياة العامة والخاصة ، ويؤثران تأثيرا عميقا فى أنظمتنا الاجتماعية ، التى تطورت ببطء على مدى قرون عديدة • والأمر الذى يدعو الى القلق هو أنه على الرغم من أن العلم والتكنولوجيا يتقدمان بسرعة هائلة ، فان الاتجاهات والأنماط الاجتماعية تتغير ببطء ، والواقع أن التباين بين معدل التغير فى العلم ومعدل التغير فى السلوك الاجتماعى بأوسع معانيه هو أساس معظم الضغوط والتوترات الموجودة فى العالم اليوم** » •

ولكن اذا كنا نصادف العلم على هذا النحو الشامل ، فلماذا لا نفهمه أيضا على نحو شامل ؟

هناك صعوبتان أساسيتان • الأولى أن الشخص البالغ العادى يجد صعوبة فى فهم علم هذه الأيام لأن تعليمه المدرسى لم يعده اعدادا فعالا لاستيعاب العلم الذى يصادفه الآن فى حياته البالغة • والثانية أن التعبيرات الفعلية المستخدمة فى العلم لا الأفكار العلمية الجديدة وحدها ، كثيرا ما تكون غير مألوفة وعويصة ، وعندما يستخدم المؤلف الذى يقدم العلم بطريقة مبسطة تشبيهات ومجازات ، ويحاول الاستعاضة بكلمات وأفكار أبسط وأكثر شيوعا ، فانه يتعرض لاساءة التفسير الى حد خطير •

على أنه ينبغى ألا ندهش أو نفزع من الصعوبات التى تصادفنا فى شرح العلم وتبسيطه ، ولكن علينا أن نعرف أن هناك عبئا لا يقع فقط على عاتق العلماء (**الذين ينبغى أن يتحملوا قدرا أكبر من المسئولية لجعل مجالات نشاطهم مفهومة**) وكذلك على عاتق كتاب العلم (**الذين ينبغى أن يقوموا ، عن طيب خاطر ، بدراسة أكثر جدية للعالم الذى يشرحونه**) **بل يقع أيضا على عاتق الجماهير (الذين ينبغى ألا يقصروا شهيتهم على الغريب ، أو الملفت المنظر ، أو السطحى ، والذين ينبغى أن يقوموا ، عن رغبة صادقة ، بشىء من التفكير الجاد)** •

* * *

وأنتقل الآن الى ثالث الموضوعات التى أعلنتها فى البداية ــ وأعنى به : لماذا كان من المهم بصفة خاصة ، فى هذه الآونة بالذات من التاريخ أن يفسر العلم على نحو فعال ؟

لقد اعتادت مجموعة من السادة أن تجتمع فى حانة بلندن بعد ظهر كل خميس ، قبل حوالى ثلاثمائة عام ، هؤلاء السادة هم : **سير «كريستوفر رن»** ، الذى كان يعمل أصلا أستاذا للفلك بجامعة أكسفورد ، ولكنه قام بتصميم الاستحكامات الدفاعية لمدينة لندن وكذلك عدد كبير من العمائر الشهيرة البديعة ، ومن ضمنها كاتدرائية سانت بول ، « **وروبرت بويل** » ، الفيزيائى العظيم ومؤلف كتاب « حماية المسيحية » ، **وأورد** « براونكر » ، وهو راع لكل فروع العلم والمعرفة **والأسقف** « **ويلكينز** » ، الذى كان كاهنا ، ورئيسا لكلية ترينيتى ، وخبيرا فى نظرية كوبرنيق ، **وسير** « **ويليام بتى** » ، الذى كان عالما فى الاقتصاد السياسى ، **وأستاذا** للتشريح فى جامعة أكسفورد ، وأستاذا للموسيقى فى كلية جريشام « **وصامويل بيبس** » ، كاتب اليوميات المشهور ، والعالمان الأمريكيان الكبيران : **بنجامين فرانكلين وبنجامين طومسون** • كانت هذه المجموعة تضم أعضاء فى البرلمان ، ونقادا ، وموظفين مدنيين ، وكتاب مقالات • كما كانت تضم مستكشفين ورحالة ، وأثريين ، وأشخاصا من محبى الحياة الرغدة والمتع • لقد كانوا ، بجلاء ، رجالا ذوى اهتمامات واسعة : رجالا يتمتعون بحيوية فكرية وبدنية معا ، ويتميزون بقدر كبير من حب الاستطلاع • وكانوا يجتمعون ، بعد ظهر كل خميس ، ليجروا تجارب ، ويأكلوا ويشربوا معا ولكنهم كانوا يجتمعون أساسا لمناقشة العلم •

تلك كانت بداية « **نادي الجمعيـــة الملكية** » ، وهي مجموعة منحها الملك مع آخرين في الخامس عشر من يوليو عام ١٦٦٢ ، اسم الجمعية الملكية ، تلك المنظمة العظيمة التي ظلت طوال ثلاثـــة قرون تقريبا مركزا للعلم البريطاني ، وجزءا كبيرا من العلم في العالم الغربي ٠

ان من المفيد لنا أن نمعن الفكر في هذه المجموعة من الرجال ٠ انهم لم يكونوا علماء يحصرون أنفسهم بين أربعة جدران أو أخصائيين ضيقي الأفق ، بل كانوا رجالا تشغلهم أمور متنوعة وهامة ، رجـــالا كرسوا أنفسهم لنشاط ، هو الدراسة الجـــادة للعلم ، وهو نشاط أصـــبح اليوم أقل شيوعا وأهم في نفس الوقت مما كان عليه آنذاك ٠

ذلك لأن معرفة شيء عن الطرق الجديدة لفحص الطبيعة ، وتحليلها ، وفهمها لم تكن أكثر من ترف فكري بالنسبة الى رجال القرن السابع عشر هؤلاء المفعمين قوة وحيوية ، الذين كانوا يلاحظون قدر استطاعتهم في ذلك الوقت البدايات العظيمة للعلم الحديث ٠ فالعلم لم يكن حتى ذلك الوقت قد مس حياتهم اليومية والأعمال التي يمكن أن يشتغلوا بها الا مسا خفيفا جدا ، بل انهم كانوا لا يكادون يعرفون شيئا عن العلم ، ومع ذلك كانوا يعيشون حياة متوازنة الى حد كبير ٠ لقد كان على أبنـــاء أحفادهم ، لا عليهم ، أن يواجهوا الانقلاب الصناعي ان مواطن تلك الأيام كان يمكنه تقدير قيمة الطابع التاريخي لوثيقة الحقوق الصادرة في عام ١٦٨٩ وكان يمكنه أن يكون آراءه عن حكومة لويس الرابع عشر الاستبدادية دون أن يستعين في ذلك بأيـــة حقائق من الفيزياء أو الكيمياء ٠ كما كان يمكنه أن يشذب شمعة ، أو يسرج حصانا ، أو يوفـد خادما برسالة خطية دون أن يستخدم أية أداة علمية ٠

أما الموقف اليوم فقد انعكس تماما ٠ فالعـــلم قد أصبح موزعا على عشرات التخصصات المعقدة ، والمجال الشامل للمعرفة العلمية أصبح واسعا الى درجة لا يستطيع معها العالم المتخصص ذاته أن يتطلع الى تكوين فكرة ، ولو سطحية ، عن العلم كله ، ولكن الأهم من ذلك كثيرا ، من الناحيـــة الاجتماعية العامة ، أن تداخل العلم في عدد هائل من المشكلات — الشخصية ، والمحلية والاقتصادية، والقومية والسياسية ، والعالمية — بلغ اليوم من التعقيد حدا لا يستطيع معه أي شخص أن يتفاعل ويتجاوب مع هذه المشكلات بفهم وادراك الا اذا كان على شيء من المعرفة بالعلم الحديث ٠ وبعض هذه المشكلات تواجه الأشخاص الفرادى :كوالدى الطفل المعوق ، والشخص المدخن الذى يتساءل ان كان ينبغي عليه ان يقلع عن التدخين ، والمرأة الشابة التى تريد أن تعرف الحقائق الخاصـــة بتشوهات الولادة والمجازفات التى ينطوى عليها تعاطى الهورمونات لزيادة الخصوبة أو ازالتهـا ، ورجل الصناعة الذى يريد أن يعرف الأثر الذى سوف تحدثه تطورات التسيير الذاتى (الأوتوميشن) المقبلة فى صناعته ، والفلاح الذى يحتاج الى أن يعرف التأثير الاجمالى للمبيدات الجديدة ، والمجتمع المحلى الذى يبحث مشكلاته الخاصـــة بالتلوث ، والمواطنين الذين يتعين عليهم أن يبتوا فيمـــا اذا كان ينبغى أولا ينبغى أن ينفقوا البـــلايين على المخابىء الواقية من القنابل ، وكم من الدخـــل القومى ينبغى أن يخصص لبحوث الفضاء ، وما مقدار الدعم الذى ينبغى أن يعطى للبحوث الأساسية بالنسبة الى ما يعطى للتطوير التكنولوجى ، وأن يتخذوا قرارا ربما كان أصعب القرارات جميعا — بشأن الدور المناسب الذى ينبغى أن يقوم به العلماء فى الحكومة ٠

وربما كان هناك أشخاص لا يزالون يعتقدون أن أسئلة كهذه ينبغي أن يجيب عليها جميعا « شخص آخر » ٠ أما بالنسبة الى أولئك الذين يؤمنون منا ايمانا عميقا بأهمية الفرد وبأن أســلوب الحياة الديموقراطى هو الأســلوب القويم من الناحيـة الأخلاقية ، فان كل هذه الأسئلة ينبغي في المدى الطويل أن يواجهها الأفراد في حياتهم الشخصية والمواطنون الناخبون في حياتهم العامة ٠ صحيح أنهم لن يقترعوا ، كل على حدة ، على وحـــدات الاشعاع التي تؤلف ، بالضبط ، جرعة « مأمونة » من السقط الذرى ، ولن يبتوا مباشرة ، كل على حدة ، فيما اذا كان يتعين على حكومتهم أن تنفق مبلغا باهظا على بحوث السرطان ، أو على حفر ثقب عميق في قشرة الارض ، أو على بنـاء معمـــل للجسيمات ذى طاقة فائقة ٠ ولكن من الصحيح تماما أننا اذا كنا نريد للأســلوب الديموقراطى أن يعمل في العالم العلمي الحديث ، فان كل مواطن على حدة ينبغي أن تتاح له الحقائق العلمية التي تمكنه من البت في هذه الأمور على أســـاس سليم ٠

وثمة سبب آخر لضرورة تفسير العلم لعامة الناس فى الاونة الحاضرة من تاريخ العالم · هذا السبب يرجع الى أن ملايين عديدة من البشر لدين يسكنون مناطق كبيرة من كوكبنا ظلوا يعيشون حتى اليوم فى مجتمعات زراعيه غير علميه ، بل فى ظروف بدائية · ولكن كل هذا يتعرض الآن لتغير سريع ويكفينا فقط ، للتدليل على سرعة اقتحام هده الشعوب لأبواب العالم الحديث ، أن نتذكر أن احدى وستين دولة كانت أعضاء فى الأمم المتحدة قبل عام ١٩٥٠ ، وان ثلاثا وخمسين أمة جديدة أصبحت أعضاء منذ ذلك الوقت ، منها احدى وثلاثين فى السنوات الخمس الماضية ·

هذه الأمم ، « الجديدة » من الناحية السياسية الرسمية ، والتى لدى أغلبها مع ذلك تاريخ حضارى سابق لتاريخ كثير من الدول الغربية بوقت طويل تدفعها مقتضيات الظروف الحاضرة الى دخول العالم التكنولوجى الحديث دفعة واحدة · ذلك لأنه يتعين على هذه الأمم ، التى حرمت من الاستفادة بقرنين من التكيف على مهل ، أن تنتقل ، فى بعض الأحيان ، على نحو يكاد يكون فجائيا ، من ثقافات بدائية نسبيا الى عالم يتميز بالالكترونيات ، والعقول الالكترونية ، والتسيير الذاتى ، والطيران النفاث ، والطاقة النووية ، وأحماض الوراثة الشديدة التعقيد · ومن الواضح أن بعض هذه الأمم الناشئة يتعين عليها أن تصنع اقتصادها اذا ما أرادت أن تكون قادرة على البقاء ، وهذا يعنى أنه يتعين عليها أن تدرس العلم بأسرع ما يمكن ·

ان الحياة ، فى العالم الحديث ، دون قدر مناسب من معرفة العلم انما تعنى قصورا خطيرا فى أية محاوله تبذل لفهم كثير من القوى الرئيسية التى تشكل مجتمعنا الحاضر · انها تعنى أن تكون كل الحواس متبلدة ، ليس فقط بالنسبة الى ما يجرى فى العالم ، بل أيضا بالنسبة الى جمال العلم ومغزاه الروحى (وهنا أصل الى موضوعى الأخير والرئيسى) ، فتصبح بذلك غافلة عن الطريقة التى ينتظم بها كوكبنا ـ تلك الطريقة الرائعة الى حد لا يكاد يصدق ـ كما تصبح غير واعية بالوحدة الملهمة التى تربط معا كل ما هو حى وما هو فى هذه اللحظة غيرحى ، ولا تثير فيها رؤيا قدرات الانسان الجديدة على التحكم فى بيئته وتحرير نفسه من أجل بلوغ مصير جديد أسمى من أى احساس ·

انه لما يدعو الى الأسى أن عددا كبيرا من الناس لا يفكر فى العلم الا من خلال الاجهزة والأدوات التى يتيحها هذا العلم · كما أن من المؤسف أن ذوى الرؤية الأوضح قليلا يرون العلم أساسا على أنه هو الذى يقدم الشفاء والغذاء · على أن الأسوأ من ذلك كله ألا يصبح فى الامكان ، على المدى البعيد ، جعل الناس يفهمون الطبيعة الاساسية الكامنة للعلم ·

وهناك بعض الناس بلغ بهم التضليل حدا ينظرون معه الى العلم على أنه وحش آلى ، لا تكف تروسه عن الدوران ، منتجا آلات فظيعة للدمار ، ودافعا كل شىء الى توافق كئيب مع المنطق الصارم الخالى من الروح ، ومحولا كل شىء الى معادلات عويصة ولكنها ذات قدرة شاملة فى نفس الوقت·

* * *

ان العلماء أنفسهم بشر قبل كل شىء ، ومن ثم فان كثيرا منهم ، وخاصة الذين لا يقفون فى الصف الأول ، يلازمون أجهزتهم الى درجة أنهم أنفسهم يفرطون أحيانا فى تأثرهم ببعض الجوانب السطحية للعلم · وبعضهم من الحماقة بحيث يعتقد أن العلم فى الواقع قادر على كل شىء ، وأنه يمكن أن يكون دقيقا بلا حدود وموضوعيا تماما ، وأن أساليبه الفنية يمكن أن تحل كل المشكلات ، وأن فلسفته هى المرشد الوحيد الذى نحتاج اليه ·

وفى رأيى أن تصحيح هذه الآراء الزائفة واجب رئيسى يقع على عاتق أولئك الذين يشرحون العلم ويفسرونه للجماهير · ذلك لأن هذه الآراء الزائفة تفصل العلم عن بقية جوانب الحياة · واذا كانت هذه الآراء صحيحة ، فان الهوة التى يرى بعض المفكرين أنها تفصل بين العلم والفنون الانسانية تصبح هوة يمكن عبورها ·

ولقد كان هناك من يرى ، منذ عهد **روجر بيكون** أن مهمة العلم لا تعدو جمع عدد كبير من «الحقائق» **(نطلق عليها فى كثير من الاحيان اسم الحقائق الثابتة ، مدللين بذلك على دوامها ، ودقتها ،**

وموضوعيتها اللازمة) ، ثم بناء نظرية لتفسيرها • وبذلك تكون هذه النظرية « صحيحة » ، ومن ثم يتعين على الجميع أن ينحنوا لها اجلالا وخشوعا •

ولكننا نعرف الآن تماما ما كان ينبغي علينا دائما أن نعرفه ـ وأعنى به ، أولا ، أننا لا نحصل على ما يسمى بالوقائع الا عن طريق الملاحظة ،وأن القائم بالملاحظة هو نفسه جزء أساسى من نسق الوقائع ، وبذلك يقضى ، بضربة واحدة ، على الدقة النهائية والموضوعية النهائية معا ، وثانيا نعرف أن عناصر الاختيار ، وهى مسلمات لا تقوم على أساس واقعى أو منطقى تحليلى ، بل تقوم على أساس شخصى وثقافى ، هذه العناصر تدخل فى بناء كل النظريات وفى اختيار مجموعة « الوقائع » التى ينبغى التعامل معها • وأولى هاتين النقطتين نتيجة رئيسية للتطورات التى حدثت فى نظريتى النسبية والكم طوال نصف القرن الماضى ، وقد قام « مايكل بولانى (على نحو رائع ، بدراسة الجوانب الأقرب الى الطابع العام لما يمكن تسميته « بسراب الموضوعية » • أما النقطة الثانية فقد أوضحها عدد كبير من الكتاب ولكنى أشير بصفة خاصة الى كتاب **جيرالد هولتون :** الافتراض المسبق فى النظريات ، وكتاب **توماس س • كون :** بناء الانقلابات العلمية

ففى أول هذين المرجعين ، قام هولتون بتحليل عملية اتخاذ القرارات كما تدخل فى بناء النظريات العلمية ، ونشر ، على نحو مقنع ، بحثا مفاده **أن « عملية بناء نظرية علمية فعلية تقتضى قرارا صريحا أو ضمنيا ، كالأخذ بفروض ومعايير سبق اختيارها وليست على الاطلاق « صحيحة » علميا بالمفهوم •• المعترف به عادة** • ويذهب « كون » فى كتابه الى أنه فى أية فترة واحدة من التاريخ ومعترف به من الاوساط العلمية كلها ، تطور فى نطاقه « العلم العادى » الخاص بتلك الفترة • وفى نطاق هذا الاطار ، فضلا عن ذلك ، فان البحث يوجد اطار من المفاهيم والادوات ، متفق عليه العلمى « **ينزع الى أن يكون صورة من صور حل الألغاز ، لا استكشافا للمجهول** » • أما الكشوف الجديدة غير المتوقعة ـ الهامة منها على الاقل ـ فانها لا تحدث الا عن طريق انهيار فى القواعد المسلم بها قبلا • هذا النوع من الانهيار يحدث مرارا

وتكرارا ، وذلك عندما تؤدى الطريقة المتبعة فى أسلوب العمل العلمى الى اثارة أزمات لا يمكن حلها فى نطاق الاطار العادى القائم فى ذلك الوقت وقد قام « كون » ، بوصفه مؤرخا للعلم ، بتحليل تقدم العلوم الطبيعية على مر السنوات الثلاثمائة الماضية ، وذلك لتقديم أدلة تؤيد بحثه الهام •

* * *

والواقع أن الأدلة التى قدمها هذان المؤلفان تثبت الوحدة الاساسية التى تربط العلم بجميع جوانب ثقافتنا الاخرى ، وتؤكد الاعتقاد ، الذى يؤمن به العلماء الآن على نطاق واسع ، وهو أن « **العلم ، أيا كانت نظرتنا اليه ، ليس الا صورة من صور الفن الخلاق** » •

وهناك رأى يدافع عنه دفاعا تفصيليا ومقنعا عالم المنطق والفيلسوف الكبير كارل ر • بوبر

هذا الرأى هو أن معرفتنا العلمية تتقدم « بواسطة توقعات ليس لها ما يبررها (ولايمكن تبريرها) ، وبواسطة تخمينات ، وحلول مؤقتة لمشاكلنا ، وحدوس » ، وأن هذه الحدوس « **لايمكن أبدا تبريرها ايجابيا** » ، على الرغم من أنها تضبط وتنقح بواسطة النقد • ويقول « بوبر » ان العلم يتقدم ، لا عن طريق اثبات أن بعض البيانات صحيحة ، بل عن طريق اثبات أن بعض البيانات غير صحيحة • فاذا كان هذا الرأى ينسف الخرافة التى تطمئن البعض ظاهريا ، وان كانت مفزعة فى أساسها ، وهى أن العلم هو الوصى الصارم على الحقيقة التى لا يمكن دحضها ، فلتلاحظ أنه يقوم ، فى نفس الوقت ، بدفع العلم الى الترابط مع جميع الاهتمامات البشرية الأخرى ـ فنحن جميعا نتعلم من أخطائنا •

وينبغى ألا نفترض ، نظرا الى أننى أشرت الآن الى « بوبر » ، أن الفلاسفة والمنطقيين هم وحدهم الذين يعترفون بأن للعلم طبيعة مرنة ، مؤقتة ، تخيلية ، ومحددة ثقافيا ، وفنية ، وروحية أساسا فبوسعى أن أذكر أقوالا مؤيدة ذكرها عدد كبير من علماء عصرنا العظام بحق ـ أقوالا كتلك التى

ذكرها روبرت أو بنهيمر عن جوهر الفيزياء المعاصرة أو بوسعى أن أحيلك الى الفصل البـــديع المسمى « بالبصيرة الفيدانتية » فى كتاب صغير ولكنه متعمق ولطيف فى نفس الوقــت ألفه المرحوم **اروين شرودينجر** ، الذى اكسبته بحوثه الفيزيائية جائزة نوبل ٠

ولكني أود ألا يسيء أحد فهمي بالنســـبة الى السبب الذى ذكرت من أجله هــذه التعليقات عن الطبيعة الأساسية للعلم ٠ اننى ، قطعا ، لم أفعل ذلك للانتقاص من الفـــائدة العمليـــة للعلم ، أو لتقليل قيمة الانجازات الرائعة التى حققها العلم ٠ ولكن هذه الانجازات نفسها ، عندما ينظر اليهـــا سطحيا وعندما يبالغ فى تقدير قيمتها ، كما يمكن أن يحدث بمنتهى السهولة ، تؤدى الى فصـــل العلم عن بقية جوانب حياة الناس ٠ هذا على حين أن ما نحن فى أمس الحاجة اليه ، فى الوقت الذى يسير فيه العلم قدما ، هو أن نضمن أن يدخل هذا العلم فى زمالة ذات نفع متبادل مع كل الفنـــون الانسانية ، ومع الفلسفة والدين ٠

فليسمح لى القارىء بأن أضرب ، فى صـــورة شديدة التركيز ، مثالا لتوضـــيح نوع العلاقـــة المتبادلة النافعة التى أتصورها ٠

اننا جميعا نعرف حق المعرفة الوصف التقليدى للمنهج التجريبي الذى بدأ العلم يحدد معالمه منذ أكثر من ثلاثة قرون ، والذى وسع الى حد كبير بعد استحداث الاجهزة والمعدات المناســـبة ٠ ان بوسع العلماء الذين يستخدمون هذا المنهج أن يصوغوا مشكلة ، ويرسموا خطة لكشف وقائع تتعلق بهذه المشكلة ، ويحللوا هـــذه الوقائع ، ويستنبطوا نظريات ، ويعدوا تجـــارب جديدة لاختبار هذه النظريات ـ كل هذه فى دورة من التحسين لا تنتهى أبدا ٠

ويستطيع العالم الآن ، بعد أن لم يعد عبـــدا للسطحيات التى تؤدى الى الملاحظة الفجـــة ، أن يستخدم التخمين ، والحدس ، والخيال ، والالهام بأمان ٠ ويمكنـــه ، على نحو مناسب ، أن يكون مدفوعا بحب الاستطلاع ومؤزرا بالشجاعة ٠ كما يمكنه أن يجازف بهذه العوامل المساعدة الشـكلية لأن الأسلوب العلمى يخضع جميع النتائج للاختبار الدقيق على أساس من الواقع التجريبى ٠

وعلى الرغم من أن فائدة المنهج التجـــريبى قد اعترف بها اعترافا شاملا دون شك ، فاننى لا أظن أنه كان هناك تأكيد كاف للحقيقة القائلة ان هذا المنهج قد حرر العالم ليعيش الحياة الخلاقة التى يعيشها الفنان ٠ ذلك لأن العالم ، الذى لم تعـــد تقلقه الأمور غير القابلة للاثبات ، يمكنه الآن ، من ناحية ، أن يسترشد بايمانه بمعقوليـــة الطبيعـــة وامكان اكتشاف قوانينها ، وأن يعتمد على هـــذا الايمان ، ويمكنه ، من ناحية أخرى ، أن يجمع فى عمله على نحو كامل بين الفكر الطليق والفكر المقيد بالمنطق ٠ اذ أن المنهج العلمى يهيىء له ، فى الواقع حلا لمشكلة العلاقة بين الحرية والتقيد بالنظام ٠ فهو مطلق الحرية فى أن يجـــرب أى شىء ، ولكن المنهج كفيل بتصحيح كل أخطائه وارشاده برفق فى خطوته الجريئة التالية ٠

لقد أشار أينشـــتين مرة الى أن أشد الأمور غموضا فى الكون هو أنه غير غامض ٠ والواقع أن العلم لم يتوصل ، بأية حال ، الى ايضاح كل غموض الكون٠ ومن هنا فان الفنون الخلاقة والدين وخاصة الأخير ، تقع على عاتقها مهمة ايضاح واثراء ميادين واسعة من الخبرة لا يمكن أن يصل اليها العلم ٠

ان قدرة العلم المتزايدة على كشف نظام الكون وجماله ، ابتداء من أسرع الجسيمات الأولية زوالا حتى الذرة ، والجزىء ، والخلية ، والانســـان ، وأرضنا بكل حياتها الزاخرة ، والمجموعة الشمسية وما بعد المجرة ، ورحابة الكون نفسه ، كل هذا يؤلف السبب الحقيقى ، السبب الذى لا جدال فيه لكون العلم هاما ، ولكون تفسيره وتوضيحه لكل الناس عملا على جانب كبـــير من الصـــعوبة ، والضرورة والأهمية ، والقيمة ٠

من الخيال الى الحقيقة

هـ. ج. ويلز.. وأول رحلة الى القمر

د. انجيل بطرس سمعان

ان هبوط الانسان على سطح القمر وتحقيق ذلك الحلم الكبير الذى طالما راود خيال بنى الانسان لا بد أن يذكرنا بتلك المحاولات التى قام بها رجال الأدب لتخيل السفر الى القمر والهبوط على أرضه ووصف الحياة به • فقد ألهب القمر أكثر من غيره من الكواكب الأخرى مثل المريخ والزهرة مثلا ، خيال الشعراء والقصاصين وفاز بأكبر قسط من اهتمامهم وأصبح موضوعا لكثير من القصص الرومانسية التى يطلق عليها عادة القصص العلمية •

ولعل من أهم أولئك الكتاب الروائى الانجليزى هـ • ج • ولز (١٨٦٦ - ١٩٤٦) الذى أقام هذا النوع من القصص على أسس علمية سليمة واستخدم خياله الخصب وقدرته على الخلق والابداع لتصوير بعض النتائج البعيدة لتطوير العلوم ووضعها فى خدمة الانسان • ولقد كان ولز شديد الايمان بالعلم وبقدرته على خلق عالم مثالى ، كما كان مفكرا وفيلسوفا اجتماعيا نادى بضرورة استخدام العلوم ونشر مبادىء الاشتراكية والتنظيم الاجتماعى ليتحقق الفردوس على الأرض ويسود العدل والكفاية بنى البشر •

وقد ترك لنا هـ•ج• ولز عددا من القصص العلمية التى يطلق عليها عادة « الرومانسيات العلمية » من أهمها « آلة الزمن » (١٨٩٥)التى تصور آلة تحمل الانسان الى الامام وتهبط به فى عالم المستقبل ، و « حرب العوالم » (١٨٩٨) وتصور غزو أهل المريخ للأرض « وأول رجال فى القمر » (١٩٠١) و « أيام النجم المذنب » (١٩٠٦) وتصور مرور نجم ذى ذنب بالغرب من الأرض وما يثيره ذلك من رعب وفزع بين البشر

وبالرغم من أن ولز لم يكتب هذه الرومانسيات العلمية لمجرد وصف السفر الى الكواكب أو لوصف العوالم الغريبة التى تنتهى اليها رحلات مثيرة فى الفضاء أو فى الزمن ، بل استخدم ذلك الشكل الادبى اما لنقد العالم الحاضر أو لتصوير عالم مثالى أفضل تتحقق فيه أحلام البشر فى المستقبل نتيجة لتقدم العلم وتحقق العدالة الاجتماعية ، الا أنه كان يملك من الخيال والقدرة على الابداع والتصوير ما جعل هذه الرومانسيات



العلمية أعمالا رائعة وجد فيها ألوف وألوف من القراء متعة كبيرة · فقد حققت هذه الأعمال نجاحا بالغا عند ظهورها فى السنوات الأخيرة من القرن الماضى والسنوات الاولى من هــذا القرن ، وما زالت تشد اليها القراء حتى الآن · ولعلنا نذكر أن بعض هذه القصص قد حولت الى أفلام ناجحة وعهدنا « بآلة الزمن » على سبيل المثال ليس ببعيد ·

والذى يهمنا هنا بوجه خاص هـو قصة « أول رجال فى القمر » وقد كتبها هـ·ج·ولز مع مطلع القرن العشرين أى قبل أن يتحقق الحلم الكبير وتطأ قدم أول انسان سطح القمر بحوالى ٦٨ عاما ·

ولم يكن ولز أول من صور مثل هذه الرحلة المثيرة ، فقد سبقه الى ذلك عدد من الكتاب كان أقربهم اليه الكاتب الفرنسى جول فرن مؤلف « ثمانين يوم حول العالم » ، « ورحلة الى بطن الارض» التى اعترف بعض علماء الفضاء بتأثيرها القوى عليهم · فقد كانت مثل هذه القصص بمثابة الالهام الذى ألهب خيالهم أثناء الصبا ثم دفع بهم فيما بعد الى البحث والتجريب وتسخير العلم لتحويل الخيال الى حقيقة · فقصص الرحلات الى القمر قديمة قدم بلوتارك ، كتبها لوسيان ،وكبلر ووليم جودوين ، وجون ويلكنز ، وسيرانو دى برجواك وغيرهم · وبالرغم من ذلك فان ولز يتحدى هؤلاء جميعا وغيرهم عندما يطلق على قصته عنوان « أول رجال فى القمر » ولعله يرمى بذلك الى تأكيد أهمية الصورة التى يقدمها هؤلاء الرجال لعالم القمر وليس مجرد الرحلة الى هناك ، كما فعل جول فرن وغيره من قبل · والواقع أن الرحلة كما يصورها ولز مثيرة ممتعة ولكنها مع الاستعداد لها لا تشغل أكثر من فصلين من فصول الكتاب الستة والعشرين ، وان كانت رحلة العودة التى يقوم بها أحد الرجلين تشغل فصلا آخر · وتبدو هذه الرحلة كمقدمة لوصف العالم الغريب الجديد الذى يكتشفه الرجلان اللذان يصلان اليه · والواقع أنه بالرغم مما يمتاز به هذا الوصف من واقعية وجمال الا أن الدقة تقتضى أن نشير هنا الى أن العدد الأكبر من قراء هذه القصة يفضلون وصف الرحلة ويرون فيها أجمل جزء من أجزائها ·

* * *

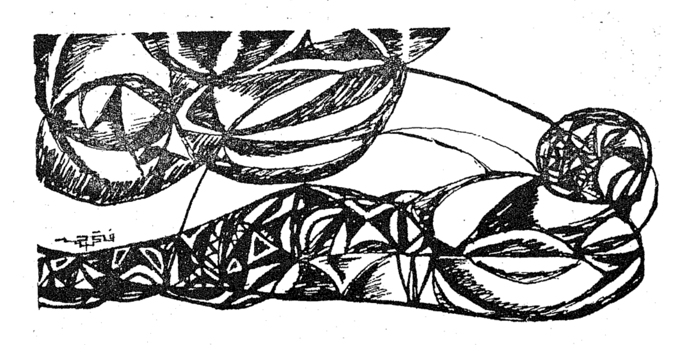
و « أول رجال فى القمر » مثلها مثل قصص ولز

العلمية الأخرى تبدأ بداية واقعية وتتقدم تدريجيا الى عالم التجريب العلمى وتنتهى بتحقيق عـالم خارق مخالف للمألوف ، هو هبـــوط رجلين على سطح القمر ٠ وتتلخص القصة فى ان عالما يدعى كافور يكتشف مادة حاجبة أو عازلة للجاذبية ، يطلق عليها اسم كافورايت نسبة اليه ٠ويتعرف هذا العالم أثناء قيامه بمفرده بالتجارب المتصلة بهذا الاكتشاف ــ فى بقعة نائية من ريف انجلترا ــ برجل مفلس من رجال الاعمال ، يدعى بدفورد ، يذهب الى نفس تلك البقعة ليكتب مسرحيـة عله يكسب شيئا من المال يقوم به أموره المالية اجرتبكة ويطلع كافور صديقه الجديد على اكتشافه ٠

يشرح كافور له أن جميع المواد « شفافة » أو خاضعة للجاذبية ولكنه يرى أن لا بد من وجود مادة عازلة أو حاجبة للجاذبية ، تماما كما توجد مواد حاجبة للضوء أو الحرارة أو التأثير الكهربائى للشمس ، أو حرارة الأرض ٠ وكان كافور يعرف عن طريق بعــض العمليات الرياضـــية أن مثل هذه المادة ممكنة ، بل وكان يعرف الظروف التى يمكن أن توجد معها ٠ وهكذا يداوم التجريب الى أن ينجح أخيرا فى صنع هذه المادة عن طريق خلط عدد من المعادن بنسب معينة مع عنصر غازى هو الهليوم ، كان يأتيه من لندن فى آنية حجرية٠

ويرى بدفورد أن كافور على عادة العلمــاء ، لا يهتم كثيرا بمسائل التطبيــق العملى لهــذا الاكتشاف بينما يرى هو فيه اذا أمكن استخدام بالفعل ، بابا واسعا للكسب وتحقيق الشـــهرة والسطوة ، يتخيل التطبيقات العملية لهذه المادة فى ميادين الحرب والسلم ، لصنع المدافع والبنادق والسفن ، وفى أعمال النقل والبناء وجميع وجوه الصناعة الأخرى ٠ ويحلم باحتكـار حق الاختراع والتطبيق ، وبشركة كبرى تنمو وتنتشر نفوذهـا الى أن تسود العالم ٠

وينتهى الأمر بكافور وصديقه الى التفكير فى صنع مركبة قمرية تنطلق بهما الى الفضاء ــ الى القمر اذ يحدث عفوا عند صنع المادة الجديدة انفجـار عنيف يبعث بسقف المعمل وأجزاء كبيرة من منزل كافور والمنازل المجاورة الى عنان السماء ٠ ويشرح كافور لبدفورد ما حدث قائلا انه عندما تم صـنع مادة الكافورايت العازلة للجاذبية عزلت الجاذبية الأرضية عن طبقة الهواء الملاصقة لها فارتفعت الى أعلى وحل محلها طبقة أخرى من الهواء المحيط بها وعزلت هذه بدورها عن الجاذبية فارتفعت الى أعلى وهكذا ، فأحدث هذا تلك الفوضى التى شاعت فى كل تلك المنطقة ، ولولا أن طبقة الكافوريت التى تم صنعها كانت رقيقة وغير مثبتة تثبيتـا كافيا بحيث اندفعت هى الاخرى فى النهـــاية الى أعلى لأدت هذه التجربة الى كارثة محققة نتيجة لاستنزاف هواء الأرض الى الطبقات العليا وهلاك كل من وما على الأرض من كائنات حية ٠ الا أن ذلك يوحى لكافور بفكرة مركبة قمرية تستفيد من هذه الخاصية الهامة للكافورايت وتصمم بطريقـة يمكن معها التحكم فيها وتوجيهها حيثما شـاء راكبها ٠



وينقل الينا ولز ، على عادته ، وصفا دقيقـا لهذه المركبة عن طريق الحوار الذى يجرى بين كافور وبدفورد فالمركبـة أو « النجم » كمـا يسميه كافور كرة متعددة الاسطح ، ومصنوعـة من الصلب ومبطنة بالزجاج السميك ، ومغطـاة من الخارج بطبقة من الكافورايت ، أما الغـلاف المعدنى الخارجى فيتكون من اطار ثابت تتحرك عليه نوافذ ترفع وتخفض حسب الحاجة مثل «الشيش الحصيرة » الذى يستخدم فى بعض المنازل ، فاذا أقفلت جميع النوافذ ، اندفعت المركبة فى خط مستقيم نظرا لتحررها من الجاذبية الأرضية • أما اذا فتحت احدى هذه النوافذ ، فستقع تحت تأثير جاذبية أى جسم ثقيل يوجد فى هذا الاتجاه •وقد زودت هذه المركبة بالاضاءة والتدفئة الكهربائية وبكمية مناسبة من الهواء المجمد والطعـام المركز وآلة لتقطير المياه وبعض اسطوانات الأوكسجين الى غير ذلك من مستلزمات • وصـممت كوة صغيرة بأعلاها تسمح بالدخـول والخروج دون تسرب الهواء • أما مادة الكافورايت التى تطلى بها المركبة فتصنع على مرحلتين مرحلة الطلاء أولا ، ثم مرحلة التسخين مع تمرير غاز الهليوم ثم التبريد ثانيا

ولا بد أن وصف المركبة قد بدا مقنعا لحد كبير لقراء ولز المعاصرين فى أوائل هذا القرن • أما الآن فعندما نقرأه اليوم للمرة الاولى أو نعود اليه بعد قراءة وصف الأقمار الصناعية التى تصـنع الآن ، فمما لا شك فيه أن قمر ولز يبدو بدائيا ساذجا ، فاذا ما قورن « بأبوللو » مثلا وما يحويه من آلات ومعدات فسيبدو غير مقنع على الاطلاق الا أن ذلك لا ينفى ان ولز كان يفكر تفكيرا علميا سليما الى حد كبير • فبدلا من فكرة الصاروخ النفاث الذى يندفع الى أعلى نتيجة احتراق كمية من الأكسجين التى يحملها بداخله ، نجد هنـا قمرا يندفع الى أعلى نتيجة التخلص من الجاذبيـة التى تشده الى الأرض ويتوقف أو يغير اتجاهـه بالتعرض لجاذبية مصدر آخر • ومن الواضح أن فكرة التوجيه الآلى أو استخدام اللاسلكى لم تخطر لولز على بال • فقد كانت التجربة التى يقـوم بها تجربة فردية • أما التجارب التى تجرى اليوم والتى حققت آخر تجربة منها ذلك النجاح المذهل فيشارك فيها آلاف من العلماء والفنيين وتقـوم على توافق مئات من الاجهزة الدقيقة المعقدة •

ولعل ولز بوصفه روائيا فى المكان الأول يتفوق فى وصف سلوك شخصياته ومشاعرهم وماتعنيه تلك المغامرة الكبرى بالنسبة لهم • أما بالنسبة للعالم فهى رحلة استكشاف يجنى من وراءهـا ، اذا كلل لها النجاح ، معرفة جديدة • أما بالنسبة لزميله فهى وسيلة للحصول على كسب مادى اما عن طريق الحصول على بعض المعادن الثمينة التى قد توجد بالقمر ، أو كما يخيل اليه فى شطحة من شطحات الخيال ، باتخاذ القمر مكانا يقضى فيـه من تتوفر لهم نفقات الرحلة الباهظة اجازاتهم • ومرة أخرى نجد أن ولز قد سبق الزمن وتنبـأ بأشياء أصبحت اليوم أقرب الى الحقيقة منهـا الى الخيال ، فمن منا لم يقرأ أن ألوفا من الأشـخاص قد حجزوا أماكنهم فى الرحلات المقبلة الى القمر •

الا أن الشك ما زال يراود بدفورد الذى لم يبد متحمسا تماما بهذه الرحلة منذ البداية • فعندما يسرح به كافور فكره الرحلة الى الفضاء يبـادره قائلا :

« ولكنى لا أرى لماذا تفعل ذلك • فهذا لا يعدو أننا نقفز من الأرض ثم نعود اليها » •

فيرد العالم قائلا « هذا صحيح • ولكن قـد نتمكن من الذهاب الى القمر مثلا »

فيقول بدفورد « وما الذى نجنيه عندما نصل الى هناك ؟ ما الذى نجده هناك ؟ »

ويرد الآخر « سنرى ذلك • آه ! فكر فى تلك المعرفة الجديدة » •

ويسأل بدفورد « وهل سيكون هناك هواء ؟ »

ويجيبه كافور « قد يكون هناك هواء »

ثم يضيف قائلا ان الذهاب الى القمر ليس أسوأ من الذهاب الى المناطق القطبية • فهناك كثير من الرحلات الى القطب لا يرجى من ورائها كسب مادى ثم انه قد توجد فى القمر معادن مثل الكبريت أو الذهب أو عناصر جديدة أخرى • ثم « قد نذهب الى المريخ »

ويقتنع بدفورد مؤقتا ولكنه يعود الى التساؤل



والشك وهنا نرى بوضـوح يد الروائى القـديـر الذى يعمل على ايهام القارىء بحقيقة ما يقص عليه وذلك عن طريق تلك اللمسات الواقعيـة التى تؤكد غـرابة الرحلة من جهة وتشكك بدفورد الطبيعى وقلقه وتخوفه من عالم المجهول من جهـة أخرى ٠ فذات يوم مثلا وقد قارب العمل النهاية

يبادر بدفورد زميله قائلا :

« وما الذى نجنيه بعد كل هذا العناء ؟ »

ويجيبه زميله قائلا « المهم هو أن نذهب » ٠
ويفكر الأول قليلا ثم يقول « ولكن ماذا تنتظر؟

لقد كنت أظن أن القمر عالم ميت »

ويهز الثانى كتفيه قائلا « اننا ذاهبون لنرى ذلك » ٠

ويردف بدفورد « وهل سنذهب حقا ؟ »

ولكنه يستمر فى العمل وقد عاوده نشاطه ٠ وعند نهاية عمله اليومى يذهب ليأخذ قسطا من الراحة كالمعتاد ، الا أن القلق والخوف من المصير المجهول ـ اذا ما ذهب فى هذه الرحلة المجنونة ـ يؤرقه ، فيترك المكان بعد أن يخبر كافور أنه لن يذهب معه ، ويقضى بعض الوقت بعيدا عن مكان التجربة ، ولكنه ما يلبث أن يعود وقد تغلب على مخاوفه ٠

ثم تحل اللحظة الحاسمة ، لحظة الانطلاق ، ويدخل الرجلان مركبتهما وتقفل الكوة التى دخلا منها ، وينتظرا قليلا فى الظلام ٠ ثم تحدث رجة صغيرة ويسمع صوت كالفرقعة التى تحدث عن فتح زجاجة من الشمبانيا فى حجرة مجاورة ٠ وفجأة يعلن بوفورد أنه لن يذهب معه الى القمر ٠ ولكن كافور يخبره أنه لم يعد فى وسعه أن يتراجع ، فقد أقلعت المركبة وهى الآن فى طريقها الى الفضاء الخارجى ٠ وكل ما عليه هـو أن يبقى فى مكانه ويقتصد فى الحركة والكلام ٠

ويخبرنا بدفورد أنه شعر لمدة لحظة واحدة بضغط كبير واحساس عابر بأن قدميه تضغطان الى أسفل بقوة عدد لا يحصى من الأطنان ٠ الا أن ذلك لم يدم طويلا ٠ وسرعان ما يشعر بالخفة الناتجة عن انعدام الوزن ، يصحبها احساس غريب فى الرأس ، احساس يشبه الصداع ، وخفقان فى الأوعية الدموية بالأذنين ٠ ولا تخف هذه الاحساسات بمرور الوقت ، ولكن بدفورد يعتادها شيئا فشيئا بحيث لا يشعر بشىء من عدم الراحة ٠ ويخاطبه كافور قائلا :

« لا تتحرك ٠ اجعل عضلاتك ترتخى كما لو كنت فى الفراش ٠ فنحن فى عالم خاص بنا ٠ أنظر الى تلك الأشياء » ٠

ويقول بوفورد « وهنا رأيت جميع الحقائب واللفائف التى كانت موضوعة على البطاطين فى قاع المركبة تسبح الآن على بعد حوالى قدم من حائط المركبة » ويضيف قائلا :

« لم أصرخ ولم أحرك ساكنا ٠ انما تملكنى الخوف ٠ وشعرت كما لو كان شيىء يمسك بى ويرفعنى ، شىء لا أعرف ما هيته ٠ وكانت مجرد لمسة من يدى للزجاج تحركنى بسرعة ٠ فهمت ما حدث ، ولكن ذلك لم يمنع شعورى بالخوف ٠ لقد حجبنا عن كل جاذبية خارجية ، وكان للأشياء التى بداخل المركبة جاذبيتها الخاصة ٠ ونتيجة لذلك ، فان كل ما لم يكن مثبتا بزجاج المركبة أخذ فى السقوط ـ ببطء لصغر حجمه ـ نحو مركز للجاذبية فى عالمنا الصغير ، كان يبدو فى مكان ما قرب وسط القمر ، ولكنه أقرب قليلا الى كافور منه الى ، نظرا لكبر وزنه » ٠

ويقول كافور « لا بد أن نستدير بحيث يواجه ظهر كل منا ظهر الآخر وتبقى الأشياء بيننا »

ويواصل بدفورد وصف مشاعره قائلا « لقد شعرت بأغرب شعور يمكن أن يتصوره عقل ،ونحن نسبح هكذا منطلقين فى الفضاء ، وكان هـذا الشعور الغريب مخيفـا فى بادىء الأمر ، ولكن عندما زال الخوف ، لم يكن شعورا سيئا على الاطلاق ، بل كان شعورا مريحا جدا ٠ والحقيقة أن أقرب شىء الى ذلك فيما نمر به من تجارب على الأرض هو الاستلقاء على فراش سميك جـدا مصنوع من الريش الناعم ٠ ولكن ما أغرب ذلك الشعور بالانفصال والاستقلال التام ! لم أكن أتصور شيئا من هذا القبيل ٠ كنت أتوقع هـزة عنيفة عند البداية ، وشعورا بحركة تسبب الدوار ولكن بدلا من ذلك كنت أحس وكأننى قد تحررت من جسدى ٠ وكأن الأمر لم يكن بداية رحلة ، بل بداية حلم » ٠

وبعد فترة قصيرة يطفىء كافور الضوء الذى كان قد أوقده حتى لا يستهلك أكثر مما ينبغى من الطاقة المخزونة ، ثم تبدأ عملية توجيه المركبة نحو القمر بفتح بعض النوافذ حتى تعمل جاذبية القمر على الأشياء الموجودة بالمركبة ٠ ويصف بدفورد ظلام الكون ثم السماء المرصعة بالنجوم ثم ضوء القمر الذى يغرق المركبة عند فتح عدد من النوافذ ٠ ويقضى الرجلان الوقت فى الحديث أو القراءة أو النوم ، ويلاحظان أنهما لا يحتاجان الا الى القليل من الطعام ، « يشعران بأنهما فى حالة من الاستسلام بين اليقظة والنوم ، ويسقطان فى فراغ من الزمن لا ليل له ولا نهار ، يسقطـان بصمت ، ورقة ، وسرعة الى أسفل نحو القمر »٠

ثم تقترب لحظة الوصول الى نهـاية الرحلة ، وينشط كافور يقفل النوافذ ويفتحها ، يستخدم جاذبية الشمس تارة وجاذبية القمر تارة أخرى

يقوم ببعض العمليات الحسابية • ثم ينظر الى ساعته ، ويحول اتجاه المركبة كي يخفف من حدة الاصطدام بسطح القمر عندما تحل ساعة الهبوط وأثناء ذلك يرقب بدفورد القمر والشمس وبهاء ضوئها الذى يهلبه ويعمى بصره ، ثم حركة الاشياء داخل المركبة القمرية ، وتغير موقعه منها تبعا لتغير حركة الجاذبية التى تخضع لها • وأخيرا تستقر بهما المركبة القمرية فى فوهة ضخمة من فوهات البراكين العديدة على سطح القمر •

ويصور لنا ولز تلك اللحظات الحرجة التى تسبق هبوط المركبة القمرية على سطح القمر تصويرا رائعا ، الخوف من ألا تتمكن المركبة من الوصول الى القمر وتتوه فى الفضاء ، أو تصل الى القمر وتتحطم على سطحه ، أو لا يوجد الهواء الكافى لاستمرار حياة الانسان عليه • الا أن الرحلة يكلل لها النجاح وتهبط المركبة بسلام عند نهاية ليل القمر الطويل وبداية النهار • ثم يصف لنا ولز سطح القمر ومظاهر الحياة به من نبات وحيوان وسكان •

ولعل أروع ما يصوره ولز وما يدل على خصوبة خياله وقدرته على الخلق والابتكار هو أهل القمر أنفسهم • يعجب كافور وبدفورد أول الأمر لوجود حياة على القمر • ويزداد عجبهم ودهشتهم عندما يرون أهل القمر ويلاحظون مدى الاختلاف بينهم وبين سكان الأرض فهم أشبه ما يكون الى حشرة قريبة الى النملة نظرا لصغر أحجامهم ورقتهم وشفافيتهم • ويفشل الزائران الغريبان فى الوصول الى نوع من التفاهم مع أهل القمر • فتنشب معركة بين الطرفين عندما يرفض كافور وبدفورد عبور قنطرة ضيقة جدا مقامة على علو شاهق ، ويقتل بدفورد عددا من أهل القمر ، بينما يتشبث كافور برفيقه فى التفاهم معهم ، وخاصة عندما يدرك أنه على عتبة عالم غريب ، ويستنتج ما يراه من آلات ضخمة أن لأهل القمر حضارة متقدمة فى بطن القمر وعلى شواطىء بحاره الدخلية التى لا بد أن تنتهى اليها تلك الممرات والسراديب التى تبدأ مع السطح وتغطى فتحاتها أبواب متحركة ضخمة • ويفترق الصديقان فى محاولة للعثور على مركبتهما ليحتميا بها مؤقتا من البرد ومن أهل القمر • ولكن بدفورد يجرها ويعود بها الى الارض بينما يقع كافور فى أيدى أهل القمر • ويبقى معهم فترة ، يتعلم لغتهم وشيئا عن طرق حياتهم ، ويبعث بما يجمع من معلومات فى اشارات لاسلكية الى أهل الأرض ، عملا بفلسفة العالم الذى يسعى لتحصيل المعرفة ثم نشرها • وفجأة تنقطع هذه الاشارات ويبدو أن كافور قد لقى مصرعه على أيدى أهل القمر اللذين عرفوا من طباع أهل الأرض ماجعلهم يعجلون بالقضاء على الشخص الوحيد الذى يعرف سر الوصول الى عالمهم •

ويعوزنا الوقت لشرح جميع وجوه الحياة مع القمر كما صورها ولز • أما أهم مظاهر هذه الحياة فهو التخصص المتطرف الذى يحدد شكل الكائنات القمرية ويرى فى النمو المسرف لبعض قسماتها • فبعض هذه الكائنات تتميز بأيدطويلة وأخرى بأذرع ضخمة وأخرى بأرجل طويلة • وأبرز هذه التشكيلات كائنات تحمل أغطية كبيرة للمخ تبدو كالحوصلة المنتفخة بينما يتضاءل حجم الوجه وتضمر بقية الجسم الى أقصى حد •

ويوضح كافور فى رسائله الى الارض أن هذا التباين الشكلى الكبير يرجع الىمجهود واع مقصود لتهيئة كل فرد من أهل القمر عن طريق نظام دقيق من التدريب والتعليم والجراحة للقيام بعمل واحد معين يكلف به • فهو اما أن يفكر أو يتنكر أو يبنى أو يدير آلة • وهو لا يستطيع أن يفعل سوى ما أعد له وكلف به • ولكنه مهيأ تماما لوظيفته ومكانته فى الحياة • وهكذا يعمل كل فرد كوحدة تامة وكجزء من الآلة الكبيرة التى تكون هذا العالم الغريب • فعالم القمر قائم على تنظيم دقيق يشبه الى حد كبير جمهورية أفلاطون ،وان كان يبدو وكأن جمهورية أفلاطون قد تحولت الى كابوس مخيف •

وينقسم أهل القمر الى طبقات ، تتكون الطبقة المثقفة من الاداريين والاخصائيين والعلماء ، وعلى قمة هذه الارستقراطية الثقافية يجلس « القمرى الاكبر » • أما طبقة العمال فتتكون مما يمكن أن يسمى « بأيدى الآلة » وهناك أيضا الشرطة القمرية • وأخيرا « ملكات النحل » وهى طبقة خاصة محدودة العدد من الامهات » •

ويبدو هذا التنظيم الاجتماعى أول الامر وكأنه تنظيم مثالى • ولكن العالم الآتى من عالم الارض غير المثالى ما يلبث أن يكتشف ما لهذا التخصص المنظم من نواح محزنة تدعو الى الرثاء والشفقة • فهو عالم مخيف لا يختلف كثيرا عن عالم الدوس هكسلى « الجديد الجرىء » ، من حيث الآلية التامة للحياة ، وانعدام الحرية الفردية • فالنظرة التى يلمحها كافور لليد الممتدة خارج الاناء الزجاجى الذى يحوى بقية الكـــائن القمرى أثناء عملية تهدئته ليصبح ملاحقا للآلة من نوع معين ،انما هى رمز لذلك الارغام وعدم الانسانية الكامنين فى مثل هذا النوع من التنظيم الاجتماعى • أما صورة العمال اللذين يخدرون ويلقى بهم بين النباتات اللحمية الضخمة ، لمجرد أنهم زائدون عن الحاجة فصورة أشد قسوة وأكثر اثارة للأسى والعطف •

ومن الواضح أن هـ•ج• ولز يقدم هنا صـورة مبكرة لما يقدمه هكسلى فيما بعد فى عالم من عمليات الخلق والتشكيل فى الزجاجات ، وما يتبعهـــا من خلو الحياة من القيم الدقيقة ، يدفع ببنى البشر الى ادمان المخدرات ، أو الى الانتحار • فهذه اذن صورة ساخرة للتخصص المتطرف من ناحية ،ولما يمكن أن يؤدى اليه العلم انضل الطريق من ناحية أخرى •

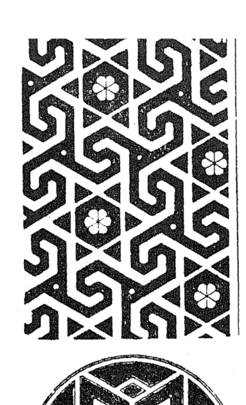
الا أن ولز يبدو شديد الاعجاب ببعض نواحى عالم القمر الأخرى التى تمثل بعض المبادىء التى طالما دعا اليها فى كتاباته القصصية وغير القصصية مثل الوحدة الكاملة بين أهل القمر واستخدامهم للغة واحدة ، وانعدام الحروب بينهم وقيام الحكم على يد ارستوقراطية ثقافية •

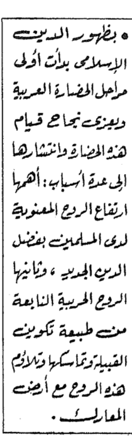
وهكذا نرى أن قصة « أول رجال فى القمر » الى جانب كونها « رومانسية علمية » من الطراز الأول،فهى أيضا حلقة من حلقات الروايةاليوتوبية التى تقدم صورا للعالم المثالى، كما يتمناه بنى البشر أو كما يخشون أن يكون فى المستقبل القريب أو البعيد ، بحيث تعد صورة العالم الخيالى تحذيرا لما قد يكون عليه العالم الحقيقى أكثر من كونها صورة لعالممثالى يرجى تحقيقه والاحتذاء به • فولز بالرغم من ايمانه الشديد بالعلم ، يشارك عددا غير قليل من مفكرى العصر الحديث فى ايمانهم بأن العـلم الذى يمكن أن يقهر الكون قد يؤدى الى القضاء على الانسانية ويتحول الى نقمة على البشر بدلا من أن يكون نعمة لهم •

أما من الناحية الشكلية فتعد قصة « أول رجال فى القمر » من خير ما كتب ولز من رومانسيات علمية • أما ولز فقد أثبت الزمن أنه من أئمة هذا النوع من الكتابة اذ جمع بين القصة المثيرة الشيقة والمادة العلمية الصحيحة ، فى عصره ، والفلسفة الاجتماعية الانسانية ، وترك أثرا واضحا فى كل من تبعه من كتاب هذا النوع من القصص •

ومن أهم خلفائه فى مجال القصـــص العلمى الداخل فى نطاق الأدب الناقد والروائى وأسـتاذ الأدب الانجليزى الذى توفى من بضعة سنوات ! س • س • لويس C.S. Lewis **مؤلف الثلاثيـــة التى تتكــون من « الى خارج الكوكب الصامت » وتشمل رحلة الى المريخ ، « ورحلة الى الزهرة » ، و « تلك القوة المخيفة » • ثم أولاف ستيبلدون** Olaf Stapledon **مؤلف « آخر الرجال وأولهم » و « صانع النجوم » • أما خارج نطاق الأدب فقد أصبح القصص العلمى ينافس القصص البوليسية فى الشيوع والانتشار •**

د • انجيل بطرس سمعان





أضواء جديدة على الحضارة العربية

عبد العاطى جلال

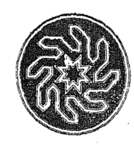
المستشرق **جاك ريزلر** يشغل حاليا منصب أستاذ بالمعهد الاسلامى فى باريس • وهو صاحب كتاب **يقظة الاسلام** وكتاب **الحضارة العربية** الذى نحن بصدد الحديث عنه • وقد نشر هذا الكتاب للمرة الثانية فى فرنسا أخيرا بعد أن نفدت طبعته الأولى التى نشرت فى سنة ١٩٦٢ • ويعتبر **ريزلر** من الذين عنوا عناية خاصة بالحضارة الاسلامية ومدى تأثرها بالحضارات الأخرى التى كانت تعاصرها وتأثيرها عليها • **وهو يختلف عن بعض المستشرقين بنظرته العلمية الموضوعية التى لا تخضع لعوامل القومية أو العنصرية أو الانتماء** • لهذا نجده فى أكثر من موضع فى دراساته التى نشرها عن الحضارة العربية والدين الاسلامى يعرب عن أمله فى أن

تسمح هذه الدراسات لغير المسلمين بمعرفة الروح الاسلامية وحقيقة تكونها ، **وباعثه على** ذلك رؤيته للعالم الغربي يقف مشدوها متحيرا **أمام العالم العربي وكأنه عالم غامض تماما تحيط الأسرار ويغمره الجهل ويعميه التعصب** • ومايصدر عنه من أعمال أو أفعال اسلامية فى طبيعتها وفى ايحاءاتها ليست بالأمور العادية أمام الغرب وكثيرا ما تفوته معرفة طبيعة هذا العالم ووجوده وأحاسيسه وتصرفاته • ويرى **ريزلر أن هوة سحيقة تفصل بين العالمين اللذين يقوم أولهما على الفطرة والزهد وثانيهما على المادية والاقتناع المنطقى** • الغرب يحاول الامساك بالحقيقة عن طريق الجدل الديكارتى والشرق يحاول الوصول اليها عن طريق الله وحده ، الأول يتحمل دون شك النتائج التى يصل اليها بجدله وأحكامه سواء أكانت صحيحة أم خاطئة والثانى يستجيب دون شك أيضا الى أوامر القرآن وتوصيه وسنة رسوله • **وهذه الحقيقة فى حد ذاتها كافية فى رأى ريزلر لمعرفة المسافة الشاسعة التى تفصل بين الانسان الشرقى والغربى** • ومع هذا فانه يرى أن الشرقى لا يعوزه الميل الى حضارة متطورة مزدهرة رغم يقينه أن مستقبل العلم قاصر وان مصير الانسان مهما كان **سيظل دائما بين يدى الله** •

أرض الديانات

وفى كتابه الحضارة العربية يحدثنا المؤلف فى الجزء الأول عن الفترة التى سبقت ظهور الاسلام ، ويحدد الوطن الذى ظهر فيه الدين الاسلامى وانتشر ويصفه بأنه يحتل مركزا جغرافيا خاصا بين أوروبا وآسيا وافريقيا • **ويرى ان تاريخ الشرق كله يجب أن ينظر اليه أولا وقبل كل شىء على أنه نتيجة لتطور الديانات التى نشأت فى قلب هذا الجزء العجيب من العالم ، حيث ظهر الاسلام على نفس الارض التى ظهرت عليها اليهودية والمسيحية وانتعشت جميعها فى نفس البقعة** • وهو يذكرنا بأن الحضارة العربية انبثقت من المناطق الخصبة فى الحجاز خاصة اليمن حيث كانت تقوم حضارة سبأ التى غزاها الحميريون الذين كانوا يقطنون غرب الجزيرة العربية وكانت بينهم وبين المصريين علاقات تجارية بحرية • وفيما عدا الحميرين والسبأيين لم تكن هناك تجمعات حضارية فى شبه الجزيرة العربية غير البدو الرحل الذين يدينون بالولاء لزعيم القبيلة • أما البابليون والاشوريون فأصولهم حتى الآن ليست معروفة تاريخيا رغم الاكتشافات الحديثة بالنسبة لهذين الشعبين • وفضلا عن ذلك فقد كانت هناك حضارات الفرس والفينيقيين والاغريق والرومان والمصريين • وجميعها كانت حضارات وثنية الى أن جاءت اليهودية ثم المسيحية وأخيرا الاسلام • **وبظهور الدين الاسلامى بدأت أولى مراحل الحضارة العربية** • ويعزى نجاح قيام هذه الحضارة وانتشارها الى عدة أسباب أهمها ارتفاع الروح المعنوية لدى المسلمين بفضل الدين الجديد ، الأمر الذى أكسبهم جرأة جعلتهم يستهينون بالموت فى سبيل الله • **وثانيها الروح الحربية النابعة من طبيعة تكوين القبيلة وتماسكها وتلاؤم هذه الروح مع أرض المعارك ، فضلا عن سرعة حركة الفرسان العرب وبساطة أدواتهم الحربية وملابسهم التى لا تعدو العمامة والعباءة أو الجلباب** •

ويرى ريزلر انه مما ساعد على انتشار الحضارة العربية ضعف أعداء المسلمين من البيزنطيين والساسانيين المتطاحنين دائما والذين لم يحققوا قط قيام امبراطوريتين راسختين على أسس قوية • وقد ظلت النظم الاقتصادية والاخلاق والعادات لدى الشعوب المحكومة من قبل هاتين الامبراطوريتين



شرقية لحما ودما • **كما أن العرب أحسوا بمشاعر هذه الشعوب النازعة الى التمرد فى أية لحظة بسبب المظالم والتفرقة السياسية والدينية والاقتصادية** • وهكذا وفى أقل من ثمانين عاما بسط العرب سلطانهم حتى وصلوا فى النهاية الى تور وبواتييه غربا وبلاد الدالاى لاما شرقا •

ان أعز أمنية كانت لدى الاسكندر الاكبر هى ادماج الاغريق فى الشعوب الشرقية والنظر اليهم جميعا على أنهم مواطنون متساوون فى الحقوق والواجبات • من أجل هذا أسس سبعين مستعمرة أغريقية فى آسيا الصغرى وحصنها تحصينا قويا لتكون نواة لذلك الادماج غير ان خلفاءه فشلوا فى اتباع سياسة الادماج

هذه وظلت الادارة رومانية أثناء الحكم الرومانى • **الا أن الثقافة الهيلينية كانت قوية وظلت اللغة الاغريقية هى اللغة الرسمية أكثر من الف سنة• وحينما جاء الغزو العربى لهذه البلاد انهار كل شيء ومحا هذا الغزو كل الآثار الرومانية •**

العقيدة والدولة والثقافة

ان كلمة اسلام على حد قول ريزلر يمكن أن تتضمن ثلاثة معان مختلفة هى العقيدة والدولة والثقافة وثلاثتها تعنى حضارة فريدة • فبعد أن استقر الاسلام فى الجزيرة العربية برزت الحاجة الى تنظيم اجتماعى وعسكرى وبدأ العرب فى عهد الخلفاء يخوضون معارك الفتوحات ، وفى أقل من عشر سنوات منذ وفاة الرسول سيطر المسلمون على دمشق وانطاكيا وبيت المقدس وسوريا وفارس ومصر • واختلط العرب بشعوب هذه البلاد وتزاوجوا معهم وتضاعف عددهم ، ونزح عدد غير قليل من البدو الرحل واستقروا فى الأرض الجديدة • ورغم هذا ظل العرب أقلية وسط هذا الخضم الهائل من سكان البلاد الأصليين ، لكن هذه الأقلية كانت ذكية وعلى قدر كبير من الجرأة فلم يطل بهم التفكير لكى يدركوا أن هذه البلاد المغلوبة على أمرها كانت قبل مجيئهم آيلة للانهيار رغم ان النظم الادارية فيها كانت مستقرة الى حد ما ، حتى ان الخليفة عمر لم يسمح للعرب بأن يستولوا على أراض فى تلك البلاد محافظة على الروح والنظام العسكريين أيضا • لكن الفاتحين مع هذا فرضوا نظما اقتصادية ومالية تعود عليهم بالفائدة دون أن يتعرضوا للنظم المستقرة فى تلك البلاد ، بل حاولوا أن يستفيدوا منها بقدر الامكان ويؤكد المؤلف خلافا لما يظنه بعض المستشرقين ان الغزاة انتهجوا سياسة طيبة تجاه المغلوبين دون أن يشعروهم بالولاء أو الخضوع خاصة فيما يتعلق بالدعوة الدينية ، ودليله على ذلك ان غالبيتهم احتفظوا بدياناتهم الأصلية نظير دفع ضريبة معينة **وبهذا الشكل استمرت الحياة فى سيرها الطبيعى وعاد الانتعاش الى الحضارات القديمة والحضارة الهيلينية على وجه الخصوص ، كل ذلك فى اطار** الثقافة الاسلامية التى كانت آخذة فى التطور والنمو على أسس راسخة من الأخذ والعطاء ، حتى لقد حدث أن الذين اعتنقوا الدين الاسلامى من شعوب تلك الحضارات استطاعوا أن ينسوا ماضيهم التاريخى الحقيقى ، بل وحاولوا مزجه بالحاضر وكأن الديانة الاسلامية كانت قائمة قبل **ذلك • وربما لم يحدث فى التاريخ البشرى من قبل تمثل للحضارة الانسانية كما حدث فى تلك الفترة •**

وجاء العصر العباسى فكان من ألمع عصور الحضارة الاسلامية • فقد كان معظم الخلفاء العباسيين يميلون الى الأخذ بأسباب الحضارة ميلا شديدا ، فازدهرت الفنون والآداب والعلوم فى عصرهم وحفل القرنان التاسع والعاشر الميلاديان بأعظم ما تنتجه القرائح من علوم وفنون • **فاعتبر هذا العصر بحق العصر الذهبى للحضارة العربية** • ولم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ أن احتوى قصر ملك أو أمير أو نبيل مثل ما احتواه قصر هارون الرشيد من عقول تتنافس فيما بينها كى تنتج أعظم ما خلفته الحضارة العربية فى أوج ازدهارها • ولم يكن الرشيد هاويا أو فنانا فحسب ، بل كان كذلك حاكما ممتازا يعرف كيف يحمى حدود امبراطوريته



وكيف يقود جيوشه الى المعارك وكيف يحكم فى القضايا بالعدل • ورغم جوده وسخائه وأبهته وتبذيره الذى كان أسطوريا فانه حينما توفى فى سن الثانية والأربعين ترك فى خزائنه ثمانية وأربعين مليونا من الدنانير • وخلفه ابنه المأمون فنهج نهجه ، بل كان مفعما بالآمال الواسعة الخيرة • وامتلأ بلاطه بالعلماء والفقهاء بمختلف طرائقهم ومذاهبهم • وكما كان ميسين أحد النبلاء الرومان فى بلاط الامبراطور أغسطس حامى حمى العلماء والأدباء والفنانين فى أيام فرجيل وهوراس كان المأمون كذلك ، فنشر العلوم والفنون والآداب فى كل أرجاء امبراطوريته وترجمت فى عهده المؤلفات الاغريقية •

بين السياسة والحرب

يقول المؤلف ان أهم شيء يسترعى النظر هو أن انتشار الاسلام قد يوحى الى المفكر أو الدارس بأن يعقد مقارنة بين هذا وبين انتشار الدين المسيحى ، هذا الدين الذى قام أساسا على غزو القلوب بمثل عليا للخير والحب والتسامح . **فموعظة « أحبو بعضكم بعضا »** « كانت المثل الأعلى للمسيح وحوارييه . لكن على الصعيد الانسانى والأقل مثالية كان **النبى على حق حينما برهن على أن أحسن المثل العليا هو ذلك الذى ينبع من القوة السياسية والحربية** . وشاهدنا على ذلك أن السرعة المذهلة لتطور الدين الاسلامى لم تكن الا نتيجة مباشرة للعوامل السياسية والتقدم الحربى . وانطلاقا من هذه النتيجة التى وصل اليها ريزلر نجده يلقى نظرة علمية على السياسة التى اتبعها العرب مع أبناء الشعوب الأخرى من أهل الذمة . فيذكر لنا أنه فى بداية الفتح لم تكن الامور قد استقرت تماما بالنسبة للعرب . ثم تدريجيا وبالضبط أثناء حكم بنى أمية اهتم خلفاؤهم بأهل الذمة هؤلاء وجعلوهم يحتلون مكان الصدارة فى مراكز متعددة . وفى العصر العباسى وصل الأمر ببعض اليهود انهم فضلوا الدين الاسلامى واعتنقوه عن يقين . وبلغت سماحة الخلفاء أقصى حدودها فانتعشت العبادات الاخرى حتى بلغ عدد دور العبادة فى الامبراطورية الاسلامية ما يزيد على أحد عشر ألف كنيسة وعدة مئات من المعابد اليهودية على اختلاف أنواعها **وظهر بين أهل الذمة من شغلوا الوظائف العامة ، وأصبح منهم الاطباء وأصحاب بيوت المال وكبار** الزراع . وقد وصل من اعتنق الاسلام منهم الى مناصب الوزراء والقضاة . وفى منتصف القرن الحادى عشر الميلادى شغل اليهود بالذات أكبر الوظائف فى مصر . وكان أبو سعد والتستارى وغيرهما ممن شغلوا مناصب الوزراء فى الدولة الفاطمية فى مصر من اليهود .

وانتشرت دور العلم على اختلاف أنواعها حتى شملت أرجاء الامبراطورية الاسلامية ، فكان الطفل فى سن السادسة أو السابعة يرسل الى الكتاب الملاصق للمسجد ويتلقى تعليمه الأولى بالمجان فيه ، وقد كان قائما على حفظ القرآن . وفى القرن العاشر الميلادى عرف النظام المرحلى فى التعليم فوجدت مرحلة التعليم الأولى أو الابتدائى الذى كان هدفه تكوين شخصية الطفل واخلاقه ثم المرحلة الثانوية وفيها يتلقى الطالب دراسة حقيقية متنوعة . أما فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة فقد كان الطالب يقوم بدراستها فى الأماكن المختلفة مع المهنيين والحرفيين فى المصانع والمراصد ثم نظمت المرحلة الثالثة وأصبح يطلق عليها المدرسة أو الكلية . **وبذلك كان العرب أول من عرف نظام المراحل التعليمية الثلاث** . وكانت الدراسة فى المدارس الملحقة بالمساجد حيث الدراسة بالمجان تقدم للدارس دروسا فى النحو والفلسفة وفن الخطابة والأدب والمنطق والرياضة . وهذه المدارس هى غير كتاتيب المرحلة الأولى التى ورد ذكرها آنفا . وكان الطلبة يلتفون فى مدارس المرحلة الثالثة حول أساتذتهم فى حلقات ويتلقون دروسهم عن طريق الاستماع والحوار ، ونادرا ما كانوا يكتبون . وكثيرا ما كان الراغبون فى الاستزادة من العلم يرتحلون الى عواصم الامبراطورية ، **الى مكة وبغداد ودمشق والقاهرة** وكان هؤلاء الرحالة يجدون الكثير من الحفاوة والتكريم وهم فى طريق رحلاتهم الى هذه الحواضر حيث ينزلون ضيوفا أعزاء مكرمين لأنهم طلاب علم وطلب العلم فى حد ذاته نوع من الايمان والعمل بسنة رسول الله . وتحت تأثير هذا الجانب الثقافى وبفضل ازدهار العلم أنشأ الوزير السلجوقى نظام الملك فى بغداد عام ١٠٦٥ م المدرسة النظامية وبناها أحسن بنيان وكتب عليها اسمه . وقد أنشىء على نسقها مدارس متعددة فى حواضر البلاد الاسلامية بعد ذلك . وقد بنى نظام الملك اسواقا حول هذه المدرسة خصص عائدها لحسابها . وابتاع الوزير لها ضياعا وخانات وحمامات وأوقف عليها وكان يدرس فى هذه المدرسة القرآن والتفسير والسنة والفقه الاسلامى والمذاهب الاربعة والفلسفة والآداب والجغرافيا والتاريخ وعلم السلالات وعلم الآثار وعلم الفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى والهندسة . وبعد ذلك أنشىء فى بغداد أيضا مركز اسلامى خاص بدراسة القانون والعلوم والآداب والفنون . ويرجع السبب فى انشاء هذا المركز الى أنه حينما نشبت الخلافات بين الأساتذة وطلابهم فى مسألة المذاهب الاربعة التى تمثل فى الواقع المدارس الأربع الكبرى فى الاسلام أنشىء هذا المركز ليجيب على التفسيرات والتطبيقات المتصلة بهذه المذاهب وتكون فى مجموعها الشريعة الاسلامية ، وليلبى رغبات المستفسرين من حنفية ايران الشرقية وافغانستان وتركستان ، ومالكية افريقيا واسبانيا وصقلية ، وشافعية سوريا والعراق وبقية الاجزاء الايرانية وحنبلية الحنابلة الذين كانوا يمثلون سراة المدن

كان هذا فى الواقع كما يقول المؤلف تنظيماً حقيقيا للثقافة العامة ومظهرا واضحا للأممية الذى قلده الغرب أخيرا حينما جمع فى جامعة باريس المذاهب المسيحية الاربعة ، والذى تطبقه حاليا هيئة اليونسكو بوسائل حديثة .

قوتا العلم والمعرفة

وفى مدى خمسمائة عام من سنة ٧٠٠ الى سنة ١٢٠٠ ميلادية **سيطر الاسلام على العالم بقوته الذاتية والروحية المتمثلتين فى العلم والمعرفة** ، وهما الأساس الحقيقى لأى حضارة مزدهرة . ولما كان المسلمون هم ورثة كنوز العلم والفلسفة الاغريقية ، فقد تمكنوا فى أوروبا الغربية بوجه خاص من تمثل هذه الحضارة بعد أن أضافوا اليها الكثير . وبهذا الشكل استطاعت الحضارة الاسلامية أن توسع من دائرتها فى المحيط الثقافى فى العصر الوسيط الاوروبى ونفذت بعمق فى الفكر وفى الحياة الأوروبية . **وقد وضع الخلفاء والأمراء نصب أعينهم وفى المكان الاول تطوير الآداب والفنون والعلوم** . ولما كانوا يعتبرون أنفسهم الحماة المتنورين للفلاسفة والأدباء فقد فتحوا أبوابهم على مصاريعها لهذه الطبقة خاصة الشعراء والعلماء منهم . وتقدمت الثقافة حتى وصلت الى عروش هؤلاء الحكام وسرر ملكهم . وفى مراكش تحدث الخليفة الناصر فى فلسفة سقراط وأفلاطون وابن رشد فى نفس الوقت الذى كان فيه نبلاء الغرب يتفاخرون بأنهم لا يعرفون القراءة والكتابة . وفى قرطبة كان الخليفة الحكم الاموى يمتلك مكتبة تضم أكثر من أربعمائة ألف كتاب وهى تلك المكتبة التى لم يتمكن ملك فرنسا شارل الخامس بعد أربعة قرون من حكم المسلمين لاسبانيا من حمل أكثر من ألف كتاب منها . ومع هذا فان الغريب حقا ان الادباء والعلماء العرب لم يبدوا اهتماما حقيقيا بالادب الاغريقى الغزير الذى وجدت فيه أوروبا فى عصر نهضتها منهلا عذب المساغ . **ففى أول الأمر ظلت مؤلفات المؤرخين والكتاب الاغريق وكذلك الادب المسرحى التى كان يستطيع العرب أن يتوافروا عليه بالبحث والدراسة ، ظلت هذه المؤلفات دون أن تجتذبهم اليها** . ربما كان هذا يرجع الى أسباب دينية تتلخص فى مبدأ القضاء على ذلك الماضى الوثنى المخيف ، لكن الادب الاغريقى لم يكن فى جملته تطبيقا خالصا للدين بدليل أن علماء المسلمين توافروا عليه لفترة طويلة بقصد الوصول الى التوفيق بين الفلسفة الاغريقية وما نزل به القرآن . وقد طرح العلماء فكرة الابتعاد عن هذا التراث جانبا بعد فترة طويلة نسبيا ، وبدأ المفكرون والمؤرخون فى القرن الحادى عشر تقريبا فى الاقبال عليه . وكان أولهم ابن قتيبة الذى لم يتردد فى الارتفاع بعقيدته الى المستوى العالمى الشامل ، ذلك **المستوى الذى يجعل المؤرخ يحتضن شمول العصور ويتسع صدره لها جميعا دون تمييز بدرجة تؤهل الباحث لانبثاق سيكولوجية خاصة ترتكز على روح الفيلسوف وروح السياسى حينما يكون الهدف هو الوصول الى مفهوم متبادل بين الشعوب وحتى بين الناس** . ومنذ ذلك الوقت برز التفكير الحر المستقل . وقد أثبت علماء آخرون من المسلمين وجود التفكير الحر المستقل عندهم فى وقت كان التعبير فيه عن الأفكار يعد خروجا خطيرا برغم التقاليد الحرة للاسلام . وفى هذا الصدد يقول المؤلف ان **الشهر ستانى** فى كتابه « **الملل والنحل** » الذى ظهر فى سنة ١١٢٨ يحلل المذاهب المختلفة فى حيدة تامة قد يجدها الانسان بصعوبة عند أى مؤلف مسيحى يعيش فى نفس الفترة . ويضيق المقام هنا عن الحديث عن أهم المفكرين والأدباء العرب الذين آثروا الحضارة العربية .



أعمدة العالم الأربع

وفى الجزء الثالث من هذا الكتاب يحدثنا المؤلف عن أثر الحضارة العربية الغربية فى الاندلس ويذكر ان اسبانيا الاسلامية كان لها أكبر الأثر على أوروبا فى ذلك الوقت . ويبدأ المؤلف هذا الجزء بقوله : ان جامعات الاندلس كان مكتوب على واجهات جامعاتها بحروف من الذهب العبارة الآتية « **عماد العالم أربع : معرفة الحكماء وعدالة العظماء ودعاء البررة وقيمة الشجعان** » .

لم يكن من قبيل الصدفة المحضة أن تحتل المعرفة فى هذه العبارة المكان الاول . **فبالعلم وحده فى الحقيقة تأصلت الحضارة العربية فى اسبانيا بشكل لا يستطيع معه الزمن محوها أو التمكن من ازالة ذكراها** . ان القيمة الحربية للعرب كان لها أثر عظيم فى اسبانيا . لكن هذا الأثر كان سريع الزوال حينما تماسك المغلوبون على أمرهم . والدين الاسلامى رغم جاذبيته غير المتنازع عليها لم يكن بذى أثر بالغ على الفكر الاوروبى . ولم يكن للشريعة الاسلامية المستمدة من القرآن رد فعل على الحياة الاجتماعية للعصور الوسطى الأوروبية بقدر ما كان للعلوم والفنون الاسلامية التى نفذت بعمق فى الثقافة الغربية . ولن نستطيع الحديث عن الحضارة الاسلامية وأثرها على أوروبا دون ان نتصدى للأدب وأثره على اسبانيا الاسلامية . **كان الاحتفال بالشعر بالغا فى الأندلس حيث كان الخلفاء يحبون قرض الشعر ومتعة الاستماع اليه لفظا ومعنى وموسيقى** . وقد حملت قرطبة لواء الشعر واضاءت شعلته وتبعها فى ذلك اشبيلية وغرناطة . ومن خلال القصائد وأغانى الحب انبثقت رومانتيكية الهمت فرسان العصور الوسطى الاوروبيين . واعتبر الشعر الغنائى العربى فى ذلك الوقت من أهم العوامل وأقواها ، اذ تمثله المسيحيون الاسبان وظهر أثره واضحا ومستمرا فى الشعر الشعبى القشتالى وترانيم المسيحيين . **واذا كان الحب بنوعية الافلاطونى والعاطفى منذ القرن الثامن الميلادى يعتبر موضوعا أدبيا معروفا فى الشعر العربى فانه من المهم أن نثبت أن هذا الموضوع انتشر فى المنطقة الوسطى من فرنسا فى القرن الحادى عشر بشكل فيه عمق وثراء يفوقان الوصف . وبهذا الشكل قلد الشعراء الجوالون أو** « الطروبادور » بشكل قاطع مقطوعات الرجز الغنائية . ان عادة احترام المرأة التى كان الفرسان يحييونها برماحهم قبل منازلة بعضهم البعض تذكرنا فى الحقيقة بالشعر الاسبانى الاسلامى . وأغنية رولان التى ظهرت سنة ١٠٨٠ والتى تعتبر آية من آيات الشعر البدائى الأوروبى تدين بوجودها الى المنازعات الحربية التى كانت تحدث هنا أو هناك فى الجانب الآخر من جبال البرانس . كذلك عن طريق اسبانيا الاسلامية تأثر **بوكاتشفسيو وتشوسر** وبعض القصاصين الالمان . والشعر العربى الاسبانى هو الذى أوحى الى **تنيسون وبراونج** بأشعارهما . وكوميديا دانتى الالهية تدين بالكثير الى الفيلسوف **ابن عربى الذى عاش** فى القرن الثالث عشر . وهذه الكوميديا الخالدة مملوءة بالاصاف العربية فى المواضع التى تحكى عن الرحلة فى ممالك السماء الغامضة والجحيم .

وبفضل التكوين العقلى للشرق استطاع الخيال الأوربى الانطلاق والتحرر من مسلمات ضيقة وجامدة كانت تقيده . وهذا فى جملته يعتبر أثرا ذا شأن على الحضارة الاوروبية فى ماضيها وحاضرها . فمثلا رائعة دون كيشوت مستمدة من المفهوم الحضارى العربى . وقد كان سيرفانتيس سجينا فى وقت ما فى الجزائر وكان يقول دائما ان كتابه كتب أولا باللغة العربية . وروبنسون كروزو لمؤلفه دانييل ديفوا استوحاه مؤلفه أيضا من الرواية الفلسفية حى بن يقظان لابن طفيل كما ان تاريخ ابن خلدون ومقدمته المشهورة يرجع الفضل فى القاء الاضوا عليهما للمستشرقين الأوروبيين فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وفى الجزء الأخير من الكتاب يسرد المؤلف أسباب انحسار الامبراطورية العربية ويعزو ذلك الى اتساع رقعة هذه الامبراطورية وصعوبة اتصال الخلفاء بالولاه اتصالا مباشرا وسريعا ، وانتشار النزعة القومية فى أوروبا وتعدد لغات الشعوب المحكومة والمذاهب واشتداد ساعد الاتراك السلجوقيين الذين كانوا باستمرار يتربصون للانقضاض على الامبراطورية ، ثم أخيرا الحملات الصليبية التى أضعفت الدولة وهجوم المغول ثم المماليك . وفى الأندلس اشتدت شوكة المسيحيين فبدأوا يهاجمون الامارات العربية هناك واحدة بعد الأخرى . وهكذا الى ان استولى الاتراك على معظم البلاد الاسلامية وغربت شمس الامبراطورية العربية .

عبد العاطى جلال

البحث عن الشخصية المصرية فى الفن

من طبيعة مصر ، أنها تعد بمثابة البوتقة العميقة التى تصهر كل المؤثرات الخارجية وتطبعها بطابعها القومى ، وما تاريخ مصر العريض كله سوى اختبار مستمر لهذه الطبيعة الفريدة

محمد شفيق

لم تطرح فى حقل فنوننا التشكيلية المعاصرة قضية فنية فى مثل أهمية والحاح القضية التى نتعرض لها الآن : **قضية البحث عن الملامح المميزة والسمات الخاصة لقوميتنا** ، قضية خلق فن قومى ينبض بالحس القومى بالعالم المصرى العربى • بل لم تبرز قضية فنية على امتداد تاريخ فنوننا التشكيلية المعاصرة ، على امتداد الأجيال المتعاقبة أكثر من هذه القضية • **كانت بمثابة السؤال الجوهرى المتصل الذى تطرحه الاجيال باستمرار وتحاول الاجابة عليه :** أى شكل من أشكال التعبير التشكيلى يصلح لتجسيد ما يجيش به وجداننا القومى ؟ وعلى وجه العموم ، **كان تاريخنا التشكيلى هو تاريخ الاجابة عن هذا السؤال** • وقد تعددت الاجابات وتنوعت ، بتعدد الشخصيات الفنية المؤثرة فى تاريخ هذا المجال كله ، وتنوعت بتنوع الاتجاهات والتيارات والمذاهب الفنية التى قادتها بعض الجماعات الفنية وعبرت عنها • تنوع كل هذا وتغير ، أما القضية ذاتها فقد ظلت باقية •

لذا كان ما يدعونا للتفكير باستمرار هو **معرفة الأسباب والدوافع التى تقف وراء تصدر هذه القضية بمثل هذا الشمول والقوة** • وأول ما نتلمسه فى هذا هو حقيقة ان هذه الدوافع

حاملة الجرة للفنان م · مختار



ذات طبيعة موضوعية أكثر منها ذاتية · **فقد تغيرت الشخصيات الفنية طوال تاريخ الحركة الفنية المعاصرة** ، ومع ذلك بقيت قضية الفن القومي قائمة · وفوق ذلك ، نجد حقيقة أخرى : **فهذه القضية تحمل أبعادا هي أكثر اتساعا من ان يغطيها تيار أو اتجاه فني محدد ، وهي أكثر شمولا من أن تستوعبها جماعة فنية بعينها** ففي تاريخ حركتنا التشكيلية المعاصرة نجد التيارات والجماعات الفنية التي تختلف في ملامحها الداخلية ، وفي أهدافها الفنية التكنيكية وفي رؤياها للعالم ، لكنها تتفق كلها في احساسها القوي بالروح القومية ·

جيل الرواد

ففي جيل الرواد – وهو الجيل الذى طرحت فيه القضيه أول ما طرحت – نجد **مختار وراغب عياد ومحمود سعيد وناجى** • وكل من هـؤلاء الفنانين الرواد ، كان يسعى للبحث عن أسلوبه الفني الملائم للتعبير عن شخصيته المميزة • أضف الى ذلك ان هذا التميز والتباين كان أيضا فى مجال الوسائط الفنيـه ذاتهـا : **ففى حين كان مختار يخلق عالمه التشكيلى بالحجر ، كان بقية رفاق جيله يبدعون عوالمهـم التصويرية باللون** وبالخط • ومع ذلك – ورغم اى من هذه العوامل المختلفة – فقد كان يجمعهم ذلك الحس القومى الذى نراه واضحا فى اعمالهم • وفى الجيـل التالى – وهو الجيل الذى نشأ تاريخيا بعـد الحرب العالمية الثانيه – نجد جماعة فنية مثـل « **جماعة الفن المعاصر** » تستأنف اعـادة خلق هذا العالم القومى من جديد : **نجـد الجزار وحامد ندا وابراهيم مسعود وماهر رائف وحسـين يوسف امين • ثم نجد مدرسة حامد سعيد** • كما نجد بعض الفنانين المستقلين أمثال **حامد عبد الله ويحيى حليم وجمال السـجينى وأبو عبد المولى ومحمود موسى** • وما نجده فى هـذا الجيل ، نجده فى الجيل الذى يعقبه تاريخيا : جيل ثورة يوليو •• الجيل الذى تفتحت مواهبه الفنيه ورسخت اساليبه ووسائطه الفنية الخاصة مع بدايات الثورة : مثل **ادم حنـين وهجرس وجاذبية سرى وناجى أفلاطون وسيد عبدالرسول والنجدى وصالح رضا وطه حسين وسعد كامل وجمال محمود ورفعت أحمد** • وكان لا بد أن يؤثر هذا الامتداد التاريخى الذى أخذته القضية على طبيعة تكوين الجيل الذى نرى اليوم ملامحه الفنية وهى تتشكل : جيل الفنانين الشبان • ومن الممكن ان نشير الى بعض من فنانى هـذا الجيل ، **كعلى دسـوقى والرزاز والدواخـلى** والرشيدى ، لكى نستكمل ايضاح الصـورة الشاملة التى نحاول الآن عرضها •

كل هؤلاء الفنانين الذين يشـكلون ملامح الاجيال المتعاقبة على حركة فنوننا التشكيليـة كانوا يختلفون فى أشياء كثيرة ، لكنهم يجتمعون حول قضية واحدة : **قضية البحث عن الشخصية المصرية المميزة** •

القومية وشخصية الفنان

ونرى – قبل أن نستأنف دراسـتنا – أن نتوقف عند نقطة لها أهميتها : **فهذا البحث الذى قاد هؤلاء الفنانين لم يكن أبدا من قبيل الابحاث العلمية المجردة التى يجريها العلماء فى معاملهم حيث يشترط ان تتوافر أعلى درجة من الاستقلال عن الذات والحيدة الدائمة عن الاهواء الشخصية ومن الامزجة المختلفة ، اى عن كل ما يؤدى الى تدخل الاسقاطات الذاتيـة** • وعلى النقيض من ذلك ، كان بحثهم عن وسـائل التعبير الملائمة لاكتشاف شخصية مصر ، يجرى فى نفس الوقت مع بحثهم المستمر عن شخصياتهم الذاتية ، وعن أساليبهم الفنية الخاصة • بل انهم ليعتبـرون – فوق ذلك – ان بحثهم عن شخصية قوميتهـم هو السبيل المباشر والطبيعى المؤدى الى اكتشاف ذواتهم • وان ما لا حظـه النـاقد الفرنسى « ماكسيميليان جوتييه » فى معرض حديثه عن فن مختار فى الثلاثينات ، ليصلح تماما كمدخل لتفهم القضية كلها : « ان الخصـائص الفردية لا يتحقق نماؤها وازدهارهـا الا فى اطـار القوميات » (بدر الدين أبو غازى : المثـال مختار ص ١٦٨)

التراث ولغة الفن

على أى أساس كانوا يعتمدون فى بحثهم هذا ؟ وبأى وسيلة كان يجرى هـذا البحث ؟ كانوا يبحثون عن « جوهر » شخصيتهم القومية • وفى سبيل ذلك ، لم يكونوا يعتبرون فى أى لحظه ان مجرد تصوير موضوعات الفنانين الفرنسيين والأجانب فى اواخر القـرن التاسـع عشر ، **مليئة بكل ما كان يوجد فى الحياة المصرية ، بل وفى أغوار الحياة الشـعبية ذاتهـا • كانت** موضوعاتهم قومية أو محلية ، غير أن ما كـانوا يفتقدونه هو الشيء ذاته الذى كان يجرى هنـا البحث عنه : **الوجدان القومى المتغلغل فى نفس الفنان ، الروح التى تنبض بالوجـود وبالمزاج وبالحس القومى • فهؤلاء الاجانب كانوا يرون مصر لكن برؤية أجنبية** • وقد تختلف آثارهم الفنيـة التى خلفوها لنا فى قيمتها من مجرد أعمـال تسجيلية أو تقريرية بحتة مثل أعمال « **رينو** » أو « **برشير** » ، أو » **فرومنتان** » ، الى أعمـال فنية تعبر بعمق عن شخصية خالقهـا مثـل أعمال « بيبى مارتان » ، لكنها تتفق كلها من حيث خلو نسيجها من أى أثر بالحس القومى ، أو بالرؤية القومية • وبالطبع لم يكن أحـد ينتظر أن تحقق ذلك •

اذن ، لم يكن فى وسع الموضوعات القوميـة وحدها أن تجسد هذه الرؤية القومية . أصبحت القضية هنا منحصرة فى « الأسلوب » الفنى ، فى المنهج ، فى طريقـة معـالجة الموضـوع . والأسلوب الفنى هو قبل شىء « **اللغـة** » التى يحدثنا بها الفنان عن أبعاد عالمه . ولغة الفن هنا أكثر اتساعا وشمولا واستمرارا من أية لغة للكلام البشرى . انهـا لا تتأثر بالأعـراض التاريخية ، وهى أقل تعرضا لاختلافات الزمن وتقلباته . ولغة الفن أكثر استعدادا لامتصـاص كافة العوامل والمؤثرات النفسية والوجدانيـة والفكرية التى تعتمل فى كيان أمة من الامم ، واختزانها فى قلبها .

من هنا اكتشف الفنان المصرى الحديث لغته الفنية من خلال التراث الفنى القديم على امتداد تاريخ مصر العريض ، اكتشف من خلال التـراث القديم لغته القومية الخاصة . هذه اللغة التى اختزنت وامتصت فى قلبها آثار حضارات عريقـة متوالية ، لفظت فى مسيرتها العريضـة أشـياء واستبقت أشياء أخرى ، وما اسـتبقته كان خلاصة تفاعل الوجدان القومى الممتد .

هذه الأشياء التى تستبقيها الحضارات سواء أسماها البعض بالرموز الباطنة ، أو أرجعهـا البعض الى فاعلية اللاشعور الجمعى ، أو وجدهـا البعض الاخر كعنصر ضرورى من عناصر استمرار تطور التاريخ ، **كانت هى الأساس الذى اعتمد عليه الفنان المصرى الحديث فى بحثه عن الشخصية** المصرية القومية . واذا كانت لكل لغة مفرداتها فان لغة الفن القومية التى نعنيها هنا ، قـد تحددت مفرداتها فى مصر وفقا لظروفها الحضارية والتاريخية والجغرافية . ولقـد اكتسبت غنـا وتنوعا وثراء بالذات بفضل وضعها هذا . فخلال آلاف السنين تتابعت على مصر حضارات قديمة عريقة : **الحضارات المصرية القديمة ، والقبطيـة والاسلامية والعربية** . كما أن وضعها الجغرافى ذاته قد جعلها تحمل رسالة حضارية عظيمـة هى أن تؤلف بين جزئى العالم المتمايزين على مر القرون ، وهما الشرق والغرب . ومعنى ذلك كله ان تتزايد حصيلة مفردات هذه اللغة القومية، وان تتنوع . **ومن طبيعة مصر ، من طبيعـة هذا الجزء من العالم ، انها تعد بمثابة البوتقـة العميقة التى تصهر كل المؤثـرات الخارجيـة ، وتطبعها بطابعها القومى وما تاريخ مصر العـريض كله سوى اختبار مستمر لهذه الطبيعة الفريدة .**

وحينما أشرفت مصر على عصر العالم الحديث لم تتخل عنها هذه الطبيعة الخاصة . ففى أواخر القرن التاسـع عشر وأوائل العشرين ــ **وهى الفترة التى كان يتم فيها عملية التطور الحديث** ــ كان كل شىء فى بلادنا يعمل على انصهـار المؤثرات الأجنبية الحديثة فى بوتقة التراث القومى القديم . وقد كانت أيضا الظروف السياسية التى عاشتها البلاد فى هذه الفترة ــ حينمـا كانت بلادنا مقيدة تحت سـيطرة قوى أجنبية وتسعى للتحرر منه ــ عامل من العوامل القـوية الدافعة لمزيد من عمليات الانصهار هذه .

فى كلمة : كان أكثر ما يهم الفنـان المصرى الحديث هو بحثه عن عنصر « **الاسـتمرار** » فى الحضارة **والتـاريخ** . كان أكثر ما يهمه هـو التعبير عن واقعة المعـاصر من خـلال امتداده العريض فى الماضى . وبالاضافة الى كل ماسبق كان هناك أيضا الجانب « الأنثروبولوجى » الذى يساعد الفنان تماما فى خلق وسيلته للتعبير . وما لاحظه « رينيه وييج » أثناء زيارته لمصر عام ١٩٦٥ ، هو نفس ما لا حظه كل فنـان مصرى حديث . وقد عبر ويج عن ذلك فى دهشـة المكتشف : « **لقد أثار انتباهى ان أستكشـف فى وجوه الناس الذين التقيت بهم من شـمال مصر الى جنوبها ، وفى وجوه رفاقى فى السفر، استكشف الشبه بأولئك الذين احتفظت لنا رسوم المقابر أو الصخور المنحوتة منذ الدولة القـديمة بصور وجوهم وملامحهم** » . فهل هذا هو نفس الشىء الذى دفع حامد سعيد أيضا لأن يلتقط من صورة الفن المصرى عبر تاريخـه كله ، عنصر الاستمرار والبقاء ؟ ولقد قال فى ذلك . « **أن نتكلم عن الفن فى هذه الأرض خلال العصـور المختلفة ، كما لو كان لنا واحدا يتطور ، أمر لم يصبح بعد عاديا مألوفا ، ولكنه ضرورى** » .
(حامد سعيد : الفن المعاصر فى مصر)

مختار والتراث

بهذه الرؤية الفنية ، وبهذه اللغة المشبعـة بأرجاع حضارات ممتدة ، سينحت أول مثـال مصرى حديث هو محمود مختار تماثيله الخالدة . وستعود فى أعماله صور تلك النساء بأزيائهن التقليدية التى لم تتغير ، وبملامحهن وحركاتهن منذ أربعين قرنا . سيعود فى أعماله نفس الحس بالصفاء والهدوء والكمال الذى نلمسه فى كل

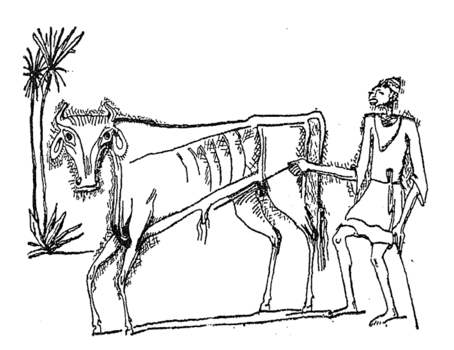
آثار مصر القديمة . وستجلب هذه الملامح الفنية معها انها ذلك الشعور بالعظمة والضخامةوالقوة الملازمة لكل عمل مصرى قديم . وسنلمس فى فلاحات مختار الشيء الكثير من الرقة . وسنجد فى الخطوط التى تحدد شكل أرديتهن أو حركة التفاتتهن الخفيفة نحو النهـــر ، أو حملهن لاناء رشيق ، أو اشراق وجوههن العذرية بابتســامة عذبة ، سنجد فى هذه الخطوط أكثر الايقــاعات دقة ورهافة . هى نفس صفات الخطوط الشائعة فى كل التماثيل الفرعونية . فهل كان عمل هذا الفنان مجرد تصوير لحياة ماضية ، سالفة ؟ كلا لقد كان « **الوعى** » بالماضى عند مختار وســـيلة تجسيد ملامح الحاضر ذاته . وقد كان يســـعى للتعبير عن خلود ذلك الحاضر ، وعن مثاليتـــه أو نموذجيته . وكانت عملية ربطه بالماضى ، او عملية « **التبعيد** » التاريخى كما يقول رجـــال الدراما ، كافية لتكسبه هذا الحس المثالى المسيطر كافية لتعميق الاسطورة . وقد اكتشف مختار نفس الشيء الذى سيكتشفه رينيه ويج بعد ذلك بثلاثين عاما : استمرار الماضى فى الحاضر .

غير أن الفن فى صميمه عملية خلق مســتمرة للأشياء ، وابداع متجدد للحياة . وحينمـــــا كان مختار ينجح فى التقاط الجوانب الخـالدة فى نماذجه المثالية ، كان يعبر هذا عن حلم غده ، عن الصورة التى يتمثلها لمستقبل العـــالم الذى يعيشه . كان يرى نفس المعنى الذى أراد مثال عظيم هو « **رودان** » أن يؤكده : « **ان الفن الخفاق بالحياة لا يعيد أعمال الماضى ولكنه يكملهـا** » . وهذه مهمة ليست أبدا بالمهمة الميسرة ، وخاصة فى حالة مثل حالة مختار ، وفى ظروف مثـــل ظروفه . وقد استطاع ناقد من نقاد الفن معاصر لمختار هو « **أوك بنـسو** » ، أن يلمس جوهـــر القضية ، فى كلمة عميقة كل العمق : « **كم هى تركة عظيمة ، وامتياز له خطره على فنـان حين يكون أسلافه هم هؤلاء العمالقة الذين أقاموا تلك التماثيل الفرعـــونية العظيمة** » فهل كان فى فى استطاعة هذا الفنان ـ والحالة هذه ـ أن يعيد أعمال الماضى وأن يرجع مجدها السالف ؟ واذا كان عليه ـ كما يقول رودان ـ أن يكملهـــا فبأى وسيلة ؟ هنالك باستمرار تقـــوم عوامل « **ضغط** » يتعرض لها الفنان من قبل التراث القومى الذى ينتمى اليه . **ان التراث يميـــل لأن يدفع الفنان لتحقيق تواصله واســـتمراره ، واعادة بعثه من جديد** . وكلما كانت الفجـــوة عميقة بين حاضر الفنان وتراثه القديم ـ كما هو ماثل فى حالة مختار ـ زادت عوامل الضغط على الفنان ، لأن الفنان يصبح فى هذه الحالة مطالبا بالبحث فى احياء الروابط بين القديم والجديد والتى اما أن تكون قد تقطعت تماما ، أو أن تكون قد أصابها نوع من الجمود أو الضعف .

ومختار كنحات لم يكن أمامه نبع أكثر غنى على امتداد تراث بـــلاده النحتى بأكمله من النحت المصرى القديم . وقد كانت فترة نضوج الوجدان القومى عند هذا الفنان ، هى نفس الفترة التى تم فيها اكتشاف الكثير من الآثار المصرية القديمة وكانت حفـــائر « **كارتر** » **و** « **دى مورجان** » و « **كوبل** » تتم على مســـمع من كل آذان فى العالم . وقد أوقدت فى نفوس الناس جذوة حب التعرف على حضارات الشعوب فى العصـــــور القديمة من تاريخها البشرى . وبمعنى آخر ، أوقدت جذوة الوعى باســتمرار العنصر الانسانى وامتداده عبر تاريخ العالم الطويل .

الرؤية الشعبية والتمرد »

ومع مختار سيبرز فى جيل الرواد فنـــــان



فى الحقل للفنان د · عياد

يتوقف عليه تحقيق التمرد الكامل على القوالب الاكاديمية الجامعة ، والرؤية الأجنبية الغربية : انه الفنان المصرى **راغب عياد** · كما يتوقف على هذا الفنان أيضا ميلاد اتجاه كامل فى الفن المصرى المعاصر ، سنرى نموه المستمر على امتداد الأجيال اللاحقة كلها ، حتى اليوم · اتجاه يستمد منابع الهاماته الفنية من مصدر مختلف تماما عن كل ما كان شائعا فى عصره : **الفن الشعبى** وعلينا ان نلحظ عملية التطور الداخلية لهذا الاتجاه التمردى · فقد بدأ من مجرد تناول موضوعات الحياة الشعبية ، الى محاولة التوغل فى صميم الرؤية الشعبية ذاتها ، وتبنى وجهة نظرها للعالم ، ومن ثم استلهام الوسائل التعبيرية الخاصة فى الفن الشعبى ، سواء فى تناول الخط أو اللون أو تصميم التكوينات التشكيلية ·

لندعه يسرد لنا قصة تمرده التى بدأت من تجاوز تعاليم دراسته الأكاديمية ، الى الارتباط بفن الشعب :

« ان نافذة انفتحت أمامى وأرتنى عالما جديدا عالم الحياة الحرة الطليقة التى تعكس فى النفس الذاتية المستمرة من أحلام داخلية ، لأنى كنت مؤمنا بمذهب الحرية فى الفن ، وبأن مدرستى هى الطبيعة المجردة بكل ما حوت ووحيى هو الشعب ، أتلقى قواعدهما وأصولهما من الطبيعة بما تشتمل من موضوعات متعددة وعناصر متنوعة من ضمنها الفلاح والعامل وكافة طبقات الشعب والحيوانات الأليفة المشاركة لهم فى كفاحهم اليومى ·· هؤلاء هم حقا العناصر التى أحببتها، واليهم يرجع الفضل فى معاونتى على تفجير الشعور واطلاق المواهب الفنية التى كانت كامنة فى قرارة نفسى » (راغب عياد : (أحاديث فى الفنون الجميلة ص ٣١)

وتغتنى لغة راغب عياد الفنية من حيث شمول مفرداتها وتنوعها، أى بفضل تحررها من القوالب والجمود · ففى لوحاته التى بدأت تتحرر من أسر الكلاسيكية والاكاديمية وكذلك من أسر نوع من النزعة الانطباعية الايطالية التى استمدها من أستاذه **فورتشيللا** ، فى هذه اللوحات نلمس تأثرا واضحا بتلك الخطوط السلسة ، القوية ، الخالية من الظلال ومن التجسيم ومن المنظور ، هذه الخطوط التى نراها منتشرة على جدران قبور ومعابد المصريين القدماء · ونلمس أيضا نفس النقاء اللونى ، واقتصاده وتكثيفه · كما نجد فى نفس الوقت تأثرا واضحا بنفس مفهوم التصوير الحائطى المصرى القديم من حيث وضع

الأشياء والموضوعات التصويرية على خطوط متوازية متتالية بعضها فوق البعض ، أو على أنهر متعاقبة متسلسلة استعار راغب عياد ، اذن ، **نفس اللغة المصرية القديمة :** فقد كان التصوير المصرى القديم بالفعل نوعا من أنواع الكتابة ٠ وهذه اللغة ذاتها قد عرفت امتدادها الطبيعى فى الفن الشعبى ، لأن نفس العناصر الاساسية المكونة لها سنجدها تتردد بين أيدى الفنانين (أو الحرفيين) الشعبيين ، حينما ينسجون قطعة نسيج أو يصنعون آنية فخارية ، أو يجدلون سلة من السلال ٠ **والغنى الفنى الكامن فى الفن الشعبى قد لمسه راغب عياد بحساسيته المرهفة وأدرك وظيفته الحضارية ودوره التاريخى من حيث اختزانه واحتفاظه فى قلبه بكل تنوع مفردات اللغة القومية على امتداد تاريخ بأكمله ٠**

لقد أدرك هنا نفس ما أدركه الفنان **محمد ناجى حينما قال : « ان الفن الشعبى فى مصر يستوحى الفن المصرى تارة ، والفن القبطى أو المسيحى تارة أخرى ، ويستوحى أخيرا الفن العربى أو الاسلامى ٠** وفى أعمال راغب عياد نلمس تداخل هذه المؤثرات الفنية القديمة ،ونجد نوعا من التمازج والتركيب بين العناصر الفنية القومية المختلفة ، مضافا الى هذه التركيبة المعقدة نوع من الحس التعبيرى ومن المزاج الشعبى



للفنان محمد ناجى

نلمسه خلال هذه الخطوط المرحة الكاريكاتيرية ، والألوان الطليقة الصارخة أحيانا ، والشفافة أحيانا أخرى ٠

كل من أتى بعد راغب وأراد أن يتخذ من هذا الاتجاه وهذه الرؤية الشعبية أسلوبا أو لغة للتعبير ، قد تأثر بفن هذا المصور ٠ **ومكانته فى الفن المصرى المعاصر هى مكانة الاب الروحى لاتجاه كامل فى الفن ٠** فقد كان من العسير أن يظهر فنانون مثل أولئك المنتمين « **لجماعة الفن** المعاصر » كعبد الهادى الجزار أو حامد ندا أو ماهر رائف ، أو أن يظهر فنان مثل حامدعبدالله وتحية حليم ، دون التمهيد الخطير الذى قام به راغب عياد ، ودون تحقيق مرحلة الانتقال الصعبة من الجمود الاكاديمى ومن النزعة المدرسية الى مرحلة التحرر الفنى الكامل ، وظهور بوادر تأثرت بالرؤية الشعبية ٠

وهذا هو نفس المفهوم الذى نادى به ناجى فى نهاية العشرينات ، حينما دعا لدراسة الفن

الشعبى دراسة رسمية جـادة ومنظمة ، وكانت أول دعوة من نوعها فى ذلك الوقت ، وقد قال « **أرجو أن يفسح لهذا الفن مكان فى دراسة الفنون الجميلة ، حتى نكتسب بفضل ما يحدثه فى نفوسنا من رد فعل هى مناعة تحمينا من أخطار الأكاديمية ، وتجدد فى نفوسنا روح الابداع والتجديد** » ·

التركيب والتفاعل

لم يكن نصيب تصوير محمد ناجى فى تأثره بالفن الشعبى بمثل نصيب تصوير راغب عياد ولكننا ، مع ذلك ، لا نستطيع ن نغفل روح البساطة ورغبة التسطيح والغاء الظلال وبهجة الألوان فى تصوير ناجى · وهذه الملامح الفنية فى جوانبها البارزة ، انما تكشف عن روح شعبية أصيلة · **وهذه الملامح الفنية عند ناجى انما نجدها خلف كل العناصر المكونة لعالمه التصويرى · وما أكثر هذه العناصر وما أشد تنوعها · وهى تتلاقى فى تصويره على نحو** تركيبى غريب · لقد تأثر فى مطلع تحرره الفنى بأسلوب التأثيريين ، ثم تأثر بالنزعة الحوشية والتعبيرية ، لنجده بعد ذلك يتوقف طويلا عند الأسلوب التركيبى المعبر الذى نلقاه فى لوحات فنان مثل **بول جوجان** · كان ناجى واسع المعرفة عميقا فى ثقافته الفنية · هضم كل ما جاءت به عبقرية عصر النهضة الفنية ، وقد أمدته بالفهم القدير لقوانين التصوير الاساسية · واستوعب روح التجديد الشاملة فى الفن الحديث ، التى تولدت من الوعى بالتراث الفنى العالمى ، وذلك لأول مرة فى تاريخ الانسان · **واستشعر بكل عمق أبعاد الحساسية الحديثة التى تنجذب الى صور الفن الخشنة التى تعبر عن وجدان لم يزل يواجه لغز الوجود وغموضه كالفن الافريقى ، أو الفن الآرخى الاغريقى ، أو الفن القوطى** ·

لقد كان تصوير ناجى بمثابة النموذج الحى لامكان التقاء المفهوم الشرقى مع المفهوم الغربى فى الفن · ألم يكن بهذا يلخص ذات الرسالة الحضارية التى آلت الى مصر أن تحققها وتقوم بها ؟

لقد بدأت العناصر الفنية المتباينة ، التى أثرت على تصوير ناجى طوال حياته الفنية ، تتمازج وتتداخل وتتفاعل ، وتخلق من تفاعلها نوعا من التركيب المعقد ، الذى يصهر الجزئيات الصغيرة المتنوعة المختلفة فى كيان واحد متبلور له شخصيته الخاصة وملامحه المميزة ·· بدأ ذلك يتبلور فى أعماله اثناء اقامته الطويلة فى بلاد الحبشة · وبالطبع كانت للحياة الحبشية ، لحضارتها الخاصة ومناخها المميز وجوها الشرقى ، دور له أثره فى تلوين هذه التركيبة الوليدة · وبهذا المؤثر الجديد ، الا يبرهن فن ناجى على البعد الافريقى لمصر ؟ ألا يبرهن على تنوع وغنى اللغة القومية المصرية ، واتساع مصادر تجددها ونموها المستمر ؟

فنحن أمام لوحات ناجى لا نستطيع أن نستخرج عنصرا واحدا فى وسعه تلخيص هذه التركيبة الغنية فى فنه · نحن أمام لوحاته انما نتساءل باستمرار عن سر حيويتها ، تماما كما تساءل حامد سعيد عن المؤثرات الفنية الداخلة فى عالمه التصويرى :

« **هل هو الزجاج الملون ، أم الكليم الشعبى ، أم الوان مقابر الأشراف بالقرنة ؟ أم هى بهجة البحر الأبيض ؟ أم الحبشة بقيظها وأفريقيا بألوانها ؟ أم هو سوق القرية ؟ أم وجدان ذلك الفنان الذى يحلم بالتواجد فى كل الأمكنة ، غير**

قانع بمكان .. كان له مرسمه بالاسكندرية وبالريف وبقبرص وعلى النيل وفى سفح الاهرام ، وكان كل مكان مرسما لذلك الفنان » . (حامد سعيد : الفن المعاصر فى مصر)

وبجانب هذا التنوع والثراء فى لغة الفن القومى عند ناجى ، وبجانب تجديداته المحسوسة فى التصوير المصرى ، نجد تمرده - الذى يحمل فى طياته مفهوما خطيرا - على اطار لوحة الحامل ذاتها . وهذا التمرد الخطير - وباعتبار أسبابه الفنية وبواعثه التكنيكية البحتة - ينطوى على ابعاد أكثر اتساعا ، ابعاد اجتماعية فى جوهرها فقد نادى بضرورة خلق اللوحة الجدارية الضخمة لتكون اطارا جديدا للتصوير المصرى ، بدلا من لوحة الحامل المحدود . **والقضية هنا ، بالطبع ، هى قضية جمهور ، قبل أن تكون قضية أى شىء آخر .** فاللوحة الجدارية انما خلقت دائما لتغطى الأماكن العامة المفتوحة ، وتجىء لتتسع باستمرار للجمهور الكبير . فهل هذه عودة للاطار التصويرى القديم ، اطار التصوير الجدارى عند الفن المصرى القديم ؟

الأسلوب الشخصى

اذا كان كل فنان من فنانى جيل الرواد ، قد أثار بعمله وبوجوده قضية من قضايا الفن ، مثلما أثار مختار قضية خلق الفن النحتى المصرى المعاصر وأثار راغب عياد قضية المنابع الشعبية للتصوير المصرى ، وأثار ناجى قضية الأبعاد الشرقية



بنت البلد للفنان م . سعيد

والافريقية للفن المصرى ثم قضية التصوير الجدارى الجديد ، فان محمود سعيد قد أثار بعمله وبوجوده قضية الاسلوب الشخصى للفنان المصرى - الأسلوب الذى تتلاقى فيه نفس المؤثرات القومية التى نجدها تتلاقى فى أعمال غالبية الفنانين المصريين المعاصرين . لكنها هنا تتشكل بكل الابعاد النفسية والذاتية للفنان ، لتخرج فى النهاية بالاسلوب الشخصى الواضح السمات .

فكل من يرى أعمال الفنانين المعاصرين كمحمود سعيد - باستثناء أعمال نادرة لمختار واللوحات التعبيرية لراغب عياد ولوحات ناجى فى مرحلته الحبشية - يمكن بسهولة أن يجد لها أشباها فى بلاد أخرى . ونعنى بذلك أعمال فنانين مثل **أحمد صبرى ومحمد حسن ويوسف كامل .** كل من يرى هذه الاعمال يجد نفس اللمسات

كيانا واحدا متماسكا . هذا الكيان المتماسك قد تصنعه القوائم المتدرجة على امتداد وحدات التكوين . وقد تذيبه الخطوط والمساحات المتداخلة ، فتكثفه وتبلوره . وقد توحى به الأشكال الملخصة المبسطة التى بعدت كثيرا عن مصادرها فى الواقع الطبيعى .

لذا يجىء التكوين فى تصوير محمود سعيد وكأنه تكوين النحت البارز ، خاصة النحت المصرى البارز : دعائمه هو المسطح . لكن هذا المسطح يبدأ يتحطم ويتهشم بفضل البروزات التى تتشكل فى الأجسام الناتئة ، وبفضل التكوير فى الأشياء ، وبفضل خلق نوع من المستويات المختلفة المتداخلة تحل محل المتطور الفوتوغرافى .

من هنا نلمس هذه النزعة الهندسية الواضحة فى تكوينات هذا الفنان . وقد استمدها من دراسته العديدة لفنون التصوير فى عهد النهضة ومن تحليله لهندسة الصورة . ولكنه استخدم هذه الهندسة ــ كما يقول ــ **رمسيس يونان** ــ استخداما خاصا . ويستطرد يونان فى دراسته للجوانب الهندسية فى تصوير هذا الفنان : **« لم يجعل منها مجرد وسيلة مستترة للايحاء بالتوازن والانسجام كما فعل أساتذة الفن الاوروبى ، وانما جعلها نظاما صريحا صارما يفرض على اللوحة فرضا ، وكأنه حكم القانون أو حكم القدر ، فيذكرنا على نحو ما بهندسة الفن الفرعونى ، أو بالأحرى السومرى »** .

وبهذا المفهوم عن التكوين المستقل ، هذا التكوين « الشخصى » ، وبذلك الخلق الجديد للأسلوب الذاتى ، أراد محمود سعيد أن يبدع لغة يشيع فيها أعلى درجة من الحس القومى ، وتنبض بكل ما هو مصرى ــ لغة تعبر عن كافة الموضوعات التى تمثل صميم الحياة المصرية : بسمائها ، ونيلها وشراع مراكبها وخيولها ، بمقابرها العتيقة وشواريفها البدائية وخيولها العربية الاصيلة ونخيلها المتداخل السامق ، بفلاحاتها المحجبات ، والمكشوفات الوجوه ، بتقاليدها الشعبية المميزة ، وبمشاهد رقصات « الزار » و « الذكر » .. لغة تتغنى بعظمة هذا العالم الرحيب الممتد .

محمد شفيق

الانطباعية التى نلقاها عند الكثير من مصورى العالم الانطباعيين ..

لنرى ، كيف يأتى لنا الاحساس بالأسلوب الشخصى فى لوحات **محمود سعيد** . وأول كل شىء ينبغى اعتبار المفهوم التصويرى للوحة بوصفها عالما داخليا متكاملا ، لها خصائصها المستقلة نوعيا وكيفيا عن منطق الواقع الطبيعى وعلى أساس هذا المفهوم اقام محمود سعيد دعائم تكويناته التشكيلية . ان التكوين يتشكل عند الفنان وكأنه الاثر الذى تخلفه بصمته . فالنماذج والعناصر والوحدات التى يحتويها التكوين ، انما تخلق من تفاعلها علاقات معينة ، تجىء لتترجم احساس الفنان بالعالم . والتكوين انما يخلقه الفنان ليعطى الايحاء « **بوحدة** » شعور نلمسها بمجرد الانطباع الأول .

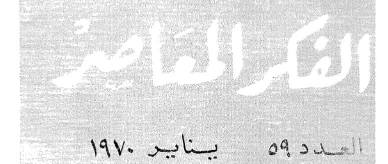
ومع أن فن محمود سعيد قد بدأ من التمرد على المنطق الطبيعى للواقع ، فانه قد بدأ أيضا من رفض مفهوم اللوحة كسطح ذى بعدين .. **والأمر الذى يثير الدهشة أن لوحاته وان كانت مفعمة بالتجسيم أو بمعنى أدق بالسطوح المكورة الا أنها تقوم على الاحترام المحسوس لسطح اللوحة** . ولسنا نجد فى هذه اللوحات أى منظور ذى منطق فوتوغرافى . فمثلا ، من النادر تماما أن نعثر على أية لوحة من لوحات محمود سعيد خالية من العنصر الطبيعى ، وخاصة نهر النيل ، الا أننا لا نشاهد فى أى منها « **منظرا** » طبيعيا . حقا سنجد فيها نوعا من الاحساس بالأبعاد . لكن ما أكثر اختلافه عن تلك الأبعاد الطبيعية الفوتوغرافية التى نلقاها فى أعمال الكلاسيكيين والأكاديميين . وسيعرف هذا الفنان كيف يخلق من الأبعاد المختلفة للواقع

لوحتنا الغلاف



للفنان السويسرى العالمى ألبرتو جياكوميتى (١٩٠١ ـ ١٩٦٦) الذى يعد الوجه الآخر للنحت العالمى الحديث ، والذى يواجه المثال البريطانى الشهير هنرى مور ، وقد ولد جياكوميتى بعد مطلع القرن العشرين بعام واحد ، ولكنه توفى قبل أن يغيب هذا القرن بخمسة وثلاثين عاما كاملة ٠ وجياكوميتى ظاهرة ذات أهمية خاصة فى النحت الحديث ، ان تماثيله الدقيقة الرفيعة المستطيلة ، ذات الأشكال المشوهة الحادة التى يلعب فيها الفراغ دورا كبيرا ، تبدو متشابهة على كثرتها ، وتبدو كما لو كانت متأثرة بفن الحفر ٠ والواقع أن كل تماثيل جياكوميتى نجدها وقد لعب فيها الفراغ دورا لا يقل أهمية عن دور الكتلة نفسها ، بل ان الفراغ هو الذى يفرض نفسه على الكتلة ، ولأن الواقع كان يشد جياكوميتى مثلما كان يجذبه الخيال ، ظلت أعماله تتأرجح بين التشخيصية وبين التجسيدية ، بل كثيرا ما كانت تجمع بينهما فى التمثال الواحد ٠

« دار الكتب رقم الايداع ١٤٠/١٩٦٩ »





قضايا العلوم الإنسانية

عدد ممتاز



مجلة

الفكر المعاصر

تصدر شهريا عن :

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت: ٩٠١١٩٧/٩٠١٢٩٩/٩٠١٦٤٨



صفحة

كتب جديدة :

هذا العدد

لم يكن هدفنا في هذا العدد هو أن نقوم عرضا عاما لانجازات العلوم الانسانية ، اذ أن عرضا كهذا ، حتى لو كان موجزا ، لا تكفيه عشرات المجلدات . بل كان لنا هدف أكثر تواضعا ، و عرض التطورات الحديثة في مناهج العلوم الانسانية وفي نظرياتها العامة ، دون أى خوض في تفصيلاتها . فليس من مهمة هذا العدد أن يقدم عرضا ((لمضمون)) العلوم الانسانية، وانما هو يترك مسائل المضمون جانبا لكي يركز جهوده على عرض كل ما هو جديد في الأساليب الفكرية والعملية المستخدمة في هذه العلوم .

وعلى الرغم من أن هذا هدف متواضع من حيث نطاقه ، فانه من حيث قيمته أهم بكثير من البحث في مضمون هذه العلوم وتقديم عرض لتطبيقاتها الخاصة . ذلك لأن المنهج المتبع في أي علم انساني هو الذي يتحكم ، آخر الامر ، في تحديد طبيعة المضمون ، بل هو الذي يرسم طريق الانجازات التي يمكن تحقيقها فيه عمليا . والنظرية العامة هي التي تصبغ بطابعها الخاص كل التطبيقات الجزئية . وجميع

عقبات في طريق العلوم الإنسانية

د. فؤاد زكريا

التحولات الحاسمة فى مجال العلوم الانسانية انما تمت بفضل مناهج أو نظريات جديدة ، أما التطبيقات فهي على الدوام نتيجة لاحقة تترتب على التغيرات فى المناهج والنظريات .

ولسنا نزعم أننا حققنا هذا الهدف كاملا . فهناك علوم انسانية لم يرد لها ذكر فى هذا العدد ، وتلك فى لأغلب هى العلوم التى يغلب عليها الطابع الفنى المتخصص، والتى يصعب عرض تطوراتها المنهجية الا فى أبحاث شديدة التعقيد . وهناك علوم انسانية أخرى نشعر بأن معالجتها كانت تحتاج الى مزيد من الاستكمال . ولكن الذى يمكننا أن نؤكده – مطمئنين – هو أن كل من أسهم فى هذا العدد قد بذل قصارى جهده لكى يقدم الى القارىء المثقف صورة دقيقة وافية قدر الامكان للتطورات الاخيرة فى مناهج ونظريات مجموعة من أهم العلوم التى تتخذ لنفسها موضوعا من دراسة أعظم الكائنات وأعقدها – الا وهو الانسان .

الفكر المعاصر

كان ازدهار الدراسات الانسانية – ومايزال – مرتبطا على نحو وثيق بالأزمات التى يمر بها الانسان نفسه . ففى كل عصر يجد فيه الانسان نفسه أمام مفرق طرق حاسم ، أو يرى نفسه عاجزا عن مواجهة تحديات أقوى منه وأبعد عن سيطرته ، أو يشعر بأن زمام الأمور أوشك على الافلات من يده ، وبأن هناك قوى عاتية لا سلطان له عليها ، توشك على أن تودى به الى الدمار – فى كل عصر كهذا ، كان الانسان يعود الى نفسه باحثا منقبا ، وكان يقنع نفسه بأن حل مشكلاته يكمن فى داخله ، وفى فهمه لنفسه ، قبل أن يكمن فى الطبيعة الخارجية . وهكذا كانت الأزمات السياسية والكوارث المتلاحقة التى مرت بها اثينا فى عصر سقراط مرتبطة باتجاهه الى بحث النفس الانسانية فى عبارته المشهورة « اعرف نفسك » وكانت أزمة العلم الطبيعى ، والهزة العنيفة التى أحدثتها الكشوف الفلكية فى أوائل العصر الحديث ، مرتبطة باتجاه ديكارت الى البحث فى أعماق الذات الانسانية ، واستهلال عهد جديد للفكر الفلسفى ، يدور حول المعرفة الانسانية والمنهج الذى ينبغى أن يتبعه العقل الانسانى للوصول الى الحقيقة ، وهو العهد الذى كانت ترمز اليه عبارته المشهورة « انا أفكر اذن انا موجود » . وكانت العلاقات الاجتماعية اللا انسانية التى ادى اليها انتشار الثورة الصناعية فى أوروبا ، هى الأصل فى ظهور ذلك الفهم الجديد للمجتمع الذى نادى به ماركس ، وأصبح منذ ذلك الحين عاملا رئيسيا من العوامل التى تحدد شكل مجتمعنا المعاصر . وكانت الأزمة التى أحدثتها العلوم البيولوجية فى القرن التاسع عشر ، وادراك الروابط الوثيقة بين طبيعة الانسان الحالية وبين أصوله الحيوية الأولى ، من العوامل التى ساعدت على تحول دراسة النفس الانسانية فى اتجاه جديد بفضل التحليل

النفسي عند فرويد . كما كانت الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى فى الثلاثينات من هذا القرن قوة دافعة لمزيد من التعمق فى الدراسات الانسانية ، ولظهور نظريات ومناهج جديدة فيها . وأخيرا فان أزمة الحرب والسلام التى يمر بها العالم فى ايامنا هذه والتهديد الدائم الذى يتعرض له أول جيل بشرى أصبح يملك بالفعل من أدوات الدمار ما يكفى لافناء الحياة على سطح الارض — هذه الأزمة قد أدت الى مراجعة جذرية لكثير من مفاهيم العلوم الانسانية ونظرياتها ، والى بذل محاولات دائبة من أجل تحقيق نوع من التوازن بين فهم الانسان لنفسه ، وبين السيطرة الهائلة على الطبيعة ، التى حققتها التكنولوجيا المعاصرة.

خلال هذا التاريخ الطويل ، كانت دراسة الانسان تزداد تعمقا فى كل مرحلة ، **وكان لا بد للرواد الذين مهدوا الطريق لسير هذه الدراسة فى طريق العلم من أن يكافحوا من أجل التغلب على عقبات كانت كفيلة بأن تحول دون ظهور أية معرفة علمية بالانسان** . وعلى الرغم من أن هذه **العقبات معروفة ، وكثيرا ما يرد ذكرها — كلها أو** بعضها — فى المقدمات التى تكتب للمؤلفات الخاصة بمناهج البحث فى العلوم الانسانية ، فانا لا نرى بأسا من أن نعرض هنا لأهمها ، وذلك نظرا الى ما يلقيه هذا الموضوع من ضوء على المشكلات التى نود أن نناقشها فى هذا المقال :

١ — أولى هذه العقبات نوع من الجمود العقلى ادى بالمفكرين الى أن يرتفعوا بالانسان فوق مستوى الموضوعات التى يمكن أن تخضع البحث العلمى المنظم ، وحجتهم فى ذلك هى الدفاع عن الكرامة الانسانية ، والاحتفاظ للانسان بمركزه المميز فى الكون ، وتأكيد ضرورة معاملته على نحو يختلف عن ذلك الذى تعامل به « موضوعات » العالم الطبيعى . على أن مثل هذا الحرص الكاذب على الكرامة الانسانية كان هو القوة الدافعة من وراء المعارضة التى سبق أن قوبل بها كرنبكوس عندما أكد أن الأرض — مقر الانسان — ليست مركز الكون ، وليست هى النقطة المحورية التى تدور حولها ، ومن اجلها ، كل حوادثه . وبالمثل كان هذا الاهتمام الزائف بمكانة الانسان « الاستثنائية » و « الفريدة » فى الكون من أهم العوامل التى دعت الى معارضة كل « كاشفى النقاب » عن حقيقة الدوافع الانسانية ، من أمثال فرويد ، وماركس ، وهو نوع من المعارضة لا يقوى على الصمود طويلا فى وجه أى كشف جديد حاسم .

٢ — ويرتبط بالعقبة السابقة اعتقاد ظل مسيطرا على الاذهان ردحا طويلا من الزمان ، يرتكز على حقيقة لا يمكن انكارها : هى **التعقد المفرط للظواهر البشرية** . من هذه الحقيقة استنتج الكثيرون أن أية معالجة علمية لتلك الظواهر لا بد أن تكون تبسيطا مفرطا ومخلا ، يهبط بها الى مرتبة « الأشياء » المألوفة ، المتكررة ، التى تسير على وتيرة واحدة ، ويمكن بسهولة كشف نماذج للاطراد المنتظم فى سلوكها . على حين أن اهم ما فى الانسان هو الاختلافات من فرد الى فرد ، لا الصفات المشتركة بين الأفراد . هذه العقبة تفترض مقدمة رئيسية موروثة منذ عهد الفلاسفة اليونانيين الأوائل ، هى أنه **« لا علم الا بما هو عام »** ، ولكن العلوم الانسانية أثبتت ، بفضل مجموعة من المناهج المبتكرة ، أن من **الممكن قيام علم بما هو خاص،** او أن الفردى يمكن أن يكون موضوعا لدراسة لا تقل فى علميتها عن تلك التى تتعلق بما هو عام، وبذلك قضت على الأساس الذى ترتكز عليه هذه العقبة .

٣ — واخيرا ، فقد اعتقد الكثيرون أن العلوم الانسانية ، حتى لو استطاعت ان تضمن لنفسها مكانة مساوية لمكانة العلوم الطبيعية ، ليست بافضل وسيلة لمعرفة الانسان . فهناك حدود معينة لا تستطيع هذه العلوم أن تتعداها ، وهى اذا تمكنت من معرفة الانسان فانما يكون ذلك « من الخارج » ، أما التعمق الحقيقى فى أغوار النفس البشرية ، والنفاذ الى جوهرها الفريد ، فانما يتم على أيدى وسائط أخرى ، كالادب ، والفن ، والفلسفة . وذهب بعض أنصار هذا الرأى الى حد القول بأن لمحة من لمحات دستويفسكى قد تفوق — فى فهمها لحقيقة الانسان — مجلدات كاملة فى علم النفس ، وأن استبصارا فلسفيا عميقا قد يكشف — بطريقة بسيطة مباشرة — عما تعجز عشرات الأبحاث التجريبية عن الوصول اليه .

على أن **الفن والادب** لا يمكنها أن يقدما ما فيهما من معرفة عميقة بالنفس البشرية الا لمن يمر **« بتجربة »** من نوع فريد ، هى تجربة تذوق العمل الفنى أو الأدبى والاندماج فيه . **فالمعرفة** المتضمنة فيهما اذن ليست متاحة للجميع ، وانما هى رهن بتهيؤ المرء لتلقيها ، لا عن طريق المران أو التدريب فحسب ، بل عن طريق اتصافه بقدر

معين من رهافة الحس وشفافية النفس . فهى اذن مقرونة بشروط تجعلها بطبيعتها معرفة ((**خاصة**)) لا تتوافر الا لفئة معينة من الناس ، وربما كانته تتوافر لكل فرد فى هذه الفئة ذاتها على نحو يختلف باختلاف أبعاد تجربته الفنية أو الأدبية الخاصة .

أما **الفلسفة** فانها ا بالرغم من كل ما أسهمت به فى اثراء معرفتنا بالانسان ، تكسب المشتغلين بها قدرا لا مفر منه من **الطموح المفرط** ، يجعلهم يتعجلون أصدار الاحكام العامه التى قد تتجاوز بكثير نطاق المعرفة المحققة . فالفيلسوف بطبيعته عاجز عن مجاراة المشتغل بالعلم فى تواضعه ، ورضائه بالقليل ، واكتفائه بالسير المتدرج فى أبحاثه ، وقناعته بالنتائج غير الكاملة ، وتذرعه بالصبر والتأنى والتمهل فى الحكم على الأمور . ومن هنا كان من الصعب أن تترك معرفة الانسان فى أيدى الفلاسفة وحدهم ، لأنهم — مع امتلاكهم للحصيلة العلمية التى أصبحت أمرا لا غناء عنه عند معالجة أى موضوع طبيعى او انسانى — ما زالوا متمسكين بعادات عقلية تجعلهم يظنون انفسهم قادرين على أن يحققوا فى **استبصار** خاطف ما يعجز العلماء عن تحقيقه بعد بحث شــــاق دءوب . وربمـــا كانت أمثـــال هذه الاستبصارات قد حدثت بالفعل فى حالات متفرقة ، ولكنها لم تعد اليوم قاعدة ، وهى على اية حال أمر لا يمكن الاعتماد على حدوثه بانتظام، فضلا عن أن احتمالات الاخفاق فى هذا المجال أعظم بكثير من احتمالات النجاح .

واذن فلم يكن من العسير على العلوم الانسانية أن تتغلب على هذه العقبات ، وأن تؤكد نفسها بوصفها علوما تستطيع أن تضيف على الدوام — بطريقة تراكمية منظمة — مزيدا من المعارف المتعلقة بالانسان ، مســتخدمة فى ذلك مناهج خاصة تقرب أو تبعد عن المناهج المستخدمة فى العلوم الراسخة ، التى تعالج موضوعات يسهل كشف الاطار المنتظم فى ظواهرها .

وليس من أهدافنا فى هذا المقال أن نتتبع قصة نجاح العلوم الانســانية فى اكتســاب هذه المكانه ، ولكننا نستهدف ، على العكس من ذلك، تنبيه الاذهان الى بعض الاشكالات التى لا تزال تعوق ســير هذه العلوم ، وتمنعها من تحقيق ما ترجوه لنفسها من نجاح فى فهم الانســان . ولسنا نود أن نتحدث عن الاشكالات التى تدركها هذه العلوم عن وعى ، وتحاول التغلب عليها بجهد دائب منتظم ، بل ان هدفنا الحديث عن صعوبات منهجية تعترض طريق العلوم الانسانية دون أن تكون هذه الاخيرة واعية بها كل الوعى . وخطورة هذا النوع من الصعوبات تكمن فى أنه يمكن أن يظل ملازما للعلوم الانسانية أمدا طويلا ، بحيث يظل يهدد موضوعيتها ودقتها بالخطر ، وان كانت هذه العلوم تظل طوال ذلك الوقت معتقدة أنها تحقق لنفسها موضوعية ودقة تتزايدان باطراد .

ذلك لأن تلهف المشتغلين بالدراسات الانسانية على اكتساب صفة العلمية ، واعتقادهم — عن حق — أن هذه الصفة تشريف وتكريم لأى جهد عقلى يقوم به الإنسان قد أدى بهم أحيانا الى الوقوع فى اشكالات منهجية يصعب كشفها . لأنها — فى مجال العلوم الأخرى — ليست باشكالات على الاطلاق . **وبعبارة أخرى فقد استعيرت من مجال العلوم الطبيعية أو الرياضية مفاهيم معينة، وطبقت بشىء من التسرع فى مجــال العـلوم الانسانية ، فترتب على ذلك نوع من تشوبه صورة هذه العلوم** ، بحيث أصبحت فى بعض الأحيان تبدو محاكية لعلوم أخرى ذات موضوعات مغايرة ، دون أن تكون قادرة على ادراك الصفات التى تنفرد بها موضوعاتها الخاصة ، والتى تحتم عليها استخدام مفاهيم مخالفة ، أو تعـديل المفاهيم المستعارة من المجالات الأخرى ، ان لم يكن من استعارتها بد .

وســوف أكتفى ، لايضــاح وجهة نظرى ، بفكرتين رئيسيتين ، يقوم بينهما ارتباط وثيق ، هما **فكرة الحتمية ، وفكرة القانون** . وسأحاول أن أثبت أن العلوم الانسانية حين طبقت هذين المفهومين على مجالها الخاص ، لم تكن قادرة فى كل الاحيان على أدراك ما تقتضيه سماتها المميزة من تعديلات خاصة كان ينبغى مراعاتهـا عنـد استخدام مفهومين كهذين ظلا مرتبطين بمجال العلوم الطبيعية أمدا طويلا .

فكرة الحتمية :

هناك حقيقة لا يستطيع الكثيرون ممن تشغلهم مشكلات العلم ومناهجه أن يدركوها ، على الرغم من وضــوحها البين : هى **أن الاعتراف بفكرة الحتمية من حيث المبدأ لا يتعارض على الاطلاق مع ادراك صعوبة تطبيقها فى مجالات معينة .** وأبسط مثل لذلك هو مجال علم الأرصاد الجوية. فمنذ عهد بعيد تخلت الانسانية عن التفسيرات الأســطورية والغائية لتقلبات الجو ، وأصبح هناك اعتراف عام بأن ما يطرأ على الجو من



تغيرات هو أمر خاضع لحتمية دقيقة ، وبأن حالة الجو في أية لحظه معينة هى محصلة عوامل متعددة نستطيع — اذا عرفناها معرفة كاملة — ان نتنبأ بدقة بما ستكون عليه الاحوال الجوية فى المستقبل القريب ، وربما البعيد أيضا . ومع ذلك لا يستطيع أحد أن ينكر ، فى الوقت ذاته ، أن علم الأرصاد الجوية ما زال بعيدا عن ادراك كل العوامل التى تتحكم فى حالة الجو فى لحظة معينة ادراكا كاملا ، وحساب تأثيرها بدقة ، بدليل أن التنبؤات الجوية ما زالت معرضة لأخطاء كثيرة ، وأن هذه الأخطاء تزداد كلما كان مدى التنبؤ بعيدا . فهل يمكن أن يحكم على الشخص الذى يؤكد وجود حدود لا تتعداها القدرة على التنبؤ بحالة الجو ، فى الحالة الراهنة لعلم الأرصاد الجوية ، بأنه لا يؤمن بسيادة الحتمية فى هذا المجال ؟ من الواضح أنه لاتعارض على الاطلاق بين الايمان بالحتميه ، من حيث المبدأ ، وبين ادراك الحدود التى لاتتعداها الحتمية فى هذا المجال ومن جهة أخرى ، فليس من حق المرء أن يستخدم الايمان بمبدأ الحتمية مبررا لتأكيد ضرورة الوثوق من التنبؤات الجوية الى حد يزيد على ما تسمح به الحالة الراهنة لعلم الأرصاد . وليس من حق مثل هذا الشخص أن يقيس مدى « علمية » الآخرين بمقدار ايمانهم او عدم ايمانهم بصحة التنبؤات الجوية ، مادام من المعترف به أن ظاهرة مثل الحاله الجوية ما زالت من التعقيد بحيث لا يمكن ، فى ضوء معرفتنا الراهنة ، ادراك كل ابعادها وجوانبها والعوامل المتحكمة فيها ادراكا تاما .

وأخشى أن اقول ان شيئا من هذا القبيل يحدث فى مجال العلوم الانسانية . ذلك لأن هذه العلوم قد كافحت ، فى مبدأ الأمر ، كفاحا مريرا من أجل تأكيد انطباق مبدأ « الحتمية » على السلوك البشرى . وما زال الكثيرون غير معترفين بهذا الانطباق ، أى انهم ما زالوا يتمسكون بشكل من أشكال من أشكال ذلك التقسيم المشهور الذى قسم به **«كانت» مجالات** المعرفة الى **عالم للضرورة** هو عالم الطبيعة ، هو عالم الانسان . ولسنا نود أن نخوض الآن هذه المعركة لأنها ستغرقنا متاهات كفيلة بابعادنا عن الفكرة الأصلية التى نرمى الى اثباتها . ولذلك فسوف نسلم بأن الحتمية تسرى ، من حيث المبدأ ، على السلوك الانسانى ، وأن هذا السلوك قابل لأن يتنبأ به اذا ما عرفت كل العوامل المتحكمة فيه

معرفة دقيقة . ومع ذلك ، وبرغم التسليم بهذا المبدأ ، فان **الظواهر البشرية تبلغ من التعقيد حدا يستحيل معه ، في معظم الاحيان ، ادراك كل العوامل التي يمكن بواسطتها تطبيق مبدأ الحتمية تطبيقا مؤكدا .**

على أن من الأمور التي لا يمكن أن تفوت الملاحظ المدقق ان لدى المشتغلين بالعلوم الانسانية ميلا الى تعجل التطبيق يزيد بكثير عن ذلك الميل الذي نجده لدى أصحاب العلوم الأخرى . ففي الطب ، مثلا ، لا يستخدم عقار جديد الا اذا ثبتت فائدته — في الحالات التي ينطبق عليها — ثبوتا مؤكدا . وصحيح انه قد تحدث من أن لآخر حالات سوء استخدام للعقاقير الطبية ، أو تعجل في تطبيقها ، غير أن هذه الحالات تمثل الاستثناء ، لا القاعدة ، فضلا عن أنها لا تعبر عن موقف العلماء في هذا الميدان، بل تمليها المصالح التجارية للشركات الساعية الى الربح أو أي دافع آخر غير علمي .

أما في حالة العلوم الانسانية ، فان هذا الميل الى التطبيق المتعجل ، دون أن تكون قد توافرت بعد كل الشروط الكفيلة بالاطمئنان الى أن كافة شروط الحتمية قد توافرت ، ظاهر كل الظهور . **وصحيح أن هذه العلوم تتخلى ، في كثير من الأحيان ، عن المفهوم التقليدي للحتمية، أعني مفهوم العلاقة الحتمية بين سبب ونتيجة، وتستعيض عنه بمفاهيم أكثر ملاءمة لمجال معقد كمجال الظواهر البشرية ، مثل مفهوم الارتباط الاحصائي بين الظواهر ،** ولكن يظل من الصحيح مع ذلك أن التلهف على اخضاع دراسة السلوك البشري للمنهج العلمي — وهو تلهف مشروع تماما — قد ادى في أحيان غير قليلة الى تسرع في التطبيق لم يتوخ علماء الانسانيات فيه من الحذر بقدر ما يتوخاه علماء الطبيعة أو الطب ، مثلا ، حين يشرعون في تطبيق كشف جديد .

وربما كان الأهم من هذه الملاحظة أن علماء الانسانيات كثيرا ما ينظرون بعين الريبة الى كل من ينبه الى ظاهرة التعجل هذه . وقد يكون لهم في ذلك بعض العذر : ذلك لأن هناك من يشكك في قيمة التطبيقات التي تقوم بها هذه العلوم لأنه غير مؤمن أصلا بامكان خضوع الظواهر الانسانية للبحث العلمي الدقيق ، وبالتالي فهو غير مقتنع بأن من الممكن استخلاص تطبيقات منها . ولكن الواجب تجنب الخلط بين أصحاب هذا الرأي ، وأصحاب الرأي المخالف ، القائل ان **مبدأ قابلية الظواهر الانسانية للبحث العلمي مبدأ سليم ، ومع ذلك فان تطبيق هذه العلوم ينبغي أن يواكب مستوى التقدم النظري الذي تحققه ، لا أن يسبقه .** ولما كان استكشاف الظواهر البشرية مازال أمرا حديث العهد ، ومازلنا في أول مراحل البحث في هذا الميدان الشديد التعقيد ، فان للمرء الحق في أن يأخذ على بعض العلوم الانسانية انها تتسرع الى حد ما في التطبيق ، فتلجأ الى « **العلاج** » بمجرد أن تكتشف نظرية جديدة ، وتسارع بتقديم **((تفسير))** دون أن تكون قد توافرت لديها سوى معطيات قليلة .

وحسبنا ، في هذا الصدد ، أن نضرب مثلا بالجهود التي يبذلها أنصار التفسير الاجتماعي والاقتصادي للظواهر الثقافية والفنية ، وكل ما ينتمي الى « البناء الأعلى Superstructure » في حياة الانسان . **فمن الممكن ان يكون المرء مؤمنا بتأثير البناء الأدنى في البناء الأعلى ، ومعترفا اعترافا كاملا بالمبدأ القائل بوجود علاقة متبادلة بينهما ، ولكن لا يلزم عن ذلك أن يعترف بتطبيق هذا المبدأ في كل حالة على حدة : فلكي يطبق هذا المبدأ تطبيقا صحيحا لا بد أن تكون المعطيات كاملة أو قريبة من الكمال ،** أما في الحالات التي لا نعرف عنها الا وقائع قليلة ، فان من حق المرء أن يعترض على التسرع في تطبيق المبدأ ، **لا لعدم ايمانه به ، بل لصدم توافر الشروط الكافية** لتطبيقه . ولكن الذي يحدث ان انصار هذا المبدأ يسارعون بتطبيقه بناء على أبسط المعطيات . كما هي الحال في تطبيقه على عصور سحيقة في القدم ، لم تتوافر لدينا عنها سوى معلومات هزيلة — ويظنون أنهم قد وصلوا بذلك الى كل العوامل المتحكمة في الظاهرة موضوع بحثهم . **وكثيرا ما يترتب على ذلك أن تفسر الظاهرة الواحدة تفسيرين مختلفين كل الاختلاف في كتابات مفكرين يؤمن كل منهما بنفس المبدأ ، ويطبق نفس المنهج .** وما هذا الا مثل واحد ، من بين أمثلة عديدة ، لظاهرة التعجل في التطبيق العملي قبل أن يتوافر الأساس النظري الكافي .

فكرة القانون :

ترتبط فكرة **القانون** بفكرة **الحتمية** — مفهومة بأعم معانيها — ارتباطا وثيقا . ولقد كان من أبرز مظاهر التقدم في العلوم الانسانية، تأكيدها خضوع الانسان لقوانين يمكن صياغتها واستخدامها في السيطرة على الظواهر البشرية

والتنبؤ بما سيكون عليه في المستقبل . وصحيح أن هناك علوما انسانية ما زال يدور بشأنها جدل حول امكان وجود قوانين — بالمعنى العلمي — فيها ، ولكن علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ (في بعض مذاهبه علا الاقل) يستخدمون فكره القانون منذ عهد ليس بالقريب ، ويحققون بذلك نجاحا لا بأس به في فهم الظواهر التى التى يتناولونها بالبحث .

ومع ذلك فان المعنى الذى يستخدم به مفهوم « القانون » في العلوم الانسانية ، يحتاج الى تخصيص يلائم طبيعة هذه العلوم ، وان كان كثير من المشتغلين بها ينظرون الى معنى «القانون» في علومهم كما لو كان مكافئا لمعناه في العلوم الطبيعية والتجريبية . واساس هذا الاصرار على توحيد معنى «القانون» في الحالتين هو الرغبة في ضمان صفة العلمية للدراسات الانسانية ، وهى في ذاتها رغبة مشكورة ، ولكن الأمانى والغايات — كما نعلم جميعا — لا ينبغى أن تفرض ذاتها على الواقع أو تحاول تشكيله على هواها . **وواقع العلوم الانسانية يشهد بأن فكرة ((القانون)) فيها تتخذ ، في بعض الحالات على الأقل ، معنى لا يمكن أن يكون مساويا كل المساواة لمعناها في العلوم الطبيعية .**

ولكى أوضح فكرتى أود أن أضرب لها مثلا بفكرة قوانين التاريخ في النظرية الماركسية . وأول ما ينبغى أن تتنبه اليه هو أن نتنبه اليه هو أن كلمة ((**التاريخ**)) ذاتها تجريد لفظى ، وأن تجسيم التاريخ وكأنه شيء أو كيان متحرك، ينطوى في ذاته على قدر غير قليل من التجاوز . كما ينبغى أن نتنبه الى أن التاريخ ، حسب تعريفه ، يتعلق بالماضى ، وأننا حين نتحدث عن ((**حركة التاريخ في المستقبل**)) ، على سبيل المثال ، فنحن — من الوجهة المنطقية الخالصة — نرتكب خطأين : أولهما استخدام لفظ يرتبط في ماهيته بالماضى ، للدلالة على المستقبل ، وثانيهما تجسيم المجردات وتشخيصها وتحريكها ، على النحو الذى أشرنا اليه من قبل .

واذا تركنا جانبا هذه الملاحظات ، التى قد يراها البعض شكلية ، وانتقلنا الى فكرة قوانين التاريخ ، كما تصاغ في النظرية الماركسية ، لتبين لنا أن القانون الذى يحتم قيام الصراع بين الطبقة الراسمالية ، نتيجة لا شتداد التناقض بينهما ، ويحتم انتصار الطبقة العمالية في نهاية الأمر ، ويؤكد حتمية القضاء على رأس المال — هذا القانون يتسم بسمات خاصة ، تحول دون تشبيهه ، آليا ، بالقوانين الطبيعية :

١ — أولى هذه السمات أنه مبنى على استقراء ناقص . ففى النظرية الماركسية يبرر هذا القانون على اساس أنه كان هناك تناقض مماثل بين الارقاء ومسترقيهم في العصور القديمة ، وبين الفلاحين المعدمين والاقطاعيين في العصور الوسطى ، وان هذا التناقض انتهى ، في الحالتين ، بانتصار الطبقة المقهورة ، وبتحرك التاريخ خطوة الى الامام ، تسود فيها قيم أكثر تقدمية من تلك التى سادت في المرحلة السابقة ، وان كانت بدورها تفضى الى تناقض جديد . وقياسا على ذلك ، فان « قانون التاريخ » ذاته يحتم انتهاء التناقض الثالث بين العمال والرأسماليين بانتصار الأولين وظهور شكل جديد من أشكال علاقات الانتاج .

ولو سلمنا بكل مقدمات هذا الاستدلال دون مناقشة ، فسوف نجد مع ذلك أن هذا «القانون» يرتكز على حالتين سابقتين مماثلتين ، ويقيس الثالثة عليهما . **ومن الواضح أنه ليس يكفى في حالة العلوم الطبيعية تكوين قانون من ملاحظة حالتين فحسب .** وفضلا عن ذلك فان التماثل ليس تاما بين الحالات الثلاث في المجال التاريخى، اذ أن كل حالة تقوم في سياق مختلف عن الحالة الأخرى ، وتختلف في تفاصيلها عنها الى حد غير قليل . **فاستقراء الماضى اذن لا يعد في هذه الحالة أساسا كافيا لاستخلاص ((قانون)) ، اذا كنا نود أن نحتفظ لكلمة ((القانون)) بمعناها العلمى المألوف .**

٢ — وفى الوقت الذى يؤكد فيه أصحاب النظرية الماركسية — وهى في هذه الحالة «المادية التاريخية» — أن انتصار الطبقة العاملة أمر مؤكد بحكم ((**قانون تاريخى**)) حتمى ، فانهم ، حتى أشدهم تحمسا ، يؤكدون أن **هذه الحتمية ليست آلية ، تفرضها الحوادث ذاتها سواء شاء الانسان أم لم يشأ ، بل هى حتمية تقوم فيها الارادة الانسانية بدور أساسى .**

ولقد كان تأكيد أهمية الارادة الانسانية على هذا النحو أمرا لا مفر منه ، اذ أن الكثيرين قد أساءوا فهم المادية التاريخية بحيث تصوروا أن ((**حركة التاريخ**)) تسير آليا في صالح الطبقات المغلوبة على أمرها ، ومن ثم لم يكن هناك ما يدعو

فى نظرهم الى بذل جهد كبير فى الكفاح من أجل تحقيق أهدافهم ، اذ أن « حركة التاريخ » ستحقق لهم هذه الأهداف تلقائيا ، وما عليهم الا أن ينتظروا حتى يحقق لهم التاريخ ما يبتغون لذلك كان لزاما على مفكرى المادية التاريخية أن يصححوا هذا الفهم ، ويؤكدوا أن للقانون التاريخى معنى خاصا ، بحيث يستحيل أن يتحقق هذا القانون ما لم تتدخل الارادة الانسانية من أجل ضمان تحقيقه .

على أن هذا التصحيح لمعنى القانون فى مجال التاريخ الانسانى كفيل بأن يجعل هذا القانون شيئا فريدا بحق . ذلك لأن أهم ما يميز القانون العلمى هو استقلاله عن الارادة الانسانية ، وحدوثه سواء شاء الانسان أم لم يشأ . فالى أى حد يستحق أن يسمى قانونا ذلك الذى لا يتحقق الا بمساعدة الارادة الانسانية ؟ وأين هى النقطة التى يمكن عندها تحديد دور الحتمية التاريخية المؤدية الى ظهور القانون ، ودر الارادة الانسانية التى تساعد على تحقيق القانون ؟ وهل هناك حقا ، الى جانب ارادة الانسان ، **أى عامل آخر « خفى » يوجه الحوادث فى اتجاه معين ، أم أن الارادة الانسانية هى التى تقوم فعلا بكل شىء ؟** واذا صح أن ارادة الانسان هى العامل الوحيد المتحكم فى توجيه دفة التاريخ الانسانى ، فما قيمة الاشارة الى « القانون » فى هذه الحالة ؟ الن يكون فى وسع هذه الاراده أن تكسر القانون اذا شاءت ، وتوجهه فى اتجاه آخر ؟

ولكى أزيد هذه النقطة الأخيرة ايضاحا ، أود أن أشير الى حقيقة أعتقد أنها غابت عن ذهن كل من قرأت لهم من انصار المادية التاريخية . فتسلسل التفكير فى هذه النظرية يسير على النحو الآتى : هناك قانون تاريخى يحتم انتصار الطبقة العاملة فى صراعها مع الرأسمالية ، ولكن هذا القانون لا يسير على نحو آلى ، بل لا بد من أن تتدخل الارادة الانسانية، ممثلة فى كفاح الطبقة العاملة ، من أجل تحقيقه، ولولا هذا الكفاح لما استطاع القانون أن يتحقق . والأمر الذى غاب عن أذهان هؤلاء المفكرين هو **أن القول بأن الارادة الانسانية هى التى يتحقق من خلالها قانون التاريخ ، يترتب عليه أن الارادة الانسانية قادرة ـ لو شاءت ـ على كسر القانون أو عدم تحقيقه .** وبعبارة أخرى فان القانون اذا كان رهنا بالجهد الذى يبذله الانسان من أجل وضعه موضع التنفيذ ؛ فانه يمكن أن يلغى لو اتجه جهد الانسان الى عدم تنفيذه ، مادام القانون لا يملك بذاته قوة تمكنه من تحقيق ذاته .

هذه الحقيقة البسيطة لها فى رأيى أهمية قصوى فى فهم تاريخ القرن العشرين : ذلك لأن هذا التاريخ اذا كان سجلا لكفاح الطبقات المقهورة من أجل تحقيق الاشتراكية ، فهو أيضا سجل لكفاح الطبقات المالكة والرأسمالية من أجل الحيلولة دون تحقيقها ولم يكن فى وسع « قانون التاريخ » فى هذه الحالة أن يغلب كفاحا على كفاح ، بل ان الانتصار فى كل حالة كان يتوقف على مقدار الجهد الذى تبذله ارادة الانسان .

واذا كنا نعترف بأن تدخل الانسان قادر على تحقيق حتمية التاريخ ، فيجب أن نعترف أيضا بأن التدخل فى الاتجاه المضاد قادر على ابطال تأثير هذه الحتمية أو ابطائه . **وليس تاريخ مقاومة الرأسمالية طوال القرن العشرين الا سلسلة متصلة من المحاولات الواعية التى تبذلها ارادة مضادة ، لالغاء تأثير القانون التاريخى الذى تؤكد نظرية المادية التاريخية أنه سيؤدى فى نهاية المطاف الى القضاء على الرأسمالية .**

ومن الواضح أن قدرة الرأسمالية على البقاء قد جاوزت بكثير الحد الذى كان يتوقعه ماركس أو لينين أو غيرهما من أقطاب المادية التاريخية. بل انه لم تظهر حتى الآن اية بوادر تدل على قرب انهيارها ، وربما كان العكس ـ فى السنوات العشر الماضية ـ هو الصحيح . فعلام يدل هذا كله ؟ انه يدل على تلك الحقيقة التى لم يعمل لها أقطاب المادية التاريخية حسابا ، وهى أن ارادة الانسان ، اذا كانت هى شرط تحقيق الحتمية التاريخية ، فانها تستطيع ، اذا اتجهت وجهة مضادة ، أن تغير عن عمد مسار التاريخ فى اتجاه مغاير للاتجاه الذى تشاؤه ارادة الطبقة العاملة ، أى تستطيع ، اذا اكتملت لها القوة الكافية ، أن تبطل تأثير « القانون التاريخى » .
وليست هذه دعوة الى اليأس على الاطلاق ، بل أنها لا تعدو أن تكون تنبيها للانسان المكافح الى أن كل شىء يتوقف على ارادته ، وعلى مدى صلابته فى الكفاح ، والى أن « حتمية التاريخ » لن تنفع المتخاذل ، ولن تعوض تقصيره فى الدفاع عن حقوقه ، أو فى السعى الى تحقيق مطالبه . بل ان مسار التاريخ يمكن أن ينقلب عليه اذا

ينشدها ، اذ ليست للتاريخ قوة ((سحرية)) خارج نطاق ارادة الانسان .

٣ ـ فاذا كان القانون التاريخي **((موضوعيا))** فانه لا يكون كذلك الا بمعنى خاص تماما . **لم يبذل الجهد الكافي في توجيهه نحو الغاية التي فموضوعيته ((مصنوعة)) بواسطة الارادة الانسانية .** ومن الممكن أن يثار في هذا الصدد سؤال على قدر كبير من الأهمية ، وأعنى به : **هل يمكن أن تكون هناك موضوعية ((تصنع)) ؟ وماذا يعود للموضوعية من معنى حين لا تعود مفروضة بموجب المنطق الداخلي للحوادث ذاتها؟** هذا ، على أية حال ، سؤال لا أود أن أخوض فيه الآن ، بالرغم من أهميته البالغة ، حتى لايفلت من بين أيدينا الخيط الرئيسي للمناقشة. ولكني أود ان أتناول المسألة من زاوية أخرى، هى : **ما قيمة ((القانون التاريخي)) ، في هذه الحاله** ، اذا كان حدوثه أو عدم حدوثه متوقفا على ارادة الانسان ، أي بعبارة أخرى اذا كانت الارادة الانسانية هي العامل الحاسم ، والوحيد، المتحكم في توجيه دفة التاريخ ؟

قد يكون أول ما يتبادر الى الذهن ، اجابة عن هذا السؤال ، هو أن القانون التاريخي لا تعود له في هذه الحالة فائدة . **ولكن الواقع أن فكرة وجود قانون تاريخي يحتم انتصار الاشتراكية على الرأسمالية لها فائدة عملية كبرى : اذ أنها قوة دافعة تحفز الجماهير على الكفاح وتشجعها عن طريق اقناعها بأن حركة التاريخ تساعدها في كفاحها ، أو بأن كفاحها مساير لحركة التاريخ .** وهي في هذا الصدد تؤدي وظيفة مشابهة **لوظيفة فكرة المشيئة والقدرة الالهية** بالنسبة الى المؤمنين المجاهدين : **فالقدرة الالهية تفعل من خلال كفاح المجاهدين أنفسهم** ، ومن المستحيل أن تساعد هذه القدرة على انتصار مؤمن متخاذل، أي أن مصير المجاهدين يتقرر ، في نهاية الأ ، بالجهد الذي يبذلونه في كفاحهم . ومع ذلك فان شعور المجاهد بأن القدرة الالهية في صفه ، يقدم اليه قوة دافعة كبرى في كفاحه ، كما يشل حركة خصومه اذا امتنعوا بأن الارادة الالهية ليست في صفهم . **فالمبدأ في الحالتين واحد ،** وهو في أساسه مبدأ ذو هدف ((عملي)) قبل كل شيء . وبالاختصار ، فان **فكرة ((القانون التاريخي)) فكرة تشجيعية قد لا يكون لها في الواقع نفسه كيان** ، ولكن تأثيرها يتحقق كما لو كانت ذات وجود وتأثير واقعي ـ بفضل قدرتها الحافزة وحدها .

٤ ـ فاذا صح هذا التحليل كان معناه أن **فكرة القانون التاريخي يتداخل فيها ما هو كائن مع ما ينبغي أن يكون ، وأنها ليست وصفا لما هو واقع بقدر ما هي اشارة الى ما هو واجب، أي أنها فكرة غائية أكثر مما هي وصفية .** فالقانون في هذه الحالة تعبير عما نريده أن يكون، أي انه نوع من التفكير المبني على الرغبة والتمني wishful thinking وكل هذه ، في صميمها ، **معان غير علمية** لا صلة لها بالمعاني المألوفة التي تتضمنها فكرة القانون في العلم البحت . وهكذا فان فكرة القانون التاريخي ، التي أملتها الرغبة في تحقيق الموضوعية في مجال الظواهر البشرية ، واخضاعها للمنهج العلمي الدقيق ، تتضمن بالضرورة عوامل خارجة عن مجال العلم البحت ، وتخدم أغراضا وغايات عملية في صميمها .

هذا التحليل لا يعني على الاطلاق أننا نرفض الأهداف التي يسعى الى تحقيقها القائلون بحتمية انتصار الاشتراكية بناء على قانون علمي موضوعي ، بل يعني أن الألفاظ المستخدمة في أمثال هذه العبارة ، كلفظ الحتمية ، أو لفظ القانون ، ينبغي أن تفهم على أن لها ، في هذا المجال الانساني ، معنى يختلف اختلافا كبيرا عن معناها في العلوم الطبيعية ، ومن **الواجب أن تستقر في أذهاننا هذه الاختلافات الأساسية حتى لا يحاول اقتباس مفاهيم العلم الطبيعي وتطبيقها آليا على مجال الانسان .** ولو لم تبادر العلوم الانسانية الى ادراك هذه الحقيقة عن وعي لظلت الى الأبد أسيرة ((تطلعاتها)) الى العلوم الطبيعية ومحاكاتها لها.

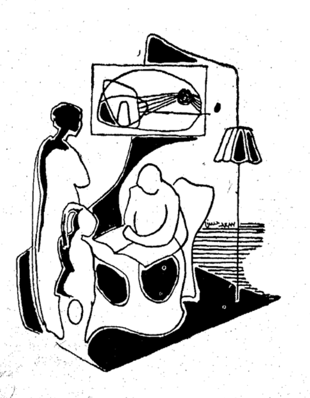
ومجمل القول أنني حاولت في هذا المقال أن أسير ، على طريقتي الخاصة ، في نفس الاتجاه الذي يبدو أن العلوم الانسانية كلها تتجه اليه في الفترة الحاليه من تاريخها ، والذي يظهر واضحا في كثير من مقالات هذا العدد ، اتجاه البحث عن مفاهيم خاصة لهذه العلوم ، أو تحديد معان جديدة للمفاهيم التي تستعيرها من مجالات العلوم الأخرى ، بعد أن اقتربت نهاية ذلك العهد الذي كانت فيه العلوم الانسانية تنبهر بالعلوم الطبيعية وتقتبس فيه مفاهيمها ومناهجها دون تمييز .

فؤاد زكريا

دراسة المجتمع علم ؟

د. سمير نعيم أحمد

إن أي فهم حقيقي
للمجتمع الإنساني
لا بد أن يكون
باتباع المنهج العلمي
وإن أية محاولة ناجحة
للتحكم في ظواهر
هذا المجتمع أو حل
مشكلاته لا بد أن تقوم
على فهم مبني على
الأسس العلمية
طبيعية لهذه الظواهر



نعلم جميعا أن المجتمعات تتكون من أفراد ، وأن هؤلاء الافراد فى حالة تفاعل مستمر بين بعضهم البعض • كما نعلم أيضا أن هؤلاء الافراد ينظمون أنفسهم بأسلوب معين يحدد علاقة كل منهم بالآخر ، أى أنهم يضعون لأنفسهم ما نسميه بنظام المكانة • وهؤلاء الافراد المنظمون النشطون يكونون تجمعات ومجموعات فيما بينهم يربط بين كل منها والاخرى علاقات محددة مثل الروابط المهنية أو السياسية أو الدينية أو الثقافية • ونحن نعرف من ملاحظاتنا اليومية أن هذه العلاقات المتبادلة بين الافراد وبعضهم البعض وبين التجمعات التى يكونونها ليست ثابتة جامدة ولكنها ديناميه ومتغيرة ، ونستطيع أن ندرك بسهولة أن هناك عمليات مختلفة تؤثر على وتتحكم فى تلك الانماط المختلفة من العلاقات •

تلك بعض الحقائق الواضحة البديهية ، والتى تمثل فى الواقع أبسط تعريف للمجتمع ــ موضوع مناقشتنا فى هذا المقال • والسؤال الآن هو هل يمكن دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية مثلما أمكن دراسة غيرها من الظواهر الفيزيقية أو البيولوجية ؟ •

ان الاجابة على هذا السؤال سوف تساعد على حسم الكثير من المشكلات والاختلافات فى الرأى فيما يتعلق بماهية علم الاجتماع • فمازلنا نرى حتى الآن من ينكرون امكانية وجود علم بهذا الاسم ، وليس أدل على ذلك من أن دراسة المجتمع فى جامعاتنا ، وفى كثير من جامعات العالم ، تعتبر من الدراسات الادبية أو الفنية وليست من الدراسات العلمية • فأقسام علم الاجتماع توجد بكليات الآداب والفنون ، بل ان هناك بعضا من هذه الكليات لا يفرد قسما خاصا لدراسة المجتمع بل يضمها داخل أقسام الفلسفة أو غيرها من فروع المعرفة • وحين يذكر العلم فنادرا ما يطرأ على ذهن الناس ، حتى أكثرهم معرفة وعلما ومن هم على مستوى المسئولية ، أن دراسة المجتمع تدخل فى نطاقه • وحين تنشأ مجالس قومية متخصصة لرعاية ضروب المعرفة المختلفة تستبعد المعرفة بالمجتمع من قائمة المعرفة العلمية بطريقة آلية وتضاف الى المعرفة الادبية أو الفنية (**مثل المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية**) • وما زال الكثير من المثقفين يرون أن فهم المجتمع مسألة لا تتطلب أكثر من مجرد عملية تأمل لما يدور حولهم وقراءة لما يكتب فى الصحف والمجلات عن «**المسائل**» الاجتماعية، وأن الأمر لا يتطلب تخصصا وتأهيلا كالذى يتطلبه فهم التفاعلات الكيميائية أو الظواهر البيولوجية. بل ان الأمر يصل بالبعض منهم ، من غير المتخصصين وغير المؤهلين ، الى اعتبار أنفسهم علماء أو خبراء فى المجتمع يكتبون عنه ويتحدثون فيه دون تردد ودون أن يجدوا أى وجه للشبه بينهم وبين أدعياء الطب مثلا • والمأساة الحقيقية أنه على الرغم من الضرر البليغ الذى ينجم عن هذا السلوك والذى لا يقل بحال عن الضرر الذى ينجم عن ادعاء المعرفة بالطب أو الكيمياء فان المجتمع لا يستجيب لهاتين الفئتين من الأدعياء استجابة مشابهة • ذلك أن العامة، ولهم عذرهم، مازالوا لا يعلمون أن **دراسة المجتمع قد أصبحت علما له أصوله وقواعده مثلما أصبحت دراسة الجسم الحى والمواد الجامدة علما ، وأن الوقت قد حان لاستبعاد الادعاء والدجل من ميدان دراسة المجتمع مثلما تم استبعاد السحر والشعوذة من ميدان الطب** • من كل ذلك تتضح الحاجة الملحة الى مناقشة وتوضيح الاسس العلمية فى دراسة المجتمع •

علمية دراسة المجتمع

ان معظم الاعتراضات على علمية دراسة المجتمع واللبس فى فهم طبيعة هذه الدراسة تأتى عادة نتيجة للمقارنة المباشرة أو الضمنية بين العلوم الفيزيقية والبيولوجية من ناحية والعلوم الاجتماعية من ناحية أخرى • فالعلوم الفيزيقية (**التى تدرس كل ما هو غير حى**) ، والعلوم البيولوجية (**التى تدرس أشكال الحياة**) قد حققت حتى الآن انتصارات عظيمة بهرت الناس بنتائجها، ولهذا أصبحت لها مكانة ضخمة فى عقولهم ، أما العلوم الاجتماعية فانها ، نظرا لحداثة نشأتها ، لم تتوصل بعد الى تلك النتائج الباهرة ، ومازال المتخصصون فيها يعملون فى كثير من الصمت من أجل ارساء قواعدها وأصولها ، وحين يخرج بعضهم عن هذا الصمت ليعلن فى تسرع بعض النتائج التى توصل اليها أو يطالب بتطبيقها فى مجالات قبل التأكد التام من صدقها فانه يضر بسمعة ومكانة العلم الذى يعمل من أجله بدلا من أن يرفع منها ، تماما مثلما كان يحدث فى بداية تطور الطب حيث كان السحرة والمشعوذون ينتهزون فرصة فشل أى طبيب فى علاج مرضاه للتشهير بالطب بأسره والنيل من مكانته • ولكن ليس معنى تأخر نمو وتطور العلوم الاجتماعية عن الفيزيقية أو البيولوجية أن الاولى لا تدخل ضمن نطاق العلوم • **ولا يجب أن ننسى أن كل العلوم**

مرت بفترة الحداثة هذه ولم يحل ذلك أبدا دون أن تصبح علوما بمعنى الكلمة • ويجب أن نضع فى إعتبارنا أن تأخر تطور العلوم التى تدرس الانسان لا يرجع الى قصور لدى العلماء أو لعدم امكانية دراسة الانسان دراسة علمية ، ولكنه يرجع أكثر من أى شىء الى مقاومة الانسان ذاته **(موضوع دراسة هذه العلوم)** للكشف عن طبيعته وخباياه وللمساس بمعتقداته عن نفسه بأنه شىء مقدس • ولو لاحظنا تطور العلوم لوجدنا أن أولها فى التطور كانت تلك التى لا تمس الانسان مباشرة • ونحن نعلم الآن المقاومة الشديدة التى لقيتها مكتشفات العلوم المختلفة والتى كانت تتعارض مع فكرة الانسان عن نفسه ومعتقداته عن الكون المحيط به ، ونذكر اعتراض الانسان على فكرة أن الارض التى يعيش عليها ليست هى مركز الكون وأنها كوكب من بين الكواكب الاخرى تدور حول نفسها وحول الشمس ، واعتراضه على أن الانسان هو نتاج سلسلة طويلة من التطور الذى لحق أنواعا أدنى من الكائنات الحية وأنه ينحدر عنها ، والثورة الشديدة على الاجتراء على الجسم الانسانى بتشريحه للكشف عن مكنوناته وحناياه ، والغضب العارم الذى أثاره اكتشاف أسرار النفس ومضمون اللاشعور وطبيعة الحياة الجنسية • **ولكن من حسن الحظ أنه كلما استطاع الانسان أن يفهم شيئا عن ذاته سهل ذلك من عملية تقبله للكشف عن جوانب أخرى منها ، ولهذا فاننا نتوقع أن يكون خط العلوم الاجتماعية من سرعة التطور أكثر من خط ما سبقها من العلوم التى تمس الانسان •**

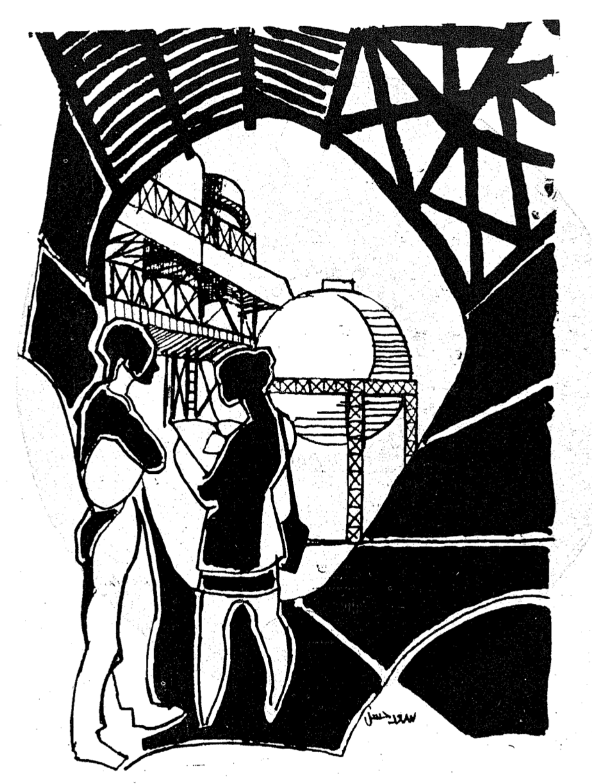
وهذه المقارنة بين العلوم المتقدمة (الفيزيقية والبيولوجية) وبين العلوم النامية (الاجتماعية) كثيرا ما تعتمد على محاولة ايجاد أوجه الاختلاف بينهما ولكنها نادرا ما تحاول الكشف عن أوجه الشبه فيهما • ومن الواضح أنه ليس لدى كل فرد القدرة على اكتشاف أوجه الشبه بين أشياء تبدو جد متباينة ، ذلك أن هذا الأمر يتطلب درجة لا بأس بها من القدرة على التجريد • وسوف نحاول هنا أن نبين أولا أوجه الشبه بين العلوم جميعا أو بمعنى آخر تلك الخصائص التى ان توفرت فى فرع من فروع المعرفة اعتبرت علما • وبناء على ذلك نستطيع أن ننتقل الى مناقشة مدى علمية علم الاجتماع •

علمية علم الاجتماع

يعرف العلم عادة بأنه «ذلك النسق المنظم من المعرفة التى تكتسب وتصاغ عن طريق استخدام منهج معين محدد » • والعلم ، شأنه شأن أى فرع آخر من المعرفة ، يعتمد على نظام رمزى للاتصال • فالاساطير والفنون والأدب معرفة منظمة تعتمد على الاتصال الرمزى ، ولكنها لا تدخل ضمن نطاق العلوم • والذى يميز العلم عنها هو المنهج الذى يستخدم فى التوصل الى المعرفة التى يحتويها وفى تنظيمها فى اطار عام كلى • **وهذا المنهج هو الخاصية الاساسية المشتركة بين العلوم جميعا •** ويتميز هذا المنهج بالتأكيد على الوصف الدقيق الموضوعى للظواهر الثابتة نسبيا والمتكررة والتى يمكن التنبؤ بها ، ثم استخدام المنطق فى تحليلها وايجاد العلاقات والروابط بينها • ويمكن تحقيق هذه الاهداف باستخدام وسائل ملاحظة دقيقة ، صدقها مؤكد ، وأساليب محددة للتصنيف والتعميم والتحقق والتنظيم • **ويقوم هذا المنهج على مسلمة أساسية هى أن كل المعرفة العلمية تستمد من الخبرة الحسية ومن الاستقراء المنطقى منها** • ولكن لما كانت حواس الانسان محدودة نسبيا وغير دقيقة وعرضة للخطأ ، فان العالم فى دراسته للظواهر يجد لزاما عليه أن يعتمد على الأجهزة والادوات والمعادلات الرياضية لكى يزيد من مدى ودقة خبرته الحسية ومن موضوعية تسجيله لملاحظاته ، ولابد له أيضا من أن يستخدم وسائل رياضية ومنطقية وتجريبية لكى يختبر كل فروضه واستنتاجاته • **وهكذا نرى أن المنهج الذى يستخدمه العلم يضمن الموضوعية واللاتحيز والدقة فى وصف وتحليل وتفسير الظواهر الطبيعية ، وهو الذى يرشد العالم الى الطريق السليم لبحث ودراسة أى ظاهرة من الظواهر ، ويجعله يعدل من استنتاجاته أو حتى يرفضها كلية اذا ما وجد دليلا يناقضها •**

المنهج المتبع فى التوصل الى المعرفة هو الذى يحدد اذا ما اذا كانت هذه المعرفة علما أم لا • ولكن هل يمكن استخدام هذا المنهج الذى شرحنا أهم خصائصه فى التوصل الى معرفة علمية بالمجتمع ؟

يخطىء الكثيرون حين يظنون أن العلوم هى التى تدرس الظواهر الفيزيقية والبيولوجية فقط لأنهم فى هذه الحالة يعرفون العلم على أساس موضوع دراسته لا على أساس المنهج المتبع فى الدراسة • فالظواهر الفيزيقية والبيولوجية كانت ، وما تزال ، موضوعا لاهتمام ضروب مختلفة من المعرفة غير العلمية • ولم تصبح



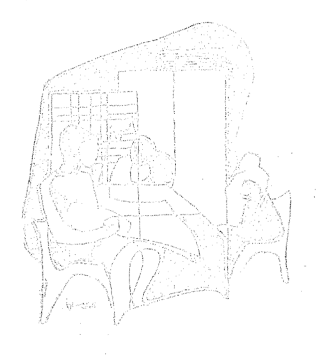
دراسة هـــذه الظواهر علما الا حين اتبع المنهج العلمى فيهـا • وعلى هذا فان المعرفة بالظـواهر الاجتماعية تكون علما حين يتبع فيها هذا المنهج، ومن المـمكن بكل تأكيد اتباع هـذا المنهـج فى دراستها للأسباب الآتية :

أولا : الظواهر الاجتـماعيه ظواهر طبيعية natural بمعنى أنها تحدث فى الطبيعة وتحت بصرنا وسمعنا أى أن المعرفة بها يمكن أن تستمد من الحواس شأنها شأن المعرفة بأى ظواهر طبيعية غيرها • وبالتـالى فان هذه الظواهر يمكن أن تخضع للملاحظة والوصف •

ثانيا : لما كانت حواس الانسان عرضة للخطأ وعدم الدقة فانه يمكن أيضا استخدام وسائل مساعدة للحس كالتي يستخدمها علماء الفيزياء والبيولوجيا ، وقد تم بالفعل استخدام وسائل مثل التسجيل السينمائي والصوتي للأحداث الاجتماعية ، وهذه الوسائل ليست في الواقع سوى تسجيل موضوعي ودقيق وأمين للظواهر والاحداث يضمن موضوعية ودقة الملاحظة . كما أمكن ابتكار مقاييس جيدة ودقيقة للعلاقات الاجتماعية والاتجاهات والرأى العام ودرجة التحضر وحركة أعضاء المجتمع مكانيا واجتماعيا. الخ.. وهكذا استطاع علماء المجتمع أن يحققوا أهم أركان المنهج العلمي : الدقة والموضوعية فى الملاحظة .

ثالثا : الظواهر الاجتماعية ظواهر ثابتة نسبيا ومتكررة ، وبالتالى يمكن التنبؤ بها . والواقع أنه ما لم تكن هذه الظواهر تتسم بالثبات النسبي والتكرار لما أمكن قيام أى مجتمع أو استمراره . فوجود المجتمع فى حد ذاته دليل على توفر هذه الصفة فى السلوك الانسانى الاجتماعى . ومعظم أفراد المجتمع يمكنهم التنبؤ بسلوك الآخرين فى مختلف المواقف ، وذلك ما يمكن من التفاعل بين أفراد المجتمع واستمرار بقائهم سويا ، لأن هناك ثباتا وتكرارا نسبيا فى هذا السلوك . وقد يبدو من الملاحظة العابرة أن الظواهر الاجتماعية سريعة التغير وغير متكررة بالمقارنة بالظواهر الفيزيقية والبيولوجية ، ولكن هذا التغير فى الواقع ليس سوى تغير فى الصور التى تتخذها الظواهر ؛ ويوجد وراء هذا التغير قانون يتسم بالثبات النسبى يحكمه ويوجهه كذلك الذى يوجد وراء التغير فى الظواهر الفيزيقية والبيولوجية . فتتابع الفصول وتتالى الليل والنهار هو فى واقع الأمر تغير ولكن من المعروف أن هناك نظاما ثابتا يحكم هذا التغير . وتغير الكائنات الحية من شكل لآخر فى نفس النوع أو من نوع لآخر ثبت أنه يسير حسب نظام ثابت نسبيا يحكم هذا التغير فى المادة الحية التى يمكن أن تتخذ صورا شتى تبدو لأول وهلة غير مترابطة وغير متكررة . والمادة غير الحية ثبت أنها ثابتة ومتكررة وتتخذ أشكالا عدة ، ولكنها لا تختفى أبدا أو لا تفنى . وبناء على فهمنا لهذا النظام الثابت لظواهر الكون المختلفة أصبحنا نستطيع التنبؤ بسلوكها ، وكلما ازداد فهمنا له ازدادت دقة تنبؤاتنا بسلوك هذه الظواهر . والظواهر الاجتماعية بلا شك من ظواهر هذا الكون وليست خارجة عنها .

رابعا : يخطىء البعض حين يعتقد أن التجربة المعملية هى جوهر المنهج العلمى ، وبالتالى يخطئون حين يتصورون أن دراسة المجتمع لا يمكن أن تكون دراسة علمية لأنها لا تستند أساسا على التجربة المعملية . فالتجربة المعملية ليست سوى احدى الطرق المستخدمة فى البحث العلمي وهدفها الاساسى تمكين الباحث من اختبار فروضه واستنتاجاته وتسجيل ملاحظاته بدقة . والعلوم



الفيزيقية والبيولوجية لا تعتمد على التجربة المعملية وحدها ، كما أن هناك علوما لا تلجأ الى استخدام هذه الطريقة بحكم طبيعة الظواهر التى تدرسها . فعلم الفلك وعلم الجيولوجيا وعلم المحيطات علوم لا تعتمد على التجربة المعملية ، ولكنها تعتمد على الملاحظة والقياس الدقيقين، كما أنها تلجأ الى الاستعاضة عن التجربة المعملية بتصميم تجريبي للدراسة تتوفر فيه عناصر التجربة المعملية ، وهى التحكم فى درجة ونوع المتغيرات موضوع البحث وتناولها بالتغيير من أجل اختبار صحة فرض ما . ولكن الفرق بين التجربة المعملية والتصميم التجريبى هو أن الباحث فى الحالة الاولى يحدث التغير المطلوب بنفسه ، أما فى الحالة الثانية فانه يبحث عن درجات مختلفة من المتغير الذى يدرسه كما توجد فى الطبيعة ويدرس ما يترتب على ذلك من تغير فى بقية المتغيرات. مثال ذلك ما لجأ اليه الباحثون عن علاقة التدخين بالاصابة بسرطان الرئة . لم يكن من الممكن بالطبع عند دراسة هذه المشكلة

البيـــولوجية اجراء تجربة معمليــة على كائنات انسانية بحيث يتحـــكم الباحث فى كمية ومدة تدخين الافراد ثم يرى مدى اصـــابتهم بسرطان الرئة · ولهـــذا لجأ الى وضـع تصميم تجريبى للبحث فاختـــار أفرادا من المدخنين وقسمهم الى فئات حسب كمية ومدة التدخين ، ثم قام بفحصهم طبيا وتسجيل حالة اصابتهم أو خلوهم من سرطان الرئة · والذى جعـل من هـذه الدراسة اسهاما علميا هو دقة وموضوعية الملاحظة وتسجيل نتائج هذه الملاحظة وتفسيرها ·

مثل هذا التصميم التجريبى للبحث هو الذى يتبع فى دراسة الظواهر الاجتـماعية ، ولو أن ذلك لايعنى عدم امكانية التجربة المعملية بمعناها الدقيـق عليهـــا ، وعلم النفس ملىء بمثل هذه التجارب ، وهو أحد العلوم الاجتماعية بالطبع ·

خامسا : اذا كان من الممكن اذن فهم الظواهر الاجتماعية على أساس علمى وباتباع المنهج العلمى الذى لا بد من اســـتخدامه فى فهم كل ظواهر الكون ، فانه يصبح من الممكن أيضا التنبؤ بهذه الظواهر والتحكم فيها وتوجيهها لتحقيق أحسن تكيف ممكن للانســـان ، وهذان همـا الهدفان الآخران للعلم بعد الفهم · وقد يقـــال ان لدى الانســـان ، على عكس الجماد والكائنات الحية الاخرى ، الارادة والقـــدرة على التصرف وتغيير سلوكه بحيث يجىء منافيا لتوقعاتنا وتنبؤاتنا ، وبالتالى فان سلوكه يصبح أقل قابلية للتحكم فيه وتوجيهه · ولكن يجب ألا ننسى أن الارادة ذاتها وحدود القدرة على التغيير من موضوعات الدراسة التى تهدف الى فهم النظام الثابت الذى يحكمها · وقد يقال أيضـــا أنه من اللاأخلاقية أن نحـاول التحـــكم فى سلوك الانســـان أو فى الظواهر الاجتماعية بوجه عام لأن التحكم لا بد أن يكون وراءه قيم معينة توجهه ، ولأن النـــاس يختلفون فى هذه القيم · والرد على ذلك أن التحكم فى أية ظاهرة فى الـكون وتوجيهها الى خدمة قيم بعينها تدخل فيه الذاتية أيضا · فالتحكم فى الذرة مثلا يمـكن أن يوجه الى أغراض تدميرية عدوانية أو الى أغراض نافعة سلمية · والذى نحتاجه اليوم بشدة فى هذا العالم هو أن نصل الى فهم حقيقى للقيم والدوافع وراء سلوك الانسان ، حتى فى محـــاولته التحـــكم فى الظـــواهر الفيزيقية والبيولوجية ، ولن يتأتى ذلك بالطبع الا باخضاع هذه القيم ذاتها للدراسة العلمية المنظمة ·

سادسا : اذا كان القانون يعنى علاقة ثابتة نسبيا ومتكررة يمكن التـحقق دائما من صدقها بين حقيقتين أو أكثر من حقائق الكون ، فاننا اذا سلمنا بأن المنهج العلمى يمـكن أن يوصلنـا الى اكتشاف حقائق عن المجتمـع ــ وهو من ظواهر الكون ــ فاننا لا بد أن نسلم بامكانية التوصل الى قوانين اجتماعية · **واذا عرفنا أنه ليس هناك من العلماء من يفترض وجود قوانين جامدة ثابتة أبدا ولكن الثبات فى القوانين شىء نسبى وبالتالى فان القـــوانين قابلة أبدا للتعـــديل وللاضـــافة وللحذف** ، فانه يكون من السهل علينا أن ندرك معنى عدم ثبات القوانين الاجتـماعية · ودرجة الثبـــات النسبى للقوانين فى أى علم من العلوم تعتمد على عمر هذا العلم وعلى ما استطاع تحقيقه من معرفة · ولهذا كان لا بد لنا أن نتوقع تغيرا فى القوانين الاجتماعية التى يتوصل اليها العلماء دون أن ينفى ذلك الصفة العلمية لعلم الاجتماع ·

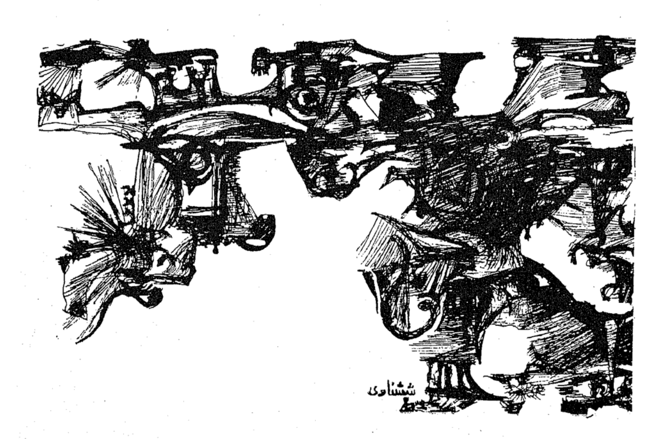
سابعا : ان أى باحث فى أى ظـاهرة سواء كانت فيزيقية أو بيولوجية أو اجتماعية معرض لأخطار الذاتية والتـحيز ، وليس هـــذا الخطر قاصرا على الباحث فى الظواهر الاجتماعية · وقد سبق أن قلنا أن أى باحث يعتمد على حواسه وعلى عقله فى ملاحظة وتسجيل وتفسير الاحداث التى يدرسها ، ومن المـــكن أن تخطىء الحواس فى الادراك وأن يخطىء العقل فى التأويل · ولذلك فان العلـــماء يبتكرون وسائل مسعدة لحواسهم تكون بمثـــابة الرقيب على صدق ما تعطيه لهم الحواس وتساعد على تقوية هذه الحواس وزيادة دقتها وموضوعيتها ، كما أنهم يراجعون ماتوصلوا اليه دائما على ما توصل اليه غيرهم · وهذه هى الوسـيلة الاســـاسية لتجنب أخطـــار الذاتية والتحيز · ويلجأ علماء الاجتماع الى هذه الوسائل التى تضمن الموضـــوعية ، وما حدث فى العلوم الفيزيقية والبيولوجية من تطوير دائم ومستـمر لهذه الوسائل يحدث الآن فى العلوم الاجتماعية، بحيث أصبح من المتوقع أن تصل هذه الوسائل الى مثل دقة الوسائل المتبعة فى العلوم الاخرى ·

نخرج من هـــذه المناقشة للأســـاس العلمى للعلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع خاصة بأن أى فهم حقيقى للمجتمع الانسانى لا بد أن يكون باتباع المنهج العلمى ، وأن أية محـــاولة ناجحة للتحكم فى ظواهر هذا المجتمع أو حل مشكلاته لا بد أن تقـوم على فهم مبنى على الاسس العلمية لطبيعة هذه الظواهر · وهذا الفهم هو ما يحاول علم الاجتماع على أسس علمية أن يقدمه عن طريق الابحاث والدراسات المنظمة التى يقوم بها العلماء المتخصصون فى هذا الميدان ·

سمير نعيم أحمد

جسر بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية

د. أسامة الخولى



دفع الى الزميل رئيس التحرير بكتاب أصدرته هيئة اليونسكو أخيرا يستعرض الاتجاهات الأساسية فى بحوث العلوم الاجتماعية والانسانيات عموما وأشار الى بحثين بالذات يتعرضان لبعض الأساليب الحديثة المرتبطة بالعلوم الطبيعية والتى وجدت طريقها مؤخرا العلوم الانسانية ، واقترح على أن أستعرض هذه الأساليب لقراء الفكر المعاصر • ووجد اقتراحه هوى فى نفسى ، فطالما فكرت فى التعرض لهذا الموضوع بشىء من التفصيل، خصوصا وأننى ــ فيما يبدو ــ أشير اليه دائما فى كل ما أكتب اشارات عابرة مقتضبة •

وسرعان ما أدركت بوضوح حقيقة الأسباب الكامنة وراء احجامى عن هذا العمل حتى الآن • لقد كنت أدرك تماما أن جهلى بحقيقة ما يجرى اليوم من دراسات فى العلوم الانسانية عقبة حقيقية فى سبيل أية محاولة قد أبذلها فى هذا الصدد • ولكننى لم أكن قد أدركت بعد أن التعرض لهذه العلاقة بين العلوم الطبيعية والانسانية اليوم لا يكفى فيه حديث واحد ، اذ أن العرض الواضح لهذه العلاقة لغير المشتغلين بالعلوم الطبيعية لا بد وأن يجرى على عدة مراحل • أولاها التعريف بأساليب العلوم الطبيعية التى وجدت طريقها الى العلوم الانسانية ، وسينطوى الحديث عن هذا على دراسة وقع العلوم الانسانية بدورها على العلوم الطبيعية ، خصوصا وأن غالبية هذه الأساليب جديد على العلوم الطبيعية ذاتها ، بل انه نشأ فى خضم ثورة شاملة فى العلوم الطبيعية خرجت بها عن برجها العاجى وقذفت بها بقسوة فى عواطف المال والأعمال والسياسة ، أى أن هذه الثورة قد ربطت ربطا واضحا ومباشرا ــ لأول مرة فى تاريخ الانسان ــ بين العلم النظرى وبين التطبيق •

وتأتى بعد هذا مرحلة ثانية فى عرض العلاقة بين العلوم الطبيعية والانسانية • ويتركز الاهتمام فيها على التعرف على تطبيقات أساليب الأولى فى نشاطات الثانية • وهذا هو الجانب الذى لا أملك المعرفة ولا القدرة على الخوض فيه والذى توجب الأمانة العلمية أن أتركه للمتخصصين فى مختلف العلوم الانسانية ليتحدثوا عنه من واقع خبرتهم المباشرة •

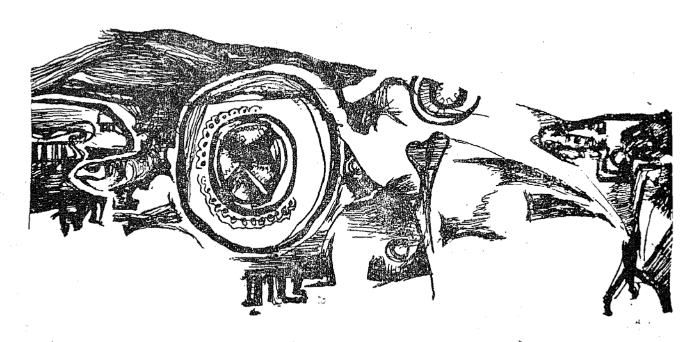


الا أن هناك ــ فى النهاية ــ جانبا ثالثا للحديث أرى أنه ربما يكون أهم من هذا كله • وأعنى به القضايا الفكرية الأساسية التى يثيرها موضوع هذه العلاقة والتى هى فى حقيقة الأمر ، مشاكل فلسفية تشغل بال الفكر المعاصر • ولا أظن أن المقام يتسع هنا لأكثر من المرحلة الأولى والتى سنعرض فيها بايجاز لبعض أساليب العلوم الطبيعية التى وجدت طريقها مؤخرا الى الدراسات الانسانية •

وفكرة تبنى العلوم الانسانية لأساليب العلوم الطبيعية ليست جديدة فى حد ذاتها • ولعل أوضح مثال لها فى العلم المعاصر هو استخدام الأساليب الاحصائية فى دراسة المجتمع البشرى والسلوك

الانســـانى . وأظن أن غبـار المعركة حول دور الأساليب الاحصائية فى هذه الدراسـات والتى دارت رحاها بين أولئك الذين يرفضونها أساسا وأولئك الذين لا يجدون فى ســـواها مضـــمونا للدراسات الاجتماعيه ، أظن أن هذا الغبار قـد انقشع الآن وأنها قد بدأت تأخذ مكانها الطبيعى وسط أساليب هذه الدراسات . ولعله من المفيد أن نذكر هنا أن علوم الأحياء ، والتى تأخذ موقفا وسطا بين العلوم الطبيعية والانسانية ، كانت أول من اهتم بالأساليب الاحصـــائية وطورها فى التطبيقات العمليـة . وقـامت بهذا بدور الجسر الذى عبرت عليه تلك الأســاليب من شــاطئ الرياضيات البحتة الى شــاطئ الدراسات الاجتماعية .

« المتناهى فى الصـــغر » وفكرة التفاضل التى تشـــكلت على يدى لايبنتز ونيوتن . وكان كل ما حققته من دراسات أدت الى الحصول على نتائج كمية دقيقة استنتاجا من معطيات تحليلية تعالج الجزء « المتناهى فى الصغر » من الجسم أو الآلية وتطبـق عليه القـوانين النيوتونية للحركة ، ثم قانونى الديناميكا الحرارية فيما بعد ، وكانت هاتان المجموعتان من « قوانين الطبيعة » هما كل ما فى جعبة الطبيعيات من سلاح حققت به كل هذ الانتصارات الباهرة التى وطدت مكانة الأسلوب العلمى كما نعرفه اليـــوم وأثبتت بما لا يحتمل الشك فعاليته فى التعريف بالعالم والتنبؤ بسلوكه واتاحة فرص حقيقية للتحكم فيه واستغلال للخير والشر على حد سواء .



أسلوب تحليل المنظومات

وسأقصر حديثى هذه المرة على التعريف بواحد من أهم ما استحدث أخيرا فى العلوم الطبيعية ، قرب بينها وبين العلوم الانســـانية ، ألا وهو أسلوب تحليل المنظومات system analysis ولا ينظر هذا الأســـلوب الى الأمور نظرة آلية mechanistic بل يدور حول مفهوم المنظومة system وأود ـ قبل تعريف مفهوم المنظومة ـ أن أعود قليلا الى الوراء لأسترجع الدور الحاسم الذى لعبته النظرة الآلية فى تقـدم العلوم الطبيعية منذ عصر النهضة . ولقد شاركتها فى هذا الأساليب الرياضية التقليدية التى تطورت فى نفس الوقت والتى ابتدعت لأول مرة مفهوم

ولكن هذا الكيان العلمى الضخم ظل يعانى من خلل جوهرى فيه وقف حائلا فى ســبيل اتخاذ « الآلية » (أو المكنـــه) نموذجا لكل شىء فى الطبيعة ، الا وهو عجزه عن أن يشمل أيضا سلوك الكائنات الحية التى هى مثال واضح لظاهرة يواجهها بصور مخففة فى مجالات أخرى هى ظاهرة «التعقيد المنظم» . وربما كان من سوء الحظ أن الطبيعيات التقليدية عالجت ، أول ما عالجت ، النظام الشمسى الذى تسيطر عليه الشمس سيطرة غاشمة بحكم الفروق الشاسعة بين وزنها وصفاتها وبين وزن وصفات أى كوكب آخر فى المجموعة الشمسية . لقد أتاح هذا للأفكار الآلية أن تحقق نجاحا فى معالجة هذه « المنظومه » بالأسلوب التفتيشى الذى أتاحته الرياضيات النيوتونية ودونمواجهة مشكلة

« التعقيد » المنظم بشـــكل حاد فى هذه الحالة الخاصه التى تضعف فيها الروابط المتبادلة بين الكواكب الســـايرة كثيرا عن روابط أى منهـــا بالشمس • ولقد ســـمح هذا بتجاهل الروابط المتبـــادلة بين الكواكب في التحليل الأول ، ثم اجراءات تصحيحات هامشية بعد ذلك عن طريق أخذها فى الاعتبار واحدة واحدة •

لقد أدى هذا الفشل عندما تكشـــفت أبعاده من أنكار المعالجة الآلية الى ظهور فكرة المنظومه • ويرى كثيرون أن محاولة تعريف هذه الكلمة لابد وأن تبوء بالفشل ، فهى كلمة عامة وشاملة ينطـوى تعريفها على استخدام عبارات أخرى أكثر عمومية وشمولا ، أى أقل وضوحا عن الكلمة ذاتها • ولعل فى الحديث عن بعض أنواع المنظومات ما قد يوحى بالمعنى المقصود من هذه الكلمة • فنحن نستخدم كلمة منظومة عندما نتحدث عن مجموعة من الاشياء المتشابهة أو المترابطة ، كالمنظومه الشمسية • ولكننا نتحدث أيضا عن المنظومة كجمع من القواعد أو الاجراءات • فالمنظومة اذن تعنى جمعـــا من الأشياء المترابطة من ناحيه ، ومجموعة من القواعد والاجراءات أو الســـلوك ، من ناحية أخرى • ومجموعة الأشياء هى « كيان المنظومة » ، بينما مجموعة القواعد هى « نسق عمل المنظومه » • وربما يكون التعريف التالى هو أقرب التعريفات التى قابلتها للفهم :

« المنظومة جمع من الكيانات أو الأشياء (الحية أو الجماد) يتلقى مدخلات معينة ويؤثر فيهـــا بشكل متناسق ليعطى مخرجات معينة ، بقصـد تحقيق نهاية قصـــوى لبعض الصفات المرتبطة بالمدخلات والمخرجات » (ريتشارد كيرشنار)

ويعنينا فى هذا التعريف عدد من الكلمات ، أولاها « يؤثر عليهـــا » • فهـــذا يؤكد أننـــا ازاء عملية ديناميه متغيرة وأن الكيانات الساكنة التى لا تتغير لا تدخل فى عداد المنظومات • ولهذا الاعتبـــار أهمية بالغة فى محاولة تطبيق مفهوم المنظومة على الكائنات الحية • وهو يثير قضـــية أساســـيه حول مدى انطبـــاق القانون الثانى للديناميكا الحرارية على الكائنـــات الحية • وهذه قضية حاسمة فى تقرير صلاحية أسلوب تحليل المنظومات لمعالجة الكائنات الحية البالغة « التعقيد المنظم » • ولن نتوقف عن هذا الاعتبار الفلسفى طويلا فهو يدخل فى عداد المرحلة الثالثة للحديث، كما فصلنا فى مستهله •

ومعنى المفهوم الدينامى هو أن بناء فندق مثلا لا يعتبر منظومة • ولكن البناء والعـــاملين ونظام العمل يمكن اعتبارها منظومة تتلقى مدخـــلات (هى الطعام والشراب والوقود والضيوف والمال والشكاوى والفواتير) وتؤثر عليها لتعطى مخرجات (منها الراحة والجو المكيف والوجبات والفضلات والفواتير أيضا) وذلك بقصد الحصول على الحد الأقصى من الربح •

والكلمة الثانية الهامة فى التعريف الســـابق هى كلمة « بقصـــد » • ويؤكد هذا أن للمظومة هدفا ما ، بينما يســـتبعد من نطاق اهتماماتنـــا المنظومات الطبيعية المحضة مثل شبكة الأنهار التى يتكون منها حوض نهر النيل مثلا ويقصر البحث على المواقف التى تتفاعل فيها مقاصد البشر مع أداء المنظومة • وعلى هذا فان حوض نهر النيل عندما تقام عليه الخزانات والسدود التى نتحكم فى بنائهـــا وتشـــغيلها يعود مرة أخرى الى نطاق البحث •

وهناك أخيرا كلمة « بعض الصفات » • وهى تعنى أن هناك شيئا ما له قيمة عددية تتوقف على قيم المدخلات والمخرجات •

وتهتم دراسة المنظومات بأمرين : أولهما تحديد الصفة ، أو الصفات ، التى سنتخذها معيارا لتقييم الأداء والتى تســـعى لكل فصـــل بها الى القيم العضوى ، والثانى هو البحث فى تعديل « كيان المنظومه » أو « نسق عملها » لكى تتحقق هذه القيم العضوى لمعايير تقييم الأداء •

بين الانســـان والمكنة

فاذا ما انتقلنا بعد هذا الى استعراض أنواع المنظومات والأساليب التى تستخدم فى دراستها لبدأنا بالمعدات الآلية الخالصـــة (أى المعـدات الميكانيكية أو الكيميائية أو الكهربية) التى تعمل طبقا لقوانين الطبيعيات والكيمياء • ويقتصر دور الانسان هنا على اختيار « كيان المنظومة » ، أى على عملية تصميم هذه المنظومات الآلية الصرفة • ولقد مرت عملية التصميم هذه بتغيير ثورى فى الآونة الأخيرة • فلقد كان الأسلوب السائد حتى وقت قريب أسلوبا « تخليقيا » synthetic يبدأ بأن ينتقى المصمم ـ على مسئوليته ومن واقع خبراته السابقةوبشكل لا واع ولا رشيد ـ مكونات المنظومة من بين قائمة ما هو موجود منها والذى تكون صفاته الديناميـــة معروفة • وكان البحث يبدأ باســـتنتاج أداء المنظومة التي تشـــكلت من

المكونات المعروفة الصفات التي انتقاها المصمم وبتحديد عيوب الأداء • وينتقل البحث فى المرحلة الثانية من التصميم الى معالجة هذه العيوب عن طريق تطبيق عدد من الأساليب النمطية المعروفة• الا أن لمقدرة المصمم على تلافى العيوب حدا كامنا أصلا فى عملية الاختيار الاولى التى جرت دون تحليـل منطقى لاحتياجـات الأداء المطلوب يثبت أولا أن فى اســتطاعة المكونات التى اختـــارها تحقيقه • ودعا هــذا الى الاهتمـام بالبحث عن أسلوب بديل للتصميم أخذ يتطور تدريجيا حتى أصبح يعرف الآن بالأسلوب «التحليلى» analytic وفيه يبدأ المصمم بتحديد معايير الأداء المطلوبة ثم يستنتج منها صفات مكونات المنظومة التى تحقق هذه المعايير •والأساليب الرياضية التى استحدثت لهذا الغرض امتدادات طبيعية للأساليب التقليدية لا تخلو من الطرافة وان كانت لا تخرج الى نطاق الأساليب الرياضية الأخرى الا فى الحالات التى تكون المدخلات للمنظومة فيها ذات طابع عشوائى احصـــائى يمثل ما تتعرض له المنظومة فعلا فى الواقع •

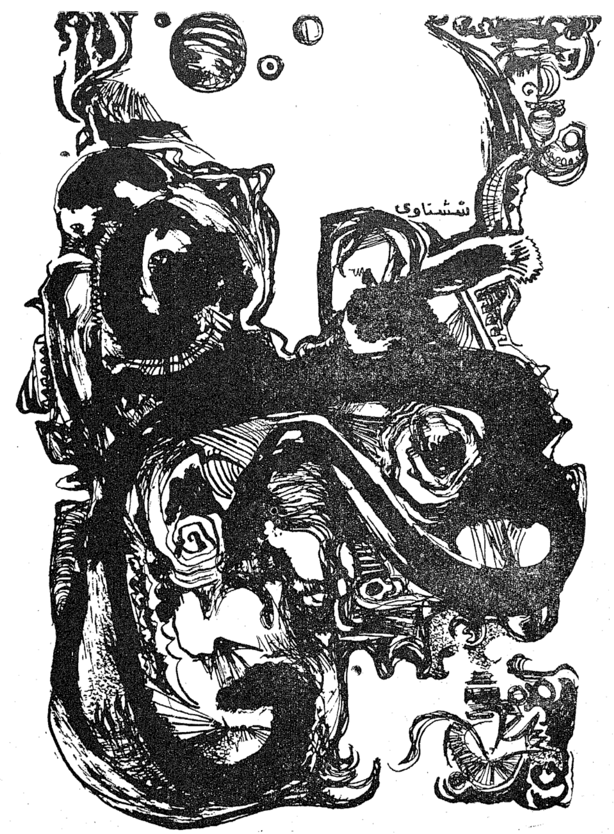
وهناك بعد هذا النوع من المنظومات الذى يحدث فيه الحد الأدنى من التفاعل بين الأنسان والمكنة ، نوع آخر يكون الانسان فيه جزءا من منظومة آلية فى غالبيتها ، مثل القائد فى طيارة حديثـــة أو الجنود فى منظومة الدفاع الجوى • ومهمـــا يكن تصـورنا لســـلوك البشر ومهما تكن محاولاتنا للاقتراب به من سلوك المكنات ، فسيبقى قدر ما من سلوك الانسان غير قابل للتنبؤ الدقيق • ومن الطريف أن نذكر هنا أن الانســـان يقوم ، فى نفس الوقت ، بمهام جانبيـــه يتمنى كل مصمم للمنظومات أن يجدها أيضا فى مكونات المنظومة الآلية ، مثل قدرته على التنبيه بقرب وقوع خلل فيه (عندما يعرب عن احساسه بالمرض مثلا) أو فى ســلوك المكنات المحيطة به (عندما ينبه الى حدوث تغييرات غير محمودة فى بعض صفاتها)• وسنترك الحديث عن الأساليب التى تســـتخدم لمعالجة هذا النوع من المنظومات مؤقتا لنعود اليه مرة أخرى بعد قليل •

وهناك أيضا منظومات يقوم البشر فيها بمهام غير آلية بالمرة ، مثل اتخاذ القرارات لتعديل نسق عمل المنظومة • وتندرج تحت أعمال الادارة فى وحدة انتاجية أو اقتصادية مثلا • وتسمى هذه المنظومات منظومات متوائمة adaptive والغرض من وجود الانسان كجزء من المنظومة هو المواءمة بينها وبين ظروف العمل المتغيرة • وهذه وظيفة غير آلية فى جوهرها ولا توجد مكنات قادرة على أدائها ، وان كانت الحاسبات الحديثة بطاقتها المذهلة على اختزان المعلومات وسرعتها الفائقة فى تحليلها قادرة على القيام بقدر من التحكم المتوائم يعجز الانسان عن القيام به ، كما فى حالة مصنع كيميائى أو شبكة القدرة الكهربائية مثلا !! وهناك من يرى أنه ليس ثمة فارق جوهرى بين سلوك المواءمة الذى تبديه هذه الآلات وبين طريقة عمل العقل البشرى • والمهم هنا هو أن ندرك أن طرق تحليل ودراسة المنظومه المتوائمة تختلف تماما عن تلك المســــتخدمة فى المنظومات الآلية بالمفهوم التقليدى الذى ورثناه عن عصر النهضة •

وهنا، فى آخر هذه القائمة من أنواع المنظومات، نوع فريد يتميز عن سابقيه ويحتم علينا تطوير أساليب جديدة لتحليله ودراسته• وهذا هو النوع الذى توجد فيه المنظومة ومعها ، أو حولها ، منظومه أخـرى أو أكثر يكون من بين أهدافهـــا تحطيم المنظومة التى ندرسها أو هزيمتها (أى أن المنظومات الأخرى تستهدف تحقيق نهاية صغرى لقيمة التغير الذى تسعى المنظومة التى تدرسها لكى تصل به الى نهايته العظمى) • والمنافســـة بين الشركات والدول والجيوش المتحاربة أمثلة لهذه المنظومات « المتنافسة » competitive

ولعل هذا العرض البسيط لأنواع المنظومات يكشف لعلماء الانسانيات عن الاغراء الكامن فى مفهوم المنظومة والذى وصل بنا فى تدرج أنواعه من النماذج الآلية النيوتونية الى مواقف تكشف تدريجيا عن المضمون الانســـانى للمسألة التى نعالجها • وواضح أن هناك اغراءا قويا حقا لكى نخطو الخطوة الباقية ونفكر فى المنظومة التى تقع فى النقيض الآخر للمنظومة الآلية المحضة، ألا وهو المنظومة البشرية الصرفة ، أو الانسان نفسه •

وواضح أيضــا أن هذا ـ كما سبق أن أشرنا عندما دخل العنصر البشرى لأول مرة فى تكوين منظومات النوع الثانى من القائمة الســـابقة ـ يســير بنا رويدا رويدا من عالم اليقين الى عالم الاحتمالات • فكلما لعب البشر دورا رئيسيا فى عمل المنظومة كلما ازدادت صعوبة التنبؤ بأدائها فى ظروف معلومة • الا أن هذا لا يعنى بالمرة الكف عن محاولات التحليل والتنبؤ ، فكثيرا ما يكون من الممكن تحديد السلوك « المتوسط » average للانسان فى ظروف معينة وبدرجة كبيرة من الدقة• وينقلنا هذا بأساليب التحليل من يقين ميكانيكا نيوتن الى دنيا الاحتمالات الاحصائية •



ولقد جرى تطوير الأساليب الاحصائية تحت ظل سيطرة المفاهيم اليقينية وبعيدا تماما عن عالم الدراسات الطبيعية • الا أن هذه الأساليب سرعان ما دخلت فى هذه الدراسات عندما حاول ماكسويل وبولتزمان ، عام ١٨٦٠ ، وصف أداء منظومة آلية ضخمة كثيرة المكونات هى الحشد الكبير من جزئيات الغاز المحصور فى وعاء • فلم يكن هناك سبيل لحل العدد البالغ الضخامة من المعادلات الذى يصف حركة كل منها • ولكن الميكانيكا النيوتونية غضت الطرف عن هذا الغزو واعتبرته حالة لا تمس جوهر أساليبهم السائدة حينئذ ووجدت له مبررات كثيرة • وجاءت الضربة القاصمة مع

اكتشاف القوانين التي تحكم سلوك الذرات المشعة، وهي قوانين تهدم الأفكار النيوتونية • ثم جاءت قاعدة هيزنبرج، عام ١٩٢٠ ، فأجهزت على الأفكار اليقينية وتوجت « عدم اليقين » uncertainty ملكا على عرش الطبيعيات الحديثة •

أزمة الطبيعيات الحديثة

ويهمنا من هذا العرض لأزمة الطبيعيات الحديثة المعروفة أن نوضح أن الأساليب الاحصائية لم تدخل العلوم الطبيعية أصلا بسبب انشغالها بالكائنات الحية عموما أو الانسان على وجه الخصوص ، وانما كان ذلك ضرورة أملتها دراسة العالم الجماد نفسه ولو أن هذا لا يخلو من مغالطة ليس هذا مجال الخوض فيها وأرجو أن يصفح عني المتزمتون ان أنا طرحتها جانبا في هذا السياق • وعذري في هذا هو أن لهذا الحديث ، كما قلت ، وجها فلسفيا لا نستطيع أن نوفيه حقه في هذا العرض السريع لأساليب حديثة •ولعلي أجد فرصة قريبة للحديث عنه ان شاء الله •

وبدخول البشر في المنظــومات واســتخدام الأساليب الاحصائية لمواجهة الموقف يتحول الحديث من محاولة حساب طريقة أداء المنظومة بشـــكل قاطع لا يتغير الى محاولة تحديد نسبة عدد مرات التشغيل الذى يكون سلوكها فيها من نوع ما • وهذه هي النسبة التي نســـميها « احتمال » probability حدوث هذا السلوك • وان كنا قد نضطر الى استخدام أسلوب احصائي في معالجة منظومة آلية صرفة ، مثل القنبلة الذرية ، لأنها تعتمد في عملها على قوانين الطبيعيات الحديثة التي هي احصائية في جوهرها •

وهناك عدة أساليب معروفة لحساب الاحتمالات في الحالات البسيطة ، مثل ألعاب الحظ والميسر ، تستخدم كبدائل لاجراء التجارب عددا كبيرا من المرات وحصر عدد المرات التي يتحقق فيها السلوك الذى نريد تحديد احتمـــال وقوعه • الا أن هذه الأساليب لا تصلح للمنظومات المعقدة المتشابكة ، الأمر الذى يضطرنا الى اعادة النظر في امكانيـــة القيام بالتجارب الفعلية • وهنا يأتي الحاســـب الالكتروني مرة أخرى لنجدتنـــا ، فهو يتيح لنـــا أسلوبا جديدا في التحليل الاحصائي للمنظومات — وان كان في حقيقته من أساليب التمثيل simulation وهو الأسلوب الذى يعرف الآن باسم طريقة مونت كارلو Monte Carlo Method ويقوم الحاسب هنا باتخاذ القرارات أو القيام بالأفعال العشـــوائية التي يقوم بها الانسان في التجارب الحقيقية •

ومن مسائل المنظومات المعقدة التي جرى حلها بأسلوب مونت كارلو مســـائل حركة المرور في شوارع المدن وتحديد فترات اضاءة الأنوار الثلاثة (الأحمر والأصفر والأخضر) لتحقيق أكبر سريان لحركة المرور • وهذه مسألة بالغة التعقيد حقا ، خصوصا لوجود التقاطعات • فهناك أولا احتمالات وصول ســـيارة الى التقاطع عند أي وقت محدد بالذات ، ثم هنـــاك احتمالات انعراجها يسارا أو يمينا • وهذه احتمـــالات قد يكون من الممكن قياسها فعلا في الطبيعة بواسطة معدات تسجيل حركة المرور في الشوارع وعند التقاطعات • الا أن العلاقات بين وحدات هذه المنظومة بالغة التعقيد والتشابك بحيث يستحيل تقرير النتـــائج بطرق حساب الاحتـمالات المعروفة ، دع عنك الوصول بها الى النهايات القصوى المطلوبة عن طريق تعديل نظام عمل المجموعة • ولكن أساليب مونت كارلو تزودنا بحلول ممتازة لهذه المشـــكلة دون القيام بأية تجارب على الطبيعة •

وتستخدم هذه الأســـاليب أيضا في تحليل المنظومات التي يكون الانسان جزءا أساسيا فيها ، لأنه بطبيعته عنصر يصعب التنبؤ بسلوكه • ولكن تحديد احتمالات سلوك الانسان قد أصبح اليوم فرعا قائما بذاته يعرف باسم الهندسة البشرية Human Engineering ويعالج الانسان هنا على أنه آلية ميكانيكية فقط ، فمازلنا بعد عاجزين عن حساب احتمالات اصدار الانسان لأحكام ســـليمة ، وان كنا قادرين على تحديد احتمالات قيامه بعمل آلي ما ، وبالذات فترة الزمن التي تنقضي ما بين استشارته للقيام بهذا العمل وبين قيـــامه به فعلا وتأثير طرق الاســـتشارة ، والمرئية منهـــا بالذات ، على طـــول هذه الفترة واحتمـــالات خطئه في القيـــام بالعمل المطلوب واحتمالات عـــدم استشارته اطلاقا وأثر الارهاق والعقاقير على ذلك كله •

فاذا ما وصلنا في خاتمة المطاف الى المنظومات غير الآلية والتي تعمل أيضا بطرق غير آلية ، أي عندما تصدر الأحكام أو تتخذ القرارات مثلا ، فان عملية التحليل تصبح بالغة المشقة • الا اننا اذا افترضنا **أن الانسان يسير في اصداره للأحكام** أو في اتخاذه للقرارات على هدى أسلوب خاضع ولو جزئيـــا ، للتحليل المنطقي ، فانه يصبح من

الممكن لمنافسه أن يقوم بنفس التحليل وأن يتنبأ بطبيعه الأحكام التى سيصل اليها منافسه • ومن حسن الحظ أننا لسنا بحاجة لمعرفة سلوكه الفعلى بقدر ما نحن بحاجة الى تحديد سلوكه الأمثل optimum أى أن أداءه الفعلى لو كان دون ما كان يمكنه أن يحققه ، فان هذا يضمن لنا هزيمته – أى تحقيق أهدفنا – أكثر فأكثر • وتسرى هذه الأفكار مباشرة فى حالة المنافس الصغير جدا الذى لا يكاد منافسه الكبير أن يحس بوجوده ، وبالتالى ، ربما لا يتصرف دائما كما يجب – الأمر الذى يعطى الصغير ميزة واضحة لو أحسن التصرف ، ولو لفترة من الزمن على الاقل • وعمليات التسلل على نطاق صغير فى الحروب أمثلة لهذا الموقف غير المتكافىء • أما اذا تساوى الخصمان فان التحليل يصبح أكثر صعوبة ويحتاج الى أسلوب جديد يعرف باسم نظريه المباراة Game Theory

نظرية المباراة

ولقد وضع أسس هذه النظرية العالم الأمريكى الشهير – والمجرى الأصيل – جون فون نويمان والذى سيذكره العالم كقائد فريق العلماء الذى صمم وأنتج أول حاسب الكترونى حقيقى ناجح فى أعقاب الحرب العالمية الثانية • فقد أصدر – هو و دور جنشتيرن – كتابا عام ١٩٤٤ عنوانه «نظرية المباريات والسلوك الاقتصادى» قدم فيه هذه النظرية كطريقه مستحدثة لتحليل المنظومات المتنافسة وهى المنظومات التى يمكن اعتبار المباراة التى يقوم فيها متباريان أو أكثر باتخاذ القرارات سرا نموذجا لها • وتؤدى نظرية المباراة فى الحالات التى يمكن حلها الى تحديد « استراتيجية » strategy أى جمع من الاختيارات ، مع تحديد احتمال كونها الاختيارات المثلى optimum choices بالنسبة للاعب • واختيار معيار الأمثلية optimality محفوف عادة بكثير من الشكوك • ومن أشهر هذه المعايير معيار يعرف باسم النهاية الصغرى للحد الأقصى minimax وتحدد الاستراتيجية بمقتضى هذا المعيار بحيث تجعل الخسائر القصوى أقل ما يمكن (أو تجعل النهاية الدنيا للمكاسب التى يمكن تحقيقها أكبر ما يمكن) •

وأريد هنا أن أبرز أمرين : أولهما أن لهذه النظرية كيانا رياضيا شكليا كاملا ، شأنها فى هذا شأن بقية الأساليب الرياضية المعروفة • فهى تبدأ بتحديد المفاهيم والاصطلاحات ، ثم تحدد طرق الحل • ومن بين هذه الطرق وسائل التمثيل التجريبيه والتى هى فى حقيقتها امتداد لأسلوب مونت كارلو • والأمر الثانى هو أن انتقاء معيار الأمثلية ينطوى على مقارنات أقل ما يقال فى أمرها هو أنها غير مالوفه – ان لم تكن ممجوجه – فى العلوم الطبيعية ، مثل المقارنة بين الزمن اللازم لتنفيذ سياسة ما وفاعليتها أو بين الدولارات والروبلات وبين الأرواح البشرية • ولقد أثار هذا الجانب الاهتمام بعملية اتخاذ القرارات ذاتها وبدأت تبرز أخيرا كفرع جديد قائم بذاته أصبح يعرف «بنظرية القرارات» Decision theory

وعندما ظهر كتاب فون نويمان ومور جنشتيرن عام ١٩٤٤ قال عنه أحد النقاد :

« لا يدعى المؤلفان أنهما قد صاغا نظرية رياضية كاملة للمجتمع ؛ فالكتاب لا يعالج سوى المسائل الاقتصادية • ومازالت النظرية وتطبيقاتها – حتى فى هذا المجال – فى دور الطفولة ؛ ولكنها طفولة حية تبشر بالخير • ونستطيع أن نقول منصفين ان نظرية المباريات قد وضعت الاساس للمعالجة الرياضية الرتيبة النفاذة فى نطاق شاسع من مسائل العلوم الانسانيه » •

وفى عام ١٩٥٧ عرض كاتبان آخران الموقف بالنسبة لهذه النظرية بقبولهما :

« ان الوقت اللازم لظهور تاثير التطورات النظرية يقاس بعشرات السنين • ثم ان النظرية بشكلها الحالى قد تبدو غير مرضية بالمرة – ولو فى بعض أجزائها ••• ولكن هذا لا يعنى بالضرورة أن طرحها جانبا هو السبيل الوحيد أمام علماء الاجتماع • فنظرية المباراة واحد من أوائل الأمثلة لتطور رياضى يدور حول العلوم الاجتماعية وحدها » •

ولا أتصور أن ينتهى حديثى عن المنظومات وأنواعها وأساليب معالجتها دون أن أتعرض لمفهومين يلعبان دورا رئيسيا فى فكرة المنظومة بأسرها • وهاتان الفكرتان هما فكرة التغذية المرتدة feed-back والاستقرار stability

والفكرة الأساسية فى مفهوم التغذية المرتدة هى تصميم المنظومة بحيث تأخذ دائما فى الاعتبار، وبحكم ترابط أجزائها ، الانحراف بين ما نريد منها أن تؤديه (أى التعليمات أو الأوامر أو المعطيات أو المدخلات) وبين سلوكها الفعلى (أى مخرجاتها) • وتعرف هذه المنظومات باسم منظومات الحلقة المغلقة closed-loop ولعل فكرة الحلقة

المغلقة أن تتضح من الشكل والذى نرى فيه المنظومة وهى تتلقى التعليمات عن السلوك المرغوب فيه أو المطلوب من جانب وتعطينا سلوكها الفعلى من جانب آخر • ولكن هذا السلوك الفعلى «يرتد» ثانية الى الخلف ، عن طريق أجهزة قياس تحدد قيمته ، دائرا حول المنظومة ليكون حلقة مغلقة وليعود فيلتقى بالسلوك المطلوب فى جهاز يتولى المقارنة بينهما comparator
أى يقوم بطرح قيمة السلوك الفعلى من قيمة السلوك المطلوب ويعطينا اشارة حافزة للمنظومة هى الفرق بين الاثنين أو الخطأ أو الانحراف فى سلوك المنظومة error وتؤثر هذه الاشارة على المنظومة وتستمر فى هذا التأثير حتى ينعدم الخطأ وينعدم بالتالى التأثير على المنظومة، «فتستقر» فى وضع تحقق فيه ما نطلبه •

وسلوك الانسان وهو يلتقط قلما من فوق منضدة مثال كلاسيكى عرضه نوربرث فينر فى كتابه التاريخى الشهير « السيبرينات » • فعندما تمتد يدنا لتلتقط القلم فاننا «نوجهها» عن طريق محاولة واعية لتقليل المسافة التى تفصل بين مكان القلم ومكان اليد (الخطأ) • وهذه عملية تجرى فى حلقة مغلقة ، اذ أن الخطأ الذى تقيسه العين ويرتد ثانية عن طريقها الى المخ الذى يسيطر على العضلات يستخدم فى التحكم فى حركاتها ، وتكفى محاولة التقاط القلم والانسان معصوب العينين لكى تكشف عن حقيقة ما يجرى وعن أهمية التغذية المرتدة عن طريق العين • وهناك نموذج دينامى آخر مشهور يوضح التغذية المرتدة هو نظرية كالتسكى لدورة الرواج والكساد فى الاقتصاد الرأسمالى •

أما الاستقرار فيمكن تعريفه على أنه قدرة المنظومة على العودة الى وضع متزن جديد بعد ازعاجها والخروج بها عن وضع متزن ابتدائى • ولعل أحد الأمثلة الواضحة لعدم الاستقرار هو الانسان الذى يتعلم ركوب دراجة • وهذا مثال مفيد لأنه يكشف أيضا عن الفرق بين التغذية المرتدة والاستقرار ، كما يكشف عن العلاقة بينهما فى نفس الوقت •

ويعمد هذا الانسان ، عندما تميل الدراجة ناحية اليسار ويدرك بواسطة التغذية المرتدة عن طريق حواسه وقوع انحراف عن الوضع السوى المنشود، يعمد الى ادارة قضيب القيادة جهة اليمين• ولكنه يبالغ فى فعل التصحيح هذا فينحرف يمينا بقدر يزيد عن انحرافه الأصلى ناحية اليسار • ويبادر الى اجراء تصحيح أكثر حدة بادارة القضيب جهة اليسار • ويزداد انحرافه مرة اثر مرة وهو يترنح يمينا ويسارا حتى ينهار توازنه تماما ويعلن سقوطه المهين عن عدم استقراره فوق الدراجة •

ولكنه عندما يتعلم طرق اكتساب المنظومة ، المكونة منه ومن الدراجة ، الاستقرار يدخل فى الاعتبار نوعا جديدا من التغذية المرتدة هو تحديد « معدل تغير » الانحراف بالاضافة الى قيمته • فهناك احتمالان عندما تكون الدراجة مائلة جهة اليسار ، فاما أو تكون آتية من الوضع السوى متحركة جهة اليسار واما أن تكون آتيه من حد أقصى من الانحراف فى طريقها نحو الوضع السوى ، أى أن سرعة انحرافها قد تكون الى اليسار بحيث تزيد من الانحراف مع مرور الزمن، أو الى اليمين ، أى بحيث تقلل منه • وواضح أن الموقف الثانى مختلف تماما عن الأول ، بل قد لايحتاج الى تصحيح بالمرة أو لتصحيح جهة اليسار اذا كانت سرعة العودة عالية •

وعندما يتعلم الراكب ركوب الدراجة ، يكون قد أدرك أهمية أن تشمل اشارة التغذية المرتدة بيانات عن معدلات تغير الانحراف • ويقال ان المنظومة خاضعة الآن لعامل جديد نسميه المضاءلة damping وهو عامل يحقق الاستقرار عادة •

وهذه مفاهيم قابلة للتطبيق المباشر على الكائنات الحية ، بل هى مفاهيم بالغة الأهمية فى السيبرينات cybernetics وهى العلم الذى يربط بين المكنات والكائنات الحية ويعالج كلا منها على أنه منظومة تخضع لقوانين دينامية تمكن صياغتها رياضيا بقدر لا بأس به من الدقة•

ولا شك أن علماء النفس والاقتصاد قد أدركوا من هذا العرض السريع أن هذه المفاهيم شائعة جدا فى الدراسات النفسية والاقتصادية ، وان كانت فى حقيقة الأمر جزءا جوهريا من دراسة المنظومات بكل أنواعها ، حتى الميكانيكى الخالص منها •

ولعلى ان أكون قد وفقت فى اثارة اهتمام علماء الانسانيات ببعض الأفكار التى تعتبر اليوم جسرا بين علومهم وبين العلوم الطبيعية • ولعلى أجد فرصة قريبة لمعالجة بعض المسائل الفلسفية التى تثيرها هذه الأفكار وعن تأثير ذلك على تطور الفكر المعاصر كله •

أسامة أمين الخولى

القيم بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية

صلاح قنصوه

١ ـ القيم في الفلسفة :

أصاب الفلسفة حظ عاثر من سوء الفهم جعلها لا تحظى بسمعة طيبة بين أوساط العلوم الاجتماعية . فكاد يصبح تقليدا درجت عليه بعض هذه الاوساط أن ينحى باللائمة على الفلسفة لأنها وقفت عائقا تاريخيا في وجه تطور العلوم الاجتماعية أمدا طويلا ، وحالت دون أن يدرس موضوع مثل القيم دراسة مؤسسة على الواقع ، وهكذا عد الاعتراف بتخصص علم من العلوم الاجتماعية واستقلاله عن الفلسفة ضربا من التحرر القومي من ربقة استعمار بغيض !

وقد يكون مصدر الريبة في الفلسفة ، عندما تعرض لموضوع القيم ، أن البعض يعتقد أنها تنصب نفسها بديلا ومنافسا للعلوم الاجتماعية . فاذا ظن البعض ذلك ، واحتكم من ثم الى المقارنة بين ما تقدمه الفلسفة وبين ما تقدمه العلوم الاجتماعية بصدد ذلك الموضوع،فلن يحمله ذلك على انصاف الفلسفة لأنه سيجدها حينئذ غامضة بسبب لغتها الخاصة ، وسيراها غير مجديه لأنها لا تزوده بحلول مباشرة لمشكلات المجتمع لأن مثل تلك الحلول رهينة بتقدم المعرفة العلمية ، وسيحكم عليها بأنها عبث لاطائل تحته لأنها خصومة وشقاق دائم بين مختلف الآراء لا يفضي الى غير البلبلة والشك .

ولعل ازورار البعض عنها قد يفسره أنه يحسبها مجرد وعاء قديم لشتات من المعرفة المتنوعة لم يخلف تخصص العلوم فيه شيئا . فاذا خطر للفلسفة اذن أن تقدم باسمها شيئا في دراسة القيم ، فلن يكون حظها أوفر مما يؤتيه العطار في منافسته للصيدلي ، ولن يكون موقفها أفضل من موقف حلاق الصحة من الطبيب !

فخير للفلسفة ، في رأى هؤلاء ، أن تدلف الى ذمة التاريخ ، وعليها ألا تنسال من ضريحها والا دهمتها عجلات العلم .

أجل ، هذا حق اذا عددنا الفلسفة علما من بين علوم ، ينافسها عندما يعرض السلعة نفسها ولكن خلف واجهة أخرى . أو اذا حسبناها حزمة من المعارف القديمة ما لبث أن انفرط عقدها الى مجموعة من العلوم المتخصصة .

بيد أن الفلسفة شيء مختلف عن كل هذا ، فما يزال لها موضوعات ومنهج وغاية خاصة . ولكن فريقا من الفلاسفة لا يشارك في هذا الرأى فمن سوء طالع الفلسفة أن محاولات تقويضها لا توجه من خارجها فحسب ، بل قد تنبعث من داخل صفوفها أيضا . فقد تعرضت أخيرا مسائل الفلسفة جميعا ، ومن بينها القيم ، على يد التحليليين الوضعيين المنطقيين للانكار . ونزع من الفلسفة أوراق اعتمادها وعزلت عن



بعضها لتصير وصيفة للعلم ، تتسقط قضاياه وتصوراته ، وتتبعها بالتحليل المنطقى واللغوى دون أن يكون لها الحق فى التعبير عن مشكلات تختص بها وحدها تبحث عن تفسيرها أو تجد حلولا لها.

ويتفق أصحاب هذه الاتجاهات على استبعاد كل ما يخرج عن دائرة العلوم الرياضية والتجريبية لأنها وحدها التى تحمل معنى ، وما عداها من العبارات والقضايا لغو باطل وكلام بلا معنى . فقضايا العلوم الرياضية تحليلية يكرر محمولها موضوعها ، وقضايا العلوم التجريبية تركيبية يتطلب التحقق من صدقها رجوعا الى معطيات الحس فى الخبرة أو التجربة المباشرة . ولا يبقى للفلسفة فى هذا كله سوى أن تفرغ لتحليل النوعين السابقين من العبارات والقضايا من حيث المبنى والمعنى، ومن جهة اللغة والمنطق . وليس للفلسفة أن تقول أو تضيف من عندها شيئا أو تتحدث عن الوجود أو الانسان ، فحسبها مهمة التحليل

وهكذا لا تجد القيم لها مكانا فى الفلسفة لأن كل قضاياها وأحكامها ليست قضايا أو أحكاما مما يقبل أن يوصف بالصدق أو الكذب، ومن ثم فهى لا تحمل معنى ، ولا تعدو أن تكون أوامر فى صورة لغوية مضللة لا تجد دعامتها الا فى دعوتها الانفعالية ، مما لا يمكن استخلاصه من معرفة الوقائع .

ويحسن بنا قبل أن نمضى الى نقد الأساس المنطقى الذى يقيمون عليه انكارهم النظرى للقيم ، أن نشير الى موقفهم العملى منها . ففى الوقت الذى خرجوا فيه من باب أحكام القيمة ، عادوا فتسللوا اليها من النافذة . فهم يسرفون فى انكار المعنى واحتمال الصدق أو الكذب فى أحكام القيمة ، ثم ما يلبث أن يحاول كل منهم وضع نسق خلقى يضمر اعترافا بالقيم وأحكامها ، بوصفها قضايا تحمل معنى وتقبل التحقق فهذا جورج مور فى كتابه ((برنكيبيا ايثيكا)) أو أصول الأخلاق يعود فيمثل تقاليد الحدسيين ، فالخير عنده خاصة Property لا تقبل التعريف أو التحليل ، بسيطة فذة فريدة لا يمكن ادراكها الا بالحدس أو البصيرة المباشرة ، ويعنى ذلك أن صدق القضايا التى تحكم بقيام خيرية باطنية ذاتية ، أى التى تحكم بأن أمرا ما هو خير بمقتضى ذاته وليس لأن قيمة وسيلة لغيره ، انما هو صدق يمكن ادراكه مباشرة دون توسط أو برهان .

وهذا شليك رائد حلقة فيينا فى كتـــاب ((مبادىء الاخـــلاق)) يرتد الى الاعتراف بان الأخلاق علم من حيث هى جهد لتحصيل المعرفة عن الصواب والخطا ، وان القيم وضروب الالزام اذا كانت نسبية وفقا لرغبات الاشخاص فهى موضوعية بمعـــنى أن البشر يؤثرون بعض الاشياء على غيرها .

ويعود مارشال ووكر وهو أحد فلاســـفة العلم الوضعيين المنطقيين فى كتابه ((طبيعـــة الفكر العلمى)) ، بعد ان يفرغ من تحليله للعلم مصدرا للنصح والمشورة فى السلوك الانسانى ، يعود فيقرر وحدة الأصل والغاية للعلم والقيم ، فالأصل هو التجربة الانسانية ، والغاية هى بقاء الانسان . والحكم الخلقى والحكم العلمى لديه سواء . فكل منهما يقوم على أساس من النظر الى النتائج والتنبؤ بها حسب قاعدة مقررة أو قانون معلوم .

أما هربرت فايجل المتحـــدث باســـمهم والمـــؤرخ لهم على اختــــلاف نزعـــاتهم . فيختتم مقاله الشهير عن الوضعية المنطقية ، بنظرية للقيمـــة ينتلمذ فيها على ديوى ، ذلك الفيلسوف الذى يجعل للقيمـــة دورا كبيرا فى مذهبه البراجماتى . فيعزو ((فايجل)) للقيم الوسيلية معنى واقعيا ، فهى التى تحـــددها الحاجات والمصالح التى تقرر ما قد ثبت بالتجربة من علاقات بين الوسائل والغايات ، ويحكم عليها بالصدق أو بالكذب .

كما نجد مثل ذلك التعارض أو التناقض عند الدكتور زكى نجيب محمود ، فبعد انكاره القيم موضوعا للمعرفة فى كتابه ((نحو فلسفة علمية)) ، يعود فى كتابه ((فلسفة وفن)) فيعقد مماثله بين الريان فى سـفينته وبين القيم فى الانسان . فهى على حد تعبيره . ((قيم يدركها بالفطرة حينا ، وحينا تبث فى نفسه بثا ، وهى المعانى فى رأسه التى تسيره ، وفهم الانسان على حقيقته هو فهم هذه القيم . وانهم ليقسمون هذه القيم ثلاثة أقسام كبرى تنضوى تحتها شتى المعانى التى تضبط مسالك الانسان فى خضم حياته ، وهى الحق والخير والجمال ، فى مقابل الثلاثة أوجه التى يحللون بهـــا حياة الانســـان الذاتية ، وهى الادراك والسلوك والوجدان)) .

ويكشف هذا التعارض بين موقف الوضعى المنطقى المعلن — وهو بصدد تحليله لقضايا العلم، واستبعاده لأحكام القيمة — وبين موقفه المهرب الذى يعيد فيه نفسه ما تبرأ منه صراحـــه ، يكشف بدا عن قصور نظرته فى مذهبــه ، عن العجز عن استيعاب قضايا الانسان واتخاذ قرار بشأنها . فوقوف المذهب عند مبـدأ التحقق معيارا لكل ما يحمل معنى — باستثناء قضايا المنطق والرياضيات — انما هو انكار لكل معنى يبحث عنه الانسان فى حياته ، فكرا وسلوكا .

تزعم الوضعية المنطقية ان القضـــية التى تحمل معنى هى ما كانت قضيه تحليليه يكافىء محمولها موضوعها ، أو كانت قضيه تركيبيـه يتحقق صدقها بمعطيات الحس ، وغير هـذه وتلك ليس الا لغوا باطلا . ونحن أين مبـــدأ التحقق من هاتين القضيتين؟! لو رددناه الى أى منهما لما وجدناه منتميا الى احداهما . الا يعنى هذا اذن انه لغـــو باطل بحكم منطق المذهب نفسه ؟

غير أننـــا لا نود الالتزام بقـــواعد لعبتهم المنطقيه ، وحسب هذا التصدع المنطقى ان يكون دليلا على ضيق المذهب عن استيعاب خصـــوبة الفكر الانسانى وتنوعه .

فاذا كان الفيلسوف التحليلى أو الوضعى المنطقى يعتقد أن العبارات التى تحمـــل معنى هى تلك التى يمكن التحقق منها — من حيث المبدأ — وأن العبارات التى تتحدث عما هو كائن هى التى تنتسب وحدها الى ذلك النوع ، وأما العبارات التى تنطوى على ما ينبغى أن يكون ، أى المنطوية على قيم ، فليست من ذلك النوع المشروع ، اذا كان ذلك هو القضية الأساسية عند أنصار تلك النزعة ، فاننا نلحظ من وراء هـــذا المحك ، تعهدا والتزاما قيميا ، هو وحده الذى يجعل مبدأ التحقق عندهم ممكنا ، هذا التعهد يلزم بقول الحق أو الصدق . فهناك اذن فى قضيتهم الأساسية التى تصوغ محور منهجهم، يتربص بهم ما حاولوا رفضه وانكاره . ويتجلى هذا متى أبرزنا مبدأ التحقق عندهم على الوجه التـــالى :

((ينبغى علينا أن نتصرف على النحو الذى بمقتضاه أن ما يكون صادقا ، هو ما يمكن التحقق منه)) . فأينما تولوا فثم ما ينبغى أن يكون ، وهو جوهر القيم !

فلا مفر اذن للفلسفة من التصدى لموضوع القيم ودراسته ، بل ان الفلسفة بطبيعـــة

موضوعاتها ، ومنهجها ، وغايتها يحتويها كلهـا اطار معيارى يغلب عليه طابع القيم .

فهى نظرة كلية شاملة يحتط بكل جوانب الفاعلية الانسانية . والعلوم مهما يكن لها من قدرة على الحديث فى كافة موضوعات المعرفة ، فانها تقف عند تخصصاتها لا تعدوها . فاذا اصبح لدينا من العلوم ، تصورا وافتراضا ، ما يعالج كل موضوعات المعرفة ، فلا بد أن نظل فى حاجة الى من يضم شتات هذه الموضوعات فى موضوع واحد يتخطى به تفصيلات عناصره ، ويعقد بينها الصلات ويسد الفجوات فالعالم أو الوجود بكل جوانبه ، والانسان بكل ضروب نشاطه لا يمكن أن يكون موضوعا لعلم من العلوم كذلك البحث فى أصول تلك العلوم من افتراضات سابقة وأسس منهجية لا يصرح بها الباحث فى عمله ليس من شأن العلوم . فالفلسفة توحد بين كل جوانب الفكر وتخصصاته وتؤلف بينها جميعا فى اتساق منطقى . والفلسفة موقف من العالم ، وموقف من العصر والمجتمع ، فى استيعاب شامل لكل جوانب الانسان . وكل مشكلة تصلح مادة للفلسفة على شريطة أن تدرس على أساس مكانها من نسق ومذهب متكامل فى ضوء سائر التجارب والمطالب والأهداف الانسانية .

واذا كانت المواقف المتجددة التى يواجهها الانسان لا يمكن أن تنتظر حتى تفرغ العلوم المختلفة من دراسة مسائلها لكى يتقدم لهـا الانسان بالحل ، فان الفلسفة كما يقول «رسل» هى التى تعلم الانسان « كيف يحيا بغير يقين ، ودون أن يشله التردد » . وهى ليست نظرا منطوع الصلة بالعمل ، بل هى نظر نقدى ينطوى على موقف من الحياة ، وليست تجريدا الا بقدر استعادة ما هو عينى ملموس عن طريق ما هو مجرد على حـد تعبير « هوايتهد » . وهى رغم تحليقها المظنون عن الواقع ، فهى أكثر التصاقا به ، وذلك لأنه لا غناء عنها لكل انسان سواء اختار فلسفته عن وعى أو لا وعى ، فلا مهرب من الالتزام بفلسفة ما ازاء مواقف الحياة التى يواجهها الانسان كل لحظة . ولا تقنع الفلسفة بالتطلع الى الأهداف البعيدة ، بل تصقل ما يتاح للانسان من قدرات ومعرفة فى الوقت الراهن ، دافعة لها الى أقصى نتائجها ومتضمناتها ، وتزوده بالطاقة والعزم توصلا الى أهـدافه وغاياته القصوى .

فالفلسفة تستند اذن الى أسـاس قيمى سواء فى اتجاهها الى النقد أو الابداع . فهى التى تبرز المبادىء وتكشف عن الافتراضات ، وتناقش القيم الرئيسية ، ظاهرة أو خافية وراء مشكلات الثقافة السائدة بما يحتدم فيها من صراع ، وما يختلج فيها من توتر ، وتوضح ذلك فى حياة الفرد والجماعة وتبين دلالة فى حاضر الثقافة ومستقبلها ، وهذا من شأنه أن يعمق احساس الانسان بقيمه والالتزام بها ، ويدعم قدرته على توجيهها فيما ينبغى أن يكون . فهى مبدأ موجه للانسان فى موقفه ازاء العـالم بمشكلاته التى تحدق به من كل جانب ، ولا مفر من اتخاذ قرار بشأنها سواء من حيث التفسير أو التغيير ، فلا يجدى الانتظار حتى يأتينا المدد من العلوم ، تقدم ثمراتها التى نضجت وفروضها التى تحققت .

وهناك من الفلسفات من تبرر واقعها ، ومنها ما يتحسر على ماض ذهبى ، ومنها من تثور على هذا وذاك ابتغاء بناء مستقبل جديد . وهى فى كل هذا تجعل الناس على وعى بالتزاماتهـم وقيمهم الجوهرية وآثارها المترتبة عليها ، لأنها تهب الانسان معاليد عالمه ، يفهمه بطريقته ، ويتخذ منه موقفا تتبطنه القيم لا محالة .

غير أن الاتفاق لا ينعقد بين كل من عرض للقيم من الفلاسفة على تحديد مكانة معينة لها من المذهب الفلسفى . فمنهم من يبدأ بها مدخلا، ومنهم من يجعلها محورا تدور من حوله تفصيلات مذهبه ، ومنهم من يخصص لها ركنا منزويا ، ومنهم من يزج بها داخل موضوع آخر يطويها مع غيرها من تصورات ومفهومات . كما يتفاوت الفلاسـفة فى درجـة التصريح بموقفهم من القيم أو اضماره ، بحيث قد يتيسر تحليل موقفهم أحيانا ويتعذر أحيانا أخرى . ويبدو أن السبب فى ذلك انما يرجع الى مفهوم القيم نفسه من حيث هى مشكلة لم تقرر بعد قواعد تعريفها ، وتصنيفها والتمييز بين اتجـاهاتها ومدارسها ، على غير ما نجد عليه الحال فى الميتافيزيقا ونظرية المعرفة التى صقلت تصوراتها وقواعد بحثها قرون طويلة من الحوار الفكرى الخصيب .

وتعد القيم نموذجا بارزا لما تكون عليه العلاقة بين الفلسفة والعلوم الاجتماعية . وهى ذات طبيعة اشكالية ، ولم تستقر مادة صريحـة

محددة للبحث والدراسة في الفلسفة أو العلوم الاجتماعية على السواء الا منذ زمن قريب في أواخر القرن التاسع عشر ، ومن تاريخ نظرية القيمة تتبدى طبيعة العلاقة بين الفلسفة والعلم والأساليب النوعية التي يتناول كل منهما موضوع القيم . ويجدر بالملاحظة أن مفهوم القيم بمعناه الحديث قد دخل الفلسفة عن طريق علم الاقتصاد ، ثم تناوله علم الاجتماع عن طريق الفلسفة ولئن تبادر الى الخاطر أن مفهوم القيمة مفهوم فلسفي أصيل ، فذلك لا يصدق الا اذا عددنا القيمة عنوانا جديدا لموضوعات قديمة ، بمعنى أن القدماء من الفلاسفة قد عرضوا البحث القيمة ولكن تحت عنوانات أخرى مثل الحق والخير والجمال وغيرها ، ولكن القيمة في شمولها من حيث هي كذلك غير متعينة في وعاء معيارى نوعي — أي بمفهومها الاكسيولوجي وفقا للاصلاح الفلسفي — فانها لم تكن محل نظر الفلاسفة حتى عهد قريب .

وللقيمة دلالات مختلفة تتعدد بقدر تعدد المجالات التي تطلق عليها ، فهي ، بلغة المنطق ، مفهوم له ما صدقاته الهائلة التي تنتشر في اللغة المعتادة واللاهوت والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والانثروبولوجيا ، فضلا عن العلوم المعيارية المعروفة ، المنطق والأخلاق والجمال .

ويتحدد موقف الفيلسوف من القيم على مستويين ، الأول : متى تعرض لها في صميم مذهبه امتدادا لنظرية في المعرفة والميتافيزيقا والثاني : متى بحثها مستقلة في علم من العلوم المعيارية .

وعلى هذا الوجه قد تقفز القيم الى قمة المذهب الفلسفي ، فتغدو طابعه الغالب ويكون لها دلالتها المنهجية العامة التي تسوق نظرة الفيلسوف الى مشكلات الفلسفة جميعا وتحكم مواقفه منها وحلوله التي يقدمها مثلما صنع نيتشه وشيللر . وقد تتوارى في ركن قصي من المذهب عندما لا يعرض لها الا بوصفها قيمة خلقيه أو منطقية أو غيرها من القيم النوعية مثلما صنع معظم الفلاسفة .

ولعل من الممكن أن نوجز مواقف الفلسفة من القيم في وجهات النظر التي تتعلق بمسألتين، الأولى طبيعة القيم ، والثانية صنوفها .

فاما طبيعة القيم فهو ما تعلق بتعريفها ،

وهنا تبرز مشكلة التمييز بين القيم من حيث هي وسيلة مفضيه الى غاية ومن حيث هي غاية تنشد لذاتها . فالأولى قيم خارجية تختلف باختلاف حاجات الناس ومطالبهم ، بينما الثانية باطنية ذاتية لا شأن لها بهذا الاختلاف بين الناس وهي المثل العليا والغايات القصوى .

وأما المسألة الثانية فهي طبيعة القيم من حيث هي ذاتية من وضع الذات واختراعها ، أو من حيث هي موضوعية تشير الى صفات عينية في الأشياء لها وجودها المستقل عن الذات التي تدركها . وقد تتخذ هذه المشكلة صورة أخرى فتغدو تعارضا بين القيمة والواقعة ، وبينها وبين الوجود . وقد تمتد المشكلة الى مناقشة القيم من حيث هي نسبية أو مطلقة .

أما المسألة الثانية وهي صنوف القيم ، فتعنى السؤال عن وحدة القيم أو تعددها ، كما تنسحب أيضا على مناقشة مستويات القيمة دنيا أو عليا ، والصورة التي يكون عليها تسلسلها وتدرجها ان كان ثمة تسلسل أو تدرج .

ومتى أضيف موقف الفيلسوف من صنوف القيم الى موقفه من طبيعتها ، من حيث تعريفها ومن حيث هي وسيلة أو غاية ، ذاتية أو موضوعية ، نسبية أو مطلقة ، فذلك يؤلف نظرة منسجمة تتيح لنا أن نضعه ضمن فريق أو فئة معينة من أصحاب المذاهب .

ويمكن ، بقدر من التعسف ، أن تصنف مواقف الفلاسفة من القيم الى أربعة مذاهب رئيسية هي ، الموقف الطبيعي ، والمثالي ، والبراجماتي ، والوجودي .

فأما الطبيعي ، فليس موقفا متجانسا الا من حيث اتفاق أصحابه على أن القيمة سلوك طبيعي يخضع لقوانين علمية حتمية . ولكنهم يتباينون في تفضيل نوع من القوانين العلمية على غيره . فمن الطبيعيين أصحاب المذاهب البيولوجية مثل هانس دريش ووارنجتون الذين يردون القيمة الى المستوى البيولوجي للفرد ، ومنهم الذين ينزعون الى الاتجاه النفسي مثل ماينونج واهر نفاس الذين يردون القيم الى مشاعر الرغبة . ومنهم الاقتصاديون ، مثل ماركس ، الذى يرد القيمة الى أصولها في أسلوب الانتاج . ومنهم أنصار النزعة الاجتماعية مثل

دركايم الذى يرجع القيمة الى ما يفرضه المجتمع من الزام .

بينما يرفض المثاليون أن تكون الخبرة الحسية مصدر القيم أو حتى وسيلة ادراكها ، لأن العقل أو الوعى أو الحدس هو أداة ادراكها ، واكتشافها أيضا لأنها ليست من خلق الذات بل هى موضوعية ، مطلقة غائية ، على نحو ما يذهب جود وماكنرى وهارتمان .

ما الموقف البراجماتى فيدنو من موقف الطبيعيين فى رده مشاعر التقويم الى مستويات بيولوجية أو سيكلوجية أو جماعية ، الا أنه يتميز عنهم فى رفضه الوقوف عند تفسير بيولوجى أو سيكلوجى أو اجتماعى للقيم لأنه يتجاوز تلك المستويات الطبيعة الى جعل القيمة طابعا عاما للوجود الانسانى دون تفرقة بين هذه المستويات . فشأن القيمة شأن كل فعل انسانى وسيلة واجراء يستهدف غاية مثلما هو الحال لدى شيلر وديوى .

والقيم عند الفلسفات الوجودية ، على نحو ما يمثلها سارتر ، يخلقها الانسان كل لحظة عند اختياره الحر بين ممكنات داخل موقف معين . فهى اذن لا تسبق اختياره وابداعه لها ، بل انها تفقد طبيعتها بوصفها قيمة عندما تصبح معيارا يسبق اختيار الفرد لموقف من المواقف . فهى شىء موقوت مرهون بالاختيار ، وليس ثمة قيمه سابقة تهدى الانسان فى اختياره ، بل عليه ان يخلقها كل لحظة لنفسه وللآخرين .

وعلى هذا النحو يتبين أن الموقف الفلسفى من تصور القيم موقف شامل ، واطار كلى مهما اكن من محتواه : الذاتى أو الموضوعى ، النسبى أو المطلق ، الوسيلى أو الغائى . فكل وجهات نظر الفلسفة على اختلاف تفسيراتها للقيمة ورد أصولها الى الواقع التجريبى أو عالم الفكر ، انما تشارك جميعا فى موقف له خواصه النوعية التى تميزه عن موقف العلوم الاجتماعية من حيث طبيعة الموضوع ، والمنهج ، والغاية .

فمن حيث الموضوع ، تتناول الفلسفة القيم بحيث تضعها عنصرا من عناصر نسق يفسر الوجود أو الانسان على أساس منظور كلى شامل .

ومن حيث المنهج ، لا تصوغ الفلسفة آراءها فروضا تقبل التحقق السريع المباشر ، لأن القيم تدخل عنصرا فى بناء أكبر ، ولا تثبت صحة وجهة نظر الفيلسوف الا بثبوت صحة النسق الأكبر . ولا يتيسر ذلك داخل اطار علم واحد وأدوات منهجية بعينها ، بل لابد من توافر أدلة تجريبية ونظرية تتجاوز حدود هذا العلم أو ذاك ، ويكون التحقق منها والوفاء بشروطها على مدى طويل من الزمان ، وعلى امتداد رقعة فسيحة من العلوم المتآزرة .

ومن حيث الغاية ، فان مهمة الفلسفة ليست جمع المعارف المحققة بالتجربة والبرهان ، وتنسيقها فى قوانين ونظريات كما يصنع العلم ، بل غايتها هى اسداء العون فى وضع اطار معيارى يستهديه الانسان فى مواقفه التى يتخذها ازاء واقعه دون ترقب لصحة هذه القضية أو تلك فى هذا العلم أو ذاك ، لأن الانسان فى حاجة دائمة الى الفعل والالتزام باتخاذ القرارات لا يسعفه فى ذلك انتظار ما تسفر عنه تجارب العلم .

٢ ـ القيم فى العلوم الاجتماعية

تفترق العلوم فى تناولها للقيم عن الفلسفة . فالعلوم الاجتماعية على اختلاف مجالاتها النوعية لا تقدم نسقا يشمل كل جوانب الوجود . بل يتخصص كل منها فى ميدان نوعى ، ومن ثم تختلف موضوعاتها ومنهجها وغايتها عن الفلسفة .

فموضوعها رهن بالظاهرة النوعية التى تدرسها . ومنهجها يقوم على التناول التجريبى للظاهره بحيث تطرح فروضا يؤيدها أو يفندها الواقع وفقا لشروط محددة للتحقق من الفروض وفروضها لا تشبه فروض الفلسفة الشديدة الاتساع والعمومية ، بل تصاغ بحيث يتيسر التحقق منها بصورة سريعة مباشرة ، كلما كان ذلك ممكنا ، لكى تعمد بعد اثباتها قانونا أو نظرية . لذلك كانت غاية هذه العلوم تنسيق المعارف المحققة وربطها بقوانين ونظريات تصلح أساسا ناميا لتطوير قدرة الانسان على فهم الظواهر بوصفها ، وتفسيرها ، والتنبؤ بها ، ثم التحكم فيها ، وهى فى كل هذا تتوخى دوما الدقة والضبط عن طريق تطويع الظاهرة للبحث التجريبى ، بالمعنى الواسع أو الضيق على السواء .

وقد يطيب للبعض أن يوجز الفرق بين الفلسفة والعلوم ، فى موضوع القيم ، فى التعارض

المأثور بين ما ينبغي أن يكون ، وما هو كائن . فعلى العلم الاجتماعي أن ينصرف عن التشريع المثالي للقيم وأن يقبل على دراستها كوقائع دراسة وصفية تقريرية تعمد الى التحليل والتفسير على نحو ما ذهب اليه ((ليفى بريل)) ودوركايم من قبل .

غير ان الفلسفة — كما راينا — لا تقنع بالتحدث عما ينبغي ان يكون من قيم ، لأن هذا هو ميدان العلوم المعيارية كالمنطق والأخلاق والجمال . والفلسفة ليست كلها علوما معيارية لأنها تناولت القيم أيضا بالوصف والتحليل والتفسير ، ولكن بطريقتها الخاصة التى سبق أن أشرنا اليها .

والمثال على الفرق بين الفلسفة والعلوم هو ما نراه بارزا فى علم الاقتصاد . فالاتجاه الفلسفى الطبيعى الذى يجعل من القيمة بتفسيرها الاقتصادى أساسا لتفسير الفاعلية الانسانية ، بأسرها يفترق عن علم الاقتصاد الذى يدرس القيمة بوصفها موضوعا من موضوعات النشاط الاقتصادى لا ينصرف الى سواه من ضروب النشاط الانسانى الأخرى . فهناك فرق هائل بين النظرية الماركسية كنظرية فلسفية ، وبين نظرية العمل عند آدم سميث وريكاردو ، فكلتا النظريتين تجعل من العمل أساس القيمة ، الا أن الماركسية تجعل من نظريتها فى القيمة الاقتصادية أساسا تفسر به كل صور الفاعلية الانسانية خارج ميدان الاقتصاد ، بينما يقف ((سميث)) مثلا عند تفسير النشاط الاقتصادى لا يعدوه . ويتبين ذلك من موقفه المغاير من مسائل الأخلاق والمعرفة ، فالجدير بالذكر انه كان استاذا للمنطق والأخلاق بجامعة جلاسجو القيمة فى علم الاقتصاد ، كنظرية المنفعة الجدية، قبل ان يكتب فى علم الاقتصاد .

وهناك بطبيعة الحال نظريات متباينة عن القيمة فى علم الاقتصاد ، كنظرية المنفعة الجدية ، ونفقات الانتاج ، وكلها مثل نظرية العمل تقف عند تفسير النشاط الاقتصادى لا تجاوزه .

أما القيم فى علم النفس فهى من موضوعات علم النفس الاجتماعى على الأصالة ، ويبدو انه يستعيرها من علم الاجتماع ، ولكنه يتخصص فى دراسة العمليات التى بمقتضاها يتمثل الفرد داخل هذه القيم خلال مراحل التنشئة والتكيف الاجتماعيين ، واكتسابه لها فى نطاق جماعته المرجعية الصغيرة .

أما علم الاجتماع والانثروبولوجيا الاجتماعية، فهما يحتفلان أشد الاحتفال بدراسة القيم ويفردان لها الكثير من البحوث . وهما لا يدرسان القيم على نحو ما يدرسها علم الاقتصاد أو علم النفس حيث يدرسها كل منهما وقد عزل ظواهره النوعية — وهو عزل مشروع — عن السياق الاجتماعى الشامل ، بل يعمد علم الاجتماع اليه بحثها على امتداد المجتمع بأسره ، فينفذ الى المجتمع المحلى الخاص ، كما يعقد المقارنة بين مجتمعات متعددة . وهنا تواجه علم الاجتماع مشكلة تعيين الحدود لتخصص موضوعاته . فهذا ريمون آرون عالم الاجتماع الفرنسى يثير التساؤل الذى يطرحه علم الاجتماع على نفسه . فوفقا لعبارته فى كتابه ((المجتمع الصناعى)) : ((يتساءل علم الاجتماع عن نفسه لأنه يريد أن يكون علما خاصا (أى مستقلا عن الفلسفة) كما ينشد فى الوقت عينه أن يحلل وأن يفهم مجمل الجوانب الاجتماعية . فمن التقاء هذين المقصدين احدهما بالآخر تنبعث شكوك علماء الاجتماع فى أنفسهم ، ويبرز صراع المذاهب الاجتماعية ، وتأتى أيضا فائدة التأمل الفلسفى)) .

وتعد دراسة القيم فى هذا العلم مصداقا لهذا الشك أو التساؤل . فقد دخلت القيم علم الاجتماع متأخرة ، ولم تعمد مبحثا من مباحثه الا فى هيكل الفلسفة على خلاف ما حدث فى الاقتصاد . وقد يتبين هذا فى تصريح دور كايم بأن ((تقدم نظرية القيم أخيرا انما يرد الى اقامة عمومية ووحدة ذلك المفهوم)) . ويعنى هذا بعبارة أخرى اعتماد هذا التقدم على البحث الفلسفى للقيم لأنه وحده الذى يحق له بمقتضى اتساع موضوعاته وشمولها أن يثبت هذه العمومية وتلك الوحدة . بل ان محاضرة دوركايم عن ((أحكام القيمة وأحكام الواقع)) انما تعد بحثا فلسفيا خالصا لأنها كانت محاولة لتأييد وجهة نظر خاصة فى مقابل وجهات نظر فلسفية أخرى ، غير أنها كانت فى الوقت نفسه استباقا لما ينبغى أن تجرى عليه بحوث علم الاجتماع فى دراستها للقيم . .

ولعل ((فركمايستر)) قد أوضح ذلك التزاوج بين الفلسفة وعلم الاجتماع فى دراسته للقيم ، عندما حدد معنيين لمشكلة القيم فى علم الاجتماع . يقوم الأول طالما كان التقويم أو

الالتزام بالقيم جزءا من الوقائع التي يدرسها عالم الاجتماع . ويتعين الثاني كمسألة تخص المقولات أو الفئات التفسيرية التي تحتاجهـــا العلوم الاجتماعية ، والمعنى الأول ليس في حاجة الى مزيد من الايضاح ، فالكائنات البشرية مخلوقات ساعية الى غايات تقدر وتقوم هذه الغايات على نحو فردي او اجتماعي . وهـــذا التقويم له أصوله ونشأته وتغيراته وتعدد علاقاته المتداخلة، وعلى هذا فدراسة القيم كوقائع وموضـوعات لعالم الاجتماع لا تثير اية مشكلة منهجية . أما المعنى الثاني وهو القيم بوصفها مقولات أو فئات تفسيرية ، أو معان كلية ، ففيه تقوم بوظيفة هامه هي التي تتجسد في الألفاظ والمصطلحات القيمية التي تفهم بمقتضاها الظواهر الاجتماعية ، فهي وحدها في نظر ((فركمايستر)) التي تقدم الأساس العقلي لفهم بنية المجتمع وثقافته .

ويبدي ((فركمايستر)) تحفظا على هـــذا المعنى ، وهو أن استخدام العالم الاجتمـــاعي للمصطلحات القيمية كمقولات أو فئات تفسيرية لا يعني أنها تعبير عن تقويماته وانحيازاته وميوله الخاصة ، بل ينبغي أن تكون تفسيرا للالتزامات القيمية الرئيسية الباطنة في الظواهر الاجتماعية نفسها . وينبغي أن يكون الكشف عنها عن طريق أشد ضروب الفحص والاختبار دقة وشجاعة ، وعلى أساس من تحليل الوقائع ذاتها .

وهذا هو ((هوارد بيكر)) . عالم الاجتماع والانثروبولوجيا، يقيم نظريته في التفسير الاجتماعي على القيم ابتداء وأساسا . فهو يقول : ((اذا كان على علم الاجتماع بأن يضطلع بمهمة هداية اختيار البشر لغاياتهم ووسائلهم معا ، فعليه أن يجلو دور القيم وأتساقها في السلوك الانساني)). ويقول بيكر ان العبارة القـــائلة بأن ((لا مكان لاحكام القيمة في علم الاجتماع ، انما هي نفسها أحد أحكام القيمة . فالانسان لا يكمن دراسته بوصفه كائنا بشريا فعالا في نطاق مجتمع الا اذا عرفنا قيمه . ولا بد من وضع قيمـــه تلك في صورة منتظمة مرتبة ، ومصنفة في نمط موحد يمكننا من التنبؤ بالسلوك الانساني والتحكم فيه كفاية عملية . فالانسان على حد تعبيره ((مقوم أصيل)) . والسلوك الانساني هو دائما سلوك معياري .

والى هنا لا تكاد نلمس فرقا بين عـــالم الاجتماع والفيلسوف ، غير أن الفـــرق يتضح عندما يصوغ علماء الاجتماع آراءهم ــ التي قد تنتمي الى مجال الفلسفة ــ في فروض تقبل التحقق يطبقونها على المجتمعات التي يتنقلونها ميدانا للبحث .

فالفارق اذن بين الفلسفة والاجتمـــاع هو ما يصنعه رجل العلم في صوغه لما يمكن أن يسمى ((بالموقف التجريبي)) . ويستلزم هذا بدوره منذ البداية أن يختلف موضوع العلم عن موضوع الفلسفة ، بمعنى أن يعين رجل العلم موضوعه بحيث يشير الى جزء أو جانب من الواقع يمكن أن يطوعه لتحديدات الزمان والمكان ومتطلبات التكميم ، على خلاف ما تصنعه الفلسفة عندما تجول حرة طليقة من أبعاد الزمان والمكان تحلق هنا وهناك باحثة عما يؤيد وجهة نظرها العامة .

أما ((الموقف التجريبي)) فهو ضرورة منهجية يسعى اليها رجل العلم وفاء لشرط الموضوعية ، لأنه في حاجة الى التحقق من فرضه . والفرض لا يتحقق الا بنتـــائجه التجريبية ــ أو قل الواقعية ــ المقيدة بمكان وزمان معينين في وسع الباحث أن يستوعبهما بحواســـه وأدواته . والفرض ليس مجرد مقدمة منطقية تستنبط منها نتائجها ــ كما يفعل الفلاســـفة في أكثر الأحيان ــ بل هو لون من الحاول التي يصوغها الباحث حلا لاشكال تختبر صلاحيته في موقف واقعي . والا عدل عنه الى آخر . وهنـــا على الباحث أن يحدد منذ البداية أدواته التي لابد أن يتزود بها في مواجهته الواقع الواسع المبعثر . وعليه حينئذ أن يختار أو يهيىء معطياته الملائمة، ويؤلف ويرتب وقائعـــه التي يمكن أن ينظمهـــا عقدا متسقا مع فرضه هذا فضلا عن مفهوماته التي يعطيها دلالات اجرائية ، أى مترجمة الى خطوات منهجية محسوبة يمكن أن يؤديها غيره ، وبحيث يستطيع أن يعزل ما يريد عزله ، ويجمع شتات ما يراه معززا لفرضـــه كلما كان ذلك متيسرا .

فيبدأ الموقف التجريبي اذن من تحـــديد المشكلة وتعيين عناصرها في اطار الواقع المتاح ، وقد تكون مثلا علاقة القيم بالتغير الاجتماعي ، أو صلة القيم بظاهرة أو نظام ما ، ثم يضـــيف اليها مادته العلمية ، وهي هنا :

١ ــ اطاره التصوري ومفهوماته وفروضه، وهنا تدخل الفلسفة شريكا ظاهرا أو خفيا .

٢ - اجراءاته وأدواته المنهجية . وبعدها يوجه هذه المادة بشقيها النظرى والمنهجي الى ما اختاره أو اصطنعه ، بحسب امكانياته التجريبية أو الواقعية ، من معطيات ووقائع ليست كما قد يتبادر الى الأذهان تقبع جاهزة فى انتظاره ، بل هو يفرزها فرزا ويعزلها عزلا عن عمد واختيار فى أغلب الأحيان .

فاذا ما أتيح لعالم الاجتماع أن يجعل من موقفه التجريبيعناصر متسقة مع فروضه بحيث يغدو الموقف فى نهاية الأمر محلول الاشكال ، بمعنى انطباق فروض الباحث على الواقع ، يكون قد أفلح فى بحثه . واذا وجد موقعه مختل العناصر وجب عليه أن يعدل الى فروض وطرق أخرى .

وليس من المتعذر أن نصادف هذه الصورة كثيرا فى العلوم الاجتماعية . فهناك على سبيل المثال البحث الذى قامت به مجموعة من الباحثين فى أمريكا أبرزهم فلورنس كلوكهون عما أسموه : ((التنوعات في التوجيهات القيمية)) واختاروا لتطبيق فروضهم خمسة مجتمعات محلية فى منطقة الريمروك فى جنوب غرب الولايات المتحدة . فهم يبدأون بصياغة مادتهم النظرية ، فيعرفون التوجيهات القيمية على النحو الذى يستخرجون منه من بعد فروضهم وتوقعاتهم التجريبية اذا ما نزلوا الى واقع معين مختار . فالتوجيهات القيمية فى نظرهم هى : ((مبادىء منتظمة فى نماذج تتسلسل في الرتبة ، ناتجة عن التفاعل بين عناصر عملية التقويم الثلاثة : المعرفية والوجدانية والنزوعية ، وهى التى تهيىء الترتيب والاتجاه فى المجرى المتدفق دوما للافعال والافكار الانسانية التى تتعلق بحل المشكلات الانسانية المشتركة العامة)) . ثم يصادر الباحثون بوضع بعض الدعاوى ، تحديدا وتصنيفا لهذه التنوعات التى تندرج تحتها التوجيهات القيمية : فهناك عدد محدود من المشكلات الانسانية التى لابد أن يجد لها البشر فى كل الأزمان صيغا معينة . ومتى توجد تلك الصيغ ، فهى ليست بلا حدود ، وليست عشوائية ، بل هى تنوعات فى نطاق مجال محدود من الحلول الممكنة . كما توجد دائما بدائل متنوعة للحلول المتكررة فى كل الثقافات وفى كل الأزمان ، ولكنها تتلقى باختلاف المجتمعات والثقافات ، درجات متفاوتة من التوكيد .

وهناك خمسة مشكلات مشتركة عامة تبعث على تلك الحلول وهى : ما تعلق منها بطبيعة الانسان ، وعلاقته بطبيعة وما فوق الطبيعة ، ومكانته من جريان الزمان ، وحالات الفاعلية الانسانية ، وعلاقة الانسان برفاقه من البشر .

ثم يواصل الباحثون صقل مادتهم النظرية ، فيقسمون كلا من تلك التوجيهات المتعلقة بهذه المشكلات الى ثلاثة جوانب ، كانقسام التوجيه القيمى عن ((الانسان - الطبيعة)) الى السيادة عليها والخضوع لها والتوافق معها ، وانقسام التوجيه القيمى عن ((الزمان)) الى ماض وحاضر ومستقبل ، وهكذا فى سائر التوجيهات . كما يفرقون في التوجيهات القيمية بين ما هو سائد وما هو متفاوت ، ومن الأخير ما هو مطلوب ، وما هو مسموح به ، الى آخر مثل هذه الفروق .

ويمضون فى تصنيف مادتهم النظرية ، فيعزلون بين نمطين رئيسيين من ((التمايز المجتمعى)) يستعان به فى كل المجتمعات ، وهما : التمايز الخاص بالجماعات الفرعية من النوع الذى نجده فى الوحدات الاجتماعية الاقليمية ، والعنصرية ، والطبقية وغيرها . والثانى هو ما يسميه الباحثون تمايز ((المجال السلوكى)) ، وهو ما تعلق بالفئات الواسعة للأنشطة الاجتماعية اللازمة لانتظام المجتمع فى أداء وظائفه . ووجه الباحثون عنايتهم الى المجالات السلوكية الاقتصادية والدينية والعقلية والجمالية والترويحية ، فضلا عن المجالات السياسية من النشاط وعلاقتها بسائر المجالات . وافترض الباحثون أن تبرز فى المقارنة بين الثقافات اختلاف تمايزات الجماعات الفرعية من حيث النمط والمقدار ، واختلاف درجة التمايز فى المجالات السلوكية بصورة واسعة من مجتمع الى آخر .

وهكذا يعمد الباحثون الى مواصلة تسجيل توقعاتهم التجريبية المرتبة على فروضهم تلك بحيث يشيرون الى أمثلة من الواقع الذى اختاروه ميدانا تجريبيا للدراسة . وعلى هذا النحو وقع اختيارهم على خمسة مجتمعات خاصة ، فى منطقة الريموك ، اثنتان منها هنديان - أمريكيان ، وواحد أمريكى - اسبانى ، وواحد من قرية المورمون ، والأخير مستوطنون قدموا الى المنطقة من تكساس وأوكلاهوما فى بداية

الثلاثينات من هذا القرن . واختيرت عينة ممثلة من تلك المجتمعات ، وطبقت على أفرادها استمارات مقابلة Schedules مؤلفة من خمسة وعشرين بندا وزعت على امتداد الاستمارة بصورة متكافئة بحيث تغطى أسئلتها توجيهات القيمة الخاصعة للدراسة . ثم عولجت معطيات الاستمارات بالأساليب الاحصائية لاستخراج التعميمات التجريبية ، والنتائج النظرية العامة التى أفضى اليها البحث .

ولا يعنينا هنا بطبيعة الحال أن نناقش اجراءاتهم التى اصطنعوها ، ونتائجهم التى بلغوها ومدى نجاحهم أو اخفاقهم فى مواجهة ((الموقف التجريبى)) الذى انتظم بحثهم . فما يهمنا بالدرجة الأولى هو ابراز أوجه الافتراق أو الالتقاء بين الفلسفة والعلم فى تناول القيم .

فرغم مالاحظه في المثال السابق من امعان فى التجريد النظرى وتوسع الفروض فى احاطتها لمسائل شديدة العمومية ، مما يبعث على الشك فى انتمائها الى العلم بأكثر من انتمائها للفلسفة على الرغم من ذلك ، فان الباحثين فى هذه العلوم لا يقفون عند ذلك التجريد ، بل يترجمون مكوناته الى عناصر وأمثلة واقعية يتجهون اليها بأدواتهم المنهجية . فالفرق اذن بين العلم والفلسفة هو الاحالة المباشرة الى معطيات الواقع ، بمعنى أن هناك على الأقل امكان الترجمة الى اجراءات للتحقق من صحة الفروض التى تنطوى عليها النظرية الاجتماعية . ومع هذا فثمة عنصر فلسفى يكمن دائما فى النظرية الاجتماعية قد يصرح به عالم الاجتماع أو لا يصرح ، ما دام على علم الاجتماع ان يحيط بمجمل الجوانب الاجتماعية كما يقول ((آرون)) . والعلوم الاجتماعية كما يقول ((كدروف)) ينبغى عليها أن تتعلم من الفلسفة كيف تتناول أشد الموضوعات عمومية ، وأكثرها أهمية ، فهى تقدم مثلا لدراسة تلك الموضوعات . وعلاقة الفلسفة بكل من العلوم الاجتماعية هى علاقة العام بالنوعى ، والخاص ، والفردى . ولكن على شريطة الا تبالغ العلوم الاجتماعية فى صلتها بالفلسفة فتسقط فريسة لنزعات التبرير ، كما لا ينبغى أن تبالغ فى عزلتها عن الفلسفة فتستهويها مطالب الدقة والضبط التى قد تشلها عن مجاوزة التفصيلات التافهة الى التجريد النظرى المشروع .

وتتحدد صلة الفلسفة بالعلوم الاجتماعية على مستويين ، الأول منهجى حيث تبرز الفلسفة الافتراضات والمزاعم المسبقة التى تتوارى خلف صوغ رجل العلم لمفهوماته ومصادراته ، كما تخدم الباحث العلمى فى صقل أدواته المنهجية وصون اتساق بنائها المنطقى . والمستوى الثانى نظرى حيث قد تزود العلوم الاجتماعية بالمشكلات التى ينبغى أن تتصدى لها بالبحث ، أو قد تقدم لها تصنيف ناجحا تعرضه على محطات التجريب مثلما أفاد اختبار ألبورت وفرنون فى علم النفس من تصنيف شبرانجر للقيم .

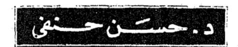
بيد أن ذلك لا يعنى أن الفلسفة وصية على العلوم أو انها بمثابة تاجر بالجملة يزود العلوم بموضوعاتها ، بل هى تعيد دائما من العلم ومن كل خطوات تطوره فى تعديل آرائها وفروضها الواسعة ، ولكنها قد تسبقه أحيانا الى صوغ فروض لا تتمكن أدوات العلم في هذه المرحلة أو تلك من أن تؤيدها أو تفندها . ولا يهمنا هنا ما تزعمه الفلسفة من أسماء وألقاب تخلعها على هذه الفروض وعدم الاعتراف بها فروضا لم تتحقق بعد ، فحسب الانسان أن يكون فى حاجة اليها اليوم ، وليكشف المستقبل عن صدقها أو كذبها .

ويبدو أن الفلاسفة يستحون من تسمية آرائهم فروضا لأنهم يطلقون عليها اسم نظريات ومذاهب وأيديولوجيات . وقد يستسلمون أحيانا لاغراء هوى يحملهم على اضفاء صفتى الضرورة والاطلاق على بعض التعميمات التجريبية ، مثل بقاء الطاقة أو التطور البيولوجى أو توهم بعض المفهومات والدالات العلمية كيانات ثابتة ، وجواهر وأشياء كما هو الحال فى الطاقة والكتلة ، وهذا من شأنه أن يقلل من الثقة فى متانة نسيجها الفرضى الذى يحتضن منجزات العلم والثقافة التى بلغها هذا العصر أو ذاك ، وينظمها فى نسق يستبق به أحيانا تطور العلوم .

ومهما يكن من أمر ، فعندما يتم لعلم أو لبضعة علوم معا أن تتحقق من صدق فرض فلسفى فانه ما يلبث أن يضاف الى رصيد العلم ، ويخرج من الفلسفة . ولكن يظل للفلسفة وظيفتها الخاصة عندما تضم ما حققته العلوم المختلفة فى اطار معيارى واحد ونظرة كلية شاملة .

صلاح قنصوة

الظاهريات وأزمة العلوم الأوربية



اذا كان القرن التاسع عشر هو عصر انتصار العلوم الطبيعية ، منهجا وتطبيقا وأثرا ، حتى أنه ليؤرخ للحضارة الأوروبية به ، بعد أن استقر فيه المنهج التجريبى ، وأثبت خصبه وجديته ، وبعد أن تمت تطبيقاته فى العلوم ، وحدث الانقلاب الصناعى ، أى الثورة التكنولوجية الأولى ، وأصبح التقدم يقاس بالسنين لا بالقرون ـ اذا كان القرن التاسع عشر كذلك فانه يمكن أن يقال : **ان القرن العشرين هو بدء أزمة العلوم الانسانية بل وبدء أزمة الضمير الأوروبى نفسه ،** اذ كان بمثابة مرآة عكست انتصارات القرن السابق وصورتها بوصفها عقبات وخيمة تهدد كيان العلم ، وتنذر الحضارة الأوروبية بالخطر ، حتى لقد تنبأ البعض لها بالفناء من أمثال **نيتشة** وانتهائه الى العدمية ، **وشبنجلر** وتأكيده لانهيار الغرب . ولكن المحاولة العلمية الجادة فى هذا الموضوع هى تلك المحاولة التى قام بها **ادموند هوسرل** فى آخر حياته (١٨٥٩ ـ ١٩٣٨) كآخر صيحة له بعد أن أسس الفينومينولوجيا ، واطمأن الى أنه عثر فى النهاية على هذا العلم الشامل الذى طالما راود الفلاسفة الأوروبيين ، والذى جعلته الحضارة الأوروبية مطلبا لها وغاية ، هذه هى المحاولة التى سطرها فى كتابه الضخم « **أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية** » .

اولا ـ بوادر الأزمة :

١ ـ ظل المثل الأعلى للمنهج العلمى حتى أواخر القرن التاسع عشر هو منهج العلوم الطبيعية الذى يعد بالفعل أهم مكاسب الحضارة الأوروبية منذ عصر النهضة ان لم يكن أهمها على الاطلاق ، والذى أصبح نموذجا لكل فكر يريد أن يصبح

علما ، واستطاعت العقلية الأوروبية بفضله القضاء على كثير من النظرات الذاتية ووجهات النظر والأبنية الأسطورية والميتافيزيقية . **أصبح منهج العلوم الطبيعية شرط اليقين ، والضامن للموضوعية ، والكفيل بتقدم العلم** ، وأثبت تاريخ العلم حتى هذا العصر صدقه ، أصبح المعمل هو بدء العصر فيه تقاس الظواهر ، ويكتشف القانون فى تجربة معملية ، صورة مصغرة لما يحدث فى الطبيعة الخارجية التى أمكن السيطرة عليها والتنبؤ بأحداثها بفضل الجهد الانسانى فى اكتشاف القوانين العلمية ، واختراع أجهزة الضبط والقياس، **كان لابد من تحويل كل ظاهرة فى الخارج الى ظاهرة معملية اى الى ظاهرة حسية كمية تخضع للقياس** ، ويمكن الوصول فيها الى قانونها الموضوعى الذى يحكمها .

وكانت العلوم الانسانية فى هذا الوقت مازالت فى نطاق النظريات الفلسفية العقلية والحدسية التى تخضع لأهواء الفلاسفة ولمزاجهم الشخصى ، أو التى هى نتاج لظروف العصر وأحداثه ، أو التى هى خليط من العلم والأسطورة ، والتى تصل فيها البساطة الى حد السذاجة ، أو التى هى صدى لبعض المعتقدات الموروثة والشعبية أو الدينية . كان علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق صدى لروح الفيلسوف ونزعته المثالية التى كانت فى الغالب صدى لايمان دينى مستنير ، كان الانسان من طبقة ، والطبيعة من طبقة أخرى ، ولما كان الانسان أشرف ما فى الكون فكيف كان يمكن أن يقاس بمقياس العلوم الطبيعية التى تدرس الأشياء الاقل كمالا ؟

لذلك سارع علماء النفس والاجتماع والأخلاق وغيرها من العلوم الانسانية بتبنى هذا المثل الرائع الذى أعطته العلوم الطبيعية بمنهجها التجريبى ، **وحولت الظاهرة النفسية الى ظاهرة معملية فنشأ علم النفس التجريبى** ، وخرج من معامل الفزيولوجيا لأول مرة على يد **فونت** ، وسار فى الطريق **كوندياك** وآخرون حتى **شاركو** وفى علم الاجتماع نشأت المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى وضع أسسها **أوجست كونت** ، وسار بعده فى نفس الطريق **دوركايم و ليفى بريل . فاعتبر دور كايم الظاهرة الاجتماعية شيئا يخضع للكم والقياس ، واعتبر ليفى بريل تحليل العقل جزءا من علم الاجتماع** أو علم الانسان أو علم الوراثة أو البيولوجيا ، وكان أوجست كونت قد وضع من قبل **قانون الحالات الثلاث** لفلسفة فى التاريخ ترى أن العصر الحاضر هو عصر العلم والتجريب بعد أن قضى على العصر الميتافيزيقى والدينى الى غير رجعة . **وفى علم الأخلاق حول ليفى بريل هذا العلم المعيارى القديم الى دراسة للعادات وجعله فرعا من علم الاجتماع .**

ولقد تقدمت العلوم الانسانية بعد تبنيها منهج العلوم الطبيعية ، واستطاعت أن تتخلى أيضا عن النظرات الفلسفية الذاتية والجوانب الأسطورية فيها . ولكن بعد ذلك ، وفى أوائل القرن العشرين ، بدأت الأزمة فى الظهور . لقد تكشف للبعض من أمثال هوسرل وبرجسون وبعد ذلك مونييه وميرلو بونتى وجيرفتش **- ان الظاهرة الانسانية ليست كالظاهرة الطبيعية ، وانها من نوعية مخالفة ، وأن الظاهرة النفسية مختلفة عن الظاهرة الفيزيقية وأن الظاهرة الاجتماعية ليست شيئا ملموسا يقاس كما . اذا كانت الظاهرة الطبيعية كما فالظاهرة الانسانية كيف ، واذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن قياسها فالظاهرة الانسانية تند عن القياس ، اذا كانت الظاهرة الطبيعية يمكن التنبؤ بمجراها ووقوعها اذا علمنا قانونها وسيطرنا عليها فالظاهرة الانسانية تند عن القانون وتتميز بحرية باطنة فيها لا يمكن التنبؤ بمجراها ووقت وقوعها أو باشكالها المستقبلة ، اذا كانت الظاهرة الطبيعية موضوعا فان الظاهرة الانسانية أقرب الى الذات ، فالانسان ذات وليس موضوعا** وهو ما عناه الوجوديون بعد ذلك بلفظ التعالى .

٢ - ومن ناحية أخرى ، رأى البعض أن **نموذج اليقين فى العلم هو المنهج الرياضى** أى اتساق الفكر مع نفسه لا تطابقه مع الواقع كما هو الحال فى المنهج التجريبى ، بل ان العلوم الرياضية تعد أقوى يقينا من العلوم الطبيعية لأن معدل التغير فى الأولى أقل بكثير من نسبة الخطأ فى الثانية . بل ان العلوم الطبيعية نفسها تتخذ اليقين الرياضى نموذجا لها فى الموضوعية والشمول ، وبالتالى فعلى العلوم الانسانية ان ارادت أن تصير علوما مضبوطة **أن تاخذ العلوم الرياضية نموذجا لها ، فهى الأصل فى البحث عن اليقين** ، وأن تتبنى **المنهج الصورى** ، خاصة وأن أزمة العلوم الانسانية التى تبنت المنهج التجريبى أخذت فى الظهور ، ولم يكن هناك مفر من الرجوع الى الأصل فى العلوم الرياضية . **ومن ثم اخذت العلوم الانسانية تنموا نموا رياضيا** ، وتتبنى المناهج

الاحصائية ، واصبحت الظواهر كلها طبيعية أم رياضية أم انسانية مجرد معادلات ورموز ، وأصبح اليقين كله فى الوصول الى نظرية شاملة تشابه **نظرية الكثرة** أو **نظرية المجموعات** فى الرياضة البحتة ، وأصبح نموذج العلم هو **الرياضة الشاملة** التى حاول **ليبنتز** من قبل وضع أسسها ، والتى يعتبرها هوسرل المشروع الأوروبى لاقامة نظرية فى العلم مرادفة للبحث عن الحقيقة وبديلا للحقيقة نفسها ، وكما كان خلاص العلوم الانسانية من قبل على يد **بيكون ومل** فان خلاصها الآن يتم على يد **كانتور و ديدكند وريمان وبولزانو** .

ولكن حدثت أزمة ثانية . ففى هذه المرة أيضا **ندت الظاهرة الانسانية عن التحليل الرياضى ، وظهرت نوعيتها المستقلة ولم يعد فى الامكان تحليلها على أنها مجرد مجموعة من التصورات الرياضية أو المفاهيم المنطقية . الظاهرة الانسانية ظاهرة حية والرياضية علم صورى محض ولا يمكن دراسة الحياة بمنهج موضوعى فارغ من كل مضمون** . وقد أدى ذلك على مايقول هوسرل الى فقد **عالم الحياة** فى العلوم الانسانية ، **وأصبحت أزمة العلوم الانسانية فى جوهرها أزمة للشعور الأوروبى نفسه بفقده التجربة الحية التى هى مصدر العلم ومادته** .

وعلى مشارف هاتين الأزمتين الأولى والثانية بدات الفينومينولوجيا فى البحث عن منهج خاص للعلوم الانسانية يحفظ نوعية الظاهرة ويميزها عن الظاهرة الطبيعية والظاهرة الرياضية وبالتالى يشق طريقا ثالثا وهو ما سماه بالفينومينولوجيا .

ثانيا ـ نشأة الفينومينولوجيا من خلال الأزمة :

لم تنشأ الفينومينولوجيا مرة واحدة والى الأبد بل **خرجت من أزمة العلوم الانسانية** خاصة المنطق والرياضة ـ تجاوزا ـ وعلم النفس والفلسفة . فقد ظلت الفينومينولوجيا حتى سنة ١٩٠١ تقريبا أى حتى كتاب « **بحوث منطقية** » لهوسرل مجرد دراسات فى الرياضة والمنطق وعلم النفس لم تكتمل الا فى سنة ١٩١٣ بظهور الجزء الأول من « **الأفكار** » وظهور الجزء الثانى والثالث سنة ١٩٢٤/٢٥ ، ثم تأتى المرحلة الثالثة التى تحولت الفينومينولوجيا الى العلوم الانسانية من جديد تثبت أصالة منهجها فى التطبيق فى المنطق وعلم النفس والفلسفة والأخلاق والحضارة ، وهى مرحلة « **علم النفس الفينومينولوجى** » سنة ١٩٢٥ ، « **المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى** » سنة ١٩٢٩ ، « **التجربة والحكم** » الذى ظهر قبيل وفاته بقليل سنة ١٩٣٨- ثم مؤلفاته فى تاريخ الفلسفة « **الفلسفة الأولى** » بجزئيها سنة ١٩٢٣/٢٤ ، « **تاملات ديكارتية** » سنة ١٩٢٩ ، وأخيرا « **أزمة العلوم الأوروبية** » سنة ١٩٣٥/٣٦ .

١ ـ بدأ هوسرل فكره بالدخول فى المعارك الدائرة فى فيينا حول طبيعة الرياضة وماهيتها وشارك فى حل المسائل المعروضة وقدم حلوله فى رسالتيه للدكتوراه الأولى « **مساهمة فى حساب المتغيرات** » **فى فيينا** سنة ١٨٨٢ (وهو ما زال مخطوطا حتى الآن) والثانية عن « **مفهوم العدد** » فى هاله سنة ١٨٨٧ ، ثم فى عمله الفلسفى الأول « **فلسفة الحساب** » الذى نشر الجزء الأول منه فى هاله سنة ١٨٩١ والذى حاول فيه **رد التصورات والمفاهيم الرياضية الى أسسها النفسية** ، معارضا بذلك جميع الاتجاهات الرياضية التى تحاول رد هذه المفاهيم الى أسس صورية محضة ، **أى** أن هوسرل كان أولا من أنصار الاتجاه النفسى فى المنطق والرياضة وهو الاتجاه الذى رفضه بعد ذلك فى الجزء الأول من « **بحوث منطقية** » . وقد تناول هوسرل فى هذه الفترة مشاكل الكل والجزء قبل أن يعالجها فى المنطق ، كما عرض لمشكلة الصفات الحسية لوحدة ما قبل أن يعرض لها فى الفينومينولوجيا ، كما دخلت كثير من المفاهيم الرياضية واستقرت فى الفينومينولوجيا مثل الكميات الخيالية ، المضمون الأولى ، العدد ، الحكم . وكذلك ظلت كثير من التمييزات بين المستويات المختلفة مثل التمييز بين الوصف النفسى للظواهر وبين تحليل المعانى ، أو بين المضمون النفسى والمضمون المنطقى .. الخ . أى أن هوسرل فى هذه الفترة أراد حل أزمة الرياضة بارجاعها الى علم النفس وكان ذلك مقدمة لاكتشاف البعد الشعورى فيما بعد .

٢ ـ ثم دخل هوسرل معركة ثانية شبيهة بالأولى ولكن فى هذه المرة لتحديد الصلة بين المنطق وعلم النفس فقد كتب هوسرل قبل « بحوث منطقية » عدة مقالات عن « **حساب التتابع** » و « **منطق المضمون** » ، وعن « **جبر المنطق** » ، وكذلك « **دراسات نفسية عن المنطق الأولى** » ، وأيضا « **الصراع بين النفسيين والصوريين فى المنطق الحديث** » كما كتب عدة بحوث عن تاريخ المنطق ، ولكن هذه المحاولات الجزئية كلها انصبت أخيرا **فى** عمله الضخم « **بحوث منطقية** » بأجزائه الثلاثة ، الذى صدر سنة ١٩٠١/١٩٠٢ يهاجم فى الجزء الأول منه « **مقدمة فى المنطق الخالص** » الاتجاه النفسى فى المنطق ، ويقدم فى الجزئين التاليين بحوثا ستة ينتهى منها فى المبحث السادس من المنطق الى الفينومينولوجيا . أى أن هوسرل قد غير اتجاهه الأول النفسى فى « **فلسفة الحساب** » ووقف موقف المعارضة منه واعتبره **اتجاها ماديا** ، نسبيا ، أنثربولوجيا (اردمان ، سيجوارت) ، تطوريا (فرارو) ووقوعا فى الشك وانكار لقوانين الفكر . لقد اعتبر الاتجاه النفسى فى المنطق قوانين الفكر مثل قانون التناقض وقانون الهوية قوانين طبيعية أو وظيفية دون أن يكون لها أى أساس فكرى أو منطقى ، بل مجرد بعض الصور التركيبية للفكر . ولقد أراد المنطق الانثربولوجى الوصول الى الموضوعية ولكنه انتهى الى الخلط بين المثالى والواقعى ، بين أساس الحقيقة وأساس الحكم ، **بين** حقيقة العقل وحقيقة **الواقعة** .

٣ ـ وقد حلل هوسرل مرات عديدة المنطق الرياضى عند

بولزانو Bolzano (١٧٨١–١٨٤٨) فى **نظرية العلم** « كما ناقش « **نظرية الفكر** » عند **ميمل** Memmel ، هذا المنطق لم يستطع بعد أن يشق طريق الفينومينولوجيا لأنه لم يستطع البحث عن الماهية بالحدس القبلى واقامة الفلسفة وعلم النفس على **معرفة** الماهية • ان غياب « **حدس الماهيات** » فى **المنطق** الرياضى جعله مجرد منطق خالص للتمثلات كما هو الحال فى **علم النفس** ، أو جعله صوريا خالصا كما هو الحال فى الرياضة • لقد خلط المنطق الرياضى بين المنطق والرياضة صحيح أنه قدم لنا نظرية جديدة فى نقد العقل ، ولكنه لم يعطنا تقييما لها ، لذلك أتت الفينومينولوجيا لتطوير هذه النظرية وبيان امكانياتها ، وتوضيح ماغمض منها واكمال ما نقص فيها ونقلها من المستوى الرياضى والمنطقى الى المستوى الفينومنولوجى ، **ان التحليل النظرى للتصورات** خطوة حاسمة نحو الفينومينولوجيا ولكن المنطق الرياضى من حيث هو « **نظرية فى العلم** » نظرية رياضية ينقصها نظرية فى المعرفة ونظرية فى المنطق ، **ولقد أتت الفينومينولوجيا وقامت بدور حاسم فى تطوير المنطق الرياضى ونقله من علم للصور المنطقية الى علم للانطولوجيا الصورية العامة** •

وقد تناول هوسرل أيضا المنطق الفلسفى عند **لوتزه** Lotze (١٨١٧ – ١٨٨١) بالتحليل وبين أن الحس الجذرى بالمبادىء ينقصه ، اذ أنه لم يستطع النفاذ الى الأسس النظرية للأفكار ولم يستطع توضيح المشكلات المتشعبة منه • لقد كان جل همه محاولة التوفيق بين الذهن والعاطفة دون القيام ببحث جذرى حاسم فى الموضوع • لم يستطع لوتزه فى تفسيره الرائع لنظرية المثل أن يستخلص كل امكانياتها ، وظلت نظرية المعرفة لديه مليئة بالتناقض ، ولم تتجاوز الفينومينولوجيا على يديه اقامة بعض العلاقات القبلية بين المضامين الحسية دون أن يعرف التصور الحقيقى لحدس الماهيات ، أو مقياسا مطلقا للحقيقة ، لذلك ظل تصوره القبلى لا قيمة له ، **وقد استطاعت الفينومينولوجيا وحدها اعطاء نظرية عامة للشعور من حيث هو مضمون وبناء للأشياء** •

وهكذا من مشاكل الصلة بين المنطق والرياضة وعلم النفس بدأت الفينومينولوجيا شق طريقها الخاص •

٤ – ولما كانت الفينومينولوجيا تشق طريقها نحو الشعور تقابلت مع « **فلسفة الحياة** أو **فلسفة تصورات العالم عند دلتاى** (١٨٣٣ – ١٩١١) التى كانت تحاول قبلها حل أزمة العلوم الانسانية ، فاعتبرت ميدانها **عالم الحياة** ، وهو العالم الذى نظرته الفينومينولوجيا ، كما فرقت **بين علوم الانسان وعلوم الطبيعة** وهى التفرقة التى سماها هوسرل فيما بعد بالتفرقة بين **علوم الماهيات وعلوم الوقائع** • ولكن هوسرل رفض هذه الفلسفة بعد ذلك واعتبر أنها لم تتجاوز **المذهب التاريخى** ، وأنها كانت أسيرة « روح العصر » الذى تصور هيجل أن الفلسفة تعبر عنه ، وبالتالى فهى مازالت مشوبة بالوقائع المادية ولم تصل بعد الى « علم الماهيات » • • انها مازالت علما نسبيا ولم تتخلص بعد من الشك فى الحصول على المطلق الدائم ، وقد انتهت أخيرا الى الوقوع فى **الاتجاه** الطبيعى وأصبحت اتجاها نسبيا • صحيح أنها حاولت وضع نقد للعقل التاريخى ، هذا العقل الذى أهمله كانط **وفى نفس** الوقت وضع أسس لعلم نفس جديد خالص مناهض لعلم النفس الطبيعى ، ولكنها لم تستطع أن تقيم نظرية علمية محكمة وأن تضيع المشاكل وأن تحلها **بطريقة منهجية** ، ينقصها اذن التنظير العقلى المجرد للتجربة الباطنية ، كما ينقصها التحليل المنطقى والرياضى • لقد التجأت **فلسفة** الحياة الى الحدس العيانى ولكنها ظلت أسيرة الجزئى والفردى دون أن تضعه فى علم رياضى شامل وموضوعى • لقد اعتنت فلسفة الحياة بالتطور والارتقاء أكثر مما اعتنت بالبناء فجاءت الفينومينولوجيا لتعتنى بالبناء أكثر مما تعنى بالتطور • وبهذا المعنى **تصبح الفلسفة علما محكما** كما يقول هوسرل فى مقاله المشهور الذى يعد فاتحة للعلم الجديد « **الفلسفة بوصفها علما محكما** » سنة ١٩١١ ، أى علما نظريا خالصا تخلص من **الاتجاه** الطبيعى السائد فى المذاهب التجريبية المتعلقة بعلوم الانسان أو من الاتجاه النسبى الشكى السائد فى فلسفة تصورات العالم ، وتصبح الفينومينولوجيا مرادفة لهذا العلم المحكم الباحث عن المطلق •

٥ – كما عرض هوسرل ، قبل اعلان محاولته لحل أزمة العلوم الانسانية **لبرنتانو** (١٨٣٨ – ١٩١٧) الذى حاول من قبل وضع أسس **العلم النفس الوضعى** يفرق فيه بين القاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية حتى يحل أزمة علم النفس التجريبى ويقضى على سيادة الاتجاه الطبيعى فى العلوم الانسانية كما فعل هوسرل بعد • لقد وصف برنتانو لأول مرة بناء الشعور على أنه **قصد متبادل** ، وفتح بذلك آفاقا جديدة فى علم النفس خاصة فى ميدان العواطف والرغبات ، حتى أن **الفينومنيولوجيا فى بدئها كانت علم نفس وصفى** قبل أن تستقل كعلم خاص • لقد رفض علم النفس الوصفى من قبل علم النفس الذى يقوم على تتبع نشأة الظواهر النفسية فى مظاهرها المادية محاولا ايجاد علل مادية وارتباطات حسية بينها ، ولجأ الى تحليل الظواهر الباطنة ، ولكنه – فى رأى هوسرل – لم يستطع أن يتخلص من شوائب **الاتجاه الطبيعى** ، وظلت التجربة مادية لا خالصة ، ولم يكن علم النفس **الوصفى** حدسا للماهيات المستقلة ، ولم يستطع العثور على **مفاهيم** ملائمة يعبر من خلالها عن مضامينه الجديدة •

لقد ظل بالفعل قاصرا عن التفرقة بين الادراك **الداخلى** والادراك الخارجى ، أى بين الظاهرة النفسية والظاهرة **الفيزيقية** بعد أن صنف كثيرا من الظواهر النفسية على **أنها فيزيقية** وكثيرا من الظواهر الفيزيقية على أنها نفسية ، لذلك اقترحت الفينومنولوجيا بعد ذلك تصنيف الاشياء فى مقولات مختلفة كامكانات خالصة للشعور مرتبطة بنظرية الكثرة فى الرياضة دون الاكتفاء بتصنيف علم النفس الوصفى للظواهر النفسية الى تمثلات وأحكام وعواطف وانفعالات أى ان علم النفس وحده

لا يكفى دون الأنا الترنسندنتالى ، ينتقص علم النفس الوصفى اذن نظرية فى المعرفة تعطيه أساسه النظرى حتى يصبح تحليلا للماهيات ، أى أنه لم يمارس « تعليق الحكم » الذى كان فى امكانه تخليصه من رواسب الاتجاه المادى كما أنه ينقصه مشاكل البناء نظرا لغياب المنطق الخالص . صحيح ان علم النفس الوصفى قام بتحليل الجانب اللغوى من التجارب الحية ولكنه لم يضم معه الجانب المنطقى الذى استطاعت الفينومينولوجيا تحليله . لقد حاول علم النفس الوصفى وضع الظواهر النفسية فى عدة مجموعات دون أن يعطى كل ظاهرة استقلالها الخاص وماهيته المستقلة . خلاصة القول أن **كل أوجه النقد التى وجهها علم النفس الوصفى الى علم النفس التجريبى وجهتها الفينومينولوجيا بدورها الى علم النفس الوصفى :** بقايا الاتجاه الطبيعى ، عدم فاعلية نقد الاتجاه التجريبى ، بقايا الاتجاه التجريبى فى علم النفس ، غياب علم النفس كفلسفة وصفية خالصة ، غياب الفلسفة الترنسندنتالية ، اهمال الأسس النظرية للذاتية ، عدم التعرف على المعنى الحقيقى للقصد المتبادل ، العجز عن تحقيق مشروع الفلسفة الحديثة ، أعنى اقامة علم الذاتية الترنسندنتالية ، أى أن **عيوب علم النفس الوصفى جعلته قاصرا عن أن يصير فينومينولوجيا .**

٦ ــ ولقد حاول **علم النفس النظرى** الذى وضع شتومف أسسه حل مشاكل العلوم الانسانية خاصة علم النفس ونقد الاتجاهات الصورية والنفسية والطبيعية والنسبية والشكية كما فعلت الفينومينولوجيا بعد ذلك ، فرق شتومف بين «الوظيفة» Function و «المظهر» appearance فى علم النفس ، وهى التفرقة **التى تبناها** هوسرل **فى تفرقته بين « الفعل »** و « **المضامين الأولية** » . لقد أعطى علم النفس النظرى للفينومينولوجيا تحليل مضامين الشعور واستعار منه هوسرل تفرقته بين **المضمون المستقل والمضمون غير المستقل** فى تفرقته بين المضمون الحسى والمضمون المجرد كما تابع هوسرل شتومف فى فكرته عن اتحاد الصفات الحسية فى كل واحد ، وهو ما سماه هوسرل **اتصال الظواهر النفسية** ، كما استخدم هوسرل فكرته عن « التمثل العام » من حيث هو اقتصاد فى الفكر فى اقامته نظريته عن « **الوحدة المثالية للنوع** » . لقد استطاع علم النفس النظرى وقف تيار علم النفس التجريبى واقامة نظرية فى المعرفة مستقلة عن علم النفس ، ولا غرو فقد أهدى هوسرل كتابه « بحوث منطقية » الى شتومف عرفانا منه بأنه الوحيد تقريبا الذى استطاع تصور الفينومينولوجيا قبل أن يضع فيها هوسرل اللمسات الأخيرة .

واخيرا استطاعت الفينومينولوجيا شق طريقها وسط المنطق وعلم النفس فى طريق ثالث جهله الجميع حتى ذلك الحين وهو طريق الشعور ، وبذلك استطاع علم النفس أن يتخلى عن ماديته كما استطاع المنطق أن يقضى على صوريته . أصبح علم النفس مادة للشعور والمنطق صورة له .

وقد حاول هوسرل فى أعماله المنطقية الانتقال من المنطق النفسى الى الفينومينولوجيا وذلك فى « **بحوث منطقية** » ١٩٠١/١٩٠٢ ، ورفع المنطق المادى الى عالم الشعور وتحويل مضمونه النفسى الى تجربة حية فى الشعور . لقد كان الهدف منه رفع المنطق من مجرد احساسات نفسية (**مل**) أو تكوينات بيولوجية (**سبنسر**) أو ترسبات أنثربولوجية (**سيجوارت** ، **اردمان**) الى منطق للشعور تصبح فيه المادة تجربة حية . لقد وجه هوسرل فى الجزء الأول منه « **مقدمات فى المنطق الخالص** » أعنف نقد وجهه فى العصر الحديث للاتجاه النفسى فى المنطق وحول المنطق الى علم معيارى نظرى أو « **نظرية فى العلم** » أو « **علم العلم** » ، وذلك لأن نقص العلوم الجزئية يرجع أساسا الى نقص جذرى فى بنائها النظرى أى فى التصور العام للمنطق ، ولا تستطيع العلوم الجزئية تكملة هذا النقص الا بارجاع أسسها النظرية الى الميتافيزيقا والمعرفة ، أى الى المنطق الخالص ، **فالمنطق فى الحقيقة هو المعرفة نفسها** . المنطق اذن علم نظرى قبل أن يكون علما معياريا وظيفته وضع القواعد ، وقبل أن يكون علما عمليا وظيفته تطبيق هذه القواعد فى العلوم الجزئية . لقد أراد الاتجاه النفسى فى المنطق جعل المنطق فرعا من علم النفس أو اعتباره فيزيقا الفكر (**سبنسر**) وتصبح قوانين الفكر قوانين بيولوجية محضة فلا فرق بين الأشكال المنطقية والمعادلات الكيميائية . يرفض هوسرل ذلك كله ويجعله خلطا بين المادة والصورة ، أو وقوعا فى الشك أو فى النسبية كما يرفض اعتباره اقتصادا فى الفكر (**ماخ** ، **أفيناريوس**) .

وفى البحوث الست التالية حاول هوسرل بناء أهم المشاكل المنطقية فدرس الصلة بين « **التعبير** » **والدلالة** ، وفرق بين **العلامة والمعنى** ، وجعل المعنى مستقلا عن علامته واعتبره وحدة مثالية بالرغم من تغير معانى الكلمات طبقا لأفعال الشعور المعطية لهذا المعنى (المبحث الأول) . ثم رفض هوسرل **النظريات الحديثة فى التجريد** ، أعنى نظريات **مل وسبنسر وهيوم ولوك** التى تعتبر النوع المنطقى مجرد ارتباطات حسية، والتى تنكر وجود الموضوعات العامة المستقلة عن ارتباطاتها الحسية ونشأتها فى الوقائع الجزئية ، بل ولا يرضى هوسرل عن نظرية **بركلى** فى التمثل ويعتبرها أيضا قضاء على وجود الموضوعات المثالية (المبحث الثانى) . ثم فصل هوسرل فى مشكلة **الكل والجزء** ، واعتبر الكل سابقا على أجزائه ومستقلا عنها فى حين أن الجزء غير مستقل ويعتمد على الكل الذى هو موجود فيه ، أى أنه يأخذ بوجهة نظر مماثلة لوجهة نظر **كافكا فى علم النفس الجشطلتى وبرجسون** فى رؤيته للظواهر الحيوية **وليفى ستراوس** فى البنائية (المبحث الثالث). ثم فرق هوسرل بين **المدلولات المستقلة والمدلولات غير المستقلة**، ووضع للمعانى المستقلة منطقا خالصا للمعانى فى (المبحث الرابع) ، ثم انتهى هوسرل **الى المنطق الشعورى الذى يقتصر على تحليل التجارب الحية ومضامينها** ، فالشعور فى نفس

الوقت هو الأنا الخالصة والادراك الباطنى ، لذلك **كانت التجربة الحية قصدا متبادلا** يضم الأنا الخالصة ومضمونها معا ، وأصبحت وظيفة الحكم هى وضع مادة أفعال الشعور فى تمثلات تقوم هى نفسها بوضع أسس له ، اذ يقوم التمثل باعطاء وحدة كيفية لأفعال الشعور (المبحث الخامس) . وأخيرا ينتهى هوسرل الى **تحويل المنطق الى فينومينولوجيا** ويحلل القصد المتبادل ويبين طرق ملئه ، وتصبح المعرفة هى عملية هذا الملء ، وتكون درجات المعرفة طبقا لدرجات هذا الملء ، وهى عملية تحويل الاحساس الى ذهن (المبحث السادس) .

ثم حاول هوسرل مرة ثانية ـ وذلك بعد بناء الفينومينولوجيا فى الجزء الأول من « الأفكار » سنة ١٩١٣ ـ اعادة بناء المنطق الصورى وتحويله الى فينومينولوجيا فى **المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى سنة ١٩٢٩** وانزال المنطق الصورى الى عالم الشعور وتحويل الصور العقلية الخالصة الى قوالب للشعور تكون مناطق فيه يمكن تحويلها بعد ذلك الى علم للانطولوجيا العامة . حول هوسرل منطق القضايا الى رياضة صورية **(من أرسطو الى ليبنتز وبولزانو)** ثم حول الرياضة الصورية الى نظرية الكثرة **(ريمان)** . لقد كان للمنطق الصورى القديم والجديد جانبان : القضايا والانطولوجيا ، **ثم** انتقل المنطق من المجال الصورى الموضوعى الى المجال الترنسندنتالى ، **أى من أرسطو وريمان الى ديكارت وبرنتانو** ، وبدلا من تحليل القضايا أو الصور الرياضية يتم تحليل الشعور الذى يقوم باجراء الأحكام ويتحول المنطق الموضوعى الى مينوفينولوجيا للعقل .

وأخيرا حاول هوسرل للمرة الثالثة التوحيد بين المنطق وعلم النفس فى « **التجربة والحكم** » الذى ظهر سنة ١٩٣٨ والذى يرجع عنوانه الى مخطوط لسنة ١٩٢٩ ، يدرس فيه هوسرل للمرة الأخيرة **التجارب السابقة على الأحكام** ، ويصف بناء الشعور من حيث هو قصد متبادل ، التجربة الحية مضمونه ، والصورة الخالصة قالبه . **أى أن هوسرل بعد أن رفع المنطق من المادة الى الصورة فى المرة الأولى وأنزل المنطق من الصورة الى المادة فى المرة الثانية حاول أن يشق الطريق الثالث بالدخول فى أعماق الشعور** ، أولا فى محاولة بناء التجربة السابقة على الحكم ، أو التجربة من حيث هى استقبال محض للعالم الخارجى ، يمكن ادراكها ادراكا مباشرا بالحدس أو بعد الايضاح ، ثم ادراك علاقاتها وأسسها ، ثانيا فى محاولة بناء الفكر الحملى وموضوعات الذهن ، وذلك بمعرفة البناء العام للحمل ، ونشأة أشكال المقولات ، ونشأة الموضوعات ودالات الأحكام ، ثالثا فى بناء الموضوعات على وجه العموم وأشكال الأحكام العامة وذلك ببناء العموميات التجريبية من أجل الحصول على العموميات الخالصة عن طريق الرؤية الحدسية للماهيات . **وبذلك حاول هوسرل شق طريق ثالث ليحل الأزمتين فى العلوم الانسانية ، أزمة الصورية وأزمة المادية** .

ثالثا ـ خطوات المنهج الفينومينولوجى :

لم يكتف هوسرل بوضع الفينومينولوجيا كعلم بل حاول صياغتها كمنهج للعلوم الانسانية مكون من خطوات ثلاث : **تعليق الحكم ، والبناء والايضاح** Eclaircissement (١) ويكتفى الدارسون عادة بذكر الخطوتين الأوليين دون الثالثة مع أنها هى الخطوة الوحيدة الذى يظهر فيها لفظ فى تعبير هوسرل Klärungs méthode **فالمنهج الفينومينولوجى هو فى حقيقته منهج للايضاح وما الخطوتان الأوليان الا مقدمة للخطوة الثالثة** أو مجرد « أفكار موجهة » دون أن يتم صياغتها فى قواعد للمنهج كما هو الحال عند ديكارت فى «مقال فى المنهج» أو «قواعد لهداية الذهن» ، بل ان الفينومينولوجيا كانت فى مرحلة الجزئين الأول والثامن من «الأفكار» أقرب الى الفلسفة منها الى المنهج ولم يتم صياغتها فى منهج الا فى الجزء الثالث .

١ ـ تعليق الحكم : يعنى « تعليق الحكم » عند هوسرل **وضع العالم بين قوسين** أو وضعه خارج الميدان ، ويعنى بذلك عدم الحديث عن الظاهرة المادية وازاحتها جانبا ، **واخراجها من موضع الاهتمام** ، وعدم التعرض لها ، أو اصدار حكم عليها . ويرمى هوسرل من ذلك الى **القضاء على الاتجاه الطبيعى بكل مظاهره المادية من نفسية ووضعية وانثربولوجية وبيولوجية** وذلك بالتفرقة بين « **علم الماهيات** » الذى يأخذ الماهية موضوعا له « **وعلم الوقائع** » الذى يأخذ الواقعة موضوعا له . لقد اعتبرت العلوم الانسانية التى اتخذت العلوم الطبيعية نموذجا لها الظاهرة الانسانية على أنها واقعة مادية مع أنها فى الحقيقة ماهية خالصة . كما يفرق هوسرل **بين التعالى** trancendence **والمباطنة** ، ويقصد بالتعالى الظاهرة التجريبية المحضة التى تتعدى الشعور وتتجاوز التجربة الحية ، وهو معنى غريب تماما عما عرف به التعالى عند كانط مثلا من أنه ما يتجاوز حدود التجربة ، أو عند الوجوديين من تعالى الذات على نفسها واحساسهما بانها تتجاوز حدود الموضوع . فالظاهرة المتعالية يجب تعليق الحكم عليها لأنها ظاهرة مادية ، خالية من كل معنى ، ظاهرة مصمتة ، لا تصبح دالة الا بعد حلولها فى الشعور كتجربة حية . أما « المباطنة » فانه يعنى ببساطة المحايثة أو وجود الظاهرة كتجربة حية فى الشعور حتى يمكن بناؤها بعد القضاء عليها كظاهرة متعالية . أى أن هوسرل يعنى بلفظ « **المباطنة** » ما عناه كانط من قبل بلفظ « ترنسندنتال » ولكن هوسرل كشف عن مضمونه صراحة ورفض كل كلمة فيها مقطع الذى يدل على التعالى والتجاوز والمفارقة حتى لايحدث التباس

---

(١) تعليق الحكم هو موضوع الجزء الأول من الأفكار « مقدمة عامة فى الفينومينولوجيا الخالصة » سنة ١٩١٣ والبناء موضوع الجزء الثانى « بحوث فينومينولوجية البناء » سنة ١٩٢٤/٢٥ ، والايضاح موضوع الجزء الثالث « الفينومينولوجيا والعلوم الأساسية » ١٩٢٤/٢٥ .

بين «ترنسندانس» ، «ترنسندنتال» كما حدث في حياة كانط . وقد خصص هوسرل محاضرات خمس سنة ١٩٠٧ لهذه التفرقة في كتابه « **فكرة الفينومينولوجيا** » .

ويعني تعليق الحكم ثانيا «قلب النظرة Blick-wendung » من الخارج الى الداخل ورفض رؤية الظواهر في المكان بل رؤيتها في الزمان ، خاصة وأن الفينومينولوجيا قد نشأت أساسا كتحليل للشعور الداخلي بالزمان ، كما فعل هوسرل في محاضراته عن « **فينومينولوجيا الشعور الداخلي بالزمان** » سنة ١٩٠٥ ، فالشعور لديه يتكون في ثلاث أبعاد للزمان : **التوتر** tension ، **والاستدعاء** retention ، **والانتظار** protention ، أي أن الزمان على مايقول **برجسون** مفتوح نحو الماضي فيتم ظهور الحاجز فيه ، ونحو المستقبل فالحاضر هو مستقبل المستقبل ، وهي الأبعاد الثلاثة التي أطلق عليها **هيدجر** لفظ extase ستعمل هوسرل كثيرا المقطع ur الذي يدل على الأصل والنشأة لبيان نشأة الظواهر في الشعور الداخلي بالزمان ، وفي هذا المعنى تحدث هوسرل عن « **أصل العالم** Der Ursprung der Welt في بحث مازال مخطوطا ليبين فيه نشأة العالم في الشعور لا كما يوحي العنوان من انه حديث عن نشأة الكون كما هو الحال في علم الجغرافيا الطبيعية والكونية .

ولا يعني « تعليق على الحكم » الايمان بوجود « شيء في ذاته » لا يمكن الحديث عنه أو معرفته كما هو الحال عند كانط ، لأن الفينومينولوجيا هي « **عود الى الأشياء ذاتها** » ، أي أن هوسرل بهذا المعنى أحد الفلاسفة التالين لكانط مع **فشته وهيجل وشلنج وشوبنهور** الذين رفضوا « الشيء في ذاته » الذي لا يمكن معرفته الا بالايمان ، وحاولوا معرفته بنظرية في العلم كما هو الحال عند فشته ، أو بالجدل كما نجد عند هيجل ، أو بوحدة الروح والطبيعة على طريقة شلنج ، أو من خلال الارادة كما تصور شوبنهور . لقد قضى هوسرل مثلهم على هذا التعارض بين الظاهرة موضوع العقل النظري « والشيء في ذاته » موضوع العقل العملي وذلك باعتباره هذا الظاهر « ظاهرة » ووضعها في الشعور حتى تصبح مرادفة للشيء نفسه .

وقد قيل كثيرا عن أوجه الشبه بين « تعليق الحكم » عند **هوسرل والشك** عند ديكارت ، فكلاهما خطوة منهجية يتم فيها القضاء على الأوهام والمعتقدات الساذجة والأحكام السابقة والأخطاء الشائعة حتى يمكن بعدها في الخطوة التالية وهي البناء عند هوسرل ، أو تطبيق قواعد المنهج الأربع عند ديكارت ، القيام بالخطوة الايجابية في المنهج والتي يتم فيها الوصول الى اليقين . كما قيل أيضا عن أوجه الشبه بين **تعليق الحكم** عند هوسرل **ونقد العقل النظري** عند كانط من أن كليهما مجرد تمهيد لما سيتلو من بناء عند هوسرل واقامة قواعد الايمان عند كانط . كما قيل أيضا ان تعليق الحكم عند **هيجل** الذي يعني aufhen يعني المعنى الأول لفعل « **هدم** » أو « قضى على » لأنه قضاء على الاتجاه الطبيعي ، وأن الخطوة الثانية وهي **البناء** تفيد المعنى الثاني لهذا الفعل وهو « يبني » أو « يرفع » أو « يسترد » .

البناء :

٢ ـ بعد « تعليق الحكم » يأتي « **البناء** » كخطوة ثانية حيث يظهر الشعور **كمقصد متبادل** مكون من **قالب** noese **ومضمون** noeme ، الأول يمثل **الجانب النظري أو العقل** في الأنا الخالصة وهو ما عبر عنه ديكارت باسم الأنا المفكرة أو ما سماه كانط الأنا الترنسندنتالية ، أي أنه يمثل الذات التقليدية في نظرية المعرفة ، والثاني يمثل **الموضوع** وهو الذي جعله ديكارت حركه وامتدادا ، والذي اعتبره كانط مجرد ظاهرة أو حدس حسي ، وهو عند هوسرل مضمون الشعور ليقضي على الاتجاه الطبيعي الذي يجعله مستقلا عن الذات العارفة ، وكذلك ليقضي على الاتجاه الحسي عند هيوم الذي يجعله مجرد انطباعات حسية . **يرى هوسرل اذن أن الشعور هو ذات وموضوع معا ، وبذلك ينتهي هذا التعارض التقليدي بين الذات والموضوع ، كما ينتهي هذا الصراع التاريخي بين المثالية التي تعطي الأولوية للذات على حساب الموضوع وبين الواقعية التي تعطي الأولية للموضوع على حساب الذات . يصبح الذات والموضوع عند هوسرل وجهين لشيء واحد وهو الشعور الذي هو ذات عارفة وموضوع للمعرفة ، وتكون مهمة الفينومينولوجيا تحليل الشعور أي تحليل القصد المتبادل والذي يكون في نفس الوقت تحليلا للمعرفة والوجود في آن واحد . هذه الوحدة بين الذات والموضوع ، أو بين المعرفة والوجود ، أو بين الصورة والمادة ، أو بين المثالي والواقعي ، هي التي جعلت الفينومينولوجيا في النهاية أقرب الى وحدة الوجود الصوفية التي يتم فيها الوحدة بين الله والعالم . أي بين الحقيقة والواقع** ، وبذلك ينتهي هوسرل الى مشروع **ليبنتز** في اقامة رياضة شاملة أو انطولوجيا عامة يتم فيها التوحيد بين الواقع والممكن أو بين العقل والوجود . وبهذا المعنى تكون الفينومينولوجيا تعبيرا عن الفكر المعاصر الذي لا يود اعتبار الموضوع شيئا بلا علاقة كما هو الحال في منطق العلاقات عند **رسل** أو في بناء العلاقات عند **ليفي شتراوس** أو في اعتبار الموضوع على أنه متضايف مع corrélate للشعور ، فالشعور يتميز بانه « **يتجه نحو** s'onen ta vers أو « **ينطلق نحو** s'éclute vers أو « **يمتد نحو** se tend vers

ويضع هوسرل وهو بصدد **نظريته في الحدس** ليعيد بها بناء نظرية الادراك الحسي perception التقليدية ، فالحدس لديه ادراك مباشر كما هو الحال عند الحدسيين ، ولكنه يقوم على رؤية مزدوجة يسميها نظرية « الشعاع المزدوج » يتم فيها توجيه شعاع من الذات نحو الموضوع أي من قالب الشعور الى مضمون الشعور ، وتوجيه شعاع ثان من الموضوع نحو الذات أي من مضمون الشعور الى قالب الشعور ، وبدون

هذا الشعاع المزدوج لا يصبح الادراك ممكنا ، أى **أن الانتباه** attention ، على مايقول **مين دى بيران** ، هو شرط الاحساس وأنه لا يمكن للحواس أن تقوم بوظيفتها فى الادراك الحسى الا بفعل الانتباه ، فالادراك الحسى دون انتباه لا يتعدى أن يكون مجرد انطباع حسى impression يحوله فعل الانتباه الى ادراك حسى بالفعل perception .

وتمتد عملية البناء الى جميع أحوال الشعور والظواهر النفسية مثل التذكر والتخيل والتصور فكل ذلك يمكن تحليله فى القصد المتبادل كما فعل **سارتر** فى دراستيه عن « **الخيال** » ثم « **الخيالى** » ، ولذلك انتهت الفينومينولوجيا الى الاغراق فى **تحليل عمليات الابداع الفنى** وأصبحت العلم الذى « **يفسر** » و « **يفهم** » الظواهر النفسية ، يفسر النشأة ويفهم الماهية .

والشعور عند هوسرل نوعان : الشعور المحايد la conscience neutre **والشعور الواضع** la conscience positionnelle ، فالأول مجرد شعور لم يبدأ بعملية تحليل القصد المتبادل بعد ، والثانى شعور بدء هذا التحليل للظواهر المعرفية أو العملية والارادية أى الظواهر التى تتعلق بالرغبات والميول . **ويكون لمضمون الشعور** noème **أنماط خمسة** يسميها هوسرل **أنماط الوجود** les modes d'être وهى : الواقعى réel ، الممكن possible ، المحتمل vraisemblable المشكل problematique والمشكوك فيه douteux **وذلك فى مقابل أنماط خمسة لقالب الشعور** noèse يسميها هوسرل **أنماط الاعتقاد** Les modes de croyance وهى : اليقين certitude ، والافتراض supputation ، والظن conjection ، والاشكال question ، والشك Donte

ويتم البناء فى موضوعات ثلاثة بينها هوسرل فى الجزء الثانى من « الأفكار » وهى : **بناء الطبيعة المادية** ، ثم **بناء الطبيعة الحية** ، ثم **بناء عالم الروح** ، أى أن الواقع عند هوسرل مكون من ثلاث دوائر متداخلة : **المادة** الدائرة الكبرى ، **والحياة** الدائرة الوسطى ، **والروح** الدائرة الصغرى . وكل دائرة مكونة من مراتب ثلاث : فالطبيعة المادية تبدأ بالطبيعة العامة، تتلوها منطقة الأشياء التى تخضع للادراك **الحسى** ، تتلوها حاسية البدن ككل . أما الطبيعة الحية فتبدأ **أيضا** بالطبيعة الحية العامة ، تتلوها الطبيعة الحية من خلال **البدن** ، تتلوها الطبيعة الحية من خلال الاستبطان . وفى هذه الأخيرة تظهر الذات الخالصة . أما عالم الروح فانه يتكون أولا بالتعارض بين العالم الطبيعى والعالم الشخصى وذلك بفعل **تعليق الحكم**، ثم يتلو ذلك ظهور البواعث فى العالم الشخصى ، وأخيرا تظهر أولوية العالم الطبيعى . وينتهى من ذلك الى **أن العقل** والواقع ، أو الشعور والواقعة الطبيعية يكشفان عن هذه الدوائر الثلاثة المتداخلة ذات المركز الواحد : **الذات الخالصة، الآخرون** ، **عالم الأشياء** ، وهو ما عبر عنه الوجوديون بعد ذلك — **سارتر** ، **هيدجر** ، **ميرلوبونتى** — باسم « **الوجود فى العالم** » أى أن الذات مركز عالمين : عالم الانسان وعالم الأشياء ، وبذلك وضع هوسرل أسس اقامة علم للاجتماع الفينومينولوجى لدراسة الآخر وعلم للوجود لدراسة الشىء .

٣ — **منهج الايضاح** : وبعد اكتشاف البناء لهذه المناطق الثلاث تأتى الخطوة الثالثة أعنى **منهج الايضاح** مهمته توضيح **الصلة بين الفينومينولوجيا والانطولوجيا** ، وكذلك **الصلة بين الفينومينولوجيا وعلم النفس** ، وذلك لوجود ثلاث مناطق متداخلة : **النفس** ، **والبدن** ، **والشىء** ، فالنفس موضوع الفينومينولوجيا والبدن موضوع علم النفس ، والشىء موضوع الأنطولوجيا ، وهى المناطق الثلاث التى عرضها **هوسرل فى** نظرية البناء : فالفينومينولوجيا علم لمنطقة الشعور الخالص ، وعلم النفس ينحصر فى منطقة الموجودات الحية ، والانطولوجيا يصدق على عالم الأشياء . مهمة منهج الايضاح هو تحديد الصلة بين هذه المناطق الثلاث وتحديد الصلة بين العلوم الانسانية المطابقة لها وذلك عن طريق البحث عن **الوضوح** الحدسى أو عن طريق التحليلات اللغوية للتصورات مثل : التصور المنطقى الصورى ، التصور المنطقى (**من منطقة**) الشعورى regional ، والتصور المادى وهو ما يقابل أنواع المنطق الثلاثة التى حددها هوسرل فى المنطق الصورى والمنطق الترنسندنتالى » : علم الصور العامة الخالصة morphologie pure منطق الاتساق ، منطق الحقيقة .

ويفرق هوسرل بين أنواع عديدة من **الايضاح** ، éclaircissement **التوضيح** clarification ، **السبر أو الكشف** élucidation ، ثم **الشرح** explication ، فالايضاح يتم فى اللغة وذلك بالتمييز بين الألفاظ المحكمة والألفاظ المتشابهة، على ما يقول الأصوليون ، فى حين أن التوضيح يتم بين الأشياء . أما السبر أو الكشف فيتم فى الشعور مهمته استكشاف مناطقه الذى يؤدى فى النهاية الى الشرح والبيان، واخراج مضمونه الى حيز الرؤية الواضحة .

ومنهج الايضاح فى جوهره هو **منهج للتمييز** ، **والتمييز هو روح العلم** ، أى أنه منهج يقوم أساسا على منع الوقوع فى الخلط ، وان تاريخ العلم ليثبت أن تقدمه كان مرهونا برفع الخلط والتمييز بين مستويين مختلفين من حيث الدرجة أو من حيث النوع ، كما حدث فى علم النفس التجريبى فى الخلط بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية ، أو فى العلوم الانسانية التى اتخذت العلوم الطبيعية نموذجا لها ، بين الواقعة والماهية ، بين الواقعة الطبيعية والشعور ، بين الواقع والعقل ، وفى بعض الأحيان **يتم التمييز بين مستويات ثلاثة** مثل : الطبيعة المادية ، الطبيعة الحية ، عالم الروح كما هو واضح فى البناء ، أو فى ايضاح التصورات مثل : التصور الصورى ، التصور المنطقى régional (نسبة الى منطقة لا الى منطق) والتصور المادى ، الأول منفصل عن المادة تماما ، والثانى مرتبط بالمادة ، والثالث مادى محض ، **الأول** موضوع الانطولوجيا ، والثانى الفينومينولوجيا ، **والثالث** علم النفس . **مهمة منهج الايضاح هى ايضاح العلوم**

الدجماتيقية التى تختلط فيها الغريزة بالحدس ، أو التصور الشعبى بالتصور النظرى ، أو التى تجمع بين الظن واليقين ، وهو موجه أساسا **ضد تحيز العلوم التجريبية لطرف واحد** unilatérale دون الطرف الآخر – ومن ثم فهو **يقوم باعادة الطرف الآخر ويقيم التوازن فى الظاهرة ، يقوم بالتعميم ضد التخصص ، والرفع ضد السقوط ، والتوسع ضد قصر النظر وضيق الأفق حتى يعيد بناء المثال . يقوم بقلب النظرة فى مقابل القلب الحادث فى العلوم الطبيعية . فقلب القلب عود الى الوضع الصحيح ، وهو عود الى الأصلى** originaire **والأولى** primaire **فى مقابل التابع والثانوى فى العلوم الطبيعية . الايضاح اذن هو السبيل لاقامة نظرية فى الوضوح ، وهو الذى يسمح بحدس الماهيات أى حدس العموميات الخالصة ،** فلا حدس دون وضوح وهو ماوضحه **برنتانو** من قبل كتابه « **الحدس والوضوح** Einsicht und Evidence » .

الايضاح هو الحل النهائى لأزمة العلوم الانسانية التى تقوم أساسا على الخلط بين المستويات **أو على المزج** بينها ، أو على **التوحيد بين مستويين أو على وضعهما متوازيين على نفس المستوى** أو على **تماثلهما** analogie **أو على رد أحدهما الى الآخر** reduction أو **على قلب أحدهما مكان الآخر** conversion renversement أو على **استبدال أحدهما بالآخر** substitution . يقوم الايضاح اذن بعدل الظاهرة وارجاع المستويات ولذلك كان الايضاح **منهجا للمرور** méthode de passage من مستوى للآخر ، من الصورى الى الترنسندنتالى ، **من المادى الى الشعورى . فالايضاح اذن ليس نظرية فى المعرفة فحسب بل هو نظرية فى الوجود يقوم على حفظ المستويات ثم على الربط بينها ربطا صحيحا مستعملا مفاهيم جديدة للربط مثل : حامل** posteur, substract واقعة حامل للماهية وليست مرادفة لها ، أو **معطى** conférant فالفعل يعطى المعنى وليس مرادفا له ، أو طرف متضايف corrélat ، فالآخر طرف متضايف مع الشعور وليس خارجا عنه ، **يقوم الايضاح** أيضا بالتخلى عن الالفاظ القديمة مثل « شىء » ووضع الفاظ جديدة مثل **حالة الشىء** حتى يتم رفع المستوى من المادة الى الشعور ، أو بالتخلى لفظ مثل فكرة أو مثال idée ووضع لفظ جديد مثل intention ، ويعنى به هوسرل **عملية تحويل العالم الى فكرة أو مثل** وذلك للقضاء على صورية المثال وتحويل الصورى الى ترنسندنتالى . **والايضاح أيضا منهج جدلى** بين الالفاظ والتصورات اذ يعثر فى مفهوم واحد على مفهومين متميزين كما هو الحال عند برجسون ، أو يضع المذهبين المتعارضين فى مذهب واحد ثم يرفضهما معا ، **مهمة الايضاح اذن هى الكشف عن الوحدة الباطنة فى الوجود : وحدة المعرفة والوجود فى الفينومينولوجيا ، وحدة الذات والموضوع فى الكوجيتو ، وحدة الأنا والآخر فى التجربة المشتركة ، وحدة الأجزاء المتناثرة فى الكل الواحد .. الخ .** خلاصة القول **أن الايضاح القائم على التمييز حركة اصلاحية فى التاريخ ،** وذلك لأن مهمة الفينومينولوجية مهمة اصلاحية ، ان لم تبشر بعالم جديد ، فعلى الأقل تحل أزمة العلوم الانسانية ، بل ويذكر هوسرل دائما لفظ « **اصلاح** » réforme ويستعمل مفاهيم الصراع والمعركة والنفى والاحتجاج والاعتراض والجدل والمحاجة والتحفظات والمراجعات .

رابعا – أزمة الشعور الأوروبى :

ليست الفينومينولوجيا نظرية فى الذاتية subjectivité فحسب كرد فعل على أزمة العلوم الانسانية التى اتخذت مرة العلوم الطبيعية ومرة ثانية العلوم الصورية كنموذج لها ، بل هى أيضا نظرية فى **العلاقات بين الذوات** intersubjectivité وهناك نوعان من العلاقات بين الذات : الأول هو **التجربة المشتركة** التى يتم من خلالها الوصول الى الموضوعية فى العلوم الانسانية وذلك باشتراك الذات مع الآخر فى نفس التجربة الشعورية وضمان عدم الخطأ ، خاصة وأن التجربة تحتوى على ماهية مستقلة عن الطرفين وتتميز بموضوعية صورية من خلال مناطق الشعور ، فضلا عن أن كلا الطرفين يبدأ بالتجربة الحية أى من الوقائع نفسها ، وبذلك يكون الضامن للموضوعية : أولا **التجربة المشتركة** ، ثانيا **وجود الماهيات المستقلة** ، ثالثا **البدء بعالم الوقائع** ، ولذلك تحولت الفينومينولوجيا الى **حلقات بحث** séminaire حتى تخرج من « **مدينة العلماء** » كما أوصى هوسرل بذلك . **والنوع الآخر من العلاقات بين الذوات** هو **التجربة المشتركة للحضارة كلها أو هو الشعور الجماعى ، أو الشعور الحضارى** ، أو ان شئنا الرجوع الى تعبير دلتاى « **الشعور التاريخى . فاذا كانت الذاتية اتجاها رأسيا يوضع فيه الشعور بين عالمين ، عالم الصورة وعالم المادة ، فالشعور الجماعى اتجاه أفقى يوضع فيه الشعور بين حركتى التاريخ ، الخلف والأمام** ، وبالتالى تظهر الفينومينولوجيا على أنها فلسفة فى التاريخ يضع فيها الشعور الأوروبى فى كل مرحلة جانبا من الفينومينولوجيا حتى تأتى آخر مرحلة فيه لتكملها وتضعها مرة واحدة والى الأبد . ولا يقصد بالشعور الجماعى ما يقصده الاجتماعيون باسم « **الشعور الجمعى** collective » الذى هو أقرب الى الشىء والواقعة . **الشعور الجماعى هو شعور مثالى كالشعور الفردى تماما تعيش الحضارة فيه كما يعيش الشعور الفردى تجربة حية .** والحقيقة أنه يصعب التفرقة بين الشعورين الفردى والجماعى فلكل منهما نفس البناء ، فالجانب العقلى أو الصورى الذى سماه هوسرل noèse فى الشعور الفردى يقابل الاتجاه العقلى vational **فى الشعور** الأوروبى ابتداء من ديكارت ، والجانب **المادى** الذى سماه هوسرل noème فى الشعور الفردى يقابل الاتجاه التجريبى فى الشعور **الأوروبى** ابتداء من ديكارت أيضا ، والجانب الحى فى الشعور الذى سماه هوسرل leben-swelt **يقابل** فى الشعور الأوروبى فلسفة الحياة عند دلتاى **ودريش** Driesch وبرجسون وشيلر وغيرهم ممن رفضوا هذا التعارض التقليدى بين الصورى والمادى ، المثالى والواقعى ، العقلى والتجريبى . أى أنه يصعب التفرقة بين **الفينومينولوجيا من حيث هى علم أو نظرية** Eidos **وبين الفينومينولوجيا من حيث هى مقصد**

للتاريخ أو غاية له Télos ، وقد وضح هذا الارتباط بين الشعورين في « تاملات ديكارتية » سنة ١٩٢٩ وهي الدراسة التي عرض فيها هوسرل الفينومينولوجيا كنظرية في الذات أو في الشعور الفردي وكنظرية في العلاقات بين الذوات بمعنييها : الخبرة المشتركة في المعرفة ، والخبرة الجماعية في الحضارة ابتداء من ديكارت الذي يبدأ الشعور الاوروبي عنده .

١ - **مصادر الشعور الأوروبي** : لا يتحدث هوسرل كثيرا عن مصادر الشعور الأوروبي اذ أنه يعتبر الحضارة الأوروبية خلقا أصيلا على غير منوال ، وأنها ، دون غيرها من الحضارات القديمة ، قد أخذت على عاتقها مهمة البحث عن الحقيقة النظرية ، وتحقيق مشروع الانسانية العلمي الأول الذي طالما راود فلاسفتها ، أعني اقامة علم شامل مرادف للحقيقة ومطابق للواقع على السواء . فاذا ذكرت المصادر أعتبرت مجرد مقدمات للحضارة الأوروبية وتمهيدات لها دون أن يكون لها استقلال خاص بها . كل شيء في النهاية يصب في الحضارة الأوروبية التي افتتحها ديكارت ، فأوروبا هي ممثلة الانسانية! أما حضارات الشرق القديم فهي حضارات أسطورية خلقية دينية لم تستطع عرض المسائل عرضا نظريا وكان جل همها المنفعة العاملة في الحياة العملية !

لا يذكر هوسرل من مصادر الشعور الاوربي الثلاثة المتواضع عليها لدى الباحثين أعني : **المصدر اليوناني الروماني، المصدر اليهودي المسيحي ، البيئة الأوربية نفسها**، الا المصدر اليوناني الروماني ويهمل اهمالا يكاد يكون تاما للمصدرين الآخرين ، بل لا يذكر من المصدر اليوناني الروماني الا**الفترة اليونانية التي يعجب بها هوسرل أيما اعجاب ويجعلها الصورة** المبكرة للحضارة الأوروبية صحيح أن الحضارة الرومانية نابعة في كثير من جوانبها للحضارةاليونانية الا أن اهتمامالحضارة الرومانية وباعثها الأول كان هو البحث عن « **القانون** » في حين أن اهتمام الحضارة اليونانية كان هو البحث عن « **الفكرة** » .

ولا يتناول هوسرل من الحضارة اليونانية الا الفلسفة ، ويلغي من حسابه الأدب والأساطير والنحت والعمارة وذلك لأن الفسلفة اليونانية ، في رأيه ، هي التي حاولت البحث عن الفينومينولوجيا بقدر استطاعتها وعلى مستوى تفكيرها وتقدمها الحضاري في مسار الانسانية ، ففيها ظهرت فلسفة الحياة عند **سقراط** ، وهي الفلسفة التي كشفت الفينومينولوجيا عن أصالتها في التجربة الحية ، وفيها ظهرت الصورة المحضة والمثال المطلق عند **افلاطون** ، وهي ما أقرته الفينومينولوجيا في وضعها لعلم الماهيات ، وفيها ظهرت أخيرا فلسفة الطبيعة عند **ارسطو** والتي حاولت الفينومينولوجيا أيضا اعادة بنائها بعد تعليق الحكم على المادة ، والبحث عن الأشياء ذاتها في الشعور .

ولكن هوسرل يعتبر **سقراط مجرد مصلح للحياة العملية** ضد شك السوفسطائيين ، ولم يستطع وضع المسائل وضعا نظريا خالصا ، وظلت اهتماماته متجهة نحو المشاكل الخلقية. ومع ذلك استطاع سقراط **استعمال منهج الايضاح القائم على العقل** ، واتخذ الوضوح والبداهة مقياسا لصحة الأفكار ، وقد تحول منهج التوليد لديه الى جدل عند أفلاطون ، كما تحول منهج الايضاح الى حدس للماهيات . لقد استطاع سقراط المحافظة على **موضوعية القيم** ، هذه الموضوعية التي حاول هوسرل اقامتها في العلوم العقلية ، لقد أعطى سقراط **نموذجا للذاتية** وأعلن أن الذات ليست موضوعا وهو الدرس الذي استفادته العلوم الانسانية من أزمتها في العصر الحاضر. وبالتالي يظل سقراط ، بالرغم من نقص البحث النظري لديه، مصدرا للذاتية الأوروبية ، وأستاذا لفلاسفتها مثل كيركجارد الذي كان يعتبر نفسه تابعا لسقراط .

وقد استطاع **افلاطون** لأول مرة في تاريخ الانسانية وضع أول أسس لنظرية خالصة في العلم وهي « **نظرية المثل** » والتمييز بين العقلي والحسي ، بين الصوري والمادي ، أو بين النظر والعمل ، بل ان مثال المثل يقترب كثيرا من **النظريات** الرياضية الحديثة لا سيما نظرية الكثرة ونظرية المجموعات . لقد ظلت **الأفلاطونية** مثلا يحتذى في **الحضارة الأوربية** لتأكيد استقلال الأفكار والماهيات والموضوعات المثالية وللتخفيف من حدة الاتجاه التجريبي . وتحدث الأزمة في العلم عندما يترك المثال الأفلاطوني القديم وتؤخذ العلوم الطبيعية نموذجا لكل علم . وهكذا تظل الأفلاطونية هي الدرع الواقي من كل اتجاه شكي أو نسبي ، والضامن لكل عقلانية . لقد أصبحت في العصر الحديث نظرية قبلية في تصور العلم القائم على حدس الماهيات ، بل ان ذاتية العصر الحاضر لم تستطع بلوغ درجة العقلانية القديمة التي بلغت ذروتها **في نقطة أرشميدس وفي نظرية فيثاغورس** . وان بحث أفلاطون عن « **النفس ذات الأجنحة** » كان في الحقيقة بحثا عن الذات الترنسندنتالية . وان ما يحدث في العصر الحديث من وقوع في المذهب التجريبي والشك والنسبية ومحاولة المذهب العقلي اعادة التوازن للشعور الأوربي لهو تكرار لما حدث قديما من تحول للفلسفة على يد السوفسطائيين الى شك ونسبية **ومحاولة افلاطون اعادة التوازن الى الشعور اليوناني** . ولكن افتراض أفلاطون **وجود المثل في الخارج** جعله يخطىء معنى الواقعية وأصبح ذريعة للاتجاه الاسمي في انكاره لوجود المعاني المستقلة ، أي أن أفلاطون بالرغم من التقدم الحاسم الذي حققه في الفلسفة اليونانية **لم يستطع أن يعطينا مناهج ضرورية للعلم** لأن فلسفته ظلت أسيرة للنظريات الخلقية والتفسيرات الاسطورية ، ولم تزد الفلسفة لديه عن كونا مجرد دهشة دون أن تصبح نظرية في الحقيقة .

أما**علم النفس القديم فقد** فسره هوسرل على أنه حديث باطني للنفس يتجه نحو الفكرة وبالتالي فهو بعيد كل البعد عن علم النفس التجريبي ، ولذلك كان سقراط على حق عندما رفع شعاره « **اعرف نفسك بنفسك** » وعندما وصفته كاهنة معبد ولفي بانه « **أحكم البشر** » . كانت **التجربة** في

علم النفس القديم **مجرد اعتقاد** Doxa أى أنها قصد يمكن ملؤه . **أما علم الاجتماع** فلم يتعد بعض النظريات الخلقية فى اقامة المدنية الفاضلة ولم يعرف دور الآخر فى التجربة المشتركة .

أما **أرسطو** فهو أول من وضع نظرية كاملة فى المنطق والأخلاق والسياسة ، وهو أكمل نسق فلسفى عرف فى العصر القديم ، ولكن فضله الأساسى يرجع الى أنه وضع أسس المنطق الصورى خاصة منطق القضايا ، وهو أول تفكير منطقى عرفه التاريخ . ولأول مرة توضع مشكلة الصورة فى المنطق التى تقابل المقولة فى علم الطبيعة ، وكان هذا الطابع الصورى هو المرشد للمنطق الحديث ، ومع ذلك فقد ظل المنطق الصورى ناقصا ، فلم يتعد كونه **ارهاصات من التفكير الذاتى لاقامة علم مثالى** ، فضلا عن أنه لم يتعد كونه **منطقا للاتساق وعدم التناقض** دون أن يصبح منطقا للحقيقة . **كما نقصته نظرية فى الحدس** ، وكذلك **لم يستطع أن يصبح رياضة شاملة** . وان تحويل المنطق الى رياضة لهو من صنع العصر الحديث الذى استطاع تحرير المنطق من بيئته المدرسية وتداخل أشكال القضايا . **لقد ظل المنطق القديم استنباطيا** ، يمكن بواسطته استخراج قضية من أخرى ، فى حين أن المنطق الحديث استطاع الوصول الى اللانهائى نفسه . ولكن يذكر للمنطق القديم أنه قدم **تحليلات لغوية يمكن** استغلالها فى دراسة أفعال الشعور وقد استغلت الفينومينولوجيا بالفعل تقسيمات المنطق القديم مثل : الجنس والنوع ، الصورة والمادة ، غير أنه **لم يستطع أن يتحول الى أنطولوجيا صورية** كما هو الحال فى الفينومينولوجيا ، خاصة وأن الأنطولوجيا القديمة كانت ترى قمتها فى اللاهوت لا فى الرياضة الشاملة كما هو الحال فى العصر الحديث . هذا بالاضافة الى أن المنطق القديم **لم يستطع التخلص من الاتجاه النفسى** فى المنطق أو فى الأخلاق .

ثم **انتهت الحضارة اليونانية وهى لم تحقق بعد مشروعها فى اقامة نظرية للعلم** ، وكان أقصى ما وصلت اليه هو **هندسة اقليدس** التى تدل على مستوى رفيع من العقلانية ، ثم انهارت الحضارة اليونانية كلية بتركها هذا المشروع واتجاهها نحو المسائل الخلقية على يد « **الأبيقوريين والرواقيين** » وانتهى التنظير العقلى ، وبدأت مذاهب الشك والمذاهب المادية والاتجاهات العملية فى المدارس الخلقية ، وظل **الجدل السوفسطائى سلبيا** ينكر قيمة الذهن ، ويؤكد وجود العدم « لا يوجد شىء وان وجد شىء فلا يمكن معرفته » ، فالشك السوفسطائى القديم وقوع فى النسبية أو فى العدمية أو فى **وحدانية النفس** solipsisme وبذلك تم القضاء على الموضوعية التى تتحقق فى الذهن أو من خلال التجربة المشتركة . وكان آخر بريق هو نظرية « **اللوجوس** » عند الرواقيين التى حاولت وضع موضوعية مثالية كتلك التى حاولها العصر الحديث فى الرياضة .

أما فيما يتعلق **بالمصدر اليهودى المسيحى** فان هوسرل لا يذكر منه الا بعض الفلاسفة المدرسين (**اوغسطين توما الأكوينى ، دنزسكوت ، نيقولا الكوزى**) وذلك لأنه يعتبر **روح العصر الوسيط روحا نافية عادمة لأنها** خضعت للمنطق الأرسطى المدرسى دون ان تضع أسس « الرياضة الشاملة » كتلك التى وضعها العصر الحديث ، ولكنه **يذكر لأوغسطين** اكتشافه للذاتية ، ويستشهد بعبارته الاشراقية in te interiori homine habitat veritas « فى باطنك أيها الانسان ، تكمن الحقيقة » . فى آخر « تأملات ديكارتية » كما يذكر **لتوما الأكوينى** قوله « **بالقصد العقلى** » الذى ظهر عند برنتانو كبناء للشعور ، كما يذكر نظرية « **احوال المعانى** Les modes des significations » عند **دنزسكوت** ويعتبرها احدى روافد المنطق المعاصر وهى النظرية التى درسها **هيدجر** فى رسالته الأولى تحت اشراف هوسرل . وان ما تصوره العصر الوسيط على أنه بحث عن الله وعن ملكوت السماوات ان هو فى الحقيقة الا بحث عن مشروع الانسانية الأوربية لوضع أسس علم شامل .

أما البيئة الأوربية نفسها فلا يذكر منها هوسرل شيئا وكان الشعور الأوربى شعور مثالى صرف ، أو شعور الهى تنكشف فيه الحقائق ، مع أنه يمكن تفسيره بالبيئة الأوربية نفسها ، فالكوجيتو الديكارتى رفض للعصر الوسيط ولكل حقيقة سابقة على البحث ، والمذهب التجريبى رفض للعقلية الأسطورية الميتافيزيقية المتبقية من رواسب العصر الوسيط ، والمذهب العقلى رفض للتشبيه أو التجسيم الذى طبع العقلية الأوربية ، ورفض لكل حقيقة مسبقة طالما دخل الزيف منها باسمها ، مع ان هوسرل نفسه على وعى تام بأن الحضارة الاوروبية من خلق الأوروبيين أنفسهم وذلك بقوله « حضارتنا » « فلسفتنا » ، « منطقنا » ، شعورنا ، وليست من صنع الله .

٢ ــ نقطة البدء فى الشعور الأوربى : الكوجيتوالديكارتى :

يعتبر هوسرل **الكوجيتو الديكارتى نقطة البدء فى الشعور الأوربى** ، أى أن **ديكارت بهذا المعنى هو المؤسس الأول للفينومينولوجيا** ، وهو الذى **اكتشف عالم الذاتية** ، ولذلك ربط هوسرل نفسه به فى « تأملات ديكارتية » واعتبر ديكارت هو الذى بدأ المشروع وأنه ، هوسرل ، هو الذى حققه بالفعل ، وأن **الشعور الأوربى قد ابتدأ مع ديكارت وانتهى عند هوسرل وبذلك تكون الحضارة الأوروبية** قد حققت مشروع حياتها وهو اقامة الفينومينولوجيا التى تعتبر الصورة النهائية للفلسفة الترنسندنتالية وتحقيقا للمثالية الألمانية .

ولكن ديكارت ــ فى رأى هوسرل ــ وقع فى **أخطاء مميتة** : أولا ، عرف ديكارت الأنا المفكرة cogito لكنه **لم يعرف مضمون التفكير** cogitatum ، ولذلك ظلت الذاتية لديه فارغة من أى مضمون حتى انتهى الى الصورية المحضة عند كانط الذى أصبحت المعرفة على يديه مجرد قوالب فارغة ، ومن ناحية أخرى **قضى ديكارت على موضوعية الأشياء حينما اعتبر العالم مكونا من مفهومين رياضيين : الحركة والامتداد** .

ثانيا ، ميز ديكارت بين النفس والبدن وبذلك قد وضع اسس ثنائية العصر الحديث فجعل النفس موطن الفكر والمثال ، والبدن موطن الواقع والمادى ، جعل النفس خالدة تنمو نمو الخلود الأزلى ، والبدن فانيا ، مجرد آلة متحركة . ولقد كان من السهل بعد ذلك أن يخرج التيار العقلى عند سبينوزا ومالبرانش وليبنتز من النصف الأول ، وأن يخرج التيار التجريبى عند لوك وهيوم من النصف الثانى . هذه هى الثنائية ، مأساة العصر الحديث ، التى صورت الشعور الأوربى فى بدئه وكأنه فم مفتوح ، فك الى أعلى يمثل الاتجاه العقلى وفك الى أسفل يمثل الاتجاه التجريبى ، ثالثا ، ينقص الكوجيتو الديكارتى البعد الترنسندنتالى ، اذ أنه لايعدو مجرد مبدأ Axiome يقينى يستنبط منه العالم ، أى أنه ظل على مستوى علم النفس وبالتالى فهو لا يخلو من نسبية ، وبذلك لم يكن فى الامكان القضاء على الشك قضاء تاما سواء فيما يتعلق بوجود العالم أو بوجود الموضوعية التى جعلها ديكارت مرهونة بالصدق الالهى ، لذلك جاءت الفينومينولوجيا لتأكيد الطابع الشمولى للأنا ، ولبيان أن الوضوح لا شأن له بالموضوع الواقعى ، ولاثبات القصد المتبادل كبناء للشعور . رابعا ، ينقص الكوجيتو الديكارتى الآخر كطرف مقابل للشعور ، وبالتالى لا وجود للخبرة المشتركة ولامكانية اقامة علم اجتماع فينومينولوجى ، واقتصر ديكارت على تصور الله كآخر مطلق وكضامن لليقين .

وقد استمر الشعور الأوربى بعد ديكارت يؤكد مأساته فى هذين الخطين المتباعدين ، الاتجاه العقلى الذى هو استمرار للأفلاطونية والاتجاه التجريبى الذى هو استمرار للأرسطية القديمة ، لقد استطاع الاتجاه العقلى أن يصل الى الواحدية الميتافيزيقية monisme métaphysique (سبينوزا) ، ووصل الى قمته فى الرياضة الشاملة أو فى الانطولوجيا العامة (ليبنتز) . وقد ظل هذا الاتجاه العقلى هو المرشد فى البحث عن الحقيقة والحافظ للشعور الأوربى من الاستمرار فى الانحدار نحو الاتجاه التجريبى ، ولكن تحويل الطبيعة الى رياضة على يد جاليليو أدى الى فقدان التجربة الحية ، وأصبحت قالبا دون مضمون ، أى أن الاتجاه العقلى كان مصيره الوقوع فى الصورية ونسيان عالم الحياة الذى حاولت الفينومينولوجيا اعادة بنائه .

أما الاتجاه التجريبى فقد ظهر فى صور عديدة : اتجاه طبيعى ، اتجاه نفسى ، شك ، نسبية ، مادية ، وضعية ؛ وقد كان ذلك لما حازته علوم الطبيعة من تقدم خاصة على يد نيوتن واكتشافه لقانون الجاذبية . لقد نشأ الاتجاه التجريبى كرد فعل على الاتجاه وعلى نسيان العالم والقضاء على الأشياء ، ولكنه انقلب الى النقيض ، وأصبح العالم فيه عالما ماديا ، وأصبحت التجربة الحية مجرد انطباعات حسية ، وأصبحت النفس ، على ما يقول لوك ، مجرد صفحة بيضاء تنقش عليها الاحساسات ما تشاء . وقد ظهر هذا الانحدار فى صورة خلط نشأ فى العلوم الانسانية خاصة فى علم النفس التجريبى بين التجربة الداخلية والتجربة الخارجية ، وهو ما يسمى بالتوازى بين الظاهرة النفسية والظاهرة الفيزيقية الذى يعطى الأولوية للفيزيقى على النفسى ، ويوحد بين الفيزيقى وكل المظاهر النفسية من حس وادراك وتذكر وتخيل وتصور وانفعال ، لذلك كان السبيل الى الخلاص هو علم النفس القائم على الاستبطان وتحليل الخبرات الباطنية ، ثم جاء هيوم وأنكر قانون العلية وبالتالى كل قانون عقلى مستقل عن الحسى فكان خراب الفلسفة وافلاسها ، ولا فرق فى ذلك بين الحسية الانطباعية (هيوم) وبين المثالية الذاتية (بركلى) ، فضلا عن أن كليهما تيار أنا وحدى solipsisme يستحيل فيه اقامة خبرة مشتركة أو اقامة موضوعية عقلية .

وجاء كانط بفلسفته النقدية محاولا اصلاح ما أفسده ديكارت فتصور وضع المادة الحسية فى الصورة الذهنية الفارغة واعتبر أن التصورات بلا حدوس فارغة وأن الحدوس تصورات عمياء ، ولكنه حل ثنائية العصر الحديث على طريقة الشكل والمضمون ، أو بتعبير أرسطو ، على طريقة الحاوى والمحوى ، وظل الشعور مجرد « نسيج عنكبوت » وظيفته اصطياد المادة من العالم الخارجى دون أن يكتشف الشعور الحى والتجربة المعاشة . لم تستطع الفلسفة النقدية بمعارضتها الدجماطيقية والشك اكتشاف بعد ثالث مستقل عن هذين الخطين المتعارضين وظل سؤال كانط الأساسى : كيف يكون الحكم القبلى التأليفى ممكنا ؟ » دون حل جذرى . لقد حاول كانط جعل الميتافيزيقا علما ولكنه اشترط عدم تجاوزها العالم الحسى فى حين أن الفلسفة أصبحت علما محكما وذلك بجعل وظيفتها الأساسية تحليل الشعور والتعرف على ما به من تجارب حية . لقد استطاعت الفينومينولوجيا بذلك توسيع نطاق الحساسية الترنسندنتالية وجعلها شاملة لكل مظاهر الحياة كما استطاعت اعادة الفاعلية المنطق الترنسندنتالى ، وجعلت من الحدس الحسى حدسا نظريا eidetique للماهيات . لم تعد المثالية النقدية فى نهاية الأمر كونها مجرد جمع لكل أخطاء العصر الحديث وازمة العلوم الانسانية فيه : صورية المذهب العقلى ، مادية المذهب التجريبى ثم الغائهما معا لحساب الأخلاق والدين ، أى أنها تمثل عودا لسقراط ، ولم تزد فى النهاية عن كونها تيارا عمليا خلقيا يعلم الناس أفضل أسلوب فى الحياة ، صحيح أن المنطق ظل علما معياريا قبليا ولكن المثالية النقدية لم تحقق شيئا من مشروع الشعور الأوروبى وهو اقامة الرياضة الشاملة التى أصبحت الفينومينولوجيا بديلا لها .

وتمثل المثالية المطلقة عند هيجل وفشته تقدما حقيقيا فى اقامة مشروع الحضارة الأوروبية لاقامة علم شامل ، فقد استطاعت لأول مرة القضاء على هذه الثنائية الحادة بين الاتجاه العقلى والاتجاه التجريبى وذلك باعادة الوحدة الباطنية بينهما فى التوحيد بين الروح والمادة ، بين العقل والوجود ، بين المثالى والواقعى ، بل انها استعملت لفظ الفينومينولوجيا ووصفت بناء الشعور الفردى وتطوره واستطاعت الدخول فى غائية التاريخ ووصف بناء الشعور الأوروبى وتطوره وعبرت

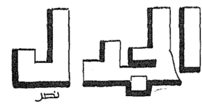
عن ثنائية العصر الحديث التي تكشف عن مأساته باسم الشعور باليؤس الذى يعبر عن الفصم بين الروح والمادة .

ولكن بالرغم من معارضتها معارضة مطلقة لكل اتجاه الا أنها لم تستطع التخلص من رواسب الاتجاه التجريبي ، ولم تستطع تحويل الفلسفة الى علم محكم بل ظلت مجرد وعى الانسانية بذاتها ، وتحقيق العقل لذاته ، وقد تم ذلك فى جو اسطورى شاعرى ، كان الفلاسفة فيه خالقين لشعر ولتصورات لا محللين لها . أى أن المثالية المطلقة لم تستطع أن تتحول الى نظرية فى العلم . لقد نسى هيجل منهج الايضاح، لذلك ظل الجدل غامضا يختلط فيه كل شيء بكل شيء ، وارتبطت الفلسفة بالدين الى الأبد ، وأصبح الاعتقاد الدينى هو المثل الأعلى لليقين الفلسفى ، ولذلك انتهت الى الاغراق فى الرومانسية سواء فى مثالية الذات (فشته) ، أو فى المثالية المطلقة (هيجل) أو فى فلسفة الهوية (شلنج) .

٣ ــ نقطة النهاية فى الشعور الأوروبى ــ الكوجيتو الفينومينولوجى : لقد استطاعت الفينومينولوجيا اخيرا بتصورها للشعور على انه قصد متبادل ضخم الخطين المتباعدين العقلى والتجريبى نحو نقطة واحدة واصبحا خطين ملتقيين فى الكوجيتو كما تصوره هوسرل على أنه وحدة للذات والموضوع . والأنا والآخر ، والعقل والتجربة ، وبالتالى تحقق مشروع الحضارة الأوروبية فى اقامة علم شامل وهو الفينومينولوجيا التى كان الجميع يبحثون عنها ويحاولون التعبير عنها فى أشكال متعددة . لقد كان هذا المشروع هو الباعث الأول الذى يحرك الحضارة الأوروبية ، وهو الغائية الكامنة فى تاريخها ولذلك كان الشعور الأوروبى تقدميا بالطبع يسير نحو غاية وينمو نحو الكمال ، ويتسم بطابع البحث الدائب والمستميت عن الحقيقة (حتى لقد قال لسنج : لو أعطيت لى الحقيقة فى اليد اليمنى والبحث عن الحقيقة فى اليد اليسرى لاخترت اليد اليسرى) . أصبحت الفينومينولوجيا هى « الفلسفة الأولى » التى كان يبحث عنها القدماء وكتب هوسرل بالفعل جزأين لها سنة ١٩٢٤/٢٥ ، كما أصبحت مشروت ليبنتز لاقامة رياضة شاملة ، اذن لقد انتهى دور الحضارة الأوروبية بعد أن وضعت آخر مولود لها ، ولم يعد لها أى دور الا فى تطبيق المنهج الفينومينولوجى فى العلوم الأوروبية ، وتوجيه الدراسات الانسانية نحو حلقات البحث الفينومينولوجى وهو ما حاول تلامذة هوسرل المباشرون أو التالون له تحقيقه فى علم النفس والمنطق والفلسفة والأخلاق والاجتماع واللغة والتاريخ والجمال والقانون والدين .

لا تخرج الفينومينولوجيا بهذا المعنى عن كثير من الدعوات المعاصرة المتشابهة التى تحاول البحث عن بعد انسانى خاص لعلوم الانسان لا يتمثل فى التصورات العقلية كما كان الحال عند العقليين ابتداء من ديكارت حتى آخر ممثل لهم ، وهو برنشفيج Brunschvicg ، ولا يتمثل فى التجارب الحسية كما كان عند التجريبيين ابتداء من بيكون حتى الوضعية بكل صورها . لقد حاول **برجسون** مثل هوسرل شق طريق ثالث بين المثالية والواقعية ووجده فى **الشعور الداخلى بالزمان** الذى هو فى نفس الوقت شعور بالخلود على هيئة ديمومة تكشف عن حرية الانسان وعن ارادته الباطنة دون أى أساس عقلى ، كما حاول **مونيه** E. Mounier **وماكس شيلر** M. Scheler اكتشاف الانسان الذى لا هو بالعقل الخالص ولا بالحس الخالص ولا بالارادة العمياء فاكتشفا معا بعد **الشخص** وحللا معا أبعاد الشخصية الانسانية . كذلك رفض **بلوندل** M. Blondel موقف العقليين والتجريبيين معا محاولا التعرف على بعد انسانى خاص وجده فى **الفعل الصاعد** ينطلق من الفرد حتى يضم الانسانية جمعاء ، وهو أيضا الطريق للكشف عن الله وظهوره من خلال الانسان، والوجوديون جميعا، من **كيركجارد** حتى **سارتر** ، يرفضون المذاهب العقلية ويجعلون ذلك مقدمة أولى لهم فى **التمييز بين المعرفة والوجود ورفض المعرفة والبدء بالوجود ، كما يرفضون الموضوعية العلمية ويؤكدون تعالى الذات أى تجاوزها للموضوعية وندها عنها . أى ان مهمة الفكر المعاصر هى البحث عن طريق ثالث على مايقول شتراسر** strasser فى دراسته « **الفينومينولوجيا والعلوم الانسانية** » **بين المذهب العقلى والمذهب التجريبى ، والعثور على نقطة التقاء بينهما أو على كوجيتو جديد يضم هذا الفهم المفتوح ، وتنتهى هذه المأساة التى مزقت الشعور الأوروبى والتى كانت سبب أزمته الكبرى فى العصر الحاضر ، وهى عدم القدرة على التعرف على نوعية الظاهرة الانسانية ، واستقلالها عن العلوم الرياضية والعلوم الطبيعية على السواء . فالانسان ليس صورة عقلية وليس مادة تجريبية ولكنه تجربة حية ، ومن ثم كانت الفينومينولوجيا دعوة للحياة التى لا يمكن وضعها فى نطاق العقل أو فى نطاق المادة . لقد اعتبر هوسرل نفسه نبى العصر مثلما كان سقراط وأوغسطين من قبل وديكارت من بعد ينبه الحضارة الاوروبية الى الخطر المحدق بها والذى سيؤدى بها الى الهلاك ، وذلك لأن ازمة العلوم الانسانية اخطر بكثير مما نتصور اذ انها تعبر عن أزمة الانسانية الأوروبية نفسها أو ازمة الوجدان الأوروبى الذى فقد عالم الحياة** ، هذه الأزمة التى يعبر عنا هوسرل بعديد من الألفاظ مثل : فقدان ، خسارة ، قلب ، انهيار ، سقوط ، فصم ، خلط ، استبدال ، ضيق ، ضياع ، فقر ، نسيان ، سوء فهم ، كسر .. الخ . الى آخر ما عبر عنه الوجوديون على طريقتهم فى تحليل الوجود الفردى من هم وحصر وضيق واختناق وسقوط وفصم . وبالتالى **تكون الفينومينولوجيا بهذا المعنى دعوة مثالية من نوع جديد ، مثالية الشعور ، أو تيارا روحيا اشراقيا من نوع تقليدى مثل سقراط وأوغسطين ، أو ان شئنا نزعة صوفية يسهل على أى اتجاه اجتماعى عملى ــ كالماركسية ــ رفضها . فهى وان كانت جاءت كرد فعل لأخطاء علمية فى العلوم الانسانية التى تبنت العلوم الطبيعية أو العلوم الرياضية كنموذج لها ، الا أنها لم تكن فى نهاية الأمر سوى استكشاف لعالم الشعور .**

حسن حنفى



والعلوم الإنسانية

إمام عبد الفتاح إمام

لن تجد بين الفلاسفة الذين استخدموا كلمة « الجدل » ـ أو الذين يوصفون عادة بأنهم جدليون ـ اتفاقا عاما حول المعنى الدقيق الذى استخدموا فيه هذه الكلمة . وربما كان فى استطاعتنا أن نقول ـ مع سيدنى هوك ـ أن فئة قليلة من الفلاسفة هم الذين استخدموا هذا المصطلح بنفس المعنى الذى استخدمه فيه أسلافهم : « بل انه لمن النادر أن تجد فيلسوفا يستخدم هذا المصطلح باتساق ، وبمعنى واحد ، فى جميع مؤلفاته » . (انظر مقال هوك عن « الجدل فى المجتمع والتاريخ » فى كتاب « قراءات فى فلسفة العلم » ص ٧٠١ وما بعدها ـ وقد قام بنشره هـ فايجل وماى بروديك ـ نيويورك عام ١٩٥٣) .

ولقد أحصى « لالاند » فى قاموسه عشرة معان مختلفة لهذا المصطلح عند كبار الفلاسفة وحدهم ، ثم أضاف : « ان هذه الكلمة تقلبت عليها معان تختلف فيما بينها أتم الاختلاف ، حتى أنك لا تستطيع أن تستخدمها استخداما مجديا اللهم الا اذا حددت على وجه الدقة المعنى الذى سوف تستخدمها فيه ٠٠ » (العجم الفنى والفلسفى - المجلد الاول ص ١٦١ وما بعدها طبعة ١٩٢٦ باريس) ٠ ولعل هذا هو السبب فى أن بعض الباحثين يشبهون التحولات الكثيرة التى طرأت على كلمة « الفلسفة » ذاتها - وفى أن بعضهم الآخر ييأس - فى نفور شديد - من تحديد معنى لها ، وينتهون الى رفضها رفضا قاطعا بوصفها لا تعبر - فى نظرهم - الا عن طريق ملتوية ومصطنعة ، وأفكار تخلو تماما من كل مضمون ٠

والحق أن « كلمة الجدل » استخدمت لتصف ألوانا مختلفة من التصورات والافكار والأنشطة والمواقف المتباينة أشد ما يكون التباين ٠ ومن هنا فاذا ما تساءلنا : ما الجدل ٠٠ ؟ كانت الاجابة مستحيلة - كما يقول هوك ، بغير دراسة للتاريخ الطويل الذى مرت به كلمة الجدل من أفلاطون حتى يومنا هذا : فالشىء الوحيد المؤكد هو أن أفلاطون ، وأرسطو ، وكانت ، وهيجل ، وماركس ، وكيركجور ، وبشلار ٠٠ الخ الخ استخدموا جميعا كلمة الجدل ، وأنهم -جميعا أيضا - استخدموها بمعان مختلفة : وتلك هى القاعدة العامة التى تجدها فى كل حقبة من تاريخ الفلسفة ٠ (هوك فى المرجع السابق) ٠ غير أن هذا الاختلاف الواسع بين الفلاسفة فى استخدامهم لهذا المصطلح يثير تساؤلا يفرض نفسه ، ولا يمكن للباحث أن يسقطه من حسابه والا بدا بحثه ناقصا مبتورا - وهذا التساؤل هو : لماذا اذن استخدم هؤلاء الفلاسفة جميعا هذا المصطلح بالذات ٠٠ ؟ هل هناك سحر أو جاذبية هى التى تدفع الفيلسوف الى استخدام هذا المصطلح ٠٠ واذا كان ذلك صحيحا فما سحر هذه الكلمة وجاذبيتها ٠٠ ؟ ومن ناحية أخرى أليس هذا الاستخدام المتعدد التنوع نفسه يعنى بالضرورة أن هناك خيطا مشتركا بين هذه المعانى المختلفة ٠٠ ؟ وقد يقال فى معرض الرد على هذه الأسئلة : ليس فى الامر سحر ولا جاذبية ولا شىء من هذا القبيل على الاطلاق ، وكل مافى الأمر أن الفلاسفة استخدموا هذا المصطلح « لغموضه » ٠ فقد أتاح لهم هذا الغموض نفسه فرصة تأويل هذه الكلمة وادخال معان جديدة لم تكن لها من قبل ، وذلك لأن عدم توافر المعنى المحدد الواضح لمصطلح من المصطلحات يجعله نهبا لتأويلات شتى وتفسيرات متعددة ويتيح الفرصة لاضافة الكثير من المعانى الجديدة ٠ لكن هذا الرد فى الواقع غير مقنع لأننا سوف نعود الى التساؤل من جديد : ألا يتأثر المصطلح - أى مصطلح - كثيرا أو قليلا بالمعانى التى تعاقبت عليه طوال تاريخه ، بحيث يكون له فى النهاية - رغم البصمات الكثيرة التى تركت آثارها عليه - علاقة مشتركة بجميع هذه المعانى ٠٠ ؟ اننا نستطيع أن نقول ان الجدل قد ارتبط طوال تاريخه بخاصيتين أساسيتين هما : **الوعى والحوار** بحيث لا يكون له معنى بدونهما (ومن هنا كان الربط بين المادة والجدل يعنى بالضرورة أن ننسب للمادة لونا من ألوان الوعى » وهما خاصيتان يمكن ادماجهما فى خاصية واحدة هى **ديناميكية** الفكر وفاعليته بصفة عامة على نحو ما سنعرف بعد قليل - ومن ناحية أخرى : لماذا نرد هذه الاستخدامات المتعددة للجدل الى « غموض » المصطلح ولا نردها لخصوبته ٠٠ ؟ **ان الفكرة الخصبة قد لا تكون « حقيقة نهائية » لكنها مع ذلك قد تكون أهم مئات المرات لسير الفكر وتطوره من الأفكار « الحقيقية » ٠ خذ مثلا جدول الضرب** « تجد أنه حقائق لا شك فيها لكنه مع ذلك جامد ميت : فما الذى يمكن أن يؤدى اليه فى المستقبل؟ لا شىء على الاطلاق ! أما الفكرة الأولى التى قام عليها نسق الرياضية عند اقليدس فهى - لأنها ليست حقيقة نهائية - فقد أدت الى ظهور أفكار أخرى تعارضها قامت عليها ألوان جديدة من النسق الرياضية (عند جاوس ، ولوباتشنسكى وريمان ٠٠ الخ الخ) ٠ **وباختصار الفكرة الخصبة** هى تلك التى تؤدى الى فكرة أخرى مؤيدة للأولى **أو معارضة لها** (وهى فى أغلب الاحيان تكون معارضة) فخصوبتها لا تعنى أنها « حقيقة نهائية » بل تعنى أنها توحى بأفكار أخرى كما يقول « جون ديوى » وهو نفسه أحد الفلاسفة الذين تأثروا بشكل مباشر بالجدل الهيجلى - ذلك **لأن الشىء - كما يقول براديلى بحق - يستحيل عليه الحركة اذا اكتملت حقيقته ، فاذا ما أصبح حقيقة نهائية مكتملة كان فى ذلك موته وفناؤه** لكن ألا تعنى هذه النتيجة التى انتهينا اليها أن الفكرة الخصبة هى باختصار شديد **الفكرة الجدلية** ، أو هى الفكرة التى تحمل فى جوفها أفكارا أخرى تعارضها ، أو هى الفكرة التى **تحمل سلبها فى داخلها** كما يقول هيجل ٠٠ ؟

ولا نود فى هذا المقال أن ندخل فى تفريعات طويلة حول مناقشة العقل الجدلى ، أو تحديد الماهية الدقيقة للجدل ٠٠ الخ ـ فليس هنا مجال مثل هذه المناقشات ـ لكنا نود أن نعرض فى ايجاز لسؤالين هامين : **الأول :** هل يمكن أن تصنف المعاني المختلفة لكلمة الجدل فى خطوط تغطى الاستخدامات المختلفة لهذه الكلمات ٠٠ ؟ **والثاني :** هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين هذه الخطوط العريضة للجدل وبين العلوم الانسانية ؟

تصوران للجدل ٠٠

يمكن أن تندرج المعانى المختلفة التى استخدمت فيها كلمة الجدل فى **تصورين أساسيين** هما (١) تصور الجدل على أنه نمط من **التغير** يحدث فى الوجود بصفة عامة سواء أكان المقصود بالوجود هنا : الطبيعة ، أم الانسان ، أم المجتمع ، أم هذه المجالات جميعا ٠ (٢) ـ التصور الثاني وهو التصور الذى يجعل الجدل **منهجا خاصا** لتحليل مثل هذا التغير ، وكثيرا ما يقال ان هذا المنهج ، أى منهج التحليل الجدلى ـ يقابل بمعنى ما من المعاني التغير الجدلى الذى يسرى فى الوجود ، على أنه يجب أن تكون على وعى بأن التغير المقصود هنا ليس مجرد نقلة فى المكان كما كان يقول أرسطو قديما لكنه انتقال من وضع الى نقيضه ومن حالة الى ضدها ٠

وحين يوحد التصور الأول بين الجدل والتغير ويعتبرهما شيئا واحدا فانه بذلك يعارض بعض الافكار الاخرى عن الطبيعة أو عما فوق الطبيعة ، التى ينظر اليها على أنها ليست جدلية :كالصورة أو المثال ، أو النمط الذى لا يتغير ٠٠ الخ ٠ وقل مثل ذلك فى تصور الجدل على أنه منهج سواء أخذ على أنه منهج للتحليل أو الكشف أولهما معا ـ فهو دائما يتعارض مع بعض المناهج الاخرى التى يقال أنها ليست جدلية كالمنهج الميتافيزيقى والمنهج الحسى المشترك ٠٠ الخ ٠

وهذه الفكرة الأخيرة لها أهمية بالغة لأن التبرير الذى يقدم عادة لاستخدام المنهج الجدلى تعتمد قوته على أنه يؤدى بنا الى الكشف عن حقائق جديدة ، أو الى فهم أعمق لوقائع موجودة ، وتفسير أكثر كفاية للحقائق القديمة ـ لا تتيسر لنا مع أى منهج آخر ٠

ولعله من المصادفات الغريبة أن نجد الفيلسوف الألمانى هيجل قد جمع فى فهمه للجدل هذين التصورين معا ـ وهيجل يمثل قمة الفلسفة والخلاصة التى وصل اليها الفكر البشرى حتى عصره ـ فالجدل عنده هو من ناحية تغير يسرى فى قلب العالم المادى والروحي على السواء ، وهو من ناحية أخرى المنهج الدقيق للمعرفة ـ يقول فى « موسوعة العلوم الفلسفية » : الجدل هو بصفة عامة مبدأ كل حركة وكل ما يتم فى العالم، وهو كذلك روح كل معرفة علمية حقة » (فقرة ٨١ اضافة) ٠

الجدل ٠٠ والعلوم الانسانية

● نصل الآن الى السؤال الثانى : هل يمكن أن تكون هناك علاقة بين الجدل والعلوم الانسانية ؟ وبأى معنى من المعنيين السابقين يمكن استخدام الجدل فى العلوم الانسانية ٠٠ ؟ الواقع أنه يمكن أن نعثر على المعنيين معا في ميدان هذه العلوم ، اذ يمكن أن يقال من ناحية ان الافكار التى تعالجها العلوم الانسانية قد يساعد فى حل المشكلة المزمنة التى تعانى منها هذه العلوم وأعنى بها مشكلة المنهج ٠ لكن ذلك يحتاج الى شىء من التفصيل : ـ

لابد أن نقول بادىء ذى بدء أننا نعنى بالأفكار الجدلية تلك الافكار التى ترتبط ـ رغم تعارضها ـ ارتباطا وثيقا بحيث تعتمد كل فكرة على الاخرى ولا يكون لها معنى بدونها ، فليس المهم هنا هو ارتباط الافكار فحسب ، لكن الأهم من ذلك ارتباطها بالتضاد ٠ فكيف يمكن أن توجد مثل هذه الأفكار فى العلوم الانسانية ٠٠ ؟ الحق اننا لو أمعنا النظر فى علم من العلوم الانسانية لوجدنا أن انتشار مثل هذه الافكار لا يحتاج الى دليل : خذ ـ مثلا ـ علم الاجتماع تجد أن الاقطار الاساسية فيه تعتمد على أضدادها: فمفهوم المجتمع نفسه يعنى أنه يتكون من الفرد من **الجماعة وما بينهما من مصالح متعارضة** ، وهو يسعى الى حل هذا التعارض عن طريق سن مجموعة من القوانين ، لكن **القانون** نفسه يعتمد أساسا على **القوة ، والبناء** ـ فى أى مجتمع ـ يعتمد بالضرورة على الهدم ويرتبط به ، والنظام يعتمد على الضغط أو القهر ، والتنظيم الاجتماعى يسبقه الصراع ويرتبط به ، واقامة أى نظام اجتماعى يعتمد أساسا على قمع الآخرين ٠٠ الخ (انظر

فى لك : الفهم الفلسفى والعقيـدة الدينية • لاريك فرانك ص ١٤) ويقدم لنا هيجل أمثلة أخرى على هه الاقطار الجدلية فيقول : « انه يكفى أن نتذكر كيف تبرهن لنا التجربة العامة على أن الحد الاقصى لحالة من الحالات أو لفعل من الافعال ينقلب فجأة الى ضده ، وهذا اللون من الجـدل وجد بطرق شتى فى كثير من الامثال ، فهناك مثل يقول « العدل المطلق ظلم مطلق » وهـو يعنى أنك اذا طبقت حقا من الحقوق المجردة الى حده الاقصى فانك ترتكب عملا خاطئا • ونحن جميعا نعرف أن الحد الأقصى للفوضى فى الحياة السياسية ، والحد الاقصى للاستبداد يؤدى عادة كل منهما الى الآخر » (موسوعة ـ فقـرة ٨١ اضافة) • واذا ما انتقلنا من الحياة الاجتماعية الى الحياة النفسية وجدنا علم النفس يقدم لنا أمثلة لا حصر لها عن هذه الأفكار الجدلية • فهو كثيرا ما يتحدث عن الشروط الداخلة والشروط الخارجية للسلوك الواحد ومدى ارتباطهما ، وعن عمليتى البناء والهدم ، وعن اللذة والالم وكيف أنهما « يجتمعان معا كما فى حالة التـألم من ضرس مريض • فاذا ضغطنا على الضرس بحيث يصبح الالم حادا نشـعر فى نفس الوقت بلذة قوية يصحبهـا انفراج فى الصـدر وسهولة فى الحركات التنفسية » •

الدكتور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ص ٧٦ من الطبعة الثانية) •

ولقـد أشـار هيجـل الى هـذا المعنى حين قال : « ان الدرجـات القصـوى للألم والفـرح ينقلب احـداها الى الأخرى فالقلب المنـعم بالفرح يعبر عن فرحـة بالدمـوع ، وغالبا ما يعبر الحزن العميق عن نفسه بابتسامة (الموسوعة ـ فقرة ٨١ اضافة) • ويسوق لنا الدكتور يوسف مراد مثلا رائعا فى كتابه السالف الذكر فيقول : « **العاطفة لا تنشأ منفردة منعزلة بل تكون دائما محاطة بمواكب من العـواطف الاخرى ، بعضها مؤيد لها وبعضها الآخر مناهض لها • وتصطدم العاطفة بشتى العقبات التى يخلقها العقل حينا والتى تثيرها الاوضاع الاجتماعية حينا آخر ، فللعاطفة منطق خاص يخالف منطق العقل فيقرر لنا منطق العقل أن الضدين لا يجتمعان ، ولكن هذا القانون لا ينطبق بتاتا على العاطفة ، فان قانون العاطفة الاساسى هو : قانون اجتمـاع الضدين • وقد أقامت مدرسـة التحليل النفسى الدليل على صحة هذا القانون ويطلق عليه ••**

Law of ambivalance • **وليس الصراع قائما بين العواطف المختلفة فحسب ، بل هو قائـم فى طيات العاطفة الواحدة نفسها ، فكل عاطفة مهما كانت سامية تحمل فى ثناياها بذور العاطفـة المناقضة لها • فالشفقة تكون دائما ممزوجة بشىء من القسوة ، والتعذيب بشىء من العطف ، والحب بشىء من البغضاء ، وعناصر البغضاء تظهر حينا وتختفى حينا آخر ، وهى تعمل أحيـانا عمـلا دفينـا دون أن يشـعر بهـا الشـخص ، وقد تكون عناصر البغضـاء من دواعى تقـوية الحب وتدعيمه** » (مبـادىء علم النفس العـام ص ١٤٧ ـ ١٤٨ من الطبعة الثانية عام ١٩٥٤) ولكن قد يقال فى معرض الاعتراض : ان هـذا النص مع قيمته التى لا تنكر لا ينسحب الا على حالة واحدة من حالاتنا النفسية هى العاطفة ، وليست العاطفة هى كل ما يدرسه علم النفس • ونحن نجيب بدورنا : لقد سبق أن ذكرنا أمثلة من علم النفس لحالات أخرى ، وفضلا عن ذلك فان للعاطفة مكانة خاصة فى الحياة النفسية حتى أنه ليقال أحيانا ان شخصية الفرد أسسها تتحدد وفقا للعاطفة المسيطرة ، ومن هنا فنحن لانملك ردا على هذا الاعتراض ـ فضلا عما ذكرنا ـ أبلغ من أن نسوق النص الآتى من الكتاب نفسه : « **الاتجاه** الذى يتخذه **تفكيرنا ، والصـبغة** التى تصطبغ بها تأويلاتنا ، والكيفيات التى تشـكل حركاتنا وأوضاعنا **ترجع فى نهاية الامر الى العاطفة** السائدة المسيطرة • ولا شك ان الفيلسوف أو العالم نفسه يستمد من العاطفة أسباب تنشيط تأملاته واطرادها اذ أن الاهتمـام الذى تثيره الافكار لا يكون قويا الا بمقدار تأثيرها فى الوجدان **وللحالات الوجدانية تأثير بالغ فى عمليات التذكر** •• أما تأثير العواطف فى الاعتقاد ، فلا يقـل جلاء وشدة عن تأثيرهـا فى تداعى الأفكـار واستيحائها •• » (ص ١٤٩) وينتهى الدكتور يوسف مراد من هذا كله الى هـذه النتيجة : « **خلاصة القول أن الصراع دائم الاحتـدام بين** العواطف نفسها من ناحية ، وبين العواطف والعقل من ناحية أخرى » (ص ١٥٠) • والازمـات النفسية هى الحالات التى يخضع فيها الانسـان **لتجاذب قوى بين دوافع متعارضة** ، ويصـبح الانسان عرضة للاضطرابات النفسية والجسمية ان لم يوفق الى حل الأزمة بطريقة سريعة مرضية ، حقيقة كانت أو وهمية • (نفس المرجع السابق ص ١٥١) •

وإذا ما انتقلنا من الحياة النفسية الى الحياة الاخلاقية وجدنا : « أن العقل الاخلاقى يتطلب من الفرد أن يقهر أنانيته ويحيا للخير العام »، وأن يتخلى عن فرديته فى سبيل الصالح العام ، لكن هذه المحاولات تجد حدودها فى الطبيعة الفطرية للارادة البشرية • فالفرد فى محور وجوده الاساسى يقاوم مقاومة عنيدة متطلبات العقل ، انه يريد أن يكون كما هو ، ويرغب فى التعبير عن فرديته الخاصة فى حياته • وتلك هى الخاصية العجيبة للانسان : فعناده الفطرى وعدم اتساق ردود أفعاله • **هى التى تجعل الصراع فى الحياة العملية أمرا لا يمكن تجنبه** » (اريك فرانك « الفهم الفلسفى والحقيقة الدينية ص ١٤ ـ اكسفورد ١٩٥٢) •

ويقول هيجل : « اننا نجد الجدل فى ميدان الاخلاق فى تلك الاقوال المعروفة جيدا : « الغرور يسبق الانهيار » و « سرعان ما تقل السكين الحادة » و « المفروط فى الخداع والحيلة يخدع نفسه » ، (موسوعة فقرة ٨١ اضافة » • وهذه الأمثلة موجودة فى اللغة العربية ـ العامية والفصحى على السواء (« اذا اشتد الكرب هان » و « أضيق الأمر أدناه الى الفرج » و « لا تتم الحيلة الا على الشاطر » و « الشىء اذا زاد عن حده تقلب لضده » الخ الخ) ـ لكن الامر لا يتوقف عند حدود مجموعة من الامثلة هنا وهناك ،لكنه أهم من ذلك وأعم ، فما نريد ابرازه هنا هو أن الافكار الاخلاقية نفسها أفكار جدلية : فالفضيلة لا يكون لها معنى الا من حيث ارتباطها بالرذيلة ، والخير لا يفهم الا من خلال الشر ، والخطيئة لا تفهم الا من حيث ارتباطها بالله (ولقد كشف كيركجور النقاب عن الفكرة الأخيرة بطريقة لا تدع مجالا للشك) والأمانة لا تفهم بمعزل عن السرقة ؟ وليس السلوك الأخلاقى سلوكا ايجابيا بينما السلوك اللا أخلاقى مجرد سلب للسلوك الاول ، بل ان كلا منهما يمكن أن ينظر اليه على أنه ايجابى وسلبى فى أن معا لأن كلا منهما فعل موجب : فالشخص الامين هو الذى لا يسرق والسارق هو غير الأمين ، وما هو سلب من وجهة **نظر الدائن** ايجاب من وجهة نظر المدين ، والعكس صحيح أيضا ، وقد أوضح هيجل ذلك بطريقة رائعة •

أما عن ميدان « التاريخ » فيرى « كولنجوود » « اننا حين نتحدث عن الاقطار الداخلية التى تنبثق منها الأحداث التاريخية ، فاننا **لا نستطيع أن نتفادى استعمال الالفاظ الجدلية** كما هى الحال مثلا حين نعرض للتناقض بين الانظمة الدينية التى تستند الى استقلال الكنيسة والفكرة الاسقفية • فلا بد لنا من أن نسلم بأن العلاقة بين فكرة « كهنوتية » جاءت عن طريق الوراثة من الرسل وفكرة « كهنوتية » لا تقوم على هذا الاساس علاقة جدلية ونجد استنادا الى وجهة النظر هذه أن المدنية الاغريقية هى تحقيق للفكرة الاغريقية عن الانسان ، وأن المدنية الرومانية هى تحقيق للفكرة الرومانية عن الانسان ، وبين العلاقة بين هاتين الفكرتين علاقة جدلية •• الخ الخ » (فكرة التاريخ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ من الترجمة العربية)

المنهج الجدلى •• والعلوم الانسانية

سبق أن ذكرنا فى تحليلنا لفكرة الجدل بصفة عامة أن هناك تصورا يجعل الجدل منهجا خاصا لتحليل التغير ، وأنه يقال أحيانا أن هذا المنهج يتفق مع التغير الجدلى الذى يسرى فى الوجود ، ولعل أوضح مثال على ذلك هو التحليل الماركسى لتطور المجتمع ، فها هنا نجد أن التغير الجدلى الذى يخضع المجتمع فى سيره يتفق تماما مع التحليل الجدلى لهذا السير ، أعنى أن القوانين التى يخضع لها تطور المجتمع البشرى (وحدة الاضداد ، ونفى النفى ، وتغير الكم الى كيف) هى نفسها قوانين المنهج الجدلى عندهم ، ومن هنا كان فهم التطور الاجتماعى لا يعنى أكثر من الكشف عن هذه القوانين التى تحكم هذا التطور حين ينتقل المجتمع من مرحلة الى أخرى : ففى استطاعتنا أن نرى التناقض كامن فى أقدم أشكال النظم الاجتماعية وهو نظام المشايعة البدائية ، فهو موجود بين مصالح الافراد الذين تتكون منهم القبيلة الواحدة ، ثم هو موجود بين القبيلة والقبائل المعادية لها ، وهو موجود أخيرا بين المجتمع القبلى بصفة عامة وقوى الطبيعة المعاكسة • كما أن الملكية خضعت لسلسلة طويلة من نفى النفى فقد بدأت بالملكية العامة ، غير أن هذه الملكية العامة التى كانت شائعة فى العصور البدائية أصبحت فى المراحل العليا من التطور الزراعى عائقا للانتاج ولهذا الغيت أو سلبت ، وتحولت بعد سلسلة طويلة أو قصيرة من الحلقات الوسطى الى ملكية خاصة حين مارس الانسان الزراعة • واستقرت القبائل الرحل واقتسم أفرادها الارض ، وهكذا عرف الانسان التملك ، ونشبت فيه الرغبة

في توسيع رقعة الارض التي يملكها • ولكن حين تطورت الزراعة من جديد الى مرحلة أعلى ، أصبحت الملكية الخاصة عائقا وظهرت الحاجة الى الغائها أو سلبها وكان لا بد من أن تعود الملكية العامة من جديد لا في صورتها القديمة بل في اطار آخر جديد بحيث لا تصبح عائقا للانتاج أو انما متحررة من جميع القيود بحيث تتمكن من استغلال المكتشفات الحديثة (راجع كتابنا عن : المنهج الجدلي عند هيجل ص ٢٠ ٤ ــ دار المعارف) ومن المهم أن نلاحظ هنا أن النفي لايعني الفناء ولكنه يعني السلب والمحافظة في أن معا فالعناصر الجوهرية في الظواهر القديمة لا تفنى، وانما يحتفظ بها في صورة جديدة في مراحل التطور الاعلى ، فالانسان البدائي ــ مثلا ــ في المرحلة الاولى من التطور الاجتماعي صنع لنفسه أدوات مصنوعة من الحجارة ، فلما تطور المجتمع ألغيت هذه الأدوات وحل محلها أدوات معدنية فكانت الثانية سلبا للأولى ، لكنها مع ذلك احتفظت بالعنصر الاساسي في الادوات القديمة كقدرتها على القطع وشكلها ــ كما هي الحال في الفأس الحجرية والفأس الحديدية ، وما يقال على المجتمع القديم يقال أيضا على المجتمع الحديث فصناعة الآلات كانت تقدما هائلا في تطور أدوات الانتاج ، فآلة النسيج ــ مثلا ــ كانت نفيا للنول اليدوي الا أنه نفي جدلي ، بمعنى أنها حافظت على مبدأ العمل في النول اليدوي القديم ، وهذا ما يحدث في التقدم التكنولوجي بصفة عامة : فالتصميمات الجديدة للآلات هي نفي للآلات القديمة مع المحافظة على ما هو قيم في التجربة الانتاجية السابقة • وهذا هو الطابع العام للتطور الاجتماعي ، فهو لا يسير في خط مستقيم ولكن في خط « لولبي » ان صح التعبير فكل مرحلة يبدو أنها تعود الى الوراء لكنها في الحقيقة تصعد الى أعلى حاملة معها العناصر الاساسية في المرحلة السابقة وكل مرحلة من المراحل الذي يسير فيها التطور الاجتماعي تبرز تناقضاتها الخاصة ، أو مشاكلها التي لا تستطيع حلها فتتراكم بحيث يصبح انتقالها الى مرحلة أعلى أمرا لا مندوحة عنه • وهكذا تطور المجتمع البشري من المجتمع القبلي الى مجتمع الرق في عهد الرومان ، ومن مجتمع الرق الى النظام الاقطاعي في العصور الوسطى الذي كان يقوم على رقيق الأرض ، ثم تطور اقطاع العصور الوسطى الى الرأسمالية الحديثة التي وصلت في تطورها الى نقطة لم تعد فيها قادرة على حل المشكلات التي خلقتها كالبطالة المزمنة ، والفقر ، والهوة التي تفصل بين العمال وأصحاب رؤوس الاموال الخ • ومن هنا فهي لا بد أن تخلي مكانها لنظم تكفل العمالة والا من الاقتصادي للجميع أي لنظام يعتمد على الملكية الجماعية وتخطيط الانتاج لخير الجميع لا للربح الخاص •

هذا مثل من أمثلة الالتقاء بين الشعورين السابقين للجدل ، لكنه يقدم لنا « نظرية » عن التطور الاجتماعي أكثر مما يقدم منهجا للبحث والدراسة • ومن هنا نعود الى التساؤل : هل يمكن أن يكون للمنهج الجدلي ــ كمنهج للدراسة ــ دور في مجال العلوم الانسانية •• ؟ الاجابة تتحدد وفقا لنظراتنا لموضوع هذه العلوم أعني : الانسان • فاذا اعتبرناه جزءا من الطبيعة كان معنى ذلك أنه يخضع لحتمية صارمة ــ تشبه حتمية الظواهر الطبيعية ــ لا يكشف عن قوانينها الا استخدام المنهج التجريبي • أما اذا كان يتميز بعنصر فريد لا نظير له في ظواهر الطبيعة كان المنهج التجريبي وحده غير كاف لدراسته • أي أن المشكلة هنا تبرز مشكلة الحتمية والحرية عند هنا تبرز مشكلة الحتمية والحرية عند الانسان، ولهذا فان الطبيعيين يستبعدون أي منهج آخر غير المنهج التجريبي في مجال العلوم الانسانية ، بل ويذهبون الى القول بأنه اما أن يخضع الانسان لحتمية صارمة واما أن يكون حرا فيطرد في نفس الوقت من حظيرة العلم • غير أن الفهم الحقيقي لمشكلة الحتمية والحرية هذه ينبغي أن يكون فهما جدليا في صميمه ، **ذلك لأن تحليل وقائع السلوك البشري تكشف لنا بصورة دائمة عن الاسباب والبواعث التي صدر عنها هذا السلوك ، لكن** شعورنا بالحرية من ناحية أخرى لا يمكن أن يكون **أقل حقيقة من هذه الاسباب والبواعث** • ويمكن أن نقول بعبارة أخرى ان هذه الاسباب والبواعث مقدمات جوهرية ــ لكنها ليست ضرورية ــ للفعل وهي لا تصبح ضرورية الا بعد حدوثه • ومن هنا كان الجانبان ضروريان لفهم الانسان ، بل ان كل جانب منهما ضروري لفهم الجانب الآخر • والواقع أنه **يستحيل علي أن أمارس حريتي بدون حتمية** وذلك لأنني لا أستطيع أن أسلك الى الغاية التي حددتها لنفسي الا بفضل معرفتي السابقة بالقوانين الخارجية والقوانين الداخلية التي تسيطر على حياتي الباطنية •



وعلى ذلك فاننا نستطيع أن نقول بصفة عـامة انه من المستحيل أن نجد ماهية الانسان الحقيقية في المادة وحدها (أو في الجانب الطبيعي الذي يخضع للحتمية) ، ولا في الفكر وحده (أو في الجانب الداخلي الحر) » : ولكن الواقعة الاساسية التي ينبغي أن يبدأ منها كل فهم حقيقي للانسان هي أن الانسان ليس فكرا فحسب ، ولا هـــو طبيعـــة فقط لكنه : **الصراع الجدلي بين هـــذين الجانبين** » (اريك فرانك في المراجع السابق ص ٨) • وهنا نجد المنهج الجدلي يطل برأسه في ميدان العلوم الانسانية : فهل يجوز استخدام مثل هذا المنهج في ميدان هذه العلوم •• ؟ وهل يمكن أن يساهم في حل مشكلة المنهج التي تعاني منهـــا هذه العلولى •• ؟ اننا اذا ما صدقنا مايذهب اليه هيجل من ان الموضوع ـ لا الباحث ـ هو الذي يحدد المنهج الذي يسير عليه البحث ، واذا كان الموضوع ـ وهو الانسان ـ عبارة عن صراع جدلي بين هذين الجانبين ، أو هو المتناقضة التي لايمكن حلها بين هذين الجانبين كما يقول فرانك في كتابه السالف ـ فهل يكو المنهج الجدلي أقرب المناهج الى هذا الموضوع •• ؟ لكن ما المقصود بالمنهج الجدلي هنا ، وكيف يمكن الاستفادة منه في مجال العلوم الانسانية •• ؟

المنهج الجدلي كما يعرفه هيجل هو **المنهج الذي يجمع بين منهج الاستقراء التجريبي وبين منهـج الاستنباط العقلي** ، لكنه ليس مجـرد جمع أجوف بينهما ، وانما هو نفسه مركب جدلي منهما • فقد عرض هيجل لتصنيف المناهج التي يعتقد أن الناس لديهم عنها فكرة خاطئة : « فقد اعتاد الناس أن ينظروا الى المنهج التجريبي (وهو يسميه أيضا بالمنهج التحليلي) وكذلك الى المنهج الاستنباطي (وهو يسميه بالمنهج التأليفي) على أنها يعتمدان اعتمادا تاما على رغباتهم الخاصة ، وأن اختيار أحدهما دون الآخر أمر يتوقف أساسا على ميولهم ، ولكن ذلك وهم خاطىء : لأن اختيار أحدهما دون الآخر وسيلة للبحث يعتمد أساسا على موضوعات البحث نفسها • فهي وحدها التي تحـــدد المنهج الذي تسير عليه •• ومن هنا فقـــد وقع علم النفس التجريبي في خطأ كامل حين قام بتحليل السلوك البشري ورده الى مظاهره المختلفة ، ثم أبقى على هذه المظاهر معزولة بعضها عن بعض • ومن هنا بدا الموضوع الذي يدرسه علم النفس ويخضعه للتحليل كما لو كان نوعا من البصل تنزع قشرته واحدة بعد الاخرى » (الموسوعة ـ فقرة ٢٢٧ اضافة) • ومع ذلك فان هيجل يرى أن هذين المنهجين لازمان وقد حققا نجاحا في مجاليهمـــا الا أنهما لا يصلحان لدراسة الانسان ، والمنهج الصحيح عنده هو المنهج الجدلي ، وهو منهج تحليلي وتأليفي في آن معا (أي أنه منهج استقرائي وعقلي في آن واحد) ، ويضيف هيجل : **ان ذلك لا يعني أن هذا المنهج هو مجـــرد جمع لهذين المنهجين المتناهيين ، وانما هو يمزج بينهما ويدمجهمـــا في ذاته ، بحيث نرى التحليل والتأليف في كل خطوة من خطوات سيره** » (**موسوعة فقرة ٢٣٨** اضافة) ـ فهو حين يتقدم من الكلي المجرد عن طريق التخصيص شيئا فشيئا الى المعنى فهـــو تأليفي ، وهو لأنه يبدأ من المباشر ويتقدم من خلال المتوسط الى الكلي الذي يحوي المباشر السابق في جوفه فهو لذلك تحليلي • وبعبـارة أخرى : المنهج الجدلي منهج **تحليلي حين يعتمد على تحـلل الظاهرة الموجودة أمامه ويصعد منها الى الفكر (خطوة الاستقراء) وهو منهج تأليفي حين يهبط من الفكر المجرد الى الواقع العيني (خطوة الاستنباط العقلي) فهو حوار دائم بين الفكر المجرد والعينية المشخصة وهو تعبير صادق عما بينهمـا من صراع دائم** • والمنهج الجدلي بهذا الشكل يقدم لنا لونا جديدا من الحوار هو الحوار القائم بين ما هو عيني وماهـو



مجرد ، ثم هو من ناحية أخرى يعارض الفكرة القديمة التى كانت تذهب الى أن الفكر حين يدرك الموضوع فى عينيته وأنه لا يلبث أن يصوغ منه فكرة كلية مجردة تسقط الجزئيات ، ولا تبقى الا الا على خصائصه الكلية الاساسية وحدها • فها نحن أولاء نرى أن تهم الانسان فى عينيته فهما خالصا ليس الا وهما ، وقل مثل ذلك فى التصور المجرد تجريدا كليا على حد سواء ، فالمنهج الجدلى يكشف لنا عن القول بأن هناك تصورات مجردة تجريدا كليا عن الانسان بحيث لا تستدعى أى وقائع عينيه هو قول خاطىء تماما بل انه ليخلو تماما من المعنى ، ذلك لأن هذه الوقائع العينية الضرورية لكل تفكير ليست موضوعا من موضوعات الفكر ، ولكن لا بد لكل تفكير أن يستند اليها فى سبيل تجاوزها والارتفاع نحو الكليات المجردة صحيح ان الفكر فى نظر الجدليين يبدع المجردات باستمرار ، لكنه لا يتخذ منها بعد صياغتها مستقرا دائما وثابتا له ، وانما يعود القهقرى ويبحث عن تحقق عينى جديد يقوم مقامها ، ومن هنا كانت **ماهية الفكر الجدلى الحركة المستمرة من الاشياء المجردة ، أو المعانى العامة الى المعنى ، ومن المعنى الى المجرد •**

وقد يجوز لنا الآن أن نتساءل : هل يمكن استخدام مثل هذا المنهج فى ميدان العلوم الانسانية يعنى أن تستخدم هذه العلوم المنهج التجريبى فى كل مجال يتيسر لها فيه استخدامه ، ثم أن تكون على وعى فى نفس الوقت بأن الامر لم ينته عند هذا الحد وانما هناك خطوى أخرى هى الخطوة التأليفية بلغة هيجل ـ تستخدم فيها الاستنباط العقلى الذى يضيف الى نتائج المناهج التجريبية الخبرات الذاتية الفردية ، وخبرات القرون الماضية كلها •• ؟ وسوف نترك « كولنجورد » يجيب عن هذا السؤال بتقديم مثال لامكان استخدام هذا المنهج فى علم من العلوم الانسانية ـ وهو التاريخ ـ يقول : « **ان الخطأ الأساسى الذى وقع فيه « فشته » فى دراسته للتاريخ هو اعتقاده أن التاريخ يمكن أن يكتب استنادا الى استدلال عقلى بحت ، دون الاعتماد على البرهنة التجريبية • ونجد من ناحية أخرى أن الذين تعرضوا لنقد هيجل طالما وقعوا فى الخطأ المضاد لهذا ، وهو اعتقادهم بأن المعرفة التاريخية تعتمد على المنهج التجريبى البحت ولقد استطاع هيجل نفسه (تطبيق المنهج الجدلى) أن يتفادى هذين الخطأين معا ••** » (فكرة التاريخ ص ٢١٧ من الترجمة العربية) •

وبديهى بعد هذا الذى تقدم أن نلتقى بهذا السؤال : هل هناك خطوات محددة يقدمها المنهج الجدلى بحيث يستطيع العالم أن يسير على هديها فى دراسته لموضوع بحثه •• ؟ ونجيب : أولا : ان ان هذا المنهج ليس منهجا **علميا لكنه منهج فلسفى ،** وثانيا : لا يمكن أن توضع خطوات ثابتة ومحددة لهذا المنهج والا لتحول هو نفسه الى منهج ميتافيزيقى أحادى الجانب ، ذلك لأنه من صميم الجدل أن يظل متفتحا وأن يتضمن الغاء الخطوات التى يضعها طوال سيره : فاذا ما وضعت خطوات فى مرحلة معينه ، فلا بد أن تكون هى نفسها فى مرحلة تالية موضوعا تنفيه خبرة جديدة •• وهكذا بحيث **لا يبقى لدينا فى النهاية سوى الحركة الجدلية نفسها** لأن الجدل هو فى جوهره ـ كما قال هيجل ـ حركة وعلى ذلك فلا الخطوات التى وضعها هيجل فى منهجه الجدلى ، ولا « القوانين » التى اقتبسها الماركسيون من هذا المنهج وأطلقوا عليها اسم « الجدل الماركسى » يمكن أن تعتبر خطوات منهجية محددة للدراسة والبحث ـ ولسنا نقصد باستخدام المنهج الجدلى فى العلوم الانسانية هذا المعنى : لكن المقصود هو **استخدام الحركة الجدلية (أو الفهم الجدلى ، أو الروح الجدلية) التى تستفيد من المنهج والمنهج العقلى فى آن معا ـ فى فهم الانشطة البشرية المعقدة •**

ولكى نوضح الفكرة التى نعنيها هنا تقول : اننى اذا ما أخضعت الانسان للملاحظة والتجربة فاننى بذلك أفهمه فهما علميا ، واذا ما درست الانسان دراسة عقلية قبلية أعنى بعيدة عن كل تجربة ، فأنا بذلك

أفهمه فهما ميتافيزيقيا ، لكنى حين أدرس الانسان كصراع بين جانبين (الطبيعى والعقلى » من ناحية واضعا فى اعتبارى نتائج الدراستين السابقتين من ناحية أخرى ــ فاننى بذلك افهمه فهما جدليا (ومن هنا كان الجدل العلمى المعاصر حوارا بين ما هو قبلى وما هو بعدى) • ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الخطوة الاخيرة ــ بالغا ما بلغت النتائج التى أصل اليها عن طريقها ــ لن تكون هى نهاية المطاف ، بل سوف تنفيها الدراسات العلمية والفلسفية المقبلة ، ومنهما معا ــ من الخطوة القديمة والدراسات الجديدة ــ يتكون مركب جدلى جديد تنفيه دراسات المستقبل •• وهكذا باستمرار •



ومما تجدر ملاحظته **أن خطوة النفى أو السلب هذه سوف تفسح المجال أمام حرية الارادةالبشرية للظهور وممارسة نشاطها الحر ، وسوف تجعلنا باستمرار على استعداد لفهم هذا النشاط وتفسيره** وسوف يكون التقدم على هذا الاساس هو تقدم فى الوعى بوجود الحرية كما قال هيجل • وواضح أن الجدل بهذا المعنى ليس الا تعبيرا عن دينامية الفكر الذى يتوخى بصورة دائمة الا يتوقف أبدا فى تقدمه نحو فهم الانسان فهما أكثر كفاية وهو بهذا المعنى يختلف عن الجدل القديم لأنه لا يهدف الى الدفاع عن نظرية من النظريات ، بل هو على العكس **تهمة أرض المعركة أكثر من المعركة ذاتها ، وهو يهتم بحركة السير أكثر من اهتمامه بعدد الممالك التى يغزوها** ، واذا كان جدل زينون الايلى قد جاهد فى هدم آراء الخصوم فان الجدل هنا يتخطى عمله نفسه لا لكى يهدمه بل لكى يجعل هذا العمل أكثر غنى بالعناصر الحقيقة المتضمنةفى النظريات المعارضة ولكى يثرى هو ذاته ويتحرر من القيود التى فرضتها عليه معرفته الاولى •ومن هنا كانت نقطة فرضتها عليه معرفته الأولى •ومن هنا كانت نقطة انطلاقة باستمرار الدراسات الجديدة التى يجد فيها ما يصدمه ، لأنها تتناقض مع المعرفة التى حصلها حتى الآن من ناحية ويجب مع ذلك ادماجها فى هذه المعرفة من ناحية أخرى •

ويمكن أن نقول فى النهاية ان ادخال الحركة الجدلية فى فهم العلوم الانسانية سوف يفيدنا ــ على الأقل ــ فى أربع نقاط هامة : ــ

أولا : ــ ان هذه الحركة الجدلية سوف تكشف لنا **عن حوار دائم بين الذات والموضوع ، وهو الحوار الذى يطرح انصاف الحقائق ويبين لنا بالتالى مدى القصور فى الموقف الذى اتخذه كل من الطبيعين واللاطبيعيين فى فهمهم للانسان** • ففى مجال العلوم الانسانية فليس ثمة ذاتية خالصة ، ولا موضوعية مطلقة ، وانما تتشكل الذات وفقا للموضوع ، ويتشكل الموضوع وفقا للذات ، فلا واحد منهما بمستقبل عن الآخر ، ولا هو واقعة تامة ومنتهية لكنهما معا يتشكلان نتيجة لتفاعلهما وهما لهذا ضرورة مستمرة ، وتطورهما مرتبط أيضا بنمو المعرفة البشرية • وواضح أن السبب هو أن الذات والموضوع فى مجال العلوم الانسانية هما شىء واحد هو : الانسان ، واذا كان **الانسان مشروعا** واذا كان هذا المشروع لا يكتمل الا بفنائه ، برزت ضرورة الفهم الجدلى للانسان ، ذلك الفهم الذى يتطور باستمرار فى اتجاه حركته •

هذا يسرى على تطبيق المنهج الجدلى على كلمعرفة لا على العلوم الانسانية بالذات •

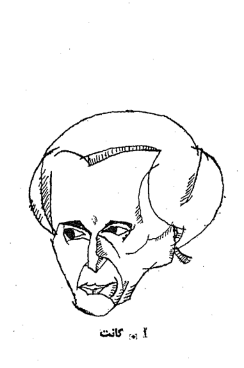
ثانيا : سوف يترتب على ذلك نتيجة هامة هى ان المعلومات والمعارف التى تجمعهاالعلوم الانسانية يجب ألا يفهم منها أنها تشكل صرحا نهائيا يقوم على أسس راسخة كما هى الحال فى العلوم الطبيعية لكنه **صرح يعاد انشاؤه دون انقطاع** ، انه بناء متجدد دائم التطور ، فليس ثمة حقائق موضوعية ونهائية لأن نظراتنا تتجدد الافكار فى كل جيل

ثالثا : ــ ان هذه النظرة تفتح لنا الطريق إمام احتمالات المستقبل وما يحمله فى طياته من وقائع جديدة • وحالات لم تعرف من قبل ، وبالتالى فان النتائج التى وصلنا اليها الآن لا بد أن تتعدل فى المستقبل • ومن هنا تتسع المجال أمام حرية

الارادة البشرية ويظل الفكر متفتحا ومتهيئا لتقبل أفكار جديدة تتعارض مع الأفكار التى نعرفهـا ، ومعنى ذلك كله **استحالة التنبؤ بالمستقبل وقصر المعرفة على الحاضر وحده** • ولهذا فقد كان هيجل رائعا حين وقف فى تحليله للتاريخ عند العصر الذى عاش فيه دون أن يتجاوزه لكي يتنبأ بالمستقبل (على الرغم من أن بعض شراحه فهموا من ذلك أنه يمجد الدولة البروسية ، وهو خطأ من أفدح الأخطاء التى وقعوا فيها) ـ **لأن التنبؤ بالمستقبل أمر لا يمكن قبوله فى ميدان العلوم الانسانية التى تلعب فيها الارادة البشرية دورا لا يستطيع البحث الدقيق اغفاله•ومن هنا قال هيجل ـ بحق ـ ان التاريخ ينتهى فى الحاضر لا فى المستقبل** كولنجوود المرجع السابق ص ٢٢٠ وما بعدهما)

رابعا : ـ ان هذه النظرة سوف تمكننا من تطبيق المنهج التجريبى والافادة من نتائجه ، كما أنهـا تمكننا فى الوقت ذاته من الاستفادة من المذاهب الفلسفية والخبرات الانسانية الاخرى ، فالباحث هنا ينفتح على نظريات متعارضة مطلقا ولا يلبث أن يلجأ اليها واحدة بعد الاخرى بحيث ينشأ **لون من ألوان الحوار بينه وبين المذاهب المختلفة ينتهى بتكوين صوره أكثر نضجا وأكثر عينية واكتمالا** عن الانسان • ومن هنا فقد أخطأ « سيدنى هوك » ـ فى اعتقادى ـ حين اعتبر المنهج الجدلى معارضا للمنهج العلمي التجريبى ، فقد رأينا أن هذا الأخير هو نفسه خطوة مكونة للمنهج الجدلى • فالمؤرخ ـ كما يقول كولنجوود مثلا ـ لا بد له أن يبـدأ بالمنهج التجريبى فى دراسته للوثائق والمصـادر التاريخية المختلفة ، لكنه يخطىء ان وقف عند هذه الخطوة ، فعليه بعد ذلك أن ينظر الى هذه الوقائع من داخلها ، وسوف يجد أنها من الناحية الداخلية أفكار يرتبط بعضها ببعض بعلاقة جدلية (نفس المرجع السابق ص ٢١٧ ـ ٢١٨) ـ ومعنى ذلك أن المنهج الجدلى لا يسعى الى أن يحل محل المنهج التجريبى وانما هو يريد أن يشمله ويتخطاه الى نظرة أوسع وأرحب • « ولهذا فاننا نستطيع أن نقول عن الجدل انه مواجهة القضايا والآراء والافكـار ومناقشتها ، والتساؤل عن معناها الدقيـق ، والبحث عن الأدلة والاعتبارات التى تدعمها ومايمكن أن يقال ضدها ، والنظر فى البدائل الممكنة ، وما هو أكثر احتمالا من غيره فى هذه البدائل •• » (ف • كاوفمان » : هيجل : تفسير جديد ، مع نصوص وشروح » ص ١٧٣ ، نيويورك عـام ١٩٦٥) •

امام عبد الفتاح امام



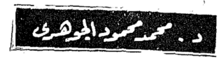
(*) كانت

لعله من الجدير بنـا فى مطلع هـذا المقال أن نعلق بكلمات سريعة على مكونات العنوان الذى اخترناه له • فقد قلنا **دراسة المجتمع** ، ولم نقل علم الاجتماع ، لأن حقيقة المشكلات المنهجية التى سنعرض لهـا فى حديثنا لا تقتصر ـ فى بعض نواحيها ـ على علم الاجتماع • بل هى قد مست، ولا زالت تمس بعض الجوانب المنهجية فى علوم اجتماعية أخرى : كالاقتصاد ، والانثروبولوجيا، وعلم النفس وغيرها من العلوم التى تشترك فى دراسة الانسان والمجتمع بالمعنى الواسع •

أما **الامبيريقية** فهى دلالة على اتجـاه ـ قديم جديد فى نفس الوقت ـ فى دراسة هذا المجتمع الانسانى • وهى كتابة عربية لكلمة empirical التى ترددنا فى ترجمتها بتجريبى لأن الامبيريقية وهى الاحتكام الى الواقع أوسع مدلولا من التجربة التى هى ـ على نحو ما سنرى فيما بعد ـ مجرد أداة من بين أدوات عـدة يصطنعهـا الاتجـاه الامبيريقى • كمـا عزفنا عن ترجمتها بالعلمى ،

إذا أراد علم الاجتماع أن يشق طريقه كعلم امبيريقي ، فلا يكفى أن يختار أية ظواهر ويقوم بملاحظتها ووصفها وتصنيفها ، بل إنه يحتاج إلى نسق فكري ، يحدد الشيء الخاص المتميز في الوقائع السوسيولوجية .

دراسة المجتمع بين الامبيريقية والتنظير



لأن صفة العلمى واسعة ، أشمل من الامبيريقية، ويمكن أن تنسحب على الامبيريقية وعلى غيرها . بينما الامبيريقية اتجاه ملموس ومعين بالتحديد. ولا داعى لاستعراض محاولات ترجمات أخرى بدت فى نظرنا جميعها غير موفقة ، لأنها غير دقيقة فى تعبيرها عما نحن بصدده فأثبتناها بحروف عربية . وهو أمر ليس وقفا علينا فقط، فقد استعارت الكلمة كما هى لغات أخرى ، كالالمانية مثلا . (كذلك استخدمها حامد عمار فى كتابه « المنهج العلمى فى دراسة المجتمع » ، القاهرة ، ١٩٦٠ على طول الكتاب ، وان كان قد

كتبها الامبيركية) • وهي الآن متداولة في كل كتابات الاجتماعيين المصريين الشبان •

أما كلمة **التنظير** فليس مقصورا بها بطبيعة الحال اطلاق العنان للفكر التأملي بغير حدود ، وانما مقصود بها ــ كذلك ــ اتجاه بعينه يهدف الى تأكيد دور النظرية في توجيه البحث الاجتماعي ، والمزاوجة بين الامبيريقية والنظرية ، أو بمعنى آخر أن يتم البحث الامبيريقي طبقا لاطار نظري محدد سلفا ، ومرتكزا في بعض مراحله على عمليات عقلية نظرية •

قضايا الاتجاه الامبيريقي وأدواته :

لعل أفضل سبيل للتعرف على القضايا الاساسية للاتجاه الامبيريقي ، وأدواته في البحث، أن نستعرض بايجاز تاريخ استخدام هذا الاتجاه في الدراسات الاجتماعية ، وما صحب ذلك من تطورات وتذبذبات في توكيد أهمية كل أداة منها • ثم نعمد في الشطر الثاني من المقال الى استعراض الاسس النظرية التي لا يمكن أن يقوم بدونها علم اجتماع امبيريقي • ونحن في كل هذا حريصون كل الحرص على الابتعاد عن الحماس الزائد لأي من الاتجاهين على حساب الآخر ، فالاندفاع في تأكيد أهمية الامبيريقية ــ والامبيريقية وحدها ــ شأنه تماما شأن المبالغة في الدعوة الى التنظير في علم الاجتماع ؛ مجانبة خاطئة لحقيقة البحث الاجتماعي العلمي كما ينبغي أن يكون • فنحن بذلك نشارك حامد عمار في تخطيئه للاتجاه القائل باعتبار المنهج الامبيريقي المنهج العلمي الوحيد في الدراسات الاجتماعية والانسانية • على أننا ــ من ناحية أخرى ــ نختلف معه في اعتباره المناهج التاريخية ، والانثروبولوجية ، ومناهج التفكير المنطقي مناهج مستقلة أو مختلفة ــ ذات كيان متميز ــ عن المنهج الامبيريقي • ذلك أننا اذا فهمنا الامبيريقية على أنها الاحتكام الى الواقع ، فاننا في اطار بحوثنا الامبيريقية ــ وكما سنرى فيما بعد ــ نلجأ الى مناهج كمية تماما كما نستعين بالمناهج الكيفية • فالامبيريقية بمعناها الواسع تأخذ في اعتبارها الوثائق التاريخية ، والتراجم الذاتية ، والسجلات الحكومية والخاصة على السواء ••الخ كما تحاول ضبط الملاحظة • وهي في النهاية لا يمكن أن تقترب من هذا الواقع الا في ضوء مفاهيم نظرية معينة تحدد لها المقصود بالفعل الاجتماعي ، والدور الاجتماعي ، والجماعة••الخ• هذه هي الصورة العامة التي نحاول أن نتقصى جوانبها المختلفة فيما يلي •

الفلسفة الوضعية :

اصطبغ مفهوم علم الاجتماع في القرن التاسع عشر بمفهومه الذي كان شائعا في القارة الاوروبية أساسا ، وتصور «أوجيست كونت» له بالذات• وكان علم الاجتماع عنده بمثابة حجر الزاوية في فلسفته الوضعية•• كان شاهدا على فكر متحرر وتقدمي يسعى الى التخلص من كل تأملات ميتافيزيقية أو لاهوتية • ويستهدف الاستعانة بمناهج العلوم الطبيعية للوصول الى نتائج مماثلة أو مقاربة لما توصلت اليه العلوم الطبيعية في فهم القوانين التي تنظم حياة الجماعات والافراد •

حقيقة أن «كونت» قد طالب بأن يصطنع علم الاجتماع في دراسته العلمية للظواهر الاجتماعية مناهج الملاحظة ، والتجربة ، والمقارنة ، ولكنه لم يلتزم هو نفسه بتطبيق ما دعا اليه • فظلت كتاباته دائرة في نفس الفلك القديم • لقد أوضح بالقول ما يجب أن يكون عليه المنهج العلمي في دراسة المجتمع ، ولكنه لم يقدم لنا نماذج تبرز تمثله هذا المنهج الجديد • وهكذا فقدت هذه الآراء الجديدة المتناثرة في ثنايا كتاباته كل تأثير ، ولم يلتفت اليها أحد •

حتى جاء عالم الاجتماع الفرنسي الأشهر «اميل دوركيم» فحاول جمع شتات ماجاء عرضا في ثنايا كتابات كونت ، مثل : «انه لا يمكن أسسا أن تتم ملاحظة سليمة الا اذا وضع الباحث نفسه خارج الموضوع» ، وأنه : « لا تكون لأي حقيقة اجتماعية أهمية حقيقية الا اذا ربطت مباشرة بحقيقة اجتماعية أخرى » أو أنه : « يمكن في علم الاجتماع اعتبار الحالات المرضية معادلة للتجربة»• (العبارات المقتبسة من كتاب كونت : دروس في الفلسفة الوضعية ، الطبعة الرابعة ، باريس ١٨٧٧ ، المجلد الرابع ، صفحات ٣٢٢ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ على التوالي •)

ولعلنا نذكر هنا أنه قد صك مصطلح علم الاجتماع كبديل لمصطلح « الفيزياء الاجتماعية » الذي كان قد قدمه في البداية للدلالة على علم دراسة المجتمع ؛ وذلك بعد أن نشر العالم البلجيكي «أدولف كتليه» في عام ١٨٣٥ كتابه بنفس العنوان معتمدا فيه اعتمادا أساسيا على البيانات الرياضية والاحصائية المختلفة • وقد وصفه كونت بأنه : «مجرد احصاء بسيط مليء بالحسابات الخادعة المعتمدة على نظرية الاحتمالات المضللة » • ورفض هذه النظرية ــ التي لايستطيع البحث الاجتماعي الحديث أن يتخلى عنها البتة ــ رفضا قاطعا • واستمر فيما عدا هذا في هجومه على كل من التفكير الغيبي والامبيريقية المفرطة •

الاحصاء أداة للقياس الكمي :

فى تلك الأثناء كان الاحصاء معروفا عند علماء الاقتصاد ، ومعترفا به كذلك • وقد ظل محافظا على وظيفة أساسية من وظائفه كأداة للادارة السياسية • الجديد هنا أنه بدأ بعد وقت غير طويل يصبح وسيلة للبحث الامبيريقى فى إطار هذا الفرع من فروع التخصص• وكانت حسابات الاحتمالات قد وجدت مجالا واسعا للتطبيق فى شتى فروع الدراسة كالفلك ، والتأمين ••الخ• ثم جاء كل من لابلاش وفورييه وطوراها، وحرباها فى الاحصاءات السكانية • ثم كان لجهود «كتلية» ـ التى أشرنا الى طرف منها ـ أكبر الأثر فى تأكيد أهمية القياس الاحصائى فى البحوث الاجتماعية • وهكذا ارتبط تاريخ البحث الاجتماعى الامبيريقى أمدا طويلا بتطور الاحصاء وتقدم استخداماته •

ولن يتسع المقام هنا لاستعراض هذه الحقيقة التاريخية الكبيرة ، المهم أن استخدام الاحصاء قد ارتبط منذ أواخر القرن الثامن عشر بجمع المادة الاساسية للبحوث الاجتماعية من الميدان ، واستخدام طرق الاستبيان (أو كشف الاسئلة) والاستبار (أو المقابلة) وغيرها فى البحوث • وبرزت بصفة خاصة فى الدراسات التى أجريت على أوضاع العمال ومشكلاتهم ودراسات مشكلة الفقر فى انجلترا أصلا • ثم بلغت ذروتها فى ذلك الوقت فى الجهود الرائدة التى بذلها فريدريك لوبلاى (ومنها دراسته الضخمة عن العمال الاوروبيين التى صدرت عام ١٨٥٥) والتى دفعت البحث الامبيريقى دفعات قوية الى الامام •

وقد امتد تأثير لوبلاى الى خارج فرنسا عن طريق الجمعية التى كونها والمجلة التى كان يصدرها • فوصل تأثيره الى انجلترا والى ألمانيا كذلك • وان كان الاقبال عليه فى ألمانيا لم يكن راجعا بالدرجة الاولى الى طرافته المنهجية ، وانما الى اتجاهاته الاصلاحية • وقد استطاع المنهج الاحصائى أن يتطور فى ألمانيا بخطى واسعة بعد أن أصبح استخدام الاحصاء فى الدراسات الاقتصادية أمرا بديهيا • ومن ثم نما مفهوم الاحصاء الاجتماعى بشكل بارز • وانفض النزاع الذى كان دائرا حول ماهية الاحصاء وأهميته فى البحث الاجتماعى بعد أن كتب «روملين» فى سنة ١٨٩٤ يقول : « انه لايمكن تحديد المفهوم الحديث للمجتمع تحديدا دقيقا ، وتحليله علميا الا عن طريق تطبيق المنهج الاحصائى ، وزيادة انتشاره وتعميقه » • بل انه ظهرت فى تلك الفترة المبكرة دعوة من أكثر من مصدر تنادى بتحويل علم الاجتماع الى قياس اجتماعى • وكان أساس هذه الدعوة أن : «من لا يستطيع قياس ظواهر المجتمع لن يكون قادرا على التحكم فيها » •

الفكرة اذن وراء هذه الاحكام وهذه الدقة العالية هى الرغبة فى التحكم فى الظواهر الاجتماعية ، أو التدخل فى توجيه سير تغيرها • لذلك ليس من قبيل المصادفة أن ترتبط هذه البحوث سواء فى القارة الاوروبية أو فى أمريكا بالاهداف الخيرية والنوايا الاصلاحية •

أسلوب المسح الاجتماعى

وقد سخر الباحثون طريقة هامة فى البحث لخدمة هذه الأغراض ، كان لها فضل يذكر فى دفع البحث الامبيريقى الى الامام ، ونعنى بها المسح الاجتماعى • والمسح الاجتماعى عبارة عن عمل تعاونى يستخدم مناهج علمية فى دراسة مشكلات وأوضاع اجتماعية معاصرة فى نطاق جغرافى محدود • ولكنه يعمد فى نفس الوقت الى توصيل الحقائق ، والنتائج والتوصيات التى انتهى اليها الى المجتمع المحلى كله بقدر الامكان • وهو يستهدف بهذه الطريقة التوصل الى أساس فعال للعمل المشترك الواعى • فالمسح الاجتماعى الامريكى كان يستهدف واعيا اذن غايات اصلاحية تربوية• وقد غطت المسوح الأولى مجالات واسعة كل السعة : فكانت تمثل بصفة عامة دراسات مجتمعات محلية بأكملها ، بدأت فى أول الامر بأحياء صغيرة من بعض المدن ، ثم شملت مدنا كبيرة عن آخرها ، بل وحاولت أن تغطى أقاليم وبلادا بأكملها • ولكنها سرعان ما اتجهت الى التركيز على جوانب معينة كانت تعتبر ذات أهمية خاصة فى نظر أصحابها ، مثل : الامور الصحية، وشئون الاسكان ، والتربية ، وبعض ظروف العمل ، والترويح وقضاء أوقات الفراغ ، وجناح الأحداث ••• الخ ولكن العملية كانت فى جميع الاحوال واحدة : تسجيل متعدد الجوانب ، حيث يضطلع القائمون بالمسح الاجتماعى بملاحظة ظاهرة اجتماعية معينة من واقع الحقائق الملموسة، ووصفها ، وتحليلها • ولكن ظل محور الارتكاز دائما : أن تكون البيانات قابلة للمقارنة بقدر الامكان ، موضوعة فى صورة كمية قابلة للقياس، وعلى هيئة وحدات ممثلة للمنطقة المدروسة ككل• أما البيانات نفسها فكانت تجمع بوسائل شتى منها : البيانات الاحصائية المتوفرة ، والاعمال الادبية ، وقصاصات الصحف، وكشوف الاسئلة، والاستبارات (المقابلات) ، والاحصاء بالعينة ، والمناقشات مع الجماعات ، والملاحظة المباشرة والملاحظة المشاركة ، والوثائق الشخصية ،

والتراجم الذاتية ، والخطابات ٠٠ الى آخر ذلك من وسائل يمكن أن تكون ذات عائد للبحث • ونلاحظ هنا أن اشتراك رجال الخدمة الاجتماعية قد جعل من الطبيعي أن يرتكز جامعو البيانات أساسا على طريقة «دراسة الحالة» •

دور جامعتي شيكاغو ونيويورك :

وجدير بنا هنا أن نشير الىدور جامعة شيكاغو في تشجيع هذا الاسلوب الجديد في البحث • فاذا « بالمجلة الامريكية لعلم الاجتماع » ــ وهي المجلة الرسمية للجمعية الامريكية لعلم الاجتماع ــ تبدأ منذ عامها الرابع (سنة ١٨٩٩) تنشر بانتظام تقارير عن الدراسات الاجتماعية الحضرية التي أجريت في شيكاغو ، حيث تحولت المدينة الكبيرة الى «معمل اجتماعي» ــ علىحد تعبير عالم الاجتماع الامريكي بارك • وقد ساهم بارك وتلاميذه وزملاؤه من رجال الاجتماع في تنمية وتطوير هذا الخط الجديد بدراسات جديدة وأصيلة • وأصبحوا يرسمون أسلوب العمل ويحددون الخط الذيتسير فيه بحوث الاجتماع الامريكي والبحوث الاجتماعية الامريكية في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى ، وهي الفترة التي أصبح فيها علم الاجتماع يرتبط لأول مرة بالبحوث الاجتماعية •

والى جانب جامعة شيكاغو كان لجامعة نيويورك فضل يذكر في المزج بين علم الاجتماع النظري والبحث الاجتماعي بمناهجه الكمية على وجه الخصوص • ويرجع فضل ذلك الى العالم فرانكلين جدنجز وزملائه •

وهكذا قادت جامعتا شيكاغو ونيويوركعملية التحول التي اعتورت علم الاجتماع التقليدي ، وقدمت لهذه العملية كل ماتحتاج اليه من وسائل معنية • وكان الاجتماع الامريكي قبل ذلك الحين ــ على خلاف الحال في القارة الاوروبية ــ يخضع لتأثير «الاجتماع الاستنتاجي» الذي كان يقول به الانجليزي هربرت سبنسر •

على أن العنصر الأهم في تأثير سبنسر على علم الاجتماع الامريكي أنه جعل الاجتماعيين الامريكيين ــ خلافا لما حذر منه أبو الاجتماع أوجيست كونت ــ لا ينفرون من علم النفس • بل ان دراساتهم اتخذت طابعا نفسيا اجتماعيا واضحا • وكان «جيدنجز» ــ أحد رواد المدرسة النفسية في علم الاجتماع ــ قد نبه الى أهمية التحليلات الكمية لسلوك الجماعات • وكان أن استطاع تلاميذه فيما بعد فرض المناهج الكمية على البحوث الاجتماعية الامريكية نهائيا • نخص بالذكر من بين هؤلاء التلاميذ « ويليام أوجبرن » الذي عرض في أكثر من دراسة لأهمية استخدام الاحصاء ، وايضاح حدوده كذلك ؛ وستيوارت تشابين الذي كان له فضل في تحويل طريقه المسح الاجتماعي الىالبحث الاجتماعي «التجريبي»؛ وستيوارت رايس الذي طبق المناهج الكمية في علم السياسة ، ونشر عدة كتب دراسية لتقريب هذه المناهج ونشرها بين المشتغلين بالبحث الاجتماعي •

تطوير المناهج الكيفية

ولم تهمل مدرسة شيكاغو هذه المناهج الكمية • ولكن البحوث الاجتماعية التي أجريت في نطاقها اعتمدت بدرجة أكبر على المناهج غير الكمية (الكيفية) • فنجد ويليام توماس ــ الذي قدم الىعلم الاجتماع من ميدان الانثولوجيا ــ يركز اهتمامه على العلاقة بين الفرد والموقف الاجتماعي ٠٠ بين الشخصية والثقافة • وتمثل دراسته ــ بالاشتراكمع العالم البولندي الامريكي «فلوريان زنانيكي» ــ عن تكيف الفلاح البولندي في المجتمع الجديد في الولايات المتحدة نموذجا للدراسة التي استفادت بنتائج دراسات مونوجرافية من أنواع مختلفة • وقد بين توماس أن الدراسات الكمية ــ برغم ما فيها من فائدة ــ تقصر وحدها عن مساعدتنا على فهم الاتجاهات والقيم الاجتماعية • بل يجب لهذا الغرض الاستعانة بالوثائق بجميع أنواعها : كتقارير الحياة (أو التراجم الذاتية) ، والخطابات ، واليوميات ، وتقارير الاطباء ، والوعاظ ، والمدرسين ، والتحقيقات الصحفية ٠٠٠الخ والتي يتضح منها : تعريف الموقف في كل حالة ، والسيطرة عليه ، وكيف يتحقق التكيف أو يفشل ، وكيف تحدث التغيرات في الاتجاهات ، وأساليب السلوك • وبفضل هذه الدراسة الرائدة وغيرها تحول : الشارع ، ومناطق السكنى ، وأماكن العمل واللهو، وكذلك الادارات الحكومية ، ومراكز الشرطة ، وادارات تحرير الصحف (المحلية بالذات) ، وصالات الرقص والنوادي الى ميدان عمل علم الاجتماع • وحدث ربط بين « الدراسات الميدانية » المعروفة من الانثولوجيا ومنهج « دراسة الحالة » المعروف في الخدمة الاجتماعية ، وأسلوب « الملاحظة المشاركة » •

قياس المسافة الاجتماعية :

ومن الانجازات البارزة في مجال تطوير المناهج الكيفية المقياس الذي وضعه « اموري بوجاردوس» ــ لأول مرة ــ لترجمة الاختلافات

الكيفية في الآراء ، والاتجـاهات ، والعـلاقات الاجتماعية الى صـورة قابلة للقياس الكمى • (وذلك فى كتابة بعنوان : البحث الاجتماعى » ، لوس أنجلوس ، ١٩٢٦) • وتوصل من خلال ذلك الى تطوير الطريقة الشـهيرة التى اقترنت باسمه وهى : «قياس المسافة الاجتماعية» • ومن شأن هـذا المقيـاس ـ فى رأى بارك ـ أن يمكننا من قياس المسافات الاجتـماعية التى تصب فيها كل العلاقات الانسانية فى النهاية • ورغم كل ماكان يعيب طريقة بوجاردوس من قصـور وبسـاطة زائدة ؛ فانا نلحظ شدة الاقبال عليه فىعشرينات هـذا القرن ، من أجل استخدامه فى تحـديد الاتجاهات وأسـاليب سلوك الجـماعات تحديدا أكثر موضوعية مما كان ممكنا من قبل •

مساهمة علم النفس فى تطوير القياس الاجتماعى:

لا يمـكن أن نقعد هنا عن ذكر الدفعـات المنهجية نحو تهذيب أدوات القيـاس الكمى التى استمدها علم الاجتماع من علم النفس فى أمريكا بصفة خاصة • وقد تمثلت تلك الاسهامات فيما قدمته النزعة السلوكية فى الدراسات الانسانية الامريكية لعلم الاجتماع ، وما أفاد به هذا العلم من تقدم علم النفس التجريبى • ونخص بالذكر: أساليب قياس الاتجـاهات الاجتماعية ، ودراسة الجماعات ، والقياس الاجتماعى بصفة خاصة أو ما يعرف باسم « السوسيومترى » ، والمـلاحظة المنضبطة ، والتحليل العاملى •• وهو كله مما أصبح من أدوات البحث الاجتماعى الحديث •

الافادة من الاحصاء على نحو جديد :

وأخيرا شهدت عشرينات هـذا القرن الافادة من الاحصـاء لا كمجرد وسيلة لوصف الظواهر الكبيرة وصفا دقيقا ، وانما كذلك كأداة تحليلية• فاذا بنا نسجل حدوث ثورة فى استخدام منهج العينة فى البحث الاجتماعى • وتعددت مجالات الافادة من هذا المنهـج ، واتسعت بفضل اعتماد كثير من الهيئات الحكومية عليها سواء فى أمريكا أو فى القارة الاوروبية• ولعل أشهر هذه المجالات التى أستعين فيها بمنهج العينة دراسات السوق وغيرها من الاغراض التجـارية ، وقياس الرأى العام • ولم يعد هناك من بين رجال الاجتماع من يحاول الطعن فى أهمية الاساليب الاحصائية فى البحوث الاجتماعية •

الاستبيان والاستبار :

أصبحت وسيلتا الاستبيان (كشف الأسئلة) والاستبار (المقابلة) ـ وقد كانتـا معروفتين منذ أمد بعيد في ميدان الخـدمات الاجتماعية والمسح الاجتماعى ودراسات السوق ـ أهم طرق الدراسة فى البـحوث الاجتماعية • وواكب التوسع فى استخدامهما نشاط فى تحسينهما من أجل زيادة دقتهما •

وأصبحت **المناقشات المنهجية** منذ ذلك التاريخ تشغل حيزا متزايدا فى المجلات والكتب الاجتماعية المتخصصـة • واذا كان الانتقـال من المسـح الاجتماعى الى البـحث الاجتماعى الحقيقى بعد الحرب العـالمية الاولى قـد تميز بالتوسـع فى استخدام الاسـاليب غير الكمية على يد مدرسة شيكاغو ، فقد بدأت المناهج ذات الطابع الكمى البارز منذ أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات تفرض نفسها • وأخذت النزعة الوضعية الجديدة تقوى أقدامها فى حقل البحوث الاجتماعية (كما تتمثـل عند «لندبرج» على وجه الخصـوص) • وظهرت بعض الدراسات الرائدة التى أبدت حذقا كبيرا فى الانتفاع بهذه المناهج الكمية فى دراسة موضوعات محددة تحديدا دقيقا • وتجلى الاهتمام الكبير بالمسائل والمشكلات المنهجية فى أن الكتب الدراسـية وكتب المدخل الخـاصة بالبـحث الاجتماعى كانت تسـتطيع فى بداية الأمر أن تستوعب الحديث عن منـاهج البحث الاجتماعى كلها ، ثم اذا بهذه الكتابات تنمو وتتسع بحيث أصبحت تستعصى على المعـالجة بين دفتى كتاب واحد ، ولم يعد بوسـع باحث واحد بمفرده أن يتابع كل ماينشر فى هذا الميدان ، وأن يلم بكل جديد فيه • وكان من شأن هـذا كله أن تكون الانطباع بأن البحث الاجتماعى الحديث قد غرق فى دراسة أمور منهجه • ثم كان لانشـاء بعض الاجهزة والمجـلات وغيرها من الادوات المتخصصة أعظم الأثر فى خلق نوع من التنسيق والتوجيه الذى يعين السفينة على مواصلة طريقها الى الامام بنجاح •

التنظير فى الدراسات الاجتماعية

كان من فضل الاتجـاه القـوى الى الاشياء نفسها بعد الحرب العـالمية الاولى أن توفرت لنا كميات لا حصر لهـا ـ ولا امكانية لاستيعابها ـ من النتـائج والتفـاصيل ، التى يصعب اجراء مقارنات بينها • وقد أدى هذا بالبحث الاجتماعى الامبيريقى الى أن يسخر من علم الاجتماع النظرى التقليدى باعتباره دراسة تأملية ، بل ويحط من شأنه • ولكننا نلحظ برغم ذلك ـ ومنذ أكثر من عشرين عاما ـ حدوث تقـارب جديد بين البحث والنظرية •

حقيقة أننا اليوم نفهم علم الاجتماع والبحث

الاجتماعى على أنه علم امبيريقى وبحث امبيريقى أساسا ؛ ولـكن هذا البحث الامبيريقى بمفهومه الجديد لا ينكر ـ وهو غير مستطيع ذلك ـ وجود طرق أخرى من طبيعة غـير امبيريقية لدراسة ما يعن لهذا العلم من مشكلات ۰ ونعرض لأهم هذه العناصر بايجاز فى الفقرات التالية ۰

المفاهيم والمقولات الاجتماعية :

اذا عرفنا العلم بأنه التنـاول المنهجى (أى التنظيمى التصنيفى) والتفسـيرى لبعض جوانب الواقع ، وأن هذا التناول لا يمكن أن يتقدم بغير الخبرة ؛ فاننـا نقر بذلك بضرورة وجود بعض المفاهيم العلمية التى لا يمكن ادراكها امبيريقيا ۰ ومن شأن هذه المفاهيم أن تضمن ماسماه «كانط»: «المسلك المـأمون للعلم» أى أسس التصـنيف والمقولات التى لا يمكن أن تكون موضوعا للخبرة، لأنه يجب التسليم بها قبل الاحتكام الى أى خبرة۰ بمعنى آخـر : **اذا أراد علم الاجتماع أن يشق طريقه كعلم امبيريقى ، فلا يكفى أن يختـار أية ظواهر ويقوم بملاحظتها ، ووصفها ، وتصنيفها، بل انه يحتـاج الى نسـق فكرى ، يحـدد الشيء الخـاص المتميز فى الوقائع السوسيولوجية ۰** ومن الطبيعى أن يقوم تحديد هـذا النسق على تعـاون خصب متنـوع بين التأمل البـحث ، والاستنتاج العقلى ، والمحاولات الامبيريقية ۰ اذ لا يمكن أن نفترض أن مثل هذه المفـاهيم أو المقولات التى ستستخدم أساسا للتصنيف جاهزة بدءا فى صـورة مرتبـة ومنظمة ۰ على أنه من أمارات ازدياد نضوج علم من العلوم ، ألا يحتاج الباحث فى كل حالة الى صياغة هذه المفـاهيم ، بل تكون موجودة على درجة ـ قد تقل أو تزيد ـ من التنظيم والاحكام ، بحيث يمـكن فى أغلب الاحوال الاستعانة بها مباشرة ۰ ولعلنـا نضرب المثل على هذه المفاهيم المستقرة اليـوم : بمفهوم الفعـل الاجتماعى ، والتنظيم من خـلال معايير التوقع ، والدور الاجتماعى ، والجماعة ۰۰ وكثير غيرها من المفاهيم التى أفاد منهـا علم الاجتماع العام ۰ هذه ولا شك ليست بالعلم الامبيريقى ، ولـكنها معرفة تحليلية عقلية ۰ **ولو أن المفروض فى مفاهيمها الاساسية ـ اذا ما أرادت أن تكون ذات فعالية ـ أن تدلل على صحتها فى الخبرة ، دون أن تكون هنـاك مع ذلك حاجة الى اشتقاقها من هذه الخبرة** ۰ فمفهوم « المعيار الاجتماعى » لا يمكن بحال من الاحوال أن يشـتق من مفاهيم أخرى ۰ ففيه يتمثـل الى حد ما « الجـانب الاصيل» فى الظـاهرة الاجتماعية ، الذى يمكن



ا ۰ كونت

الاسهاب فى «وصفه» ـ كنموذج تفـاعلى ، أو علاقات انسانية ـ دون ما حاجة الى تأسيسه على هـذا النمـوذج أو هذه العلاقات ۰ فالاجتماعى كالعضوى ـ فى علم الحياة ـ غير قابل للاشتقاق من شيء آخر ، حتى وان فرضـنا عليه التفتيت النظرى ۰ وهكذا يتوفر لدى علم الاجتماع العام حصيلة من «**المفاهيم الاساسية**» أو المقولات التى لا يمكن بدونها التوصل الى أى أحكام محددة عن أحداث اجتماعية جزئية ۰ ذلك أن هذه المفاهيم تحـدد لنا الشروط الواجب تحققها حتى يمكننا التحقق من أن الظواهر المطروحة ظواهر اجتماعية أصلا ۰

ومن الجـدير بالذكر أن الاجتماعيين قـد استطاعوا الاتفاق الى حد بعيد على جملة من هذه المفاهيم الاساسية ۰ وقد تكون هذا الاتفاق من خـلال المناقشات الطويلة التى امتدت من كارل ماركس واميـل دوركيم الى فلفريدو باريتـو ، وماكس فيبر ، وجورج زيمـل ، حتى تالكوت بارسونز ، وجورج جورفيتش وروبرت ميرتون۰ وهذه قلة من أسماء كثيرة أسهمت بنصيب موفور فى اخصـاب هذه المناقشات ۰ فتهيأ بذلك لعلم الاجتماع عدد كبير من المفـاهيم الاساسية التى

يمكن توصيلها للأجيال الجديدة من الدارسين ، والتى أصبح بوسع الباحث الفرد التسليم بها بدءا كأساس نظرى يستطيع بفضله تصنيف المادة المكتسبة من الخبرة • ويفضل بعض الباحثين أن يطلقوا على هذا الفرع من فروع الدراسة السوسيولوجية « **علم الاجتماع العام** » **أو** « **علم المفاهيم السوسيولوجية** » •

وتقابل هذه المفاهيم فى عالم الطبيعة ــ عند كانط ــ مقولات المكان ، والزمان ، والواقع ، والمادة ، والعليه وغير ذلك • بينما نذكر من أمثلتها فى ميدان علم الاجتماع ، مفاهيم : الفعل الاجتماعى ، والتصورات الجمعية ، ومعايير التوقع ، والشخص الثقافى الاجتماعى ، والدور ، والجماعة •• الخ • **فنحن لا نستطيع أن نرتب عليها وحدها أية معرفة خاصة محددة ، وانما هى تمثل فحسب وصفا تحليليا لأبعاد الوجود الاجتماعى ، الذى يراد التعرف عليه ، أى امكانيات وجود الاشياء فى عالم المجتمع** •

ولا تبدأ عملية المعرفة الحقة الا عندما تنتقل هذه المفاهيم ــ مرتبطة بفروض محددة ــ الى حيز الواقع ، فتسمح لنا بتصنيف وتنظيم مادته على أسس موحدة ، بحيث يتكون عندنا فى النهاية ما نطلق عليه اسم النظرية السوسيولوجية (نظرية علم الاجتماع) • ومعنى هذا بكل وضوح أنه مهما بلغ اغراق العلم فى الامبيريقية ، فانه ينطوى على بعض العناصر التحليلية النظرية • بل هى ضرورية له قبل أن يتمكن من وضع أى فرض جديد يريد اختباره فى الواقع •

مستويات التعميم فى النظرية الاجتماعية :

لابد أن يحدث ــ فى خطوة تالية ــ أن تنفصل النظريات السوسيولوجية الحقيقية عن علم المفاهيم هذا ، وذلك بمجرد ارتقائها الى مستوى الأنساق الفكرية التى تتمتع بقدر من الشمول والعمومية • ويمكننا القول ــ على وجه الاجمال ــ بأنه لم تتوفر لدى علم الاجتماع حتى الآن سوى أسس نظرية ذات مدى محدود نسبيا • وتتضح هذه الحقيقة بالذات من المفهوم الذى وضعه روبرت ميرتون عن « **النظريات المتوسطة المدى** » • وهى نظريات تمثل خطوة **أنضج** من النظريات الموقوتة أو الموضوعة لفرض معين ad-hoc التى توضع باستمرار لتيسير التفاهم حول بعض الانتظامات التى اتضحت امبيريقيا • ولكن هذه النظريات تمثل درجة أدنى من النظريات المركبة أو الشاملة ، والعلاقات النظرية المتكاملة •

ونكون قد اجتزنا خطوة أولى على طريق المعرفة اذا ما استطعنا تحويل هذه النظريات المحدودة الفرض الى نظريات متوسطة المدى • ونرتقى درجة أعلى اذا ما أمكن التأليف بين عدد من هذه النظريات المتوسطة المدى فى أنساق نظرية أشمل • ويمكن أن نضرب المثل على هذا النوع الاخير من التعميم النظرى فيما نحن بصدد التوصل اليه اليوم من نظرية سوسيولوجية عامة فى التنظيم ، التى تفسر لنا العلاقة بين الجماعات الرسمية وغير الرسمية داخل المؤسسة الصناعية ، وكذلك بعض الظواهر الشبيهة فى اطار علم الاجتماع الحربى ، ونظرية البيروقراطية ، وأخيرا بعض مشكلات علم الاجتماع السياسى الخاصة بالاجهزة النيابية الرسمية ، وكذلك الجماعات التى تتكون تلقائيا ، والتى تمثل وسائل أكثر سهولة للتأثير مثل جماعات الردهات (تمثل أصحاب المصالح فى المجتمعات الرأسمالية الذين يؤثرون على آراء أعضاء البرلمان) ، والجماعات ذات النفوذ بأنواعها المختلفة والوسائل غير الرسمية الاخرى للرقابة السياسية والاجتماعية •

على أننا يجب أن نعى بكل وضوح أن مثل هذه التعميمات الواسعة فى النظرية السوسيولوجية لا زالت نادرة • فنحن نتحرك فى الغالبية العظمى من الحالات فى نطاق التعميمات المحدودة الغرض التى نتوصل الى تحديدها فى صدد ظواهر محدودة متفرقة ، دون أن نكلف أنفسنا عناء الربط بينها وبين تعميمات أخرى مشابهة • على أنه يحدث فى بعض الاحيان ألا يرقى البحث الى مرتبة هذه النظريات المحدودة الغرض ، بل يظل محصورا فى مرحلة وصف بعض الانتظامات العامة ، دون محاولة تقديم تفسير نظرى ــ ولو جزئى ــ لهذه الانتظامات • ولا نعدم الامثلة التى يمكن أن تساق للتدليل على ذلك ، فهى كثيرة بغير حاجة الى تحديد ، ويكفى أن نجيل النظر فى ميدان « **الاحصاء الاجتماعى** » ، ففيه كثير من الشواهد على هذا •

وهكذا تتوفر لدينا السلسلة التالية ذات المستويات الاربع ، التى رتبناها تبعا لمدى نمو درجة تجريد المفاهيم المتحصلة منها ، وهى :

- **ملاحظة الانتظامات العامة الامبيريقية**
- **وضع نظريات محدودة الفرض**
- **نظريات متوسطة المدى**
- **نظريات ذات درجة عالية من التركيب والشمول**

غير أننا نجد فى جميع الاحوال أن المفاهيم تستخدم على النحو الذى يحددها به علم الاجتماع العام ، بحيث أنه يبدو للمراقب من على السطح

أن الاتفاق النظرى قد بلغ حدا بعيدا ، أبعد مما هو فى الواقع فعلا . الا أن استخدام نفس المفاهيم الاساسية على المستويات الاربع المذكورة لا يدل بحال من الاحوال على درجة التكامل النظرى التى أمكن التوصل اليها فعلا . **اذ لا نستطيع القول بوجود مثل هذه الدرجة من الاتفاق الا بعد اتضاح مظاهر تقارب بعيد تسمح لنا بادماج الملاحظات التى أجريت فى أماكن مختلفة للانتظامات العامة الامبيريقية فى مختلف مجالات الحياة الاجتماعية ـ مرورا بمستويين النظريات المحدودة الغرض والنظريات المتوسطة المدى ـ فى نظرية واحدة مركبة وشاملة .**

نموذج واقعى لتقدم التعميم النظرى :

ومن الأمثلة المتمازة على هذا ما قدمه لنا العالم الامريكى جورج هومانز homans فى مؤلفه عن الجماعة الانسانية (الصادر عام ١٩٥١) فقد صاغ هومانز فى هذا الكتاب بعض الانتظامات العامة التى لوحظت على احدى جماعات العمل فى شركة وسترن اليكتريك ، واحدى جماعات المراهقين ، واحدى الأسر التى تعيش فى جزيرة تيكوبيا Tikopia وأحد المجتمعات المحلية الصغيرة فى اقليم نيو انجلند ، صاغها فى نظريات جزئية . ثم ألف بينها فى نظرية عن نشره بالاشتراك مع هنرى ريكين Rieeken (عام الجماعة الانسانية . ثم قام فيما بعد ـ فى مقال ١٩٥٤) ، واستنادا الى مزيد من البحوث ـ بتدعيم هذه النظرية وتوثيقها ، كما أدخل عليها بعض التعديلات الجزئية . وقد قاده هذا فى النهاية (فى كتابه بعنوان : السلوك الاجتماعى . أشكاله الأولية ـ نيويورك ، ١٩٦١) الى تحديد نظرة أشمل للسلوك الاجتماعى كله .

ويدلنا هذا المثال بمنتهى الوضوح على أسلوب التقدم فى ضوء المخطط الذى رسمناه من قبل . على أننا اذا أخذنا فى الاعتبار ـ الى جانب هذا ـ أن هناك مئات من مثل هذه النظريات فى مختلف ميادين علم الاجتماع ، لأمكننا أن نتصور مدى الصعوبة التى يمكن أن تكون عليها عمليات التقدم فى سبيل وضع النظريات العامة ، ومدى حاجتنا دائما أبدا الى الضوابط الامبيريقية لتأكيد وتأمين هذه العمليات فى مختلف مراحلها .

على أننا نؤكد هنا أن هذه التطورات النظرية تعمل فى خدمة المعرفة ذاتها ، بينما نجد أن تطورات المفاهيم الاساسية أو المقولات التى أشرنا اليها من قبل لا تخدم عملية المعرفة ذاتها ، وانما هى تؤدى وظيفة تصنيفية ، اذ توجه المعرفة ـ على أبعاد موحدة ـ المنصبة على الموضوع الاجتماعى . فمشكلات مثل مشكلة تبادل المنظورات بين الأنا والعمر ، أو مشكلة تناظر العلاقات لا تقودنا الى معارف محددة ، وانما هى تمدنا بالاطار المرجعى الذى يستحيل بدونه وجود علم اجتماع . ولا يسعنا قبل أن يتوفر لدينا نسق فكرى خاص ـ متميز وعديم النظير ـ أن ندعى لعلم الاجتماع حقا فى الوجود الخاص المستقل . وهو النسق الذى يقوم فى النهاية على اثبات طابع متميز للبعد الاجتماعى ، وهو ما سبق اميل دوركيم الى تحديده فى مؤلفه « **قواعد المنهج فى علم الاجتماع** » .

◆ عمليات فكرية أساسية فى البحث الاجتماعى :

◆ التجربة الفكرية

◆ والنموذج الفكرى

علاوة على هذه المسائل يتعين علينا أن نتوقع فى علم الاجتماع الامبيريقى التعامل على أسس أخرى غير امبيريقية . مع مراعاة أن هذه الاسس ستقودنا بعد لف ودوران ـ قد يطول أو يقصر ـ الى تحقق امبيريقى فى النهاية . ولن يتسع المقام لأن نأتى على كل العمليات الفكرية ذات الاهمية الاساسية فى البحث الاجتماعى ، فلا مناص من تخصيص الكلام عن موضوع محدود ، حتى يمكن أن نستكمل الالمام بالخط الرئيسى لحديث اليوم عن المنهج فى علم الاجتماع الحديث .

« **التجربة الفكرية** » عملية ذات طبيعة عقلية استنتاجية ترافق البحث العلمى باستمرار . وتستمد هذه العملية وظيفتها الخاصة المتميزة فى البحث من حيث أنها تسمح بتحليل مفهوم معين من نواحيه المختلفة ، أى اجراء « **تجارب فكرية** » عليه . ويتم عن هذا الطريق باستمرار التوصل الى اكتشافات هامة ، تتحول فيما بعد الى خيوط موجهة لعملية البحث الفعلية . وهذه هى نفسها الاسس التى تقوم عليها « **النماذج الفكرية** » المعروفة فى العلوم الاجتماعية (وخاصة فى الاقتصاد السياسى ، وحديثا ـ وبشكل متزايد ـ فى علم الاجتماع ، وعلم النفس الاجتماعى ، وبعض فروع المعرفة مثل تحليل الجماعات الصغيرة) . ولا يستطيع أحد أن ينكر جدوى هذا الاسلوب فى ضوء النتائج التى يمكن التوصل اليها عن هذا الطريق . ويعتبر استخدام النماذج من العناصر الاساسية للمنهج غير الامبيريقى فى البحث الاجتماعى . الا أن المقام يوجب علينا شيئا من الحذر ازاء بعض المبالغات

التى نصادفها والتى بدأت تنتشر فى علم الاجتماع ؛ بعد انتشارها فى الاقتصاد • فطالما أنه يظل واضحا أن وضع النموذج هو مجرد وسيلة معينة لقياس كل الأبعاد والجوانب الممكنة نظريا لمفهوم معين ، فلا اعتراض ولا مؤاخذة • ولكن ما أن يعتقد الباحث ــ متجاوزا ذلك ــ أن تحليل هذه النماذج يحل محل النظريات الحقيقية ، بل ويستطيع أن يغنى عنها غناء كاملا ، فاننا نرفع صوتنا بالاعتراض القوى، وذلك لاعتبارات متعددة فى نفس الوقت • اذ أن أكثر التفسيرات سذاجة لعملية وضع النماذج يقترب بهذه العملية الى ما يعرف « **بالمفاهيم الجوهرية** » فى الفينومينولوجيا ، حتى أننا نجد من يطلق عليها اسم «**أفلاطونية النماذج**» • غير أن هذا لا يمثل سوى أحد جوانب المشكلة • أهم من ذلك وأخطر شأنا تلك المحاولات التى تعتبر النماذج الموضوعة بهذه الطريقة «بديلا» للتحقق الامبيريقى ، كما هو شائع فى الظروف العادية لوضع النظرية • كما يجب ألا يعمينا المظهر المبالغ فى الدقة الذى تطالعنا به هذه النماذج أحيانا عن حقيقة هامة ، وهو أنه لم يمكن التوصل اليها الا لأن جميع الظروف الاخرى قد عولجت بطريقة تجريدية تعسفية أيضا •

وهكذا نرى أن النماذج تكون مفيدة طالما أن تحديدنا لعناصرها كان تحديدا «اجرائيا» فقط ، وأننا نستهدف من ورائها التوصل الى وضع فروض مهمتنا أن نتحقق منها من خلال المعلومات الواقعية • فاذا أيد الواقع الغرض المتضمن فى النموذج ، ارتقى هذا النموذج الى مرتبة النظرية • أما فى حالة اثبات انحرافه عن الواقع ، فان ذلك يعنى رفض نظرية معينة ، أو تأييد أخرى •

النموذج والنظرية :

وهكذا يتضح أننا لا نستطيع اعتبار النماذج ولا التجارب الفكرية بديلا عن « **التجارب الواقعية** » • اذ لابد لنا من الاحتكام لهذا الواقع دائما وفى كل حالة • ومع ذلك فان هذا الجهد التحليلى العقلى البحت يحتل أهمية أساسية فى مرحلة الاعداد للبحث ، اذ يتيح لنا أن نحدد نظريا تماما كل المتغيرات الممكنة التى يمكن أن تكون ذات وزن فى حالة معينة ، حتى نتوصل فيما بعد الى تحديد أى هذه الاحتمالات العقلية أكثر اتفاقا وظروف الواقع • فاذا ظهرت بعض الارتباطات العقلية التى تتعارض والتجربة ، فلا يصح أن يكون ذلك سببا فى الاستخفاف بالامبيريقية • بل على العكس من ذلك يكون داعيا الى الرجوع الى كلا العنصرين ــ العقلى والامبيريقى ــ للتحقق مما اذا كان كلاهما منطلقا من أسس خاطئة • بذلك يتضح مدى الاختلاف العميق بين وضع النموذج ووضع النظرية ، بحيث أنه بات من السهل علينا نسبيا تحديد وظيفة كل منهما فى عملية البحث ، بما لا يسمح بحدوث اختلاط فى المستقبل • ولكننا نلتقى مع ذلك ــ دائما أبدا ــ بمثل هذا الخلط ، الذى يبرر ولا شك تفصيلنا فى عرض هذه القضية •

***

نكتفى فى مقال اليوم بهذا القدر من المشكلات العديدة التى ترتبط بمفهوم « **علم الاجتماع الامبيريقى** » ، وحسبنا أن لفتنا النظر الى جملة من أبرز هذه المشكلات التى استحوذت على اهتمام علماء الاجتماع ابتداء من دوركيم حتى ميرتون • ولعل هذه الاشارة منا أن تكون فاتحة اهتمام أوسع بمشكلات المنهج فى علم الاجتماع الحديث•

فقد تطور علم الاجتماع الامبيريقى بمعناه المحدود على مدى السنين السبعين الاخيرة التى انقضت على ظهور مؤلف دوركيم : « قواعد المنهج •• » (الصادر عام ١٨٩٥) • ولم يكن هذا التطور وليد فكرة أو تصور نظرى مسبق، ولكنه كان تطورا من واقع البحث الفعلى • لذلك لم نعد نستطيع اليوم الالمام بالاسهامات الاساسية فى منهج علم الاجتماع الامبيريقى فى بطون الكتب التى تحمل فى عنوانها كلمة «منهج» ، وانما يحقق المنهج تقدمه الفعلى الحقيقى أساسا فى اطار البحوث نفسها• فالخاصية المميزة لمنهج الدراسة العلمية الامبيريقية أنه لا يمكن أن يدرس الا من خلال الممارسة الفعلية ، ولا يمكن فيه أن يحل الغرض النظرى محل التحقيق الواقعى • وأفضل سبيل لنا للتعرف على المنهج هو الغوص فى الانجازات الكبرى التى استطاع البحث العلمى تحقيقها •

وأملنا أن نستطيع فى مقالات تالية اكساب المنهج الاجتماعى الامبيريقى مزيدا من الوضوح والتحديد من خلال استعراض البحوث الكبرى لأئمة الاجتماع كدراسات دوركيم عن تقسيم العمل ، والانتحار ، والأسرة •••الخ ودراسات ماكس فيبر عن «**الاقتصاد والمجتمع**» ، و«مجموعة مقالات فى الاجتماع الدينى» •••الخ انتهاء بأبرز الانجازات المعاصرة فى البحوث الاجتماعية •

ولعله يمكن من خلال ذلك ــ وبعد تطويع هذه المناهج لظروفنا المحلية الخاصة ــ أن نتوصل فى مدى قريب الى تحقيق الارتقاء والاحكام المطلوبين لبحوثنا الاجتماعية المصرية •

محمد محمود الجوهرى

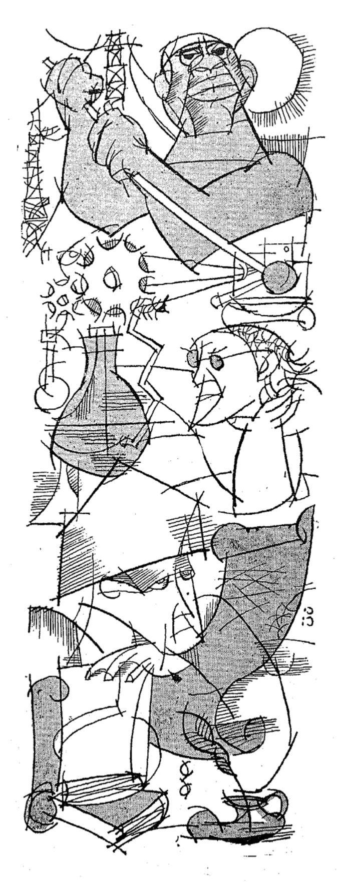
من الحقائق التى اخذت تفرض نفسها يوما بعد يوم أن العلوم الاجتماعية ترتبط فى نشأتها ونموها واتجاهاتها ارتباطا وثيقا بالنظم السياسية القائمة فى البلاد المختلفة وبالمصالح الاجتماعية والاقتصادية التى تمثلها هذه النظم، أى ترتبط بالايديولوجية بعبارة مختصرة . واذا كان فلاسفة العلوم الاجتماعية قد تحدثوا منذ زمن بعيد عن المخاطر التى تحيط بالعلوم

الاتجاهات الحديثة فى علم الاجتماعى الماركسى



الاجتماعية ، لكونها ستضطر اضطرارا فى بعض الأحيان الى أن تصطدم بنظم الحكم القائمة أو بالدولة بمعنى أدق ، فان الاشتراكية العلمية ركزت على هذه النقطة تركيزا شديدا ، على اساس أن العلوم الاجتماعية بطبيعتها لابد أن تكون منحازة ، وأن مقولة الموضوعية فى البحوث العلمية الاجتماعية ليست سوى خرافة تروج لها الأوساط العلمية فى البلاد الرأسمالية . ولذلك هاجمت الاشتراكية العلمية بعنف شديد ما أطلق عليه اسم «علم الاجتماع البورجوازى» الذى يزعم الموضوعية المطلقة فى حين أنه مصطبغ اصطباغا شديدا بالايديولوجية السائدة فى المجتمعات الرأسمالية .

وقد ادى ذلك — تاريخيا — بالفكر الماركسى الدوجماطيقى الى أن ينكر امكانية قيام علم اجتماع بجانب المادية التاريخية التى اعتبرت هى نفسها علم الاجتماع الماركسى . والحقيقة أن وجهة النظر السابقة تصطدم اصطداما مباشرا مع القصور المثالى لنفر كبير من فلاسفة



العلوم الاجتماعية البورجوازيين وعلمائهـــا ، للعلوم الاجتماعية ولشروط البحث الواقعى فى ميادينها المختلفة . فهذه العلوم - فى نظرهم - يمكن أن تجرى بحوثها متحررة من اســـار الايديولوجية تماما ، وخاصة أن الباحث العلمى سيتذرع « بالموضوعية » وهو بصدد اجـــراء بحوثه ، وهذا فى حد ذاته هو الضمان الحقيقى لاستقلال البحث العلمى عن أى مؤثرات خارجية.

وقد عبر الفيلسوف الألمانى الكبير ارنست كاسيرر عن وجهة النظر هذه بمنتهى الوضوح فى ختام كتابه « مقال عن الانسان » . اذ قرر « ان العلاقة بين الذاتية والموضوعية ، بين الفردية والعمومية شأنها فى الفن ليس كشأنها فى العلم انه لحق أن الكشف العلمى العظيم يحمل ايضا طابع العقل المفرد لصاحبه ، اذ أننا نجد فيه - ليس فقط عرضا موضوعيا جديدا للأشياء - بل أيضا اتجاها ذهنيا متفردا ، وربما نجد طابعا شخصيا في الأسلوب . ولكن كل هذا ليس له الا تأثير سيكلوجى فقط ، لا يؤثر على المنهج ، ففى المضمون الموضوعى للعلم ، تنسى هـــذه المظاهر الفردية وتمحى ، لأن أحـــد الأغراض الحقيقية للفكر العلمى هو الاقلال من كل العناصر الشخصية والموضوعية » .

ومن المعروف أيضا أن عالم الاجتمـــاع الشهير ماكسى فيبر كان يعتقد فى امكان القيام بدراسات سوسيولوجية منفصلة عن القيـــم الايديولوجية ، وأن على علم الاجتماع اذا كان يريد ان يكون علميا حقيقة أن يقوم على عـــدم التحيز الايديولوجى فى التحليلات التى يقدمها . وقد اعتنق علم الاجتماع الألمانى فى الفترة من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٢٠ هذه المبادىء بحماس شديد ، بالرغم من وجود بعض المعارضين .

وخلاصة ما سبق كله ، وجود اتجـــاهين متعارضين ومتطرفين . الأول منهما ينطلق من البلاد الاشتراكية ، ويرى أن العلوم الاجتماعية ايديولوجية بحكم طبيعتها من ناحية ، وان المادية التاريخية تغنى عن قيام علم الاجتماع . بالمعنى البورجوازى ، وأنها هى نفسها علم الاجتمـــاع الماركسى . والثانى يسود فى البلاد الراسمالية ، ويزعم أن العلوم الاجتماعية يمكن ان تنشأ وتقوم وتجرى أبحاثها متحررة من اسار الايديولوجية، ما دامت « الموضوعية » ستكون طابعها .

غير أن السنوات الأخيرة شهدت تغييرات جوهرية فى كلا الاتجاهين . فالاتجاه الأول ، وان

ظل حتى الآن مصرا على تأكيد الطابع الايديولوجى للعلوم الاجتماعية فى البلاد الراسمالية ، الا انه — وخصوصا بعد انتهاء عهد ستالين — اعترف بامكان قيام علم اجتماع ماركسى امبيريقى بجوار المادية التاريخية .

وتخلى الاتجاه الثانى عن مزاعمه المطلقة السابقة ، التى كانت تؤكد بغير تحفظ الموضوعية البحتة للعلوم الاجتماعية ، وبدأ يعترف بتأثر هذه العلوم بالايديولوجية بدرجة صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . وقد أسهمت فى هذا التغيير بصورة بارزة كتابات رايت ميلز ، وجونار ميردال ، وداهر ندورف .

ونريد فى هذا المقال الوجيز أن نركز على التغيرات التى لحقت بالاتجاه الأول ، ونعنى نشأة علم الاجتماع الماركسى امبيريقى ، لما له من أهمية قصوى من النواحى النظرية والتطبيقية على السواء .

غير أنه لابد لنا من ان نعرض أولا للموقف الماركسى التقليدى من علم الاجتماع قبل أن نتحدث عن التغيرات التى لحقت به .

أولا

الموقف الماركسى التقليدى من علم الاجتماع

لعل خير ما يصور الموقف الماركسى لتقليدى من علم الاجتماع هو كتاب الفيلسوف الماركسى المعروف بوخارين الذى نشره عام ١٩٢١ الموسوم : « نظرية المادية التاريخية : كتاب شعبى فى علم الاجتماع الماركسى » .

(وقد أعيد نشره فى باريس عام ١٩٦٧) .

وقد حرص بوخارين على أن يبرز بكل وضوح ومنذ السطور الأولى لمقدمة كتابه الطابع الطبقى للعلوم الاجتماعية . فهو يهاجم موقف العلماء البورجوازيين فى حديثهم عن العالم وكأنه شىء غامض تحوطه الأسرار ، فى حين أن أى علم يجد مصدره فى حاجات المجتمع ، أو فى حاجات الطبقات الاجتماعية التى تكونه . وليس يكفى فى نظره معرفة طبيعة الاشياء التى تحوطنا ، بل لابد من ان نتبنى أفكارا واضحة عن المجتمع . وتبدو اهمية ذلك بالنسبة للطبقة العاملة التى لابد لها أن تتزود — وهى تخوض صراعها الطويل ضد الاستغلال — بمعرفة واعيه ومتعمقة بالقوانين التى تحكم سير المجتمع . فلا بد لها ان تتنبا بالوسائل التى ستنتهجها باقى الطبقات الاجتماعية المعادية لها ويتطلب ذلك بالضرورة معرفة الأسباب التى تحكم السلوك العملى لمختلف الطبقات الاجتماعية فى ظل الظروف المختلفة والمتغيرة .

وتبدو فائدة الاعتماد على المعرفة العلمية الاجتماعية بالنسبة للطبقة العاملة فى جميع الأحوال سواء وهى لم تحصل على السلطة بعد ، أو بعد حصولها على السلطة فعلا .

فاذا كانت الطبقة العاملة لم تحصل على السلطة بعد ، فمعنى ذلك أنها ستكون مستغلة بواسطة رأس المال ، ومضطرة — خلال صراعها فى سبيل التحرر — الى أن تعتمد على صور السلوك العملى المختلفة للطبقات الاجتماعية الأخرى . ومن ثم تبدو أهمية معرفة المحددات التى تحكم سلوك مختلف الطبقات ، والعلوم الاجتماعية وحدها هى التى يمكن أن تمدها بهذه المعرفة .

وبعد ما تستولى الطبقة العاملة على السلطة ، فانها ستجد نفسها مضطرة للصراع ضد الدول الرأسمالية ، وضد الثورة المضادة فى نفس البلد الذى قامت فيه الثورة ، ولذلك فسرعان ما تجد نفسها ملزمة بحل عديد من المشكلات البالغة الصعوبة ، التى تتعلق بتنظيم الانتاج والتوزيع وتثور بهذا الصدد عدة أسئلة: كيف يمكن وضع خطة اقتصادية ؟ كيف يمكن الاستفادة من جهود المثقفين ؟ كيف يمكن كسب الفلاحين والبورجوازية الصغيرة وضمهم الى صفوف الثورة الاشتراكية ؟ كيف يمكن اعداد وتأهيل قادة اداريين مدربين من الذين خرجوا من صفوف الطبقة العاملة ؟ كيف يمكن التعامل مع الفئات العريضة فى المجتمع الغير الواعية بوضعها الطبقى ؟

كل هذه الأسئلة وعديد غيرها ، تتطلب الاجابة عليها معرفة عميقة بالمجتمع ، وبالطبقات التى يتكون منها ، وبخصائصها . وبمحددات سلوكها فى ظل الظروف المختلفة. وتتطلب الاجابة أيضا معرفة بالحياة الاقتصادية وبالمفاهيم الاجتماعية التى تتبناها مختلف الجماعات الاجتماعية .

وبعبارة مختصرة ، فانه تدعو الحاجة الى الاستخدام التطبيقى للعلوم الاجتماعية بيد أن المهمة التطبيقية المتعلقة باعادة البناء الاجتماعى لا يمكن تحقيقها بنجاح الا بتطبيق سياسة علمية للطبقة العاملة ، أى سياسة مؤسسة على نظرية

علمية ، توضع فى خدمة طبقة البروليتاريا ، وهى النظرية التى صاغها ووضع دعائمها كارل ماركس.

وهكذا — وعلى ضوء العرض السابق — استطاع بوخارين ببراعة أن يربط بين العلوم الاجتماعية وبين الطبقات الاجتماعية ربطا محكما وثيقا . فهناك علوم اجتماعية للبورجوازية تساعدها فى السيطرة على باقى الطبقات، وتحاول الحفاظ على كل الأوضاع القائمة التى تجسد استغلال الانسان للانسان . ولكن هناك أيضا علوما اجتماعية للطبقة العاملة تساعدها فى تحرير الانسان وفرض المثل والقيم التى تدعو لها الاشتراكية العلمية .

ويهاجم بوخارين بشدة مزاعم الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين الذين ذهبوا الى أنهم أقاموا « علما بحتا » يتميز بالموضوعية المطلقة . وهم على هذا الأساس يزعمون ألا شأن لهم بصراع المصالح فى المجتمع ، ولا بالسعى الى الربح ، ولا بكل ما يتعلق بأمور الحياة الدنيوية. وهم بذلك يصورون عالم الاجتماع وكأنه اله هبط فى جبل عال، وشرع يلاحظ — بغير انفعال — الحياة الاجتماعية بكل ما تضطرم به من صراعات!

وليست هناك حاجة لبذل مزيد من الجهد لتفنيد هذه النظرة المثالية . فالعلم يجد مصدره فى صميم الحياة العملية . ولذلك يبدو واضحا ضرورة الاعتراف بالطابع الطبقى للعلوم الاجتماعية . وليس من الصعوبة فى شىء ان نفهم أن لكل طبقة اجتماعية رؤيتها الخاصة للعالم ، ومن ثم لابد أن يكون العلم الاجتماعى للبورجوازية مختلفا اختلافا جذريا عن العلم الاجتماعى للطبقة العاملة .

ويستخلص بوخارين من كل المناقشات التى يعرضها نتيجة أساسيه مفادها أن العلم الاجتماعى البروليتارى « أسمى » من العلم الاجتماعى البورجوازى . غير انه يحرص على أن يدعم هذه النتيجة بحيثيات موضوعية : أهمها أن الذين يعيشون فى ظل نظام اجتماعى محدد يؤمنون به ، لا يستطيعون تجاوز الحدود الضيقة لهذا النظام لكى يستشرفوا المستقبل ، أو لكى يتنبأوا بامكانية التطور الاجتماعى نحو نظام اجتماعى مغاير يقوم على أنقاض النظام القديم .

وهل كان السيد الاقطاعى — فى ظل النظام الاقطاعى — يتصور علاقات اجتماعية فى ظل نظام آخر تختفى فيه سيطرة السادة على الأقنان ؟

وهل يستطيع البورجوازى — فى ظل النظام الراسمالى — أن يتخيل علاقات اجتماعية لاتقوم على أساس السعى لتحقيق أكبر أرباح ممكنة ، او هل يستطيع أن يضع يده على مواطن الضعف والخلل فى النظام الرأسمالى التى تجعل تغيره واحلاله بنظام اجتماعى أكثر تقدمية أمرا محتوما ؟

غير ان وضع الطبقة العاملة يختلف اختلافا جذريا عن وضع غيرها من الطبقات . فهى ليست متمسكة بالنظام الرأسمالى وتريد الحفاظ عليه بكل ما تملك من قوى ، مما كان من شأنه أن يحجب عنها الرؤية الواضحة ، بل انها تريد أن تحطم هذا النظام الرأسمالى لكى تقيم على أساسه نظاما جديدا تسود فيه الطبقة العاملة. ومن هنا فالطبقة العاملة فى اعتمادها على العلم الاجتماعى البروليتارى تكون قد تزودت بامكانيات ضخمة تسمح لها بالفهم الموضوعى ، والتنبؤ الدقيق بامكانيات التطور الاجتماعى .

العلم الاجتماعى البروليتارى :

واذا كان الأمر كذلك فيبقى سؤال هام : ما هو هذا العلم الاجتماعى البروليتارى ؟

يجيب بوخارين بوضوح أن هذا العلم هو نظرية المادية التاريخية التى هى نفسها يمكن أن تكون علم الاجتماع الماركسى .

ويرد بوخارين على بعض الرفاق الذين ذهبوا الى أنه لا يمكن اعتبار المادية التاريخية بمثابة علم اجتماع ماركسى . وقد أقاموا اعتراضهم على أساس أسباب ثلاثة :

• ليس هناك سوى منهج واحد للمعرفة التاريخية ، ولا يمكن اقامة الدليل على صحة اى مجموعة من الحقائق المعاصرة الا اذا اصبحت حقائق تاريخية تخضع للتمحيص .

• ان فكرة « علم الاجتماع » غامضة وغير محددة . فبعض العلماء يقصدون بعلم الاجتماع علم الثقافة البدائية وأصول الصور الأولى للحياة الانسانية (كالأسرة مثلا) ، والبعض الآخر يعنون به مجموع النظرات والتأملات البالغة الغموض حول مختلف الظواهر الاجتماعية على وجه الاجمال .

• والبعض الثالث يقيمونه على أساس التشبيه التعسفي للمجتمع بالكائن الحي (اشارة الى المدرسة العضوية او البيولوجي في علم الاجتماع) . غير ان بوخارين حرص على تفنيد هذه الاعتراضات جميعا ، فهي زائفة كلها في نظره . فاذا كان هناك خلط سائد في المعسكر البورجوازي فليس هناك ما يدعو الى خلق خلط جديد في المعسكر الاشتراكي ويتساءل :
أي مكان ينبغي أن تشغله نظرية المادية التاريخية؟ ان مكانها ليس قطعا في مجال الاقتصاد السياسي، ولا في مجال التاريخ ، ولكن موضعها الصحيح في علم المجتمع العام وفي قوانين تطوره ، اي في علم الاجتماع بعبارة أخرى . وكون نظرته المادية التاريخية تكون منهجا للتاريخ لا يقلل من أهميتها بحسبانها نظرية سوسيولوجية .

والحقيقة أن هذه النظرة الخاصة لعلم الاجتماع ، التي تتمثل في معارضة علم الاجتماع البرجوازي بحسبانه يخدم أساسا مصالح الطبقات الراسمالية المستغلة ، واعتبار المادية التاريخية هي بذاتها علم الاجتماع الماركسي ، هي التي أتيح لها أن تسود الفكر الماركسي الرسمي ردحا طويلا في الزمان . وقد ادى هذا الموقف الى الاكتفاء — في دراسة الظواهر الاجتماعية المختلفة — بالتحليلات النظرية الدوجماطيقية التي تستند الى المقولات الأساسية في المادية التاريخية ، مما ادى الى عقم التفكير السوسيولوجي الماركسي . ومن الغريب أن أنصار هذا الاتجاه ودعاته تغافلوا عن الأساس الواقعي الذي صيغت على أساسه نظرية المادية التاريخية . فمن المعروف أن كارل ماركس وفردريك انجلز — اللذين ينسب لهما فضل صياغة هذه النظرية في صورتها النهائية — لم يقنعا بمجرد التفكير النظري ، بل نزلا الى أرض الواقع لكي يكتشفوا أبعاده المختلفة باستخدام وسائل البحث الاجتماعية الأساسية كالملاحظة المباشرة وغيرها . بل لقد قام كارل ماركس — ابعد من هذا — باعداد استمارة بحث questionnaire من النوع الذي يشيع استخدامه الآن في البحوث الميدانية السوسيولوجية لتكون اداة بحث في موضوع « بحث ظروف الطبقة العاملة » . في ٢٠ أبريل سنة ١٨٨٠ وقد نشرت هذا الاستمارة في « المجلة الاشتراكية » التي كانت تصدر في فرنسا كما طبع منها ٢٥٫٠٠٠ الف نسخة وزعت على العمال في كل أرجاء فرنسا . وقد صدرت الاستمارة بمقدمة طلب فيها من عمال الريف والمدن أن يملأوا هذه الاستمارة ، لانهم فقط الذين يستطيعون أن يصفوا « بمعرفة كاملة الشرور التي يعانون منها » . ووجه النداء أيضا الى الاشتراكيين من كافة الاتجاهات الذين يرغبون في الاصلاح الاجتماعي ، باعتبار أن عليهم ايضا أن يحصلوا على معرفة **مضبوطة وواقعية** positive بالظروف التي تعيش فيها الطبقة العاملة . وأعلنت هذه المقدمة أيضا أن الاجابات سوف تصنف لكي تكون أساسا لسلسلة من المقالات التي ستنشر في « المجلة الاشتراكية » ، على أن تجمع بعد ذلك في كتاب.

وتنقسم استمارة البحث التي اعدها ماركس الى اربعة أقسام رئيسية تحتوي على ١٠١ سؤالا .

ومن استعراض هذه الاستمارة ، يمكن القول انها تتضمن العطلة بالغة الدقة والتنوع . يمكن على أساسها بالفعل معرفة وتقدير الظروف التي تحيا في ظلها الطبقة العاملة . (نص الاستمارة منشور في كتاب بوتومور وروبل ، راجع قائمة المراجع) . واذا كانت نتائج البحث لم يتح لها أبدا أن تعلن لظروف متعدده ، الا أن هذا البحث بذاته — بالاضافة الى بحوث متعددة أخرى — يعد شاهدا على منهج كارل ماركس في صياغة تحليلاته ونظرياته ، والتفاته الى ضرورة النزول الى الواقع لوصفه وجمع البيانات الواقعية عنه ، تمهيدا لفهمه وتحليله .

ومن المؤسف أن هذه التقاليد العريقة في الفكر الماركسي ، قد تجاهلها الفكر الماركسي الرسمي ، ووضع بذلك سدا منيعا امام تطور الفكر السوسيولوجي الماركسي ، لم يتح له أن ينهار الا بعد انتهاء الحقبة الستالينية ، وسيادة موجات التحرر في مختلف الميادين ، مما انعكس أثره على أوضاع العلوم الاجتماعية في الاتحاد السوفيتي وغيره من البلاد الاشتراكية .

ثانيا

نشأة علم الاجتماع الماركسي الامبيريقي

تتابعت منذ عام ١٩٥٩ البحوث الاجتماعية الأمبيريكية (ونعني بها البحوث الميدانية التي تنزل الى الواقع نفسه لوصفه وجمع البيانات المتنوعة عنه) ، في البلاد الاشتراكية وبوجه خاص في الاتحاد السوفيتي وبولندا والمجر .

وزاد الاهتمام بعلم الاجتماع بوجـــه خاص . ومن بين الشواهد التى تضرب للدلالة على نمو هذا العلم اشترك أكثر من ٦٠٠ عالم اجتماع روسى فى مؤتمر عقد فى لينينجـــراد فى فبراير سنة ١٩٦٦ .

ولكن لا يمكن القول أن هذه التغييرات تعد فى حد ذاتها مراجعة جوهرية للأسس النظرية للماركسية. حقا لقد ازدادت البحوث الاجتماعية الميدانية ، ولكن كل هذا يتم حتى الآن فى حدود الاطار التقليدى للتحليل الماركسى .

غير ان اهم تطور حدث هو ظهور علم اجتماع مستقل بجوار المادية التاريخية . ولقد سبق لنا ان عرضنا للموقف التقليدى الماركسى الذى لم يكن يتصور قيام علم اجتماع بجـــوار المادية التاريخية ، ما دامت المادية التاريخية نفســها كانت هى — وفق هذا النظر — علم الاجتماع الماركسى .

ولعل هذا ما دفع بالبـــاحثين في مختلف البلاد أن يهتموا اهتماما بالغا بهذه التغيرات فى النظر لعلم الاجتماع ، ويرد هذا الاهتمام الى عدة أمور . فقد اعتبر نمو هذا العلم دلالة على تغييرات مصاحبة في الاتجاهات الايديولوجية . ولما كانت هذه الاتجاهات أحد محددات ضروب السلوك السياسى ، فان علم الاجتماع الماركسى الأمبيريكى يثير اهتمام الباحثين الذين يهتمون بمتابعة السياسة والايديولوجية فى البـــــلاد الاشتراكية . وترد هذه الأهمية ثانيا الى أن الماركسية أكدت تأكيدا شديدا — كما بينا — على الدور الايديولوجى الذى يلعبه علم الاجتماع ؛ والآثار المترتبة على ذلك من سيادة النظـرات الذاتية التى لا تعطى منظورا موضوعيا وحقيقيا للواقع الاجتماعى فى المجتمعات الانسانية ، وكل ذلك على أساس أن المادية التاريخية تكفى بذاتها وتغنى عن علم الاجتماع . ومعنى ظهور بحوث ميدانية اجتماعية والاعتراف بأهميتها أن هناك اتجاها نحو التخلى — لدرجة صغيرة أو كبيرة — عن هذا الموقف ، وهذا ما يعطى لهذا التغيير اهمية كبرى .

كل ذلك بالاضافة الى أن عددا من المفكرين الماركسيين يرون أن اهمية هـــذه البحوث الميدانية تكمن فى معرفة الى اى مدى ستصدق أفكار وتحليلات ماركس التى بنيت أساسا فى ضوء تحليل المجتمعات الرأســـمالية . على المجتمعات الاشتراكية المعاصرة التى تم فيهـا تأميم وسائل الانتاج ، وسادت فيها عـلاقات انتاجية جديدة . ويثور التساؤل ايضا بهـذا الصدد : هل يمكن اعطاء تفسير جديد لنصوص ماركس يسمح لها بالتكيف مع هـذه الظروف الجديدة ؟

وأخيرا ، يمثل هذا الاتجاه نحو البحـــوث الميدانية التى تجرى الآن على نطاق واسع فى البلاد الاشتراكية الأمل فى جمع المادة العلمية اللازمة ، لصياغة نظرية للمجتمع الاشتراكى ، وهى بذلك تقدم لأول مرة فى التاريخ امكان بناء مثل هذه النظرية ، ليس على أساس استنتاجات نظرية ، بل على اساس نتائج عممت من واقع الحقائق التجريبية .

أسباب نشأة علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى :

قد يبدو من المناسب أن نطرح السؤال الهام التالى : ما هى العوامل التى ساعدت على نمو وتطور علم اجتماع ماركسى امبيريقى ؟

بغير دخول فى تفاصيل عديدة لا يسعها هذا المقال ، يمكن القول أن هذه الأسباب ترد الى ثلاثة رئيسية :

• وجود تراث وتقاليد لعلم الاجتمـــاع الامبيريكى في البلاد الاشتراكية ذاتها . ولقـــد أشرنا الى مناهج البحث التى اتبعها كارل ماركس وانجلز فى بحوثهما ، غير أنه بالاضافة الى ذلك كانت توجد فى الاتحاد السوفيتى وفى بولنـدا على وجه الخصوص تراث عريق وتقاليد علمية خاصة بالبحوث الاجتماعية الميدانية .

• طموح علماء الاجتماع الماركسيين وتطلعهم لربط مجالات عملهم بالحـركة السوسيولوجية العالمية .

• التحولات الاجتمـــاعية والسياسية ، وكذلك الاحتياجات التطبيقية للاقتصـــــاد ولسياسة التخطيط فى البلاد الاشتراكية .

غير أن هذا التطور الحاسم أثار بطبيعـــة الحال أسئلة عديدة حول العـلاقة بين عــلم الاجتماع الماركسى الأمبيريكى ، الذى بدأ ينمو بسرعة وبين المادية التاريخية .

علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى والمادية التاريخية

انقسم المفكرون الماركسيون فى الاجابة على هذا السؤال الى ثلاث فئات :

رأت الفئـــة الأولى أن المادية التاريخية كما صاغها ماركس وانجلز ولينين ، هى نظرية سوسيولوجية عامة ، وأن هذه النظرية قد ثبتت صحتها وحققت بطريقة قطعيـــة . ولكن من الضرورى – ومن أجل التطبيق – القيام ببحوث اجتماعية واقعية . وهذه البحوث يمكن اعتبارها المادية التاريخية نفسها فى مجال « الفعـــل » أو « التطبيق » .

وهذا الرأى اعتنقه الجيل القديم من العلماء السوفيت الذين وان آمنوا بفائدة البحـــوث الاجتماعية ، الا أنهم استبعدوا امكانية صياغة نظرية سوسيولوجية لا تندرج داخل اطـــار الصيغة الكلاسيكية للمادية التاريخية .

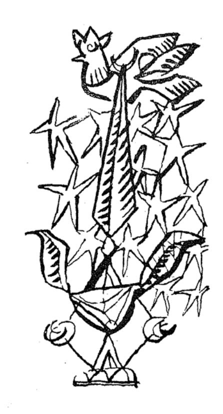
• أما الفئة الثانية فقد كانت أكثر جرأة ، اذ ذهبت الى امكان أن تؤدى البحوث الميدانية الى ادخال تغييرات على الصيغ العامة للمـــادية التاريخية بصورة الكلاسيكية .

ويرى أنصار هذا الرأى امكان صـــياغة « نظريات متوسطة » تنطبق قبل أى شيء على الظاهرات والعمليات التى لم تظهر من قبل فى المجتمعات التى سبق لماركس وانجلز ولينين أن أخضعوها لتحليلاتهم .

ويؤسس هذا الرأى على أن المجتمعـــات المعاصرة – ويشمل هذا المصطلح ليس فقـــط المجتمعات الاشتراكية ، ولكن أيضا المجتمعات الرأسمالية وما بعد الرأسمالية وما بعـــد الاستعمار – لم تكن معروفة للمفكرين الكلاسيكيين الذين لم يعرفوا لا الآثار المترتبة على العـــلم والتكنيـــك الحـــديث ، ولا آثار التخطيط الاقتصادى .. الخ . وعلى ذلك فعلم الاجتماع الماركسى ينبغى أن ينشىء نظريات جديدة تنطبق على مجالات الوقائع الجديدة ، مستفيدا فى ذلك بالموجهات العامة للنظريات الكلاسيكية .

• واخيرا نجد الفئة الثالثة التى اعتنقت أكثر الآراء تطرفا . اذ ذهب دعاتها الى أن المادية التاريخية فى صياغتها الكلاسيكية كانت نظرية المجتمع الرأسمالى فى المرحلة السابقة للثـــورة العلمية والتكنولوجية . وهى تقدم لعلم الاجتماع المبادىء المعرفية والمنهجية البالغة العمومية . **ولكن على علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى أن يصوغ نظرية المجتمع المعاصر .**

وعلى ذلك فالبحوث الميدانية لا تكون فقط مصدرا يضمن وصف الوقائع التى تثبت صحة



النظرية ، ولكنها تمثل الأساس الذى ينبنى عليه التخطيط والتطبيق الاقتصادى والاجتماعى . وهى تقدم أيضا المادة اللازمة لصياغة التعميمات ، وبناء نظرية المجتمع المعاصر ، بوسائل انتاجه الجديد ، ومبادئه الجديدة فى التدريج الاجتماعى ، ودوره الجديد فى ثقافة الجموع ..

هذه هى الفئات الثلاث من الآراء التى حاولت حل مشكلة العلاقة بين علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى والمادية التاريخية .

غير أن قائمة المشكلات لم تنته بعد ، اذ عاد التساؤل يثور من جديد : **اذا كان الأمر كذلك** فما هى الفروق المميزة اذن بين علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى وعلم الاجتمـــاع الأمبيريقى غير الماركسى ؟

السمات المميزة لعلم الاجتماع الماركسى الامبيريقى

هناك عديد من علماء الاجتماع فى البـــلاد الاشتراكية لم يحاولوا الاجابة على هذا السؤال ، على أساس أن ذلك لا يدخل فى اختصـــاصهم ، وانما هو من اختصاص المهتمين بموضـــوع الايديولوجية بمعناها العام .

غير أننا نستطيع أن نعتمد فى الاجابة على هذا السؤال على عالم الاجتماع السوفيتى او سيبوف الذى عرف علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى بأنه :

« العلم الذى يهتم بقوانين نشأة ونمو وتغير التكوينات الاجتماعية والاقتصادية » . ويرى أن هذه القوانين تفصح عن نفسها فى وجود الظواهر والعمليات والوقائع الاجتماعية المحسوسة المادية والروحية .

ويرى أن السمات الأساسية لهذا العلم أربع وهى :

١ ـ اتحاد وثيق مع الحياة ، والوحدة التى لا انفصام لها بين البحوث السوسيولوجية النظرية والواقعية ، وبين المنهج والنظرية.

٢ ـ يحدد نشاطه ارادة توجيه الحياة الاجتماعية ، وهذه السمة تؤدى الى السمة الثالثة .

٣ ـ تنمية المبادىء العلمية للتخطيط والتغيرات الاجتماعية .

٤ ـ وآخر ما يميز علم الاجتماع الماركسى الامبيريقى هو نزعته الانسانية .

ويرى عدد من علماء الاجتماع الماركسيين أن هذه السمات المميزة لعلم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى قد أدت الى أن يكون له أيضا سمات منهجية مميزة . فهو وان كان حقيقة يستخدم مختلف أدوات البحث السوسيولوجى ، مثل الملاحظة ، والمقابلة ، والمسح ، ومقاييس الاتجاهات ، وهى مطابقة تماما للأدوات المستخدمة فى علم الاجتماع غير الماركسى ، الا أن الاختلافات تظهر فى أربعة امور أساسية :

- فى المواجهات المنهجية العامة .
- فى طريقة استخدام هذه الأدوات .
- فى طريقة جمع البيانات .
- وأخيرا فى تفسير البيانات .

وعلى هدى هذه الموجهات يدرس علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى الظواهر الاجتماعية، حريصا على اكتشاف العلاقات التى تحكم التكامل بينها ، واضعا اياها فى مسارها التاريخى .

ويضيق المقام هنا عن الدراسة التفصيلية للفروق المنهجية بين علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى وغيره مع اهميتها الكبيرة .

وقد يكون من المناسب أن تعرض للاتجاهات الأساسية فى البحوث الاجتماعية الميدانية فى أحد البلاد الاشتراكية كالاتحاد السوفيتى ، لكى تبرز بوضوح كيف تتحول المنطلقات النظرية الى واقع عملى مترجم فى سلسلة مترابطة من البحوث والدراسات .

الاتجاهات الأساسية للبحوث الاجتماعية الميدانية فى الاتحاد السوفيتى :

يمكن حصر البحوث الاجتماعية الميدانية المختلفة فى الميادين الآتية :

١ ـ دراسات التغير فى البناء الاجتماعى للمجتمع :

- ويدرس هنا التغيرات فى الطبقة العمالية والفلاحية .
- العمل الذهنى والعمل اليدوى .
- الهجرة الداخلية من الريف الى المدينة.
- الاستخدام الرشيد للقوى العاملة .

٢ ـ المشكلات الاجتماعية للعمل :

- تغير شكل العمل ومضمونه .
- تغير الاتجاهات ازاء العمل .
- اختيار المهنة .
- جاذبية بعض المهن للشبان .
- المستوى الثقافى والفنى للعمال فى المشاريع الصناعية .
- التقدم التكنيكى وأثره على مضمون العمل وشكله .
- أهمية العوامل الاجتماعية ـ النفسية فى رفع الانتاجية وفى تنظيم الانتاج .

٣ ـ المشكلات الاجتماعية للحياة اليومية وللخدمات العامة :

- تغير بناء الأسرة ووظائفها .
- أثر اشتغال النساء على مراكزهن فى المجتمع والأسرة .
- الأسس الأدبية morales للحياة اليومية ولحياة الأسرة .
- التغيرات الاجتماعية والثقافية لدى النساء .

• وقت العمل والوقت الحـر ووقت الترفيه .

• طرق الحياة والتحضر .

• طرق غرس قيم الجمـاعية في نفوس الأفراد .

• تطوير الخدمات العامة لتلافى اهـدار الوقت خارج ساعات العمل .

• تخطيط المدن والقرى لتتلاءم مع مبادىء الحياة الشيوعية .

• طرق جعل الثقافة والعلم تلعب الدور البارز فى حياة الانسان .

• طرق شغل أوقات الفراغ .

٤ ـ دراسة مشكلات التوجيه الاجتماعى :

ويهتم بهذه الدراسة معهد الدولة والقانون ، الذى يعنى بدراسة فاعلية النصوص القانونية فى التوجيه الاجتماعى .

٥ ـ دراسـة للمشـكلات الاجتماعيـة المصاحبة لمحو الفروق بين المدينة والقرية :

• وتهدف هذه البحوث الى دراسـة التنظيم الأمثل للانتاج الزراعى .

• تطوير حياة الريفيين وثقافتهم ليقتربوا من اهل الحضر .

• الأسس الاجتماعية للاسكان .

• دراسة بعض المسائل السكانية المتعلقة بالهجرة من الريف الى المدينة .

٦ ـ المشكلات الاجتماعية المتعلقة بالحيـاة الذهنية والثقافية :

• بحوث متعلقة تخلق الشخصية الايجابية اجتماعيا والمبدعة .

• دراسة لفعالية وسائل وأساليب العمل الايديولوجى .

• الجوانب الاجتماعية ـ النفسية لتطور وسائل الاعلام (السـينما ـ الراديو ـ التليفزيون) .

• دراسة للعلاقة بين التعليم والأخـلاق والتطور الجمالى واللياقة البـدنية فى تشكيل الانسان الجديد .

٧ ـ المشـكلات الاجتمـاعية ، والاجتماعية النفسية للأشخاص :

• دراسة للفروق الفردية بين الأشخاص ، تستخدم نتائجها فى التخطيط الاجتماعى ، وكذلك فى أفضل استخدام للاشخاص فى فروع الانتاج .

٨ ـ مناهج البحث : المنهج وأدوات البحث :

ان البحوث الاجتمـاعية الميدانية تقوم على أسـاس استخدام مناهج وأدوات بحث تصـلح لجمع البيانات الأساسية عن مختلف ضروب النشـاط الانسـانى : فى العمل ، والحياة السياسية ، والحيـاة الأسرية .. الخ . ويستخدم لذلك :

• تحليـل البيانات الاحصـائية من واقع السجلات الرسمية أو الفردية .

• اجراء مسوح .

• استخدام الملاحظة .

• اجراء المقابلات المختلفة .

• تسجيل وتحليل الخبرات الاجتماعية .

• القيام بدراسة حالات فرديةcose-studies

وهذا التنوع فى الادوات تقتضى بحث تكييفها على ضوء أسس منهجية علمية لكى تتناسب مع كل مشكلة .

وتنبغى الاشارة أخيرا الى التركيز الشديد على دراسة الموضوعات الآتية :

• أساليب التحليـل الكمى للظـواهر الاجتماعية .

• تنميط الظواهر الاجتمـاعية على الآلات الحاسبة والالكترونية .

• اقامة انماط رياضية تمثل سلوك الظواهر الاجتماعية .

• تنمية منـاهج ذات طابع سـيبرنيطيقى ورياضى لمشـكلة التوجيه الأمثل للعمليـات الاجتماعية .

• انشاء أسس علمية لنظام آلى يعتمد على الآلات الحاسـبة لجمع ومعـالجة البيـانات الاجتماعية .

• اهتمام خاص ومركز بتنمية الأسـاليب الاحصائية والرياضية التى يمكن بموجبها أن يتحول علم الاجتماع الى علم بحت .

نظرة نقدية لعـلم الاجتماع الماركسى الامبيريقى :

قد يكون من باب التعجل ـ وملامح الصورة الكاملة لعلم الاجتمـاع الماركسى الأمبيريكى لم تكتمل بعد أن ننظر له نظرة نقدية شـاملة ، وخصوصا ونحن لا نمتلك كافة البيانات التى تسمح لنا بذلك نتيجة لندرة المراجع ، وعـدم انتظام الدوريات العلمية الاشتراكية ، غير أن

هذا لا يمنع من أن نقدم عددا من الملاحظات النقدية العامة ، التى هى فى الواقع اقرب الى ان تكون تساؤلات تبحث عن أجوبة .

١ ــ أول ما نلاحظه أن التغير الجوهرى الذى حدث في ميدان علم الاجتماع الماركسى هو ذلك الاندفاع الشديد نحو اجراء البحوث الاجتماعية الميدانية بعد فترة عقم طويلة ، قنع فيها الفلاسفة والمنظرين الماركسيين باجترار الصيغ التقليدية الماركسية المحفوظة ، ظانين بذلك انهم يستطيعون بواسطتها تفسير أى مجموعة من الحقائق الاجتماعية تحت أى ظرف من الظروف التاريخية • وكأن الماركسية قد امتلكت الحقيقة مرة واحدة والى الأبد ! •

وقد تكفلت الحقائق الاجتماعية المعاصرة باثبات بطلان هذا المنهج . فالواقع دائما اغنى من النظرية ، بل ان الواقع هو نفسه المحك الرئيسى نصحة أى نظرية اجتماعية .

غير ان مجرد تزايد البحوث الاجتماعية الميدانية ، وان كان له أهميته ، الا أن الأهم من ذلك معرفة مدى ما ستسفر عنه عملية جمع البيانات الاجتماعية المتنوعة وتحليلها من انعكاسات على البناء النظرى للمادية التاريخية فالبحوث الميدانية الاجتماعية وان كانت حتى الآن تجرى فى اطارها ، الا ان ذلك ليس ضمانا ابديا . فمن المتصور ان تثور البيانات على النظرية ، تماما ــ وفق تشبيه فرنسى موفق عن جمود القوانين ــ مثلما تثور الوقائع على التقنين! ومعنى ذلك أنه قد تكشف البيانات الميدانية عن قصور بعض جوانب النظرية عن التفسير ، وتبدو الحاجة حينئذ ملحة لتعديلها ، ان لم يصل الامر الى البحث عن أسس أخرى للتفسير .

وهناك شواهد عديدة على ما تذهب اليه • والمثل الحى لذلك هو موضوع الطبقات الاجتماعية . فمن المعروف أن التعريف الماركسى الكلاسيكى للطبقة يربطها بملكية أدوات الانتاج وبموضعها من نسق الانتاج الكلى . ولكن ثار السؤال الهام التالى : هل تختفى الطبقات الاجتماعية تماما فى مجتمع اشتراكى تم فيه فعلا تأميم وسائل الانتاج واختفى التمايز الطبقى ، وأصبح المجتمع ــ كالمجتمع السوفيتى المعاصر ــ مكونا من أشخاص لا من طبقات ؟

يبدو أنه بتحليل المجتمعات الاشتراكية المعاصرة ، من السهل ملاحظة انه وان اختفت الطبقات بصورتها التقليدية ، الا انه بدأ يحل محلها فئات اجتماعية couches sociales متمايزة ، قد تنهض على أساس مهنى أو على أسس اخرى . ومن هنا تدعو الحاجة الى اعادة النظر فى نظرية الطبقات الاجتماعية التقليدية لكى تستطيع ان تفسر الحقائق الجديدة فى المجتمعات الاشتراكية .

٢ ــ يذهب علماء الاجتماع الماركسيين ــ كما أشرنا ــ الى أنه من بين السمات الرئيسية لعلم الاجتماع الماركسى الامبيريقى أن له سمات منهجية خاصة تميزه . بعبارة أخرى ، هذا العلم وان كان يستخدم ــ فى الظاهر ــ نفس مناهج وأدوات البحث المستخدمة فى علم الاجتماع غير الماركسى ، الا انه يتميز عنها من نواح متعددة اهمها : فى الموجهات المنهجية العامة، وفى طريقة استخدام ادوات البحث ، وفى طريقة جمع البيانات ، واخيرا فى تفسيرها .

والحقيقة أن عددا كبيرا من الباحثين يرفضون وجهة النظر هذه ، ويعتبرونها من قبيل المزاعم الفارغة . فالمنهج العالمى في نظرهم واحد فى كل مكان . الملاحظة هى الملاحظة سواء تمت فى المجتمع الروسى أو فى المجتمع الامريكى ، والمقابلة هى المقابلة ، واستمارة البحث هى استمارة البحث فما الفرق اذن ؟

تذكرنا هذه المناقشة بعبارة حكيمة سبق لعالم الاجتماع الامريكى المعروف رايت ميلز أن ساقها فى كتابه النقدى القيم « الخيال السوسيولوجى » . فقد ذهب ميلز الى انه «يبدو **أن هناك خلافا بين من يلاحظون بغير تفكير ، وبين من يفكرون بغير ملاحظة ، ولكن الأخطر من ذلك معرفة أى أنواع الملاحظة تجرى وأى أنواع التفكير تمارس »** .

ويشير ميلز هنا ببراعة الى الاتجاه التجريبى الذى أغرق فيه علماء الاجتماع الامريكيون انفسهم بغير الاستناد الى أطر نظرية سابقة لتوجيههم ، ومن ناحية اخرى يشير الى هؤلاء الذين يقنعون بالتحليلات النظرية التى لا تسندها شواهد واقعية .

غير ان الأهم من ذلك اشارته الى أنه ليس هناك تفكير هكذا على الاطلاق . كما انه ليست هناك **ملاحظة** هكذا على وجه الاجمال ؛ فالمهم تحديد نوع الملاحظة وابراز نوعية الحقائق التى تخضع لها . ويبدو صدق هذه الاشارة

من استعراض المنهج السائد فى علم الاجتماع الامريكى لدراســـة الطبقات الاجتماعية ، أو ما يطلقون عليه ـ لاخفاء الصراع الطبقى فى المجتمع ـ التدريج الاجتماعى social stratification يعتمد علماء الاجتماع الامريكيون فى هذا الصدد على توجيه الأسئلة لمجموعة من الناس (عينة البحث المختارة) لكى يرتبوا انفسهم على سلم طبقى معد سلفا . فيسأل الشخص مثلا : هل تعتبر نفسك تنتمى الى الطبقة الدنيا أو الوسطى أو العليا ؟ ومن مجموع الاجابات يحاولون تقديم صورة علمية ـ فى زعمهم ـ لحقيقة التدريج الاجتماعى فى المجتمع المحلى الذى يخضعـونه للدراسة . ولعل دراســة « وارنر » الشــهيرة « يانكى سيتى » أبرز مثال على ذلك .

غير أن هذا المنهج الذاتى ـ ان صح التعبير ـ معيب من عدة جوانب ، لانه لا يمكن عن طريقه الحصول على صورة موضوعيه لوضع الطبقات الاجتماعية فى المجتمع . وهنا يبرز منهج آخر يعتمد على نظرية الطبقات الاجتماعية كما قدمتها الاشتراكية العلمية . ووفق هذا المنهج لا بد من تحديد الوضع الذى تشغله كل طبقة اجتماعية فى نسق الانتاج الكلى ولا تستطيع أن تغنى عن ذلك تصورات الأفراد الذاتية عن أوضـــاعهم الطبقية . ان هذه التصورات قد تفيد اذا كنا نبحث « الوعى الطبقى » ، وهو أمر لم تتجاهله أيضا الاشتراكية العلمية ، غير أن مجرد الوقوف عنده لا يكفى لتحديد الوضع الطبقى فى المجتمع .

وعلى ذلك نستطيع أن نتصور ان مناهج البحث وأدواته فى عالم الاجتمــاع الماركسى الامبيريكى يمكن أن تتميز بذاتيــة واضــحة تميزهــا عن شــبيهاتها ولا ينبغى أن تغيب عن اذهاننــا الانتقادات العنيفة التى وجهها علماء اجتماعيون أمريكيون كبـــار للاجراءات البحثية فى عــالم الاجتماع الامريكى ومن أهم هؤلاء ســوردكنى ورايت ميلز . وتقف فى الصدارة انتقادات رايت ميلز لأنه أسسها على أن كثيرا من مناهج البحث وأدواته تستخدم اســتخداما خاصــا فى علم الاجتمــاع الامريكى لاخفــاء حقيقــة الصراع الاجتماعى فى المجتمع الامريكى . ويكفى أن نشير بهذا الصدد الى دراسته النقــدية العميقة : « الحياة الاجتماعية لمجتمع محلى حديث » ، فهى تقدم درسا بليغا فى النقد العلمى لمناهج البحث . هذه بعض الملاحظات السريعــة التى رأينا تسجيلها بصــدد علم الاجتماع الماركسى الأمبيريقى ، وهى ملاحظات لا تغنى عن دراســة أوفى وأشمل .

خاتمة : بهذا نصل الى خاتمة دراســتنا الوجيزة للاتجاهات الحديثة فى عــالم الاجتماع الماركسى . والحقيقة أن هناك جوانب متعددة كانت تستحق أن نقف عندها طويلا لعرضها ودراســتها وتأملها . ولعل من أهمها تحــديد القيمة الحقيقيـــة للنظرية السوســـيولوجية الماركسية على ضوء دراســـة جوانبها الثرية المتنوعة دراسة متعمقة ، لكى نضع الحدود بين ما هو مقبول منها الآن على ضوء الدراسـات والبحوث الحديثة ـ وما يتعين رفضه .

ومن أمثلة هذه الدراسات النقدية المتعمقة التى لا تصدر عن رفض مسبق لعلم الاجتماع الماركسى دراسة عالم الاجتماع الامريكى الألمانى الأصل رالف داهر ندورف الموسومة : « الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى » (لندن، ١٩٥٠) ، والتى أخضع فيها نظرية ماركس عن الصراع الطبقى للنقد المتعمق .

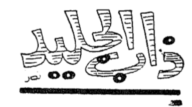
كما انه ينبغى علينا أن نبرز ما أضافه فكر ماركس السوسيولوجى الى تراث علم الاجتماع وتأثيره البالغ على عديد من علماء الاجتماع فى مختلف البلاد . وقد تكفل بوتومور وروبل فى كتابهما : « كارل ماركس ، كتابات مختارات فى علم الاجتماع والفلسفة الاجتماعية » . لندن: ١٩٦١ ، بعرض هذا الموضوع بطريقة عميقة حقا .

غير أن كل هذا لا يغنى عن دراسة الوضع الراهن للبحوث الاجتماعية الميدانية التى تجرى فى البلاد الاشـــتراكية ، وتعقب ما تثيره من مشكلات نظرية ومنهجية ، كل هذا مع دراسة وتحليل ما بدأ يظهر من دراسات نقدية عميقة يكتبها علماء الاجتماع الاشتراكيون لما يطلقون عليه علم الاجتماع البورجوازى .

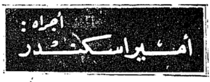
والواقع أننا وضعنا كل هذه الجوانب الهامة فى الاعتبار فى دراســة شــاملة لعلم الاجتماع الماركسى نقوم بها ، ونرجو لها أن ترى النور فى القريب ، لتبرز جانبا من اكبر جوانب التحول فى الفكر الاشتراكى العالمى فى الوقت الراهن . وهو فكر يزداد التسليم بأصالته يوما بعد يوم، ويشــتد الايمــان بقدرته على تقديم المفاتيح الأساسية لفهم مختلف الظواهر التى يحفل بها عالمنا المعاصر .

السيد يس

العلوم الانسانية بعد أن



حوار مع : جيرزى ڤيانز



« لا تصبح الاشتراكية علمية بمجرد الانتقال من المثالية الى المادية ، بل بالانتقال من التأمل النظرى الى النقد ، ومن الحلم الطوبائى الى المنهج التجريبى » .

هكذا كان يقول المفكر الفرنسى الكبير « **روجيه جارودى** » **فى كتابه** « **ماركسية القرن العشرين** » والواقع أن هذا القول الذى قد يبدو بديهيا ، لأول وهلة ، يلخص فى ايجاز شديد ، وبتعبير محدد ، المحاولات الجاهدة التى بذلت ـ وتبذل ـ لتتخطى مرحلة التصلب والجمود التى أصابت الفكر الاشتراكى العلمى ، وعاقته عن النمو والتطور



ج . فيانز

والانفتاح على التجارب والنتائج الكثيرة الهامة التى قدمها الفكر الانساني خارج اطار الماركسية التقليدية ، لا فى مجال التطبيقات الاشتراكية المتعددة فحسب ، وانما في ميدان الجهود النظرية أيضا ، وفى قطاع هام منها ، هو قطاع **العلوم الانسانية** •

ويكفى أن يقال أنه في مرحلة من مراحل تطور الفكر الماركسى ، كان هناك كتاب واحد « في عشرين صفحة » يفترض فيها ـ على حد تعبير جارودي ـ « **أن تضم خلاصة الحكمة الفلسفية** » وطالما أن ذلك الكتاب الذى وضعه ستالين كان يستطيع الاجابة على كل الاسئلة التي تطرحها الحياة فى كافة المجالات التى تدرسها العلوم الانسانية فلقد كان من السهولة بمكان ، أن يقال عن هذه العلوم الانسانية انها « علوم بورجوازية » أو أنها ليست علوما على الاطلاق • فالمادية التاريخية مثلا كانت تتضمن سائر النتائج التى يمكن أن يصل اليها « **علم الاجتماع** » ، والواقعية الاشتراكية كانت تقدم الاجابات الشافية على كل الاسئلة التى يثيرها « علم الجمال » ! • وهكذا الحال فى سائر العلوم الانسانية كعلم النفس أو علم الاخلاق ، بل لقد امتد هذا التصور ليشمل بخطئه بعض العلوم الطبيعية والتكنولوجية مثل **السيبرنطيقا** »، و « **الأوتوميشن** » التى قيل فى البداية أنها علوم بورجوازية •

ولقد تغير الوضع الآن الى حد كبير • وتعدلت النظرة الى هذه العلوم ، أو بتعبير أدق ، صححت النظرة اليها ، وأصبح واضحا ما كان يخفيه الجمود المذهبى ، وهو أن الفكر الماركسى يغتنى ، وتزداد خصوبته بنتائج هذه العلوم جميعا • وأن هذه العلوم أيضا يمكنها أن تستقيم ، وترسخ أعمدتها على قاعدة صلبة من المبادىء والقوانين العلمية التى تقدمها الماركسية • ولا يعني هذا ، بطبيعة الحال ، أن الاشكالات الفكرية قد حلت جميعا ، وأن التناقضات التى تصاحب الظواهر الفكرية ـ خصوصا فى مراحل التحول الحادة ـ قد اختفت • ففضلا عن أن هذا الامر يناقض طبائع الاشياء نفسها ، **فان مشكلة العلوم الانسانية ـ حتى فى العالم الغربى ـ ما زالت تعانى كثيرا من أزمات النمو ، وتصطدم بكثير من الصعوبات المنهجية ، فى محاولاتها الجاهدة كي تصبح « علوما مستقرة » مثل العلوم الطبيعية سواء بسواء** •

من هو فياتر ؟

ولقد أتيح لى أن التقى بواحد من أبرز وأهم المشتغلين بهذه العلوم الانسانية في بولندة ، وربما فى العالم الاشتراكى الاوروبى كله ، وهو الدكتور « **جيرزى فياتر** » إستاذ العلوم الاجتماعية فى جامعة وارسو ، ورئيس قسم الدراسات الاجتماعية فى أكاديمية العلوم البولندية • والدكتور «فياتر» يوشك أن يخطو خطوته الاولى فى العقد الخامس من عمره • ولقد تنقل فى غضون أعوام الشباب هذه ما بين الجامعات البولندية المختلفة حتى وصل الى منصبه العلمى الرفيع فى أكاديمية العلوم • ثم أصبح رئيسا لجماعة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية والسياسية ، وعضوا فى رئاسة الاتحاد الدولى للمشتغلين بالعلوم السياسية والاجتماعية • ورحل الى بلاد كثيرة فى أنحاء العالم ليحاضر فى جامعاتها ومنها فنلندا ، اويوغوسلافيا ، والمجر ، والهند ، وبريطانيا ، والولايات المتحدة الامريكية •

ولقد وضع فياتر مجموعة من المؤلفات الهامة ، التى ترجم بعضها الى لغات أوروبية وآسيوية . مثل الروسية ، والتشيكية ، والألمانية ، والانجليزية، والفرنسية ، واليابانية • وأهم هذه المؤلفات : « **مشكلات العلاقات العنصرية فى علم الاجتماع الامريكى** » ١٩٥٩ ، « **الجيش والمجتمع** » ١٩٦٠ ، « **دراسات فى المادية التاريخية وعلم الاجتماع** ، **١٩٦٢** ، « **الجيش والسياسة والمجتمع فى الولايات المتحدة الامريكية** » **١٩٦٢** ، « **علم الاجتماع العسكرى** » **١٩٤٦** ، « **أهى نهاية للأيديولوجية ؟** ١٩٦٦ ، « **الأمة والدولة** » ١٩٦٩ ، وغيرها من الدوريات العلمية التى تصدر فى أوروبا الشرقية والغربية والولايات المتحدة الامريكية

وفى مكتبه ، بأكاديمية العلوم البولندية ، التى تطل على ميدان كوبر نيكس بمدينة وارسو ، طرحت أمامه مجموعة من المشكلات المثارة اليوم فى ميدان فى ميدان العلوم الانسانية ، شرقا وغربا • وأحسب أنه من المفيد أن أقدم هنا عرضا لاجاباته على الاسئلة التى تثيرها هذه المشكلات •

موضوعية المنهج ودقة النتائج

● **هناك وجهة نظر تقول ان العلوم الانسانية ، لم تصل بعد ـ وقد لا تصل فى المستقبل ـ الى مستوى العلوم الطبيعية من حيث موضوعية المنهج، ودقة النتائج،لأسباب بعضها يتعلق بتسرب العناصر الذاتية والايديولوجية الى ذلك المنهج والى نتائجه أيضا ، وخصوصا في ميدان هام من ميادين تلك العلوم ، وهو ميدان علم الاجتماع ، ما هى وجهة نظرك فى هذه المشكلة ، وكيف تتصور مستقبل هذه العلوم ؟**

ـ اذا كان المقصود بالموضوعية هنا الموقف المنزه عن المصلحة والغرض تجاه المشكلات الانسانية ، والصراعات ، والميول ، والرغبات ، والقيم ، فينبغي أن أقول اذن ، ان العلوم الانسانية ، بتعريفها نفسه لا يمكنها أن تكون علوما موضوعية ، على نفس النحو الذى تكون عليه العلوم الطبيعية ، ولكننى أظن أن « **الموضوعية** » فى العلوم الانسانية تعنى التناول أو المعالجة العلمية للمشكلات التى تطرحها وهنا نلمح سمتين أساسيتين : **أولاهما : الجهد** المستمر والدائب لتحرير هذا النوع من الدراسات من أى شكل من أشكال التحيزات السابقة ، وأى طابع يوحى بالمحاباة والانحراف • **وثانيهما :** الاعتراف بالحقيقة القائلة انه كلما اتخذ الباحث أو الدارس موقفا تقدميا ازاء القضايا الاجتماعية والسياسة المتعارضة ، أو كلما كان بوسعه أن « يمثل » قوى وطبقات تقدمية ، فالاحتمال الاكبر أن بحثه ودراساته يمكنها أن تصل الى نتائج واكتشافات أكثر قيمة ، وأكثر دواما • وبهذا المعنى فاننى أومن بتقدم العلوم الانسانية شأنها شأن العلوم الطبيعية سواء بسواء • ولكن العلوم الانسانية لا ينبغى أن تبحث عن مستقبلها فى « تقليد » العلوم الطبيعية ، بل فى تطوير وتنمية طرقها ووسائلها الخاصة من أجل فهم العالم الذى نعيش فيه •

الأيديولوجية وعلم الاجتماع

● لعل اجابتك هذه تثير مشكلة هامة فى ميدان العلوم الانسانية • وهى مشكلة العلاقة بين « الأيديولوجية » وهذه « العلوم الانسانية » ، وخصوصا علم الاجتماع • فاذا كانت القوانين الخاصة بالعلوم الطبيعية،لا تختلف باختلاف العقائد والمذاهب التى ينتمى اليها أو يعتنقها العلماء الطبيعيون ، فان الامر يبدو على خلاف ذلك ـ بمقتضى رأيك السابق ـ فى الميدان الخاص بالعلوم الانسانية ، ترى هل يمكن أن توضح لى وجهة نظرك فى هذه العلاقة التى تراها بين «الايديولوجية» و « علم الاجتماع » مثلا ؟

ـ العلاقة بين الايديولوجية والعلم فى السوسيولوجيا ، يجب أن ننظر اليها بطريقة جدلية ، فلا ينبغي أن نعتبرها علاقة بين أشكال مختلفة من التفكير ، بل كعلاقة بين مظاهر مختلفة للتفكير نفسه فى الواقع • وعندما نحلل المفاهيم السوسيولوجية من زاوية العلاقة بين الافكار التي تعبر عنها وبين الواقع ، من الممكن عن طريق التجريد العقلي ، أن نتغاضى عن مغزاها الايديولوجى وحينئذ تنصب دراستنا على مشكلات العلم كما هى ، أو بما هى كذلك ، ولكن القضية تكمن فى عملية التجريد هذه • فنحن قد ندرس كتاب « ماركس » رأس المال • أو كتاب « موسكا » الطبقة الحاكمة » ، أو كتاب « ميلز » « صفوة السلطة » ، فقط كى نمتحن « تجريبيا » الافكار التى تضمنتها هذه الاعمال • ولكن هذه الاعمال ـ شأن كل الاعمال السوسيولوجية الهامة ـ لا تؤدى وظيفة علمية فحسب ، بل وتؤدى وظيفة ايديولوجية أيضا • انها تنظم بطريقة عقلية خبرات الجماهير ، وبالتالى تصبح استمرارا عقليا لنشاطاتها وهكذا يلوح أن العلاقة بين العلم والايديولوجية ليست علاقة خارجية وعرضية ، وانما هى جزء متكامل من العلوم الانسانية •

علم الاجتماع والمادية التاريخية

● لقد كان هناك مفهوم سائد فى العالم الاشتراكى ـ خصوصا ابان المرحلة الستالينية ـ يقول ان المادية التاريخية هى علم الاجتماع الماركسى •• وما من شك فى أنك تعرف مبلغ ما ترتب على هذا المفهوم من تعطيل للدراسات الاجتماعية فى هذا العالم الاشتراكى ، ومن افتقار للفكر الاشتراكى عموما فى هذا المجال • هل توافقنى على ذلك أم لا ؟ ثم •• الى أى مدى أمكن لعلم الاجتماع والدراسات الانسانية عامة أن تتخطى هذه العقبة الآن ؟

ـ أنا لا أعتقد ، شخصيا ، أن المشكلة الرئيسية تكمن فى المفهوم الخاطىء عن العلاقة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية • فالماركسيون المعاصرون يختلفون حول الاجابة الدقيقة المحددة لسؤال : كيف ينبغى أن تكون العلاقة بينهما • ومع ذلك ، ومهما كان هذا الخلاف ، فانهم عمليا ، يتفقون على ضرورة تطور النظرية الاجتماعية الماركسية ـ التى ينبغى أن تنهض فى رأيى الخاص على أساس المادية التاريخية ـ وتطوير وتنمية البحوث التجريبية • والمشكلة الحقيقية المحددة فى هذا المجال لا تدور حول ، **العلاقة بين علم الاجتماع والمادية التاريخية ، ولكنها تتلخص فى كيفية اقامة البحوث التجريبية على أسس نظرية واضحة** • وأعتقد أن ثمة خطرين يلوحان هنا • خطر ينجم عن « التجريبية » البدائية ، ويتمثل فى أنها

تتجنب الصعوبة كلها بالقيام بأبحاث ليست لها دلالة نظرية بالمرة • وخطر آخـــر ينجم عن « المدرسية » يتمثل في أنها تتجنب الصعوبة أيضا بعدم القيام بأبحاث تجريبية على الاطلاق وأعتقد أننا قطعنا شوطا كبـيرا الآن فى تجنب كلا الخطرين • ومع ذلك فما زال أمامنا الكثـير لنصنعه فى المستقبل •

أهى نهاية عصر الايديولوجية ؟

● **هناك قضية هامة مثارة فى ميدان العلوم الاجتماعية ــ وخصوصـا على أيدى العلمـــاء الأمريكيين والفرنسيين ، أحب أن أعرف وجهـــة نظرك فيها • وهى قضية الآثار المترتبة على تطور الثورة التكنولوجيـــة على النظم الاجتماعيـــة والسياسية المتعارضة فى عالم اليوم • هل تعتقد حقا أن هذه الثورة التكنولوجية سـوف تؤدى الى صياغة اجتماعية سياسية جـــديدة للمجتمعـــات المتطورة ؟ أترانا حقا نشهد غـــروب ذلك العصر الذى دعاه عالم الاجتماع الفرنسى « ريمون آرون» « عصر الايديولوجية » ؟**

ــ أنا لا أتفق مع هؤلاء المفكرين الغربيين الذين الذين يتبنون هذا الرأى • ولقد ناقشت هـــذه القضايا فى مناسبات عديدة ، وخصوصا فى كتابى « أهى نهاية الايديولوجية » الذى صدر عام ١٩٦٦ وكى الخص لك رأيى فى وضوح فاننى أقول أن هؤلاء العلماء أو المفكرين يطمسون فى تناولهم لهذه القضية « الفروق بين التكنولوجيا والسياســـة • فالتكنولوجيا تتطور ــ الى حد كبير أو قليـــل ــ بشكل « متواز » فى العالم كله • هذه حقيقـــة لا يمكن انكارها • فليس هناك كما كنت تقـــول علم طبيعة «اشتراكى » ، كما انه ليس هنـــاك ديناميكا كهربائية « لها طبيعة بورجـــوازية » • والوحدة الاساسية للتكنولوجيا ينتج عنها ــ فى تواز أيضا ــ بعض الملامح المشتركة ، وأوكد كلمة « بعض » هذه ، فى أساليب الحياة ، فبصرف النظر عن النظم السياسية والاجتماعيةفاننا جميعا نشاهد التليفزيون ، ونقود السيارات ونتعاطى المضـــادات المضادات الحيوية عند اللزوم • والخلافات فى هذه المجالات تنبع من الاختـــلافات فى التقاليد وفى مستويات الوفرة الاقتصادية • ولكننا اذا تركنا مجري الحياة اليومية فان ما يزعمونه من «تقارب » سوف يحدث بين النظامين الاجتماعيين المتعارضين يبدو أسطورة ووهما أكثر منه حقيقة وواقعــــا • فالنظم الايديولوجية والاجتماعية والسياسيةليست « انعكاسات » للتكنولوجيا بطريقة بسيطة ومباشرة وعلم الاجتماع الماركسى حرص منذ البداية على تأكيد العلاقات المعقدة بين التكنولوجيـــا ، والبنيـــة الاقتصادية للمجتمع ، والبناء الســـياسى الفوقى والوعى الاجتماعى • وليس هنـــاك فى التاريخ الانسانى ، تماما كما هـــو الحال فى النظـــرية السوسيولوجية ، ما يبيح أو يبـــرر افتراض أن الرأسمالية والاشتراكية ســـوف « **تتقاربان** » فى المستقبل فى « **مجتمع صناعى** » ما • كما أنه ليس هناك أيضا أى برهـــــان تجريبى ينبت التحلل الايديولوجى المستمر • وفى اعتقادى أن كل أنواع « نظريات التقارب » هذه ، هى فى المقام الاول تعبير عن الازمة الايديولوجية التي يعانيها المجتمع الرأسمالى ، الذى يحـــاول ــ فى عجزه عن هزيمة الاشتراكية ــ أن يغري نفسه بأن الحتميةالتاريخية سوف تصنع ما عجزت القوى الامبريالية عنصنعه وهو تحطيم الاشتراكية كنظام اجتماعى جديد ، ومن جانب آخر فان «نظريات التقارب » تستخدم كأداة فى الحرب النفسية ضـد بلادنا • انهـــا تستهدف احداث نوع من التحلل الايديولوجي فى المجتمعات الاشتراكية ، والمجتمعات المناهضـــة للأمبريالية ، والعالم الثالث •

هل هناك « مدرسة بولندية » ؟

● **هل يمكن لى أن أتحـدث عن « مدرســـة بولندية » فى علم الاجتماع ؟ ان كلماتك السابقة توحى بأن ثمة وجهة نظر مقابلة لوجهة نظر علماء** الاجتماع الغربيين ، ويمكن أن أفهم ذلك بالطبـــع **الاجتماع الغربيين ، ويمكنأن أفهم ذلك بالطبع على أنه اختلاف فى الأسس الأيديولوجية التى تصـدر عنها كلتا وجهتا النظر ، ولكن ــ مرة أخرى ــ هل يمكن القول بأن وجهة نظركم هذه تشكل مدرسة متكاملة فى علم الاجتماع لا مجرد أســـاس ماركسى واحد يتحرك فوق أرضه العلماء على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم ؟**

ــ ان علم الاجتماع له تراث عريق فى بولندا • لقد تأسس كمجال مستقل ومنفصـــل فى البحث العلمي بعد عام ١٨٨٠ • وبرز فيه أساتذةمعروفون مثل : **لودفيج كريزيفسكى** ، وهو أول عـــالم ماركسى عندنا ، **وكازيمـــير كراوس ، وادوارد أبراموفسكى ، وبولسلاف ليامونفســـكى** ، وقد كانوا اشتراكيين ، وان لم يتبنوا وجهة النظر الماركسية بشكل كامل • كما كان لدينا وضعيون أمثال **الكسندر سفيتوشوفسكى** ، بالاضـــافة الى

عدد آخر من الاساتذة والعلماء الذين مثلوا ويمثلون الاتجاهات الفكرية المختلفة فى العالم .

ومع ذلك ، فمن البدايات الاولى لنشأة هـذا العلم فى بلادنا ، ارتبط بشكل وثيق بالحركات الاجتماعية والسياسية التقـدمية ، ولعب دورا ملحوظا في تطور الوعى القومى للأمة البولندية ، التى كانت محرومة حينذاك من دولتها الخاصة . ولقد استمر هذا الوضع ابان الجمهورية البولندية الثانية (١٩١٨ - ١٩٣٩) عندما كرس علماء اجتماع من أمثـال **ستيفان كزارنوفسـكى ، وستانسلاف أوسوفسكى وجوزيف شـالازنسكى** وغيرهم ، أبحاثهم لدراسة المشـكلات الاجتماعية البارزة حينذاك ، مثل مشكلة البطالة ، والفقر ، والهجرة ، والثقافة العمالية ، .. الخ .

أما في بولندا الشعبية ، فان علم الاجتماع يتطور بسرعـة ، ويلعب دورا فعالا فى عملية التحـول الاشتراكى . واذا كان يمكن للمرء أن يتحدث عن « المدرسة البولندية » فى علم الاجتماع وأنا أميـل الى ذلك - فانه يمكن القول حينئذ أن هذه المدرسة تعنى ثلاثة أشياء رئيسية : -

أولا : المجابهة المستمرة بين الماركسية والنظريات الاجتماعية الأخرى : **ثانيا :** احتضان قوى لقيـم التقدم الاجتماعي والشخصية القومية . **ثالثا :** تنوع وتعدد فى مناهج البحث والمعالجة أما الحـديث عن المنجزات التى تحققت فهو أكثر صعوبة ، لأنه يتطلب حكما تقويميا عميقا . ومع ذلك ، فاني أود أن أذكر على الخصوص في هذا الصدد ، بعض النتائج التى انجزت : أولا : بناء هيكل مدعم ومؤثر من المعلومات العمليـة عن التحولات الاجتماعيـة فى المجتمع البولندى المعاصر ، مثل الدراسات التى أجريت عن الطبقة العاملة والانتلجنسيا تحت اشراف الاستاذ **جان زبانسكى** ، والدراسـات التى أجريت عن الفلاحين تحت اشراف **جوزيف شالاسنسـكى** . وثانيا : اضفاء طابع « المعاصرة » على مناهج البحث وتكنيكاته . **ثالثا :** تطوير فروع متعددة متخصصة من علم الاجتماع ، على سبيل المثال : علم الاجتماع الصناعى ، علم الاجتماع الريفي ، علم الاجتمـاع الثقافى » ، علم الاجتماع السياسى ، علم الاجتماع العسكرى ، علم الاجتماع الطبى » .. وغيرها من الفروع .

علم الاجتماع الملتزم ؟

● **يبدو لى أن ثمة تخطيطا دقيقا لمجموعـة الابحاث التى قمتم بها فى ميدان العلوم الاجتماعية تخطيطا يستجيب لمتطلبات الواقع البولندى الخاص بكم . واذا لم يكن هناك ما يتعارض مع حـرية البحث الاجتماعى وموضوعيته ، فلعلى أسـتطيع أن أستعير ذلك التعبير الادبى الشهير ، وأقول أنكم تنادون بعلم الاجتماع الملتزم ؟ أمخطىء أنا ؟**

- لا . لم تخطىء بالطبع . بيد أن المثل الاعـلى لعلم الاجتماع « **الملتزم اجتماعيا** » ، كما تقـدمه الماركسية ، ليس ببساطة اكتشافا ، كما أنه ليس أيضا اقتراحا بأسلوب معين فى علم الاجتماع ، انه بالاحرى انعكاس لالتزام علم الاجتماع الفعلي والذى لا مهرب منه بالحياة الاجتماعيـة التى لا يمكن أن تكون دراسات فحسب ، وانما تغيرات أيضا . وهذا المثل الاعلى يضع فى اعتباره دائما الحاجـة الى معرفة أوضح بالالتزام العملى والايديولوجى لهذا العلم الذى يستمد مغزى وجوده نفسه من الوظيفة العملية للمعرفة العلمية . ان علم الاجتمـاع الماركسى يخدم بوعى التطور الاجتماعى ، ويخلق رؤية للعالم تنظم عقليا الفعل الانسـانى . **انـه لا بد أن يشغل نفسه تماما بتحقيق القيـم التى تتبناها القوى الاجتماعية الاشتراكية والتقدمية .**

هذا عرض لاجابات « **فياتر** » على بعض الأسئلة التى طرحتها أمامه ..

وهى اجابات تثير - كما اعتقـد - مزيدا من الاسئلة الاخرى ، ولعل من سمات الفكر الخصب أن يثير من الأسئلة أكثر مما يضع من اجابات !

ولقد حملت كلماته ،وهبطت من مكتبه بأكاديمية العلوم ، ومضيت الى الميدان الواسع الذى يتوسطه تمثال **كوبرنيكس** وقد حمل فى يديه نموذجـا مصغرا للكرة الارضية وهى تدور دورانها الابدى حول الشمس ، بينما تاهت عيناه فى الفضـاء العريض الذى يحيط بعالمنا .

وفى الطريق .. كانت جمهرة غفيرة من الناس أشبه بمظاهرة ، تحيط بمبنى السفارة الامريكية وعرفت انهم جاءوا جميعا يتابعون على شاشـات التليفزيون عملية هبوط رواد الفضاء فوق أرض القمر !

وتعجبت من هذه المصادفة .. انه طريق بدأ بكوبرنيكس - الذى لولا ابحاثه واكتشافاته التى قلبت التصور الانسانى للعالم رأسـا على عقب ، واثبتت بالبرهان العـلمي أن الارض ليست هى مركز الكون ، لما أمكن لأولئك الرواد أن يهبطوا الآن فوق القمر . انه الطـريق الطويل ، الذى استغرق قرونا عديدة ، وتطورت من خلاله العلوم الطبيعية .

قلت فى نفسى وأنا أمضى : **ما أطول المسيرة التى** ما زال على العلوم الانسانية أن تقطعها !



طبيعة الموضوعية في التفسير التحليلي النفسي

د. أحمد فايق

منذ ان تحول فرويد عن العلاج بالتنويم الايحائى الى العلاج التحليلى النفسى (عام ١٨٩٧) ، اصبحت عملية التفسير التحليلى موضوعا لجدل حاد لعلماء المناهج والفلاسفة . فبالرغم من ان جميع الجهود العلمية تهدف فى النهاية الى التفسير ، الا أن التحليل النفسى قد حول عملية التفسير الى مشكلة جوهرية تمس الفكر الانسانى مسا ثقيلا ، فضلا عن عدم حسمه لها حسما نظريا يرضى الفلاسفة وعلماء المناهج ارضاء كاملا .

ان نقطة البدء التى نختارها لدراسة طبيعة التفسير فى التحليل النفسى هى (الموضوعية) بوصفها اكثر النقاط اثارة للنقاش . فاكثر مايؤخذ على التفسير فى التحليل النفسي انه يفتقد الموضوعية objectivity . والواقع ان نقاش هذه النقطة يحتاج الى التمييز بين امرين : التفسير explanation والشرح interpretation

فالقانون العلمى الفيزيقى — والانسانى اذا ما تحقق — هو صيغة دقيقة لعلاقة مجموعة من الوقائع ،بحيث لاتخرج هذه الصيغة عما تكون عليه هذه العلاقة . فقوانين تمدد المادة او قوانين الجاذبية هى صيغ دقيقة ولغةمحددة تشرح العلاقة بين مجموعة من المتغيرات فى عبارات — او رموز — كمية . وتتكون هذه الصيغ عادة وفق نمط سابق من الملاحظات التى قامت على هذه الظواهر المعنية . القانون العلمى — اذن — هو شرح لعلاقة مقننة standard تمكننا من ادراك وجود متغير غير متحقق فى الظاهرة التى نطبق عليها القانون ، وذلك بناء على تحققه فى الملاحظات الاصلية التى اقيم القانون عليها . بعبارة اخرى ، ان العلوم الفيزيقية — والاساليب الوصفية فى دراسة الانسان — تهدف الى شرح الظواهر لا الى تفسيرها ، لانها — وبصورة ما — لاتبحث عن علل الظواهر . فعالم الطبيعة لايعنى بالاجابة عن العلة فى قدرة الحرارة على تغيير حجم المواد ، بل يكتفى بشرح مايحدث ((نتيجة)) للحرارة فى البنية الذرية للمادة . كذلك فى علم النفس ، لايعنى عالم النفس التقليدى بتفسير اختلاف بعض الدوافع فى تاثيرها على سلوك الفرد ، بل يكتفى بشرح ((الفاعلية)) الدوافع على السلوك . وقد يندفع البعض الى الاعتقاد بان الشرح اقل مرتبة من التفسير فى قيمته العلمية . ولكن يجب الا ينظر الى الامر على هذا النحو نظرا لاختلاف المادة التى يجب ان تعالج بالتفسير او تتناول بالشرح .

وقد بدا لبعض علماء النفس ان الصيغة ((الشارحة)) هى الطريق الى اقامة علمهم على نسق العلوم الفيزيقية بما لها من رونق الصلابة والتماسك . لذلك ظهرت الدعوة الى التجريب فى نطاق النفس لاستقراء القوانين العلمية الوصافة للنشاط النفسى . وقد انبنى هذا الاتجاه على مبدأ بسيط ومعقول فى شكله هو : اثارة العلاقات بين نشاطات الانسان ثم وصفها وصياغتها فى قانون .

الا أن فرويداستطاع ان يقدم الادلةالمادية —والمنطقية— على وجود قطاع كبير من الحياة النفسية غير قابل للتحقق المباشر ، وهو ماأطلق عليه تعبير اللاشعور . وبطرح هذه المشكلة على علم المناهج يتضح بجلاء أن فكرة القانون الانسانى يواجهه عقبة غير متوقعة . فلكى يتمكن عالم النفس من وضع قانون للنشاط النفسى لابد ان تكون جميع امكانيات النفس قابلة للتحقق المتكافىء . والكن مادام هناك قطاع من هذه الامكانيات خاف وله طبيعة التخفى ،فلايمكن الدعوى بامكان وضع قانون علمى للنفس على نسق القوانين الفيزيقية . بمعنى آخر واكثر تحديدا للاستشكال : ان التحليل النفسي باكتشافه لفاعلية اللاشعور فى العمليات الشعورية يرى فى السلوك الانسانى قصدا intention والقصد — منطقيا — اسبق على المقصود ، وهو بذلك لايوجد فيه ، بل هو متضمن له ومتضمنه .

ان القصد مفهوم محير فى مجالى العلوم الفيزيقية والانسانية معا . وقد ابعده علماء الطبيعة عن مجال دراساتهم ليبقى هدفا للفهم الدينى او للبحث الانسانى . ولم يستطع علماء الانسان أن يبعدوا هذا المفهوم عن مجال دراساتهم بنفس السهولة التى تاتت لعلماء الفيزياء . فمن جانب يعد علماء الانسيات المسئولين المعاصرين عن هذا

المفهوم . ومن جانب آخر تؤدى بهم دراساتهم - بقصد أو بدون قصد - الى الاهتمام بهذا المفهوم والاصطدام بهسواء في حدوده البسيطة وهى قصـدية السلوك الفردى أو في حدوده العامة المركبة وهى قصدية السلوك البشرى . فكل نشاط انسانى يتضمن شيئا بخلاف هدفه ، وكل سلوك فردى يتضمن غاية بخلاف موضوعه . ان القصد هو مضمون السلوك ومعناه ، ونادرا - ان لم يكن مستحيلا - أن يجد عالم النفس سلوكا فرديا متضمنا كل قصده ومعانيه .

لم ينكر علماء النفس التقليديين وجـود قصـدية في السلوك الانسانى ، ولكنهم ظلوا يعاملون القصد فى مستوى الامكانيات النفسية المتحققة بواسـطته . فظهرت تعبيرات الغريزة والميل والانتحاء والدافع . وعامل علماء النفس هذه الخواص على أنها أمورا تصلح للتجريب اى لاستقراء قوانينها العلمية . ولكن بظهور مفهوم اللاشعور عند فرويد تحولت هذه التعبيرات الى نطاق آخر من نطاقات الحيـاة النفسية ، وغدت فى نظر التحليل النفسى أساسا للحيـاة النفسية اللاشعورية . وجـدير بالذكر - وحتى لا يبـدو القول تعسفا فى التعميم - ان اكتشاف فرويد للنشـاط النفسى اللاشعورى كان سابقا على تحديده لمضمون اللاشعور فقد تنبه فرويد الى اللاشعور ثم شرع فى كشف مضمونه ، وكان المضـمون المكتشف هو القصـد والذى عبر عنـه فى مراحل مختلفة من تفكيره بتعبير الغريزة instinct ويجمل بنا أن ننوه هنـا بأمر آخر . لقد تعرض فـرويد لعديد من المشاكل العيـادية والنظرية فى طريق بحثـه عن مكنون اللاشعور . لذلك يجد القارىء للتحليـل النفسى أن أكثر أجزاء نظرية فرويد فى النفس غموضـا وتغيرا ، هى تلك التى تناولت مضمون اللاشعور . فقد عدل فرويد من مفهومه عن ((القصد)) تعديلات جوهرية تكاد تكون نقضا لسابق آرائه . وفى هذا ما يدل على أن مشكلة القصد فى السلوك الانسانى مشكلة محيرة فعلا . ولكن - وفى حدود التزام فرويد بمفهوم اللاشعور - تبقى القضية الاساسية على ما هى عليه : مادام السـلوك الانسـانى متضمنا فى قصد ، فان الموقف ملزم للعالم ايجاد تفسير للسلوك - أى الكشف عن القصد وتعليل النتيجة (السلوك) . والالتزام بالموقف فى صيغته السابقة يستوجب أمرين : ارجاء الشرح الى ما بعد التفسير ، وتحليل النتائج للوصول الى القصد فى السلوك .

لقد التزم فرويد بالموقف على النحو السابق . فرفض بوضوح أن يصف الظواهر وأصر على ان الحياة النفسية تحتاج أولا الى تحليل يعقبه الوصف . ويقول فرويد فى ذلك : ((ليس غرضنا أن نصف ونصنف الظواهر بل ان ندركها بوصفها نتاج تعامل بين قوى فى العقل (النفس) ، وباعتبارها تعبيرا عن اتجاهات نحو هدف ، تعمل معا أو بالتعاقب . نحن نحاول أن نتحصـل على مفهوم دينـامى للظواهر العقلية (النفسية) . بهذا المفهوم تصبح الاتجاهات التى توصلنا اليها ، اظهر وأشد أهمية من الظواهر التى نلاحظها)) . (المحاضرات التمهيدية فى التحليل النفسى ص ٥٥ من الطبعة الانجليزية ، ١٩٤٩) .

خلاصة الامر اذن ، ان التحليل النفسى قد جعـل عملية ((التفسير)) وسيلة وأداة وقاعدة لدراسة النفس ، مناقضاء علماء النفس التقليديين فى اعتبـار التفسـير غاية وهدفا وقمة الدراسة . فالتفسير لدى المحلل هو طريقه الى المعرفة بالنفس ، لذلك يقوم به وهو مطمئن الى امكان تعديله وتطويره بما يناسب ما يجد من مادة تفسر . أما عالم النفس التقليدى فيتناول التفسير بوصفه الغاية من المعرفة بالنفس ، لذلك يقترب منه بحـذر شديد وبشك مفرط أحيـانا فى ان يطـابق الـواقع . ولو لم يقصر المحللون النفسيون فى حسم مشكلة التفسير حسما مباشرا متحملين المسـئولية كاملة ، لكان الوضـع الراهن مجرد خلاف بين تيارى معرفة واختلاف فى رأيين فى منهج دراسة النفس . ولكن المحللين النفسيين ظلوا يناقشون مشاكلهم نقاشا غير محدد وغير ملتزم بأسباب منطقية ، الى ان أصبح موضوع ((التفسير)) واحدا من المشـاكل التى لا تجـد من يوفيهـا حقها من الاقتناع بها .

ان عملية التفسير هى نقطة الانطلاق التى بدأت منها المعرفة التحليلية بالنفس ، وهى نفسـها نقطة الانشـطار التى خلصت التحليل النفسى من قيود المعرفة السـلفية بالنفس . ويواجهنـا سـؤال هام : الى اين ذهبت فكرة التفسير بالتحليل النفسى ؟ هل أبعدته عن غاية العلم وهى المعرفة الحقة والمعرفة بالحقيقة ؟ أم قربه التفسـير من ذلك ؟ هل بعد التحليل النفسى باتباعه التفسير عن موضوع بحثه وهو الانسان أم اقترب منه ؟ ان هذه الصيغ المختلفة لنفس الاستشكال تدور حول فكرة واحدة : هل التفسير التحليلى النفسى موضـوعى أم ذاتى ؟ وقد يتبـادر الى الذهن أننا سـوف نـاقش موضوعية وذاتيـة التفسـير التحليلى ، ولكننا فى الواقع سوف نناقش التحليل النفسى، بوصفه عملية تفسير ، فى ضوء محك للموضوعية والذاتية.

نحتاج اذن الى تحديد كاف وواضح لمعنى الموضوعية لا يحدث حوله خلاف . فمادام النقاش يدور حول عملية التفسير ((كوسيلة)) للمعرفة ، فهذا يعنى نقاشا حول حدود الخروج عن النتائج الى المقاصد ، والاحالة الى المتضمن بتجاوز الموجود والمتحقق . فمعرفة تقوم على الخروج عن المعطى الى معناه فى محاولة للتفسير ، قد تبعد عن الموضوع أو تنأى عنه ، بل قد تتحول من الموضوع الى نقيضه فى عملية بسيطة ومغرية كذلك بالتحول . لذلك سوف نبدأ بتحديد معنى الموضوعية .

● الموضوعية :

تدل لفظة الموضوعية object-ivity على مضمونها دلالة مباشرة . فعندما ننسب الى « الرأى » صفة الموضوعية فاننا نعنى تقديراً لمدى قربه «من أصله ومادته». «فالحكم» الموضوعى ، هو حكم التزم بالموضوع المحكوم عليه ، دون تأثر بالحكم ذاته ، أو بذات الحكم . بمعنى آخر ، ان الموضوعية هى « فعل تقدير » لا يدخل فيه نقيض الموضوع بشخصه بل بملكته على التقدير : اى فعل مستقل عن ذات الفاعل . ويجدر بالقارىء أن يعود الى كتاب أو نرى لوفيفر « أزمة الماركسية المعاصرة » والى لينين فى مؤلفه « المادية والنقدية التجريبية » لمزيد من التفاصيل فى هذه النقطة .

على هذا الاساس تقوم لفظة الذاتية subject-ivity نقضيا للفظة الموضوعية (ذات ـ موضوع) حيث تكون الذاتية هى ما يخص نقيض الموضوع . وصياغة المشكلة على هذا النحو تثير نقطة هامة نرجئها الى ما بعد وهى : كيف نحدد الموضوع ونحدد نقيضه ، وبالتعيين فى مجال التقدير النفسي . ولكن بالتغاضى عن هذه النقطة حاليا ـ ومؤقتا ـ يمكن تصوير المشكلة الخاصة بالذاتية والموضوعية على مقياس : احد طرفيه الذات وطرفه الآخر الموضوع . ويتراوح الحكم المتأثر بأحد الطرفين بين ذاتى خالص وموضوعى خالص ـ وذلك من الوجهة النظرية البحتة . أما من الناحية العملية فسوف نجد أحكاما تتشبع بالذات اكثر من التزامها بالموضوع فيصبح الحكم اميل الى الذاتية ، وبالعكس اذا التزم الحكم بالموضوع ولم يتأثر بالذات مال الى الموضوعية . ولهذا التصور ثلاثة احتمالات مجردة :

الاحتمال الاول : حكم موضوعى عن تفاعل بين مادتين أو موضوعين فيزيقيين لا دخل للذات فى أثر احدهما على الآخر . مثال ذلك تفاعل الحرارة مع احد الفلزات . ومن ملاحظة وقياس التفاعل يمكن أن نستخرج قانونا ذا طابع ميكانيكى خالص ، أى حكما موضوعيا خالصا ـ وهو ما ترمى اليه علوم الطبيعة .

الاحتمال الثانى: حكمان: واحد أميل الى الموضوعية وآخر أميل الى الذاتية ، وكلاهما يصدر عن ملاحظة نفس الشيء . فتفاعل مادة أو موضوع فيزيقى مع ذات انسانية يعطى مجالين للحكم التقدير . مثال ذلك تفاعل الفنان مع احدى وسائل التعبير الفنى ، أو تفاعل المعدة مع الطعام . يمكن فى هذه الحالة ان يصدر حكم اقرب الى الموضوعية ينصب على تقدير ما وقع على المادة (صخر منحوت أو طعام مهضوم) ، وأن يصدر حكم آخر اقرب الى الذاتية (عمل وخلق فنى ، او شبع وتلذذ) . وبين الحكمين قد نجد مستويات مختلفة من الاحكام المحتملة .

هذا الاحتمال له قيمته فى تقدير البحث النفسي بالذات . فاذا انصب البحث النفسى على أساس ملاحظة وقياس واستقراء فاعليه مؤثر فيزيقى على انسان ، او اعتبار المجرب (انسان) مؤثرا فيزيقيا على آخر نجرب عليه ، فان أمامنا مجال بحث يتراوح الحكم فيه بين الذاتية والموضوعية . ولعل أهم ما يقوم عليه علم النفس الاكاديمى حاليا ـ ومنذ فونت ـ قائم على تصور المشكلة على هذا النحو .

الاحتمال الثالث : استحالة اصدار حكم أو تقدير ما . فتفاعل موضوعين انسانيين يخلق موقفا مختلفا من الموقفين السابقين . والتحليل النفسى هو المنهج والموقف النظرى الوحيد الذى بدأ من هذه المسلمة . فعلاقة المحلل بالمحلل علاقة تأثير متبادل ، لا موضع فيها لحكم ذاتى او موضوعى ، بل ان الحكم فيها مرفوض أصلا ، فالحكم والتقدير قائمان بين ذاتين كل واحدة تكون موضوعا للأخرى ـ ذلك ان لم تكن موضوعا لذاتها كذلك . وبناء على ذلك لا يمكن للمحلل أن يصدر حكماً ولا يتيح للموقف العلاجى ان يكون مجالا للحكم ، على اساس ان المعرفة ليست « اخبارية » بل هى « فى الجدل » ذاته القائم بين «اثنين» . بعبارة أخرى ، لا محل فى التحليل النفسي للذاتية والموضوعية كما يصوغها المنهجيون ، لان التحليل «جدل» وليس «اخبارا» ، أى ليس «أحكاما» بل «تعرفا» متصلا .

فى حدود الاحتمال السابق ـ احتمال وجود معرفة لا تقوم على الاخبار والتقدير ـ تقوم دعوتان فى مجال البحوث النفسية : دعوة الى اعتبار الانسان مؤثرا ذا طبيعة فيزيقية ، وهى دعوى السلفيين من علماء النفس ، ودعوة الى رفض اعتبار الانسان مثيرا فيزيقيا والامتناع عن المعرفة الاخبارية وهى دعوى التحليليين . والغريب فى الامر أن المحللين فى دفاعهم عن منهجهم لم ينتبهوا الى ان مشكلة الذاتية والموضوعية فى معرفتهم لها طبيعة مختلفة عنها لدى التجريبيين الاكاديميين . ومصدر الغرابة ان التحليليين هم أول من تنبه الى ان المؤثرات الفيزيقية ذاتها تفقد قيمتها «الموضوعية» بمجرد تكرارها على الانسان مرتين ، وانهم لا يتعاملون مع خبرة الفرد بالمثير المتكرر من زاوية المثير كموضوع بل من زاوية الفرد كمتأثر . ان الوضع على هذا النحو يجعلنا ندرك أن مشكلة الموضوعية فى التفسير التحليلى ليست هينة الحل تماماً .

الا اننا اذا عدنا الى المشكلة التى تثيرها علاقة الذات بالموضوع قد نجد طريقا الى هذا الحل . عندما صفنا قضية الموضوعية على النحو السابق في مقدمة هذا المقال ، لم نتعرض الى نقطتين : الاولى : أن الموضوعية هى «فعل تقدير» ـ والثانية : أن تعبير الذات والموضوع ـ خاصة فى اللاتينية ـ يتحملان التبادل (نقول أحيانا the subject بمعنى الموضـــوع) . وبالنسبة الى النقطة الاولى يمكن أن نعتبر « فعل تقدير الواقع كما يبدو للذات » هو الموضوعية ، بحيث يصبح التقدير موضوعيا خالصا بقدر اقتراب التقدير من حقيقة الموضوع . فالذات المقدرة دائما ما تكون فى التقـدير ذاته ، ولا يختلف الامر الا من حيث قدرة الذات على افساح مجال فى التقدير للموضوع نفسه. على هذا النحو يكون الانســـان دائما هو الحـكم ونقيض الموضـوع اى الفـاعل operator ما دام الموضـوع لا يمارس فعل تقدير للانسان . فاذا كان «موضوع التقدير» غير انسانى أمكن الحديث عن موضوعية وذاتية . أما اذا كان موضوع التقدير انسانيا اصبح الحديث عن الموضوعية والذاتية محدودا بنوع المعرفة المقصودة .

نخرج من ذلك الى نتيجتين : ان اى علاقة بين انسان «وموضوع» سوف تؤدى الى تقدير الانسان للموضـوع ، اى الى حكم ينزع الى الموضوعية ، فاذا اتخذ الانســـان من انسان آخر موضوعا فانه يقوم بمحاولة للحكم الموضوعى عليه . والنتيجة الثانية : ان اى حكم موضوعى هو تحول عن الذات الى نقيضها ، وبقـدر النجاح فى هـذا التحول يكون التقـدير مقتربا من الواقع . وتلتقى النتيجتـان فى استشكال محدد هو : ما مدى تدخل اتضـــاح الموضوع للذات في تقدير موضوعى ؟ فقد يتم التقدير والحكم على موضوع غير متضح تماما ، ومع ذلك يكون التقدير موضوعيا بقدر اتضاح الموضوع ـ ومع ذلك لا يمكن الاطمئنان الى الحكم لا لعجز المقدر عن انتزاع ذاته من الحكم بل لنقص فى اكتمال وضوح الموضوع بما يلزم بتكميله ذاتيا . لذلك قام التحليل النفسى ـ وبعد اكتشـاف غموض موضـوع البحث وهو الانسان ـ بتعديل جوهرى فى مفهوم موضوعية المعرفة بالانسان . فموضوع التحليل النفسى له طبيعـة خاصة نابعة من مفهوم اللاشعور .

● موضوع التفسير التحليلى النفسى :

اذا طرحنا قضية الموضوعية والذاتية بشكل تقليدى ـ غير الذى قدمناه ـ على التفسـير التحليلى النفسى لابد من تحديد ثلاثة معالم هامة فى عملية التفسير :

(أ) يقوم التحليل النفسى على مفهوم التفسير وليس الشرح والوصف . وهو بذلك «محاولة بلوغ حكم موضوعى» ـ اى ليس قائمة على الاحكام الموضـوعية ـ كما انه لم يحدد «من» الذى يبلغ هذا الحكم .

(ب) ان ما يطرحه التحليـل النفسى على بســـاط التفسير هو ما يسـمى « بالمستدعيـات الحرة للمريض » وعلى خـــلاف ما هو شائع لدى بعض المثقفين ، لا يفسر التحليل النفسى احلام افعال المرضى بل يفسر مستدعيات المرضي على احلامهم وافعالهم . فالتفسير التحليلى تفسير للمستدعيات فقط .

(حـ) يبدا التفســـير التحليلى من مسلمه هى أن مستدعيات المريض ليست الحقيقة بل هى الســبيل الى الحقيقة . أما الحقيقة فهى اللاشــعور اى القصـدية الانسانية .

هذه المعالم الثلاثة قد تؤخذ بنظرة سـطحية فتكون ادانة التحليل النفسي بانه ذاتى مطلق أو بانه يقوم على غير موضوع . وقد وقع المحللون النفسيون عنـد دفاعهم عن منهجهم ضحية استسلامهم لهذه الادانة القائمة على النظرة السطحية لعملهم . ولكن بتأمل اكثر عمقا لكل واحدة من هذه المعالم الثلاثة سوف يتبين للقارىء أمر آخر ، يتعلق بطبيعة الموضوعية فى التحليل ، وهى جد مختلفة عنها فى علم النفس .

أ ـ التفسير التحليلى النفسي وقاعدته :

يظن عادة أن التفسير التحليلى يقـوم على حـدس مرهف من قبل المحلل وعلى قدرة خاصة على تطبيق النظرية التحليلية . ورغم مافى هذا الظن من بعض الصحة ـ قدرها قدر مهـارة اى عالم أكاديمى امام نتائجـه ـ فان التفسير التحليلى يقوم على قاعدة أكثر صلابة من مجـرد الحـدس والالهام . أن أهم ما يتمسك به المحلل النفسي فى عمله هو «عدم تجاوز مستدعيات المريض» . فاى تفسير يقوم عـلى مادة خارجية لم يذكرها المريض فى جلسات عـلاجه تعـد خروجا عن القاعدة التحليلية . فقد يتصادف أن يلم المحلل ببعض الاحداث «الواقعية» المؤثرة على مريضه ـ ولكن تلك المعرفة لاتغير من الامر شيئا لان عـدم ذكر المريض لهـا فى مستدعياته يعنى ان هذه الاحداث قد دخلت اطار «واقعه النفسى» ـ أى فى اطار قصدية النسيان والتذكر .

اذن كمبدأ عام ، يتســم التفسير التحليلى على واقع محدد غاية التحديد ، هو مستدعيات المريض وحدها واذا اردنا مزيدا من الايضاح لهذه النقطة ، فيكفى القول بان التفسير التحليلى هو رد المحلل على مستدعيات المريض لان

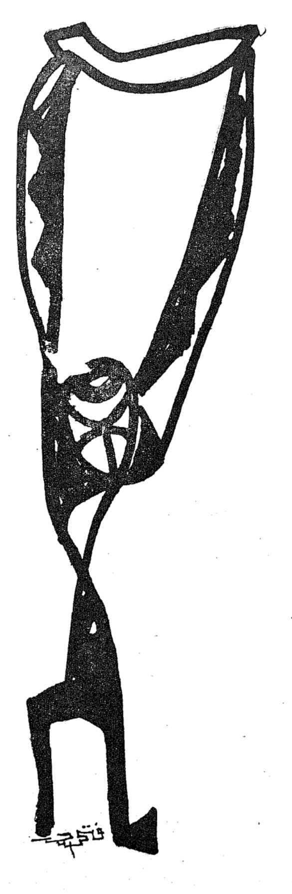
المحلل لايفسر مالم يذكره المريض بعد . ومادام المحلل لايفسر غير مستدعيات المريض فهو اذن ، محدود فى عمله بموضوع محدد تماما . ويكون التفسير «موضوعيا» بقدر نجاح المحلل فى قصر تفسيراته على المستدعيات وحدها .. أى على الموضوع وحده . ولعل هذا هو اشق وادق مافى التحليل النفسى كمهنة ، ولايمكن لمهنة لها هذا القدر من وضوح موضوعها أن يشاع عنها بسهولة أنها غير علمية . ولكن سبق لنا أن نبهنا الى ان وجود الموضوع لايكفى فى حد ذاته لبلوغ حكم موضوعى . فالموضوعات تتفاوت وضوحا وغموضا ، وتتراوح فى قدرتها على كشف حقيقتها . والمشكلة فى التفسير التحليلى لاتنشأ عن تفاوت وضوح وغموض موضوعه ، فموضوعه واضح محدد . المشكلة فى التفسير التحليلى النفسى تنشأ عن مدى قدرة الموضوع عن كشف حقيقة امره ، أى مدى مطابقة المستدعيات للمريض .

ب - المستدعيات أم المريض ؟

تثير العلاقة بين المريض والمحلل الكثير من النقاش . ولكن هذا النقاش لايجد محلا له فى مقالنا ، اللهم الا من حيث دور المحلل بتفسيراته فى تحديد مجرى مستدعيات المريض . رغم أن المريض يظل مقتنعا طوال تحليله بأن مستدعياته تعبر عنه فانه يكون كذلك فى موضع من يقبل - بشكل ما - ان لها تفسيرا لدى المحلل (والا ماستمر فى علاجه) . لذلك نطرح سؤالين : ماهى علاقة المريض بمستدعياته وما هى علاقة المحلل النفسى بتفسيراته ؟

لاشك انوجود المحلل وهو المحرك الاساسى للمستدعيات بدليل عجز المريض عن التداعى الطليق بينه وبين نفسه . فالتداعى الطليق هو المطلب الوحيد الذى يطلبه المحلل ، وعمل المريض هو تحقيق هذا المطلب بقدر ماتسعه قدرته . ويختلف ذلك الوضع عن التداعى الذى قد يلجأ اليه الشخص بينه وبين نفسه او الحديث الذى يدور بين المريض وآخر حول مرضه . فالمحلل لايحادث المريض لان جوهر الحديث هو طرح الوجود على الآخر الذى يطرح وجوده بدوره عليه (والحدث الذاتى هو محاولة الشخص اقامة حوار مع نفسه) . أما فى التحليل فالعلاقة قائمةعلى ان المريض يطرح وجوده على المحلل ويقوم المحلل بتفسير هذا الوجود (الذى يطلبه المحلل فى صيغة مستدعيات) دون أن يتبادل المحلل طرح وجوده على المريض . على هذا الاساس يمكن القول بأن علاقة المريض بمستدعياته تبدا اصلا باعتقاد راسخ فى «أنها .. هو» . فعندما يقول المريض اننى «أكره هذا الشىء او احبه» يكون لديه اعتقاد فى صحة حبه أو كرهه . لذلك قد يبدو أن تفسير المحلل لمستدعيات المريض تفسيرا له ذاته .. وبقدر اعتقاد المريض فى تطابقها له نفسه .

ولاشك كذلك فى ان مستدعيات المريض والصمت فى السياق اللغوى تداع او امتناع عن التداعى مما يخضعه كذلك لنفس قوانين التفسير) ، هى المحرك الوحيد لعملية التفسير فالتفسير هو العمل الذى يتوقعه المريض من المحلل ،



ذلك لان المحلل «لايحادث» المريض . وعلى هــذا الاساس يمكن القول بأن المحلل يبدأ عمله التحليلي «باقل قدر من الاعتقاد فى تطابق المســتدعيات للمريض» .. اى بتطابق تفسيراته للمريض . ويستمر التحليل النفسى بقوة تناقض هذه العناصر الاربعة : اتفاق المستدعيات للمريض واختلافها عنه ، واتفاق التفسيرات مــع المريض واختلافها عنــه . فالموقف المتناقض بين موقف المريض من مستدعياته وموقف المحلل منها يجعل التفسيرات مثيرا لمزيد من المستدعيات

على هـــذا النحو يكون «التحليل النفسى علم تفسير مستدعيات المريض» وليس «علم تفسير المريض ولا علم تفسير المرض النفسى» . بعبارة اخرى : التحليل النفسى هو علم تفسير الافعال النفسية psychological acts ، وليس بعلم تفسير النفس والمريض . وقد ركز فرويد الاهتمام على هذه هذه النقطة تركيزاً شــديدا (ارجع الى مقــاله عن التحليل النفسي البدائى wild psycho-analysis نخرج من هذا الى استكمال صيغتنا التى بدأنا فى تكوينها عنـد مناقشة موضوع التفسير التحليلي : ان التفسير التحليلى النفسى له موضوع محدد غاية التحديد هو المستدعيات ، وله به وضوح رؤية بأن المستدعيات ليست المريض .. ولكن المريض هو مستدعياته .

جـ ـ الشعور ام اللاشعور :

ان قيام التفسير التحليلي على الافعال النفســية يعنى قيامه على الخبرة الشعورية . ولكن القضية الاساسية فى التحليل النفسى تقول بأن القصد فى الافعال لاشعورى ، والهدف من التفسير هو كشف ذلك الجانب وجعله شعوريا . اذن ما هو موقف التحليل النفسى ازاء هذا التناقض ؟

ان الملاحظة الدقيقة ـ والتى تصلح لبحث تجريبى ـ تبين ان المرضى يكثرون من اســتعمال ضــمير المتكلم أنا (له ، ل) ، وفى نفس الوقت تقل لديهم الصيغ المباشرة للدلالة على الذات والتعبير الخــاص بالــكينونة . فان يستعمل المريض ضمير المتكلم فى صيغة اخبارية او صيغة « الواحد يريد .. » انمـــا يعنى تناقضــا بين الذات وكينونتها من جانب ويعنى من جانب آخر تناقضا بين الرغبة وشعور الشخص بها ، والواقع ان هذه الملاحظة تثير عديدا آخر من الملاحظات المتعلقة باللغة وبغير اللغة من ظواهــر انسانية ، ولــكنها تقدم لنا مدخلا ممتازا لفهم عمليــة التفسير . فصــيغة « أنا .. أو .. الواحــد » تختلف اختــلافا اساسيا عن صيغة « اكون » (ارغب .. اود) حيث ان الصيغة الأولى تسمح بسؤال الشخص عن علة شعوره لتعالى الشعور على الرغبة فى حين ان الصيغــة الثانية لا تسمح بذلك . فاستعمال ضمير المتكلم لوصف الحالة الشعورية يدل على قيام تناقض بين الرغبة والشعور بها بدلا من تناقض بين الرغبة وآخر (هو المحلل أو من يقوم المحلل بديلا عنهم) . لذلك تكون المستدعيات ـ فى بداية العلاج ـ مطابقة تطابقا زائفا للمريض .

ويمكن اذن ـ أن نصور المرض النفسى بأنه تنــاقض بين المريض ورغبته ، وأن نصور العلاج بانه محاولة ايجاد اتساق بين المتناقضين . ويبدأ العلاج بمحاولة خلق تناقض بديل بين المريض والمحلل كمرحلة اولى فى سبيل حل هذا التناقض . وتقوم بهذه المهمة عملية التفسير لانهـــا ذات خاصتين : يقوم التفسير اساسا على سؤال المريض سؤالا ساذجا فى شكله هو « لماذا » ! ولابد ان تؤدى محــاولة الاجابة الى مفارقة المريض لمستدعياته وكشف الزيف فى اعتقاده بتطابقها لحقيقته ، كما أن القيام بدور المفسر يخلق بالضرورة موقف تنــاقض بين المريض والمحلل ، لان عمــل التفسير يعنى أن المحلل ليس مقتنعا بتطابق المستدعيات لحقيقة المريض بدليل تفسيره لها ، اى كشفه لمعناها .

فاذا كان التفسير التحليلى النفسى ينصب على الافعال النفســـية ـ أى على شيء شــعورى أو ما أصبح فى حيز الشعور ـ فليس فى ذلك تناقض مع مقولة اللاشـــعور . فالمحلل لايهتم باللاشعور فى ذاته لانه لايهـــدف الى تغيير مكوناته الاصيلة ، بل يهدف فقط الى تعديل طاقات هــذه المكونات وعقد صلات أسلم بينهـا وبين بعضها البعض ، وبينها وبين التنظيم الشعورى الذى يشرف على تحقيقها . بعبارة اخرى ان المحلل يهدف الى أن يقلل قــدر امــكانه وامكان المريض مســافة البعد بين المريض (الشــعور . والمستدعيات) وبين رغبته (اللاشعور والقصد) .

● موضوعية التفسير التحليلى :

مما سبق يمكن ان نحدد ثلاثة أبعاد لموضوعية التفسير التحليلى :

١ ـ مطابقة التفسير للمستدعيات .

٢ ـ مطابقة المستدعيات للرغبات .

٣ ـ مطابقة الرغبات للقصد .

بمعنى آخــر ، اذا استطاع المحلل ان يجعل تفسيره مطابقا للمستدعى ، وكان المستدعى مطابقا للرغبة ، وكانت الرغبة مطابقة القصد منها ، فلاشك ـ فى هذه الحالة ـ ان التفسير التحليلى يكون موضوعيا كأكمل ماتكون الموضوعية.

ولكن هل يتحقق هذا الموقف المثالي ؟ وهل يمكن أن يطلب من التحليل النفسي أن يبلغ بموقفه هذه المثالية ؟ عند الاجابة عن هذين السؤالين سوف يظهر اشكال هام : من الذى يقرر التطابقات الثلاثة ؟ وقد وقع من حاول من المحللين النفسيين الاجابة على هذا السؤال من مأزق منهجى دقيق . حدد المحللون النفسيون محك صلاحية التحليل النفسى ، بواحد من أمرين : الاول تقبل المريض أو رفضه للتفسيرات التىتعطى له ، والثانى هو نتائج العلاج ونجاحه فى التغيير المتطلب للمريض . والمأزق المنهجى يعود الى أن تقبل المريض أو رفضه للتفسيرعملية شعورية خالصة ، كما أن استجابة المريض للتفسيرات عملية لاشعورية خالصة . فعندما يقبل المريض تفسيرا ويرى فيه صوابا فذلك يعنى رضاء ((أنا)) المريض عن ((أنا)) المحلل ، مع عدم حتمية صدور ذلك عن تفسير فى العلاقة اللاشعورية . كذلك رفض التفسير لا يعنى أو يضمن أكثر من رفض ((الأنا)) التفسير. كما أن تعديل سلوك المريض نتيجة للتفسير سيعنى تبدلا فى البنية اللاشعورية وليس فى المركب اللاشعورى (تحــول المريض من القسوة الى رحمة ومن الشح الى الكرم ...)، كما أن عدم استجابة المريض فورا للتفسير لايعنى عــدم المساس بالمركب اللاشعورى . وفى الحالتين يكون التفسير قد أضاف الى المشكلة عنصرا جديدا هو تجميد العــلاقة بين المريض والمعــالج على نحو يوقف التفاعل ، أى يقيم العلاقة على أساس التأثر أو عدم التأثر بــدلا من التأثير المتبادل .

ليس من المنطقى اذا ان يكون محك ((صلاحية التفسير)) هــو التقبل ـ الرفض ، أو الاســتجابة ـ الامتناع عن الاستجابة . فالمحلل أصلا يقصــد الى كشف القصــد من السلوك . والقصد (اللاشعور) هو الذى يخلق المستدعى بعد أن يتحول من مرحلة نفسية وسطى الى رغبة . لذلك لايمكن الاعتماد والثقــة فى تعديل يحــدث للرغبات أو مستدعياتها دون أن يكتشف القصد ذاته وان يحدث فيــه تعديل يظهر فى تغير الرغبات ومستدعياتها . ان موضــوعية التفسير لاتتصل اطلاقا بتأكيد المريض أو انكاره ، ســواء كان التأكيد او الانكار شعوريين او لاشعوريين . فهذاالمحور والمحك يتصل بالزيف والتمويه الذين يقع المريض فيهما: زيف اعتقاده فى تطابق مستدعياته لحقيقة رغباته وتمويهه على ذاتــه بأنه يدرك مقاصــد رغباته . ان الموضــوعية فى العملية التحليلية النفسية تتصل بالموقف الجدلى الاصيل بين المريض والمعالج . فكل تفسير لمستدعيات المريض هــو نقيض ((لأناه)) يصدر عن المحلل كنقيض بديل . واذا تمكن المحلل من ان يستبدل بتناقض المريض مع رغباته تناقضا آخــر يقوم معه كمعــالج ، امكنه بذلك أن ينقذه من ذلك التمويه الذى سبب شكاته ومرضه .

تلك هى الاجابة السريعة على سؤالنا الخاص بما هو مطلوب من المحلل وما اذا كان هو الذى يحدد تطابقالتفسير مع المقاصــد عبر تطابق المســتدعيات مع الرغبــات . ان المطلوب من المحلل هو تمكين المريض من النظرة الموضوعية لذاته ، وليس المطــلوب من المحــلل ان يعطى تفســيرات موضوعية . بمعنى آخر ، ان مشكلة موضوعية التفسير هى مشكلة المريض لا المحلل ، فعلى المريض ان يبلغ القدرة على الحكم الموضوعى على ذلك ، وعلى المحلل أن يعينه على أن يعطى هو أكثر التفسيرات موضوعية . وهذه الصيغة تتفق تماما مع المحك النظرى للشفاء وهو التخلص من النرجسيه أى الحكم الذاتى على الذات .

حدود الموضوعية فى التفسير التحليلى :

سوف نقصر تناول هذه النقطة على الاجابة عن سؤال واحد هو أحد جوانبها : كيف تتم فى عملية العلاجالتحليلى النفسى امكانية الحكم الموضوعى من قبل المريض ؟

عندما قدمنا لمفهوم الموضوعية قلنا ان هذه المشكلة تصور فى شكل مقياس طرفه الذات وطرفه المقابل الموضوع، حيث يكون أى حكم هو مجمل ما synthesis لتناقضهما . فاذا كان كل موضوع يخلق نقيضه ليتفاعلا ويعطيان مجملا، فما هو المجمل فى علاقة المريض بالمحلل ؟ وما هو المجمل فى علاقة المريض برغبته؟ ان المجمل فىالحالتين هوالمستدعيات. فالمستدعيات هى صيغة التفاعل بين المريض والمحلل ، كما ان التفسير هو صيغة التفاعل بين المحلل والمريض، وموقف التحليل النفسى لا يســمح باى صــيغة اخرى للتفــاعل (النقاش النصيحة وما الى ذلك) حتى اذا ما طرح المريض فى الموقف ما هو غير المستدعيات يتناولها المحلل بوصــفها مســتدعيات . ونفس الامر بالنســبة للمريض ورغبتــه ، فمستدعياته هى مجمل علاقته بها بوصف الرغبة مستعصية على نفسه . وقد يثار هنا موضوع صمت المريض او امتناع المحلل عن اعطاء التفســير . الواقع أن أى مســتدعى هو((فعل نفسى)) يتضمن موضــوعه ، أى يتضمن الآخر الذى يطرح عليه الموضوع . وعلى هذا الاساس يكون الفرق بين مستدعيات المريض وصمته هو الفرق بين نشاط تفــاعل بين المريض والمحلل (مستدعى) وتفاعل بين المريض ورغبته (تعطل المستدعى او الصمت). وعندما يقال بوجود مقاومة مظهرها الصمت ، فان ذلك يعنى رفض المريض أن يضمن المحلل فى مستدعياته وقصره للتناقض على ذاته ورغبتها . ويصدق نفس الشىء بالنســبة لوفرة المســتدعيات والتى تكشف فى بعض الاحيان عن مقاومة . فى هذه الحالة تكون وفرة المستدعيات تعبيرا عن رفض المريض التفاعل والتناقض مع رغبتــه وحرصــه على أن يكون التناقض مع المحلل . والتناقض كما نستعمله فى هذه العبارات ليس التنــاقض الانفعالى بل هو العملية الفكرية الجــدلية . لذلك يمكن

نظريا أن نعتبر لحظة الشفاء من المرض النفسى هى لحظة الاتفاق بين مجمل تناقض المريض مع المحلل وبين المريض ورغبته . فهذه اللحظة هى اكتمال الحركة والصيرورة فى بعدين أساسيين : أنا آخر ، أنا نفسى ولا يحتاج الامر منا أن نعالج صمت المحلل عن التفسير اذ أن فطنة القارىء كفيلة بادراك مضمون هذا الصمت فى ضوء ما سبق عرضه .

لابد أن يكون القارىء قد أدرك أن موضوعية التفسير النابعة من التزام التفسير بتناول المستدعيات وحدها ، هى نفسها موضوعية المريض . فالمستدعيات هى مستدعيات المريض ، لذلك فهى موضوعية بشكل أو آخر . فاذا استفاد المحلل من العلاقة الجدلية التى تقوم بين الاشياء ونقائضها ، سوف يدرك ما يحمله المستدعى من معنى : (أحب هذا الشيء .. قد تعنى لا تظن اننى اكرهه أو أرجو أن تعتقد أننى أحبه ، كما قد تعنى اكرهه أولا استطيع حبه ولكننى مضطر الى حبه) . فالمستدعيات قد تدل على القصد مباشرة أو عن طريق غير مباشر ، وقد تبعد عن القصد مباشرة ، أو بطريق غير مباشر . والسؤال الذى يثار فى هذا الموضع : أى المعانى يدل عليها المستدعى؟ أيها الموضوعى والاكثر دلالة على حقيقة القصد ؟ قد تبدو الاجابة ميسورة الى حد الخطورة اذا قلنا أن المحلل هو الذى يحدد الحكم على معنى المستدعيات ــ وقد تبدو الاجابة مستحيلة الى حد المشقة اذا قلنا بأن من يحدد معنى المستدعى هو المريض . ولكن ، مادام التحليل النفسى قائما أساسا على سؤال «لماذا» ؟ فان أصدق تفسير يتأتى هو ما يقوله المريض استجابة منه لتفسير المحلل . فان ما يقرر أى المعانى أصدق هو قصدية الشعور عند المريض ، وهى تكون عادة قصدية غائبة عنه أو قصدية مزيفة لا يكشفها الا ببحثه عن عللها . ويحرك البحث عن العلية .، تفسير المحلل لما سبقها من مستدعيات ، وسوف نرجىء الحديث عن جوهر التفسير الى خاتمة المقال ، رغم ما قد يبدو من بعض الخلل فى هذه الفقرة لغموض معنى «التفسير» . ولكن يجب التنويه هنا بأن اكتشاف أصدق معنى للمستدعى لا يأتى بمجرد عملية قصدية واحدة يقوم بها المريض ، فالقصدية تكون دائما متشعبة ومحتمة لعديد من المستدعيات مما يجعل اكتشافها عملية مركبة تستدعى من جانب تفحص كل مستدعى ، وتستدعى من جانب آخر « بلوغ قصدية كل مستدعى فى تدرج غير منتظم » . ان التحليل النفسى يقوم أساسا على القاعدتين السابق ذكرهما : قدرة التفسير على كشف القصد ، وقدرته على تحليل المركب النفسى الذى يتخفى القصد فى ثناياه . ولذلك نوجز المشكلة فيما يلى :

ان التفسير التحليلى هو الوسيلة التى يتبعها المحلل ليتيح للمريض أن يبلغ أقرب نقطة من الحكم الموضوعى على حقيقة رغباته ، وذلك من خلال مايرد الى ذهنه من مستدعيات . وهنا يجد القارىء أن مناقشة التفسير التحليلى على محور الذاتية والموضوعية هو نقلة من الاصل الى الفرع . فمهمة التفسير هى مطابقة المستدعيات وليس مطابقة حقيقة المستدعيات . ومهمة المريض هى مطابقة مستدعياته لحقيقتها . والتفسير التحليلى النفسى ــ كعمل مهنى هو أول حلقة فى سلسلة مكونة من ثلاثة حلقات : تفسير يطابق المستدعى ــ مستدعى يطابق رغبة ــ ورغبة تطابق قصدا . ويكمن فى هذا المنطق ما يفرق بين العلاج النفسى والتحليل النفسى . ان المعالج النفسى غير المحلل يحتاج الى أن يعطى تفسيرا يطابق القصد مباشرة ، وهو أمر يتأتى له ولا يضمنه ولا يحق له فيه أن يدعى موضوعية . اما المعالج المحلل فلا يسمح للمريض باصدار حكم يدعى موضوعيته الا على مستدعياته . وعلى هذا النحو يتم الشفاء ــ بالمعنى التحليلى ــ على أساس الكشف عن القصد لا الاقتناع بما يقدمه المحلل من مقاصد لا يدركها المريض فى نفسه .

ولا يبقى لنا الا أن نؤكد نقطة هامة بصدد موضوعية التفسير وعلاقتها بالتفكير السائد لدى علماء المناهج . ان موضوعية التفسير التحليلى النفسى تقاس بمقياسين ، الاول مطابقتها بمستدعيات المريض ، والثانى قدرتها على تمكين المريض من ادراك حقيقة رغبته ادراكا موضوعيا . لذلك لاتطالب التفسيرات بالموضوعية ، بل تطالب بأن تمكن المريض من الموضوعية . بمعنى آخر أن التفسير الذى يعطيه المحلل هو المرحلة التى تسبق التفسير الموضوعى والذى يصل اليه المريض .

● خاتمة :

ان دعوى علماء المناهج بعدم وجود ضمانات لموضوعية التفسير التحليلى ــ وكما حددوا الموضوعية ــ لاتجد من المحللين الا الموافقة ، لا تسليما بل تقريرا . فالتفسير يقوم على المستدعيات التى لاتطابق رغبات المريض والتى بدورها لاتطابق مقاصده . لذلك ، اذا انزلق منظرو التحليل النفسى الى جدل حول موضوعية التفسير ، فانهم لن يخرجوا الى يقين ــ ولكن يكفيهم أن يثبتوا موضوعية التفسير بالنسبة الى المستدعيات وحدها . فالتفسير وسيلة لموضوعية يبلغها المريض وليس غاية تطالب بأن تكون ذات قوام خاص . ويمكن أن ننهى هذا المقال باثارة ثلاث مشاكل والرد عليها فتكتمل بذلك جوانب الموضوع .

ماذا يعنيه فعل التفسير ؟ والى ماذا يؤدى ؟ وماهى نتائجه ؟

فيما سبق اوضحنا ان الهدف من التفسير هو كشف القصد الانسانى ، او قيمة الوجـود . لذلك يكون معنى عملية التفسير ان المحلل ليس مقتنعا بان مستدعيات المريض تحمل مقاصده الحقيقية . فكل علاج نفسى يقوم على هذه القاعدة يعد تحليلا نفسيا بقـدر التزامه بها (مـع شروط اخرى لامحل لها فى اطار هذا المقال) . ان التفسير – أى استفسار المريض عن مقاصـده – يعنى من قبل المحلل : ((انا لاأعتقد فيما تقوله ، لا لانك كاذب بل لانك واقع تحت تزييف واقتناع غير مبرر ببعض الامور – وبدليل التجائك الى العلاج)) . ولايختلف الموقف بالنسـبة الى المحلل باختلاف وضوح القصد أو عدم وضوحه . فليس للمحلل أن يبرر السلوك ويصدق على القصد . فاذا قبل المريض هذا الموقف من المحلل ، بدأ هو حركة الكشف عن التزيف واخذ سبيله الى معرفة قصده .. اى حقيقته . لقد اقام فرويد التحليل النفسي على أكثر الاسئلة سذاجة (لماذا) ليخلق أكثر المواقف ذكاء . ان اجابة المريض – الذى لايعلم بحكم مرضه – عن سـؤال المحلل له ((لـماذا)) هى فعـل التفسير . فالتفسير كفعل نفسى هو ((المطلوب)) فى التحليل وليس أمرا ((يعطى)) . وطالما ظل الموقف التحليلى مبقياعلى حيوية طلب التفسير ، استمر الكشف عن عـدم تطابق المستدعيات (الافكار) للنزوع (الرغبات) وعدم تطابق النزوع للمقاصد (قيمة الوجود) .

ان التفسير يؤدى دائمـا الى اكتشاف قيمة الفعل السيكولوجى . فالفعل السيكولوجى – المرضي والسوى على حد سواء – هو تحول مالى قابلية الانسان للحركة والصيرورة أى هو فى أصله ((حركة حيوية خالصة)) . motoricity ولكن هذه الحركية الحيوية لاتبقى على حالها لدى الانسان لانها تتصل الى ان تتغير . ويكون تغيرها على مسـتويين حسب موضوع تقبلها .

المسـتوى الاول : مسـتوى تقبل الشخص نفسه لحركيته . فى هذا المستوى يكون الفعل السيكولوجى فى حالة دفع motivation الشخص . فعندما تتحـول الحركية الحيوية – أو جزء من التهيؤ البدنى لها – الى نشاط عقلى فكرى لدى الشخص ، يحدث تعديل جوهرى فى طاقتها فينشطر ليقوم جانب منه كمضاد للطاقة الاصلية (يمكن الرجـوع الى فرويد فى نظـريته عن الكبت الاولى والثانوى) . فالشخص فى هذه الحالة يمنح فعله النفسى قيمته فيقبله أو يرفضه . ولكن تبقى القيمة السيكلوجية للحركية الحيوية محدودة لانها قيمة بما تعنيه اصـاحبها وحده ، ويعطى هذا المستوى تلك الحياة النفسية المتخيلة ويصبح الواقع تخييلا . fantasm

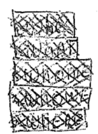
المستوى الثانى : مستوى يتحول فيه الشكل البدائى للفعل السيكلوجى الى صيغة أعقد بدخول الآخـر فيـه كمانح لقيمته . فى المستوى الاول يمنح الشخص قيمة فعله النفسى وفى المستوى الثانى يجعل الآخر هو مانح هـذه القيمة . ودخول الآخر فى تقويم الفعل النفسى انما يعنى أن الشخص قد تحول بدافعه الى موضوعات خارجية ليحقق فيها دافعه ويحقق معها دافعه . وتتغير حالة الدفع لتصبح رغبة desire (أرغب فى ..) وتاخذ الرغبات قيمتها من موضوعاتها ليكتمل نضوج الافعال السيكولوجية ، اى تتحول من صيغة التخيل الى صيغة التصور . imaginary والتحول الى التصور يفتح الطريق الى الواقع real ليصبح الفعل السيكولوجى فعلا انسانيا بالمعنى الذى يحقق قيمة للوجود .

ويختلف المرض عن السـواء فى قابلية ((الحـركية الحيوية)) للتحول من حالها الأول الى حالهـا الثانى ثم الثالث . فالافعال السيكولوجية المرضية تنحصر فى المستويين الاولين حيث تتعطل لدى العصابى القدرة على الانتقال من التصور الى الواقع ، كما أن الافعال السيكولوجية المرضية تختلف فى مدى وضوحها لصاحبها وللآخـر . ففى بعض الصيغ المرضية يغلب على الافعال النفسية تقيدها برفض صاحبها أو تقبله لها دون أن يعرضها المريض على الآخر ليقبلها أو يرفضهـا أو دون ان يهتم بتقبـل الآخر لها أو رفضه اياها – وهذه هى الصيغ الذهانية أو الجـوانب الذهانية فى بعض الاعصبة . وفى بعض الصيغ المرضـية الاخرى يغلب على الافعال السيكولوجية تقيدها برفض الآخر لها أو تقبله لها دون أن يقرر المريض لها قيمة تخصه . وهذه هى الصيغ العصابية من المرض .

ويؤدى التفسير – كما اوضحناه فى الفقرة السابقة – الى رد الدوافع غير المحددة الى رغباتها (رد المستدعيات الى الرغبات) ، كما يؤدى الى كشف الموضوعات الى رغبـاتها (رد الرغبات الى المقاصد) . فكثيرا ما يؤرق المريض دافع – لايعرف ان كان يرفضه أو يقبله – لايعرف له موضوعا ، كما أنه يندر أن لانجد مريضا يتمسك بموقف لا رغبـة له فيه . على هـذا الاساس يكون التفسير كعملية وفعل هى السبيل الى اكتشاف قيمة الفعل السـيكولوجى – أى تحقق علاقة ممكنة بين القصد والرغبة والفكر (الفريزة والدافع والشعور) .

اما نتاج عملية التفسير فلن تخرج عن أنهـا معرفة المريض بمقاصده . ولكن هذه المعرفة هى فى النهاية بداية البناء النظرى للتحليـل النفسى . فالنظرية التحليلية النفسية تقوم على ماقدمه ويقدمه المرضى جلسة بعد جلسة بصدد القصد الانسانى – ومن خلال مقاصدهم الفردية . فاذا كان فرويد قد اكتشف اللاشعور قبل اكتشاف مضمونه فذلك لانه انتظر المضمون بعد ان علم بوجـوده ، أى انه لايفتعل هذا المضمون . ولاشك أننـا – وقـد انتهينا من المقـال – قد بلغنا نقطـة تستحق هى نفسها مثالا : طبيعة الموضوعية فى النظرية التحليلية النفسية ذاتها .

أحمد فايق



أسلوب تحليل المضمون واستخداماته

عبد الحليم محمود السيد

يحتل المضمون موضعا رئيسيا فى عملية الاتصـــال ٠ ويعنى مضمون الاتصال مجموعة من المعانى التى يعبر عنها بالرموز ـ اللفظية او الموسيقية او التصويرية او التشكيلية أو الحركية ـ اولتى من شأنها أن تنشىء الاتصال ذاته ، من خلال وسائله المختلفة ٠

واذا كانت العبارة الكلاسيكية تحدد عملية الاتصال فى : من ، يقول ماذا ، لمن ، وكيف ، وبأى تأثير ؟ فان مضمون الاتصال يتمثل فى « ماذا » ٠

ولما كان المضمون يمثل الوسائل التى يتصل من خلالها فرد بآخر أو جماعة بأخرى ، فمن المهم فى بحوث الاتصـــال ان يوصف هذا المضمون بدقة وأن يفسر ببصيرة نافذة ٠

وتحليل المضمون عبارة عن أسلوب علمى يســـتخدم لوصف مختلف أوجه مضمون الاتصال بأسلوب مختصر ، بل وللتنبؤء بعدد من الوقائع او الأحداث من خلال مواد اعلامية مثـــل الأنباء والمقالات والقصـــائد والأغانى والقصص والافلام والكتابات الادبية والتصريحات الرســمية للقـــادة وأحاديث الشخصيات الكبيرة ٠

ويستخدم أسلوب تحليل المضمون بالفعل فى الاجابة على عدد من الأسئلة المختلفة مثل :

ـ هل سيحقق احـــد البـــلاد نوعا من النمو السريع أم سيعانى من الاضطراب والفقر خلال السنوات الخمس القادمة ؟

ـ هل يتمتع بلد معين بالوحدة القومية أم ان الصراعات بين الجماعات الوطنية أو بين القادة والجماهير تفتت من وحدته ؟

ـ ماهى البيانات الذكية التى يمكن استخلاصها من دعاية العـــدو ؟

ـ هل يستعد بلد معين للعدوان (بالحرب التقليدية او الاقتصادية أو السيكولوجية) على بلد آخر ام انه سيهادنه فى فترة تالية من الوقت ؟

ـ ماهى بؤرة اهتمـــام الناس فى بلد معـــين أو ماهى الموضوعات التى تشغل اذهانهم خلال فترة معينة من الوقت ؟

ـ ماهى أنواع التشابه والاختلاف فى الشعارات السياسية التى يقصد أن يلتف حولها الناس ويوجه اليها انتباههم فى عدد من البلاد ؟

ـ كيف تختلف شعارات الدعاية فى احد البلاد من فترة لأخرى على امتداد عدد من السنوات ؟

ـ ماهى الصور السائدة فى مسرحيات شكسبير ؟

ـ ماهو بناء شخصية الكاتب كما تنعكس فيما يكتبه ؟

ـ ماهى الاتجـــاهات الرئيســـية فى استخدام البحـــوث السابقة لدى العلماء فى كل من علم الكيمياء والطبيعة منـــذ عام ١٩٠٠ ؟



- كيف تعالج جماعات الأقليات العنصرية فى القصص التى تنشر فى المجلات واسعة الانتشار ؟

- كيف يمكن حصر أنواع الدعاية الهدامة وكشفها ؟

- كيف يمكن مقارنة طريقة تناول الصحافة والاذاعة لحالة قتل بعد تعلق عاطفى ؟

- ما الذى يجعل الكتابة قابلة للقراءة والفهم ؟

باى الطرق تعكس الصور السينمائية مشاعر الناس ورغباتهم ؟

- ماذا يحدث لاحدى القصص الجيدة عندما تتحول الى فيلم ؟

- الى اى حد تشبه طريقة تفكير احد الأشخاص المرضى الفصاميين ؟

تعريف تحليل المضمون

تحليل المضمون هو اسلوب علمي يهدف الى الوصف الموضوعي والمنظم والكمي للمضمون الظاهر للاتصال اى لمجموعة المعـــاني التى تظهر من خـلال الرموز المســتخدمة فى عملية الاتصال ٠

انه انه اسلوب لوصف المضمون الظاهر للرموز المستخدمة فى الاتصال ، بطريقة موضوعية تضمن وجود تعريف دقيق لفئات التحليل بحيث يمكن لمحللين مختلفين أن يطبقوها على نفس المضمون ويحصلوا على نفس النتائج ٠ أما التنظيم الذى يقتضيه تحليل المضمون فيعني تحليل المضمون على ضـوء حصر كل الفئات المناسبة لموضوع التحليل ، كما يعنى أن يهدف التحليل الى التحقق من مشكلة علمية او فرض علمي يمكن من خلال التحقق منه ان يكون لنتائج تحليل المضمون قدر من الفـائدة التطبيقية فيما بعـد ٠ اما لزوم أن يكون

التحليل كميا فانه من أكثر الخصائص تمييزا لتحليل المضمون مما يميزه عن القراءة أو الفحص العادى • ولا يتطلب لزوم التكميم ضرورة تحديد قيم عددية لفئات التحليل اذ يتخذ التقدير احيانا شكل كلمات كمية مثل ، أكثر ، دائما ، غالبا ، يزيد .. الخ •

استخدامات تحليل المضمون

يستخدم اسلوب تحليل المضمون على عدد كبير جدا ومتنوع من مواد الاتصال من أجل تناول عدد كبير ومتنوع من المشكلات بحيث يصعب حصر هذه الاستخدامات فى تصنيف واحد •

وفيما يلى عرض لأهم استخدامات اسلوب تحليل المضمون على ضوء الأهداف الرئيسية للدراسات التى اعتمدت عليه ومن شان هذا العرض ان يعكس الى حد كبير المشكلات الرئيسية التى يستعان فى دراستها بهذا الأسلوب • مع الاشارة الى نماذج من الدراسات التى تمت فى مجالات تطبيق تحليل المضمون •

اولا ـ استخدام تحليل المضمون فى دراسة خصائص المضمون من حيث المادة :

وقد اشتمل هذا على المجالات السبع التالية :

(١) ـ وصف الاتجاهات فى مادة الاتصال والتغيرات التى حدثت فى مضمونها فى فترات مختلفة من الوقت ، عن طريق دراسة عينات ممثلة من فئات مادة الاتصال فى فترات زمنية مختلفة •

واذا كان هذا الوصف لاتجاهات مادة الاتصال مفيدا فى حد ذاته ، فانه ايضا يزودنا ببيانات ترتبط بالتغيرات الحادثة فيما يتصل بالقائمين على الاتصال أو الموجهين له او فيما يتصل بالجمهور •

وقد استخدمت هذه الطريقة فى مقارنة مدى استخدام ادوات الاتصال لأنواع معينة من الأنباء او الدوافع او الشعارات فى فترات مختلفة من الوقت •

وتبين بعد تطبيق هذه الطريقة على شعارات « مايو » بالاتحاد السوفيتى من ١٩٢٤ الى ١٩٤٣ ، ان هذه الشعارات تطورت من الثورة العالمية الى الشعارات القومية •

واتضح ان اعتماد المقالات التى تعرضها مجلة ربات البيوت الامريكية عن تنشئة الأطفال على الثقات فى هذا الموضوع زاد من ٥٠٪ عام ١٩٠٤ الى ٩٨٪ عام ١٩٤٠ •

كما تبين أن الدعاية بالحرب العالمية الثانية مقارنة بالدعاية بالحرب العالمية الأولى كانت اقل انفعالية وخطابية واكثر ميلا الى تحرى الحقائق •

وهذه الدراسات لاتجاه مضمون الاتصال يزودنا ببعد تاريخى له قيمته يجعلنا اكثر فهما للاتجاه الحالى لمضمون وسائل الاتصال عن طريق المقارنة بينها •

وبالرغم من ان معظم الدراسات تعالج موضوع المضمون فقد بدأ النظر يتجه الى قيمة اجراء دراسات عن « اتجاه » المضمون من حيث التاييد او المعارضة و « الأشخاص » مصدر الاتصال و « طريقة العرض » •

(٢) ـ تتبع تطور العلم : ويستخدم تحليل مضمون التراث العلمى فى وصف تطوره • فتحليل تطور علم الطبيعة فى انجلترا والمانيا وفرنسا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر أظهر فترات تقلبات تشبه الموجات للانتاج الابداعى •

وقد درس الطابع المتغير للبحث فى علم النبات من ١٨٩٠ ـ ١٩٣٠ فى مجموعة من مجلات هذا العلم •

وبالمثل أمكن دراسة تطور الاهتمامات بعلم الاجتماع بالولايات المتحدة خلال الخمسين سنة الأخيرة عن طريق دراسة توزيع المقالات فى المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع ، وتبين زيادة اهتمام المجلة فى السنوات الأخيرة بمشكلات السكان والأجناس والقوميات ، ومناهج البحث ، على حساب الصفحات المخصصة للنظرية ولتاريخ علم الاجتماع والاصلاح الاجتماعى•

ومثل هذا التحليل لايصف تطور اتجاهات نظام معين فحسب ، بل يزودنا بتعريف او تكوين ، لمجال معين فى اى فترة زمنية محددة •

على انه لابد من التحقق من الدعاوى المتضمنة فى هذا الاستخدام لتحليل المضمون فمعظم الدراسات التى استخدمت تحليل المضمون لهذا الغرض لا تعتمد الا على مصدر واحد للبيانات او على مجموعة صغيرة من المصادر ، تمتد خلال فترة من الوقت طويلة نسبيا • وهنا لابد من الالتفات الى اهمية تمثيل المجلات أو وسائل الاتصال التى ستحلل للمجال الذى يدعى أنها تمثله • اذ قد لايتضمن عدد قليل من المجلات عينة صادقة لبحث التراث او المجال المراد دراسته خلال فترة طويلة من الوقت بسبب ظهور مجلات اكثر تخصصا تمثل فروعا من المجال موضوع الدراسة فى الفترة الأخيرة •

كذلك فان التغيرات التى تحدث فى عدد من المجلات فى مجال معين قد تعكس تغيرات فى سياسة المحررين اكثر مما تعكس تغيرا حقيقيا فى الاهتمام بالمجال ذاته • وفى بعض الحالات قد يشوه مصدر مواد الاتصال نتائج الدراسة نظرا لتحيزه ، كما لو حللنا المساحة المخصصة « للرجال العظام فى العالم » فى دائرة المعارف البريطانية ، او الأمريكية ، اذ المتوقع ان تخصص مساحة أكبر لأبناء البلد الذى يقوم بنشر دائرة المعارف لحسابه •

كما ان ميل المصادر الى الاهتمام الزائد بفترة تسبق فترتهم مباشرة ، قد يشوه دراسات الاتجاه • وكذلك فان تغيير أساس التصنيف قد يؤدى الى أثر مشوه ، مثلاالمقالات التى تقع فى حدود مجالين كالفزياء والرياضيات او مجالى

علم الاجتماع وعلم السياسة مما يؤدى الى تصنيف هـــذه المقالات فى مجالات مختلفة فى الأوقات المختلفة .

ومع هذا فانه يمكن اجتناب معظم هذه الصعوبات ، ومن ثم يصبح تحليل المضمون مفيدا كأداة لوصف تكوين وتطور مجالات المعرفة والعلم .

(٣) ـ الكشف عن الفروق بين مضمون الاتصال بالدول المختلفة : يـؤدى التحليل المنظم الى الكشف عن الفروق بين وسائل الاتصـال لدى الدول المختلفة ، ويطبق هـــذا على الصحافة ، والاذاعة ، والســـينما والمسرح وكيفية معالجتها للموضوعات المختلفة . وذلك من خلال الاجابة على عدد من الأسئلة : ماهى الأنباء التى يشيع الاهتمام بهـــا فى بلدين متصارعين أو متعاونين ؟

كيف تختلف صياغة الدول لنفس الحدث ، مثل الحروب أو الأزمات الدولية التى تتساوى احاطتها بهـا ، أو الوقائع التاريخية ؟

ماهى الفروق الرئيسية بين الأفلام الأمريكية والانجليزية والفرنسية والروسية ؟

مثل هذه الأسـ ـئلة يمكن الأجابة عليها بعد التحليلات المقارنة للمضمون ، التى تكشف عن الفروق فى بؤرة الاهتمام لدى جماهير الأمم المختلفة .

من امثلة لدراسات من هذا النوع دراسة قورن فيها بين صيغ حـرب التحرير الامريكية فى كل من الكتب الامريكية والبريطانية . وكذلك قورن بين صيغ الحرب العالمية الأولى فى الكتب الامريكية والالمانية ، للكشف عن الآراء التاريخية التى تقدم لشباب الدول المختلفة .

وفى دراسة أجريت لتراث الشباب الهتلرى والكشـــافة الأمريكية حلل فيه هـــذا التراث فيما يتصـــل بالأهداف والمبررات .

ولم يوجد فرق فى التأكيد على غايات مثل اللياقة البدنية، والنظام والانتاج ، ولكن المواد الألمانية كانت أكثر على الولاء القومى والتوحد مع الوطن ، وكانت أقل تأكيدا على الغيرية والابداع . بالأضافة الى وجود فروق كثيرة فى اسس التوصية بالاغراء المرغوب فيها لدى اعضاء التنظيمين .

وقد كانت توصـيات الشـــباب الهتلرى تبـرر أساسا بالعضوية فى المجتمع القومى (٦٦ ٪) ، بينما الكشافة كانوا يبررون غاياتهم بارضاء ذواتهم (٤٧ ٪) .

وفى دراسة أخرى حللت أكثر أنواع الدراما شعبية فى البلدين، ووجد أن أكثر موضوعاتالمسرحيات الأمريكية هى الحب (٦٠٪) والأخلاقيـات (٣٦٪ ، اما فى المانيــــا فكانت المسرحيات المثالية (٤٤٪) وتلك التى تمثل القوة (٣٣٪) .

وقد كان مستوى الحدث فى الدراما الأمريكية شخصيا بحتا فى ٩٦٪ ، بينما مستوى الحدث فى الدراما الألمانية كان مقسما بين المسائل الايديولوجية (٥١٪) والشخصية .

وبينما أمكن استخدام هذه الدراسات لتوضيح الفروق بين الطـابع القومى من خـلال وثائق تثبت هذا ، فانه يمكن استخدامها كذلك لوصف ما يقدم لجماعات متشابهة ببلدين مختلفين .

(٤) ـ المقارنة بين وسائل الاتصال المختلفة أو بين مستويات الاتصال المختلفة : وسائل الاتصال المختلفة ومستويات الاتصال المختلفة لا تجتذب جماهير مختلفة فحسب بل تتناول نفس الموضوعات بطرق مختلفة .

لهـذا فان التحليل المقارن لمضـمون الاتصـال وعرض « المضمون » بوسائل مختلفة للاتصال وبطرق مختلفة يعد من أهم تطبيقات تحليل المضمون . ومن امثلة الدراسات الحديثة فى هذا الشان دراسة امكن من خلالها الكشف عن نمـاذج التغييرات التى حدثت فى ٢٤ قصة جيدة بعد تحويلها الى أفلام فيما يتصل بالحوار ، والشخصية ، والحدث ، والمشهد ، والخاتمة ، والتسلسل والأسباب المستنتجة لها . ومقـدار الانتبـاه الذى يعطى لأجزاء العقـدة الرئيسية فى القصـــة ـ ككتاب ـ ثم فى الفيلم الذى تحولت اليه ، مما يؤخذ كدليل على اخلاص النقل من وسيلة لأخرى .

ولما كانت جماعات مختلفة من الناس تتعرض لأنواع الاتصال المختلفة (من خلال القراءة أو الاستماع أو المشاهدة) التى تتناول نفس الموضوع ، فان المقارنة بين هذه الأنواع من الاتصال لها قيمتها كطريقة لوصف الفروق فى المضمون الذى تتعرض له الجماعات المختلفة من الناس .

(٥) ـ فحص مضمون الاتصـال فى مقابل الأهداف منه : كل منفذ من منافذ الاتصال له هدف أو مجموعة من الأهداف ، سواء أكانت صريحة أو ضمنية .

ومدى تعبير المضمون عن هـذه الأهداف يعد احـد مزايا المضمون .

وقد قورن فى عدد كبير من الدراســـات بين ما يؤكده المضمون وبين معايير المحلل .

ولم يراجع المضمون على أهداف المشرف على الاتصال الا فى عدد قليل من البحوث .

واحيانا يقوم بهذه التحليلات أشخاص « خارجيون » على أساس الأهداف المقترحة للمشرفين على الاتصال .

وقد تقوم جماعة من المهتمين بتحسين برامج التليفزيون ـ مثلا ـ بتحليل مضمون برامجه التى يقدمها فى فترة محددة ، وتحديد نسبة ما يقدم من كل نوع من البرامج الى المجموع الكلى لوقت الارسال التليفزيونى .

ويمكن استخدام تحليل المضمون فى تصحيح الوضع القائم الذى يكون غالبا ـ غير ملتفت اليه . كما قد يستخدم فى الغـــاء ما نتبين عدم جدواه ، وكذلك يمكن اســـتخدامه فى تصحيح التأكيدات الخاطئة فى مضمون الاتصال على ضـــوء الهدف منه ، وتوجيهات المشرف على الاتصال .

٦ - انشـاء معايير وتطبيقها على الاتصال : يمكن عن طريق تحليل المضمون وصف وسائل الاتصال ولكنه لايستطيع فى ذاته ، تقويمها .

والتقويم يستلزم قبول معيار أو عدد من المعايير ، يقارن به مضمون الاتصال بواسطة تحليل المضمون .

ويستخدم تحليل المضمون ثلاثة طرق لتقويم وسائل الاتصال :

(أ) تقويم الأداء بناء على معايير قبلية مثل : تحقيق نوع من التوازن ، أو وجود هدف اجتماعى .

(ب) تقويم الأداء بمقارنة جزء من المضمون بآخر .

(ج) تقويم الأداء بمقارنة المضمون بمعيار خارجى ليس من المضمون .

وفى كل حالة من الحالات الثلاث يقدم المعايير شخص آخر غير المشرف على الاتصال ذاته ، مما يميز هذا الاستعمال عن الاستعمال السابق لتحليل المضمون (فحص مضمون الاتصال فى مقابل الهدف منه) .

وقد تم تطبيق المعايير القبلية على مضمون الموضوعات التى تتناولها الصحف فى بعض البلاد وفى فترة محددة وعلى طرق عرض هذه الموضوعات للتأكد من مقدار الالغاء أو التشويه أو عدم الدقة .

وقد تناولت دراسات اخرى طرق معالجة « العمل فى البرامج الاخبارية فى الاذاعة » ، وطرق معالجة قانون معين فى عدد من الجرائد ، وطرق عرض الأنباء المحلية فى المجلات الأسبوعية .

ويتضمن الأساس الثانى للتقويم اقامة معايير داخلية ، اى من داخل المضمون ذاته ، يقارن فيه بين جزء من المضمون وجزء آخر . ففى دراسة « للسلوك الأخلاقى وغير الأخلاقى لعدد من الصحف الممثلة للصحافة الأمريكية تم تقويم الصحف على أساس معيار متوسط ، بين الاجتماعية والحسية لدى مجموعة من الصحف التى تهتم اهتماما كبيرا بالأنباء الاجتماعية» . واستمدت المعايير من تحليل مساحات عناوين الصفحة الأولى المخصصة لثلاثة موضوعات « شديدة الاجتماعية » هى : (المشكلات الأجنبية ، ودولية الولايات المتحدة ، والوطنية) وثلاثة موضوعات حسية هى (حماس المال ، والجنس ، المال والجنس) . وبطرح الأخيرة من الأولى نحصل على درجة واحدة لمقياس (الاجتماعية ـ الحسية) لكل صحيفة . طبق هذا على اربعين صحيفة ورتبت تنازليا ، وقورن بينها على أساس ان هذا هو معيار تحديد « أحسن » صحيفة .

اما المنهج الثالث للتقويم الذى يقوم على أساس معيار من خارج المضمون فقد استخدم لتقدير تكرار ظهور الأعضاء الذين ينتمون الى أجناس مختلفة فى قصص المجلات . وفى هذه الحالة يقارن توزيع الشخصيات الخيالية بالتوزيع الفعلى للسكان .

والتعداد العام وحده هو الذى يوضح التنازل الفارقى لمجموعات المواطنين أو الأقليات فى القصص ، فكل جماعة اقلية تظهر غالبا فى القصص أقل مما هى فى البلد . ويظهر المواطن الذى ينتمى للاغلبية أكثر تكرارا .

ومقارنة أخرى مفيدة فى تقويم أداء الصحيفة ، استخدمت فى تحديد مدى ذكر الصحف البريطانية للوقائع الأساسية التى تتصل بحدث هام ، وانشأ المحللون قائمة رئيسية تتكون من ٣٣ واقعة (تمثل ماحدث بالفعل وروجع على أساسها غلاف الجرائد) . وقد تراوحت درجات تسعة جرائد بين ٥ر٢٣ و ٣ .

ولا شك ان كفاءة المعايير المستخدمة والتى تستعين بأسلوب تحليل المضمون من شانه أن يزيد من كفاءة تقويم وسائل الاتصال .

٧ - المساعدة فى العمليات الفنيـة للبحث فى العلوم الانسانية :

يعد استخدام تحليل المضمون كخطوة من خطوات البحث العلمى فى العلوم الانسانية من أهم استخدامات هذا الأسلوب .

ويساعد تحليل المضمون على وصف المعلومات والمواد الكيفية للاتصال ، فالمقابلة كاسلوب لجمع البيانات اذا كانت من النوع المتعمق كالمقابلات الاكلينيكية التى تستخدم لتشخيص الأمراض النفسية أو العقلية ، تكون غالبا من النوع الذى يوجه فيه الى المفحوص اسئلة مفتوحة النهايات اى الذى لا تحدد للمفحوص اجابات معينة لوضع اجابته فى احداها ، وعلى الرغم من أهمية ماتتضمنه هذه الأسئلة المفتوحة فانه تحول دون تحليل اجاباتها تحليلا منظما وموضوعيا عدة مشكلات منها مايتصل بعدم دقة تسجيل هذه الاجابات أو ما يتصل بصعوبة ترميزها ، الا ان اسلوب تحليل المضمون يساعد على الوصف المنظم الموضوعى الذى يمكن من عرض مضمون هذه المقابلات فى صورة كمية .

ويعتمد فى الاستدلال على الحالة السيكولوجية للافراد او الجماعات الصغيرة على تحليل المواد الرمزية التى ينتجونها فرادى أو جماعات . ويدخل فى هذا السجل الاجتماعى للحالة ، والمقابلات العلاجية واختبارات الشخصية ، وأنواع الابداع الخيالى والخطابات والمذكرات اليومية واى وثائق شخصية اخرى تحدد من خلالها ملامح شخصية الفرد على أساس مايتم جمعه من الوثائق عن احداث حياته وسمات شخصيته . كذلك يستدل على السمات الشخصية للمفحوصين من تحليل استجاباتهم لمنبهات غامضة (بقعة حبر ، او صورة غامضة أو جملة ناقصة) . والتفات الشخص للشكل بدلا من اللون، ان للكل بدلا من الأجزاء المتفرقة أو نسجه للقصص العدوانية بدلا من السلمية ، مما يزود المحلل بالبيانات التى يميز على أساسها سمات سيكلولوجية معينة . وقد تبين من خلال عدد من الدراسات امكان استخدام اسلوب تحليل المضمون فى تحليل القصص الخيالية التى تشيع لدى الأطفال فى عدد من

المجتمعات من حيث علاقتها بما تمت تنشئتهم عليه من دوافع مثل الدافع للانجاز وبذل أقصى جهد ، وحب التجديد والابتكار والمخاطرة ، وحب الاستقلال والاعتماد على النفس أو انخفاض مثل هذه الدوافع .

كما حاولت بعض الدراسات تحليل الأعمال الأدبية من ناحية دوافع أبطالها او سماتهم الشخصية ، وحاول بعض الدارسين تقصى دوافع المؤلفين أو الشعراء من خلال تحليل أعمالهم .

كذلك فقد أمكن لأسلوب تحليل المضمون وصف وتفسير عدد من مظاهر السلوك المرضى واعطاء صورة اكلينيكية واضحة تساعد على التشخيص والعلاج . مثال ذلك تحليل طريقة التعبير اللغوى لدى المرضى النفسيين أو المرضى الذهانيين ، وقياس درجة التوتر العام ، ودرجة الشعور بالضيق او المرض خلال مراحل العلاج . وأمكن من خلال تحليل بيانات سجلات الخدمة الاجتماعية المقارنة بين نوع الخدمات التى تقدم فى مكاتب مختلفة بنفس البيئة أو بيئات مختلفة . وقد تبين وجود علاقة ايجابية بين اتجاهات العميل نحو الهيئة التى تقدم له الخدمة النفسية أو الاجتماعية لحل مشكلته وبين درجة ثقته فى حل هذه المشكلة . كذلك أمكن من خلال التحليل الكمى للعبارات التى يذكرها أعضاء الجماعة وصف كل منهم بانه : يظهر التضامن ، يظهر التوتر ، موافق يقدم اقتراحا، يبدى رأيا ، يعطى توجيها أو امرا ، أو عكس هذه الفئات، ويمكن من خلال تحليل المناقشات التعرف على درجة التماسك بين اعضاء الجماعة والعوامل التى تساعده أو تلك التى تعوقه ، ودرجة وضوح اهداف الجماعة ، ووسائلها لتحقيق هذه الأهداف بالنسبة لكل عضو من اعضائها .



ويمكن من خلال تحليل مضمون استجابات جماعة معينة او فئة اجتماعية محددة على عدد من الأسئلة ، أو تعبيراتها بوسائل التعبير المتاحة التعرف على اتجاهات هذه المجموعة سواء كانت اتجاهات سياسية أو اجتماعية مما يساعد على كفاءة التعامل مع هذه الجماعة أو تلك الفئة الاجتماعية .

ثانيا – استخدام تحليل المضمون فى دراسة خصائص المضمون ، من حيث الشكل :

وقد اشتمل هذا على المجالات الثلاث التالية :

(١) – الكشف عن اساليب الدعاية :

يوجد غالبا بين تحليل المضمون وتحليل الدعاية لأن عددا كبيرا من دراسات تحليل المضمون – ان لم يكن معظمها – تتناول أساليب الدعاية بالتحليل . هذا اذا اتفق على أن الدعاية انما هى محاولة عمدية للتأثير فى الاتجاهات او فى السلوك ازاء مسألة خلافية عامة .

ويمكن ابراز بعض الأساليب المستخدمة فى تحليل الدعاية وتصنيفها الى فئات مثل التحليل على أساس الموضوع او الصياغات المختلفة للمضمون أو على أساس الدعوى أو مقصد الاتصال وأثره ونفس الموضوع قد يكون له «دعاوى» مختلفة بالنسبة لجماهير مختلفة فى حين أن موضوعات

مختلفة قد يكون لها نفس الدعوى .

وقد ثبت ان تحليل الاتصال على أساس فئات المضمون افضل من تحليله على اساس مايفترض من مقاصد وآثار » .

استخدم هـــذا الأسلوب فى تحليل الدعاية بالحرب العالمية الثانية وتبين منه وجود أربعة أهداف رئيسية لدعاية الحرب لدى الحلفاء هى : اثارة الكراهية ضد العدو ، والابقاء على صداقة الحلفاء ، والابقاء على صداقة المحايدين وضمان تعاونهم ان أمكن ، والقضاء على الروح المعنوية للعدو .

وقد تم تقويم الدعاية البريطانية فى هذا الاطار عندئذ، وتبين أنها « نجحت نجاحا مدهشا فى اقامة اهداف انسانية للحرب بينما آثار الألمان الكثير من الاستياء والشك فى الخارج بكلامهم عن الحرب من أجل الثقافة الألمانية ، واحتقار المثل الانسانى الأعلى .. وبدا الرجال المسئولون ببريطانيا فى التحدث عن الحرب من أجل انهاء الحرب قبل أن يتعـلم رجال الدولة الألمان هذه العبارات بوقت طويل ، ولم يستطع الألمان مواجهة الانطباع المبدئى الشائع بأنهم معتدون وذلك يرجع الى حمق دعاويهم » .

واستخدمت فئات أخرى فى تحليل الدعاية وهى مايطلق عليه اسم « خدع الصنعة » وهى الحيل الخاصة المختفية التى لا يكون الناس عادة على وعى بها .

واستخدم فى هذا الصدد عدد من فئات التحليل لخدع الدعاية التى تكشف أساليب اختيـــار الموضوع المنـــاسب وتلبيسه فى ذهن الجمهور وتبسيطه له واطلاق اسم عليه واستخدام كلمات شاملة عامة وبراقة ونقل المعنى من سياق مقبول لآخر وخلط الأمور على الجمهور وتقديم الدعاية فى ظل معلومات أخرى يصدقها واستغلال الظروف النفســية للجماهير التى تجعلهم أكثر تصديقا لما يقدم لهم .

واستخدام هذه الفئات فى تحليل الدعاية يجعل الناس على وعى بالدعاية المضللة مما يفسد آثارها . وان كانت هـــذه الفئـــات لا تتضمن بالطبع « كل » مجالات تحليل الدعاية .

واستخدام فئات المضمون فى تحليل الدعاية لا يلغى خاصية أساسية ترتبط بالدعاية هى « المضمون الانفعالى » للمادة . وقد تمت بعض المحاولات لقياس حرص مختلف انواع الدعاية الموجهة الى جماهير مختلفة من خلال قنوات اعلامية متنوعة فى نفس الوقت أو فى فترات زمنية متعاقبة على اثارة استجابات انفعالية بواسطة مضمون عاطفى يختلف باختلاف نوع الجمهور .

(٢)- قيـــاس الأسلوب الذى يؤثر فى قابلية وسيلة الاتصال للقراءة أو الفهم : ان قياس قابلية المواد المطبوعة أو المذاعة للقراءة والفهم يمكن من الاجابة على عدد من الأسئلة مثل :

ماهى العوامل التى تميز المواد التى يسهل او يصعب قراءتها أو فهمها ؟

ماهو الاختلاف فى الأسلوب بين قصتين ؟

وقد استخدم التربويون اجابة مثل هذه الأسئلة لاختيار وانتاج الكتب المناسبة لأفراد من أعمار مختلفة ومستويات من القدرات مختلفة .

ويمكن أن نعد تطور مقاييس القابلية للقراءة مقيـاسا للتمايز المتزايد لمعايير القابلية للقراءه ، ففى البداية كان يركز على « الكلمة » فقسمت الدراسات الأولى القـــابلية للقراءة المواد الى نسبة الكلمات « السهلة » الى « الصعبة الموجودة كما تدل على ذلك قائمة مقننة للكلمات (مثـل قائمة « ثورندايك ») .

وفى السنوات التالية أضيفت عناصر اخرى لبحثها مثل – طول الجملة ، الجملة البسيطة ، والجملة الناقصة التى لا تحتوى على فعل والجملة ذات الفعل والفاعل فقط ، ثم تبع ذلك ما لايقل عن ٨٢ عنصرا من عناصر الصعوبة التى زعم بحثها ، اختير منها أخيرا خمسة على أساس ارتباطها بالوثيق باختبارات الفهم العام وهى : الكلمة المختلفة ، والكلمات الصعبة المختلفة ، والضمائر بالشخصية والجملة الناقصة التى تتضمن حرفا للجر ، وطول الجملة . ووضعت فى صيغة تعـــد تعبيرا مباشرا عن القابلية للقراءة على أساس السنوات الدراسية اللازمة لقراءة الفقرة بسهولة .

وفى نفس الفترة من الوقت تقريبا تضمنت صيغة أخرى منتشرة مجموعة أخرى من ثلاثة عوامل هى : طول الجملة ، والتفضيلات الشخصية وضمائر الوصل .

ويوجد حد هام لتطبيق تحليلات القابلية للقراءة ، ذلك انه يتحقق من صدقها عن طريق قراءة القارىء العام لاختبـــارات الفهم . وهذا القـــارىء يمثل جماعات تعليمية مختلفة ، لذا فهى تنطبق على القارىء العام ذى الاهتمـام العام ولا تضع فى حسابها اثر اهتمامات القارىء الخاصة على قابلية قراءته للمادة . فمثلا أحـــد الميكانيكيين ذوى التعليم الضئيل قد يفهم بعض المادة التى قد تبدو شديدة الصعوبة بالنسبة لأحد رجال الأعمال المتعلمين تعليما جيدا . فالقابلية للقراءة اذن تعتمد على اهتمام القارىء وخبرته . وهذا ينطبق بوضوح على الناحية الميكانيكية .

بالاضافة الى أن الفئات المستخدمة التى تقاس بها عادة القابلية للقراءة لا تضع فى حسابها عوامل مثل تنظيم المادة وطبيعة المضمون وحجمه وشكله .

(٣)- الكشف عن طابع الأسلـوب : جذبت مشـكلات الأسلوب الأدبى والخطابى الدراسين منذ وقت طويل ، وقد كتب ما لا حصر له من الكتب فى هذا الموضوع .

وتناول الدارسون بالتحليل الكيفى أسئلة مثل : ما هو الطابع الشعرى للكلام ؟

كيف يختلف الكتاب فى الأسلوب الأدبى ؟ كيف تتغير الحيل الخطابية عبر الزمن ؟

متى كتبت أعمال معينة ؟ ومن كتبها ؟

ووجد من حين لآخر اشخاص مخاطرون يجربون التحليل الكمى للأسلوب وفيما يلى نعرض لتطبيق تحليل الأسلوب فى الأدب واللغة .

اللغة والأدب : طبق تحليل المضمون فى اربعة مجالات لتمييز أنماط الأساليب ، وهذه المجالات هى :

الأول : هو اللغة كلها ، وقد أجريت دراسات مختلفة للطابع العام لطريقة الكلام فمثلا : تحليل بناء قواعد لغة معينة ، على أساس تكرار أنماط الاستخدام التى تظهر فى الكتابة والكلام .

والثانى : هو التمييز بين أنماط الأسلوب فى الفترات المختلفة . وكان هذا مركز اهتمام أحدث التطبيقات وأشملها للتحليل الكمى للأسلوب الأدبى وخاصة بالنسبة لمشكلات كلمات الشعر . وقد اعتبرت نسبة الأفعال الى الأسماء (وكذلك الصفات) دليلا على اتجاه ذى دلالة .

والثالث : هو تمييز الأسلوب بنماذج الكلام ، أى بحث طابع بعض نماذج الكلام المكتوب بطريقة التحليل الكمى . واستخدمت فى هذا الصدد نسبة الأسماء والأفعال للتمييز بين مختلف نماذج الشعر .

والرابع : وهو أكثر المجالات تخصصا ، ويهتم بالشخص المؤلف على أساس ابراز الصور السائدة فى أعماله والطريقة التى يعبر بها والتى يؤدى بها العمل أثره على متذوقه .

وفى هذا المجال تدرس مشكلتان هما : مشكلة النسبة للمؤلف التى تكون موضعا لخلاف ، ومشكلة الترتيب الزمنى لأعمال المؤلف .

وقد عولجت هاتان المشكلتان من خلال تحليل خصائص الأسلوب مثل : نوع الوزن (فى الشعر) ، والنهايات ، وحجم المفردات وطول الجملة وتركيب الكلمات .. .. الخ .

منتجو المضمون

يمكن من خلال دراسة المضمون :

١ ـ تحديد نوايا منتجى الاتصال وخصائصهم الأخرى :

كان هذا هو الاستعمال الرئيسى لتحليل المضمون .والمنطق الأساسى الذى يقوم عليه هذا الاستعمال هو : أن المضمون له كذا وكذا من الخصائص ، اذن منتجوه لديهم كذا وكذا من النوايا .

وتحليل المطابقة فى المضمون قد يؤيد الاستنتاجات حول الاشتراك فى النية .

ففى خلال الحرب العالمية الثانية أجريت تحليلا حكومية رسمية للكشف عن مدى تعاون وزارتى الدعاية الألمانية والايطالية ، ان كان ثمة تعاون ، فقيس الاتصال بين راديو برلين وراديو روما بعدة طرق مثل مقدار الالتفات لبعض الحوادث والتوقيت العام لعمل الراديو ، ومعالجة الأنباء والتعليق عليها ، وتشابه موضوعات الدعاية ونوع استخدامها ، وتوحد الاذاعة مع بعض الموضوعات . وكانت نتائج التحليل سلبية. اى انه استدل على ترجيح عدم وجود صلة عامة او نوعية مباشرة أو غير مباشرة بين وزارتى الدعاية الألمانية والايطالية ، وان كان هذا التحليل لا يثبت بشكل قاطع عدم وجود تعاون بينهما .

واثبتت المعلومات التى امكن الوصول اليها بعد احتلال المانيا صحة هذا الاستنتاج .

كذلك امكن تفسير الصور المختلفة لستالين كما عبر عنها قمة اعضاء السوفييت الأعلى فى خطب عيد ميلاده بديسمبر عام ١٩٤٩ وذلك للكشف بعض اتجاهاتهم ازاءه .

وقد كانت هناك بالفعل فروق حادة بين مفاهيم البلاشفة القدامى ومفاهيم الأعضاء الآخرين .

المتحدثون

مولوتوف ، مالنكوف ،بريا ...

شفيرنيك ، فورشيلوف ، ميكويان ، اندريوف ...

بولجانين ، كوسيجين ، كروتشتشوف ، كاجانوفتش

ستالين : تلميذ لينين أو يساويه

صورة بلشفية	صورة شعبية
٢٢	٣
٧	١٧
١	١٩

وتعد الدراسة التى قام بها الدكتور سيد عويس للوسائل التى أرسلت الى ضريح الامام الشافعى بالبريد (القاهرة ١٩٦٣) من هذا النوع الذى يحاول أن يحدد فيه الباحث خصائص منتجى المضمون ، وقد حلل الباحث ١٦٣ خطابا تحليلا كميا وكيفيا ، ثم انتهى الى تفسير الظاهرة واضعا فى الاعتبار مقومات ثقافتنا ، والعوامل التى أثرت فيها منذ حضارة الفراعنة حتى العصر الحاضر .

على أن الاستنتاجات من منتجى المضمون قد تكون غير صحيحة اذا أقيمت على أساس من تحليل المضمون فقط . ذلك أن تفسيرات الدافع تكون دائما صعبة . ولا يوجد فى عملية تحليل المضمون شىء يعصم من أخطاء التفسير . اذ قد يتفق جزء من المضمون مع أكثر من فرض عن خصائص او نوايا منتجى المضمون .

وقد حاول عدد قليل من الدراسات اقامة صلة تجريبية بين منتج المضمون والمضمون على أساس المادة وحدها ، وذلك عن طريق اختبار الاستدلالات القائمة على اساس من تحليل المضمون .

٢ ـ الكشف عن وجود دعاية (وذلك اساسا لأغراض قانونية) ، ان تحليل أساليب الدعاية شىء ، وتحليل وجود دعاية شىء آخر . وقد استخدم هذا التطبيق لتحليل المضمون وزارة الداخلية بامريكا فى بحوثها عن المنظمات

التى يظن انها هدامة وعن منشورات هذه المنظمات ، وذلك بمعونة هارولد لاسويل بوجه خاص ، والاجراء هنا بسيط ، وهو فى الواقع عبارة عن مقارنة المضمون موضوع الدراسة مع مضمون آخر معروف بموقفه العدائى الصريح ، أو فى بعض الحالات مقارنته بمعايير صريحة تستخدم للكشف عن وجود دعاية .

وقد كانت تقدم للمحاكم أثناء الحرب موازنات واضحة بين دعاية المواطن الفاشى وما يصدر عن النازيين فيما يتصل بمحاكمات التمرد ، وساهمت هذه الموازنات فى الادانات .

وفى نفس الوقت برئت كثير من الصحف ومحطات الاذاعة بناء على النتـــائج التى حصل عليها بعد التحليل الكمى للموضوعات والاذاعات ، وبذلك أمكن حمايتها من اجراء شائع هو ادانة كل اداة النشر على أساس امثلة لطريقة تناول الأنباء أو تعليق رئيس التحرير - لها لون التحيز .

وفى نفس الاتجاه قبول المحاكم لبيانات تحليل المضمون وذلك لمنع « امكانية الوقوع فى خطأ ينجم عن .. مزاعم شخصية أو ردود فعل ذاتية وتحيزات .. »

وهذا التطبيق لتحليل المضمون يقوم على عدة اختبارات يصفها لاسويل وهى :

١- المجاهرة : أو « التوحد الصريح مع احد جانبى نزاع .

٢- المطابقة : أو « مقارنة مضمون احدى القنوات بمضمون قناة معروفة للدعاية (من حيث الموضوعات) .

٣- الاتساق : أو « اتساق قناة الاتصال مع أهداف الدعاية التى أعلن عنها حزب ما ازاء موضوع الخلاف » .

٤- العرض : أو « توازن التناول المؤيد والمعارض لكل رمز لموضوع الخلاف » .

٥- المصدر : أو « الاعتماد الشديد نسبيا للمواد على احد اطراف الخلاف » .

٦- المصدر الخفى : استعمال أحد أطراف الخلاف كمصدر دون الكشف عنه .

٧- التميز : « استعمال لغة خاصة بأحد جوانب الخلاف » .

٨- التشويه : استمرار تعديل العبارات حول موضوع شائع فى اتجاه يؤيد احد جوانب الخلاف » .

٣ - تأمين المخابرات السياسية والحربية :

دفع الى استخدام تحليل المضمون فى هذا المجال - فى البداية - متطلبات الحرب العالمية الثانيـة ، فبذلت جهود علمية جادة لضمان توفر بيانات ومعلومات للمخابرات من مختلف الأنواع عن طريق دراسة مضمون الاتصال .

وقد بحث عن اجابات لأسئلة تتصل بموضوعات سياسية أو حربية حاسـمة مثل : ما هو رد الفعـل لدعايتنا لدى جمهور أعدائنا ؟ ما هى حالتهم المعنوية ؟ ما هى تقديراتهم لموقفنا الحربى ؟ ماذا ينوون أن يفعلوا بعد هذا ؟

وقد أقيمت مزاعم قوية من خلال هذا الاستخدام لتحليل المضمون فعن طريق تحليل مضمون مايظهر فى قنوات الاتصال لدى القوى المعادية يمكن أن نقيم تنبؤاتنا عن الحركة القادمة التى سيقـوم بها الممسكون بزمام السـياسة والقوة بهـذه الدول .

وقد أحرز الدارسون لأجهزة الاتصال بعض أنواع النجاح المشهود فى هـــذا الشــأن . ويروى بعض المحللين الذين كانوا يعملون بهيئة الاذاعة البريطانية أنهم كانوا ينجحون فى بعض التنبؤات من الخطط الحربية الألمانية .

كما يتضمن سـجل العمل الحكومى - بأمريكا - خلال الحرب العالمية الثانية بناء على تحليل جورج الكسندر عددا من التنبؤات الناجحة بالأعمال الحربية الكبيرة ، وربما كان أكثر التنبؤات تمثيلا هو التنبوات البريطانية بالســلاح الألمانى (   ) عام ١٩٤٣ ، حيث كان يسود فى هذا الوقت بعض الشك عما اذا كان لدى الألمان سلاح سرى واذا كان كذلك فما هو ؟ وقد قام المحللون البريطانيون بسلسلة من الاستدلالات الدقيقة ، لم يتوصلوا منها الى حيازة الألمان لسلاح فحسب بل حددوا نوعه العام وتواريخ حماسه فى تطوره واستخدامه . وكانت اسس تحليلهم هى التعميمات التى ذكرت فى الدراسـات السـابقة بان « دعاية الألمـان (فى بلدهم) تضلل الشعب الألمانى عن عمد ، فى المسائل التى تتصـل بزيادة قوة ألمانيـا « واستنتج افتراض بان « جوبلز » كان حريصا على عدم اعطاء وعد للجمهور الألمانى بالثار أو القصاص قبـل تاريخ تنفيذ الوعد بكثير (لكى لا يرتد الوهم الشعبى) .

كذلك استنتج المحللون فى مناسبات أخرى استنتاجات أخرى صحيحة بأن الألمان لم يخططوا للتحرك الى اسبانيا ومراكش الأسبانية فى مارس ١٩٤٣ ، وانهم لم يخططوا لهجوم كبير على الجبهة الروسية عام ١٩٤٣ ، وانهم خططوا للانسحاب من الجبهة الشرقية ، كما انهم لم يتوقعوا مستوى مرتفعا من النجاح لغواصات الحرب عام ١٩٤٣ .

وتمضى الأيام منـذ الحرب العالمية الثانيـة حتى الآن ، وتتزايد أهمية تحليل المضـمون . ويعتقـد بعض الخبراء المعـاصرين أن حوالى ٩٥٪ من المعلومات اللازمة لاتخـاذ القرارات السياسية والحربية الحاسمة يمكن الحصول عليا من تحليل مضمون المعلومات المتاحة غير المخظورة .

ويكفى أن نعلم أن الأجهزة الالكترونية فى البلاد الكبرى هى التى تقوم بمهمة تحليل المضمون هذه الأيام . وأن هذه الأجهزة تقـوم بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها بتحليـل مضمون حوالى ٥٠ مليون وحدة اعلامية بين كتاب وخطاب وصحيفة .. .. الخ كل شهر .

وبعد .. .. لعل ما سـبق يوضح لنا أهمية العناية بأسلوب تحليل المضمون وبملاحقة التطورات التى تطرا عليه من أجل الافادة من تطبيقاته فى المجالات المختلفة بمجتمعنا العربى .

عبد الحليم محمود السيد

نحن والعلوم الإنسانية

تأليف : د. مصطفى سويف
عرض ونقد : د. فؤاد زكريا

● إن قضية العلوم الإنسانية ينبغي أن تتلقى قوة دافعة ، لا أن تتراجع إلى الوراء ، كما ظن بعض المتسرعين ، من الأحداث المريرة التي مرت بها أمتنا منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧

في هذا الكتاب احتجاج وتحذير ، وفيه نصح وتوجيه ، لا يستهدف فئة معينة من الناس ، بل يخاطب الأمة بأسرها ، ممثلة فيمن بيدهم مقاليد الأمور في توجيه السياسة العلمية للبلاد • فهو يرسم لهم ـ بأسلوب واضح وحجة مقنعة ـ معالم طريق جديد ينبغي أن يعمل له في هذه السياسة كل حساب ، وذلك بعد أن ينتقد بتعمق وبمنطق لا سبيل الى انكاره ، أخطاء السياسة الحالية في المجال العلمي ، وفي مجال العلوم الانسانية بوجه عام •



هذا الكتاب قد يبدو لبعض العارفين أنه ينبه الى قضية لا تحتاج الى تنبيه ، وهى أن العلوم الانسانية تستحق أن تقف على قدم المساواة مع العلوم الطبيعية ، من حيث اهتمام المجتمع بها ، وتخصيصه الموارد لها ، وافادته من انجازاتها ٠ ومع ذلك فان لهجة الاحتجاج الهادىء العاقل ،الذى لا يخلو فى الوقت ذاته من مرارة ، وهى اللهجة المميزة للكتاب من بدايته الى نهايته ، لها ما يبررها ذلك لأن القضية التى لم تعد تحتاج ، فى كثير من بلاد العالم ، الى تنبيه ، ما زالت غير معترف بها اعترافا كافيا فى بلادنا ، بل ان صفحات الكتاب كلها تشهد بأن هناك كفاحا طويلا ومريرا ينتظر كل من يدعو الى الاهتمام بالعلوم الانسانية بوصفها علوما بالمعنى الصحيح ٠

ولقد كانت هزيمة ٥ يونيو من أقوى العوامل التى دعت الى اثارة هذا الموضوع فى أذهان فئات واسعة من جمهورنا المثقف ٠ ذلك لأن رد الفعل الأول ، والمباشر ، على هذه الهزيمة هو الدعوة الى مزيد من الاهتمام بالعلم الطبيعى والتكنولوجيا بوصفهما مكمن قوة العدو وموضع خطورته ٠ ولكن قليلا من التفكير المنزوى كان كفيلا بأن يقنع هذه الاذهان بأن تلك الهزيمة هى صيحة تحذير تنبهنا الى أننا ينبغى أن نفهم الانسان مثلما نحاول أن نفهم أسرار الطبيعة ، بل ان الانسان هو العامل الحاسم الذى لا ينفع بدونه علم طبيعى أو تكنولوجيا ٠ وهكذا أدرك المؤلف ، فى لمحة ذكية ، **أن قضية العلوم الانسانية ينبغى أن تتلقى قوة دافعة ـ لا أن تتراجع الى الوراء ،**

كما ظن بعض المتسرعين — من الاحداث المريرة التى مرت بها أمتنا منذ شهر يونيو عام ١٩٦٧ ٠

ولقد حدد المؤلف هدفه ودوافعه الى تأليف هذا الكتاب تحديدا واضحا ، عندما قال : « **ان كاتب هذه السطور يكتب من موقع يستطيع أن يدرك فيه مدى الاضرار والخسائر التى تصيب مجتمعنا فى صناعته وتعليمه ، وتطبيقه وتسليحه والتخطيط لمعظم مقدرات الحياة فيه نتيجة للتوانى يوما بعد يوم فى الافادة مما يمكن أن نسميه فى مجموعه بفروع التكنولوجيا البشرية ٠ وان الشعور بواجب المواطن نحو وطنه هو الدافع الاول والأخير وراء هذا الحديث كله ٠ والمفروض أن يقدم كل مواطن الى قومه الجهد والنصح فى الاتجاه الذى أتيح له فيه قدر لا بأس به من الخبرة والتخصص** » ٠ (ص ٩٣) ٠٠ وبالفعل يحس المرء طوال صفحات الكتاب بأن مؤلفه ليس كاتبا علميا فحسب ، بل هو أيضا داعية وصاحب رسالة ينبه اليها «**قومه**» لعلهم يهتدون ٠

وعلى الرغم من قدرة الاقناع الهائلة التى تنطوى عليها لغة الأرقام ، واللغة التى التجأ اليها المؤلف تأييدا للقضايا الرئيسية التى طرحها فى هذا الكتاب ، فان المرء لا يملك الا أن يشعر بأن من وراء الأرقام الجافة دعوة متحمسة كرس لها المؤلف حياته ، تستهدف تأكيد الطابع العلمى للدراسات المتعلقة بالانسان ، واقناع العقول بأن علوم الانسان — الى جانب مالها من أهمية نظرية — يمكن أن تعود على المجتمع بأعظم الفوائد على الصعيد العملى والتطبيقى ٠

والحق أن دعوة المؤلف لم تقتصر على العلوم الانسانية وحدها ، بل انه يضع أزمة العلوم الانسانية فى اطار أوسع ، هو اطار البحث العلمى بوجه عام ٠ فهو على سبيل المثال يورد الأرقام الخاصة بميزانية البحث العلمى فى كليات جامعة القاهرة ، ثم يتساءل بصدق واخلاص ، بعد أن لاحظ الضآلة الشديدة لهذه الأرقام : « **هذه المبالغ ٠٠ تكفل للجامعة مساندة البحث العلمى فى رحابها ؟ ٠٠ ثم أليس هذا الوضع جزءا من حقيقة تقوم هكذا عارية وراء ظاهرة نعترف بها ونأسف لها ، وهى ضعف معظم البحوث التى تجرى داخل جامعاتنا ؟ أليس الكشف عن هذه الحقيقة وأمثالها جزءا جوهريا من مهمة الكتاب الذين ينعون على جامعاتنا ضعفها ويتحدثون كثيرا على أننا ليس لدينا مدارس علمية وليس لدينا بحوث لها قيمة علمية ؟** » (ص ٤٧) وهكذا يطرح المؤلف قضية البحث العلمى فى أعم صورها كما تتمثل فى ميزانيات البحث العلمى فى الجامعات ويطالبنا بأن نبحث لظاهرة تأخر الابحاث العلمية عندنا عن تعليل اجتماعى حقيقى ، لا أن نكتفى بأن نردد ، بطريقة انهزامية ، أننا عاجزون عن الابتكار فى العلم ، فتغيب عن أنظارنا الأسباب الحقيقية لهذه الظاهرة من جهة ، ويغمرنا احساس باليأس والعجز عن الاتيان بأى جديد ٠

واذا كانت ميزانيات البحث العلمى فى الجامعات سواء فى كلياتها العملية أم النظرية ، ضئيلة الى حد مؤسف ، فان نسبة توزيع هذه المبالغ الضئيلة ذاتها بين الكليات المتخصصة فى العلوم الطبيعية وتلك المتخصصة فى العلوم الانسانية ، تكشف بدورها عن حقيقة صارخة ، هى أننا ، كما يؤكد المؤلف (ص ٧٧) لسنا مهيئين بعد للافادة من تطبيقات العلوم الانسانية ، والانتفاع منها فى حياتنا على الوجه الاكمل ٠ والى هذه النتيجة ذاتها ننتهى عندما نستعرض الوضع القائم فى أجهزة الدولة المختلفة ، التى تتولى مهمة تطبيق العلوم الانسانية عمليا ، **ولا تكتفى بأعمال البحث العلمى فى هذا الميدان ٠**

وفى مقابل هذا القصور الشديد فى الانتفاع من تطبيقات العلوم الانسانية ، يثبت المؤلف ، فى أجزاء الكتاب الاولى ، أن لهذه العلوم مقدرة تطبيقية هائلة ، وأنها ألزم ما تكون لمجتمعنا فى المرحلة الحالية من تاريخه ٠ فهنا تغير اجتماعى عظيم الاهمية يطرأ على حياتنا فى الاونة الراهنة ، وتتمثل فى توسع كبير فى التصنيع ، يستتبع الاهتمام بالانسان ، لا بالآلة وحدها ، لأن الانتاج فى نهاية الأمر ، انما يتم على يد الانسان ٠ كما يتمثل هذا التغير فى اتساع نطاق التعليم ، وما يؤدى اليه من ضرورة اهتمام بالصحة النفسية للأعداد الهائلة من تلاميذ المدارس ، وكذلك فى الهجرة من الريف الى المدينة ، والمشكلات التى تؤدى اليها الحياة فى المدن ، وغير ذلك من المجالات العديدة التى تستطيع العلوم الانسانية ، اذا ما وجهت اليها العناية الكافية ، أن تقوم فيها بدور عظيم الاهمية ٠ **بل ان تطبيقات العلوم الانسانية يمكن أن تمتد لتشمل معالجة مشكلات البحث العلمى ذاته ، او على الاصح أسباب ضعف روح البحث العلمى ، وكذلك مشكلات التأهيل للجيش وزيادة كفاءة المحاربين ٠**

في كل هذه الميادين يؤكد المؤلف – عن حق – اننا لم نتتفع من المزايا التطبيقية للعلوم الانسانية الا انتفاعا ضئيلا ، مع أن التطبيقات القليلة التي أجريت قد أثبتت الفائدة العملية المحققة التي يمكن أن تعود على المجتمع اذا وجه الى هذه العلوم العناية اللازمة ٠

والمشكلة ، في نظر المؤلف ، لا ترجع فقط الى ضآلة الاعتمادات المالية المخصصة لهذا النوع من الأبحاث ، بل ان هذه الضآلة ذاتها هي على الارجح مظهر خارجي ، أو نتيجة ، لشيء أعمق ، هو نظرة قطاع كبير من المسئولين عن توجيه السياسة العلمية ، وعن تخصيص الاموال للفروع المختلفة في هذا الميدان ، الى العلوم الانسانية ٠ وهذه النظرة هي التي يستهدف الكتاب تغييرها ، واقناع أصحابها بالخطأ الذي يقعون فيه عندما يستهينون بعلوم أصبحت تكون جزءا لا يتجزأ من مقومات التقدم وعوامل الارتقاء في العالم بأكمله ٠ فالكتاب اذن موجه ضد حالة ذهنية معينة ، ترجع جذورها الى نوع من الجمود العقلي الذي يجعل كثيرا من الناس عاجزين عن أن يتجاوزوا في تفكيرهم تلك المرحلة التي كانت فيها العلوم الانسانية لا تزال شيئا مشكوكا فيه ،وكان امكان تطبيقها العملي لا يزال فيها أمرا غير مؤكد ٠

على أن من أوضح مزايا هذا الكتاب أنه لا يكتفي ببيان أوجه القصور في هذه الحالة الذهنية التي تستخف بالعلوم الانسانية ، ولا يكتفي بتقديم الحجج القاطعة التي تثبت فداحة هذا الخطأ ، بل انه يقدم حلولا ايجابية يحدد بها معالم الطريق الذي ينبغي سلوكه لكي نعطي هذه العلوم حقها ، ونفيد من العائد الضخم الذي يمكن أن تعود به على حياتنا لو أحسنا استخدامها ٠ **وقد لا يتفق البعض مع المؤلف في تفاصيل مقترحاته الايجابية التي يهدف بها الى اصلاح هذا الوضع ، ولكن أحدا لن يستطيع أن ينكر أن المؤلف لم يسلك مسلك الناقدين الذين يكتفون بابداء الحسرة واشعار الآخرين باليأس ، بل يرسم طريقا ايجابيا لحلول لا شك في أن كثيرا منها جدير بأن يلقى من المسئولين كل اهتمام ٠**

＊＊＊

ان من مزايا الكتب الجيدة أن تثير في ذهن القارىء كثيرا من القضايا والمشكلات ٠ وعلى الرغم من أن هذا الكتاب انما هو اعادة تدوين موسعة لبعض المقالات التي نشرت في مجلة « الكاتب » في أواخر عام ١٩٦٧ وأوائل ١٩٦٨ ، فانه يحمل في ذاته كل مزايا الكتاب المثير للفكر ٠ وفي اعتقادي أنني سأكون قد أسهمت بنصيب في تنبيه الاذهان الى أهمية القضايا التي يثيرها هذا الكتاب اذا ما عرضت بعضا من الافكار التي جالت بخاطري خلال قراءتي له ، وهي أفكار قد لا أكون متفقا فيها مع وجهة نظر المؤلف ، ولكني أشترك معه – على الأقل – في الهدف النهائي الذي يرمي الى بلوغه ، **وهو اعطاء الانسانيات حقها في مجتمع ما زال الى حد بعيد ، غير معترف بهذا الحق ٠**

١ – أولى الملاحظات التي استلفتت انتباهي هي **التأكيد الدائم والمستمر للجوانب التطبيقية في العلوم الانسانية ، على أساس أن هذه الجوانب هي التي ينبغي أن تكون مبررا لاهتمامنا بهذه العلوم ٠** فمن المشكوك فيه الى حد بعيد أن يعمد عالم الطبيعة ، في محاولته تبرير العلم الذي يشتغل به ، الى تأكيد فائدة هذا العلم في اختراع الراديو والتليفزيون ، أو أن ينبه عالم الكيمياء ،من أجل اقناع الناس بأن علمه مفيد ، الى دوره في صناعة الاغذية المحفوظة أو تكرير البترول ٠ صحيح أن هذه كلها فوائد محققة لهذه العلوم ٠ وبعضها أحدث انقلابا في حياة الانسان ، ولكن تبرير العلوم على أساس مزاياها التطبيقية وحدها غير كاف ، ومن الضروري أن يكون الفهم النظري للظواهر التي تبحثها هذه العلوم ، والسعي الى كشف القوانين المتحكمة فيها ، واحدا (على الأقل) من الأسباب التي تقدم لتبرير الاهتمام بدراسة أي علم ٠

وأنا أدرك أن هذه الملاحظة يمكن ان يوجه اليها ردان :

(أ) الرد الأول هو **أن العلوم الطبيعية لم تعد في حاجة الى تبرير ، وأنها علوم بلغت من الاستقرار حدا يتيح لأصحابها أن يدافعوا عنها على أساس قيمتها النظرية وحدها ، أما العلوم الانسانية فما زالت في حاجة الى كفاح من أجل اثبات وجودها ، وما زالت مضطرة ، خلال هذا الكفاح ، الى الارتكاز على التطبيقات العملية التي يمكنها أن تقوم بها ٠**

(ب) والرد الثاني **أن الكتاب يخاطب مجتمعا**



يحتاج الى منطق خاص لاقناعه بجدوى العلوم الانسانية ، هو منطق المنفعة العملية ، وذلك ، من جهة ، لحداثة عهد هذا المجتمع بتلك العلوم ، ولأنه ، من جهة أخرى ، ما زال فى مرحلة من مراحل النمو الاقتصادى لا يملك فيها أن ينفق من موارده الا على أوجه النشاط التى يستطيع أن يكون على ثقة من أنها ستعود عليه بنفع عملى ٠

هذان ، دون شك ، مبرران ربما كانا فى الخلفية الذهنية للمؤلف عندما اقتصر على تبرير العلوم الانسانية على أساس فوائدها التطبيقية ، ومع ذلك فيبدو لى أن الموضوع كان يحتاج الى اشارة ، على الاقل ، الى ما للفهم النظرى للانسان من قيمة فى ذاته ، بغض النظر عن تطبيقاته العملية ، حتى لا يظن القارىء أن كل قيمة هذه العلوم تنحصر فى تطبيقاتها ، أو يتوهم أن فهم السلوك الانسانى فهما علميا ليس فى ذاته هدفا جديرا بالسعى اليه ٠

***

٢ ـ يحدد المؤلف القضية الأساسية التى يدافع عنها بقوله « **نحن نبنى مجتمعنا ، ونحدد له مكانه فى المجتمع الحديث ، فى عالم يعتمد أساسا على العلم كمنهج ٠ وهذا المنهج العلمى كما يقوم أمامنا فى القرن العشرين ، وفى النصف الثانى منه بوجه خاص ، يتناول الآلة كما يتناول الانسان** (الانسان كسلوك لا كأنسجة وأعضاء فحسب)، **لذلك يجب علينا أن نعنى بالانسان والآلة معا ، وبأنواع التعليم التى تؤدى الى مزيد من المعرفة بخصائص كل منها ٠٠ » (ص ٧)** ٠

وبناء على هذا التحديد يصل الى تعريف متسق معه للعلوم الانسانية هو أنها « مجموعة الدراسات التى تستخدم المنهج العلمى فى دراسة مظاهر النشاط المختلفة التى تصدر عن الانسان كفرد وكجماعة أو مجتمع ٠ وهى بهذا تضم مجموعة فروع علم النفس (أى علم سلوك الافراد ،وفروع علم الاجتماع ، وعلم الحضارات ، والاقتصاد ، وبعض فروع من دراسات اللغة والتاريخ والقانون » (ص ٨) ٠

ومن الانصاف أن أقول ان الكتاب قد التزم هذا التحديد لقضيته الاساسية ، وللمعنى الذى وضعه للعلوم الانسانية ، وأن المعالجة كانت متسقة منذ البداية الى النهاية ، بحيث لا يملك المرء الا أن يعترف بأن المؤلف حدد لنفسه نطاقا معينا ، وعالج المشكلة بنجاح فى حدود هذا النطاق الذى وضعه لنفسه ٠

ولكن السؤال المهم فى رأيى هو : **ما مدى مشروعية هذا النطاق ؟** ألا توجد ميادين أخرى تنتمى الى مجال الدراسات الانسانية لم يتعرض لها المؤلف أصلا ؟ هذا السؤال يتعلق بما لم يتضمنه الكتاب ٠ وأنا أسلم بأنه ليس من المشروع منهجيا أن يحاسب المرء كتابا على ما لم يتضمنه ، بل ان ما يجوز عمله هو محاسبته على ما تضمنه فعلا ، لا سيما اذا كان قد حدد لنفسه منذ البدء مجالا وظل ملتزما اياه حتى النهاية ٠

ومع ذلك فان المرء لا يجد مفرا من التساؤل

عن مدى صحة هذا التحديد حين يجد المؤلف فى الصفحات الاولى من الكتاب (٤ ــ ٦) انه يقف مدافعا عن الدراسات النظرية بأكملهـــا ، او الدراسات الأدبية ، ويهاجم الرأى القائل بأن **«الآداب ترف ذهنى »** • مثل هذا الموقف يوحى بأن الحديث سوف ينصب على كل الدراســات الانسانية ، ولكن سرعان ما يكتشف القارىء أن ما يدافع عنه المؤلف حقيقة ليس سوى الدراسات الانسانية التى استطاعت أن تتخذ لنفسهــا منهج العلم •

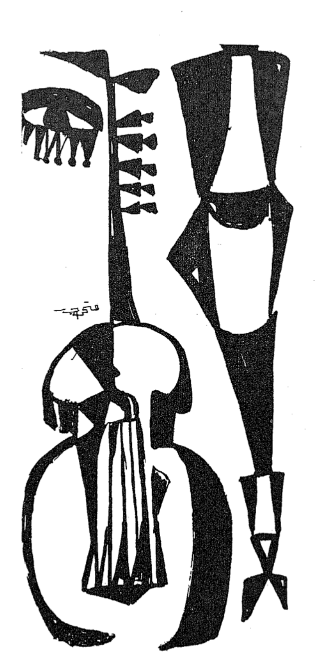
فما الذى يؤدى اليه هذا التحديد ؟ من الواضح أنه يؤدى الى استبعاد قدر كبير من الدراســات الانسانية ، سواء منها تلك التى لم تستطع ، بعد أن تستخدم المنهج العلمى ، أو تلك التىلاتحاول أصلا أن تستخدمه • ومعنى ذلك أن الأدبوالنقد والفلسفة ــ على سبيل المثال ــ قد استبعدوا من نطاق الدراسات الانسانية التى يقف المؤلف موقف الدفاع عنها • وبعبارة أخرى فان الكتاب لا يحدد مصير هذا النوع من الدراسات ، التى هىانسانية حقا (بل هى انسانية « جدا » فى رأى الكثيرين، وربما كانت فى نظر البعض هى «الانسانية » بالمعنى الصحيح ، ولكنهـــا مع ذلك ليست منهجيـــة علمية • فمـــاذا نفعل بهـــا اذن ؟ وما مركزهـــا فى البرنامج الذى يقترحـه المؤلف للنهوض بالعـــلوم عامة ، وبالعـــلوم الانسانية خاصة ؟ هذه أسئلة لا نستطيع أن نجد لها فى الكتاب جوابا •

وأخشى أن أقول ان الاجابة التى نستطيع ان نستنتجها منه ، ضمنيا ، هى أن الدراســـات الأدبية والفلسفية تستحق أن تسـمى « **دراسات نظرية** » ، ومن ثم فهى خارجة عن نطاق ما يدافع عنه الكتاب • فمن ذا الذى يدافع عنها اذن ؟أيحق لنا أن نتركها بلا كلمة تقال فى صفها ، ولسان حالنا يقول : « **أما الدراسات النظرية غير العلمية فلها رب يحميها** » !

ان الدفاع عن بعض الدراسات الانســانية على أساس أنها استطاعت أن تصبح علمية ،ومن ثم فهى جديرة بنفس الاهتمام الذى نبديه بالعلوم البحتة • هذا الدفاع ينطوى فى واقع الامر عـلى تسليم لا شعورى بموقف خصوم الدراســات الانسانية • ولكى أوضح وجهة نظرى ، أود من القارىء أن يتأمل مليا هذا الاقتباس : « ان أى حديث عن العلوم الانسانية تحت عنوان«اندر سات النظرية » ("كأنما هى قطب مقابل للدراســات التجريبية) ينطوى على خطأ فاضح •• والواقع أن العلوم الانسانية (وخاصة جميع فروع عـلم النفس وبعض فروع علم الاجتماع) دراســات تجريبية بكل ما لهذه الكلمة من معنى محـدد فى تاريخ العلوم • والفرق الرئيسى بينها وبين العلوم الطبيعية والبيولوجية فرق فى درجـــة التقدم •• وليس فرقـــا فى أن الدراســـات الانسانية تأمليـــة ولا يمكن أن تكون الا كذلك بينما علوم الطبيعة والبيولوجيا علوم تجريبيـــة فهذا غير صحيح » • (ص ٩) •

فلنترك جانبا ما جاء فى هذا الاقتباس من أن « **جميع** » فروع علم النفس تجريبية (وهـــو رأى قد لا يوافق عليه « جميع » المشتغلين بعـلم النفس) ، ولنحاول أن نستخلص دلالة النص فى مجموعه • انه « يبرىء » الدراسات الانسانية من تهمة « التأملية » ، وهـــذا ينطوى على حكم ضمنى هو : اذا أصرت بعض الدراسات الانسانية على أن تظل تأملية ، فهى تستحق مصيرهـــا وهى غير جديرة بأن يعطف عليها أحد •

وبعبارة أخرى ، فان جواز المرور الى الجنـــة بالنسبة الى أية دراسة انسانية ، هـــو أن تكون قادرة على اتخاذ المنهج العلمى ، أما اذا عجزت عن ذلك ، فمآلها الى جهنم وبئس المصـير • ولكن ، أليس فى هـــذا تسليم ضمنى بموقف خصــوم الدراسات الانسانية ؟ ان هؤلاء الأخيرون يرون أن العلم ، أو بعبارة أخرى الدراسات التى تستطيع اتخاذ المنهج العلمى ، هو وحدة الجدير برعـــاية الدولة • وها هو ذا المؤلف يوافق على رأيهـــم هذا موافقة ضمنية ، ولكن مع تحفظ واحد : هو أن المنهج العلمى قابل للتطبيق على بعض فروع الدراسات الانسانية بدورها • وبعبارة أخـرى فالمبدأ العام الذى يرتكز عليه خصوم الدراسات الانسانية هو ذاته الذى يرتكز عليه المؤلف ،وهو أنه لا شىء جدير بالاهتمام والرعاية سوى العلم وسوى الدراسات التى تطبق المنهج العلمى ، وكل الخلاف بينه هؤلاء الخصـوم ينحصر فى المـــدى الذى ينطبق عليه لفظ « العلم » : وهل هـــو الطبيعة وحدها،أم الطبيعة وبعض جوانب الانسان ايضا • فالمسألة كلها مسألة تضييق أو توسيع



لمعنى العلم ، أما مبدأ قصر اهتمام الدولة على العلم وحده فلا خلاف عليه ٠

والآن ، لعل قارئنا يسألنى : **وما الضرر فى هذا ؟ فيم اعتراضك على أن تكون الدراسات الانسانية علما ؟ أليس هذا أفضل من التخبط الذىأوقعتها فيه الأساليب والطرق التأملية ؟** وردى على هذا الاعتراض هو أننى أول من يرحب بدخول أكبر قدر من الدراسات فى حظيرة المنهج العلمى ٠ ولكن المشكلة هى أن هناك بالفعل دراسات انسانية هامة ، بل عظيمة الاهمية ، لا تستطيع ذلك ، ولا يمكنها أن تأمل فى المستقبل القريب **(ولا فى المستقبل البعيد ، حسب رأى الكثيرين)** فى أن تصبح علمية ، فماذا نحن بها فاعلون ؟ هذا مالا يجيبنا عنه الكتاب ٠

ولعل الاعتراض الذى أثيره يكتسب مزيدا من القوة اذا أدركنا أن القضية الحقيقية للدراسات الانسانية ، فى نظرالكثيرين ،انما هى بعينها قضية تلك الدراسات التى لا تستطيع بطبيعتها أن تكون علوما ، أما تلك التى تقترب ــ أو تحاول أن تقترب ــ من المنهج العلمى ، فأمرها هين ان المشكلة الكبرى التى تواجهها الانسانيات فى عالمنا الراهن ، هى البحث عن مكان للأداب ، وللفلسفة ، وللدراسات « التأملية » فى عالم يحرز فيه العلم انتصارات ساحقة ٠ هذه هى القضية الكبرى التى تشغل بالفعل بال الحريصين على الدراسات الانسانية ــ وهى القضية التى لم يتعرض لها الكتاب أصلا وحين يجد المرء فىالكتاب دعوة الى ازالة التفرقة بين الشعبتين العلمية والادبية فى التعليم الثانوى ، على أساس أن « **هذه الثنائية كانت معاصرة لمستوى المعرفة حتى أواخر القرن التاسع عشر ، أما الآن فقد أصبحت متخلفة تماما ن تقدم المعارف فى العصر الحديث بل وأصبحت معوقة للنمو العقلى السليم لشبابنا، لأن امتدادات المنهج العلمى التجريبى الى معظم الدراسات الانسانية** « **حطمت الحاجز الذى كان قائما بين الشعبتين** ٠٠ » (ص ١١٧) ــ حين يجد المرء فى الكتاب دعوة كهذه ، قائمة على اساس مثل هذا التبرير ، فلا مفر من أن يتملكه شعور بالخوف من أن تكون القضية الحقيقية التى أشرنا اليها ضئيلة الشأن فى نظر المؤلف ،الذى ينكر أحقية الأداب البحتة فى أن تقف الى جانب العلوم ، وذلك حتى لا تكون هناك ثنائية «**معوقة للنمو العقلى** » السليم لشبابنا » ٠

ان كثيرا من العلوم الانسانية كانت حتى عهد قريب علوما تأملية فى الاغلب ، وحين طبقت فى بعضها المناهج التجريبية ، وأحرزت فى أحيان غير قليلة نجاحا ملحوظا ، حدث على ما يبدو نوع من التطرف فى الاتجاه المضاد ، أعنى اتجاه التبرؤ من الأصل التأملي · والمسألة هنا أشبه ما تكون بتلك الظاهرة المألوفة فىميدان الدراسات الاجتماعية : حين نجد أشد الناس تأكيدا للفوارق بين الطبقات العليا والدنيا هم أولئك الذين خرجوا حديثا من صفوف الطبقات الدنيا وانضموا الى الطبقات العليا · وأخشى أن أقول ان التبرؤ المتطرف من تهمة « **التأملية** » عند أنصار العلوم الانسانية التجريبية هو شيء من هذا القبيل · ومما يؤيد حدسى فى هذا الشأن أن الشأن أن كثيرا من المشتغلين بالعلوم الطبيعية ذاتها يبدون ـ على عكس المتوقع ـ اهتماما كبيرا بالدراسات الانسانية « **التأملية** » ، ويدعون الى رعايتها والى احداث توازن بينها وبين العلوم الطبيعية ـ تماما كما نجد أفراد الطبقات العليا العريقين (فى المثال السابق) أقل حرصا على تأكيد الفوارق الطبقية من أولئك الذين ارتقوا اليها حديثا ·

وانى لأتساءل : **هب أن المسئولين عن وضع السياسة العلمية العليا فى بلادنا قد قرأوا هذا الكتاب ، وتأثروا بحججه ، وأخذوا يطبقونها فعلا فاهتموا بالدراسات الانسانية التى أقنعتهم بأنها علمية فعلا ، ثم ألقوا بالباقى الذى لم يستطع أن يثبت علميته (كما فعل « هيوم » مع القضايا التى لم يمكن تحقيقها تجريبيا) فى النار ·· فأى رد يمكن أن يوجه اليهم ، فى حدود الموقف الذى اتخذه الكتاب ؟ أيستطيع أحد أن يمنعهم من أن يقولوا ان ما فعلوه لم يكن الا تلبية لدعوة هذا الكتاب ؟**

* * *

ولو نظرنا الى الأمر من الناحية التطبيقية ، لوجدنا أن كل المزايا التطبيقية التى يوردها الكتاب للعلوم الانسانية انما هى فى واقع الامر فوائد تقدمها العلوم الانسانية بوصفها «**خادمة**» للتكنولوجيا (أنظر الفصل الثانى كله) · ومن المؤكد أن التسمية التى ترددت طوال صفحات الكتاب ، أعنى تسمية العلوم الانسانية ، باسم « **التكنولوجيا البشرية** » ، لها فى هذا الصدد دلالة بالغة ·

ومرة أخرى أقول ان مثل هذا الموقف ينطوى ضمنا على التسليم برأى خصوم الدراسات الانسانية ، وهو أن التكنولوجيا هى وحدها الجديرة بالعناية ، وكل ما فى الأمر أن الكتاب يريد أن ينبه الى أن معنى التكنولوجيا يجب أن يتسع بحيث يشمل تطبيقات العلوم الانسانية بدورها ، لا تطبيقات العلوم الطبيعية وحدها · وهنا أعود الى التساؤل : **هل تنحصر رسالة الدراسات الانسانية حقا فى أن تخدم التكنولوجيا وتعمل على زيادة فعاليتها وكفاءتها ؟ أليس من واجبنا ، أيضا ، أن نهتم بالدراسات الانسانية من حيث هى قوة تقف فى مقابل التكنولوجيا ، وتكبح جماحها ، وتحقق فى الانسان توازنا بين الجانب المادى والجانب المعنوى من حياته ؟**

ان القضية الكبرى للعلوم الانسانية فى عالم اليوم لا تنحصر فى كونها قد أصبحت علوما أم لم تصبح ، بل فى الوظيفة التى تستطيع أنتقوم بها فى عالم متخم بالعلم والتكنولوجيا · وهناك كثيرون يطالبون بالمحافظة على توازن الانسان عن طريق ابداء مزيد من الاهتمام بالشعر ، والأدب ، والفلسفة ، والدراسات « التأملية » التى لا يمكن أن تصبح علوما ، ولا تطمع فى ذلك · هؤلاء لا ينكرون أن الانسان يمكن أن يدرس فى فروع معينة دراسة علمية ، ولكنهم فى الوقت ذاته يؤكدون أن الانسانية فى حاجة الى الاحتفاظ بتلك الفروع الأدبيةوالفنية التى لا تكتملانسانية الا بها · والمشكلة فى نظرهم هى فى كيفية الحفاظ على هذه المعارف الانسانية « التأملية » ازاء طوفان الروح العلمية التجريبية الجارف ·

مجمل القول اننى أعترف بالقضية الرئيسية التى أثارها المؤلف اعترافا كاملا ، وأسلم بحججه المقنعة التى أراد فيها أن يكون للدراسات الانسانية مزيد من اهتمام مجتمعنا ، ولكنى أعتقد أن للمشكلة وجها آخر ، لا يقل عن ذلك أهمية ، لم يتعرض له ذلك الكتاب الذى دافع بصدق واخلاص عن العلوم الانسانية ، ولكنه ـ للأسف ـ تذكر أنها « علوم » أكثر مما تذكر أنها « انسانية » ·

فؤاد زكريا

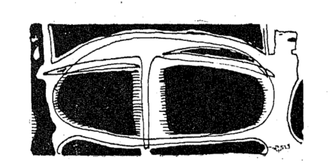
لقد كان الطب النفسي في مصر - ولا يزال - مرتعا خصبا للكثيرين ممن تدفعهم دوافع مختلفة للتصدي لعلاج الأمراض النفسية ، فامتلأ الحقل بعدد من غير المؤهلين أو بمؤهلين ليس لديهم الموقف العلمي المتكامل الذي يحتم عليهم نبذ الخرافة وأساليب الدجل . بل ما زال بعض الاطباء يعالجون مرضاهم بأساليب الشعوذة والخرافة أو بالاعتماد على أولياء الله الصالحين والأحجبة والتعاويذ أو بأسداء النصح والارشاد حيث لا ينفع نصح ولا ارشاد . كما ان بعض الحاصلين على درجة الدكتوراه في علم النفس الذين أصبح من حقهم بحكم القانون مزاولة العلاج النفسي يمارسون هذا العلاج وهم في الحقيقة غير صالحين من أوجه كثيرة للقيام بهذه المهمة .

الطبّ النفسى المعاصر

تأليف : د . أحمد عكاشه
تحليل : لطفى فطيم

ويتيح لنا كتاب الدكتور أحمد عكاشة فرصة التأمل فيما أحرزه العلم من تقدم فى مواجهة أخطر ما يمكن أن يلم بانسان الا وهو المرض العقلى .

والمؤلف عندما يكتب فى الطب النفسى والعقلى فانه يكتب عن دراسة علمية متعمقة وخبرة عملية ذات بصيرة نفاذة . فقد نشر الى جانب مؤلفاته ، ما يزيد على خمسة عشر بحثا تطبيقيا على البيئة المصرية ونتائج تجاربه فيها فى مجلة الطب العقلى البريطانية ومجلة الطب العقلى والعصبى المصرية والمجلة الطبية لجامعة عين شمس . وتتميز بحوثه بالنظرة الثقافية الواسعة والربط ما بين مشاكل البيئة وأساليب البحث والعلاج الحديثة . ولعل أطرف بحوثه ما نشره فى مجلة الطب العقلى البريطانية عام ١٩٦٦ عن « الزار » فى مصر .



ويرجع اهتمامنا بمناقشة الكتاب الحالى الى أن المؤلف له جهد دؤوب فى اثراء المكتبة العربية بمؤلفات جادة فى مجال تخصصه تسمح لنا باستخلاص موقفه النظرى والعملى ومناقشته مناقشة علمية خلافا لغيره ممن يكتبون فى هذا المجال • سوف نعرض له من خلال اجابته على ثلاث قضايا رئيسية هى : (١) ايمان المؤلف بالمنهج العلمى (٢) العلاقة بين علم النفس والطب العقلى (٣) تأثير المجتمع فى الأمراض النفسية •

مشاكل العقل فى العصر الحديث

١ ـ لا ترجع أهمية الكتاب الى كونه أول مرجع علمى جاد بالعربية فى هذا المجال فحسب وانما الى كونه أيضا كتاب « معاصر » يتناول مشاكل العقل فى العصر الحديث وأحدث التفسيرات والنظريات وأساليب العلاج والنظر الى مشاكل مرض العقل فى مصر من خلال ذلك • ويتخذ المؤلف موقفا علميا واضحا منذ البداية فهويستخدم تعبير الطب النفسى مرادفا للتعبير الانجليزى Pcychiatry وهو ما يعرف عادة بالطب العقلى • فالطب العقلى عنده هو الطب النفسى والعقلى معا ، وهو بذلك لا يفرق بين ما هو نفسى وما هو عقلى معتبرا أن ظواهر النفس والعقل وأعراض اعتلالها أى ما يعرف بالامراض النفسية والعقلية نابعة من المخ وأن الطب النفسى قائم على أسس فسيولوجية وكيميائية فى الجهاز العصبى ، وأن قشرة المخ هو مركز جميع المنعكسات الشرطية • التى هى نواة تكوين الشخصية • (ص ٣) •

ويتفق هذا الموقف مع وجهة النظر المادية التى ترى أن كافة الاضطرابات العقلية ترجع الى اعتلال فى المخ ، كما ترجع اختلافات السلوك عند الافراد الى الاختلافات فى قيام المخ بوظائفه وبالتالى الى اختلافات مادية موضوعية بين امخاخ الافراد • كما يتفق أيضا مع وجهة النظر التى سادت مؤتمر « دراسات المخ وسلوك الانسان » الذى عقدباريس فى العام الماضى تحت اشراف اليونسكو وهيئة الايبرو » Ibro وهى هيئة دولية لبحوث المخ أنشئت فى عام ١٩٦٠ بتوجيه من اليونسكو • ففى ذلك المؤتمر الذى حضره ٧٨ عالما يمثلون مختلف التخصصات منهم ستة حائزون لجائزة نوبل ، والذى كان هدفه القاء الضوء على الوضع الراهن لمعلومات الانسان عن المخ والعلاقة بين هذا المجال من البحث ومختلف مجالات البحث الاخرى كان المنطلق الاساسى للبحث هو أن النشاط النفسى والعقلى ليس الا شكلا من أشكال النشاط العصبى للمخ •

على ان وجهة النظر هذه تعرضت للكثير من الهجوم والنقد وعدم الايمان خلال فترة طويلة من الزمان ولا يزال الكثير من العلماء يقفون من تفسير هذه النظرية للانسان ولسلوكه موقفا غير محدد بل ويعتبرونها قيدا على تفسير الانسان • ولكن النظرة المادية الجدلية مع ايمانها بأن التفسير العلمى لنشاط المخ يجب أن يكون ماديا وحتميا ، الا أن الحتمية عندها ليست حتمية ميكانيكية تنقل دون تعديل قوانين مستوى ما من الاداء الوظيفى للمادة الى مستوى أعلى وبتعبير آخر لايمكن لقوانين سلوك الحيوان مثلا أن تطبق على سلوك الانسان فالنظرة المادية الجدلية تعترف لكل مستوى بقوانينه الخاصة وتقر بأنه مع كل تطور للكائن العضوى تظهر ميكانيزمات لم تكن موجودة حتى تلك اللحظة ـ أى حتى لحظة ظهورها • وترجع اختلافات السلوك لدى الافراد الى الاختلافات فى قيام المخ بوظائفه وبالتالى الى اختلافات مادية موضوعية بين أمخاخ الافراد • ومن الواضح أنه لا يمكن تصور الوظيفة دون سندها المادى وبالتالى فان مفهوم المخ والوظيفة يجب جمعها فى تعبير واحد هو المخ الشغال Functioning brain ، وهو الواقع الموضوعى الوحيد الذى يجب بحثه • ولكن هل يعنى هذا أننا نستطيع فيما بعد أن ننسب ذكاء الفرد مثلا الى وزن مخه أو عدد النيورونات الموجودة لديه ؟ لقد أجاب ماديو القرن التاسع عشر على هذا السؤال بالايجاب • فقد كانوا يعتقدون فى امكان وجود فهم وتفسير شاملين للحقيقة الكلية وبالتالى فلا يوجد فى النفس الا نشاط عصبى يمكن تحليله وفهمه بالطرق العلمية المعروفة والمحورة لتناسب ذلك المجال من البحث • آلا أن المادية الجدلية استبدلت بتلك الفكرة التى تفترض طبيعة نهائية للمادة فكرة أكثر ديالكتيكية وهى الطبيعة اللانهائية للمادة، أى وجود المادة فى أشكال لا نهائية وبصفات لا نهائية أيضا • فلا يمكن اكتشاف المادة فى كليتها لأنها مع كل مستوى جديد من التقدم تقدم أشكالا جديدة لم تكن موجودة • فالقشرة المخية التى يبلغ عدد نيوروناتها من ١٢ الى ٢٠ مليار وتبلغ عدد الوصلات العصبية المتصلة بها رقما خياليا لا يمكن الا أن تكون لا محدودة ولا نهائية مثلها مثل الزمان والمكان •

بين علم النفس والطب العقلى

٢ ـ وتنقلنا هذه المقدمة الى القضية الثانية وهى العلاقة بين علم النفس والطب العقلى ،فمن الواضح أن هناك علاقة وثيقة بينهما • فالكثير من النظريات المفسرة للسلوك الانسانى فى سوائه وشذوذه

قدمها علماء النفس ، ولعل أشهرها نظرية التحليل النفسي التي ابتكرها سيجموند فرويد • ولذلك كان من الضروري للمؤلف وخصوصا عند تعرضه للأمراض النفسية المسماة بالعصابية neurosis **وهي التي لا يمكن ارجاعها الى « اختلال في المخ » أن يتخذ موقفا من النظريات النفسية المختلفة المفسرة لهذه الامراض • وقد اتخذ موقفا وسطا اذ يقسم هذه النظريات الى فئتين مجموعة النظريات التكوينية التي تعتمد على العوامل البيولوجية الوراثية ، ومجموعة النظريات البيئية • فيقول « ولا داعي للتحيز لاحدى هاتين النظريتين » •• « فان الرؤية ما زالت غير واضحة بالنسبة للأسباب الرئيسية للأمراض العصابية » •• « وعلينا الاستفادة منهما معا ، فتكون أسباب أمراض العصاب هي تفاعل العوامل التكوينية والبيئية » (ص ٢٣) •**

ولا شك أن للمؤلف العذر في هذا الموقف الذي لا يحتم ارجاع الامراض العصابية الى « اعتلال في المخ » لهذه المجموعة من الامراض « لم تحظ بنفس درجة التقدم التي وصلت اليها الامراض الذهانية من ناحية العلاج الكميائي والفسيولوجي والكهربائي » •• « •• ولا مانع من الاعتراف بعجز الطب الحالي عن استئصال المرض نهائيا » (ص ١٣٢ ، ١٣٣) •

والحقيقة أن الامراض العصابية كانت ولاتزال حكرا لمدارس علم النفس التي فسرتها وقدمت وسائل لعلاجها ، وأشهر هذه المدارس هي مدرسة التحليل النفسي التي يقول عنها المؤلف (ص٣) « **وقد أسدى فرويد خدمات جليلة للطب النفسي ، ووضع أسسا لتفسير الأمراض النفسية والعقلية بعد أن كانت في متاهات لانهائية ، وأصبح التحليل النفسي أحد وسائل العلاج النفسي الملائمة لفئة منتقاة نادرة من المرضى » • ولا يغفل المؤلف** بقية المدارس الاخرى التي قدمت تفسيرات مخالفة لتفسير فرويد وأسلوب مختلفا للعلاج وأهمها مدرسة العلاج الشرطي أو ما يسمى بالعلاج السلوكي وهي التي ابتكرها العالم الروسي بافلوف وطورها أيزنك وفولب بعد ذلك •

أسلوب العلاج النفسي

المهم أن العلاج النفسي هو أسلوب هام ورئيسي في العلاج يعتمد على التفسير النفسي للشخصية ومهما اختلفت النظرية التي يدين بها المعالج فان الجميع يتفقون على أن الغرض الأساسي هو مناقشة أفكار وانفعالات المريض واكتشاف الصراع والاجهاد ومحاولة تكيف المريض مع المجتمع في حدود قدراته الشخصية ، مع اقامة تجاوب انفعالي بين المعالج والمريض واستخدامه في شفائه •

ويختلف المؤلف مع مدرسة التحليل النفسي في أسلوبها العلاجي ، ففي رأيه أنه إسلوب غير عملي لا يلائم الا فئة منتقاة من المرض ، كما أنه لايساعد على الشفاء في بعض الاحيان ، ويقول أن مايدعيه روزن وهو أحد المحللين المشهورين من أنه وصل الى نتائج شفاء ١٠٠٪ أمر يحتاج الى اثبات • ومع ذلك فانه بالنسبة للتفسير النفسي لمرض الفصام وللامراض الوجدانية لا نجده يذكر من بين نظريات علم النفس سوى نظرية التحليل النفسي • كما أنه في الفصل الذي أفرده لاضطرابات الشخصية يعتمد اعتمادا تاما على شرح فرويد لبناء الشخصية فيقول « لا شك أن اهتمام فرويد بتشريح وتقسيم مراحل نضوج الشخصية ، أثر تأثيرا واضحا في مفهوم الطب النفسي لمكونات شخصية الفرد » (ص ٣٨٤)

ويختلف موقف المؤلف كذلك عن موقف المدرسة السوفيتية بالنسبة للأمراض العصابية • فنجد أن أحدث كتب الطب العقلي السوفييتي - وهم مشهورون بانخفاض نسبة الأمراض العقلية عندهم - تغفل التفسير النفسي للعصاب • ففي هذا الكتاب الذي ألفه اثنان من أعظم وأشهر الاطباء العقليين في الاتحاد السوفييتي ، نجد أن العصاب يرد تحت عنوان « الذهان الاستجابي أو ذو المنشأ النفسي » ويقرر المؤلفان أن هذا النوع من الأمراض هو ذهان ناشيء مباشرة عن صدمة نفسية • ويقرران أن العصاب هو اضطراب وظيفي ذو منشأ نفسي ينتاب الجهاز العصبي وأنه على عكس الذهان الاستجابي reactive **يظل الفرد فيها محتفظا بالموقف الموضوعي من مرضه ولا يفقد القدرة أو السيطرة على سلوكه ويعتبران أن تعاليم فرويد قد لعبت دوراسلبيا في تطوير النظرة العلمية للعصاب • والنظرة العلمية للعصاب في رأيهما قد نمت بتأثير بافلوف وتعاليمه وتجاربه فيما يسمى بالعصاب التجريبي على الحيوانات • ويلجأ هؤلاء الاطباء في علاج العصاب الى العقاقير والتنويم وبعض اساليب العلاج الطبيعي ، وبعض الأساليب النفسية (كالراحة والايحاء وتغيير العمل والبيئة) •**

ويختلف عدد كبير من أطباء أمريكا وأوروبا مع

العلماء السوفييت فى هـذا الموقف ٠ ومع أن الدكتور عكاشة يعالج العصاب أيضا بالعقاقير الا أنه يضع العلاج النفسى والعضوى على مستوى واحد من الأهمية ٠ وقد كنا نود أن يفرد المؤلف فصلا واسعا عن الطب العقلى فى الاتحاد السوفيتى كما فعل فى كتابه الذى ألفه باللغة الانجليزية عن « أساليب الطب العقلى » Essentioas pfpsychiatry ولكن جاء كتابه الحالى خلوا من اى اشارة الى الطب العقلى والنفسى فى الاتحاد السوفييتى ٠

محاولة لنشأة الطب النفسى المصرى

٣ ـ يعتبر الدكتور عكاشة كتابه « محاولة لنشأة الطب النفسى المصرى نابعة من طبيعة الثقافة والبيئة المصرية مستخدما جميع الابحاث المحلية مستعينا بكل النظريات العالمية فى أسباب وعلاج هذه الامراض » (مقدمة الكتاب) ٠ وبذلك نرى أن للمؤلف موقفا واضحا من قضية تأثير البيئة والمجتمع فى المرض النفسى والعقلى ٠ ويبدو ذلك جليا فى الاحصاءات المحلية والمقارنة الهامة التى أوردها المؤلف فى كتابه ومن تقريره بوضوح أن من أسباب الامراض العصابية **«العوامل الحضارية والعوامل النفسية والاجتماعية الحالية»** (ص ٢٠) ويهتم الدكتور عكاشة بمرض الفصام بالذات ويعتبره من أخطر الامراض التى تهدد اقتصاد الوطن فيقرر أن نسبة الاصابة بهذا المرض فى ج٠ع٠م تبلغ حوالى ½ مليون نسمة أى من ٨٥ر٠ الى ١ فى المائة من عدد السكان وهى نسبة خطيرة خصوصا اذا أخذنا فى الاعتبار أن هذا المرض يصيب الفرد فى سن الشباب والنضوج مما يجعل الفصام ظاهرة تؤثر على الناحية الاجتماعية والاقتصادية الى جانب كونه ظاهرة مرضية ٠ كما يهتم المؤلف بالطب العقلى المقارن ولعل هذا أساس دعوته لانشاء طب نفسى مصرى يأخذ فى الاعتبار أثر البيئة المصرية على وجه الخصوص فى تسبب وتكوين أعراض الأمراض النفسية والعقلية ٠

وهو فى هذا يتفق مع الكثيرين من علماء الطب العقلى المعاصرين الذين أوردوا فى مؤلفاتهم زيادة نسبة الظواهر المشابهة للفصام فى العصر الحديث (**معتبرين أن الفصام ليس مرضا بعينه وانما هو عبارة تشخيصية عامة تطلق على مجموعة من الأمراض العقلية**) ٠ ولقد لوحظت هذه الزيادة بشكل خاص فى البلاد التى دخلت مضمار الحضارة الحديثة بخطى سريعة وحيث تضمنت التحولات الاجتماعية تغيرات سريعة فى النظرة العامة الى الانسان ٠ ومن المعروف أيضا أنه فى ظل ظروف اجتماعية ـ حضارية غير عادية يتغير محتوى الامراض العقلية بل وأعراضها الاساسية ٠ فنجد مثلا أنه فى الولايات المتحدة الامريكية تزداد نسبة الهلاوس بين مرضى الفصام من الزنوج عنها بين البيض ، بينما نجد أن الهزاعات موجودة بنسبة واحدة لدى الاثنين ٠ وتتضح أهمية العامل الاجتماعى من حقيقة أن مرضى الفصام من الزنوج فى مدينة مثل شيكاغو يبلغ عددهم اربعة أضعاف المرضى من البيض ٠ ومن هنا تتضح أهمية عمل الدكتور عكاشة الذى زود كتابه بالعديد من الاحصاءات التى استخرجها من بحوثه على البيئة المصرية ومن بحوث مقارنة بين المرضى فى مصر وغيرها من بلاد أوروبا وأفريقيا ٠ وكذلك دعوته الى اجراء بحوث على العقاقير المستعملة فى العلاج وفقا لما أسفر عنه البحث من أن كمية هذه العقاقير تختلف عند الاستعمال حسب البيئة والمناخ والصحة العامة التى تختلف من بلد لآخر ٠

ولا شك أن المراجع الكبرى فى الطب العقلى مثل كتب ماير ـ جروس ، وبلويلر ، وجروهل ، وكريبلين هى مراجع ألفت فى ظل الحضارة الاوروبية الغربية ، ومع أن الاضطرابات العقلية لم تبحث بعد على نطاق واسع من وجهة نظر تغير العلاقات الاجتماعية فانه من الواضح أن للمجتمع أثرا مرضيا مرنا على الاذهان ، اذ لا يمكن عزل الانسان عن تاريخه الحضارى ٠ ومنذ القدم اتخذ ديموقريطس وأبيقور ولوكريتس الموقف القائل بأن سلوك الانسان وافكاره ومشاعره تتكون عن طريق المجتمع الذى يعيش فيه ٠ بينما قال أفلاطون وأرسطو على العكس ، أن الطبيعة الانسانية فطرية ، واعتبر أفلاطون هذه الفطرة هبة الهية بينما اعتبرها أرسطو تكوينا بيولوجيا ٠ ولازال الصراع بين النظريتين مستمرا الا أن الميزان بدأ يميل منذ ظهور النظم الاشتراكية الى جانب تأثير المجتمع على الانسان فى سوائه وفى مرضه وبحث مدى هذا التأثير ودوره ٠ ويعتبر مجال الطب العقلى من المجالات الحديثة التى أخذت هذه النظرة تغزوها مؤذنة ببدء ثورة جديدة الى جانب الثورة العقاقيرية فى مجال علاج الامراض النفسية والعقلية ٠

ان كتاب الدكتور عكاشة يزودنا بنظرة علمية حديثة فى ميدان الطب العقلى والنفسى كنا نفتقدها وهو خطوة على طريق طويل نرجو أن يوصلنا الى ما فيه خير الوطن والعاملين فيه ٠

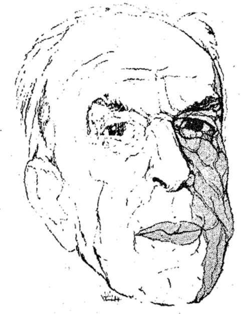
لطفى فطيم

● لا يستطيع المؤرخ أو الفيلسوف أن ينفصل عن عصره، ولا يملك إلا أن يكون بعيداً عن زمنه ومرآة له، وأقصى ما يطمح فيه المؤرخ أو الفيلسوف هو أن ينطق بلسان جيله، أن يصور أزمته، أن يخاطب ضميره، أن ينبه، ويوقظ، ويثير.



ف. هيجل

خواطر في فلسفة التاريخ



أ. توينبي

د. عبد الغفار مكاوي

هبط الانسان على سطح القمر مرتين .

وكان من حظنا ـ نحن ابناء هذا الزمان ـ أن نشهد تجربة رائعة ومخيفة في آن واحد رائعة لانها لاتقل فيمعناها من غزو المحيطات في القرن الخامس عشر أو اكتشاف القارة الجديدة أو الوصول الى القطبين أو الطيران في الفضاء . ومخيفة لان هذه الانتصارات كان لها أثر كبير على حياة البشر ، اذ وسعت المجال الذي يعيشون فيه ويتنفسون ويزرعون ويحصدون ويستمدون الطاقة والغذاء ـ بينما الهبوط على القمر لايمثل حتى الآن أكثر من انتصار علمي لاندرى هل ستكون نتيجته خيرا أو شرا على الانسانية .
ومن سوء الحظ أن الجهاز الضخم الذي تولى اطلاق الصاروخ والمركبة القمرية لم يرسل مع روادها شاعرا **ولا فيلسوفا** ليعبر لنا عن عواطفه وافكاره وهو يخطو على **سطح ذلك** الكوكب الهادىء الشاحب الجميل ! **ومع ذلك** فلاشك عندى أن رواد الفضاء سألوا أنفسهم وهم يطأون بأقدامهم ارض القمر عن مصير ارضهم وجنسهم الذيىعيش ويتصارع عليها .

ولاشك عندى أيضا انهم في قمة فرحتهم واعتزازهم بهذا النصر العلمى قد سألوا انفسهم بشكل واضح أوغامض **هذا السؤال الذى يؤرق زميلا لهم على الارض يشغل نفسه** بالتاريخ وفلسفة التاريخ : **ماذا بعد ؟ والى اين يسير العالم ؟!**

والسؤال يرتبط بتاريخالبشرية العام ، بهدفه ومصيره ومعناه . وليس أحق منا ـ نحن أبناء القرن العشرين الذين الذين نعايش صراعا عالميا لم يسبق له مثيل ، ونشهد كوارث عالمية حقيقية أو نتوقع كوارث أخرى لم يسبق لها مثيل أيضا ـ ليس أحق منا بطرح هذا السؤال الذى يتصل بمستقبل الجنس البشرى على الارض . والكلام عن تاريخ البشرية العام ليس مجرد كلام عن «يوتوبيا» خيالية أو فرض علمى جذاب أو حلم جميل عن السلام . انهينبع من شعور عام يشترك فيه العالم والمؤرخ مع رجل الشارع الذى يقرأ الجريدة اليومية أو يسمع الاخبار كل صباح ومساء .. ففى الوقتالذى بلغ فيه العلم والتقنية (التكنيك) ذروتهما ، وتطورت سرعة المواصلات ونقل الانباء الى حد مخيف ، وتكاثر عدد السكان حتى وصل أو كاد الى درجة الانفجار ، وازداد في مقابل ذلك ضحايا الجوع أو المهددين به في وقت قريب أو بعيد ، ووصلت الحرب الباردة او الساخنة الى مأزق لايدرى أحد كيف يكون المخرج منه ، وتعددت التجارب النووية حتى صارت أخطارها حديث كل يوم ، وبلغ تأثير الاعلام والدعاية النفسية وغسيل المخ درجة تنذر بالقضاء على شخصية الفرد وقدرته على النقد واستقلال الرأى ، وكثر كذلك الكلام عن واجب التربية والمربين وأصحاب العلوم الانسانية في انقاذ حرية الانسان وخلقه وتراثه أمام هذا الطوفان ـ **في هذا الوقت المضطرب العصيب يزداد شعور البشر بطبيعة الحال بارتباط مصيرهم** على هذه الارض ، **وتصبح مسألة البقاء أو الفناء مسألة يطرحها الناس على أنفسهم كل يوم كما قلت ـ سواء في ذلك العالم الذى يشترك في صنع وتصميم القنابل والصواريخ ، أو الخباز الذى يصنع رغيفنا اليومى ، أو الام التى ترضع طفلها الصغير ، أو المفكر الذى يسأل عن معنى التاريخ** . ان هذا المفكر يعلم أنه يجب عليه أن ينظر في الماضى والحاضر والمستقبل ـ لا لكى يخرج بفلسفة أو نظرية جديدة ، بل لكى يوقظ الوعى بالاخطار التى تهدد الناس ، ويجعل من السؤال عن معنى التاريخ العام مسألة تهم كل الذين يعيشون معه . انه يجمع لهم حقائق الماضى ويعرض عليهم ازماته وكوارثه ليفكروا معه في مخرج من الموقف الحاضر : هل يكون في عقيدة واحدة أو فكرواحد او حكومة عالمية واحدة ؟ هل يكون في مجتمع أخير تنتهىفيه كل تناقضات المصالح والطبقات كما قال **ماركس** ، أم في الوصول الى الشمول والتكامل الذى تهدف اليه كل تربية انسانية صحيحة كما قال **شيلر** وغيره من أصحاب النزعة المثالية ؟ ـ وليس الحل هو المهم ، لان وظيفة العلماءليست هى ايجاد الحلول ، بل المهم هو ايقاظ الضمير على وحدة البشر ـ وحدتهم من حيث الطبيعة والعقل ، وحدتهمالباقية وراء اختلاف الديانات والحضارات والاجناس والمذاهب والالوان . وحدتهم من حيث النوع البشرى نفسه ، الذى لاتشغله الآن مشكلة واحدة : **هل يبقى أم يفنى ؟ هل يوجد أو لا يوجد ؟**

بين التاريخ والفلسفة
الى اين يسير العالم ؟

سؤال ينصب علىالمستقبل ، والمستقبل ابن الحاضر. والحاضر لايفهم الا من لحظات اخرى كانت حاضرة ثمانقضت أى من الماضى . فلنرجع اذن الى الوراء قليلا (وهو قليل بالنسبة لعمر الحياة بل لعمر الانسان نفسه على الارض!)

«كل تاريخ فلسفة ، وكل فلسفة تاريخ» . عبارة قالها **هيجل** ولكن اليس من التهور أو الطموح الشديد أن نبدأ بهيجل ؟ فلنكن أكثر تواضعا !، ولنحاول أن نبدأ من البداية ، من الجذور .

ليست «**فلسفة التاريخ**» بالكلمة القديمة . انها ترجع للقرن الثامن عشر ، وتنسب فيما أعلم **لفولتير** . غير ان الموضوع التى تدل عليه أقدم من ذلك بكثير . وان شئنا الدقة قلنا الموضوعات ، لان الكلمة توحى بأكثر من معنى وأكثر من قضية .

ما من أحد يتصدى لكتابة التاريخ لمعاصريه أوللاجيال اللاحقة الا ويفعل ذلك عن قصد أو غير قصد في اطارفلسفة معينة .. ومهما حاول أن يكون علميا وموضوعيا في تقريره للحوادث ، فلابد أن يواجه أسئلة ومشكلات تتجاوز حدود

العلم ، اسئلة ومشكلات عامة بطبيعتها ، لايمكن الاجابة عليها اجابة قاطعة ، ومع ذلك فلابد من مواجهتها لفهم التاريخ وموقف الانسان : **ما الصدفة وما الضرورة ؟ هل هناك قوانين تحكم التاريخ ، هل يعيد التاريخ نفسه ؟ أيمكن التنبؤ بالاحداث قبل وقوعها ؟ ماأثر الدود الذى قام به بعض الافراد وهل ننسبه اليهم أم الى عصرهم ؟ الى اى مدى يمكننا أن نقارن عصرا بعصر وتطورا بتطور ؟ ماالحرب ؟ ماالثورة ؟ ما الازمات ؟ كيف يؤثر الاقتصاد والحضارة والاديان والسياسة على مسار التاريخ وكيف تؤثر هذه القوى على بعضها البعض ؟** — أسئلة كثيرة لايستطيع المؤرخ أن يتجنبها . ولانه لايستطيع أن يتجنبها فلابد ان يجد نفسه على حدود الفلسفة . ولانه لايريد أن يصبح فيلسوفا بل يحب أن يظل مؤرخا فلابد أن يجد نفسه على حدود فلسفة التاريخ ..

وهو يفلسف التاريخ أيضا كلما اعاد النظر فى منهجه ، وكلما سأل نفسه : **ماذا يمكننى أن أعرف وبأى طريقة أعرفه ؟ ماذا أستطيع أن أعرف على وجه اليقين وماذا يخرج عن هذه المعرفة ؟ ما الذى يستحق أن أبحث عنه وما الذى لا يساوى جهد البحث ؟** — أى كلما وضع علمه كله موضع السؤال وحاول أن يقيمه على أساس وطيد . قد نستطيع ان نسمى هذا نظرية المعرفة فى علم التاريخ — ونظرية المعرفة فرع من فروع الفلسفة .. ومعرفة التاريخ أو نقده شىء لم يقم به الفلاسفة المتخصصون وحدهم — مثل **هيجل وديكارت وكروتشه** — بل قام به كذلك كثير من المؤرخين .

وأخيرا نصل الى المعنى المألوف من فلسفة التاريخ . **انها مجموعة من الآراء والافكار التى تتأمل تاريخ الانسان ككل ، سره الخفى ، سياقه ، حركته ، قوانينه ، القوى التى تتحكم فى سيره .** بهذا المفهوم تكون فلسفة التاريخ فلسفة بالمعنى الدقيق ، فكرا يتأمل الانسان والعالم — لا لأجل التأمل المطلق ، بل لان تاريخ الانسان أو وجوده فى الزمان وتغيره وتطوره عنصر أساسى فى بناء كيانه . من هنا يصبح لفلسفة التاريخ معنى شامل . ومن هنا نجدها تنشأ غالبا فى عصور القلق والازمات والاضطرابات . انها تريد عندئذ أن تفهم الحاضر — سواء اعترفت بذلك صراحة او لم تعترف به — ربما حاولت أيضا أن تتنبأ بالمستقبل لكى ترجع الى الماضى كله لتسأله عن متاعب هذا الحاضر — وما الحاضر الا ابن ذلك الماضى . هكذا فعل **هيجل** ، وفلسفته فى التاريخ أعمق الفلسفات وأغناها . لقد رأى عصره — عصر الثورة الفرنسية ونابليون يمر بأزمة لم يسبق لها نظير . واستنتج من هذه الازمة نتائج طبقها على الماضى كله ، **فكانت فلسفته فى التاريخ فلسفة الازمات** . ويصدق هذا على **كارل ماركس ويعقوب بورخارت** ، وكلاهما — على ما بينهما بالطبع من اختلاف — مفكر ازمات . كما يصدق أيضا على **أزفالد اشبنجلر** الذى وجد فى الحرب العالمية الاولى أزمة تشبه الازمة التى وجدها هيجل فى حروب نابليون . وقد يصدق نفس الشىء أيضا على **أرنولد توينبى** وما رآه فى حربين عالميتين . ولكنه ينطبق بالمثل على ذلك القديس الافريقى الذى نستطيع أن ننظر اليه نظرتنا الى فيلسوف للتاريخ ، على **القديس أوغسطين** . لقد شعر انه يحيا فى عصر مضطرب حافل بالازمات الخطيرة ، ومن هذا الشعور نشأ كتابه المعروف عن مدينة الله .

هذه الاشكال المختلفة من فلسفة التاريخ يمكن أن تتداخل وتتشابك . غير أننا سنحاول أن نفرق بينها توضيحا للامور . **فالمؤرخ — طالما كان له عقل وكان لديه الاستعداد لاستخدام هذا العقل ! — لابد أن يكون فيلسوفا للتاريخ .** وهو مضطر أن يفعل ذلك كما قلت سواء قصد اليه عن وعى أو لم يقصد اليه . انه يواجه بالضرورة مشكلات تتصل بفلسفة التاريخ ، ولابد أن يدلى فيها برأى . **هناك مؤرخون أصبحوا فلاسفة للتاريخ عندما وضعوا علمهم كله موضع السؤال ، أى عندما حاولوا أن يقيموه على اسس جديدة.** ثم هناك المؤلفات الكبرى فى فلسفة التاريخ ، أى التأملات النظرية فى معنى التاريخ وغايته ، أى ما يمكن أن نسميه **ميتافيزيقا التاريخ** .

ميتافيزيقا التاريخ

لننظر الآن نظرة سريعة فيما حققته فلسفة التاريخ منذ نشأتها الاولى وما فكرت فيه . ان كلمة التاريخ — مثلها فى هذا مثل كلمة الفلسفة — ترجع من حيث اللفظ والمضمون الى اليونان . فالتاريخ — أو الهستوريا — كلمة تدل على البحث والفحص والنظر . واليونان الذين وضعوا أسس الفلسفة الغربية هم كذلك الذين وضعوا أسس التاريخ . ومع ذلك فان اليونان لم يفهموا من التاريخ ما نفهمه اليوم منه ، بل لم يكن من طبيعة الفكر اليونانى أن يفهمه . والسبب انه كان يبحث دائما عن الوجود الخالد ، والحقيقة الخالدة ، والجمال ، والخير الخالدين ، **أى كان يبحث عن شىء لا يتغير** ، فى حين أن ماهية التاريخ ، أى ما يحدث فى الزمن ، هى التغير . كان فى استطاعتهم أن يعرفوا الرياضة والهندسة **والاخلاق** — أما التاريخ ، هذا الذى يتغير ويتحول ويزول على الدوام ، فلم يكن فى استطاعتهم أن يعرفوه — ومن ثم فلم يكن فى نهاية الامر جديرا بالمعرفة . قد يصعب علينا أن نتصور أن مفكرا عظيما مثل **أفلاطون** لم يكن يهتم كثيرا بالتاريخ ولكن هذه هى الحقيقة . ان الدولة أو الجمهورية التى فكر فيها معزولة عن جيرانها بقدر ما هى معزولة عن التاريخ . تصور أنها يجب أن تبقى كما هى أو كما كانت فى تفكيره وفى محاوراته المشهورة ، وهو شىء يستحيل تصوره عن دولة تعيش فى التاريخ ولابد أن تتغير بتغيره .

وجاء **أرسطو** فكان أوفر حظا منه فى السياسة ، أو



ك . ماركس

كان ــ كما نقول اليوم وكما أراد هو لنفسه ــ أكثر واقعية من أستاذه . جمع فى كتبه مادة تاريخية غنية ، وقارن بين الدساتير المختلفة ، ونظر فى مزاياها وعيوبها كما يفعل اليوم أستاذ فى العلوم السياسية . **ولكن اهتمامه ظل منصبا على كل ما يبقى ويدوم ويتكرر كأنه قانون لا يتغير** ، ونظرته ظلت معلقة بالنظام الشامل المحدود المغلق على نفسه : وقل مثل هذا عن أعظم مؤرخي الاغريق ، وهو الاثينى **توكيديوس** الذى كتب عن الحرب البليبونيزية (التى دارت على ثلاث مراحل بين أثينا واسبرطة من سنة ٤٣١ الى ٤٠٤ ق.م) أروع تاريخ يمكن أن يخطه قلم . انه ينظر نظرات عميقة فى النشاط السياسي لبنى الانسان ، فى الحروب والثورات ، فى الصراع بين الدول والاحزاب والطبقات ، فى الكفاح من أجل تحقيق التوازن أو التسلط على الغير ، فى تأثير المصالح الاقتصادية على السياسة ودورها فى التفوق فى البر أو البحر . وهو كاتب موهوب ، يملك القدرة على تصوير الناس والمشاهد فى صور حية تكاد نراها ونلمسها . ولكن هذا المؤرخ العظيم يبحث أيضا عما يبقى ويدوم ويتكرر . انه رجل يائس محدود الافق . يروى لنا تاريخ الحرب البيلوبونزية أو الحرب العالمية اليونانية ، ويمر على ما سبقها مر الكرام . بل انه ليصرح بأنه لم يسبق أن وقع حادث يمكن أن يقارن بهذا الحدث الخطير . لذلك لم يواصل أحد هذا التاريخ ، ولم يكن من الممكن ان يواصله أحد . انه كاللوحة التى لا تحتاج لمن يكملها ، لانها كاملة ومكتفية بذاتها ، هو أقرب الى «**تاريخ معين**» منه الى «**التاريخ**» . انه يرويه للاجيال المقبلة لكى تتهيأ لمواجهة تواريخ اخرى مشابهة قد تعرض لها . لان ما حدث بين أثينا واسبرطة سوف يحدث بين غيرها من المدن ويتكرر حدوثه ، طالما بقيت الطبيعة البشرية على حالها . وهل تتغير طبيعة البشر ؟ !

ان كانت هذه فلسفة تاريخ فهى فلسفة يائسة ، خالية من كل عزاء . بل هى لا تبحث عن معنى ولا أمل ولا عزاء . لان التاريخ في نظرها يتساوى مع الطبيعة ، ولانها لا تجد فيه غير حلقات مملة متكررة ، الام وتوارث ، ميلاد ونمو وموت ، صراع من أجل الوجود ، غرور وانتقام واندثار .

هذه الافكار كلها تتردد فى العصر الحديث . فكتابات **شوبنهور** عن التاريخ لا تختلف كثيرا عن هذه المعانى ، وفهمه له لا يكاد يفترق عن فهم **أفلاطون** . انه يشبهه فى ضعف احساسه بالتاريخ ، وقلة اهتمامه به ، وعدم ايمانه بقيمته أو جدواه . ما من جديد عنده ، فنفس الشيء يتكرر على الدوام . والاختراعات التى اكتشفت فى حياته كالسكة الحديدية والبرق لم تغير من الامر شيئا . نفس الشيء دائما . شر كثير وخير قليل . نفس الشيء الى الابد ومنذ الازل . سواء اختلف فلاحان على قطعة أرض أو تنازع ملكان على دولة . سواء تعلق الامر بأثينا واسبرطة ، أو بروسيا وفرنسا ، أو أمريكا وروسيا . من العبث أن نبحث فى التاريخ عن حقيقة أو رجاء . نفس الرأى الذى قال به شوبنهور منذ مائة وعشرة سنة ، **وتوكوديدس** منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين سنة . وهو أيضا نفس الرأى عند الاغريق والرومان الاقدمين ، مع فروق قليلة ، صحيح أن الرومان أضافوا للوعى التاريخى أبعادا جديدة فى المكان والزمان ، فقد امتدت حدود دولتهم من اسكتلندا الى شواطىء الفرات ، وأحسوا احساسا واعيا بتاريخ دولتهم الطويل « **منذ تأسيسها** » ــ مشروع جرىء ، لم يكن ليقدم عليه مؤرخ اغريقى ، بل لم يكن ليتصوره أو يفكر فيه ! ــ وصحيح أيضا أن اشبنجلر زعم أن الرومان لم يكن لديهم احساس بالديمومة أو البقاء ، ولم يكن يعنيهم الماضى ولا المستقبل ، وذلك على عكس المصريين القدماء . وقد يتفق هذا الزعم مع تصور اشبنجلر للتاريخ الحضارة بوجه عام ، ولكنه لا يتفق مع الواقع فى شىء . فالاهرامات قد بقيت حقا الى يومنا الراهن ، ولكن ألم تبق كذلك قبور الرومان ومعابدهم على طريق آبيا (الفيا أبيا) ؟ ألم تبق الاعمدة وأقواس النصر التى شيدها القياصرة ؟ ألم تبق الكتابات والنقوش التى حفروها عليها ؟ ــ الرومان لا ينقصهم الاحساس بالبقاء ، ولكن ينقصهم شىء آخر . شىء هو عكس البقاء تماما . ينقصهم الاحساس بالتغير ، بالتحول ، بالصيرورة ، بالجدة ، أى الاحساس بالتاريخ كما نفهمه اليوم . عجز الرومان عن فهم التاريخ ، عن ادراك التغير كقوة حقيقية. وعاش مؤرخوهم وسياسيوهم الكبار ــ مثل **بوليبيوس وشيشرون وسالوست وليكيوس وتاسيتوس وبلوتارك** ــ فى عصور شهدت تغيرات حقيقية ولكن كان التغير فى رأيهم

معناه التدهور والخطر والفساد. والعصر الذهبى لا وجود له الا فى الماضى . واحياء العادات والنظم القديمة التى اسسها الآباء هو واجب المؤرخ ورجل السياسة . كانوا محافظين في تفكيرهم . وحتى لو لم يكونوا كذلك فى قرارة نفوسهم ، فقد كانوا يؤكدونه فى خطبهم وكتاباتهم — **هكذا حاول أغسطس أن يصور أعماله بأنها بعث للماضى واحياء للقديم** — وان خالهم الشعور مرة بأنهم يعيشون فى الحاضر أو فى عصر يختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة ، فهو الشعور بأن الزمان فاسد ، والعالم متدهور . يستوى فى ذلك أن نسمع الشكوى المريرة فى كتابات **تاسيتوس** ، أو نجد الشك والارتياب فى أعمال **سالوست** . هكذا صارت الاحوال ، صار الحاضر (السيكولوم) فما أعظم الفرق بينه وبين الماضى السعيد ! لم يخطر على بال الرومان ان التغير ليس دائما دليلا على التدهور والفساد ، أو انه ليس شيئا يدعو للاسف والبكاء فى كل الاحوال لم يدركوا ان التغير هو جوهر التاريخ ، وانه قد يحمل فى أحشائه التطور والتقدم والامل . تلك فكرة ظلت غريبة عن الرومان . نحن نختلف الآن عنهم فى احساسنا بالتاريخ ، واستعدادنا للتغير ، وقدرتنا على التكيف . وما أكثر ما تمكن السياسيون فى العصر الحاضر من مواجهة التغيرات الحاسمة الحكمة ، والتخلى عن النظم القديمة أمام الواقع الجديد **(تحول الامبراطورية الى ما يسمى الآن بالكومونولث من أوضح الامثلة على هذا)** . أما الرومان فقد عجزوا عن هذا التكيف . لذلك انهارت الجمهورية الرومانية القديمة ، وسقطت الدولة الدستورية . اعتقد الجمهوريون أنهم يستطيعون أن يحكموا الدولة الواسعة المترامية الأطراف على أساس دستور دولة المدينة الصغير. بل ان الدكتاتورية العسكرية التى اقامها القياصرة ظلت تتدثر بالرداء الجمهورى القديم . أما الجديد (الريس نوفا) فقد ظل بالنسبة اليهم شيئا محرما ، شيئا غير جائز ولا مشروع .

مع هذا كله فقد اخرجت روما عددا من أعظم كتاب التاريخ . وليست عظمة هؤلاء الكتاب فى أنهم عرفوا ماهية التاريخ والتطور ، بل فى قدرتهم الرائعة على التصوير المعبر الحى ، والأسلوب المؤثر الدقيق ، فى الرواية الموجزة الكاملة عند سالوست ، وفى العرض النفسى المتشائم العميق عند تاسيتوس . أنظر الى هذه العبارات التى لا يقدر عليها الا كاتب عظيم : **« ما من أحد توصل الى السلطة بالوسائل الشريرة ثم استطاع ان يستخدمها فى الأهداف الخيرة » ، « من طبيعة القلب البشرى أن يكره من الحق به الظلم »** — ما من مؤرخ حديث استطاع أن يكتب عن الطغيان بأصدق ولا أروع من تاسيتوس . ومع ذلك فكم من مؤرخ حديث تفوق عليه وهو أقل منه شأنا . والسر بسيط : **ان المحدثين يحسون بالتحول فى الزمن ، بالتغير ، بالاستمرار ، بالتفرد ، وكلها أشياء غريبة على الرومان** .

المسيح والتاريخ

هذا الاحساس ، هذه الفكرة ، جاءت الى العالم الغربى عن طريق المسيحية . وصلت اليها عن طريق العهد القديم ثم تأكدت فى العهد الجديد وظلت زمنا طويلا تحتفظ بطابعها الدينى . وأصبح العالم يؤرخ للزمن بظهور المسيح ، وما زلنا نورخ له اليوم ونحن فى بداية سنة ١٩٧٠ . **فظهور المسيح أعطى للتاريخ معنى ، خلع عليه نظاما لم يكن يعرفه فى العصور القديمة** . صارت السنون تسحب بين ظهور المخلص للمرة الأولى وظهوره للمرة الثانية . أصبح الزمن الذى امتد قبل ظهوره هو زمن الآمل والوعد والانتظار . أما الرومان فكانت طريقتهم فى حساب التاريخ أن يسموا السنين بأسماء الماجستيرات والقناصلة ، وكم كانت طريقة معقدة !

فرق كبير اذن بين التاريخ عند الرومان وبينه بعد ظهور المسيحية . **صحيح أن الوعى التاريخى فى ظل المسيحية كان له وجهان مختلفان . كان هناك من آمن بأن أفعال الانسان واحداث العالم لا أمل فيها ولا نجاة — فالقديس اوغسطين مثلا ومن بعده البابا جريجور السابع بستة قرون يحتقران الدولة والسلطة أشد الاحتقار — ولكننا لاندرى على وجه اليقين ان كانت المملكة الآخرى ، مملكة الله أو مدينته ، ستتحقق فى رأيهما على الأرض أم فى عالم آخر** . وكان هناك الوجه الآخر . فالمسيحية هى التى جعلت لفكرة الزمن قيمة وشأنا ، هى التى جعلت التاريخ وكتابة التاريخ أمرا ممكنا . لا تاريخ مدينة أو دولة فحسب ، بل تاريخ العالم ، تاريخ البشرية . **« على الارض السلام وبالناس المسرة »** . هكذا كانت بشارة الملائكة .

السلام على الأرض ، والمسرة والمحبة للناس اجمعين.



شوبنهاور

لا لشعب من الشعوب أو دولة من الدول فحسب . هكذا كان أيضا رأى فلاسفة القرن الثامن عشر ، هؤلاء الذين انفصلوا عن التراث المسيحى ، وراح بعضهم – مثل **فولتير وكوندورسيه** – يهزأون بالكنيسة ويناصبونها العداء . المهم أن التأمل فى التاريخ ككل ، فى منشأة وحركته وهدفه ، صار أمرا ممكنا بعد المسيحية ومن بعدها الاسلام ولم يزل كذلك الى اليوم (والكتابة عن تصور المؤرخين المسلمين لفكرة الزمن يستحق دراسة مستقلة من القادرين عليها) .

تطور الوعى التاريخى

بلغ الوعى التاريخى ذروته الأولى فى أوروبا فى القرن الثامن عشر . أراد الانسان أن يعرف مكانه فى التاريخ أراد أن يفهم الى أين تسير البشرية . حاول أن يعرف سر الأحداث التى تجرى حوله : كيف اصبحت فرنسا قوة ضخمة ، كيف ظهرت روسيا على مسرح السياسة الاوروبية ، كيف توغل الأوروبيون فى العالم الأمريكى ، كيف نشأ النظام البرلمانى فى انجلترا . من هنا الاقبال على دراسة التاريخ الرومانى – مونتسكيو وجيبون – من هنا الاهتمام بدارسة الحضارات الغربية البعيدة كالحضارة الصينية . ومن هنا الخلاف الذى بدأ فى القرن السابع عشر : **أين التفوق ؟ للاغريق والرومان أم للمحدثين؟** – واخيرا هذا النشاط الهائل فى جمع الوثائق وتفسير الوقائع التاريخية بشكل لم يسبق له نظير . وكم يدهشنا اليوم أن ننظر فى التاريخ الذى كتبه فولتير عن عصر لويس الرابع عشر .. **لم يقتصر هذا الكاتب الكبير على تدوين تاريخ سياسى ، بل راح يضيف اليه التاريخ الحضارى والسياسي ويربط بينها جميعا .**

صحيح أن فولتير – ومعه عدد كبير من معاصريه – قد وقفوا من الماضى موقف الرفض والاحتقار . كان من رأيهم أن ساعة الانسانية الحقة قد بدأت أو ستبدأ فى مستقبل أفضل . ولكنهم وجدوا انفسهم مضطرين الى معرفة الماضى معرفة تامة لكى يستطيعوا التحرر من خرافاته وأنظمته الباليه . لذلك فقد يدهشنا ان هؤلاء الكتاب الثائرين قد أسهموا فى تجميع قدر كبير من المعلومات والحقائق التاريخية الحية ، على الرغم من ازدرائهم للعصور الوسطى المسيحية وتجنيهم عليها بصورة تبدو لنا اليوم ظالمة بعيدة عن الانصاف .

على أن غرورهم واحتقارهم للماضى لم يبق بغير أثر . فاذا كان فولتير قد أسرف فى السخرية بالعصور المظلمة وخرافات رجال الدين ، واذا كان العصر الوسيط لم ينج من هجوم رجل حكيم مثل **كانت** الذى وصفه بأنه **« ضلال غير مفهوم العقل البشرى »** – فقد كان هناك من أنصف الماضى وأحس بقيمته وجماله . كذلك فعل **جوته** فى شبابه وكذلك فعل الرومانتيكيون الانجليز . من هذه الاتجاهات المتعارضة المتباينة من حركة **« عصر التنوير »** التى أسرفت فى ثقتها بالعقل وفي عدائها للماضى، من الحركة الرومانتيكية التى أحبت ذلك الماضى وعكفت على احياء ادبه وجمع تاريخه ،، ومن الاحداث الهائلة التى اضطرب بها العصر : انتصارات بروسيا على عهد فردريك الاكبر ، حصول أمريكا على الاستقلال ، الاصلاحات التى تمت فى النمسا ، وأخيرا تلك الكارثة الرائعة – الثورة الفرنسية – من هذا كله انبثق عدد كبير من المؤلفات فى فلسفة التاريخ حددت الوعى التاريخى الاوروبى فى العقود الاولى من القرن التاسع عشر ، نذكر منها كتاب **«هردر»** أفكار فى فلسفة تاريخ الانسانية ، ومقال **كانت** « أفكار عن تاريخ عام من وجهة نظر عالية ، ورسالة **« شيلر »** معنى التاريخ العام والغاية من دراسته ،، وأخيرا أعمال ذلك الرجل الذى عرف هذه المؤلفات كلها وأفاد منها وحقق فى فلسفة التاريخ شيئا لم يسبق اليه وقد لا يلحق فيه – ونعنى به هيجل .

كل هؤلاء المفكرين يتفقون فى ايمانهم بمعنى التاريخ وبرسالة الانسانية . ومع انهم يختلفون في موقفهم من المسيحية ، فلولا التراث المسيحى لما كان من الممكن أن يصلوا الى هذا الايمان ولا الى هذا الوعى التاريخى انهم جميعا – وهردر يقل عنهم بعض الشىء – يعتقدون أن الحضارة الاوروبية هى الحضارة التى ألقى عليها القدر العبء التاريخى الاكبر ، وهى التى ينبغى أن تنهض به فى المستقبل .

مشروع للسلام الدائم

فى سنة ١٧٨٤ ألف « كانت » مقاله الرائع السابق الذكر «أفكار عن تاريخ عام من وجهة نظر عالية **(وقد ترجمه استاذنا عبد الرحمن بدوى)** ثم عالج الموضوع بصورة أوسع فى كتابه عن السلام الدائم **(وقد ترجمه استاذنا عثمان أمين)** . والمقال والكتاب يتناولان مشكلة التاريخ البشرى العام ، ويبدو أن شيئا غريبا لا يكاد الانسان يصدقه أنه صدر عن مفكر وحيد وبعيد عن صراع المصالح ومشكلات السياسة والسياسيين فى عصره ! ولكنهما مع ذلك يبدوان لنا اليوم معاصرين الى أقصى حد ، حتى ليوشك الحكيم الطيب العجوز الذى لم يغادر مدينته كونجسبرج أن يكون قد تنبأ مشكلتنا الكبرى التى نعانى منها صباح مساء .. ويقوم المقال والكتاب على افتراض – لا مجرد حسن نية ! – **أن الانسان قادر على أن يصل بنفسه الى الكمال الذى تحدث عنه شيلر والمثاليون الانسانيون من قبل ، كما يقوم على الثقة فى الانتصار النهائى للانسان باعتباره الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يحكم عقله .** اقترح كانت فى مقاله أن يكون الهدف من تاريخ الانسانية هو تحقيق الانسان نفسه بكل ملكاته ومواهبه النبيلة ، فى ظل اتحاد أو عصبة أمم ، ولغاية كبرى هى ضمان سلام دائم منظم وطيد الاركان . ولا تتحقق

هذه الغاية الا اذا توفرت للانسان فكرة عن ماضيه بالمعنى الشامل الذى لا يقف عند حدود الامم والجماعات . وكانت يمهد لهذا التاريخ حين يبين الخط الصاعد الذى سار فيه العقل الانسانى الى مزيد من الوضوح ومزيد من الانجازات العلمية .

غير أنه يلاحظ ـ فى حزن لا يستغرب من الحكماء ! ـ أن هذا التطور فى الحضارة والمدنية لم يصاحبه تطور فى الضمير والاخلاق ـ نفس العلة التى نشكو منها اليوم وتكاد تدفع بالبشرية الى حافة الهاوية ! ولذلك فان واجب الانسان فى المستقبل هو الوصول بالاخلاق الى مستوى العلم ، والا جاء اليوم الذى تضطره فيه الطبيعة أو على الاصح يضطره التاريخ الى شىء كان من الممكن أن تعلمه اياه الاخلاق أو العقل العملى كما يسميه . أى يأتى اليوم الذى تتطور فيه أساليب الحرب المهلكة الى الحد الذى تجد فيه الدول نفسها أمام اختيار واحد لا مناص منه ، **فاما فناء الحضارة وانتحار البشرية جمعاء ، أو تنظيم الدول ذات السيادة على أساس العقل فى عصبة أمم ترعى السلام العالمى .**

ولكن ما هو موقف كانت من عذاب البشرية المتصل على مر التاريخ ؟ ما رأيه فى الكوارث والازمات التى ألمت بها ، وألوان الخراب والدمار التى لم تكف عن تدبيرها لنفسها ؟ ـ الجواب أنه ينظر الى الانسانية ((ككل)) ، بحيث تبدو كل الكوارث والازمات أشياء مؤقتة أو محلية . أما التقدم والتطور ـ تقدم العقل وتطوره ـ فهو ثابت ومستمر ، بل ان العناية الالهية قد شاءت أن تكون ألوان الدمار والعذاب التى عانتها الانسانية وتعانيها هى الطريق الذى يصل بها الى التبصر والتعقل ، لا بل تفرضها عليها فرضا . **ولكن هل تقطع هذه الثقة فى العقل كل أسباب الشك واليأس ؟ هل صحيح أن الانسان يتطور وينضج جيلا بعد جيل ؟ وما العمل اذا احتكم لغريزته الاصلية كما فعل فى كل العصور ؟ ما العمل اذا كانت الهوة لا تزال سحيقة بين العلم والسلوك ، بين العقل والضمير ، بين التكنيك والاخلاق ؟** الغريب أن هذه الشكوك ليست جديدة . لقد ثارت فى نفوس الناس فى حياة كانت . ففى سنة ١٨٠٠ رد احد الصحفيين من أهالى برلين ، ويدعى **فريدريسن جنس** ، على كانت بكتاب من تأليفه سماه ((**عن السلام الدائم**)) ، وحاول أن يرد فيه على تفاؤله فقال بالحرف الواحد : **((.. وحتى لو استطاع الجنس البشرى بأسره أن يصل الى كمل دستور شرعى بين أعضائه ، فان المادة العدوانية الكامنة فى الدوافع الغريزية الغلابة سوف تزعج هذا النظام فى كل لحظة ، وسوف تبقى على التناقض الابدى بين قانون العقل الذى يوحى دائما بالسلام ، وبين قانون الطبيعة والفطرة الفجة الذى يريد الحرب على الدوام)) .**

هذا التناقض القائم بين العقل والطبع ، أو بين العلم والخلق مسألة قديمة ، وان كان وعينا بها اليوم قد ازداد حدة . وتاريخ الحضارات المعروفة ليس فى الحقيقة الا سجلا عامرا بالضعف والتهور والكذب والشر والاضطراب . وليس هذا كله كامنا فى الطبيعة أو الغريزة الفطرية وحدها كما يقول الصحفى البرلينى ، بل المشكلة أن ((**الدودة**)) كامنة فى العقل نفسه منذ البداية ! ... مهما يكن من شىء فلا يسع المتأمل للظروف التى نمر بها اليوم الا الاعجاب بهذه الفكرة التى تصدر من أعمق وأصدق ماعبر عنه حكيم كونجسبرج الطيب العظيم ..

الاحساس الدرامى بالتاريخ

فاذا انتقلنا الى «شيلر» وجدناه يسير فى أفكاره التاريخية فى نفس الخط الذى سار فيه «كانت» . لقد كان فى شبابه أشد حماسة من هذا «الحكيم العالمى» كما كان يسميه فى نظرته الى الحاضر السعيد . بل كان من رأيه أن الماضى كله لم يكن له هدف الا الوصول الى هذا الحاضر المنعم بالحرية والكرامة والامل ! فلما بدأ يكتب التاريخ بنفسه ـ بدلا من الاكتفاء بتأمله من بعيد ـ شغله الواقع الحى عن فكرته الكانتية الاولى ، وأخذ يصور الناس والاحداث كما كانوا فى الواقع ، دون أن يعنى نفسه بالاهداف والنتائج البعيدة . **لم يكن كانت مؤرخا . أما شيلر فكان يملك الحاسة الدرامية القوية بالتاريخ** ، بالصراع الرهيب بين الدول ، بالعواطف الرفيعة أو الوضيعة التى تتحكم فى الافراد . وربما استغرقه هذا الاحساس الدرامى بالماضى فأنساه تأملاته المثالية ، فى التاريخ العام . ويكفى أن نقرأ مسرحياته التاريخية ـ وفى مقدمتها ثلاثيته الكبرى عن **فالنشتين** ـ لنعرف أنه شاعر التاريخ الاكبر بغير نزاع .

تاريخ العنف والقسوة

كذلك كان هيجل مؤرخا أصيلا ، يملك النظرة الناقدة التى تلم بحقيقة الدولة الحديثة وتميز بين روح عصر وعصر واذا كانت المثالية والواقعية لاتجتمعان دائما عند شيلر ـ فكثيرا مانسى تأملاته الفلسفية كما قدمت فى غمرة انشغاله بالوثائق والوقائع ـ فقد تلاقى الجانبان تلاقيا تاما عند هيجل ، **وكان المثال والواقع عنده شيئا واحدا .** ولعل هذا هو سر شروعه التاريخى والفلسفى الهائل الذى يأخذ النفس بطموحه وروعته ، كما يحيرها بطموحه وتعقيده .

تاريخ العالم فى رأى هيجل هو تاريخ العنف والقسوة .

واذا كانت قد مرت به عصور عرف فيها السعادة والأمن والسلام ، فان هذه العصور لا تهم فيلسوف التاريخ فى شيىء . ان عصور السعادة هى أوراق التاريخ الجافة الذابلة أما أوقات الرعب والهول ، الحروب والثورات ، آلام الوضع ومتاعب النمو ، عذابات الاختضار فى تاريخ شعب أو حضارة ـ أما هذه فكانت هى المعقول ، كانت هى الفكرة فى تحققها .

سار تاريخ العالم دائما بمقتضى العقل . وكانت النتيجة دائما هى الصواب ــ انتصر من يستحق الانتصار ، واندثر من وجب عليه الاندثار . القوة والحق هنا شيء واحد . العقل والواقع نفس الشيء .

كل أشكال السلطة والحكم والحضارة عاشت فترة من الزمن ثم اختفت من المسرح عندما آن أوان اختفائها . كان المؤرخون وفلاسفة التاريخ الأوربيون قبل هيجل يعتقدون فى وجود أزمة واحدة كبيرة مرت بها الانسانية الحديثة وتحررت واعتقد هيجل أيضا بوجود هذه الأزمة ، وتأثر أعمق التأثر بأحداث الثورة فى أمريكا وفرنسا غير انه عمم هذه الفكر الجديدة عن أزمة التاريخ على الماضى كله . **فالتاريخ عنده هو تاريخ الأزمات ، سواء أكانت أزمات سياسية أو عقلية أو أخلاقية .** من خلال كل أزمة ، وكل ثورة ، وكل انحدار أصاب أحدى الحضارات لترتفع مكانها حضارة جديدة بلغ العقل البشرى أو العقل الكلى درجة أعلى .. والنتيجة أن العقل قد بلغ الآن ــ أى فى عصر هيجل ! ــ أعلى درجة فى تنظيم الدول الأوربية ــ فى الدولة الدستورية أو الدولة الليبرالية التى لم تصل بعد الى الديموقراطية ــ كما بلغ أعلى درجاته فى التفكير الفلسفى **(أى فى فلسفة هيجل نفسه !) .** انتهى الفيلسوف الى هذه النتيجة دون أن يكشف لقرائه عن تصوره لما سيكون عليه المستقبل. ولم تكن فلسفته فلسفة مستقبل، بل كانت تحتقر كل تفكير مثالى **(أو يوتوبى) . فاليوتوبيا (بمعناها المشتق من الكلمة اليونانية)** تدل على مالا وجود له فى أى مكان ، أى مالا وجود له الا فى رأس المفكر وحده ! أما هيجل فيريد ان يفهم ما هو موجود ، **((فالوجود هو العقل)) . ولا وجود فى الواقع الا للحاضر وحده ،** وللماضى الذى أدى هذا الحاضر ويمكن معرفته والامام به **وليس يليق بالفيلسوف أن يفكر فيما يمكن ان يصير اليه هذا الحاضر حين يصبح ماضيا ، أى لا يليق به أن يفكر فى شيء ليس له وجود .**

بهذا المعنى كان هيجل مفكرا محافظا الى أقصى حد ، مفكرا تأمليا لا يريد أن يصل الى شيء عملى. فالشيء العملى قد تحقق بالفعل ، والمهم الآن أن يفهم ويوضع فى الصيغة الفلسفية المناسبة . وبهذا المعنى أيضا أحس هيجل أنه يمثل حضارة متأخرة ؛ ناضجة ،، وجدت الراحة بعد أن أصابتها هزات عنيفة فى الماضى القريب **(وأعماله المتأخرة تعبر كثيرا عن هذا الأحساس) .** ولعل هذا هو السر فى أن هذا العمل الضخم لم يجد ولا كان من الممكن أن يجد من يواصله ويستمر فيه أراد له صاحبه أن يكون خاتمة ونهاية . **وقد كان بالفعل كذلك .** ولهذا السبب اضطر تلاميذه ــ الذين لم يقف بهم طموحهم عند الشرح والتفسير ــ الى البحث عن أدوات أخرى وغايات أخرى ..

فلسفة تغيير العالم

هكذا أصبحت فلسفة التاريخ بعد هيجل أكثر قلقا



فولتير

وحدة مما كانت عليه قبله . ان **كارل ماركس** ــ هو تلميذه الذى لا يمكن فهمه بدونه ــ لم يعد يكفيه أن يفهم العالم ــ أى الماضى ــ بل يريد ان يغيره بالفلسفة ، أى يحدد صورة المستقبل ، بحيث يصبح هذا التحديد المسبق قوة فعالة . وهو لا يصبح كذلك حتى يتطابق مع الواقع ويعرف قانونه العلمى . كل ما كان قبله ــ وبالأخص عند هيجل ــ فلسفة ولا شيء غير الفلسفة ، أى تأملات بغير أثر فعلى ــ **أصبح عنده فعلا سياسيا يستمد قوته من الفلسفة أو من العلم (فكلاهما شيء واحد فى رأى ماركس) .** ومن ثم نشأت وحدة جديدة من الفكر والوجود غير التى ذهب اليها هيجل . **وصارت فلسفة التاريخ ــ التى ظلت حتى الآن شيئا لا ضرر منه ! ــ نظرية للثورة ، وصار فيلسوف التاريخ ثائرا ومعلما وداعيا الى الثورة .**

هكذا كان ماركس وانجلز ،، وان خلت حياتهما مما يلفت أنظار رجال الشرطة ! وهكذا كانت بعدهما حياة **لينين وتروتسكى وستالين** ، الذين أضافوا الى نظرية الثورة نظرية **((الاستراتيجية الثورية))** ، والرعب ، والارهاب ، ثم

طبقوها بالفعل عندما جاء الوقت المناسب . هؤلاء رجال ثلاثة ظلوا ينظرون للواقع او يكتبون تاريخه بأنفسهم كما فعل تروتسكى . أهم ما يميزهم هو اعتقادهم القاطع بأنهم يعرفون دورهم التاريخى تمام المعرفة ، وان اعمالهم معصومة من الخطأ ، لانها مستمدة من العلم بقوانين التاريخ نفسه. كل من يحيد عن وجهة نظرهم فالويل له . كل من يخالفهم فهو مرتد وخائن وعميل ..

الصراع العالمى الذى نعيش اليوم فى ظله بين شرق وغرب يرجع الى طموح ماركس الضخم ، الى دعواه الهائلة رغم انه عرف قوانين التاريخ العلمية وحدد مسيرته وهدفه الى الابد . كل من يقسم عهد الولاء لماركس ولينين فهو على حق . كل من يخالفهما فهو عدو وملعون ومطرود . تلك هى النهاية . لا نهاية فلسفة التاريخ بالطبع ، فهذه لاتنتهى. بل نهاية جانب من تراثهاالذى وصل به هيجل الى الذروة. نهاية مؤلمة، اقل مايقال فيها : انها مسئولة عن المأزق الذى نجد أنفسنا اليوم فيه ، وليس أمامنا الا الاختيار بين فناء مطلق أو سلام مضطرب . أيكون الانسان قد حمل نفسه اكثر مما تستطيع أو ماينبغى أن تحتمل ، عندما زعم أنه عرف معنى التاريخ وحدد هدفه واكتشف قوانين حركته ؟ هذا الزعم ليس جديدا . والمحاولة كذلك ليست جديدة . لقد جرب الانسان مايشبهها فى القرن التاسع عشر . أحس أنه يحيا في عصر تاريخى فريد ، يحمل فى أحشائه الامل او الخطر أو كليهما ، ولكنه على كل حال عصر لم يسبق له نظير .. فالعواصف السياسية والاجتماعية تجتاح اوروبا ، وانتصارات التقنية (أو التكنيك) والعلوم الطبيعية والبيولوجية تتوالى مؤذنة بانتصارات أكبر وأعجب ، والدين يهتز فى القلوب ، والكنيسة تضعف بصورة واضحة، والتوسع والغرور الاستعمارى يصلان الى اقصاهما ــ كل هذه ظواهر قوت شعور الناس بأنهم يعيشون فى عصر فريد، فارادوا أن يعرفوه ويحددوه . أرادوا أن يسموا أبا الهول باسمه ، ليأمنوا بعد ذلك شره ! وأقدموا على المحاولة بجهاز مثير يعين للابد قوانين التاريخ .. هكذا فعل **((أوجست كونت))** مؤسس النزعة الوضعية الحديثة . أعتقد أنه اكتشف القانون الذى تسير كل الحضارات بمقتضاه فى ثلاث مراحل : **مرحلة يسودها الدين ، وثانية تسيطر عليها الميتافيزيقا أو التأمل ، وثالثة وأخيرة يحكمها العلم الوضعى** . العالم الغربى ــ فى رأى كونت ــ قد دخل هذه المرحلة الاخيرة بالفعل . معنى هذا أن العلميين والخبراء الفنيين قد احتلوا مكان الملوك والكهنة والعسكريين ..

نفس الشعور بتفرد العصر ، نفس الاحساس بأزمة تاريخية لم يسبق لها مثيل ــ نجده أيضا عند هذا الفيلسوف الشاعر العجيب ــ عند نيتشه . انه يثور على المعرفة التاريخية التى يزدحم بها عصره ، حتى حجبت أكوام الوثائق والمعلومات عنه الرؤية ، وشلت ارادته ، وقتلت روح المخاطرة فيه ، وجعلت من المؤرخين أشباحا ضعيفة متهاوية تفترس الكتب القديمة وتضع النظارات على عيونها ! فلنطرح هذه المعرفة التاريخية ، ولنقبل على الحياة ــ على اللحظة الراهنة لنحقق انفسنا فيها بقوة وحرية ، وبلا وساوس أو أحزان !

بيد أن هذه اللغة الغاضبة الجارفة لم تستطع أن تخفى الاحساس بأزمة تاريخية متوقعة .. **تنبأ نيتشه بأن القرن العشرين سيشهد حربا طاحنة لن يعرف لها العالم مثيلا من قبل . وزعم أنه سيفرح فرحة كبرى بهذه الحرب!** وهو فى هذا يخطىء تقدير نفسه النقية الطاهرة ، كما ينسي أنه أعلن عن نفسه (فى كتابه الاكبر الذى لم يستطع أن يتمه هو ((ارادة القوة))) انه آخر العدميين . فكيف كان يرضي لنفسه أن يشهد ذلك العدم والدمار الرهيب الذى شهده العالم فى حربين عالميتين ؟ وكيف كان يتردد لحظة واحدة في التبرأ مما اقترفه النازيون باسمه وتحت شعار فلسفته التى أخطأوا فهمها وتجنوا عليها ؟

هاهو ذا رجل آخر يأتى بعده ــ مؤرخ أصيل بحق ــ **(يعقوب بوخارت)** فيشك فى معنى التاريخ وييأس من غايته وهدفه الذى بحث عنه **كانت وشيلر وهيجل** ، ويعود مرة أخرى الى رأى العصور القديمة عند اليونان والرومان : **تعب الانسان لايتغير** . موجة تعلو وموجة تهبط . كما فى الماضى كذلك فى الحاضر والمستقبل . لا جديد هناك . لاأمل ولا نجاة . ومع هذا فلم يستطع بوخارت أن يخفى احساسه بالازمة . صحيح ان روح التشاؤم تظل تأملاته فى تاريخ العالم كالسحابة الهادئة القاتمة . ولكن رؤاه القلقة على مصير الانسان تلمع كالبروق فى ثنايا رسائله وخطاباته الشخصية .

لم يختف الاحساس بالازمة منذ ذلك الحين من فلسفة التاريخ لم يختلف من أى تفكير فى مستقبل العالم والحضارة والانسان . سواء بالامل او بالياس ، سواء تنبأ بنهاية التاريخ كله أو تنبأ بنهاية التاريخ الماضي وراح يعلن عن بداية التاريخ الحق ، التاريخ الحر العادل المجيد .

تدهور الغرب

لانستطيع أن نختم هذا العرض السريع بغير أن نذكر اسم **ازفالد شبنجلر** . قد تكون فلسفته اليوم خاطئة فى بنائها العام ، وهناك بالفعل اكثر من دليل على خطئها . ولكن لاشك أن شبنجلر ــ الذى وضع كتابه عن تدهور الغرب تحت تأثير الحرب العالمية الاولى ــ قد خاطب جيله وعبر عن عصره ، ورسم صورا تاريخية غنية رائعة تدل على نفاذ بصيرته ، وقدم مجموعة من الملاحظات عن الحاضر

والمستقبل اثبتت الايام صدقها ، وان كان قد حشرها في ذلك البناء العام الذى لايتسع المجال لبيان خطئه . **المهم انه يثبت لنا كما اثبت كل من حاول ذلك قبله ان تصوير التاريخ فى صورة شاملة تامة مغلقة لم يعد أمرا ممكنا ولا مفيدا ، وأن محاولة الانسان ان يحدد معنى التاريخ وهدفه ويتنبأ بمستقبله محاولة مقضى عليها بالفشل .** ذلك لانها تفوق طموحه وقدرته وطبيعته المحدودة الفانية ، ولانه ـ أى الانسان ـ يحيا فى الزمن ويرتبط به ، ولذلك فلايمكنه أن يحدد معناه وهدفه من داخله . أى أن فلاسفة التاريخ قد وضعوا لغز الوجود والانسان فى قلب الزمن ، وارادوا ان يلتمسوا التحقق التام ـ أى الوحدة الكاملة بين الوجود والفكرة أو بين الواقع والواجب ـ فى هذا الزمن المتحول نفسه ، مع أن هذه الوحدة لايمكن أن توجد على الارض ولا فى الزمن . قد يستطيع الزمن أو التاريخ ـ بأزماته وكوارثه ، بانتصاراته وهزائمه ، بأفراحه وآلامه ـ أن يكشف لنا عن معنى المطلق أو المتعالى أو الروح الكلى أو الفردوس الاخير أو ماشئنا من أسماء لاتسميه ـ **ولكنه لن يستطيع أبدا أن يوجده فى الزمن ، لن يستطيع أن يحققه على الارض ..**

فلسفة التاريخ ومعنى الزمن

أدركت فلسفة التاريخ ـ منذ عهد القديس أوغسطين الى اليوم ـ معنى الزمن ، وعرفت أنه يكمن فى التحول والتغير والتجدد . هذا كسب ضخم لن نفقده بعد اليوم . لايمكن أن نرجع للوراء . لايمكن أن نعود لتصور توكيديدس أو غيره من مؤرخى الاغريق والرومان . هؤلاء الذين اعتقدوا أن الخير كله فى العصور الذهبية الماضية ، وأن الزمن لاياتى بجديد . ولكن لايمكن أيضا ـ بعد مسيرة خمسة عشر قرنا من أيام أوغسطين ـ أن يظل الانسان يبحث عن المطلق فى الزمن والتاريخ ، مع أن المطلق نفسه ـ أيا كان الاسم الذى نعطيه له ، وسواء وضعناه فى عالم آخر أو قلبناه ووضعناه على الارض ! ـ لابد ـ بحسب اسمه نفسه ! ـ أن يظل خارج الزمن والتاريخ . كل ما يستطيع الزمن أن يفعله هو كما قلت أن يكشف عنه ، يرينا لمحة منه ، يشدنا اليه ـ أما تحقيقه فى التاريخ فهو المستحيل بعينه . وتحقيق هذا المستحيل ـ فى ثوبه المقدس أو فى أثوابه الارضية ! ـ هو الذى جر الغرب ومعه بقية العالم الى الازمات المتوالية التى لاحظها فلاسفته ومؤرخوه ، وجر البشرية اليوم ـ ازاء التقدم المذهل فى العلم والتقنية وأسلحة الدمار ، والتأخر المذهل أيضا في الضمير والاخلاق ـ الى الاختيار المحتوم الذى تنبأ به كانت : **فاما الفناء المطلق الذى يتساوى فيه الغالب والمغلوب فى راحة القبر ، واما التعلم من دروس غاندى ومارتن لوثر كنج فى العصر الحديث ، ومن تعاليم الحكماء والشعراء فى كل العصور ـ بل ومن مجرد النظر الى براءة الطفل والحيوان ، واحترام الحياة فى كل مظاهرها الطبيعية المحيطة بنا وان كنا لانراها كالعمياء ـ أى بالتخلى عن القوة والعنف ، وترويض الغرائز المظلمة العمياء ، ومحاولة العيش فى سلام .**

أكثر من سؤال

هل نستخلص من هذا أن جميع المؤرخين الذين ذكرناهم مخطئون ؟! بالطبع لا . ولايمكن أن يصل بنا الغرور أو الغباء الى هذا الحد ! لقد أحسوا بأزمات عصرهم وحاولوا أن يعبروا عنها أو يفسرها أو يقترحوا لهاالدواء أو يحملوا الى أجيالهم بعض الراحة والامل والعزاء ، ولقد أصبح الاحساس بالأزمة بفضل هؤلاء الفلاسفة والمؤرخين جزءا لا يتجزأ من فهمنا للتاريخ ، بل ان هذا الاحساس قد زاد اليوم عنه في أى وقت مضى . **فاذا قلنا ان البشرية تمر بمرحلة لا نظير لها فى تاريخها الطويل لم يكن قولنا مجرد تزويد أو تأثر (ساذج بما سبق ، وأمكن أن يصدقنا الجميع ، لا فرق فى ذلك بين الفيلسوف ورجل الشارع . ألم يسر الانسان على أرض القمر مرتين ؟ ألا يدل هذا على أن العقل البشرى قد بلغ أقصى درجات تقدمه ، وأنه ـ وهذا الأهم ! ـ لا يزال يواصل تقدمه ، ولا نهاية للآفاق التى يتطلع اليها ولا للمفاجآت التى ننتظرها منه ؟ ـ** ومع ذلك فلا يزال الألوف يموتون من الجوع أو التعذيب أو المذابح الجماعية فى فيتنام أو العدوان البشع على شعب فلسطين والشعوب العربية . **ألا يدل هذا من ناحية أخرى على أن نفس العقل البشرى قد بلغ أقصى درجات تأخره ؟ ألا يثبت أن التوازن الذى حلم به كانت أو غيره بين العقل والضمير و بين العلم والخلق قد اختل أفظع اختلال ، وأن هذا العقل ينطلق الآن بسرعة الصاروخ ، بينما الضمير يلهث على عكازه وراءه ؟ ! ألم يأت اليوم الذى تنبأ به حكيم كونجسبرج ـ يوم تجد البشرية نفسها أمام اختيار وحيد بين فناء مطلق وبفعل الاسلحة المهلكة أو تعايش في سلام منظم دائم فى ظل ((جمعية من الامم المستقلة)) ؟ ألا نعيش الآن فى هذا اليوم ؟ !**

ولكن ((**جمعية الأمم**)) التى كان يحلم بها قد وجدت واتحدت ، والبشرية تتحرك كل لحظة ـ حقيقة لا مجازا ، واقعا لا تشاؤما ! ـ على حافة الهاوية . **فما بال الضمير العالمى لا يستيقظ ؟ واذا كان قد استيقظ لدفع ظلم بشع ـ كحرب الابادة فى فيتنام ـ فلما لا يتحرك بنفس القوة لدفع ظلم لا يقل عنه بشاعة ، كتشريد شعب من وطنه ؟ أين ضمير الشباب النقى وأين ضمائر علماء العالم ومفكريه ومثقفيه وكيف لا تتفق على استنكار كل هذه الجرائم التى تتستر وراء الأكاذيب والخرافات المتعصبة ؟ واذا كانت أكاذيب الصهيونيين وخرافاتهم قد خدعت عددا كبيرا من الناس العاديين فكيف استطاعت أن تخدع هذه الصفوة التى ينبغى أن تفكر لنفسها وبنفسها ؟**

المفكر وتيار عصره

لا يستطيع المؤرخ أو الفيلسوف أن ينفصل عن عصره ، ولا يملك ــ كما قال هيجل ــ الا ان يكون تعبيراً عن زمنه ومرآة له . وأقصى ما يطمع فيه المؤرخ أو الفيلسوف هو أن ينطق بلسان جيله ، أن يصور أزمته ، أن يخاطب ضميره ، ان ينبه ، ويوقظ ، ويثير .

وليس كاتب السطور مؤرخا ولا فيلسوفا . ان أقصى طموحه أن يكون مجرد شاهد أمين ــ وهو يشترك في هذا مع كل من يكتب . وهو لا يستطيع مهما طالت به الرحلة بين العصور أن ينفصل عن عصره وجيله وأهله . ففي الوقت الذي يكتب فيه هذا الكلام ، وفي الوقت الذي تقرءونه ، يضحي اخوة لكم وله بحياتهم وينزفون دماءهم .

لا لكي نكتب عن معنى التاريخ أو نتفلسف في أزمته ، فالشيء الوحيد الذي يجدي في هذا الموقف الذي نعيشه اليوم هو نقطة الدم وطلقة الرصاص . وأن يقيننا وعزاءنا الوحيد هو اننا جميعا نشترك في معركة واحدة كبيرة ، واننا ــ كما قال شكري عياد في تعبير صادق جميل ــ نقف جميعا في صف واحد كبير وننتظر دورنا . هؤلاء الاخوة يعطون للتاريخ بهذه الدماء التي يبذلونها معناه الحقيقي الدافيء ويجسمون أزمته لكل من يرى وكل من يحس . انهم أيضا يسألون بطريقتهم التي لا يوجد الآن سواها : **الى أين يسير التاريخ ؟** وهم لا يسألون فحسب . بل يجيبون بالفعل : **بالدم والشجاعة ، بالمدفع والطائرة ، بالعبور كل ليلة ، بتثبيت العلم على الأرض التي يدنسها العدو** وهم أيضا يخاطبون الضمير العالمي بطريقتهم : لماذا لاتستيقظ ؟ أهناك دليل على أزمة الجنس البشري أوضح من هذه الازمة التي نعيشها في هذه المنطقة من العالم ؟ أهناك دليل على تقدم العلم والتقنية الى أبعد حد وتأخر الخلق والضمير الى أبعد حد أيضا من هذه الدولةالصغيرة التي تفكر تفكير العصابات وتسرق وتنهب وتقتل كما تفعل العصابات !

لقد استعارت التقدم العقلي والعلمي فجاءها جاهزا من تلك الدولة الكبيرة التي تمثل النموذج الصارخ لتفوق العقل الى أقصى حد وتخلف الضمير الى أقصى الحدود .. **واذا لم تستيقظ الآن يا ضمير العالم ويا مناط الامل الوحيد الباقي للجنس البشري فمتى تستيقظ ؟ الا تريد أن تفتح عينيك الا والبشرية في قرارة الهاوية ؟ !**

الى أين يسير العالم ؟

حقا ! ما اخطره من سؤال !

وما أعظم وانبل الجواب الذي يقدمه الابطال

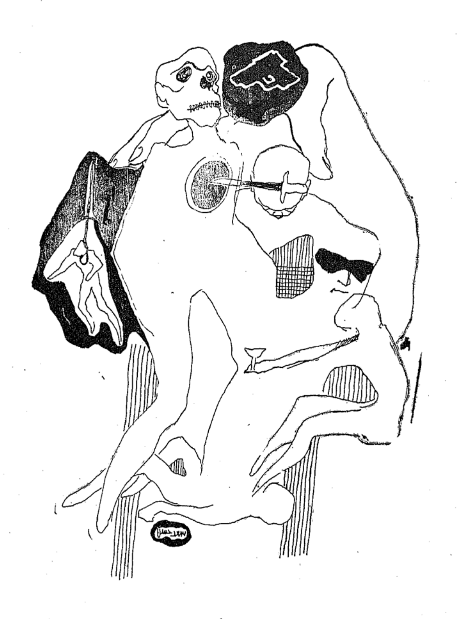
والشهداء على أرضنا وفي كل مكان يشهد اليوم

مأساة التطور العقلي المذهل والتخلف الخلقي البشع

في آن واحد .. ؟

عبد الغفار مكاوى

تعتمد مادة المقال على ثلاث دراسات للمؤرخ المعاصر «جولدمان» ــ ابن الكاتب المشهور توماس مان ــ عن المشكلات الرئيسية في فلسفة التاريخ ، والمؤرخ ارنولد توينبي عن البشرية في سنة الهبوط على القمر والتكنولوجيا وتطور السياسة العالمية ، والاستاذ فريتس فاجنر ، أستاذ التاريخ بجامعة ميونخ ، عن مشكلة التاريخ العام للبشرية والموقف الحاضر ، وقد نشرت جميعا في مجلة « الجامعة » عددي يونيو وسبتمبر سنة ١٩٦٩ .



مشكلات منهجية
فى دراسة السلوك الإجرامى

صلاح عبد المتعال

تحتل دراســة السلوك الاجرامى فى عصرنا الراهن موقعــا له أهميته البـالغة فى مجــال الدراسات الانســانية بصفة عامة وبحوث العلوم الجنائية والعقابية بصفة خاصة • ويبزغ هــذا الإهتمام المتزايدنتيجة لقلق المجتمع المطرد وتهديد أمنه وسلامته ، ومن ثم تبادر الحكومات والهيئات المختصة باتخاذ الاجراءات لمنع الجريمة والحد من معدل نموها بقدر الامكان لا بقصد تحقيق الغاية من ضبط سلوك الافراد فحسب بل لاعتبار ذلك مؤشرا له دلالته الهـامة على اسـتقرار الاوضاع والهيمنة على كافة الامور مما يدعم كيانها الشرعى ويضفى عليها أحقية الاستمرار فى أداء مهمتها ، هذا فضلا عن أن بعض الدول تجـد فى انتشار السلوك الاجرامى ، بأى صــورة من صــوره ، مايعرقل بشكل أو بآخر خطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وبذلك نلاحظ أن الانتحاء نحــو الاهتمام العلمى بالمشــاكل الانحرافية أمر يمكن تفســيره على هدى مفـاهيم التقــدم الاجتماعى والاقتصادى ، وعلى هذا الاساس ترصد كثير من الميزانيــات والجهــود الفنية والبشرية لدراسة الســلوك الاجرامى وما يرتبــط به من ظواهر متعددة ، باعتبار انهذا فى حد ذاته نقطة الانطلاق لحصر النشاط الانحرافى فى أضيق حيز اجتماعى ممكن •

قيود منهجية

ويثار تساؤلات لها أهميتها حول مدى التزام الباحثين فى دراسة السلوك الاجرامى بالشروط المنهجية للعلم ؟ وما هى القيــود والمشاكل التى تعترضهم فى عملية البحث وتؤثر فى انحيــازهم الى فلسفات ونظريات مسبقة تؤثر بشكل أو بآخر فى انحرافهم عن الحـد الموضــوعى الذى يجب الالتزام به ؟ وما مدى صلاحية منــاهج البحث وطرائقها المعروفة والشــائعة فى دراسة السلوك الاجرامى فى مجتمعنا ؟ فواقع الأمر ان استخدام هذه الاساليب حديث نسبيا بالقياس الى المرحلة العمرية التى بلغتها العلوم الاجتماعية والجنائية فى مصر هــذا بالاضافة الى عدة محددات تؤثر بشكل أو بآخر فى توجيه البـحوث والدراسات نحو الالتزام بمنهــج وأدوات معينة دون غــيرها (صلاح عبد المتعــال ، الأسس المنهجية لدراسة ظــاهرة الجريمة فى المجتمـع العربى ، الحلقة العربية الثــانية للدفاع الاجتــماعى ، فبراير ١٩٦٩) • وهذا قد يرجع الى عدة عوامل منها أن الباحثين فى هذا المجــال يختلفون فى معالجتهم **للمفاهيم والمصطلحات الاساسية** وذلك لتبــاين ثقافاتهم واتجاهاتهم المدرسية وتخصصاتهم وهذا أمر لا غبار عليه ، ويمكن تقريب وجهات النظر فيما بينهم بالشروع فى توحيد هــذه المفــاهيم والمصطلحات الرئيسية بكافة السبل العلمية ••

أما الأمر المحفوف بالمخاطر فهو تبنى بعض الباحثين لمفهومات تم تعريفها من واقع ثقافات مغايرة لثقافة المجتمع المصرى المتمايز بخصائص حضارية لايمكن الاختلاف عليها ، أو أن يجد الباحث نفسه أسير اتجــاهات مدرسية معينة فى تفســير السلوك الاجرامى تجعله ملتزما دائمــا بمفاهيمها الخاصة التى تنطلق منهــا للمعالجة المنهجية لكل مشكلة انحرافية دون التمرس على القيــام بدور نقـدى يحرره من أسار هذه المفاهيم وما يتبعها من توجيه الباحث نحــو اختيــار منهج أو أسلوب معين لاكتشاف أبعاد السلوك الاجرامى •

ومما يؤثر بالضرورة فى هــذا الشأن ما لدى البــاحث من تصــور خاص عن ظواهر السلوك الانحرافى أو **الاطار التصــورى أو المرجعى** وهــو الصورة الذهنية المنظمة من الظــاهرة الاجرامية التى يسترشد بهــا فى بداية عملية البحث ، ويفسر تفرع الاتجاهات العلمية فى تفسير السلوك الاجرامى الى اتجاهات بيولوجية ونفسية واجتماعية عن طريق الاطار التصويرى لكل منها والسابق على عملية البحث ، وهو الاطار الذى يؤدى الى تحديد مناهج كل اتجاه وطرائقه المتبعة فى عملية جمع البيانات وتصنيفها وتحليلها ومعالجتها ، وما يثيره كل اطار تصورى من أسئلة يحاول الاجابة عليها• والمفروض أن كل هذه الاتجاهات العلمية تحاول بالدراسات المتتابعة العــودة الى الاطار النظرى أو التصورى بعد معالجة النتائج وتفسيرها مؤيدة اياه أو كاشفة أخطاءه منتهية الى تعـديل الصيغة الاتباعية له (رايلى ، البحث السسيولوجى ١٩٦٣) فان لم يحدث ذلك فان البحث يـدور فى دائرة مفرغة تحول دون التوصل الى أى مفهــوم جديد فى العالم •

وقد يتأثر الاساس النظرى لدراسة السلوك الاجرامى فى أغلب الاحوال بالمناخ الفكرى السائد والنظريات الشائعة فى تفسير السلوك الانسانى، كما يلعب تبــاين **المعتقدات والايديولوجيات** دورا فعالا بالنســبة لمستقبل البحوث والدراســات الانســانية بصــفة عامة ، ودراسات السلوك الاجرامى بصفة خاصة • فالباحثون ينتسبون الى نظــام اجتــماعى قائم يتبنى أفــكارا ومعتقدات

وايديولوجية معينة • ويحـــدد النظام الاجتماعى العلاقة بينه وبين الباحثين ـ خاصة فى المجتمعات الحديثة ـ الذين يشق عليهم تمويل البـــحوث والانفاق عليها • ومن ثم فان المنفعة متبادلة بينهم وبين أجهزة هذا النظام ، ومنهم من يحرص على تدعيم الافكار المؤيدة للنظام الســـائد بنتـــائج البحوث أو الدراسات ، ومنهم غـير المقتنع الذى يقف موقف الحيـــاد منه أو المنـــاهض ، الا أن واقع هؤلاء جميعا يواجه سيطرة النظم الاجتماعية باختلاف نمـــاذجها على موارد معيشتهم وتوفـير سـبل الحيـــاة لهم وتدعيم بحوثهم ودراساتهم بالموارد المادية التى لا يمكن الاستغناء عنهـا فى عصرنا الراهن لانجاز التحقيقات العلمية • ويمكن عند عقد مقارنة بين نمـــاذج مختلفـة فى النظم الاجتماعية : فنجد أن دراسات السلوك الاجرامى فى المجتمعات الرأســمالية تتغــاضى عن الابعاد الاقتصادية فى تفسير السلوك الاجرامى ، وتهتم بأبعاد الســمات الفردية والتركيز على خصائص الشـــخصية •• دون الاقتراب من تأثير الصراع الطبقى على ازدياد معـــدل الجرائم ، أو المساس بمشاعر الطبقة المستغلة أو اغتصــاب أصـحاب السلطة الذين يعبرون عن مصالح النظام القائم•

(سذرلاند ، كريسى ، «مبادىء علم الاجـــرام ، ١٩٦٠) يقابل ذلك عدم جرأة الباحثين فى بعض المجتمعات الاشتراكية فى تفسير السلوك الاجرامى على أساس قصور فى تطبيق النظام الاجتماعى ، والافتراض السهل بأن الجريمة من رواسب الفكر البرجوازى ، واعتبار بعض المذهبيين ذلك مشجبا معلقا عليه بعض العوارض الاجرامية المعبرة عن التناقضات الناشئة من سوء التطبيق أو نتيجـة تغيرات جديدة •

فالقهر الايديولوجى ـ ان جاز هـذا التعبير ـ يمارس دوره فى توجيه البحوث والدراسات فى نطاق السلوك الاجرامى لمصلحة الدفاع عن النظم والمعتقدات الســـائدة بطرائق مختلفة ظاهرة أو مستترة ، دون المساس بجوهر العقائد والمذاهب القابعة وراء القوانين التى يسنها أصحاب المصالح فى المجتمع ، وهذا فى حد ذاته يشـــكل ضبابا فكريا يحول بين الباحث ورؤية تصورات وأفكار وطرائق مستحدثة لاكتشاف نتـــائج جديدة قد تعدل من النظريات السائدة فى عصره •

والواقع انهذا القيد لو استسلم له الباحثون لتجمدت منـــاهج وطرائق البــحث فى العلوم الانســـانية ، ومن ثم يلاحظ فى كل حقبة فكرية انطلاق صيحـات فكرية جديدة تعبر عن ضرورة كسر هــــذه القيــود الايديولوجية رغم ما يلاقيه المفكرون من صعوبات ومحن تعترض نضالهم فى حرية البحث، وقد كان لمثل هؤلاء الرواد المفكرين قصب السبق فى تقدم العلم والأخذ بيد البشرية نحو التقدم والرفاهية •• ومن ثم فان مبدأ حرية البحث العلمى وحصانة الباحث العلمى من جميع أنواع القهر هو مبـدأ يجب أن تقره الدول التى تريد اختزال الزمن لتحقيق شعار التقدم •

كما يتحكم فى عملية اختيار الأدوات الملائمة **للبحث المستوى الثقـــافى للمجتمع** فقد يؤدى استعارة أداة بحث أو مقياس نفسى أو اجتماعى ـ لم يتم تمصـــيره ـ الى الحصـول على استجابات مضللة • وينطبق ذلك أيضا بالنسبة لمحاولة جمع البيانات التى تمس الحالة الاقتصادية والحريات الشخصية والتقاليد والمعتقدات دون أن يوضع فى الاعتبـــار مدى وعى المفحوصين أو ذويهم بأهمية هذه البحوث والاقتناع بجدوى نتائجها فى المدى القريب أو البعيد •

وثمة اعتبار آخر وليس عن نفس الدرجة من الأهمية ، الا أنه يشـــكل خطرا فى تحيز بعض البـــاحثين فى نطاق السلوك الاجرامى لاساليب وأدوات علمية يحددها تخصصهم دون أن يأخذوا فى اعتبارهم جدوى أساليب التخصصات العلمية الاخرى • وقد تعرضت دراسة السلوك الاجرامى لعواقب القفز الى تصميم النتـــائج للاقتصار على أدوات البحث التى يفرضها تخصص فرع معين من العلوم الانسانية أو اتجاه مدرسى خاص فى تفسير السلوك الاجرامى سواء كان الاتجاه بيولوجيا أو نفسيا دون أن يوضع على مرمى البــحث أهمية الأبعاد الاجتماعية ، ولما تم اكتشاف هذه الابعاد أخذت مشكلة السلوك الاجرامى تتضح ملامحها ـ الى حد ما ـ وتسلح الباحثون عندئذ بالقدرة على اختيار مناهج وأدوات متعددة ومتنوعة أخذا بمبدأ

العمل الجماعي في البحث العلمي الذي يعتبر حلا موفقا لتفادي خطر الانزلاق في متاهات تقـديس الاساليب الفنية لـكل تخصص على حدة ، وعدم التمتع بالنظرة الشمولية المتكاملة في فهم أبعاد ظـاهرة السلوك الاجرامي وثيقة الصلة بمختلف أبعاد البناء الاجتماعي ككل موحد ٠

في مناهج بحث السلوك الاجرامي ٠

ثمة منهجان أساسيان يمكن إتبـاع أحدهما أو كليهما معا على التوالي أو التوازي طبقا لدرجة توفر المعلومات والنظريات المفسرة لظواهر السلوك الاجرامي وانماطه ٠

أولهما ٠٠ المنهج الاستطلاعي والوصفي الذى يتبـــع في حالة عـــدم توفر البيانات المنظمة عن الظاهرة الاجرامية موضوع البحث ، وبذلك يصبح الهدف الأســـاسى الذى لا غنى عنه فى أى عملية بحث محـــاولة الاستقصاء الدقيق عن الظـاهرة والتعرف عليها مجسدة فى صورة وقائـع يمكن معالجتها موضوعيا وتنمية فروض علمية كمحاولة لتفسير هذه الوقائع تفسيرا مبدئيا ٠

والمنهج الثـــانى ٠٠ منهج اختبـار الفروض العلمية والتـــحقق من مدى صحتها على أســـاس تجريبى (سلتز وجاهودا ، منـــاهج البحث فى العلاقات الاجتـــماعية ١٩٦١) منتهيـا الى تعميم يستخدم كقاعدة للتفسير أى فى صـــورة نظرية علمية أو تعديل أو اثراء نظرية سابقة، أو البرهنة على قانون علمى يوضح العلاقة السببية بين المقدمات والنتائج أو بين المتغيرات المعتمدة والمستقلة ، هذا فضلا عما يقدمه هذا القـــانون العلمى من قدرة بشرية يمكنها من التحكم فى هذه المتغيرات ٠٠

وجدير بنا ان ننوه بأن المنهج الثانى ـ منهج اختبار الفروض تجريبيا ـ أكثر المنـــاهج اغراء للباحث لاشباع طموحه واثبات كيانه العلمى دون اهتمام بمدى حاجة ظاهرة السلوك الاجرامى التى لم يستكمل ادراك معــالمها الرئيسـية الى المنهج الاستطلاعى والوصفى ٠ اذ ان الباحث فى حالته هذه يقتبس بعض النظريات المفسرة المستندة الى شواهد تجريبية مغـــايرة للشـــواهد الكائنة فى مجتمع البحث الذى يتبـــاين السلوك الاجتماعى والانحرافى فيه عن نماذج السلوك فى المجتمعات الاخرى ٠

وينطبق ذلك فى حالة مجتمعنا حديث العهد ببحوث السلوك الاجرامى ودراساته ، والمفتقر الى المعلومات والبيـانات المنظمة التى تحـــدد حجم الظواهر الاجرامية وأنواعها المختلفة النـابعة من ثقافة مغايرة عن الثقافات الغربية التى نبعت منها نظريات مفسرة للسلوك الاجرامى ٠

أساليب بحث السلوك الاجرامى :

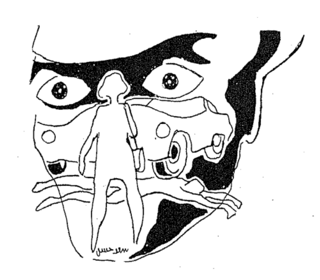
ينبغى علينا أن نشـــير الى أساليب البحث الاساسية فى دراسة العلوم الاجتماعية والجنائية قبل التعرض للأساليب النوعية لدراسة السلوك الاجرامى ٠

فلا شك أن أسلوب الملاحظة لا يكن الاختلاف عليه باعتباره الاساس الاول للاستقصاء والبحث، الا ان اصطناع أساليب أخرى وسيطة يلجأ اليها الباحث عندما تعترضه صعوبات تعوقه عن الملاحظة المباشرة أمر يفرضه تعقد العلاقات الاجتماعية كلما تطور المجتمع من البساطة الى التركيب فى بنيانه الاجتماعى ٠ وقـــد لجأ علمـــاء الانثروبولوجيا الاجتماعية الى استخدام أسلوب الملاحظة المباشرة فى نموذج المجتمعات المتخلفـة ٠ ومن أمثلة ذلك دراسة (مالينوفسكى ١٩٢٤) عن الجريمة والعرف فى المجتمع البدائى٠ ولا غبار اطلاقا عن استخدام هـذا الاسلوب فى بعض قطاعات المجتمع المصرى كالمجتمعات الريفية والصحراوية وشبه الصحراوية (د ٠ أحمد أبو زيد ، الثأر ، ١٩٦٥)٠ (قام باجراء هذه الدراسة المركز القـومى للبحوث الاجتماعية والجنائية فى قرية بنى سميع لمركز أبو تيج) ٠

كما اصطنعت التجربة العلمية المبـاشرة ـ كنوع من الملاحظة المشروطة ـ نظرا لقصور العقل البشرى عن ملاحظة الظواهر العديدة المتشابكة فى المجتمع ٠ ومن ثم تتم التجريب فى نطاق دراسة السلوك الاجرامى على مستوى عينه من المجرمين (تجريبية) وأخرى من غـير المجربين (ضابطه) بهدف تحقيق فرض علمى محدد ٠ وثمة أمثلة فى

هذا المجال ، كدراسة جلويك (Glueck ١٩٥٧) عن الجانحين وغير الجانحين **تفسير جناح الاحداث** ودراســـة ركلس ودينتز (ركلس ١٩٦١) عن مجموعتين : التجريبية من غير الجانحين والضابطة من الجـــانحين ، حاولا التوصـــل الى مدى تأثير (تصور الذات) self-concept عن الانحراف أو عدم الانحراف وثمة بحوث مصرية أجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنـــائية عن بعض أنماط الجريمة مثل ظاهرة الفشل عند الاحداث (غير منشور) وبحث تعاطى الحشيش (١٩٦٤) ٠

كما يستخدم المنهج المقـارن أو التجربة غير المباشرة (دوركيم ، قواعد المنهج فى علم الاجتماع) كنوع آخر من الملاحظة اذ أنه لا يمكن التحكم فى المجتمعات الكبيرة التى لا يمكن اخضاعها للتجريب المباشر بل يكفى المقـــارنة بين الوقائع الاجرامية المسجلة أو التى يمكن تسجيلها لتـــحديد أثر العوامل المشتركة فى أنماط اجرامية متشابهة ٠



اساليب نوعية فى دراسة السلوك الاجرامى

الاحصاءات الجنائية ، واحصـــاءات السمات والعوامل الاجرامية :

يمـــكن أن نلقي نظرة عاجلة على الاســـاليب والادوات النـــوعية لدراســـة السلوك الاجرامي لا بقصد شرحها ولكن بهدف تحديد مدى موضوعية كل أسلوب أو أداة ٠

وتحاول الاحصاءات الجنـــائية تحديد حجم الجرائم وانماطها ودرجة الارتباط بين عدد الجرائم وبين بعض العـــوامل الطبيعية ، والاجتـــماعية فالعوامل الاقتصادية كمحـــاولة بونجر Bonger المشهورة٠٠٠ وهذا الاسلوب الاحصائى له حدوده التي لا يمكن أن يتعداها فهو لا يحقق التعمق فى دراسة الشـــخصية ودينامياتها كمـــا لا تمثل الاحصاءات الجنائية مجتمع المجرمين ككل الا من وقـــع فى قبضة رجال الشرطة ، منحية الارقام المجهـــولة فى الجرائم التى لا تتمكن من رصدها بالضرورة ٠٠ الا انه قد استحدث أخيرا أسلوب التـــقرير الذاتى للكشف عن الجـــرائم الخفية كمحـــاولة لرصد حجـــم الجرائم المسجلة وغير المســـجلة (صلاح قنصوه ، تقويم كفـــاءة منهج التقرير الذاتى فى كشف الاجرام الخفى ، المجلة الجنائية القومية ، مجلة ١٢ ، يوليو ١٩٦٩)

ويتأثر حجم الجرائم المســـجلة بمدى اهتمام الرأى العام ونشاط أجهزة الضبط ، كما يلازم الاحصاءات الجنائية النقص فى معـــدل ثباتها فى

البلاد حديثة العهد بأجهزة الاحصاء الجنائي ، ولكن تتضح قيمة هذا الاسلوب فى عملية جمع الوقائع الجنائية وتحديد أنماط الجرائم واتجاهاتها بالزيادة أو النقص وتوزيعها الايكولوجى ، الا أن الاحصاءات الجنائية يعوزها القدرة على تنظير الوقائع الاجرامية ٠

وقد لجأ الباحثون لادراك هذا التصور الى أسلوب المقارنة الاحصائية للسمات والعوامل الاجرامية بين المجرمين وغير المجرمين لتحديد قيمة ودلالة عامل معين أو أكثر يؤدى الى انتشار نمط أو أكثر من أنماط السلوك الاجرامى ٠

وقد حاول المستحدثون لهذا الأسلوب صياغة نظريات مفسره للسلوك الاجرامى ، الا أن هذا المنهج رغم قيمته يعانى من بعض نواحى القصور على أساس أن عينة البحث تختار غالبا من المؤسسات العقابية التى لا يمثل نزلاؤها الى حد ما ، المجتمع الأصلى للمجرمين ، كما يعترى الباحثون الشك من استجابات المسجونين فيما يتعلق بالنسبيات الخاصة بالحالة الاقتصادية والظروف الاجتماعية التى أحاطت بهم قبل الحكم عليهم ٠ وبالرغم من أهمية هذا الأسلوب الاحصائى الذى يلجأ اليه لتحديد أسباب الجريمة باستخدام بعض المقاييس المبتكرة لتحديد خصائص المجرمين وظروفهم ، فانه ليس كافيا فى حد ذاته لفهم وتفسير الظواهر الاجرامية ، وبذلك لجأ بعض علماء الاجرام الى استخدام أساليب أخرى منها أسلوب دراسة الحالة ٠

دراسة الحالة

ولا يقتصر أسلوب دراسة الحالة على دراسة وحدات من الأشخاص المستخدمين بل أيضا وحدات من الجماعات أو المجتمعات المحلية ٠

ويستخدم فى نطاق دراسة الحالة أدوات ومقاييس تتناول موضوعية الدراسة من الناحية الكمية وذلك كبعض المقاييس السيكولوجية المقننة واجراء استبار interview مقنن أو شبه مقنن أو تطبيق أنواع من الاستتبارات questionnaires والاستبيانات schedules ٠ وقد زخر تراث علم الاجرام بأمثلة كثيرة من أسلوب دراسة الحالة كدراسات جلويك وهيلى وبروز وشو وماكاى وبولين يونج التى أوضحت امكانية تحقيق كشف شامل عن طريق دراسة الحالات ، وكذلك الدراسات التى أجراها المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية عن ظاهرة النشل عند الأحداث (غير منشور) والدراسة الاكلينيكية عن البغاء فى القاهرة ١٩٦١ ٠٠

ولا يخلو أسلوب دراسة الحالة من النقد : فالحالات التى يتم دراستها لا يمكن أن تصور المجتمع الأصلى تصويرا كاملا مهما تعددت ، ومن ثم فهى قيد منهجى لا يمكن من تعميم النتائج مالم يكن نطاق المجتمع الذى أختيرت منه الحالات محددا بدقة بالغة ، وقد حاول ألفرد لند سميث اجتياز هذه العقبة باستخدام أسلوب « دراسة الحالة المحدودة » فى دراسة عن ادمان المخدرات وأخرى عن جريمة الاختلاس ، وذلك من أجل التوصل الى تعميمات شاملة بعد تحقيق فروض غاية فى الوضوح لأنماط من السلوك محددة غاية التحديد ٠

(سبزرلاند كريسى ١٩٦٠)

Sutherland and D. Cressy, 1960

ويحاول أسلوب دراسة الحالة بشقية سد النقص فى الدراسات القائمة على الاحصاءات الجنائية التى يعوزها الثبات والصدق ، ويؤدى التساند بين كلا الأسلوبين الى تحقيق نوع من التكامل المنهجى فى البحث للقيام بدراسات استطلاعية تفيد فى عملية اكتشاف الفروض الدالة التى يمكن اختبارها تجريبيا باستخدام مناهج وأساليب أخرى ٠

مخالطة المجرمين فى البيئة الاجتماعية

يحاول هذا النهج العودة الى الأساس الأول فى الدراسة العلمية ، وهو الملاحظة المباشرة ، وتعتمد هذه لطريقة على اتصال الباحث بالمجرمين فى البيئة الاجتماعية خارج المؤسسات العقابية والاطلاع على المواقف اليومية وظروفهم المعيشية كما يراها المجرمون أنفسهم ، وهذه الطريقة من أشق الأمور التى يصعب على الباحث القيام بها ، فهى تحتاج الى مهارة معينة لمخالطة المجرمين ووعى كامل من السلطات عن امكانية تحقيق هذا الأسلوب ، وحسم مشكلة صراع الأدوار عند الباحث باعتباره ملاحظا موضوعيا لجماعة من المجرمين ومشروعاتهم الخاصة للاضرار بمصالح المجتمع ٠

ويفتقر هذا الأسلوب الى القدرة على عملية التثبت من البيانات أو مراجعة المعلومات التى حصل عليها أحد لباحثين ، اذ انه نادرا ما يستخدم

أساليب الملاحقة المقننة ، فضلا عن صعوبة تكرار فرصة الاختلاط بنفس الجماعة الاجرامية بالنسبة لنفس الباحث أو باحث آخر • كما يلاقى الباحث مقاومة فى استجابات المفحوصين عن ظروفهم الاجتماعية المبكرة ، وأيضا بالنسبة للعمليات والمواقف التى أدت بهم للتورط فى الجرائم •

والواقع أنه بالرغم من هذه الصعوبات العملية والمنهجية فان زيادة المعلومات التى يمكن التثبت منها بهذا الأسلوب تعمل على التقليل من المعلومات المضللة التى نتوصل اليها بأساليب أخرى •

وحدة الدراسة والتحليل

تباينت وجهات النظر فى نطاق دراسة السلوك الاجرامى عن الوحدة لتى ينبغى فحصها علميا كمدخل لدراسة هذا السلوك ، فثمة من آثروا البدء بالفرد ، وآخرون لم يجدوا مناصا من اتخاذ الجماعة أو المجتمع وحده للدراسة والتحليل • ولكل خلفيته الفلسفية فى تصور العلاقة بين الفرد والمجتمع •

الفرد

لقد تمخض عن الاتجاه الفردى مدارس فى علم الاجرام تحلل الظاهرة الاجرامية بناء على حتمية ارتكاب ـ من يتصفون بسمات معينة ـ بيولوجية أو عقلية ـ أفعالا اجرامية لا مناص من القيام بها الا فى حالة توفر ظروف غير عادية تحول بين الفاعل والسلوك الاجرامى • والواقع أن هذه الاتجاهات المتشيعة للفرد كوحدة للدراسة اقتصرت على تحديد الخصائص الفردية التى يتصف بها المجرمون عن غيرهم • وقد أخذ نجم هذه المدارس ـ البيولوجية أو النفسية والتطبيقية ـ فى الأفول بعد القيام بدراسات تجريبية تدحض زعم المسلمة التى أسسوا عليها نظرياتهم ، وهى أن المجرمين يختلفون عن غيرهم المجرمين فى سمات معينة فى الشخصية تنشىء سدورها ميولا غير عادية لارتكاب الجرائم فى مواقف لا يرتكب فيها غيرهم هذه الجرائم (سيزورلاند ، كريسى ١٩٦٠) كما لا يمكن اقامة علاقة علية بين صفات الفرد والفعل الاجرامى الذى يقوم به ، وقد أسهمت الدراسات العلمية بعد ذلك فى اكتشاف أبعاد جديدة فى الشخصية والمجتمع تلعب أدوارا فعالة فى السلوك الاجرامى •

الشخصية

وقد تطور الأمر من دراسة الفرد كوحدة جزئية مستقلة الى دراسة للشخصية أو نمطها باعتبارها وحدة تعتمد فى تكوينها على عوامل تكوينية للفرد ، وأخرى خارجة عنه ليس للفرد كفرد دخل فى صنعها • وتتكامل مناهج البحث فى نطاق العلوم البيولوجية والسيكولوجية والاجتماعية لتحديد أوصاف المجرمين تبعا لأنماط شخصياتهم • ويحاول هذا الاتجاه التوفيق بين الاتجاه الفردى والاتجاه الاجتماعى من حيث أن دراسة الشخصية لا تقتصر على أبعاد فردية فقط بل تحتوى على أبعاد سيكولوجية واجتماعية • وتؤثر نوعية العلاقات والعمليات الاجتماعية التى تربط بين الشخصية والمجتمع وأنساقه السائدة فى تكوين اتجاهات الشخصية التى تحدد العلاقة بين شخصية المجرم والقانون والأعراف السائدة والجماعات التى تتباين فى درجة الانتماء لها •

كما ينبغى أن ننوه بأن الموقف الاجرامى بما يتضمنه من عناصر ايجابية وسلبية يمثل بعداهاما يؤثر فى نوع استجابة الشخصية نحو العقل الاجرامى ، ويراعى عند دراسة الموقف الاجرامى ما يتضمنه من عنصر المجنى عليه والدور الذىيقوم به لاكتمال عملية التفاعل بينه وبين المجرم • والواقع أن هذا البعد له أهميته البالغة عند دراسة نمط الشخصية كوحدة للدراسة ، اذ أن استجابة شخصية المجرم المحترف للموقف الاجرامى تختلف عن استجابة شخصية المجرم العادى وكذلك الحال بالنسبة لشخصية المجرم بالصدفة •

الجماعة وتحليلها البنائى والثقافى

يسود الاتجاه الآن نحو اعتبار الجماعة هى الوحدة الدراسية والتحليلية التى يمكن عن طريقها التعرف على الجريمة كظاهرة كائنة تتأثر شخصية مرتكبيها ببناء الجماعة ووظائفها والمضمون الثقافى السائدفيها ، ويتم تحليل الجماعات ، كالأسرة وثلة الرفاق والعصابة والحى أو القرية ، على هدى المنظور البنائى الوظيفى لكل جماعة دون عزلها عن المجتمع الذى يحتويها • كما لا يمكن استكمال تحليل الجماعة الا بتحديد الوظائف التى تقوم بها ، سواء بالنسبة لأعضائها أو للجماعات الأخرى • واذا طبقنا ذلك على الجماعات الانحرافية ، سواء كانت أسرة جانحة أو عصابة

أو حيا جانحـــا .. فيمكن أن تعقد المقارنه بين وظائف هذه الجماعات وما تحققه لأعضائهـــا من اشباعات وبين وظائف التنظيم الاجتماعى العـــام ومدى نجاحه فى تحقيق الحاجات الاســـاسيه لأعضائه ، سواء كانت حاجـات بيولوجيـــه .و سيكولوجية او اجتماعية . فقد يفشل التنظيـم الاقتصادى فى اشباع حاجات فئات معينـــة من المجتمع أو تحقيق قدر متفق عليه من الرفاهية ، فتنشأ أثر ذلك جماعات وتنظيمات لعلاج هـــذا الفشل بأساليب مشروعة فى نفس الوقت الذى تتشكل فيه جماعات انحرافية أو عصابات تقوم بأفعال غير مشروعة كرد فعل لفشل هذا التنظيم فى اشباع حاجاتهم الاساسية .

كما تقودنا دراسة الجماعة الى ضرورة التعرف على الثقافة السائدة فيهـا ، سواء كانت ثقـافة خاصة بها أو ثقافة عامة تنتمى اليها وتعيش فى اطارها . فلا يكفى تناول المظاهر الخارجية للسلوك الاجرامى ، بل يجب أن يمتد البحث الى ما وراء هذا السلوك من أفكار وتصورات وقيم ، سواء من ناحية مرتكب الفعل الاجرامى أو المشرع الذى يجرم هذا الفعل . فاذا تم تحريم أفعال لايجرمهاالعرف والسنن الاجتماعية ـ كجريمة الثأر فى أغلب بقاع مصر ـ نجد أن عدم تطابق التصور الفكرى الكامن وراء الفعل الاجرامى مع تصور المشرع له يؤدى الى اتساع هوة التخلف بين القـــانون أو الضبط الرسمى من جهة والضبط الاجتماعى غير الرسمى المتمثل فى العرف والسنن الاجتماعية من جهـة أخرى .

ويجوز على هدى ذلك أن نفترض قيام علاقة فردية بين معدل الجرائم ودرجة التخلف بين نوعى الضبط الاجتماعى الرســـمى وغير الرسمى ، فالمضمون الثقافى للجريمة والتجريم يمكن وصفه وتحليـله باســـتخدام بعض الوسائل والأدوات كالملاحظة واستبار المجرمين وغير المجرمين وبعض الاستخبارات والاســـتبيانات ومختلف المقاييس التى يمكن أن تبتكر لمثل هذا الغرض . وقد يؤدى بنا هذا المنهج الى تحديد وزن وخطورة أنماط من الفعل الاجرامى من وجهة النظر السسيولوجيـــة ولثقافية ، وقد يؤدى الارتقاء فى تحليل هـــذه النتـائج وتفســيرها الى مواكبة المشرع للواقع الاجتماعى المتغير .

فى مناهج تفسير النتائج

ان عمليـــة البحث وما تتضـمنه من مناهج وأساليب عرضنا لهـــا لا يمكن أن تبلغ غايتها الا اذا توجت بتفسير النتائج التى حصلنا عليها . فاذا كان الباحث قد بدأ بنظريه معينة أو فرض علمى يفسر نمطا من السلوك الاجرامى تفسـيرا مبدئيا ، فانه فى ضوء ذلك يحـــدد الهدف من الدراسة منتقيا الاساليب والأدوات الملائمة لجمع البيانات التى يصنفها ويحللها ، وأخيرا يحـــكم حلقة البحث بالجانب التفسيرى لهذه النتائج عائدا بها الى الاطـــار التصـــورى ، أى الى النظرية أو الغرض الذى بدأ به البحث (رايلى ، ١٩٦٣) مقررا الاســـتنتاجات التى تثبت صـحة الفرض أو تدحضه أو تعدل من النظرية التى بدأ بها .

ويستند التفسير الى مناهج الاستدلال المنطقى بنوعية ، اذ لا يكتفى بالمنهـــج الاســتقرائى فى استخلاص النتائج بل يعتمـد ـ فى نسق تكاملى لضبط السياق المنطقى ـ على المنهج الاستنباطى ، مستقيا المسلمات والفروض من النزعة التجريبية المعتمدة على المنهج الاستقرائى ، مستخدما فضـلا عن ذلك القضايا الرياضية والمعادلات والمعطيـات الاحصائية كمنهج أو أسـلوب لتحليل النتائج المستمدة من الواقع الاجتمـــاعى ، وايجاد ما بين الوقائع الاجتمـــاعية والاجرامية من عـــلاقات وارتباطات فى صورة رياضية ، مما قد يشير الى وجود عـلاقة ســـببية بين الظواهر الاجرامية والمتغيرات المختلفة المصاحبة لأنمـــاط السـلوك الاجرامى .

واذا كانت بعض النظريات تستخدم كقواعد لتفسير السلوك الاجرامى ، فيجب أن نوضح أن مبدأ التعميم لابد أن ينطبق على جميع الحالات وفى جميع المجتمعات ، الا أننا نصطدم بشكل أو بآخر بمبـــدأ نسبية التجريم طبقـا لتباين المجتمعات ثقافيا وحضاريا ، ومن ثم لا نسعى فى المرحـــلة العلمية الراهنة الى التسرع فى عمليات التفســير لأنماط الســـلوك الاجرامى ، بل ينبغى بذل المحاولات الجادة للقيـــام بالدراسات الاستطلاعية والوصفية لظواهر الجريمة بكافة أنواعها التقليدية والمستحدثة ، اذ أن ذلك يشـــكل بناء معرفيا تتم فيه محاولات أولية للتفسير تمهيدا لعمليات تفسير حاسمة لأنماط الســـلوك الاجرامى فى مختلف القطاعات والنماذج الاجتماعية .

صلاح عبد المتعال

● المشكلة الأساسية التي يصادفها النقد الأدبي - نظرًا ومنهجًا - في العصر الحديث ، هي أن أي تفسير لنشاط مّا من نشاطات الإنسان أصبح محكومًا في صحة نتائجه أو خطئها بمدى قربه أو بعده عن العلم أداة هذا العصر .

بين النظرية والمنهج في النقد الأدبي

د . عبد المنعم تليمة

تتوجه النظرية النقدية الى تفسير النشاط الأدبي : من حيث ماهيته الفارقة المميزة له عما سواه من نشاطات الانسان ، ومن حيث مهمته بالنسبة لصاحبه الفنان وبالنسبة لآثاره في المتلقي فردا وجماعة ، ومن حيث طبيعة اداته التي يصطنعها لتوصيل آثاره وتحقيق مهمته . والمناهج هي وسائل علماء الجمال والنقاد النظريين الوصول الى نتائج منظمة في هذا التفسير وهي طرائق النقاد العمليين في تعاملهم مع النصوص . والمشكلة الأساسية التي يصادفها النقد الأدبي ـ نظرا ومنهجا ـ في العصر الحديث هي أن أي تفسير لنشاط ما من نشاطات الانسان أصبح محكوما في صحة نتائجه أو خطئها بمدى قربه أو بعده عن (العلم) أداة هذا العصر . ولكي تحقق النظرية النقدية لتفسيرها للنشاط الأدبي قدرا من العلمية ، فانها اقتربت بقوة من تقدم كافة العلوم في مناهجها ونتائجها ، وأصبحت مثقلة بكم هائل من حصيلة المعرفة ، وتعددت اتجاهاتها بصورة تكاد تعجز مؤرخها المتتبع لحركتها . لقد استلهم النقد في القرن الماضي فكرة (التطور) من نتائج العلوم البيولوجية والطبيعة ، وحاول تطبيقها على التقاليد والأجناس الأدبية وعلى التاريخ الأدبي . أما علوم الانسان والمجتمع فقد أمدت النقد بمعظم فروضه الفكرية والمنهجية الحديثة ، ابتداء من حقائق عن الحلم واللاشعور الفردي والجمعي وطبيعة السلوك السوي والمرضي ، ومرورا بالشعيرة والمعتقد والأسطورة وطبيعة المجتمع البدائي ، وانتهاء بمفاهيم الصراع والتغير في الثقافة والمجتمع . كما استمد النقد ـ منهجيا ـ من التقدم العلمي انضباطا في التحقيق والاستقصاء وأحيانا في الاستقراء والتجريب .

الوحدة والانفصال :

ولكن ذلك كله يعد (اقترابا) من العام ، وليس علما بذاته . بمعنى ان النقد يرسب حصيلة المعرفة التي تنتهي اليها العلوم فيستخلص لنفسه من نتائجها مايعين في تفسير مادته وهي النشاط الأدبي ، وقد يستلهم الخطوات المنهجية لبعض تلك العلوم ، ولكنه هو نفسه لم يصبح (علما للأدب ،

له منهجه الخاص واستقلاله • وانفصال ضرب معرفى معين بمنهج خاص قائم على طبيعة المادة التى يتناولها بالتفسير والدرس، ولا يتناقض مع وحدة المعرفة البشرية ، ولا مع المنهج العلمى فى حقائقه العامة ، بل ان ذلك الانفصال ضرورى لتحقيق هذه الوحدة ، اذا نهض على وعى بأن (نوعية) نشاط ما لا تتناقض مع (كلية) النشاط الانسانى عامة . وفى الحقيقة أن قضية **(الانفصال والوحدة)** فى العلم الحديث عامة تثير ملاحظتين أراهما ضروريتين فيما نحن بصدده من الوقوف على الجهد المعاصر فى النظرية النقدية:

بدا انطلاقه **ـ حوالى منتصف القرن الماضى ـ** فى ظل ظروف اجتماعية وفكرية وحضارية محددة• كانت البرجوازية الأوربية قد بدأت تفقد دورها الثورى بينما برزت القوة الاجتماعية الثورية الجديدة فى أفق العمل الاجتماعى . وكان **هيجل** قد صاغ أعظم الأنساق المثالية تعبيرا عن تقدم البرجوازية ودورها• بينما صاغ **ماركس** تفسيره المادى تعبيرا عن أفول تلك البرجوازية وصعود القوة الثورية الجديدة ، فوضع بذلك منهج هدم وبناء فى آن • نضى المنهج الجديد ـ فى الطبيعة ـ التصور الميكانيكى ونفى ـ فى المجتمع ـ الجبر والعشوائية • أرسى



أ.أ. ريتشاردز



ت.س. اليوت

الملاحظة الأولى عن الانفصال : ففى حوالى منتصف القرن الماضى ، كانت العلوم الطبيعية قد حققت تقدما ملموسا، وأصبح انضباطها المنهجى مثلا أعلى حاولت العلوم الاجتماعية أن تحتذيه • وكانت هذه العلوم الأخيرة لازالت فى اطار التأملات الفلسفية التى كانت تضعها الأنساق الفلسفية التقليدية ، ثم بدأت علما بعد آخر ، حركة **(انفصالها الكبير)** عن النظر التأملى ، بعد أن أخذ كل علم يحدد موضوعه الخاص، ويحاول اكتشاف المنهج الملائم لطبيعة هذا الموضوع ولقوانينه النوعية وقد أحرزت بعض هذه العلوم تقدما كبيرا ، بينما لا يزال بعضها الآخر يتغير ، ولكنها جميعا تتطور تكنيكيا بصورة لا شك فى جدواها العميق لقضية العلم عموما : فمن استحدام للتجريب الى القياس الى الاحصاء • ومن التصميم الدقيق للتجربة ، الى الضبط للمقياس، الى المعمل والآلة الالكترونية والجهاز ، الى الدراسة والتجربة الميدانية •• الخ• ولكن هذا الاستقلال والتميز فى العلوم الاجتماعية

المنهج الجديد دعائم تصور شامل العالم ، كما ارسى مفهوما خلاقا للمبادرة التاريخية • وليس هذا المنهج نمطا صلدا ولا نظرية نهائية ، بل هو منهج دائم التغير ، بدوام تغير الواقع الذى ينطلق منه ، انه قابل للتطوير والاعتناء على ضوء التقدم العلمى والخبرة البشرية . ولقد كان الرواد الأوائل على وعى بصير بحقيقة منهجهم : فبذل **انجلز** جهدا ـ فى (جدل الطبيعة) ـ لتطوير المادية الجدلية على ضوء تقدم العلوم الطبيعية فى عصره ، وواصل **لينين** نفس الجهد • ولكن مثل هذه الجهود الخلاقة لم تتواصل ، وساد جمود عقيدى ـ حوالى ثلث قرن ، المرحلة الستالينية ـ جمد المادية الجدلية فلم تستوعب العلوم الاجتماعية فى تقدمها ونتائجها . ويعنينا فيما نحن بصدده ان المادية التاريخية ، وهى منهج التحليل التاريخى ومعرفة القوانين الاجتماعية هى السند النظرى الطبيعى لكل العلوم الاجتماعية ولكن الجمود العقيدى الذى أشرت

اليه لم يطور المادية التاريخية لتكون منهجاً شاملا لتقدم العلوم الاجتماعية ، وغيابها عن أداء هـذا الدور جعل هذه العلوم تتطور في مداراتها الخاصة ، حول موضوعاتها النوعية الجزئية ، وتصل الى تقدم كبير ، ولكن دون اطار نظري شامل يعي (كلية) الخبرة الانسانية ووحدة المعرفة .

والملاحظة الثانية عن الوحدة . وفي منتصف هذا القرن الحالي ـ أي بعد قرن من بداية نضج العلوم الاجتماعية واستقلالها بمناهجها ، وصياغة التفسير المادي في الطبيعة والمجتمع ـ بدأت حركة أخذت تقوى في العشرين سنة الماضية للوعي بوحدة المعرفة الانسانية . فعلى ضوء حركة التحرر من الاستعمار ، وايمان مئات الملايين من البشر بالاشتراكية العلمية سلاح بناء ومنهج نظر ، وعلى ضوء التقدم الذي أحرزته العلوم الطبيعية والاجتماعية ، أقول على ضوء هذا كله عاد المنهج الماركسي ـ بعد انهيار الجمود العقيدي ـ الى حيويته والى قدرته على استيعاب كل جديد . وبذلت جهود لاثراء المنهج بالمعرفة الجديدة ، وتطورت بخاصة الدراسات المعمقة المتصلة بطبيعة العلاقة بين الأبنية الفوقية والأساس الاقتصادي الاجتماعي . ويتم هذا التطوير بالانفتاح على نتائج العلوم كافة وبخاصة على النتائج النظرية والمنهجية لحركتين علميتين أخذتا في البروز والنضج في العشرين سنة الأخيرة ، وسيكون لهما أكبر الآثار في مستقبل العلم عموما . **والحركة الاولى هي ، السبرنيطيقا** cybernetics **التي أسسها عالم الرياضة نوربرت فينر** wiener **وأثمرت نظريا وتطبيقيا في كافة المجالات نتائج بعيدة الأثر . وتقوم هذه الحركة على الالتقاء والمشابهة في عمليات التحكم في الآلة والكائن الحي ، وهي بهذا تفتح أعرض الآفاق ، لتقوم الآلة بعمليات (عقلية) دقيقة ، وبمهام (بشرية) تختزل الزمن ، وتحقق للانسان ـ وهو سيدها ـ السيطرة على واقعه . وأما الحركة الثانية وهي البنيانية** structuralism **، فتقوم على درس (بنية أو بنيان) الشيء ، ابتداء من أبسط الاشـياء الى أكثر الظواهر تعقيدا ، باعتبار أن (العلاقة) أساس في كل بنية** . وخرجت الى الناس دراسات بنيانية دقيقة في ميادين متعددة : من علم اللغة الى علم الاقتصاد ، الى الجمال ، الى الاعمال الفنية ، الى علم النفس ...الخ . وانتهت الى نتائج هامة ، وصاغت أسسا نظرية على رأسها أساس (**سبق العلاقة على الافراد ، وسبق الكل على أجزائه**) . ولست هنا بحيث أفيض في الاسس النظرية والنتائج العلمية والعملية لهاتين الحركتين وانما يعنيني أنهما أثبتتا وحدة الخبرة الانسانية ، ووحدة المعرفة والنظرية العلمية ، وأكدتا المبادىء الاساسية للمنهج الجدلي . لقد عادت الوحدة مرة أخرى ، ولكنها كانت قديما تأملية تجريدية ، عندما كانت الفلسفة (أما) لكل العلوم ، أما وحدتها الجديدة فهي علمية لأنها مؤسسة على انضباط نظري ومنهجي دقيق . وسيبقى لكل علم ميدانه النوعي ومنهجه ، ولكن في اطار من الوعي بكلية الخبرة وشمولها . ونخص بالحديث الدراسات والعلوم الاجتماعية ، فنرى أنه يمكن التناول بالتقويم كل تفسير لنشاط انساني ما في ضوء من الفكرة السابقة (الانفصال والوحدة : نوعية المادة المدروسة وكلية الخبرة والمعرفة الانسانية) . وفي النظرية التقدمية الحديثة شواهد دالة :

النظرية النقدية الحديثة

اذا كان أول القرن التاسع عشر قد شهد نضج البرجوازية الاوربية وغاية صعودها وتقدمها، فقد شهدت نهايته (أزمتها) التي تمتد حتى الآن. وانتهى في مجال الفن عصر الاعمال الخالدة لرواد الرومانسية الثورية وبدأ عصر الاتجاهات الحديثة والمعاصرة المعبرة عن (أزمة) الانسان الغربي . والوعي بالأساس الاجتماعي البعيد لهذه الانتقالة، يفضي الى تفهم النتاج العلمي والفكري والفني لطور الازمة في حياة المجتمعات الغربية ، أما الجمود العقيدي ، فقد أفضى ـ حتى سنوات قريبة ـ الى رفض لكثير من هذا النتاج ، وضاع في منطقة الظل كثير منه ـ مثله الفنان العظيم فرانز كافكا ـ حتى عادت للفكر الجدلي حيويته فكشف عن هذا النتاج ، ووضعه موضعه من الملابسات والعلاقات الاجتماعية بانفتاح واع .

وسنجد لفظة (الازمة) شائعة بصورة واضحة في النظرية النقدية ، في صورة جزع من الحاضر وترديه ، والهرب منه بالدعوة الملحة الى الماضي ، الى (التوازن) الكلاسيكي ، والوازع الخلقي التقليدي ، والتعاليم الكنسية : من **جون كيبل** Keble في منتصف القرن الماضي وهو داعية العودة الى الكنيسة ، مرورا **ببول المرمور** More الذي سماه شيعته (بوذا) الى معاصرنا **اليوت** Eliot وفكره الكلاسيكي معروف . لقد خاب أمل المفكرين في (الفردية) وشكوا في امكانات الانسان . وسدد **ارفنج بابت** في كتابه (روسو والرومانسية سنة ١٩١٩ أقوى الهجمات الى التفاؤل الرومانسي، ودعا النقاد الى فن (موضوعي) يتجاوز أوهام الرومانسيين وعاطفيتهم والى نقد (علمي) مؤسس

على تقدم العلوم وبخاصة الدراسات الانتروبولوجية والنفسية • ولكن هرب هؤلاء من انفرديه لم ينجهم من اللف فى مدارها المقفل ، فلم تصل أنظارهم الى أنه لا يمكن دراسة الانسان خارج علاقاته الاجتماعية ، ولهذا جاءت نظرياتهم واحدية الجانب وجاءت مناهجهم جزئية • ولعل أكثر هؤلاء النقاد تمثيلا للفكر النقدى وتأثيرا فى حركته هو الناقد الكبير **رتشاردز** Richards •

كان المبحث الأساسى فى نظرية الأدب عند الرومانسيين يدور حول الشاعر وعمله ، أما المبحث الاساسى عند رتشاردز فيدور حول المتلقى وتذوقه • وهو ان درس عملية الخلق عند الشاعر وطبيعة القصيدة وتعريفها ، وان استعان بعلوم النفس والأعصاب واللغة ، فلكى يخدم غرضه من بيان كيفية عملية (التوصيل والنقل) وآثار قراءة القصيدة نفسيا وسلوكيا عند القارىء • ويبدو هذا الغرض بصورة واضحة متواصلة فى كل كتبه • فأول كتاب صدر له ـ بالاشتراك مع عالم النفس **أوجدن** Ogden ـ كان **(أسس علم الجمال سنة ١٩٢٢)** ، يرسى فيه مبدأه النظرى الذى ظل يؤكده فى جهده النقدى كله وهو أن الجمال ليس كامنا متحققا فى القصيدة ذاتها ، انما هو (حالة) عند القارىء ، ثم ينتهى الى المبدأ الآخر المترتب على ذلك الأساس ، وهو أن التوصيل الجيد هو ما أدى الى توازن انفعالى لدى القارىء • ومعلوم فى تاريخ النظرية النقدية أن درس (الجمهور) قديم ، منذ اشارات **أفلاطون** الى دور الشعر ـ والفن عموما ـ فى تمويه الحقيقة وتزييف العواطف ، ومنذ اشارات **أرسطو** الى دوره فى تطهير العواطف • ولكن الجديد عند رتشاردز أنه يرفض التأمل ، ويعتد بالتجريب وبنتائج العلوم ليهىء مناخا منضبطا للقراءة الشعرية ورصد الظروف المؤدية الى قراءة سليمة جيدة ، والملابسات المؤدية الى قراءة خاطئة رديئة • ثم من دراسة نجاح التوصيل أو عدم نجاحه على قصائد محددة وجمهور محدد ، يمكن الانتهاء الى الآثار الوظيفية للشعر لدى القارىء • ولكى يعمق رتشاردز طبيعة التوصيل أفرد لها كتابه العظيم ـ بالاشتراك مع أوجدن أيضا ـ **(معنى المعنى سنة ١٩٢٣)** ، وفيه يضع أصول نظرية أثرت تأثيرا كبيرا فى تطور علم الدلالة Semantics ، فدرس طبيعة (المعنى) ، والرمز ، وكيفية التوصيل اللغوى ، والفرق فى الاستخدام اللغوى ، بين استخدام الشعر للألفاظ وستخدام العلم لها • وكانت الأصول النظرية فى هذين الكتابين مقدمات صالحة ، انطلق منها رتشاردز الى التعامل مع الفن الشعرى نفسه ، فأخرج سنه ١٩٢٤م كتابه الأصيل فى النظرية النقدية **(مبادىء النقد الأدبى)** ، ليعيد توكيد ما أرساه من طبيعة التجربة الجمالية والتوصيل وآثاره ••• الخ ، وسنة ١٩٢٦ كتابه **(العلم والشعر)** ليطبق نظريته فى وظيفة اللغة وتباين استخدامها بين العلم والشعر ، وليحدد للشعر مكانه ومكانته فى مستقبل ، يبدو للنظرة القريبه أن سيهيمن عليه العلم التجريبى ، وسنة ١٩٢٩ كتابه **(النقد التطبيقى)** الذى يسدى فوائد جليلة فى كيفية القراءة الجادة للشعر ، وفى الاقتراب المخلص من الاجادة ، وفى درس الجمهور المتلقى فردا وجماعة •

وسيقف مؤرخ النظرية النقدية طويلا عند جهد رتشاردز ، فهو محاولة جادة لاستخدام العلم ، ولازالة كثير من الغموض والابهام عن ماهية الشعر ووظيفته • لقد بدأ (المبادىء) بتقويم لوجهات النظر النقدية المطروحة فى عصره ، ولاحظ عليها التشويش والاضطراب ، وسدد هجماته الى مدخل الفردية والذاتية فى الحكم الجمالى والقيمى عموما • وقال ان قيمة الاعمال الفنية والادبية تضيع اذا ما ضاقت المعايير النقدية فوقفت عند الانفعال والهوى الذاتى • انما ينبغى التوجه ـ التجريبى بقدر الامكان وبكل ما تتيحه الوسائل العلمية ـ الى عمليتى الخلق والتذوق ، الى الوصف العينى لكيفية عمل الشاعر ، والتأكيد على ضرورة عقد الصلة بين القارىء والعمل الفنى ، والكشف عن حقيقة هذه الصلة وآثارها • ونفى رتشاردز بقوة الأوهام المحيطة بالتجربة الجمالية ورأى أن طبيعة هذه التجربة لا تختلف عن طبيعة غيرها من التجارب الانسانية ، ولا وسيلة درسها تختلف عن وسائل الدراسة الأخرى ، فان الشاعر ـ بحسب قوله ـ يحسن ما يحسنه كل انسان • ان التجربة الشعرية ، تجربة انسانية ، يتلقاها أناس تؤثر فيهم ، ولذلك فان بالامكان تحليلها ودراستها لمن يمكنه تحليل السلوك الانسانى ودراسته ، ومن هنا فان المنهج النقدى الملائم لتحليل هذه التجربة ودراستها هو المنهج النفسى ، الذى نستطيع بواسطته الكشف عن طبيعة تلك التجربة وآثارها ، بالكشف عن العمليات النفسية للحظتى الخلق والتذوق ، عند الشاعر والقارىء • ان التجربة الجمالية ليست شيئا مختلفا عن تجاربنا العادية ، ولكنها تنمية لهذه التجارب وتنظيم لها ، ولذلك تبدو التجربة الجمالية أكثر دقة ونظاما من التجربة العادية ، ولكنها ليست شيئا مغايرا لها • **الاختلاف ليس**



ف . كافكا



اراجون

فى طبيعة التجربة ، وانما فى (**بساطة**) التجربة العادية ، و (وتعقد) التجربة الجمـــالية ، ثم فى (**طريقة**) نقل التجربة ، فاذا نجح هذا النقـــل اكتسبت التجربة الجمالية وخدتها وكليتها • فاذا كان رتشاردز يعتد بعلم النفس ، أداة للوصول الى مفهوم القصيدة ، وفهم لطبيعــة التوصـــيل ـ مستعينا بتصوره للغة ووظائفها ـ فان تناوله (**للأثر**) يفضى به ضرورة الى الأخـلاق ، ولذلك فانه يضع (**ســيكولوجية أخلاقية**) تساعده فى صياغة نظرية فى القيم • وقيمة الشىء تتحدد فى منظوره السيكولوجى بأثره • قيمة الفعل فى مقدار ما يحققه من رغبة ، وتعلو قيمته كلما تعـددت الرغبات التى يحققها وكثرت ، وكلمـا قلت فى نفس الوقت الاحباطات التى يســببها • وأعظم الآثار قيمة ـ فى هذه السيكولوجية الأخلاقية ـ ما حقق التوازن بين الانفعالات والنزعات • ووجهة نظر تشاردز هذه فى القيمة تعينه فى التفرقة بين الشعر والعلم ، فالشعر يهدف الى تحقيق التوازن النفسى لقارئه ، وهنا قيمته التى ينهض بها بطريقة استخدامه للغة التى تختلف عند رتشاردز اختلافا أصيلا عن استخدام العلم لها • فالشعر لا (ينبىء) بالحقيقة حرفيا ، انما يبعث حالات نفسية تقضى الى توازن فى الجهاز العصـبى للقارىء ، يقــول رتشاردز : « **الشعر اذن يخالف العلم من جهــة استخدامه للألفاظ • حقيقة اننا نجد فى القصيدة افكارا محددة ولكن التحديد هنا لا يرجع الى أن الشاعر يختار ألفاظه اختيارا منطقيا كما يفعــل العالم قاصدا معنى واحدا حاجبا أى شـبهة فى امكان قصد أى معنى آخر ، وانما هو العكس • فسبب تحديد الأفكار فى الشعر هو أن الوسيلة التى يطرقها الشاعر ، نغمات صـوته والايقاع الشعرى ، كل هذه تؤثر فى نزعاتنا وتجعلهـــا تصطفى الأفكار المعينة التى تحتاج اليهـا من بين ذلك العدد المائج المبهم من المعانى الممكنة والأفكار التى يجوز أن يذهب اليها المعنى ، وهذا هو ما يكن أن يفسر لنا السبب فى أن الأوصاف الشعرية تبدو أدق من الأوصاف النثرية غالبا • فاللغــة اذا استعلمت استعمالا منطقيا علميـا تعجز عن أن تصف منظرا طبيعيا أو وجها انسانيا • انها لكى تؤدى هذا تحتاج الى جهاز هائل من الأسماء والألفاظ التى تدل على الظلال والفروق الدقيقة التى تصف الصفات الفردية الخاصة • ولا تحوى اللغة مثل هذه الأسماء ولا تلك الألفاظ ، لذلك وجب استخدام وسائل أخرى •أما الشاعر حتى عندما يكتب نثرا ـ كما يفعــل (راســكن) و (دكونسى) ـ فهو يتيح للقارىء أن يصطفى المعنى الدقيق الخاص المطلوب من بين عـــدد غير محدود من المعانى الممكنة التى تحويها لفظـــة**



جارودى

او عبارة أو جمـــلة ما٠ والوسائل التى يسلكها الشاعر لتحقيق هذه الغاية عديدة متنوعة ولقـد سبق ذكر بعضها ولكن الطريقة التى يسـتعمل الشاعر بها الألفاظ هى سر الشـــاعر نفســه ولا يستطاع تعلمها ٠ فالشـــاعر يســتطيع أن كيف تتم هذه العملية ٠٠ » ٠

يستعمل الألفاظ استعمالا ناجحا ولكنـه لا يدرى (العلم والشعر ، الترجمة العربية ص ٣١) ٠

ولم يبـدأ عمل رتشـاردز من فراغ ، نما تأسس على تراث **كولردج**، امام نقاد الرومانسية، وان كان كولردج قد وجه معظم جهده الى كيفية عمل الشاعر ، بينما وجه رتشاردز معظم جهده الى كيفية تذوق القارىء ، أى أن الأول دار مبحثه حول **(ماهية)** الشـعر ، بينما دار مبحث الثانى حول **(مهمة)** الشعر ٠ ومن الطبيعى أن من يذهب مذهبا فى أى من المبحثين انمـا يعرض للمبحث الثانى ضرورة ، ولكن كان هذا هو الغـالب على نشاط الناقدين ٠ لقد استلهم رتشاردز منعمل رائده تمييزه للتعبير الشعرى عما سواه منضروب التعبير اللغوى الأخرى وتفريقه بين **(القصيدة)** و **(الشعر)** ، وبيانه لكيفية عمل الخيال ، واثارة الشعر للنشـاط فى النفس ٠٠٠الخ٠ وما ذهب اليه رتشاردز من مذهبفى **(القيمة)** ، انما يستمد أصله النظرى من **(مذهب المنفعة)** عند التجريبيين الانجليز ، ومن **بنتام** على وجـه الخصـوص ٠ ورتشاردز نفسه هو الذى دلنا على هذين الأصلين لتفكيره ٠ غير أن عمل كولردج فى نظرية الادب، وعمل بنتام فى نظرية الأخلاق كانا صياغة متقدمة للمثل العليا التى كانت البرجوازية الاوربيةتسعى الى تأصيلها فى مدها التقدمى ، حيث كان الاعلاء من شـأن الفرد والفـردية فى الفن ، والذاتية بمفهومها القريب فى الاخلاق ، قيمة تاريخية ٠ وكان هيجل الذى عاصر **كولردج وبنتام** (توفى قبل بنتام بسنة ، وقبل كولردج بثلاث) ، تعبيرا فلسفيا رفيعا عن نهاية المثاليات البرجوازية فى طورها المتقدم ٠ وجاءت التطورات الاجتماعية منذ الثلث الثانى من القرن الماضى لتنقـل البرجوازية موضوعيا الى المحافظة ، وجانبت فى هذه المرحلة من تطورها منهـج الجـدل المادى ، فوقعت فى اللاأدرية ، والحـدسية ، والوضـعية ٠٠٠الخ٠ وغابت عن رؤاها وحدة الخبرة ووحدة المعرفة ٠ ويمثل جهد رتشاردز ـ بعد مئة سنة ـ جانبا من هذه الازمة ، فهو يعتد فى الفن الشعرىبلحظة التلقى ، وهـذا جانب خصب جـدير بالدراسة ولا يزال حتى الآن طالبا لها ، ولكنه يعامل المتلقى بعيدا عنعلاقاته الاجتماعية المفسرة لتلك اللحظة، بل لسلوكه عامة ٠ انه يفتت الخبرة الجمالية ، ويعزلها ، ثم يفسر الكل بالجزء ٠ وينسحب هذا الأمر نفسه ـ (تفسير الكل بالجزء) ـ على نظريته النفعية فى القيمة ، فهو حتى لو ربط ـ أخلاقيا ـ بين الفرد والجماعة ، وحتى لو أشار الى مهمة ما للفن بالنسبة للجماعة ، فانمـا ينطلق من نقطة البدء بالفرد لبنـاء المجتمع ٠ هـذا من الوجهة النظرية ، أما من الوجهـة المنهجية ، فان منهجه النفسى ، اذا قيس بالتقدم الكبير الذى أحرزه علم النفس المعـاصر يصبح بدائيا أوليا ، فقد نشط رتشاردز فى العشرينات من هذا القرن ، فى وقت كان علم النفس لا يزال بين البـحث الافتراضى والمنهج التجريبى والتأمل الفلسفى ، الى جانب أن رتشاردز نفسه لم يكن بحال عالم نفس ، ولذلك فان معظم استنتاجاته قائم على تجريب **(بسيط)** أو على افتراضات تأملية لم يؤيدها تجريب ما ، ولهذا فان نتائجه فى **(الوصف)** النفسى للحظتى الابداع والتذوق ، تجاوزها البـحث المعـاصر بمراحل بعيدة ٠

ماذا يبقى من جهد رتشاردز اذا ؟

تبقى منه أمور جليلة ، اهمها أنه وجه النظر بعمق الى (النص) بصورة تشبه التقديس، وعامله

معـــاملة جادة بعيدة عن الثـرثرة والتعميمات ، وقراءاته المتعة الرصينة لكتابات وأشعار **دريدن** **ووردسورث** وغيرهما ذخيرة حقيقية للكتاب والشعراء والدارسين • وأبقى من ذلك ايمـــانه بنـــوعية النشاط الادبى وجدارة دراسته بأن تكون علما ، فان تكن اسـتعانته بعلوم النفس والأعصاب قد تجـووزت ، فان جهده اللغوى ومشاركته العميقة فى نشأة علم الدلالة ـ رغم أنه لم يراع فى الدلالة سياقها التاريخى ومضمونها الاجتـماعى ـ عنصر ضرورى فى الجهـــود المتوجهة لتأسيس (علم) مفسر للنشاط الادبى • **سيبقى جهد رتشاردز فى تاريخ النظرية النقدية أقـــوى تمثيـــل لاقتراب الدراسة النقدية بقوة نحو العلم، فى عصر انفصال العلوم والدوران حول النشاطات النوعية للانسان دون نظر الى هـــذا الانسان ونتاجه فى ضوء من علاقاته الاجتماعية المفسرة •**

الفن فى السياق الاجتماعى

فماذا عن وحدة الخبرة البشرية ، ومكان الفن فى سياق العمل الاجتماعى ؟

الفن ثمرة للواقع ، والواقع من صنع الانسان، ثمرة لعمله الاجتـماعى • فالفن اذا متـــولد عن العمل ، ولأن العمل الانسانى (اجتماعى) بطبيعته، فالفن ذو طبيعة اجتـــماعية كذلك • ولكن الأمر ليس على هـــذا النحو من التبسيط ، فـكم أضر التقريب و (التسطيح) بقضـــايا التفكير الجمالى والابداع الفنى ، بصورة ليست بعيدة عن أذهان المعنيين بهـــذا الميدان • ولقد وضعت المـــادية التاريخية الأصول الفلسفية لهذه القضايا ، ولأن هذه المـادية منهج متفتح على كل جديد مؤثر فى التطور البشرى ، ولأنها منهج متقبل للاثراء ، فان جهـــودا معـــاصرة ـ مستهدية بتلك الأصـــول الفلسفية ـ تسعى الى تطوير المنهج فى ضـــوء من التقدم العلمى والاجتماعى والفنى للانسان المعاصر، ووصلت بعض هذه الجهود الى صياغات طيبة فى طبيعة الأبنية الفوقيه • وفى نوعية بعض صور الوعى وخصوصيتها •

ما الواقع ؟ وما المجتمع ؟

يحرر النظر الجدلى المفـــاهيم من الصـــورية والميكانيكية ، فيتحرر مفهوم الواقع من الجزئية ، ويتحرر مفهوم الانســـان من الفردية ، ويتحرر مفهوم الخبرة من التفتيت ، ويتحرر مفهـــوم الفن من **(المرآوية)** والمباشرة ، وتعود للمعرفة كليتها•

يمكن **(معرفة)** الواقع، ولكن لايمكن **(تعريفه)** بصورة نهـــائية قاطعة • اذ أن معرفة الـــواقع تاريخية موقوتة ، ترتبط بمدى علمنا وفهمنا له• اننا نتصـــور الواقع تصورا **(تقريبيا)** مبنيا على علوم عصرنا ومعارفه وتقدمه التـكنيكى ، ويقوم هذا التصـــور التقريبى على فرض الفيصـــل فى سلامته التثبت التجريبى ، والممارسة التطبيقية• وهذا التصـــــور يقـوم به البشر ، مما يشير الى ما يسميه رواد المادية التاريخية **(اللحظة الفاعلة)** فى المعرفة ، والى ما أرسوه من مفهـوم للمبادرة التاريخية • فليست المعرفة **(انعكاسا)** تسجيليا حرفيـــا ، أو اعادة مكرورة للشىء المعكوس ، بل هناك الىجانب الانعكاس ، حركة الانسان العارف، وهى حركة تتـوجه الى الاشـــياء المدركة بوضع فروض متخيلة لادراكها ، وتستمد هذه الفروض قيمتها فى ضوء من التجربة والتطبيق • المعرفة المادية اذا تنطوى على طبيعة انعكاسية ، فى ذات الوقت الذى ترتبط فيه بالفعل الانسانى، باللحظة الفاعلة •

وقيمة هذه النظرة أنها تعامل الواقع بأبعاده الثرية ، وتنفى عنه السكونية والثبات ، وتحرره من الجمود والسرمدية ، وتتصـــوره فى صيرورة وتغير دائبين ، وتجعـــل للذات (فعالية) ازاء الموضوع ، فلا تضحى بها فى سبيل الوصول الى قوانين نهائية • والواقع اذا بغير حدود ، شبكة معقدة من علاقات الانســـان بالعالم ، متشابكة ، متداخلة ، متفاعلة • ونحن قادرون على معرفته، ولكن هذه المعرفة محدودة بما وصلنا اليه من خبرة اجتماعية وتقدم علمى وتكنيكى • وتغيره دائم ، ولذلك فصورته لدينا متغيرة أيضا • وهو ليس محدودا بما انجز بل انه لينطوى على تشوف الى ما ينبغى انجازه •

أيترتب على هذا التصور للواقع ، نتائج فى مفهوم الفن ؟

يترتب على توكيد فعالية الذات ازاء الموضوع، أن الواقع يتبدى فى الفن بصورة خاصة : للواقع حقيقته الموضوعية ، ولهـــذه الحقيقة وقـع فى نفوسنا ، وصدى فى ذواتنا الانسانية ، ومفهوم فى أذهاننا • تنعكس صورة الواقع الموضوعى على الذات ، ولكن لهذه الذات رؤاها وأحلامها وموقفها فتتغير الصـــورة لديها وتكتسب شكلا خاصا • فالفن انعكاس ، ولكنه ليس انعكاسا سلبيا ، بل هو اســـهام فى التعرف على الواقع ، وأداة للم شعثه ، وسلاح لتغييره • فاذا غامت رؤية الفنان للحقيقة الموضوعية فقـد عمله موضوعيته ، واذا غابت الذات فقد عمله فنيته وان الواقـــع الذى

يتبدى في الفن ، ليس ساكنا جامدا ، بل هو حركة دائبة النمو والتطور ، متعددة الجوانب ، موارة بعلاقات ، قانونها الاساسي صراع وتضاد. فاذا بدت حركة هذا الواقع للنظرة القريبة واقفة ساكنة ، مبددة ، فانها تبدو في الفن ملمومة مكثفة • ان الواقع يبدو في الفن أكثر غنى من حقيقته الواقعة ، لأن الفن لا يقف عند الواقع في معطياته الخارجية المباشرة ، انما يتخطى هذه المعطيات الى ادراك جديد لها ، فيبدو الواقع في صورة جديدة له : صورته الفنية. وهذه الصورة الفنية أكثر كمالا من (أصلها) لأنها تلم ما بدا مبعثرا من عناصره ، وتوضح ما بدا غامضا من مغزاه • ان الفن وان كان مصدره الواقع الماثل، الا انه يتجاوزه الى اكمال ما يشوبه من نقص ، والى ما يرهص به من جديد • وبذا يتحرر مفهوم الواقع من (المثول) ومن المباشرة الواقفة عند حد المرئي والملموس ، فينتظم الشوق الى الاكتمال ، والحلم بما لم يقع ، واستشراف مستقبل آت • ويتحرر مفهوم الفن من الانعكاس السلبي فينتظم الذاتية الغنائية في وعيها بالحقيقة العيانية ويكشف عن مغزى الماثل في الواقع ، ويتجاوزه الى أن يمنح الانسان صورة لغد يسعى الى صنعه. فاذا أكد هذا المفهوم الطبيعة الواقعية الاجتماعية للفن ، فان الواقع الاجتماعي نفسه من صنع الانسان ، وهو مهدف بغاياته ، ولهذا فان عنصر الذات الانسانية وغنائيتها شرط ضروري لكل فن • من هنا كانت ضرورة التشدد الذي يبديه المجتهدون من الجماليين المعاصرين ، ازاء كل فهم ميكانيكي لنظرية الانعكاس ، فان هذا الفهم يفضي بالنظرية الى غياب الذات الانسانية ، والى جعل الفن جثة هامدة وصورة فوتوغرافية شائهة ، تحاكي الواقع في شتاته وجزئياته حكاية ممسوخة بعيدة عن جوهر حركته وثرائها • بينما يعيد الجهد المعاصر هذه النظرية الى حيويتها بفهم الانعكاس مرتبطا بذات انسانية: وعيها، حرارتها الوجدانية ، خيالها الذي يكتشف بين الجزئيات جوامع لا تتبدى لكل عين ، وبين المعطيات شوائب نقص ، ومن الماثل صورة المثال •

الواقع في الفن ـ اذا ـ أكثر دقة وانتظاما، وأقل تشوشا واضطرابا من الواقع الموضوعي ، والأول أكثر (جوهرية) من الثاني • اذ تنفذ عين الفنان الى الأساس في حركة الواقع ، ويفصح فهمه لما هو أساسي عن اختيار يشير الى موقف اجتماعي • وهنا تبدو علاقة الفنان بجماعته • والانسان ـ فنانا كان أو غير فنان ـ متوجه أبدا الى تحقيق وجوده بصهر ذاته بذوات الآخرين ، ذاته الفردة الضيقة بذات جماعته الرحبة ، والخلق الفني أداة صاحبه في تحقيق هذا الوجود • **ولكن المجتمع ـ أي مجتمع ـ في كل مرحلة من تطوره يمور الصراع والتناقض اللذين تنعكس حركتهما في سلوك الفنانين ، والناس بعامة ، وفي مواقفهم • والعمل الفني يحمل موقف صاحبه ويعبر عن وجهة نظره ، ويحدد مكانه من قضايا عصره ، ومن صراعات مجتمعه وتناقضاته • ويصبح السؤال الدارج : هل يلتزم الفنان أو لا يلتزم ؟ ساذجا ، لأنه بالضرورة ملتزم ، ألا يفصح عمله عن موقف سواء بوعي منه أو بغير وعي ؟ • وتصبح الصيغة السليمة للسؤال هي : بماذا يلتزم ؟ : أيلتزم بموقف القوى الصاعدة والعلاقات الاجتماعية الجديدة ، أم تعجز رؤيته فتقف عند القوى المنهارة والعلاقات القديمة ؟ • والذي يحدد قدر العلاقات وجدتها مرحلة التطور التي يمر بها المجتمع • وفي مرحلة التحول الى الاشتراكية يصبح الالتزام بموقف القوى الثورية الجديدة والعلاقات الاشتراكية ، تحقيقا للوجود الاجتماعي للفنان ، وتحريرا له من ضيق الفردية•**

يتناول هذا التصور الخبرة في شمولها ، والمعرفة في وحدتها ، والانسان في علاقاته الاجتماعية المفسرة لسلوكه ونشاطه • ولكن تظل هناك مشكلات جمالية دقيقة يدور حولها حوار واسع في الفكر المعاصر : خصوصية الفن ـ كجزء من البناء الفوقي وصورة من صور الوعي ـ وقوانين تطوره الذاتي واستقلاله النسبي، البحث في أداة كل فن وتقاليده الخاصة، مفهوم الواقعية الاشتراكية نظريا ومنهجيا وضرورة الموقف النقدي ، والانفتاح على كافة الاساليب والاشكال من التجارب الموروثة والمعاصرة ....الخ. ويتناول هذه المباحث وأمثالها مفكرون كبار يسعون الى تخليص النظرية الفنية والمناهج النقدية من الجمود والضيق ، وهذا **أراجون** يدعو الى (**الواقعية المنفتحة**) ، بينما يدين **لوكاش** كل (**واقعية صادرة عن الحكومة**) ، وينادي **جارودي** ب (**واقعية بلا حدود**) • انما حسبنا من التصور السابق أنه أفاد فيما أردنا تناوله هنا من أن النظريات واحدية الجانب لا يصدر عنها الا مناهج جزئية ، وأن النظرية العلمية تفتح المجال واسعا أمام منهج أكثر دقة وانضباطا • واذا كان البحث الجمالي لم يصل الى غايته من الحسم والتقنين الموضوعي، فان المؤمنين بالعلم ، المتفائلين بمستقبله سيظلون على يقين بأن تقدم البشرية علميا وتكنيكيا لن يدع مجالا في خبرة الانسان دون تفسير •

عبد المنعم تليمة



د . محمود فهمى حجازى



البحث فى بنية اللغة

عرف القرن الماضى اذن المحاولات الأولى فى التحليل اللغوى ، ولكنها لم تكن محاولات لفهم بنية اللغة بصفة عامة ، أو بنية لغة ما كنظام متكامل ، بل كانت جهودهم منصرفة الى بحث ظواهر مفردة ، وثمة فرق بين بحث بنية اللغة بتحليل عناصرها وبايضاح علاقاتها وتكاملها وبين بحث ظاهرة ما مثل الضمير « أنا » أو وزن من الأفعال أو نمط من أنماط الجملة فى كل اللغات التى تضمها الأسرة اللغوية المفردة ببحث المراحل

ارتبطت أولى محاولات التحليل اللغوى فى العصر الحديث بتيارات الفكر العلمى التى سادت القرن التاسع عشر ، ومن ثم فقد ظهرت تلك المحاولات فى اطار علم اللغة المقارن • أعجب الباحثون فى اللغة بالنظرة التطورية التى مثلها دارون وغيره من المتخصصين فى علم الحياة ، وراقهم منهجه فى ترتيب الكائنات فأخذوا يحاولون ترتيب الظواهر اللغوية ترتيبا تاريخيا • فالظواهر التى وصلت اليهم فى اللغات المختلفة التى حاولوا بحثها لا بد وأن تنتظم فى البحث اللغوى ذى النظرة التطورية فى اطار تاريخى ، وبهذا كان التركيز على الأصوات وبناء الجملة والدلالة لا فى اللغة الواحدة بل فى الأسرة اللغوية بما تضمه من لغات ولهجات متنوعة • وحاول الباحثون فى القرن التاسع عشر كذلك تصنيف اللغات قيد الدراسة فى أسرات وفصائل ، فكما نجح علماء النبات والحيوان فى تصنيف النباتات المختلفة وأنواع الحيوانات المتغايرة المتباينة حاول اللغويون تصنيف اللغات، ونجحوا فى هذا الأمر على أساس تحديد خصائص مشتركة افترضوا أنها كانت موجودة فى كل لغة من اللغات الأم التى خرجت عنها اللغات المختلفة المنضوية فى اطار أسرة لغوية واحدة • ولم يكن من الممكن فى عصر حققت فيه العلوم الطبيعية بمناهجها الدقيقة نجاحا كبيرا ودقة أكبر ـ اذ تم لعلمائها اكتشاف كثير من القوانين التى تخضع لها الظواهر الطبيعية ـ أن يهدأ اللغويون دون البحث عن قوانين تفسر التطور اللغوى ، فكما اهتدى علماء الطبيعة الى قوانين تفسر كثيرا من جوانب الكون حاول علماء اللغة اكتشاف القوانين التى تفسر التطور اللغوى ، وما التطور اللغوى فى ذلك الاطار الا تطور الظاهرة المفردة فى كل اللهجات واللغات التى تضمها الأسرة اللغوية الواحدة •

التى مرت بها قبل أن نصل الى الأشكال التى وصلت اليها ، وشتان بين هذا وبين ما يقول به ـ اليوم ـ الباحثون فى بنية اللغة كنظام رمزى متكامل • ما أشبه البحث اللغوى المقارن بمنهجه الذى ازدهر فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن القرن العشرين بباحث يريد بحث بنية المجتمع فيبحث فى أنساب عدد كبير من أفراده ويركز اهتمامه على مهد أجداد بعض أفراده ، وكأنه بهذا يستطيع التعرف على بنية المجتمع •

وعلى الرغم من أن المدرسة البنائية فى علم اللغة تنكر أساسا جدوى هذا الضرب من ضروب البحث لسبرغور بنية اللغة ، فلا بد أن نقرر هنا أن المنهج المقارن أسدى خدمة جليلة فى محاولة بيان طبيعة اللغة ، فقد خرج بعلم اللغة الى مرحلة البحث الدقيق ، وكشف لأول مرة عن وجود ما أطلقوا عليه اسم « القوانين الصوتية » • وفوق هذا فقد أتاح علم اللغة المقارن نظرة موضوعية دقيقة للهجات ، فقد دفعت عوامل مختلفة الى عدم وضوح الرؤية تجاه اللهجات ، وهنا أتى علم اللغة المقارن ليدرس الظاهرة اللغوية المفردة فى

كل صورها الموجودة فى اللهجات واللغات المختلفة فى الاسرة اللغوية الواحدة ، وبهذا أخذت ظواهر اللغة الممثلة فى اللهجات مكانهـــا الطبيعى دون امتهان لها ودون استخفاف بها أو اقلال من شأنها الى أن أتاح دى سوسير ابراز فكرة البنية اللغوية فاكتشفت فى اللهجات بنية لغوية جديرة بالبحث والدراسة .

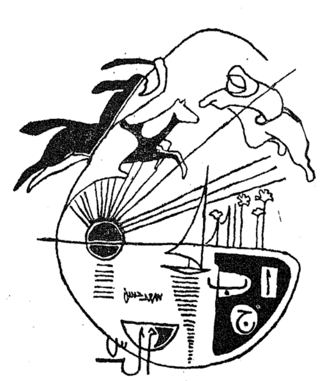
اللغة نظام من الرموز

كان الباحث السويسرى فردينان دى سوسير F. de Saussure (١٨٥٧ - ١٩١٣) نقطـــة تحول حاسمة فى تاريخ البحث اللغوى الحديث ، فقد كانت رؤيته الواضحة لجوانب كثيرة من بنية اللغة منارا أمام تلاميذه وأجيال الباحثين بعده . أدرك دى سوسير فى وضوح وجلاء أن اللغة نظام من الرموز ، ومعنى هذا أن اللغـــة مكونة من الوحدات المترابطة المتكاملة فى نظام رمزى ، فادراك طبيعة اللغة لا يتاح - فى رأى دى ســـوسير - بالتاريخ لكل ظاهرة مفردة على حدة، فليست النظرة التاريخية ســـبرا لغورالشىء ، وليس البحث عن تفسير الاشياء بالنظر فى تاريخ جزئياتها ادراكـا لطبيعتها ، ولا بد من بيان العناصر فى تكاملها اذا توخينا فهما لجوهر اللغة كنظام من الرموزالصوتية وفرق دى سوسير كذلك بين النظرة العرضـــية أو الوصـــفية من جانب والنظرة الطوليـــة أو التاريخية من الجانب الآخر : الأولى تبحث النظام اللغوى فى تكامله فى مستوى لغـوى بعينه . والثانية تدرس النظام اللغوى فى تحوله وتطوره . وكان فى ابراز دى سوسير لجوانب البحث الوصفى ما أخذ بلب تلاميذه فاخذوا يركزون عليه ويعملون فى اتجاهه فرق دى ســـوســــير كذلك بين الكلام parol واللغة langue ، فكل مستخدم للغة لا يستخدم مهما أوتى من الفصاحة واللسن الا قطاعا من هذه اللغة ، ومجموع الصيغ اللغـــوية التى قيلت واستخدمت فعلا ليست الا قـــدرا من اللغة . فاللغة هى مجموع الصيغ والانماط المختزنة فى اللاوعى عند الأفراد فى البيئة اللغوية ، واللغة هى الرباط الاجتماعى بالوسيلة الصوتية الرمزية فالنظام النحوى للغة من اللغات مستقر بصـــورة تجريدية غير واعية فى ذهن مجموع أفراد المجتمع يتوسل كل منهم بقدر منه ، وليس كل فرد منهم مدركا لكل عناصر النظام بنفس القـدر وبنفس الدرجة ، واللغة هى ذلك النظام المستقر عنـــد مجموعهم ، وعلى الباحث أن يحاول بلورة هـــذا النظام بوحداته وبعلاقاته المتكاملة . وللباحث دى سوسير جهد فى ايضاح الطبيعة الرمزية للغـــة ، فالرمز اللغوى دال signifiant يشير الى مضمون يدل عليه signifié ، وهدف الباحث فى اللغـــة أن يتبين بين عناصر الدلالة المختلفة مكتشفا قدرتها الرمزية . فاللغة عند دى سوسير هى ذلك النظام المستقر عند الجماعة ككل والذى يمكن تبين عناصره من الظواهر اللغوية المتاحة .

ظهور علم الفونولوجى

وتقدم علم اللغة بظهور علم الفونولوجى تقدما أعاد الباحثين الى دراسة اللغة كنظام رمزى ، وكان للباحث الروسى تروبتسكوى (Trubetzkoy) فضل بلورة المنهج الفونولوجى وتطبيقـــه تطبيقـــات ناجحة ، فقد اتجه البحث الصوتى قبل تروبتسكوى الى دراسة اللغة كظاهرة تشريحية - فيزيائية ، أى أن الباحثين حاولوا دراسة الصوت اللغـــوى وهو يصدر عن الجهاز الصوتى للمتحدث ، أو بحث الخصائص الفيزيائية للصوت الناتج وهو ينتقل من المتحدث فى الهواء الى المتلقى ، وأدى هذا الى دراسات عامة فى طبيعة النطق وتشريح الجهـــاز الصوتى وفسيولوجية الكلام وكذلك فى شـــدة الصوت والذبذبات الناتجة عنه ، وهنا انصرف جهدهم الى الصوت فى نفسه دون النظر فى طبيعته كجزء من نظـــام رمزى متكامل . وعندما بلور تروبتسكوى نظريته فى الفونيم أو الوحـــدة الصوتية فرق بين الفونيم من جانب وصـــوره الصوتية المختلفة من الجـــانب الآخر . ولنوضـــح هذا بأمثلة من اللغة العربية ، فصوت الســـين يختلف فى العربية عن الصاد فى أن السين صوت غير مطبق والصاد صوت مطبق ، ونفس هـــذا الفرق الصوتى نجده بين اللام المرققة فى : بالله، واللام المفخمة (أو المطبقة) فى : والله . الى هنا والبحث صوتى ، ولكن علم الفونولوجى ينظر الى هذه الظواهر لا فى خصائصهـــا التشريحيـــة الفيزيائية فحسب ، ولكنه يبحث الأصوات فى ضوء حقيقة أساسية وهى أن اللغة نظام من الرموز الصوتية ، وهنا نلاحظ أن احلال رمز السين محل الصاد فى كلمات مثل : سائر / صائر ، سبر / صبر ، يغير المعنى ، فالسين هنا رمز لغوى والصاد رمز لغوى آخر . فاذا ما أحللنا هذا محل ذاك

تغيرت الدلالة وتغير المعنى ، وهنا نقول بأن السين فونيم أو وحدة صوتية ، والصاد فونيم آخر ، أو وحدة صوتية أخرى ، وبعيد هذا عن أمر اللام المرققة واللام المفخمة ، فلو نطقنا باللام مطبقة محل غير المطبقة لما تغير المعنى ، وهنا نقول بأن هذين الصوتين الخاصين باللام فى العربية صورتان صوتيتان لوحدة صوتية واحدة • يبحث علم الفونولوجى محددا بادىء ذى بدء الوحدات الصوتية المكونة للنظام اللغوى قيد الدراسة ، وهنا يكون المعنى وتغيره أو عدم تغييره فيصلا فى التمييز بين الوحدة الصوتية والصورة الصوتية • وهذا مرتبط بالنظام اللغوى قيد الدراسة ، فلكل لغة نظامها الفونولوجى وفونيماتها الحكومة •



ما بعد المنهج الوضعى

أدى نجاح تطبيقات التحليل الفونولوجى فى اللغات المختلفة الى تقدم منهجى فى الجوانب الاخرى من علم اللغة ، فقد أوضح لنا علم الفونولوجى أولا وقبل كل شىء أن مصطلحات أى علم من العلوم هى رموز لا قيمة لها الا فى اطار نظام نظرى متكامل وأن المصطلحات والمفهومات لا تتحدد قيمتها الرمزية داخل النظام الا بعلاقات التضاد والتكامل • واتضح كذلك من منهج علم الفونولوجى أن المصطلحات والمفهومات النظرية لا تمثل بالضرورة ملاحظات ملموسة ، ولا تنطبق انطباقا مباشرا على الأشياء الملموسة المدركة ، بل تطابق علاقات مجردة أو وحدات نظرية ، فالفونيم ليس له وجود ملموس فى النظام اللغوى ، وانما هو القيمة الوسطى بين مجموع الصور الصوتية التى تنضوى فى وحدة صوتية واحدة • واذا كانت الوحدة الصوتية أمرا مجردا ليس له ما يمثله — بالمعنى الدقيق للكلمة فى الواقع الملموس ، فان فى هذا هدما للمنهج الوضعى فى العلوم الانسانية ، فلم يعد البحث قاصرا على ما يدرك بالحواس بل تجاوز المنهج الفونولوجى الوضعية ليستخرج هذه العلاقات المجردة الحاسمة • هذا ولا يمكن التوصل الى ادراك وتحديد الوحدات الصوتية أو الفونيمات بمجرد تعميم المعطيات ، بل لا بد هنا من اتباع المنهج الذى عرفته العلوم الطبيعية فى البحث ، فلا بد من فصل بعض الظواهر التى تبدو بسيطة فى علاقاتها تمهيدا لبحثها ، ثم تجاوزها الى الظواهر الأكثر تعقيدا • ولا تقوم عملية اكتشاف مكونات النظام الفونولوجى بوحداته

الصوتية وعلاقاتها على مجموعة الملاحظات الخاصة بذلك ، بل يتبلور ذلك بملاحظات مبدئية تؤدى الى فروض لا بد من اختبار صحتها فى ضوء الواقع وهذا يجعلنا نفرق فى وضوح بين المتغيرات والثوابت ، فلتحديد أو لاختبار الفرض القائل بأن صوتين يمثلان وحدتين صوتيتين مختلفتين تأتى بكلمتين بهما تكرار لكل الأصوات ـ عدا الصوت موضع البحث فى كل كلمة منهما ، مثل: تين : طين • فالمتغير الوحيد هنا فى الصوت يقابله تغير الدلالة ، ونمضى فى التحقق من صحة الغرض بأمثلة أكثر وصفوة القول ان هذا المنهج الذى ينطلق من الملاحظة الى الغرض الى اختباره فى ضوء الواقع ، يتيح ادراك كثير من المفهومات النظرية والعلاقات بين الوحدات المكونة ، وهذه وتلك ليست مما يدرك بالحواس ومما لا يمكن سبر غوره بالمنهج الوضعى ، وشبيه بهذا أمر التعرف على الذرة ومكوناتها ، فلم يستطع البحث سبر أغوارها بالمنهج الوضعى ، بل بالفروض التى أدى اثباتها الى المضى نحو فهم طبيعتها • ومن ثم يقارن كثير من الباحثين مثل كلود ليفى شيروس بين التحول الذى أحدثته الطبيعة النووية وما بدأ من تحول فى العلوم الانسانية بعد تبلور المنهج الفونولوجى ، وهكذا أتاح علم الفونولوجى بنظرته فى الوحدات الصوتية غير المدركة حسيا وبعلاقاتها وبكيفية ادراكه لها منطلقا طيبا للبحث فى العلوم الانسانية بمنهج ظهرت بعض بواكيره فى السنوات العشر الماضية •



نظرية الأنماط الصرفية

والنظام اللغوى لا يقتصر فى مكوناته على الوحدات الصوتية ، فلا بد لهذه الوحدات أن تنتظم فى أنماط صرفية محددة ، ولكل لغة نظامها الصرفى الخاص بها ، وأصغر الوحدات الصرفية هو ما يطلق عليه اسم « المورفيم » ، ويدرك كذلك بالتقابل بين الصيغ وبوسائل أخرى ، فكلمة « شخص » هى أصغر « وحدة صرفية » نخرج بها من مقابلة الكلمات ، شخص : شخصى : شخصية فالكلمة الثانية مكونة من وحدتين صرفيتين هما : شخص + الكسرة الطويلة ، والكلمة الثالثة مكونة كذلك من وحدتين صرفيتين هما : شخص + الكسرة والياء المشددة والتاء (أو الهاء) ، وهناك فرق بين الوحدة الصرفية الاولى ، فهى وحدة حرة يمكن أن تستقل برأسها مكونة كلمة كاملة ، إما الوحدة الصرفية الثانية فى كل من الكلمتين الأخريين ، فهى وحدة صرفية مقيدة • ويهدف البحث الصرفى هنا الى تحديد الوحدات الصرفية المختلفة ودراسة أنواعها من حرة ومقيدة وأنماطها المختلفة ، وعلاقاتها فى النظام اللغوى وهناك معايير مختلفة لتحديد الانماط الصرفية ، وحسبنا أن نذكر هنا أن لكل لغة تصنيفها الخاص، فالعربية تصنف كلماتها مثلا الى مؤنث ومذكر ، والألمانية تعرف المذكر والمؤنث والمحايد ، والسواحلية تصنف الأسماء الى ستة أجناس ـ على الأقل ـ وذلك وفق السوابق التى تسبق المفرد وما يقابلها فى الجمع ، والتركية لا تعرف تمييزا بين ما يعبر عنه فى العربية بالمذكر والمؤنث فلكل لغة نظامها الذى يحكم العلاقات بين عناصرها وهذا لا يتحدد الا بالتقابل بين الصيغ فى اللغة الواحدة وفى المستوى الواحد ، وغنى عن البيان أن لا علاقه بين المنضدة خشببا كانت أم حديدا وبين التأنيث فى العربية ولا بينها وبين التذكير فى الالمانية ، فاللغة رمز وتصنيفنا لاسم مافى لغة ما بأنه مذكر ، يعنى تصنيفنا للرمز لا لما يدل عليه •

ولا تتألف اللغة من كلماتها الا منتظمة فى أنماط

تتخذها الجملة ، وهنا تظهر دراسات اللغــوى الامريكي شومسكى (ينطق الأمريكيون اسمه شومسكي ، والألمان ينطقون خومسكي ،وهو لغوى معاصر عرف بجهوده فى بناء الجملة ومناهج البحث فيها) فى بناء الجملة ، والفكرة الاساسية عنده تقول بأن النظام اللغــوى ليس المجموع الحسابى لما سجل من عبارات ، بل هو شيء مجرد له وجوده الفعال وغير الواعى لدى أفراد المجتمع اللغوى، فهناك امكانيات متنوعة متجددة للاستخدام اللغوى • وهدف اللغوى هنا ليس مجرد الاستقراء الوضعى ، بل عليه أن ينطلق من المادة المتاحة ، لوضع فروض حول أنماط الجمل الممكنة، ثم تختبر هذه الفروض فى ضوء الواقع اللغوى •

وبعد تحديد النظام الفونولوجى ونظام الأنماط الصرفية وامكانيات تكوين الجملة ، فلا بد من النظر فى المفردات ودلالتها ، والقيمة الدلالية للمفردات لا تتحدد الا بعلاقاتها فى النظام اللغــوى قيــد الدراسة ، وهناك مثال بسيط فى هــذا ، فاذا افترضنا كلية تمنح طلبتها التقــديرات التالية : ممتاز (= ١٠٠٪ ــ ٩٠٪) ، ثم جيد جــدا (= ٩٠٪ ــ ٧٥٪) ، ثم متوسط (= ٧٥ ــ ٥٠٪) ، وقارنا هذا بنظام تقديرات آخر فى كلية أخرى تعرف تقديرات أكثر تنوعا : ممتــاز مع الشرف (= ١٠٠٪ ــ ٩٠٪) ، وممتاز (٩٠٪ ــ ٨٠٪) ، وجيدا جدا (٨٠٪ ــ ٧٠٪) ، وجيــد (٧٠٪ ــ ٦٠٪) ومقبول (= ٦٠٪ ــ ٥٠ ٪) لاحظنا أن كلمة (ممتــاز) لها فى النظامين مدلولان مختلفان كل الاختلاف ، ووجدنا كلمــة (جيد جدا) تختلف بين النظامين اختلافا نسبيا ، ولاحظنا أن كلمة (متوسط) غير موجــودة فى النظام الثانى ، وليس لها ما يقابلها على نحــو مباشر فيه • ومن هذا المثال البســيط نخرج بنسبية الدلالة وبأنها لا تتحدد الا داخل النظام اللغوى أو بمعنى آخر : داخل النظــام الرمزى الواحد ، وليس الحديث عن أصولها التاريخيــة أو عن مقابلاتها فى اللغات التى تندرج فى اطــار نفس الأسرة اللغوية التى تنتمى اليها تلك الكلمة أداة لفهم طبيعتها وقيمتها الرمزية •



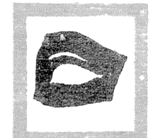
●●●

وبعد ، فقد حقق علم اللغة بمنهجه فى تحليل البنية درجة عالية من الدقة ، فأصبح كثيرون من المشتغلين بعلوم الانثروبولوجيا والاجتماع وعــلم النفس والنقد الادبى فى عدد من جامعات أوربــا وأمريكا يطبقون الاسس المنهجية للتحليل اللغوى أو لتحليــل البنيــة اللغــوية فى بحث العلوم الانسانية المختلفة ، فبدأ التمييز بين الدراســة الوصفية للبنية وبين الدراسة التطورية لهــا ، وتوسلوا بالتمييز بين العنــاصر الرمزية الدالة وما تدل عليه فى اطار المجتمع • واخذ باحثــون مثل كلود ليفى شتروس يبحثون فىالانثروبولوجيا البنائية عن نمط الحقيقة الكامنة وراء الجزئيــات المدركة حسيا أو عقليا كما يبحث اللغــوى عن الفونيمات ، والبنائية بهذا المعنى ــ كمــا يقول كلود ليفى شتروس » ليست رأيا فلسفيا بل هى منهج يحاول تصور الحقائق الاجتماعية المعاشــة على شكل نموذج نظرى ، وفى هــذا لا ينظر الى العناصر المكونة فى نفسها ، بل الى العــلاقات القائمة بينها » • وهو يحاول التعرف على «البنية غير المدركة التى ينبثق عنها كل نمط وكل عادة اجتماعية » • وبهذا تجــاوزت البنائية حدود الوضــعية لتمضى بمنهج الملاحظة والفــروض وتحقيقها الى ادراك العلاقات السائدة فى الظواهر الاجتماعية الانسانية ادراكا يكشف على نحو دقيق مالا يمكن اكتشافه بالمنهج الوضعى •

محمود فهمى حجازى



رقم الايداع بدار الكتب ١٤٠/١٩٧٠





العـــدد ٦٠ فبـرايـر ١٩٧٠



مجلة

الفكر المعاصر

تصدر شهريا عن :

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة

ت: ٩٠١١٩٧/٩٠١٢٩٩/٩٠١٦٤٨

العدد الستون
فبراير ١٩٧٠

ندوة الفكر

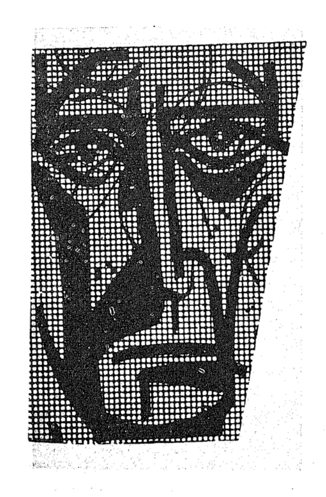
قياس قدرات الإبداع الفنى في.. أكاديمية الفنون

د. مصطفى سويف

السيد رئيس الجلسة ورئيس الجمعية ..
سيداتى .. سادتى ..

أرجو أن تسمحوا لى أولا بان أتقدم بالشكر للجمعية المصرية للدراسات النفسية اذا أتاحت لى هذه الفرصة لكى أتحدث الى حضراتكم في موضوع قياس قدرات الابداع الفنى فى أكاديمية الفنون . وأعتقد أن هذه البادرة من الجمعية .. مبادرتها بدعوتى لالقاء هذا الحديث ، أعتقد أنها تنم عن حسن تاريخي بالمسئولية الملقاة على عاتقها، لا فقط من حيث احتضان ما يتعلق بعلم النفس دراسة وتطبيقا في مجتمعنا ، ولكن كذلك من حيث السهر على سمعة علم النفس ، وعلى ماينبغى أن يتوفر فى ممارسة المهنة ، وممارسة الدراسة النفسية من شروط معينة ، ومن معايير أخلاقية لا يجوز الخروج عليها ، جمعية علم النفس بمبادرتها هذه عبرت عن هذا الحس التاريخى نظرا لأن الرأى العام فى الأسابيع الأخيرة بدأ يتحدث عن قياس هذه القدرات فى أكاديميتنا ،

من هنا فانى أعتقد أن اجتماعنا هذا المساء أهمية تاريخية خاصة ، أهمية تتمثل لا فى مجرد الحديث عن اختبارات أو مقاييس نفسية لقدرات معينة ، لكن تمتد وتعمق لتشمل الاطار الذى يضم هذا الحديث .. الاطار الأساسى أعنى به الصلة بين العلم والمجتمع ، الصلة بين الباحثين الممارسين للبحث العلمى وبين مجتمعهم عندما يدعوهم المجتمع لتقديم خدمة تطبيقية معينة باسم خبرتهم ، وباسم السنين التى قضوها فى تحصيل هذه الخبرة ، وعندما يتقدمون هم لتلبية هذه الدعوة .. هنا الدلالة التاريخية لهذا الحديث ، ومن الممكن أن يتكرر مثل هذا الموقف فى فروع أخرى من فروع العلوم الانسانية ، ومن الممكن أن يتكرر مثل هذا الموقف فى فروع أخرى من فروع العلوم الانسانيه ، ومن الممكن أن يتكرر أيضا فى فروع أخرى من فروع الدراسات العلمية عامة ، وتظل الدلالة واحدة ، هى مسألة الصلة بين العلم والمجتمع .



والواقع اننى حينما ابرز هذه الخلفية أو هذا الاطار الأساسى أجد أنه يثير أمامنا عددا كبيرا من الأسئلة ، وأستطيع على الأقل أن أجتزىء من هذه الأسئلة بأربعة أعتقد أنها هى الأسئلة الرئيسية :

السؤال الأول :

هل نحن كمجتمع ، نريد فعلا أن نصبح مجتمعا عصريا يهتدى بالحلول العلمية فى مواجهة مشكلاته والتخطيط لحياته ؟

السؤال الثانى :

كيف نفهم العلم ، هل نفهمه على أنه منهج ، بحيث يتسع فهمنا ليشمل العلوم الانسانية الى جانب العلوم الطبيعية والبيولوجية ، وليشمل التكنولوجيا البشرية الى جانب التكنولوجيا الفيزيقية ، الآليه ؟ أم نفهمه على أنه قائمة محددة بما هو مباح وما هو غير مباح .

السؤال الثالث :

هل نحن كمجتمع ، نسعى فعلا الى توظيف الطاقات المتوفرة لدينا بأفضل صورة ممكنة ؟ . ما معنى أن ينتقل أستاذ جامعي متخصص فى العلوم السلوكية من الجامعة الى ميدان الوظيفة المكتبية ، اذا لم يكن هذا فى سبيل توظيف تخصصه والانتقال به من مجال الاهتمام الأكاديمى الى مجال التطبيق ، أى الى ميدان وضع علمه وتخصصه فى الخدمة المباشرة المجتمعة ؟

السؤال الرابع :

هل نحن كمجتمع ، مستعدون لان نشجع الجديد ولو بحذر أم نحن مستعدون فقط للدفع الى المجاراة والامتثال للنموذج السائد ، فاذا دخل الجديد فى حياتنا ، فانما يدخل على الرغم منا مصحوبا بقدر كبير من النفور ومن المقاومة العنيدة ؟ •

لم تعد أهمية القياس فى الدراسات النفسية بحاجة الى مزيد من القول ، والدراسات النفسية عندما أريد لها منذ نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر أن تصبح دراسات علمية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، فطن أصحابها منذ البداية الى صورة محاولة قياس الوظائف النفسية •

***

ونحن عندما نتكلم عن القياس وعلم النفس نتكلم دائما عن أننا نقيس عددا من الوظائف النفسية ، وعندما نتكلم عن التقدم فى تاريخ القياس فاننا نتكلم عن التقدم فى زيادة كفاءة المقاييس التى تقيس وظائف معينة ، ومن ناحية أخرى عن التقدم كما يبدو فى زيادة عدد الوظائف النفسية التى نتمكن من قياسها •

وقبل التقدم الى أبعد من هذا فى الحديث أسمح لنفسى أن أعطى بعض التعريفات الأولية لكى يتم التواصل بيننا على أفضل مستوى ممكن •

نحن نتكلم عن وظائف سيكولوجيه لها معنى محدد فى عقولنا ، وعندما نذكر الوظائف النفسية مقرونة بعملية القياس ، يثور بعض العجب عند غير أهل الاختصاص ، علما بأننا نقبل بكل بساطة مفهوم القياس عندما يقرن بالوظائف الفيزيولوجية (العضوية) • ولقد جاء يوم على الوظائف العضوية لم تكن تقاس ، ثم حدث التقدم وأصبحت قابلة للقياس •

ماذا نعنى نحن رجال علم النفس عندما نتحدث عن الوظائف النفسية ونفرق بينها فى عقولنا ، وبين الوظائف الفيزيولوجية ؟ الفارق الرئيسى هو أننا نربط بين الوظيفة الفيزيولوجية وبين عضو محدد ، فنحن نتكلم مثلا عن افراز هورمون الثيروكسى من الغدة الدرقية ، ، وهكذا نقرن مباشرة بين هذه الوظيفة ، وبين عضو معين يحدد فى الجسم ولكننا لا نستطيع أن نقرن بين وظيفة ما كانفعال الغضب وبين عضو محدد فى جسم الانسان ولا نستطيع أن نقرن بين تغير الحال النفسى وبين عضو محدد فى الانسان ، ولانستطيع أن نتحدث عن الشعور بالجوع ونقرن بينه وبين عضو محدد فى الجسم ، فالمعدة لا تجوع وان كانت عضلاتها تصاب ببعض التقلصات المتتالية• يصحب ذلك الشعور بالجوع ، ولكن الشعور بالجوع وظيفة متكاملة للكائن ، هذه الوظائف التى تصدر عن الكائن متكاملا ، والتى لا نستطيع أن نربط بينها وبين عضو محدد فيه هى الوظائف السيكولوجية التى نحاول أن نقيسها وقد استطاع علماء النفس أن يوفقوا الى قياس عدد كبير منها على مر التاريخ منذ بدأ تاريخ علم النفس العلمى، كما ذكرت من قبل ، فى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر •

ولقد بدأ التقدم فى هذا الاتجاه يؤتى ثماره فى جوانب تطبيقية متعددة فى حياة المجتمعات • هذه الجوانب تدور كلها حول محاولة ايجاد وسيلة تتمثل فى مقياس يمكن اعتباره وسيلة موضوعية فى يدنا للمقارنة المحايدة ، أما بين وظيفة ووظيفة فى الفرد الواحد ، أو بين وظيفة فى مستوى معين ثم نفس الوظيفة فى نفس الفرد وقد تغيرمستواها بعد علاج معين أو بعد مران معين •• الخ •• كما يستخدم المقياس فى المقارنة بين وظيفة معينة من حيث مستواها الراهن لدى عدد من الأفراد •

والوسائل الموضوعية المحايدة التى نملكها والتى نحاول أن نحسن فيها استخدمت وتستخدم الآن ، ولا يقتصر الأمر فى العناية بها على الدراسة الأكاديمية • ولكن امتد الاجتهاد الى الاستفادة العملية التطبيقية فى مجالات مختلفة لعل أهمها : مجال التوجيه الدراسى ، ومجال التوجيه المهنى ، وميدان الخدمة الاكلينيكية ، وجوانب مختلفة من ترشيد الصناعة ، وفى القوات العسكرية ، وفى مجالات أخرى متعددة •

مر هذا التقدم كما يستشف مما ذكرت بمراحل ونحن الآن — على الأقل — نشعر عندما ننظر الى الوراء بأن المرحلة التى مر بها القياس فى أوائل هذا القرن — فى عشرينات وثلاثينات هذا القرن — نشعر بأن تلك المرحلة كانت مرحلة بدائية بالنسبة لما يتوفر لدينا الآن من عدد من المقاييس ، ومن كفاءة فى القياس • وقد نتج

هذا التقدم لا عن مجرد دأب علمـــاء النفس على تحسين مايملكونه منوسائل ، ولكنه نتج بالاضافة الى ذلك أيضا عن تقدم فى بعض فروع الرياضـــة والاحصاء ثم انعكس أثر ذلك على هذا الفرع أو هذه الدراسة مما يمكن العلماء المتخصصين من أن يزيدوا من كفاءة مقاييسهم ، وأنا أشير هنا بوجه خاص الى النهضة التى حدثت فى ثلاثينات هذا القرن فى أسلوب التحليل الاحصائى المعروف ، بالتحليل العاملى ، ففىهذه الفترة نشر «ثرستون» (طريقته المركزية) وفى هذه الفترة نشر «لولى» طريقته المعروفة باسم Maximum likelihood وفى هـــذه الفترة نشر « هوتيللينج » طريقتـه المعروفة باسمPrincipal Componentsفى هــذه الفترة نشرت طرق متعددة تهدف الى مزيد من الدقة فيما يسمى باسلوب التحليل العاملى ،ومكن هذا من دفع عجلة التقدم فى مسألة المقاييس النفسية بصورة لم تكن متوقعة على الاطلاق فى عشرينات هذا القرن . النتيجة أننا أصـــبحنا بعد نهاية الحرب العـــالمية الثانية على مشارف ما نستطيع أن نعتبره بداية هامة لتكنولوجيـــا بشرية على قدر كبير من الدقة والكفاءة ، هـــذه الدقة والكفاءة تتزايد منذ ذلك التاريخ ، أى منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بسرعة تكاد تـكون سرعة لوغارتيمية .

بعد هذا اضيق رقعة الحديث بعض الشىء ، واتجه مبـــاشرة الى الكلام عن قيـــاس القدرات الابداعية لدينا فى أكاديمية الفنون .

مالذى حفزنا الى أن نقوم بهذه الخطوة ؟

بطبيعة الحال هناك الحافز العام ، مجرد أن شخصا من الأشخاص وجد أن لا معنى لأن يترك مكانه فى الجامعة وينزل الى ميدان الخدمة العامة دون أن يقدم ما يتقن . فاذا نحينا هذا الحافز العـــام جانبا تتبقى أسباب موضـــوعية أخرى نجملها على النحو التالى :

أ — يتقدم لهذه المعاهد سنويا عدد كبير من طالبى الالتحاق بها ، وقد تقدم اليها هذا العام — على سبيل المثال ١٧٤٥ طالب (هبط هذا العدد عند عقد الامتحان الى ١٥٠٠ تقريبا) .

ب — قدرة المعاهد على استيعاب هؤلاء الطلاب وتزويدهم بالدراسات الفنية على المستوى الذى ترجوه الدولة قدرة محددة — وأرجو أن يستقر فى النفوس أن هذه المعاهد يجب أن تعامل فى الذهن معاملتنا لما اصطلحنا على تسميته بالكليات العملية لان معظم الدراسة فيها دراسة عملية . هذه المعاهد اذن لا تستطيع أن تتخطى رقما معينا فى القبول .

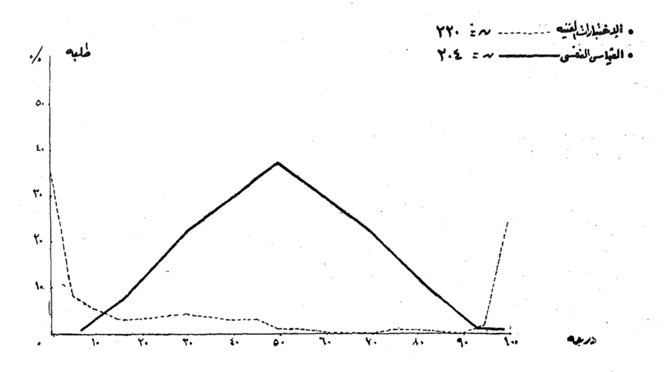
حـ — انتهى الامر بها الى أن قبلت أكثر قليلا من ٢٠٠ طالب ، أى انها قبلت السبع أو على أفضل تقدير السدس .

د — يتكلف الطالب الواحد على الدولة فى هذه المعـــاهد تكلفة باهظة وعلى سبيل التقدير الجزافى يمكن أن نقول ان التكلفة هى أربعمائة جنيه سنويا دون أن يدخل فى هذا الاســـتهلاك الذى تتعرض له مبانى وأثاثات المعاهد ... الخ أتحدث فقط فى حدود الميزانية السنوية للمعاهد الفنية والتى تمثل ما يشبه المال السائل للانفاق المباشر .

لدينا اذن هذه الاعتبارات مجتمعة وازاء هذا فلابد أن يوجد لدينا معيار موضـــوعى محايد ودقيق للمفاضلة بين هؤلاء المتقدمين . فما هو المعيار الذى نتخذه ؟

جرت العادة على أن يتخذ معيار الامتحانات بصورتها التقليدية أى امتحانات القبول ، هذا هو الرد البسيط الذى يمكن أن نستمع اليه من أى مواطن فى مثل هذا الموقف « اعقدوا امتحانات قبول » .

وردنا المباشر أن امتحانات القبول بشـــكلها التقليدى لا يستطيع المتخصص فى العلوم النفسية أن يقبلها بسهولة ، رغم علمه بأنها هى الاداة السائدة أو النموذج المعمول به ، واذا أردنا أن نتكلم بما تقضـــيه الامانة العلميـــة فان هذه الامتحانات لا تصلح معيارا موضوعيـــا دقيقا ، ليس معنى ذلك أن هذه الامتحانات لا قيمة لهـــا اطلاقا ، ولكن معناه انه اذا كان فى امكاننا أن نضـــيف اليها ما يجعل عملية الاختيار من بين المتقدمين أكثر دقة فقد وجب علينا أن نقدم هذه الاضـــافة . وجدير بالذكر أن الشـــكوى من الامتحانات لم تنقطع أيا كانت المواد التى تتناولها هذه الامتحانات ، أو المستويات التعليمية التى تعقد عندها . ومعنى ذلك أننا لسنا أول ولا آخر المتحدثين عن مسـاوىء الامتحانات بصورتهـــا



التقليدية • كل ما فى الامر أننا نأخذ هذا الحديث مأخذا جادا ونتقدم به الى منتهاه المنطقى •

والسؤال الذى ينبغى لنا أن نبدأ به الان ونضع اجابته واضحة نصب أعيننا هو ، ما هى الأسباب التى من أجلها لا نستطيع أن نثق فى امتحانات القبول التقليديه كمعيار موضـــوعى دقيق ؟ هنـــاك أســـباب متعددة ، ربما أمكننا تلخيصها فيما يلى :

ان طريقة وضع الامتحان تسمح بصورة أو بأخرى بتدخل العوامل الذاتية لدى المتحن وأنا « عندما أشير الى العوامل الذتية لا أقصد طلاقا أى معنى يمس الجانب الاخلاقى لدى المتحن ، فقد يكون المتحن أشد أمانة مما نتصور ، ولكن هناك « تكنيك » خاص ببناء الامتحان ، اذا أردنا أن نضمن قدرا معقولا من الموضوعية أتبعناه • لا بد لنا من أن نعرف هذا « التكنيك » ثم علينا أن نتبعـــه وأمـــا اذا لم نتمكن من معرفته فلن نستطيع أن نضـــع امتحانا يوفر أكبر قدر من الموضوعية ، ويضعف الجوانب الذاتية الى أقصى مدى ممكن •

وتدخل العوامل الذاتية يتبدى فى حقيقة هامة ، وهى عدم اتفاق المصححين ، فاذا افترضنا مثلا أننا وضعنا امتحانا فى مادة معينة من مواد الادب أو التاريخ أو الفلسفة •• الخ وأعطينـــا الاجابة لاحد المصححين ليصححها ثم لمصحح آخر دون أن يطلع على تصحيح زميله ، بشرط أن يكون فى درجـــة معادلة من الكفاءة ثم الى ثالث ورابع ، ففى أغلب الاحيان سوف نحصـــــل على على تقديرات متفاوتة •

هذا الكلام للاسف حقيقـــــه علمية نشرت عنها بحوث متعددة، ولكنها فيما يبدو غير معروفة المعرفة الكافية فى مجتمعنا • وأمامنـــــا البحث الذى نشره فولز J.D. Falls منذ سنة ١٩٢٨ ويعرض الجدول رقم (١) التى أسفر عنها هـــذا البحث •

« توزيع الدرجات والمستوى الدراسى كما حدده مائة مدرس فى انجلترا نتيجة لتصحيح ورقة انشاء واحدة لطلب ما »

مستو الفرقة الدراسية	الدرجة من مائة								
	٦٠ــ ٦٤	٦٥ــ ٦٩	٧٠ــ ٧٤	٧٥ــ ٧٩	٨٠ــ ٨٤	٨٥ــ ٨٩	٩٠ــ ٩٤	٩٥ــ ٩٦	المجموع
١٥								٢	٢
١٤									صفر
١٣							١	٢	٣
١٢					١		٢	٣	٦
١١			٢			٦	٥	٢	١٥
١٠			١	٣	٨	٤	٧	١	٢٤
٩	١		١	١	٨	٤	٤	٣	٢٢
٨			٢	٢	٢	٣	٤	٣	١٦
٧				٢	٢	٢	١		٧
٦	١				١	١		١	٤
٥	١								١
المجموع	٣		٦	٨	٢٢	٢٠	٢٤	١٧	١٠٠

جدول رقم (١)

يوضح الجدول نتيجة تصحيح ورقة امتحان انشاء ، اشترك فى التصحيح ١٠٠ مصحح اخذها كل منهم على حدة مستقلا تماما دون أن يعرف شيئا عن تقدير زميله اياها .

وقد طلب من كل مصحح أن يعطيها درجة، وان يحدد الفرقة الدراسية اللائقة بالتلميذ صاحب الورقة .

وواضح من البيانات الواردة بالجدول أن هناك تفاوتا شديدا فى التقديرات ، فقد أعطاها ٣ مصححين من ٦٠ الى ٦٤ درجة وأعطاها ٦ من المصححين من ٧٠ الى ٧٤ درجة وأعطاها ٨ منهم من ٧٥ الى ٧٩ درجة و ٢٢ من الأساتذة المصححين أعطوها من ٨٠ الى ٨٤ درجة .. الخ.

ويمكن ملاحظة التفاوت الشديد أيضا فى تحديد الفرقة الدراسية التى رأى المصححون أن صاحب ورقة الاجابة لابد وأن ينتسب اليها .

هذه تجربة منشورة فعلا ، منذ اكثر من أربعين سنة ، ليس هذا فقط بل انه قبل سنة ١٩٢٨ قام ستارتش واليوت

D. Starch and E.C. Elliot

بنشر دراسة لها مثل هذا المغزى تماما سنة ١٩١٣ والخطير فى أمر هذه الدراسة أنها كانت تتناول تصحيح ورقة في مادة الهندسة وقد اشترك فى تصحيح الورقة ١١٦ مدرسا من مدرسى الرياضة فتراوحت درجاتهم بين ٢٨ ، ٩٢ .

الا يمكن القول بعد ذلك اننا محتاجون (على الأقل مثل من سبقونا فى البلاد الأخرى) الى الاقتراب من السلوك البشرى بطريقة موضوعية تسمح لنا بالمعرفة الصادقة لجوانبه للتقدم فى الطريق السليم بالخطوات الملائمة ؟

أن الامتداد المنطقى للخط الذى ترسمه هذه الحقائق بالغ الخطورة ، أعنى أن الاستنتاجات البعيدة التى يمكن ترتيبها على هذه الحقائق وأمثالها هامة جدا .

لكن هذا كله لا يدخل فى اطار هذا الحديث.

الشىء المهم هو أننا رتبنا على الجميع بين السلطة وبين العلم بهذه الحقائق شعورا بالمسئولية الأخلاقية وعلى أساس هذا الشعور اتخذنا قرارا بضرورة استخدام المقاييس

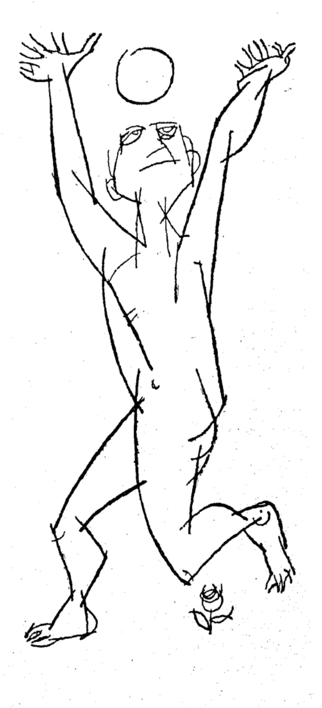
النفسية لقدرات الابداع بين الأفراد المتقدمين للالتحاق بالمعاهد من حيث حسن استعداد كل منهم للافادة من الدراسة فى هذه المعاهد .

ننتقل الآن الى الحديث عن المبادىء التى راعيناها فى اختيار مقاييسنا قبل المضى فى هذا الاتجاه أود أن أساعد على ازالة لبس معين وقر فى بعض الأذهان فقد ارتبطت كلمة « اختبار » بحكم معناها اللغوى بكلمة « امتحان » وأخذت الأمور مأخذا معينا فى اتجاه أن هذا امتحان ضمن الامتحانات التى يمر بها الطالب عند الدخول ، حتى لقد تساءل البعض : كيف تمتحنون أبناءنا فى مادة علم النفس وهم لم يدرسوا علم نفس .. وهذه كلها أمور لا صلة لها بمقاييسنا ولا بطبيعة القياس النفسى بوجه عام ، فكلمة اختبار فى الواقع ترجمة عربية غير دقيقة لكلمة Test . ونحن عندما نستخدمها الآن نستخدمها خضوعا لثقل التاريخ فقط ، ولكن Test تستخدم كذلك كمصطلح طبى ، فالأطباء مثلا يتكلمون عما يسمونه Liver Function Test لا يستطيع أحد ترجمة هذا التعبير بامتحان يجرى للكبد من أجل وظيفة معينة وانما المقصود بالمصطلح فى هذا المجال أننا بصدد فحص معين .

واذا كنا نقصد عندما نقول Liver function test اننا نفحص الكبد من ناحية معينة ، فكذلك يمكن القول اننا حين نذكر Psychological Test نقصد فحص وظيفة نفسية معينة .. الخ ، من أجل هذا ولكى انأى بنفسى قليلا عن هذا اللبس احاول بقدر الامكان أن أستخدم الكلمة التى كنا نود أن تسود بيننا وهى كلمة المقاييس أو المقياس كترجمة لكلمة Scales أو Scalling راعينا عند اختيار مقاييسنا عدداً من المبادىء :

المبدأ الأول : أن تكون متناسبة للعمر ، والمتخصصون يعرفون ما يترتب على ذلك فى السن الصغير . كانت المقاييس المستخدمة امتحانات قبول الاعدادى مقاييس أداء عملى Performance ولم تكن مقاييس لفظية ، وهذا كما نعلم من دراساتنا النفسية يعنى أننا نتعامل حسب ما تقتضيه سيكولوجية الطفل ، فالتعامل بالألفاظ أصعب وأشق على الأطفال من التعامل الحركى ، ونحن هنا ننفذ اليهم من أفضل وأنسب السبل التى تقربنا من نفوسهم .

المبدأ الثانى : اخترنا مقاييس لقدرات الابداع وليس للذكاء (الا فى حالة واحدة استخدمنا فيها مقاييس الذكاء ، وذلك فى حالة



صغار السن الذين يبدأون حياتهم المدرسية ، استخدمناها فقط لكى نستبعد المتخلفين عقليا . أو للنصح باستبعادهم وكاختبار اصدق هذه المقاييس نصحنا فى العام الماضى بعدم قبول ثلاثة تلاميذ من صغار السن فى أحد المعاهد ، وشعرنا بقدر من عدم رضا المسئولين الفنيين فى المعهد بهذه التوصية ، فقلنا نترك التجربة لكى نتعلم منها كلنا ، وفى هذا العام رسب الأطفال الثلاثة، اما بالتخلف فى بعض مواد أو برسوب كامل ، فى حين ان الأطفال الذين نصحنا بقبولهم رسب منهم فقط حوالى ٢٠٪) .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لم نضمن مقاييسنا مقاييس للسمات المزاجية للشخصية وعلى ذلك فاذا كانت هناك بعض المخاوف التى راودت بعض المواطنين من حين أن بعض المعلومات التاريخية التى نعرفها عن المبدعين من رجال الفن ورجال العلم .. الخ تدلنا على ان الكثيرين منهم كانوا يعانون من اضطرابات نفسية ، تصل بالبعض أحيانا الى درجة الذهان ، أى الى درجة الجنون ، أمام هذه المخاوف نود أن نوضح أننا لا نستخدم مقاييس للشخصية ، واقتصرنا على مقاييس قدرات الابداع فقط .

المبدأ الثالث : اننا تحرينا ان تناسب مقاييسنا نوعية النشاط الفنى التى سيقبل عليها الطالب ، فبالاضافة الى مجموعة من مقاييس قدرات الابداع الاساسية التى دلت البحوث التجريبية فى العشرين السنة الأخيرة على أنها هى القدرات التى لابد من توافرها فى كل عمل ابداعى سواء أكان فى العلم أم فى الفن أم فى التكنولوجيا .. الخ بالاضافة الى هذا فنحن نقيس بعض الجوانب التى تفيد الدراسة النوعية فى معهد بعينه مثال ذلك : اذا كان الطالب مقبلا على الالتحاق بمعهد تحتاج الدراسة فيه الى قراءة النوتة الموسيقية ، فاننا نضيف اليه اختبارا لسرعة الادراك البصرى ودقته ، واذا كان الطالب مقبلا على الدراسة فى معهد ستتطلب الدراسة فيه العزف على آلة من الآلات الموسيقية ، وهذا يحتاج الى قدر من مرونة الأصابع ، والى قدر من السيطرة على حركة اليد ، فى هذه الحالة نستخدم مقياسا أو مقاييس للتعرف على مرونة اليد ومرونة الأصابع وهكذا .

المبدأ الرابع : بالاضافة الى هذه المبادىء الثلاثة اشترطنا درجة ثبات أو ما يمكن تسميته بوجه عام درجة دقة معقولة فى هذه المقاييس التى نستخدمها . والمقاييس التى نستخدمها بالنسبة للشخص الواحد متعددة ومتوسط درجة الثبات التى توفرت لها ٧١ر٠ .

المبدأ الخامس : أن يكون قد سبق اجراء تحليل عاملى لهذه المقاييس وذلك لكى يتعين لنا قدر معقول من صدق هذه المقاييس — تحليل عاملى فى مصر وتحليل عاملى أو تحليلات عاملية فى الخارج .

المبدأ السادس : أن نستخدم عدة اختبارات لكل طالب واحد ولا تقتصر بأى حال من الأحوال على استخدام مقياس واحد فقط ، هذه النقطة الخاصة باستخدام عدد من المقاييس تعتبر نقطة هامة لأننا نستطيع أن نضم لدرجات (وهذا بالضبط ما نفعله) التى ينالها الطالب على المقاييس المحددة(١) . وبعد ضمها بهذه الصورة تصبح الدرجة التى نحصل عليها أكثر ثباتا أى اكثر دقة من كل درجة على حدة من الدرجات الجزئية التى أوصلتنا الى هذه الدرجة الكلية. وبعبارة اخرى فان هذه المقاييس التى بدأنا بها وهى على درجة معينة من الدقة تنتهى منها الى ما يشبه أن يكون مقياسا واحدا يضمها جميعا، وهو على درجة من الدقة تفوق درجة كل منها(٢) .

لا اريد أن أدخل هنا فى تفصيل الطرق الفنية (تكنيكات) التى توضح كيف تزيد درجة دقة أو ثبات المقاييس اذا ضمت معا لتكون منهما مقياس واحد كبير ، ولكن سأشرح بعبارة مختصرة من الناحية المنطقية لماذا تزيد الدقة .

لنتصور منطقيا أن كل مقياس من هذه المقاييس يأخذ عينة من سلوك الشخص ، هذه

---

(١) وطريقة الضم لها أسلوب احصائى معين اذ لابد أن تحول قبل أن تضم حسابيا على النحو التالى : نحول الدرجات الخام الى مايسمى درجات تائية T. score وبعد ذلك نستطيع أن نضمها .

(٢) هناك طرق أخرى لضم درجات المقاييس الجزئية لتصير مقياسا كليا ومنها على سبيل المثال الضم بعد اجراء تحليل عاملى للمقاييس للتعرف على الجزء من الدرجة الكلية الذى تمثله عامليا درجة كل مقياس فى بناء الدرجة الكلية ونحن بسبيلنا الى استخدام هذه الطريقة بعد أن تم الاتفاق بين أكاديمية الفنون وبين مركز الحساب العلمى الالكترونى بجامعة القاهرة لاستخدام الامكانيات الهائلة للحاسب الالكترونى من حيث السرعة من حيث الدقة لاجراء الحسابات المطلوبة . ومع التسليم بأن هذا الاسلوب سيزيد من دقة حساباتنا الا أن الامانة تقتضينا أن نقرر أن هذه الزيادة لن تؤثر بشكل ملموس فى النتائج العملية للتطبيق .

العينة عبارة مثلا عن جزء من مائة من سلوكه ، نحن نحكم على السلوك بناء على هذه العينة وكلما كبرت العينة المقيسة كان الأرجح أن تصبح أكثر تمثيلا للسلوك المطلوب قياسه وبالتالى تكون النتيجة أكثر استقرارا وتجعلنا أكثر اطمئنانا على سلامتها وبهذه الصورة نصل الى درجة أكثر ثباتا وعلى هذا الأساس فاننا اذا استخدمنا مقاييس درجة ثبات كل منها ٧١ر. فاننا نتوقع أن تكون درجة الثبات النهائية أعلى من ذلك فتصل الى ٩٠ر. ، وأمام دارس علم النفس والمتخصصين منا مثال على ذلك ، مقياس وكسلر للذكاء فمن المعروف أن درجة ثبات كل مقياس فرعى من أجزائه منخفضة نسبيا . وهى تتراوح غالبا من ٦٠ر. الى ٧٠ر. تقريبا وبضم هذه المقاييس الفرعية Subscales معا نجد أن درجة الثبات الكلية لهذا المقياس تصل الى أكثر قليلا من ٩٠ر. .

المبدأ السابع : بعد كل هذه الاحتياطات لم ننفرد أطلاقا بتطبيق المقاييس النفسية لنجعلها المعيار الأول والأخير فى الالتحاق بالمعاهد بل احترمنا التراث واحترمنا مشاعر الزملاء القائمين على الامتحانات بصورتها التقليدية واحترمنا خبرتهم واحترمنا كذلك بشريتنا الناقصة فقد تكون مخطئين ولو بنسبة ضئيلة.

اذن لنترك للتراث أن يؤدى دوره فتسير الامتحانات التقليدية الى جانبنا وأكثر من هذا أيضا جعلنا لهذه الامتحانات التقليدية ٦٠٪ من الدرجة التى تحكم نهائيا بقبول دخول الطالب و ٤٠٪ للمقاييس النفسية(١) . ثم حددنا درجة دنيا على المقياس النفسى الكلى المكون بالطريقة التى شرحتها آنفا وكانت هذه الدرجة ٥٠ (خمسين) علما بأن الدرجة النهائية على هذا المقياس ١٠٠ (مائة) .

لماذا حددنا درجة ٥٠ بالذات كحد أدنى ؟ يمكن توضيح ذلك على النحو التالى :

نحن فى هذا المجال ، مجال دراسة الفنون نكثر من الحديث عن الموهبة وقد كتب الكثيرون بأملهم فى أن تخرج لنا هذه الأكاديمية الدارسين الموهوبين أو الفنانين الموهوبين وكلمة الموهبة لها معنى محدد فى الدراسات النفسية ، وبالتعريف القاموسى الاصطلاحى للموهبة نجد أن الموهوبين على أى قدرة من القدرات لا يزيدون على ٢ر٥٪ من أبناء المجتمع بمعنى انه اذا تصورنا أننا قسنا أى قدرة من القدرات ووزعنا درجاتها ورسمنا منحنى التوزيع سنلاحظ أننا اذا أخذنا عينة كبيرة ممثلة للمجتمع تمثيلا جيدا اقترب المنحنى من الشكل الاعتدالى وعلى هذا الأساس فان الـ ٢ر٥٪ التى تقع فى قمة التوزيع الخاص بهذه القدرة النفسية التى يقيسها تمثل بالفعل من يمكن أن نطلق عليهم لفظ الموهوبين(٢) .

اذا حسبنا الحسبة على أساس تحديد الموهوبين على النحو الذى تحدده الدراسات التى اعتمدت عليها القواميس المتخصصة ستكون أدنى درجة مقبولة لأى موهوب على مقاييسنا واقعة بين ٧٠ ، ٨٠ تقريبا (١) .

ولما كانت درجات ثبت المقاييس التى نستخدمها معروفة لنا (٢) فاننا نستطيع أن نحسب ما يسمى بالخطأ المعيارى للدرجة التى نحن بصددها . ولهذه الدرجة معادلة معينة نوردها فيما يلى :

الخطأ المعيارى للمقياس = ع × الجذر التربيعى لـ (١ ــ ر ١١)

حيث ع = الانحراف المعيارى على المقياس

ر = درجة ثبات المقياس

فاذا طبقنا هذه المعادلة على المقياس الكلى للابداع على أساس أن درجة ثباته ٩ ، ٠ ، والانحراف المعيارى عليه = ١٠

فان الخطأ المعيارى فى هذه الحالة = ١٠ × الجذر التربيعى (١ ــ ٩ و ٠)

= ١٠ × ٣٣ر٠ = ٣ر٣

ونحن نحدد ثقتنا فى أية درجة على المقياس بأنها غالبا لن تزيد على ما يساوى ضعف الخطأ المعيارى فوق الدرجة وتحتها . بعبارة أخرى أن أية درجة ينالها الشخص على مقياسنا اذا لم تكن

---

(١) رغم اقتناعنا من الناحية العلمية بأن الامور ينبغى ان تتم على نحو آخر ، غير اننا مقتنعون كذلك ــ وفى الوقت نفسه ــ أن القرارات التى تتضمن نوعا معينا من التمييز الاجتماعى يجب الا تقام على الحقيقة العلمية فحسب ولكن على تهيئة الرأى العام كذلك ..

(٢) يمكن الرجوع فى ذلك الى القواميس النفسية ومن أهمها قاموس English Comprehensive Dictionary for Psychological and Psychoanalytical Terms

وهى تكاد تجمع على تعريف الموهبة على هذا النحو

(١) يلاحظ ان المتوسط ٥٠ والانحراف المعيارى ١٠ وقاعدة التوزيع مقسمة الى خمسة انحرافات معيارية لان الدرجات التى ندخلها فى حسابنا هنا درجات تائية.

(٢) وهذه هى احدى المميزات الهامة التى تميزها من الامتحانات التقليدية .

هى بالضبط درجته الحقيقية فلن تخرج درجتـــه الحقيقية على أن تكون أكثر أو أقل من هذه الدرجة بمقدار ٦ر٦ • وفى حدود هذا المدى نولى ثقتنــا للدرجة التى نحن بصددها •

فلنفرض الآن أن شخصا حصل على ٨٠ على الحقيقية تتراوح بين ٧٣ر٤ و ٨٦ر٦ • واذا حصل المقياس فالدقة والامانة تقتضينا أن نقول أن درجته على درجة مقدارها ٧٠ فالامانة تقتضينا أن نقرر أن درجته الحقيقية تقع فى موضع ما بين ٦٣ر٤ و ٧٦ر٦ •

ومن الواضح أن هذا المدى يتـــأثر فى تحديده بدرجة ثبات المقياس •

فلنفرض أن ثبات المقياس كان ٧ر٠ فقط

فيـــكون الخطأ المعيـــارى = ١٠ × الجذر التربيعى لـ (١ ــ ٧ ر ٠)
= ٥ر٥ عندئذ تكون الدرجة ٨٠ واقعة بين ٦٩ و ٩١

وتكون الدرجة ٧٠ واقعة بين ٥٩ و ٨١

فاذا هبط ثبات المقياس الى ٦ر ٠:
فان الخطأ المعيـــارى = ١٠ × الجذر التربيعى (٤ ر ٠) = ١٠ × ٦٢ر ٠ = ٦ر٣ عنـــدئذ تـكون
الدرجة ٨٠ واقعة بين ٦٧ر٤ و ٩٢ر٦
والدرجة ٧٠ واقعة ٥٧ر٤ و ٨٢ر٦

هنا ينبغى للقارىء أن يتوقف ويتأمل الدرجة ٥٠ التى حددناها كحد أدنى يجب أن يحصل عليه المتقدم للالتحاق بمعاهد الاكاديمية • أن الحصول على ٥٧ر٤ اذا قبلناه فمعناه أننا نعتبر درجـــة الموهبة ٧٠ ودرجة ثبات المقياس ٦ر • ومع ذلك فقد هبطنا عن ذلك ووصلنا الى القبول عند درجة ٥٠ لا لشىء الا لكى نضمن أننا لم نخطىء بترك أى شخص يكون موهوبا •

وبطبيعة الحال كان يعنى ذلك أننا أخطأنا فى الاتجاه المضاد بأخذ عدد من غير الموهوبين ولكننا فضلنا هذا النوع من الخطأ على النوع الاول لان الخسارة تكون فادحة حقا بالنسبـة للمجتمع اذا تركنا الموهوب الحقيقى •

هذا هو الاساس العلمى الرياضى لوقفتنا عند الدرجة ٥٠ ونتيجة لهذه الاحتياطات جميعا حصلنا على نتائج نحكم عليها بضميرنا بأنها تدعو الى درجة عالية من الاطمئنان •

والرسم البيانى ص ٩ • يوضح احدى النتائج التى حصلنا عليها من المقاييس النفســـية مقارنة بنظيرها للامتحانات التقليدية فى أحد معـــاهد أكاديمية الفنون •

هذا الرسم يقدم منحنيين ، أحدهما يمثل توزيع النتائج على المقاييس النفســـية للابداع (وهو المرسوم بالخط الثقيــل) ، والآخر يمثل توزيع النتائج على امتحانات القبول التقليدية التى طبقت على المرشـــحين أنفســـهم الذين تلقوا النفسية (١) • ومن الواضح أن الفرق كبير بين التوزيعين • فالتوزيع على حسب نتائج القياس النفسى نسميه عندما يتخذ هذا الشكل الواضح فى الرسم توزيعا اعتداليا أو قريبا من الاعتدال • وهو توزيع يدل على أن أداة القياس تدرجت تدرجا معقولا من الصعوبة الى السهولة فنتج عن ذلك هذا الشكل المعقول فى التوزيع ويتلخص فى أن عددا ضئيلا نال درجات منخفضة ضعيفة ، وعدد ضئيلا آخر نال درجات مرتفعة أما الغالبية فهم أقرب الى الدرجات المتوسطة • هذا التوزيع نسميه معقولا لانه نمط يتكرر بالنســـبة للغالبية العظمى من خصائص الكائنات الحية ، ابتداء من أطوالهـــا وأوزانها حتى الخصائص أو الوظائف النفســـية ومن بينها قدرات الابداع التى نحن بصددها • وقد تنبه أهل الاختصاص الى أهمية هذا النمط أول ما تنبهوا فى مجال الخصائص البيولوجية ، ثم امتد نظرهم الى بعض الخصال السيكولوجية ، ثم أصبح النمط قاعدة نحاول أن نخضـــع لهـا فنحققها فى التوزيع الذى نخرج به على كثير من مقاييسنا التى نحاول أن نضعها للوظائف النفسية الحديثة الاكتشاف •

فى مقابل هذا نجد التوزيع (٢) الذى يشير اليه الخط المنقط الخـاص بالامتحانات الفنية • وأهم ما يميزه الارتفاع الواضـــح عند الطرفين الادنى والاعلى ، والانخفاض الشديد المتصـــل بين هذين الطرفين • ومعنى ذلك أن هذه الامتحانات الفنية لم تكن متدرجة بما فيه الكفاية ، بل كان يترتب عليها اما اعطاء درجة منخفضـــة جدا أو درجة

---

(١) لكى يمكن مقارنة الامتحانات التقليدية بدرجـات المقاييس النفسية حولنا الدرجات التائية الى درجات تائية معدلة لتصبح متدرجة من صفر الى مائة •

متدرجة من صفر الى مائة •

(٢) الفرق بين عدد من تلقوا الاختبارات الفنيـة وبين من تلقوا المقاييس النفسية ناتج عن تغيب البعض.

مرتفعة جدا ولا وسط بين الطرفين • وهذا طراز من النتائج لا يتفق والمفهوم الاساسى لاستعدادات التفكير الابداعى التى نحاول أن نقيمها عند المتقدمين الجدد لمعاهد الاكاديمية ، ولا يتفق والاســاس العميق لعمليات التقويم الكمي التى يقدمها العلم الحديث فى أى فرع من فروعه •

هذا الرسم مثال واحد من أمثلة أخرى متعددة حصلنا عليها من تحليلنا لنتائج القياس النفسى ومقارنتها بنتائج الامتحانات الفنيـــة التى نعقدها فى مسابقات القبول بالمعاهد • ومع ذلك فقد أبقينـــا الامتحانات الفنية على ما هى عليه واكتفينا باضافة المقاييس النفسية الى جانبهـــا بالصورة التى أوضحناها ، لا لشيء الا لاعتبارات احترام ماجرى الناس عليه واحترام المشـــاعر والعادات التى كونوها حول هذا الذى جروا عليه

بعد عرض هذه النتائج نتوقف عند سؤالين دارا بالاذهان : —

الأول : كيف يمكن تكوين مقياس للابداع الفنى أو لجانب من جوانب الابداع •

الثانى : هل أجريت دراسات محليه على هذه المقاييس وعلى مفاهيم ميدان الابداع قبل استخدامها تطبيقيا ؟

الاجابة على هذين الســـؤالين على النحو التالى : —

فيما يتعلق بالســـؤال الاول : كيف يمكن تكوين مقيـــاس للابداع فى الفنون أو — الابداع عامة ؟ أو كيف يمكن تكوين مقياس لاى وظيفـــة نفسية ؟

الطريقة من حيث خطوطها الرئيسية تكون على النحو الآتى : تؤخذ عينة من مظاهر السلوك التى نريد أن ندرسها ، وهناك طرق معينه لاخذ العينات عموما يعرفها المتخصصون ••• ويمكن القول بأن مسألة أخذ العينة من المادة التى نريد دراستها تمثل مبدأ علميا عاما فى المرحلة الراهنة من تقدم العلوم •

وللمتخصصين فى علوم النفس طرقهم الفنية فى أخذ العينات ، ومن بين هذه الطرق الرجوع الى كافة المصادر التى سجلت فيها جوانب مختلفة من حياة هذا الشخص اذا لم يكن هذا الشخص قائما أمامنا ، أما اذا كان قائما أمامنا وضع موضـــع الملاحظة بطرق متعددة •

وقد تقدم علماء النفس بدرجة ملحوظة فى هذا الميدان ، ميدان طرق الملاحظة المضبوطة لمظاهر السلوك المختلفة ابتداء من ثلاثينات هذا القرن ، وقد بدأ التقدم فى ميدان دراســـة الاطفال لان تناولهم أسهل وأطوع ، ثم تطور ووصل بنا الى مزيد من الضبط فى جميع الملاحظات على سلوك الراشدين •

وبالنسبة للمبدعين فى الفنون والعلوم توجد مصـــادر مختلفه يرجع اليها ، وقد رجع اليها المختصون فعلا عند تكوين هذه المقاييس • ومن هذه المصادر على سبيل المثال ما يأتى : —

أولا : التقارير الاستبطانية عن عملية الابداع كما وردت بصورة تلقائية عند بعض المبدعين مثـــال ذلك بعض الكتابات التى تركها ليونارد دافنشى وغيره من المبدعين فى مجـــال النحت والتصوير والموســـيقى والادب ••• الخ ترك هؤلاء — المبدعين تقارير عن مشاعرهم أثناء عملية الابداع ، وقد كتبت بصورة تلقائية فى أثنـــاء كتابتهم خطابا لشخص من الاشخاص ، أو فى أثناء تدوينهم للمحوظة لاحظوها على أنفســـهم واثارت اهتمامهم فى أثناء الابداع ليسجلونها أو يقلدونها لتلاميذهم كنوع من توريث الخبرة •

ثانيا : وبالاضافة الى هذه التقارير التلقائية توجد تقارير استبطانية غيرتلقائية ، كان يكونوا قد أغروا بكتابة سير حياتهم ، مثال ذلك ستيفن سبندر World within World الذى قدم كثيرا من المعلومات عن حياته تعتبر عينـة صـــالحة نقيم عليها تحليلات كثيرة ، وتقتبس منها عناصر كثيرة هناك أيضا بولى كلى وتوماس مان وغيرهما كثيرون •

ثالثا : بالاضافة الى التقارير الاســـتبطانية توجد الملاحظات التى تجرى على المبدعين من خلال سيرهم ، وتعرض هذه الملاحظات فى كتب معينة تؤرخ لهم مباشرة .و من خلال التـــأريخ لحركات فنية معينة مثال ذلك أنه أصبح معروفا عن شاعر مثل لورد بايرون السهولة أو الطلاقة التى كان يفيض بها شعرا ، كذلكعرفت مثل هذه السهولة أو الطلاقة عن أديســـون المخترع التـــكنولوجى فى أواخـــر القرن ١٩ (طـــلاقة تصــوراته وأفـــكاره التكنولوجية) مثال ذلك أيضا بيكاسو والطلاقة التى تنطلق بها تصوراته التشكيلية •

رابعا : سيرة المبدعين المـكتوبة نتيجة الملاحظة عن قرب ، وقد قدر لبعض المبدعين اقتراب بعض أصـــدقائهم أو المعجبـــين بهم منهـــم وكان هـــؤلاء الاصـــدقاء أو المعجبون يدونون عن المبـــدعين كل صغيرة وكبيرة• مثال ذلكصداقة جيمس سابارتيز لبيكاسو، فقد كتب لنا سابارتيز أشياء كثيرة على

درجة عالية من الاهمية عن بيكاسو كذلك سميت ايكرمان عن جيته وهو على مقربة منه ، وكتب عن كافكا .. الخ .

خامسا : ما يحصل عليه علماء النفس نتيجة مسألتهم لبعض المبدعين مثال على هذا الفريد بينيه مع بول أرفييه فقد تمكن الفريد بينيه العالم النفسي من الاتصال بالاديب الفرنسي بول أرفييه واستبره بعدد كبير من الاسئلة كشفت عن كثير من جوانب عملية الابداع لدى هذا الاديب . وفي نفس الاتجاه تمكن ماكس فوتهيمر عالم النفس الالماني من استبار البرت اينشتلين ، وكانت النتيجة باهرة من حيث الحصول على معلومات على قدر لا بأس به من الأهمية من وجهة النظر السيكولوجية .

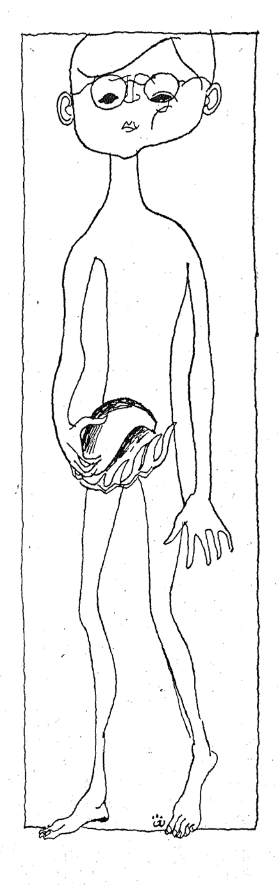
سادسا : تحليل أعمال المبدعين من حيث عملية الابداع نفسها وتتلخص هذه الطريقة . في تتبع عملية الابداع وخاصة فيما نسميه بالمسودات أو المحاولات الاولى المتوالية التي يجتازها الفنان الى أن يصل الى المرحلة الاخيرة التي يرتضيها ويقدمها لنا ، والمثال الواضح لهذا الاسلوب الدراسة التي نشرها سنة ١٩٦٣ رودلف أرنهايم عن جيرنيكا بيكاسو . وقد قام بدراسة وتحليل عدد من المسودات المتوالية لهذه اللوحة . مثال أسبق من ذلك ما قمنا به من دراسة بعض مسودات لشعراء مصريين وعرب ـ هذه المصادر الستة وغيرها تؤخذ منها معلومات لاحصر لها عن مختلف مظاهر السلوك الابداعي . ثم تجرى عليها التحليلات الاحصائية المتوالية التي تعرف باسم تحليل المضمون وتحليل البنود ، وتنتهي في النهاية الى مجموعة هامة من العناصر التي نعرف انها اذا توفرت تكون دليلا على أن نسق الحياة لهذا الشخص تشبيه بنسق الحياة للشخص الذي استمددنا منه هذه المادة بعد أن أثبت نفسه في الحياة .

هذه خلاصة اجابتنا على السؤال الأول .

السؤال الثاني : وهو المتعلق بالدراسات المحلية . سأمر في حصر سريع لهذه الدراسات :

الدراسة الاولى : الاسس النفسية للابداع الفنى في الشعر ، وقد بدأت سنة ١٩٤٦ وانتهيت منها ونشرت سنة ١٩٥١ وهذه الدراسة عبارة عن تحليل كيفي لعملية الابداع وشروط انطلاقها .

الدراسة الثانية : وهي دراسة نظرية تمت سنة ١٩٥٧ وكان موضوعها « مقاييس القدرات الابداعية ، عرض ونقد ومناقشة للامكانيات الاكلينيكية » قدمتها الى جامعة لندن سنة ٥٩ بمناسبة وجودي هناك في مهمة علمية ونشرت



سنة ١٩٥٩ وعلى ضوء هذه الدراسة نشرت الكتيب المعروف باسم العبقرية في الفن .

الدراسة الثالثة : « عملية الابداع لدى المصورين» وقد اتممتها على المرحوم الفنان المصور محمود سعيد ، وهى عبارة عن تحليلات كيفية ، وفيها تحليلات كمية بناء على عدد من مقاييس الابداع ومقاييس الشخصية ، ولم تنشر هذه الدراسة بعد .

الدراسة الرابعة : « الاستعدادات الابداعية وعلاقاتها بالسمات المزاجية للشخصية » قام بها بالاشتراك معى الاستاذ عبد الحليم محمود فى جامعة القاهرة سنة ١٩٦٢ وقد استخدمنا فيها عددا من مقاييس القدرات بعد أن طوعناها بناء على مقتضيات البيئة ، وبعد أن حسبنا لها درجة الثبات بطريقتين مختلفتين بطريقة القسمة النصفية Split half وطريقة ثبات التصحيح Inter scorer reliability اطمأننا الى ثبات المقاييس ثم استخدمناها ، وقد كان عدد مقاييس الابداع فى هذه الدراسة ١٢ مقياسا ثم حللت عامليا وأجريت المقارنات بين نتائجنا والنتائج التى نشرت فى الخارج على هذه المقاييس فى أشكالها الخارجية .

الدراسة الخامسة : الاستعدادات الابداعية والمرض العقلى، نقوم بها حاليا ،ويشترك معى فيها الاستاذ صفوت فرج فى جامعة القاهرة ، بدأناها سنة ١٩٦٥ على ٢٠٠ شخص من الاسوياء و ٢٠٠ شخص من الذهانيين نزلاء مستشفيات الامراض العقلية هنا فى مصر ، وقد فرغنا من أجزاء كثيرة من هذه الدراسة ، واستطعنا أن نصمم ثلاث مقاييس جديدة لجوانب فى الابداع لم يكن قد صمم لها مقاييس من قبل ، ونحن الآن بسبيل نشر هذه المقاييس فى الخارج .

الدراسة السادسة : الفروق بين الجنسين فى الاستعدادات الابداعية ـ تقوم بها بالاشتراك معى السيدة ناهد رمزى منذ سنة ١٩٦٦ على ١٥٠ تقريبا من الذكور و ١٥٠ من الاناث ، وعدد مقاييس الابداع التى استخدمت ١٤ مقياسا أجريت عليها التعديلات اللازمة ، وحسبت لها معاملات الثبات، وكونت الى جانبها مقاييس جديدة على نسقها .

الدراسة السابعة : دراسة الابداع الفنى فى الرواية ، عملية الابداع الفنى لدى الروائيين . وهنا لا تستخدم مقاييس للقدرات أو الاستعدادات الابداعية ، ولكن تستخدم ما يسمى استخبارا محددا ومقننا Standard Questionair ، ونطبقه على عدد من كتاب الرواية المصريين ، ويشترك معى فى هذه الدراسة الاستاذ مصرى عبد الحميد حنورة منذ سنة ١٩٦٧ فى جامعة القاهرة .

الدراسة الثامنة : « الابداع الفنى وعلاقته بمستوى التوتر النفسى » وتقوم بهذه الدراسة معى السيدة سلوى الملا على حوالى ٥٠٠ شخص انتهينا فقط من مرحلة التجربة الاستطلاعية ، وهى تبشر بنتائج ايجابية ، وخطوتنا القادمة هى التجربة الاصلية الموسعة .

الدراسة التاسعة : دراسة نمو القدرات الابداعية : وهنا نأخذ عددا من الأعمار المتوالية ، ويقوم بهذه الدراسة معى الاستاذ زين العابدين عبد الحميد منذ سنة ١٩٦٧ على حوالى ٣٠٠ شخص من الذكور يمثلون ثلاث مراحل عمرية متتالية .

الدراسة العاشرة : دراسة السياق النفسى الاجتماعى للابداع ، يقوم بها معى الاستاذ عبد الحليم محمود منذ سنة ١٩٦٨ لا تزال نوضح فيها مفاهيمنا النظرية ، ولم نحدد بعد الخطة النهائية التى سنتقدم بها للتجربة .

الدراسة الحادية عشرة: دراسة الاصالة وعلاقتها بأسلوب الشخصية كما يتكشف فى بعض أساليب الاستجابة Response Set ، يقوم بها بالاشتراك معى الاستاذ عبدالستار ابراهيم فى جامعة القاهرة أيضا .

من هذه القائمة يتضح اننا قمنا بدراسات محلية عديدة وتقوم هذه الدراسات على استخدام مقاييس الابداع وعلى تحليل عملية الابداع ، وقد تأكد لدينا بكل ما تعنى كلمة التأكد فى العلم من من معنى من قيمة هذه المقاييس فى بيئتنا وجدواها وكفاءتها من حيث احتفاظها بالخصائص التى تجعلها أدوات عملية قيمة أى على درجة عالية من الدقة والموضوعية والصدق .

الى هنا أتوقف عن الحديث عن مقاييس الابداع الفنى وأعود مذكرا بالاسئلة التى بدأت بها ولاسيما السؤال الاول :

هل نحن كمجتمع نريد فعلا أن نصبح مجتمعا يهتدى بالحلول العلمية فى مواجهة مشكلاته ؟ والتخطيط لحياته ؟

أرجو أن نوفق فعلا فى هذا الاتجاه ، أرجو أن نوفق فعلا الى الخير مهتدين بنور العلم ، وأن نوفق الى احترام التخصص .

مصطفى سويف

قضية الحرب النفسية

د. أحمد فايق

● إن تأمل تاريخ الصراع الإنساني وحروبه ، يبرز حقيقة أقرب إلى أن تكون قانوناً لفهم انقلابات الأحداث وتطوراتها : من لا يطيق الهزيمة لن يستطيع الانتصار ، ومن لا يستطيع الهزيمة لن يطيق الانتصار .

● تمهيد لفهم الحرب النفسية

منذ حرب يونية ١٩٦٧ ونفوس الناس في مصر تتحرك متأججة وتفور فورات لم تعهدها منذ زمان بعيد ، وعقولهم في نشاط وتفزز .. نفوس تبحث عن هدوئها وعقول تجتهد في تعقل موقف يبدوأمامها محيرا غاية التحير. وكان أول تساؤل طرح بعد الهزيمة : ماذا حدث ؟ كانت الهزيمة من نوع غريب .. سريعة بلغت في سرعتها حدا لم يتوقعه المنتصر والمنهزم على السواء ، غير متناسبة مع القوة الفعلية للطرفين المتحاربين ، ناقصـــة لكل من الغريمين رغم كمالها المظهري . لذلك وقف الشعب المصري ـ وبالرغم من كل ماحدث ـ حائرا أمام ماحدث له وماحدث منه . ومرد الحيرة في واقعه يعود الى أمرين:

اولا : انه بالرغم من تحطيم القوة العسكرية المصرية تحطيما كاملا تقريبا ، لم يتقدم العدو الى غرب القناة . وكان واضحا بشكل ما ان عدم تقدمه لم يكن لأسباب عسكرية خالصـــة او لأسباب سياسية .

ثانيا : انه بالرغم من ظروف عديدة ومتنوعة سبقت المعركة، تغرى العـــدو بتوجيـــه ضربة حاســـمة للنظام في مصر ، فوجىء الجميع بأن الشعب المصري ـ وعلى عكس ما كان يشاع ـ يتمسك بدولته تمسكا بلغ حدا من القوة لم يكن في حسبان احـــد .

وبعد التاسع والعاشر من يونية ، تحول السؤال عما حدث

الى كيفية حدوثه . فمن طبيعة الأمور ان تتعدل صيغ التساؤلات اذا عجز الموقف عن اجابتها . وفى محاولة الاجابة على هـذا السؤال : كيف حدث ؟ زاد الموقف غموضا على غموض . لقد اتجهت اغلب المحاولات الى البحث عن مسئول او مسئولين عن الهزيمة . بل لقد اقترح الرئيس اجابة على هذا السؤال بان يتحمل مسئوليتها كاملة . ولكن رفض الشعب لهذا الاقتراح كان وليد احساس بان السؤال ليس بسيطا ببساطة هـذه الاجابة المقترحة . فحجم الهزيمة لا يمكن أن يكون مسببا بشخص واحد او بعدد محدود من الاشخاص . والدليل على ذلك ان وقفة الشعب فى ٩ ، ١٠ يونية تشير الى أن قدرة الجماهير لم تكن منقطعة الصلة بالاحداث بل هى العامل الحاسم فى مجرياتها . وفى هذين اليومين تبين بجلاء ان ادعاء البعض بانعزالهم وعجزهم عن المشاركة فى مصير بلدهم هو ادعاء يخفى سلبية ، ذاتية فى اغلبها .

وهكذا ادت الحيرة امام مشكلة المسئول عن الهزيمة الى صياغة التساؤل صياغة ثالثة . اذا كنا جميعا مسئولون عن الهزيمة بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر : فهل يعنى ذلك اننا ذوو خصائص معينة ؟ هل نحن امة لها صفات نوعيـة تفسر لنا ماحدث منا ؟

كانت صيغة التساؤل على النحو السابق ذات قوة جذب شديدة لكثير من الكتاب والمفكرين . فبعد الهزيمة اتجهت أكثر الجهود الفكرية الى البحث عن خصائص الشعب المصرى وخصائص العدو . وكان من الطبيعى ان يرجع رد السؤال صدى لما يثيره السؤال نفسه من حيرة . فالسؤال يطرح مشكلة الحيرة حول طبيعتنا وما بها من خصائص تفسر الهزيمة، وجاء الرد تصديقا على مطلوب : ان لنا خصائص يجب أن نحاربها فى نفوسنا وأخرى يجب أن نتيح لها فرصة لتبرز حتى نواجه خصائص مقابلة فى عدونا .

وبالتدريج برزت النتيجة الحتمية لهذه الصياغة ... قضية الحرب النفسية . ان بلورة القضية واختزالها الى : ماهى طبيعتنا النفسية وماهى طبيعة العدو ـ ان اختزال الموقف الى هذه النقطة يعنى تحويل المعركة ـ فى عدوانها المترقب ـ الى معركة نفسية . ولا شك أيضا فى أن اختزال المعركة الى جانبها النفسى سـوف يرتبط فى مفاهيمه بقضية النوعية النفسية للشعب المصرى وما يقابلها عند العدو . ولنا على هذا الموقف بعض الملاحظات التى ان لم تفد ، فانها على الأقل سوف تمنع بعض الضرر الذى نلمحه حاليا فى ثنايا مشكلة الحرب النفسية .

أسباب لأسباب

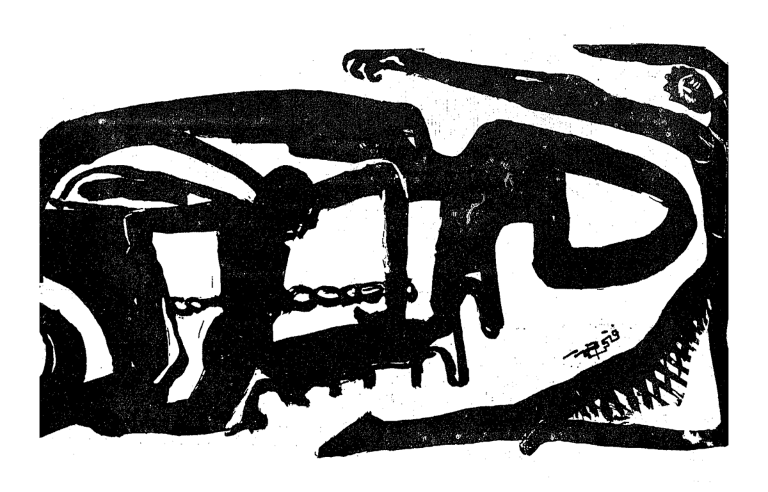
ان تامل تاريخ الصراع الانسانى وحروبه يبرز حقيقة اقرب الى ان تكون قانونا لفهم انقلابات الأحداث وتطوراتها :

من لا يطيق الهزيمة لن يستطيع الانتصار ، ومن لا يستطيع الهزيمة لن يطيق الانتصار . .وبالرغم من هذه الحقيقة تشيع فى الكتابات السياسية الحالية تعبيرات المعركة المصيرية : والمرحلة الحاسمة ، وما الى ذلك من تعبيرات تكشف عن توتر شديد ونفاذ صبر . ويمكننا ، مستفيدين من التحليل النفسى ، ان نرجع الموقف النفسى لأصحاب هذه الأفكار الى سببين :

الأول عدم تقبل موضوعى للهزيمة وتقبل وجدانى لها مما جعل أصحاب هـذا الموقف لايطيقون الهزيمة ، اى لا يتحملون غيرها . لذلك تتميز افكارهم بانها رد فعل مباشر لخوف مفرط يمكن ارجاعه الى نرجسية شديدة جرحتها الهزيمة فاثارت فيهم نوازع الانتقام . والواقع ان الموقف لا يبرر هذا الاتجاه لعدة أسباب . فمصير مصر ـ وغيرها من الدول ذات القوام التاريخى الثابت ـ لا يتقرر بهزيمة او حتى باحتلال كامل . بل الأجدر بمثل هذا الفزع ان يكون شعار الاسرائيليين الذين كانوا قبل حرب يونيو فى موقف لا يتحمل هزيمة وأصبحوا حاليا فى موقف يتحمل هزيمتين لا ثالث لهما .

اما السبب الثانى فهو عدم قيام الصراع بيننا وبين العدو على أسس الانتقام . ان المعركة تختلف من جانبنا عن طبيعتها من جانبه . بالنسـبة لنا نحن فى حـرب مع الاستعمار ، واسرائيل قوة استعمارية يجب ان نصطدم بها اصطدامات عديدة لاتنتهى بهزيمة كاملة أو انتصار كامل الا فى مـدى طويل . فليس هناك مبرر كاف لأن نعتبر صراعنا مع اسرائيل صراعا أساسه الغيظ والخجل والتباهى وما الى ذلك ، بل هو صراع مصيرى من حيث ارتباطه بمصير الراسمالية العالمية . فضلا عن ذلك هناك سبب ثالث يجعل الموقف النرجسى من هزيمة يونيو موقفا خطرا . فقبل حرب الأيام الستة كانت نفس العبارات تملأ الصحف ، ولم تفد هذه العبارات فى تغيير الأمر كما وضح لأصحابها أن المعركة لم تكن مصيرية كما ظنوا فى نرجسية غلبتهم وعاقت بصيرتهم .

السبب الثانى فى شيوع هذه العبارات هو مغالبة المخاوف النرجسية بالنزعات الانتحارية . فمن الحيل النفسية المعروفة أن المرضى النرجسيين يلجاون الى الانتحار فى شجاعة مفرطة اذا ما خدش عشقهم لصورتهم . وقد كانت هزيمة يونيـو خدشا لنرجسيتنا جميعا ، ولكن وقعها على البعض كان اثقل من وقعها على غيرهم . لذلك ظهرت لديهم أعراض الانتحار فى شكل تفزز الى الدخول فى معركة واحدة تمحو عار الماضى وترد للذات مبررات عشقها . ومثل هـذا الموقف ياخـذ شـكلين : انتظار مؤلم الى حين اعداد قوة سـاحقة ترد الاعتبار للذات : او اندفاع باشلاء قوة فى دفعة انتحارية واحدة تنهى على ما بقى لنا من قوة . هذه الحيلة النفسية فى الواقع هى مصدر لا ينقطع لخلافات الرأى بين المفكرين والساسة . ومنبع لكثير من سـوء فهم لعـدد آخر من



المفكرين لموقفهم من الاحداث موقفا يبدو غامضا فى ضوء الانحياز لواحد من الشكلين .

ان الفزع من جرح نرجسيتنا ومغالبة هذا الجرح بالنزوع الى الانتحار المادى والمعنوى هو المحرك الوحيد لنمط تساؤلاتنا منذ يونيو ١٩٦٧ : ماذا حدث ؟ كيف حدث ومن المسئول ؟ هل العلة فينا وفى شخصيتنا ؟ ان الفزع من خدش نرجسيتنا هو الذى حول القضية السياسية الى قضية صمود وتراخ نفسيين : لذلك يجب ان نشك شكا منظما ودقيقا فى قيمة ما طرح من تساؤلات حتى لا يجرفنا حرصنا على نرجسيتنا الى الاندفاع الانتحارى او الشـك فى نفوسنا شـكا يماثل مخاوفنا من الحرب النفسية . علينا أن نتساءل ونبحث بجدية عن اسباب للأسباب ، دون ان نستمتع بهذه اللعبة الفكرية متعة نرجسية .

● بداية تصلح نهاية

ان اول مايثير الشك فى جدوى الاندفاع وراء الشائع عن الحرب النفسية هو غفلتنا عما حدث فى يونيو ١٩٦٧ . ان هزيمة يونيو ١٩٦٧ حدث لم يكتمل بعد بل هو مجرد بادرة وعلامة أولنقل هو جزء من حدث مركب غاية التركيب. فهزيمة يونيو لاتعد حدثا الا بمقدار ما جمعته من مقدمات منطقية لها . ويكفى لذلك دليلا ان الدور الذى لعبته هزيمة يونيو فى احداث السودان وليبيا لا يخفى على عين ويشير الى ان الهزيمة فى ذاتها جزء من حركة دينامية بين قوى الصراع فى المنطقة العربية . لذلك يمكننا دون تردد ان نرفض منهجيا جميع التساؤلات التى قامت على اساس ان هزيمة يونيو حدث فى ذاته يدل بذاته على أمر محدد . يمكننا ان نرفض تسلسل التساؤلات الذى قاد الى مسالة النوعية المصرية ــ والعربية ــ بدليل ان احداث هذه الهزيمة وما تلاها لا تعطى أرضا صلبة لرأى محدد فى مسالة النوعية المصرية .

ثم يتضح ايضا ان البحث عن « النوعية البشرية للشعب المصرى » بحث يقوم على مسلمات غاية فى التحيز ــ وبغض النظر عن نتائج هذا البحث . فالشعب المصرى لا يختلف عن

غيره من الشعوب فى قابليته للانقياد وقدرته على الثورة . كما انه ليس أقل من غيره من الشعوب ميلا الى التغير والتغيير، وليس اكثر منها نزوعا الى التحفظ والمحافظة . كل ما فى الأمر انه ـ وبحكم وضع جغرافى خاص ـ يعد مرآة مكبرة لخاصية شعبية معروفة هى التمثل النوعى للتيارات الحضارية الغازية . فالوضع الجغرافى للشعب المصرى يعرضه بدرجة اكبر لتيارات فكرية وحضارية وثقافية عديدة ، بما يجعله فى صراع مستمر مع التغير العارض والتحفظ الدائم . لذلك لا يمكن البحث عن خاصية نوعية للشعب المصرى ، فلسنا على العراقة الوهمية التى يتمسك بهـا المنفعلون بالشعب المصرى . ولسنا بالخنوع والسذاجة التى يتمسك بها المنفعلون من الشعب المصرى . بل نحن كغيرنا من الشعوب ـ لنا مالنـا وعلينـا ما علينا ـ اذا كان من الممكن التحكيم بين الشعوب .

واخيرا يقودنا الشك المنظم فى القضايا المطروحة الى حقيقة يصعب التغافل عنهـا ، الا وهى : إنه ليس هنـاك شعب وشعب ، بل هنـاك تاريخ وتاريخ . فتعبير « الشـعب المصرى » تعبير مبالغ فى مضمونه نظرا الى الاختلافات التاريخية بين طبقاته وما تعرضت له عبر زمانها من خبرات . فالطبقة العاملة فى مصر تقترب بخبراتها التاريخية من الطبقات العاملة فى كثير من دول العالم الثالث وتبتعد عن طبقة الراسمالية الوطنية المصرية ذاتها . لذلك لا يمكن البحث عن نوعيـة بشرية للشـعب المصرى ، لأنه لا يوجـد « مصرى » يمثل المصريين .. ان هذا الرأى يحمل تعميما مبالغة فيه ، كما يجب الا نتكلم عن مصر واحدة فى ضمير جميع المصريين لأن فى ذلك تعاميا عن اهم مافى الحرب النفسية من جوانب : جانب وحدة الرؤية ووحدة الاحساس بالموقف .

لابد اذن من ان ننظر نظرة اخرى الى البداية التى بدأت منها التساؤلات . هذه البداية فى الواقع تصلح نهـاية لفهم الحرب النفسية . فالقضية على النحو الشائع عنها ترتبط بأمر آخر غير الحرب النفسية ، انها ترتبط بما هو معروف « بالحرب المعنوية » . فالبحث عن « النوعية البشرية » ومهما دق ونجح سوف يكشف عن مناطق الحساسية والصلابة فينا بما يسمح بدعم المقوض منها والاعتماد على الصلب فيها . والفرق بين الحرب النفسية والحرب المعنوية فرق شاسع . فالحرب المعنوية تعالج معالجة سطحية مشاكل عارضة تنتزع من التاريخ قسرا ، ويعمم دواؤها على جميع ابناء الشعب دون تمييز بين من يعانى ومن هو محصن . فقوام الحرب المعنوية هو « الدفاع » وليس « الهجوم » . اما الحرب النفسية فتتعامل مع الانيه Identity بكل ماتعنيه الانية من الغاء للفروق المظهرية للشخصية Personality . فالانية الشعبية هى نقطة اتفاق يمكن بالكشف عنها الغاء الفروق بين الجماعات لفترات مناسبة تسمح بالوحدة الوطنية . لذلك تعد الحرب النفسية امرا معقدا لأنها تأخذ فى الاعتبار تاريخ الأمة ـ وما كان فيه من اسباب للتمايز والتنافر بين جماعاته وطبقاته ـ تحاول تأجيل اهميتها بالنسبة لها ، وتأخذ فى الاعتبار كذلك المعنى النوعى للاحداث بالنسبة للفئات فتحاول ان تستخرج منـه المعنى العام لتجمع الجميع وراء فكرة موحدة . بعبارة اخرى: الحرب النفسية هى هجوم على مكامن الخطر وليس دفاعا عن مكامن الأمن . وبذلك يمكن ان نجد للحرب النفسية شقين : شقا لنا وشقا لعدونا . فمن المهم ان نعى الفرق بين الحرب المعنوية والحرب النفسية لأهمية ذلك عندما نخطط لحرب نفسية ضد العدو .

الغاية والوسيلة

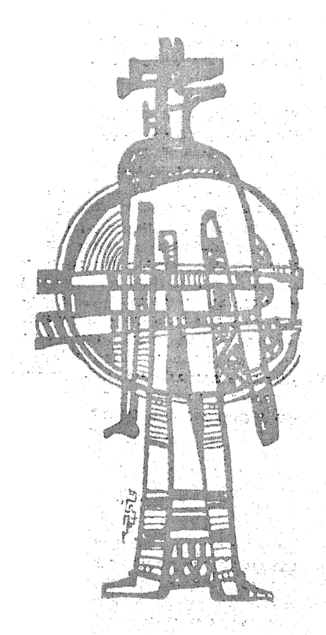
من احصاء طريف عن الحرب ، تبين ان الجنس البشرى لم ينعم بالسلام اكثر من ٢٩١ عاما خلال الخمسين قرنا الماضية (٥٠٠٠ عاما) .. ومعنى ذلك ان الحرب بالنسبة للانسان عمل ينفق فيه عاما ويستريح ثلاثة اسابيع وبضع ساعات . وغاية الحرب ـ مهما تخفت تحت الشعارات السياسية والوطنية ـ هى السيطرة على الأرض اى الثروة او على الانسان اى قوة العمل ، او الاثنين معا . فالمعارك العســكرية والحـروب الاقتصادية ماهى الا وسائل لغاية هى الاستيلاء على الثروة او قوة العمل . والاستعمار القديم كان يستهدف من الاحتلال قسر المحتل على التخلى عن ثروته او قوة عمله . اما الاستعمار الحديث فيتبع اساليب غير عسكرية تؤدى الى نفس الغرض وهو : التنـازل يأسـا او اقتنـاعا ـ عن الثروة او قوة العمل .

لذلك تعد الحروب ـ عسكرية كانت او سياسية ـ وسيلة للانتصـار النفسى على شعب آخر . فالغاية من الحـروب هى الانتصار فى معركة نفسية تسمح للمنتصر ان يحصل على مبتغاه بأقل جهد . ويمكن ان نعبر عن الأمر بشكل أوضح فنقول : ان المعارك العسكرية والضغوط السياسية والاقتصادية هى وسائل غايتها كسب حرب نفسية بين متصارعين . ولا أدل على ذلك من فكرة اسرائيل عن حـرب يونيو . لقد صرح مسئولوها بانهم ينتظرون من هذه الهزيمة حالة نفسـية واقتناعا بضرورة التفاوض . وقد عبر الرئيس عبد النـاصر فى تصريحاته بعد النكسة عن ذلك بما معناه اننا لن نستسلم، وظهر بوضوح ان الوسائل العسكرية والاقتصادية لم تبلغ باسرائيل مشارف النصر النفسى

هذا الرأى يفسر لنا مكمن الخطر من الاندفاع وراء ماهو شائع حاليا عن معنى الحرب النفسية . فالشائع حاليا ان الحرب النفسية وسيلة يتبعها العدو للانتصار العسكرى والسياسى، او وسيلة نتبعها نحن لننتصر عسكريا وسياسيا . والواقع ان هذا هو قلب للسبب يجعله نتيجة واستبدال الغـاية

بالوسيلة . ان ما سبق وقلناه بان هزيمة يونيو كانت بالنسبة لنا هزيمة من نوع غريب .. ناقصة رغم شدتها ، غير فعالة رغم فعلها الواضح - ان ما سبق ان قلناه يجد ما يفسره . لقد ظن العدو ان الانية المصرية من التحلل بحيث يمكن للهزيمة تغييرها . ولكن ظهر ان الهزيمة كانت عاملا شديد الفاعلية فى كشف هذه الانية لهم .. بل واكتشاف المصريين انفسهم لها .

مشاكل الحرب النفسية



تلك هى بعض الظلال التى تخفى تفاصيل مفهوم دقيق هو مفهوم « الحرب النفسية » فالحرب النفسية ليست تكتيكا يمارس لغاية بل هى استراتيجية تحتاج الى عدة تكتيكات منها المعارك العسكرية والضغط السياسى والاقتصادى والحملات الاعلامية التى تشكل حربا معنوية . فضلا من ذلك فان الحرب النفسية ذات شقين ، كل شق منها له مشاكله كما ان العلاقة بين الشقين مشكلة فى حد ذاته . مثال ذلك ، ان العدو قد قدر ان الهزيمة كفيلة بهزيمة نفسية للشعب المصرى . وبعد توقف القتال بدا فى التلويح بالسلام محاولا ان يستغل حالة الحزن لدينا ليحولها الى حالة يأس . وكان هدفه من ذلك مزدوجا : واحدا يتعلق بنا والآخر يتعلق به . كان هدفه ان ننظر الى المستقبل فنرى طريقا طويلا لا تلوح فيه بوادر امل واضح ، وبذلك نمارس ضغطا شعبيا على السلطة كى تهادن وتنقذ ما تبقى . الا ان احداث ٩ ، ١٠ يونيو اثبتت عكس ذلك ، فلا الشعب رضى بالاستسلام ولا القيادة كانت راغبة فى الاستسلام او فى الوقوف امام الزحف الشعبى . اما الهدف الثانى للعدو فكان خلق موقف نفسى داخل لديه يسمح للسلطة العسكرية ان تستمر فى ضغطها على الشعب اليهودى ليظل حاملا سلاحه على اساس ان الامل فى السلام قريب . ولكن احداث ٩ ، ١٠ يونية جعلت اليهودى يشك فى انه يسير فى طريق السلام او ان مايراه قريبا هو قريب بالفعل .

لذلك يمكن ان نحدد مشاكل الحرب النفسية فى النقاط الآتية :

الحرب النفسية غاية وليست وسيلة ، وادارة حرب من هذا النوع تحتاج الى مهارات متنوعة تتآزر تآزرا دقيقا ، بحيث تعتبر كل مهارة منها تكتيكا يتبع لبلوغ الغاية .

(ب) الحرب النفسية مجمل لمتناقضين : فشن حرب نفسية على عدو يعنى شن حرب نفسية اخرى على الذات بحيث يتم نوع من التناسق بين النتائج هنا والنتائج هناك .

(ج) الحرب النفسية تستهدف الانية اى الجوهر ولا تستهدف الشخصية وهى عرض • فالغاية من الحرب النفسية هى تغيير جذرى في الذات وفى العدو يستمر فترة طويلة بتسيير ذاتى • وهذه هى النقطة المميزة بينها وبين الحرب المعنوية التى تستهدف الشخصية ، تقوى فيها لتتحمل مشاق المواقف ، بحيث تنهار الشخصية اذا انضب المورد المعنوى •

(د) ان الحرب النفسية لا تقوم على اساس دراسة للنوعية البشرية او النوعيات البشرية ، بل تهدف الى بلوغ هذه النوعية • فمن الصعب ان تشن حرب مادية تستهدف حالة نفسية عند عدو ان لم تكن الانية لدى العدو مهتزة او تبدو كذلك • حينئذ يغرى اهتزاز الانية بالتدخل بحيث تقام على غرار يناسب مطامع الخصم •• اى خلق نوعية بشرية ملائمة للخصم •

هذه النقاط الاربعة تفتح امامنا السبيل الى وضع صيغة عامة عن طبيعة الحرب النفسية • ان الحرب النفسية فى شقها المعادى هى محاولة استغلال تفكك النوعية والانية الشعب ، لاقامة انية ونوعية جديدة تلائم الطامع فى ذلك الشعب • وشكل هذا الاستغلال يكون عادة فى صيغة تعميق لتنافر يظهر بين طبقات الشعب وفئاته او بين الطبقة الحاكمة وقيادتها • وعن طريق هذا التعميق تحدث العزلة الشعبية التى تسمح بتوجيه ضربات معنوية واقتصادية وسياسية لكل منها على حدة فتسهل عملية الانتصار • اما الحرب النفسية فى شقها القومى فخلق نوعية وانية جديدة قوية تلائم مطالب مراحل الصراع • وطريقة خلق هذه الانية عملية ليست بسيطة لارتباطها من جانب بتلقائية شعبية لا يمكن خلقها خلقا ، ولارتباطها من جانب آخر بالهام ياتى القادة او القائد ليحرك هذه التلقائية حركة مناسبة فى وقت مناسب ، ولارتباطها من جانب ثالث بعملية تخطيط عملية تحتضن التلقائية الشعبية والمبادأة القيادية فى عملية منظمة تؤدى الى صلابة الجبهة الداخلية واطلاق طاقات العدوان الى خارج المجتمع وتجاه العدو الصحيح •

● مثال لمعركة نفسية

يمكننا ان ناخذ احداث مايو ويونية ١٩٦٧ مادة لمثال طيب عن حرب نفسية • فمنذ تفاقم الازمة باغلاق خليج العقبة الى نزول الرئيس على ارادة الجماهير بالبقاء فى مركز القيادة يوم ١٠ يونيو كانت الاحداث تتوالى بسرعة • ويمكن ان تعطى بعض الملاحظات على هذه الاحداث قبل تحليلها :

اولا : ان الاحداث الخطيرة تتغير فى طبيعتها بسرعة تجعل معناها يتغير كذلك تبعا لكل جديد يضيف اليها اضواء او يسحب عنها اضواء مؤقتة زائفة • فاختلاف تفسير احداث يونيو ١٩٦٧ لا يصدر عن تفاوت فى مقدرات المحكمين بل هو ناجم عن الحدث ذاته •• كان سريع التغير بما لا يسمح بالحكم عليه حكما واحدا ، او لنقل كان تغيرا يسمح باعطاء اكثر من حكم عليه فى كل يوم جديد •

ثانيا : ان احداث يونيو كانت سببا فى تغير جذرى لعلاقات القوى الشعبية فى مصر ، كما انها كانت نتيجة لتغير فى علاقات هذه القوى ايضا • ومثل هذا التغير الذى اصبح مرحلة هامة فى تاريخ الشعب المصرى يحول بين جيلنا وبين ادراك واضح لما حدث ، حيث يكون ادراك معنى هذه المرحلة من نصيب جيل قادم •

ثالثا : ان تحليل هذه الاحداث رغم الصعوبتين السابقتين هو جزء من الاحداث ذاتها • فالعجز او عدم الاطمئنان للتحليل الجيد يجب الا يمنع المحاولة لان الاحداث هى تفسيرات : بعضها يفعل وبعضها يقال ويكتب • ان احداث يونيو هى تفسيرات قام بها العدو وقمنا بها ، وتفسيرنا لها هو جزء منها لان هذا التفسير هو استجابتنا لما حدث فى الاطار الفكرى •

بهذه التحفظات نحاول تحليل احداث يونيو بوصفها نموذجا لحرب نفسية •

كان من الشائع فى تفكير الجهاز الراسمالى العالمى ان نظام الحكم فى مصر يستقر على قوة ضغط بوليسية • وظل اسلوب الصراع معنا والهجوم علينا واحدا منذ ١٩٥٤ ، وهو ضرب اداة الحكم حتى تخف قبضتها عن الشعب ، بامل الثورة على النظام • ولن نعدم ان نجد من المصريين من ظن ظن الراسمالية بصدد نظام الحكم فى مصر • بمعنى آخر ، كان تقدير اجهزة الحرب النفسية للدول الراسمالية ان الانية المصرية مفككة وان الصلة بين الدولة والشعب واهية بحيث يمكن توجيه ضربة الى هذه الصدوع عن طريق عسكرى او سياسى او اقتصادى •

وكانت حملة ١٩٦٧ فى سيناء مزدوجة الهدف •• من ناحية اعتبرها الغرب واسرائيل ضربة فى هذا الصدع المفترض • ومن ناحية اخرى كان هدفها الاساسى هو تكوين انية مصرية مسالمة تخشى الاداة العسكرية اليهودية • بعبارة ثانية كان الانتصار العسكرى لدى اسرائيل يخدم غرض تحطيم كامل للانية المصرية واعادة بنائها على نسق ملائم لاسرائيل • ولا يخفى على احد ان وراء هذا التصور لاسلوب الحرب النفسية تقدير ما موجزه : ان الجيش كان اداة ثورة ١٩٥٢ واداة تنفيذ القرارات الاشتراكية عام ١٩٦١ وتصفية الاقطاع وكل ما تم

من انجازات حتى الآن . وبضربه يفقد النظام دعامة وجوده. ولا يخفى كذلك أن قيام الجيش بهذه المهام قد خلق بعض فئات تعاديه اما لأنها أضيرت على يديه واما لتصرفات خاطئة جاءت كجزء من تنفيذ هذه المهام .

ولايخفى كذلك أن قيام الجيش بهذه المهام قد خلق بعض فئات تعاديه فى اما لانها اختبرت على يـديه واما لتصرفات خاطئة جاءت كجزء من تنفيذ هذه المهام .

ولكن أحداث التاسع والعاشر من يونيو كشفت بوضوح غريب لنا ولأعدائنا أن هذا التصور معكوس انعكاسا تاما .. فبعد ٨ يونية لم يكن الجيش فى وضع يسمح له باى تصرف من اى نوع . وكان بنـاء الدولة بادى الغموض فى ضمير الشعب ، وكان قائد الأمة مستعدا للتنازل عن الحكم .. ظروف أكمل مما كان العدو يطمع فيه، ولكنها جاءت بنتيجة مناقضة تماما لكل توقع . لقد كان العنصر الأساسى فى الحرب النفسية علينا ــ وهو وجود جفوة بين الشعب والدولة ــ محسـوبا حسابا خاطئا . وبدلا من أن تأتى الضربة بانشطار يفتت الانية ، كانت الضربة عاملا لرتق كل الثقوب ولصق كل الشروخ . لقد كانت حسابات العدو للحرب النفسية مشبعة بما هو معروف فى علم النفس بمركزية الذات حيث تعمى البصيرة بالرغبة المتأججة فلا يعرف المتمركز الذاتى الفرق بين مايريد ان يراه وما يراه فعلا او ماهو موجود حقا وما يريد أن يكون موجودا .

اما من جانبنا فكان الموقف كذلك فيه الكثير من المفاجآت. فبعندما شن العـدو علينا حربه العسكرية بهـدف النيل منا نفسيا ، كنا فى وضع غريب الى حد كبير . لقد كان الشعب فى علاقة بالجيش لا يمكن ان توصف بانها قوية . كانت بعض تصرفات عدد من الرجال العسكريين تثير الضيق لدى المواطنين ، وكان تمييز العسكريين فى بعض جوانب الحياة اليومية يخلق نفورا تلقائيا لدى فئات شعبية معينة . فضلا عن ذلك كانت اجهزة الاعلام تركز تركيزا ضخما على المبالغة فى قوتنا العسكرية وضعف العدو العسكرى . وما ان بدأت المعركة حتى تكشف للشعب صدق بعض ظنونه كما تكشف له أهميته البالغة فى أى انتصار أو هزيمة. لذلك ــ وبرغم سرعة الأحداث ــ واجه الشعب لأول مرة خطرين : خطر الهـزيمة النفسية ــ وخطر التفكك المدمر لجهاز الدولة . اما من حيث الهزيمة النفسية فكانت فترة القتال فترة تتجاذب الشعب فيها قوتين الأولى العدوانية الداخلية والثانية اليقظة الى خطـورة هذه القوة على الذات . وفى لحظة لا تتجاوز فى حـكم الزمن بضع دقائق تغلبت اليقظـة الوعى على النزوعات التدميرية الذاتية . ولاشك من الناحية النفسية الخالصة ــ ان تصرف الرئيس بعرض تنازله عن السلطة ــ كان العامل الحاسـم والأساسى فى هذه اليقظة . لقد جسد التنازل الخطر الذى قد يغفل عنه المجروحون نفسيا اذا انساقوا فى غفلتهم عما ينتظر وطنهم . كان التنازل هو لحظة حدس قيادى نادر اتفق اتفاقا غريبـا مع تلقائية شعبية ولحظـة تكشف جماعى نادر هو الآخر .

كانت التلقائية الشعبية هى العنصر الذى لم يحسب الأعداء حسابه بدقة . فعنف الهزيمة واقتراب الخطر بكل ما يثيره من مشاعر نرجسية قوية كان عاملا هاما فى تغليب الوعى على الغرق فى النزعات المرضية . لقد كانت لحظة الوعى هى لحظة ادراك خطر تفكك الدولة على الذات . وربما يبدو الحديث فى هذه النقطة غامضا ، ولكننا نود ارجاء ايضـاحه لمقال ثان . ولكن ــ وفى العموم ــ أحس الشعب متفاعلا مع معنى تنحى الرئيس هدف المعركة وهو القضاء على الانية ، لذلك حـدث رد فعل عكسى غير محسوب من اى طرف من الأطراف .

يمكن حاليا أن تقدم فكرة اكثر تفصيلا عن مشكلة الانية التى تهدف الحرب النفسية الى تحطيمها . ان الانية هى رؤية الذات فى أمر آخر خارجى . فالعلم والشعار والعقيدة هى أمور تشكلها الانية لتتشكل بها . لذلك تعد الهزيمة النفسية انفصاض عن محور للانية اما لرفض هذا المحور اولا ستحالة التوحد فيه . وكان الدف الاستعمارى من الحرب هو ضرب محور للانية المصرية هو الرئيس ينفض الشعب عنه او يشعر باستحالة التوحد فيه . وكان الخطأ فى ذلك ان الشعب لم يكن متوحدا فى رئيسه وحده ، نظرا الى توحده الاصلى فى اشتراكيته ، ثم تنبه ــ عنـــدما تقدم الرئيس بعرض التنحى ــ الى ان الهدف الاستعمارى هو ضرب انيته . حينئذ التف الشعب حول الرئيس واستبدله شخصيا بمحور انيته . وهذه العملية فى الواقع ذات أعماق بعيدة ، نحاول ابرازها فى عبارة يمكن نطقها : « انتم تريدون ان تحطمونا بتحطيم رمز دولتنا ، ولكننا لسنا فى الواقع متوحدين فى هذا الرمز توحدنا فى الدولة ذاتها ، لذلك ــ وحتى نقاومكم ــ سوف نستبدل بالدولة زعيمها نلتف حوله ، فتخيب الضربة لخيبة التقدير الذى كانت له » .

لايبقى بعد ذلك لفهم الحرب النفسية الا تنبية ثم تحذير اما التنبيه فهو الى مكامن الخطأ فى تقدير العدو . لقـد قدر العدو ان الرئيس هو محور انية الشعب ومكمن اغترابه، ولم يكن ذلك بالتقدير السليم . لذلك تحمل الشعب الهزيمة وافاق الى انيته . اما التحذير فهو محاولة اقامة الانية على التوحد فى شخص . فهذه الانية قد تبدو فى مظهرها قوية ولكنها فى جوهرها تكون ضعيفة فضلا عن تعرضها السريع للخطر . وبذلك يمكن ان نقلب التنبيه الى تحذير ونقلب التحذير الى تنبيه ــ اذا كنا جادين فى شن حرب نفسية على اسرائيل . علينـــا ان ننتبه لأهميــة تدعيم مفهوم الدولة الاشتراكية فى ضمير الشعب حتى لاتهتز الانية بسهولة ؛ وعلينا ان ننتبه الى ان الانية الاسرائيلية المعاصرة قائمة على التوحد فى شخصية قادتها العسكريين وساستها الذين يدعون مهارات ودهاء امام جماهيرهم .

احمد فائق

حول التفسير النفسي للتاريخ

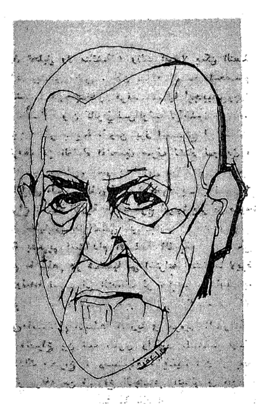
قدري حفني

● ان العلوم الانسانية ككل مازالت تربطها بالفلسفة روابط وثيقة ، وبالتالى فقد وقر فى أذهان الكثيرين ، انه على المتخصص فى العلوم الانسانية ان يفسر كل ما يتعلق بالانسان .

● انه اذا كان الانسان هو صانع العلوم جميعا ، حيث إنها نتاج حضارته ومجتمعه ، فان العلوم الانسانية تجمع بين كونها نتاجا للانسان ، وبين كون ذلك الانسان موضوعا لدراستها بوجه عام .

● لقد خلقت الراسمالية فى تطورها انسانا حكم عليه بان يكون قليل الحيلة ، فظروف مجتمع الحضارة الغربية تحول دون ممارسة الانسان لحريته الايجابية . وتدفع به الى حرية سلبية ، اى تدفع الى الهروب من الحرية .

يتسم عالمنا المعاصر - ضمن ما يتسم به - بانه عالم تعددت فيه مجالات العلم ، وازدادت تفرعاته وتخصصاته حتى كاد ذلك الازدياد ان يذهب بشمولية نظرة العالم الى الكون ، او ان يجعلها أمرا يقرب من الاستحالة . واذا كان علينا ان نسلم بانه لم يعد فى مقدور عالم فرد ان يحيط احاطة تفصيلية بدقائق كافة مجالات العلم ، بل انه لم يعد من الأمور الميسورة ان تتوفر للعالم تلك الاحاطة التفصيلية الشاملة حتى بمجال تخصصه المحدود ، فان علينا ايضا الا ننساق فى تيار تشجيع الاغراق فى التخصص بحيث نصل برجل العلم الى حد الانغلاق على نفسه بعيدا عن عالمنا ومايحيط به ويجرى فيه من مشاكل وقضايا تبعد بدرجة او باخرى عن نطاق تخصصه ، وتقترب بنفس الدرجة من تخصصات غيره من العلماء . وبين ضرورة انفتاح العالم على مشكلات عالمنا المعاصر ، واستحالة احاطته التفصيلية بدقائق كافة مجالات العلم فى هذا العالم ، يصبح طريق رجل العلم الراغب فى الانفتاح على مشكلات المعاصرة ، مع مايفرضه ذلك الانفتاح من ضرورة التصرف بشكل دقيق على الخصائص النوعية للمجال الذى تقع فيه المشكلة موضع الاهتمام ، يصبح طريقه وعرا تحف به مخاطر شتى ، وتملؤه كذلك شتى المغريات فاستحالة الاحاطة التفصيلية بمختلف مجالات المعرفة قد تدفع بالعالم الى العزوف عن مجرد محاولة اجتياز الطريق منذ البداية ، قانعا بمجال تخصصه الضيق المحدود ، محتميا بشعار احترام التخصص كمبرر لانعزاليته ومن جانب آخر قد يؤدى الحاح المشكلات والقضايا المعاصرة ، واحساس العالم بضرورة مشاركته فى تناولها الى اغرائه بالاندفاع محاولا تخطى ذلك الطريق الوعر دون تحفظ ولا تحوط . ومن اخطر اشكال ذلك الاندفاع ان يعمد رجل العلم



س . فرويد

المتخصص الى أيسر الطرق ـ وان كان اخطرها وابعدها عن الصواب ـ مرتديا ثوب فيلسوف العصور القديمة الذي يحيط بكل شيء علما ، جاعلا من تخصصه العلمي المحدد والمحدود نظرة شاملة تغطي مجالات الحياة جميعا ، مفسرة لها ، ومحللة اياها ، بل ومتنبئة بمستقبل ظواهرها ايضا ، متجاهلا بذلك وجود علوم أخرى قد تكون أقرب الى مايتعرض له من قضايا ، ومتجاهلا ايضا الكثير من الحقائق التي قد تكون بعيدة بالفعل عن النطاق المباشر لتخصصه ، ولكن الاحاطة بها تشكل جانبا هاما في فهم القضايا التي يتعرض لها فهما موضوعيا كاملا . ولاتعني وعورة الطريق ان يتقاعس العالم الجاد عن محاولة اجتيازه مغلقا على نفسه باب تخصصه ، منعزلا عما يصطرع في العالم خلف ذلك الباب من قضايا ومشكلات . كما ان مغريات الطريق لاينبغي ان تكون مبررا لاندفاعه نحو تناول سهل متسرع لتلك المشكلات معتبرا ان ماحصله في مجال تخصصه كفيل بان يفسر كل شيء خارج مجال ذلك التخصص . على رجل العلم اذن ان يتفاعل مع مشكلات العالم المعاصر ، ولكن عليه ايضا ان يعي جيدا حدود تخصصه ، وان يضيف الى معرفته المتخصصة علما جديرا بما وصل إليه من سبقه من الباحثين في المجال الجديد الذي يطرقه ، وان يلم الماما كافيا بوقائع ذلك المجال ، بالقوانين النوعية التي تحكم مافيه من ظواهر ، حتى يمكنه ان يتناول مشكلات ذلك المجال تناولا خلاقا يضيف اليها من علمه شيئا جديدا .

بين الالتزام الاجتماعي والتخصص العلمي

هناك نماذج عديدة لعلماء متخصصين امتد اهتمامهم الى ما هو خارج حدود تخصصهم ، الى مشكلات وقضايا المجتمع الذي يعيشون فيه ، فاسهموا وما زال بعضهم يسهم بالفعل في مواجهة تلك المشكلات والتصدي لحلها . ونستطيع أن نميز في تلك النماذج موقفين مختلفين :

الموقف الأول يجمع بين عدد من العلماء المتخصصين ، إتاحت لهم ثقافتهم فرصة الامتداد بأبصارهم الى ما يدور خارج نطاق تخصصهم ، وأحسوا أن عليهم اتخاذ موقف محدد مما يجري حولهم ، واتخذوا بالفعل ذلك الموقف والتزموا به ، ولم يحاول أي من هؤلاء العلماء أن يفرض ماحصله في نطاق تخصصه كأساس لتفسير نهائي للمشكلة التي يتخذ موقفا حيالها . ان أغلب هؤلاء العلماء لم يتصدوا أساسا لتقديم تفسير متعمق ونهائي لتلك المشكلة التي يتخذون موقفا حيالها ، بل ان موقفهم يتسم بانه أقرب الى أن يكون موقفا عمليا مباشرا ، مترتبا على موقف فكري وأخلاقي عام ، كأن يتخذ رجل العلم المتخصص موقفا مؤيدا لقضية السلام على المستوى الأخلاقي والفكري ، ومن ثم يلتزم موقفا عمليا مباشرا ضد حرب عدوانية معينة . وفي هذه الحالة لاتكون مهمته هي تقديم تفسير محدد لأسباب الحروب عامة ، ولا حتى للأسباب الخاصة التي أدت الى وقوع تلك الحرب بالذات ، بل يكفيه قبول وتبني التفسير الأكثر اتفاقا مع منطلقه الأخلاقي والفكري ، والذي تقع مهمة تقديمه على عاتق غيره من ذوي التخصص في هذا الباب . ولايعني ذلك سلبية كاملة يركن اليها رجل العلم . فقبوله وتبنيه لوجهة نظر تفسيرية معينة دون سواها انما يتم غالبا على أساس من التحليل النقدي المنطقي لمختلف وجهات النظر المطروحة ، والتي تتسق جميعا وبدرجات متفاوتة مع منطقة الفكري والأخلاقي حتى لو افترضنا أنه قد استبعد وجهات النظر المعارضة لمنطقة

هذا دون تحليل ولا مناقشة ، وذلك امر لا يمكن التسليم به جزافا وبشكل مطلق . اذن فهؤلاء العلماء المتخصصون الذين نتحدث عنهم يتخذون موقفا انتقائيا ايجابيا من وجهات النظر المختلفة ، وان كانوا في نفس الوقت لا يأخذون على عاتقهم صياغة وجهة نظر جديدة . ومن ابرز النماذج لمن اتخذوا ذلك الموقف من العلماء المختصين سوف نختار نموذجين من مجالين علميين مختلفين . نموذجنا الاول هو الدكتور اوبنهايمر العالم الذرى الشهير الذى اسهمت بحوثه بشكل فعال مباشر فى اختراع القنبلة الذرية . لقد خرج اوبنها يمر من صومعة تخصصه ملقيا بكل ثقله العلمى الى الجانب الدفاع عن السلام والمطالبة بتحريم استخدام الاسلحة الذرية ، اى تحريم استخدام ما ساهم هو شخصيا فى اختراعه استخداما لا يرضى عنه . ولعلنا نسرف فى التعسف لو توقعنا من اوبنهايمر ان يقدم لنا تحليلا متعمقا لطبيعة القوى الاجتماعية التى تصر على استخدام الاسلحة الذرية فى حروبها العدوانية ، وطبيعة الصراع بين تلك القوى والقوى المناهضة لها ، ومسار ذلك الصراع ، ومستقبله . يكفينا اذن أن يحدد أوبنهايمر موقفه من الصراع الاجتماعى الدائر فى مجتمعه، يدين الجانب الذى يراه مستحقا للادانة ويؤيد الجانب الذى يراه جديرا بالتأييد . ونموذجنا الثانى هو الدكتور سبوك طبيب الاطفال الامريكى المتخصص ، وصاحب الكتابات الطبية المتخصصة فى هذا المجال ، والذى أصبح الى جانب تخصصه من ابرز الشخصيات القيادية فى الحركة المعادية للتدخل العسكرى الامريكى فى فيتنام . وهذان النموذجان ليساسوى مثلين لموقف محدد يتخذه علماء متخصصون بل وبارزون فى تخصصاتهم من قضايا اجتماعية معاصرة تشد انتباههم ، وتبرز التزامهم ، وتدفعهم لاتخاذ ذلك الموقف وتبنيه والدفاع عنه ، ويتميز مثل هؤلاء العلماء بأنهم لا يفرضون الرؤية التى تمليها عليهم تخصصاتهم على تفسيرهم للمشاكل الاجتماعية التى يتخذون منها موقفا ، هذا اذا اقدموا اصلا على طرح مثل ذلك التفسير . فدكتور سبوك مثلا لم يحاول أن يفسر العدوان الامريكى العسكرى على فيتنام بانه انما يرجع الى أمراض تصيب الأمريكيين فى طفولتهم ، وتدفعهم عند الرشد الى ما يقومون به من اعمال وحشية ، وان الوقوف فى وجه العدوان الأمريكى فى فيتنام يتطلب معالجة تلك الامراض والقضاء عليها . ولو تصورنا جدلا ان الدكتور سبوك قد اتخذ مثل هذا الموقف بالفعل، لما أمكننا ــ فى البداية على الأقل ــ أن نقلل من تقدمته كمعاد للعدوان الأمريكى على فيتنام وكنصير للسلام بوجه عام . ولكن موقفه حينئذ سوف يكون اقل فعالية بكثير ــ من الناحية العلمية على الأقل ــ من موقفه الحالى ، بل انه قد يؤدى به الى النكوص حتى عن ايجابيته ، عائدا الى معمله ليغذ الامصال القاضية على أمراض الأطفال المتسببة فى تلك المذابح ، او لعله حينئذ ينزلق الى مهاجمة المحاولات « السطحية » لوقف العدوان الأمريكى على فيتنام دون القضاء على جذوره الأصيلة . وكذلك الحال بالنسبة لأوبنهايمر أو سواه . هناك اذن علماء متخصصون استطاعوا أن يتناولوا مشاكل العالم المعاصر ، متخذين من تلك المشاكل موقفا محددا ينم عن التزامهم بقضايا مجتمعهم، دون أن يقعوا فى شرك أن يغريهم تخصصهم بفرض نتائجه المتخصصة ــ بل وقوانينه النوعية ــ كتفسير يقدمونه لطبيعة المشاكل التى يتخذون حيالها موقفا . وقد يرى البعض أن عدم تردى هؤلاء العلماء فى منزلق من هذا النوع انما يرجع الى ان مجالات تخصصهم بعيدة تماما عن مجال المشكلات التى يتخذون منها موقفا ، ولكن ذلك ــ رغم صحته النسبية ــ لا ينفى الدور الذى لعبه وعيهم الذاتى فى حياتهم من ذلك الانسياق الخطر .

وفى مقابل ذلك الموقف هناك موقف آخر اتخذه ويتخذه عدد من العلماء المتخصصين . وقبل أن نعرض لذلك الموقف تفصيلا هناك عدة ملاحظات يجدر بنا الاشارة اليها :

أولا : هناك سمة عامة تجمع بين اصحاب هذا الموقف من العلماء المتخصصين ، او بين اغلبهم على الاقل ، وهى ان مجالات تخصصهم العلمى تنتمى بشكل يكاد يكون مطلقا الى ما يسميه اهل الاختصاص بالعلوم الانسانية ، بينما يغلب على اصحاب الموقف الاول من العلماء المتخصصين انتماء مجالات تخصصهم الى ما يعرف بالعلوم الطبيعية . وتقوم التفرقة بين هاتين المجموعتين من العلوم على أسس شتى منها ان مجموعة العلوم الطبيعية انما تختص بدراسة المادة فى مختلف صورها ، بينما تختص مجموعة العلوم الانسانية بدراسة مختلف جوانب الوجود الانسانى . ورغم ما قد تثيره تلك التفرقة من مجادلة مبدئية لسنا فى معرض التعرض لها ، فان ما يعنينا هو ان دراسة الذرة ، والفلك ، والطب ، والكيمياء وما الى ذلك انما تندرج تحت لواء المجموعة الاولى ، فى حين ان علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ ، والسياسة ، والاقتصاد وما الى ذلك انما تندرج تحت لواء المجموعة الثانية اى مجموعة العلوم الانسانية .

ثانيا : تقودنا الملاحظة الاولى الى ملاحظة اخرى ، وهى أن العلوم الانسانية تتميز ــ ضمن ما تتميز به ــ بخاصية الحداثة التاريخية حيث انها أحدث تاريخيا من العلوم الطبيعية من حيث انفصالها من الفلسفة . ولقد ادت تلك الحداثة التاريخية ــ الى جانب غيرها من العوامل ــ الى عديد من النتائج نذكر منها نتيجتين :

١ ــ ان العلوم الانسانية ككل مازالت تربطها بالفلسفة روابط وثيقة ، وبالتالى فقد وقر فى اذهان الكثيرين ــ ومنهم بعض ذوى الاختصاص ــ انه على المتخصص فى العلوم الانسانية ان يفسر كل ما يتعلق بالانسان . أو بعبارة اخرى ان يأتى بنظرية شاملة للوجود الانسانى ، اى ان يقوم بالدور التقليدى للفيلسوف :

٢ ـ ان الحدود الفاصلة بين العلوم الانسانية بعضها وبعض لم ترسخ نهائيا بعد ، وبالتالى فهى تغرى باختراقها دون تهيب . فليس من المستغرب ان يتحدث عالم نفسى عن موضوع أدخل فى اختصاص علم الاجتماع منه فى اختصاص علم النفس ، ولا أن يتناول عالم اقتصادى مشكلة من صميم مشكلات علم التاريخ . فى حين أنه من المستغرب تماما أن نستمع مثلا لحديث متخصص فى حركة الاجرام السماوية من أحد علماء الكيمياء .

ثالثا : ان ما اصطلحنا فى هذا المقال على تسميته بمشكلات العالم المعاصر انما هى فى صميمها مشكلات تتعلق بالانسان ، أو بتحديد أدق فانها تتعلق بعلاقة الانسان بغيره ، وليس بعلاقته بالطبيعة أو بالعالم المادى . وهى بالتالى ادخل من حيث مجالها فى نطاق مجموعة العلوم الانسانية ككل . ويترتب على ذلك أن تلك المشكلات تكون أكثر الحاحا بحكم موقعها على المشتغلين فى مجال العلوم الانسانية منها على المشتغلين فى مجال العلوم الطبيعية ، ولذلك فانهم يكونون عرضة لمزيد من الحساسية بتلك المشاكل ، ومزيد من المسئولية تجاهها بحكم مجال تخصصهم .

رابعا : انه اذا كان الانسان هو صانع العلوم جميعا ، حيث انها نتاج حضارته ومجتمعه ، فان العلوم الانسانية تجمع بين كونها نتاجا للانسان ، وبين كون ذلك الانسان موضوعا لدراستها بوجه عام كفرد وكجماعة ، بل وكحضارة أيضا . وذلك يعنى أننا لو استطعنا تعسفا أن نعزل العلوم الطبيعية عما يصطرع فى المجتمع من صراعات وما يدور فيه من أحداث ، فاننا نعجز عن ذلك فيما يتعلق بالعلوم الانسانية .



ولعل تلك الملاحظات التى عرضنا لها تسهم الى حد ما فى تفسير ظاهرة ملحوظة تميز ما نحن بصدده من موقف يتخذه مجموعة من العلماء حيال مشكلات العالم المعاصر ، ان الكثير من رجال العلوم الانسانية (التى ينتمى اليها غالبية أصحاب هذا الموقف) اذا ما تناولوا احدى تلك المشكلات فانهم يصبغونهم بصبغة تخصصهم ، حتى ولو لم تكن داخلة أساسا فى نطاق ذلك التخصص ، أى لو كان هناك فرعا متخصصا آخر من فروع العلوم الانسانية يغطى تلك المشكلة . وهم بذلك ، وبغض النظر عن تقدمية أو رجعية موقفهم العملى حيال المشكلة ، انما يقدمون على عمل تتهدده مخاطر عدة أهمها :

١ ـ ان تعمق رجل العلم المتخصص فى مجال تخصصه المحدود وسعة درايته به قد يدفعه الى التمسك بمعارف ذلك المجال وقوانينه النوعية ، ومحاولة فرضها على تناوله للظاهرة التى هو بصدد اتخاذ موقف منها ، وقد يؤدى ذلك الى نوع من انتقاء الوقائع التى تؤيد فكرته

النابعة من مجال تخصصه مهمـلا غيرها من الوقائـع التى لا تتفق مع تلك الفكرة . ولا يتحتم أن يكون ذلك الانتقـاء مقصودا من العالم ، بل انه قد يكون ــ وهو كثيرا ما يكون بالفعل ــ نوعا من الانتقاء الخاطىء لوقائع فرعية يرى من وجهة نظره انها بالغة الاهمية ، مهملا وقائع أخرى هامة تبدو وكأن لا دلالة لها من وجهـة نظره . صـحيح ان تلك الخطورة قد تتهدد الباحث حتى وهو بصدد بحث ظاهرة تقع داخل نطاق تخصصه ، ولكن ذلك التهديد يتزايد بلاشك لو كانت الظاهرة تخرج بالفعل عن نطاق ذلك التخصص .

٢ ــ أن تناول العالم المختصص لظاهرة معينة خارج مجال تخصصـه ومن وجهة نظر تخصصـه فحسب قد يؤدى به الى تفسير لتلك الظاهرة بل والى تنبؤ بمسارها يجافى واقعها ، نظر لان كل ظاهرة انسانية ــ شـأنها شـأن أى ظاهرة أخرى ــ لها قوانينها النوعية التى تحكم مسارها وتفسر تغيرها ، وذلك سـواء كانت ظاهرة اقتصـادية أو سياسية او نفسية أو غير ذلك . وينبغى ان نفرق هنا بين ما ذكرناه من خطورة فرض القـوانين النوعيـة الخاصـة بمجال معين على ما يقع خارج ذلك المجال من ظواهر ، وبين ما يفرضه الواقع من تعقد فى الظواهر الانسـانية ــ بل والطبيعية كذلك ــ يجعل من الضرورى دراستها من جوانب متعددة . لقطعة من الحجر مثلا يمـكن أن تكون موضـوعا لدراسة عالم متخصص فى علم الآثار القديمة ، وتكون فى نفس الوقت موضوعا لدراسة عالم آخر متخصص فى علم طبقات الأرض ، وعالم ثالث متخصص فى الطبيعة وهكذا . ونستطيع أن نتصور نفس الوضع فى مجال العلوم الانسانية، فوقوع ازمة اقتصادية فى بلد معين مثـلا ، يمكن ان يكون موضوعا لعالم متخصص فى علم الاقتصاد ، وتكون الآثار المترتبة عليها موضوعا يمكن أن يتنـاوله المتخصصـون فى علوم التاريخ والاجتماع وما الى ذلك . ولكن ذلك كله امر يختلف تماما عن اقدام أحد علماء الاقتصاد مثلا على تفسير الامراض العقلية تفسيرا اقتصاديا ، بارجاعها الى عوامل اقتصادية فحسب ، وبتفسيرها فى ضوء القوانين النوعية لعلم الاقتصاد ، او اقدام أحـد علمـاء النفس مثـلا على تفسير ظاهرة الصراع الطبقى تفسيرا نفسيا ، بارجاعها الى اصول نفسـية فحسب ، بل واخضـاع مسـارها للقوانين النوعية الخاصة بعلم النفس والتى تحكم ما يقع داخـل نطاقه من ظواهر .

نخلص من كل ذلك الى أن الكثير من العلماء ــ وبوجه خاص رجال العلوم الانسانية ــ حين يحـاولون ترجمـة اهتمامهم بقضـايا العالم المعـاصر الى تناول فعلى لتلك القضايا ، يتعرضون لخطورة صبغهم لها بطابع تخصصاتهم ، حتى ولو كانت طبيعة تلك القضـايا تنـأى عن نطاق تلك التخصصات بشكل واضح . وقبل أن نعرض لنماذج من تلك المحـاولات ينبغى أن نشـير استهلاء الموضوع الى ان حديثنا لا يعنى بحال من الاحوال انكار وجود قوانين عامة تحـكم مسـار الظواهر الانسـانية جميعـا بل والظواهر الطبيعية كذلك ، ونعنى بها قوانين المادية الجدلية . لقد كان اكتشاف تلك القوانين بمثـابة وضـع حجر الاسـاس لعديد من النظريات العلمية فى كافة مجالات المعرفة ، ولكن صحة تلك النظريات ظلت وما تزال قائمة ومشروطة تماما بصحة التجارب أو الوقائع العلمية أساسا وليس بصحة قوانين المادية الجدلية . بل ان المادية الجدلية رغم كونها هى الموجهة لتلك النظريات فانها تزداد بواسطتها رسوخا وثراء . وباختصار فان وجود نظرية شاملة لا يعنى بحـال اهدار القوانين النوعيـة ، بل أن شـمول النظرية انمـا يتوقف على مدى ما تأخذه فى اعتبارها من قوانين نوعيـة صحيحة .

التحليل النفسى والطريق الوعر

اشرنا فيما سبق الى ان الحدود الفاصلة بين العلوم الانسانية بعضها وبعض لم ترسخ نهائيا بعد ، ولكن ذلك لا يعنى عدم وجود حدود فاصلة على الاطلاق ، فهنـاك بالفعل مجال متخصص لعلم التاريخ ، وآخر متخصص ايضا لعلم النفس ، وثالث لعلم الاجتماع ، ورابع لعلم الاقتصاد، وهكذا . ولقد اقدم الكثير من المتخصصين فى مختلف تلك العلوم الانسـانية على تناول مشـكلات العالم المعـاصر ، ولا يتسع المقـام ، كما لا يسمح الجهد ، بعرض نماذج لمحـاولات المتخصصـين فى مختلف تلك المجـالات . ولذلك فسوف نكتفى بالتعرض لبعض محاولات المتخصصين فى علم النفس فى تناول قضايا العالم المعاصر .

وفى الحقيقة فانه من بين المدارس النفسـية العديدة تبرز مدرسة التحليل النفسى ، باعتبارها المدرسة الرئيسية ــ ان لم تـكن الوحيـدة ــ من مـدارس علم النفس ذات المحاولات المحددة فى هـذا المجال ، ولعـل ذلك انما يرجع الى ان بناءها الفكرى حتى صياغته الأولى التى قدمها رائد تلك المدرسة ــ أعنى سيجموند فرويد ــ انما يتـكون من مزيج بين مجموعتين من الأفكار ، تدور المجموعة الاولى حول التسليم باننا اذا ما تتبعنا التطور التاريخى الذى سلكته البشرية لوجدناه يرجع الى جماعة وقبيلة بدائية برأسها زعيم واحـد يدين له الجميع بالولاء والطاعة ، ويحتـكر لنفسه كل نساء القبيلة محرما على ابناء القبيلة الاقتراب من اى منهن ، وينتهى الامر بأن يقتل الابناء اباهم الزعيم متحملين فى سبيل ذلك أقسى المشـاعر بالخطيئـة والاثم ، ولقد توارثت البشرية تلك المشـاعر التى احكمت ابنـاء وبنات القبيلة البدائية الأولى جيلا بعد جيل . ولم يتم ذلك التـوارث عن طريق الانتقـال التـاريخى عبر الزمن الشعورى للبشرية ، فان قسوة تلك المشاعر وعنفوانها قد

دفعت بها الى أعماق اللاشعور او ما يمكن ان يسمى باللاشعور السلالي . أما المجموعة الثانية من الافكار فتقوم على التسليم بأن المشاعر المؤلمة والصادقة والمرتبطة بالشعور بالاثم ، كل تلك المشاعر والخبرات يقوم الفرد بكبتها أو بدفعها الى اللاشعور الذي يمكن ان يسمى اذن بلاشعور الفرد . ومن خلال المزج بين هاتين المجموعتين من الافكار **يصل التحليل النفسي الى أن حياة الفرد انما هي تلخيص للتاريخ البدائي للجنس البشري ، وان الطفل مطالب بالانتصار على البذور البدائية في داخله خلال سنواته الثلاث الاولى وكبتها في اللاشعور ، ونظرا لان ذلك الانتصار لا يمكن أن يكون نهائيا ولا حاسما ، فان ما كبت يظهر في صور مختلفة من الاحلام والاعراض العصابية .**

لقد فرض هذا البناء الفكري على مدرسة التحليل النفسي منذ البداية ارتباطا بقضية تخرج عن الحدود المباشرة لعلم النفس ، أعني قضية نشأة المجتمع الانساني. وهي قضية تاريخية انثروبولوجية تماما . ولعل ذلك هو ما يفسر ارتباط الفرويدية منذ البداية ارتباطا وثيقا بالانثروبولوجيا وبوجه خاص بالانثروبولوجيا التطورية البريطانية وبالتحديد بنظريات روبرتسون سميث . ويكفي للتدليل على هذا الارتباط ان فرويد قد وجد في نظريات سميث التبرير للعديد من المفهومات الاساسية في التحليل النفسي مثل فكرة الجماعة البدائية الاولى ، وما ارتبط بها من توارث للذكريات على نطاق السلالة ومن البيولوجية الولادية للمراحل الجنسية الطفلية .. الى آخره .صحيح ان تطور البحوث الانثروبولوجية قد غير من الموقف كثيرا، بل ان الانثروبولوجيا الحديثة ترفض رفضا يكاد يكون قاطعا مثل تلك الأفكار ، وصحيح كذلك ان التيار العام للتحليل النفسي لم يعد يلح كثيرا على افكار من هذا النوع ، الا أن كل ذلك لا ينفي أن مدرسة التحليل النفسي قد ارتبطت تاريخيا منذ بداية نشأتها بقضايا تخرج من النطاق المحدود لعلم النفس .

نخلص من ذلك الى ان مدرسة التحليل النفسي كانت تحمل منذ نشأتها بذور التطلع الى تقديم نظرية شاملة لوجود الانسان فردا ، وتاريخا ، وحضارة . ونستطيع ان نلمح كبيرا صريحا عن ذلك الطموح في كتاب « المدنية ومنغصاتها » الذي أصدره سيجموند فرويد عام ١٩٣٠ اي قبل وفاته بتسع سنوات محاولا فيه تناول العديد من القضايا الحضارية ذات الطابع الثقافي العام ، بل الوصول الى صياغة نظرية عامة تفسر الحضارة الانسانية في شمولها ، وتصل الى حد طموح التساؤل عن مستقبلها . ومنذ صدور كتاب فرويد المشار اليه عام ١٩٣٠ حتى الآن ، أي خلال ما يقرب من الأربعين عاما ، لم يكف الكثيرون من اتباع نظرية التحليل النفسي عن الاهتمام بالقضايا المعاصرة ، بل وتناولها تناولا يؤدي في الغالب الى صبغهم لها برؤيتهم الخاصة النابعة من تخصصهم المحدد . لقد كتب المحللون النفسيون عن العديد من قضايا الانسان المعاصر ، ولكن أكثر ما كتبوه خطورة فيما نرى هو كتاباتهم التي حاولوا بها تحليل بعض الظواهر السياسية التاريخية المعاصرة . وترجع أهمية تلك الكتابات بالتحديد الى أنها تطرح مشكلة نظرية بالغة الاهمية والخطورة من الناحيتين المنهجية والعملية . ونستطيع ان نضع المشكلة في صورة السؤال التالي : هل ما يصدق على الفرد يصدق بالتالي على الجماعة ؟ او بعبارة اخرى هل القوانين التي تحكم نمو الأفراد هي بالضرورة نفس القوانين التي تحكم تطور المجتمعات ؟ وهل القوانين التي تفسر سلوك الافراد تصلح بنفس الكفاءة لتفسير حركة الجماهير ؟ ولعل طرحنا للمشكلة بهذه الصورة يشير الى أن التيار العام للتحليل النفسي رغم انه لم يعد يلح كثيرا ـ كما سبق ان ذكرنا ـ على فكرة أن حياة الفرد انما هي تلخيص للتاريخ البدائي للجنس البشري ، فان جوهر تلك الفكرة ، أي المطابقة بين ما هو فردي وما هو جمعي من حيث القوانين العامة ، هذا الجوهر مازال له صدى يتردد بل يكاد يصل الى ان يكون صوتا مسموعا في كتابات المحللين النفسيين عند تناولهم للقضايا المعاصرة .

ولسوف نعرض بشيء من التفصيل لمحاولتين من محاولات ابناء مدرسة التحليل النفسي لتناول قضايا ذات طابع سياسي اقتصادي تاريخي . المحاولة الاولى هي محاولة اريك فروم تحليل أزمة المجتمع الراسمالي الغربي في نهاية الثلاثينات . والثانية هي محاولة الدكتور احمد فايق في نهاية الستينات تحليل احداث الخامس من يونيو عام ١٩٦٧ راجعا بتحليله حتى جذور تاريخنا الشرقي الحديث ، ومتقدما به حتى مشارف المستقبل .

محاولة اريك فروم

ولد اريك فروم وتعلم في المانيا حيث درس علم الاجتماع وعلم النفس في جامعات فرانكفورت وميونيخ وهيدلبرج التي حصل منها على شهادة الدكتوراه عام ١٩٢٢ . وقد تدرب فروم على التحليل النفسي الفرويدي في جمعية التحليل النفسي ببرلين ، واستقر به المطاف في الولايات المتحدة حيث أصدر اشهر مؤلفاته وهو «الهروب من الحرية» . ويقرر فروم منذ البداية انه وصل الى ما وصل اليه في مؤلفاته باتباع منهج التحليل النفسي ووسائله ، كما انه يقرر تسليمه مع فرويد بان القوى التي تحدد سلوك الانسان ومشاعره وافكاره انما هي في الاساس دوافع لاشعورية . وتدور مفاهيم فروم في تحليله لطبيعة المجتمع الرأسمالي حول فكرة اساسية هي ان هناك تناقضا يحكم الحياة النفسية لما يسميه فروم بالحضارة الغربية أو الحضارة الرأسمالية . لقد خلقت

الرأسمالية في تطورها انسانا حكم عليه بأن يكون قليل الحيلة ، خائفا ، قلقا ، يائسا ، وحيدا ، محبطا . فظروف مجتمع الحضارة الغربية تحول دون ممارسة الانسان لحريته الايجابية ، وتدفع به الى حرية سلبية ، اى تدفع به الى الهرب من الحرية . ويرى فروم انه لكى يتخلص الانسان في الحضارة الرأسمالية من شعوره غير المحتمل بالعزلة وقلة الحيلة ، اى لكى يهرب من الحرية ، ليس أمامه سوى أن تمارس الميكانيزمات اللاشعورية فعلها ، وأهم تلك الميكانيزمات في رأى فروم هي :

(أ) ميكانيزم المازوشية ـ السادية : وهو محاولة التخلص من ذلك الشعور غير المحتمل بالعزلة وقلة الحيلة اما بالضياع الكامل في آخر ، أو بعبارة أخرى التخلص من ازمة الحرية بافنائها في آخر ، واما بمحاولة نفى ذلك الشعور ببديل له هو ممارسة سيطرة معذبة على الآخر .

(ب) ميكانيزم التدمير : وهو محاولة للهرب من ذلك الشعور غير المحتمل بتحطيم العالم الخارجي ، اى بتحطيم مصدر ذلك الشعور المؤلم رغم ما يؤدى اليه ذلك الميكانيزم ـ الذى تختلط فيه الكراهية بالعدوان ـ من تضاعف للشعور من جديد بالضعف والعزلة .

(ج) ميكانيزم الانصياع الآلى : وهو أكثر الحلول انتشارا بين أبناء مجتمع الحضارة الغربية ، وهو محاولة للخضوع لمعايير السلطة أيا كانت تلك السلطة ، ومن ثم القاء الحمل عليها والانصياع لها دون تفكير تخلصا من الشعور بالضياع .

ويرى فروم أن تلك الميكانيزمات لا تحل مشكلة المجتمع الرأسمالى على الاطلاق ، وان لا حل لتلك المشكلة الا بالممارسة الايجابية البناءة للحرية ، وهو مالايمكن أن تتيحه ظروف الحضارة الغربية الرأسمالية . فالرأسمالية تتميز عموما ـ في رأى فروم ـ بأنها مدمرة ومجافية للمنطق ، ودوافع انسان الحضارة الغربية الرأسمالية ـ وبشكل مطلق أيضا ـ دوافع مجافية للمنطق واجبارية ولاشعورية . ومن هنا يبدأ التناقض في أفكار فروم ، فتسليمه بأن الرأسمالية عموما وبشكل مطلق ظاهرة مدمرة ومجافية للمنطق أمر يتعارض تماما مع ما يمدنا به علم التاريخ والاقتصاد السياسى من أنها احدى مراحل تطور المجتمع الانسانى ، فضلا عن تعارضه مع مبادىء المادية الجدلية . فالمجتمع الرأسمالى يحمل نقيضه في داخله في صورة جوانب طيبة وثورية ، وبالتالى فمن المجازفة أن نعتبر المجتمع الرأسمالى ـ أو سواه من المجتمعات ـ بناء واحدا متسقا ، وان نحكم على كل من يعيشون في المجتمع الرأسمالى بأنهم يمارسون حرية سلبية أو يهربون من الحرية سواء كانوا عمالا أم رأسمالية أم مثقفين ثوريين هذا من الناحية النظرية ، أما من الناحية العملية فقد

واجه فروم سؤالا محددا هو : ما الحل ؟ اننا اذا ما سلمنا مع فروم بأن الرأسمالية هي مصدر تلك الدوافع الاجبارية المجافية للمنطق ، وانه لا استثناء ولا مهرب أمام كل من يحيا في ظل ذلك النظام مالكا كان أو أجيرا ، عاملا أو رأسماليا . فلا طريق أمامه يجنبه العصاب وينجيه من تلك الممارسة السلبية لحريته سوى أن يمر بخبرة التحليل النفسى لتتحول دوافعه الاجبارية اللامنطقية الى دوافع فعالة ومنطقية ، ولتتحول ممارسته السلبية لحريته الى ممارسة ايجابية فعالة لها . ولكن الى أين يذهب هذا الفرد بعد تحليله ؟ انه سيعود الى مصدر الخبرات الصادمة ، أى الى الرأسمالية من جديد ، بل انه سيعود وقد جرد حتى من دفاعاته اللاشعورية ، فماذا سيفعل ؟ ليس أمامه ـ تمشيا مع منطق فروم ـ الا ان ينتحر أو يستعيد صورا جديدة من دفاعاته القديمة ، أى يستعيد عصابه القديم ، أى يهرب من حريته مرة أخرى . ما الطريق اذن ؟ يقدم فروم اجابته على هذا السؤال في كتابه « المجتمع العاقل » محاولا صياغة مفهوم جديد لمجتمع صحى عاقل يجنب الفرد الانتحار أو الوقوع من جديد في براثن العصاب اذا ما عاش في ظل ذلك المجتمع العاقل . ويسمى فروم مجتمعه العاقل هذا بالمجتمع « الاشتراكى » . لم تقم اشتراكية فروم على أسس من علم الاقتصاد أو علم التاريخ بل قامت على أسس من نظرة فروم الى المجتمع من خلال مفاهيم التحليل النفسى ، تلك النظرة التى ادت بفروم الى اعتبار أن الصراع الدائر في المجتمع والمحرك لمساره انما هو صراع بين الشعور واللاشعور ، وانه لا منجاة لاحد في ظل المجتمع الرأسمالى من خطورة هذا الصراع رأسماليا كان أو بروليتاريا . وما دام فروم قد ساوى في نظرته بين الرأسماليين والبروليتاريين ، فمن المنطقى اذن أن تقوم اشتراكيته على التعاون بين هؤلاء وهؤلاء أى بين المستغلين والمستغلين .

ولكن حتى في هذه الحدود ، أى في حدود الدعوة لمجتمع «اشتراكى» يقوم على التعاون بين الرأسماليين والبروليتاريين ، يواجه فروم مأزقا حرجا هو : من الذى يبنى ذلك المجتمع العاقل الاشتراكى ؟ لا يمكن بالطبع في رأى فروم أن يبنيه أبناء المجتمع الرأسمالى من العصابيين الهاربين من حريتهم سواء كانوا عمالا أو رأسماليين . من يبنيه اذن ؟ لقد وصل فروم بأفكاره الى أن الدعاة الاشتراكيين الحقيقيين لابد وأن يتم تحليلهم نفسيا في البداية حتى يتخلصوا من دفاعاتهم المرضية ، بل لقد فكر فروم بالفعل في أن ينضم الافراد الذين حللوا ليكونوا خلايا للدعوة الاشتراكية . ولم يقف فروم عند حد التفكير فحسب ، بل انه يشير الى انه قد تمت بالفعل عدة محاولات من هذا القبيل كان مصيرها الفشل . ويتوقف فروم عند تلك النهاية وتبقى التساؤلات معلقة حائرة تبحث عن اجابة . لماذا فشلت محاولة فروم تطبيق أفكاره عمليا؟ كيف يمكن أن نفسر نجاح الثورات الاشتراكية في كثير من



بلدان العالم رغم ان قادتها ـ فيما نعلم ـ لم يمروا بخبرة التحليل النفسى ؟ وفوق كل ذلك يبقى تساؤلنا الرئيسى قائما : هل مايصدق على الفرد يصدق بالتالى على الجماعة؟ لقد حاول فروم عمليا ان يجيب على هذا التساؤل بنعم ، فانتهت به محاولته من الناحية العملية الى الفشل ومن الناحية النظرية الى تبنى فكر انتهازى رجعى اى تبنى فكر المجتمع الراسمالى الذى كان يهدف فى البداية الى محاربته والوقوف في وجهه .

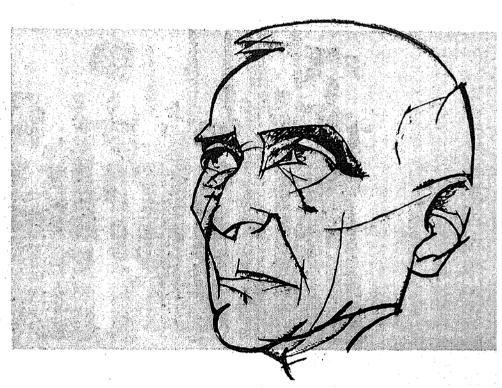
محاولة الدكتور أحمد فايق

ولعله من اكثر الامور مدعاة للتفاؤل وجدارة بالتشجيع ان تتسع دائرة اهتمام المتخصصين من بيننا لتصل الى ما هو خارج نطاق تخصصهم الضيق . ويصبح الامر مدعاة لمزيد من التفاؤل والتشجيع اذا لم يقف الاهتمام الجديد عند حدود المتابعة فحسب ، بل يصل الى المساهمة بالكلمة والقلم . ولذلك يصبح لزاما علينا أن نقوم أولا بواجب التشجيع مسجلين للدكتور أحمد فايق ان جوهر مقاليه «عناصر الحرب النفسية ومشكلات الحرب النفسية» كان والحق يقال دفاعا ـ من وجهة نظر كاتبه ـ عن اصالة ثورة ١٩٥٢ ومن بعدها ثورة ١٩٦١ الاشتراكية، وهو امر جدير بلاشك بالاشارة بل وبالاشادة أيضا . ولكن الهدف المرجو ـ أيا كان ـ لا ينبغى أن يلهينا عن عدد من الملاحظات .

أولا : رؤية المجتمع فى حركته

ان نقطة البداية الصحيحة فيما نرى لفهم وتقييم تناول مثل هذا الموضوع هى تحديد رؤية الكاتب للمجتمع وللقوانين التى تحكم حركته . ونستطيع أن نستشف من تناول الدكتور أحمد فايق للقضية رؤيتين متعارضتين أشد التعارض للمجتمع بعامة ، ولمجتمعنا بوجه خاص .

الرؤية الاولى هى ان الامة ـ اى أمة ـ ليست سوى كيان واحد منسجم يتحرك حركة واحدة ، ويستجيب استجابة واحدة ، وهى رؤية تتعارض مع كافة الحقائق التى تمدنا بها علوم التاريخ والمجتمع والاقتصاد ، والتى تدور حول ما تضمه الامة داخل اطارها من طبقات اجتماعية تتناقض مصالحها وتتعارض أهدافها . وتتضح هذه الرؤية لدى الكاتب أكثر ما تتضح فى عبارة محددة تعد ـ فيما نرى ـ حجر الزاوية فى البناء النظرى الذى يقدمه الكاتب وهى « ان كل خاصية فى شخصية ما ـ ولتكن الشخصية القومية ـ تخفى نقيضها فى حالة كمون » . والعبارة كما هو واضح مركبة من جملة أصلية أدخلت عليها جملة اعتراضية . وفى هذا الادخال بالتحديد يكمن جوهر رؤية الكاتب للمجتمع . الجملة الاصلية دون اضافة هى صياغة لاحدى نتائج نظرية التحليل النفسى القائمة على التسليم بما فى الشخصية الانسانية من تناقض بين الشعور واللاشعور . وبالجملة الاعتراضية التى أضافها الكاتب أصبح ما قد يكون صحيحا بالنسبة للفرد صحيحا



اوبنهايمر

كذلك بالنسبة للمجتمع ، وما قد يصدق على شخصية الفرد ، يصدق كذلك على الشخصية القومية . وعلى اى حال فان الكاتب يذكر بوضوح « انه اذا تبين ان أمة تبدى سمة ما وبشدة معينة نستطيع أن نتنبأ أن نقيض هذه السمة وبنفس قوتها موجود ويمكن استفزازه . » ولابد لنا من اشارة منهجية لقضية التناقض . صحيح فيما نرى أن التناقض هو محرك كل تغير وهو بالتالى قانون جدلى شامل للطبيعة وللمجتمع معا . ولكن هناك ما يسميه أصحاب المادية الجدلية بالطابع النوعى للتناقض ، بل انهم يؤكدون ضرورة حل التناقضات المختلفة كيفيا بأساليب مختلفة كيفيا . والطابع النوعى للتناقضات التى تدور داخل الافراد ـ سواء اخذنا بمنهج التحليل النفسى أو بغيره من المناهج ـ يختلف عن الطابع النوعى للتناقضات التى تحكم حركة المجتمعات . ولعل هذا ـ ودون دخول فى مزيد من التفصيلات ـ يكاد يكون المبرر الوحيد لوجود علم النفس والاجتماع والاقتصاد والتاريخ كعلوم انسانية منفصلة ، والا لاندمجت جميعا فى علم واحد يدرس الانسان فى كافة مظاهر وجوده . وللقارىء أن يتساءل هنا : اليس ثمة تغيير من هذا النوع يمكن أن يحدث على نطاق الامة ؟ والاجابة نعم . ولكن ذلك لايتم ببزوغ نقيض كان فى حالة كمون لاشعورى ، بل باستيلاء طبقة جديدة على السلطة لها من المصالح والقيم والتقاليد ما يجعل منها نقيضا للطبقة التى كانت تسود قبلها . ونظرا لان الافكار السائدة فى اى مجتمع انما تكون على العموم أفكار الطبقة المسيطرة فى ذلك المجتمع ، فانه بتغيير الطبقة السائدة ـ عن طريق الثورة ـ يحلول طبقة جديدة محلها تتغير الافكار السائدة فى المجتمع متخذة طابع أفكار تلك الطبقة الجديدة . لقد ادت رؤية الكاتب به الى محاولة تطبيقها على ما اعتبره «انقلابا خطيرا قد حدث للشخصية اليهودية فى الفترة الاخيرة تحول فيها الشباب منهم الى مقاتلين شرسين بعد أن كان يعرف عنهم فى العالم أجمع الوداعة والخنوع » وبغض النظر عما قدمه من تفسير لهذا «الانقلاب» يحق لنا أن نتساءل هل حدث «انقلاب» كهذا حقا ؟ هل الوصف الشائع لليهود بالوداعة والخنوع وصف شامل وعلمى ؟ وهل يصدق ذلك الوصف بالفعل على كافة اليهود ؟ أم انه يصدق على فقرائهم دون أغنيائهم ؟ أم أنه يصدق على العامة منهم دون الصفوة ؟ وهل شمل ذلك «الانقلاب» اليهود جميعا ؟ هل تحولت الاقليات اليهودية التى مازالت تعيش فى شتى البلدان الى مقاتلين شرسين ؟ أم أن ذلك «الانقلاب» قاصر على اليهود الصهاينة ؟ وهل ذلك «الانقلاب» قاصر على اليهود الذين عانوا من العسف النازى أم انه شامل أيضا اليهود من أبناء فلسطين والبلاد العربية ؟ وهل يرجع ذلك «الانقلاب» الى عملية نفسية تمت استجابة لحدث تاريخى أم انه استجابة مستمرة لاحداث اقتصادية وسياسية مستمرة كذلك ؟ قد تساعدنا اجابة مثل تلك الاسئلة على التوصل للتساؤل الاصلى وهو هل يحدث انقلاب بحق ، وعلى اى حال فالأمر فى حاجة الى مزيد من الجهد المتخصص الذى لايكفيه هذا المرور العابر .

ننتقل بعد ذلك الى الرؤية الثانية للكاتب فيما يتعلق بالمجتمع وحركته ، فبعد ان استمر يتحدث طوال المقال عن «الشخصية القومية» و «الانية المصرية» و «مضمون الشعور الشعبى» ، بل بعد أن قرر بوضوح اثناء مناقشته لقضية «النوعية البشرية للشعب المصرى» ان الفرق بين الامم انما يكون « فى قدرتها وذكائها واصرارها على استغلال تاريخها المحدود احسن استغلال » . بعد كل ذلك ، وفى الجزء الثانى من المقال تواجهنا عبارات مثل « لا يمكن البحث عن خاصية نوعية للشعب المصرى » و « تعبير الشعب المصرى تعبير مبالغ فى مضمونه » الى آخر مثل تلك العبارات التى تبرز رؤية الكاتب الثانية المجتمع . لقد كاد الكاتب فى رؤيته الاولى أن يلغى اى تمايز بين طبقات المجتمع المختلفة معتبرا انه كيان واحد منسجم ، واذ به فى رؤيته الثانية يبرز التمايز بين طبقات المجتمع الى الحد الذى يكاد يذهب بوحدته كاملة . ويبلغ ذلك الموقف قمة التعبير عنه حين يقول الكاتب مرجعا استحالة البحث عن نوعية بشرية للشعب المصرى الى الاختلافات التاريخية بين طبقاته قائلا « ان الطبقة العاملة فى مصر تقترب بخبراتها التاريخية من الطبقات العاملة فى كثير من دول العالم الثالث ، وتبتعد عن طبقة الراسمالية الوطنية المصرية ذاتها » . وقضية العلاقة بين الطبقات بعضها وبعض داخل كل مجتمع ، والعلاقة بين تلك الطبقات والطبقات المناظرة لها فى المجتمعات الاخرى ، او بعبارة ادق قضية القومية والاممية ليست بالقضية البسيطة التى يسمح المجال بتناولها تفصيلا ، وان كنا نستطيع ان نشير باجمال الى أن الامر يبدو على عكس ماأورده الكاتب تماما ، فالطبقة العاملة فى مصر تقترب بخبراتها التاريخية من طبقة الراسمالية الوطنية . والتعبير العملى عن ذلك الاقتراب هو ان الطبقتين يضمهما معا التحالف الشعبى لقوى الشعب العامل فى المرحلة الحالية ، وهو تحالف لا يقل — ان لم يكن يزيد — عما يربط بين تلك الطبقة والطبقات العاملة فى دول العالم الثالث ، اذا ما وضعنا فى الاعتبار عامل القومية والانتماء لها ، وما يترتب على ذلك من نتائج وارتباطات ، واذا ما كنا نتحدث عن الطبقة وليس عن طليعتها او قيادتها فحسب .

ثانيا : العلاقة بين القائد والشعب

لقد انطلق فكر الكاتب من احدى مسلمات نظرية التحليل النفسى بأن هناك تناقضا بين ما هو شعورى وما هو لاشعورى ، فارضا تلك المسلمة — كما سبق ان اشرنا — على رؤيته للمجتمع . وقد ادى ذلك الى افتراضه لوجود شعور ولاشعور قوميين . ولم يكن هناك مفر بعد ذلك من ان تحكم تلك المسلمة رؤية الكاتب وتحليله للعلاقة بين القائد والشعب . فهو يرى « ان العنصر الاول فى الحرب النفسية هو حسن استغلال الزعامة للظروف المتاحة لها »

، لكن كيف ؟ يحسم الكاتب ذلك قائلا ان «مادة هذا العنصر هى قدرة الزعامة على صياغة مضمون الشعور الشعبى صياغة سليمة وفى ضوء الظروف المحيطة به وطرحها على الشعب فينطلق نقيض الشعور — أى اللاشعور — لتحدث الثورة النفسية » ولسنا فى حاجة الى القول بأن وقائع التاريخ تؤكد لنا ان تعبير الزعيم عن مضمون الشعور الشعبى وطرحه لذلك التعبير على شعبه انما يؤدى الى تدعيم لمضمون هذا الشعور ، وتدعيم أيضا لقيادة هذا الزعيم . ولقد استند الكاتب فى تدعيم فكرته الى واقعة تاريخية هى خطاب الرئيس عبد الناصر فى جامع الازهر أثناء عدوان ١٩٥٦ والذى رأى فيه الكاتب «صياغة لفكرة شعورية اجتاحت نفوس الشعب .. نقاتل ونموت ابطالا ولو فى فناء العنيد ، ولكن صياغة الفكرة الشعورية هو السبيل لانطلاق الفكرة اللاشعورية وهى ننسحب ونعيش لكفاح يتسم بذكاء المصر اللبق » . ولسنا نرى فى الخطاب مجالا لقضية اللاشعور على الاطلاق . لقد كان تساؤل الرئيس هو : هل نقاتل ام نستسلم ؟ وكانت اجابته التى صاغها وطرحها على الشعب » وانطلق الشعب مؤكدا لها ، هى سنقاتل سنقاتل . لم تكن قضية الانسحاب مطروحة أصلا فى الخطاب ولا فى الاستجابة الشعبية له بشكل شعورى ولا بشكل لاشعورى . واسترجاع بسيط للتواريخ يوضح ان أمر الانسحاب قد صدر فى مساء الاربعاء ٣١/١٠/٥٦ ، وبدأ الانسحاب بالفعل فى فجر اليوم الاول من نوفمبر عام ١٩٥٦ ، وكان خطاب الرئيس فى الازهر يوم الجمعة ٢/١١/١٩٥٦ أى بعد ان بدأ بالفعل تراجع الجيش من سيناء للالتحاق بالشعب والقتال جبهة واحدة ، وهو الشعار الذى اطلقه الرئيس ورده الشعب (ولم يردد نقيضه اللاشعورى) ومارسه بالفعل حتى تحقق الانسحاب .

اما العنصر الثانى للحرب النفسية فهما يرى الكاتب فهو «زعامة شعبية صلبة يمكن للشعب التوحد بها » اما الاسلوب الذى يمارس به هذا العنصر تأثيره فهو « الحركة المتمشية مع العدو لاثارة الحركة العكسية لدى الشعب » . ورغم ثقتنا بحسن نوايا الكاتب الا اننا لا نستطيع سوى القول بأنه مهما حسنت النوايا فانها لا تسمح بالتجاوز عن الدور الخطير الذى يمكن أن تلعبه مثل تلك الافكار كتبرير جيد لكافة القادة الانتهازيين بل والانهزاميين ايضا . ولابد لنا من التفرقة بحسم بين المجال العسكرى والمجال الفكرى ، ففى المجال الاول قد يكون من المسموح به بل ومن المطلوب احيانا التمشى حركيا مع العدو بمعنى التقهقر عند تقدمه ، والتقدم عند تقهقره وهكذا . ولكن على المستوى الايديولوجى يصبح مثل ذلك التمشى امرا مرفوضا تماما . الواقعة التاريخية التى يستند اليها الكاتب فى توضيح فكرته هى قرار الرئيس عبد الناصر بالتنحى يوم ٩ يونيو سنة ١٩٦٧ . ويبدأ الكاتب تحليله لتلك الواقعة التاريخية بالتسليم بأن هدف الاستعمار كان تنحى

عبد الناصر وبالتالى فقد كان قرار التنحى تمشيا مع رغبة العدو مثيرا بذلك الحركة العكسية لدى الشعب اى رفض التنحى . ووقائع تاريخنا الثورى تسمح لنا بأن نصحح المسلمة الاولى ، فمطلب وهدف الاستعمار لم يكن أن يتنحى عبد الناصر بل كان الهدف الاصيل هو ضرب المسار الثورى للثورة المصرية ، وجيدا لو تم ذلك بأن يتنكر عبد الناصر نفسه لثورته أى بأن يستسلم . ولم يكن قرار التنحى تنحية للثورة - وهو ما هدف اليه الاستعمار - بل انه على العكس قد تضمن عرضا شاملا لمنجزات الثورة وتأكيدا لاستمرارها . ثم تضمن اقداما شجاعا من القائد لتحمل مسئولية كل ماحدث كطوح للثقة به على الشعب . وكان تحرك الشعب تجديدا وتأكيدا لثقته بالقائد واصراره على بقائه عزما على المضى فى طريق الثورة . لم تكن هناك اذن حركة متمشية مع العدو ، وبالتالى لم يكن هناك اثارة لحركة عكسية لدى الشعب .

ثالثا : وقائع التاريخ وتفسيرها

لاشك ان لكاتب المقال الحق فى تفسير الاحداث التاريخية كما يشاء وللآخرين أن يختلفوا معه اذا ما شاءوا ذلك . ولكن لاستخدام ذلك الحق حدودا اذا ما تجاوزها الكاتب كان للقارىء حينئذ أن يفترض أن انطلاق الكاتب من مسلمته التى اشرنا اليها قد دفعه الى تحريف بعض الوقائع والتعسف فى تفسير البعض الآخر لكى تتناسب الاحداث مع نتائج مسلمته التى بدأ بها . ونكتفى بايراد الامثلة التالية كنماذج لذلك التحريف والتعسف :

١ - جاء فى المقال ان حرب يونيو سنة ١٩٦٧ قد فاجأتنا بأن اليهود المستذلين الضعفاء قد أصبحوا قساة شرسين . وسبق أن تعرضنا لتساؤلاتنا عن واقعة التحول ذاتها ، ولكن لو سلمنا بحدوثها فيكفى - وبدون الرجوع الى ماتضمنته قصص التوراة من عنف - أن نستعيد ما لجأت اليه العصابات الصهيونية من عنف فى ظل الانتداب البريطانى فى فلسطين ، وأن نستعيد فظائع تلك العصابات فى حرب عام ١٩٤٨ ، بل يكفى حتى أن نشير فحسب الى مذبحة دير ياسين ليتضح لنا ان الوجه العنيف للصهيونية لم يفاجئنا عام ١٩٦٧ بل ان ذلك الوجه كان سافرا ومعروفا بل عانينا منه الكثير قبل ذلك بكثير .

٢ - يذكر الكاتب فى معرض حديثه عن ثورة عرابى ان نقطة الضعف « الوحيدة » فى الثورة العرابية كانت عدم وضوح الوجهة القومية ، مما ادى الى انه بدلا من أن يستغل عرابى عنصر الدين والقومية تركهما سلاحا فى يد عدوه . وتشير وقائع التاريخ - ويكفى هنا الاستشهاد بالرافعى - الى انه من أهم الاسباب المعلنة التى حركت العرابيين ، تمييز الجراكسة على العرب ، والاحتجاج على التدخل الاوروبى فى الشئون المالية الداخلية ، وهى أسباب قومية بلاشك اذا كان المقصود بصفة القومية العداء للمستعمر الاجنبى . أما من حيث الدين فان وقائع التاريخ تشير أيضا ، بل تبرز الى حد يكاد يقرب من الاتهام ، اعتماد عرابى على الدين فى رفعة لمعنويات جنوده ولمعنويات الشعب أيضا .

٣ - يعتبر الكاتب عام ١٩٤٢ بداية لانهيار الوفد - ولعله يقصد حادث ٤ فبراير الشهير - منطلقا من فكرة ان جماهيرية الوفد كانت تقوم على أساس من التوحد بسعد الزعيم ، وان القيادات التالية له كانت أضعف منه فلم يتم التوحد بها وبدأت فى الانهيار فى ذلك العام . ولو وضع الكاتب فى اعتباره الظروف السياسية والاقتصادية التى كانت تحدد ما يمثله حزب الوفد طبقيا لما اضطر الى تجاهل اكتساح الوفد للانتخابات العامة سنة ١٩٥٠ وعلى رأسه نفس من كان على رأسه فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، بل لعله كان فى استطاعة الكاتب حينئذ أن يفسر ذلك ولو بعيدا عن قضية التوحد بالزعيم .

٤ - يرى الكاتب ان هناك نقاطا هامة قد غابت عن الاستعمار فى تحليله لظروف عدوانه علينا عام ١٩٥٦ مرجعا ذلك الى « غرابة التحالف الذى قام ضدنا : حزب محافظ وآخر اشتراكى ، وتنظيم فاشى » ولا نجد فيما يمدنا به التاريخ أى مبرر لغرابة ان يقوم تحالف بين عدة تنظيمات تعبر جميعها سياسيا وطبقيا وفكريا عن نفس القوى الرجعية ، بل لعله كان أدعى للتعجب ان نجد بينهم اختلافا فيما يتعلق بموقفهم من قوى حركة التحرير فى المستعمرات هذا بالطبع اذا ما تركنا جانبا اللافتة التى يحملها الحزب « الاشتراكى » الفرنسي ونظرنا الى المصالح الطبقية التى يعبر ويدافع عنها .

٥ - يقرر الكاتب فى حسم انه « فى عام ١٩٥٨ انضاف الى الانية المصرية عنصر جديد هو التفتح على مبدأ مهاجمة الاستعمار فى قواعده المحيطة بنا » والامر هنا لا يحتاج الى مراجع تاريخية متخصصة ، فمبدأ مهاجمة الاستعمار فى قواعده المحيطة بنا قد بدأ فى أواخر عام ١٩٥٤ ، وبلغ ذروته فى رد الفعل الشعبى عام ١٩٥٥ لتوقيع العراق لحلف بغداد .

ونعود فى النهاية لنؤكد ان ما أوردناه من ملاحظات على مقالى الدكتور احمد فائق لاينفى ما فيه من جهد واخلاص ، وان كانت تلك الملاحظات تبرز من ناحية أخرى اهمية التزام الحيطة والحذر فى اجتياز ذلك الطريق الوعر .

قدرى حفنى

بين النظرية والمنهج في علم النفس

عبد الستار ابراهيم محمد

لماذا نلجأ الى مناهج العلوم الاخرى ونحن أمام الانسان ذلك الكائن ذى التركيب المعقد المتجاوز لوضعه وتاريخه ، ولكل قوانين مفسرة ؟! ألايكفينا قربنا من الظاهرة - حيث نحن موضوع الاهتمام والتصاقنا بعلاقات مستمرة بالآخرين حتى نحصل معرفتنا الصحيحة بالانسان ؟ فما الذى نصبو اليه غير الوصول الى الحقيقة ؟!

تثار مثل هذه التساؤلات دائما فى مواجهة تطبيق المنهج العلمى فى دراسة السلوك الانسانى ومن الحق أن نعترف بشكل عام أن الوقوف على مثل هذه التساؤلات أصبح من قبيل الوقوف على قوالب جامدة من التفكير والحكم . ويكفى للدلالة على ذلك أن نجمع بين هذه الدعاوى ، وما تعنيه النظرة العلمية - بمعناها الصحيح - حتى يتضح خطأ اثارة هذه الاسئلة على هذا النحو .

فلا شك أن النظرة العلمية للسلوك - السلوك الانسانى على وجه الخصوص - تدرك جيدا الطبيعة الفريدة ، وشبكة العوامل المعقدة الكامنة وراء هذا السلوك . ولا شك أن الافكار العظيمة فى علم النفس - شأنها فى ذلك شأن العلوم الاخرى - ليست صورا ذهنية معزولة عن الواقع ، وانما هى تسمح لنا بالتعامل مع

المواقف الخارجية بصورة أفضل ٠ وفى كل الاحوال لا تهدف النظرة العلمية للسلوك الى أكثر من الوصول الى الحقيقة ، والى المعرفة الصحيحة بالانسان ٠

لكن عالم النفس عندما يثير هذه القضايا على هذا النحو لا يقف على الجوانب السلبية منها موقف المغلوب على أمره بل يتعدى ذلك الى اضاءة جوانب من حقيقة الظاهرة التى يدرسها ، بمفهوم خاص عن الحقيقة ٠ وبهذا تكتسب هذه التساؤلات فى ذهنه حيوية فائقة تستثير لديه كل قدراته على التحدى والصراع ٠ والمتتبع لتاريخ علم النفس - العلمى - يدرك هذا الامر بوضوح ٠ فتاريخ هذا العلم - وهو لا يكاد يتجاوز مئة عام - محاولة متصلة دائبة فى تكشف مظاهر السلوك المختلفة - البسيطة والمعقدة على السواء - وتحديد ،وتنظيم الشروط المساهمة فى ابراز معالمها عن طريق المنهج العلمى ٠

ولعل أول المسلمات التى ينطلق منها عالم النفس فى نظرته لموضوع دراسته -وهو السلوك- والتى أدت به الى أن يتخذ موقعا يمكنه من تكشف الكثير ، هو أنه بصدد موضوع قابل لأن يفسر ٠ بمعنى أن للسلوك منطقا ينتظم من خلاله : أسبابا وشروطا ، وعلاقات بين هذه الاسباب والشروط ٠ وقد يعتبر عالم النفس أن صراعه من أجل الحقيقة قد انتهى عندما يتمكن يوما ما من الوصول الى صياغة - أو معادلة نهائية - لفظية أو رياضية تصف على نحو صحيح وواقعى كل أنماط وأشكال العلاقات التى تربط بين السلوك وشروطه بطريقة تجعل تنبؤاتنا مقنعة دقيقة ٠ غير أن هذا الصراع فيما يبدو لن يقف يوما ، فأنماط السلوك نفسها تتغير ، والحياة تطرح باستمرار شروطا جديدة تغير فى شكل العلاقات نفسها ، مع ذلك فان هذا الصراع يستمر مخلفا وراءه فى المراحل المختلفة انتصارات يزهو بها العلماء ، فهى تبين لهم أن صراعهم من أجل الحقيقة لا يسير فى طريق مغلق أبدا ٠

ومفهوم الحقيقة - كما يتبناه عالم النفس - لا يختلف فى الواقع عن مفهومها فى ذهن غيره من العلماء ٠ فالعلماء كل فى ميدانه الخاص يحاول التعبير عن المنطق الصحيح لأنماط العلاقات بين الاشياء ٠ فهذا ما يفعله علماء البيولوجيا مثلا ، أن يمكنونا من المنطق الذى من خلاله يمكن أن تنمو ساق نباتيه معينة نموا ناجحا بتحديد الشروط الأساسية التى تنظم عملية النمو ٠ كطبيعة التربة ، ودرجة الحرارة ، والتعرض لأشعة الشمس ، وكمية الهواء ٠٠ الخ ٠ وهذا ما يفعله أيضا علماء الكيمياء ٠ أن يصوغوا لنا المنطق الذى تتفاعل من خلاله المواد ببعضها بتحديد خصائص المادة التى تحدد مسار هذا التفاعل ٠ وهو نفس ما نطلبه من عالم النفس : أن يوضح لنا الشروط والاسباب - البيئية والشخصية - التى تجعل الناس يدركون ، ويفكرون ، ويبدعون أفكارا جديدة ، ويحكمون ، وينحرفون فى سلوكهم الاجتماعى ، أو الانفعالى ، ويحلون مشكلات الواقع بدرجات متفاوتة الكفاءة ٠٠ الخ ٠

ومثل هذا الهدف كما تتبناه المعرفة العلمية - كجانب من جوانب المعرفة الانسانية - وهو التأليف بين جوانب الواقع والجمع بين جزئياته هو نفس هدف الافكار العظيمة فى كل المجالات الفنية أو الفلسفية ٠٠ الخ (فهكذا مثلا برزت عبقرية الفنان جيوتو Giotto التأليفية الذى استطاع أن يربط معا فى لوحاته عن المسيح بين أزمة الانسان ومعاناة المسيح ، بطريقة تضيف منظورا جديدا لمفهومنا من الانسان ، وعن المسيح وهكذا برزت عبقرية ماركس الذى استطاع أن يجمع بين علاقات الانتاج وشكل الانتاج بطريقة أضاءت كثيرا من فهمنا لجزئيات المجتمع فى شموله ٠ لعل هذا ما يشد انتباهنا الى روايات الاديب المصرى **نجيب محفوظ** حيث استطاع - بذكاء نادر - أن يجمع بين حيرة وهزيمة ابطاله، وبين حيرة الانسان فى البحث عن يقين ، بطريقة تعمق احساسنا بأبطاله وبالانسان ٠)

لكن المعرفة العلمية تتميز عن غيرها من أنواع **المعرفة فى نقطتين :**

١ - أسلوب المعرفة ٠

٢ - التنظيم النظرى لمنطق الوقائع ٠

فالعالم لا يهتم بالوقائع الشائعة بقدر ما يهتم باسلوب الوصول الى هذه الوقائع ، هادفا فى النهاية الى : الفهم ، والتنبؤ ، والضبط ٠ ولعل هذا ما يعنيه وايتهيد عندما يقارن بين عصر العلوم والعصور الاخرى فيقول « ان اليوم بدأ لسؤال كيف نعرف ؟ يحظى بالاهمية القصوى بدلا من السؤال ماذا نعرف ؟ ٠ ويذكر العالم النفسى جيلفورد - وهو واحد من القلائل الذين ينمون اتجاها علميا فى فهم وبناء العقل البشرى - أن

مجرد المعرفة بالسلوك لاتخلق عالما نفسيا، قاصدا بذلك الاشارة الى أسلوب المعرفة .

ولعلنا نعرف الآن أن أسلوب المعرفـــة ــ عند العالم هو المنهج العلمي بأبعاده وعناصره المختلفة ولا يختلف المنهج العلمى فى دراسة السلوك عن المنهج العلمى فى دراســات موضوعات الطبيعة الاخرى . والعناصر الاساسية فى كل واحدة

فى المنزل ، فى المصنع ، فى الشارع .. الخ) فيفترض مثلا أن الاحباط يؤدى الى عدوان . ويضع فرضه فى شكل لفظى يعبر تعبيرا مؤقتا عن هذه العلاقة (اذا حدثت أ حدثت ب) .وبداية من هذه الصياغة ، يحاول التأكد من هذه العلاقات هادفا الى تنظيم معرفتنا بالســـلوك العدوانى ، والتحكم فيه . وثمة طريقان أساسيان يلجأ اليهما فى ذلك : ١ ــ التعبير عن العلاقة فى شـــكل



وهى : الملاحظة ، واجراء التجارب والقياس . ويلاحظ عالم النفس مثلا فى مواقف مختلفة من الحياة أن هناك اطرادا ذا طبيعة محددة بين مظاهر كثيرة من السلوك العدوانى على المستوى اللفظى أو الفعلى وبين اعاقة التوصل الى هدف معين أو اشباعة فى مواقف مختلفة من الحياة (فى المدرسة،

ما يسمى بمعامل الارتباط : ينتخب الباحث عددا معقولا من الاشخـاص . ويطبق عليهم عددا من المقاييس الموضوعية لقياس الوظائف ، أو المتغيرات أو المظاهر السلوكية التى يريد دراسة العلاقات فيما بينها . وهى فى مثالنا العدوان والاحباط والخطوة لتالية لذلك هي التعبير عن نتائج هـذه

العلاقات فيما يسمى بمعامل الارتباط ، كتقدير كمى نستطيع من خلاله ان نتبين الوحدة التى تجمع بين هذين الخاصيتين : بأى مقدار يظهران معا ، ويختفيان معا ، أو يزيدان معا أو ينقصان معا ٠ هذا أبسط شكل لمعامل الارتباط ٠ غير أن هناك مناهج أخرى تقوم عليه ٠٠ وهى أكثر تعقيدا من هذا الشكل وتهدف الى مزيد من التنظيم للعلاقات التى ينتظم من خلالها السلوك ٠ مثلا مايسمى بالتحليل العاملى فى هذا الشكل لاينتخب الباحث مقياسين أو ثلاثة انما ينتخب عددا أكبر من المقاييس ٠٠ تقيس سمات سلوكية مختلفة، ويطبقها على عدد أكبر من الأشخاص لا يقلون عن ٢٠٠ ٠ ويحلل العلاقات بين هذه المقاييس المختلفة ، (عن طريق معاملات الارتباط أيضا) ٠ ويخرج من هذا التحليل بتجمعات احصائية مختلفة ، أنواع من المقاييس ترتبط ببعضها دون البعض الآخر ، وهذا مايسمى بعوامل أو أبعاد أو محاور السلوك الرئيسية ٠ وهذه الابعاد أو العوامل هى فى الواقع مفاهيم احصائية تقوم – على حد تعبير الدكتور مصطفى سويف بمثابة خطوط وهمية كخطوط الطول والعرض على الكرة الارضية ، ليس لها وجود فعلى فى الحياة النفسية ، لكنها مع ذلك مفيدة جدا فى بناء علمنا ، تماما كفائدة خطوط الطول والعرض فى تنظيم قسط من معلوماتنا الجغرافية

والقارىء الذى استطاع من خلال هذه السطور أن يفهم منطق المنهج الارتباطى ، والتحليل العاملى يستطيع أن يفهم بسهولة الانجازات المختلفة التى أنجزها علم النفس من خلاله اعتماده على هذا المنهج ٠ مثلا ما توصل اليه أيزنك H.J. Eysenc من أن هناك نمطين أو بعدين أساسيين ينظمان السمات المزاجية للشخصية هما الانطواء والانبساط ٠ وما توصل اليه العلامة جيلفورد من أن هناك أربعة عوامل أساسية تقوم عليها القدرة على الابداع ٠ كمقدرة تأخذ موقعها فى بناء أشمل هو بناء العقل – وهى :

١ – **الحساسية للمشكلات** : أى القدرة على الاحساس بأن الموقف أو المواقف التى نواجهها تنطوى على مشكلة ، أو عدد من المشكلات تحتاج الى حل ٠

٢ – **الجدة أو الاصالة** : وهو العامل الذى يلخص ويكمن وراء مظاهر السلوك عندما يبتكر الفرد حلا جديدا أو أصيلا ٠ لا يستطيع أن يصل له أحد غيره ٠

٣ – **المرونة** : أى العامل الذى يكمن وراء مظاهر السلوك التى تبدو فى قدرة الشخص على أن يعيد نظام توافقه مع الموقف ، أى يغير وجهة نظره للاشياء ، أو يغير الزاوية التى يعالج منها الشىء ٠ **والفرق بين المرونة والاصالة ان الشخص الذى تتوفر فيه قدرة أكبر من المرونة لا يميل الى أن يكرر نفسه انما يميل دائما الى أن يشكل سلوكه تشكيلات مختلفة مع الموقف المتغير ٠** ولذلك فحلوله الابداعية يبدو عليها التغير المرن والتعبير بفئات مختلفة ، واعطاء حلول ذات طابع مختلف ٠ أما الشخص الذى تتوفر فيه قدرة أكبر من الاصالة أو الخبرة فهو الشخص الذى يعطى حلولا أو أفكارا لا يعطيها غيره : أو لا تشيع بين الآخرين ٠

٤ – **الطلاقة الفكرية** : أى القدرة على اعطاء عدد كبير من الأفكار والتصورات فى وحدة زمنية معينة ٠ وهذه القدرة تبدو مظاهرها فى مواقف مختلفة كلها تتجه نحو كثرة عدد الافكار والتصورات التى يعطيها الشخص فى وحدة زمنية معينة اذا قارناه بغيره بحيث نستطيع أن نتحدث عن انخفاض فلان فى هذه القدرة، وارتفاع فلان الآخر فيها ٠

هذه أمثلة تبين لنا ما يقدمه المنهج الارتباطى من تنظيم فى معرفتنا للسلوك ٠ والآن ننتقل الى الطريقة الثانية ٠

٢ – الطريق الآخر هو اصطناع مواقف أقرب الى مواقف الواقع بتعريض الشخص أو الاشخاص لمنبه أو عدد من المنبهات ، بطريقة تسمح باستثاره السلوك أو الخبرات ، ثم يفحص هذا السلوك الناشىء ، أو تلك الخبرة تحت ظروف تعرضها لهذا التنبيه دون سواه ، فنحللها ، ونوضحها ، ونقارنها بغيرها من الامثال السلوكية المستثارة تحت ظروف مختلفة ٠ وهذا هو الاتجاه التجريبى ٠٠ وهو لا يختلف عما يفعله العلماء الآخرون ٠ فبنفس الطريقة مثلا يقوم البيولوجى بتعريض ساق نباتية لأشعة الشمس ملاحظا التغير الذى يطرأ على نموها ٠ وبنفس الطريقة يقوم العلماء فى معامل البحوث بكليات الطب بتعريض الجراثيم المرضية الى أنواع معينة من العقاقير ٠٠ وملاحظة التغير الذى يطرأ على نشاطها ٠٠ الخ ٠ فكل فريق من هؤلاء يفترض فرضا عن أسباب الظاهرة ٠٠ ويحدد مدى مطابقة الفرض المعمول به لعالم الوقائع الملاحظة فى موقف ضبط

- باستبعاد كل الشروط الاخرى غير الداخلة فى الفرض - وتغيير منظم فى الشرط ، أو الأسباب المفترضة · وملاحظة أوجه التغير ، والتعبير عن هذه الاوجه تعبيرا بسيطا ·

وهذا فى الواقع ما يميز المنهج التجريبى عن المنهج الارتباطى : فى المنهج التجريبى نصل الى أسباب ، وشروط ، وستنتج علاقات سببية ، أما فى المنهج الارتباطى فنحن لا نستطيع ان نستنتج علاقات سببية اننا نقوم بتلخيص العلاقات ، واختزالها بهدف تنظيم معرفتنا كما أشرنا ·

لكن هناك حالات كثيرة يمكن منها استنتاج علاقات سببية اعتمادا على العلاقات الارتباطية الملحوظة · فالأسباب خلقية لا يمكننا مثلا دراسة الانواع المختلفة للأمراض النفسية عن طريق تعريض مجموعات من الافراد - لبيئات أسرية تختلف فيها أنماط التفاعل الاجتماعى · ولكن من الممكن ، مع ذلك ، أن نلاحظ الفروق الطبيعية الموجودة فى عدد من الاسر من حيث أنماط التفاعل وعلاقة ذلك بالفروق فى شخصيات أفرادها من حيث مظاهر الاضطراب النفسى · ففى هذه الحالة - أستطيع أن أستنتج وجود علاقة سببية اعتمادا على المنهج الارتباطى لأن العلاقة المستنتجة لا يمكن قلبها أو عكسها ·

وقد يمكننا أيضا منطق النظرية العلمية الجيدة من استنتاج علاقات سببية من البيانات الارتباطية بقليل جدا من المغامرة · والى القارىء هذا المثال ، من دراسات السلوك الاجتماعى : لنفرض أننى حصلت على معامل ارتباط مرتفع بين حجم الجماعة ، وفاعلية القائد فيها - كلما زاد حجم الجماعة زادت فاعلية القائد وقدرته على التأثير · ففى هذه الحالة لا يمكننى أن أستنتج أن حجم الجماعة قد زاد لأن فاعلية قائدها قد زادت · وقد تصبح هذه النتيجة غامضة نظريا اذا افترضت ذلك ، لأن الارتباط هنا لا يوضح كيفية مساهمة حجم الجماعة فى فاعلية القيادة ·

والخلاصة أن المنهج التجريبى أكثر حسما من المنهج الارتباطى فى استنتاج العلاقات السببية · ولكن المنهجين يتفقان فى انهما يجعلان معرفتنا بالسلوك أكثر تنظيما · والجمع بين المنهجين يجعل قدرتنا على التنبؤ ، ومن ثم الضبط أكثر فاعلية وحسما ·

وتتبلور أهمية المنهج الارتباطى والتجريبى فى **أن كلا منهما يساهم فى التنظيم النظرى ، وبتلخيص المنطقى للحقائق ، بايجاد وصف لفظى مناسب لتشكل العلاقات بين الوقائع ، ومن ثم التنبؤ بمسارها وفق المطابقة بين هذه الصياغة وبين حوادث الواقع بجزئياتها المختلفة ، والتى كانت تبدو قبل وجود هذه الصياغة - مجموعة من الحوادث المفككة المنفصله غير القابلة للتأليف أو الجمع ·**

يقودنا هذا الى الحديث عن التنظيم النظرى للحقائق كهدف أسمى تصبو اليه المعرفة العلمية لا فى علم النفس وحده بل فى كافة أنواع المعرفة العلميه الاخرى ·

التنظيم النظرى :

يعرف العالم الفيزيائى البريطانى **جيمس** كونانت Conant .J النظرية العلمية بأنها « سلسلة من المفاهيم المترابطة والتخطيطات التصورية التى تشكلت من خلال التجارب والملاحظات · ويشير روبنشتين J. Robinstein عالم النفس السوفيتى المعروف - الى نفس هذا المعنى فيعرف النظرية بأنها محاولة لصياغة مفاهيم معينة عن تشكل الظواهر ·

ولا شك أن التنظيم النظرى (النظرية العلمية) الدقيق ليس مجرد محاولة يصبو اليها العلم على مدى حركته التطوريه ، بل هو هدف البحث العلمى الاسمى كما ينبنى لا من خلال جهد عالم واحد بل ولا مجموعة من العلماء والمتخصصين فى فترة زمنية واحدة ، انما من خلال جهد أجيال متتالية من الباحثين والعلماء ·

ولكن يجب أن لا يفهم من ذلك أن النظرية بناء متصلب من الحقائق · فالنظرية كعملية خلق انسانية نتاج جهد شاق من محاولة التكيف للواقع - على حد تعبير العلامة أينشتين · ولعلنا لا ننسى أن بناء النظرية العلمية يرتكز أساسا على الملاحظات الدقيقة للعلاقات التى تتم بين أجزاء الواقع ، وعلى التأكد من هذه الملاحظات بمختلف الاساليب المضبوطة ، وأنه بمقدار ما تتقدم ملاحظاتنا ، وتنمو ، وتتعقد بمقدار ما تعدل فى شكل النظرية أو نغير فى بنائها · فالمتتبع لتاريخ النظرية السلوكية ، يرى أن هذه النظرية بدأت يرد أشكال السلوك الى الشروط الخارجية بالسعى الى اقامة علاقة مباشرة بين النتيجة والشروط الخارجية أو بين المنبه والاستجابة دون اعتبار للشروط الداخلية للسلوك (أو الاستجابة)

وهى الشروط التى تكسب التأثير الخارجى معناه ووفق هذا البناء انطلق واطسون Watson يصيح متفائلا بأنه قادر على أن يخلق عبقريا او مجرما • وقد أثبتت التجربة بعد ذلك خطأ واطسون لأنه ارتكز على نظرية لم تكن قادرة على استيعاب الواقع فى ثرائه • **فالواقع ، وملاحظاتنا لهذا الواقع تدلنا على أن نظام المنبه والاستجابة الحية لا يعطى وصفا مناسبا للحياة العضوية حيث يؤدى نفس المنبه الى نتائج مختلفة فى الكائنات الحية كلما اختلفت خصائصها ، والظروف التى تتعرض لها من وقت الى آخر** • فتأثير المنبه الخارجى يعتمد على حالة الكائن الحى وعلاقته بما يحيط به من ظروف ، وتنظيم هذه العلاقة • ومن ثم تعدل شكل النظرية ـ لتستطيع أن تلم بكثير من الحقائق الجزئية ـ باضافة عنصر جديد يجعل فهمنا للواقع أكثر مرونة ودقة فى نفس الوقت وهو : حالة الكائن العضوى Organism كعنصر يتوسط بين المنبه الخارجى والاستجابة •

واذا كانت النظرية العلمية تتعدل من خلال الواقع •• فان نظرتنا الى الواقع تتعدل أيضا بتعدل شكل النظرية ودقتها • وهذا ما حدث بالفعل بعد تطوير النظرية السلوكية وفق الشكل السابق • فقد أمكن دراسة جوانب من السلوك الاكثر تعقيدا كدراسة العمليات المعرفية العليا : كالانتباه الارادى ، والتهيؤ الذهنى ، وحل المشكلات ، والقدرة على الحكم • بل وبعض الاشكال الاخرى التى يتشكك علماء النفس انفسهم فى جدوى دراستها وفق نظام المدرسة السلوكية كالابداع• وقد كان جيلفورد يبدى تشككه فى جدوى استخدام النظرية السلوكية فى تفسير الظواهر الابداعية ، وفى سنة ١٩٦٧ ظهرت محاولة ولبرت راى Wilbert Ray تحديا لهذا الرأى ومحاولا دراسة الاصالة فى التفكير الانسانى وفق نظام المنبه ـ الكائن ـ الاستجابة • وهى محاولة تعتبر دون شك علامة على الطريق فى دراسة القدرات الابداعية ولم تكن لتتم دون الشكل الجديد الذى تطورت اليه النظرية • مثال آخر دراسات : التذوق الفنى فقد أثار هذا الموضوع اهتمام علماء السلوك منذ فترة طويلة ترد الى العالم الالمانى فخنر G. Th. Fechner رائد علم النفس التجريبى فى أواخر القرن ١٩ •• ولما كانت دراسات التذوق الفنى مرتبطة بالنظرية السلوكية فى بداياتها المتخلفة الاولى •• فقد ارتكز اهتمام العلماء فى فهم هذا الموضوع على خصائص المنبه الخارجى الذى يستثير الشعور الجمالى وحده دون اهتمام بطبيعته الشخصية

ولعل هذا ما أدى بالعلامة سيرل بيرت C. Burt الى أن يركز فى تحليله لعملية التذوق الموسيقى على بناء اللحن الخارجى وحده من حيث التوافق والتنوع •• لنقارن هذا بالمحاولات الحديثة التى ركزت فى دراستها لعملية التذوق الجمالى على اعتبار أنه عملية تجمع بين خصائص المنبه الخارجى ـ موضوع التذوق ـ وخصائص الكائن المتذوق• مثال ذلك محاولة والاش M.A. Walach للكشف عن أثر الدوافع ، وبناء الشخصية فى تكوين الخبرات الجمالية (سنة ١٩٦٢) حيث استطاع هذا الباحث بالاعتماد على الدافع ـ أن يميز بين ما هو فن جمالى وفن غير جمالى بمقدار أشباع هذا الفن لبعض الدوافع •• فيبدو الفن جميلا اذا كان يستثير دافعا ينشده الفرد ـ كالدافع العاطفى ـ ويبدو فن آخر غير جميل اذا كان يحرك دافعا أو نزعة لا يريدها الشخص كالنزعة العدوانية ، فمقطوعة سترافنسكى Stravinsky «طقوس الربيع » قد تؤدى الى تأثيرات مختلفة فى مستمعين مختلفين : تستثير بعضهم استثارة جميلة ينشدها وتحرك فى بعضهم نوازع عدوانية تهدد تكاملهم فتبدو عند المجموعة الاولى فنا جميلا، وقد لايراها أفراد المجموعة الثانية فنا على الاطلاق • ومن بين التجارب التى أجراها « والاش » تجربة أراد فيها أن يوضح دور سمات الشخصية فى التذوق الموسيقى • ودون الدخول فى التفصيلات المنهجية أمكن للباحث أن يكشف أن هناك علاقة مباشرة بين الميل الى المجازفة والانبساط وتذوق الموسيقى الصاخبة ـ بأن يعرض مقطوعات موسيقية مختلفة الايقاع والحركة على الافراد ، ويطلب منهم أن يختاروا المقطوعات التى يفضلون سماعها عن غيرها ـ بعكس المنطوين والمستكينين • لكنه اكتشف أيضا أن المرتفعين جدا فى سمتى الانطواء والاستكانة اعتمادا على نتائج مقاييس موضوعية ثابتة لقياس هاتين السمتين مثلهم فى ذلك المنبسطين والمجازفين من حيث جهم للموسيقى الصاخبة •• مما أوحى للباحث أن يفترض بأن الميل الى الموسيقى المثيرة الصاخبة قد يكون أحيانا تعبيرا تعويضيا عن الانطواء والاستكانة فى هذا المستوى الخيالى • هذا نموذج من نماذج دراسة التذوق الجمالى •• يمكن للقارىء منه أن يستنتج الخط العام لهذا النوع من الدراسات العلمية لجانب من جوانب النشاط الانسانى ، لازال الكثيرون يأبون اخضاعه للعلم فضلا عن اخضاعه للتجربة •• ومثل هذا الشكل لم يكن ليتم دون أن تكون العناصر الاساسية للنظرية العلمية قد اكتملت أو قاربت الكمال •



لنقارن هذا مثلا بنظريات أخرى ‥ لنر الى أى مدى آدى بناؤها النظرى الخاطىء الى تخلف الفهم العلمى للسلوك : نظرية التحليل النفسى الفرويدى ومجموعة النظريات التأملية الاخرى · فبناء هذه النظريات ، واعتمادها على مفاهيم ذاتية أدى الى عدم احترام المعرفة العلمية ذاتها وبالتالى أصبحت النظرة الى السلوك نظرة متصلبة فقيرة ‥ وليس غريبا أن نجد المحللين النفسيين يهاجمون فى كتاباتهم كل ما يشتم منه الموضوعية والمنهجية ، والقياس العلمى للظواهر · صحيح أن حجج هذا التهجم جديرة بالالتفات ـ من حيث أن موضوع الدراسة فى علم النفس يختلف عن موضوعات الدراسة فى العلوم الاخرى فى درجة التعقد ـ غير أن هذه الحجج تنصب على البدايات الاولى لعلم النفس العلمى ، وهى البدايات التى ينكرها الآن علماء النفس التجريبى أنفسهم دون التفات للخطوات الحثيثة الدائبة فى دراسة أشكال السلوك المختلفة · هذا فضلا عن الطريق المخالف للوقائع التى اتخذته هذه النظريات التأملية · بحيث لا يمكننا عند الانتقال من بناء النظرية الى جزئيات الواقع ـ لا يمكننا أن نلاحظ أو نشاهد عنصر « المطابقة » وهو العنصر الذى يجعل تنبؤاتنا بشكل الظواهر صادقة وصحيحة ، وهو الشرط الأساسى فى النظريه العلمية الجيدة ·

السؤال الآن ما هو شكل النظرية العلمية الجيدة ، أى ما هى الشروط التى يجب توافرها فى النظرية حتى تكون صحيحة ؟ ‥ هناك شروط أساسية تشير الى الحد الادنى من الخصائص التى اذا توافرت أمكننا أن نتحدث عن وجود نظرية وهى :

١ ـ نظام Model أو نموذج يعبر عن أنماط معينة من العلاقات القائمة على عدد من الملاحظات ·

٢ ـ التعبير عن شكل العلاقات تعبيرا لفظيا أو كميا ·

٣ ـ القابلية للتعديل ، ومرونة البناء ·

غير أن هذا الحد الادنى من الشروط لا يفسر لنا السبب الذى من أجله نجد أنفسنا نحترم نظرية دون الأخرى : فنحترم نظريات علم الفلك الفسيولوجيا الحديثة عن نظرية جال Gall الحديثة عن علم قراءة الطالع بالنجوم ، أو نظريات عن الشكل الخارجي للجمجمة • وامكانية التنبؤ منه بقدرات الشخص التخيليه والعقلية ، أو أن نحترم نظريات **نيوتن واينشتين** فى الفلك أكثر من النظريات القديمة القائلة بأن الكواكب محمولة فى كرات بللورية • وبالمثل لماذا نجد أنفسنا فى علم النفس نحترم النظرية الحديثة للشخصية عندايزنك عن نظرية التحليل النفسى عند فرويد ؟!

الاجابة على هذا أن هناك شروطا ثانوية أخرى تضاف الى الشروط الثلاثة السابقة حتى تكون النظرية قوية تستحق الاحترام •• وبمقدار توافر هذه الشروط الثانوية تستطيع النظرية أن تستوعب أشكالا مختلفة من الواقع وأن تفسر ظواهر أخرى غير تلك التى قامت لتضعها فى اطار متماسك •

فالفرق بين النظرية القوية والنظرية الضعيفة ليس فرقا فى النوع •• ويتصور أيزنك العلاقة بين النظريات القوية والنظريات الضعيفة على أنهما يمتدان على متصل واحد يمثل تدريجا متصلا يبدأ بطرف منه بالنظريات التى تبلغ أكبر درجة من القوة وينتهى الطرف الآخر منه بالنظريات التى تبلغ أصغر درجة من القوة « **أى النظريات الضعيفة** » •• وكلما تدرجنا من النظريات القوية الى النظريات الضعيفة قلت الشروط التى يجب توافرها لكى تكون النظرية أقوى • ومثل هذا التصور للعلاقة بين النظريات الضعيفة والقوية سيجنبنا دون شك التصلب فى تصور كثير من النظريات فى تاريخ العلم عموما •• وتاريخ علم النفس على وجه الخصوص ، فنضعها فى مكانها الصحيح من حيث تعبيرها عن الواقع وتلخيصها لحقائقه •

فلننظر مثلا الى نظرية « نيوتن » فى الجاذبية - كنموذج واضح للنظرية القوية - ولنستعرض عليها - كمثال حى - أهم الشروط الاخرى التى جعلت منها نظرية قوية • ان أهم ما تتميز به نظرية نيوتن أنها :

١ - قامت على عدد ضخم جدا من الملاحظات المضبوطة التى استمرت عددا من السنين • وتمت على يد العديد من الاشخاص •

٢ - تجمع بين عدد كبير من الميادين الفرعية حيث تتحقق فيها القوانين الكمية السابقة عليها كقوانين « كيبلر » و « جاليليو » •

٣ - تضمنت ظواهر واضحة الابعاد نسبيا •• أى ظواهر يمكن ملاحظتها دون استثارة أى نوع من الغموض • ودون أن تختلط بالظواهر الأخرى •

٤ - عبرت بشكل رياضى « كمى » عن العلاقات المتضمنة فى بنائها دون تعقيد شديد •

٥ - ان التنبؤات التى كان يميلها اطار النظرية كما يقول ايزنك « **كانت - وبسبب كل النقاط السابقة - على درجة مرتفعة من اليقين • ولم تحدث مشكلات ذات وزن يذكر عند الانتقال الى التطبيق العملى للاستنتاجات التى كان يمليها عليها اطار النظرية ، أى أنها كانت تعبر عن علاقات واقعية وصحيحة** • « **مثال ذلك اكتشاف الطائرات النفاثة والصواريخ** » •

هذه هى الخصائص التى تميزت بها نظرية « نيوتن » ، وهى تقريبا نفس الخصائص التى تتميز بها أى نظرية قوية فى أى علم من العلوم وجاءت نظرية اينشتين بعدها لا لتبين ضعفها ولكن لتعطى نموذجا آخر لنظرية أكثر قوة •• وبمراعاة هذه الشروط يمكن للقارىء أن يتناول مثلا أى نظرية من نظريات علم النفس فيمتحن قوتها أو ضعفها بالرجوع الى هذه الشروط الخمسة •

ولمزيد من بلورة مفاهيمنا ، وتقوية قدرتنا على الاستنتاج السليم فى ميدان علم النفس نتناول النظرية العلمية الحديثة للشخصية عند أيزنك ومعاونيه كنموذج للنظرية القوية فى علم النفس اذا قورنت مثلا بنظرية كنظرية التحليل النفسى •• ولنر الى أى مدى تتحقق فيها هذه الشروط • يرى أيزنك أن الشخصية « **كمجموعة من السمات تميز فردا عن الآخر** » نتاج لعمليتين أساسيتين من عمليات الجهاز العصبى المركزى وهما عمليتا الاثارة والكف • وتغلب أحد هذين النشاطين على الآخر يساهم فى ايجاد نمطين كبيرين وأساسيين من أنماط الشخصية هما : النمط الانبساطى والنمط الانطوائى • ففى حين يرجع سبب وجود

النمط الانبساطي الى زيادة عمليـــات الكف في الجهاز العصبي المركزي ، يرجع وجـــود النمط الانطوائي الى زيادة عمليات الاستثارة عند بعض الاشخاص دون البعض الآخر • وعن طريق هذين النشاطين المستقلين وتفاعلهما مع المنبهات البيئية تتكون مجموعة الظواهر السلوكية الاخرى المرتبطة بكل نمط من هذين النمطين دون النمط الاخـــر كمجموعة الاســتجابات الادراكيـــة والحركية ، واستجابات التعلم والتفكير والنشاط الاجتماعي، حيث نجد أن الانطوائيين يتميزون بأسلوب خاص عن المنبسطين في كل هذه الاستجابات والعكس بالعكس •

اما كيف تكونت نظرية أيزنك بهذا الشكل •• فهذا موضوع مقال آخر •• غير ان هذه النظرية اذا راعينا الشروط الخمسة السابقة تعتبر نموذجا للنظرية القوية في علم النفس لو قورنت مثلا بنظرية التحليل النفسي فهي :

١ – تقوم على عدد ضخم من الملاحظات الدقيقة التي استمرت عددا كبيرا من السنين ، وعلى يد العديد من الباحثين والمعاونين والتلامذة • فأول بلورة علمية لنظريته ظهرت سنة ١٩٤٧ في كتابه ابعاد الشخصية • Dimensions of Personality

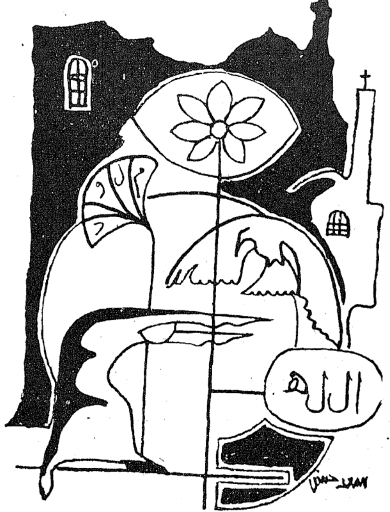
وقد كان هذا الكتاب تتويجا لجهد سنين طويلة سابقة من البحث بالاشتراك مع مجموعـــة من المعاونين • وقد ظهرت بعد ذلك محـــاولات مختلفة (نشرها ايزنك أما مستقلا أو مع معاونيه) وقد أثرت هذه المحاولات النظرية في بنائها ،ومدت من تطبيقاتها الى الميـــادين المختلفة من عـــلم النفس • ولا زال هذا الجهد مستمرا حتى الان

٢ – تجمع نظرية أيزنك بين عدد من الميادين الفرعية ، وتتحقق فيها جهود العلماء السابقين•• وهذه حقيقة يعترف بها أيزنك في وضوح شديد في كل كتبه • والواقع أن أعمال أيزنك وبحوثه •• وتفسيراته لنتائج هذه البحوث تعتبر امتدادا لجهود جيش ضخم من العلمـــاء السابقين مثـــل « بافلوف » وبحوثه في التشريط ، «وثرستون» L.L. Thurstone وسيرل بيرت C. Burt ومساهمتهما في التحليل العاملي • ومن قبيـــل رد الفضل الى أصحابه – متشكلا بأشكال أخرى – أهدى أيزنك أهم كتابين له وهما « بناء الشخصية الانسانية » سنة ١٩٥٥ وكتاب « الأســـــاس البيولوجي للشخصية » سنة ١٩٦٨ أهداهمـــا لكل من « ثرستون » و « بافلوف » على التوالي • واستفادة أيزنك من جهد هذين العالمين وغيرهما جعل نظريته في الشخصية تجمع بين عناصر من المفاهيم في الميـــادين الاخـــرى كالبيولوجيـــا والفسيولوجيا • ومن الجدير بالملاحظة أن أيزنك يورد ان كثيرا من المفاهيم في تفسيره للسلوك مستمدة من ميداني البيولوجيا والفسيولوجيـــا كتركيزه على مفاهيم الوراثة ، والجهاز العصبي ، وعمليات الكف والاستثارة •• الخ • ولا شك ان القارىء الذي لا يألف مصطلحات هذين العلمين سيشعر عند قراءته لايزنك – خاصة في كتاباته المتخصصة – بغير قليل من الارتباك • ولو ان الوضوح الشديد الذي يكتب به أيزنك قضاياه، وبحوثه قد يخفف قليلا من هذا الارتباك •

٣ – ان الظواهر التي تضمنتها نظرية أيزنك واضحة التقسيمات والابعاد نسبيا ، وليس فيهـا ما يستثير أي غموض • وهي على الاقل لا تختلط بالظواهر الاخرى • وهذه سمة ترتبط من غير شك بسبب المنهجية العلمية التي تكونت عـــلى أساسها نظريته • فمثلا عندما كان أيزنك يتحدث عن سمة من سمات الشخصية توجد بقـــدر متفاوت عند كل الاشخاص أو عندما كان يتحدث عن مجموعة من الســمات ترتبط ببعضها البعض ولا ترتبط بالمجموعات الاخرى من السمات • كان منهجه العلمي يلزمه باصطناع المقياس المناسب واصطناع مثل هذا المقياس كان يتطلب التحديد الواضح لمعنى هذه السمات • ويمكن للقارىء أن يقارن ذلك مثلا بكثير من المفاهيم الشائعة : كاللا شعور ، وما قبل الشعور ، والأنا ، والهـــو ، والأنا الأعلى •• الخ •

وكذلك فان المنهج الاحصــائي •• والمنهج التجريبي المستخدمين للتحقق من الفروض التي يمليها الاطار النظري لايزنك •• جعل نتائجه في مستوى مرتفع من اليقين والوضوح •

ولا شك أن مثل هذه الخاصية في النظريـــة العلمية تساهم في تحديد جزء كبير مما يسمى « بموضوعية » العلمـــاء في تنـــاولهم للظواهر فاذا كان العالم يبحث عن العلاقات التي توجـــد مستقلة عن الباحث بهدف الوصول الى القوانين التي تنظمها ، فان الطريق العلمي من التفكير له سمة أخرى : التزام الموضوعية في وصف الظواهر أي أن لا تعبر المفاهيم التي نستخدمها لبناء نظمنا



العمليه عن وجدانات • بالنسبة للعالم لا يوجد الا « واقع » ، وليس رغبة أو قيمة ، ولا خير أو شر » ومن مظاهر «الموضوعية» أيضا أن يكون حديثنا عن أحد الظواهر التي ندرسها موحدا ـ وهـذا الشرط تحققه خاصية تحديد أبعاد الظاهـرة تحديدا واضحا ـ فاذا تحدثنا عن سمة «الطلاقة» فى الشخصية يكون واضحا فى ذهن المتحـدث والمستمع ما تقصده بهذه السمة ، وبالتالى فاذا توصـل باحث معين لأحد الشروط التى تسـاعد على وجود الطلاقة فى بلد معين فانه يسهل بالتالى على أى باحث آخر أن يتحقق من هذا الشرط فى أى بلد آخر وأن يكشف شروطا أخرى ان أمكن •• ويكون لمكتشفاته معنى محدد فى ذهن زملائـه الآخرين فى الأماكن والازمان المختلفة •

٤ ـ ان العلاقات الرياضية المتضمنة فى نظرية أيزنك لم تكن شديدة التعقيد ، فمثلا اسـتخدم أيزنك فى تحليله لنتائج بحوثه عددا من الوسائل الاحصائية يمكن لأى شخص ـ بتدريب محدد ـ أن يجيد استخدامها • وذلك كمعاملات الارتباط وتحليل هذه المعاملات الى عوامل تنظمها وتحتويها وبمثل هذه الطريقة أمكن لنتائج أيزنك أن تحقق اكبر قدر من الموضوعية • فكما أنه يمكن أن نعيد تجـارب نيوتن فى أى مكان لنتحقق من صدق نتائجها • كذلك يمكننا أن نعيد تطبيق مقاييس أيزنك باستخدام الوسائل المناسبة من صدق نتائجه •

٥ ـ ولقد كانت التنبؤات المستقـاة من الاطار النظرى ، بسبب كل النقاط السابقة ، على درجة مرتفعة من الضبط والدقة ، اذا قورنت مثـلا بالتنبؤات التى كانت تمليها الاطر النظريـة السابقة • ويكفى أن نذكر للقارىء مثـالا حتى يمكنه أن يستنتج ما نعنيه بهذه النقطة •

فبناء على فكرته فى أن الاشخاص المنطوين يرجع انطواؤهم الى زيادة عمليات الاستثارة فى فى الجهاز العصبى ، وأن الاشخاص المنبسطين يرجع انبساطهم الى زيادة عمليات الكف على عمليات الاثارة •• كون تنبؤا فى شـكل فرض علمى عن تأثير أنواع العقـاقير على كل نمط من هذين النمطين من أنمـاط الشخصية ، فافترض أن العقاقير المخمدة من شأنها ان تؤثر فى الجهاز العصبى بالعمـل على زيادة عمليات الكف فى المستويات العليا من الدماغ ، وتقلل من عمليات



الاستثارة ، وبذلك تؤدى الى ظهور نمط منبسط من السلوك · فى حين أن العقاقير المنبهة من شأنها أن تقلل من عمليات الكف فى اللحاء ، وتزيد من عمليات الاستثارة وبذلك تؤدى الى ظهور نمط منطو من السلوك · وبناء على ذلك صمم أيزنك عددا من التجارب تقوم خطتها الأساسية على أساس تكوين مجموعتين من الأشخاص، مجموعات منطوية ومنبسطة (وقد كان هذا التقسيم يتم باستخدام مقاييس ثابتة وصادقة للانطواء أو الانبساط) ، ثم يلاحظ تأثير استخدام كل نوع من نوعى العقاقير السابقين على سلوك كل مجموعة بعد التعاطى باعادة استخدام مقاييسه ليرى ، ويحدد مقدار التغير فى سلوك كل مجموعة بكل دقة · وقد نجحت بعض تجارب أيزنك فى اثبات تنبؤه · بعبارة أخرى اتضح أن الشخصية المنطوية يزيد انطواؤها اذا تعاطت عقارا منبها ، ويقل انطواؤها اذا تعاطت عقارا مخمدا ·

بالمثل فقد كون ايزنك تنبؤات أخرى عن السلوك الاجتماعى ، واتجاهات الشخصية السياسية والاجتماعية ، وأشكال اضطراب السلوك ، والاستفادة من العلاج النفسى اعتمادا على نظريته العامة فى الشخصية نجح أغلبها فى السير مع الخط العام للتنبؤات التى يمليها اطاره،

نكتفى بهذا القدر من الحديث عن البناء المنهجى للنظرية العلمية فى علم النفس ، ولكن يبقى لنا أن نتساءل بعد هذا هل نعتبر أنفسنا على أعتاب نظرية نهائية تفسر لنا كل معميات السلوك الانسانى · وفى يقينى اننا اذا كنا نعنى بالنظرية النهائية نظرية ثابتة فان الاجابة على ذلك ستكون بالسلب · فطبيعة العلاقة بين النظرية والواقع يجعل من بناء النظرية متغيرا باستمرار . أما اذا كنا نعنى نظرية أقدر على اهداء خطانا ، واضاءة طريقنا فى عالم متضارب وبطريقة اقتصادية وثرية فالاجابة هى الايجاب · ولا نجد ما نختم به هذا المقال أوقع من مغزى عبارة قال بها عالم من ميدان علمى خطا فى عمليته خطوات أبعد من علمنا بكثير، وهو الفيزيائى البريطانى تومسون J.J. Thomson يقول تومسون · ان النظرية سياسة أكثر منها عقيدة ، فموضوعها هو الربط بين ظواهر متعددة، أو التنسيق بينهما بغية الايحاء بالتجربة · واستثارتها ، وتوجيهها فوق أى اعتبار آخر » ·

عبد الستار ابراهيم محمد

النظرية العامة للأنساق .. في علم النفس

لودفيج فون برتالانفى
عرض : صلاح قنصوه

تعريف :

لا تشير « نظرية النسق » System الى ما يعنيه اصطلاح النظرية العلمية بمعناه الضيق المحدد ، لأنها لا تعرض محتوى جديدا من المعلومات من شأنه أن يقيم شبكة جديدة من القوانين . ولا نبالغ كثيرا اذا ما عددناها «خطة» علمية جديدة ينبغى أن تلتزم فى مجموعة من العلوم وليس فى علم واحد بعينه . وهى بهذا استراتيجية للبحث العلمى تقلب التصنيفات التقليدية التى درجت على التفرقة الصارمة بين النظرة والمنهج ، وبين العلم والتكنولوجيا ، وبين علوم الطبيعة وعلوم الانسان ، وبين الآلى والعضوى ، وبين الكم والكيف .

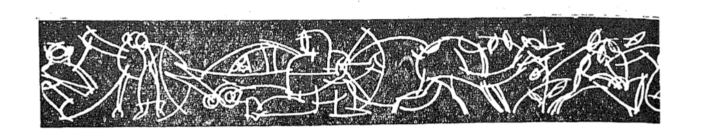
فهدف نظرية الانساق العامة هو ابراز الخواص ، والمبادىء ، والقوانين التى تميز الانسان بوجه عام بقطع النظر عن نوعها الخاص ، وطبيعة عناصرها المكونة ، والعلاقات او القوى التى تقوم بينها .

ويعرف النسق بأنه مركب من العناصر فى حالة تفاعل ، على أن يكون للتفاعلات طبيعة منظمة بحيث لا تجرى عشوائيا . ولما كانت النظرية العامة للأنساق تتعلق بالمميزات الصورية للكيانات المسماة انساقا ، فانها اذن لا تنتمى الى علم خاص ، بل تصلح فى دراسة ظواهر تندرج فى اختصاص فروع تقليدية مختلفة للبحث العلمى . وهى لا تقصر نفوذها على الأنساق المادية ، بل تبسطه ايضا على أى « كل » مؤلف من مكونات متفاعلة . لذلك كان من اليسير أن تعبر النظرية العامة للأنساق عن نفسها بلغة الحديث المعتادة ، كما يمكن أن تنمى فى نطاق لغات رياضية متعددة ، وتطوع لتقديرات الحاسب الالكترونى على السواء .

بواعث الاهتمام الراهن بالنظرية :

يرد الالحاح على ابراز أهمية نظرية الانساق الى اخفاق التصور الميكانيكى ، وعجز النموذج الآلى عن الوفاء بما كان متوقعا منه فى وصف الظواهر وتفسيرها .

كما يعزى ايضا الى النزعة المشروعة نحو مقاومة تجزئة العلم الى تخصصات منعزلة التى



أصبحت تهديدا يقطع كل المواصلات بين العلماء فى مختلف المجالات ، وهكذا برزت الحاجة الى لغة فنية مشتركة .

لهذا كانت النظرية العامة للأنساق محاولة لمزج كل من النزعتين الميكانيكية والعضوية باستخدام أفضل ما فيهما ، أو قل ، هى ديالكتيك يتجاوز تعارضهما ، كما يضم الكم والكيف فى وحدة شاملة . فالنسق ليس فقط مجموع الوحدات التى تحكم كل منها قوانين العلية ، بل هو بالأحرى كلية العلاقات بين هذه الوحدات . فالتوكيد هو على « التعقيد المنظم » ــ حسب تعبير أصحاب النظرية الأثير لديهم ــ بمعنى أن اضافة كائن جديد لا يضيف فحسب علاقة ذلك الكائن الجديد بسائر الكائنات ، بل يعدل ويحور العلاقات بين سائر الكائنات داخل النسق .

كان علم النفس فى النصف الأول من القرن العشرين محكوما بتصور عام يمكن أن تطلق عليه « انموذج الانسان الآلى » Robot model للسلوك الانسانى . وعلى الرغم من الاختلافات البارزة بين النظريات السيكلوجية مثل التحليل النفسى ، والسلوكية سواء الكلاسيكية والجديدة ، ونظريات التعلم ، فانها تقاسمت جميعا افتراضات **أولية معينة . من بين هذه الافتراضات النظرة الى الانسان على أنه كائن يقوم على ردود أفعال ، وسلوكه استجابة فطرية أو مكتسبة لؤثر من المؤثرات . ومن هنا كانت النظرة الى الظواهر النفسية أو السلوكية على أنها اعادة استقرار لاتزان مضطرب ، أو انها خفض لتوترات الناشئة عن دوافع لم يدركها الاشباع (عند فرويد) أو ارضاء للحاجات (عند هل) ، أو أنها تكييف نشط (عند سكينر) الى آخر هذه الافتراضات .**

وقد كانت هذه الحاجات والدوافع والتوترات ذات طبيعة بيولوجية . وهى على ما يبدو عمليات ثانوية عليا فى الانسان يمكن فى النهاية ردها الى عوامل بيولوجية أولية مثل الجوع والجنس والبقاء .

وترتيبا على هذا كان من الممكن أن تزودنا الآلات ، والحيوانات ، والأطفال ، ومضطربو العقل بنماذج ملائمة لدراسة السلوك الانسانى

وتفسيره ، فالآلات : لأن الظواهر السلوكية يمكن فى نهاية الأمر ان تفسر على أساس من الأبنيـة والتراكيب الشبيهة بالآلة للجهـاز العصبى . والحيوانات : بسبب وحدة المبادىء وتطابقها فى السلوك الحيوانى والانسانى ، فضلا عن سهولة اخضاع السلوك الحيوانى للبحث التجريبى . والأطفال ، وشأنهم فى ذلك شأن الحالات المرضية ، يمكن التعرف فيهم على العوامل الأولية على نحو أكثر وضوحا مما نجده لدى البالغين الأسوياء . كان البحث العلمى اذن موجها لكشف العناصر الأولية كالانطباعات الحسية ، والانعكاسات ، وعمليات التكييف ، والدوافع ، والعـوامل ، بحيث أن ضم الواحد منها بجانب الآخر قد يزودنا بتفسير للسلوك المعقد .

ولقد أثبت نموذج الانسان الآلى ، لمجموعة متنوعة من الأسباب ، قصوره وعجزه . لذلك اتخذ الميل نحو توجيه جـديد فى علم النفس تعبيرات مختلفة مثل علم النفس الارتقائى كضرب من نظرية معرفة نشوئية (من بياجيه) أو تخصص تقنمى (عند فرنر) ، فضلا عن تطورات فرويدية جديدة متعددة (مثل نظرية روجرز للعـلاج المتمركز حول المريض) وتوكيد شاختل الفاعلية فى العمليات الادراكية) . كما ظهـرت النزعات التى تسمى احيانا بعلـم نفس ((الأنا)) ego ، أو ((النظرة الجديدة)) فى الادراك ، أو التحقق الذاتى عند جولدشتيه وماسلوف ، أو نظريات الشخصية ، والاتجـاهات الفينومينولوجية والوجـودية ، أو المفهومات السوسيولوجية للانسان مثلما عند سوروكين وآخرين .

ورغم افتراق هذه التطورات فيما بينها من حيث القصد والمحتوى ، الا أنه يبدو أن قاسما مشتركا يجمعها ويؤلف بينها ، وهو أنها لا تتخذ من الانسان مجرد جهاز ذى ردود افعال ، أو جهازا ذاتى الحركة ، بل تعده نسقا لشخصية فعالة . وهنا يمكن أن تقدم نظرية الانسـاق العامة اطارا تصوريا عاما .

بعض مفهومات نظرية الانساق فى علم النفس :

يتبين مما سلف أن نظرية الأنساق العـامة ليست كشفا علميا جديدا ينتسب الى علم أو فئة معينة من العلوم بقدر ما هى نظـرة شاملة تنتمى الى فلسفة علوم محـدثة . فهى اذن لا تسعى الى عرض أفكارها على النحو الذى يبرز بمقتضاه كشف جديد مثير . بل هى بالأحرى قد أفلحت فى كشف قصور التصورات والمقولات التى تنتهجها النظرية أو البحث على السواء فى علم النفس ، تلك التصـورات والمقـولات التى اتخذت فى العلم على محمل التسليم من وجهـة نظر وضعية ــ ميكانيكية ــ سلوكية . ولهـذا كانت نظرية الأنساق جزءا من « اعادة توجيه » أو استراتيجية أكثر اتساعا وشمولا امتـدت على رقعة فسيحة من علوم كثيرة مختلفة . فقد برزت مشكلات مماثلة فى تلك العلوم افضت الى اصطناع أدوات نظرية جديدة . ففى البيولوجيا نجد مثلا الاتجاه العضوى ، وفى العلوم الاجتماعية مسألة التنظيمات فـوق الفردية ، وفى الميادين التطبيقية تكنولوجيا أجهزة الانسـان ــ الآلة عندما تقارن بالتكنولوجيا الفيزيائية ، بل وحتى الفيزياء نجد التفاعلات المتعددة المتغيرات فى « التعقيد المنظم » فى مقابل العلية النيوتونيـة والتعقيد غير المنظم فى الظواهر الاحصائية . ففى أى من هذه التطورات بدت المشكلات التى تتعين على اساس من تصورات ومفهومات مثـل « الكلية » ، والتنظيم ، والتوجه نحو هـدف ، والترتيب التصاعدى ، والانتظام ، بدت هـذه المشكلات على أنها مسائل محورية . ومثل هذه النظرة الجديدة لم تتجاهلها النظرة الميكانيكية التقليدية فحسب ، بل كانت منفية خارج أسوار ذلك الكون الميكانيكى .

وعلى هـذا النحـو يمكن أن تلقى تلك التساؤلات المطروحة من هذه العلوم المتباينـة جوابا من « علم الانساق » .

وسنحاول هنا أن نجتزىء من النظـرية ما يصلح أن يكون عرضا خاطفا لبعض مفهوماتها مطبقة على علم النفس .

١ ــ الكائن العضوى والشخصية :

على النقيض من القوى الفيزيائية مثـل الجاذبية والكهرباء ، لا توجد ظواهر الحيـاة الا فى كائنات متفردة individualized تسمى « كائنات عضوية » . والكائن العضوى نسق ، بمعنى أن ثمة نظاما ديناميا يقـوم بين أجزائه وعملياته فى تفاعل متبادل . وبالمثل ، فان الظواهر السيكلوجية لا توجد الا فى كائنـات متفردة تسمى فى الانسان شخصيات . ومهما يكن للشخصية من معان أخرى ، فلها خواص النسق .

والمفهوم « الكتلى » molar للكائن العضوى النفسفيزيائى بوصفه نسقا يتعارض مع تصور الكائن بوصفه تجمعا من الوحدات الجزيئيـة molecular مثل الانعكاسات والاحساسـات والدوافع والعوامل .. الى آخر قائمة وحدات

التحليل التى يلجأ اليها الباحثون فى علم النفس، باتجاهاته التقليدية . غير ن علم النفس المرضى يكشف بجلاء عن الاختلال الوظيفى العقلى على أنه « اضطراب فى النسق » أكثر مما هو فقدان لوظائف منفردة .

٢ ـ الأنساق المغلقة والمفتوحة :

الكائن العضوى الحى نسق مفتوح ، أى أنه نسق معتمد على مكونات مادية تتألف من « وارد » و « صادر » وتسعى الى البناء والهدم معا ، وذلك على نقيض الأنساق المغلقة فى الفيزياء التقليدية التى لا تتبادل فيها المادة مع البيئة .

ويمكن أن نوجز سمات الأنساق المفتوحة على الوجه التالى :

١ ـ الانساق المغلقة « **لابد** » (وفقا للقانون الثانى للديناميكا الحرارية) أن تبلغ فى نهاية الأمر حالة من التعادل أو الاتزان حيث يبقى النسق ثابتا فى الزمان وتصل العمليات الفيزيائية الى « وقفة سكونية » . بينما الأنساق المفتوحة « **قد** » تصل ، مع افتراض شروط معينة ، الى « حالة الاستقرار » ، وفى هذه الحالة يبقى النسق ثابتا أيضا فى الزمان ، بيد أن العمليات تظل مستمرة ولا يبلغ النسق حالة « الراحة والسكون » قط .

٢ ـ تتعين حالة التعادل أو الاتزان التى تبلغها الأنساق المغلقة فى نهاية الأمر بشروط أولية ، بينما الأمر على النقيض من ذلك فى الانساق المفتوحة لأن حالة الاستقرار التى تصل اليها مستقلة عن الشروط الأولية ولا تعتمد الا على أوضاع النسق وشروطه الخاصة (مثل معدلات النقل وردود الأفعال) .

وتسمى هذه الخاصة للأنساق المفتوحة « بالغائية المتعادلة » equifinality التى تفسر الكثير من انتظامات الانساق الحية ! حيث يحدث الكثير من العمليات المنظمة على نحو يبلغ بمقتضاه النسق الحالة القصوى أو النهاية نفسها ، أو « الغاية أو الهدف » ذاته انطلاقا من شروط أولية مختلفة ، وبطرق متعددة عقب اضطرابات غير متعينة أو محددة .

ولأن مثل هذا السلوك مستحيل فى الأنساق المغلقة والآلات التقليدية ، فان « الغائية المتعادلة » تبدو سمة ذات طابع أو نزعة حيوية تنتهك القوانين الفيزيائية .. بيد أنها نتيجة لازمة لحالة الاستقرار فى الانساق المفتوحة .

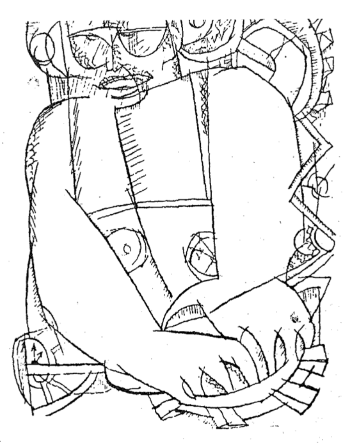
٣ ـ تتجه الأنساق المغلقة نحو حالات النهاية القصوى لدرجة التعادل فى الطاقة (التى يفترضها القانون الثانى للديناميكا الحرارية) ، وهى الحالات المصطبغة بطابع الاحتمال وعدم الانتظام . بينما الأمر على النقيض من ذلك فى الأنساق المفتوحة ـ أو العالم الحى ـ كما يتبدى فى النمو الضرورى وتطور الأنواع . فهناك دوما انتقال فى اتجاه حالات من رتبة أعلى يؤدى فيه التغير فى أفراد نوع الى تطورهم الى نوع آخر ، وهو اتجاه يبدو متعارضا مع القانون الفيزيائى على نحو ما يعبر عنه القانون الثانى للديناميكا الحرارية .

٤ ـ الكائن الحى العضوى الفعال :

الكائن الحى ليس نسقا سلبيا ، بل هو نسق ايجابى فى داخله ، حتى دون مؤثر خارجى.

وقد أوضحت البحوث الحديثة ان النشاط الذاتى الحركة للنسق العصبى نشاط اولى . وكذلك فى النمو الضرورى والتطور تبدو الآليات القائمة على ردود الأفعال (مثل الانعكاسات ودوائر التغذية المرتدة) على أنها مفروضة من اعلى على الأنشطة البدائية والأنشطة ذات الحركة الايقاعية . فالمثير (وهو تغير فى الشروط الخارجية) لا « يحدث » أو « يسبب » عملية فى نسق خامل ، بل هو فحسب يعدل ويحور من العمليات فى نسق ايجابى نشط وبطريقة ذاتية الحركة .

فالكائن الحى يحافظ على حالة من عدم الاتزان تسمى بحالة الاستقرار لنسق مفتوح ، مما يمكن من توزيع الطاقات الكامنة أو « التوترات » من خلال نشاط تلقائى وعن طريق استجابة لمؤثرات محررة . والنشاط أو الفاعلية التلقائية هو أكثر أشكال السلوك بدائية . فهى توجد فى وظائف المخ كما توجد فى العملية السيكلوجية. وقد أكد اكتشاف الانساق التنشيطية فى النخاع المستطيل هذه الحقيقة فى السنوات الأخيرة . فالسلوك الطبيعى اذن يضم انشطة وفاعليات لا حصر لها تند عن التصنيف فى النهج التقليدى « المثير ـ الاستجابة » R-S Schem ، ابتداء من الأنشطة البدائية عند الحيوان حتى الأنشطة الاقتصادية والعقلية والجمالية والدينية، والسعى نحو تحقيق الذات . والابداع لدى الانسان .



٥ ـ الاتزان الداخلي :

يستتبع مما سبق أن مفهوم « الاتزان الداخلي » ـ وهو يتردد كثيرا فى علم النفس ـ يغطى السلوك الحيوانى بصورة جزئية فقط ، بينما لا يصح ذلك فى جزء جوهرى من السلوك الانسانى عن الاطلاق . وقد تيسر « لبولر » أن يعين حدوده بمهارة فى قوله « بأن فى نموذج التحليل النفسى الأساسى ليس ثمة الا اتجاه رئيسى واحد وهو الذى يمضى نحو اشباع الحاجات أو خفض التوترات .. وتؤكد نظريات البيولوجيا الراهنة أهمية تلقائية نشاط الكائن العضوى التى تعزى الى الطاقة الداخلة فى بنائه . وقد عنى برتالانفى بتوكيد أداء الكائن العضوى الذاتى الحركة ، ودافعه الىأداء حركاتمعينة . . فهنا تقدم المفهومات « مراجعة كاملة للمبدأ الأصلى للاتزان الداخلى » الذى ألح فحسب على الميل فى اتجاه التعادل » .

ومهما يكن من أمر ، فان مبدأ الاتزان الداخلي لا يقبل التطبيق على :

(أ) الانتظامات أو الاطرادات التى لا تؤسس على آليات ثابتة بل تقوم فى نطاق أداء نسق يعمل ككل (مثل العمليات التنظيمية التى تحدث عقب الاصابات المخية) .

(ب) الأنشطة التلقائية .

(ج) العمليات التى لا تهدف الى خفض التوتر بل الى رفعه .

(د) عمليات النمو والتطور والخلق وما يماثلها .

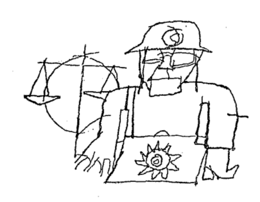
ويحق لنا القول بأن الاتزان الداخلي ليس مبدأ تفسيريا ملائما للأنشطة الانسانية التى لا توصف بأنها نفعية ، أو تلك التى لا تخدم الحاجات الأولية لحفظ الذات والبقاء ومشتقاتها كما هى الحال فى الكثير من المظاهر « الثقافية » وذلك لأنها قيم رمزية أكثر مما هى قيم بيولوجية .

٦ ـ التمايز :

التمايز هو التحول من حالة أكثر عمومية وتجانسا الى حالة أشد تخصصا وتغايرا . فحيثما يحدث النمو فانه يتقدم من حالة عمومية نسبية ونقص فى التمايز الى حالة تمايز متزايد وتخصص وترتيب تصاعدى .

وينتشر مبدأ التمايز فى البيولوجيا ، وفى تطور الجهاز العصبى ، والسلوك ، وعلم النفس والثقافة . وتتقدم الوظائف العقلية بوجه عام من « حالة تلفيقية » syncretic حيث الدوافع والمشاعر والمخيلة والمفهومات فى حالة لم يتحدد شكلها الى حالة تتسم بالتميز والتفاضل بين هذه الوظائف .

وفى الحيوان ، وفى جانب كبير من السلوك الانسانى هناك وحدة ادراكية ـ انفعالية ـ دافعية . والموضوعات التى يدركها الانسان دون



أن يميز فيها اللون الانفعالى ــ الدافعى انما هى تعبر عن مرحلة متأخرة للانسان الناضج المتمدين .

فلقد كانت الأسطورة هى العمــاء الخصب الذى خرجت منه اللغــة والسحر والفن والعلم والطب والأخلاق والدين بعد أن لحقتها تطورات حملتها على التمايز والتنوع والتخصص . وقد نجد فى علم النفس المرضى وفى الفصام أن الحالات البدائية تعاود الظهــور كضرب من النكوص والارتداد والمظاهر الشاذة (وهى تبدو شاذة بسبب الارتبــاطات العشـــوائية بين العناصر البدائية ، وبين العمليات الفكرية الراقية) .

٧ ــ التمركز والمفهومات المتعلقة به :

ليست الكائنات الحيــة آلات ولكنها يمكن ــ الى حد معين ــ أن تصير آلات ، أو تتجمد وتتقولب فى آلات . ولكن تحولها هذا الى آلات لا يمكن أن يكون تاما . ذلك لأن الكائن العضوى لو تحول تحولا تاما الى آلة mechanized لمـــا استطاع أن يستجيب للتغيرات التى تحــدث خارجة بلا انقطاع .

فرد الكائن الحى الى الآلية يعنى فقــدانا للامكانيات التى تتمتع بها مكوناته وضياعا لامكان الانتظام فى الكل .

وقد يؤدى الرد الى الآلية غالبا الى اقامة أجزاء رئيسية قائدة ، أى مكونات مسيطرة على سلوك النسق . ومثل هــذه المراكز قد تزاول « علية الزناد » التى تقابل مبدأ العلية القائل بأن « العلة تكافىء المعلول » حيث قد يســـبب تغير ضئيل فى الجزء الرئيسى ، عن طريق آليـــات التضخيم ، تغيرات واسعة فى النسق الكلى وعلى هذا النحو قد يشيد نظام تصاعدى للأجـــزاء والعمليات .

وفى المخ ، كما فى الوظائف العقلية يحــدث التمركز والنظام التصاعدى عن طريق التدرج ، حتى اتخذت الأجزاء العليا دور الأجزاء الرئيسية

وثمة تدرج متواز لتدرج وظائف المخ وتطورها يمكن أن نشير اليه ــ دون تدقيق كبير ــ اذا ما خيرنا بين : مناطق الغــريزة ، والدوافع ، والانفعالات ، والشخصية فى أعماقها البدائية .

ــ الادراك الواعى والفعل الارادى .

ــ الأنشطة الرمزية المميزة للانسان .

وما تزال التصنيفات والتقســيمات التى لجأ اليها علمـــاء النفس للتمييز بين الوظائف السيكلوجية ورسم خريطة لمناطق النفس، ماتزال بعيدة عن الوضوح .

٨ ــ الحـــدود :

لابد لكل كائن مدروس أن يكون له حدود سواء كانت مكانية أو ديناميـــة . وبتعبير أدق لا توجد الحدود المكانية الا فى نطاق الملاحظـــة الساذجة ، بينما كل الحدود دينامية فى نهـــاية الأمر . فلا يمكن للمرء أن يرسم بدقة حدودا

لذرة ، أو لحجر ، أو لكائن حى (فى تبادل متصل للمادة مع البيئة) .

واشد الحدود اهمية فى علم النفس هو حد « الأنا » ، التمييز بين الذات والعالم الخارجى، أو بين الذات والموضوع . ويتكون هذا التمييز — مع المقولات المساعدة للمكان والزمان والعدد والعلية .. الخ — ببطء في عمليات التطور والنمو . فحد الأنا يتمايز ويتحدد من حالة ليست منقسمة فى الطفل الانسانى عن طريق عوالم خيالية موهومة وسابقة عن المنطق ومن المحتمل الا تكون مكونة تماما قبل أن تتدخل العمليات الرمزية .

وتفسر العمليات الرمزية انفتاح الانسان على العالم بمعنى أن عالم الانسان يتجاوز بصورة واسعة الروابط والأغلال البيولوجية ، بل وحتى حدود الحراس وقيودها .

(أ) الفاعليات الرمزية :

يقول « برتا لاتفي » أنه بعيدا عن الاشباع المباشر للحاجات البيولوجية ، فان الانسان يعيش فى عالم ليس مؤلفا من الأشياء بل من الرموز » . ويمكن القول بأن العوالم الرمزية المتعددة التى تميز الثقافات الانسانية عن المجتمعات الحيوانية هى جزء ، بل هى أكثر الأجزاء اهمية من نسق سلوك الانسان . والقول بأن الانسان حيوان عاقل أمر محل سؤال ، الا أنه يقينا خالق للرموز ، وخاضع لها .

فسعى الانسان ليس مجرد تحقق للذات ، بل هو موجه نحو أهداف موضوعية وتحقيق للقيم .

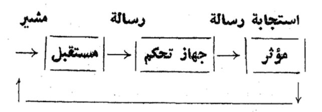
ومن الدقة ان نقول ، بالنسبة للوظائف الرمزية : « ان الدوافع فى الحيوان لا يمكن ان تكون نموذجا ملائما لدى الانسان » وأن الشخصية الانسانية لا يتم تكوينها عند العام الثالث من عمر الطفل مثلما تزعم نظرية فرويد للغرائز .

فهذا اذن هو السبب فى استحالة رد السلوك الانسانى وعلم النفس واختزاله الى التصورات البيولوجية مثل استعادة الاتزان الداخلى وصراع الدوافع البيولوجية والعلاقات غير المشبعة بين الأم والطفل وما يماثلها من تصورات .

١٠ — النظرية العامة للانساق والسيرنطيقا :

تتعلق السيرنطيقا — اذا ما قصرنا أنفسنا على الاطار المحدد سلفا — بفئة فرعية هامة ، ولكنها لا تقدر على استيعاب كافة الانساق . فالعنصر الأساسى فى السيرنطيقا هو نهج «التغذية المرتدة» . ففى النسق المستجيب لاضطراب من الخارج ، يعدد جزء من « المخرج » out put الى المدخل in put من أجل التحكم فى وظيفة النسق وادائه ، سواء للحفاظ على حالة مرغوبة أو لهداية النسق الى هدف . وفى التكنولوجيا كما فى الطبيعة الحية ، يمكن أن يكون لانساق التغذية المرتدة درجة من التعقيد ، غير أنه يمكن أن يحلل الى فقرات التغذية المرتدة loops وفقا لبرنامج التغذية نفسه .

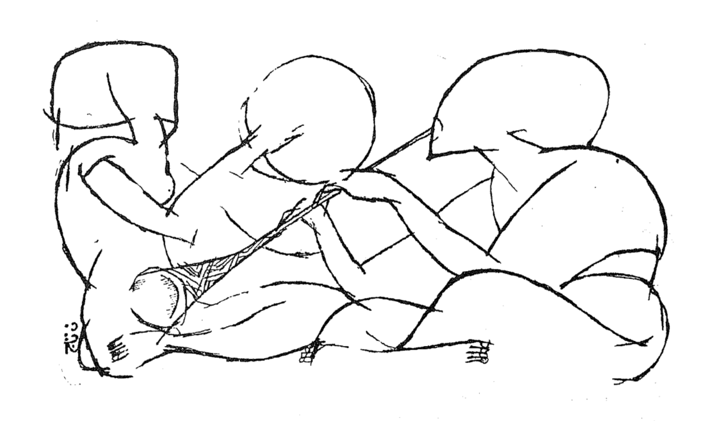
ويمكن أن تلاحظ الفروق بين السيرنطيقا والأنساق العامة من الشكل :



التغذية المرتدة

فالانتظام الخاص بالتغذية المرتدة ذو علية خطية وواحدية الاتجاه (على الرغم من أنها دائرية) .

بينما الانتظام فى الأنساق (وخاصة المفتوحة) قائم على تفاعل بين متغيرات متعددة .



والانتظـــام فى السبيرنطيقا مؤسس على ترتيبات مقررة سلفا (أبنية وتركيبات بمعناها الواسع) بينما يقوم فى الأنساق على التفاعل الدينامى .

والانتظامات التى تحققها آليات التغـذية المرتدة يمكن بصفة عامة أن تندرج تحت مفهوم « الاتزان الداخلى » . والانتظامات القائمة على الاتزان الداخلى، والأنتظاماتالدينامية نموذجان متحالفان ، ولكنهما مختلفان ويطبقان على ظواهر مختلفة وقد يطبقان أحيانا على نفس الظاهرة .

والاتزان الداخلى ، مبدأ متزامن synchronic بمعنى أنه يشير الى الحفاظ على الثبات في قطاع معين من الزمن . الا أن هناك رغم ذلك مبادىء ارتقائية أو diachronic . ولقد أصبحت قاعدة تجريبية مقررة تلك التى تقـــول بأن الأنساق الحية ، والتطورية ، والسيكلوجية ، والاجتماعية وغيرها انما تتجـه الى المزيد من التمايز والتنظيم . ومثل تلك العمليات التى تتعارض مع مبدأ درجة التعادل فى الطـاقة anti-entropic وفقا للديناميكا الحـرارية التى لا تقبل العكس أو القلب ، مثـل تلك العمليات مسموح بها فى الانساق المفتوحة ، ولكنهـا فى الوقت الراهن لا تتضمن قانونا يشـير الى اتجاهها .

وقد يغـدو من الممكن فى المستقبل اقامة تكامل بين الديناميكا الحرارية التى لا تقبـل العكس ، وبين نظرية المعلومات (السبيرنطيقا) بحيث تسمح بفهم أعمق للمشكلة الرئيسـية للـ anamorphosis » .

جارودى..
والاسلام والاشتراكية

محمود اسماعيل عبد الرازق

لاشك فى أن محاضرة الاستاذ **روجيه جارودى** هذه تنطوى على كثير من الآراء التى تثير عديدا من القضايا .. وجدير بالملاحظة أن الروح التى ألقيت بها المحاضرة ، والتعقيبات التى تلتها تمثل ظاهرة صحية فى كيفية تناول قضايانا المعاصرة. **فعلى الرغم من حساسية الموضوع ، وما قد يؤدى اليه الخوض فيه من مزالق ، كانت المحاضرة والتعقيبات على السواء محاولة جريئة لتخطى مرحلة الحذر والرهبة التى أحاطت بأساليب معالجتنا لقضايانا الحيوية .**

والواقع أن التوفيق لازم المحاضر فى كثير من آرائه وتخريجاته ، لكنه جانبه فى أحيان أخرى. ولا أحسب أنى قائل القول الفصل فى قضية ؛ فهذا مالا أدعيه قط . لكنه اجتهاد ليس الا .. **لقد تضمنت المحاضرة تفسيرا مقنعا لجوهر الجوانب الانسانية فى الفكر الاسلامى ، وبالتالى انسحب هذا الاقتناع على تفسير النجاح الواسع الذى أحرزته الفتوحات الاسلامية ، والانتشار العريض للدعوة الاسلامية كعقيدة ونظام فى آن واحد . كما قدم الاستاذ جارودى حججا دامغة على براءة الاشتراكية العلمية من المقولة المتواترة « الدين أفيون الشعوب »** ، ونفى **كل تناقض بين الايمان بالله والاشتراكية ، وانتهى الى التقاء الاسلام بالاشتراكية العلمية فى منطلقهما الانسانى .**

ولا ينصب النقد الذى سنوجهه فى هذا المقال على مبدأ الالتقاء بين الاسلام والاشتراكية ، بل ينصب على نوع الادلة والبراهين المتعسفة التى قدمها جارودى لعقد مصالحة بين الماركسية والاسلام .

وأكاد أتصور تشابها بين ماذهب اليه الاستاذ جارودى فى هذا الصدد وبين ما حاوله البعض ـ فى سذاجة ـ من **اثبات ان المجتمع الشيوعى المثالى الذى تصوره ماركس هو بعينه «جنة الفردوس» التى وعد الله بها عباده الابرار .** فقد انفتح على الفكر الاسلامى والتاريخ الاسلامى ـ بتراثه الطويل ـ وأخذ يتصيد من البراهين والشواهد ما يقيم به الدليل على ما أزمع اثباته : فراح يلتمس مقولة فيلسوف ، أو موقف حاكم ، وينقب عن مأثور لمشرع أو قومة لجماعة ؛ شذرة من هنا، ونتفة من هناك ، ثم حشد محصلة أمثلته المنتقاه ليقرر فى النهاية صلحا بين الماركسية والاسلام ، بعد أن كان قد انتهى من نفس المهمة بالنسبة للماركسية والمسيحية . ومن يدرى فلربما توجهت « **مساعيه الحميدة** » فى المرة القادمة لعقد نفس المصالحة بين الماركسية وعبادة العجل أبيس.

أعود لمناقشة القرائن الثلاث الاساسية التى جعلها الاستاذ جارودى محور مشروعه ومبرر مصالحته ، لكن لا بد أولا من اثبات تحفظات أربع:

● إن اصطناع الأستاذ جارودى وفاقاً بين الفكر الإسلامى والماركسية اعتماداً على فلسفة ابن رشد وتجربة الشيوعية القرمطية ، وفكر ابن خلدون الاجتماعى ينطوى على تعسف يرفضه العالم وترفضه الماركسية ، ولا يقبله الإسلام .

(أولا) أن رفض مبدأ المصالحة من أساسه لا يعنى تعصبا من جانبى للاسلام ، أو انحيازا للماركسية ؛ بل مبعثه عدم استناده على أساس موضوعى وهو منطق مرفوض بداهة فى نظر الماركسية ، كما يتعارض مع طبيعة الفكر الاسلامى وواقع التاريخ الاسلامى .

(ثانيا) ليس فى التناقض بين الاسلام والماركسية ما يوحى بتعارض فى تعاليم الاسلام مع الفكر والتجارب الاشتراكية . ففضلا عن الروح الاشتراكية التى تتضمنها العقيدة الاسلامية نعلم أن المجتمع الاسلامى شهد أنماطا من السلوك الاشتراكى المتسق مع جوهر الشريعة الاسلامية على الرغم من كونها خلوا من نظرية متكاملة فى الاشتراكية .

(ثالثا) ومن ناحية أخرى لا يعد هذا التناقض دليلا على جمود فى الفكر الماركسى وقصور فى قدرته على استيعاب ماعداه من الصياغات الفكرية الانسانية ، ذلك لأن المنطق الجدلى «الديالكتيك» بمرونته وحيويته قادر على الاتساق مع هذه الصياغات ، دون ما ضرورة لاحتوائها أو الانصهار فيها ..

(رابعا) نحن لا نختلف مع الاستاذ جارودى حول صحة القرائن الثلاثة التى ساقها تدليلا على مصالحته بين الاسلام والماركسية من حيث انطوائها على فكر اشتراكى أو عقلانى أو تضمنها لتجربة فى الاشتراكية الطوبوية . وانما نقول بأن هذه الامثلة لا تعبر ألبته عن حقيقة الفكر الاشتراكى ولا عن جوهر التجارب الاشتراكية فى المجتمع الاسلامى . وما نود تأكيده ــ **كمحور للخلاف مع الاستاذ جارودى** ــ أنها لم تزد عن كونها نغمات ناشزة رفضتها الشريعة ولفظتها جمهرة المسلمين . أعنى أنها أفكار دخيلة على الفكر والواقع الاسلامى نتيجة الاتصال بالتراث الهللينى والشرقى وليست من مؤصلاته بأى حال من الأحوال . لقد نجم من الاتصال بالحضارات القديمة أن تعرض الاسلام لموجة مضادة من التيارات الفكرية الدخيلة فى محاولات لهدمه كعقيدة وفكر ونظام . **ففى الجانب السياسى تمثلت هذه الموجة فيما هو معروف بحركة الشعوبية . ومن الناحية الدينية تبلورت فى حركات الزندقه عن طريق تطعيم العقيدة الاسلامية بالنحل والعقائد الهدامة** . كما لم يسلم الفكر الاسلامى ــ وبالذات فى جوانبه الفلسفية ــ من المؤثرات الهيللينية وخاصة الفلسفة الأرسطية والأفلوطينية المحدثة . والذى نعتقده ان الأستاذ جارودى انتقى قرائنه الثلاث من نتاج تأثير هذه التيارات المضادية ..

يقول الأستاذ جارودى : ((**أن التقاليد**



الكبيرة والسامية التى تمتلكها تلك البلاد فى مضمار التاريخ الاسلامى والثقافة الاسلامية سواء عن الاشتراكية الطوباوية التى اعتنقها القرامطة أو الفلسفة العقلانية التى يدين بها ابن رشد أو علم الاجتماع الذى درسه ابن خلدون. ان تلك التقاليد تستطيع أن تلعب فى نمو الاشتراكية العلمية هذا الدور الذى لعبه فى بلادنا كل من هيجل وريكارد وسان سيمون .

وعن اشتراكية القرامطة يقول : ((**ان أشكال الاشتراكية ذات الخاصية الاسلامية نشأت امتدادا للنظام الضرائبى المعروف بالزكاة ، كما نشأت من مفهوم القرآن عن الملكية المبنية على العمل . فعلى سبيل المثال أنشأ حمدان قرمط سنة ٨٦٥ م فى العراق مذهبا جديدا منطلقا من مبدأ الزكاة ، فطالب أنصاره بأن يدفعوا ضريبة أخذت ترتفع باطراد مبتدئا بالصدقات الكبيرة ثم بخمس الثروة ، وأخيرا بكافة الممتلكات التى كانت توزع حسب الاحتياجات**)) .

ويسوق الاستاذ جارودى **ابن رشد** كمثال على التوفيق بين الدين والفلسفة ، وينسب اليه ((**التوصل الى النظريات الأساسية فى المادية الجدلية نفسها**)) . ويضيف أن ابن رشد قال بالطبيعة الأزلية للمادة والحركة ((**فالحركة أبدية ومستمرة ، والسبب فى كل حركة حركة سابقة عليها ، ولا محل للزمان دون الحركة ، ولا نستطيع أن ندرك الحركة ببداية لها ونهاية ..**)) .

اما **ابن خلدون** وفكره الاجتماعى فلم يذكر جارودى عنه شيئا . ونحن نرى أن حركة القرامطة فى بلاد البحرين بدأت كحركة تدعو لامامة **اسماعيل بن جعفر الصادق** ، ومن هنا فهى حركة سياسية دينية شيعية . ولكونها تضم جموع الفلاحين المظلومين ــ فكلمة قرامطة



د. جارودى

تعني فلاح كما يذهب المستشرق **ايفانوفا** — اتخذت طابعا اجتماعيا أيضا . أعني اتسمت بلون ثورى وصبغة شيوعية ومعارضة شديدة للدين الاسلامى . فهى اذن حركة دينية اجتماعية فى آن واحد ، وارتباطها بالدعوة الشيعية الاسماعيلية يؤكد وجود مؤثرات اجنبية فيها .

فيذكر **اوليرى دى لاس** فى كتابه **((الفكر العربى ومكانه فى التاريخ))** ان هذه الفرقة ـ الشيعة ـ تشكلت خطوطها العامة من مذهب **أرسطو** والأفلاطونية المحدثة مضافا اليها بعض العناصر الشرقية المأخوذة من الزرادشتية والمزدكية .. وفى ذلك ما يدل على انها ليست تجربة اسلامية أصيلة ، وحسبنا أن القرامطة استهانوا بالمقدسات الاسلامية وحرمة المسجد الحرام فأغاروا على مكة سنة ٣١٧ هـ ونهبوا الحجاج وقتلوهم فى المسجد الحرام « وقلعوا باب البيت وقبة زمزم والحجر الأسود وأخذوا كسوة الكعبة ومزقوها فيما بينهم » كما يقول **ابن الأثير** وقد أثار هذا الحادث غضب العالم الاسلامى برمته ، حتى الشيعة انفسهم لدرجة أن عبيد الله المهدى امام الفاطميين كتب الى أبى طاهر القرمطى **((والعجب من كتبك الينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم اراقة الدماء فيها واهانة أهلها ، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر .. فلعنك الله ثم لعنك ..))** (انظر الانصارى : درر الفوائد المنظمة حـ ١ ص ١٩٦) .

وعلى ذلك فليس من المقبول أن يتصيد الأستاذ جارودى تلك الحركة المعادية للاسلام ويتخذ منها دليلا على تجربة اسلامية خالصة فى تطبيق نمط اشتراكى طوبوى .

وينسحب هذا القول على اختياره لفلسفة ابن رشد العقلانية مبررا التوفيق بين الاسلام والماركسية . فبديهى أن الفكر الفلسفى الاسلامى



كان متأثرا بدرجة كبيرة بالفلسفة اليونانيــة ممتزجة بالأفلوطينية الجديدة ، فهى اذن فلسفة تجريدية تأمليه . وحين تطورت اتخذت جناحين متناقضين أحدهما علمى تجريبى كما هو الحال بالنسبة **لابن سينا والرازى وجابر بن حيــان والبيرونى** ، والآخر صوفى حدسى يمثله **الغزالى** أصدق تمثيل ، وهو التيار الذى ساد ما عداه من الروافد الفلسفيه الاخرى . وجدير بالذكر ان التيار الصوفي الحدسى يتعارض تمــاما مع المنطق الجدلى القائم على اســاس أن التناقض هو نسيج الاشياء وان الشىء يمكن ان يكون هو ونقيضه فى نفس الوقت ، وان الأشياء تتفاعل وتتلاحم ليحدث التغيير الذى هو أســاس الوجود . وهذا عكس المنطق الأرسطى الشكلى القــائل بأن التغيــير أمر لا يدرك وأن الشىء لا يتحول الى غيره ، فهو منطق استاتيكى يتسم بالثبات والجمود والتجريد . وبالنسبة لابن رشد فقد حاول التوفيق بين الفلسفة والدين وخاصة فى مؤلفه : ((**فصل المقال فيمــا بين الحكمــة والشريعة من الاتصال**)) ، لكنه اشتط ولم يوفق واضطره الاخذ بأرسطو الى الزندقة والالحاد فأنكر الخلود والبعث . . واذا كان ابن رشــد يعد بحق من وجهة النظر الحــديثة ــ أعظم فلاسفة الاسلام ، فانه فى الواقع لم يزد عن كونه شارحا لتعاليم ارسطو ومفسرا لها ، بل انه تأثر فى ذلك بجهود أسلافه ومعاصريه وخاصة **الكندى والفارابى** وغيرهم ممن سبقوه الى الفلســفة الأرسطية . وفى نظر معاصريه كان ابن رشــد كافرا زنديقا ينتسب الى أوروبا والفكر الأوربى أكثر من انتمائه الى الاسلام والفكر الاسلامى ، على حد تعبير **ارنست رينان** المتشرق الفرنسى . لقد كان ابن رشد تلميذا مخلصا لأرسطو عارض تعاليم المتكلمين وعلماء التوحيد من أهل السنة، وعادى أفكار عصره ونقم عليها لمنافاتها للأرسطية. وحســبنا أنه كتب « **تهافت التهــافت** » رداً عــلى مؤلف الغزالى ((**تهافت الفلاسفة**)) الذى ألفــه لتعضيد السنة ومؤازرة الالهيات الاسلامية فى مواجهة الفكر الأرسطى الغازى ، باحلال الحدس والوجد محل العقل ، وابدال المنطق الصورى بالتصوف الذى به تســـمو النفس الى عالم الحقائق .

كان ابن رشد ــ حقيقة ــ غريبا عن عصره معاكسا له غير معبر عنه ، بل كان منبوذا ملفوظا مارقا على الدين . فكيف اذن يتسنى لجارودى أن يضرب به المثل ويتخذه أحد الدعامات الثلاثة التى بنى عليها مصالحته » . ولا يغفر له ذلك كون ابن رشد ــ حسب زعمه ــ قد توصل الى أساسيات المادية الجدلية . فما ذكره ابن رشد فى هذا الصدد متعلقا بفكرة الحركة والزمــان والمكان ذكره أرسطو فى الكتاب الرابع و لخامس والسابع من الطبيعيات التى ترجمها **حنين بن اسحق** (انظر دى لاسى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ١٥٢) ولم يكن من نتــاج فكره الخالص بأى حال من الأحوال .

اما الدليل الثالث الذى أقامه الأســتاذ جارودى فهو فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . ولا نعلم لماذا أغفل جارودى التعريف بهــذه الفلسفة كما فعل بالنسبة لتجــربة القرامطة ، وعقلانية ابن رشد . والذى نود ايضــاحه أن ابن خلدون ــ حقيقة ــ كان صاحب فضل كبير في تطور الدراسات الاجتماعية ، لكن يخيل الينا أن هذا الفضل مبالغ فيه بدرجة جعلت البعض يعتبرونه مؤسس العلم وواضع مناهجه ، وربما تأثر هؤلاء بما قاله ابن خلدون نفسه ((**فلم يقف على الكلام فى موضوعاته لأحد من الخليقة**)) .



لكن هذا القول ينطوي على تجن بالغ على دراسات أرسطو التي لابد ان يكون ابن خلدون قد عرفها وتأثر ببعضها (انظر : د ـ مصطفى الخشاب : تاريخ التفكير الاجتماعي وتطوره ص ٧٣) . وفضلا عن ذلك فان ابن خلدون لم يستطع أن يطبق ما وصل اليه من قوانين الظواهر الاجتماعية على دراساته التاريخية . وحتى هذا القانون الذي وصل اليه لا يمت بصلة الى المادية الجدلية بل هو أقرب الى « البيولوجية التطورية » التي قال بها **هربرت سبنسر** فقانون الأطوار الثلاثة للمجتمع الانساني ـ طور النشأة والتكوين ، ثم طور النضج والاكتمال وأخيرا طور الهرم والشيخوخة ـ محكوم في نظر ابن خلدون بالدين « فالدول العامة الاستيلاء العظيمة أصلها الدين وأن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على العصبية ، والدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص » هذه النظرة تعمق الهوة بين فكر ابن خلدون وبين المادية الجدلية بصورة لا تحتمل الجدل . وحسبنا عدم استفادة ابن خلدون من منهجه هذا في دراساته للتاريخ الاسلامي التي تحفل بالأخطاء والتفسيرات الحافلة بالخوارق والسحر والثيولوجيا والميتافيزيقا الأمر الذي يجعل مجرد المقارنة بين فكره والفكر الاشتراكي العلمي ضربا من الاستحالة .. فلم يكن ابن خلدون أيضا نبضا للفكر العربي في عصره شأنه شأن ابن رشد ، بل حسبنا حقده على العرب ووضعه اياهم في منزلة الشعوب المتخلفة البدوية التي لا تعرف الحضارة .

ان اصطناع الأستاذ جارودي وفاقا بين **الفكر الاسلامي والماركسية اعتمادا على فلسفة ابن رشد وتجربة الشيوعية القرمطية وفكر ابن خلدون الاجتماعي ينطوي على تعسف يرفضه العلم ، وترفضه الماركسية ولا يقبله الاسلام .**

وينسحب نفس منهجه على المثل الذي ضربه تدليلا على وجود فكر ديني اشتراكي علمي في مصر في القرن التاسع عشر ممثل في **رفاعة رافع** الطهطاوي . واذا كان المجال لا يتسع لتوضيح فكر رفاعة فحسبنا القول بأنه لم يكن اشتراكيا في قليل أو كثير ، ولا يعني تعرضه لمشكلة فائض القيمة في كتبه ما يقيم الدليل على اشتراكيته . ان الذي يطالع كتابيه « تخليص الابريز في تلخيص باريز » و « مناهج الالباب المصرية في مباهج الآداب العصرية » لا يستطيع الا ان يقرر حقيقة لا لبس فيها وهي ان الطهطاوي لم يكن الا عارضا لما وقف عليه في أوربا ـ وخاصة في فرنسا ـ من تيارات فكرية تقدمية أعجب بها جميعا على اختلافها وتناقضاتها . فهو ليبرالي أحيانا حين يعرض للفكر الليبرالي ، راديكالي أحيانا اخرى حين يسرد الفكر الراديكالي ، يبدي اعجابه بالاشتراكية ويشيد بها حين يطالع الفكر الاشتراكي .. الخ وحسبنا انه في الوقت الذي تحدث فيه عن مزايا الاشتراكية كان يناصر سلطة الدولة في مصر ويدعمها استنادا الى فكر **مونتسكيو** . لم يكن الطهطاوي اشتراكيا لا في فكره أو سلوكه فهو من أصحاب الاقطاعيات .. كان مثقفا مسلما انفتح على التيارات الفكرية الأوروبية المعاصرة فأعجب بها دون أن يأخذ أو يعتنق ايا منها . واذا كان لابد من تقييمه بشكل عام فهو أميل الى أن يكون ليبراليا وليس اشتراكيا كما يذهب الأستاذ جارودي ..

قصارى القول أن الاتساق والاتفاق والمصالحة الذي اصطنعه الأستاذ جارودي بين الاسلام والماركسية هو اتساق متعسف واتفاق على غير أساس ومصالحة مرفوضة من الجانبين الاسلامي والماركسي .

محمود اسماعيل عبد الرازق

بين التعبير الأدبى والتفكير الفلسفى

ولسنا نقصد هنا الفلسفة بمعناها الدقيق ، وانما بمعناها الشائع المتسامح الذى يشمل الأفكار ذات الأهمية النسبية أيضا ٠

والآراء تختلف اختلافا بينا حول العلاقة بين الأدب والفلسفة بصفة عامة ٠ فمعظم النقاد مثلا يتجهون عادة الى البحث عن مغزى ، أو فلسفة معينة فى هذا العمل الأدبى أو ذاك ، ومن ثم فكثيرا ما تقود مناقشتهم للأعمال الأدبية الى بعض التقارير أو الأحكام العامة فمثلا «السمان والخريف» تقدم لنا فكرة « عدم الانتماء » أو فكرة « الغربة المحلية » ، أما « تاجر البندقية » فانها توضح لنا ان « أعظم ألوان العدل هو أقساها عقوبة » ٠٠ وهكذا ٠

كذلك يقرر البعض ـ العقاد مثلا ـ أن « المفهوم المعهود أن شعراء الأمم الفحول كانوا من طلائع النهضة الفكرية ورسل الحقائق والمذاهب فى كل عصر نبغوا فيه » ، بل ان « الأدب ليؤخذ فى معظم الأحيان على أنه ضرب من الفلسفة » كما يذكر رينيه فليك ف « فى كتابه « نظرية الادب »

ومن جهة أخرى فان بعض الدارسين يغض من شأن الصلة بين الفلسفة والأدب أو يسخر منها ، فالناقد الانجليزى الكبير سى ٠ ا س ٠ لويس فى كتابه « تجربة فى النقد » يقرر أن « كثيرا من ألوان تفسير الحياة التى يستخلصها الناس من أعمال شكسبير كان من الممكن أن تتوصل اليها مواهب متوسطة جدا دون الحاجة الى شكسبير » ٠

أما الناقد ، ومؤرخ الفلسفة الامريكى **جورج بوس** فيقرر ان الأفكار فى الشعر تكون عادة بالية وزائفة ، وانه لا يوجد انسان تخطى السادسة عشرة من العمر يؤمن بأن قراءة الشعر لمجرد ما فيه من فكر هى أمر يستحق اهتمامه ٠

ومع ذلك فلا شك ان دراسة تاريخ الفلسفة وفهم النظريات الفلسفية المختلفة والتعرف على الأفكار الكبيرة من شأنه أن يعمق نظرة كل من الاديب والناقد، وان يوسع آفاقهما ويثرى كتاباتهما هذا الى أن دراسة كهذه ستساعد ولا شك على على القاء كثير من الضوء على الأعمال الادبية فى العصور المختلفة ٠ ويكفى أن نشير مثلا الى أن المئات من أمثال هذه الابيات الجميلة للحلاج لا يمكن أن تفهم حق الفهم الا بعد المام كاف بمفاهيم « **الفناء** » و « **الحلول** » **والاتحاد»** عند الصوفية ، وهي مفاهيم تضرب بجذورها الى فلسفات وديانات مختلفة من أهمها الهندية القديمة والافلاطونية الحديثة والمسيحية ، وذلك

د. حمدى السكوت

● أن دراسة تاريخ الفلسفة ، وفهم النظريات الفلسفية المختلفة ، والتعرف على الافكار الكبيرة من شانه ان يعمق نظرة كل من الاديب والناقد

● الحقيقة الفكرية أو الفلسفية ليست لها قيمة فنية في حد ذاتها ، والعمل الفنى لايسمو بسمو مادته وانما بالطريقة التى شكلت بهـا هذه المادة .

على الرغم من ان النظرة المتسرعة قد لا تلاحظ أن وراء الأبيات فكرا عميقا ، والأبيات هى : —

أيهـا القانص ما أحسنت صـيد الظبيات
قال قم وافعل خيرا من أداء الصـلوات
قلت دعنى يا عذولى ليس ذا وقت الصلاة
أنا مشغول بطاسي وبكـاسي وسـقاتى
آه منهن لقـد أفسـدن حجى وزكاتى
اقتلونى يا ثقـاتى ان فى قتـلى حياتى
ومماتى فى حيـاتى وحياتى فى ممـاتى

كذلك لا يمكننا أن نفهـم شعر **محيى الدين ابن عربى** فى الحب الا اذا عرفنـا فلسفته حول الخيال وعلاقته بالحب ، وعدم تعلق الحب الا بالمعدوم الذى لم يتحقق ، وآراءه حول الحب الانسـانى والحب الالهى ، وهى آراء متأثرة بفلسفات مختلفة ونفس الحكم ينطبق — الى جانب شعر التصوف — على الكثير من قصـائد **بشار وأبى نواس وأبى العتاهية وأبى العلاء وميخائيـل نعيمة ونسيب عريضة وغيرهم** ، اذ هؤلاء الشعراء لا يمكن أن يوفوا حقهم من الدراسة دون الرجوع الى الفلسفات الفارسـية والهندية واليونانيـة والأفلاطونيـة الحديثة كل فيما يخصه ·

ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقـرر ان اندفاع الناقد وراء الأفكار الفلسفية وتحمسه لها كثيرا ما يؤدى به الى عزل بعض عبارات العمل الادبى من سياقها أو الانحراف بنقده فى طريق خـاص تغفل معه جوانب فنية هامة وكثيرة ، لكى يتلاءم العمل فى النهاية مع فكرة فلسـفية ما أو مذهب جمالى معين · وعناوين مثل « **الواقعية الوجودية فى السـمان والخريف** » أو « **الرومانتيكية فى العصر الأموى** » ليست بعيدة عن الأذهان ·

كذلك قد يلجأ بعض الدارسين الى التقـاط أفكار معينة واعتبار كل منهـا « روح العصر » بالنسبة لفترة ما (على غرار ما كان يفعل كثـير من الدارسين الالمان) ، ثم يأخذ فى تفسير كل الأعمال الأدبية التى ظهرت فى تلك الفترة على ضوء روح العصر هذه · والنتيجة أن يحتفى هذا الدارس بكل النماذج الأدبية التى تمثـل — أو يعتقد أنها تمثل — « **روح العصر** » هذه ، ويغفل النماذج الاخرى التى قد تكون أكثر كمية وأهمية وفنا من تلك النماذج المحتفى بهـا · وهكذا فنحن لا نصل من وراء هذه الدراسة لا الى فهم النص الادبى وتقويمه ؛ لأن النصوص فى هذه الحـالة تستخدم عادة كشواهد فقط ، ولا الى صـورة متكاملة للعصر ككل أو للأدباء كأفراد ·

كذلك فان تحمس الشاعر أو الكاتب للفكرة

الكبيرة ، واندفاعه لتقديمها بصورتها « الخـــام » كثيرا ما يؤدى بدوره الى التضحية بالعمل الفنى ذاته والانحدار به الى شكل لا هو فلسفى صحيح ولا هو أدبى صحيح • فبعض أشعار ابن سينا أو أبى العلاء مثلا لا تعدو أن تكون نظما لبعـــض الافكار الفلسفية التى كانت شائعة بين الأوساط

الاخرى غير الشعر ، فكثيرا ما تكون **الافكـــار** الفلسفية ــ أو بالاحرى الطريقة التى تعرض بها هذه الأفكار ــ هى نقطة الضعف فى العمل الادبى فلا شك أن اهتمام كاتبنا الكبـير **توفيق الحكيـم** بفكرته عن « **الانســـان والزمن** » فى مسرحيـة « أهل الكهف » أو بفكرته عن « الانسان والمكان»



المثقفة فى عصرهما ، وهى من هـــذه الزاويـة لا تتفوق كثيرا على نظم الشاعر العباسى ابان بن عبد الحميد لكتاب « كليلة ودمنة » ، أو حتى نظم ابن مالك لقواعد النحو والصرف •

ولا يختلف الوضع كثيرا بالنسبة لفنون الأدب

فى مسرحية « شهر زاد » ، لا شك ان هذاالاهتمام قد قاد المؤلف الى التضحية ببعض العناصرالفنية الحيوية بالنسبة للتـــأليف المسرحي (كرســـم الشخصيات مثلا) فى ســـبيل ابراز فكرته ، والنتيجة ان العمل جاء ضعيفا من الناحية الفنية

وهى الناحية التى يجب أن يحرص الفنان على سلامتها أولا ، اذ من الواضح أننا لا نستطيع أن ننظر مثلا فى فلسفة النحات فى الحياة الا اذا توفر لما نحته شكل التمثال فعلا· أما اذا لم يبرز ما نحته أمام أعيننا تمثالا حقيقيا ، فاننا لن نعنى فى هذه الحالة بفلسفته فى الحياة بالغة ما بلغت هذه الفلسفة من العمق ·

وقل نفس الشىء بالنسبة للرواية · وهنا أيضا يحضرنى مثال من أعمال **توفيق الحكيم** هو رواية « **عصفور من الشرق** » ، فلا شك ان الجزء الثانى من هذه الرواية ، وهو الجزء الذى يدور حول « **روحانية الشرق ومادية الغرب** » (سواء كانت هذه الفكرة فى حد ذاتها مصيبة أم مخطئة) لا شك ان هذا الجزء من الناحية الفنية أضعف بكثير من الجزء الاول الذى يمتعنا بطرافته وبساطته والاستغلال البارع لعنصر المفارقة فيه ، حين يصور لنا حب « محسن » الشاب المصرى الذى لم يتعرف بعد على طريقة الحياة الغربية لفتاة باريسية حسناء على الطريقة الشرقية ·

ان نقطة الخطر تكمن فى أن كثيرا من الادباء والنقاد ــ اراديا أو لا اراديا ــ يميلون الى الاعتقاد بأن العمل الادبى يسمو بقدر ما فيه من أفكار كبيرة ، فكلما كبرت الافكار فى العمل الادبى كان عملا عظيما وكلما قلت أو كانت غير عميقة كان عملا ثانويا قليل الاهمية · وهذا الاعتقاد بين الخطأ ولو صح لفضلنا الجزء الثانى من مسرحية «**فاوست**» ــ وهو الجزء الذى يطور فيه جوته كثيرا من أفكاره حول « الميثولوجيا » والتطور الثقافى والفنى ·· الى غير ذلك من موضوعات « **العالم الكبير** » ــ على أهم أعمال «**شكسبير** » ، لأن هذه الاخيرة لا تقدم لنا بصفة عامة فلسفات عميقة ، أو أفكارا تعجز الموهبة « **المتوسطة جدا** » ، على حد تعبير لويس، عن الاتيان بها · ولو صح كذلك لفضلنا فى أدبنا العربى رواية « **عصفور من الشرق** » أو النصف الثانى منها على الجزء الاول من ثلاثية **نجيب محفوظ** « **بين القصرين** » ، وهو الجزء الذى لا يناقش أفكارا فلسفية ، وهذا ما لم يقل به أحد · ان العامل الحاسم هنا هو الطريقة التى تعرض بها هذه الافكار وليس الافكار نفسها · وكلنا يعرف الضجة الكبيرة التى اقامتها مدرسة الديوان أو مدرسة **العقاد وشكرى والمازنى** حول شعر « **المناسبات** » السياسية والاجتماعية عند **شوقى وحافظ** وغيرهما · ومع ذلك فقصيدة الشاعر المعاصر **صلاح عبد الصبور** « **حول مأساة دنشواى**» لا تفضل ــ فى رأيى ــ بعض القصائد التى نظمها **شوقى وحافظ** حول نفس « **المناسبة** » فقط ، ــ كما يشير النقاد عادة ــ وانما تفضل « **وهى من شعر المناسبات** » الكثير من شعر أعضاء « **مدرسة** الديوان » الغنى بالافكار الكبيرة أيضا ·

وتجرنا هذه المناقشة الى سؤال لا يبدو أن الاجابة عليه واضحة فى أذهان الكثيرين منا ،وهو **كيف يعبر عن الأفكار بطريقة صحيحة فى العمل الأدبى ؟ وهل مجرد نثر بعض الأفكار الفلسفية أو غير الفلسفية فى العمل بصورتها « الخام » يعنى أن هذه الافكار قد عبر عنها بصورة فنية ؟** والجواب طبعا ليس بالايجاب · ولعل هذا هو السر فى ضعف بعض الامثلة السابقة من الناحية الفنية · اذ أن هذه الامثلة قد اعتمدت بصفة أساسية على الأفكار ، الأفكار التى لم يحسن التعبير عنها ، لأنها ظلت محتفظة بطابعها العادى المباشر والمألوف ، ولهذا فقد انحدرت بالعمل الى أسلوب أشبه بأسلوب المقالة منه بأسلوب العمل الروائى أو المسرحى أو الشعرى · أما اذا أردنا أن نعبر عن الفكرة تعبيرا فنيا ناجحا فاننا يجب أن نعرضها بحيث تبدو وقد تخلت عن هذا الطابع المباشر والمألوف ، وذلك بأن تتجسد فى شكل مادى من الاشخاص والتصرفات والأحداث والمواقف التى هى فى وقت واحد ضرورية لبناء العمل ، متحدة بنسيجه ، وطبيعية ومقنعة فى مواضعها · **وبالاختصار يجب أن تستشف الفكرة من العمل ، وأن يوحى بها ايحاء سواء عن طريق الرمز أو الاسطورة ، كما هو الحال غالبا فى الشعر أم عن طريق الشخصيات والمواقف والاحداث كما هو الحال غالبا فى العمل القصصى أو المسرحى ·**

وهنا يبرز أمامنا هذا السؤال الهام : لنفرض أن الكاتب قد نجح فعلا فى عرض فكرة أو أفكار فلسفية عرضا فنيا ناجحا ، كما فعل جوته فى فاوست ودستويفسكى فى الاخوة كارامازوف ، وبشىء من التوسع نجيب محفوظ فى عدد من رواياته الأخيرة ، اذ فى هذه الاعمال تصور الفكرة من خلال مشكلة أو أزمة يمر بها البطل فى سلسلة من المواقف التى تتلاحم فيها الفكرة مع الكارثة أو الأحداث الهامة التى تقع للشخصيات **هل يكون مثل هذه الأعمال أفضل من أعمال أخرى ناجحة فنيا أيضا ولكنها خلو من مثل هذه الأفكار ؟**



ان كبار النقاد الغربيين ــ على عكس ما يتوقع كثير من القراء ــ يجيبون عن هذا السؤال بالنفى، وقد رأينا مثلا ما قاله **لويس** فى صدر هذا المقال عن الجانب الفكرى فى مسرحيات **شكسبير** ومع ذلك فلا يشك لويس ، بل ولا يشك أحد ، فى أن شكسبير واحد من أعظم شعراء الجنس البشرى على الاطلاق . أما **بندتوكروتشيه** فيندد بالنقاد الذين يمجدون القسم الثانى من مسرحية فاوست لجوته « **كشعر سام ارتفع الى القمم ، ونفذ الى لب الأشياء ، وانقلبت فيه الفكرة صورة والصورة فكرة** » ، ويقرر أنه « **عندما يصبح الشعر متفوقا بهذه الصورة ، أى عندما يصبح الشعر أسمى من نفسه ، فانه يفقد منزلته كشعر ، وينبغى أن يوصف بأنه قد انحط ، اى قد أصبح شعرا فقيرا فى شاعريته ، وان كان غنيا فى روحه وخياله** . « وأما » فلك » فيقرر ان الشعر الفلسفى مهما نجح فى التعبير عن الأفكار فهو ليس الا نوعا واحدا من الشعر ، ومكانته ليست بالضرورة مكانة الصدارة ، وينبغى ان يقوم كغيره من أنواع الشعر الاخرى ، **لا بقيمة** موضوعه ، بل بدرجة التلاحم والتركيز الفنى التى أتيحت له .

وبالاختصار فالحقيقة الفكرية أو الفلسفية ليست لها قيمة فنية فى حد ذاتها ، والعمل الفنى لا يسمو بسمو مادته ، وانما بالطريقة التى شكلت بها هذه المادة ، وبالاسلوب الفنى **الذى عرضت به محتوياته** . ولكى نزيد هذا الكلام ايضاحا فسنستعين بهذا المثال من فن الرسم . اذا قارنا بين صورتين زيتيتين احداهما لنابليون مثلا والاخرى لشحاذ، فان أحدا منا لن يفكر بادىء ذى بدء فى تفضيل لوحة نابليون لأنها تصور أحد كبار العباقرة على حين تصور اللوحة الاخرى شخصا لا أهمية له وانما سيكون العامل الحاسم فى تفضيل احدى اللوحتين هو بالطبع ــ مدى ما توفر لهما من توفيق فنى . فاذا ما تساوت اللوحتان من الناحية الفنية فسيكون طبيعيا أيضا ألا يخطر فى بال أحد منا أن يرجح كفة لوحة نابليون لأن موضوعها هذه الشخصية الكبيرة .

ولا يختلف هذا الوضع بالنسبة للأعمال الادبية . ولدينا فى الادب الحديث مثال جيد على ذلك هو أعمال **نجيب محفوظ** الاخيرة التى وفق كاتبها الى حد كبير فى عرض ما بهما من أفكار « كبيرة وغير محلية » عرضا فنيا ناجحا ، ومع



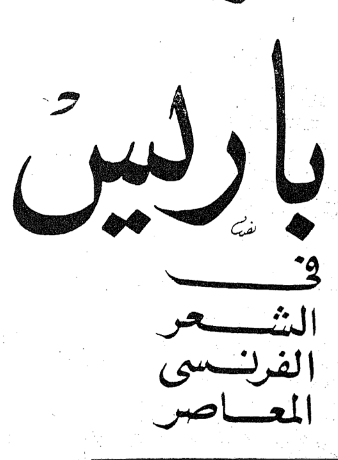
ذلك فهى لا تفضل أعماله الواقعية السابقة ، بل لعل الكثيرين يفضلون الثلاثية ــ أو لنقل « **بين القصرين** » وهو الجزء الذى يخلو من أية أفكار فلسفية كما سبق ــ على « **الطريق** » مثلا أو « **الشحاذ** » .

وقد أطلت قليلا فى مناقشة هذه الفكرة ،فكرة سمو العمل الفنى بقدر ما فيه من افكار كبيرة ، لأنها لا تزال منتشرة على نطاق واسع فى الاوساط النقدية والادبية عندنا ، على الرغم مما لاحظناه من ان نتائج تطبيقها لم تكن دائما ناجحة تماما . وحتى بالنسبة لبعض الأعمال التى هى ليست أدبا فلسفيا أو فكريا بالمعنى الدقيق ، والتى توفر لها قدر كبير من النجاح مثل « **الرباط المقدس** » ، وكلتا الشخصيتين تعكس ــ الى حد (مع الفارق بين درجة النجاح لكل منهما) فان القارىء يحس هنا بأن نقاط الضعف كان مردها أحيانا الى تغليب الجانب الفكرى ، فشخصية محسن فى « **عودة الروح** » وفى النصف الاول من « **عصفور من الشرق** » أكثر امتاعا وأرقى فنا فى رسمها من شخصية « **راهب الفكر** » فى «**الرباط** المقدس » ، وكلتا الشخصيتين تعكس ــ الى حد كبير ــ فترة من حياة المؤلف . ونفس الحكم ينطبق على شخصية **كمال عبد الجواد** الذى يبدو أكثر حيوية وامتاعا فى « **من القصرين** » وفى الجزء الأول من « **قصر الشوق** » ، أى قبل أن تنشأ أزمة «**كمال** » الفكرية ، أما بعد ذلك فكثيرا ما يبدو وكمال أكثر جفافا لنفس السبب الذى يبدو به « **راهب الفكر** » أكثر جفافا ، وهو الافراط الفكرى .

بقيت نقطة أخيرة لا بد من الاشارة اليها ، وهى أن الادب مهما حوى من أفكار فلسفية لاينبغى أن يؤخذ على أنه فلسفة ــ كما يحلو للبعض أن يفعل ــ فللفلسفة ميدانها ووظيفتها ومنهجها ، وللأدب ميدانه ووظيفته ومنهجه . وكما يقرر « **كروتشيه** » فان الأفكار الفلسفية فى الادب لا يمكن أن تقرأ على انها فلسفة ، فالجزء الثانى من « **فاوست** » يظل شعرا (رغم غناه بالافكار الفلسفية كما سبق) ، لأن الأفكار الواردة به لا تعدو أن تكون مجرد اشارات ، اشارات تختلف فى درجة وضوحها ، فهى ليست أفكارا مدروسة بعناية ومدعمة بالأسباب ، ولا هى متولدة بعضها من البعض بطريقة منطقية ، ولا متتابعة تتابعا منطقيا . وهى على هذا النحو أفكار غامضة . هذا هو السر فى كثرة التفاسير لأشعار أمثال « **جوته** » و « **دانتى** » وكل الذين كتبوا أدب الأمثولة

وحتى لو حلت مشكلة الغموض هذه وكتب الشاعر نفسه تعليقا حول شعره وضح به على وجه القطع هذه الافكار ، فان العمق فى هذه الحالة سينسب الى التعليق لا الى الشعر الذى كتب حوله التعليق ، أى الى الأفكار ، والأفكار الحقيقية ، وليس الى الرموز .

حمدى السكوت



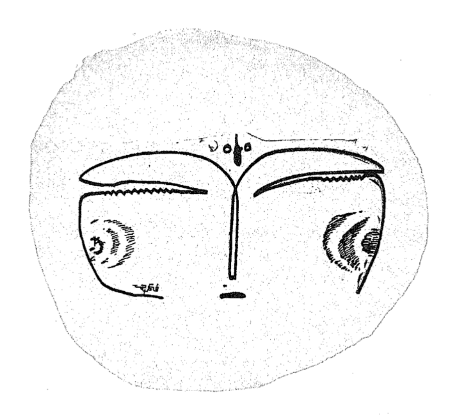
د . جان مازاليرا
ترجمة : نادية كامل

لم يكن الشعر الفرنسي من الناحية التاريخية باريسي الأصل ، كما لم يكن وليد مقاطعة أو مدينة بعينها في فرنسا ، بل كان ذلك الشعر وليد الثقافة بمعناها الرحيب ، فهو يستقي الهاماته ورآه من الفكر الكلاسيكي ويختار لموضوعاته شخصيات مثل أفيجينيا وأوجست والاسكندر الأكبر بدلا من جان دارك ونابليون ولويس الرابع عشر . كما أنه لا يصف نهر السين بقدر ما يصف نهر التيبر .

ولئن كانت هذه الظاهرة مثارا لاطراء الشعر الفرنسي تارة ومهاجمته تارة أخرى ألا أنها خصيصة جوهرية من خصائصه على أي حال . وربما كانت السبب في عالميته أيضا .

الشعر الفرنسي والشعر الباريسي

ويبين من ذلك أننا اذا تحدثنا عما يمكن أن نسميه « بالشعر الباريسي » فان هذا الشعر لن يكون في حقيقة الأمر هو « **الشعر الفرنسي** »



على ممر التاريخ ، ذلك لأن باريس لم يكن لها وجود حقيقى بالنسبة للشعراء الفرنسيين لا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى وجه التحديد منذ بودلير . فلئن كان عمر باريس فى تاريخ فرنسا يرجع الى ألف عام مضت فان عمرها فى تاريخ الشعر الفرنسى لا يزيد على مائة عام . الا أن هذه الأعوام المائة كانت ذات بريق أخاذ استطاع أن يطمس فى ذاكرتنا التسعمائة عام الأخرى . وقد أمكن لباريس أن تفرض نفسها فجأة فى تاريخ الشعر الفرنسى حتى أنها أصبحت تحتل منه مقام الصدارة .

ولنعد الآن لحقائق تاريخ الأدب فى فرنسا لنرى باريس تظهر أول ما تظهر كفكرة سلبية عرضية ، فقد تربع « **شعر البلاط** » على عرش الشعر الباريسى أمدا طويلا ، فكان شعر فرساى وشامبوريطرى الحكام ويستسيغ الدعابة والحياة السهلة ويبدو أكثر رفضا للأفكار العميقة الجادة . وأمكن لفرساى وشامبور أن تخنقا باريس وقد لاحظ موليير بوعيه الحاد رد فعل الجمهور ازاء هذا التناقض ، فعندما كان أحد الشعراء يريد أن يتغنى بالعاصمة فانه كان يأخذنا الى فرساى ويفيض فى تصوير أروقة القصور ونافوراتها وحدائقها ولا يتطرق من بعيد أو قريب الى أزقة باريس وواجهات عمائرها .

على أنه مالبثت أن ظهرت بعض الاشعار كرد فعل من جانب الشعب أزاء الادب الرسمى المتباعد المحتمى بموائد القصور ، وقد كانت هذه الاشعار المنتقمة لباريس من فيرساى وشامبور أولى التعبيرات الشعرية من وحى باريس ذاتها . ويجدر أن نذكر فى هذا المقام أسما معروفا فى تاريخ النقد أكثر منه فى تاريخ الشعر ونعنى به **سانت بيف** الذى كان أول من واتته الجرأة كى يحيط الوقار الشعرى باطار من ضواحى باريس ، كما ظهرت فى أشعار ديلورم (**وهو أسم خيالى أستعارة الشاعر لنفسه**) ولكنه كان لا زال لا يجرؤ أن يصف المدنية نفسها فوقف عند حد وصف ذلك العالم الذى مسته الحضارة الصناعية .

على أن محاولة باريس التحول من أن تكون

مجرد أطار فى الشعر الى أن تكون فكرة ايجابية ما لبثت أن اصطـدمت بنزعة أخرى هى النزعة الرومانسية فحـــل « **شعر الطبيعة** » محـــل « **شعر البلاط** » أو ربما تضافرا معـا للتعويق من ظهور باريس فى الحلبة ٠ فقد جعل الشعراء الرومانتيكيون من الطبيعة الملاذ الوحيد للشاعر ومحراب تأملاته الأول والأخير ٠

على أن الأجيـــال المقلبة ما لبثت أن كـــانت أكثر تجاوبا والعالم الذى كان سانت بيف أول من أحس بجاذبيته الغريبة وشجنيته المؤســـية٠ وأخذ شعر المدنية يبدو كرد فعل لافراط شعر الطبيعة الى حد الغثيـــان ٠ وتطورت باريس من مكانها القديم المنزوى فى الظل لتصـــبح الهاما روحيا ايجابيا ٠ على ن وجود باريس لم يتضـــح بحق الا فى أعمال بودلير ، فمع قصائده أصبح لباريس وجود حقيقى حر ٠

كيف حدث ذلك التحول الشعرى من باريس كاطار الى باريس كفكرة ؟؟

حتى القرن التاسع عشر لم تكن باريس فى الشـــعر الفرنسى تحيا حيـــاة خاصة بها ٠ كانت بالطبع موضوعا للوحات كثيرة فقد كان الشـــعراء الباريسيون عديدون لكنهم لم يكونوا بعد « شعراء باريس » كان هناك مثلا **فيون** و **بوالو** و **رنييه** ، وليس بمستطاع أن يلم القارىء على الأخص بحياة فيون وشعره ، ما لم يرجع الى باريس والسوربون والشاتليه و «**مقابر الأبرياء**» فشوارع تلك المدينة وأهلها وملاهيها تبدو على الدوام فى خلفية لقصائد مثل « **الوصية** » لكن هـــذه الخلفية تظل ديكورا يصلح لنفهم الشاعر نفســه اما أن تصلح لنفهم باريس ذاتها فهذا لم يكن قد آن أوانه بعد ٠ ان **الشاعر لا يستطيع أن يحيا بدونها ولكنه لم يكن ليســتطيع أن يجعلها تحيـــا بدونه أيضـــا ٠ فهى قطعة منه ، وليس كائنا حيا له روحه المستقلة ٠ وقد ظل الحال على هذا المنوال حتى عام ١٨٥٠ ٠**

على ان ظهور باريس ظهورا حتميقيا كان أسبق فى الأعمـــال النثرية منـــه فى الأعمال الشعرية ، فنحس فى روايات هوجو مثـــل « **الأحـــدب** » و « **البؤساء** » أكثر مما نحس فى شعره بباريس وقد غدت كائنا متعدد الأشكال ، ضخما مهولا ، مخيفا وفى الوقت ذاته عاديا مألوفا ٠ وفى ديوان له بعنوان « **أغنيات من الطرقات** » تصبح هـــذه الأغنيات أغنيات الغابات ، فالشـــوارع عند هوجو لا تؤدى الى داخل المدينة بل تقود كلها الى الطبيعة وتصب فيها ٠

وهذا الذى لاحظناه على هوجو نلاحظه أيضـــا على **جيراردى نيرفال** فقد كان نثره لا شعره هـــو وسيلته للتعبير عن احساس يزداد عمقا بحيـــاة باريس ونبضها ، ويبدو ذلك جليا على الأخص فى روايتيه « **ليالى أكتوبر** » و « **نزهات وذكريات** » ٠

ولم تدخل باريس الى عالم الشـــعر الفرنسى كشخصية مستقلة حقا الا مع بودلير ٠ وقد كان دخولها دخولا مظفرا ، فلم تعد مجرد « ايماءات » من قريب أو من بعيد بل أصبحت «الهاما» حقيقيا مباشرا ٠

فالتذكير بباريس نجده عند بودلير فى « **زهور الشر** » على الأخص فى مجموعة قصائده « **صور باريسية** » كما نجده أيضا بطبيعة الحال فى « **حلم باريس**» حيث تتتابع صور المدينة كجوقة موسيقية تصاحب حلم الشاعر ، ولكن تلك الصور لم تعد كما كانت عند شعراء سابقين مجرد صور مختارة لاضفاء جو من الغرابة على القصائد ، بل صار بين الأسى والتعاسة والجنون والرذيلة والسأم ، كل تلك المشاعر التى تغلف المدنية ، وبين روح الشاعر صلة مشاركة وتوافق لم نعهدها فى الشعر الفرنسى من قبل ٠

اننا نجد بودلير يحس بآلام المدنية وأحزانها:

ها هو المشهد الأسود الذى رأته
عيناى الواعيتان فى حلمى الليلى ٠٠
وتارة يعمد الى مواجهة الواقع بالذكرى

باريس تتغير ! لكن لاشىء من حزنى قد تزعزع !

القصور الجـديدة ، الصقالات المنصوبة ، الكتل المرصوصة

الشوارع القديمة ، كل شىء أصبح بالنسبة لى رموزا

وقد تتســع رقعة التـــأمل حتى تصبح رؤية شاملة :

الميـــدان تحت الذقن ٠ من أعلى حجرتى الضيقة ،

سأرى الروشة تغنى وتثرثر ٠

سأرى المواســير والأجراس مثل صـــوارى للمدينة

كما سأرى السموات الفسيحة التى تبعث
على الحلم منذ الأزل

ثم هاهو الشاعر يرفض الخارج وينتحى الشعر المغلق :

سأوصد الأبواب والنوافذ ،
كى أبنى لنا فى الظلام قصورا سحرية

على أن هناك شيئا آخر فى شعر بودلير ، شيئا هو فى اعتقادنا أكثر الأشياء ندرة وتفردا . انه احساس لم يقدر للشعر أن يعبر عنه من قبل . احساس بوجود شخصية حية وحقيقية لباريس . ويتضح ذلك على الأخص فى قصيدة « **غسق الصباح** » التى تكمل سلسلة «**الصور الباريسية**» حيث نرى فيها الحياة تدب فى أوصال المدينة شيئا فشيئا . ويتم ذلك عن طريق تداعى الخواطر عن باريس حتى تصبح فى نهاية القصيدة كائنا حيا تنبض الجزئيات والتفاصيل العديدة من خلال رؤيا واسعة بروح انسانية دافئة . فها هو بودلير يقول :

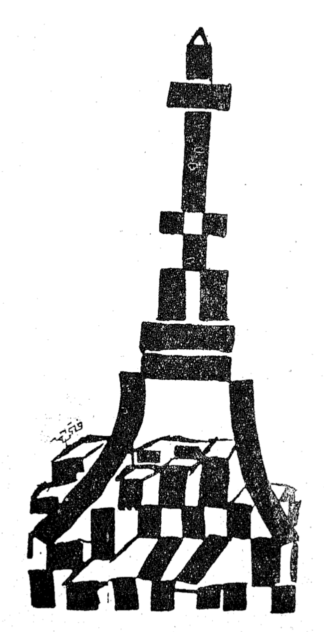
كان الفجر يرتعد فى ثوبه الوردى الأخضر ،
مقتربا بخطى وئيدة من السين المقفر ،
وباريس المعتمة كالعجوز النشيطة
تدعك عينيها ممسكة بأدوات زينتها ..

ومنذ تلك اللحظة أصبح الطريق ممهدا ، الطريق المزدوج الذى سيسلكه الشعراء المعاصرون ، والذى سنعرض له فى السطور التالية .

أما الطريق الأول ـ وهو الذى سار فيه **فيرلين** و **لافورج** و **ليون بول فارج** وفى كثير من الأحيان **أبو لينير** ـ فنجد فيه الشاعر لا يرفض حياة باريس ذاتها بل يقبل عليها ويتخذها وسطا لأحلامه وتأملاته . فنرى فيرلين فى قصيدته « أشكال باريسية » يقول :

كان القمر يغطى ألوانه بصبغة الزنك
فى شكل زوايا منفرجة
وحلقات من الدخان على شكل رقم ٥
كانت تخرج صلبة سوداء من أعلى الأسطح
المدببة

ونسمع أبو لينير فى نهاية قصيدته «فانديمير» من ديوانه « كحول » يقول :



ليلة سبتمبر تنقضى ببطء

أضواء الكبارى الحمراء تنطفىء فى السين

تموت النجوم ويولد النهار

وتعيدنى ذكريات الحب

الى صور الكبارى على ضفاف السين

ففى هذا النوع من القصائد يشيد الشاعر بما رآه على تربة باريس ، فتجرى أحلامه مع جريان الحياة فى أنحائها ، فتبدو قصائده ذكريات تتداعى عن وجود لا ينبذه ويمجه بل يصب فى دقائقه أحاسيسه الفنية ٠

على أن بعض الشعراء المعاصرين احتذاء ببودلير أيضا قد عمدوا فى قصائدهم الى الاختفاء تماما حتى يسمعوا القارىء نبض هذه المدينة الحق ٠ فيبقى الشاعر فى الظل مكتفيا بدور المترنم بباريس ٠ ونجد ذلك مثلا فى هذه القصيدة التى اخترناها **لأندريه بريتون** التى تبدو وكأنها ليست من مجموعة أشعاره المفرطة فى السريالية بل هى أقرب الى أن تكون من « **حلم باريس** » لبودلير يقول الشاعر بريتون فى قصيدته هذه ، وهى بعنوان « **الأوانى المستطرقة** » :

يجب أن تذهب فى الصباح الباكر

لترى من أعلى ربوة الساكريه كور فى باريس

تتجرد المدينة ببطء من غلالاتها الرائعة

قبل أن تبسط ذراعيها

جمع بأكمله تفرق أخيرا

يرتعد من البرد ، محقرا ، بلا حماس

يشق كالسفينة ليلا طويلا

ليس سوى شىء واحد من القمامة والروعة ٠

وفى هذا النهج أيضا يعمد الانتاج الشعرى البارىسى الى تمجيد « **العمل والحياة العصرية ، بل والحضارة الصناعية** » التى رأينا الشعراء قبل بودلير يتباكون على عاصمتهم من زحفها عليها ٠ وبذلك يخلق الانتاج الشعرى المذكور قيما جديدة تزينها مشاهد من باريس فى كل تآلفاتها ومتناقضاتها ٠ ولنضرب مثلا على مانقول « **برج ايفل** » ذلك الصرح الذى رفض الشعراء من قبل التغنى به ، وقد كانت عصريته وايماؤه الى عهد جديد تلعب فيه الهندسة والتكنولوجيا دورا هو ماجعل الشعراء المحدثون يتغنون به كما تغنى به المصورون من أمثال **روبير ديلوناى و مارك شاجال** (– ١٩٦٩) وربما كان **جيوم أبو لينير** أكثر الشعراء العصريين تعبيرا عما ذكرناه فها هو يقول فى احدى قصائده التى وصفت بالشعر المستقبلى :

تشعرين يا نفسى فى النهاية من هذا العالم القديم

ضجرت من الحياة فى خرائب الحضارة اليونانية والرومانية

آه يابرج ايفل ، يا راعى قطعان الكبارى

التى تثغو فى الصباح عند قدميك

ثم يغرق الشاعر بمتعة جلية فى شعر يزخر بحياة المدينة وصخبها حتى لا يستطيع أى باريسى أن ينكر ان هذا الشعر قطعة نابضة من حياته :

تقرأ الاعلانات ، والكتالوجات ، والملصقات التى تشدو بصوت عال

ها هو الشعر هذا الصباح ، أما النثر فهناك الجرائد

بخمسة وعشرين مليما تقرأ صفحات مليئة بالمغامرات البوليسية

وألف عنوان وعنوان ، وترى صورا لكبار الشخصيات

هذا الصباح ، رأيت شارعا نسيت اسمه

طليا كان ونظيفا حتى بدا بوقا للشمس والضياء

الرؤساء والعمال وكاتبات الآلة الكاتبة الحسناوات

يمرون منه جميعا أربع مرات

كل يوم من صباح الاثنين حتى الرابعة من بعد ظهر السبت

تئن الأجراس ثلاث مرات فى الصباح

ومن الأبواق الغاضبة عند الظهيرة يعلو النباح

كم أهوى رقة هذا الشارع الصناعى

الذى يشق طريقه بين أومدن – تيفيل وميدان الترن

ثم يمضي أبو لنير فيقول :

ليالى باريس ثملة بالجن

تتوهج بالكهرباء

وفى الدرب ، على القضبان المجنونة

يصخب الترام

تزينه الأضواء الخضراء

ها هى « **أغنيـــة باريس** » المزدانة بمئـات الأضواء والأصوات والعطور ، لكن على الرغم من كل ذلك نلمس تحت الأصباغ والمساحيق احساسا بالعزلة القاتلة ، عزلة الانسان التائه وسط كل هذا الضجيج • والانسان هنا أكثر خوفا من انسان فينيى الذى يواجه الطبيعة الباردة ، كما انه أكثر خوفا من انسان باسكال الذى يواجه اللا نهائى :

ها أنت تسـير الآن فى باريس وحـــدك وسط الجموع

السيارات العامة من حولك قطيع يخور

ها أنت تسير ومرارة الهوى تخنقك

كما لو كنت لن تصبح محبوبا بعد اليوم

فعلى الرغم مما يحوط بباريس من « **صخب ملحمى** » اذن ، تتصاعد نغمة شـجنية ، نغمـــة الضـــياع • فتبدو باريس كبابليون الحـديثة ، مدينة الشيطان ، مدينة ممزقة مؤرقة تسحق فى اندفاعها الصاخب « **الأرواح الوديعة** » وها هو **بول** فيرلين يحدثنا عن « **جحيم باريس** » فيقول :

وتنساب ، يانهر السين زاحفا كالثعبـان العجوز

وهذا الثعبان يرمز بطبيعة الحال الى الجحيم « جحيم الملـــذات » التى تردد فى قصـائد مارك أورلان •

ولكن من الهـــلاك ينبثق الخلاص • ولنقرأ قصيدة **جاك بريفير** « **أطفال أوبرفييه** » التى غنتها المغنية الباريسية ذائعة الصـيت جوليت جريكو :

يا أطفال أوبرفييه الوادعين

يا من تغمسون رؤوسكم

فى مياه البؤس اللزجة

حيث تطفو قطع الفل القديمة

بجانب قطط عجوز ميتة مسكينة

لكن طفولتكم تحميكم

من عالم حاقد لا يرحم

عالم أوبرفييه الحزين

حيث عمل أباؤكم وأمهاتكم

طويلا ، طويلا ،

كى يهربوا من الفقر

فقر العالم كله

أيها الوادعون يا أطفال أوبرفييه

أيهـا الوادعون ، ياأبنـاء الكادحين أيها الوادعون

ياأطفال الفقر الوادعين

ياأطفال العالم كله الوادعين

أيها الوادعون

وعندما يتحدث **لوى أرجون** عن غزو المدينة التى لازالت نائمـة فهو يتنبأ بحركات شـعبية كبرى • حركات ثورية تحريرية •

تصحو باريس من سباتها ، وشعب الفجر

يهبط من أغوار الضواحى بخطى وئيدة

كما لو كانوا يجهلون • ما يحركهم

وقـد غسلت النسمات جباههم العريضة التى لا لون لها •

كانت باريس اذن فكرة مستحدثة فى الشعر الفرنسى ، الا انها أصبحت تشكل ركنا أساسيا فيه • وبعد أن قدمت باريس فى الشعر بتحفظ وتردد وكمجرد اطار ، أول الأمر ، أدخلها بودلير الى عالم الشـعر الفرنسى لتصبح من بعـد كيانا مستقلا نابضا بالحياة • حتى انه ما من شاعر لا يهتف مع أراجون اليـــوم : « انزعوا قلبى ، تجدون باريس ! »

نظرة جديدة الى فن الشعر

> * فالمأساة ، اذن ، هى محاكاة فعل نبيل تام ، لها طول معلوم ، بلغة مزودة بالوان من التزيين تختلف وفقا لاختلاف الاجزاء ، وهذه المحاكاة تتم بواسطة أشخاص يفعلون لا بواسطة الحكاية وتثير الرحمة والخوف فتؤدى الى التطهير من هذه الانفعالات .
>
> « فن الشعر »

كينيث روكسروث

ترجمه : حسين البودى

هل يعتبر كتاب أرسطو فى الشعر «البويطيقا» Poetics عملا من الاعمال الكلاسيكية ؟ لا ريب فى أنه بو الكلاسيكية او الكلاسيكية الجديدة على اقل تقدير . فالبويطيقا كمتن أدبى قد تمخض عن كثير من الكلاسيكيات . ولربما كان حظها من الطبع والنشر يفوق ما حظى به كتاب يونانى اخر باستثناء **الأناجيل وجمهورية افلاطون** ، كما ان الشروح التى قامت عليها شروح لا حصر لها . **وتعد البويطيقا اول عمل نقدى فى مجال علم الجمال العام فى الادب الغربى، وان كان الحكم عليها بوصفها الممثل ضربا من الأحكام التقريبية ، ذلك أنه يندر أن ينطبق عليها ما نطلق عليه هذه الأيام علم الجمال الفلسفى** . ويحوى هذا الكتاب قواعد ووصفات لعديد من المسرحيات والقصص ، وان كانت أكثر هذه قواعد تداولا — وأشهرها قاعدة وحدة الزمان والمكان والحدث (الفعل) — لا وجود لها الى جانب كثير من قوانين البناء الأدبى الأخرى المنسوبة الى ارسطو .

ولقد تأثر معظم نقاد الغرب بهذا الكتاب، سواء بطريق الايجاب أو السلب ، وظهرت مدارس نقدية عدة فى كل جيل من الأجيال تقول بأنها أرسطو طالية فى مذهبها . بيد ان أغلب ما نادت به هذه المدارس من مبادىء لم يرد بنصه فى الكتاب ، وانما استخلص منه أو قرئ فيه ، وفقا للأذواق المتغيرة للكلاسيكيين الجدد . وبالمثل فقد هاجم أعداء الارسطوطالية هذا الكتاب لأمور لم يقل بها أرسطو ، وكان هذا الهجوم ، فى كثير من الأحيان ، بسبب أفكار لم يكن فى استطاعته أبدا — فى العصر والبيئة اللذين عاش فيهما — أن يتنبه اليها ، ولربما وجدها مبهمة تماما لو قدمت اليه .

ولقد ثارت أعنف المناقشات حول كل كلمة من كلمات أرسطو فى تعريفه الوجيز للتراجيديا

* شئت أن أنقل هذا التعريف كما هو عن ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى اذ هو مطابق للترجمة التى أخذ عنها صاحب المقال .

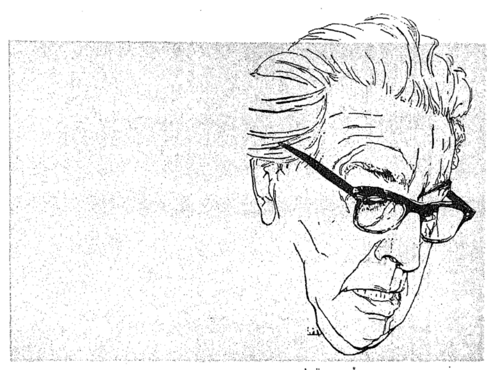


وحتى يومنا هذا لم يتفق مترجمان أو شارحان على ما بهذه الكلمات كلها من معان . **واذا كانت التراجيديا اليونانية عملية تفسير للاسطورة فان مقال أرسطو فى تعريفه لها ، قد كان هو ذاته ، أشبه بالاسطورة** ، فقد قام بدور الأسطورة بالنسبة الى النقد ، وأصبح موضوعا لعدد لا حصر له من التفسيرات ، وهكذا تختلف قراءات البويطيقا اختلافا بينا بين المذاهب الفلسفية على تعددها ــ من **وجوديه وماركسية وهيجيلية وكانطية جديدة** . وليس هناك من عمل نقدى ظهر فى الحضارات الهندية أو حضارات الشرق الأقصى قد أثار من الأفكار مثلما أثار هذا الكتاب .

ويرجع هذا الاثر الهائل للبويطيقا أول ما يرجع الى ما كان يتمتع به اسم ارسطو من تبجيل واجلال ، ويرجع فى المقام الثانى الى أن البويطيقا هى أول عمل نقدى جاد عن الادب ما زال باقيا فى الغرب ، وثالثا الى بساطته المتناهية ، وان كانت هذه البساطة ليست وضوح ونصاعة التعبير عن مبادىء أساسية مفهومة فهما عميقا ، بل على النقيض من ذلك تماما ، فليس ثم دليل فى البويطيقا يوحى بأن ارسطو كان متمتعا بأية حساسية حيال مواطن الجمال فى الشعر . **فالبرغم من أن البويطيقا تكاد تنصب انصبابا كليا على مناقشة التراجيديا ، الا أن ما نطلق عليه بالاحساس التراجيدى بالحياة ، كان عند أرسطو أقل بكثير مما عند أى فيلسوف آخر ، بل وأقل مما كان لدى ليبنتس** Leibntz **القائل بأنه ((ليس فى الامكان أبدع مما كان)) . لقد كان** أرسطو متفائلا ، ولم يخطر ببـاله الحكم الذى أصدره ليبنتز على الاطلاق . فالعالم الذى تناوله بالدراسة كان عالما موجودا ببساطة ، لم يكن بالعالم الأبدع فحسب . بل كان الوحيد الممكن، وليس هناك من شيء فى الموقف الانسانى لا يمكن تقويمه عن طريق التطبيق الصحيح للمبادىء الصحيحة سواء فى الأخلاق Ethics أو السياسة أو الاقتصاد . وحتى أفلاطون الذى طرد الشعراء من « **جمهوريته** » ولم يسمح فى « **النواميس** » Laws الا بالمسرحيات الوطنية الحماسية السعيدة التى يقوم العبيد بأدائها ــ كان على درجة أكبر من الوعى بما تعنيه التراجيديا ، وهذا هو سر تحريمه اياها .

لم يطرأ ببال أرسطو مطلقا ، أن كبار كتاب التراجيديا : **اسخيلوس ، سوفوكليس ، يوريبيدس** ، يشكلون معا مدرسة فلسفيه ، و مذهبا لديهم يتسم بتصور لا يعلى عليه بغاية الحياة ومعناها . لقد كانوا يختلفون عن الفلاسفة المحترفين فى أن « نظرتهم المأساوية للعالم » ليست خاضعة لتغير الأذواق ، بل انها لتبقى صادقة فى كل زمان وكل مجتمع . والواقع أن اسخيلوس وسوفوكليس ويوريبديس ليسوا فلاسفة وانما هم فنانون . ولكن أرسطو لا يعدهم فنانين أيضا . وانما يعتبرهم رجال صنعة وحرفة .

والبويطيقا متن من المتون التى كتبت فى حرفة القصص ، وبهذا الوصف فهى تنطبق على الروايات التجارية التى تزخر بها صحف هذه الايام أكثر مما تنطبق على التراجيديات اليونانية . ولذا فقد سميت بكتاب يسدى النصائح والوصفات لكتاب القصص البوليسية . وبالفعل ، فالروايات التى تقترب من مواصفات ونصائح أرسطو هى اللون الغالب على قصص رعاة البقر الذى تزخر به المجلات الرخيصة . وهذا النوع من القصص لا يستحق أن نستخف به أو نستهين ، فلقد ارتفع **ارنست هايكوكس** Earnest Haycox **ويونج** Gordon Young بقصص رعاة البقر **الأمريكية**



أ . بريتون

الى مستوى رفيع . وفى بعض الأعوام نجد أفلام رعاة البقر أحسن بكثير من مثيلاتها من القصص السينمائية الأخرى الا أن مشكلة Hayccx و Young تكمن فى انهما كانا أرسطوطاليين الى درجة التزمت . ولذا فقد انساقا وراء قوالب رتيبة متكررة .

ومن الصعوبة بمكان أن نتصور أى لون آخر من القصص سواء أكان تمثيليا أو روائيا يمثل البويطيقا خير تمثيل غير هذا اللون لها . أما الكلاسيكية الجديدة فى مسرح **كورنى وراسين** وبن جونسون فكانت كلاسيكية تحكمها قواعد أرسطو طالية منتحلة Pseudo-Aristotalianism ابتدعها نقاد عصر النهضة الاوروبية .

ولو كنا على استعداد لتأويل البويطيقا ، وخلع ما شئنا من المعانى على مفاهيمها الرئيسية ،لأمكننا أن نجعلها تعنى أى شىء ، ولأمكننا مثلا تطبيقها **على رائعة دستويفسكى ((الاخوة كارامازوف)) أو « محاكمة » كافكا أو « ناديا » لأندريه بريتون .** وهذا ما قد حدث بالفعل . وخير مثال يتناسب مع هذا الكتاب أكثر من غيره فى أدب القصة الحديثة هو رائعة جويس «Ulysses» **يوليسيس** ولقد كان جويس يعرف هذا تماما ، وان كانت رائعته تتدرج تحت كلاسيكية « أرسطو الجديدة » أى كانت أقرب الى **كورنى** عما هى أقرب الى ما قال به أرسطو بالفعل .

لقد قيل ان كتاب الشعر رسالة فى مدح سوفوكليس وهجوم على يوريبيدس ، كما قيل ان التراجيديا اليونانية الوحيدة التى تتفق والمواصفات التى نادى بها أرسطو هى مسرحية **سوفوكليس « أوديب الملك »** ، ورغم هذا فأوديب لا تتفق وجميع هذه المواصفات بل انها لتخرج على مواصفات أخرى أتت بكتاب الشعر . زد على هذا ، أن أرسطو يناقض نفسه فجأة فى هذه الجملة البسيطة التى تقول أن **يوريبيدس** هو أكثر كتاب المسرح تراجيدية . كما يقول ان أحسن التراجيديات تلك التى تنتهى نهاية سعيدة ، ان التركيز الأساسى فى البوطيقا ينصب على الحبكة (أو العقدة) Plot بيد أن كثيرا من المسرحيات اليونانية الباقية مسرحيات بلا حبكة شأنها فى هذا شأن مسرحيات تشيكوف .

أما الزعم الذى يقول بأن البطل التراجيدى يعانى ضعفا فى شخصه النبيل . وهذا الضعف يسمى عادة بال Hubris أى الكبرياء وهو الذى يودى به الى هاوية الشقاء والتعاسة — هذا الزعم لا ظل له عند أرسطو على الاطلاق ، وليس عنصرا مشتركا فى عقد أغلب ما تحت أيدينا من مسرحيات . وهل تثير الغالبية من التراجيديات لدى المتفرج احساسا بالخوف أو الرعب والشفقة



ماركس



هيجل

وهل مشاهدة المتفرج للتراجيديا يطهره من أدران هذه الانفعالات التى لا تروق للجتمع ؟ من الجلى أن هذا لا ينطبق علينا • وعلى كل ، فلن يفيدنا فى شىء أن نتدبر لهذه الكلمات اليونانية من معان بعيدة •

ان ما يعنيه أرسطو بال Katharthis هو نفس ما نعنيه نحن الآن عندما نقول Catharsis أى التنفيس أو التطهير • **فلم يكن موقف أرسطو من الفنون موقف الذى يعتبرها أسمى تعبير عن** الانسانية . **وانما كان يرى أنها تستخدم كنوع من الدواء يقى العامة والفلاسفة سر الانفعالات، ومن ثم شر الدوافع التى قد تخل بالنظام الاجتماعى** • فجماليات أرسطو جماليات طبية . والرأى الاخير الذى ينتهى اليه كتاب البويطيقا هو « ولسوف يشعر الحائرون والعاطفيون ومضطربو العواطف ـ بالتحسن ولسوف يستقيم سلوكهم بعد جلسة بكاء طويلة على مقاعد المسرح » . وهذا نوع من الجماليات يتفق وما يقول به اخصائيو الاطفال النفسانيون الذين يستأجرون لتبرير النزوات وجرائم القتل على شاشة التليفزيون • ولا توجد أية اشارة فى كتاب أرسطو الى أن التراجيديا حقيقية •

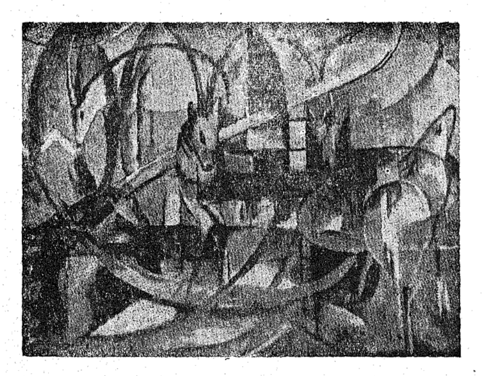
لقد كان من الممكن أن تكتب البويطيقا دون تغيير أساسى لو لم يكن أرسطو قد رأى أية من التراجيديات اليونانية • والتراجيديا الخيالية التى نستطيع أن نستخلصها من هذا الكتاب تتشابه والروايات التجارية التى نراها هذه الايام لسبب بسيط هو أنها اسقاط للذهن العادى ، الذى كان عندئذ مماثلا لما هو عليه هذه الأيام • انها من هذا الضرب من المسرحيات الذى كان بوسع أرسطو ن يكتبه لو توفرت له المواهب الواعية التى تتوفر لدى عامة الحرفيين ، لا عبقرية كعبقرية سوفوكليس وهى كذلك من هذا الضرب الذى يستطيع أن يكتبه أى باحث كفء ، سواء أكان فيلسوفا أكاديميا أو عالما فى الطبيعة أو فى علم الاحياء أو فى علم النفس فى أيامنا هذه •

لماذا اذن كتب أرسطو عن المأساة أصلا ؟ ان هذا يرجع الى ما كان لها من أهمية بالغة فى المجتمع الذى كان يعيش فيه • فنحن نعلم أن مسرحيات يوريبيدس كانت تعرض عشية الحقبة المسيحية فى أماكن نائية عن أثينا، على مشارف حدود أفغانستان وعلى شواطىء اسبانيا ، **لقد كانت التراجيديا هى الرياضة الشعبية عند اليونانيين ، مثلما كانت حلبات المبارزة والقتال رياضة الرومانيين المفضلة** • وليس هناك من شك فى أن التراجيديا أدت وظائف التربية الصحية الاجتماعية التى نسبها أرسطو اليها ـ وفى رأى الكثيرين أنها أدت هذه الوظائف على نفس النحو الذى قال أرسطو انها ستؤديها به ، ولكن غيرهم يرون أنها أدتها على أنحاء لم يكن فى استطاعة أرسطو أن يصل الى فهمها •

فرانس مارك
فنان
الرمزية السحرية

ماجدة جوهر

«إن لتفتيت الذرة في نفسي
أثر يضارع دمار العالم كله.»
ف. مارك



كان فرانس مارك فى الفترة المبكرة من انتاجه بين عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ يرى فى الفن النافذة التى يطل منها على أحلامه وسبيله الى الخلاص ٠٠

يقـول فى رسالة لأحـد أصدقائه كتبها سنة ١٩٠٦ :

« اننى أنتظر من فن الرسم أن يحررنى من الخوف الذى يتملكنى ٠٠ »

ويبدو أن الفن قد حقق له بغيته ٠ فهو يقول فى رسالة أخرى كتبها بعد تلك بعام :

« اننى الآن لا أرسم الا أكثر الأشياء بساطة ٠٠ ففيها وحدها يتمثل ما فى الطبيعة من عظمة ورمزية وأسرار ٠٠ »

بهذا يسير مارك فى نفس اتجاه الرومانتيكية الألمانية التى تبحث عن الكل فى أبسط الأشياء ٠٠ انه يتجه الى الغابة فيرى فيها مملكة السحر ومبعث الالهام ٠٠ وموطن الغموض والسحر الذى يحيا فيه عالم الحيـوان ٠٠ وهو يعبر عن نظرته هذه بقوله :

« كنت منذ شبابى البكر أرى القبح ماثلا فى الانسان ٠٠ بينما كان الحيوان يبدو لى اجمل وأنقى

ولكن هذه النظرة الجمالية لم تكن وحدها سبب هذا الاتجاه للغابة وسكانها ٠٠ بل يمكن ان يقال أنه وجد أن الحيوان لا يزال محتفظا بتلك الخواص الأولية والعضوية التى حال العقل بين الانسان وبين الاحتفـاظ بها ٠٠ **فقد كان هدف مارك أن يصور ما تمتع به الحيـوان من صفات النقـاء والقداسة** ٠ التى احتفظت بهـا كائنات الغابة لأنها لم تعرف الذنب ولم تدنسها الخطيئة ٠٠ رأى مارك الطريق لنقل هذه الصفات الى الفن فى العـودة الى الأشكال الكبيرة الواضحة مثـل الفرس والرنة والثور ٠٠لما تتميز به من ديناميكية أصيلة ٠٠ كما أسبغ صفات القداسـة والطهارة على النبات أيضا ٠٠ بل وأدرك فيهـا نوعا من التجانس الروحى والكيان المشترك **حتى كان يرى الكل متجسدا فى كل وحدة من وحدات الطبيعة** ٠٠ وهى نفس نظرة الرومانتيكية الالمانية كما سبق أن أشرنا ٠٠ بهذا يصبح فن الرسـوم هو أداة التعبير عن هذه الوحدة التى حاول مارك اظهارها فى لوحاته بمزج أشكال من الحيوان والنبات ٠ كما فى لوحتيه « **الحيوان والقـدر** » سـنة ١٩١٣ و « **الغزال فى الغابة** » سنة ١٩١٤ ٠٠ وكذلك فى سلسلة اللوحات الموجهـة « للأمير يوسف » (وهى الشاعره الزة لاسكرشولر) التى تعتبر خير مثال لشاعرية مارك واستعماله للون كأداة لاشباع الشكل ٠

الرمزية السحرية

كان اللون بالنسـبة لمارك الينبوع الشعرى الخصب الذى يستقى منه الخيال معينا لا ينضب وقد خصه مارك بدراسات متعددة وتناقش حوله كثـيرا مـع الفنـان أوجست ماجه الذى كان يقوم بأبحـاث مشـابهة فى نفس الموضوع ٠٠ والتقى الاثنان على رفض العودة الى الرمزية اللونية كما كانت تتصورها العصور الوسطى ٠٠ وضرورة اكتشاف الطريق « **للرمزية السحرية** » ٠٠ التى لا تخص كل لون بصفة معينة وانما تحاول أن توضح أين يقف هذا اللون أو ذاك من الارتباطات العقلية والروحيـة فى الحياة والكون ٠٠ **والمقصود** بهـذا هو علم الألوان الرمزى الذى يسـمح مثلا برسـم فرس أزرق ٠٠ وقد أصبح الفرس الأزرق بالفعل شعار مجموعة الفنانين التى كان يتزعمها الفنان **كاندنسكى** تحت اسم «**الفارس الازرق**» ٠٠ كمـا أن مـارك نفسه لوحة باسم « **برج الخيول الزرقاء** » رسمها سنة ١٩١٢ تعتبر من أقوى وأبرع أعمـاله بفضل الجلال الذى أسبغه على أشكالها وقوة خياله فى توزيع الألوان ٠٠ ويعبر مارك فى رسالة له فى ديسمبر سنة ١٩١٠ عن رأيه فى التأثيرات النفسـية للألوان بأنه يعمـد أولا الى تدوين ملاحظـاته فيـما يتعلق بمـزج الالوان ثم يدرس التأثير النفسى لكل منهـا ٠٠ ولـكن علينـا أن نحتـاط فى تطبيق طريقة تنـاوله للرموز تطبيقا حرفيا على أعماله ٠٠ ويكفى أن نعتبر هذه الرسالة مؤشرا نحـو الاتجـاه الذى سارت فيه أبحاثه فى سنة ١٩١٣ ــ أى قبل أقل من عام من نشوب الحرب التى لقى فيها حتفه فى موقعة فردان سنة ١٩١٦ ٠٠

النزعة الى التجريد

وعلم الألوان الرمزى هـذا ليس الا وجهـا آخر **من نزعة فرانس مارك الى التجريد** ٠٠ وهذه النزعة التى أخذت تدفع به الى استعمال تركيبات لونية شـديدة الجرأة ٠٠ وقد كانت محاولات كاندنسكى فى هذا المجال قبل ذلك بسنوات خير

مدرسة لفنانى « **الفارس الأزرق** » · حتى ان كثيرين منهم اتخذوا منه مثلا أعلى لهم ·· أما مارك فقد كان بجانب ذلك متأثرا كل التأثر بدلوناى · وكان له مكانه البارز فى جماعة التجريديين التى كانت ذات نشاط وفعالية فى ذلك الحين ·

اللون والزمن

وبمقارنة الاحساس بالكون عند مارك وعند كاندنسكى نجد أن فن الرسم يصبح عندهما نوعا من الشفافية ·· بل مجرد اهتزاز وتداخل بين بعض الألوان وبعضها الآخر ·· وهذا ما كان يعنيه مارك بقوله **ان كل ما يحدث ليس الا تحولا أو تفاعلا بين اللون والزمن** ·

واذا كان مارك قد تأثر بتقدم الفكر الفنى أقل بكثير من كاندنسكى ـ الذى هزه مبدأ تحلل المادة وأولى محاولات تفتيت الذرة هزا عنيفا ـ فذلك لأنه كان يجد فى هذا التطور الطبيعى المحتوم الذى يماثل خطوات تطوره هو فى مجال الفن ·· وأعماله الأخيرة التى أتمها فى سنى الحرب العالمية الأولى تمثل مرحلة تطور لها ما يقابلها فى التطور العلمى ·

فالشكل الواضح يتوارى لتأخذ مكانه خطوط مجردة ليست بحال خطوطه الواقعية وان كانت فى الوقت ذاته تخضع لتيار حركة متواترة ومنتظمة ·· وأسماء لوحات هذه الفترة تدل على أن الحيوان وان لم يكن قد اختفى تماما من أعماله قد تحول الى نوع سام من المخلوقات ·· فهو لا يظهر فى هذه اللوحات ككائن ذى أبعاد ثلاثة ، بل كقوة مجردة ، كما نرى فى لوحة « **ترسانة لعالم جديد** » أو « **اللحظة الساحرة** » أو « **حياة نباتية** » ·· أما سحر الغابة وروعتها فيظهران فى صورة أكثر شفافية وبعدا عن المادة ·· وكل هذا يدعونا الى التحسر على قمم الروحانية والابداع التى كان يمكن أن يصل اليها هذا الفنان الموهوب لو لم يرحل من عالمنا وهو دون السادسة والثلاثين من عمره ··

وقد حاول مارك فى كتاب له يسمى «**تخطيطات الجبهة**» أن يبسط رسم الحيوان الى خطوط يمكن التعرف فيها عليه ، كما يأخذ فيها الحيوان ذلك الطابع المطلق غير المحدد الذى ينقل الينا رائحة الغابة ويذكرنا بها ·· وقد استمر مارك فى السير فى هذا الاتجاه حتى وصل الى درجة أصبح فيها الشكل مجرد نسمة عابرة ليس لها أى ارتباط بأصلها المادى ·· وقد فعل مارك ذلك عن عمد ·· وعبر عن هدفه من ذلك بقوله :

« **يجب على الأشياء أن تصبح خالية من كل مقاومة تماما مثل الأثير** ·· »

وعندئذ تتحول الى مجرد قوة أو مادة روحية يكون منها العقل أشكالا مختلفة ذات ايحاءات مستمدة من أسمائها ·· ويعترف مارك فى تلك الفترة بأنه قد تحول بفعل قوة غريزية من الحيوان الى التجريد ·· ومع ذلك فقد بقى التجريد عنده كما كان عند كاندنسكى متحررا من سيطرة العقل ، **بل واعتبر أن تحرير الكائنات من الشكل المغلق المألوف يخلصها من ذلك السجن المادى ويجعل منها قوة مفتوحة على كل التيارات** ·· وكان ذلك فى نظره هو الطريق الى التغلب على غموض المادة ·· وقد عبر كاندنسكى عن هذه التغيرات بقوله :

« **كان لتفتيت الذرة فى نفسى**
أثر يضارع دمار العالم بأكمله ··
رأيت أعظم الأسوار تنهار فجأة ··
وأصبح كل شىء فى نظرى مهتزا ··
ضعيفا ·· مضطربا ·· لم يكن ··

ليدهشنى فى ذلك الوقت أن أرى حجرا يذوب أمامى فى الهواء ويختفى عن عينى ٠٠ »

لغز الطبيعة

لو تتبعنا تطور مارك الفنى لوجدناه يتجه شيئا فشيئا الى اعتبار الطبيعة لغزا يحاول فهمه والتقرب اليه والنفاذ الى سره ٠٠ **ولعلنا لا ننسى أنه كان يريد فى البداية أن يصبح من رجال الدين** ٠٠ ولقد وجد فى الرسم وسيلة أخرى للاتصال بالقوى الالهية ٠٠ وحاول أن يجسد فى لوحاته هذه القوى غير الملموسة وغير المنظورة ٠٠

هذه المحاولات التى بذلها فرانس مارك « **لتحويل غير المنظور الى منظور** » ـ والتى تعتبر الباعث الخلاق للفن الخيالى عامة ـ تأخذ فى فنه معنى أعمق وأكثر أصالة ٠٠ ولكن هذا التطور الذى صرفه عن الشكل ووجهه الى خدمة التعبير عن القوى غير المنظورة وتجسيدها والبحث عن الشفافية الكامنة فيها أدى الى خطر كبير أصبح يهدد الشكل ٠٠ فقد أعقبت المرحلة الطبيعية عنده مرحلة بنائية تحليلية (أى اعادة اكتشاف الخطوط الأساسيه) ثم تلتها مرحلة الشعر فى اللون كان يمكن أن يصل اليها هذا الفنان الموهوب لو فمرحلة اشباع الشكل بواسطة اللون : هكذا تشتت كل ما كان يحوط بالشكل ويشمله وأصبح اللون صاحب السيطرة بما يضفيه على الأشياء من رقة وشفافية ٠٠ هذا المظهر الذى تبدو فيه الغابة وقد تجرد من كل ماديتها ٠٠ وأصبح سكانها كائنات نورانية مشعة أو قوى مادية أولية التركيب ٠٠ فى مثل هذا المكان وجد فرانس مارك الاستقرار الذى بحث عنه طويلا ٠٠ وكان قد وصل فى هذه المرحلة الى معرفة « **المادة المتخيلة** » كما وصل الى الاقتناع بضرورة اضفاء جسم نورانى عليها ٠٠ وبذلك احتفظ مارك بالشكل وأمن على الطبيعة وعلينا من التحلل والضياع ٠

والغابة فى لوحات مارك توحى دائما بانطباع المكان المقدس البعيد عن قوى الشر ٠٠ انها خالية من الطابع الريفى على الرغم من وجود الحيوان فيها ٠٠ وأرواح الحيوانات على درجة كبيرة من النقاء والسمو ٠٠ ومع ذلك فهو لا يراها فى تلك الصورة فوق الواقعية وانما يحاول أن ينفذ ببصره الى نقطة الانطلاق بالنسبة للحيوان ذاته ٠٠ أى تلك النقطة التى يرى منها الحيوان نفسه ويتعرف منها على العالم المحيط به ٠

ولكن حتى ينجح هذا الانتقال وهذا التوغل المادى والمعنوى داخل نفس الحيوان ينبغى على الانسان أن يعرف الطبيعة الحيوانية تماما ويدرسها بدقة وعناية ٠٠ وقد جاءت دراسة مارك التحليلية لجسم الحيوان وحركته بين عامى ١٩٠٤ و ١٩١٠ بدافع من هذا الاقتناع حتى وصل فى النهاية الى درجة عالية من الكفاءة والدقة ٠٠ وبعد أن وصل الى هذه الدرجة من المعرفة العلمية أصبح فى استطاعته أن يتجه الى تطوير معرفته الداخلية وأصبح من الممكن تحقيق حلمه فى أن يتحد مع الطبيعة ويصبحا كيانا واحدا ٠٠ ولكنه لم يقف عند هذا الحد ٠٠ فكانت الخطوة التالية هى محاولة الوصول بالمادة الى الشفافية ٠ حتى لا تكون ماديتها عائقا فى وجه هذا التوغل العاطفى ٠٠ واستمر فرانس مارك فى سعيه الى الفناء فى روعة الخليقة والاتحاد بالروح الالهية التى تشمل الغابة وساكنيها ٠٠ متتبعا التحليل الهندسى للكائنات ـ ربما تحت تأثير ا لتكعيبة ـ سائرا بالشكل الى تركيباته الأصلية ٠٠

ولكن ماذا كان يعنى مارك بقوله ان هدفه هو رسم الفرس أو الغابة كما هما فى حقيقتهما ٠

مما لا شك فيه أن هناك ثلاثة أنواع من الحقيقة **هناك الحقيقة التى تنبعث من الارادة ، والحقيقة التى تربط بحواسنا وهناك أخيرا الحقيقة كذات مستقلة** ٠٠ هذه الحقيقة السحرية ٠٠ الأزلية المرتبطة بسر الكون ٠٠ هى التى عاش لها فرانس مارك وقضى كل دقيقة من عمره القصير فى خدمتها ٠

ماجدة جوهر

النتائج الاجتماعية للثورة التكنولوجية

ف . فاراكوف ، ى . المشتشينكو

ترجمـــــة : زكــــريا فهمى

● إن الثورة العلمية والتكنولوجية تمثل انتقالاً حاسماً إلى مستوى جديد للحرية ، بمعنى الضرورة التى يتحكم فيها الإنسان ويسيطر عليها ، على أن الإنسان لايزال حتى الآن غير حر فى مواجهة كثير من النتائج الاجتماعية المترتبة على الثورة العلمية والتكنولوجية

يمكننا أن نلاحظ بعضا من أبرز السمات المميزة للثورة العلمية والتكنولوجيه ، كما وكيفا، عندما نقارن هذه الثورة بتطور العلم والتكنولوجيا فى الماضى .

وأهم السمات الكيفية المميزة لهذه الثورة هى أن هذه أول مرة فى التاريخ تحدث فيها على وجه التحديد ثورة علمية وتكنولوجية . وليس المقصود بهذا مجرد الاتفاق فى الزمن بين الثورتين العلمية والتكنولوجية ، اذ ان مثل هذا الاتفاق قد حدث فى الماضى . اما الذى لم يحدث فهو تلك العلاقة المتبادلة الوثيقة والاعتماد المتبادل العميق بين التطور الحالى لكل من العلم والتكنولوجيا .

هذه العلاقات ذات شقين . فهى ، من ناحية، تتجلى فى أن كل الانجازات الكبرى التى حققتها التكنولوجيا الحاضرة تقوم على كشوف أساسية وثورية تمت فى العلوم الطبيعية ، حيث يتسع باطراد مجال الموضوعات العلمية التى تجد تطبيقا تكنيكيا ، ويقل الوقت اللازم للتطبيق التكنيكى للكشوف العلمية . **والواقع ان العلم يقوم اليوم بتمهيد الأرض لمزيد من التطور الثورى للتكنولوجيا ، ويشق طرقا جديدة للتقدم التكنولوجى .** ويمكن التعبير عن ارتفاع معدل تطور العلم بالنسبة الى تطور التكنولوجيا والانتاج ، من حيث هو سمة مميزة للثورة العلمية والتكنولوجية ، يمكن التعبير عن هذا



ف . لينين

بالصيغة التالية التى اقترحها العالم السوفيتى « ج . دوبروف » G. Dobrov $\frac{\text{ت أ}}{\text{ت ز}} < \frac{\text{ت ك}}{\text{ت ز}} < \frac{\text{ت ع}}{\text{ت ز}}$

حيث الرموز تبين صفات كيفية هى : ت = تطور ، ع = علم ، ك = تكنولوجيا ، أ = انتاج، وز = الزمن . على أن هذه الصيغة لا تحتوى الا على جانب واحد من جوانب السمات المميزة للثورة العلمية والتكنولوجية .

اما من الناحية الاخرى ، **فان الروابط بين العلم والتكنولوجيا تجلى في أن التقدم العلمى يقوم على أسساس القاعدة التكنيكية لصناعة الالات المعاصرة** . وقد أشار « لينين » الى أن « صناعة الآلات على نطاق واسع هى وحدها التى تؤدى الى تغير جذرى ، وتضرب بالمهارة اليدوية عرض الحائط ، وتحول الانتاج على أسس علمية جديدة ، وتطبق على نحو منظم المعطيات العلمية على الانتاج » .

واذا لم نضع فى اعتبارنا الدور الذى تلعبة صناعة الآلات وكذلك التسيير الذاتى (الأوتوميشن) للانتاج وكهربته فى التقدم الاجتماعى ، فلن نفهم جوهر الثورة العلمية والتكنولوجية ، التى تؤلف التحولات الجذرية فى العلم نفسه جزءا لا يتجزأ منها . والواقع أن من المهم بصفة خاصة أن نضع هذه النقطة فى اعتبارنا ، لأن التقدم الحديث يتميز بتصنيع العلم ، حيث يتحول عمل العلماء ، على نحو يزداد شيوعا باطراد ، الى ((**صور مختلفة من العمل الصناعى**)) . فبدون عدد كبير من المنشآت الحديثة،كمعجلات البروتونات والسيكلوترونات، والمفاعلات النووية ، وغيرها ، لا يمكن تطوير فيزياء الجسيمات الأوليه ، والفيزياء النووية ، ألخ . والتجربة العلمية لا تقوم فقط على استخدام منشآت ضخمة ومعقدة ، وهى منشآت لم تصبح اقامتها ممكنة الا فى المرحلة الحالية للتطور الصناعى ، بل تقوم أيضا على الصناعة .

والواقع ان الحدود التى لا تستطيع المعامل أن تتعداها تقيد التجربة العلمية فى حالات متزايدة العدد ، ومن ثم فهى تحتاج فى هذه الحالات الى أن تجرى على نطاق الصناعة ، بل على نطاق الكون بأسره . وهكذا فعلى الرغم من أن العلم فى تقدمه القوى السريع يسبق التكنولوجيا والانتاج ، فانه أيضا يظل خاضعا فى تطوره للسيطرة المباشرة لمقتضيات الانتاج والتكنولوجيا ويمكن التعبير رمزيا عن الدور الحاسم للانتاج والتكنولوجيا بالنسبة الى العلم على النحو التالى:

$$\left(\frac{\text{ت أ}^1}{\text{ت ز}} < \frac{\text{ت ك}^1}{\text{ت ز}} < \frac{\text{ت ع}^1}{\text{ت ز}} \right)$$

حيث أ تمثل الصفة الكمية للانتاج ، ك١ = للتكنولوجيا، ع = للعلم ، وز = الزمن ، وت = التطور .

وقد يبدو أن هذه الصيغة تنفى الصيغة التى سبق ذكرها والتى قدمها « ج . دوبروف » . ولكنهما فى الواقع لا ينفيان بعضهما البعض . فعلى حين أن الصيغة الأولى تكشف ان العامل الروحى متقدم على العوامل المادية ، وأن الجانب

الروحي مرتبط بالوظيفة المنتجة البناءة التي يقوم بها العقل الذي لا يفكر فقط في العالم ، **بل « يبدعه أيضـــا على نحـو مثـالي »** ــفان الصيغة الثانية تكشف الدور الحاســم الذي تلعبه العوامل المادية (الانتاج والتكنولوجيا) بالنسـبة الى العـامل الروحي **(التعلم)** • فكلا الصيغتين صحيح في آن واحد وفي نفس الوقت، وانما هما يكشفان فقط عن جوانب مختلفــة لتفاعل العوامل المادية والروحية • أما استبعاد كل من الصيغتين للأخرى فهو أمر ظاهري فحسب

والواقع أن الاعتراف بأن هذه المفارقةصحيحة هو أمر له أهمية في تشــكيل التقــدم العلمي والتكنولوجي وفي فهم جوهر الثورة العلميــة والتكنولوجية .

ومن البديهي أن عمليــة التفــاعل بين العلــم والتكنولوجيا لا تحدث على نحو منعزل ، بحيث تكون بمنأى عن تأثير العوامل الاجتماعية الأخرى. بل هي تخضع لتأثير النظام الاجتماعي ، والدوافع الاقتصــــاديه ، والحــروب ، الخ • على أن من المسلم به أن العمليات الثورية التي تحدث اليوم في العلم والتكنولوجيا متداخلة وتؤلف عمليــة واحدة تعرف باسم الثورة العلمية والتكنولوجيه •

هذه الثورة عملية عامة يسهم فيها ، على نحو أو آخر ، نظام العلم والتكنولوجيا بأسره • ومن الأوفق أن نمعن النظر في هــذه الخـــاصية عن طريق بحث عنصريها المكونين ، أعني بحث العلم والتكنولوجيا كل على حده ، لأنه على الرغم من وحدة تطورهما الثوري الراهن ، فان تغيراتهما الكيفية ذات طابع مميز •

فبالنسبة الى العلم ، يتجلى هذا الطابع في الأمور التـــالية : (أ) **تجدد مســـتمر للوقائع والمعلومات التي تتألف منها مادة العلم ، (ب) واقتحام مجالات جديدة كل الجـدة ، والـكشف عن قوانين الطبيعــة ، والوعي والمجتمــع على مســـتويات جديدة للمعرفة ،** (حـ) **وتغيرات جذريةفي منهجية البحث العلمي تتعلق باستخدام الأساليب الرياضية والسيبر نطيقية على نطـــاق واسع ، (د) وتضاعف معدل عمليات تفاضل وتكامل العلم ، واقامة نظــام موحد للمعرفة العلمية ،** (هـ) **وتصـــنيع العلم ، وتغيير قاعدته التـكنيكيــة • وهــكذا ، فان الثـورة العلميــة والتكنولوجية الحالية تشمل كل جوانب العلم ، وهذا ما يحدث فعلا في كل فروع المعرفة العلمية.**

أما في المجال التكنولوجي ، فان التغيرات الجذريه تشمل كل فروعه وجوانبه ، وتتميز بالآتي • (أ) تحول جذري في الاســـاس المادي للأجهزة والأنظمة الفنية المرتبطة باستغلال مواد جديدة كل الجــدة أو احــداث تغيير عميق في خواص المواد التقليدية ، (ب) واستغلال مصادر جديدة للطاقة ، وكذلك عمليات واشكال جديدة لحركة المادة ،(ج) وتغير كيفي في عناصر وبناء الأنظمة التكنولوجية المرتبطة بايجـاد تكنولوجيا خالية من الآلات ، وابتكار واستغلال أجهزة تحكمية وقياســــية ، (د) وتغيرات جذرية في الوظائف التي تؤديها الآلات : تشمل ادخال نظام التسيير الذاتي(الأوتوميشن)، وتحويل الوظائف ذات الطابع العقلي ، بدرجة تزداد دوما ، الى عمليات آلية .

ان الثورة العلميــة والتكنولوجيـــا قد شملت فعلا جميع المجالات الرئيسيه للحياة الاجتماعية ــ كالانتاج ، والنقل ووسائل الاعلام والمواصلات، وصحة الناس وظروف معيشتهم ، وهي تقوم، ناشطه ، باقتحام مجال الثقافة ، الفن ، الخ • على أنها أحدثت ، في المقام الأول ، تغيرات جذرية في طبيعة ، ومعدلات ، واتجاهات تطور العنصرين المكونين لها ، وهما العلم والتكنولوجيا .

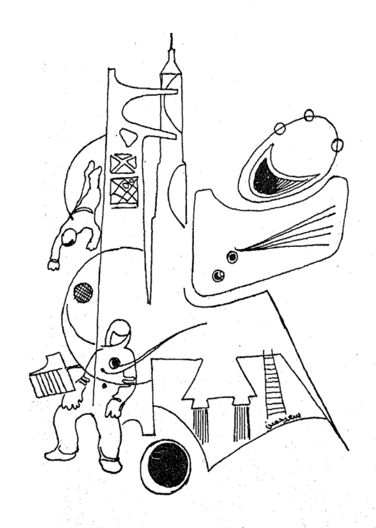
ولقد حدثت ، في العشرين أو الثلاثين ســنة الماضية ، طفره كيفية في تغيير الطــاقـه العلمية الكامنة للمجتمع • هذه الطفرة لا تتجلى فقط في الارتفــارع المطرد في عدد الباحثين العلميين ، والمهندسين ، الزراعيين ، الخ ، بل تتجلى أيضا في العلاقة المتغيرة بوضوح بين الفئات السابقة الذكر وبقية المشتغلين في الانتاج • فعلى حين أن عدد الباحثين العلميين في الاتحاد السوفيتي قد زاد في الفترة من عام ١٩٤٠ الى عام ١٩٥٠ من ٩٨ر٣٠٠ الى ١٦٢ر٥٠٠ شخص ، أي أقل من الضعف ، فان عددهم خلال العقد التالي تضــــاعف أكثر من مرتين ، حيث وصــل الى ٣٥٤ر٢٠٠ شخص . أما التضــاعف التالي في عدد الباحثين العلميين فقد تم فعــلا في ظرف ست سـنوات ، فوصــل بحلول عام ١٩٦٦ الى ٧١٢ر٤٠٠ شخص . ومن الصعب أن نتنبأ الى أي زمن سوف يستمر هذا المعدل الذي يزيد به عدد الباحثين العلميين . على أن من الواضح أن هذه الزيادة لا يمكن ان تستمر ، والا لتعين أن يتضاعف عدد العلماء في خلال فترات تزداد قصرا باطراد ، مما يؤدي ، سريعا، الى استيعاب جميع سكان الدولة في مجال الأنشطة العلمية .

والتقدم العلمى والتكنولوجى يؤدى الى اختفاء بعض المهن وظهور مهن جديدة . فقد تميزت العقود الزمنية التى تلت الحرب بزيادة كبيرة فى عدد المتخصصين فى السيبر نطيقا،والصناعات الذرية ، وتصميم وانتاج أجهزة الفضاء ، وصناعة الصواريخ ، ومولدات الاشعاع المغنطيسى الكهربى ، الخ . وقد أدى التسيير الذاتى للانتاج ، وحده ، الى ظهور أكثر من عشرين تخصص جديد . كل ذلك سبب زيادة لم يسبق لها مثيل فى الحاجة الى الافراد العلميين والفنيين .

وقد أدت الثورة العلمية والتكنولوجية الى وعى عميق بالدور المتزايد الذى يلعبه العلم فى المجتمع ، فارتفع بذلك توجيه العلم وتعليم الأفراد العلميين الى مستوى سياسة الدولة . وفى هذا الصدد قال رئيس اكاديمية العلوم السوفيتية : **ان العلم يتحول فى أرجاء العالم الى جانب من جوانب نشاط الدولة . وهذه هى السمة الجديدة التى اكتمل ظهورها بعد الحرب العالمية الثانية .. وعلى حين أن الاتحاد السوفيتى كان الدولة الأولى التى ظهر فيها تنظيم الدولة للعلم ، فإن جميع الدول حذت حذوه تدريجيا ، ليس فقط الدول الاشتراكية ، بل أيضا الدول الرأسمالية المتطورة)) .**

ومما له دلالته أن احتياجات الثورة العلمية والتكنولوجية من المشتغلين بالأعمال الذهنية تواجه فى ظل النظام الرأسمالى على نحو متناقض . فالدول الرأسمالية تعمل ، من ناحية، على الاسراع بتكوين رصيد من الخبراء من بين أبنائها ، وتقوم ، من ناحية أخرى ، باستغلال موارد الثروة العقلية للدول الأخرى . وقد أصبحت الولايات المتحدة مقرا لشكل غريب من اشكال الاستعمار فى مجال التقدم العلمى والتكنولوجى – ففى الفترة من عام ١٩٦٢ الى عام ١٩٦٤ وحدها ، هاجر الى الولايات المتحدة من أوروبا الغربية ٦٥٢٩ مهندسا وباحثا علميا ، منهم ٢٦٦٩ من بريطانيا ، و ١١٣٠ من ألمانيا الاتحادية ، و ٣٩٨ من سويسرا ، الخ .

وتوضح البيانات غير الكاملة أن ٥ ٪ من العلماء والمهندسين المستخدمين حاليا فى الولايات المتحدة ، و ١٧ ٪ من اعضاء أكاديمية العلوم القومية الأمريكية ، تلقوا تعليمهم خارج الولايات المتحدة . ولم تلاحظ **((هجرة العقول))** على هذا النطاق من أوروبا الى الولايات المتحدة الا خلال الحكم النازى فى المانيا .



وهكذا ، فان استغلال موارد احدى الدول بواسطة دولة أخرى تخضع للنظام الرأسمالى يؤدى أيضا الى صور جديدة من التناقضات الاجتماعية • وقد لاحظ لينين ذلك عندما كتب عن تطور المجتمع البورجوازى فى ظل التقدم التكنولوجى ، فقال : ((**ان هذا التقدم ، شأنه شأن التقدم الذى تحرزه الرأسمالية فى كل ميدان آخر ، يكون مصحوبا ، بتقدم ، التناقضات. أعنى رسوخها واتساعها** •))

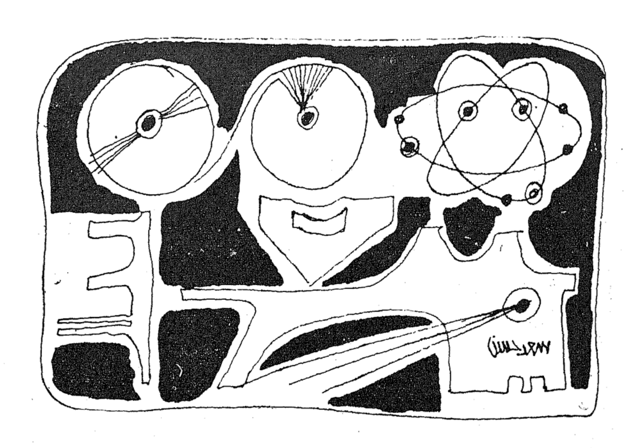
اما فى ظل النظام الاشتراكى فان الاقتصاد المخطط يراعى التحكم فى التغيرات التى تحدث فى نمط الأفراد المشتغلين بالعلم والتكنولوجيا، بحيث يكون من مهام هذا الاقتصاد المخطط الاستفادة على أحسن وجه من المزايا التى تتفوق بها الاشتراكية على الرأسمالية .

ان بناء العناصر الذاتية المكونة للقوى المنتجة يتغير بفعل الثورة العلمية والتكنولوجية ، أعنى أن هناك تغييرا فى التركيب الاجتماعى للأفراد المرتبطين بالانتاج ، كما أن هناك ، كما رأينا ، زيادة مطلقة ونسبية فى عدد المشتغلين بالأعمال الذهنية فى مجال الانتاج (من علماء ، ومهندسين، وفنيين ، وزراعيين ، وخبراء فى تربية الحيوان ، الخ) . وهكذا، نجد ، فى الاقتصاد القومى السوفيتى ، أن عدد العاملين المشتغلين أساسا بالعمل الذهنى قد ارتفع من ٢٫٨٨٠٫٠٠٠ فى عام ١٩٢٦ ، الى ١٣٫٨٢١٫٠٠٠ فى عام ١٩٣٩ ، فالى ٢٠٫٤٩٥٫٠٠٠ فى عام ١٩٥٩ ، ثم الى ٢٧٫٣٦٠٫٠٠٠ شخص فى عام ١٩٦٧ . كذلك حدث تغير واضح فى النسبة بين المهندسين وغيرهم من الأفراد الفنيين من ناحية ، وبين العمال من ناحية أخرى، حيث تزايدت نسبة الفئة الاولى. كما أن عدد العاملين فى حرف جديدة تقتضى مهارة عالية يزداد باستمرار • هذا فضلا عن أن مستوى التعليم العام للطبقة العاملة يرتفع باطراد •

ان التغيير فى القاعدة التكنيكية للانتاج ، وفى طبيعة العمال ، والمهارة الحرفية ، الخ ، شرط ضرورى لازالة الفروق الضخمة الموجودة بين المشتغلين بالأعمال الذهنية والمشتغلين بالأعمال اليدوية ، والناجمة عن التسيير الذاتى للانتاج. فعلى حين أنه لم يكن يوجد فى سنوات ما قبل الحرب الابضعةخطوط تحويل ذاتية(أوتوماتيكية) وشبه ذاتية فى فروع معدودة من فروع الصناعة الهندسية فى الاتحاد السوفيتى ، فقد أصبح يوجد فى هذا البلد بحلول عام ١٩٦٧ ، حوالى ٥٠٫٠٠٠ خط تحويل مجهز بالمعدات الميكانيكية وذاتى التسيير ، كما أن ما يربو على ٦٫٠٠٠ خط من هذه الخطوط يجرى انشاؤها سنويا . ويجرى ، فى نفس الوقت ، ادخال تحسينات على حوالى ١٠٪ من الخطوط العاملة لتتمشى مع مقتضيات العمليات التكنولوجية الحديثة فى الانتاج .

والواقع أن توافق الناس مع الظروف الجديدة التى تفرضها الثورة العلمية والتكنولوجية ــ وأعنى بها ميكنة الانتاج وتسييره ذاتيا ــ عمل هام . هذا العمل يؤدى فى الاتحاد السوفيتى على أساس خطط التنمية الاقتصادية التى تضعها الدولة ، والتى تقضى بتعليم أخصائيين جدد عن طريق نظام المؤسسات التعليمية العليا والثانوية ، وتوسيع نطاق التعليم الفنى المنوع فى المدارس ، والتدريب المهنى ، الخ . ومن العوامل الرئيسية فى انجاح هذا العمل ، وضع خطة تطوير اجتماعى للأفراد العاملين فى كل مشروع على حدة • هذا التخطيط يحدد الشروط اللازمة لازالة الفروق الضخمة بين المشتغلين بالأعمال الذهنية والمشتغلين بالأعمال اليدوية (ميكنة العمليات المستنفدة للجهد ، واستبعاد العمل اليدوى الشاق ، وتحسين التدريب الفنى والتعليم العام ، ألخ) . وهذا يجعل فى الامكان مراعاة خصائص التقدم الفنى فى كل مشروع على حدة . وقد وضعت بالفعل خطط للتطوير الاجتماعى ، ويجرى تطبيقها فى عدد كبير من المشروعات المقامة فى أرجاء الاتحاد السوفيتى .

لقد أصبحت نظرية ((**الثورة الصناعية الثانية**)) واسعة الانتشار بين الأيديولوجيين الغربيين فى الخمسينات من هذا القرن . وتزعم هذه النظرية ان الثورة العلمية والتكنولوجية تقوم ، تلقائيا ، بتحويل الرأسمالية الى مجتمع جديد خال من تناقضاته السابقة ، وتؤدى الى خلق حضارة جديدة فمثلا ، يعتقد ((**هربرت ماركيوز**)) أن الثورة التكنولوجية ، باستغنائها عن العمل المسير بالآلات والقوى البشرية والاستعاضة عنه بالعمل المسير ذاتيا ، تؤدى حتما الى ((**قلب المجتمع بأسره**)) ثم يتم بعد ذلك التحول الى حضارة جديدة • كذلك فاءن نظرية ((**المجتمع الصناعى الواحد**)) (**ر . آرون** R. Aron ، **و و . روستو**



W. Rostow ، وآخرون) تقترب من هـــذا الرأى . هذه النظرية يلجأ اليهـــا للتدليل علي وجود تقارب بل ((**وحـدة فى الاتجاه**)) **بين** الرأسمالية والاشتراكية . ويمكن العثـور على وجهات نظر مشابهة فى مؤلفات « **جان فوراستيه** » Jean Fourastié ، وهو عالم اقتصاد فرنسى يزعم أن « **الدول الشرقية والدول الغربية** تبنى نفس البيت » .

هذه المفاهيم التى انتقدها بتفصيل عدد من الباحثين الماركسيين تنظر الى الدور الذى يلعبه التقدم التكنولوجى نظرة من جانب واحد بطريقة مبالغ فيها ، فتجعله مرادفا للتقدم الاجتماعى . فهى تتجاهل السمات المميزة للعلاقات الاجتماعية والاقتصادية السائدة ، وتنفى الحاجة الى تحول ثورى للمجتمع ، وأخيرا ، تؤيد الفكرة القائلة أن النظام الرأسمالى منيع ولا يمكن هدمه .

أما المؤلفون السوفيت فانهم يبحثون العلاقة بين الثورة العلمية والتكنولوجية والثورة الصناعية بطريقة ايجابية . فهم يرون أن الأمر يتعلق أولا بمفهوم الثورة الصناعية ذاتها . من هذا ، مثلا ، أن أ . **دفوركين** I. Dvorkin يرى أن الثـــورة الصناعية تدل على انقلاب فى علاقات الانتاج ، على حين أن التكنولوجيـــا الجـــديدة ليست الا شرطا ضروريا وأساسا لهذا الانقلاب .

كذلك تعرض الثورة الصناعية فى المؤلفـــات الشائعة على أنها آخر مراحل الثورة العلمية والتكنولوجية ، والمقصود بذلك الحالة التى يبدأ فيها الانتاج المسير ذاتيا فى الحلول ، كيفيا ، محل الانتاج المصنعى المسير بالآلات . وتؤكد هـــذه المؤلفات فى نفس الوقت أن الانقـــلاب العلمى والتكنولوجى سوف يتبعه انقلاب انتاجى مقترن بانفصام على أكبر درجة من العمق للعلاقات الاجتماعية فى الانتاج ، كذلك ســـوف يتبعه اندماج نهائى لمختلف الأفراد الذين يسهمون فى الانتاج ، واســـتبعاد لكل العمال غير المهرة ، واقامة مســـاواة اجتماعية كاملة لجميع أفـــراد المجتمع .

وثمة رأى آخر يقدم على أساس أن الثورة العلمية والتكنولوجية هى ، فى نفس الوقت ، ثورة صناعية . وعلى الرغم من أن هذه المفاهيم

ليست متطابقة ، فانها يمكن مع ذلك أن تعد من نفس المرتبة ، اذ أنها تعكس الانقلاب في الأساس التكنولوجي لعملية الانتاج . ونذكر على سبيل المثال أن العالم السوفيتي « ج . يبيسكو بوسوف » . G. Yepiskoposov

لا يدرج ضمن الثورة الصناعية الانقلاب في نظام العلاقات الاجتماعية في الانتاج .

والمعروف بصفة عامة أن نقطة بداية الثورة الصناعية التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانت خروج انتاج الآلات الى حيز الوجود . فقد أدى استخدام الآلات الى تغيير الأسلوب التكنولوجي الخاص بربط الانسان بوسيلة العمل ، وادى في نفس الوقت الى ارتباطات اجتماعية جديدة خاصة بعمليات الانتاج ، والى تغيير البناء الطبقي للمجتمع ، وتقسيم العمل وفصم جذري للعلاقات الاجتماعية في الانتاج . وقد أشار لينين في كتابته عن السمات المميزة للثورة الصناعية الأولى الى أنه في عهد جان سيسموندي « بدأ ذلك التغيير الشديد والفجائي لكل العلاقات الاجتماعية بفعل الآلات (لاحظ أنه يقول : بفعل صناعة الآلات ، لا بفعل الرأسمالية بصفة عامة ، وهو التغيير الذي يعرف في علم الاقتصاد باسم الثورة الصناعية » .

والثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة تغير الأساس التكنولوجي للانتاج وكذلك نمط القوى المنتجة للمجتمع . هذا التحول يرتبط قبل كل شيء بالتسيير الذاتي ، مؤديا ، على نحو ما ، الى تحرير الانسان والآله معا من القيود التي تفرضها قدرات الانسان السيكولوجية والفسيولوجية . ولا تنفصم الروابط بين الانسان والآله ، الناتجة عن التسيير الذاتي للانتاج ، بل تكتسب أشكالا أكثر مرونة ، أعني أن تغيرات تحدث في الأسلوب التكنولوجي لربط الانسان بوسيلة العمل . هذه التغيرات تقترن ، بدورها ، بتغيرات في الترابط الاجتماعي الخاص بعمليات الانتاج ، وتؤدي الى تحول قاطع في تقسيم العمل ، كما تؤدي الى عناصر جديدة من الناحية الكيفية في العلاقات الاجتماعية في الانتاج . هذه التغيرات تتجاوز نطاق الثورة العلمية والتكنولوجية ، ولا يمكن أن تعد مظاهر ثانوية لها ، ولعل من المناسب هنا أن نشير الى أن التغيرات التي تحدث في الأساليب التكنولوجية للانتاج ، والتي تتجاوز نطاق الثورة العلمية والتكنولوجية ، انما هي أحد العناصر الحاسمة في الثورة الصناعية التي تحتم حدوث انقلاب جذري في نظام العلاقات الاجتماعية في الانتاج.

وعندما نتحدث عن حدوث انقلاب جذري في العلاقات الاجتماعيه في الانتاج ينبغي ان نضع في أذهاننا ان حجم هذا الانقلاب يتحدد ، الى مدى كبير ، وفقا لنظام العلاقات الاجتماعيه القائمة برمته . ومن هنا فان الثورة الصناعية الأولى بدأت بعد الثورة الاجتماعية . ففي بريطانيا ، مثلا ، نجد أن الثورة البورجوازية التي حدثت في القرن الثامن عشر قد وقعت قبل ظهور الثورة الصناعية . ولهذا ينبغي ألا نسلم بظهور علاقات الانتاج الراسمالي بصفة عامة نتيجة الانفصام الجذري للعلاقات الاجتماعية في الانتاج خلال فترة الثورة الصناعية التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ذلك لأن ظهور هذه العلاقات يرتبط بتغيير أسلوب الانتاج ، ويعني ، قبل كل شيء ، تعجيل التحول الاشتراكي للانتاج ، ويخضع لتأثير انتشار تكنولوجيا الآلات ، وفصم العلاقات الاقتصادية التي كانت لا تزال قائمة الى حد معين بعد الثورة البورجوازية ، والتي كانت ، حسب تعبير ماركس ، متفقه مع قاعدة الانتاج التكنيكية المحافظة ، ومع انتاج الصناعات التحويلية ، وكذلك مع الانتاج في مراكز منعزلة نسبيا ومرتكزة على اقتصاد طبيعي . وقد أدى فصم العلاقات الاجتماعية في الانتاج الى تمكين الثورة الصناعية الأولى من المساعدة على حدوث المزيد من التن في الرأسمالية .

وفي راينا أن الثورة الصناعية المعاصرة ، على خلاف الثورة الصناعية الأولى التي بدأت عملية التحويل الاشتراكي للانتاج ، تقوم بخلق الظروف اللازمة لاتمام هذه العملية . وهذا يؤدي الى زيادة حدة التناقض الأساسي المميز للرأسمالية ، أعني التناقض بين الطبيعة الاشتراكية للانتاج وأسلوب التملك الخاص . ومع ذلك ، فاءن البناء الاجتماعي الاقتصادي والبناء الطبقي للمجتمع يتعرضان ، حتى في ظل النظام الرأسمالي ذاته ، لتغيرات تتبع التغيرات في العلاقات التكنولوجية للانتاج وتعميق الطبيعة الاشتراكية للقوى المنتجة . وتتجلى الطبيعة الاشتراكية للقوى المنتجة في أمور من بينها تركيز

راس المال المالى ، واقامة احتكارات ، واتحادات كبرى ، الخ . وهذا هو السبب الذى نعتقد من اجله أن من الصواب ان نتحدث عن أن الثورة الصناعية تحدث أيضا فى الدول الراسمالية المتطورة .

على أن الثورة الصناعية لاتسير فى ظل الرأسمالية حتى منتهاها ، ولا تؤدى الا الى تمهيد الظروف المادية والتكنيكية لانتصار الاشتراكية . اما فى ظل النظام الاشتراكى ، فاءن تغيير الأسلوب التكنولوجى للانتاج القائم على الثورة العلمية والتكنولوجية لا يصادف مقاومة من جانب علاقات الانتاج الجديدة ، ويؤدى الى تكوين نمط جديد للقوى المنتجة ، وتحول كيفى لنظام العلاقات الاجتماعية فى الانتاج بأسره ، ويؤدى فى النهاية الى الأسلوب الاشتراكى للانتاج .

ومن النتائج الأساسية للثورة العلمية والتكنولوجية ذلك التناقض ، الذى يلاحظ فى الوقت الحاضر ، بين البيئة المصطنعة التى اوجدها المجتمع لمنفعة الانسان ، والبيئة الطبيعيه التى لم يوجدها الانسان ولكنه يستغل مواردها المادية . فهناك ، من ناحية ، القدرة المتزايدة للقوى المنتجة الناجمة عن الثورة العلمية والتكنولوجية التى تهيىء الظروف اللازمة لايجاد مستوى عال للراحة واليسر فى حياة الانسان اليومية (من اسكان مريح ، وملابس أنيقة وأثاث فاخر ، ومرافق نقل سريعة ، ووسائل عامة للمواصلات ، ألخ) . ومن ناحية أخرى ، فان نفس القدرة المتزايدة للقوى المنتجة تزيد دورة المادة والطاقة بين الطبيعة والمجتمع ، وتسهل استغلال وتغيير سطح القشرة الأرضية على نحو أكثر فعالية ، وكذلك استغلال الأوساط المائية والهوائية ، مما يؤدى فى كثير من الأحيان الى اختلال التوازن المستقر بين العمليات الطبيعية التى تهييىء الظروف المثلى لحياة المجتمع البشرى ، والأنشطة الحيوية للكائن البشرى . وثمة ناتج ثانوى جديد للثورة العلمية والتكنولوجية هو التلوث الاشعاعى للجو ، وبعض أجزاء الأرض ، والبحار والمحيطات ، وهو التلوث الذى يتكرر بين الحين والحين . ولهذا كانت الحاجة ماسة ، فى المرحلة الحالية للثورة العلمية والتكنولوجية ، الى اتخاذ تدابير معوضة ، تبطل تأثير النواتج الثانوية للتقدم التكنولوجى فى الظروف الطبيعية . لذلك فان وقاية الموارد الطبيعية ينبغى الا تصبح فقط مبدأ لتدبير الاقتصاد على نطاق قومى ، بل ينبغى أيضا ان تصبح موضوعا لتعاون دولى واسع النطاق .

والى جانب التفاؤل بالنسبة الى ما يرجى فى مجال التحولات الاشتراكية ، وما تهيئه هذه التحولات من فيض من القيم المادية والروحية، تظهر أيضا مخاوف تتعلق بطرق استخدام منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية . ذلك لان الاستغلال الطائش لقوى الطبيعة ، بعد السيطرة عليها ، يمكن أن يؤدى الى دمار لا نظير له . وهذا يعنى أن الأمم والحكومات تقع على عاتقها اليوم، أكثر من اى وقت مضى ،مسئولية أكبر بالنسبة الى مصير الأرض ، واستخدام الكشوف العلمية والتكنولوجية التى تحققت نتيجة عبقرية الانسان.

ان الثورة العلمية والتكنولوجيه تمثل انتقالا حاسما الى مستوى جديد للحرية بمعنى الضرورة التى يتحكم فيها الانسان ويسيطر عليها على ان الانسان لا يزال حتى الان غير حر فى مواجهة كثير من النتائج الاجتماعيه المترتبة على الثوره العلمية والتكنولوجيه . وهذا يدل على أن سمات التقدم العلمى والتكنولوجى (بما فيها نتائجه السلبية) لم تدخل بعد كلها فى نطاق تحكم الانسان . وهذه النتائج السلبية تصبح أسبابا تؤثر ، بدورها ، فى التقدم العلمى والتكنولوجى وكذلك فى الظروف الاجتماعية والمعيشية للناس . على ان تحكم المجتمع فى هذه الاسباب لم يتعد بعد أولى مراحل معرفه هذه الأسباب .

ان الحرية الكاملة لا تنشأ الا عندما تصبح جميع نتائج التاريخ الاجتماعى واسبابه خاضعه لسيطرة الانسان . هذه الحالة الاجتماعية لا يمكن ان تتحقق فى ظل الرأسمالية . ذلك لأن الاشتراكية هى وحدها التى تفتح الأبواب على مصراعيها لامكان السيطرة الكاملة ، ليس فقط على تطور الثورة العلمية والتكنولوجية ، بل أيضا على النتائج الاجتماعية المترتبة على هذه الثورة . هذه السيطرة تعنى قفزة للبشرية من عالم الضرورة الى عالم الحرية .

رسالة من امريكا

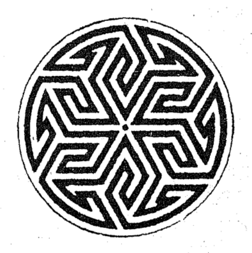
الحركة الفكرية المعاصرة فى كاليفورنيا

د. جمال الدين الرمادى

قرأت فى مجلة الفكر المعاصر ترجمة **الدكتور امين العيوطى** لهذا البحث القيم الذى كتبته السيدة **عفاف لطفى السيد** عن الحركة الفكرية فى القرن الماضى ، والبحث يدل على جهد كبير واطلاع واسع فى الكتب والمراجع العلمية عن هذه الحقبة من التاريخ كما أن الترجمة تدل على قدرة وبراعة (*)

والسيدة **عفاف لطفى السيد** هى كريمة أستاذ الجيل **احمد لطفى السيد** وتقوم بالتدريس فى جامعة كوليفورنيا بلوس انجلوس حيث يحظى والدها رحمه الله برعاية خاصة فى الدراسة والبحث والمحاضرة .

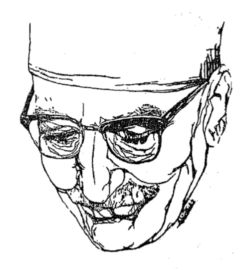
والسيدة عفاف هى احدى الباحثات فى ميادين الثقافة العربية فى كاليفورنيا ، وهى تنتمى الى مركز دراسات الشرق الأدنى فى الجامعة المذكورة ويشرف على المركز العلامة الكبير **الدكتور جوستاف فون جرينبوم** وهو مستشرق نمساوى الأصل كان يعمل أستاذا بجامعة شيكاغو ثم استدعى لتأسيس المركز فى جامعة كاليفورنيا عام ١٩٥٧ ، حيث بذل جهودا عظيمة فى تدعيم




توفيق الحكيم

بنيانه وتوطيد أركانه ومساهمته فى ميادين الفكر العالمى ، ونشرعدة مؤلفات عن الاسلام والأعياد المحمدية كما ناقش فكرة العروبة فى كتبه ودعوة القومية العربية ، وتعرض للحركة الفكرية فى العالم العربى ومؤلفات **طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم** ، وقد تعرض لتراث العرب الفكرى وناقش قيمة هذا التراث فى حصيلة الفكر العالمى ، ووضح أثر **الجاحظ والمتنبى وابن المقفع** وغيرهم فى اجراء جداول جديدة تخصب الثروة الفكرية العربية ، كما وضح أثر الفكر الفارسى على الأدب العربى فى العصور العباسية ، وكيف ظهر تيار الحكمة الفارسية ، وتيار الحكمة الهندية ، وتيار الفكر اليونانى والرومانى وكيف التقت هذه التيارات المختلفة مع تيار الفكر العربى الأصيل فنشأ عن ذلك كله نهر عذب سلسبيل يروى العقول والقلوب جميعا . ولم يلق **جوستاف فون جرينيوم** العالم الكبير صفحا عن أثر الاسلام فى تكوين الفكر العربى فقد استطاع الانسان أن يحيا به حياة صحيحة واستطاع أن يفكر به الانسان تفكير سليما واستطاع أن يحيا به الانسان حياة نظيفة قويمة ، فهو دين يخاطب العقول والقلوب جميعا ولا يلجأ الى الاستهواء والحجج الخطابية الكاذبة والأساليب السفسطائية المنمقة ، كما ذكر الدكتور جوستاف جرينيوم **أن الحياة فى نظر الاسلام غدت وسيلة الى الدار الاخرى ، ولم تعد غاية فى ذاتها ولن تزر وازرة وزر أخرى ، ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ، والاسلام بعد هذا كله بل قبل هذا كله يعمل على تطوير المجتمع واصلاحه وهذه فضيلة كبرى من فضائله ، وحسنة عظمى من حسناته ، فهو لا يتعارض مع التطور ولا يتناقض مع الاصلاح .

وليست مؤلفات العلامة جوستاف فون جرينيوم هى كل حصيلة الفكر العربى فى كاليفورنيا انما هيمن جرينيوم على حركة فكرية واسعة النطاق فى مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا وأشرف على اصدار مجموعة من الأبحاث النافعة فى هذا الميدان ، ومن ذلك البحث الذى نشره **الدكتور اسكندر بدوى** عن خطط الهندسة المعمارية الفرعونية والدكتور بدوى قد استوطن كاليفورنيا منذ فترة طويلة حيث يساهم فى نشر بعض المؤلفات عن تاريخ مصر القديم وحضارة الفراعنة باللغة الانجليزية كما أصدر



ع . العقاد

المركز كتاب **والتر فيشل** Walter Fischel عن **ابن خلدون** في مصر ، وقد وضح في هذا الكتاب اتصالاته الفكرية وارتباطاته السياسية وأعماله التاريخية ، (١٣٨٢ ـ ١٤٠٦ م) وكتاب **كليمنت هنرى مور** عن تونس منذ الاستقلال وقد نشره المركز عام ١٩٦٥ كما نشر المركز كتاب : الدورة المادية في الدولة الزهيرية **لمحمد بن محمود ابن سمرى** (١٣٨٩ ـ ١٣٩٧ م) باللغة العربية في مجلد والترجمة الانجليزية في مجلد آخر ، كما نشر المركز كتابا عن الحركة الشيوعية في ايران بقلم **شفرزابيه** Sepher Zabih كما نشر كتابا عن الدين والسياسة في ايران ، وكتاب آخر عن العرب بقلم **آرنولد هوتنجر** Arnold Hottinger وكتاب عن الاصلاح الاسلامى كما تزعمه **الامام محمد عبده ورشيد رضا** وغيرهما من أعلام الفكر الاسلامى أما مؤلف الكتاب فهو **مالكولم كير** Malcolm Ker ونشر المركز أيضا كتابا عن الثورة الارمينية كما نشر كتابا عن القومية العربية جمعته Sylvia Haim وغير ذلك من الكتب والبحوث والدراسات التى تتناول الشرق الأدنى ودول افريقيا ، غير أن دول افريقيا الآن أصبحت ذات وضع خاص ، وانشىء مركز للدراسات الافريقية في جامعة كاليفورنيا ، يقوم بعمل محاضرات متنوعة عن القارة الافريقية وقد استدعى للمحاضرة فيه عدد كبير من أدباء وعلماء الجزائر وتونس والمغرب كما يصدر المركز مجلة أنيقة قيمة تسمى فنون افريقيا . حيث تخصص قسما منها للدراسات باللغة الانجليزية وقسما آخر للدراسات باللغة الفرنسية ، وهى مع اهتمامها بالفنون من نقش ورسم وتصوير ، ونحت ، وفنون مكتبية تهتم بالدراسات الأدبية وقد نشرت عدة بحوث عن السينما في مصر كما نشرت عدة ترجمات من روائع الشعر الافريقى .

والرسائل الجامعية التى اضطلع بها مركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا تحت اشراف الدكتور جرينيوم عديدة ومتنوعة ، ومن ذلك البحث الذى قدمته السيدة **كلودنراس اودبرت** عن أسلوب الدكتور طه حسين ، وقد قدمت رسالتها للحصول على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٢ وأشرف على الرسالة الجامعية الدكتور جرينيوم ، وتناولت فيها الباحثة أسلوب أديبنا الكبير بالبحث والتحليل وقارنته بأساليب الأدباء العالميين ، وبينت وجوه الجمال في أسلوبه ووجوه الروعة في بيانه ، وقد قدمت رسالتها باللغة الفرنسية وصاحبة الرسالة تعمل الآن في وظيفة أستاذ مساعد بجامعة «اكس» في جنوب فرنسا ، وقدم الأستاذ **دوجلاس رودى** رسالة عن نظام الملكية الريفية في الجزائر بين عامي (١٨٣٠-١٨٥١) وحصل الأستاذ رودى على درجة الدكتوراه بهذا البحث كما حصلت السيدة **سميرة يوسف** وهى سيدة فلسطينية المولد برسالتها الجامعية عن الحكيم « ابن بطلان » على درجة الدكتوراه ، ويقول



ن . محفوظ

الدكتور جوستاف أن صاحبة هذه الرسالة وصفت فيها الطب لمن لا يحضره حكيم كالرهبـــان الذين يعيشون فى أماكن نائية بعيــــدة عن العمران ، أما الدكتور **صلاح الدين سليم حسن** فانه قدم رسالته الجامعية عام ١٩٦٤ عن بعثة « كرين » لى فلسطين ، وكرين هذا كان سياسيا أمريكيا رأس البعثة الدولية الى فلسطين فى أعقاب الحرب العالمية الأولى كما قدم ، « مردين جافيتس » رسالته عن السلطان عبد الحميد ١٨٨٠ ــ ١٨٩٦ وهنـــاك عدد كبير من الرسائل الجامعية التى نوقشـــت ولا يزال بعضها الآخر تحت الفحص والدراسة .

والدكتور جوستاف فون جرينيـــــوم أديب ذواقة قرأ الأدب العربى الحديث ، كما يطلع على شتى المجلات الثقافية ومنها مجلة « **الفكر المعاصر** » وهو عليم بالحركة الفكرية فى العالم العربى جميعا ، لا فى الجمهورية العربية المتحدة فحســـب ، واذا جلست اليه ناقشك فى الحركة الأدبية فى لبنان ومقالات مجلة الآداب والأديب والرسالة ونحوها ، ومؤلفات سهيل ادريس ويوسف نجم وميخائيل نعيمة وجبران خليل جبران ، كما يناقشـــك فى الحركة الفـــكرية فى العراق وأشـــعار البياتى ودراسات جميل سعيد وغيرها ، كما انتقل بك الى الحديث عن الحركة الفكرية فى الكويت ونتـــاج عبد الله البصير وأدباء مجـــلة الكويت والمحافل الأدبية فى الأحمدى والكويت وغيرهما . ثم حدثك عن الأدب فى السعودية حديثا مستفيضا ويذكر لك حمد الجاسر الأديب المبرز فى البحث والتحقيق كما يذكر لك مؤلفاته «**مدينة الرياض عبر التاريخ**» و« **بلاد ينبع** » وبلاد العرب « **للأصفهانى** » كما يذكر لك عبد القدوس الانصارى ودوره فى انشاء مجلة « **المهل** » التى أصدرها منذ ربع قرن ولاتزال حتى الآن تساهم فى تنمية الحركة الفـــكرية فى المملكة العربية السعودية ــ كما يذكر لك كتبه آثار المدينة المنورة واصلاحات فى لغـــة الكتابة والأدب ونحوها ، ويذكر لك **أحمد السباعى** وكتابه عن الأدب فى السعودية حديثا مستفيضا ويذكر تاريخ مكة وقصة فكرة وقال وقلت وغيرها ويذكر لك لقمان يونس وأحمد قنديل وغيرهما من أعلام الفكر السعودى مما قد يغيب انتاجهم عن مخيلة المفكر المصرى الذى يشاركهم فى العروبة والوطن العربى ، حتى اذا ما تعرض الحديث عن انتـــاج الأدباء فى افريقيا ذكر لك **محمـــــود المسعدى** وأعماله الأدبية ألا وهى تلك القصة التى أصدرها منذ سنوات وكتب عنها الدكتور طه حسين دراسة قيمة اعتقد أنه نشرها فى جريدة الجمهورية آنذاك ولعله ضمها الى أحد كتبه الحديثة ، كما ذكر لك « **مولد النسيان** » للأديب نفسه ومدى ما ساهم به المسعدى فى حقل الفكر العربى المتأثر بالثقافة الأوربية الحديثة ، ثم يذكر لك دكتور جرينيـــــوم أديبا آخر يثير الرغبة الى تتبع آثاره الفكرية وهو الأديب التونسى « **البيرت ميمى** » المـــولود عـــام ١٩٢٠ الذى ألف كتابا عن تونس كما تجلت فى كتابات الأدباء الفرنسيين .

والعجيب أن جوستاف جرينيوم يحيط علما بكل هذه الحركة الفكرية فى العالم العربى قاطبة ، حتى انه يحدثك عن أدباء امارات الخليج العربى والأحوال السياسية والثقافية والتعليمية فيهـا حديث الخبير العـالم الذى يثير الدهشة والعجب والاعجاب جميعا •

وهو يرى **أن طه حسين** بلغ القمة فى الناحية الأسلوبية ، حيث يمتاز أسلوبه برنين خاص ، ووقع معين لا تلاحظه فى أساليب الكتاب الآخرين وهو أحيـانا يعمد الى السجع أو التلوين اللفظى ولكن هذا السجع يأتى على غير افتعال أو اصطناع مما يحدث فى النفس أثرا طيبا ، ويمس شغاف القلوب ، وهو يمثل تطور الفكر العربى بعـد لطفى السيد الذى نقل آراء اليونان الى الفـكر العربى الحديث ، وكانت مجلة « الجريدة » لسان حال دعـوته التـحررية الكبرى وتخليص الفكر العربى من الأساليب العتيقة والموانع التى حالت دون تقدمه وانتصاره •

أما توفيق الحكيم فيرى العلامة جوستاف فون جرينيوم أنه يمثل الروح الشرقية الصميمة وقد قرأ له كتاب « عصفور من الشرق » فلمس فيـه تمسكه بروح الشرق التى يرى أنها المصدر الأول للفكر والثقافة والمعرفة ، كما أنها مصدر الاشعاع الفكرى للعالم فى الفنون والآداب ، سواء كانت فنونا جميلة كالموسـيقى والرسم أو فنونا نافعة تطبيقية ، وروح التمسك بالشرق تجلت واضحة فى كتاب الحكيم «عصفور من الشرق» كما أن قصة **«اهل الكهف»** تمثل تجربة فنية رائعة مستمدة من التاريخ ، أما دراساته فى « **التعادلية** » وفن الأدب ونحوها فهى عطاء جديد للفكر العربى، ومسرحيات الحكيم فى نظر المستشرق الكبير « جوستاف فون جرينيوم » تمتاز بالخصوبة والمهارة • وقد نشرت له حديثا مسرحية « **يا طالع الشجرة** » باللغـة الانجليزية وهى محاولة مبتكرة فضلا عن أن كتابه « يوميات نائب فى الأرياف » قد ترجم الى اللغة الانجليزية تحت عنوان « حيرة الـ Maze of Justice أما الكاتب الرائع الذى يعجب به جوستاف فون جرينيوم اعجابا عظيما فهو الأديب **«نجيب محفوظ»** الذى يرى أن قصصه وثائق أدبية رائعة عن الحياة الاجتماعية والفكرية فى مصر فى تلك الحقبـة من التاريخ كما أن ثلاثيته تصور انطلاقات فكرية متنوعة ، وأجيالا متعاقبة متنوعة التفكير متباينـة التصور والشعور •

ثم ترتسم ابتسامة عريضة على وجه جرينيوم ويقول : لا تنس العقاد ؟! فاننى لن أنسى عبقرياته ومدى مساهمتها فى الفكر الاسلامى اننى لم التق بالعقاد فى حياتى مثل ما التقيت بطه حسين غير انى أكن له التقدير كما أكن التقدير للمفـكرة المتـحررة **الأديبة الدكتورة سهير القلماوى** التى أسعدنى أن أعرف انها تشرف على الحركة الفكرية والثقافية فى قطاع كبير من الدولة •

ويأتى البريد الى الدكتـور جرينيـوم فاذا بدعوة من جمعية دراسـات الشرق الأدنى التى تعقد دورتها فى جامعة تورنتو فى كندة فى منتصف هذا الشهر فأسأله عن هذا المؤتمر فيقول انه سوف يتناول القضايا الفكرية والثقافية التى تشـغل العالم وتهم الباحثين فى هذه المنطقة الحساسة من العالم • وسوف يحضره عـدد كبير من العلماء والبـاحثين نذكر منهم وليم شروجر مدير مركز دراسات الشرق الأدنى فى جامعة ميتشجن ودون بيرتز عميد دراسـات الشرق الأدنى والدراسات الافريقية فى جامعة نيويورك والدكتور جون مريام الأستاذ بجامعة بولنج جرين ولاية اهـايو مع زوجته كافلين هوارد كريمة الدكتور ورث هوارد Worth Howard مدير كلية ريكرز Riekers فى ولاية مين Maine ومدير الجامعة الأمريكيـة بالقاهرة سابقا •

ومما يذكر أن الملك فيصل قد منح هـذه الجامعـة عشرة آلاف دولار لانشاء قسم خاص بالدراسات العربية والاسـلامية ، وقد بدأت الدراسة فى كلية ريكرز وأقبل عليهـا عدد من الأمريكيين ، ومن المنتظر أن تتشعب الدراسات العربية والاسلامية فى العام الجامعى المقبل حيث يشرف على هذا المركز الدكتور عبد المنعم شاكر الذى حصل على الدكتوراه فى العام المـاضى من جامعة ميتشجن •

لوس انجلوس

جمال الدين الرمادى

ندوة الفكر
حول كتاب
حقيبة فى يد مسافر

للاستاذ يحيى حقى

شارك فى الندوة

د . حسين فوزى . يحيى حقى . د . فؤاد زكريا

أعدها : ابراهيم الصيرفى

● لا اجتهاد قبل فتح باب الجهاد ، باعتبار أنه الجهاد هو القوة الدافعة ، هو الحركة الديناميكية للدين أو العقيدة التى بمقتضاها وبفضلها تتحرك هذه الأمة . يحيى حقى

ابراهيم الصيرفى : فى بداية الندوة نستمع الى كلمة الاستاذ يحيى حقى عن كتابه .

يحيى حقى : أرجو ، قبل أن أعرض لهذا الكتاب، ان تسمحوا لى أن أدور حوله من الخارج قليلا ، لان لدى بعض الملاحظات التى أوردها لان لها جانبا عاما . الكتاب كما هو بين يدى الآن انما جاء على صورة لم أشأها له فى الأصل ، جاء فى شكل تجريب فى ميدانين : أولهما تجريب فى اللغة . لقد حاول هذا الكتاب دون قصد أو ارادة منى أن يقيم جسرا بين الفصحى والعامية . وواضح منذ البداية انى قد استعملت كلمات عامية مثل كلمة « تستيف » وغيرها . لكنى أريد أن أؤكد اننى حين اكتب لا أحاول ذلك ، واهتمامى الوحيد ان ابين للقارىء وان أقدم له صورة أمينة أحس بها . هذا التجريب لم يأت ، حقيقة ، على سبيل «الفنطظية»، وانما اهدف به الى تحقيق أمل فى نفسى ، هو ان نصل فى هذا العصر الى أسلوب يستحق ان يسمى أسلوب العصر . لاننى أضيق جدا حين نكتب فى عام ١٩٧٠ بنفس اسلوب عام ١٩٣٠ . للعصر مقتضيات ومطالب من حيث الاسلوب . وانا فى شوق ، حقيقة ، الى أن أرى فى كتابتنا دلائل ما يسمى بأسلوب العصر .

وملاحظتى الشخصية التى أريد أن أقولها هى اننى لم أكن لاتصور ان حريتى فى التعبير مقيدة بشىء غريب جدا اسمه المطبعة ، مقيدة بحروف اللينوتيب ، لأن علامة « الشدة » حين توضع فوق الحرف تجعل الكلام واضحا وسهلا وانا حين اكتب اضع فى ذهنى ان اصل الى

● إذا كنت تريد الحرب، فيجب أن تحشد كل طاقاتك للحرب وإذا كنت تريد أن تتجه إلى السلام فيجب أن تتجه كل طاقاتك إلى السلام، ولا عيب علينا إذا كانت تتجه طاقاتنا إلى إحقاق الحق في الأرض المقدسة .

حسين فوزي

القارىء ، وان اصل اليه بوضوح تام • ولذلك حين أكتب فصـــلا بعنوان « **أحب اجدادى الى** » أقول في نفس « **الى** » هذه بدون الشدة تقرأ الى، وبذلك لا يفهم القارىء ، ولهذا أكتب بدلا منها « **عندى** » • الحق انى ضيق الصدر جدا بهـذا الوضع ، واحب ان أقول للدكتور حسين فوزى اننى أحيانا أجد صعوبه كبيرة جدا من مقالاته فى الاهرام لهذا السبب • هذه مشكلة كبيرة ينبغى ان توجه اهتمامنا اليها •

د • **حسين فوزى :** الحروف « مفعصة » !! اختار لنا الاهرام اصـــغر بنط نكتب به • أنا نفسى لا أستطيع أن أقرأها •

يحيى حقى : وكيف تسكتون على ذلك ؟

د **حسين فوزى :** قل انت لهم هذا •

يحيى حقى : هذه ملاحظتى الاولى • الملاحظـــة الثانية هى اقامة جسر بين الكلام فى مقالة أدبية فى صحيفه يومية وبين الكلام فى قالب متصل فى كتاب • المقال فى الصحيفة الأدبيـــة اليوميـــة التى تموت فى نفس اليوم ، يتطلب الاستقلال والانفصال ؛ والفصل فى كتاب يراد له البقاء والاســـتمرار • وهذا الكتاب صادر فى شكل مقالات صدرت فى (جورنال) اسبوعى هو صحيفة التعاون • وانتم حين تتأملون هذا الكتاب تجدونه مقالات متتابعة، ومع ذلك يربطه خيط يصل بالقارىء من فكرة الى فكرة • وانا أحيانا أسأل نفسى : هل هذا يا ترى نوع من الكتابة التى يراد لها البقاء والاستمرار • انيكون الكتاب وســـطا بين المقـــالات الصحفية الادبيـه وبين شكل كتاب تحتاج فصوله الى ترابط وتناسق ؟

ابراهيم الصيرفى : هذا حول الكتاب ••

يحيى حقى : أما عن الكتاب فقد كان اهتمامى ان أقدم للقارىء نصا أدبيا ، يحتـــاج الى العنـــاية بالتعبير وجماله • ومن الفصول التى أحب أن أضرب بها مثلا على ذلك « أحب أجدادى **عندى** » و « **الزير والبرج** » ، فهما من الصـــور الادبية التى كان فى ذهنى أن أكتبها •

أما من حيث المضمون فتلك هى النقطة التى انا مشتاق الى أن أسمع فيها رأى **الدكتور فؤاد زكريا والدكتور حســـين فوزى** • لأن الكتاب ، كما ترون، يحاول أن يجدد الاهتمام بقضية كبيرة جـــدا كانت تشـــغل المثقفين من أيام الجبرتى والأفغـــانى والطهطاوى •• الخ ؛ هى قضـــية اللقاء بين الحضارة الشرقية العربيه الاسلاميـــة والحضـــارة الغربية • هذه الاهتمامات كانت محصورة فى دائرة المثقفين • وقد كان اهتمـــامى فى هذا الكتاب ان أقول ان هذا لا يكفى ، وانما يجب نقل هذه المشكلة الى وجدان الشعب ، يجب ان يحس بها • ولقد عبرت عن هذا فى فصـــل بعنوان « **ترجمة كلام صعب الى كلام ســـهل** » • لاننى أرى اننا لن نتقدم فى هذه لسبيل أبدا الا اذا اعدنا الاهتمام به والا اذا عملنا على نحو ما الى توصيل هذا الكلام لى وجدن لشعب • فلا تصبح المشكلة مشكلة مثقفين فحسب •

والكتاب ، على العموم ، نتيجة رحلة لى الى فرنسا ، وجدت نفسى منساقا الى أن اتامل ما هى الحضارة الاوربية وما هى الأحوال عنـــدنا • ثم بدأت أكتب هذه الفصول المتتابعة ، التى اسميتها فى نهاية الامر « حقيبة فى يد مسافر » •

● لو قارنا بين حياتنا وحياة الغرب لوجدنا أن أهم ما يجب أن نحجزه لكي نلحق بهذا المستوى الرفيع هو مزيد من الاهتمام بالعقل وبالمعقولية سواء في حياتنا الخاصة أو في حياتنا العامة.

فؤاد زكريا

د • **حسين فوزى** : يا استاذ يحيى ماذا تركت لنا من الكلام ؟ هل تركت لنا ما نقوله عن اسلوبك ؟ جديد أم قديم ؟ كان ينبغى أن تترك لنا الفرصة • أما عن العامية فانت تعرف أننا جميعا نشجع هذه الاجيال الطالعه على الشغف بتحرر اللغة • وأنا امتدح لك شجاعتك لأنك دائما كنت متقعرا • وقد دخلت مجال التقعر عندما قابلتك فى باريس ، اذ وجدتك وقد احضرت ميزان الذهب ، واخذت تزن به الكلمات والجمل • وانت الآن قد تحررت وانا أهنئك على هذا •

أما عن حكاية المقالة ؛ فانا أريد ان أقول لك شيئا هو انك اذا كنت أديبا فليس فى الصحافة مكان لك • واذا فرضنا ان الصحافة تحب ان ترقى اليك ، الى مستوى الاديب ، فانها تأتى بك زينة وتضعك على تاجها لتكتب أدبا لا لتكتب صحافة • الصحافه أخبار • والمقالة الصحفية مقالة سياسية • أما عندما ترقى الصحافة فان الصحف تفرد اجزاء منها للادب وللعلوم • فاذا كتبت فصولك كان من اسوأ الامور ان تفكر فى ان تجعلها كتابا • اعرف ادباء يفعلون هذا ، فيكون عملهم كزائدة دودية فى الصحافة • يكتبون الفصل الطويل وفى ذهنهم ، بداية ، ان يكون فصلا فى كتاب • وهذه عدم امانة فى الصحيفة التى يكتب فيها هؤلاء • أنا بالصدفة اقرأ كتابا انجليزيا من كتب المقالات نشرته « بنجوين » فى عدة مجلدات ، حين تقرأها تشعر انها صحافة ، ولكنها صحافة راقية جدا • صحافة أدبية فاذا كانت المقالات التى تكتبها ذات ارتباط معين وترى انت ان تجمعها فى كتاب لان موضوعها واحد، فى الفلكلور أو فى الرحلات مثلا، فهذا شأنك • ولكننى أرى ان تجمع المقالات بعد موت كاتبها •

د • **فؤاد زكريا** : انا أيضا احب ان اتكلم قليلا حول الهامش • فخسارة أن أضيع الفرصة دون أن أبين المزايا العامة للكتاب كما أثارتها فى قراءته • **لقد استمتعت كل الاستمتاع بقراءة هذا الكتاب • وربما كان أكبر مصدر لمتعتى هذه هو شعورى ، الذى اعيه أشد الوعى ، بعجزى التام امام المقدرة الفائقة على الوصف التفصيلى التحليلى العجيب لأدق المواقف•** أنا شخص أعتبر نفسى مغرقا قليلا فى المشاكل الفكرية • ولذلك• حين أقف امام هذا النوع من الكتابة احس فعلا بالتضاؤل أمام هذه المقدرة الفذة على التحليل • لا مجرد وصف المنظر من خارجه وانما النفاذ الى اعماقه• عين لماحة تصل الى درجة الفراسة الغريبة فمثلا منظر الدليل والقطيع من خلفه • يمسك بالواحد اثر الواحد من الماشين خلفه وهو يصحبهم فى مشاهدة المتحف • صحيح ان ذلك من قبيل الخيال • ولكن اى فرد منا شاهد هذا المنظر لابد ان يعترف للأستاذ يحيى حقى بالمقدرة الفائقة على التعمق من وراء مظاهر الناس الى ما يخفونه فى باطنهم أو ما يحاولون اخفاءه •

لهذا السبب اعتبر هذا الكتاب وامثاله لا مجرد كتاب فى الادب أو النقد الأدبى ، بل اعتبره كتابا يحتوى بداخله ثروة كبيرة جدا حتى من المعلومات السيكولوجية • ولذلك أريد أن اضيف جسرا ثالثا الى الجسور التى اقامها استاذنا يحيى حقى ، **هو الجسر ما بين الادب والتحليل النفسى** • وجسرا آخر بين الثقافة البسيطة والثقافة العميقة • واذا سمحتم لى ان اورد جزءا من الكتاب ، سطورا قليلة منه ، وانا كرجل مرت بى مسائل من هذا النوع اقول ان هذه السطور لم يكن من الممكن ان تكتب الا بعد قراءة عشرات الكتب • فى الجزء الذى يتكلم فيه الاستاذ يحيى حقى عن اتهام الغربيين بقصور حضارتنا ، انظر ماذا يقول • انه يتكلم عن العربى ويقول انهم يصفونه بانه رجل مشرد رجاله • فكرة الانتماء الى الوطن معدومة عنده (ص ٧٦

و ٧٧ من الكتاب) ؛ فهل هذا ممكن ؟؟ ثم يقول بعد كلام قليل عن اللغة والعقلية العربية « هي عقلية صف خيام لا اقامة هرم ، ان أى مظهر من مظاهر البحث العلمي ـ حتى فى نحو اللغة العربية ذتها ـ جاء من الاغريق ، التصوف ورد من الهند ، جميع جهابذتها تقريبا لا ينتمون الى الجنس العربى ، حتى فى ميدان اللغة ، ما أضائها من حضارة ، ليس عندها مسرح ، بل حكايات سمر ·· ليس عندها تصوير ، بل زخارف لا تنفك عن التدخل الا لتتداخل من جديد ، ليس عندها نحت ، حتى الشعر ما هو الا فتافيت، ليس للقصيدة وحدة عضوية ، الغزل فى هذا الشعر غارق فى الحسيه · المرأة عنده كتلة من الشحم واللحم ، الخ كل سطر من هذا الجزء حصيلة كتب عديدة · والحق أنى لا استهين بهذا النوع من الكتابة وانما أكن له كل احترام · هو من البداية ، وان اتخذ شكل مقالات ، من البذور التى ترشحه وتؤهله لأن يكون عملا أدبيا وفكريا كبيرا ·

ابراهيم الصيرفى : ربما كانت المقالات التى نناقشها هنا ، اذا كان الأستاذ الدكتور حسين فوزى يعترض على أن يكون فى ذهن الكاتب ، بداية ، ··

د ـ حسين فوزى : أنا لا أقصد الأستاذ يحيى حقى أبدا ·· أنا أقصد شخصا معينا ·

ابراهيم الصيرفى : أريد أن أقول ان المقالات هنا قد استطاعت أن تجمع بين استقلالها كوجبة تقدم فى صحيفة للقارىء العادى ثم استطاعت بعد ذلك أن تجمع فى كتاب لتكوين هذه الوحدة التى تؤلف الكتاب الذى تتكلم عنه الآن سيادتك والدكتور فؤاد ·

يحيى حقى : الحق انى حين بدأت أكتب الكتاب لم تكن لدى فكرة عن كيف يسير قلت فى نفسى فلأكتب عن هذه الرحلة · وقادنى فصل الى أخر · وبعد مدة طويلة وجدت ان هذا الموضوع يمكن أن يخرج للناس فى كتاب· ولذلك أريد أن أقول للدكتور فؤاد والدكتور حسين فوزى اننى كلما تقدمت فى هذا الكتاب ، وجدت نفسى أسير من سهولة الى صعوبة · الشرح والوصف سهل ، وصف الخلاف بين الحضارتين سهل · لكن حين جئت الى باب ·· ما هو الحل ؟ ·· أحسست ، حقيقة ، انى تعبت ، أحسست انى لست على مستوى القمة بحيث أقول لنفسى انى سوف أجد حلا · ولكننى وجدت نفسى منساقا الى أن آتى بحل · فمن أين جئت به ؟ الحل كما قلت ، لا بد أن يأتى من وجدان هذا الشعب · وهنا انتقل ذهنى الى العقيدة · ولهذا لم أتصور الا أن يكون هذا هو الحل :
لا اجتهاد قبل فتح باب الجهاد · باعتبار أن الجهاد هو القوة الدافعة ، هو الحركة الديناميكية للدين والعقيدة التى بمقتضاها وبفضلها تتحرك هذه الأمة ·

هذه هى النقطة التى أحب أن أعرف : هل أخطأت فيها ، أم كنت فيها على صواب ؟ هذا الكلام قد يغضب أناسا لا يحبون الحديث فى العقيدة · أعترف لكم أن هذا الحل ، ولو انه يرضينى ، انما وصلت اليه بصعوبة بعد أن ساقتنى الفصول السابقة عليه قليلا قليلا الى هذا الركن الذى لم أجد سواه · فهل هناك ركن سواه ؟

د· فؤاد زكريا : هناك خوف من أن يكون فى هذا الحل ما يسمى بالحلقة المفرغة · أى أن الحل لا يكون الا بالجهاد، ومن ثم الاجتهاد ولكن الجهاد لا يمكن أن يكون سليما الا اذا وصلت الى الحل · هذه مسألة يخيل الى أن فى الجانب الايجابى فيها شىء من الدور كما يقولون فى المنطق ·

يحيى حقى : ولكن يا دكتور فوزى هذه هى المشكلة الحيوية التى واجهها الجبرتى وغيره ·

د ـ حسين فوزى : لا تهرب · لاننى سأرد عليك فى هذه النقطة · أعطونى أولا فرصة أتكلم فيها عن خير الكتاب · أنتم تريدون أن تبدأوا النقطة التى اعتزمت ان أهاجمه فيها ·

يحيى حقى : أريد أن أسألك أولا ·· هل يرضيك أن نتناسى هذه القضية الحيوية أم يجب ان تثار ؟

د ـ حسين فوزى : تقول انك وصلت الى حل · لقد بدأتم بآخر الكتاب مع الأسف · فلنترك كل الكلام عن هذا متى يأتى دوره · هذا الحل ينطبق عليه بيت الشعر الذى يقول :
وداونى بالتى كانت هى الداء

نحن فى عام ١٩٧٠ كما يقول الأستاذ يحيى حقى . وفى عام ١٩٧٠ لا تكون الحلول بالطريقة التى يقترحها ، اذا كان كل كتابه دفاعا عن الحضارة ودفاعا مجيدا ، ولا تنسوا أن يحيى حقى رجل دبلوماسى ، ودبلوماسى من أرق الدبلوماسيين ، ومن أرق الناس أخلاقا . ومع ذلك استطاع بشجاعة نادرة لا نجدها فى أى كتاب سابق له . استطاع أن يتكلم .. **فضحنا وكشف عيوبنا** .. كشفها فى مواجهة الغرب المتحضر . قالها بكل صراحة .

لقد سعدت بهذا الكتاب . جلست اليه جلسة لم أحبب أن أقطعها قبل اتمامه ، وانا من أسعد الناس به . وبعد أن انتهيت من قراءته اتصلت تليفونيا بيحيى حقى لأقول له ان هذا الكتاب عظيم جدا ، وكم أود أن يقرأه كل قارىء . ويحيى حقى محق اذ يكتب تلك اللغة الجميلة البسيطة ، وهذا أسلوبه عامة . وهو أسلوب ضرورى جدا فى هذه القضية . أضف الى ذلك سمعتك الطيبة واسمك ودبلوماسيتك . الكتاب من أعظم كتب يحيى حقى . **وأنا أصلا لا أحترم القصص كثيرا** . أحترم الكاتب حين يكون مفكرا . كاتب القصة صديق ، لكنه لا يرتفع فى ذهنى الى أن يكون من كبار العباقرة . عندى أن كتاب يحيى حقى كتاب يساوى أثقالا من الذهب وأحمالا من القيم الانسانية الكبرى . هذا ما أريد أن أقوله عن الكتاب ، ولأرجىء حسابه حتى يحين وقت ذلك .

ابراهيم الصيرفى : ذكر الأستاذ يحيى حقى أن عملية الوصف والمقارنة بين حضارتين مسألة لا تتطلب الا جهدا يسيرا . ويخيل الى أن هذا النتاج ليس وليد جهد يسير أبدا .. فما رأى الدكتور فؤاد زكريا فى هذه الملاحظة ؟

د . **فؤاد زكريا** : أرى أن أقيم ما فى الكتاب هو هذا . أنا مع الدكتور حسين فوزى فى أن الحل الايجابى حل سأختلف فيه مع الأستاذ يحى حقى . لعل الجزء النقدى الذى **يشمل معظم فصول الكتاب هو فى نظرى أقيم ما فى الكتاب ، لأنه جزء نقدى نابع من القلب حقيقة** . فيه عنصر الاخلاص الذى تكلم عنه الدكتور حسين فوزى ، وفيه بالاضافة الى ذلك عنصر قد نحس به من بين سطور الكتاب ، هو عنصر المرارة الناجمة عن الظروف الخاصه ، الفترة الزمنية الخاصة التى يكتب فيها مثل هذا الكتاب . حين يسافر أحد المصريين أو العرب إلى الغرب فى هذه الفترة التى نعانى فيها من الشعور بالرغبة فى التغلب على الهزيمة التى وقعنا فيها . هذا العنصر موجود ولكن الانسان يحس أنه مخيم على جو الكتاب باستمرار . المشكلة التى عالجها الكتاب هى ماذا جعل الغرب يصبح على ما هو عليه ؟ ؟ **يحيى حقى** : أوكيف ندركه .

د. **فؤاد زكريا** : لهذا السبب أقول . كيف نصبح كالغرب ؟ هذا فى الحقيقة سؤال ثانوى . أولا ، كيف نفهم لماذا أصبح الغرب على هذا النحو . فاذا فهمنا هذا واستقر فى أذهاننا ربما جاء الحل الايجابى تلقائيا . **المشكلة اننا لا نفهم هذه المسألة ، بدليل اننا نتصور ان حضارة الغرب هذه حضارة متخلفة عن حضارتنا نوعيا وكيفيا . وهذا فى نظرى تزييف كبير** . ربما كان فى الحضارة الغربية اختلاف نوعى ، ولكن هذا الاختلاف جانبى . أهم ما فى الأمر أن فى هذه الحضارة جانبا عالميا هو الطاغى فيها . وربما كانت الجوانب التى يختص بها الغرب نفسه ليست أهم جوانب هذه الحضارة . فما الذى يمثله هذا الجانب العالمى ؟ يمثل ما سيصير اليه الانسان عندما يتقدم ، أى انسان لا الانسان الغربى بالذات . نحن ، للأسف الشديد نخلط .

ابراهيم الصيرفى : هذا فى مجالات الحضارة المختلفة من الناحية العلمية والعملية والفكرية .

د . **فؤاد زكريا** : فى كل مجالات الحضارة .

ابراهيم الصيرفى : هذا يعنى أن الأدب الرفيع للعالم كله ، لا نقول هذا للغرب . الموسيقى الرفيعة للعالم كله وليست للغرب فقط . وهكذا حتى فى مجال العلم أيضا .

د . **فؤاد زكريا** : هذا أوضح فى مجال العلم والتكنولوجيا . هى حضارة الانسان المتقدم ببساطة ، هى حضارة الانسان عندما يبلغ مرحلة معينة من التقدم . وهنا لا نقول انها نوع ونحن نوع ، لاننا لو قلنا هذا لظللنا طوال عمرنا نقول ان لنا مزايانا ولهم مزاياهم . لنا مزايانا ، كما أن حضارتهم فى بعض جوانبها تصطبغ بالطابع المحلى . لكن الاهم من الكتاب ينبهنا الى هذه الحقيقة وبوضوح . وهذا هو الجانب الممتع فيه .

يحيى حقى : كان غرضى ، عندما تقدمت قليلا فى الكتاب توضيح الرؤية • اعنى كانت لدينا افكار خاطئة عن الحضـــارة العربية أحببت أن أزيلها ، كذلك كانت لدى الحضارة الغربية افكار خاطئة عن الحضارة العربية أحببت أن افسرها وان اقول لاصحابها لا ••• ليس الأمر هكذا ، ولسنا كما ترونها • نحن كذا وكذا • هذا ما اقوله لهم • واقول لاهلى ولأهل بلدى : هؤلاء النـــاس ليســـوا كما تظنونهم • وكنت بذلك اهدف الى اقامة جسر كما يقول الدكتور فؤاد زكريا •

كيف نصل الا اذا فهم كل منا الآخر حق الفهم حاولت ان ابدد ما لديهم من أفكار خاطئة عنا وان ابدد ما لدينا من أفكار خاطئة عنهم •

ابراهيم الصيرفى : كان نفس تاريخ التقائنـــا بالحضارة الغربية هو نفس تاريخ التقاء اليابان بتلك الحضـــارة ••• وها نحن نرى الفرق •

د • حسين فوزى : هـذا بسـبب الحلول التى يقدمها يحيى حقى ! هذا هو السبب !!

د • فؤاد زكريا : اخذت اليابان الجانب العام من الحضارة الغربية ، الذى تحدثت عنه •

د • حسين فوزى : منذ مائة سنة دخلت اليابان الحضارة الغربية ، ونحن دخلناها منذ أكثر من مائة سنة • ومع ذلك اصبحت اليابان اليـــوم من أكبر الدول فى العالم • هزمت فى الحرب اسوأ هزيمة ، ومع ذلك خرجت قوية تبنى نفسها ، لان فيها الحضارة بلا رجعة • أما عندنا فان حبالا من مســد أو من حديد أو من صلب ، لا أدرى ، تشدنا الى الماضى دائما • ولذلك نجد عندنا طبعا عجيبا ، هو اننا نتحرك خطوة الى الامام وثلاث خطوات الى الوراء •

آسف ان اسالكم : عن أى شيء تتكلمون ؟ لقد كنا نحيا وسط أوربا لقد ربى جيلنا على أن يتجه الى أوربا ، وان يكون مثل أوربا • وكنا فى هذا الطريق •• وتقولون اليوم أننا متخلفون ؟ ما حدث هو انعزالنا عن أوربا • وعندما انعزلت هذه الأجيال عن أوربا بدأ التقهقر العقلى • هذه هى المسألة وكنا دائما على اتصـــال بأوربا • الاستاذ يحيى حقى يقول فى كتابه ان الاجريجى حين يفتح مخبزا تجده نظيفـــا يرتدى البالطو الابيض ، وترى كل محله نظيفـــا ، بالكروم ، بالنيكل ، لان الاسكندرية أقرب الى الحضـــارة منا •

كنا كطلبة أو كموظفين أو رجال اختصاص، المهندس أو الطبيب الذى لم تتح له بعثة الى أوربا، كان الواحد منا يدخر بعض المال ويذهب الى أوربا • الاطباء يذهبون الى المســتشفيات هناك المهندسون يشاهدون المشروعات • بهـذا نعيش وسط أوربا ، كنا نتقدم • هذا كل ما أريد أن أقوله •

الاستاذ يحيى حقى يبحث عن السبب وراء تخلفنا ••• لا تخلف • وقد قال الدكتور فؤاد زكريا قولا عظيما جدا ، قال ان للعيوب عنـــدنا ما يقابلها فى أوربا ، ولو اردنا ان نجد فى أوربا من العيوب التى خلعها الاســـتاذ يحيى حقى على شعبنا لأتينا بالكثير عن أوربا• لقد جاء بالفضائل التى تبدو عندنا تخلفية• لكن اذا رأيت تحركاتنا، حقيقة ، تجد اننا فى طريق التقدم • فما الذى حدث ؟ حدث نوع من التخلف لأسباب خارجـة عن نطاقنا • جاءت الحرب العالمية • وبعد الحرب العالمية لا تنسوا مأساة فلســـطين ، لأنها خلفت مشكلا عجيبا جدا • **انت اليوم فى موقف • اذا كنت تريد الحرب فيجب ان تحشد كل طاقاتك للحرب • واذا كنت تريد ان تتجه الى الســـلام فيجب ان تتجه كل طاقاتك الى السلام • ولا عيب علينا ابدا اذا كانت طاقاتنا تتجه الى احقاق الحق فى الارض المقدسة •**

ابراهيم الصيرفى : نحن نريد لهـذه الطاقات ان تتجه ووراءها هذا الثقل الحضارى وهذا الوعى وتلك الرؤية الواضحة التى نتكلم فيها الآن • يعنى اننى أرى ان النـــدوة يمكن ، فى مناقشتنـــا لهذا الكتاب ، أن تعطينـــا ارضية وجودنا ، لآن الكتاب يمســـك بجوهر المشكلة •

د • حسين فوزى : جوهر المشكلة ان يحيى حقى، وهذا ما أريد ان ارد عليه فيه ، يعتبر الحضـــارة الغربية ليست حضارتنا • يقول فى ص ٧٣ : (اما نحن فاذا ذهبنا الى روما أو أثينا ففى جعبتنا تراث عريق ، اصيل ، متميز ، له تعاليمه الخاصة به ، يكفينا اعتزازا ان بلادنا هى مهبط الاديان السماوية ،) أى ان كل ما وجده حضرته اننا مهبط الأديان السماوية

من مسيحية ويهودية واسلامية ، ونسى ان مصر هى ، عند كل أوربى وكل أمريكى ، مهبط الحضارات • مصر مهبط الحضارات وكل أوربى يعترف بذلك • ما هى حضارة اليوم ؟ انا ضالع فى هذه الحضارة ثلاث مرات فى تاريخى • **المرة الاولى** هى الحضـــــارة المصرية القديمة ، وقد اعترفت اليونان بانها من أصول حضارتها • **المرة الثانية** فى مصر المسيحية• والمســــيحية فى أوربا تعترف بما كان للرهبنة المصرية فى العصر المسيحى من أثر عظيم جدا فى الدين المسيحى • وربما لايعرف ذلك المســـــيحيون فى مصر • **والمرة ثالثة** نحن ضالعون فى هذه الحضـــارة عندما دخل الاسلام مصر ، واصبحت مصر فى العالم الاسلامى قطبا من اقطابه • فما ينســـــبونه الى الحضارة العربية وما ادته لعهد الاحياء فى أوربا، ••• ارجوكم الا تنسوا مصر ، لان مصر جزء من هذا العالم العربى الذى اضاف واحتفظ بعلوم اليونان •

الاستاذ يحيى حقى ينسب الى الاوربيين ان الذين صنعوا الحضارة العربية ليسوا عربا ، مع ان هذا صحيح •• الذين صنعوها هم المسلمون• ولذلك اذا قلت حضارة اسلامية كنت محقا ، لان الرجل الذى عمل لك الاجرومية وأدب اللغة أما فارسى أو رومى أو تركى • فى عيد ابن ســـينا اختلفت ثلاث دول • العرب والفرس والاتراك كل منها يدعيه لنفسه ، وبذلك تحقق فى عظمة ابن سينا ما قيل عن هوميروس من ان سبعة مدن اختلفت وادعت نسبته اليها ، وانه ولد فيها • هذا ما أريد ان أقوله • حضارة أوربا انا ضالع فيها أكثر من الاسكندنافى • اذا كان الاسكندنافى صنع فيها شيئا فى القرنين الاخيرين ، فانا منذ أول التاريخ • هذه الحضارة التى تقول عنهـــا انها الحضارة الغربية ، هى حضارتى أكثر منها حضارة أى انسان • هذه هى المسألة •

الاستاذ يحيى حقى يقول : « **فهؤلاء العرب القادمون من الشمال** » الى آخر تلك الفقرة بصفحة ٧٣ • ثم يتهم شخصا ينفعل بالحضارة اليونانية انه لا يمكن الا ان يكون دعيا • بأى حق يا سيدى تقول هذا ؟ كيف تقول ان انسانا ينفعل بالبانثيون وينفعل بمايكل انجلو دعى وانت الرجـل الذى قابلته فى روما ورأيته يسجد ويركع أمام تلك الفنون • هذه حضارتى ، كالحضارة المصرية ، كالحضارة الاسلامية • ميزة حضارة اليوم انهـا اخذت كل الحضـــارات وانها تتحرك أمـام كل الحضارات ، وانها تعترف بانهـــا تأخذ من كل الحضــــارات ، وتعترف بانهـــا جاءت من كل الحضــــارات • تعترف للاسلام وتعترف للعرب وللمصريين وتعترف للمسيحية ، وقد خرجت من ارضنا • تقول انى ناتجة من كل هذا : من العهد القديم من الانجيل والتوراة ، من الاسلام ، ومن اليونان •

ابراهيم الصيرفى : واضح ان سيادتك متفق تماما مع الدكتور فؤاد زكريا فى هذه الاتجاه •

يحيى حقى : الحق اننى فى هذا الفصل ، بالذات الذى اشار اليه الدكتور حسين فوزى كنت شاهد صدق • نقلت فى الكتاب ما احسسته فى نفسى وما رأيته فى غيرى من المصريين • عندما كنت فى روما ــ كما يقول فوزى ــ كان يأتينى كثير من المصريين من اصـــدقائى ، فكنت اصحبهم الى كنيسة سان بيتر ، القديس بطرس ، وأريهم آثار روما القديمة • لم احس لدى أى واحد منهم أية هزة روحية ، وانه انتقل من الظـلام الى النور • لكننى عندما قرأت ما قاله جــوتة عن كيف كان الانتقال عبر الالب من بلاد الضباب الى بلاد النور، اكبر حدث فى حياته ، وعن المصورين الفرنسيين والهولنديين الذين يجرون من بلادهم الى الشمس •• انا طبعا شهدت للقارىء انه لا توجد هزة روحية للقادمين من الجنوب ، من بـــلاد الشرق الى رومـا ، كالهزة الروحية التى تصيب القادمين من بلاد الشمال • **هذه شهادة صدق •**

د • فؤاد زكريا : ربما نكون قد ابتعدنا قليلا عن روح الكتاب وعن هدفه اذا اختلفنـــا كثيرا فى مسألة الأصول • الكلام عن الاصـــول كلام يمكن أن يأخذ منا ســـاعات طوال • ولكن المشكلة التى يتصدى لها الكتاب ويعالجها، والتى كانت تقلق مؤلف الكتاب ، ونحس فى كل سطوره انه بالفعل مهموم بها هى الوقت الحاضر، أى ما فات فات ، فما الذى نفعله الآن •

يحيى حقى : بالضبط ••• بالضبط •

د فؤاد زكريا : تلك هى المشكلة العاجلة • لو سألنا الســؤال : فيم تختلف الآن مهما كانت مسألة الاصول ؛ فيم نختلف الآن عن الغربيين ؟ الحق ان هناك كلمة لم تأت فى الكتاب،

وان كان الكتاب يشير اليها من قريب ومن بعيد ، **تلك الكلمة هي العقلانية** • انا أرى ان ما يلخص حضارة الغرب ، كما وردت في هذا الكتاب ، هو صفة العقلانية • ولو اخذنا هذه الصفة كمحور لوجدنا ان جميع الملاحظات الدقيقة الجميلة التي وردت في هذا الكتاب انما تدخل في اطار كلمة العقلانية • انهم مثلا قوم لا يبددون الوقت ، كما هو الحال عندنا ، لكل دقيقة عندهم حساب ، ولها قيمتها ، وكذلك نلاحظ عندهم عدم الخلط بين العلاقات الشخصية والعلاقات اللاشخصية • وكذلك تجرد الغربي من الانفعالات الحادة المفرطة •• لا ينفعلون اكثر من اللازم ، ولا يهدأون ، ان انفعلوا ، سريعا •

يحيى حقي : كما قلت في فصل « **الاشتعال والانطفاء** » •

د • فؤاد زكريا : فصل جميل للغاية ، ويدخل في نظري تحت باب العقلانية • كذلك التقدم التكنولوجي • عندهم النظام والدقة • كل شيء يأتي في وقته ، لا تبديد للطاقات ، سواء كانت طاقات الآلات أو طاقات البشر • لا تجد موظفا يقرأ « الجرنال » ويشرب القهوة ويستقبل زواره طول النهار • ليس عندهم شيء من هذا • كل ذلك يدخل في نظري في باب العقلانية • لدرجة ان الكلمة المستخدمة في مجال الاقتصاد و «ترشيد الانتاج وتنظيمه » وهي كلمة Rationalization في الانجليزية هي اصلا مشتقة من كلمة Ratio اللاتينية وتعني العقل ، أي تنظيم العقل والافادة منه الى أقصى حد ، وعدم تبديد أي طاقة • الكلمة مستمدة من العقل •

لو قارنا بين حياتنا وحياة الغرب في هذا لوجدنا ان اهم ما يجب ان ننجزه لكي نلحق بهذا المستوى الرفيع هو مزيد من الاهتمام بالعقل وبالمعقولية سواء في حياتنا الخاصة أو في حياتنا العامة •

ابراهيم الصيرفي : بطريقة نظرية ؟؟

د • فؤاد زكريا : اضرب مثلا •• يخيل الى ان الفنون في الغرب قد تاثرت بهذه العقلانية ؛ أنا مثلا عندما أرى الفرقة الموسيقية ، الدقة الكاملة التي تؤدي بها هذه الفرقة « الاسكور » الذي تعزفه ، حركة الكمنجات المنظمة ، الاقواس في صعودها وهبوطها •• الهمس الخافت ثم الصخب العالي • كل هذا ليس الا عملية ترشيد كالتي تراها في المصنع في سيره المنتظم ، ومع ذلك فانها لا تتعارض مع الحساسية ولا مع الذوق ولا مع الجمال ، بل لقد زادته • هذا ما يميز الغرب عنا •

ابراهيم الصيرفي : كنت أريد ان أقول لسيادتك ما السبيل الى هذه الترشيدات وهذه العقلانية ؟ ما السبيل الى اكتسابها كحل من الحلول التي تتلمس ؟ هل تأتي بمزيد من الدراسة ؟ أم من الدراسة مقترنة بالعمل أيضا ومنعكسة عليه في حياتنا ؟

يحيى حقي : هذا أهم سؤال حقيقة ••

د • حسين فوزي : تحبوا أجاوب عليه ؟

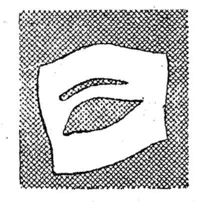
الجميع : اتفضل يا دكتور فوزي ••

د • حسين فوزي : انا اصلي ••• يحيى لا يعرف انى باحث عن تلك الحضارة طول عمري ، والى الآن ، ودائما يستمر هذا البحث • اريد أن أقول لك انه ما زالت عندنا فكرة هي ان الذي يخلق الحضارة شخص واحد عبقري • كيف تتقدم أوربا ؟ هذه هي المانيا مهدمة بعد الحرب • كل بلد أوربي يحيا مع البلاد الاوربية الاخرى • الاتصال كامل • ما على الفرد الا ان يجهز عربته لينتقل في أوربا من بلد لآخر ، من اقصى أوربا الى اقصاها • النابغة العبقري يكتشف اكتشافا فيقوم احد المصانع بتطبيقه في بلد ما ، فاذا هو مطبق في الناحية الاخرى من أوربا ، وبطريقة أفضل •

د • فؤاد زكريا : الا نجد في الحضارة الاوربية جوانب سلبية أيضا ؟ صحيح لا ينبغي أن نخلط بين الجانب الشخصي والجانب اللاشخصي • لكن عندنا الجانب الانساني • يقع احد الناس على الارض فيتجمع حوله ثلاثون شخصا • اما هناك فلا أحد •• حتى يأتي الاسعاف وكذلك الجارة عندما يمكن ان تعني بابن الجيران •

د • حسين فوزي : هؤلاء الناس الذين يلتفون حومه عندنا يخنقونه • في البلد المتحضر يحمل الشرطي تليفونا لاسلكيا في جيبه « يتصل » فيأتي الاسعاف •

د • **فؤاد زكريا :** والله رايتهم يهملونه • عندنا جوانب انسانية ••
ابراهيم الصيرفى : اذا سمحت لى •• هل هذه الجوانب وليدة اختلاف خلقى نوعى ابدى فى الانسان عندنا • أم اننا حين نتحضر •• د • **فؤاد زكريا :** هذا ما كنت سأقوله بالضبط• كنت أريد أن أقول : أليس من الجائز انقوة هذه الروابط عندنا نتيجة بقايا روابط مجتمع ريفى ؟
د • **حسين فوزى :** فى القرى الاوربية نجد ما قد يتفق مع روحنا •• الانسانيه كما يقول الدكتور فؤاد زكريا ان أزورك فتقدم لى فنجالا من القهوة واعطلك عن عملك • **هذه انسانية** • جاءنى ذات مرة صديق من لندرة وانا فى تولوز وحكى لى كيف انفق فى بنك تولوز وقتا طويلا كى يصرف نقوده • وقال لى لو ان الامور تجرى على هذا النحو فى لندرة لتعطلت وتوقفت كل حركة فيها • وعلى فكرة يا استاذ يحيى •• **مصطفى** كامل تخرج فى جامعة تولوز وليس فى جامعة مونبيلية •
يحيى حقى : نعم ••
د • **حسين فوزى :** وانا افخر انى كنت فى جامعة تولوز • وكثير من زملائه يذكرونه بالخير •
ابراهيم الصيرفى : لا شك ان هناك فرقا بين المدينة والقريه فى كل بلاد الدنيا •
د • فؤاد زكريا : الحق انى لم اقل ما قلته على انه ميزة • انما اخشى ان اقول ان هذه الانسانية عندنا وليدة نوع من التخلف •
يحى حقى : السؤال الاخير : هذهالهموم المحصورة فى هذه الندوة أو فى طبقات المثقفين •• كيف ننقلها الى وجدان الشعب ؟
ابراهيم الصيرفى : هذا هو السؤال !!
يحيى حقى : ماذا نفعل ؟ قلت نعمل ندوة فى الحى الذى يقع فيه الفرن ونجمع سكان الحى ونجلس معهم ، نقول لهم انتم ابناء الحى وتلك ظروفه • فماذا نفعل ؟
د • **حسين فوزى :** نغير طقم وزارة التربية والتعليم كلية • لان المدرس فى المدرسة الابتدائية ليس عنده الا الخطة والا الكتاب يدرسه، ولكنه لا يقول للتلميذ الزم شارات المرور فى عبورك الشارع • التربية مفتقدة • لا بد من تربية الاولاد فى المدارس • ليست المدرسة عملية برامج وتحفيظ ، المدرسة الى ذلك وفوق ذلك سلوك • لا انس وأنا فى المدرسة الابتدائية انى ذهبت ذات يوم بارد فى الشتاء وكنت ارتدى بالطو ، فخلعوه عنى وقالوا لى : ياولد اتلبس بالطو فى هذه السن ؟ فماذا تفعل حين تغدو شيخا ؟ ودخلت ارتعد من البرد •• ووقفت فى الطابور• هذه تربية لا أنساها وقد وجدت من عائلتى من يربينى نفس التربيه • ووجدت فيها شيئا من الاسبرطية فى تربيتى • المدرسة تخلق الشخص •
يحيى حقى : ووسائل الاعلام ؟
د • **فؤاد زكريا :** لها هى الاخرى ولا شك دورها فى التربية • واضح ان اجهزة الاعلام تشجع قيم التكامل والاهمال والبلطجة •• الخ • يجب ان يراعى اختيار ما يعرض على الناس بكل دقة ، من تمثيليات وأفلام •• الخ •
يحيى حقى : لا تزال المهمة موكولة الى المثقفين • لا بد من الحاحهم على هذه القضية حتى تتبلور وتاخذ مكانها ••
ابراهيم الصيرفى : والله انى لاتمنى ان يقوم المهتمون بهذه القضية بحملة اعلانات كحملة سافو ، يشغلون بها الرأى العام بطريقة مقصودة ومعينة فى سبيل بلدنا •
د • **حسين فوزى :** يا سيدى الاوربى المتحضر تربى فى بيته ومدرسته على الحياة • يعلمونهم فى المدارس الابتدائية حركة المرور فى الشوارع •
د • **فؤاد زكريا :** ولا تنس ان هذا الكتاب جهد فردى ، ولا يمكن ان يأتى الحل على يداى فرد • الفرد يتكلم بضميره واحلامه مثل الاستاذ يحيى حقى • لكن الحل انما يأتى على يد شعب كامل • وما لم يعمل الشعب ، ويبذل مزيدا من الجهد والعمل ، فلا أمل •
د • **حسين فوزى :** فى النهاية •• الاستاذ يحيى حقى صديقى وأنا استعمل صداقتى فى حرية النقد • لكننى احب ان اؤكد ان هذا الكتاب عبارة عن حجر هام جدا فى طريق الاصلاح



مجلة

الفكر المعاصر

فهرس

مارس ١٩٦٩ ـ فبراير ١٩٧٠

فهرس الكتاب





ح

ش

ص

ع

ف

فهرس المقالات

المقال	الكاتب	العدد	الصفحة



م

لوحتا الغلاف :

للفنان التشكيلى المعاصر بول كلى (١٨٧٩ ـ ١٩٤٠) الذي يعد واحدا من رواد الفن التعبيرى الألماني ، وواحدا من طليعة رواد الفن التشكيلى الحديث ، ولقد ولد بالقرب من مدينة برن بسويسرا ، ولكنه نشأ نشأة المانية خالصة . تتميز اعماله بروعة اللون وبراعة التكوين ، وقد عثر على لغته التشكيلية الخاصة مبكرا ، ولكنه عثر على رموزه الفكرية مؤخرا .. عندما لجأ الى الأسهم واستخدمها رموزا تشير الى عالم الانسان .. النفسي والاجتماعى والميتافيزيقي . ويعد كلى الفنان التشكيلى الكبير الذى ظل ينافس بيكاسو طويلا على زعامة الفن الحديث ، حتى اضطره الموت الى التخلى عن تلك المنافسة لزميله الفنان العظيم .

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٤٠/١٩٧٠

الفكر المعاصر

● الاشتراك السنوى عن ١٢ عددًا ١٠٠ قرش فى الجمهورية العربية المتحدة و١٥٠ قرشا فى البلاد العربية و٢٠٠ قرش فى الخارج ● الاشتراك عن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٠ قرشا فى الجمهورية العربية المتحدة و٨٠ قرشا فى البلاد العربية و١٢٥ قرشا فى الخارج ● ترسل الاشتراكات باسم قسم الاشتراكات المجلات الثقافية ٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة ● الإعلانات يتفق عليها مع قسم الإعلانات المجلات الثقافية ٥ شارع ٢٦ يوليو القاهرة .

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي

. الثمن ١٠ قروش

